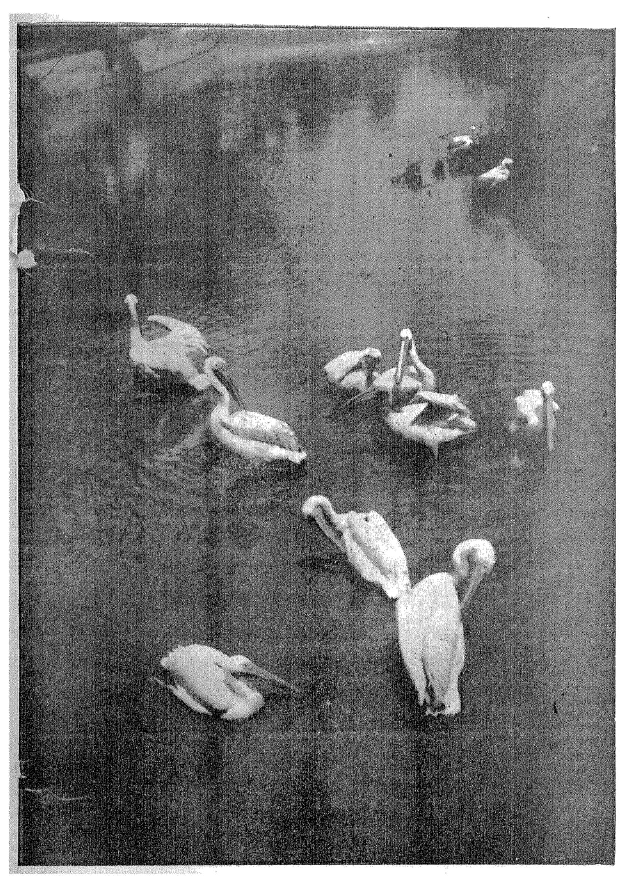




مشهد بديع في حديقة الحيوانات بالجيزة

تمثل طائر السقّاء او بجع مصر

[تصوير الدكتور حسن كمال]

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الاول من المجلد السابع والثمانين

١ يونيو سنة ١٩٣٥ — ٢٩ صفر سنة ١٣٥٤

اثبات الابوّة

العلم يكاد يحل مشكلة قديمة

كواشف الدم الحديثة ومغزاها

اعترف المشترعون من قديم الزمان بالصعاب التي تحول دون اثبات الابوّة . فجاء في القانون الروماني ان « ان الوالد مشكوك فيهِ دائماً » Pater semper incertus وورد في التلمود انهُ لا يجوز بايّ حال لرجل ما ان يقسم بانهُ والد طفل معيَّن ، وان المرأة فقط لها ان تقسم فتقول « هذا ولدي »

من اقدم الوسائل المستعملة لاثبات الابوّة — ومحاكم بعض الامم لا تزال تعتمد عليها الى يومنا هذا — وسيلة اثبات التشابه بين الوالد وولدهِ . وفي اكثر الاحيان يعتمد على التشابه العام في الهيئة والقامة ، ولكن في بعض الحوادث ينظر في تفصيلات هذا التشابه في جميع الملامح . وقد اشار شكسبير في فقرة له اوردها في رواية « حكاية الشتاء » اذ قال « ... نسخة من الأب ، العين والانف والشفة ، لفتة العبوس ، والجبهة ، بل منخفض الذقن والوجنتين ، بسماته وقالب يده وظفره واصبعهِ .... »

في هذه الفقرة وما تقدمها وما تلاها من عبارة شكسبير حاولت بَوْلينا ان تقنع ليونتيسْ ان زوجة هرميونِز كانت امينة على عهده وان الولد الذي رزقت بهِ انما كان ولدهُ ، وهي تشبه ما تنطوي عليهِ مرافعات بعض المحامين في قضايا من هذا القبيل في عصرنا هذا

ويجدر بنا في هذا الصدد ان نذكر ان قضية نظرت في مقاطعة فاييت في ولاية بنسلفانيا الاميركية سنة ١٩٣١ ادّعي فيها ان رجلاً ايطاليًّا كان والداً غير شرعي لولد امرأةٍ بيضاء ، فلما استعملت كواشف الدم الحديثة ، قطع الدكتور هيز Heise بان ذلك الرجل لا يمكن ان يكون والد الطفل .

ولكن لما كان المحلّفون قد اقتنعوا بما جاء في مرافعة المدعي العام وهو ان الطفل يشبه الرجل المدّعى عليه في ملامحه ، ادانوا الرجل غير ملتفتين لشهادة الطبيب

من المعروف ان الاقارب يتشابهون في بعض الملامح ، ولكن ليس من المستغرب ان يتبيّن الناس شبهاً ما بين اثنين لا تربطهما صلة دم . ثم انهُ لما كانت الملامح متغيرة ابداً، وخاصة في دور الانتقال من الطفولة الى البلوغ ، فمحاولة الحكم استناداً الى التشابه او عدم التشابه امر لا يصحُّ الاعتماد عليه . لذلك لا تسلّم القوانين في بعض الولايات — كولاية نيويورك الاميركية — بعرض الطفل على المحلّفين بقصد اثبات الابوّة او نفيها . وفي رواية « حكاية الشتاء » التي اشرنا اليها في الفقرة السابقة، لم يقتنع ليونتس بخطبة بولينا وما جاء فيها من الادلة على ان ولد هرميونز هو ولده . ومع ذلك نرى محلفين في مطلع العقد الرابع من القرن العشرين يقتنعون بادلة من هذا القبيل — كما حدث في قضية الايطالي المذكورة سابقاً — ولكن القاضي لحسن الحظ كان رجلاً حكيماً ، فلما رأى الحكم مناقضاً للادلة ، اعلن ان المحاكمة لم تستوف جميع الشروط . وكان من شأن الزوجة المدعية على الايطالي، انها لم تطلب محاكمة اخرى، ثم لم تنقض مدة طويلة، حتى اخذت ملامح الطفل في التحوُّل. ويبدو عليه الآن ، وقد انقضت ثلاث سنوات ، ان ملامحهُ قريبة كلّ القرب من ملامح الزنوج

وعلى كل حال من الخير، ان محاكم اليوم في بعض البلدان ، لا تعتمد على هذا النوع من التدليل الى المدى الذي كانت تعتمد عليه المحاكم في العصور القديمة . فقد روى المؤرخ استرابون ان الاطفال كانوا اذا بلغوا الشهر الثاني من العمر ، يعرضون على لجنة خاصة للفحص فكانوا اذا لم يبد على ملامحهم شبه كبير بملامح والديهم ، يعدمون

فليس من الغريب ان يعمد الناس في مختلف العصور الى ابتداع وسائل اخرى لاثبات الابوّة وقد كان الاقدمون يسندون الى الدم قوى خفية ، ولا يزال اثر هذه المعتقدات ماثلاً في لغاتنا في هذا العصر. ففي اللغة الانكليزية عبارة مشهورة مؤداها الدم يكشف الحقيقة blood will tell وغيرها كثير . وللدلالة على هذه المعتقدات نذكر الوسائل التالية لتبيّن صلة الدم بين فردين او اكثر من الناس منتزعة من كتب صينية ويابانية يرتدُّ عهدها الى القرن الثالث عشر

تؤخذ قطرة من دم كل من الشخصين اللذين يُظَنّ ان بينهما صلة قرابة وثيقة ، بوخز اصبع كل منهما ، ثم توضعان في اناءٍ فيه ماءٌ . فاذا كان الشخصان قريبين امتزجت قطرة الدم الواحدة بقطرة الدم الاخرى . فاذا كان الوالد او الوالدة قد مات توضع قطرة الدم على عظمة من عظام الميت فاذا اخترق الدم العظم حتى لا يمكن غسله عنهُ ثبت ان بين صاحب قطرة الدم وصاحب العظم صلة دمٍ وثيقة

اما في بلاد البوسنه فقريب العهد بالزواج من الشبان، يأخذ طفله اذا ولد قبل تمام الشهر التاسع ويضعهُ على عتبة الباب فاذا وقع الطفل الى داخل البيت اثبت ذلك في رأي الزوج انهُ ابنهُ لا ريب فيهِ ، واذا وقع الى خارج البيت فهو ليس ابنهُ وينكره

وكثيراً ما يستشهد بحكاية الملك سليمان والطفل الذي ادّعتهُ امرأتان ، ويقال ان الطريقة التي عمد اليها كانت الهاماً من السماء . ولو ان الملك سليمان فعل الآن ما فعلهُ حينئذٍ لقيل عنهُ انهُ سيكولوجيّ بارع . ومما يحسن ذكرهُ ان الصحف الاميركية اشارت من سنوات الى حادثة يصحُّ ان تكون الطبعة الحديثة لقصة الملك سليمان القديمة . فقد جاءَت امرأتان الى قاضٍ ، وادعت كل منهما انها والدة طفل معيَّن . فقال القاضي انهُ لما كان لا يملك وسيلة تمكنهُ من معرفة من هي امهُ حقيقة ،فقد قرَّر ان يبعث بهِ الى أحد الملاجيء العامة . فارتاحت احدى المرأتين الى هذا القرار وقالت كذلك ، لانها تفضل ان يبعث بالطفل الى ملجإٍ عام على أن تحوزه المدعية الاخرى . ولكن السيدة الثانية قالت انها تتنازل عن ابنها لخصيمتها لانهُ يحرم في الملجإ محبة الأم وعنايتها . فحكم القاضي للسيدة الثانية بالطفل

ولكن هناك طريقة اقرب الى المبادىء العلمية قد يمكن الاعتماد عليها أحياناً في اثبات الابوّة . فقد يكون في أحد الوالدين او في كليهما خواص تشريحية معينة غير سوية تظهر في بعض اولادهما او في جميعهم . ومن أبرز هذه الصفات التشريحية التي تنتقل بالوراثة ما تصاب بهِ الأصابع من تشويهٍ . وللدلالة على دقة انتقال هذه الصفات بالوراثة نثبت هنا خلاصة قضية رفعت سنة ١٩٢٦ . فقد كان الوالد متميزاً بقصر غير سويٍّ في الاصبع الثانية والاصبع الثالثة والاصبع الرابعة في اليدين والقدمين ، سببهُ عدم نموّ العظام الخاصة بها ، وكان ابهاما اليدين سويين . ولكن قاعدة ابهام القدم كانت قصيرة . فلما فحص الطفل وظهرت هذه الصفات التشريحية فيهِ ، حذوك النعل بالنعل ، حكم في القضية بأن الرجل والد الطفل لا ريب فيهِ

ولما كانت بعض هذه الصفات التشريحية غير السوية تنتقل بالوراثة على انها صفات مغلوبة لاغالبة (recessive) فقد تظهر في اولاد والدين يبدو لنا انهما سويّان . وقد ظلَّ الناس يسندون هذه الصفات، حتى عهدٍ قريب، الى بعض ما تراه الامُّ او تحسُّ بهِ في اثناء الحمل. والاعتقاد قديم في ان الحامل اذا شاهدت مشهداً مخيفاً أو قبيحاً يبدو اثر ذلك في طفلها . وقد استعمل الكتّاب والشعراءِ أمثال شكسبير وغوته ودكنز هذه المعتقدات في كثيرٍ من مؤلفاتهم . بل ان آرثر شنتزلر وهو من مؤلفي العصر الحديث ، قصَّ قصة امرأة ولدت طفلاً زنجيًّا على أثر زيارتها ملهى من الملاهي في ڤينا كانت جماعة الممثلين فيهِ من الزنوج . ولما كان زوجها يثق كل الثقة بها ، اقتنع بأن الحادث يفسر بالاعتقاد المتقدم . وعمد الى جمع ما ذكر عنهُ في كتب الادب . ولكن في رواية شكسبير التي عنوانها « تيطس اندونيكوس » تحاول الزوجة تامورا ان تقتل طفلاً اسود ولدتهُ لانها تعلم ان زوجها لا يقتنع بما يقال في تفسير ذلك . وقد روى العالم طمسن Thomsen من عهد قريب حادثة وقعت في بلاد الدنمارك ، خلاصتها ان امرأة ولدت ولداً غير شرعيّ ، كانت اصابعهُ متصفة بصفات تشريحية خاصة تمتاز بها اصابع مخدّمها . فعرضت المسألة على المحكمة فرفضتها ،

وعلت الحكمة ذلك، بقولها ان مشاهدة المرأة الدائمة لتلك الصفة في اصابع مخدّمها أثرت فيها فظهرت في طفلها . وهذا يبين لنا مقدار ما نلقاهُ من الصعوبة في تبديد بعض الأوهام العامة العالقة بالأذهان

***

لم يحلّ العلم حتى الآن مشكلة اثبات الابوّة حلاً تامًّا . ولكن بعض الوسائل الحديثة ، القائمة على حقائق علمية لا تقبل الجدل ، تمكن الباحثين الآن من الحكم حكماً صريحاً في بعض هذه القضايا . وهذه الوسائل وليدة فرع جديد من فروع الطب يعرف بعلم المصول serology

فالدم مؤلف — في حدود موضوعنا — من الكريات الحمر وهي التي تلونهُ بلونهِ الأحمر و «البلاسمة» (يعرف السائل المصفّر الصافي الذي يبقى بعد تخثر الدم بالمصل serum والمصل بعض البلاسمة) . ففي الكريات الحمر في دم الانسان مادتان تدعي كلٌّ منهما « أغلوتينوجين » [١] احداها توسم بحرف (A) والثانية بحرف (B) . فاذا كانت هاتان المادتان في دم انسانٍ ما قيل انهُ من فريق (AB) فاذا كان دمهُ خالياً منهما قيل انهُ من فريق (O) فاذا كان يحتوي على مادة (A) فقط قيل انهُ من فريق (A) واذا كان يحتوي على مادة (B) قيل انهُ من فريق (B)

وفي مصل الدم مادتان تدعيان «اغلوتينين الفا» و «اغلوتينين بيتا» [٢] . فاذا مزج مصل محتوٍ على مُلبِّد (اغلوتينين) الفا بكريات حمر محتوية على اغلوتينوجين A (اي اذا كان من فريق A او من فريق AB) تلبدت هذه الخلايا ، وظهرت كتلاً كتلاً ، أو هي قد تتلاشى. ولكن ملبّد الفا لا يؤثر مطلقاً في خلايا حمر لا تحتوي على اغلوتينوجين A (اي انهُ لا يؤثر مطلقاً في كريات حمر من دم رجل في فريق O او فريق B) . وعلى المنوال نفسهُ يؤثر ملبد بيتا في تلبيد الكريات الحمر المحتوية على اغلوتينوجين B (اي اذا كان من فريق B او فريق AB) ولا تؤثر مطلقاً في خلايا دم من رجل في فريق O او فريق A

ومن الطبيعي ان رجلاً من فريق A لا يمكن ان يحتوي دمهُ على ملبّد الفا والاّ تلبدت كرياتهُ الحمر ومات خنقاً لعجز الكريات الحمر عن القيام بعملها وهو نقل الاكسجين من الرئتين الى الاعضاء ونقل ثاني اكسيد الكربون من الاعضاء الى الرئتين . وكذلك نرى ان رجلاً من فريق B لا يمكن ان يحتوي دمهُ على ملبد بيتا للسبب عينهِ فبحسب هذه القواعد يمكن تقسيم الناس على اختلاف سلالاتهم والوانهم الى اربعة فرقٍ متميز احدها عن الآخر

***

أما طريقة استعمال هذه الحقائق في اثبات الابوّة فعلى جانب من السهولة . فكل ما نحتاج اليهِ

(١) معنى اللفظ مولد الملبد والتلبد أو الالتباد ترجمة لـ agglutination وهو التصاق بعض الجسيمات العضوية كالكريات أو المكروبات الدقيقة بعضها ببعض فتتألف منها كتل (٢) ترجمته «ملبد» لانه اذا اجتمع بالمادة الاولى لبدها . وقد احتفظنا بالحروف الفرنجية في الدلالة على هذه الفرق لانها أصبحت بمثابة أعلام

هو بعض الكريات الحمر المأخوذة من دم الطفل الذي يراد اثبات ابوّته ، ومزجها بمحلول ملحي خاص . ثم يؤخذ مصلان ، احدهما يحتوي على ملبد الفا (اي من دم رجل من فريق B) والثاني يحتوي على ملبد بيتا (اي من دم رجل من فريق A) . ويمكن الحصول على هذا المصل بأخذ مقدار من الدم وتركه حتى يتخثر فينفصل المصل عن سائر محتويات الدم

ثم تمزج قطرة من محلول الدم بقطرة من احد المصلين ثم تمزج قطرة اخرى من محلول الدم بالمصل الثاني . فاذا تلبدت الكريات الحمر في محلول الدم بالمصلين فصاحب الدم من فريق (A B) . واذا لم تتلبد على الاطلاق فهو من فريق (O) . واذا تلبدت بالمصل المحتوي على ملبّد الفا فهو من فريق (B) واذا تلبدت بالمصل المحتوي على ملبد بيتا فهو من فريق (A)

ثم يمتحن دم الرجل الذي يراد اثبات ابوته او نفيها ، بالطريقة نفسها . فاذا ظهر ان دم الطفل من فريق (O) وان دم الرجل من فريق (A) فالرجل اذاً ليس والد الطفل . وهذا الحكم قاطع . اما اذا ثبت ان دم الطفل ودم الرجل من فريق واحد من الفرق الاربعة فعندئذٍ يحكم بأنه من الممكن ان يكون الرجل والد الطفل . وهذا كل ما يقال الآن استناداً الى هذه الكواشف

ومما يسهّل الاعتماد على هذه الطريقة في اثبات الابوة او نفيها ، في نطاقها المحدود ، ان مكان الطفل من فرق الدم يمكن تعيينه بعيد الولادة ، وانه لا يتغير بعد ذلك مدى الحياة ، وانه يتوارث بحسب قواعد مندل في الوراثة . وهذه حقائق اثبتها العلماء ولا تقبل الريب الآن

ويروي الدكتور الكسندر وينر (كاتب هذا المقال في عدد ابريل من المجلة العلمية الشهرية) انهُ من عهد قريب اتهمت سيدة من مقاطعة نيوهايفن رجلاً بأنه والد ابنها غير الشرعي . فانكر المتهم التهمة الموجهة اليه ، ولكن الرأي العام كان ضد الرجل . فبعث بدم الرجل ودم السيدة ودم الطفل الى كاتب المقال وهو من قسم الباثولوجيا في احد المشافي الكبيرة بنيويورك فامتحنها جميعاً وثبت له من الامتحان ان الرجل المتهم من فريق (A) والمرأة من فريق (O) والطفل من فريق (B) ولما كان كريات دم الطفل تحتوي على اغلوتينوجين (B) وهو غير موجود في كريات دم الام، فوالد الطفل يجب ان يكون من فريق (B) او فريق (A B) والمتهم ليس منهما. ولما واجهت المحكمة المدعية بهذه الحقائق استردت تهمتها وبرئت ساحة الرجل . فحال امتحان الدم في هذه القضية دون انحراف العدالة

ولكن لنفرض ان امتحان دم الرجل المتهم اثبت انه من فريق (B) او فريق (A B) كما يجب ان يكون والد الطفل . فهل يثبت هذا ان الرجل والد الطفل حقيقة ! كلاّ . اذ اي رجل من فريق (B) او فريق (A B) يمكن ان يكون ذلك الوالد . ففائدة هذه الطريقة انما تنحصر في ابعاد الشبهة عن رجل متهم اذ ثبت انه من فريق غير الفريق الذي تتوافر فيه الشروط المطلوبة ، ولا تمتد الى اثبات الابوّة بالمعنى الدقيق

الاّ ان العلم يأبى التسليم بالخذلان ، وفي جعبته فراغ ومالٌ للبحث وذكاء للابتداع . وكذلك

والى العلاّمة لاندشتينر بحثهُ بالتعاون مع طبيب آخر يدعى لڤين Levin، فوجدا سنة ١٩٢٧ مادتين جديدتين في الكريات الحمر بدم الانسان تولدان المبدات (اي من قبيل اغلوتينوجين A و B) فدعيا الواحدة اغلوتينوجين M والثانية اغلوتينوجين N وكان قد فات الباحثين كشفهما لانهُ لا توجد مادة ملبدات في مصل دم الانسان وبعض الحيوانات تؤثر فيهما . ولكن بحقن هاتين المادتين في عروق الارانب والهررة والماعز يمكن الحصول على المبدات الخاصة بها . وهاتان المادتان والملبدان اللذان يقابلانهما لا صلة لهما مطلقاً بالمواد A و B والملبدين الفا وبيتا . فيمكن اذاً تقسيم الناس تقسيماً آخر بحسب المادتين M وN وملبديهما الى ثلاثة فرق جديدة احدها فريق M في دمهِ اغلوتينوجين M فقط والثاني فريق N ودمهُ يحتوي على اغلوتينوجين N فقط والثالث فريق M N ودمهُ يحتوي على المادتين معاً. وقد فُحص حتى كتابة هذه المقالة ٣٠ الف رجل وامرأة وطفل فلم يوجد ان دم احدهم خالٍ من احدى هاتين المادتين M وN

وفي سنة ١٩٢٨ اثبت لاندشتينر ولڤين ان هذه الخصائص الدموية الناشئة عن وجود مادتي N وM تورّث بحسب قواعد مندل واذن صار من الممكن الاعتماد عليها في اثبات الابوّة

قلنا في ما تقدم انهُ اذا نوزع في ابوة طفل وكان دم الطفل يحتوي على اغلوتينوجين A وجب ان يكون والده من فريق A او من فريق A B. فاذا كان الرجل المدعى عليهِ من فريق B أو O فلا يمكن ان يكون والد الطفل . وكذلك يبرأ . أما اذا كان المدعى عليهِ من فريق A اوفريق A B وكان زوج المرأة الشرعي كذلك ،فلا يمكن بحسب هذه الكواشف ان يعين من والد الطفل وكل ما يمكن ان يقال ان الرجلين من فريق الرجال الذين يمكن ان يكون احدهم والد الطفل فبإضافة الكواشف الخاصة بمادتي N وM اللتين تقدم ذكرها يمكن الوصول الى تحديد أدقّ في هذا الصدد

خذ مثلاً على ذلك القضية التالية . كان محورها نزاعاً على ابوّة طفل . وكان زوج الوالدة مستعداً ان ينفق على الطفل بصرف النظر عمَّن كان أباه . ولكن المرأة اصرّت على انها لا تساكن الاّ والد ابنها الحقيقي . وكان الرجلان من فريق A وكذلك الطفل . فتعيين الواحد دون الآخر لم يكن ممكناً بحسب الكواشف الاولى . فلما امتحنت دماء الاربعة لتبين ما فيها من مادتي

الزوج A ، M العشيق A ، N الزوجة B ، M الطفل A ، M

فتبين ان الزوج هو والد الطفل، لانه لا يمكن ان يرث الطفل مادة (M) من والد ليس في دمه الاّ مادة (N) . ولكن الزوجة خرجت على قرارها الاول واختارت ان تلحق بعشيقها . وفي حادثة اخرى كان النزاع على ثلاثة اولاد . فنكتفي بنتائج بحث الدم للمادتين (A وB) والمادتين (N و M)

الزوج O ، M N[1] العشيق A ، N الزوجة O ، M N الولد الاول O ، M N الولد الثاني O ، M N الولد الثالث A ، N

(١) أي ان دمه لا يحتوي مادتي A ولا B ويحتوي على مادتي M و N

ولما كان الوالدان اللذان من فريق O لا يمكن ان يلدا الاّ اولاداً من فريق O فالطفل الثالث لا يمكن ان يكون ولدهما بل قد يكون ولد العشيق

اما البلدان التي تعتمد على كواشف لاند شتينر لاثبات البنوة في اوربا فهي النمسا والمانيا والدنمارك وايطاليا والسويد . ولكن الإعراض عنها في اميركا يكاد يكون عامّاً لولا حوادث متفرقة في ولايات كونكتكتت واوهايو والينوي وبنسلفانيا . ومع انه من الحكمة التريث قبل استعمال المكتشفات العلمية في الاوضاع القانونية الاّ ان الثقات يذهبون الى ان كواشف الدم لاثبات البنوة في النطاق المحدود الذي رسمناه قد خرجت من دور التجربة ويصح الاعتماد عليها

***

ويجدر بنا في هذا الصدد ان نذكر ان اول من كشف فرق الدم ، كما بيّناها في ما تقدم كان الطبيب لاندشتينر النمسوي وهو الآن من اطباء معهد روكفلر الطبي في نيويورك وقد احرز جائزة نوبل الطبية من سنوات

وقد كان لاندشتينر كذلك اول من اقترح الاعتماد على هذا التقسيم في عمليات نقل الدم من سليم الى مريض . ولهذا الاقتراح ، شأن خطير في تقدم بعض ضروب العلاج الحديث . ففي العمليات الاولى التي عولج بها بعض المرضى بنقل الدم اليهم استعمل دم الحملان (دنيس سنة ١٦٦٧). فتلا ذلك ردٌّ فعل مميت . وظلَّ الاطباء في حيرة من هذا الامر الى ان ثبت لهم ، ان مصل دم الحيوانات يلبّد الكريات الحمر في دم الانسان او يلاشيها . وان مصل دم الانسان يلبد الكريات الحمر في دم الحيوانات كذلك (لاندوى سنة ١٨٧٥) . فعدل عن هذه الطريقة الى طريقة نقل الدم من انسان الى انسان ، وحجة القائمين بها حينئذٍ ، انهُ ما زال الناس من نوع واحد ، فهذه الطريقة يجب ان تكون سليمة . ولكن بعض الحوادث التي نقل فيها الدم من انسان سليم الى انسان مريض عقبها ردٌّ فعل مميت . وظلَّ الامر سرًّا مكنوناً عن افهام العلماء حتى جاء لاندشتينر وبيَّن ، ان الناس اربعة فرق من حيث بعض خواص الدم وانهُ اذا نقل الدم من رجل سليم من فريق B الى رجل مريض من فريق A عقب النقل ردٌّ فعل مميت لان ملبّد الفا في دم الرجل السليم يلبد الكريات الحمر في دم الرجل المريض

واعتماداً على اكتشاف لاندشتينر هذا يمكن الآن القيام بعمليات نقل الدم من سليم الى مريض على اهون سبيل ومن دون تعريض المريض لخطر الموت على شرط ان يفحص دما الرجلين قبل العملية للتثبت انهما من فريق واحد . واذا علمت ان عشرة آلاف عملية من هذا القبيل تعمل كل سنة في مدينة نيويورك وحدها ادركت مقام هذا الاكتشاف في الطب الحديث

رجل كاد ان يكون سراً

لورنس

العسكري والرجل والثورة العربية

Lawrence of Arabia (١)

كان غرضهُ من ساعة دخولهِ الميدان مزدوجاً — ان يبدّد ما أحاط بقام بلاده من الغيوم في الشرق الادنى بانشاءِ دولة عربية تتكئ عليها بريطانيا في خطتها الحربية ، وان يحرّر العرب من نير الاتراك فيفسح لهم المجال لتحقيق آمالهم . وقد تحقق هذا الغرض على يديهِ أبدع تحقيق . فأعمال العرب التي تمت باشراف لورنس في خلال الحربِ، كان لها شأن كبير في شلّ قوى الاتراك ونفخ روح الحياة في حركة البريطانيين . فكانوا بذلك عاملاً حيويًّا في هزيمة الاتراك ونصر الانكليز . ثم ان تيار الثورة العربية الذي امتدّ من مكة الى دمشق انتهى الى انشاءِ دولة عربية في سورية

أما بعد الحرب فقد تعارضت مصالح حليفة بريطانيا الكبرى مع مصالح حليفتها الصغرى فتغلبت عليها ، فهدم بناءُ الدولة السورية الجديدة . وما كان للورنس حيلة في دفع هذا الانحراف ، ولكنهُ خرج في سنة ١٩٢١ من عزلتهِ في اكسفورد فوجه سياسة دولتهِ توجيهاً كان من شأنه ان منح فيصل مُلكاً جديداً بعد أن سلبهُ الفرنسيون ملك الشام . وأُقيم أحد اشقائه أميراً على الدولة العربية الجديدة في شرق الأردن

كانت الحركة العربية التي غذّاها لورنس وارشدها وهي في مهدها أهم حركة ظهرت من بلاد العرب في خلال القرون العشرة الاخيرة . وليس ينقص من قيمة نتائجها ان بعض قبائل العرب فقط اشترك فيها اشتراكاً فعالاً . اذ لا ريب في ان العرب اصبحوا بعد انقضاء قرون، عاملاً قويًّا في ميدان السياسة يجب ان يحسب حسابهُ . فاتصال العرب بالشعوب الاوربية هذا الاتصال الجديد ، يسوّغ من الناحية التاريخية تلقيب لورنس — وقد كان العامل الفعال في هذه الصلة الجديدة — لورنس اوف ارابيا

ولكن هناك تسويغ اهم شأناً وابعد أثراً وهو التسويغ النفسي . فالالقاب الجغرافية ، تنزل في مكانها الصحيح ، عند ما تعرب عن اندماج بين الشخصية الانسانية والحقيقة الجغرافية . فالصحراء كانت في دم لورنس ، وقد كان الاندماج بين روحه وروح الصحراءِ اندماجاً تامًّا

كان لورنس يحبُّ التجوُّل من حداثتهِ ، ويميل الى العزلة بفطرتهِ . فكان يقضي ساعات فراغهِ في حداثتهِ يتتبع الجداول الى منابعها او الى مصابها ، او يجمع قطعاً من الخزف الروماني القديم او

(١) ملخص فصل انشأه ليدل هارت Liddel Hart اكبر النقدة العسكريين الانكليز في «كتاب العظماء المعاصرين» الذي نشره محل كاسل في اوائل هذه السنة ومؤلف انضل كتاب حديث في سيرة لورنس



الكولونل لورنس بملابسه الرسمية

Colonel T. E. Lawrence

يرود وحده الكاتدرائيات والقصور القديمة معنيًّا بتفصيلات هندستها المعمارية

وفي حداثته كذلك تجوّل في فرنسا ، ثم قبل تخرجه من الجامعة جاس خلال سوريا مشياً على الاقدام ، في حرارة العطلة الصيفية ، باحثاً في قصور الصليبيين منقباً عن آثار الحثيين . ثم عاد اليها في السنوات السابقة للحرب ، لممارسة اساليب البحث الأثري . فلما توقفت اعمال التنقيب في قرقميش جال في العراق وفلسطين ومصر واسيا الصغرى واليونان . وكان يصحبهُ في بعض رحلاتهِ احد ابناء البلاد . وكان يرتزق في خلالها من القيام ببعض الاعمال كسوق الابل او جمع الحصاد بل انهُ اشتغل مرة مع زمرة العمال في بور سعيد في تعبئة احدى البواخر بالفحم . وقد اشار الى ذلك في بعض كتاباتهِ فقال: «كنت دائماً رائحاً وغادياً حيث كان الرواح او الغدوّ رخيصاً » . وقال ايضاً : « حملني فقري على الاتصال بالجماهير ، حيث السائح الغني ينفصل عنها بمالهِ ومَن يتولى خدمته». وكذلك افلح لورنس ، بتخلّيهِ عن تقاليد الحياة المدنية ، في صيرورتهِ مستعرباً بدلاً من ان يظل زائراً اوربيًّا لبلاد العرب . فكانت لا تهمّهُ مظاهر الاحترام ، التي يطلبها ويتوقعها الزوّار الاوربيون وبوجهٍ خاص الزوار الانكليز . وقد مهّد له هذا السبيل انعتاقه من قيود الشعور بان الناس طبقات فاندمج في العرب وصار احدهم بالانتساب

ولكي يسهل الامر عليهِ ، مال الى لبس الثوب العربي في خلال تجوالهِ . وحجتهُ في ذلك « انهُ اذا ذهب بعض العرب الى وِغن (وهي بلدة صناعية في لانكشير) باثوابهم العربية فالغالب ان اولاد وغن يرجمونهم بالحجارة »

فالاختلاط بالاطفال يقتضي ان تجردهم من نوازعهم الخاصة التي تقصيهم عنك . ولعل هنالك من يقول كيف استطاع لورنس ان يفعل ذلك ، بشعره الاشقر ، وذقنه الحليق ، وبشرته التي تحمرُّ من وقع الشمس بدلاً من ان تسمرّ ؟ بيد انّ هناك ما يدل على ان العرب قبلوه واحداً منهم وان كانوا لم يخطئوه . وهو يقول ان ذلك لم يكن صعباً في سوريا ، حيث افضى اختلاط السلالات الى كون بعض ابناء البلاد شقراً ، والى كون بعضهم لا يعرف العربية الاّ معرفة ناقصة . قال : « كان من المستحيل عليّ ان أُحسَب عربيًّا ، ولكنه كان من السهل ان احسب احد ابناء البلاد الذين يتكلمون العربية »

ولكن لورنس تخطّى في كلامه هذا التفسير الصحيح لنجاحهِ وهو مقدرته على فهم العرب . فقد كان هذا الفهم ميسوراً له لان روحه كانت مطبوعة بما طبع عليه العربي من حب للحرية المطلقة . وكان مثلهُ مجرداً من اية رغبة في حيازة الممتلكات المادية في سبيل الرفاهة ، بعد ان يدفع ثمنها غالياً بخضوعه للقيود التي تفرضها على الانسان . وكان العطف سرّ فهمه للعرب . فبهذه الملكة استطاع ان يتبين انه لا توجد بينهم فوارق طبيعية او تقليدية ، الاّ فارق القوة التي يمتاز بها شيخ من الشيوخ نتيجة لعمله . قال: « وقد علموني انه ليس ثمة رجل يستطيع ان يصبح زعيماً لهم الاّ اذا اكل

طعام السواد ولبس ملابسهم وعاش في مستواهم على ان يكون له من قوة نفسه ما يميزه عنهم » .
هذه المعرفة عند التطبيق كانت سرّ نجاح لورنس في صلته بالعرب

وله في هذا الصدد كلام واف افرغه في قالب تعليمات وزعت على الضباط البريطانيين الذين تبعوه الى المنطقة العربية في خلال الحرب الكبرى . فهذه التعليمات كانت بمثابة وصفة للنجاح في اتصال البريطانيين بالعرب ، ولكنها كانت كذلك منطوية على تحذير من المصاعب وبيان لما تقتضيه من الجهد

ومن اقواله فيها : « اذا لبست ملابس العرب امضِ في الطريق الى نهايتها . اترك اصدقاءك الانكليز وعاداتهم على الشاطىء واتبع عادات العرب بحذافيرها . . . . على ان جهد المعيشة في جو غريب ، والتفكير بلسان غريب لا تفهمهُ الا نصف فهم ، وأكل الطعام البدوي ، ولبس الملابس الغريبة ، واتباع الاساليب الغريبة ، والتنازل عن كل انعزال وسكون ، واستحالة تراخيك في مراقبة نفسك وأنت تقلد غيرك شهوراً متوالية ، كلُّ ذلك مضافاً الى المصاعب العادية في معاملة البدو والترك ، والتعرض لحالة الجو المرهق ، تفرض على الانسان عبئاً ثقيلاً ، فعليه ألاّ يختار هذه الطريق الاّ بعد تأمل وتفكير عميق

«ان الالف والياء في سر الاتصال بالعرب هما عدم الونى عن درسهم . فكن دائماً على حذر . لا تقل قولاً لا تقتضيه الضرورة . راقب نفسك ورفاقك دائماً . اسمع كل ما يقال وابحث عما يجري وراء الظواهر . اقرأ اخلاقهم . اكتشف ما يلذُّ لهم ، وتبيَّن مواطن الضعف فيهم ، واحتفظ بكل ما تكتشفهُ لنفسك ، . . ونجاحك يكون على قدر الجهد الذهني الذي تبذله في هذا السبيل »

في هذه العبارة الاخيرة ، مفتاح لفهم عمل لورنس بوجهٍ عام ، بل مفتاح لفهم نجاحه في القيادة الحربية وفي قيادة العرب في الحرب . ولعل أهم ظفر اوتيهِ لم يكن استنفار العرب للحرب ، بل فرض مقدرتهِ كزعيم عسكري ، على اخوانهِ الضباط الانكليز الذين اتصلوا بهِ اتصالاً وثيقاً . وليس ثمة أبعث على الدهشة من استعداد هؤلاء الضباط الذين كانوا يفوقونه ، رتبة عسكرية ، لاتباع قيادتهِ . كان هذا دليلاً على انهم كانوا رجالاً ممتازين ، يستطيعون ان يسموا فوق تقاليد الطبقة التي ينتمون اليها ، فهو برهان كذلك على صفاتهِ العسكرية الممتازة

ولعلنا نستطيع ان نفسّر مقامهُ هذا بعض التفسير بايراد العبارة التي قالها ڤولتير في القائد مولبورو : كان يمتاز عن سائر قواد عصرهِ بشجاعتهِ الهادئة في وقت الصخب ، وبطمأنينة نفسه في زمن الخطر ... وهما أعظم ما تهبهُ الطبيعة للقائد »

ولكن لورنس امتاز بشيء اكثر مما تقدم . فالبريق الذي اقترن باسم لورنس واللمعان الذي أُضفي على شخصيته ، اخفيا عن بعض العيون ، القوة التي نبعت من معرفته العميقة بفنون الحرب . وفي هذه المعرفة نجد الرسالة التي تستمدُّ من عملهِ العسكري ، لان لورنس كان في الواقع ، أعمق معرفة بقواعد الحرب من أي قائد في الحرب الكبرى

قد يكون قولنا الاخير باعثاً على الاستغراب عند النظرة الاولى . ولكنهُ في الواقع قول صحيح. فلا ريب في ان طائفة كبيرة من قواد الحرب الكبرى كانت اعرف بالجيش من لورنس . ولكنهُ كان يمتاز عليهم في كل ناحية اخرى. وقد ساعده على ذلك شبابهُ. كان معظم هؤلاءِ القواد قد قضوا الشطر الاكبر من حياتهم في سبيل الارتقاءِ من الصفوف الى مناصب القيادة . كانوا في شبابهم اما ضباطاً في «المدفعية»، او في «المشاة» اوغيرها ولكن خبرتهم في نوع السلاح الذي اختصوا بهِ فقدت أكبر جانب من قيمتها بارتقاءِ وسائل الحرب . فالمدفع الرشاش الذي كان مسيطراً على ميادين القتال في الحرب الكبرى ، كان سلاحاً جديداً ، اتقن استعماله بعد ما تخطوا هم دور الشباب . ولكن لورنس توفر على جميع هذه الآلات الجديدة ، توفراً يستغرب حتى من شابٍّ متحمسٍ ذكيٍّ ، ثم إنهُ لم يكتف بذلك بل اضاف الى استعمالها شيئاً من ابتداعهِ الخاص

ليست معرفة ادوات الحرب معرفة وثيقة مما لا يستغني عنهُ القائد ، ولكنها معرفة لها قيمة عظيمة . ونحن اذا نظرنا الآن الى سير الحرب الكبرى ، نرى انهُ لو كانت معارف القواد الكبار بادوات الحرب الجديدة اتمَّ مما كانت ، لساعدتهم على اجتناب كثير من الاخطاءِ التي وقعوا فيها

كان لورنس في حداثتهِ قد وثَّق معرفتهُ بالتاريخ وبنظرية الحرب العليا . والواقع انني لا اعرف قائداً يضاهي لورنس في سعة مطالعاتهِ في هذا الموضوع. بدأ وهو في السادسة عشرة بمطالعة ما كتبهُ كرسي ونابيير وماهان وهندرسن في هذا الصدد وهؤلاءِ كانوا في الغالب جهد مايبلغهُ القائد البريطاني في دراستهِ العسكرية. ثم ارتقى بعد ذلك الى مطالعة كلوز ولنز وجوميني وجولتز وفوش. ولما لم يكتف بما تقدم عزم على تصفح رسائل نبوليون التي تملأُ اثنين وثلاثين مجلداً وهذا حمله على دراسة الكتب التي بنى عليها نبوليون قواعد خططهِ العسكرية فانكبَّ على دراسة جيبر وبورسه وساكس . وكذلك نرى هذا الطالب الفتى يتتبع الخطط النبوليونية الى مصادرها في زمن كانت فيهِ هذه المصادر مجهولة من معظم العسكريين . ومع ذلك لم تكن مطالعاتهُ في التاريخ العسكري ، الاَّ ناحيةً واحدة فقط من مطالعاتهِ الواسعة النطاق، حتى لقد قيل انهُ قرأ كل كتاب في مكتبة اتحاد اكسفرد . ولكن الصحيح انهُ قرأ كل كتاب لذّت له قراءتهُ فكان يجلس في المكتبة ويبدأ في مطالعة رفّ من الكتب في موضوع يهمهُ ، فيتصفح بعضها ويأخذ معهُ الى دارهِ ما يهمهُ العام النظر فيهِ .فكان يطالع كذلك نحو ثلاثة كتب رزينة في اليوم ورواية بعد الظهر انتجاعاً لراحة الذهن . وكان في جميع مطالعاتهِ يعمد الى المراجع ولا يكتفي بالنتف والملخصات

ومما كان له أثر عظيم في نفسهِ مطالعتهُ لمؤلفات مفكري القرن الثامن عشر الذين مهّدوا للثورة الفرنسية . فهذه الثروة العظيمة من المعرفة التاريخية مؤيدة بمعرفة عامة في جميع الموضوعات المتصلة بالحرب جعلتهُ فذًّا بين قوّاد عصرهِ . فلما جمع الى معرفته النظرية خبرتهُ وعناصر شخصيته القوية حوّل معرفته العسكرية النظرية الى عبقرية عسكرية عملية نادرة

مكنتهُ عبقريتهُ هذه من التغلّب على حوائل لم يتعرّض لها كبار القوّاد في الحرب الكبرى . كان عليهِ ان يكون قائداً من دون قيادة.وزعيماً لا يسعهُ الاّ افراغ أوامره في قوالب النصح والارشاد. وكان جيشهُ مؤلفاً من رجال عرفوا بنزعتهم الفردية المستقلة وقد جمعوا من قبائل مختلفة ومتنافرة أحياناً. أما وسائل الحروب الحديثة ، التي درسها لورنس وعرف مزاياها ، فكانت غير متوافرة لديهِ فاضطرّ ان يعتمد على قوة ابتداعهِ ، لابتكار الخطط التي تمكنهُ ، رغم كل هذا من تحقيق الغرض الذي وضعه نصب عينيهِ . بل انا أكبر العوائق التي قامت في سبيله كانت اقناع رؤسائهِ بقيمة هذا الجيش في الصحراء ، مع شدة اعراض هؤلاء واحتقارهم لأية مساعدة عسكرية غير نظامية

ان تاريخ السنتين التاليتين، مقياس للنجاح العظيم الذي أصابه في هذا المسلك الوعر. ان ما تمّ على يدي لورنس والعرب من أعجب ما يرويه التاريخ العسكري . فقد نظمت الثورة العربية ، وتحوّل احتلال الاتراك للجزيرة الى حاميةٍ محصورة ، لم تلبث ان سقطت في أيدي أعدائها ، كما تسقط التفاحة الناضجة عند هبّة الريح. وقد كان احتلال العقبة وحده من نوادر الظفر الحربيّ . فقد احتلها العرب بقيادة لورنس بعد خسارة رجلين من الفريق المهاجم مقابل ١٢٠٠ قتيل وجريح وأسير من الاتراك . فكان هذا الظفر ملافياً للخذلان الذي اصيب بهِ الجيش الانكليزي في غزة ، وتفويتاً لاضرارهِ ، وأزال كلّ خطر يهدد مواصلات الجيش الانكليزي في فلسطين ، والمواصلات الامبراطورية البريطانية في قناة السويس . ولكن انتشار الثورة في بلاد العرب ، كان لهُ الى جانب هذه النتائج السلبية، نتائج ايجابية ، لان عدد الاتراك الذين عهد اليهم في حماية سكة حديد الحجاز، والبلاد التي الى جنوبهِ ، كانوا أكثر من الاتراك الذين واجهوا الانكليز في فلسطين

وفي المرحلة الثانية من غزوة الانكليز لفلسطين ، أي بعد احتلال القدس ، كانت القوات العربية ، كالجنّ يحمي مؤخرة الجنرال اللنبي ، ويستوقف نظر الاتراك فيضطر هؤلاء الى توزيع قواتهم بين فلسطين والصحراء . وقد بدأت خدمة العرب هذه ، بعناية لورنس بتدمير قطارات سكة حديد الحجاز ، ذاهباً في عمله هذا الى الشمال ما استطاع، حتى لقّبه المعجبون بهِ من العرب «بمدمر القاطرات» . ولما كانت ذخيرة الأتراك من القاطرات أقلّ من ذخيرتهم من الرجال ، كان تدمير القاطرات افعل في اضعافهم من قتل الرجال . ثم قطع العرب موارد الاتراك من منطقة القمح شرق البحر الميت بالسطو على القوافل المحملة قمحاً . وكذلك استطاع لورنس والعرب ان يسترعوا عناية الاتراك في النصف الاول من سنة ١٩١٨ لما كان جانب كبير من جيش اللنبي قد نقل الى فرنسا لتعويض خسائر الحلفاء في ميادينها

ثم انهُ باعمالهِ هذه حال دون تجميع الاتراك لقواتهم ، وتنظيم مقاومتهم للجيش البريطاني، فمهّد خير تمهيد ، لضربة اللنبي القاضية في خريف سنة ١٩١٨ . وقد اعترف الجنرال ليمان فون ساندرز انهُ تخلّى عن فكرة مقاومة الانكليز لانهُ عجز عن صدّ الثوّار العرب في مؤخرة الجيش التركي

وفي سبتمبر كان اللنبي مستعداً للهجوم. وكان نصف الجيش التركي، المرابط الى جنوب دمشق مضطراً ان ينصرف عن مقاومة اللنبي خوفاً من تهديد بضعة آلاف من العرب في الصحراء. وكذلك استطاع اللنبي ان يهاجم الاتراك بقوة تفوق قوتهم خمسة اضعاف. وكان لورنس في الشهر السابق قد خدع الاتراك بسلسلة من المناورات، فحملهم على الظن ان هجوم اللنبي سوف يجيء من الشرق من ناحية عمان بدلاً من الشمال من ناحية الجليل. وفي الايام الثلاثة الاخيرة من الاستعداد للمعركة الفاصلة، خرج العرب من مكامنهم ونسفوا خطوط السكة الحديد الى الشمال من درعا والى جنوبها وغربها، وكانت هذه النقطة ملتقى مواصلات الاتراك. فضعضعت هذه الضربة الاتراك اذ كان اللنبي مستعداً للانقضاض عليهم فسحقهم في المعركة التي تلت سحقاً واجهزت الطيارات البريطانية وفصائل الفرسان البريطانيين على الذين لاذوا بالفرار. ولما يبق امام البريطانيين الا الجيش التركي الرابع، وهو اقوى وحدات الاتراك. فاقدم لورنس بفصيلة من العرب على الزحف الى مؤخرة الجيش فلم يلبث الجيش الرابع حتى تفرق بدداً فانهكه التراجع، وعند ابواب دمشق التقى العرب باكبر شرذمة منهُ فاجهزوا عليها، ودخلوا دمشق امام الانكليز

لم يكن احتلال العرب لدمشق، تزكية لثورتهم فقط، بل تزكية كذلك لفكرة قامت في ذهن لورنس، وتأييداً لنظرية عسكرية مضى عليهِ زمن وهو يطبقها. واذا كانت بزور هذه النظرية قد زرعت في ايام المطالعة اذ كان لا يزال طالباً في اكسفرد، فان ميعاد القطاف جاءَ في خلال سنة ١٩١٧ لما كان لورنس على فراش المرض في وادي قيس، وامامه من الوقت متسع للتفكير والتأمل. فعلى فراش المرض تدبر لورنس كيف يستطيع ان يعالج القوة التركية في الحجاز، وكانت حينئذٍ مجتمعة في المدينة. فالخطط الحربية المتّبعة كانت تقضي ببذل الجهد لاخراجهم من المدينة. ولكن هذا الحل لم يبد بسيطاً في نظره وخاصة في نظر من يعرف نفور العرب من قتلى الحرب. واذ هو يفكر هبط الجواب عليهِ، كأنهُ نفحة من الالهام. فقال: ولماذا نهتمُّ هذا الاهتمام بالمدينة وحاميتها. ان افتتاحها الآن متعذر، ولكن ما الفائدة من افتتاحها على اية حال. بل اليس من الضرر ان نفتتحها؟ واليك ما كتبهُ في هذا الصدد

«ان الاتراك فيها مدافعون لا يتحركون، يتغذون بلحم الحيوانات التي يجب ان تستعمل لنقلهم الى مكة. انهم وهم مرابطون في المدينة لا يستطيعون ان ينالونا باذى. فاذا اسرناهم كلفونا غذاء وحراسة في مصر. واذا اخرجناهم من المدينة ودفعناهم امامنا الى الشمال انضموا الى الجيش التركي المرابط لنا في سيناء. فالافضل ان يبقوا حيث هم. هم يهمهم البقاء في المدينة. فليبقوا فيها»

على ان لورنس لم يكتف بهذا. بل قال في نفسه، ولماذا لا نعمم هذه الخطة، فنطلقها على جميع الاماكن التي يمكن حصر الترك فيها. «فالاتراك يحتاجون عندئذٍ الى ستمائة الف محارب لحماية المدن والمناطق المختلفة من غضب العرب. وليس عندهم الا مائة الف»

ثم هناك ناحية اخرى. كانت ذخيرة الحرب في الجيش التركي غير كثيرة التيسير وكان المحاربون

في الجيش التركي اكثر من الادوات الحربية اللازمة للنزال . لذلك يجب ان يكون غرضنا تدمير ذخيرة الحرب لا قتل المحاربين . فتدمير جسر تركي ، او قاطرة تركية ، او مدفع تركي ، او مفرقعة تركية ، اكبر فائدة من موت جندي تركي . ان حربنا يجب ان يكون حرب انفصال . اننا نستطيع ان نتفوق على العدو ، بالتهديد الذي تعلنه صحراء لها اول ما لها آخر . اما نحن فلا نظهر في الميدان الا في ساعة الهجوم . وهذا الهجوم ليس من الهجوم المألوف في شيء ، لانه يجب ان يوجه الى مواد الحرب لا الى المحاربين . ولذلك يجب الاَّ نبحث عند الهجوم ، عن مواطن الضعف او القوة في جيش العدو ، بل يجب ان نبحث عن مادته الحربية التي تكون اقرب ما يكون الى متناولنا »

هذا الابتداع في الخطط الحربية ، اذ درس مقترناً بنتائج الحرب الكبرى ، اصبح لاعمال لورنس في بلاد العرب مغزى جديد . فالتاريخ العسكري لا يسعه ان يقول ان لورنس كان قائد قوة غير نظامية ويكتفي بذلك . فهو ليس زعيماً من زعماء حروب العصابات . بل انه ذو عبقرية فذة في تدبير الخطط العسكرية ، وقد استشفَّ بثاقب بصيرته ، الميل في الحروب الحديثة والمقبلة الى هذا النوع من الخطط ، الناشيء عن زيادة اعتماد الامم على مراكزها الصناعية . رأى ذلك أولاً في صحراء بلاد العرب ، وها نحن نرى الامم العسكرية اليوم تضع خططها الحربية ، واول اهدافها تدمير المراكز الصناعية قبل افناء المحاربين . وقد اثبت ليدل هارت بكتاب ورد له من لورنس ، ان لورنس نفسه كان يدرك كل الادراك مغزى خططه هذه في تطبيقها على الحروب بوجه عام

***

قلما تُحجب الحقيقة المنطوية في القول المأثور «ان التاريخ يعلمنا اننا لا نقيم وزناً لعبر التاريخ» عن رجل كلورنس درس التاريخ ونفذ الى عبره . فكان ادراكه هذا باعثاً لهُ على الشعور بوجوب الانفصال عن الدنيا والتفرغ لمطالب الروح العليا ، فانتظم « نفراً » في سلاح الطيران الجوي البريطاني ولم يقبل الاَّ ان يكون « نفراً » فيهِ . وانفق ساعات فراغهِ في دراسة الآداب القديمة وقد اخرج للناس من سنتين ترجمة جديدة لالياذة هوميروس

ان شهوة العظمة والسلطان منبع أعظم الشرور ، فاذا لم تضبطها الحكمة ضبطاً تامًّا — وقلما تجتمع الحكمة وشهوة السلطان — افضت الى اخفاق الرجل او الى تعرضه لحرية غيره من الناس . ونتيجة اطلاق العنان لهذه الشهوة ، كان من شأنه في جميع ادوار التاريخ ، أذية أصحابها وخلفائهم والقضايا التي نهضوا لتأييدها . وقد حال بين لورنس والانتظام في سلك هؤلاء الرجال صفاءٌ ذهنيٌّ كاد ان يكون حكمة خالصة

كان في شبابه يطمح الى بلوغ مقام العظمة في ميداني العمل والتأمل . ولكن خبرتهُ اثبتت لهُ تنافرهما . فأطبق «فرامل» التأمل على «عجلات» العمل وقال لنفسهِ الى هنا وكفى

كان في السادسة والعشرين من عمره لما خاض ميدان الحرب وهدفه أن يصبح جنرالاً وان يحرز

لقب « فارس » قبل ان يبلغ الثلاثين ، ولكنه طرح هذه المطامح جانباً قبل بلوغ الثلاثين اذ كان تحقيق هذه الاغراض في متناول يده . ولكن المطمح الذي ظلّ قائماً في نفسهِ وهو في طريقه الى دمشق ، كان العمل دون الابهة التي تصحبه . فلما وصل دمشق قذف حتى بهذا المطمح الى الرياح . اقام في دمشق ثلاثة أيام وهو حاكمها المطلق من وراء ستار . فلما كان اليوم الرابع ، ادرك خطر السلطان على حكمتهِ وحريتهِ فارخى العنــان . ذلك ان رداء السلطان كان قد أُلقي على كتفيهِ عند ما نضجت في نفسهِ ثمرة الحكمة المبتغاة . فطرح الرداء ولاذ بالحكمة

كان الطموح آخر قيد يفلّ حريتهُ الروحية ، فطرح القيد ليبلغ الانعتاق التام . وكأَنَّ الطبيعة قد أعدتهُ خاصة لذلك فجردتهُ من شهوات معظم الرجال . فليس لشهوة الطعام والشراب اثر في حياتهِ . انهُ يستطيع ان يأكل عشاءً كامل الالوان وان يتمتع بلذاذتهِ، الاّ انه يفضل اكلة واحدة في اليوم، وافضلُ الطعام ابسطهُ . ويظهر انهُ كان كذلك مجرداً من الشهوة الجنسية . وما على المرءِ الاّ ان يقدر ما تشغله هاتان الشهوتان من حياة الانسان ، وكيف تكبلانهِ بقيود منظورة وخفية، حتى يعرف مدى الحرية التي ادركها لورنس بتجرده منهما

ثم هناك قيد آخر تقيَّد بهِ الروح الحرة ، ولكنهُ قيد خفي ، وهو النزوع الى المنافسة . فهذا النزوع لازم لحث معظم الناس وحضهم على العمل . ولكنهُ يقوم حجر عثرة في سبيلهم كلما خطوا بضع خطوات . اما لورنس فقد تجرد منهُ فكان في حداثتهِ يرغب عن الالعاب المدرسية القائمة على المنافسة ، ويروى انهُ من سنوات اهمل العناية بحديقة صغيرة عزيزة عليهِ ، في محطة الطيران ، لما اعلن ضابط الفرقة انهُ يمنح جائزة لمن تتفوق حديقتهُ على حدائق اخوانهِ

فقد كان همُّ لورنس في خلال حياتهِ، ان يبلغ مستوى معين من الرجولة اقامهُ في ذهنهِ، لا ان يتفوق على احد . وكذلك ازال من حياتهِ ، مصدراً من اهم مصادر النزاع بين الناس

ثم ان غريزة الامتلاك ابعد اثراً في تكبيل النفس من نزعة المنافسة. وقد حاول لورنس جهدهُ ان يقطّع جميع حبالها . ولكن كيف يستطيع ذلك وهو انسان . ها هي تظهر في كتابٍ يملكهُ او في قطعة موسيقى يحوزها . حاول لورنس ان ينقص مطالبهُ الى المادية الى اقل حدٍّ مستطاع، ومحاولاتهُ في التفلّت من بعض قيودها وسمت بعض افعاله بسمة الشذوذ. قال : « لو كان في وسعي لوهبت كل شيء ولتنازلت عن كل شيء » . ولكنهُ لم يستطع ذلك ، من دون ان يتعرض لاخماد رغباتهِ الروحية ، او رغباتهِ الحسية المتصلة بالروح . فالجمال لا ينفصل عن الحق . والحكمة نفسها تحول دون بلوغ الحرية المطلقة

لقد فاق لورنس كل رجل آخر اعرفهُ في اقترابهِ من الحرية المطلقة . ولكنهُ لم يستطع بلوغها . كان روح الحرية مجسما في عالم مكبّل بالاغلال ، ولكن تجسيم هذه الروح ، في قالب انساني، يقضي بالخضوع لبعض القيود ، ولو كان خفية عن عين الانسان العادي

سوريا في زمن الصليبين[1]

انقولا زيادة

حالة سوريا السياسية

سهل ساحليٌّ ضيق في الشمال ، متسع في الجنوب ، تحدب عليهِ من الشرق سلسلة من الجبال الجميلة ، وقد يقوى عطفها عليهِ ، فتعانق البحر مرات رأفة بهِ ، وتسند هذه الجبال سلسلة اخرى الى الشرق منها ، فتدفع عنهما غائلة البحر الرملي المنبسط شرقاً الى حدود العراق . وبين السلسلتين سهول منخفضة ، يشتدُّ بها الانخفاض والضغط حتى تفقد الحياة في البحر الميت . في شمالها جبال طوروس الوعرة المسالك ، وفي جنوبها صحراء سيناء القديمة السبل — هذه هي سوريا

تتوسط الشرق الادنى ، وبذلك كانت قلب العالم المتمدن الخفاق . تقوى مصر فترنو اليها ، وينشط العراق فيتطلع نحوها ، وتقوم قائمة آسيا الصغرى فتفكر فيها . ويدفع البحر المتوسط باقوامه وسفنه فيجدون في شواطئها الملجأ . وتقسو الصحراء على اهلها ،فيهرعون اليها، ليستمتعوا بخيراتها ، وليستوطنوا اديمها . ويسود السلام انحاء العالم ، فيعنى بالتجارة ، وفي موانىء سوريا تتبادل سفن اليمّ وسفن الصحراء اثقالها

من الصحراء جاءها اكثر سكانها ، قرناً بعد قرن ، حتى كانت خاتمة المطاف هذه الحملة الاخيرة العربية ، التي وحدت — الى درجة كبيرة — لغة السوريين ، وثقافتهم ، وعقليتهم ، وتفكيرهم ، ودينهم ، منذ ثلاثة عشر قرناً

خضعت سوريا للراشدين ، وحمت الامويين ، وتبعت العباسيين ، وتقربت من الفاطميين . وطالعها القرن الحادي عشر الميلادي (القرن الخامس الهجري) وهي نهب مقسم بين المتغلبة على الاطراف من اتباع العباسيين وخصومهم . فالفاطميون في القاهرة ، والسلاجقة في ظلال الخلافة البغدادية ، والامراء المحليون والقبائل التركمانية والروم والقرامطة والمماليك ، يتنازعونها . وكلٌّ يستميل ويسترضي ، ويهب ويمنح ، ويقاتل ويفتح ، لقاء خضوع يرجوه ، او مال يزجى اليهِ ،من غلال الفلاح ، او رسم يفرض على تجارة تهبط البلاد

اما السلاجقة فقد شغلوا بامر انفسهم واطماعهم الخاصة ، فلم تكن لهم دولة بل دول ، وما كانوا يمتنعون عن اللجوء الى خصم اجنبي ليتقووا على آخر شرقي ، خصوصاً بعد وفاة كبيرهم ملكشاه (١٠٩٢ م) ، فصار الامر الى الاتابكة الذين شغلوا الناس في القتال دون مطامعهم

---

(١) القيت في نادي الشبيبة الارثوذكسية بيافا (فلسطين)

واما الفاطميون فمع ان سلطانهم السياسي قد دفع عن اكثر سوريا، فقد بقي لهم في المدن الكبرى وفي الضياع اتباع يدينون برأيهم حتى ان السلاجقة الامراء كانوا كثيراً ما يترضونهم [١] وما تغلب السلاجقة الا لانهم سنيون واكثر السكان من مذهبهم [٢] ، ولان المصريين اساءوا السيرة مع هؤلاء [٣] ثم انهم لم يعيروا السكان التفاتاً لما دهمهم الخطر الافرنجي . فقد ذكر النويري ان السبب الذي دعا اهل طرابلس الى التسليم انهم بينما كانوا ينتظرون وصول النجدة بحراً من مصر جاءهم رسول الخليفة الفاطمي على مركب يطلب منهم، لاسم الخليفة ، جارية جميلة كانت في طرابلس وخشب مشمش يصلح لعمل عود وغيره من آلات الطرب [٤] اضف الى ذلك انهم (اي المصريين) لما دهشوا لغزو الفرنج الشام ، لم يريدوا ان يثيروا حفائظهم خشية ان يهاجموا مصر ، فكان انجادهم للشام ضعيفاً

والخلافة العباسية كانت في نجوى عن كل ما في الشام اوغيره . فالضعف مستحوذ عليها وامرها بيد غيرها . فلا خير يرجى منها ولا أمل . فهذا ابن عمار، صاحب طرابلس ، يشتد به الأمر (١١٠٧م و٥٠١ هـ)فيذهب الى بغداد مستنجداً ، ويطول مقامه هناك على غير طائل [٥] . وهذا هاشمي من حلب، يذهب الى بغداد (١١١١ م و٥٠٥ هـ) يصحبه صوفية وتجار وفقهاء ليستنجدوا، فلا يؤبه لهم حتى يدخلوا جامع السلطان ، فينزلون الخطيب من المنبر ، ويكسرونه ، ويصيحون ويبكون ، لما أصاب سوريا من غزو الفرنج ، ويمنعون الناس من الصلاة جمعتين متتاليتين ، حتى يوعز السلطان — وهو صاحب الأمر والنهي في الخلافة — الى رؤساء الاجناد ، بالتأهب للسير الى دار الجهاد [٦]

وفي غمرة هذا النزاع ، ينشىء الامراء العرب أماراتهم الخاصة في سوريا . فطيء [٧] في شرق الاردن ، وعقيل في اطراف العراق ، وكليب في حلب ، وبنو عمار في طرابلس ، وبنو منقذ في شيزر [٨] . هذا الى عدد كبير كانت له سيادة خاصة [٩]. كما ان غيرهم من متغلبة الامراء ، صرفوا همهم في لهو وعبث ، وترف وبذخ [١٠] . والأمير يرث ابناؤه ملكه ، كما يرثون مزرعته وبيته ، فتنقسم الامارة الواحدة ، وتصبح حرباً على نفسها [١١]

ويتراءى لنا أن سكان البلاد كانوا راضين بهذا الذي أصابهم ، من خصومة تستعر ، ونزاع يستحر ، بين الدول والامراء والزعماء والمتغلبة . ولكن الواقع أن هؤلاء هم الذين كونوا مادة الدول وقوتها ، وكانوا هشيم القتال وناره ، وكان لهم من ثمّ ، نفوذ في شؤون بلادهم ، وخشيهم حكامهم الاتراك ، كما استماتوا في الدفاع عن نفوسهم ضد الصليبيين [١٢] . وكانت جبال لبنان مأوى الموارنة ، وشماليهم النصيريون (العلويون) وجنوبهم الدروز وشيعة جبل عامل ، وقد استطاع

---

(١) Gibb 16--17 (٢) الخطط ١ — ٢٦٣ (٣) الخطط ١ — ٢٤٩ و٢٥٨ (٤) نقله كردعلي الخطط ١ — ٢٩٢
(٥) الخطط ١ — ٢٩١ (٦) الخطط ١ — ٢٩٦ (٧) اسامة ١٢ (٨) راجع مقدمة الدكتور فيليب حتي لكتاب الاعتبار لاسامة بن منقذ (٩) Gibb 17—18 والخطط ١ — ٢٤٦ و ٢٤٩ (١٠) الخطط ٢ — ٥٢
(١١) الخطط ٢ — ٤٨ (١٢) Gibb 26—27

هؤلاء ان يتمتعوا باستقلالهم المحلي الى مدىً بعيد [١] . وفي القـلاع الحصينة القوية كان الاسمعيليون [٢] الثوار، ينظمون شؤونهم، ويوفدون رسلهم ليغتالوا كل من يحاول النيل منهم أو التعرض لهم وكل من هؤلاء الامراء كان يعنى بتحصين قلاعه وتضخيم أسواره ضد سيده أو جاره [٣]

وباختلاف هؤلاء القواد كانت تختلف أجناس الجند، فأكثرهم أتراك من اواسط آسيا، ولكن بينها السلافيون من شرق اوربا، والروم، والارمن، والكرج [٤] (الشراكسة) والديلم [٥] والتركمان (الغز) [٦]، والمغاربة [٧]، والاكراد [٨]، والخوارزمية [٩]، والخراسانية [١٠] . فقد اجتمع في الجيش الصلاحي، مثلاً، من الجموع والألسنة، من لا يحصر معدوده، ولا يتصور وجوده [١١]

والجيوش التي جيّشها مختلف الامراء تفاوت عددها كثيراً . فقد كان جيش ملكشاه (٤٠٠،٠٠٠) ولهُ (٤٦،٠٠٠) من العبيد [١٢]، وجيش كربغا الذي قاده لحصار انطاكية (٥٠،٠٠٠) [١٣]، وفي سياحات مندقل أنهُ من السهل على ملك مصر أن يجيش (٥٠،٠٠٠) [١٤] أما جيش صلاح الدين في حصاره لعكاء (١١٨٩ — ١١٩١) فنستطيع ان نتصور عدده اذا اطلعنا على ما جاء في السلوك عن « السوق الذي في عسكر السلطان » [١٥] . فقد روى المقريزي نقلاً عن البغدادي « كان السوق الذي في عسكر السلطان على عكاء عظيماً جدًّا، ذا مساحة فسيحة . فيه مئة واربعون دكان بيطار . وعددت عند طباخ واحد ثمانية وعشرين قدراً، كل قدر تسع رأس غنم . وكنت أحفظ عدد الدكاكين لأنها كانت محفوظة عند شحنة السوق، وأظنها سبعة آلاف دكان، وليست مثل دكاكين المدينة، بل دكان واحد مثل مئة دكان، لان الحوائج في الاعدال والجواليقات . ويقال ان العسكر أنتنت منزلتهم لطول المقام، فلما ارتحلوا غير بعيد . وزن سمان اجرة نقل متاعه سبعين ديناراً . وأما سوق البز العتيق والجديد فشيء يبهر العقل . وكان في العسكر اكثر من الف حمام، يغسل الرجل فيه رأسه بدرهم أو اكثر» وكان أصغر الامراء له على الاقل الف جندي [١٦]

---

(١) Gibb 28، الخطط ٢ — ٤ و ١٤ و ٣٢ و ١٢٢ و ١٣٥ و ١ — ٢٥١ والـكلية ١٨ — ٢٠٩ و Lamb ١٨٧ والحريري ٧٦ ولعل بعض الموارنة انضم الى الصليبيين كما ساعدهم بعض شيعة جبل عامل (٢) ابن جبير ٢٢٩ والمقريزي (السلوك) ١ — ٦١ (٣) مثل تحصين انطاكية — راجع Kugler 45 و Lamb 106 (٤) Gibb ٢٩ و ٣٣ و Kugler 7 و Lamb 166 والخطط ١ — ٢٨٠ واسامة ١٠٣ و ١٠٦ و ٢٠١ وتاريخ الكنيسة ٧٥ (٥) Gibb 35 (٦) Gibb 19, 25, 36 والخطط ١ — ٢٥٣، ٢٦٢، ٢٦٣، والفتح ١٥٦ (٧) Gibb 37 (٨) اسامة ٣٧ و ٤٧ و ٤٨ و ٤٩ و ٦٦ و ٩٥ و ١٢٢ و ١٤٩ (٩) تاريخ الـكنيسة ٨١ و ٨٢ والخطط ٢ — ١٠١ (١٠) اسامة ٧٣ و ٧٤ و ١٥٦ و١٥٨ . والظاهر ان مهمتهم كانت نقب الاسوار (١١) آبو شامة ٢ — ١٨٥ والفتح ٢٤٩ -- ٢٥٠ (١٢) Gibb 36 والخطط ١ — ٢٧٥ (١٣) Kugler 50 (١٤) Early Travels 146 (١٥) المقريزي «السلوك» ١ — ٩٤ . والمقريزي يقول انه نقله عن عبد اللطيف البغدادي، ولعل المصدر الذي يشير اليه هو الذي يسميه البغدادي الكتاب الكبير المذكور في كتابه المطبوع . والكتاب الكبير هذا لم يصل الينا (١٦) Gibb 36

ومن ملاحظة ما ذكرناه عن الجند نستطيع أن نقول أن سكان سوريا في العصر الصليبي كانوا مجموعة من الشعوب ، اكثرهم عرب ، ومعهم هذه القبائل التي مرت بنا ، وفيهم النساطرة واليعاقبة واليونان والموارنة من النصارى [١] ، والباقون — وهم اكثر السكان طبعاً — المسلمون . وفي كثير من المدن كان اليهود ، وبأيديهم الصناعات [٢] . ولعلَّ عددهم لم يتجاوز العشرة آلاف [٣] . وكانت اللغة العربية اللغة الجامعة لهم جميعاً ، ولهم لغاتهم الخاصة . والعلاقات بين أهل سوريا ، مع اختلاف المذاهب ، كانت حسنة [٤]

وقد أناط الحكام بالنصارى واليهود أعمالاً رسمية كثيرة من ذلك ان العادل ولى (١١٨٣ م و ٥٧٩ هـ) الانشاء وما يتعلق بأمور السر « الصنيعة بن النحال » وكان نصرانيًّا — ثم اسلم على يد العادل — فولى ابن النحال الوظائف لجماعة من النصارى ، وفي ذلك يقول الشاعر :

فاق دين المسيح في دولة الـــعادل حتى علا على الأديان
ذا أمير وذا وزير وذا وا ل وذا مشرف على الديوان[٥]

كما أن مستوفي دار حلب كان نصرانيًّا [٦]

الحالة الاقتصادية

هذا الوضع السياسي الشاذ الذي كانت فيه سوريا ، ترك في كل نواحي الحياة فيها آثاراً سيئة ، فهذه الاحداث المستمرة أثرت في احوال البلاد الاقتصادية ، زراعتها وتجارتها وصناعتها . واذا ساءت الادارة ساء معها كل شيء . وهذه دمشق ينقص عدد سكانها من نحو نصف المليون الى ثلاثة آلاف بسبب ادارة الفاطميين السيئة (١٧٠٥ م) [٧] . أما حلب فتنمو وتتقدم بحسن ادارة اق سنقر [٨]

فأما الزراعة فلم يولها السلاجقة عنايتهم ولا رعايتهم. وكان أصحاب الاطراف أشد وطأة منهم [٩] وتضررت البـلاد من الاحداث . فلم تينع الثمار ، وتكثر الزروع ، وتستغل الأرض ، الاّ في الأماكن الممتازة بحسب تربتها وكثرة مائها كغوطة دمشق واطراف يافا وقيسارية وانطاكية وطرابلس . ولعل سبب ذلك شيوع التملك الفردي [١٠] . وفي زمن احتلال الصليبيين للبلاد لم يكن للفلاحين حرية في استثمار الارض بله امتلاكها ، وتأخرت الفلاحة السورية وبقيت اراض كثيرة مواتاً [١١] . ومن هنا كانت كثرة حدوث المجاعات في سوريا أبان القرون الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر [١٢] . على أن بعض التحسن طرأ على الحالة الزراعية بعد ان استقرّ الفرنج في البلاد ، واطمأن اليهم الفلاحين ، واطمأنوا هم الى الفلاحين

---

(١) Gibb 29 و Kugler 11 و Lamb 127 وتاريخ الكنيسة ٧٥ و ٧٧ واسامة ٧٩ و ٨٠ وأبو شامة ١ــ٣٢ (٢) الحسني ١١٨ (٣) Prutz 8,151—152 و Early Travels 78—98 (٤) ابن جبير ٢٦٨ ، ابن بطوطة ١ ــ ٤٩ (٥) ابو شامة ٢ ــ ٥٢ (٦) الخطط ٥ ــ ٧٢
(٧) Gibb 27 عن سبط ابن الجوزي (٨) نفس المكان (٩) الحسني ١٠٠ (١٠) الحسني ١٠١ (١١) الحسني ١٠٥ (١٢) نفس المكان

وأما الصناعة فقد قامت في المدن الكبري قوية على العموم . وقد كانت سوريا مناطق ، تجيد كل منطقة منها صناعة . ففلسطين تصنع المرايا المعدنية والزجاجية وقدور القناديل والابر والخرز ، وصور تصنع الزجاج ، ودمشق تصنع الديباج والانسجة ودهن البنفسج والورق ، وبعلبك وحلب تحيك الاردية وبيروت تتقن تربية الحرير ونسجه [١] . وتشارك طرابلس تكرير السكر ونسج الحرير [٢] ، وفي طرابلس وحدها كان المشتغلون بالحرير نحو اربعة آلاف [٣] واشتهرت مدن اخرى بالمينا والصيني . هـذا الى الاسلحة المتنوعة المموهة بالذهب . وقد وصلت المُدى الشامية جاوه في جزر الهند الشرقية [٤]

***

وفي زمن الحروب الصليبية احتاج الجنود الكثيرون الى الثياب والعُدة والسلاح ، فقوى ذلك الصناعات المختلفة . وقد ترك لنا ابن جبير الرحالة المغربي وابن بطوطة والادريسي والمقدسي وجوانفيل ومندفيل [٥] وغيرهم ممن اقام في سوريا او ساح فيها في تلك الازمنة صوراً حية قوية للتقدم الصناعي الذي كانت عليهِ سوريا ، وانواع الصناعات التي كانت فيها ، ومدى اتقانها . فالحرير والزجاج والصابون والاسلحة والصيني والسكر والدبس السوري كان في درجة المصنوعات الرومية والاصفهانية والعراقية والمصرية [٦]

وقد احتفظت سورية بقيمتها التجارية ، سيما وان المدن الايطالية كانت لا تعرف غيرها طريقاً للشرق الاقصى ، وخصوصاً بعد ان ضيق ملوك بزنطية الخناق عليهم خوفاً من منافستهم . وهذا الاتجاه الجديد في اتخاذ موانىء سوريا مراكز للاتجار مع الشرق الاقصى قام بهِ الجنويون والبيزيون والبنادقة والاملفيون [٧] والنابليّـون ، فصارت عكاء واسكندرونة وطرابلس وصور محط رحال القوافل ، ومستودعاً لحاصلات الصين والهند وبلاد العرب ، وموزعاً لاسواق ايطاليا وفرنسا . وقد كان اول قنصل في التاريخ بندقيًّا تعين في عكاء في اواسط القرن الثاني عشر الميلادي [٨] وفي اثناء الحروب اعان تجار الاوربيين الصليبيين على الفتح ، وكان جزاؤهم على ذلك اسواقاً وخانات خاصة بنوها لتجارتهم وتجارهم ، مع انهم لم يهتموا ببناء كنيسة حتى في القدس . وزاد في العصر الصليبي اشتراك اهل جنوب فرنسا مثل سكان مونبليه ومرسيليا ونربون . في هذه الاسواق السورية كانت تلتقي الثمار والفواكه والمصنوعات المحلية بالبهارات والجواهر والمسك والتمر والنيلة واليشب وبقية

(١) الحسني ٩٢ — ٩٣ و ١١٦ (٢) الحسني ٩٤
(٣) الحسني ١١٧ عن هايد (٤) الحسني ٩٤ (٥) رحالة انكليزي زار سوريا في القرن الرابع عشر راجع اخباره في Early Travels 127—282 وعن الصناعة ١٤٣ (٦) الحسني ١١٦ — ١٢٠ (٧) كان لامالفي المدينة الايطالية مستعمرات تجارية في بزنطية وانطاكية والقدس . راجع Kugler 8 – 9 و 108-9,358 Prutz 46,47
(٨) فيليب حتي — الكتاب الذهبي ليوبيل المقتطف ١٤٩

منتجات الشرق الاقصى ، وبالاجواخ والانسجة الملونة والكتان والخيوط الذهبية والخمور الفرنسية والايطالية [١]

ولعل خير شاهد على التقدم التجاري ، غير ما مر بنا ، الخانات التي كانت بين المدينة والاخرى ينزل فيها التجار . فبعضها كان كأنهُ القلاع امتناعاً وحصانة وابوابه حديد ، وهي من الوقاية في غاية[٢] حتى ابان المعارك ، ما كانت تقف التجارة ولا تمتنع . يقول ابن جبير [٣] « ومن اعجب ما يحدَّث بهِ ان نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى وربما يلتقي الجمعان ويقع المصاف بينهم ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم . وفي مكان آخر [٤] ان قوافل المسلمين تخرج الى بلاد الافرنج وسبيهم يدخل الى بلاد المسلمين » . وقد شاهد هذا هو بنفسهِ . وكانت الضرائب معينة متفقاً عليها بين الافرنج والمسلمين ، يدفعها تجار كل قوم في بلاد الآخرين [٥] وكانت هناك ضرائب على الجسور وعند مداخل الاودية وامام الحصون [٦] اما كن دفع الضريبة منها تبنين وبانياس وكان بين مصر وسوريا مركز جمركي في قطيا (حول العريش) حيث يفتشون التجار والامتعة والجواز عليها من الشام الى مصر وبالعكس ببراءة ، ومجباها كل يوم الف دينار من الذهب [٧] على انهُ لما خضعت مصر والشام لدولة واحدة ، واشتدتا في مقاومة الصليبيين ، قويت التجارة بينهما وزالت الحواجز الجمركية [٨]

الحالة العلمية

قبيل الحملة الصليبية الاولى كانت سوريا مركزاً قويًّا من مراكز الحضارة الاسلامية . ذلك لان الثقافة الاسلامية ، التي اقتصرت قبلاً على بغداد وما إليها ، وجدت الآن في كل مدينة كبيرة تربة خصبة . فتنقل العلم في المدائن ، وانتشرت المكاتب الكبرى ، ووضعت الموسوعات ، وتعدد انواعها كما تنوعت الابحاث العلمية والسياسية والاقتصادية ، واصبحت المعرفة موزعة على كثير من الكافة بعد ان كانت وقفاً على الخاصة . وشجع الامراء المحليون هذه النزعات الادبية ليتم لهم مجال الفخر على اقرانهم ، والتفوق على أندادهم ، أو حرصاً على نشر التعاليم الاسلامية أو رغبة في العلم نفسه[٩] فأدى هذا الى نضوج الفكر [١٠] في كل ما درس من علوم الرياضة والفلك والطب والفلسفة والمنطق. ومع أن الاوضاع السياسية والحربية في العصر الصليبي كان من شأنها ان تصرف الناس عن العلم ، فقد احتفظت سوريا بالكثير من علمها ، وكانت المدارس منتشرة [١١] ، وحلقات التدريس في المساجد

---

(١) الحسني ١١٢ والمقريزي «السلوك» ١ — ١٨٦ (٢) ابن جبير ٢٣٣ — ٢٣٤ (٣) ابن جبير ٢٦٨ (٤) ابن جبير ٢٨٠ و٢٨٢ (٥) ابن جبير ٢٦٨ (٦) الحسني ١١٢ (٧) ابن بطوطة ١ — ٣١ (٨) المقريزي «السلوك» ١ — ٩٩

(٩) تاريخ الموصل ٢ — ٨٩ — ٩٠ (١٠) زيدان — آداب اللغة العربية ٢ — ٢٣١ (١١) زيدان — آداب اللغة العربية ٣ — ١٢

معقودة ، ودور القرآن بالطلاب عامرة ، والمعاجم التاريخية والجغرافيا موضوعة بين أيدي الناس · والذي وصل الينا من أمهات الكتب التي ألفها العلماء في الابحاث المختلفة ، منذ أواسط القرن الرابع الهجري الى أواسط القرن السابع أربى على السبعمائة غير ما فقد منها وهو كثير [١]

وأول من أنشأ ابنية خاصة للمدارس هو نظام الملك وزير ملكشاه السلجوقي ، في القرن الحادي عشر للميلاد ، ثم حذا الاتباع حذوه . وكانت قبله دور العلم هي المساجد وحدها . وقد زاد عدد المدارس السورية الكبرى ، في امهات المدن ، عن المائة والخمسين بين القرن الخامس والقرن السابع الهجري [٢] . وكان في دمشق وحدها ثلاث مدارس عالية للطب [٣] ومدرسة للهندسة [٤] . وهذا صلاح الدين لا يكاد يفتتح القدس (١١٨٧م و ٥٨٣ هـ) حتى يؤسس فيها مدرسة [٥] ، ويفعل مثل ذلك في عكاء [٦] وقد عني الامراء بانشاء دور للقرآن [٧] ودور العلم والحكمة ، كالتي انشأها ابن عمار في طرابلس ، فاصبحت طرابلس بها مباءة علم ودرس ومباراة في التعليم ، وجهز هذه الجامعة بمائة الف مجلد [٨] وكانت فيها مدرسة اليعاقبة [٩] ولعل طرابلس كانت اول مدينة علمية بالشام لما استولى عليها الصليبيون [١٠] وكذلك كانت مدن كثيرة في سوريا مشحونة بالعلم ككفر طاب وقرى دمشق [١١] والقدس . وكان الانفاق على التعليم يتوافق مع العناية بالمدارس ، لان لكل مدرسة اوقافاً تحبس عليها ، فلا تصرف في غير هذه السبيل . وقد كان ارزاق ارباب العمائم في دولة صلاح الدين تتجاوز مائتي الف دينار بشهادة الله [١٢] وكان للسلاطين وكبار القواد والامراء مجالس ادب يحضرها العلماء والفقهاء ، والمحدثون والشعراء ، فتكون سبيل ارشاد وافادة [١٣] وهذا صلاح الدين كان ينفق من صدقاته على ستمائة من فقهاء دمشق [١٤] والملك المنصور صاحب حماة كان يصحبهُ نحو مائتين من النحاة والفقهاء والمشتغلين بالعلم [١٥] وكان في سوريا ، وفي مدنها الكبيرة فقط . نحو عشرة مستشفيات مع ما يتصل بها من صيدليات ومدارس طبية [١٦]

هذه العوامل المختلفة ساعدت على نشر التعليم بين عدد كبير من الناس كما قدمنا ، ولم تحصره في عدد قليل من الخاصة . ولعلَّ من الخير ان نشير هنا الى ان تعاليم اخوان الصفا الفلسفية كانت منتشرة بين الاسمعيليين [١٧] . وقد عثر على كثير من نسخ رسائلهم في القلاع الاسمعيلية [١٨] . وقد كانت أشهر الكتب تداولاً في نهاية القرن العاشر للميلاد رسائل اخوان الصفا ومفاتيح العلوم والفهرست لابن النديم [١٩] ، وهي كتب لها خطرها في الحياة العقلية

---

(١) راجع زيدان – تاريخ آداب اللغة العربية – الجزء الثاني والثالث وأيضاً Prutz 53 4
(٢) الدكتور خليل طوطح ١٤٤ – ١٦٣ والخطط ٦– ٦٨ – ٧٠ وتاريخ الموصل ٢–٩٠–٩١ (٣) الخطط ٦–١٠٢ (٤) الخطط ٤ – ٤٩ (٥) Prutz 54
(٦) الفتح ٧٣ (٧) الخطط ٤– ٧ و٣٨ « اول دار انشئت للقرآن سنة ٤٤٤ هـ » (٨) الخطط ٤ – ٣٨
(٩) منها ابو الفرج العبري المؤرخ . راجع الخطط ٤–٣٩ (١٠) الخطط ٤–٣٨ عن فان برشم (١١) ابن النديم في الخطط ٤–٣٨ (١٢) القاضي الفاضل في الخطط ٤ –٣٩ (١٣) الفتح ١٢١ والنوادر السلطانية ٧ (١٤) الخطط ٤ – ٣٩ (١٥) الخطط ٤ – ٤٤ (١٦) الخطط ٦ – ١٦٢–١٦٣ (١٧) الكلية ١٨ مقال للسيد طيباوي عن «اخوان الصفا» (١٨) نفس المكان (١٩) نفس المكان

جبال النور

لصبحي جلبي
بمصلحة السكك الحديد المصرية

ان العمل بالمراصد الفلكية الرئيسية في أنحاء الكرة الارضية قائم الآن على قدم وساق لوضع خريطة مساحية لتخطيط السماء (Great Star Map) فآلة التصوير تعمل مضافة الى المرقب (التلسكوب) بجد ونشاط والمديرون يديرون دفة الاعمال بهمم عالية ومساعدوهم يدأبون أناء الليل واطراف النهار . ومع ان هناك صعوبة تذكر في تصوير النصف الجنوبي من السماء لقلة عدد المراصد الفلكية في نصف الكرة الارضية الجنوبي وعدم انتظام مواقعها الجغرافية بالمقابلة مع نصف الكرة الارضية الشمالي ، فقد بلغ عدد النجوم التي تمَّ تصويرها فعلاً حوالي عشرين مليون نجم ، ولا تستغربنَّ فمسألة تسجيل عدد النجوم أصبحت سهلة الآن بفضل استعمال الجهاز المسمى (Billiard Marker) المستعمل عادةً عند كبار هواة البليادرو فبينما الفلكي يحرك لوحاته تحت المرقب بأحدى يديهِ وهو « سهران يعد النجوم » يمكنه باليد الاخرى أن يضغط على زنبركات الجهاز ضغطات تسجل كل منها عدداً معيناً من النجوم التي يكون قد عدّها من دون أن يحوّل نظره البتة عن لوحاته فيتم العمل على هذا الوجه بسرعة وضبط مقطوعي النظير . ويقول اولو الامر أن تلك الخريطة المساحية العامة ينتظر أن تقع في جملة لوحات (Charts) لا يقل عددها عن ٣٠٠٠٠ لوحة لو وضعت بعضها فوق بعض لبلغ ارتفاعها اكثر من تسعة أمتار ولبلغ وزنها طنّين كاملين

وهنا ربما سأل سائل ما هو مجموع عدد النجوم التي ينتظر ان تحويها تلك الخرائط المكدسة بعضها فوق بعض في النهاية يا ترى ؟

يعتقد الفلكي الشهير الدكتور شابلي الاستاذ بجامعة هارفرد ومدير مرصدها Dr. Shapley أن عدد نجوم المجرة وحدها Milky Way — ونظامنا الشمسي جزء منها — يبلغ مائة الف مليون نجم ويعتقد وغيره من الفلكيين أن عدد نجومها يربي على ثلاثة أمثال هذا الرقم . وليست مجرتنا هي المجموعة النجمية الفردة في الكون لا بل من المسلم بهِ أن بواسطة تلسكوب مرصد جبل ولسن —وقطر مرآته العاكسة مائة بوصة— يمكن الوصول الى نحو مليوني مجرة كمجرتنا منثورة كالجزر في بحر الفضاء . فمجرتنا اذن كما قال الفلكي العظيم السر جيمز جينز Sir James Jeans ما هي الاّ منزل واحد من ملايين المنازل وأُسرة واحدة من ملايين الأُسر النجومية (السدم) ، فلو قلنا بعد ذلك أن مجرتنا تحوي أكثر نجوم السماء كان مثلنا مثل من قال أن منزلاً واحداً يحوي سكان بريطانيا العظمى بأسرها

والآن دعنا نضرب صفحاً عن عدد المجرات التي سوف نراها اذا ما تمّ بناء التلسكوب الجديد الذي سوف يكون قطر مرآته ٢٠٠ بوصة والذي قيل أن من المنتظر الوصول بهِ الى ١٦ مليون مجرّة . ودعنا نتساهل الى أبعد حد ممكن ونعتبر فرضاً ان ليس في فضاء هذا الكون الفسيح الرحيب سوى مجرتنا العظيمة والمليوني مجموعة من المجموعات النجمية التي ترى بواسطة تلسكوب مرصد جبل ولسن فكم يكون مجموع النجوم التي ينتظر أن تحويها صحائف مجلدات الخريطة النجومية الكبرى الجاري وضعها الآن ؟

ان مجرتنا كما قال الدكتور شابلي تحتوي على مائة الف مليون نجم اما كل مجرّة من المليوني مجرّة الاخرى فتتكوّن على الارجح من الفي مليون نجم في المتوسط فيكون المجموع هكذا :

مائة الف مليون نجم + ٢ مليون مجموعة × الفي مليون نجـم = ١٠٠٬٠٠٠٬٠٠٠٬٠٠٠

+ ٢٠٠٠٬٠٠٠ × ٢٬٠٠٠٬٠٠٠٬٠٠٠ = ١٠٠٬٠٠٠٬٠٠٠٬٠٠٠

+ ٤ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ = ٤٠٠٠١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ نجم !

هنا دعنا نسلّم جدلاً ان تلك النجوم والكواكب والشموس التي يفوق حجم كثير منها حجم شمسنا مئات المرّات قد تضاءلت وانكمشت حتى اصبح حجم الواحد منهـا لا يزيد عن حجم البرتقالة العادية ودعنا ايضاً نصدّق ما لا يمكن لعقولنا تصديقه من ان تلك البرتقالات اللوامع قد هبطت جميعها بسلام على سطح كرتنا الارضية فكم يكون حجم تلك البرتقالات اذا ما تراكمت بعضها فوق بعض او قل معي كم يكون حجم «جبال النور» المتلألئة التي سنراها يا ترى ؟

اننا لو قدّرنا ان قطر البرتقالة العادية يساوي ثمانية سنتيمترات لكانت هذه البرتقالات الساطعة اللامعة مجتمعة بعضها فوق بعض على شكل مكعب متساوي الاضلاع تساوي ما يأتي : —

٤٠٠٠١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ × (٨ × ٨ × ٨) = ٢٠٤٨٠٥١٢٠٠ ٠٠٠٠٠٠٠٠٠ س م^{٣}

اي ٢٠٤٨٠٥١٢٠٠٠٠٠ متراً مكعباً اي اكثر من ٢٠٤٨ كيلو متراً مكعباً

اي ان « جبل النور » هذا يبلغ طوله ١٢٬٧٠٠ كيلو متر وعرضهُ ١٢٬٧٠٠ كيلو متر وارتفاعه كذلك ١٢٬٧٠٠ كيلو متر . فتأمل ! !

واذا تراصّت هذه البرتقالات على شكل هرمي لبلغ حجم هذا الهرم ما يأتي : — نفرض ان عدد صفوف هذه البرتقالات اللوامع المتراصة على شكل هرمي هو «ن» فيكون ٤٠٠٠١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ برتقالة = $\frac{١}{٦}$ ن (ن + ١) (٢ ن + ١) قانون ومن هنا ينتج أن « ن » اكبر من ٢٢٨٩٤٤ واصغر من ٢٢٨٩٤٥ اي ان الصف الاخير عند قاعدة هذا الهرم البرتقالي يحتوي على ٢٢٨٩٤٤^{٢} برتقالة ولما كان قطر البرتقالة هو ثمانية سنتيمترات فرضاً

فاذن : طول ضلع القاعدة المربعة لهذا الهرم الموهوم يساوي : —

٢٢٨٩٤٤ × ٨ = ١٨٣١٥٥٢ سنتيمتراً اي ١٨٣١٥ متراً

[التتمة في الاخبار العلمية]

عالم المستقبل العجيب

مستقبل الحرب والملبس والمأكل

| أهم ما جاء في محاضرتين أذاعهما رئيس تحرير المقتطف من محطة الاذاعة اللاسلكية المصرية في شهري مارس ومايو الماضيين وحقائقهما منتزعة في الغالب من كتاب « ولادة المستقبل » لرتشي كالدر و « عالم المستقبل العجيب » للاستاذ لو و « شكل الاشياء القادمة » للكاتب الانكليزي ولز. وقد نشر الجانب المتوسط الخاص بمستقبل الحروب في مجلة الراديو المصري |

١ — الانباء بالمستقبل

اذا تصفحنا برامج التعليم بوجه عام تبينا لدراسة التاريخ فيها مقاماً عالياً . ولكننا قلما نجد ذكراً لدراسة المستقبل . بل لو قال أحد المتحمسين ان المستقبل ، يجب أن يدرَّس في المعاهد لقوبل قوله بالازدراء والاشفاق على عقله ولقيل في الرد عليهِ: « ان كل صبي يقرأ أقاصيص الروائيين أمثال قصص جول ڤرن وحكايات ولز العلمية وما هو من قبيلها ولكننا لا نستطيع أن نقيم وزناً لدراسة هذه الموضوعات ولا أن نعني بها عناية جدية . أما دراسة التاريخ فتختلف عن دراسة المستقبل لانها تتناول حوادث معينة نعلم حق العلم أنها وقعت في الماضي

الاّ أن طائفة كبيرة من المفكرين أصبحت ترى رغم هذا الاعتراض أن المستقبل يمكن أن يدرَّس في المعاهد . وان دراسته لا تقل في دقتها عن الدقة في دراسة الماضي . وانها على كل حال أجدى وانفع . فنحن اذا عجزنا عن تغيير الماضي فالاهتمام بالمستقبل قد يكون ذا شأن يسير في تحويل مجراه

ولرب معترض يقول : كيف تستطيع أن تعرف ما قد يقع في السنة القادمة ، دع عنك ما قد يقع بعد خمسين سنة أو بعد مائة سنة ؟

والرد على ذلك انهُ أيسر على العلماء ان يعرفوا ما ينتظر حدوثه بعد خمسين سنة من أن يعرفوا ما قد يحدث في السنة القادمة . وما يصح على دراسة المستقبل من هذا القبيل يصح كذلك على دراسة الماضي . فكتابة تاريخ السنة الماضية أشق من كتابة تاريخ لعهد الملك ادورد مثلاً . فقد يكون الحادث الاهم في السنة الماضية حرباً نشبت بين دولتين كبيرتين . ولكن اذا كتب تاريخ السنة الماضية

بعد خمسين سنة ، فقد لا يقرأ حفدتنا عن هذه الحرب الاّ بضعة سطور . وقد يكون المقام الاول في تاريخ السنة الماضية حينئذٍ لاكتشاف وسيلة وافية لخزن الطاقة الكهربائية. فقربنا لحوادث السنة الماضية يحير نظرنا ويجعل وزن الامور بميزانها الحقيقي من أعسر الاعمال بل من الاعمال المتعذرة

وقد كانت دراسة التاريخ الى عهد قريب تتناول الحروب وتتويج الملوك في الغالب . ولرب تاريخ فتح أو غزوة او تتويج يتعلمه جميع طلاب المدارس على انهُ من حوادث التاريخ الخطيرة لا يقابل من حيث أثره في العمران بمكتشفات فراداي الكهربائية بل لا يقابل بأحدها . فنحن نعلم ان أحد ملوك فرنسا قطع رأسه في الثورة الفرنسية ، ولكن حادثاً اخطر شأناً من هذا الحادث ، وهو اعدام لافوازييه الكيماوي ، قلما نراه مذكوراً في تواريخ الثورة الفرنسية او اذا ذكر فانه يذكر عرضاً أو في الهامش

فالكتابة عن المستقبل يسهل فيها اجتناب مثل هذه الاخطاء . فلست تجد عاقلاً يجرؤ ان يقول لك من يكون رئيساً للولايات المتحدة الاميركية بعد خمسين سنة ، ولا هو يستطيع ذلك . ولكن من المستطاع أن نتصور كيف تكون معيشة الناس بعد قرن من الزمان او بعد عشر قرون. ففي وسعنا ان نعرف على وجه من الدقة ، الطعام الذي يأكلون والملابس التي يرتدون والسيارات التي يمتطون ، وهذا كله وما هو من قبيله أخطر شأناً من تتويج الملوك وسقوطهم وانتخاب الرؤساء او اخفاقهم في الانتخاب . ان لافوازييه اخطر شأناً من الملك لويس السادس عشر . واقليدس وارخميدس أبعد اثراً في العمران من جميع الملوك والقواد في عصرها

ان الكتابة عن المستقبل ليست حزراً يوفَّق او يخطئه التوفيق . فاذا قلت لك انك سوف تربح الجائزة الاولى في نصيب المؤاساة في السنة القادمة او اذا قلت لكِ انكِ سوف تتزوجين رجلاً مديد القامة أسمر اللون كان عملي من قبيل الحزر. وفي بعض القوانين في بعض البلدان ما يعاقب على هذا العمل. ولكن اذا اكدت لكم انهُ بعد انقضاء قرنين من الزمان لا نجد قطع الفحم الاّ في دور الآثار وان الناس في سنة ٣٠٠٠ ب م قلما يعرفون ما هو الدخان المتصاعد من المصانع لا أبني قولي على الحزر . بل اكون عارضاً رأياً مبنيًّا على دعامتين من الحقائق المعروفة المؤيدة الآن وما يرجح ترجيحاً علميًّا اننا سوف نبلغه في المستقبل. وهذا هو صميم الاسلوب العلمي . خذ مثلاً على ذلك تزايد سرعة الطائرات في سباق شنيدر . فاذا نحن دونّا سرعة الطائرات التي فازت بالكأس في العشرين السنة الاخيرة ، والسنوات التي فازت فيها استطعنا أن نعرف على وجه من الدقة ما قد تبلغه سرعة الطائرة الفائزة في السباق المقبل اذا تم هو او ما كان من قبيله ، وقد جربت هذه الطريقة في السباق الاخير وعينت سرعة الطائرة الفائزة قبل السباق على هذا الاساس فلما عرضت سرعة الطائرة الفائزة فعلاً ظهر أن التقدير اخطأ ٢ في المائة فقط

ويمكن استعمال هذه الطريقة في جميع نواحي الحياة فنبني على النتائج التي تسفر عنها صورة

المستقبل . ومن الواضح أن التقدير في مسائل يشوبها شيء من الغموض مثل ملابس الناس ولغاتهم لا يمكن أن يكون دقيقاً في تفصيلاته فيكتفى فيه بالخطوط العامة

٢ – الحروب

يقول بعض الكتّاب ، ان حروب المستقبل ، سوف تكون اشد ترويعاً ، واكثر اهوالاً من حروب الماضي . ولكن طائفة العلماء ، بوجه عام ، لا توافق على هذا الرأي . لا ريب في ان الحروب المقبلة سوف تكون فتاكة ، شديدة الفتك — وقد كانت الحروب جميعها كذلك — ولكن العلماء يقولون ، ليس الموت طعناً بالرماح ، اسهل من الموت اختناقاً بالغاز . على ان هذا ليس بالامر المهم . بل المهم ان واضعي الخطط الحربية في المستقبل ، سوف يدركون ان الظفر في حروب في المستقبل لن يكون بتقتيل بعض الجنود في الخنادق . لذلك ينتظر ان تتجه انظارهم اولاً وقبل كل شيء الى العقد العصبية في جسم الامة ، الى المصانع التي تجهز الجيش بل وسائر طبقات الامة ، بالغذاء من جهة وبوسائل الكفاح من جهة اخرى . وعلى ذلك لا بد ان يزول الفرق في الحروب المقبلة ، بين فريق المحاربين من الامة الواحدة ، وفريق غير المحاربين

فاذا قلنا وما ذنب غير المحاربين حتى يعرّضوا لوسائل التقتيل ، قيل لنا لان غير المحاربين عليهم العمدة في تجهيز المحاربين بالقنابل والطيارات والغذاء ، فهم والمحاربون سواء . فاذا منعنا غير المحاربين عن صنع الاسلحة والغذاء ، تعذر على المحاربين ان يحاربوا

ولذلك ينتظر ، في مفتتح حروب المستقبل ، ان تتجه وسائل الهجوم — وهي الطيارات في الغالب — الى العقد العصبية في جسم الامة ، ترميها بالقنابل المتفجرة ، فتدمر المصانع ، وبالقنابل المحشوة بالغازات والجراثيم ، فتميت الاهلين . والدليل على ذلك الاتجاه ، ان بعض الدول التي تخشى الحروب ، اخذ يمرن ابناءه على استعمال الكمامات التي تقي من الغاز . هذا من حيث خطة الحروب المقبلة بوجه عام

***

أما من حيث وسائلها فمن المتعذر تعيينها الآن ، لأن وسائل الحروب تتأثر الى حد بعيد بالاختراعات التي تكون سائدة عند نشوبها . ففي سنة ١٩٠٠ مثلاً ، كتب أحد الكتّاب فقال إنه من المنتظر أن يكثر استعمال العجلة (البسكليت) في الحروب القادمة . ولكن قبلما نشبت الحرب الكبرى كانت قد استنبطت السيارات والطيارات واتقن صنعها الى حد ما ، فكانت في مقدمة الوسائل التي اعتمد عليها في الحرب الكبرى وقلما استعملت العجلات الا ما كان يسير منها بآلة شبيهة بآلة السيارة (الموتوسيكل)

ولما كانت هذه الوسائل تحتاج الى البنزين في تسييرها ، كان للبنزين اكبر مقام في الحرب . لذلك لما قلّ البنزين في فرنسا في خلال الحرب بعث كلمنصو الى الرئيس ولسن تلغرافاً يناشده فيه العناية بالامر ، فقال — ولم يكن مبالغاً من الوجهة العسكرية — «ان كل قطرة بنزين بمثابة قطرة من الدم»

ولكننا قد لا نحيد عن حدود المنطق العملي اذا قلنا ان الطيارات سوف تكون من أهم وسائل الحروب المقبلة . والصورة المروعة التي يرسمها الكتّاب لاستعمال الطيارات ، هي كما يلي في الغالب : لا تكاد تنشب الحرب ، حتى تتجه أساطيل الطيارات حاملة قنابل منوّعة ، فمنها ما يكون محشوًّا بالمواد المتفجرة فتدمر ماتقع عليهِ ، ومنها ما يكون محشوًّا بالغازات والجراثيم فيفتك بالناس. ويرجح بعض العلماء ان المخترعين يكونون قد تمكنوا في المستقبل من اختراع وسائل لتخفيف ازيز الطيارات ، ووسائل اخرى تمكنها من الارتفاع اسراباً الى علو عشرين الف قدم ، ابتعاداً عن المدافع الخاصة باطلاق النار على الطيارات ، ومن ذلك العلو الشاهق تلقي قنابلها المختلفة على المراكز الصناعية المهمة

ولا ريب في ان طيارات الدفاع تكون قد اتقنت كذلك . فتستطيع ان تحلق تحليق طيارات الهجوم، وان تسرع إسراعها ، وان تجهز بنوع جديد من القنابل على مثال الطوربيد الذي تطلقهُ الغواصات على السفن، لترمي بها الطيارات الضخمة المهاجمة

والمرجح ان يكون لاشعة الراديو ، اي الاشعة اللاسلكية ، أثر في هذه الناحية من نواحي الحرب . فقد جرب بعضهم التجارب لتسيير البوارج والطيارات من بعيد بواسطة الاشعة اللاسلكية . ذلك ان البارجة تكون خالية من الربان والبحارة ، والطيارة تكون خالية من السائق ومعاونهِ ،ولكن كلتيهما تحتوي على جهاز خاص ، يتأثر بنوع معين من الامواج اللاسلكية .فتطير الطيارة من ارض المطار بتوجيه هذا النوع المعين من الاشعة اليها ، ثم اذا ارتفعت الى علو معين استطاع الرجل الجالس في غرفة على الارض ان يسيّرها يميناً او شمالاً ، الى ان تبلغ مكاناً معيَّناً على الخريطة امامهُ ، فيضغط حينئذٍ على زرٍّ امامه، فتلقي الطيارة قنابلها من تلقاء نفسها

وما يصح على الطيارة يصح كذلك على البارجة

هذه الاعمال لا تزال في دور التجارب الآن . ولكنها في الغالب تصبح من الوسائل العملية بعد خمسين سنة على الاقل ، ان لم نقل قبل ذلك

ويقول أحد العلماء ان من وسائل حروب المستقبل حصوناً تبنى في الهواء . وهنا قد يعترض معترض فيقول وكيف يكون الحصن في الهواء ، والاصل في الحصن ان يكون راسخاً في الارض ، متين البناء لا تزعزعه القنابل ولا يدمره وقعها عليه

والواقع ان الأصل في الحصن هو الذي يقوله المعترض . فاعتراضه في محله . ولكننا أشرنا الى ان أهم سلاح في المستقبل سوف يكون سلاح الطيارات تلقي قنابلها من الجو ، واذاً تحتاج كل

مدينة كبيرة ، أو كل مركز صناعي ، الى وسيلة تمكنها من صد إغارات الطيارات . لذلك يقترح بعض العلماء أن تبنى حصون تحمل في الجو على اكياس صغيرة من الهليوم . والهليوم غاز خفيف لا يلتهب اذا مسّتهُ النار . أما الاكياس فيجب أن تكون كثيرة وصغيرة ، لانها اذا كانت كبيرة وقليلة ثم خرقت أحدها رصاصة ، مال الحصن الهوائي وفقد توازنه . أما اذا كانت صغيرة فاختراق كيس هنا وكيس هناك ، لا يؤثر هذا التأثير في فقد توازن الحصن . وينتظر أن يجهز الحصن الهوائي الذي من هـذا القبيل ، بمدافع لها قنابل تمزق ما تصيبه وتحدث فيه لهيباً ، فاذا اقترب الأسطول الجوي المهاجم من احدى المدن ، كان هذا الحصن على علو كاف يمكن رجاله من اطلاق القنابل على الطيارات المهاجمة ، حالة ان المدافع في الحصون الارضية لا تستطيع أن تبلغها

ومن القنابل التي ينتظر أن تستعمل في مدافع هذه الحصون الجوية قنابل تحتوي على الغاز . ولكنهُ ليس بالغاز السام ، لأن طياري الاعداء يكونون لابسين على أفواههم وأنوفهم كمامات تقيهم منهُ ، ولكنه يكون غازاً يلتهب بشرارة صغيرة . فتطلق القنابل على الطيارات ثم تشعل بشرارة خاصة فتلتهب ، والتهابها يعرقل عمل الطيارين المهاجمين أولاً ، ثم ان تمدد الهواء بالتهاب الغاز يقلقل الطيارات نفسها

ومن أسلحة الحرب القادمة جهاز جهنمي يجمع بين مبدإ الدبابة (التنك) ومبدإ الغواصة . فتبنى دبابات ولهـا حجر لا يخترقها الماء ولها كذلك محركات كمحركات السفن . فاذا اعترض الدبابة نهر عريض اجتازته عوماً كأنها سفينة من السفن . ثم إذا بلغت الضفة الاخرى ، استأنفت سيرها على عجلاتها والسير الذي يحيط بالعجلات

بل قد جمع بعض المستنبطين بين الغواصة والطيارة . واليكم ما كتبه أحد الكتّاب الحربيين قال :

رؤي من عهد قريب منظار غواصة فوق سطح البحر كأنه كرة صغيرة على وجه المـاء . ثم ما لبثت الكرة ان كبرت رويداً رويداً حتى أصبحت برجاً من الابراج التي ترى فوق دكات الغواصات . وبعـد بضع ثوان ظهرت الغواصة على سطح الماء ، ثم فتح البرج وخرج منه بعض الضباط واخرجوا طيارة مطوية الجناحين . فنشروا جناحيها ووضعت على رأس منحدر فجرت عليه قليلاً ، واذا هي في الهواء فيها سائق يديرها ووراءه ضابط المراقبة . فحومت نحو نصف ساعة حول الغواصة ثم عادت ورست قربها . ثم رفعت وطوي جناحاها وأعيدت الى مخبئها . وبعد ذلك غاصت الغواصة تحت الماء فغابت بغتة عن النظر كما ظهرت بغتة »

وهم الآن يجربون تجارب خاصة في صنع طيارات ضخمة لمكافحة الغواصات وهي غائصة في الماء ، بواسطة قنابل فعالة تعرف بقنابل العمق ، حتى اذا رأى رجال الطيارة غواصة تحت الماء ، اطلقوا هذه القنابل عليها فتستطيع ان تمزق دروعها ولو كانت غائصة

وقد تصور المستر ولز ، الكاتب الانكليزي المشهور ، وسيلة فعالة عجيبة ، يرى انها سوف

تكون من وسائل الحروب المقبلة . ومع ان ما تصوره مبني على الخيال في الغالب ، فليس ثمة ما يمنع تحقيقه من الناحية النظرية . فقد تصور المستر ولز مركباً كيماوياً تنثره الطيارات كرشاش الماء فوق بقعة من الارض ، فيصيب أجسام الاحياء من نبات وحيوان وانسان ، فتصاب بالعقم اي تصبح عاجزة عن التناسل ، فاذا انقضت بضع سنوات ، اصبحت المنطقة التي رش فوقها هذا الرشاش قاعاً صفصفاً . ومن الصفحات المروعة في كتابه (شكل الاشياء القادمة) وصفه لحملة الجراثيم ، التي بثّت فيها جراثيم الاوبئة المختلفة : كالانفلونزا ، وانواع الحميات ، والكوليرا ، والطاعون

***

على ان بعض الكتاب يرى ان الحكومات في حروب المستقبل ، لن تكتفي بأساليب الفتك المادية كالقنابل ، والغازات والجراثيم ، بل سوف تعمد الى الوسائل النفسية السيكولوجية التي تقوم عليها فنون الدعاية . فتبني احدى الحكومات مثلاً ، محطة راديو عظيمة القوة ، تذيع بها دعاية قائمة على اصول نفسية ، غرضها ان تضعف القوى المعنوية في ابناء الامة التي تحاربها . وقد تعمد الى اساليب التلفزة — اي الرؤية عن بعد بالامواج اللاسلكية — فتمثل في « استوديو » خاص بالسينما ، مشهد انخذال اصيب به جيش العدو ، وتذيعه بآلة التلفزة ، على انهُ مشهد واقع ، فتفتّ في عضد الشعب الذي خذل جيشه

ومما لا ريب فيه : ان تاريخ الحروب قد أثبت ، ان كل اسلوب جديد للهجوم ، يقابله ويماشيه اسلوب جديد للدفاع . فزيادة القوة في قنابل المدافع ، تقابلها زيادة السمك في الدروع . واستعمال الغاز يقابله استعمال الكمامات التي تقي من الغاز . والطيارات المهاجمة ، تقابلها طيارات الدفاع السريعة ، والدعاية اللاسلكية ، تقابلها دعاية مثلها او طريقة علمية لتشويش الدعاية المذاعة وعدم فهمها

اشار الفلاسفة وبعض الساسة الى الحرب التي تقضي على الحرب . ولكننا لن نفوز بحرب تقضي على الحرب ، ما زلنا كلما اخترع اسلوب للهجوم والفتك ، اخترع اسلوب يقابله للوقاية والدفاع . ليس يقضي على الحرب الاّ التعليم والتثقيف ، والاّ البيان للناس بأن مصلحتهم افراداً وجماعات تقتضي السلام والوئام

٣ — الملابس

لا يختلف اثنان في أن اللباس والغذاء من ضرورات الحياة . ولعلّ بعض النساء يرى أن اللباس مقدّمٌ على الغذاء ، في خطورة الشأن وعلو المقام . فكتّاب الغرب يحدثوننا ، انه لا يندر في حواضر البلدان الاوربية والاميركية ، ان تستغني الفتاة العاملة عن الغذاء الوافي ، لتشتري بما توفّره من ثمن الطعام ، جوارب حريرية تكسو ساقيها ، أو ثوباً على آخر طراز . وليس يندر بيننا في الشرق ان يضطرّ ربُّ البيت الى الكدح ، أو ربّة الاسرة الى التقتير ، لكي تهيِّأ للسيدة فرصة

مجاراة اخواتها اللواتي هنَّ أيسر حالاً منها ، في ملابسهنَّ . بل لعلَّ موضوع الأزياء في الفصل القادم أو السنة القادمة ، واللون الغالب ، والنسيج المفضَّل ، من الموضوعات التي تستغرق اكبر جانب من عناية السيدات ووقتهنَّ . والعالِم يهتمُّ بالازياء كذلك . ولكنه يهتمّ بها من ناحية ما ينتظر اذ تكون عليهِ ، بعد مائة سنة أو خمسمائة سنة . ويهتم كذلك بالمواد التي تصنع منها الملابس ، من حيث نسجها ولونها ودفئها واجتماع الشروط الصحية فيها ، رغبة في توفير كل ما يجب ان يتوافر فيها ، على أيسر حال

***

كان الغرض الاصلي من الملابس ، تجهيز الجسم بالدفء ووقايتهُ من تقلُّب الجوّ . ومن المحتمل ان تعود الملابس في المستقبل ، الى مكانتها الاولى في حياة الانسان ، فيصبح غرضها الدفء والوقاية فقط ، لا الزينة ، اذ لا يخفى انهُ انقضت قرون تليها قرون ، كان في خلالها الغرض الاول من الملابس الزينة لاستيقاف نظر الجنس المقابل . ولكن رأي الناس في المستقبل سوف يطرأ عليهِ تحوُّل وانقلاب . فالريش الثمين في قبعة سيدة ، أو على صدر فستانها ، وقطع التخريم الملونة الزاهية ، في اماكن ظاهرة من الملابس ، وتلوين الاظافر أو تفضيضها أو تذهيبها ، سوف ينظر اليها في المستقبل ، على انها طعمٌ جنسيٌّ ، لا اكثر ولا أقل . فتوضع المرأة التي تستعملهُ ، في طبقة واحدة ، مع الطيور والفراش ، التي تعتمد على أمثال هذه الاساليب ، لمثل هذا الغرض البيولوجيّ

والراجح أن مبتكري الازياء ، يكونون قد زالوا من الوجود حينئذٍ ، بعد أن اصبح الزيُّ واحداً في كل مكان للنساء وللرجال ، لأن الغرض من تفصيل الملابس ، في ذلك العهد البعيد ، سوف يكون الفائدة لا الزينة وجمال المظهر . هذا على الاقل ما يقولهُ العلامة الانكليزي الاستاذ لو في كتابهِ عالم «المستقبل العجيب» . ولما كان محدثكم ، انساناً ، تحركهُ رؤى الجمال فانهُ يرجو الاَّ تصح نبوءة الاستاذ لو في حياتهِ ، ولو كان ذلك على حساب الاقتصاد والفائدة

والفائدة في تفصيل الملابس تقتضي اموراً يحتمها العلم ، منها حسن التهوية للجسم المقمَّط لحفظ الجلد سليماً ، ومنها سهولة اختراق الاشعة لنسيج الملابس ، من فساتين وبدلٍ ، حتى نستفيد ونحن مرتدون الثياب ، الفائدة التي ينشدها طلاّب الرياضة على الشواطيء البحرية ، في ضوء الشمس والهواء الطلق . أما الضعف المستكنُّ في الطبيعة البشرية ، الذي يسهل على مشعوذي الخياطين والخياطات ، أن يملوا على الجماهير ، أزياء الفصل المقبل ، ويفرضوا عليهم ما يجب أن يلبسوا وكيف يجب أن يلبسوه ، فنكون قد تغلبنا عليهِ ، بالتعليم والتثقيف ، لانهُ قد لا يصعب ان نقنع الجنس اللطيف في المستقبل ، بأن استعمال الملابس لما يستعملنها لها ، أي للزينة واستيقاف نظر الرجال ، يضعهنَّ في صفٍّ واحدٍ مع بعض الحيوانات والنباتات ، وانَّ كرامتهنَّ لا تحتمل الموازنة من

هذا القبيل ، مع الحيوانات والنباتات ، لأن بعض الأزهار ، أو جميع الأزهار ، تظلّ تفوقهنَّ اضعافاً مضاعفة في ابتكار الوسائل العجيبة لاجتذاب النحل والطير

***

يرجح العلماء ان اتساع معرفة الانسان باسباب تقلُّب الجوّ ، سوف تمكنهُ من السيطرة ، عليهِ بعض السيطرة ، وعندئذٍ يصبح من الضروري جعل الملابس ، من نماذج قليلة ، متماثلة ، رغبة في التوفير والاقتصاد . اذ لا يصحُّ أن يكون في متناولنا ، جعل الحرارة في غرفةٍ ما موافقة لسيدة مرتدية أوهى الحرير ، حالة أن زوجها في الغرفة نفسها يرتدي بذلة من الصوف الكثيف . فملابس الناس في العصر الحاضر لم تصنع لتكون ذات صلةٍ ، بحالة الجوّ على الاطلاق . فملابس الرجال تزهق النفوس في أيام الحرّ ، وتضيّق أطواقها على رقابهم ، وتشدُّ أحزمتها على معدهم . ثم أنها ليست صحية على الاطلاق في أيام البرد ، فبضع قطرات من المطر ، تحوّل القميص المكوي والياقة المكوية الى خرق مبللة ، والطربوش القرمزي الجميل ، الى سطح قرمزي مجدور . حتى في ايام الشمس الطالعة ، تحجب ملابس الرجال عن أجسامهم الاشعة المفيدة ، المنطوية في ضوء الشمس ، الاّ عن ايديهم ووجوههم ، وهذا يمهد سبيل الثروة لبعض الاطباء الذين يعالجون الناس بأشعة مصنوعة او مولدة في المعمل ، وهي تعم الفضاء مباحة للصالحين والطالحين على السواء . اما النساء فأفضل حالاً من الرجال من هذه الناحية لكثرة ما يكشفنَ في ايام الدفء أو الحر عن سيقانهنّ وأذرعتهنّ ونحورهنّ

من المحتمل ان يوفق علماء الكيمياء في المستقبل الى صنع نسيج شفاف للاشعة التي فوق البنفسجي في ضوء الشمس . فزجاج شبابيكنا ، شفاف للضوء ، ولكنهُ يحجب هذه الاشعة المفيدة . اي اذا كشف احدنا عن صدرهِ ، وجلس في ضوء الشمس وراء زجاج نافذة مقفلة ، لا يجني من ضوء الشمس الفائدة التي يجنيها لو تعرض له في العراء على شاطئ البحر . ولكن العلماء تمكنوا في العهد الاخير ، بعد البحث والامتحان ، من صنع زجاج يأذن للاشعة التي فوق البنفسجي ، في اختراقهِ . وهو زجاج غالي الثمن ولا يستعمل الآن الاّ في المصحات . ولذلك فليس من المستحيلات صنع نسيج للملابس من قبيل هذا الزجاج العجيب

عندئذ يصبح غرض الذين يعهد اليهم في تصميم الملابس الصالحة الموافقة للحياة في المستقبل ان يصنعوها على ابسط مثال ، حتى يسهل خلعها وتعقيمها ، على اهون سبيل . لان ناس المستقبل ، رجالاً ونساءً ، لن يسلموا بانفاق ساعتين او ثلاث ساعات كل يوم ، في لبس الملابس المؤلفة من قطع كثيرة صغيرة ، وخلعها . وهي في تعدد طياتها من اصلح ما يكون لتجمع الغبار في ثناياها وما يحمله الغبار من المكروبات . اذ لا يندر حتى في عصرنا هذا من يدعي أن وقته من ذهب وان كل ساعة من وقته تعدل جنيهاً او بعض جنيه او اكثر من جنيه . أفيدري من يدعي هذا الادعاء ، انهُ ينفق كل سنة ما متوسطه خمسمائة جنيه الى سبعمائة جنيه على الاقل في لبس الملابس

وخلعها ، اي انه ينفق ما متوسطهُ نحو ساعتين في اليوم على شؤون اللبس ومقتضياته

ويتخيل الاستاذ لو ثوب المستقبل مؤلفاً من قطعة واحدة ، لا احزمة فيهِ ولا ازرار ولا كشاكش ولا ياقات ، يحكم اقفاله عند المعاصم والكواحل والنحور ، لمنع القذر من التطرق الى داخله . ويكون الثوب فضفاضاً ، لانه ليس من حسن الادب في شيء ان يكشف الانسان لجيرانه عن شكل جسمه ، على نحو ما تفعل بعض بنطلونات الرجال الآن وبعض ملابس النساء

وعلاوة على ذلك يكون الناس قد تعلموا حينئذٍ ان الهواء نفسهُ خير مدفئٍ للجسم ، وان الملابس تلبس لا لتدفئ الجسم ، بل لتحفظهُ دافئاً

ثم ان لبس البدلة الواحدة في المستقبل ، يومين متواليين ، من دون تعقيمها ، سوف يحسب عملاً افظع من الجلوس الى مائدة الطعام من دون غسل الايدي ، بعد ان يكون صاحبها قد لوثها بضروب الاقذار في خلال قيامهِ بعملهِ اليومي . وقد لا يبعد ان يعمد والدو المستقبل الى المكرسكوب ، فيرون اولادهم ، جوارب هذا العصر واحذيتهُ وقمصانه ومعاطفه ، او قطعاً من هذه كلها على شريحة المكرسكوب . فعندئذٍ يرى الاولاد هذه الملابس ، وسطوحها تعجُّ بضروب المكروبات فاذا هي اقذر من القاذورات نفسها في نظر العلم او مثلها على الاقل . وعندئذٍ يتعجب ابناء العصور القادمة ، كيف كنا نحن ، في هذا العصر ، في القرن العشرين ، نلبس ملابس هذا شأنها

ولذلك لا يبعد ان يستنبط في المستقبل ، معقّم ، في شكل خزانة كبيرة ، توضع فيها الملابس مساءً عند خلعها ، فيطلع عليها الصباح ، فاذا هي نقية من المكروبات ، لان المكروبات تكون قد قتلت في المعقم ، على نحو ما يميت الطبيب المكروبات على ادوات جراحتهِ عند ما يعقمها

***

وقد يكون من الخير ، ان نبين ان المشي باحذية عالية الكعوب ، يضعف عضلات البطن ، ويجعل أصابع القدمين ، قرنية مشوّهة وتبعث على كثير من الالم وعلى الاشمئزاز كذلك عند ما تطلُّ من احذية الصيف الخاوية . فاحذية النساء في المستقبل لن تكون عالية الكعوب . ثم ان الفراء على اختلاف انواعها سوف تفقد قيمتها متى ادرك العلماء والصناع ، كيف يصنعون الفرو بالتركيب الصناعي على نحو ما يصنعون الحرير الصناعي الآن . فاذا مضى العلماء في مباراتهم للطبيعة في صنع الحجارة الكريمة فقد يكون العاج في المستقبل ، افضل ما يتزيَّن بهِ ، حتى يكشف عن سر تركيبهِ في المعمل . ولما كان من المرجح ان استعمال النظارات على العيون ، سوف يزداد انتشاراً ، حتى لقد يصبح عامًّا في المستقبل ، فالمرجح ان استعمال المظلاّت في الصيف او في الشتاء يصبح حينئذٍ امراً ممنوعاً بقانون ، لان استعمالها ينطوي على خطر عظيم في الشوارع والميادين المحتشدة بالناس. ولما كان الصلع كذلك آخذاً في الانتشار — حتى لقد يصبح عامًّا بين الرجال على الاقل — فلا بدَّ من استنباط لباس للرأس يقيهِ من الشمس والمطر . وقد يكون هذا اللباس في البلدان الباردة

مما يدفأ داخله بالكهربائية باسلاك دقيقة ممتدة من بطرية صغيرة في الجيب . اما عادة رفع القبعات للنساء عند الالتقاء في الشوارع او في المركبات العامة ، فسوف تبطل ، لانهُ علاوة على مطالبة النساء بمساواة الرجال ، يتعرض رفع القبعة للاصابة بزكام حاد ، عند تعريض مساحة كبيرة من الجلد الحساس للهواء

ومما لا ريب فيه ، ان قيمة الانسان في المستقبل ، سواء اكان سيدة او رجلاً ، سوف تعين بما يفكر فيه ، لا بما يرتديه ، ولا يمكن حينئذ ان يخفي الانسان جهله وسخفه طويلاً ، تحت مظهر رشيق ، ويبقى فائزاً باحترام معاشريه

٤ — الغذاء

اما عن الطعام ، فيقال ان الممثل البريطاني المشهور ، المعروف باسم كين ، كان يختار طعامه ، وفقاً للدور الذي ينتظر منه تمثيله على المسرح . فكان يأكل لحم الخنزير قبل ان يمثل دور طاغية ، ولحم البقر قبل ان يمثل دور قاتل ، ولحم الضأن الغض قبل ان يمثل دور عاشق ولهان . والعلماء يقولون انهُ في الامكان جعل هندي ، مثلاً ، متصفاً ببعض الصفات المميزة للياباني ، بتغيير طعامه. ويذهب آخرون الى ان الصفات المميزة لقوم ما ، انما منشؤها الطعام الخاص الذي يأكلونهُ . وعلى ذلك ، فقد يكون كبار الطهاة في المستقبل ، اعظم بناة لصرح السلام العام . وقد أثبت علماء العصر الحديث ان لمفرزات الغدد الصم أثراً اي اثر في أطوارنا النفسية على اختلافها . واذن فلا بد لعلماء المستقبل من التعمق في دراسة العلاقة بين الطعام وهذه الغدد حتى يستطيعوا ان يسيطروا بالطعام على أحوال النفس

قلنا ان الاختصار في اللباس ، سوف يكون آية المستقبل ، كذلك الاختصار في الطعام . فالناس لن يكتفوا في المستقبل ، بانفاق ربع ساعات اليقظة حول موائد الطعام والشاي . بل انهم ليدركون حينئذ ان الاتخام بالبفتيك ، والثمل بالشمبانيا ، ليسا من ضرورات البحث في الاعمال ، كما يدعون الآن ، بحثاً معقولاً

ومما لا ريب فيه ان ناحية من نواحي الاكل التي ينتظر ان تفوز بقسط كبير من عناية العلماء في المستقبل ، هي ناحية المواد الكيمائية اليسيرة التي لا بد منها للجسم السليم مثل بعض العناصر المعدنية كالكلسيوم والمغنيزيوم والحديد واليود وغيرها . والمرجح ان تحذف من قوائم طعامنا ، المتبلات والمشهيات كالخردل والفلفل ، لانها تهيج الاغشية الحساسة في الجهاز الهضمي . وقد قال احد العلماء ، ان تناول قليل من كلوريد المغنيزيوم ، يساعد على منع السرطان . ولكن اذا اراد الناس ان يأكلوا كل ما من شأنه ان يمنع السرطان أو ان يكفوا عن كل ما يسببه ، اضطروا

—لكثرة الآراء واختلافها — ان يلازموا ، موائد الطعام أو ان يموتوا جوعاً

ولكن لا شبهة في ان مقادير الطعام في المستقبل سوف تكون قليلة جدًّا . فما نأكله الآن يفوق كثيراً ما نحتاج اليهِ لاغراض التغذية . ومن هنا كانت السجون اصح من الفنادق . واذن فسوف يكتفي الناس في المستقبل بأقل قدر من الطعام يحتاج اليه الجسم . فقد كانت العادة في الماضي ولا تزال في بعض البلدان ، ان يمضي الانسان في الاكل حتى يعجز عن النهوض . واصل هذه العادة عدم اطمئنان الانسان الى حصوله على الغذاء الوافي في ساعات الجوع او في مواعيد معينة . فكان الصياد اذا اصاب طريدة بعد بضعة أيام من الجوع يأكل منها ما يستطيع ، لانهُ لا يدري متى يصيب طريدة اخرى . ولكن هذا عاد غير ضروري الآن . بل أننا اذا مارسناه عاق نمونا العقلي . ولكن من سوء الحظ أن معدة الانسان تعودت من قرون متطاولة ، أن تتلقى اقداراً كبيرة من الطعام . فاذا استطاع العلماء في المستقبل أن يحصروا القدر الوافي من الغذاء في بضع حبّات يتناولها الانسان في اليوم — وهـذا منتظرٌ تحقيقهُ — وجب كذلك أن تخترع اشياء اخرى تملأ المعدة ، ولو لم يكن فيها غذاءٌ ما ، حتى تكفى المعدة هذا الاحساس الذي تعودتهُ في الماضي . وتبقى الحال على هذا المنوال ، حتى يتحقق ، ما يتخيلهُ الاستاذ لو وهو من أغرب ضروب الخيال

فالاستاذ لو يتخيّـل انهُ سوف يأتي يوم يصبح الانسان فيهِ غير محتاج الى المعدة التي عملها هضم الطعام حتى يصبح في شـكل يسهل معهُ انتقالهُ الى الامعاء فيُـمتَـص من جدرانها . فاذا تمّ صنع الغـذاءِ في حبوب صغيرة كما قدمنا ، استغني عن المعدة وعملها ، وعندئذٍ تصبح عملية استئصال المعدة ذائعة ذيوع استئصال الزائدة أو ذيوع التطعيم والتلقيح ضدّ الأمراض المعدية . وعندئذٍ نعود لا نحتاج الى تناول الأشياءِ التي غرضها ملء المعدة فقط لمجرد ملئها . ويتبع كل هذا ، ان الوقت الذي ينفقهُ الناس حول موائد الطعام والشاي يوفّـر حينئذٍ كلهُ ، أو على الأقل تسعٌ وتسعون في المائة منهُ ، وتنفق الساعات التي توفّـر كل يومٍ ، من وقت اللبس والأكل، في العمل أو في مطالب الروح والعقل العليا

وسوف يبحث الكيمائيون عن أفضل المشروبات للتناول اليومي . فالمشروبات الشائعة الآن هي الكحول ، كما في الوسكي والكونياك والزبيب (العَـرَق) ، أو القهوة والشاي وعنصرهما الفعال متشابه ، أو التبغ (وقد حسبناهُ مشروباً تجوزاً) وعنصره الفعّـال هو النيكوتين . ولكل مادة من هذه المواد اخطارها . ولا ريب في أن تناول الكحول سوف يمنع منعاً عامًّا باتًّـا في المستقبل . وليس سبب ذلك لان استعمال الكحول خطر على السواد من الناس ، بل لانهُ خطرٌ اذا حفلت به رؤوس الاقلية منهم . فالمسدسات ممنوع استعمالها أو حملها الاّ برخصة . وليس ثمة من ينكر أن للمسدسات فائدة في بعض الاحوال . ولكن الخوف من أن تقع في أيدي اناس اختلّ فيهم ميزان العقل والشعور ، أفضى الى منعها ، لئلاّ تصبح في أيديهم خطراً عامًّـا . واذن فالكحول في المستقبل لا يمنع

الأ برخصةٍ ، لمن يقرُّ الرأي العلمي ان الكحول ضروريٌّ لهم . عندئذٍ يختفي الشبان السكارى المترنحون من الاماكن العامة . لانهُ من غرائب هذا العصر ، ان يحسب التقيؤ في مكانٍ عام على أثر الافراط في الأكل ، عملاً سمجاً ، ولا يحسب الترنح بأنفٍ محمرٍّ وعينين زائغتين على اثر الافراط في الشرب ، عملاً سمجاً كذلك

***

ولعلَّ المشروب الجديد الذي يستنبطهُ الكيماويون ، يكون من اثره ، تمكين الناس من البقاء مستيقظين مدة طويلة من دون ان يصابوا باعياءٍ او بردّ فعل سيّءٍ بعد زوال اثر المشروب. والواقع ان مركباً من هذا القبيل امتحن في بعض مناجم المانيا في خلال الحرب الكبرى فثبت انهُ يمكن العامل من ان يعمل اثنتي عشرة ساعة متواصلة بسهولة ولم يشعر العمال الذين جرب فيهم باي رد فعل سيءٍ بعد مداولة استعماله اثنتي عشرة شهراً

والمرجح ان المنبهات التي يتناولها ناس المستقبل ، لا يكون من اثرها تخدير الدماغ ، وخلق صورة غير حقيقية للحياة في اذهان من يتناولها . بل على الضد من ذلك سوف يكون من شأنها ان ترهف حواسه ، فيصبح الصناعي الذي يتناولها اقدر على متابعة الآلات السريعة ببصره او سمعهِ. او قد يبلع المصور مشروباً يرهف فيه الاحساس بالالوان ، ولكن الاعتراض على ذلك ان كلٍ من رغب في مشاهدة صورتهِ يجب ان يتناول هذا المنبه كذلك حتى يرى الصورة على ما يجب ان ترى

ويرى المفكرون ان ارتقاء الصناعة الآلية ، سوف يفضي من تلقاء نفسه ، الى نشر الاعتدال في تناول المنبهات . فاستعمال السيارة كان افعل في هذه الناحية من عشرات من جمعيات الاعتدال لان سائق السيارة يفهم انهُ اذا لم يكن مالكاً لزمام عقله واعصابهِ ، عرَّض نفسهُ وعرَّض غيره للخطر . نعم الحوادث كثيرة وتبعث على الحزن والاسى . والذين كانوا سبباً لها يجب ان يعاقبوا اشدَّ العقاب. ولكن الواقع ان العلم الصناعي ممثلاً في السيارة كان افعل في هذه الناحية من وعظ الواعظين وارشاد المرشدين. كذلك صانع المستقبل ، فانهُ اذا ادرك عظم القوة التي رهن سيطرتهِ ، امتنع عن كل ما من شأنهِ ان يحول بينهُ وبين هذه السيطرة الكاملة عليها ، لان في ذلك كرامتهُ الفنية

اما من حيث التبغ فيرجح انهُ سوف يُسنُّ قانون ينصُّ على انه من المحرم بيع السجاير قبل ان تستخرج منها المواد الضارة التي فيها باشراف علمي يضمن ذلك

هذه خواطر تجمع بين العلم والخيال والفكاهة ، فيها العملي الذي يمكن تحقيقهُ قريباً ، وفيها النظري الذي قد لا يتحقق الاَّ بعد قرون ، وفيها السخيف ، او ما نحسبهُ سخيفاً ولن يتحقق على الاطلاق . ولكنني ارجو ان تكونوا قد اصبتم في بعض ما قلته شيئاً من الفكاهة ، وارجو كذلك ان يكون البعض الآخر مما يحملكم على التفكير في نواحٍ من الملبس والمأكل تحتاج الى الاصلاح

الفاظ التصنيف

في الحيوانات الدنيا

للامير مصطفى الشهابي

— ٢ —

المَفْصِليَّات ARTHROPODES

قلت في آخر المقال السابق ان المفصليات من شعب الحيوان الكبيرة وان من ضمنها الحشرات التي لا يحصيها العد . ولاشك ان عدد انواع الحيوانات المفصلية يزيد وحده على انواع الحيوانات السائرة . وهي تعرف بتفاصُل اعضائها وجسمها يكون مغطى بجلدة تقسو أحياناً وتسمى « شيتين » اي الغطاء وبخصائص اخرى لا يفيد تناولها في هذا المقال لانها مفصّلة في كتب الحيوان

ومن المفصليات ما لها خياشيم تتنفس بها في الماء وهي المنسوبة الى ردف شعبة « الخَيْشوميّات » Branchiates ومنها ما لها قصبات تصلح للتنفس في الهواء وهي « القَصَبيّات » Trachéates . وفي هذه ثلاثة صفوف : « العنْكَبوتيات » Arachnides و« كثيرات الأرجل » Myriapodes و« الحَشَرات» Insectes. اما الاولى ففيها صف مهم واحد وهو صف «القشريات » Crustacées

***

« القشريات » هي كما قلت حيوانات مفصلية مائية لها غطاء رقيق شفاف في بعضها وكلسي حجري قاس في بعض كما في السرطان والكركند . ويقسمون القشريات ردفَي صف وهما «مشرومة الغشاء » Entomostracés و« رخوة الغشاء »Malacostracés وفي ردف الصف الاخير حيوانات متناسقة في اجزائها اي يكون فيها ١٩ زوجاً من الاجزاء دائماً . واليها تنسب القشريات الكبيرة . اما ردف الصف الاول ففيه حيوانات يتفاوت عدد اجزائها . وهي قشريات دنيا

وفي مشرومة الغشاء اربع رتب وهي « ورَقية الاقدام » Phyllopodes و« ذَيْليّة الصدَف» Ostracodes و« مجذافية الاقدام » Copépodes و « هُدّابية الأقدام Cirripèdes وفي كل من هذه الرتب حيوانات كثيرة لا يمكننا ذكرها في هذا المقال الموجز

اما رخوة الغشاء فيقسمونها بادىء بدء قسمين كبيرين وهما « لاطئة الأعيُن» Edriophthalmes و« زَنْدية الأعين » Podophthalmes وفي القسم الاول رتبتان مهمتان وهما « متساوية الاقدام » Isopodes و« مزدوجة الاقدام » Amphipodes وكذلك في القسم الثاني ثلاث رتب وهي « مشقوقة الاقدام » Schizopodes و« فمِية الاقدام » Stomatopodes و « عُشارية الاقدام » Décapodes

وعشارية الاقدام اعلى القشريات منزلة واتمها تركيباً وفيها ثلاثة اقسام كل منها ردف رتبة وهي اولاً الذَيَّالة «عن معجم شرف» Marcoures وفيها الإرْبيان والروبيان (قُرَيْدِس في الشام وجَمْبري في مصر Crevette) والكَرْكَنْد او سرطان البحر Homard والكركند الشائك Langouste . ثانياً « قصيرة الاذناب » Brachyoure وفيها السرَطان المعروف ثالثاً « شاذة الاذناب » Anomoures

***

﴿ العنكبوتيات ﴾ هي مفصليات تتنفس في الهواء لا في الماء . وتتركب من جزئين احدهما يشتمل على الرأس والصدر والثاني هو البطن . وتكون جميع الزوائد والاقدام في الجزء الاول . ويحتوي هذا الصف على الرتب الآتية : « العَقْربية » Scorpionides و « اشباه العقربية » Pseudoscorpionides » وقدَمية اللوامس » Pédipalpes » والشَبثيَّات » Solifuges و « الرُتيليَّات او الحواصد » Phalangides » والعناكب » Aranéides و « القَمْلية او القُرادية » Acariens و « البطيئات » Tardigrades

﴿ كثيرة الاقدام ﴾ يحتوي هذا الصف على الحيوانات المعروفة المسماة ام اربع واربعين ويسمونها الحَرِيش . وثمة رتبتان وهما « شَفَوية الاقدام » Chilopodes و « شفوية الاحناك » Chilognathes

***

﴿ الحَشَرات ﴾ قال احد علماء الحيوان ان الانواع الحيوانية اذا قدرت بنحو ٢٧٢٠٠٠ نوع فان منها ٢٠٩٠٠٠ نوع تنتسب الى شعبة المفصليات . ومن انواع هذه الشعبة ١٨٠٠٠٠ نوع تنتسب الى صف الحشرات وحده . والحشرات اجمالاً متسقة التركيب فلها دائماً ثلاثة اجزاء واضحة: رأس وصدر وبطن . وفي الرأس العيون والفم والزُبانيان « القرنان » . وفي الصدر ثلاث حلقات عليها ثلاثة ازواج من الارجل لا تزيد ولا تنقص ولذلك اطلق بعضهم على الحشرات اسم سداسية القوائم Hexapodes . وتكون الاجنحة (وعددها زوجان) قائمة على حلقتي الصدر السفليين . اما البطن فليس فيه زوائد في الاعم .وهو ينتهي بثقب للافراز وآخر للتناسل

ومن المعلوم ان تقسيم الحشرات يقوم على الاجنحة واشكالها . فهنالك اولاً ردف صف « المُجَنَّحات » Ptérygogènes وردف صف « عديمات الاجنحة » Aptérygogènes والى هذه تنتسب رتبة « المُذَنَّبات » Thysanoures اما المجنحات ففيها ثماني رتب معروفة وهي :

(١) أصْلية الاجنحة	Archiptères	(٥) مُغْمَدة الاجنحة	Coléoptères
(٢) مستقيمة الاجنحة	Orthoptères	(٦) غِشائية الأجنحة	Hyménoptères
(٣) نصفية الأجنحة	Hémiptères	(٧) حَرْشَفية الأجنحة	Lépidoptères
(٤) عَصَبية الأجنحة	Névroptères	(٨) مزدوجة الجناح اوذوات الجناحين	Diptères

﴿ المُـذَنّبات ﴾ — هي اقدم الحشرات وابسطها . سميت كذلك لأن لمعظمها خيوطاً كالاذناب في مؤخرها . واليها تنسب فصيلة « اللاحسات » Lépismides ومنها حشرة كالعثة مبذولة في البيوت تلحس المواد السكرية والصوف والكتب احياناً ولها حراشف لامعة ولذا يسمونها بالعامية « السمكة الفضية » Poisson d'argent واسمها العلمي Lepisma saccharina اي لاحسة السكر او عثة السكر

***

﴿اصلية الاجنحة﴾ — هي اقدم المجنحات من الحشرات . وأهم فصائلها : «الأرَضِيّات» Termitides و « اليَعْسوبيات » Libellulides و« بنات اليوم » Ephémèrides (عن لغة العرب)

***

﴿ مستقيمة الاجنحة ﴾ — تتحدر من الرتبة السابقة . ولها مثلها استحالات غير كاملة وأفواه صالحة للسحق لكن جناحيها الاماميين يقسوان . وكثيراً ما يصيران غير صالحين للطيران . وأهم فصائل هذه الرتبة « ثاقبات الاذن » Forficulides و « بنات وَرْدان » Blattides و « الجَرَاديات » Acridides و « الجُدْجُديات » Gryllides و « اشباه الجراد » Locustides وهي الجراد الطويلة القرون و « السُرْعُوفيات او فصيلة السراعيف » Mantides (لغة العرب) و « العَصَويات » Phasmides

***

﴿ نصفية الاجنحة ﴾ — اهم خواصها كون افواهها معدة لمص السوائل وكون استحالاتها غير تامة . وفيها ردف رتبة « مختلفة الاجنحة » Hétéroptères وردف رتبة «متشابهة الاجنحة» Homoptères . والى الردف الاول تنسب الفصائل الآتية « فصيلة بَقّ البساتين » Pentatomides و « فصيلة بَبْر الكمثرى » Tyngides و « فصيلة البقّ » Acanthides وهو بق الفراش ، و « فصيلة ذارعات الماء » Hydrométrides و « فصيلة عقارب الماء » Népides

اما الردف الثاني فاليه تنسب « فصيلة الزِيْزان » Cicadides و « فصيلة براغيث النبات » Psyllides و « فصيلة الارْق او حشرات المنّ » Aphides و « فصيلة قمل النبات او حشرات المغَافير » Coccides (الارق والمغافير عن معجم الحيوان)

***

﴿ عصبية الاجنحة ﴾ — انسلاخاتها تامة وبهذا تفترق عن اصلية الاجنحة مع انها متحدرة منها . واهم فصائلها « فصيلة ليث عِفرّين او ام عُوَيف » Myrméléonides (معجم الحيوان) و « فصيلة حشرة اللؤلؤ » Hémérobides

﴿ مغمدة الاجنحة ﴾ — يمكن عدها متحدرة من مستقيمات الاجنحة . ولها استحالات

تامة وهي اعظم رتب الحشرات واكثرها عدًّا . وأفواهها جعلت للسحق . وجناحاها الاماميان استحالا غمدين قاسيين يختبيء تحتهما الجناحان الخلفيان . ويعمدون في تفريق مغمدة الاجنحة بعضها عن بعض الى ارساغ اقدامها . فالتي يكون رسغها خمسة اجزاء تسمى « خماسية الاجزاء » Pentamères وهكذا تتفوق « رباعية الاجزاء » Tétramères و « ثلاثية الاجزاء » Trimères و « مختلفة الاجزاء » Hétéromères وكل من هذه الاقسام الاربعة ردف رتبة

وفي خماسية الاجزاء الفصائل الآتية : « فصيلة الخنافس البِبْرِية » Cicindélides و « فصيلة حشرة السرطان » Carabides و « فصيلة الدَرَقة » Silphides و « فصيلة العُثّ » Dermestides و « فصيلة أُيَلِيَّة التأشير » Lucanide و « فصيلة الدودة البيضاء » Mélolonthides و « فصيلة الجُعْلان » Scarabéides و « فصيلة الزَقازِب » Buprestides و « فصيلة الدودة الصفراء » Elatérides و « فصيلة اليراعة او الحُباحب » Lampyrides

وفي رباعية الاجزاء ما يأتي : « فصيلة القَتَع » Scolytides و « طويلات القرون » Cérambycides uolongicornes وسمّيت « القرنبيات » في معجم الحيوان والارجح استعمال هذه اللفظة لفصيلة Coprides لان صفات القرنبي في الكتب العربية اقرب الى صفات انواع هذه الفصيلة وهي في الحقيقة تحت فصيلة الجُعْلان . ومن رباعيات الاجزاء ايضاً « فصيلة السوس » Curculionides و « فصيلة ذوات السَبيبة » Bostrichides (الاب انستاس)

وفي ثلاثية الاجزاء « فصيلة الدعاسيق او بنات العيد » Coccinellides (معجم الحيوان) . وفي مختلفة الاجزاء « فصيلة خنافس الدقيق » Ténébrionides

***

﴿ غشائية الاجنحة ﴾ — أعلى الحشرات قدراً واكثرها فطنة وذكاء . كثير منها تعيش مجتمعة ويكون افرادها على طبقات ولكل طبقة عمل خاص في سبيل المجموع . ويتجلى ذلك في حياة النحل والنمل وغيرها . وتقسم هذه الرتبة ردفي رتبة وهما : « ذوات المِثقب او لاطئات البطون Térébrants ou cessiliventres و « ذوات الحُمَة او معلاقيات البطون » Porte-aiguillon ou pétioliventres

وفي الردف الاول « فصيلة زنبور الحنطة » Céphides و « فصيلة الذباب المنشاري » Tenthrédinides

وفي الردف الثاني العفصيات Gallicoles ou cynipides . وورد في معجم الحيوان عن مجلة لغة العرب انها الاوابر مفردها آبِرة وقنفش واحدتها قنفشة . قلت أما انا فأرجح اطلاق الأوابر على فصيلة Chalcidides لان اليها ينسب الذباب الذي يأبِر التينَ البستاني وهو مشهور

ومن هذا الردف ايضاً « فصيلة الذباب المهتز » Ichneumonides و « فصيلة النحل » Apides و « فصيلة الزنابير » Vespides و « فصيلة النمل » Formicides وقريب منها فصيلة « جبابرة النمل » Camponotides و « فصيلة نمل البساتين » Myrmicides

﴿ حرشفية الاجنحة ﴾ — هي رتبة الفراش . سميت حرشفية الاجنحة لوجود حراشف دقاق ملونة على اجنحتها الغشائية . وأفواهها تصلح للمص واستحالاتها كاملة . وهي تقسم ردفي رتبة فالردف الاول « دبوسية القرون » Rhopalocères والثاني « مختلفة القرون » Hétérocères وفي الاول فصائل منها « الفراشية » Papilionides و « فصيلة فراشة الملفوف » Piérides و « فصيلة الفراشة الطاووسية » Nymphalides

ومن فصائل الردف الثاني « الدودية » Bombycides ومنها دود الحرير وغيرها . و « فصيلة قَتَع الحراج » Cossides و « فصيلة دودة الراهبة » Liparides و « فصيلة فراشة الجُنْجُل » Hépialides و « فصيلة طاووس الليل او الفصيلة الرُحلية » Saturnides و « فصيلة الدارعات » Géométrides ou phalénides و « فصيلة أبو الهول او فصيلة فراش الشَفَق » Sphyngides و « فصيلة فراش الليل أو اللّيْليّات » Noctuellides و « فصيلة فراشة الحصاد » Agrotides و « فصيلة فراشة غمّا او الدودة المُقَوّسة » Plusides

وهنالك مجموعة من الفراش يسمونها « دِقاق حرشفيات الاجنحة » Microlépidoptères تنسب اليها « فصيلة سوس الثياب » Tinéides و « فصيلة دودة التفاح » Pyralides و « فصيلة الفاتلات » Tortricides

***

﴿ ذوات الجناحين ﴾ ليس لها سوى جناحين كما هو ظاهر في اسمها . والجناحان الخافيان هما اللذان فقدا . وفمها خرطوم المص . واستحالاتها تامة . وفيها ثلاثة اقسام كل منها ردف رتبة . فالردف الاول « قصيرة القرون » Brachycères والثاني « خيطية القرون » Némocères والثالث « عديمة الاجنحة » Aphaniptères ومن قصيرات القرون « فصيلة النُعر » Tabanides و « فصيلة النبار او ذباب النغف » Oestrides (معجم الحيوان) و « فصيلة الذباب » Muscides و « فصيلة العنتر » Asilides (معجم الحيوان)

اما خيطية القرون ففيها « فصيلة البعوض » Culicides و « فصيلة القرش » Simulides و « فصيلة السُوَيْكِتة » Psychodides (تصغير ساكتة . هكذا تسمى في لبنان ووادي التيم . وتسمى السكّيت في بيروت . وهي مبذولة في انحاء الشام تلسع على صغرها لسعاً مؤلماً دونما صوت) و « فصيلة طوال البعوض » Tipulides و « فصيلة ذباب الحنطة » Cécidomides

واما عديمة الاجنحة فهي البراغيث Puliciens ومنهم من يجعلها رتبة برأسها

هذه اهم الفاظ التصنيف في الحيوانات الدنيا . اما الحيوانات العليا فالفاظ تقسيمها معروفة الا قليلاً . ولا اظن ان العلامة صاحب معجم الحيوان او البحاثة صاحب معجم الالفاظ الطبية والطبيعية قد اغفلا كثيراً منها

من شعر الاساطير

البعث الاول

[انشأ الشاعر علي محمود طه ملحمة كبيرة عنوانها «البعث الاول» تقع في نحو ثلثمائة بيت من الشعر وموضوعها الفن بين الرجل والمرأة ننشر منها هذه القصيدة التي ساقها الشاعر على لسان ملك يتحدث الى حواء عن الفنان الاول]

هنالكَ حيث تَشبُّ الحياة ... وحيثُ الوجودُ جنين العَدَمْ
وحيث الطبيعةُ جبَّارةً ... تشقُّ الوهادَ وتبني القممْ
وحيث السعادةُ بنتُ الخيالِ ... ولذّاتُها من معاني الألمْ
وحيث الطريدان شجْـا الكؤوس ... ومجّـا صُبَابتها من قِدَمْ

***

رنا والطبيعةُ في حَلْيِـها ... وحواءُ عاريةٌ كالصَّنَمْ
فمن أين سار وأنّى سرى ... تصدَّتهُ مقبلةً من أَمَمْ
هنـالك أولُ قلبٍ هفا ... وأولُ صوتٍ شدا بالنغمْ
وأول أنملةٍ صوّرتْ ... وخطّتْ على اللوح بعد القلمْ !

***

فما لكِ حواءُ أنكرتهِ ... وأعقبتهِ حسراتِ النـدمْ
لقـد كان راعيكِ المجتبي ... فأصبح راميكِ المتّهمْ
ولولاكِ ما ذرفتْ عينُـهُ ... ولا شـامَ بارقةً فابتسمْ
وعاش كما كان آباؤه ... يُغنّي النجومَ ويرعى الغنمْ !!

مصر قبل ٤٥ قرناً تحمل :

لواء الأدب القديم

حكم الفيلسوف « بتاح حتب » ونصائحهُ

[لاحمد يوسف : بالمتحف المصري]

قد يجد الدارس لتاريخ مصر القـديم سجلاً حافلاً بالعظمة ، طوت صفحاته السنون ، وكاد الاهمال والنسيان يضربان عنه صفحاً ، والواقع أن جميع اسباب الثقافة والعلم كان قد ضرب فيها أجدادنا بسهم وافر ، وان المصريين الاقدمين لم يخلفوا لنا أحجاراً نشاهدها . وقبوراً نسرح الطرف في أبنيتها ، معجبين ، أو مستغربين انهم صرفوا هممهم وبذلوا كل تلك العناية في اقامتها . فهم ، الى جانب ما تركوا لنا فيها من فن نابض ناطق ، بهر الدنيا بهاؤه ، وأعجزت صنعته ، قدموا الينا وثائق من ثقافتهم وعلمهم تشهد بالفخر لهم ، وتقيم الدليل الناصع على مدنيتهم العالية

وهذا الادب ، الذي هو بضاعة الذهن العالية ، وخير ما تفخر به حياة هذا الجيل ، كان لهم فيه المجال الواسع اذ سبقوا هذا العالم بأسره ، الحديث والقديم ، الى غرس بذوره وقطف ثماره الناضجة

لم يطرقوا سبيل الأدب من ناحية واحدة ، بل مارسوه كتابة وشعراً وقصصاً ، وتباروا في أسلوبه كما نتبارى اليوم ، وكان منهم الفلاسفة ، والكتّاب النوابغ ، وكان منهم الشعراء والناثرون وكان منهم الروائيون أو القصصيون ، وقد تفننوا في أساليب فن الادب وابتكروا ، فجعلونا نقرأ لهم ما يفيض بعواطفهم ، وجعلونا نمتع أعيننا وأذهاننا بالبديع من أفكارهم وآرائهم

والمجال متسع لاثبات كل ذلك . نرى ان نبدأه اليوم بهذه الحكم العالية لأحد فلاسفتهم وكبار كتابهم ، ويدعى «بتاح حتب» . كان وزيراً للملك «إسّي» ، من الاسرة الخامسة ، الذي كان حاكماً في نحو سنة ٢٦٧٥ قبل الميـلاد . أي ان العبارات التي سنعرضها يرجع تاريخها الى حوالي ٤٦٠٠ عام قبل وقتنا هذا . ولا شك انها أقدم ما عرف من آثار الأدب في الوجود . ولهذا الوزير مقبرة كبيرة بديعة النقوش ولا تزال تشاهد في جملة ما يشاهد من آثار سقارة . وكانت هذه الحكم التي دوّنها ذلك الفيلسوف ممـا يدرس في المدارس المصرية القديمة ، كأنموذج للأدب الناضج ، يتثقف بهِ النشء ، وظلت الاجيال تتناقلها للانتفاع بمعانيها وأسلوبها حتى عهد الاسرة الثامنة عشرة

وقد عثر على نصائح « بتاح حوتب » هذه في أوراق بردية كثيرة ؛ أتمها عبارةً تلك المعروفة ببردية پريس — نسبةً الى صاحبها — وهي محفوظة بباريس

وهاك نص هذه النصائح ، ننقلها اليك مترجمةً حرفيًّا من دون أي تعديل. ولا ندفعك الى أن تضعها والادب الحديث في كفتي ميزان ، لتقابل بينهما . بل يجب ان لا تنسى ملاحظة قدم عهد ذلك الذهن الذي دوّنها . ومع ذلك فاني على يقين من أنك ، أيها القارىء العزيز ، ستعجب بها كل الاعجاب ، وستقدرها قدرها اذ ترى انها لا تقلُّ عما في يديك من الحكم اليوم . بل إنك ستلحظ ان كثيراً من المعاني التي تحويها قد نقلتها الايام عن ذلك العهد الغابر ، وان المصريين القدماء قد سبقوا الى معناها ، أو وضعوا بأيديهم وافكارهم أساس ثقافة العالم

والآن فاسمع ماذا كتب ذلك الفيلسوف . وسننقل اليك ما نتخيّره من العبارات لكيلا نطيل عليك

يتحدث الفيلسوف «بتاح حتب» بهذا الاسلوب :

يقول «بتاح حتب» لجلالة الملك «إسّي» : إن الشيخوخة أتت ، والهرم قد حلّ . وقد وهنت المفاصل ، وفاجأتنا حالة الكبر بالظهور ، وخذلت القوى ، واستبد بنا الضعف . وأصبح الفم صامتاً لا ينطق ، والعينان غائرتين ، والاذنان صمّاوين . وغدا القلب كثير النسيان ، لا يذكر حتى أمسه . والعظم مرهقاً بالشيخوخة . والأنف خاملاً لا يستنشق . (كان الأنف معتبراً عندهم كأساس الحياة البشرية) . سيان في صورة الضعف الوقوف أو الجلوس . انقلب الخير شرًّا . وانعدمت حاسة الذوق . ولم يؤد الكبر للانسان اكثر من أن جعله ضعيفاً في جميع احواله

« إذن فدع الخادم الواقف هناك — يقصد نفسه ، وهو يخاطب الملك ، وهذا تعبير متواضع يدلّ على الادب الجم — يلتمس ان يجعل نفسه شخصية في تلك السن الكبيرة . وان يجعل ولده يجلس في مكانه ، حتى يتهيأ للنصيحة ، وهو في اذن اولئك الذين يسمعون ، وفي ذهن اولئك الذين غبروا قبلنا ، اولئك الذين خدموا السلف في الزمن الماضي — والمعنى الظاهر انهُ يتمنى ان يكون ولده نافعاً للملك منفعة من مضوا لملوكهم . اما المعنى الخفي فهو فكرة حكيمة متأدبة دار حولها بشكل يشهد له بالقدرة والمهارة في اعداد الناس لقبول نصائحه بطريق مؤدب غير مباشر . وهذا هو غاية الحكمة في مخاطبة الملوك ، او ما اصطلح عليه بأدب الملوك — هل يفعل اولئك لك على مثل ما فعلوا لغيرك حتى يزول التنازع بين الناس ، ويصبح شاطئا النهر (النيل) في خدمتك

« قال جلالته : نعم . انصحه (أدّبه) في محاورات . (وهنا جملة مفقودة من الاصل الذي ننقل عنهُ) حتى يكون قدوة لاولاد العظماء . وليت الطاعة تلازمه ، ويستوعب كل رأي سديد تطرحه عليهِ . فليس هناك من ولد يمكنه الفهم من نفسه »

وبدأ الفيلسوف نصائحه فقال : « يمكنك ان تتعلم من كل انسان . لا تغترَّ بعلمك . ولا تعتقد بأنك عالم . بل خذ النصح من الجاهل كما تأخذه من المتعلم . فان حدود العلم بعيدة المنال . وليس من احد حاز غاية العلم . والعلم الصحيح (التام) اعز من الحجر الكريم الاخضر . وهل

انت تجده مع الخادمات فوق احجار الطواحين — اي افقر الفقيرات — ؟ »

﴿ الآداب ازاء الخطيب ﴾ : « ان وجدت خطيباً لبقاً وأحسن منك براعة ، فاثنِ ذراعك له واحنِ ظهرك (علامة الاحترام عند المصريين القدماء) . وان كان يتحدث عن جهل فلا تحجم عن ان تردَّه الى الصواب ، حتى يقول الرجال له « انت جاهل »

« اما اذا كان يوازيك علماً ، وأخطأ في الحديث ، فاظهر نفسك بالصمت ، حتى تكون افضل منهُ . ولن يحمد هو من السامعين ، بل تعد انت من زمرة العظماء . وان كان وضيعاً ، ولا يوازيك علماً ، فلا تحمق عليه اذ تعلم انه حقير . (وهنا جملة مفقودة) . بل غض عنه الطرف ، فيعاقب نفسه بنفسه . ان من الخطل ان يؤلم المرء حقيراً . (وهنا جملة مفقودة) . قد تقتله بعقاب العظماء »
— ربما يقصد من ذلك ان يلزم الصمت ويتجاهله كما يفعل العظماء —

﴿ قد تفوز بالخير في حياتك باعتمادك على الحق والصدق ﴾ اذا كنت قائد قوم ، وكان لك الامر فيهم ، فاسع وراء العمل الطيب حتى لا تبقى هناك خطيئة في اخلاقك . الصدق جميل وجزاؤه دائم . لم تتبدل قيمة الصدق يوماً منذ خلقه خالقه (منذ الخليقة) — وفي عقيدة القدماء ان الاله رع هو الذي جلب الصدق الى الدنيا — على ان من ينكر شريعته — اي الصدق — يحق عليه العقاب . انهُ الطريق المستقيم امام ذلك الذي لا يعرف شيئاً — اي الجاهل — والعمل السيء لم تصل الميناء بضاعته — يقصد انهُ لم ينجح مطلقاً — حقاً ان السيئات قد تكسب الجاه . ولكن الجاه يبقى بقوة الايمان . وقد يقول الرجل الصادق «هذا ملك والدي» — ومعنى هذه الترجمة الحرفية هو ان تأديب والده له عن طريق الصدق هو خير ما ورثه له »

﴿ كن اميناً في توزيع الرسائل ﴾ اذا كنت احد من يعتمد عليهم عظيم من العظماء ليوفده الى آخر ، فأدّ الوفادة كما يجب . بلغ الرسالة كما يشير عليك . لا تكتم خبر ما يقال لك . وحاذر ان تقع في النسيان . تمسك بالصدق ولا تعدُ حدوده . حتى وان كنت مضطرّاً ألاّ تقص شيئاً مفرحاً . حاذر كذلك من الكلام التافه الذي يسقط بقدر الرجل العظيم ، من طريق الاسلوب الدارج . وان اصبح العظيم خاملاً فهذا ما تمجه النفس — والمعنى من كل هذا أنك لا يجب أن تصوغ تعبيراً وضيعاً محل اللغة التي تخيرها سيدك . فانهُ يكون مخزياً للرجل العظيم اذا كانت لغته هراء — »

وهنا عبارة لم يضع لها الناسخ القديم عنواناً . يقول فيها « پتاح حتب » :

« اذا أنت حرثت الارض ونما حقلك وأغدق الله عليك بذلك ، فلا تشبع فمك وحدك دون ذوي قرباك »

﴿ لا تحقر اولئك الذين ارتفعوا ﴾ « اذا كنت شخصاً وضيعاً ، وكنت في رعاية رجل من أهل النعمة ، يؤدي كما يجب فروض الله ، فتناسَ كل شيء عن سابق شأنه . لا ترفع قلبك دونه — اي لا تتعاظم عليه — على حساب ما تعلم عنهُ في الماضي . بل احترمه من أجل ما صار اليه .

لان الثروة لا تأتي من نفسها — اي جزافاً — (وهنا جملة مفقودة) ولكن الله هو الذي يهب النعمة . (وهنا جملة مفقودة ايضاً) »

﴿ امنح نفسك فرصة للنزهة ﴾ « إتبع قلبك — اي سر نفسك — طالما انت تعيش . ولا تعمل اكثر مما يجب . لا تختصر الوقت الذي تمنحهُ لقلبك فان من البغيض للنفس ان يختصر الوقت الذي لها »

﴿ واجبك نحو ولدك ﴾ « ان كنت ذا مكانة ، وكان لك زوجة . وانجبت لك ولداً يرضي إلههُ بعمل الحق — اي ولداً صالحاً — ويشب على خلقك . ويصغى إلى نصائحك . وكانت اعماله تصلح بيتك . وكان يرعى كما يجب مالك . فزوّده منك بكل ما هو خير

« انهُ ولدك الذي وهبتهُ روحك . فلا تحجب عنهُ قلبك

« اما ان كان يسيء . ويتطاول على آرائك . ولا يتبع نصائحك . وكانت اعماله في بيتك غير صالحة . ويعارض كل ما تقوله . (وهنا جملة مفقودة) . فاقصه اذن عنك . لانهُ ليس ولدك — يقصد انهُ عاق — انهُ لم يولد لاجلك (وهنا جملة مفقودة ايضاً) »

﴿ تحذير من النساء ﴾ « ان كنت افرغت صداقتك في بيت كان لك الحرية في دخوله ، اذ كنت فيهِ سيداً او شقيقاً او صديقاً ، او اي صفة اخرى يسرك ان تكونها ، فحاذر ان تقرب النساء — ويقصد مغازلة من ليس له فيهنّ حق — فان المكان الذي هنّ بهِ ليس صالحاً

« قد تضيع بسببهنّ الألوف . وينجذب الرجال ببريقهنّ الخلاب ، وقد جهلوا ان ذلك البريق ما يلبث ان يصبح كالحجارة المحروقة — اي انها نشوة قصيرة الامد ، ما تلبث ان تزول — شيء تافه . ضئيل . كالحلم . تأتي بعده الحسرة »

﴿ تحذير من الحقد ﴾ « ان رغبت ان يكون خلقك حميداً ، وان تجرد نفسك من جميع المساوىء ، فاحذر من الحقد . فهو مرض وبيء لا يشفى . ان الاخلاص يستحيل بوجوده . انهُ يجعل الصديق المحبوب بغيضاً . ويغير ثقة الرئيس في رجله . ويقبح حقيقة الوالد والوالدة ، واشقاء الوالدة بالمثل — اي الاخوال — ويطلق الرجل من زوجه . انهُ حزمة من جميع انواع المساوىء . وحقيبة مملوءة من كل شيء بغيض . قد يطول بقاء من كان خلقه كريماً ، ومن يسير بحسبما يأمره الخلق الكريم . انهُ يربح من ذلك الغنى . اما الحقود فيفقد كل شيء »

﴿ ميزة الزواج ﴾ ان كنت رجلاً كاملاً فأسس لك بيتاً ، واحبب زوجتك فيهِ . اشبعها واكسها . واعلم ان العطر شفاء مفاصلها — اي إرضها بالعطر — سرّ قلبها طالما تعيش معك . انها الحقل الصالح لصاحبها — وهذا يوافق ما جاء في الآية الشريفة : « نساؤكم حرثٌ لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم »

خدمات العرب للكيمياء الحديثة

نشوء الحركة العلمية في البلاد العربية

لحسن السلمان

قال رودول في كتابه « ظهور الكيمياء » : « عند ما أخذت العلوم القديمة في الانحطاط واوشكت معالم الحضارة اليونانية على الاختفاء ، كانت البلاد العربية مزدهرة بحضارتها الجديدة ، التي بنى اركانها الدين الجديد — الاسلام — فشيدت الجامعات والمراصد والمكتبات العامة والمتاحف ودواوين الاستنساخ وجمع الكثير مما كتبهُ اليونان والفرس ونقل الى العربية . وازداد شأو هذه الحضارة بعد ما اكتسح المسلمون بلاد المغرب والاندلس . اذ لم ينقض زمن طويل حتى تمكن اولئك البدو من احياء بلاد الاسبان وجعلها كعبة العلم ، ولم يمض على الفتح الاسلامي قرن أو قرنان حتى تأسست بها أعظم الجامعات يوم ذاك »

ويعتقد الاستاذ رودول ان يوستنيانوس لما أمر باغلاق مدارس أثينا والاسكندرية ، وعند ما أخذ يعذب أهل العلم ، فرَّ عدد غير يسير من هؤلاء الى بلاد فارس وشمال ما بين النهرين حيث أسسوا مدارسهم ثانية ، وعادوا لبثّ معارفهم . فلما وقعت فارس وما بين النهرين في أيدي العرب ، واتخذوا بغداد حاضرة لهم شعروا بضرورة ترجمة الكتب الفارسية اليونانية مستقدمين أمهر علماء النساطرة لنقل ارسطو وديوسقوريدس وغيرهما من فلاسفة اليونان وعلمائهم

وكتب عن هذه الحركة العلمية الاستاذ ستلمان ما خلاصته : عند ما بدأت الحركة العلمية في ما بين النهرين وأسس الخلفاء دواوين الترجمة في قصورهم ، ترجم كثير من كتب اليونان الى اللغة العربية اما نقلاً عن الفارسية أو مباشرة من اليونانية . ومن اشهر ما ترجم رسائل ديموقريطوس وكتب زوسيموس ، فاتخذت هذه الكتب أسساً للدرس وللبحث العلمي في دور العلم ببغداد وفي غيرها من حواضر البلاد الاسلامية ، مما جعل النظريات اليونانية في أصل المادة وما وراء المادة ، واصل العناصر وكيفية تكونها ، وعلاقة بعضها ببعض ، والبحث عن حجر الفلاسفة والاكسير ، ان تنتقل الى دور العلم وتسيطر على اذهان الباحثين والمتعلمين . وكما ان كلياتنا اليوم لا تبحث الا في النظريات الحديثة امثال النظرية الكهربية ونظرية الكونتم والنظرية النسبية ، كذلك كانت جامعات بغداد وكليات قرطبة وغرناطة تبحث في النظريات اليونانية وتعتبرها أُسساً لعلومها

وحديث الكليات والمكتبات التي أسست في بغداد وفي بلاد الاندلس طويل اكتفي بان اورد هنا بعضاً مما قاله مؤرخو العلم بهذا الصدد : قال رودول « اسس الخليفة ابو جعفر المنصور مدرسة

بغداد فكانت نواة لجامعة بغداد ، التي اصبحت كعبة العلم بعد ذلك . وفي القرن التاسع اضيف اليها كثير من المؤسسات كالمستشفى والمدرسة الطبية وغيرها . وفي عصر المأمون ادخل عليها من التحسين الشيء الكثير فبنى مرصدها المشهور . وقيل ان عدد طلابها بلغ ستة آلاف طالب . ولكن ما ان نشب الانحلال في جسم الخلافة العباسية حتى ضعف شأن جامعة بغداد واسست على اثرها بضع مدارس في حواضر البلاد الاسلامية المتفرقة . وفي هذا العصر ازدهرت دور العلم ببلاد الاندلس ، وصارت محط رحال أهل العلم في الغرب والشرق

وكتب دراپر في الجزء الثاني من كتابه « تاريخ تكون الفكر الاوربي » ما خلاصته : « ما كاد المسلمون يستقرون في اسبانيا حتى شادوا لهم مدنية جديدة . فكان الأمراء انفسهم من رجال العلم ومن قادة الفكر وكان لا يشغل فكرهم غير أمر واحد هو رفع المستوى العلمي في بلادهم . فبلغت قرطبة بفضل اهتمامهم المكانة العليا بين مدن العالم : وعلى منوالها سار كثير من مدن الاندلس ، حتى كان لكل امير من امراء الاندلس مكتبة خاصة يباهي بها اقرانه بما يضمه اليها من كتب نفيسة ومخطوطات غالية . فمثلاً احتوت مكتبة الحكم من الكتب عدداً كبيراً جداً ، قيل ان فهرستها بلغ اربعين مجلداً . وقيل ايضاً ان الحكام شيدوا لكل مسجد مدرسة عامة يؤمها اولاد المسلمين ليتعلموا اللغة والقرآن والفقه

أما العوامل التي ساعدت على نشوء الحركة العلمية في البلاد الاسلامية فهي مساعدة الخلفاء لأهل العلم اولاً ، وتسامحهم الديني ثانياً . فلقد كان كثيرون من الاساتذة بجامعة بغداد وغرناطة وقرطبة من النساطرة واليهود . وكان المسلم يوم ذاك ، يأخذ العلم على أيدي هؤلاء وهو مطمئن واثق ان لا صلة بين العلم والاختلافات الطائفية وان العلم أسمى وأشرف من البحث فيها . ومما يذكر عن الخلفاء ان الواحد منهم كان اذا دخل عليهِ استاذ من اساتذة العلم قام اليهِ وأجلسه بجانبه ، ولا يجب ان ننسى حلقات العلم التي كانت تعقد في بلاط المأمون وكيف كان الخليفة نفسه يقضي اكثر وقته يساجل العلماء ويجادلهم ، ويبحث في العلوم الدينية والفلسفية وفي علاقتها بالمادة والطبيعة

الكيمياء العربية

ومن اظهر الحركات الفكرية في عصر ازدهار المدنية العربية نشوء الكيمياء أو ما ندعوها اليوم Alchemy . اما نشوءها فيعزى الى عقيدة سادت في تلك العصور وهي امكان تحويل المعادن الرخيصة الى ذهب . ففي نظر الباحثين الاقدمين ان من يتوصل الى « حجر الفلاسفة » يستطيع ان يعرف سر الحياة . تلك الخرافات والألغاز كانت النواة الأولى للكيمياء الحديثة . واولئك الكيماويون هم أول من قصد البحث عن الحقيقة النسبية من هذا السبيل . والى مثل ذلك اشار الكيماوي الكبير لايبج عند ما قال « ان العلم في نظر رجل ما كالآلهة التي يخصص حياته لها ، وفي نظر الآخر كالبقرة الحلوب التي يعيش مما تدره عليه »

اما متى بدأ تاريخ الكيمياء العربية ، وكيف ظهرت واين ظهرت اولاً فأمور لا نعرف عنها شيئاً وكل ما في وسعنا ان نجزم بهِ انها ظهرت قبل القرن الثاني عشر ولربما ظهرت في القرن التاسع او العاشر الميلاد . فالكتب التي كتبها الرازي تحتمل ان تكون مكتوبة في القرن التاسع وكتاب « الشفعة » لابن سينا ، وهو من الكتب التي يوثق بتاريخها والتي كان لها شأن كبير في الشرق والغرب، يرجع تاريخه الى القرن العاشر . ولقد اثبت البحث التاريخي ان العرب في القرن العاشر والقرن الحادي عشر لم يكتفوا باجراءِ التجارب وكتابة الرسائل العلمية فحسب بل بحثوا في النظريات الكيمائية التي لم نبحث في بعضها الاَّ في القرن الماضي ، حتى ان بعض باحثيهم اتبع مبدأ الشك في البحث عن الحقيقة المجردة . ويكفي هذا وحده ان يجعل مستوى فكرهم العلمي اعلى كثيراً من مُستوى الفكر العلمي عند الشعوب الاخرى

لم تقتصر صناعة الكيمياء على البحث عن حجر الفلاسفة او صناعة الذهب بل شملت الكثير من المركبات الكيمائية المستعملة في الطب والصيدلة . فقد استحضرت العقاقير المختلفة بتقطير النباتات والاعشاب او بتفاعلها تفاعلاً كيمائيًّا بمواد اخرى. وكان الكيماوي هو الطبيب وهو الصيدلي فابن سيناء الذي لقب بجالينوس العرب والرازي والزهراوي كانوا من امهر اطباء العرب الاَّ انهم كانوا ايضاً من اعلام الكيمياء ، وابو المنصور الموفق وان عرف بتحضير العقاقير وبيعها الاَّ ان كتبهُ تنطق بسعة علمهِ بالكيمياء العملية

ويؤمن الاستاذ سارتن مؤلف كتاب « مقدمة في تاريخ العلوم » ان كيماويي القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر لم يزيدوا على ابحاث من تقدمهم شيئاً مهمًّا وانما اشتغل بعضهم في دحض نظريات من تقدمهم . فالطغرائي مثلاً كتب بضع رسائل بحثت في الكيمياء ، سمي احداها وهي اهم رسائله « حقائق الاستشهاد » وكانت غايته من تأليفها الرد على شكّ ابن سيناء . وهناك طائفة اخرى تسرب اليها الشك فيما جربه وكتبهُ ثقات اهل الكيمياء ويمثل هذه الطبقة عبد اللطيف الجوباري الذي ضمن آراءه في رسالتهِ « اهل الكيمياء الذين عرفوا ثلاث مائة طريقة لغش الناس »

نظريات الكيمياء العربية

يستخرج كثير من المعادن او قل معظمها اما بشكل اكاسيدها او كبريتيداتها او مزيجاً من اكاسيدها وكبريتيداتها. فاذا ما احرقت هذه الكبريتيدات وحدها او مع مادة خازلة كالفحم او الخشب مثلاً تبدلت اولاً الى اكاسيد ومن ثم الى معادن صرفة . على ان هناك من المعادن ما يمكن الحصول عليه نقيًّا بعمليتي التكلس والتصعيد فقط . فكبريتيد الزئبق مثلاً اذا ما احرق وجمعت غازاته امكن الحصول على الزئبق نقيًّا

ليست هذه بالتفاعلات الصعبة الحدوث التي تحتاج الى جهود كبيرة بل على العكس فهي من ابسطها واكثرها وقوعاً . وقد اثبتت الكتب القديمة ان هذه التفاعلات الاولى التي عرفها العرب

واستعملوها لتحضير الحديد والرصاص والنحاس والزئبق وغير هذه من المعادن . ولا ندري كيف استنتجوا من تحضيرهم لهذه المعادن ان هناك عنصراً شائعاً بين الاجسام على انواعها . ويعزى اختلافها الى مقدار المواد العرضية — الشوائب — الممتزجة بهِ . وهذا ما جعلهم يسعون الى تنقية المواد مما امتزج بها من شوائب ، معتمدين في ذلك على النار وحدها لانها في عرفهم خير مطهر ومنقٍ . ففي ظنهم ان بتكرار عمليات التكلس والتصعيد والتقطير تحترق المواد العرضية ويبقى الجسم نقيّاً . وما ذلك الجسم الآّ حجر الفلاسفة !!

ولقد شاعت ايضاً نظرية اخرى في كثير من دور العلم وخاصة في مدارس بغداد ، خلاصتها ان عناصر المواد جميعاً ثلاثة ، الزئبق والكبريت والملح . اما الاول فيمثل المعادن القابلة للطرق . واما الثاني فيمثل المواد القابلة للاشتعال . واما الاخير فيمثل المواد الترابية المالحة الطعم غير القابلة للطرق وللاشتعال . جاء في رسائل اخوان الصفا ما يأتي : « ان الاجسام من جنس واحد ، من جوهر واحد وهيولى واحد . وانما اختلافها بحسب اختلاف صورها ومن اجلها صار بعضها اصفى من بعض واشرف منهُ . . . وكلها اجسام طبيعية يستحيل بعضها الى بعض ، وذلك ان النار اذا اطفئت صارت هواءً والهواء اذا غلظ صار ماءً والماء اذا غلظ وجمد صار ارضاً . وليس للماء ان تلطف ولا للارض ان تغلظ فتصير شيئاً آخراً ، بل اذا تركبت اجزاؤها يكون منها المولودات ، اعني المعادن والنبات والحيوان . لكن يكون بعضها اشرف تركيباً من بعض وذلك ان الياقوت اصفى من البلور واشرف منهُ والبلور اصفى من الزجاج واشرف منهُ . . . وكذلك الذهب اشرف من الفضة واصفى منها والفضة اصفى من النحاس واشرف منهُ . . . وكلها احجار معدنية اصلها الزئبق والكبريت والزئبق والكبريت اصلهما التراب والماء والهواء والنار . فهيولاها واحد ، وصورها مختلفة ، وصفاؤها وشرفها بحسب تركيبها واختلاف صورها . . . »

وجاء ايضاً في رسالة المعادن « . . . واذا كان الزئبق صافياً والكبريت نقيّاً واختلطت اجزاؤهما وكانت مقاديرهما على النسبة الفضلى واتحدت وامتصت الكبريتية رطوبة الزئبق ونشفت نداوته ، وكانت حرارة المعدن على اعتدال في طبخها ونضجها . ولم يعرض لها عارض من البرد واليبس قبل انضاجها انعقدت من ذلك على طول الزمن الذهب الابريز . وان عرض لها البرد قبل النضج انعقدت فصارت نحاساً احمر يابساً . وان عرض لها البرد قبل ان تتحد اجزاء الكبريت والزئبق قبل النضج انعقد فيها رصاص قلعي — معدن ينسب اليهِ الرصاص الجيد — وان عرض لها البرد قبل النضج وكانت الاجزاء الترابية اكثر صار حديداً اسود . وان كان الزئبق اكثر والكبريت اقل والحرارة خفيفة انعقد بها الاسدب وان افرطت الحرارة فاحرقتهُ صار كحلاً . . . »

ومن النظريات التي اعتقد بعضهم صحتها ان لأوجه القمر ومواضع السيارات السبعة علاقة بالمعادن وبطرق تنقيتها فمثلاً ان المعادن السبعة تمثل السيارات السبعة . فالذهب يمثل الشمس والفضة تمثل القمر

والقصدير المشتري والرصاص زحل والحديد المريخ والنحاس الزهرة والزئبق عطارد . وقد نشأ كثير من الخرافات من هذا الرأي . فمن خرافاتهم انهُ اذا اريد اجراء عملية على النحاس مثلاً وجب ان تكون الزهرة في الموضع المناسب من السماء والاَّ اخفقت العملية

هذه بعض من النظريات التي دان بها العرب . ومن الواضح الجلي ان الفكر اليوناني ظاهر فيها اتم ظهور . وهذه النظرية وان كانت خالية من الحقائق الكيمائية الحديثة كان لها شأن كبير في تاريخ الكيمياء افليست هي حلقات من سلسلة طويلة بدأت في الكيمياء اليونانية وانتهت الى الكيمياء الحديثة ؟ ومهما قيل عنها فلا يمكن نكران تأثيرها في تطور الفكر الكيمائي خاصة وان الكثير من التجارب التي اجريت في سبيل تحقيقها ما زالت مستعملة مع شيء يسير من التبديل والتعديل

كيماويو العرب

والآن من هم الذين اشتغلوا بالكيمياء من العرب ؟ ان عدد كيماويي العرب كبير جدًّا فقد احصى الاستاذ فون لبمان Von Lippman ستين كيماويًّا عاشوا بين القرن التاسع والقرن الرابع عشر ، وكلهم اشتغل بالكيمياء وكتب عنها . لكني لم استطع ان اعرف من ذلك العدد الكبير سوى الآتية اسماءهم :—

(١) الحسن الرماح (٢) عمر بن العظيم (٣) جابر بن حيان (٤) الرازي (٥) الطغرائي (٦) ابن ارفع رأسه (٧) عبد اللطيف الجوباري (٨) خالد بن يزيد (٩) ابو المنصور الموفق (١٠) ابو القاسم العراقي (١١) الكاثي . وفي هذه العجالة الملمة باعظمهم اعني بهم ابن حيان والرازي وابن سيناء والعراقي

اشتهر جابر بن حيان كمؤلف كما اشتهر ككيماوي ، فما ألفه عدد كبير من الرسائل الكيمائية التي ما زالت مبعثرة في مكتبات اوربا والهند ومصر . ومما هو جدير بالذكر ان هذه الرسائل لم يطبع منها ولم يترجم الاَّ القليل ففي عام ١٨٩٣ ترجم الاستاذ Houdas تسع رسائل ، طبعها بعد ذلك الكيماوي المشهور برتوليه Bertholet في كتابه La Chimie au Moyen Âge . ولقد وجد الاستاذ المذكور من بين المخطوطات اللاتينية مخطوطاً بالعنوان التالي :

Liber de Septuaguila Translatus a Magistra Renolds Cremonensi

فظنه من المخطوطات المترجمة عن جابر ولكن لم يستطع تقرير شيء ما لان النص العربي كان مفقوداً يوم ذاك . ومن محاسن الاتفاق ان اكتشف الاستاذ Max Meyerhof عام ١٩٢٦ مخطوطين لجابر احدهما في مكتبة نور الدين بك مصطفى والآخر في مكتبة احمد تيمور باشا وكل منهما اصل لتلك المخطوطة اللاتينية

واشهر ما كتب ابن حيان كتاب الرحمة وكتاب الجوهر الاصلي وكتاب السموم وكتاب الدولة وكتاب الموازين . ومع ان جميع هذه الكتب لا تتضمن ابحاثاً كيمائية صرفة بل خليطاً من الابحاث الطبيعية والكيمائية والفلسفية ومزيجاً من الخرافات والرموز والالغاز الاَّ ان قيمتها العلمية لا تقدر . وخليق بابن حيان ان يدرس دراسة علمية حقة لانهُ بنى ما كتبه على ما جرّبه بنفسه

وان كانت استنتاجاته غير علمية ، وعلاوة على ذلك لانهُ الواضع لنظرية تكون المعادن من عنصري الكبريت والزئبق تلك النظرية التي بقيت مسيطرة على كتب الاقدمين حتى فجر النهضة العلمية الحديثة . ففي نظر جابر ان المعادن تختلف باختلاف نقاوتها واذا ما كملت نقاوتها استحالت الى ذهب ابريز . وهذا ما جعل هدفه الأعلى تنقية المعادن لتحضير الذهب . على ان هناك أشياء كثيرة اشتغل بها ونجح في تحضيرها اهمها صناعة الحديد الصلب ، واصباغ الملابس، واصباغ الجلود ، وصنوف الدهان المختلفة خاصة منها تلك التي لا ينفذ الماء خلالها . وقد استطاع ان يطلي الحديد بطبقة معدنية اخرى لكي تقيه من التأكسد . والمعروف انهُ أول من استعمل ثاني اكسيد المنغنيز في صناعة الزجاج وكبريتيد الحديد الخام في صناعة التذهيب ، وتمكن من تحضير الحامض الخليك المركز بتقطيره الخل ، وكاربونات الصودا والبوتاس من رماد بعض النباتات والصودا الكاوية بغليه كاربونات الصودا مع الجير الحي . وهو اول من نقى ملح الطعام من المواد الممزوجة به . وطريقته في ذلك انهُ كان يحمي الملح لدرجات حرارة عالية فتزال جميع المواد العضوية فيه . ومن ثم يذيبه بالماء ويرشح المحلول ويبخره فيبلوره . ومما جاء ذكره في معظم رسائله انهُ اشتغل بنترات البوتاس وكلوريد النشادر والشب والبوركس وكبريتات النحاس وكبريتات الحديد . وله طريقة مبتكرة في تحضير ماء النار — الحامض النتريك — فانهُ كان يحمي كبريتات النحاس مع نترات البوتاس والشب ويجمع الغازات المتصاعدة في الماء . وقد حضّر هذا الحامض لاذابة الفضة والذهب بعد ان يمزج برادتهما مزجاً تامًّا بكلوريد النشادر

أما أبو بكر الرازي فيعد في مقدمة الأطباء الكيماويين . قيل عنهُ انهُ اول من استعمل الكيمياء في الطب ، ولكن ابحاثه في الكيمياء ما هي الاّ تجارب مؤسسة على الخيال ومستمدة من السحر والشعوذة ، ففي عقيدته ان النحاس والفضة شيء واحد وما النحاس الاّ فضة كامنة وبمجرد ازالة اللون الاحمر منهُ يستحيل فضة. وقد جاء في بعض المخطوطات انهُ استعمل الكحول لاذابة بعض المركبات العضوية التي لا تذوب في الماء

وثالث المشتهرين بالكيمياء هو ابن سيناء ولكنه ايضاً كالرازي طبيباً اكثر منهُ كيماويًّا . وآراؤه الكيمائية كثيرة الشبه بآراء ارسطو فهو يعتقد ان الهواء فوق النار . وان المعادن جميعها تتركب من مادتين احداها لزجة والاخرى ترابية وبعملية التكلس Calcination يمكن فصل المادة الاولى عن الثانية . ويقسم ابن سيناء المعادن الى اقسام اربعة (١) المعادن غير القابلة للانصهار (٢) المعادن القابلة للانصهار والطرق (٣) المعادن الكبريتية (٤) الاملاح

وآخر من اشتغل بالكيمياء العربية هو ابو القاسم محمد بن احمد العراقي السماوي الذي عاش في القرن الثالث عشر والذي صنف بضع رسائل اشهرها كتاب «العلم المكتسب في صناعة الذهب» و « عيون الحقائق في السحر » و « الكنز الدفين » . والاستاذ سارتن يعتبر ابا القاسم من اعظم

كيماويي العرب شأناً لانهُ سار على مبدأ الشك في جميع ما كتبه اسلافه . فقد كان لا يؤمن بما بين يديه من النظريات والفروض الاّ بعد تجربته . فهو من هذه الناحية يعد من الكيماويين المجددين وقال عنه الجلداقي في كتابه « نهاية الطب » ان ابا القاسم صرف سبع عشرة سنة في دراسة الكيمياء وجالس الكثير من علماء العراق ومصر والمغرب وسوريا والحجاز واليمن ودرس كتب من تقدمه وبحث في الطرق التي استعملت في تجاربهم . وقد ادى به بحثه الطويل الى الاعتقاد بأن من تقدمه من العلماء اوجد نظريات مضطربة تخالف بعضها بعضاً . فلذا من واجبه ان يكتب رسالة تشرح النتائج التي وصل اليها في ابحاثه . والى فكرته هذه اشار في مقدمة كتابه « العلم المكتسب » . والفكرة السائدة في كتابه هذا ان المعادن من اصل واحد واختلافها ناجم عن صفات عرضية يمكن ازالتها ، وبزوالها يصبح المعدن ذهباً ابريزاً

﴿ خدمات العرب ﴾ يعتقد بعض مؤرخي الكيمياء امثال برتوليه وفون لمين وكوب ان العرب لم يزيدوا شيئاً على ما اخـذوه من علوم اليونان ، ولم يصب الكيمياء اي تقدم في زمنهم وكان مجمل عملهم انهم ادوا الرسالة التي اخذوها من اليونان الوثنيين الى اوربا المسيحية . لـكن هناك طائفة اخرى امثال شلمان وجيبون وسارتن وغيرهم ممن تخالفهم . ولم تتردد في تفنيد ما زعمه الأولون واعلان الكثير مما قام بهِ العرب من الخدمات الجلى سواء بابحاثهم او بتجاريبهم مما عجل بزوغ النهضة العلمية الحديثة . والحقيقة ان مقام الكيمياء العربية كبير جدًّا ، فقد كان العرب عاملاً مهمًّا من عوامل ترقية الصناعة الكيمائية ، وكانوا في مقدمة من استعمل العلم النظري في امور الحياة العامة

ولتلخيص خدمات العرب نقسمها الى قسمين . الخدمات المباشرة والخدمات غير المباشرة . اما الاولى فتتكون من العمليات الكيمائية الأساسية التي استنبطها العرب والمركبات التي استطاعوا تحضيرها والصناعات التي اقتبسوها من شعوب اخرى واذاعوها في الشرق والغرب كتحضير الكحول بتقطير المواد المخمرة ، والبوتاسا الكاوية بغلي كربونات البوتاس مع الجير الحي ، وروح النشادر — غاز الامونيا — والفصفور من البول . والعرب اخذوا البارود من الصينيين لكنهم حسنوا نوعه واستعملوه في الحرب وفي الالغام . واكتشفوا دهاناً يقي الخشب من الاحتراق . وهم اول من كتب عن العمليات الكيمائية ودونوا وصفها في كتبهم ورسائلهم . ولا يجب أن يغفل فضل استعمالهم للاوعيـة الخزفية والزجاجية في التقطير وفي التجارب الكيمائية الاخرى ، واليهم ينسب اكتشاف طريقة التقطير الجزئي Fractional Distillation اما اشتغالهم في فن الصيدلة ووضعهم للاقرباذين واستخدامهم المركبات الزئبقية كعلاج للامراض الجلدية فما لا نريد ان نتطرق اليهِ في هذه العجالة

واما الخدمات غير المباشرة فهي جمعهم العلوم من مصادر شتى ، وتأليفهم بين اجزائها ، ثم نقلها الى الغرب الذي اتخذها أساساً لتشييد النهضة الحديثة . ولولا هذا العمل لتأخرت النهضة العلمية الحديثة بضعة اجيال . افهل بعد هذه خدمة للعلم اعظم ؟

البصرة

البابار : ثمر عجيب

Papayas or Papaws

[عن السينتفك اميركان : نقلها عوض جندي]

البابار أو قاوون الاشجار ، ثمر لذيذ لشجرة تشبه النخلة شكلاً ، تنمو في أراضي المنطقة الحارة، فيها شفاء للناس . وشجرة البابار بديعة الشكل، مختلفة الثمار . وتحمل ثمرها على ساقها الباسقة فتبرز الثمار مباشرة من الساق ، على مقربة من أوراقها العليا التي تجالل رأس الشجرة . ويصنع لحاؤها حبالاً . وتستخرج من جذورها عصارة فاخرة مقوية للأعصاب . ويستعذب الوطنيون في البلاد الحارة بزورها فيمضغونها كثيراً إرواءً للظمإ . ويحلُّ ثمرها اليانع الشهيُّ جداً محل القاوون العادي المضلع « وهو المعروف في القاهرة وضواحيها باسم السنطاوي » ويؤكل ثمرها نجاً ، ويطبخ كما تؤكل الخضراوات وتطبخ ، واذا عقمت شجرة البابار في أواخر السنة الثالثة من عمرها . قطعت وجُمِّرت[1] وبُشِرَ جمّارها اللين ، كما يبشر النارجيل للأكل ، وطعم جمارها يختلف قليلاً عن طعم بشارة[2] النارجيل ، ولكن هيئته ومميزاته العامة تجعل ناظره يكاد يظنهُ نارجيلاً مبشوراً. ولذلك ترى الأميركيين يشرّحونه ويخلطونه بالقشدة المخفوقة فيصير من ألذ أصناف الحلوى التي تؤكل عقب الطعام . ويصنعون من بشارة الجمار سلطة لذيذة مغذية مؤلفة من الخس والخيار المشقّق . ويصنع من ثمر البابار مُربى وهلام لذيذان . ويدخل البابار في صنع الشطائر Sandwich والقراقيش والشربات والمخللات ، فيجعلها شهية جداً . وتصنع من ثمر البابار كعوب مبلورة ، وهي من أفضل انواع الحلوى الملبسة بالسكر ، التي تحضر من ثمار المنطقة الحارة

وشجرة البابار سوقاء[3] جوفاء دقيقة الرأس . ويبلغ طول ثمرتها عشرة قراريط . وقشر الثمر صفيق كقشر البطيخ ، ولونه برتقالي . ويسلق البابار الفج ويؤكل كالخضراوات . ويستعمل أهالي المنطقة الحارة عصارة ثمر البابار الفج ، بحالتها الطبيعية ، وهي لبنية الشكل ، علاجاً للأكزيما والثآليل والقرح والديدان المعوية والدفتيريا ولغيرها من الادواء المختلفة . ويتخذ الثمر اليانع من البابار بمثابة مثاث[4] للوجه والشعر ، بأن تؤخذ شريحة منهُ وتدلك بها البشرة فتزيل منها النمش وغيره من العيوب الجلدية . وكذلك يستخرج من البابار ذرور للوجه وغسول لعلاج الجلد ويجعل ثمره البغو[5] وورقه الأخضر كصابون لتنظيف الثياب.

---

(١) جمر النخلة — قطع جمارها — (٢) البشارة على وزن فعالة ، بضم الفاء . الجوز المبشور وغيره (٣) السوقاء — طويلة الساق (٤) المثاث — دهان الوجه أوالشعر (٥) البغوة — بفتح الباء الثمرة قبل نضاجها. وهـذا اللفظ العربي الفصيح مستعمل عند الفلاحين في الوجه البحري ويطلقونه على قرون الفول الاخضر الغضة

وتستخرج منهُ مادة البابائين[١] وهي عقّـار مشهور في الطب وتستعمل عصارة البابايا ملينًا للحم اليبيس. فاذا دهنت قطعة لحم تارز[٢] بشريحة خضراء من ثمر البابايا ، غزيرة العصارة ، او اذا غمرت اللحم في تلك العصارة بضع دقائق ، لان وسهل مضغه وتيسر هضمه . واذا وضعت قطعة من ثمر البابايا في الماء المزمع سلق اللحوم فيه ، عجلت إنضاجها . واذا لففت اللحم اليبيس بورق البابايا الاخضر لان . وتـغذّى الخنازير بثمار البابايا ، فتلين لحومها اكثر مما هي عليهِ ، فيقبل الناس على شرائها وأكلها . وسبب تلك الميزة الغريبة في البابايا ، الملينة للحم الصلب ، أيًّا كان نوعه ، تشبع عصارة البابايا بمادة البابائين . وهي مادة تهضم الاغذية البروتينية مثل اللحوم وبياض البيض واللبن الجبن وما شاكلها . ومثلها في ذلك مثل خميرتي المعدة البشرية المشهورتين وهما الببسين والتريبسين. ولذلك تستعمل البابائين في عالم العقاقير بديلاً من الببسين

وطريقة استخراج مادة البابائين النفيسة هي كما يأتي : — يجفف اللبن الذي يسيل من لحاء ثمر البابايا الاخضر . وأفضلهُ ما يستدرُّ من الثمر الاخضر الموشك على النضج، الجيد الحجم، فيخدش لحاؤهُ خدشاً سطحيًّا بسكين عاجيٍّ او خشبي او عظمي . لان الثمار الصغيرة جدًّا تدرُّ لبناً ضئيل التأثير في الهضم ، على حين ان الثمر اليانع يدرُّ لبناً قليلاً جدًّا أو لا يدرُّ البتة . ويجمع العصير الذي يسيل من ذلك الشق الذي يشق في الثمرة ، في اناءٍ زجاجي او خزفي نظيف جدًّا . ولا تلبث الثمرة المخدوشة ان تـكف عن الادرار لان اللبن يتجمد في شقها . فاذا انقضت بضعة أيام ، اندمل شقها . وتـكاد خاصية الثمرة لا تتأثر بتلك العملية . ويمكن خدش الثمرة نفسهـا مرة كل اربعة أيام او خمسة أيام حتى تبدو عليها اعراض النضج . وينبغي ألاَّ تستعمل المدى الفولاذية للخدش في أية حال من الاحوال لئلاَّ تنتج مادة البابائين قاتمة اللون ، طفيفة النفع . وتبدأ عملية الخدش في الغداة على ان تتم قبيل الساعة العاشرة صباحاً لـكي يترك وقت كاف للثمرة لتجف في اليوم نفسه

وسرعان مايتجمد العصير المجموع ، فيصير كتلة بيضاء نقية فتجفف عاجلاً لئلاَّ تتعفن فتفسد المادة كلها . ويقوم التجفيف بتعريض ذاك اللبن المتجمد سريعاً لاشعة الشمس على ألواح زجاجية

اما في جزيرة سيلان ، حيث تـكون الاحوال الجوية شديدة التقلب ، ولا سيما في الجنوب الغربي منها ، فلا يستطاع تجفيف العصير في الخلاء ، فتستعمل أجهزة خاصة للتجفيف في تلك الآفاق وفي غيرها من المزارع الـكبرى في انحاء العالم . ومتوسط ما يُستغلُّ من مسحوق البابائين من كل فدان يزرع باباياً هو ١٧٥ رطلا كل سنة . وقال احد مشهوري خبراء الصحة في البابائين ما يأتي —

توفرت على البحث فيما يحويه البابائين من الڤيتامين ، فاستدللت ، مما قمت بهِ من التجارب ، في

---

(١) البابائين . خميرة تستخرج من ثمر البابايا الفج ، ذات خواص هاضمة مثل الببسين وتؤثر في المحاليل القلوية . وهي مسحوق أبيض يحضر من عصير البابايا مقو للقلب، خافض للحرارة ، مذيب لاغشية الدفتيريا اذا استعمل مساً مخففاً (٢) التارز — الصلب —

جزائر هونولولو والهند الشرقية الهولندية ان الپاپاز غاصٌّ بفيتامين C وهو الفيتامين الذي يحويهِ البرتقال فيجعلهُ مفيداً للصحة . والپاپاز ايضاً حافل بفيتامين A الذي يندر وجوده في الثمار . ويكون دائماً مصحوباً بفيتامين D أنّى وجد . وفيتامين D يمنع كساح الاطفال . وحسب الپاپاز هذه الفائدة الطبية وحدها التي تجعله مفيداً فائدة لا تقدر لشعوب العالم . وكذلك قوته المساعدة على هضم الاطعمة . وهي نعمة عظيمة للذين يشكون سوءَ الهضم على اختلاف انواعه

وقد شرع العلماءُ يدرسون الپاپاز من وجهة منافعه الصحية ، وذلك مع معرفة خصائصه الطبية من زمن بعيد عند سكان المنطقة الحارة ، حيث ينمو ذلك الثمر نموًّا فطريًّا . فاستدلوا على ان الپاپاز يمكن ان ينفع سكان الولايات المتحدة الاميركية منافع جليلة »

والپاپاز من فصيلة ذات عشرين نوعاً تنبت في المنطقة الحارة باميركا وفيما يليها من الاقطار وتسمى شجرته علميًّا باسم كاريكا پاپايا Carica Papaya وتوجد في جنوب فلوريدا . وقد انتشرت زراعة الپاپاز في ارجاءِ العالم حتى كاد يصبح معروفاً في جميع الاقطار الحارة . واصنافه كلها سريعة النمو ، غير مفرعة . وتبسق الى ثلاثين قدماً ، ذات منظر بارع الجمال ، وورق كبير ، وثمر جزيل ، شبيه بالبطيخ ، مما يجعل تلك الشجرة فريدة الشكل وتحمل الشجرة ثلاث سنين او اربع سنين . ويختلف حجم الثمرة من قدر الكوارت الى حجم كوز الماء الكبير . وتزن من ثلاثة ارطال الى خمسة عشر رطلاً . وكثير من انواعه مستدير الشكل ، وبعضه مستطيلهُ وهذا الاخير هو الاصلح احياناً للتصدير الى البلاد الخارجية . تمَّ ما قالتهُ السينتفك اميركان

وجاء في مجلة العلم العام الاميركية ما يأتي : —

تنمو في مفاوز المنطقة الحارة باميركا الجنوبية شجرة مدهشة ، ذات منافع اقتصادية وطبية . وهي شجرة الپاپاز . وهذه تختلف اختلافاً طفيفاً عن اختها التي تزرع في الاقاليم الوسطى والجنوبية بالولايات المتحدة التي تمتُّ الى فصيلة اخرى . وهي شجرة أنيقة الشكل وقد يبلغ طولها ثلاثين قدماً وتفرز عصارة غريبة اذا دهنت بها لحماً قصيداً(١) جدًّا كلحم البقر مثلاً ، رَخُص(٢) فصار كلحم الغزال . ويستعمل اهالي البلاد ، التي تجزل فيها اشجار الپاپاز ، عصارته لتلك الغاية . ويجعل اهل پاراجواى ورق الپاپاز بديلاً من الصابون . ومن غريب امر عصارة شجرة الپاپاز انها تحتوي على ليفين (فيبرين) وهو بروتين كيميائي لا يوجد الاّ في المملكة الحيوانية . وعصارة الپاپاز لبنية ، حريفة الطعم ، ذات منافع طبية . وتستعمل بزور الپاپاز كدواءٍ فعَّال طارد للديدان ، قاتل لها . وثمر الپاپاز لذيذ الطعم ، دسمه ، كبير الجرم ، مستطيل الشكل ، وقشره ثقيل ، فعسى وزارة الزراعة ان تعنى بزراعة شجر الپاپاز في مديرية اصوان . كما جُرّبت زراعته في السودان فنجحت . وقد رأينا ثمره في المعرض الزراعي الصناعي السابق

---

(١) القصيد اليابس (٢) رخص — لان ونعم



طائفة من اشهر شعراء الانكليز

من اليمين الى اليسار : الصف الاول — بيرون ، بوپ ، ملتن — الصف الثاني : كيتس ، كولردج ، برنز — الصف الثالث : سوينبرن ، شلي ، تنيسون

الشعر الحديث

بين الثورة والتقاليد

للدكتور احمد زكي ابو شادي

— ١ —

« أيُّ شيءٍ في الماء الجاري له ذلك السحر الوثيق بالذهن الانساني ؟ » — هذا هو السؤال الذي استهل به المستر بنيون محاضرته الثالثة عن (التقليد والثورة في الشعر الحديث) . وجوابه عن هذا السؤال « ان خرير الماء السلس ليس وحده الذي يلطف المشاعر القريرة ، بل شيءٌ من فوره ينبه التصور ويرضيه ، وينقلنا خارج ذواتنا كأنما نحن على مجرى حركة تشاطر في الخاطر دون جهدٍ منا . ان سر ذلك السحر هو اعترافنا بأن هذا الشعور بالحركة الهنيئة الطليقة هو عنصريٌّ واصيلٌ في ذواتنا . ان الحياة هي الحركة ، وهي تشمل تحولاً مستمراً ، وسواء شئنا ام لم نشأ فأجسامنا في تحول مستمر من المهد الى اللحد ، متغيرة ومتجددة من لحظة الى اخرى . فهل كذلك حال اذهاننا ؟ لست أدري . ولكنني واثق من اننا في خطر دائم من ترك المادة الميتة تتجمع في اذهاننا ، ومن قبول الاطراد للآراء المتناولة ، ومن صيرورتنا الى عبودية ألفاظ وعادات . ان البركة الآسنة وقد طفحت عليها الجفالة وغصّت بالاعشاب هي صورة ما يمكن ان نحيل اليه اذهاننا بالاستسلام الهين . ولكننا غالباً نشفق في تفحصنا في هذه الناحية ونؤثر ان نعيش مجهولين لانفسنا ، كأن سقطاتنا الخلقية فقط جديرة احياناً باهتمام الضمير المنقّب . ان الفنان الصادق يعرف بالنقاء والتشبث والنجاح في جهده ليبلغ ما هو اعظم من الحدة والدقة والقوة في التعبير عما في نفسه وعن خبرته للحياة . انه يريد ان يعمل طليقاً من كل ما هو ميت او نصف حي عائقاً او موهناً تعبيره بعادة رثة او قالب عتيق ليس وفقاً له ، أو سُلِّمَ بهِ دون عقيدةٍ من حُرمةِ زمنٍ سابقٍ ، أو كان ثمرةَ تراخيه وعجلته . إنّ القوةَ الدافعةَ خلف جميع الحركاتِ في الفنون التي يُستمَعُ عنها كثيراً اليومَ واحدةٌ : فهي في أصلها رغبةٌ في الوفاء الأصدق للذات الداخلية ولحقيقة العالم الخارجية ، وفي التعبير عن علاقة الرُّوح الانساني بالكون بصدق واستيفاءٍ أبلغ . لا توجد سوى حركةٍ واحدةٍ تجاه حياةٍ أحدٍ ، ولكنّ احتمالات الخبرة فسيحةٌ غاية الفسحة حالة ان الطاقةُ الانسانيةُ محدودةٌ ، بحيث تتجلّى هذه الحركة في الواقع كضغط غير مبذول بمثابرةٍ الى غاية واحدة بل تارة في هذه الجهة وحيناً في تلك ، فيبدو في الوقت طريقٌ معيّنٌ أحب من غيره .

وكثيراً ما تلوح كمحاولة لاحياء حركة سابقة كأنما النوع الانساني في عجلته أو في تشعب اغراضه افتقد شيئاً في الطريق واحتاج الى تعقّب خطواته ليلتقط دليله المنسيّ ! »

— ٢ —

ثم تكلم المحاضر عن « الحركات الفنية » فقال إنّ هذه « الحركات » نشأت عادةً بمثابة ردّ فعل للتقليد أو فُهِمَتْ كذلك عند منْ بدأوا بها . واذا نجحت « الحركات » سميت « تقاليد » ، ولكنْ من النجاح ما يمكن أن يعني فقدان الحياة !

قال بنيون في اسلوبه الدسم المركّز : « لنبدأ بتمييز في التعريف : لسنا نستعمل كلمة « تقليد » بمعنى واحد تماماً ، فعندما نتكلم عن التقليد العظيم في الشعر الانجليزي نفكّر في سمطٍ مديدٍ من الشعراء الأصيلين ، ولا نفكّر في اولئك الادباء الذين عاشوا على تقاليد التفوّق السابق بل نغفلهم وننساهم . إنّ « الأصالة » التي تظهر في كل عصر أو جيل هي التي تخلق « التقليد » وهو « تقليد الحياة » . وقد جلب كلٌّ من اولئك الشعراء جدته النيرة معهُ ، ولو انّ كلاًّ منهم كان مرتبطاً بأسلافه برباط الوراثة أو التفاعل أو غالباً بكليهما معاً . وكلٌّ تقليد حيٍّ في الفنون عرضة دائماً للخطر ، إذ لا بدَّ ان يتحرك وإلاَّ صار راكداً وتعفَّن . إن مجد شعرنا انما هو في كونه يمثل تياراً نشيطاً دائم التغير ولكنهُ مطّردٌ »

وانتقل المحاضر الى بيان المعنى الآخر لكلمة « تقليد » فقال : « ولكن ثمة معنى آخر لكلمة « تقليد » إذ نعني مجموعة قواعد وعادات مرعية نتناقلها على انها شيء مقدّس راسخ . وثمة أذهانٌ تتعلق بهذه المبلورات لما كانت دوافع سائلة في زمن ما ، كأنما تتعلق بصخور او قلاع في دنيا من التقلب والكفر ! هم ينسون أن الحصون المنيعة تؤخذ دائماً في النهاية ، فليس الظفر سوى الجيش المتحرك . وهناك أذهان ذاتُ مزاجٍ آخر يدعوها التفكير في كل ما صنعتهُ تلك الخرافة الذهنية ، تلك المادة الميتة في العقل ، لعرقلة الرُّوح الانساني وتشويههِ ، وفي الحماقات والقساوات التي أنتجتها ، يدعوها ذلك التفكير الى فصم علاقاتها بالماضي فصماً تامّاً والى دخول عالم طليق من الوهم معتمد على نفسهِ ، وحرٍّ . ولكننا نعلم جيداً أن النفس الانسانية لا تستطيع ان تفصل نفسها عن ماضيها . ومع ان التغيُّر من لُبّ الحياة ، فلا بدَّ ايضاً من دوامٍ حي لا بدَّ من استمرارٍ ، إذ بغير الاستمرار لا يوجد نموٌّ . وهذا « الاستمرار » كائن في « تقليد » الشعر الانجليزي . واما عن التقليد بالمعنى الآخر ، اي مجموعة القواعد والقوالب الجامدة ، فما اقلّ ما انحدر منها مع التيار ! وحتى قبل الحرب وما صحبها من رجفة مادية للعالم ، كان ملحوظاً في كل مكان روح القلق والحيرة ثائراً في الفنون متجلياً على اتم وضوح في التعبير الجابل (plastic expression) وفي التعبير التصويريّ ولكنهُ مشهود كذلك في الأدب ، وهو ضربٌ من الحمّى ، وحنين الى البدائيّ ، الى الهمجيّ ، الى الهمة وتوكيد الذات باي ثمن . وأصبحت « الرجولة » و« الحيوية » الكلمتين الاصطلاحيتين للاطراء في النقد ،

فاستعملتا في إبهام تام كما هو حظ أمثالها من الكلمات . فهل كان في ذهن اوربا إلهامٌ أو توقّعٌ للانفجار المقبل في عالم الحركة ، من القوى البدائية والغرائز التي كُبِتت زمناً طويلاً ؟ كيفما كان ذلك فان علينا ملاحظة هذه الحقيقة . وان سبب هذا الرُّوح المحموم المضطرب في الفنون ليوجدُ أعمق من اي مذهبٍ جماليّ (aesthetic) ، وأرى انهُ مشتبكٌ مع اكتظاظ الحضارة الذي نحن جميعاً عرضةٌ للشعور بهِ . اننا لا نزال مأخوذين بذلك الخلط القديم عن جمال الحياة البدائية ، مع اننا نعلم ان المتوحش الذي نحسده محتَبَلٌ في شبكة من المخاوف الباطلة والموانع عند كل خطوة يخطوها ، مما يستعبده اكثر من المدنية الكاملة »

وانتقل المستر بنيون الى التحدث عن « الوان السخط الغامض والرغبات المضطربة التي ظهرت في الفنون وكان أدعى الى ظهورها ، أنهُ حول بداية هذا القرن بدىءَ باكتشاف ما للفنون الابداعيــة (creative arts) في القــارات الاخرى خارج اوربا وبخاصــة آسيا ، من الجمال والخطورة وتقدير ذلك . ومن ثمة بدىء بتحدي تراث الاغريق والرومان والقواعد المؤسسة على الفن الكلاسيكي . وكانت نتائج هذه المكتشفات اظهر ما تكون — بطبيعة الحال — في الفن التصويري والفن الجابل ، ولـكن التفاعلات المؤثرة اليوم في الشعر هي الى درجة ما صدى لتفاعلات في عالم النقش حيث كانت الحاجة اعظم الى التبديل . وذلك لان التصوير الاوربي كان قد انغمس في مسألة التمثيل الشكلي انغماساً تامًّا وجعل غايته التحقيق الشامل للحقيقة المنظورة ، بينما الشعر لم يرتبط مطلقاً بمبادىء الطبيعيين . وفي الوقت ذاته يجب ان نلحظ ان الترجمات الوفيرة للشعر الصيني فتحت لشعرائنا عالماً جديداً وتطورات جديدة لفنهم ، وارى ان ترجمات المستر والي (Waley) كان لها أثر بعيد . اذن اجتمعت الظروف لتنشىء في الشعر كما انشأت في جميع الفنون حالة من الغليان والاضطراب . ولا مناص في مثل زمننا السريع التحول العديم النظير من ان تصير صيغ الفن غير ثابتة وتجريبية » . وشرح المحاضر الحركات المتوالية بين صعود وهبوط كأنها امواج العباب فتشرئب ثم تنبسط : فمن رمزيين (symbolists) الى رسامين (imagists) الى دوّارين (vorticists) [1] الى تصريحيين (expressionists) وهلمَّ جرًّا

— ٣ —

ثم أخذ المستر بنيون يتحدث عن اساليب التعبير فقال « انهُ لا مناص من ان يؤدي التغير في المزاج أو في الآراء الاساسية الى محاولة ايجـاد صيَغ جديدة للتعبير . ولاولئك الذين تعوّدوا التقاليد القديمة للشعر الانجليزي ، وعلى الاخصّ تقاليد القرن التاسع عشر ، يتجلى الاسلوب الذي

---

(١) ترمي الحركة الدوارية في الفن الى اظهار الحركة الايقاعية في الاثر الفني ولو جاء بمعزل عن تفاصيل المشابهة بالاصل . ومن أهم اعلامها هنري جوديه برسكا في فرنسا وندهام لويس في انجلترا ولا يزال الاخير من كبار نقدة الفن في انجلترا

يعبّر به الشعرُ الحديثُ عن نفسه، مُركَّباً. وثمة امران يدعوان الى الحيرة أو الاستياء: وهما الغموضُ والصياغةُ أو العجزُ في الصياغة — هذا الغموضُ الذي يظهر الآن بدعة سارية (fashionable) يرجع غالباً الى استعمال أخيلةٍ مرسومةٍ من مصاحبات الشاعر الخاصة، وهي بالضرورة غامضة لآخرين. وقد رَاد ت. س. إليوت (T. S. Eliot) [١] الطريق لاستعمال هذا النوع من الصُّوَر: ويتبعُهُ في ذلك المستر أودن (Auden) وآخرون. وهناك أمثلة كثيرة لقصائد كانت تُظَنُّ غامضةً عند صدورها — مثل ملحمة تنيسون « الذكرى » (In Memoriam) [٢] ثم لم يرَ جيلٌ آخر أيةَ صعوبةٍ في تفهمها. ولستُ أدري هل سيقع هذا في حالة شعراء اليوم المحدثين. وعلى أيّ حال لا يبدو أن هناك شيئاً ضرورياً في هذا الغموض، فاننا لا نجده مثلاً عند المستر استيفن اسبندر (Stephen Spender). ان موضوع الصياغة يُثير مسائل بعيدة المدى، فاننا عندما نتحدث عن الصياغة في الادب نكون عرضة للتفكير فيها بعبارة هندسية فيتمثل في اذهاننا التشييد قبل النموّ، وتقوم في أذهاننا صورة بناءٍ قبل ان تقوم صورة نباتٍ. ليست صياغة القصيدة عبارة عن مجموع أجزائها فحسب، ولنذكر بيت سبنسر:

انَّ الصياغةَ رَوحٌ مُكَوِّنٌ للجسم

The form is Soul and doth the body make

ولنا أن نقول إنَّ لكل قصيدة صياغةً داخلية وصياغةً خارجيةً. ويُخيَّلُ اليَّ أن الناسَ يميلون الى اطالة النظر كثيراً في الصياغة الخارجية، وعلى الاخص إذا كانوا قد أضلوا بالمثال الاعلى الكاذب عن الدّقة. وربما لا يزال يوجد أناس يتصورون أن المثلَ العالي لصياغة الشعر أن تكون في تناوب النبرات، وليس الانحراف عن ذلك إلاَّ من الضرار الشعرية المسموح بها. ومع ذلك فمن البديهي انّ على الاختلافات في الصياغة الداخلية يتيسر وجود الحياة الايقاعية لوزن الشعر. وهذا يمثل عبادة الصياغة الخارجية في منتهى سخافتها »

— ٤ —

أخذ المحاضرُ بعد ذلك يوجه عناية المستمعين الى مكانة ما نعتهُ بالصياغة الداخلية أو الصورة الباطنة لوزن الشعر وتأليفه فقال: « أرى أن شعراءَ الحركة العصرية يرمون بصدقٍ الى بلوغ الصياغة الداخلية قبل الخارجية. ومن ثمة كانت الحركة قابلة لان تعتبر الوزن والقافية مجرد أغلال أو عوائق وخزعبلات رثّة. ومع أن ذلك التقرير لا يصدق الآن كما كان يصدق منذ سنوات قليلة

---

(١) من شعراء انجلترا المجددين وهو من أصل أميركي وجامع بين ثقافة السوربون واكسفرد ومن مأثور شعره الجميل « أغنية ج ألفرد بروفرك الغرامية » The Love Song of J. Alfred Prufrock (أنظر كتاب Recent Poetry 1922—1933)

(٢) نقلها الى العربية الاديب الشهير أنيس الخوري المقدسي استاذ الادب العربي في جامعة بيروت الاميركية، وبذل فيها جهداً عظيماً استغرق سنوات. وقد نظم تنيسون هذه الملحمة في سبع سنين وفاء لذكرى صديقه الحميم آرثر هنري هلام Arthur Henry Hallam وجعل موضوعها الموت والخلود مستوحياً حياة صديقه الفقيد

مضت ، فما من شكٍّ في أن قيمتها صارت متحداة » . وأخـذ المستر بنيون بعد ذلك يشرح أنهُ كيفما كان الرأي الذي نريد أن نتخذهُ فان هناك خيراً حقيقيّـا لا بدَّ من نشوئه عن هذا التحدّي للتقليد ، يجب أن يجعلنا ندرك أن الاختراعات التي من طراز الوزن والقافية هي وسيلةٌ وليست غايةً . ان القافية أداةٌ للتقويم والتوكيد . فلها قيمتها في (المهزلة الإلهـية) لدانتي لأنها تشعر بتسلسل النظم ، ولهـا قوة كدقات المطرقة في البيتين الاخيرين من « السونيتة » الشكسبيرية [1] أو في بعض الاغاني الدّارجة (ballads) القديمة » . وعاد المحاضر الى موضوع الوزن فشرح كيف أن نظرية الشعر الحرّ (free verse) قائمةٌ على أن التعبير يكون أدقّ اذا ما أطاع الشعر كل تغير دقيق للفكر وللشعور عند ما ينشأ في ذهن الشاعر ، وقال متسائلاً : من فرض الوزن أصلاً ؟ يقيناً هم الشعراء أنفسهم وكما أن القواعد اخترعت للألعاب الرياضية فكذلك الحال في الشعر . إن الفنانين يعملون محسنين داخل حدود مقررة ، وهم عرضة لأن يُشَلُّـوا بالحرية الكاملة . وليس الالتجاء في ذلك للعلم النظري ولكن للخبرة »

مِنْ رأي المستر بنيون أن الوزن يقابل شيئاً في الطبيعة الانسانية هو نسيج الحياة ذاتها . فيمكن أن توجد داخل الوزن مرونة لا حدَّ لها ، كأنما هي التجاوب بين الباعث والعادة أو انما هي الحرية في داخل قيود المجتمع الانساني . وأخذ يستشهد بشعر فيه روح الغناء والخطابة وحتى الحديث:

I sang the dancing stars,
I sang of the daedal earth,
And of Heaven, and the giant man,
And Love, and Death, and Birth.
And then I changed my pipings,
Singing how down the vale of Maenelus
I pursued a maiden and clasped a reed.
Gods and men, we are all deluded thus,
It breaks in our bosom and then we bleed;
All wept, as I think both ye now would,
If envy of age had not frozen your blood
At the sorrow of my sweet pipings.

واليك ترجمتـها الحرفية وان ذهبت بمعظم الروح الغنائية التي تصونها التفاعيل النظمية : « تغنّـيتُ بالنجوم الراقصة ، تغنّيتُ بالارض المحيّـرة ، وبالسماء ، وبالانسان الجبّار ، وبالحبّ والموت والميلاد ، وبعد ذلك بدّلتُ زمري مغنّياً كيف في مهبط وادي مينيلاس تعقبتُ صَبية فلم اضمّ إلاّ قصبةً . وهكذا نُضَلُّ جميعاً نحن الآلهة والرجال . إنهُ ينفذ الى صدورنا وحينئذٍ ندمى . انهم جميعاً بكوا كما أظن أنكما الآن تبكيان اذا لم يكن حسدُ العمر قد أصقعَ دمكما لدى الأسى في تزميري العذب » . قال بنيون « كذلك بيرون في الفصلين الاخيرين من ملحمة (تشايلد هارولد) يبدو لنا خطيباً مصقعاً . إنهُ يشعر بمستمعيه ، ولكن ليس ذلك كأنهم شيءٌ خارجيٌّ عن

(١) تتألف السونيتة الشكسبيرية من ثلاث رباعيات تتبعها ثنائية ، ونظام قوافيها هو (على سبيل المثال) : أب أب ، ج د ج د ، هـ و هـ و ، ز ز وكانت السونيتات مقصورة أصلاً على الشعر الغنائي ولكن اتسع مجالها فيما بعد

نفسه يريد تنبيهه أو مداجاته لغاية خفية ، وانما يشعر انهُ كليم (spokesman) لتفوّهه صبغة عامة أكثر منها خاصة . هو رجل طرازي (representative)،وهو يعرف ذلك . وهذا يعطيه سعة في الخطاب ونوعاً من الفسحة في الاسلوب . وليس هذا بأخر الشعر ، ولكن أدبنا يكون أفقر كثيراً من دونه . ان شكسبير ممتلئ بالفصاحة البيانية ، ولكنهُ حتى عند ما يستعمل تعابير طرماذية (bombastical) فمن العسير أن نجده قائلاً شيئاً فارغاً . ربما كان معربداً في براعته الذهنية أو في سيطرته على اللغة ، ولكننا نجد دائماً عقلاً داهيةً نشيطاً خلف كلماته . وفي نماذج الخطاب النبيل نجد بيانهُ مغموراً بالخيال مما يجعله في أية لحظة متسامياً الى الشعر كما في هذه المقطوعة من خطاب (جون أوف جونت) [١] :

This royal throne of kings, this sceptred isle,
This earth of majesty, this seat of Mass,
This other Eden, demi--Paradise...
This happy breed of men, this little world,
This precious stone set in the silver sea.

هذا العرش الملكيّ للملوك ، هذه الجزيرة الصولجانية ، هذه الأرض للجلال ، هذا الكرسي للقُدّاس ، هذه عدن الاخرى ، نصف الفردوس...هذا النسلُ القرير من الرجال ، هذه الدنيا الصغيرة ، هذا الحجر الكريم الثمين منضداً في البحر الفضي»

واستطرد المستر بنيون في حديثه عن الخيال الشعري فقال إنهُ كان يتألقُ متمشياً مع الفطرة السمحة في أحاديث تشوسر ، وفي حوار شكسبير الخفيف ، وفي ملحمة (دون جوان) لبيرون ، وفي فرديات (monologues) بروننج ، وفي قصائد معينة لروبرت بردجز وييتس . ومن رأي بنيون أن صياغة الشعر تكون في أجمل صورها الطبيعية حينما يكون كنوع من الخطاب السماوي وهو شيء يُعَدُّ الصوتُ الانساني، الصوتُ المتكلمُ، أتقنَ أدواته ، فان لهُ حركةً ناشطةً بهجةً ممتلئةً حرّةً ، حتى ليبدو كأنهُ نوعٌ من التحرر لشيء في نفوسنا الداخلية » . وتفسيراً لذلك أنشدَ بنيون الوصفَ البديع الذي وصفَ بهِ ثيسياس [٢] (Theseus) كلاب الصيد ، ثم قال : « عند ما يهجر الشعر هذه السجية وهذا النطقَ ، عند ما يستعمل ضرباً من النظم لا يمكن تقديره في الصوت المتكلم ولا يعظم بهِ ، إما بسبب حركتهِ أو بسبب عبارتهِ ، فحينئذٍ يفقد شيئاً من صفتهِ الأصيلة . هذه الصفة يفقدها عند ما تُدفَع الكلمات قهراً في وزن بغير إحساس بقيمتها الطبيعية في الكلام . والنظم الانابستي (الرجعي) [٣] anapaestic verse عُرضة بصفةٍ خاصة لهذا العيب ، وحتى كيتس في صباه كان يقول مثل هذا :

---

(١) John of Gaun : هو دوق لانكستر (١٣٤٠ — ١٣٩٩) والابن الرابع للملك ادوارد الثالث والملكة فيليبا . وكانت له جهود حربية في اسبانيا وفرنسا ، وفي أواخر حكم الملك أدوارد الثالث (والده) تعاظمت قوته في انجلترا ، وقد نال فيما بعد لقب دوق اكويتين وحكمها . وهو من الشخصيات التي لم تغفلها عبقرية شكسبير

(٢) ثيسياس أو ثيسس بن أغيس . بطل أثيني ، وقد ذكر في (الالياذة) أنظر ص ٢٢٥ من الترجمة العربية لسليمان البستاني (٣) يرجع الى أحد كتب العروض الانجليزي للوقوف على تفاصيل الوزن

What though while the wonders of nature exploring
I cannot your light, mazy footsteps attend
Nor listen to accents that almost adoring
Bless Cynthia's face the enthusiast's friend.

ويمكن الاستشهاد بأمثلة أخرى أشدّ عيباً لشعراء آخرين [١] . ويلاحظ أن في هذه الاناشيد الشعرية تكون ضربة النغمة واقعة في البيت الاول وتُترَكُ الكلماتُ لتتمشى معها على قدر طاقتها ولو أن نطقها في الانشاد قد يختلف كثيراً

ولكن الشعر قد يفقد صلته بالحديث فقداناً طبيعيّـاً لاسباب عميقة حينما ينظم الشاعر وهو يفكر عن غير وعي في الكلمة المكتوبة قبل الكلمة المنطوقة ، كما تدلّ على ذلك براعة تنيسون في شعره المرسل blank verse الاخير وفي سونيتات روزيتي التي تغلب عليها الصناعة . وهذا مشهود بصفة خاصة في درامات سونبرن [٢] ذات الشعر المرسل بما لها من الرونق والتأثير الكلاميّ العامّ ، ولكنها قلما تؤثر تأثيراً عاطفيّـاً لانها تهمل الوقفات الطبيعية للتنفس في أثناء الكلام ، وبناء على ذلك تكتسب ما يكاد يكون جرساً أجنبيّـاً يشقّ اتّباعه عند التكلم بهِ . وردّ الفعل لهذه الكتابة النظمية التي تعلّـق بها شعراء العصر الفكتوريّ كان بذل الجهد لتقريب النظم نحو الحديث الطبيعي ، وهـذا يذكّرنا بتوفر وردزورث على تحرير الاسلوب تحريراً طبيعيّـاً فعُـني بالدعوة الى استعمال اللغة الطبيعية في المواقف العاطفية بدل التعابير التقليدية المحفوظة في لغة الشعر منذ القرن الثامن عشر . ولكنهُ لم يلازم نظريته هذه ملازمة دقيقة بل كان احياناً يمسخ غايته هذه ، ولم يفعل شيئاً ليعيد الى النظم الايقاعات الكلامية speech—rhythms التي كانت للشعر الانجليزي الاول ولكن غطّى عليها النظم الكلاسيكي . بيد أن احد معاصريه — وهو شيلي — توسّع في ألحان الشعر الليريكي وأغناها بما لم يستطع غيره ان يفعله [٣] ويظهر ان قليلين نبّهوا الى ذلك ، لانّ شيلي لم يكن يبتدع عن وعي ، ونادراً ما كان يذكر الامور الصناعية في كتاباته أو في أحاديثهِ المدوّنة . استمع الى هذا الشعر :

Ah, Sister, desolation is a delicate thing.
It walks not on the earth, it floats not on the air
But treads with killing footstep and fans with silent wing
The tender hopes which in their hearts the best and gentlest bear;
Who soothed to false repose by the fanning plumes above
And the music—stirring motion of its soft and busy feet
Dream visions of aerial joy and call the monster Love
And wake and find the shadow Pain, as he whom now we greet. (٤)

فيا لَلتموّجات الساحرة ، ويا للتنويع في النغم ومداه ، ويا للتراوح في الحركة المبهجة ! »

---

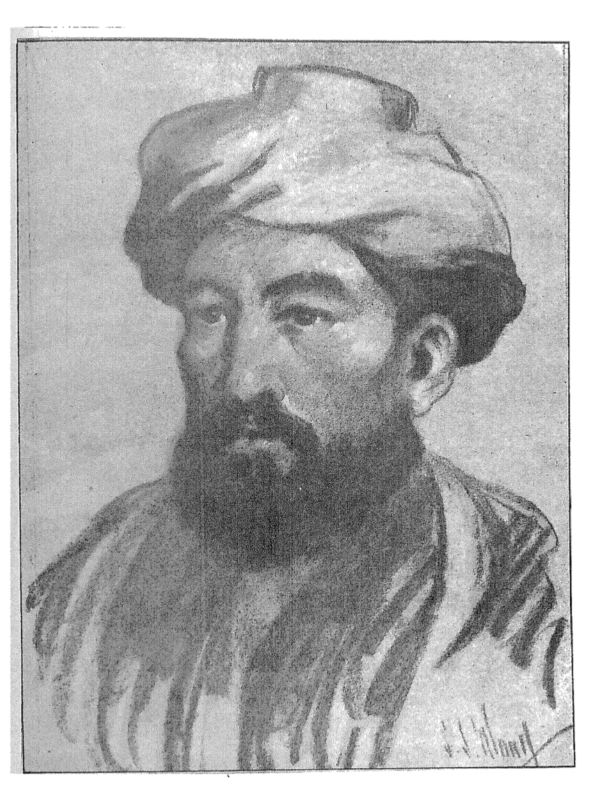
(١) لم نترجم أبيات كيتس هذه لان الغرض من سردها في الاصل تبين عيب الصياغة التي لا تتمشى مع سلاسة التعبير

(٢) اشبه شعراء الانجليز بأحمد شوقي بك عندنا في حلاوته الموسيقية . وقد كان له شأن كبير في عهد الملكة فكتوريا وسحر الادباء بحلاوته هذه كما سحرهم تنسون بشاعريته القوية (٣) لعل من أظهر الامثلة في شعره على هذه المقدرة الفائقة قصيدته « السحابة » The cloud فان سلاسة البحتري وبديعيات أبي تمام وأخيلة ابن الرومي مجتمعة تقف مشدوهة أمام ثروتها المدهشة على شدة اعجابنا بشعرائنا

(٤) يرجع الاستشهاد في هذه الابيات الى صياغتها الانجليزية ولذلك لم نترجها ولا ما يماثلها

— ٥ —

وأخيراً ختم بنيون محاضرته بقوله : « إنّ المسائل التي بحثناها كافيةٌ لتشويقنا ولكن يمكننا مطمئنين أن ندع للزمن تمحيصها والحكم في شأنها . اما المسألة الحقيقية فهي بين هذين : ما هو الشعر الجيد ؟ وما هو الشعر الرديء ؟ وليست بين التقليديين والعصريين ، ولا بين حزب اليمين وحزب اليسار . ألا يمكننا أن نُبصر الاشياء في نور أعمّ ؟ ألا يمكننا أن نرى في الشعر روحاً مستمرًّا للنوع الانساني محاولاً بغريزة المقاومة المتحمسة أن يحرر في هذا الاسلوب تارة وفي ذلك الاسلوب تارة اخرى تجاوَبنا كآدميين للعالم الذي نعيش فيه ، والمشهدَ الشامل والمعنى الكامل لهذه الدنيا ذات العظائم والاهوال والعجائب والافراح ؟ إن حبور المشاعر وعذابها، إنّ الصيحة من اعماق القلب ، إنّ سياحات العقل ، إنّ تلهفات الرُّوح الحرّة — إن كلاًّ من اولئك بدورها ربما استوعبت حفاوة الشاعر . ولكن في اعظم الشعر ، وفيه وحده ، يبدو القريض كأنهُ امتص — كما تمتص الاسفنجةُ الماء — جميع العناصر المتنوّعة والغامضة للطبيعة الانسانية واداءها في صورة الفن . واني لأذكر الإصرار الحماسيّ الذي كان يبديهِ الشاعر وليم بليك على الوحدة المثالية للذكاء الانساني ، مما كان يُعَدُّ في عهده دليلاً على عدم الاتّزان العقلي بل على جنونه ! كان يعتقد بليك أنهُ اذا اغتصبَت احدى المواهب الانسانية — ولتكن العقل او المشاعر أو العواطف — السلطةَ وسيطرت على بقية المواهب ، فان الانسان يصبح في حالة سقوط . وكذلك الشعر ، إذا صار مُفعماً بالمنطق او بالعاطفة أو بالحساسية الى درجة المغالاة سقط الى مستوًى دون مستوى ذاتيته الحقيقية . ولكننا نحن الذين وُلدنا في عصر يلوح فيه ان العلم بخطواته الفسيحة قد سبق جميع قوى الذكاء الانساني الاخرى، وحيثما يوجد ضرب من العطل الذهني في حياتنا ، وحيثما لا نزال نعيش بجزءٍ من انفسنا في آراء الماضي ليس لها الآن من صحة ، بينما نمضي بجزءٍ آخر من أنفسنا كمخلوقات عوالم لم تحقق بعد ، فما أشق علينا ان نبلغ ذلك النقاء المنشود ! ولكن ها هي دنيانا المعاصرة التي استبدلت الى حد كبير نظرةُ الاطمئنان اليها من عصر سابق ، بالشك والحيرة وفقدان الامل الكاذب ، فما علينا إلاّ ان نحسن الحياةَ فيها ما استطعنا . ولا بدّ أن هذا الجوّ الغائم يخضب الشعراء الذين نشأوا فيهِ ، فاننا جميعاً أطفالُ عصورنا ، ولا بدّ ان يكون الشاعرُ ابن زمنهِ إذ ليس في وسعهِ الافلاتُ من ذلك مهما حاول أن يموّه الحقيقة ويُخفي نفسهُ . ولكن المحاولة عن شعور وعمدٍ لتنصيبِ الانسان نفسه كمرآة تعكس الشكّ والاخفاق هو في نظري تسليمٌ حقيرٌ . فاذا كان هذا هو روحُ العصر ، فإذنْ يكون روح الشعر ضدّ روح العصر ، لان الشعر يتغذّى من ينابيع أعمق من هذه المُثَبِّطاتِ ، ويتذكر الاشياء التي هي أجلُّ من أنفسنا »



موسى بن ميمون

ويعرف في اللغات الاعجمية باسم Maimonides

موسى بن ميمون[1]

حكيمٌ في حكمتهِ رسالةٌ لابناء العصر الحديث

في عصر مزقتهُ الحروب ، وساد فيهِ رجال الدم والحديد ، نشأ حكيمٌ من اعظم حكماء التاريخ هو موسى بن ميمون المولود في قرطبة قبل ثمانية قرون

كان يهوديًّا ورِعاً ذكّر ابناءَ قومهِ بمشترعهم الاول ، وكان حكيماً طالما خاض في اغوار الفلسفة الارسطوطالية ، وكان انسانيًّا يجد نصيباً من الخير في كل ثقافةٍ ، وكان طبيباً خاصًّا لبلاط صلاح الدين ولكنهُ مع ذلك لم يصرف المرضى المساكين عن بابهِ . فمن الطبيعي ان يقرن قومهُ اسمهُ الى اسم موسى الكليم مشترعهم العظيم وزعيمهم الذي خرج بهم من مصر الى ارض الميعاد

اطلَّ موسى بن ميمون على الحياة ، اذ كانت اليهودية مضطهدة من المسيحيين والمسلمين على السواءِ ، بل كانت في خطر من ان تفقد ذاتيتها وتتحجر في مذهب جامدٍ ضيق النطاق . فبعث في ابناءِ قومهِ نشاطاً جديداً ، وكسب لهم في مصر وبلاد العرب ، مكانة عالية ، بفضل خلقه القويم وذهنهِ الجبَّار ، فبسَّط لهم مبادىء شريعتهم الموروثة وفسَّر لهم ديانتهم القديمة تفسيراً جديداً نبيلاً

ولكن حسّهُ المنطيقي السليم ، وبحثهُ الجريء عن الحقيقة ، حملاهُ على الخروج من نطاق مذهب واحدٍ الى رحاب الانسانية والحكمة . فقد صارع الريَبَ والاسرار التي تساور ذهن الانسان وقلبهُ في جميع العصور . ومع ان ابناءَ العصر الحديث ، من غير الطائفة الاسرائيلية لا يعرفون عنهُ الاّ قواعد الاحسان الثمان ، الاّ ان تفكيره كان ذا اثر عميق في القرون الوسطى التي نشأ منها عصرنا الحديث

فمن الطبيعي ان يحتفل اليهود وغير اليهود بالذكرى المئوية الثامنة لمولدهِ في هذا العام ، ابتداء من ٣٠ مارس ولكن من المصادفات التي يؤسف لها ان نرى العالم اليوم مضطرباً كما كان في عصر بن ميمون وان نشاهد بوادر الحروب والصعوبات الدولية تبدو كما بدَتْ في ايامه . ومما تجدر ملاحظته ان روح ابن ميمون ، بل نظرياته ذاتها ، ما زالت ثابتة قوية كما كانت عليهِ لثمانمائة سنة خلت

***

لقد مرت بابن ميمون في حداثتهِ تجاريب مُرّة لا تختلف كثيراً عن تلك التي يجتازها الشباب الذي نشأ غداة بداية العصر المضطرب الذي نعيش فيه . رأى نور الحياة عشية عيد الفصح من عام ١١٣٥ ، في مدينة قرطبة القديمة ، التي كان يحكمها وقتئذٍ الخلفاء وكانت الثقافة الاسلامية قد نمت

(١) [نشر اصلُ هذه المقالة في مجلة النيويورك تيمس بقلم كاتب اميركي معروف اسمه دوفوس Duffus وقد تفضل فنقلها لنا الدكتور الفريد يلوز المحرّر والمترجم بوزارة المالية وسكرتير جمعية المباحث التاريخية الاسرائيلية المصرية]

وازدهرت ، فبلغت شأوها من العظمة ، حتى بزَّ العربُ معاصريهم من علماء المسيحية ، خصوصاً في الطب والعلوم والفنون وتفوقوا عليهم تفوقاً كبيراً . نشأ ابن ميمون في هذا الوسط الخصب في ظل تسامح العرب نحو اليهود ، ذاك التسامح الذي مهد لليهود فرصة الانتفاع من علوم العرب ، فعمت الفائدة كليهما . كان والد موسى من العلماء المشار اليهم بالبنان ، محترماً بين رجال عشيرتهِ ، لما تحلى بهِ من العلوم الدينية وادب الكتابة . وتلقى الولد علومه على يدي ابيهِ فاظهر نبوغاً في الدرس والتحصيل . (لقد ذكر بعض المؤرخين انهُ كان كسولاً في صباه لكن هذا الادعاء يكذبهُ الواقع)

وما كاد موسى يبلغ الثالثة عشرة من عمره ، حتى انقضى الحلم اللذيذ . اذ نشبت في قرطبة اضطهادات قامت بها شيعة الموحدين النازحة من افريقيا الشمالية (المغرب الاقصى) والتي قضت قضاءً مبرماً على عهد قرطبة الزاهر ، وحصدت في طريقها الفنون وروح التسامح والاخاء

لم يرَ ميمون مندوحة عن الرحيل ، محافظة على حياته وحياة اولادهِ . وها هي الاسرة تحيا مدة اثنتي عشرة سنة تارة في الاندلس ، وطوراً في المغرب الاقصى ، دون ان تستقرَّ في موطن واحد . وقد اضطر موسى خلال تلك المدة ان يهمل دراسته ، لكثرة اسفاره . لكنهُ كان اذا استقر في مدينة ، عمد الى تحصيل العلم آونةً بعد اخرى ، وقد نشر اول مصنفاته خلال تلك المدة المضطربة وهو تقويم عبري ما زال مستعملاً حتى الآن كمرجع من المراجع ثم اعقبه ببحث في علم المنطق

هاجرت الاسرة الى فاس في سنة ١١٦٠ فقضت فيها خمس سنوات . وكانت تلك الايام اشد ايام ميمون بن يوسف (والد موسى) قسوة وحيرة . اذ ان فاس ظلت ردحاً من الزمن مركزاً للموحدين ولنفوذهم . اعتنق اكثر اليهود الدين الاسلامي خشية على حياتهم . وقد قيل ان ميمون واسرته حذوا حذوهم . لكن كليهما دفعا تلك التهمة في كتاب ارسله موسى الى احد الحاخامين الذين الصقوا بهِ زوراً هذه الوشاية . وقد امتاز هذا الكتاب بقوة البيان والبلاغة ، فأدى نشرهُ الى احياء روح الشجاعة في يهود المغرب الاقصى

كادت الاضطهادات ان تودي بحياة موسى بن ميمون . فأخذت الاسرة تبحث عن موطن جديد . ذهبت اولاً الى فلسطين . فما كاد يستقر بها المقام حتى شدت رحالها الى الفسطاط ، اذ لم تستطع الحياة في بلاد خربتها الحرب القائمة بين العرب والصليبيين

قضى موسى بن ميمون المدة الباقية من حياته في مصر . وكم لاقى من الصعاب في اوليات سني نزوحه اليها . فقد توالى عليهِ مصابان كاد ينوء تحت حملهما . مات اخوه الاكبر داود غريقاً في المحيط الهندي ، اثناء سفره في مهمة خاصة بتجارة الاحجار الكريمة التي كان يزاولها ، ولم يمض زمن طويل حتى لحق الاب بابنهِ . وقد ظل موسى مريضاً سنة كاملة من جراء احزانه

عاد شيئاً فشيئاً الى الاهتمام بشؤون الحياة . فانكب على دراسة الطب . وما كاد يتمها حتى شرع في مزاولة مهنته ، معتمداً على علوم العرب وعلمه ذكائه ومواهبه في تطبيقها وتعديلها . لم ينقطع

موسى عن التطبيب ، بل ظل يقوم بهِ ، اولاً بين اليهود ، ثم احرز شهرة بين غيرهم من ابناء مصر ، حتى ذاع صيته فبلغ السلطان صلاح الدين بن ايوب . وقد دلت الاسانيد التاريخية على ان موسى بن ميمون كان طبيباً يشار اليهِ بالبنان . لكن هناك باعثاً آخر حمله على مزاولة الطب . وهو انهُ كان زعيماً دينيًّا ثم اصبح رئيساً للطائفة الاسرائيلية بمصر . ولما كان يستهجن اتخاذ الواجبات الدينية وسيلة للكسب ، رأى اتخاذ التطبيب مورداً لرزقه

كان موسى بن ميمون في حياتهِ الخاصة ، متواضعاً ، مجتهداً ، متفانياً في خدمة الانسانية . ويستدل على ذلك من الكتاب الذي ارسلهُ الى احد تلاميذه في سنة ١١٩٩ اي خمس سنين قبل وفاته حيث وصف عمله اليومي كما يلي : « ان واجباتي نحو السلطان ثقيلة جدًّا . ذلك لانني مضطر الى زيارته يوميًّا ، في الصباح المبكر ، فاذا مرض هو ، او احد اولاده ، او احدى سيدات الحرم ، لازمت القاهرة ، وبقيت الشطر الاكبر من النهار في السراي . وكثيراً ما يمرض واحد او اثنان من رجال الديوان ، فاظلُّ بجانبهما حتى يبرآ »

« والقاعدة العامة هي أن اذهب الى القاهرة في ساعة مبكرة من النهار ، وحتى في حالة عدم حدوث شيء غير عادي ، لا اعود الى الفسطاط ، الاَّ ساعة العصر ، وانا اكاد اموت جوعاً . هناك اجد في حجرة الانتظار ، فوجاً من الناس ، يهوداً وغيرهم ، اشرافاً وعامة ، قضاة وحجاباً ، اصدقاء واعداء ، كلهم ينتظرون ساعة ايابي

« اقفز من مطيتي ، واغسل يدي ، ثم اذهب الى مرضاي ، وارجوهم ان ينتظروني حتى احتسي شيئاً من المرطبات ، وهو الطعام الوحيد الذي اتناوله خلال الاربع وعشرين ساعة . ثم اعود الى مرضاي وا كتب لهم تذا كر الدواء ، والتعليمات الخاصة بالطعام . والمرضى يذهبون ويفدون الى ساعة الغروب ، بل اؤكد لك انهم يستمرون وافدين الى ما بعد الغروب بساعتين او اكثر . اتحدث معهم واصف لهم الدواء وانا مضطجع من شدة التعب ، واذا ماجاء الليل ، امسيت منهوك القوى ، لا ا كاد استطيع الكلام »

وكان لا يلتقي بافراد الطائفة الاسرائيلية الاَّ في يوم السبت ، حيث كان يقضيه في التعليم الديني ، والدرس ، والعبادة ، والصلاة . فكيف استطاع ان يحرر رسائله العديدة ، حتى أخريات ايام حياته ، دون الالتجاء الى كاتب سر ؟ . ثم كيف وجد وقتاً لانجاز مؤلفاته الفلسفية العديدة؟ حقًّا انها لمعجزة ! قضى حياته عاملاً مجدًّا مجتهداً . وانتقل الى الرفيق الاعلى في ١٣ ديسمبر سنة ١٢٠٤ اي قبيل بلوغه السبعين

ليس من الميسور استعراض جميع نواحي حياة موسى بن ميمون ، فهي عديدة متشعبة . لقد استطاع وحده ، دون مساعدة اي انسان ، ان ينهض بثقافة اليهود وايمانهم . وكانت الخدمات التي اداها الى السلطان صلاح الدين ، بمثابة خدمات لشعبهِ ، اذ ضمن لليهود السلامة والامن ، في

البلاد الشاسعة التي امتد عليها سلطان صلاح الدين. والواقع ان اليهود تمتعوا بعد فتح صلاح الدين لمدينة القدس في سنة ١١٨٧ ، بحرية أوسع من تلك التي نالوها تحت حكم الصليبيين . اما الخدمات التي قام بها موسى نحو الانسانية فانها أجل شأناً . كان يعتقد ان هناك ثقافة عالمية تستطيع استخراج المبادىء الطيبة من جميع الاديان والحضارات . وقد بذل جهده في محاربة التعصب أيّـاً كان مظهره. وفي المجادلات التي جرَّ اليها رغم ارادته ، اتخذ موقفاً مملوءًا بالتعقل وانكار الشخصيات ، بل طالما تجنب ذكر خصومه باسمائهم

فلما وقع الشقاق بين يوسف بن عفنين — احد تلاميذ موسى المخلصين — وصمويل بن علي ، رئيس المدرسة اليهودية ببغداد ، كتب موسى الى تلميذه ، يحذرهُ من الوقوع في الجدل الشديد ، حيث قال لهُ : « علمٌ ولا نسب ، تذكر انك أسأت الى هذا الرجل، وانك آذيتهُ في اسباب معيشته . فكيف يمكن أن يتحمل المرء هذه الاساءة دون ان يشكو ؟ تذكر انهُ شيخ مسن ، وانهُ يشغل مقاماً محترماً ، وانك لا تزال شابًا فيجدر بك ان تحترمهُ لمقامهِ وسنه »

ومما قالهُ موسى بن ميمون في « درجات الاحسان الثمان » ما يأتي : « ان ارفع درجات الاحسان ، وأحسنها جزاءً هي السبق في الاحسان ، بمنع الفقر قبل وقوعه »

ليس من السهل الايجاز في تحليل فلسفة موسى بن ميمون . فهي لا تقل تشعباً عن فلسفة افلاطون ، وارسطو ، وكانت ، وهيجل . ولا تزال ثلاثة من درر تصانيفه باقية الى يومنا هذا . نذكر منها اولاً تفسيره لكتاب « المشناه » الذي بدأه ولم يتجاوز الثالثة والعشرين وانتهى من وضعه بعد عشر سنوات . و « المشناه » هي مجموعة الشرائع والسنن والتقاليد الدينية الاسرائيلية التي تناقلتها الاجيال ، عن طريق الحديث ، من وقت موسى الكليم ، ثم اضيفت اليها اقوال الحكماء ، المتناقلة عن طريق تلاميذهم وتلاميذ تلاميذهم . وقد استعرض موسى بن ميمون في تفسيره ، جميع انحاء الثقافة اليهودية . ومما قاله الدكتور مونز (Munz) واضع تاريخ حياة موسى ابن ميمون ، ان كتاب تفسير « المشناه » ليس عمل رجل يهودي فحسب بل هو عمل احد العلماء العالميين . لانه استطاع ان يستند في ابحاثه الى نصوص علمية عدا نصوص التوراة . وقد لخص النقط الاولية لمبادئه في ١٣ مادة دعاها « اقوال التوراة » ولا يزال اليهود الى يومنا هذا يكررونها في الصلاة ويترنمون بها ترنماً رائعاً

وبعد اتمام كتاب « مشني توراة » ، شرع موسى بن ميمون في تبويب الشريعة الاسرائيلية وسننها وتقاليدها فانتهى منها في سنة ١١٨٠ بعد جهد دام عشر سنوات . وقد ظهر مؤلفه هذا في ١٤ جزءًا تشمل الف فصل . ويعد هذا الكتاب بمثابة المرآة التي تنعكس على صفحتها الصافية تفسيراته المنطقية وآراؤهُ الجلية

لكن موسى بن ميمون لم يدرك الغرض الذي كان يرمي اليه من هذا المصنف الاخير ، وهو

جعل الشريعة الاسرائيلية واضحة جلية ، في متناول كل انسان . ذلك لان الشروح والتفسيرات التي شملها كتاب « مشني توراة » لم يستطع فهمها الا المتبحرون في العلوم الدينية . ومع ذلك فقد اصبح بحثه ، في ما تلا من الايام ، اساساً للتطور الديني

واخيراً كتب موسى بن ميمون « دلالة الحائرين » وهو بحث لم يقصر فيه المؤلف جهده على الفلسفة الاسرائيلية فحسب ، بل تجاوزها الى دراسة اسس الفلسفة العالمية . وقد بذل موسى قصارى جهده في سبيل التوفيق بين العلم والدين ، بين العقل والنقل . ونستطيع القول بأن موسى ابن ميمون قد نجح في تصوير الخالق عز وجل ، في صورة روحية ، ليس فيها شيء من المادة او الشكل ، في صورة القوة الكاملة التي لا يحدها حد ، والقادرة على كل شيء

ان تصوير الخالق عز وجل بهذه الصورة ، يوافق كل الموافقة العقيدة اليهودية ، من دون ان يتعارض مع التفكير العلمي . فقد قال موسى بن ميمون في وصف الله : اذا حاولنا مشاهدة عظمته اصيب نظرنا بنور ساطع يفقدنا قوة البصر ، واذا عمدنا الى تقدير قوته ، اصبح علمنا جهلاً ، واذا اجتهدنا في وصف حبه للانسانية ، تلعثم لساننا كلسان الاطفال »

اذا كانت تلك هي صفات الله ، فكيف يظل الشر موجوداً على وجه الارض ؟ وقد اجاب ابن ميمون على هذا السؤال قائلاً ان الشر ليس بالشيء القائم بذاته ، بل هو حالة عدم وجود الخير . وقد ذهب موسى الى مدى ابعد ، اذ اعتبر ان امراض النوع الانساني واحزانه ، ناتجة من الطبيعة ذاتها ، وان حالة النزع والموت هما الثمن الذي يدفعه المرء نظير تمتعه بالحياة ولولاهما لاصبحت الحياة امراً مستحيلاً

عمد موسى بن ميمون الى طرق التدليل اليونانية تارة ، والى المنطق الشائع في العصور الوسطى تارة ، حتى وصل الى اليقين والاستقرار . وقد بدا له الانسان مخلوقاً واهياً وعنصراً هاماً في آن واحد . اذ مع صغر شأن المرء في الكون ، تراه هو وحده ، دون سواه ، فاهماً لاسرار الكون ملماً بوحدته . وهي النظرية الفلسفية القائمة حتى الآن

ان أثر موسى بن ميمون في الفلاسفة المسيحيين ثابت لا ينكر . فقد اخذ عنه كثيرون منهم امثال اسكندر اوف هيلس ، والبرت ماجنوس ، ودون سكوتوس ، وآ كويناس . بل لقد كان أثر موسى بن ميمون عظيماً جداً في الفلسفة الحديثة ، بواسطة المفكر اليهودي سبينوزا . وهكذا اشترك في تكوين اجيال فلسفية جديدة ، لا تمت الى دينه بأية صلة

فلا غرو اذا احتفلت جميع الشعوب والاجناس بالذكرى المئوية الثامنة لمولده . ومن دواعي السرور حقاً ان تشترك الحكومة الاسبانية رسمياً في المهرجان الوطني الذي سيقام لاحياء ذكراه بمدينة قرطبة ، مسقط رأسه . ففي الوقت الذي طوى النسيان اعمال محاكم التفتيش ما زال اسم موسى بن ميمون حياً في الاذهان

عيد بنك مصر

وخدماته الاقتصادية والاجتماعية

[احتفل بنك مصر في الاسبوع الثاني من شهر مايو الماضي بانقضاء خمسة عشر عاماً على تأسيسه ، فكان الاحتفال عيداً قومياً عاماً اشتركت فيه جميع طبقات الامة ، حكاماً ومحكومين ، رجالا ونساء ، كباراً وصغاراً ، وطنيين واجانب على السواء . وفي الجانب الاول من هذا المقال وصف للرسالة الروحية التي تمثلها حياة قطب من اقطاب العمل مثل طلعت باشا وصحبه الكرام . ويلي ذلك مقتطفات من خطبة طلعت باشا النفيسة المسهبة تبين تدرج ارتقاء البنك من الناحية المالية ، وتصف الخدمات الاجتماعية الجليلة التي اداها للامة المصرية الكريمة في غمار نهضتها الحديثة]

— ١ —

أتخلق الظروف الرجال او تخلق الرجال الظروف او ينتهز الذين يؤتون مقام الزعامة والقيادة والسير في طلائع الجماعات ما يسنح لهم من فرص وما تهيئه الحوادث من شعور فيقدمون على اعمالهم ومشروعاتهم ويحققون ما يجول في خواطرهم وهم يرنون الى المستقبل بعين الرجاء المبني على صحة القصد وصدق العزيمة

وقد تتعذر الاجابة عن هذه الاسئلة الثلاثة بالضبط الذي يتوق اليه المعجبون بالمفلحين والابطال وقد لا يكون الجواب — اذا تيسر — واحداً في جميع الحالات

غير ان المحقق هو ان من آيات عناية الله بخلقه ان ينفحهم في ثنايا الزمان برجال — ونساء — يجدون لذة الدنيا وهناءة العمر في ارتياد مجاهل الحياة لخدمة المجموع — هؤلاء هم بناة الحضارة ومرشدو الشعوب وارباب الزعامة في ما ينفع الانسان من مدنية وثقافة وهناءة ويسر مادي

وما كان الله ليحرم كنانته في ارضه مما حبا به سواها فقد تجملت نهضة مصر الحديثة بظهور رجال ابوا القعود في غير مرفق واحد من مرافقها وتمردوا على المذاهب التي علقت بالاذهان ورسخت في النفوس فتوسلوا بما يتوسل به كل بصير صبور وتم لهم الفوز وقيض لبلادهم الربح والظفر

ولقد كان شهر مايو من الشهور المذكورة في اعوام هذه النهضة لما بدا من شعور امة بأسرها وقد اتيح لها اظهاره فكان اغتباطها هذا واشتراك جميع طبقات الامة اسطع دليل على ان الذين اسسوا بنك مصر والذين اعدوا مشروعه وبنوا الامل بل اليقين بنجاحه وحققوا الامل وأيدوا اليقين اصابوا من هذه الامة الكريمة اقصى ما تصبو اليه نفس المواطن ونالوا عطفها وقدرها وشكرها وهو اعظم جزاء يحفل به عظيم النفس وكبير الفؤاد

ان طلعت حرب وبنك مصر ليسا شخصاً ومؤسسة بل هما عنوان ورمز -- الاول على الرجولية الكاملة ووقف الحياة والقوى على الخدمة العامة. والثاني الى ما تتمناه هذه الامة وما هي بالغتهُ باذن الله وبصدق خدمة ابنائها الممتازين واقطابها المختارين وتعاونهم على ما فيه خيرها وصلاحها

ولطالما وددنا لو ان طلعت حرب باشا يكتب مذكراته ولاسيما ما يختصُّ منها بمشروع البنك وكيف خطر له وكيف كيفهُ واعده وما لقي من تشجيع وتنشيط وما قابل من معارضة وتثبيط همة وان يذيع ما يستطاع اذاعته من ذلك الآن ليكون منهُ بيان للناس وقدوة ومثال للشبيبة المتعلمة ولاسيما التي لا تعرف كيف تهتدي الى طريق العمل لنفع الشبان ولخدمة وطنهم

فان في هذا السفر المكتوم حتى اليوم عبراً ودروساً قد تذاع وقد تظل مكتومة الاّ عن الذين عاصروها واطلعوا عليها لاسباب شتى

***

ولكن الآية الكبرى ستظل ماثلة للعيون والاذهان في استمرار هذا العامل العظيم واخوانه الذين يضارعونهُ في شوقهم للخدمة العامة واجتهادهم ونشاطهم واخلاصهم ونزاهتهم — واستمراره واستمرارهم في العمل المنتج وابتكار المشروعات التي تغتبط بها الأمة والبلاد وتعزيز ما أسس وتحسينه

ان عمر بنك مصر الآن ستة عشر عاماً من عمره الطويل المبارك ولكن متانة مقامه في النفوس وعمره الادبي اذا صحَّ هذا التعبير لا يقلان عن اهرام الجيزة العظيمة مع مراعاة الفرق في ما يجنى من النفع من مؤسسة المدافن الملكية ومؤسسة الحياة الشعبية

ولم يترك الشعراء والخطباء والصحافيون والكتّاب لكاتب ما يقال سوى مشاركتهم في ترديد الحمد على هذه النعمة التي اسبغتها العناية على مصر والدعاء باستمرار نجاح هذه الجماعة الكريمة المختارة

***

ولكن للمقتطف اقتراحاً يعرضه على المفكرين والمعجبين — فقد اقترحوا نصب تماثيل وتسمية شوارع وكلا الاقتراحين جميل وجدير بأن يوضع موضع التنفيذ

فلماذا لا يعزَّزان بعمل ثالث قد يكون اهم في دلالته على المعنى المنشود والقصد المقصود

وذلك بأن يصاغ كتاب تهنئة وشكر ودعاء لطلعت حرب باشا واخوانه ويكتب بأجمل خط على رق غزال ثم يطبع منهُ الوف من النسخ على ورق متين وفي كل ورقة مكان لمائة امضاء وتعرض هذه الاوراق بصيغة كتاب التهنئة ليمضيها الذين يقدرون بنك مصر ورجاله واعماله قدرها وقدرهم ثم تجمع هذه الاوراق في مجلدات وتهدى الى بنك مصر ويوضع الكتاب الاصلي في اطار شرقي نفيس ويقدم الكل هدية وتذكاراً الى طلعت حرب باشا واخوانه تنويهاً بفضلهم ودليلاً على اعتراف أمة بأسرها بجليل خدمتهم

— ٢ —

انشاء البنك وبرنامجه

في اليوم السابع من شهر مايو سنة ١٩٢٠ — بشّر الناس بميلاد بنك مصر واضيف الى تاريخ النهضة المصرية صفحة جديدة لتسجيل هذا الحادث التاريخي السعيد . وان خمسة عشر عاماً ، تمر تباعاً على بنك صميم في مصريته ، لم يألف المصريون مثله من قبل ، ليس بالقليل . بل ان مرور هذا الزمن على عمل ما دليل حي على قوة هذا العمل ومتانته ، وبرهان ساطع على ثباته وحيويته بل وضرورته

وبنك مصر الذي انشئ للمصريين جميعاً ولخدمة المصريين جميعاً قد برهن طوال حياته على انهُ عمل نافع ثابت الدعائم متين الاساس وبرهن ايضاً على انهُ قوة مصرية كانت كامنة في القلوب والخواطر فاظهرتها الامة بالعزيمة والثبات وانكار الذات

وبرهن كذلك على انهُ ضرورة لم يكن من وجودها بد لاشباع حاجة كانت تحس بها الامة ولم يكن عنها محيد لتصوير الناحية الاقتصادية، بعد ان ظلت صدراً من الزمان عاطلة عن التصوير والبيان

كان تأسيس بنك مصر سنة ١٩٢٠ مفاجأة ادهشت الجميع . واقبل بعضهم على بعض — من فرط ما دهشوا — يتساءلون عن مستقبل هذا المشروع ، وعن كفاية الذين يتولون اموره ، ويهيمنون على شؤونهِ ، وهل من المستطاع استعمال لغة البلاد في اعماله ، او هل يجد حاجته من ابناء الامة الذين يستطيعون ان يحملوا اعباءه بسهولة ، وما مدى تأثيره في الناحية الاقتصادية المصرية، وما مبلغ حظه من التوفيق في انشاء فروعه في الداخل والخارج واتصاله بامثاله هنا وهناك

وتلهف الناس في كثير من الاهتمام على ما عسى ان يكون الرد على امثال هذه الاسئلة فما كان جواب البنك الاّ ان قال : — « هاؤم اقرأوا كتابيه . ثم احكموا بالعدل والقسطاس المستقيم... »

ونحن اذ نتحدث بنعمة الله علينا ، لا نرى ابلغ في التدليل على توفيق الله الاّ ان نعرض ما كان المؤسسون قد ارتضوه واقروه برنامجاً للبنك منذ سنة ١٩٢٠

جاء في برنامج البنك « انهُ يعمل كل ما يعمله بنك تجاري مثله لا فرق فيمن يعامله بين ان يكون مصريًّا او غير مصري فالمصرية لم تشترط الا في رأس المال، اما فيما عدا ذلك فابوابه مفتوحة لكل عميل »

« وان في البلاد اموالاً كثيرة مخزونة ومعطلة وظيفتها في الاصل التداول بين الناس ولها في كل حركة بركة ، وفي كل دورة ربح لرابح . ففي خزنها وقوف هذه الحركة وضياع لهذا الربح والفائدة التي تعود على البلاد من زيادة ارباح بنيها فضلاً عن تعرض هذا المال للضياع بالسرقة او الحريق او ما اشبه . وفي البلاد ودائع وامانات كثيرة مثمّرة معظمها في بلاد غير البلاد . ولو ثمّرت هذه وتلك في الشؤون المصرية وسوعدت بهما التجارة والصناعة والزراعة المصرية لزادت الثروة المصرية



صاحب السعادة طلعت باشا حرب

مستعارة من مطبعة بنك مصر

اضعافاً مضاعفة ولكان ذلك عاملاً قويًّا على اصلاح حالنا الاقتصادية وايجاد الكفاءة المالية التي هي الاساس المتين للرقي المطلوب »

وان البنك « سيشجع المشروعات الاقتصادية المختلفة التي تعود عليهِ وعلى البلاد بالربح العظيم ويساعد على ايجاد الشركات المالية والتجارية والصناعية والزراعية وشركات النقل بالبر والبحر وشركات التأمين بانواعها ويتعهدها حتى تنمو وتقوى ويشتدّ ساعدها . وبالجملة يعمل على ان يكون لمصر صوت مسموع في شؤونها المالية ويدافع عن مصالحها كما تدافع البنوك عن مصالح بلادها »

« وسيؤدي بنك مصر لجميع عملائه كل الخدمات المالية . وسيعمل بالاتحاد مع حضرات التجار على تنظيم الحالة التجارية وانشاء الغرف التجارية والنقابات والشركات التعاونية وغيرها للدفاع عن مصالح اعضائها ودرس انجع الطرق لترقية شؤونهم »

« وسيعمل على بث روح العمل والتعاون والتضامن والنظام في الشبيبة وانماء ملكة الاقتصاد والتجارة فيهم والحث على وضع اساس التربية الاقتصادية العملية في البلاد وجعل تعليم الحساب والنظام الحسابي اساساً في مناهج التعليم فيها »

هذه خلاصة برنامج البنك : فهل قام بنك مصر بجميع ما وعد به في مدى الخمسة عشر عاماً الماضية ؟ اننا نترك لعملاء البنك الجواب عن ذلك . ونظن انهُ لا يخرج عن ان بنك مصر قد ابلغ الرسالة وقام بواجبه خير قيام بقدر ما استطاع . وهذه تقارير البنك السنوية التي احاطت بكل الارقام والاحصاءات الدالة على مدى تقدم البنك ومبلغ ما قام بهِ من خدمات للزراعة والصناعة والتجارة والتعاون . ومن هذه التقارير يتضح لكم ان بنك مصر أصبح يحتل المكان الاول بين البنوك التي ترد باسمها الاقطان في الاسكندرية . كما أصبح الاول — بعد البنك الاهلي المصري — بالنسبة لمقدار الودائع والامانات

رأس المال والودائع

بدأ بنك مصر صغيراً ، كما يبدأُ كل شيء . فقام في عام ١٩٢٠ برأس مال متواضع قدره ثمانون الف جنيه . ثم سجلنا مغتبطين ، في ٢٦ يناير سنة ١٩٢٥ وصول رأس المال الى نصف مليون جنيه . كما سجلنا مغتبطين ايضاً ، في ٢٦ ديسمبر سنة ١٩٢٧ بلوغه المليون الكامل

وقد بلغ عدد المساهمين في البنك ٩٣٥٦ مساهماً في ٣١ ديسمبر ١٩٣٤ بعد ان كان ١٢٦ مساهماً في السنة الاولى . وبلغت قيمة الارباح التي وزعت على المساهمين مدى الخمسة عشر عاماً ٨١٤٩١٦ جنيهاً خص السهم الواحد منها منذ سنة ١٩٢٠ مبلغ ٤ جنيهات و٤٣٠ مليماً اي بنسبة ١١٠ ٪ من قيمة السهم الاسمية وهي اربعة جنيهات

هذا عدا احتياطات البنك المقتطعة من ارباحه وقد بلغت في ٣١ ديسمبر ١٩٣٤ كما يأتي : —

جنيه مصري	
٣٧٥ ٧٣٢	احتياطي قانوني
٠٠٠ ١٨٠	احتياطي فوق العادة
٠٠٠ ٢٣٥	المال المخصص لتأسيس وانماء الشركات الصناعية والتجارية
٧٩٠ ٧٣٢	خلاف مبلغ ٥٠٦٣٢ قيمة المجموع المرحل من الارباح للسنوات المقبلة

واذا اردنا تقدير رأس مال البنك على حقيقته ، وجب ألاّ نغفل شهرة البنك في مصر وغيرها . ومقدار تأثيره في المحيط المصري المالي . وقيمة كلمته المسموعة في كل مكان . وعظم الثقة التي منحتها له الامة ، حكومة وشعباً . وكذلك رضا الجميع عن اعماله وجهوده المختلفة — فان كل هذا له قيمته . وله تأثيره ، وله وزنه ، عند ضبط رأس مال البنك على وجهه الصحيح

واذاً فلا يصح ان نعتبر رأس المال مليوناً واحداً من الجنيهات وهو في الحقيقة اضعاف مضاعفة انه يربي في غير مبالغة على عشرات الملايين ... !

أما الودائع فقد كان امرها ملحوظاً بعناية عند انشاء البنك ، وكان الاكثار منها هو اعتمادنا في تحقيق ما نصبو اليه من اصلاح اقتصادي شامل . ونحن نحمد الله على ان الودائع قد انهالت على البنك من جانب الافراد ، ثم من جانب الحكومة لحسابها ولحساب مجالس المديريات والمجالس البلدية والمحلية والحسبية ولحساب السلف الصناعية والجمعيات التعاونية والزراعية

وبعد ان كانت هذه الودائع في نهاية سنة ١٩٢٠ مبلغ ٢٠٠ر٩٦٠ جنيهاً اطردت الزيادة سنة بعد اخرى حتى بلغت عام ١٩٢٧ اكثر من خمسة ملايين ونصف مليون من الجنيهات في نفس الوقت الذي بلغ فيه رأس المال مليوناً واحداً من الجنيهات . واستمرت الودائع تزداد وتزداد وهي تحمل معها ثقة اصحابها من الافراد والهيئات ، بادارة البنك وانظمته وانتاجه ، حتى لقد بلغت في نهاية عام ١٩٣٤ اكثر من ١٠ ملايين جنيه عدا ودائع صندوق التوفير التي بلغت في نهاية السنة المذكورة مبلغ ٠٠٠ر٨١٠ جنيه . وهذه الارقام مظهر لهذه الثقة الغالية

قلنا ان بنك مصر بدأ صغيراً كما يبدأ كل شيء ، ولكنه ما زال يتدرج في النمو والاتساع رويداً رويداً وانتشرت فروعه في الاقاليم حتى زاد عددها على العشرين فرعاً ومكتباً وحتى امتلك داره الحالية ودوراً وشوناً اخرى في الاسكندرية والاقاليم

كان البنك ، اول نشأته ، قد استأجر داره الاولى بشارع الشيخ ابي السباع ، وما زلنا نوسعها تبعاً لزحام الاعمال وازدياد الموظفين باستئجار بعض المحال المجاورة حتى رأينا ألاّ بد من تهيئة مكان آخر يكون اوسع وأرحب ، فاشترينا قطعة ارض بشارع عماد الدين مساحتها ١٥٣٧ متراً مربعاً وبنينا فوقها داراً لاعمال البنك وبعض الشركات ، مؤلفة من ست طبقات انتقلنا اليها في ٥ يونيه سنة ١٩٢٧ بعد ان احتوت الدار الاولى طفولة البنك سبعة اعوام سويًّا

ثم لاحظنا ان اتساع الاعمال يسبق بل يفوق ما يتوقعه الظن ويطوف بالخيال فرأينا ان نأخذ عدتنا ونحتاط لحاجة الحاضر القريب والمستقبل البعيد فتعاقدنا مع وزارة الاوقاف على استبدال الارض الواقعة خلف عمارة البنك والبالغة مساحتها ٢٦٤٨ متراً مربعاً ، وشرعنا فعلا ، ولم نزل ماضين ، في تنفيذ الضروري من التصميم الموضوع لتوسيع الدار توسيعاً ، يجعل مساحة الدار كلها حول فدان تقريباً ويدل على بركة العمل الصالح بلا جدال

مهمة بنك مصر

تختلف اعمال المصارف باختلاف وجهات النظر عند مؤسسيها والقائمين بها

فهناك بنوك اصدار البنكنوت . وبنوك الخصم والايداع . وبنوك الاعمال . والبنوك الزراعية . والبنوك الصناعية . والبنوك العقارية . فلكل عمل من الاعمال المالية الكبرى بنك خاص يقوم به او بتشجيعه او بالاشراف عليه

والتخصص في الاعمال لدى البنوك يأتي عادةً بعد ان تفارق الامة حالة البداءة الاولى . لانه في البداءة ، لا توجد اعمال ، من كل وجهة ، تكفي للتخصص . فكان بنك واحد يقوم بجميع الاعمال . حتى اذا ارتقت نواحي الحياة في الامة ونضج شعورها بكل ما يهمها ، وتحقق لها فعلاً كل مشروعاتها المالية والزراعية والصناعية والتجارية ، واتسعت دوائرها ، وتشعبت اطرافها — جاء دور تقسيم الاعمال على البنوك — التي تكون حينئذ قد كثرت وانتشرت — كلٌّ والعمل الذي يتفق مع الغرض الذي أسس له

وهناك بعض دول في اوربا تفكر الآن فقط ، بنوكها الوطنية في تقسيم الاعمال عليها

وانتم تعرفون ما هي دول أوربا من حيث رسوخ القدم في الصناعة والتجارة

ومصر كانت ولا تزال في حاله بدائية ، غشاها ما غشى من ليل الظروف والمحن ، وظلمات الجمود والركود ، فظلت واقفة في اول الشوط ، معصوبة العين ، لا تدري اي طريق تسلك مع السالكين ، حتى سبقها السابقون ، وتركوها وحيدة في ذيل المتأخرين

ولقد هال « بنك مصر » بلا شك يوم بدأ حملته ، ألا يجد — في الارض أو في السماء ، وفي البر أو البحر — اثراً لعمل مصري صميم ، الا النادر، يدرأ عن الامة سخرية الساخرين . .

وكيف كان ميسوراً أن يجد ذلك وبلاغ كل عمل رجال ورؤوس أموال ... ؟

أما الرجال — رجال الاعمال — فان التعليم العام ظلّ بعيداً للأسف عن تخريج أمثالهم الا من وهبهم الله الاستعداد الفطري لذلك . واولئك قليل !

وأما المال ، فان أغنياءنا ايضاً ظلوا منكمشين عن المجازفة بأموالهم فيما يهم البلاد

كذلك ظلّ أبناؤنا محرومين من المرانة على أعمال البيوت المالية والشركات المختلفة الاجنبية ، بالرغم من كرم الضيافة التي سارت عليها بلادنا بكل سذاجة منذ عهد طويل

فكان لزاماً على بنك مصر أن يظهر في الميدان ، وأن يبدد هذا الظلام الذي اكتنف الأمة وأحاط بمرافقها من كل ناحية ، وأن يعمل اولاً على أن يستحوذ على « الثقة » وهي ملاك كل أمر ناجح ولا تغتصب، وأن يجذب اليهِ فريقاً من شباب البلد يربي فيهم الكفاية الشخصية وملكة القدرة على القيام بأعماله الجديدة باللغة العربية التي كانوا يحسبونها عقبة في سبيل البنك — حتى إذا همَّ أن يقف وحده على قدميه أخذ في تحقيق مهمته الكبرى أو بالاحرى في تنفيذ برنامجه القومي — وقد سبق تلخيصه — وهو يتكىء اولاً وأخيراً على أن يقوم بكل شيء وان يفعل للامة كل شيء وأن يسد ما استطاع النقص الظاهر في مرافق البلاد الاقتصادية المختلفة وأن ينير الطريق ويفسح السبيل لاخوانه في الوطنية وان يحمل الأمة على جناح السرعة لكي ينهض بها وان يخطو وإياها خطوات واسعة ليعوض عليها ما فاتها من الزمن سدى .. وهو اليوم يفخر بأنهُ انتهى من عامه الخامس عشر وبهِ من الشبان المصريين المتدربين ٦١٦ شابًّا بعد أن بدأ في مستهل أعماله بعشرين فقط

نعم لم نرض أن يكون بنك مصر مجرد بنك كالبنوك الاجنبية الكثيرة في البلد وهي بنوك تستوحي في الغالب سياستها من أمهاتها في الخارج . وقد رأى بنك مصر العبء الذي تركته هذه البنوك فادحاً وثقيلاً ولكنهُ لم يتردد في أن يحمله حمله وحده بشجاعة وأمانة معتمداً على الله

وسرعان ما لاحت للبنك تباشير النجاح وصادفه التوفيق وطالعه الحظ الحسن فثبّت الله اقدامه وعبّد الطريق امامه والتفت لحاجات الامة يصورها في صور شركات مساهمة مصرية واحدة أثر أخرى مستقلة عنه في رأس المال وفي الادارة تحمل جميعاً اسم « مصر » برًّا بوعده ووفاء بعهده

شركات البنك

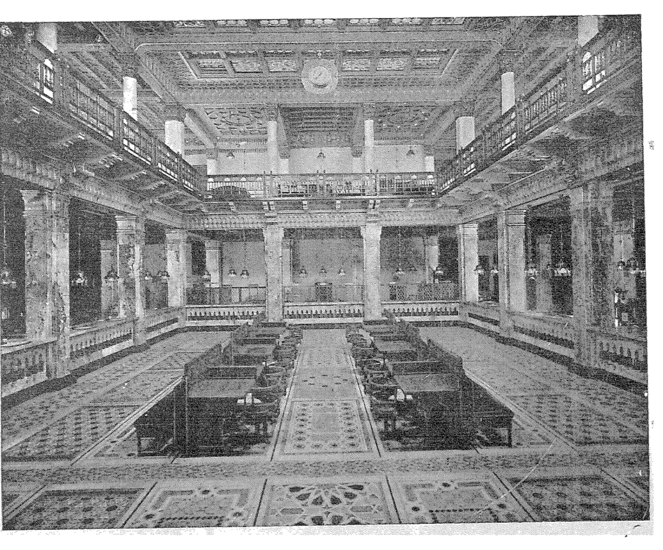
ولم يكن للبنك مفرٌّ من « الاسراع » في تأسيس المشروعات الهامة الضرورية لا سيما وعصرنا الحاضر عصر « سرعة » بكل ما يحتمل معنى هذه الكلمة

وقد يكون هنالك بعض الذين يخشون هذه « السرعة » التي جرى عليها البنك في تأسيس مشروعاته ولكن امثال هؤلاء لا يلبثون ان يقتنعوا بأن استمرار تطفل الامة على موائد غيرها يعرّض كرامتها للتجريح الاليم

لقد كان من الخير فيما نعتقد ان نسارع الى عمل شيء من صنع ايدينا وقد وفقنا الله في ذلك فكان لنا في هذه الفترة القصيرة — فترة الخمسة عشر عاماً — ان ركز البنك — في السهل والجبل وفي الشرق والغرب وعلى الماء ومتن الهواء — علم البلاد . . . يخفق تحت الشمس باسم بنك مصر وشركات مصر بل باسم « مصر » كلها بعد ان طال احتجابه بين الظلام عهداً طويلا

ومهما يكن من شيء فان (السرعة) التي قد يأخذها على البنك بعض الناس قد آتت أكلها باذن ربها واتضح من نتائجها الكبرى ان البنك قد نجح نجاحاً لا شك فيه حتى ليمكننا ان نقرر





البهو الكبير في بناية بنك مصر

باطمئنان انه لم يعش فقط هذه الخمسة عشر عاماً التي نحتفل اليوم بمرورها، بل انهُ قد عاش في الحقيقة وعلى اقل تقدير خمسين سنة اذا قدرنا ما قام به من الاعمال

وهذه شركات مصر ماثلة امامكم نستميحكم ان نسرد اسماءها عليكم ، وان كانت هذه الاسماء قد أصبحت من الشهرة والذيوع بحيث تجري على كل لسان [1] وهي :

عدد	الشركة	عدد	الشركة
١	مطبعة مصر	٨	شركة مصر لمصايد الاسماك
٢	الشركة المصرية لصناعة الورق	٩	شركة مصر للكتان
٣	شركة مصر لحلج الاقطان	١٠	شركة مصر لاصدار الاقطان
٤	شركة مصر للنقل والملاحة	١١	شركة مصر للطيران
٥	شركة مصر للتمثيل والسينما	١٢	شركة مصر لعموم التأمينات
٦	شركة مصر لنسج الحرير	١٣	شركة مصر للملاحة البحرية
٧	شركة مصر للغزل والنسج	١٤	شركة مصر للسياحة

لم يكن بعيداً ، ايها السادة ، لولا بنك مصر ، ان تتخذ رؤوس اموال هذه الشركات سبيلها خارج بلادنا سرباً ، فيستفيد بها من لا يعطف على مصر ، ومن لا يتصل بها بنسب أو سبب ... ولكان هؤلاءِ الالوف من العمال وانصاف المتعلمين عاطلين يزيدون الخطر الاجتماعي الذي يهدد البلاد

بل إننا لنزعم ان تأسيس هذه الشركات كان حقيقة — كما يقول الناس — عملاً صالحاً ، فقد كان لها جميعاً ابلغ الأثر في بث روح الادخار والتوفير في نفوس الشعب من حيث لا يشعرون

ودليل ذلك انهُ حيثما توجد منتجات شركة من شركات مصر بجانب منتجات مماثلة اخرى — تهبط الاسعار ويحل الرخاء . ولسنا نزكي منتجات شركاتنا بشيءٍ من الدعاية والترويج ، اذ يغنينا عن ذلك كله ما حازته معروضات شركات مصر من المداليات الرفيعة الشأن في المعارض العامة ، سواء داخل القطر او في البلاد الاوربية ، اعجاباً واستحساناً وتقديراً

***

وبعد ، فبنك مصر وشركات مصر ليست الاّ معاهد للتربية الاستقلالية يكمل فيها الشباب المتعلم علومه بالعمل ، والمرانة عليهِ ، حتى لقد تكونت منهم طائفة صالحة يمكن ان تعد ذخيرة للوطن

ومن نافلة القول ان نذكر مقدار ما ساهمت به هذه المعاهد في قص اجنحة العطلة ، على قدر المستطاع ، وافتداء البلاد من شرورها الوبيلة

---

[1] [المقتطف : تمشياً مع تقدم البلاد الاقتصادي سوف يعنى المقتطف بوصف هذه الشركات من الناحيتين الصناعية والاقتصادية في اعداد متوالية . ولذلك اجتزأنا من خطبة طلعت باشا بما تقدم عن شركات بنك مصر مع انه يوقف نحو ثلث خطبته النفيسة عليها]

ويسرنا كثيراً أن ننوه في هذا الصدد بما قام به بعض المصريين الذين اقتحموا الميدان، وثبتوا فيهِ، وترسموا خطى البنك وشركاته، فأسسوا مصانع وبيوتات تجارية وشركات نغتبط بها كما لو كنا نحن انفسنا الذين اسسناها، ونرجو لها دوام المزيد والثبات والتقدم والنجاح...

وكل يوم نرى جديداً في نهضتنا الصناعية والتجارية التي دب دبيبها في نواحي البلاد واصبح الكل مهتماً بالمساهمة فيها. ومما يدعو للفخار ان في البلد الآن روحاً قومياً لتشجيع كل ما هو مصري حتى انقلب الحال واصبح بعض من لا خلاق لهم يحتمي بالمصرية لبيع سلعه الاجنبية باعتبار انها مصرية. وقد اهتمت مصلحة التجارة والصناعة بصالح التجار فاعادت تنظيم الغرف التجارية وانشأت « السجل التجاري » لفائدة التجار وتمييز انواع تجاراتهم وليكون مرجعاً محترماً يمكن الرجوع اليهِ بين البيوتات التجارية. ونحن نرجو من ورائهِ ان يكثر في مصر « التاجر » الذي يعرف قيمة الورقة التجارية والذي يحرص كل الحرص على الوفاء حرصه على الاعتبار والشرف. بل هناك اهتمام آخر بالحياة الاقتصادية فان مصلحة التجارة والصناعة التي كانت في اوائل الحرب لجنة صغيرة اوشكت ان ترتقي الى وزارة وتنتظم في عقد الوزارات المصرية

تأثيره في الحياة الاجتماعية

نعيد هنا ما سبق ان قلناه وهو ان البنك لا يريد ان يحتكر القيام بالمشروعات الصناعية او غيرها ويود دائماً ان يظهر بجانبه مصريون يخففون عنهُ الحمل. ويضطلعون مثله بالمسؤولية وهو على استعداد لان يمد لهم يد المساعدة بكل ما يستطيع ويكفي البنك فخراً انهُ فتح الطريق لكل من يريد ان يسير فيهِ من المصريين

كما يكفي البنك فخراً ان وجوده بين سمع المصريين وبصرهم، ساعد على تغيير بعض الافكار الشائعة فمثلا بعد ان كانت الجمهرة من ابناء البلاد يستغلون اموالهم في ناحية واحدة من نواحي الاستغلال وهي شراء الاطيان أو يودعون عفواً اموالهم في بنوك اجنبية تذهب ارباحها في جيوب الاجانب التفت الكثيرون الى ناحية اخرى فاستغلوا بعض اموالهم في مرافق بلادهم وساهموا في السندات التي رفعت من ثروتهم واصبحوا يتيهون بها ويفخرون. بل ومنهم الكثيرون ألفوا اقتناء سندات الدين المصري العام واوراق الشركات الاجنبية. ووجدوا في ذلك مصدراً جديداً للايراد والثروة. وزادت هذه الحركة نشاطاً بدخول المجالس الحسبية في هذا المضمار تثمر اموال عديمي الاهلية بشراء القراطيس المالية المختلفة وخاصة سندات الدين المصري العام

ولا يفوتنا في هذا المقام ان ننوه هنا بملاحظة جديرة بالذكر: وهي انهُ لو كان المصريون افراداً وجماعات تنبهوا فيما مضى الى حصر سندات الدين المصري كلها او معظمها بين أيديهم لكنا الآن حكومة وشعباً في غنى عن مشاكل كثيرة ...!

ونعود فنذكر لكم أن خزائن حفظ الأوراق المالية بالبنك ، تضم في جدرانها من قراطيس الدين العام وأوراق الشركات والبنوك الاخرى سواء لحسابه أو لحساب عملائه من الافراد والهيئات ما يقدر بعشرات الملايين من الجنيهات . وفي هذا دليل على التقدم والتطور وليس ذلك فحسب ولكن هناك اثراً لا يخفى لبنك مصر وشركات مصر فان كثيراً من الناس قبل انشاء بنك مصر لم يكونوا ليعرفوا طريق البنوك ولا التعامل معها بل كانت حدود التعامل بعضهم مع بعض حدوداً ضيقة لا تسمح للثقة ان تقوم بدورها المهم فكان وجود بنك مصر وشركات مصر كافياً لاجتذاب كثير من عملاء البنوك الاخرى اليه وكافياً ايضاً لتشجيع غيرهم على الخروج إلى معاملة البنوك

وفي يقيننا أنهُ كلما كثر عدد الطبقة التي تعامل البنوك وانتشرت هذه العادة عادة التعامل مع البنوك بين العامة والخاصة انتشرت الثقة بين الافراد وقام على الثقة ما يقوم عليها من تنظيم سبل الانتاج في كل نواحي الحياة . بل ان لبنك مصر وشركات مصر اثراً آخر . فقد دعا الناس مجرد وجود هذه المؤسسات وانتشارها في انحاء القطر الى ان ينظروا الى العمل الشريف غير النظرة التي كانوا قد تعودوا ان ينظروا بها اليه من قبل . وهي نظرة الترفع والاشمئزاز ولا سيما اذا كان العمل يدوياً او آلياً غير انيق كل الاناقة او جذاب كل الجاذبية . ولكن هذا الاعتبار العتيق وذاك المقياس المريض بدأ استبدالهما والحمد لله بنظر صحيح هو نظر الرجولة الى كل عمل شريف منتج نافع

وليس بعيداً ان تعم هذه العقلية الجديدة وان تغمر كل شيء . كما انه ليس بعيداً ان يتأثر بها جانب حيوي كبير من الخلق المصري فنرى كثيراً من شبابنا المتعلم تعليماً فنياً او عالياً يتقدم الى العمل الآلي في المصانع المصرية التي ستنتشر وفقاً لحاجات البلاد فينزع عن نفسه راضياً لباسه الانيق وزينته من الحلى ويستبدلها عن طيب خاطر برداء العمل والعمال

***

ان التطور الذي ستقبل عليه البلاد لا شك فيه وسيكون لنا من ورائه ان شاء الله رصيد من الاخلاق القوية والخير الكثير والانتاج الكبير

ونريد ان نشير هنا بوجه خاص الى ما كان من الأثر الفعلي في تعويد عامة المصريين خصلة الاقتصاد في الانفاق تلك الخصلة التي يعتبر نقصها ثغرة فسيحة من ثغرات التربية المصرية عامة

ومهما يكن من شيء فان كل قرش يدخل في ارباح بنك مصر او شركات مصر انما يبقى في البلد لا يتزحزح الى الخارج فاذا تحرك ثانية فحركته بركة للمصريين وفائدة للمصريين

فضلا عن ان هذه المؤسسات تعتقد فوق خصائصها المادية والكسبية انها مؤسسات وطنية لا يغرب عن بالها لحظة ان عليها نصيباً في الاصلاح القومي المنشود

بنك مصر والاجانب

كان هم بنك مصر اولاً واخيراً ان يكون رأس ماله خالصاً للمصريين وحدهم لكي تكون ادارته مصرية دائماً توجه سياسته لما فيه مصلحة مصر اولاً وقبل كل شيء

وفيما عدا ذلك فان بابه ظل مفتوحاً للجميع فهو يخدم المصري والاجنبي سواء بسواء

والبنك كما جاء في خطبة افتتاحه سنة ١٩٢٠ انهُ لا يضمر عداءً لاحد فهو بعيد كل البعد عن فكرة الانانية والتعصب . بل هو استعان في الواقع بخبرة الاجنبي . واشرك معه بعض الاجانب الذين يتفقون مبدأً وغاية مع مصلحة مصر ، في بعض شركاته كشركة مصر للطيران . وشركة مصر لعموم التأمينات . وشركة مصر للسياحة . وشركة مصر لاصدار الافطان . وليس هناك عيب ، فيما نعتقد ، في الاستعانة بالاختصاصيين من الاجانب ما دام في الامكان ، دائماً وفي كل وقت ، جعل هذه الاستعانة عند حدودها من الخبرة والارشاد والخدمة الصادقة لمصر اولاً واخيراً

ونحن نذكر بالفخر ان علاقاتنا مع البنوك الاخرى ومع الاجانب كانت في الداخل والخارج على ما يرام . كما كانت كذلك علاقاتنا مع مراسلينا في جميع انحاء المعمورة وكان ذلك سبباً في تشجيعنا على انشاء ما يعزز هذه العلاقات ويزيدها وثوقاً ومتانة فاشتركنا في تأسيس بنك مصر — فرنسا في باريس وبنك مصر — سوريا — لبنان في بيروت ودمشق وطرابلس وحمص

ولا يخفى ان فروعنا سواء كانت في مصر او فيما وراء البحار ، انما هي كالسفير بين المصري واخيه المصري وبين المصري وغيره . وما السفير الاّ رسالة طيبة ودعاية حسنة لو عرف كيف يؤدي عمل السفير . وبنك مصر نفسه اصبح والحمد لله رسالة يقرأ فيها الناس معنى الصدق والحق والثقة . حتى انه لا تؤلف لجنة ، او هيئة ، او مجلس في الحكومة وغيرها الاّ دعي اليها احد رجال مجلس ادارة البنك . وحتى انه لا يفكر اجنبي أو مصري في مشروع مالي أو اقتصادي بمصر الاّ خطر له ضرورة الاحاطة برأي بنك مصر فيه ، ثم لا يلبث ان يبادر توّاً الى عرضهِ عليه

البنك واللغة العربية

هذا اول بنك قومي مصري تأسس بأموال مصرية بحتة . وبادارة مصرية محضة . وقد قررنا ان تكون المراسلات فيه ، بينه وبين عملائه باللغة العربية ، وان تكون حساباته باللغة العربية فهزأ بنا الهازئون وقالوا «ان المحاسبة من واردات الغرب . وانها فنٌّ من فنونه غير قابل للانتقال الى الشرق بغير لغة من لغات الغرب» . ولكننا اهملنا استهزاءهم وأجرينا مراسلاتنا وكتبنا تقاريرنا باللغة العربية . وانا اؤكد اننا ما وجدنا صعوبة في ترجمة معنى من معاني هذا الفن او في تقريب اصطلاح من اصطلاحاته . وكان مما ساعدنا على سهولة التطبيق في العمل ان كانت قد انشئت قبيل الحرب مدرستان للتجارة تكونت فيهما طائفة من الشبان تلقوا العلم فيها باللغة العربية فسهل قيادهم في حياة البنك العملية»[1]

(١) هذه الفقرة الاخيرة مقتطفة من خطبة سابقة لطلعت باشا نشرت في مجموعة خطبه التي صدرت سنة ١٩٢٨

مفردات النبات

بين اللغة والاستعمال

لمحمود مصطفى الدمياطي

[اجتمع لي طائفة من أسماء المفردات النباتية وحررت ما يقابلها في بعض اللغات الاجنبية لترتيبها في معجم والآن عنّ لي أن أنشرها تباعاً في مجلة المقتطف الغراء في بيان موجز أذكر فيه المفرد ووصفه وموطنه واستعماله مشيراً الى بعض فوائده في الزراعة أو الصناعة أو التغذية أو الطب عسى أن يكون في ذلك بعض الفائدة — الدمياطي]

شجر السَّنْط

معروف باسم (السَّنْط) في مصر والسودان أو (الصَّنْط) قال الصاغاني هو معرّب (چند) بالهندية وقد يطلق عليه اسم (الشَّوْكة المصرية) و (امّ غيلان) و (القَرَظ) وعاميته (القَرَض) والقرظ برمة[1] السنط أي ثمرته فاطلاق القرظ على الشجر تسمية الشيء ببعضه

وشجرته كبيرة اوراقها من نوع الريشية المركّبة المضاعفة في كل ورقة من ٣ — ١٢ زوجاً من الوريقات الريشية في كل واحدة من هذه من ١٠ — ٣٠ زوجاً من وريقات أصغر غير ريشية وشوكها مستقيم قد يبلغ طول الواحدة منهُ ٥ سنتيمترات . أما أزهارها فمكتظة في رؤس كرية صفراء . وثمارها قرون ضاربة الى البياض عليها شعيرات قصيرة ملساء وكل قرن مجزأ بأشباه فواصل تفصل الحبة عن الحبة

اسمه العلمي (Acacia Arabica, Willd.) (آقاسيا عرابيقا) وفصيلته السَّنْطية أو المستحية (Mimosaceae) (ميموزاسية) وبالانجليزية (Gum Arabic Tree) وبالفرنسية (Acacia d'Arabie)

ينبت في بلاد السنغال والسودان والديار المصرية والجنوب الغربي من آسيا ولا سيما في بلاد العرب والهند

يؤخذ منهُ الصمغ العربي فيتجر بهِ في السودان وغيره ويستعمل قرظه في الصباغة والدباغة وخشبه مرغوب فيه لصناعة الزوارق وادوات الزراعة ويصنع منهُ فحم جيد . وأهل السودان

---

(١) جاء في الجزء الثاني من كتاب الفلاحة لابن العوام ان الوصف الوارد عن الثمرة والزهرة يذكرنا بما نقل عن ديسقوريدس فيما يختص بزهر السنط وثمره . والآقاسيا ويرا (acacia vera) وهي الاقاقيا (akakia) في اليونانية كما جاء في كتاب لينيوس وفي رأي شبرنجل وابن البيطار هي البرم وهو زهر شجرة من نوع السنط

يستعملون الخشب في البناء ايضاً ويستخرجون اليافاً من قلف الشجرة الحديث ويستعملون القلف في الدباغة كما يستعملون مغليه في علاج مرض الديسنطاريا

ويقال إن حشرة اللك (lac-insect) تعيش على أغصان الشجر في السند وتفرز من جلدها صبغاً احمر يصبغ به يسمى (اللك) ويحصل من القرظ قبل نضجه على عصير يسمى (أَقَاقِيا) (١) يستعمل في الصباغة والدباغة

***

شجر الهَشَاب

نوع من السنط معروف في السودان مشهور بصمغه ويقال له (الصباحي) ايضاً وشجرته صغيرة او متوسطة الحجم . اوراقها من نوع الريشية المركبة المضاعفة في كل ورقة من ٣ — ٥ ازواج من الوريقات الريشية في كل واحدة من هذه من ١٠ — ١٥ زوجاً من وريقات اصغر من السابقة وشوكها قصير غليظ حاد السن اسمر قاتم كل ثلاث منهُ مجتمعة معاً ثنتان مستقيمتان وواحدة متقوسة . أما أزهارها فبيضاء مجتمعة في سنابل اسطوانية متدلية . وثمارها قرون مستقيمة رقيقة طول الواحد منها ٧ سنتيمترات تقريباً

اسمه العلمي (Acacia Verek, Guill. & Perr.) (آقاسيا ورك) وفصيلته السنطية أو المستحية (Mimosaceae) (ميموزاسية) وبالانجليزية (Verek gum-arabic Tree) وبالفرنسية (Gommier blanc ou Acacia à gomme arabique)

وهو ذائع في بلاد سنغمبيا الى السودان وخشبه ابيض يحتمل المؤثرات ويحصل منهُ على اجود انواع الصمغ العربي الابيض فيتجر بهِ ويدخل في المركبات الطبية والصناعية

***

شجرة البا أُوبَاب (٢)

من اشجار الحبشة والجانب الغربي من افريقية ولا سيما بلاد السنغال والسودان ويسمونها فيهِ (التِّبَلْدِي) او (الحُمَيْرا) او (الحَمَر) (٣) وهي شجرة يمكن للانسان معرفتها من ضخامتها لا ترتفع اكثر من ٢٠ متراً ولكن جذعها يبلغ من الغلظ اكبر ما عرف بين الاشجار الى الآن فقد يكون قطره من ٨ — ١٢ متراً ويتفرع من ثلثها السفلى فروع عديدة اغلبها افقيًّا لا رأسيًّا فتبدو الشجرة باغصانها كأنها قبة تشغل فضاء قد يكون عظيماً . وقلفها (قشرها) أبيض برّاق . واوراقها من نوع الاوراق المتساقطة مسننة الحافات ووضعها على الاغصان متخالف

---

(١) جاء في بعض المراجع ان العرب اطلقوا كلمة (أقاقيا) على العصير المذكور وعلى الشجر نفسه

(٢) ادخلت الى مصر من السودان في القرن الماضي ثم اندثرت

(٣) الحمر بوزن قمر كما سمع وفي القاموس الحمر كصرد التمر الهندي

وللواحدة منها من ٥—٧ فصوص كالاصابع وأزهارها بيضاء كبيرة إبطية متدلية عرض الواحدة منها من ٥ — ٧ سنتيمترات . وثمرتها بيضية الشكل مستطيلة طولها من ٢٠ — ٢٥ سنتيمتراً تشبه كوز اللوف الجاف وبها تجاويف ممتلئة اليافاً ولُبّاً كالدقيق المعجون مُزّ الطعم في داخله بزور كبزور التمر الهندي المعروف قيل إن النّسانس تحب اكل الثمرة فسماها البعض (خبز النّسانس) ويسميها عرب السودان (القُنْقلوس)

اسمها العلمي (.Adansonia digitata, L) (ادانسونيا ديجيتاتا) نسبة الى مكتشفها (ادانسون)[1] وفصيلتها البا أوبابية (Bombaccae) (بومباسية) وبالانجليزية (The Baobab Tree) وبالفرنسية (Baobab)

واهل السودان يستعملون جذعها كصهريج فيدخرون فيهِ الماء ويزودون منهُ قاصدي دارفور في اسفارهم وقد يستعملونهُ قبوراً لموتاهم ويصنعون من الياف القلف حبالاً وسلات ويتخذون من لب الثمر المُزّ شراباً مرطباً باضافة الماء اليهِ او غذاء

وفي بعض الكتب الطبية ان الاوراق والقلف يستعملان للتداوي من امراض منوعة

وفي رأي (ادانسون) ان هذه الشجرة قد تعمر الى ستة آلاف سنة وهي مقدسة عند الزنوج

***

الخُرْشُوف [2]

معروف وفي الشام يسمى (أرْضي شوكي) ولعل هذه التسمية من الافرنجية (Artichaut) والعرب يسمونه (حَرْشف) وفارسيته (كنكر)

نبات عشبي معمر ولكنهُ يزرع سنويّاً يرتفع متراً الى متر وربع وساقه شحمية مخططة طولاً تتفرع من اعلاها على هيئة حزمة واوراقه عريضة جدّاً طولها اكثر من متر ريشية خشنة بيضاء من وجهها السفلي . ونوراته كبيرة قد يزيد عرضها عن ٦ سنتيمترات تشتمل على أزهار زرقاء محاطة بقشور غشائية كثيرة . وبزوره سنجابية عليها خطوط سوداء وتحتفظ بقوة النبت فيها من ٥—٦ سنين

اسمه العلمي (.Cynara Scolymus, L) (سينارا اسقوليموس) وفصيلته المركبة (Compositae) (قومبوزيتية) وبالانجليزية (The Artichoke) وبالفرنسية (Artichaut) يزرع في جنوب اوربا وشمال افريقية وقد دخل الى مصر من بلاد اليونان في القرن الماضي

---

(١) هو (ميشيل ادانسون) (Michel Adanson) النباتي الفرنسي ولد في مدينة ايكس وعاش من (١٧٢٧— ١٨٠٦) ميلادية وهو اول من حاول تقسيم النباتات تقسيماً طبيعياً

(٢) وجاء في كتاب الفلاحة لابن العوام ان من اسمائه (القنارية) و(الطرية) و (الكجر) وبالفارسية (كنكر) وان منه نوعين بستاني وهو المعروف في مصر بالخرشوف وبري يسمى (الحرشف) (Carduus silvestris alter) ومن رأيه قصر اسم (كنكر) على النوع المسمى (قردون) (Cynara Carduneulus)

وجاء في عمدة المحتاج للرشيدي ان أصناف الحرشف كلها تسمى بالعربية (هيشر) وقيل هو اسم للبري فقط

والذي يؤكل منهُ رؤوسه قبل ان تشيخ ولا سيما التخت والقلب وقواعد الحراشف وهو من الخضر الغذائية المحبوبة . واوراقه اذا وضع منها في اللبن الحليب خثَّرته ولذلك يستعاض بها عن الإنفحة المعروفة في صناعة الجبن

***

القردون (١)

نوع من الخرشوف معتبر من النباتات المعمرة ولكنهُ يزرع سنويًّا ترتفع ساقه متراً ونصفاً الى مترين وهي ضاربة الى البياض مخططة طولاً واوراقه ريشية كبيرة ذات ذنيبات شحمية طرية خضراء ضاربة الى السنجابية من وجهها العلوي والى البياض من وجهها السفلي . ونوراته كبيرة طرفية مكونة من أزهار زرقاء محاطة بقشور غشائية . وبذوره طويلةمتوسطة الحجم سنجابية اللون

اسمه العلمي (Cynara cardunculus, L.) (سينارا قاردونكولوس) وفصيلته المركبة (Compositae) (قومبوزيتية) وبالانجليزية (The cardoon) وبالفرنسية (Cardon)

يزرع في بلاد البحر الابيض المتوسط الى جزائر كنارية او الخالدات في المحيط الاطلنطى ودخل مصر من جزيرة كريد في القرن الماضي . وتؤكل منه الذنيبات من الاوراق وجذوره الغضة . واوراقه اذا وضع منها في اللبن الحليب خثرته ولذلك يستعاض بها عن الإنفحة المعروفة في صناعة الجبن كما في الخرشوف

***

الكرفس

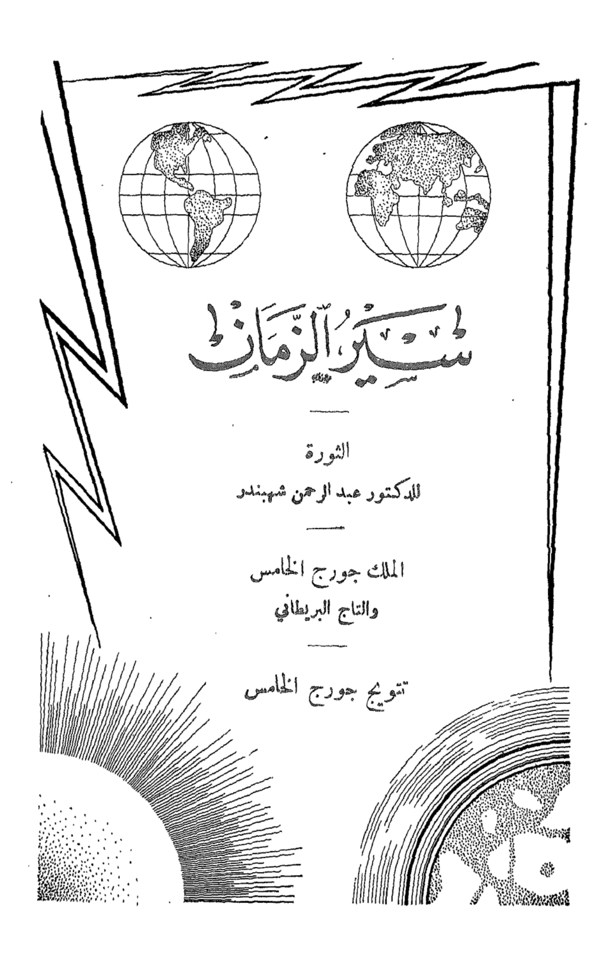
معروف في مصر وفي بلاد العرب و (بالكرفج) في لغة اهل غزنة من بلاد التركستان ولذا قيل إنه دخيل معرَّب

والكرفس نبات عشي متفرع يعمر عامين ويرتفع الى ٦٠ سنتيمتراً املس وجذره ليفي او درني مغزلي الشكل وساقه مجوفة عليها اخاديد في طول الساق . وأوراقه شحمية على نوع ما عريضة ريشية الشكل خضراء ضاربة الى السمرة ذات ذنيبات . ونورته صيوانية تشتمل على زهرات صغيرة صفراء مخضرة . وثماره (البذور) صغيرة ذات رائحة تحتفظ بقوة النبت فيها سنين

اسمه العلمي (Apium graveolens, L.) (آپيوم جراڤيولنز) وفصيلته الصيوانية (Umbelliferae) (امبليفرية) وبالانجليزية (The celery) وبالفرنسية (Céleri) يزرع باوربا وشمال افريقية وشمال آسيا ووسطها وادخلت زراعته من اوربا الى مصر في القرن الماضي . والذي يؤكل منه اعناق (ذنيبات) الاوراق والقلوب . وقد تستعمل بزوره من قبيل التوابل وهي معروفة في العطارة

---

(١) وهذا يطابق ما جاء في بعض المراجع التركية من انه (الخرشوف الياباني) والقردون يسمى عند العرب (العكوب) كما جاء في عمدة المحتاج للرشيدي


سير الزمان
الثورة
للدكتور عبد الرحمن شهبندر
الملك جورج الخامس
والتاج البريطاني
تتويج جورج الخامس

الثورة

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

— ٣ —

الاعتراضات على الثورة

يرى أهل التتبع التاريخي ان الثائر نوعان اثنان ثائر تحلى بالميزات التي تجعله فوق البيئة التي يعيش فيها وهو مع ذلك ليس منها بالمكانة التي تمكنهُ من العمل النافذ فيها ، وثائر تلطخ بالمعايب والادران التي تجعله دون هذه البيئة ولكنه يطمع ان يحصل بواسطة الثورة على ما يحسبهُ حقاً له ضائعاً . ومن خير من استوفى هذه الاعتراضات حقها الكاتب الاميركي المعروف في العالم الاسلامي المستر (لوثروب ستودارد) في كتابه «الثورة على المدنية» فقد سمى النوع الاول من الثوار «الرجل الاعلى » وهو في نظره فرد متفوق ممتاز بما تحلى بهِ من الخصائص ولكنهُ ويا للاسف مضلَّل مخدوع . وسمى النوع الثاني «الرجل الادنى» وهو فرد ليس فيه من بواعث الاحترام والتجلة باعث . قال (ستودارد) فالرجل الاعلى المخدوع هو ظاهرة من الظواهر الغريبة فقد وضعته الطبيعة في مقدمة المدنية وأحلتهُ في الصدر منها الاّ انهُ انضمّ الى اعدائها ، ويلوح للقارىء ان مثل هذا الموقف الغريب لا يحتمل التعليل ولكن ذلك خطأ فالرجل الادنى من المدنية يثور عليها لانها ارفع منهُ كما ان الرجل الاعلى يثور عليها لانه أعلى منها ، يفعل ذلك اذا ما داخله القنوط من تقدمها البطيء وغشيته الرعشة من اخطائها المتكررة، ومتى ما زعم ان العوامل الباعثة في قلوب الناس على العمل هي ذات العوامل النبيلة السامية التي تجيش في صدرهِ فان أحلامه الذهبية النبيلة الهائمة بطلب الكمال تختصر لها طريقاً قريباً تقطعه الى عصر السعادة المنشود فتنضمّ الى القوى الاجتماعية الثائرة من غير ان تعلم ان غايات هذه القوى تختلف عن غاياتها اختلافاً جوهريًّا وان هما اتفقتا في الذرائع بعض الاتفاق . وربما كان الرجل الاعلى المخدوع اعظم شخصية محزنة في التاريخ تثير العطف ، فاننا نراه وقد وقع في ملق الاشرار الاوغاد المبيتين واصبح أداة لتجويز الخطط المشؤومة وارتفع على الاعناق في أوائل الانقلاب باعتبارهِ زعيماً لا يلبث أن يصل بهِ فوز الثورة ونجاحها الى نهاية فاجعة . وهو عند ما يتولاه الذعر من رؤية التوحش عارياً يحاول ان يوقف سيله الجارف ولكنهُ عبثاً يحاول ، فيصول عليه الرجل الادنى مزمجراً من بعد ما اتخذه درعاً يحتمي بها ويلقيها في الوحل تحت قدميه ، ولكن هذا الرجل الادنى ان عاجلاً أو آجلاً يغلب على أمره فتستجد الضوابط الاخلاقية ويستقر النظام الاجتماعي مرة اخرى

ولكنه أي نوع من النظام الاجتماعي يا ترى ؟ فقد يكون هـذا الجديد أحطّ من القديم . ولا شك انها نادرة تلك الثورات التي هي شر محض ، فطبيعتها الهدّامة نفسها تنطوي على معنى ازالة المساوىء القديمة المنتشرة وجرفها للخلاص منها ، ولكن ما هو الثمن ؟ هو الثمن المقوّم بالدم الغالي الذي يسفك في الثورة وبالتدمير والهلاك ، وليس ثمة طريقة ذات تكاليف باهظة مرعبة مثل الثورة ، فالخسائر الاجتماعية والانسانية الناشئة عنها مخيفة عادة وكثيراً ما يستحيل تداركها واصلاحها

وفي الفرصة القصيرة التي تسنح للرجل الادنى تجده يعمل عمله ويشفي غلته غير ملتفت الى العواقب مهما كانت خطيرة . أما وهو لا يكره المدنية فقط بل يكره المتمدنين انفسهم ايضاً فتراه يوجه جنونه ويلقي جام غضبه على الافراد كما يلقيه على الاوضاع ، ويكون الرجال الاعلون المتفوقون هدفه الخاص . وفلسفته المستولية على لبه في فهم الحياة هي بالاختصار المساواة دائمـاً وهو يسعى لتحقيقها بقطع جميع الرؤوس البارزة التي ترتفع عن رأسه ارتفاعاً بيناً . وقد تكون نتيجة هـذا « الانتخاب الاجتماعي المعكوس » نقصاً فادحاً في الرجال المتفوقين بحيث يصاب الجنس البشري بفقر في الافراد دائم كما اصيبت اوربا عقب ديوان التفتيش الديني فيصبح عاجزاً عن تزويد المجتمع بالموهبة والنشاط الضروريين لاصلاح ما خربته يد الثورة ، وتـكون المدنية قد اصيبت في مثل هذه الاحوال بالضربة القاضية فتتدنى الى أحطّ مما كانت عليهِ بصورة دائمة

هذه خلاصة رأي (لوثر وب ستودارد) ومن قال بقوله في الثورات ممـا ينطبق على الثورة الفرنسية اجمالاً والثورة الشيوعية خاصةً ، وفيها ولا شك من الحقائق ما لا يماري فيه أحد ، غير ان هذه الثورات السياسية الاجتماعية الداخلية نوع والثورات لرفع النير الاجنبي الخارجي وانقاذ البلاد من ربقة الاستعمار نوع آخر . واننا ليس في وسعنا ان نتصور أحداً بالغاً ما بلغ من بيع وجدانه وايجار عقيدته يجرؤ على الحط من قدر تلك الجهود الجبّارة التي يقوم بهـا المظلومون للخلاص من ظالميهم ، واذا صحّ قول (بورك) ان في كل ثورة شيئاً من الشر فلم لا يصح قولنا يا ترى ان في كل ثورة شيئاً من الخير ؟

على ان اعجابنا بالثورة الوطنية واشادتنا بالبطولة القومية لايمنعاننا أن نعترف هنا ببعض عيوب للثورة اختبرناها بأنفسنا ورأينا نتائجها بأم العين وهي تحتاج الى الايضاح . فقد يندس بين الرجال العاملين افراد لا قيمة لهم في ميزان الرجولة والاخلاق يتظاهرون بالحرص على المصلحة العامة اكثر منهم وبالبذل في سبيلها اعظم من بذلهم وهم ينقصهم كل شيءٍ من ميزات « الرجل الاعلى » الاّ الطموح الذي لا ينتهي بهم عند حد ، بل رأينـا اسوأ من ذلك ، رأينا الخادم الرقيع العـامي في تصوراته المتبذل في حركاته وسكناته ، الذي لايكاد يؤلف جملة صحيحة التركيب والذي ينخر جمجمته مرض الخُنْـزُوَانية أو (الجالومانيا) ويُـقرّح لسانه مرض البذاءة أو (الكوبرولاليا) لا يحجم أن يحشر نفسه بين العاملين من مجاهدين وعلماء وحكماء وحضوره مجالسهم ، وقد يغضون الطرف عنه

بخشية سفهه وقلة أدبه ، وفاتهم أن السكوت عن السفه هو مثل الصدقة في غير موضعها تشجيع للاشرار وان ترك الحبل على غارب أمثاله هو فتح المجال لمن يدنس بسوء سمعته ويلطخ بقذارته الاوساط الوطنية التي يجب ان تبقى مقدسة . وغني عن البيان ان الذين هم على هذا النمط هم الذين حملوا الكاتب العبقري الكبير (صموئيل جونسون) على القول « ان الوطنية هي الملجأ الاخير للرجل السافل »(١)

اننا نعترف ان هـذا كله عيب في الثورة ولكن ماذا يضير النهضة العظيمة ان يندس فيها الضعفاء ؟ ألم يتظاهر المنافقون في صدر الاسلام بالدخول في الاسلام ؟ وماذا يعيب الشمس ان يشاهد الناظر على وجهها سفعاً اذا كانت هـذه السفع لا تحول دون بثها حرارتها المحيية وارسالها أشعتها اللامعة ؟ ثم ان ظهور الطفح على الجلد في بعض الحوادث التي يعطى فيها المصل الشافي من الامراض الخطيرة لا يمنع الطبيب الحاذق من استعمال المصل الواقي من الدفتريا مثلاً

ويضاف الى ما تقدم ان بعض الوصوليين المستفرصين النفعيين الخالين من جميع الوسائل التي تمكنهم من الحصول على الكسب بالطرق المشروعة الشريفة يجدون في الثورة باباً للرزق فينضمون الى صفوفها ولا يزالون ينفخون في نارها ما دامت مصالحهم مضمونة غير مبالين بالمصلحة العامة التي من اجلها اعلنت الثورة ، وشر من هؤلاء على التحقيق قوم يجعلون انفسهم وسطاء بين الثوار والسلطة العاتية لا لمصلحة البلاد وتقريبها من غايتها السامية بل لضمان مقاعد يجلسون عليها ومصالح خاصة يقبضون على ناصيتها وهكذا لا يتعففون ان يتخذوا من اشلاء شهداء الوطن سماداً لاراضيهم ومن دمائهم رياً لبساتينهم

اما اولئك الذين يتحينون اخفاق الثورة للنيل من كرامة الثوار واقصائهم عن حظيرة الوطن فليس في المعجم الذي تعلمناه مفردات تدل على التدني الاخلاقي الذي بلغوه

ومن الاعتراضات التي يوجهها انصار التدرج السلمي الدائم الى الثورة انها تؤدي عادة الى الرجعى ورد الفعل وبرهانهم على ذلك ان ما من حكومة تقف عثرة في سبيل التقدم الاّ قاومت بالشدة كل انقلاب ، بيد انها اذا لم تبلغ من القوة شأواً يمكنها من سحق الثورة واخماد انفاسها فان عاقبة المقاومة التي تبديها تكون اضرام نار الحقد والقسوة في قلوب الثائرين واخراج الامر من يد المعتدلين والمتئدين الى المتطرفين المتعجلين . ففي اوائل الثورة الفرنسية مثلاً كانت الاضطرابات قليلة غير ان اعلان ملوك اوربا الحرب على فرانسة ادّى الى ظهور حزب « الجيروندييين » الخياليين على مسرح السياسة الفرنسية اولاً ، ثم ظهور « اليعقوبيين » القساة الشرسين بعدهم مما كان السبب الاكبر في احداث عصر « الهول » المشهور . بل ان انهيار النظام القائم كافٍ وحده لتخويل اشرس الزعماء

---

(١) "Patriotism is the last refuge of a scoundrel." (Remarks, by Samuel Johnson)

الشعبيين اعظم فرصة للاستبداد حتى لو لم تكن ثمت مقاومة محسوسة من الحكومة السابقة . اضف الى شراسة هؤلاء الزعماء الحافلة بانواع التحدي ان المصانع والمتاجر في ابّان الشدائد والاهوال تقف فتقل البضائع وترتفع الاسعار ويلوح شبح المجاعة على الآفاق ، وقد لا تؤثر هذه الشدائد في الزعماء القابضين على ناصية الحال ولكنها شديدة الاثر في الدهماء ، فالبؤس والاضطراب والتقلقل تفعل فيهم فعلاً كريهاً لان معظمهم يتوقع من الحكومة ان يتمتع بالأمن والنظام علاوة على سائر تلك الخدمات المطلوبة منها . لا جرم ان هؤلاء الدهماء ينقلبون على نافخي بوق الاضطراب ومسببي الاهوال فتنبت الرُجعى وينشط رد الفعل من عقاله ويأخذ الرجعيون في تنظيم امرهم حتى ينالوا التأييد الكافي فتهب ريحهم الصرصر على الثورة وزعمائها فتكتسح من تكتسحه ولا يلبث الموظفون القدماء المطرودون ان يعودوا الى مناصبهم ويعتلوا عروشهم مرة اخرى

الى هنا نحن نجاري خصوم الثورة فيما نقلناه عنهم ونعتقد ان براهينهم تنطبق في الاكثر على الازمنة الماضية وعلى الثورات التي ادار دفتها ضعفاء العزيمة قليلو الثقة بانفسهم وبالعاملين معهم امثال (كرنسكي) في روسيا ولكن متى كان على رأس العمل اناس من اهل الحزم والعزم قد قنعت البابهم بوجوب انقاذ امتهم من الصغار ولعنة الاستعمار امثال (جورج واشنطن) في الماضي و(دي ڤاليرا) و (مصطفى اتاتورك) في الحاضر ، او اناس رأوها ينخرها سوس الشقاق الداخلي والمذاهب السياسية البالية امثال (موسوليني) و (هتلر) او اناس آمنوا بالاصلاح العالمي الذي يجلبهُ مذهبهم ويؤدي اليهِ انقلابهم امثال (لنين) و (تروتسكي) فدسائس الظالمين المستكبرين وخزعبلات القياصرة والسلاطين وشعوذات الدجالين لا تغني فتيلاً

الثورة والتطور العضوي

مهما حاول الكتّاب اظهار البون الشاسع بين الجسم الحيواني او الكتلة العضوية وبين المجتمع الانساني او الجمعية البشرية فان في التشابه بينهما ما يفتق الذهن ويؤدي الى ادق الاستنتاجات الصحيحة . فمن ذلك ان (دارون) بعد ما وضع مذهبه في النشوء والترقي ونشره في الاوساط العلمية ترجحت فكرة النمو البطيء عند علماء الحياة حتى صاروا يزعمون ان كل تدرج انما يتم بتغيير بطيء يطرأ على الكتلة العضوية نباتية كانت ام حيوانية في حقبة من الزمن تحسب بالوف السنين الى ان يتم هذا التغيير فيصير ملموساً يؤدي الوظيفة الحيوية المستحدثة التي يتطلبها المحيط الجديد . فاذا صح ان الجمعية البشرية كتلة عضوية او جسم حيواني كما يذهب اهل النظر البيولوجي من الاجتماعيين تنطبق عليه قواعد الحياة فان كل تغيير فيها يحتاج على هذا القياس الى الوف السنين كي يصير ملموساً لذلك تكون الثورة بهذا المعنى ليست عبثاً فقط بل غير ممكنة لان الطفرة كما كانوا يقولون الى اجل قريب محال . ولكن الطفرة صارت في علم الحياة قاعدة من قواعد العلم وما كان محالاً

بالامس اصبح لازماً اليوم لان التتبع الدقيق دلّ على ظاهرة في علم الحيوان والنبات من اهم الظواهر وهي حدوث ما يدعى Mutation اي التحول الفجائي وهذا هو الطفرة بعينها وتعريفها ان يحدث في النسل الطبيعي المعتاد من حين الى آخر ولادة مخلوق يختلف عن جنسه في صفة او اكثر اختلافاً عظيماً بيّناً ، ثم اذا ما توالد هذا المخلوق العجيب يحفظ في نسله تلك الصفات التي ظهرت فيهِ فجأة . ويجوز لنا ان نعبر عن هذا الحادث الحيوي المفاجيء بالعبارة الاجتماعية السياسية الآتية وهي حدوث ثورة في بناء سلالة هذا المخلوق حوّلتهُ فجأة من حال الى حال

والآن فاذا كانت الجمعية البشرية جسماً حيوانيًّا تنطبق عليهِ قواعد الحياة الاساسية فالثورة فيهِ ليست جائزة فقط بل ضرورية ايضاً لان البيولوجيين كما قلنا يعتدّون بالتغير الفجائي وهو الطفرة كما يعتدون بالتغير البطيء . وكما يحدث الانتقال الفجائي في السلالة من ولادة مولود جديد ذي خصائص مغايرة لسلفه ينقلها بالتوالد الى خلفه ، كذلك يحدث الانقلاب الاجتماعي الفجائي من حدوث ثورة تقلب النظام رأساً على عقب وتحتفظ بالتغير الطارىء وتنقله للاجيال القادمة . وعلى لنين وتروتسكي وستالين وكمال اتاتورك وعصمت ان يزوّدوا علمَ السياسة والاجتماع بتجاربهم الثورية الدالة على امكان الطفرة وان الرجعى بالمعنى العلمي مهما كانت عظيمة لن تعود بالروس والترك الى ما يشبه عهد القياصرة من آل رومانوف والخلفاء من بني عثمان

وفي مقدمة البراهين التي يوردها اعداء الثورة والقائلون بعقمها البرهان المأخوذ من الثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر ، فان الفرنسيين في نظر هؤلاء النقاد قد عادوا الى الشيء الكثير مما سفك الثوار دماءَهم للخلاص منه والقضاء عليهِ ، ولكن فاتهم ان المبادىء التي اعلنتها تلك الثورة للخلاص من الظالمين على انواعهم تعمل اليوم كالسحر حتى في البلدان الخاضعة للحكم الفرنسي نفسه ، والوطنيون في المستعمرات ينظرون بلهفة وشوق الى انهيار النظام السياسي الجائر المتصرف في اموالهم وارواحهم واقدس مقدساتهم نظرهم الى انهيار (الباستيل) في اليوم الرابع عشر من يوليو سنة ١٧٨٩ ناهيك بتلك الآراء التي بثتها الثورة في كل دولة حية وسلطتها على كل قلب شاعرٍ من ابطال تلك الامتيازات الجائرة التي كانت تتمتع بها الطبقات العظامية وتحقيق حرية اللسان وحرية القلم وحرية الوجدان وتأييد ارادة الشعب . اما اذا اخفقت الثورة في عاجلها وآجلها ولم تأت بالنتيجة الطيبة التي توقعها منها الزعماء فقد تكون العلة كل العلة في الامة نفسها لان الامة اذا كانت عقيمة فقد يضيع سيل ثورتها الغزير في رمالها القاحلة ، والزعيم مهما كان عظيماً يعجز عن احياء الميت من الجماعات كما يعجز الطبيب مهما كان حاذقاً عن احياء الميت من الافراد

ومن الاعتراضات التي يوردها اعداء الثورة قولهم ان كل انقلاب تحدثه الثورة بالعنف يمكن الحصول عليه بالطرق السلمية وذلك بمجرد قرار يصدر في مجلس النواب او بتعديل طفيف في دستور البلاد لذلك تكون الشدة وما احدثته من دمار وسفك دماء فضلة زائدة ما اغنى الناس عنها .

ولعمري ان في هذا البرهان شيئاً من الوجاهة والحق في البلدان التي تتمتع باستقلالها ولها رأي عام خمير يبدو على ألسنة نوابها المنتخبين انتخاباً حرًّا وأما حيث يكون الشعب اداة مسخرة لاقرار مطالب الغالب ، وارادته تنمحي بجرة قلم يجرها الحاكم الاجنبي ، او حيث تكون الامة طبقتين اثنتين طبقة الاقلية من الغالبين الانانيين النفعيين الذين استعانوا بالتقاليد العتيقة الهرمة والعقائد التي من شأنها اماتة الطموح واطفاء شعلة النبوغ كما كان الحال في زمن السلطان عبد الحميد في الدولة العثمانية ، وطبقة الاكثرية من المحرومين المسخرين عمالاً حقيرين عند اسيادهم حيث — تكون حالة الشعب كما وصفنا فربما كانت الثورة السبيل الوحيد للنجاة

ويقول خصوم الثورة ان الثورة مهما عظمت وبلغت من الشدة فليس في وسعها ان تغير الشعب نفسه وانما تغير الدستور والحكومة فقط وهذا كلام يجب ان نتلقاه باحتراس شديد لان تاريخ الانقلاب لا يطابق هذه النظرية دائماً فالاسلام مثلاً كان من بعض الوجوه ثورة دينية اجتماعية سياسية وهو يختلف عن كثير من الاديان الاخرى بميزة جوهرية من الطراز الاول وهذه الميزة هي سرعة انتشاره والانقلاب العملي الذي احدثه ، ومهما تعنت المحافظون من علماء الاجتماع وبالغوا في قيمة التغير البطيء فليس في وسعهم ان ينكروا ان قصور كسرى وقيصر لم تدكّ فقط بل تغير الناس الذين كانوا يترددون اليها ايضاً في نحو جيل من الزمن

وغير نكير ان بعض العنعنات والتقاليد القديمة بقيت في المملكة الاسلامية الحديثة ولكن نسبتها الى ما استجد وطرأ نسبة ضئيلة على رغم المتظاهرين بالدين الجديد من الشعوبية المضمرين في الباطن البغضاء للعرب والحقد على ابطالهم . وأقل ما يقال في الثورة الآن انها تجربة في مختبر المجتمع البشري ومن التعصب الاحمق ان يحكم المرء على بطلانها قبل التحقق من نتائجها

وقد قيل لنا ان الخطأ الاكبر الذي يرتكبه دعاة الثورة انهم لا يفرقون بين الشعب وبين النظام الذي يسير عليه هذا الشعب زاعمين ان مجرد استنان السنة الصالحة يجعل الشعب صالحاً وان المجتمع يمكن دفعه الى الامام برفسة واحدة من الوراء وان التتبع التاريخي دلهم على ان الشريعة متى كانت ارقى من الرأي العام في الشعب لا يمكن تطبيقها وفي الطاقة جعل الشريعة موافقة للرأي العام ولائقة به ولكن ليس في الطاقة عكس ذلك اي جعل الرأي العام على غرار الشريعة ومطابقاً لها ، ويذكرون ان السبب الذي يجعل الرأي العام قليل التأثر بتغير الحكومات هو سبب عميق متأصل في طبيعة الانسان ومرتبط بما للعادة من سلطان عليه نافذ بحيث يحول هذا السلطان دون التغيير الفجائي لان كل تقدم في المدنية محسوس ينطوي على تغير في الاخلاق والعادات والتقاليد والمعارف والنظرات وهذا جميعاً لا يتيسر بقفزة واحدة . وأوردوا من البراهين على ذلك ان سن الانظمة الجديدة لا يصيّر الكسالى مجتهدين ولا النفعيين ايثاريين ولا الجهلاء من حملة العلم ولا الخشناء من اهل التهذيب ولا من نخر اخلاقهم سوس الفساد اعمدة الاصلاح ، وان التغيير الذي

يتطلب من الخصائص في الشعب والمزايا في افراده ما هو فوق طاقتهم وأعلى مما يتصفون به ويحملونه في نفوسهم محكوم عليه بالاخفاق

اننا لا ننكر ابداً ان في هذا الاعترض شيئاً من الحق وجيهاً ولكنه في الاكثر حق ينطبق على الاعصر التي انقضت لا على العصر الذي نعيش فيه وذلك لان وسائل النشر والاقناع وتغيير العقائد وطرائق التعليم وبث الدعايات والمواصلات المعنوية والمادية بأنواعها اصبحت الآن من السهولة والتمكن والنفوذ بحيث يتعذر على ارباب المصالح الرجعية ان يسبلوا ستائر اغراضهم على الابصار او ان يضعوا الكمائم في الافواه ليحولوا دون الصياح بالحق ، ولا شك ابداً في ان تطبيق القانون السويسري في الاحوال الشخصية في تركيا الحديثة مثلا هو ثورة شرعية تمت بين عشية وضحاها واذا دام (اتاتورك) قابضاً على ناصية الحال مدة وجيزة من الزمن اخرى فسيتعود الجيل القديم بهذه السرعة الفائقة الزواج الموحد والطلاق المعدل مرغماً ، وأما الجيل الجديد فيعد هذه الشرعة المبتدعة تراثاً من الآباء والجدود ، وهكذا ينتقل الترك في سنوات معدودة في وضع الزواج — وهو وضع محافظ — انتقالاً اقل ما يقال فيه انه ثورة اجتماعية

***

من المؤسف جداً ان شجرة الحرية كما قال (توماس جفرسون) يجب ان تنتعش من حين الى آخر بدم الوطنيين والمستبدين وان هذا الدم هو سمادها الطبيعي ، ولو فكر الذين يطمعون في استعباد الاقوام واستثمارها ان الجماعات اشد حرصاً على حريتها من الافراد وان الرق الحديث — رق الشعوب والاقوام الراقية — هو اشنع من رق الافراد وأضر بمصالح المجتمع وأشد خطراً على الحضارة للتقلقل الدائم الذي يحدثه فيها ما كانوا اندفعوا في هذه البسطة السياسية المحفوفة بالمهالك

وعلى كل حال فالرجل المتحلي بالشجاعة في البلدان التي تنوء بالمظالم لا تستطيع القوة الغاشمة بالغة ما بلغت من الجور والعسف ان تكم فمه عن الافصاح عما يجول في نفسه من الهواجس والافكار وعن الثورة التي تضطرم في فؤاده على الاوضاع التي تغله وتغل قومه وتقف عقبة في سبيلهم ، وفي طاقته ان ينادي كما نادينا في اواخر الشهر الماضي في القاهرة في احدى الحفلات فيقول : « ارتفعي يا بنادق ، وقعقعي يا حراب ، وفرقعي يا قنابل ، واخري عباب البحر ايتها الاساطيل العاتية واملأي كبد السماء ايتها الطائرات المستكبرة ، وميدي يا جبال الوطن العزيز بضعاف النفوس من ابنائك ، اما نحن فكما قال (فردريخ نيتشه) في قصيدته الغنائية[1] سنجلس على الرغم من ذلك كله بين فكي التنين ونتربع على انياب الكارثة ونصيح بأعلى اصواتنا وملء افئدتنا فلتعش الحرية وليحيى الاستقلال وليهنأ الوطن المقدس بأبنائه البررة الاوفياء »

---

(١) German Ecstasy of Song

الملك جورج الخامس

والتاج البريطاني (١)

[على ذكرى الاحتفال بعيده الفضي]

في الاسبوع الثاني من شهر مايو الماضي إحتفلت الامبراطورية البريطانية بانقضاء ربع قرن على اعتلاء الملك جورج الخامس اريكة الملك . وقد خلف الملك جورج والده الملك ادوارد السابع عند وفاته في ٦ مايو سنة ١٩١٠ وكانت جدته الملكة فكتوريا من قبلهما قد ارتقت العرش سنة ١٨٣٧ فبين ارتقائها العرش والاحتفال بانقضاء ربع قرن على ملك حفيدها قرن من الزمان تقريباً

***

في خلال هذا القرن انثلّت طائفة من اعظم عروش العالم واقدمها ، وحلّت الحكومات الجمهورية محلّ الحكومات الملكية في فرنسا واسبانيا والبرتغال، والحكومات الدكتاتورية في امبراطوريتين عظيمتين هما المانيا وروسيا ، وتفرقت البلدان التي كان يجمعها صولجان آل هبسبرج بعضها عن بعض . ولكن العرش البريطاني اصبح في هذا القرن نفسهِ اشدَّ رسوخاً مما كان . فالمؤرخ يرى التاج البريطاني ، في سنة ١٩٣٠ ارسى منهُ في سنة ١٨٣٠ او سنة ١٨٧٥ عندما كان بعض الانكليز وفي مقدمتهم جوزف تشمبرلين — والد السر اوستن تشمبرلين والمستر نفيل تشمبرلين وزير مالية بريطانيا الآن — يُعرَفون جهاراً باسم الجمهوريين . بل ان المرءَ كان لهُ ان يتساءَل في القرن التاسع عشر ، هل يتاح لابن الملكة فكتوريا ان يرتقي العرش ، ولكن قلما نجد الآن احداً من الانكليز يرتاب في ان ابناءَ الملك جورج الخامس سوف يتمتعون بتراثهم الملكي

فالولاءُ الملكية في انكلترا ليس مسألةً حزبية . والعمال هناك يشاطرون المحافظين هذا الولاءَ . ويروى ان المستر مكدونلد دعي في سنة ١٩٢٨ الى باريس ليخطب في جماعة من النواب الفرنسيين اكثرهم من الاشتراكيين ، في سياسة حزب العمال ، وكانت وطأة المرض مشتدَّة على الملك جورج حينئذٍ ، فلما نهض المستر مكدونلد للمحاضرة قال : « ايها السادة قبل ان ابدأ في معالجة موضوعي ارى من الخير ان نتريث قليلاً ضارعين الى الله ليمنَّ بالشفاء على ملكنا ، الذي يصارع الموت الآن »

(١) من بحث للكاتب الفرنسي اندريه موروى صاحب المؤلفات النفيسة في شلي ودزرائيلي وبيرون ودكنز

فدهش كثير من الحاضرين ولو انهم كانوا يفهمون الامة الانكليز لما دهشوا . فالحب للاسرة المالكة هناك اقوى واعم بين جمهور الامة منهُ بين الاعيان [1]

وقد تخيَّل برنارد شو في احدى رواياتهِ التمثيلية ، بريطانيا وقد انقلبت شيوعيةً ولكنها مع ذلك ظلَّت محتفظة بملكها وكان ملكها من احب الناس الى الامة . وهو تخيُّل قد لا يكون مستحيلاً

فيجدر بنا ان نبحث عن الصفات الخاصة التي اتصفت بها الملكية البريطانية والحوادث المؤاتية التي مكّنت للعرش ووطدت مقامهُ في بريطانيا . ما مقام الملك في نظام الحكم البريطاني ؟ واية خدمات يؤديها ؟ وعلينا ان نجيب عن هذين السؤالين قبل ان نجمل حكم الملك جورج الخامس

ان الحكم الملكي الدستوري ، كمعظم المنشآت البشرية ، لم يجيء نتيجة لتفكير الناس الواعي . فالملك جورج الاول الذي دعي الى العرش من هانوفر كان لا يتكلم الانكليزية فتخلّى عن رآسة مجلس الوزراء في القرن الثامن عشر . وكذلك انفصلت السلطة التنفيذية في البلاد الى جانبين ، من دون اي نضال او نزاع . ولما كانت الملكة فكتوريا امرأة ، اصبح الولاء للعرش نوعاً من الشعور الرومانطيقي . ولما كان زوجها البرنس البرت متصفاً بجميع الفضائل العائلية ، اصبحت الاسرة المالكة في نظر شعب متدين ، موضوعَ حبٍّ مقرون بالحنان . وقد توالى على العرش البريطاني ثلاثة ملوك — فكتوريا وادورد السابع وجورج الخامس — اشتهروا بالحكمة والاعتدال والقدرة على التجرُّد عن النزعات الحزبية ، فأصبح الملك عمل مفيد لا يستغنى عنهُ . ولو كان في انكلترا في القرن التاسع عشر ملك حاول ان يحكم حكماً مطلقاً لتحوّلت انكلترا الى جمهورية . ولكن أسرة كوبرج المالكة ، ادركت في بريطانيا والبلجيك ، ادراكاً تامًّا سرَّ النظام الملكي الدستوري

فما هو هذا النظام ؟ وما القواعد التي يقوم عليها ؟ القاعدة الاساسية هي ان يكون الملك دائماً حكَماً محايداً . والقاعدة الثانية ، ان يسلّم الملك بالمقترحات التي يعرضها وزراؤهُ . وفي ذلك يقول باجهو : عليهِ أن يوقع الامر باعدامهِ اذا قدّم اليهِ بعد موافقة المجلسين عليهِ » . وقد كتب المستر اسكوث في مذكرة مشهورة . . « على التاج ان يعمل وفقاً لمشورة وزرائهِ الذين يمثلون في وقت تقديم المشورة ثقة مجلس النواب وسواء كانت هذه المشورة تتفق مع رأي الملك أو لا تتفق . ان الوزراء يصغون باحترام عميق الى نقد الملك واعتراضه ويخصونهما بعناية عظيمة ، ولكن القرار الاخير يجب ان يبقى لمجلس الوزراء . لان مجلس الوزراء لا التاج ، مسؤول امام البرلمان . وبتطبيق هذه القاعدة تطبيقاً دقيقاً يستطاع ان يحفظ التاج فوق شدائد المعارك السياسية »

---

(١) المقتطف : قرأنا من ايام ان انكليزياً من رجال الاعمال كان يستأجر كل صباح سيارة توصله الى مقر عمله ففي ذات يوم اذ كانت وطأة المرض شديدة على الملك قال الرجل لسائق السيارة عرج بنا على قصر بكنهام لانني اريد ان اقرأ النشرة الطبية الاخيرة ففعل ولما وصل الرجل الى مقر عمله كانت قيمة اجرة السيارة قد بلغت اربعة شلنات وهي عادة ثلاثة فقال له السائق « ثلاثة شلنات يا سيدي فقط » فقال الرجل « ولكننا عرجنا عن طريقنا العادي ويجب ان اوفي الفرق » فقال السائق بلهجته الدارجة « أليس هو ملكي كما هو ملكك »

يقابل ذلك انهُ لا يغتفر لوزير ما ان يزجّ اسم الملك في احدى هذه المعارك . وليس عليهِ فقط أن يمتنع عن التصريح بما قاله الملك حرفيًّا ، وعدم اقحام اسم الملك في الشؤون الحزبية ، بل الواجب على رئيس الوزراء ان يتحمل كل المسؤولية الخاصة بأعمال وزارته ، وان لا يحاول الاحتماء بالعرش

فما هي أعمال الملك؟ يقول باجهو انهُ يحتفظ بثلاثة حقوق: أن يشاوَر وان يشجّع وان يحذّر. فلا يمكن أن يعمَل شيء في المملكة من دون اطلاع الملك عليهِ ، وملوك انجلترا قد طلبوا — وكانوا على حق في ذلك — بأن يحتفظوا بهذا الحق كاملاً غير منقوص . وبفضل الحقائق التي يطلعهُ عليها وزراؤه، مضافاً اليها الآراء التي يكوّنها بالاصغاء الى زعماء المعارضة من دون أن يطلب مشورتهم ، يستطيع الملك في الازمات الخطيرة ان يحكم حكماً منزّهاً بصفتهِ مشاهداً محايداً. ولكنهُ لا يستطيع ان يحول دون شيء تقترحهُ الوزارة ويقرّه البرلمان . فقد يقول الملك لرئيس وزرائهِ ، انك مقبل على خطة خطيرة. واني لاذكر سابقة من هذا القبيل تبعث على الاسى . لاريب في انك أنت المسؤول، واذا اصررت على هذه الخطة كان عليّ ان اوقع . ولكنني احذّرك . فانك ترتكب هفوة

هذه الآراء يتقبلها رئيس الوزراء باحترام عظيم من مليكهِ لما لهُ من المكانة والهيبة ولانهُ يكسب بفضل استمراره في منصبهِ ، خبرة أوسع نطاقاً من خبرة أي وزير من وزرائهِ . وقد ضرب السر موريس الموس مثلاً لتفسير عمل الملك هذا بشركة مساهمة فقال : لنفرض ان الامة شركة مساهمة وان مجلس الادارة المهيمن على شؤونها هو البرلمان . فالملك كان أصلاً صاحب الشركة فتنازل عن ملكهِ واصبح لا حقّ لهُ في الاقتراع ولكنهُ مع ذلك لا يزال أعلى المستشارين مقاماً . فكل شيء يعمل باسمه

وهنا يبادر الى الذهن السؤال التالي : ماالفائدة من الاحتفاظ بصاحب الشركة الاصلي في مقامهِ الجديد. الفائدة منوّعة لاريب فيها. فنجاح النظام الملكي الدستوري في بريطانيا والبلجيك قائم على اربع حقائق :

أولاً — أن الجماهير تفضل ان تمنح ولاءها لشخص معيّن دون نظام عام — فالبرلمان يتناول في الغالب الآراء المجرّدة التي لا يدركها الجمهور . ان النزعة الاميركية الجديدة في الحكم المعروفة باسم « التوزيعة الجديدة » تتمثّل للأميركيّ في شخص الرئيس روزفلت ، والفاشستية في شخص موسوليني . وهذا الميل لا يختلف في الشعوب البدائية عنهُ في جماهير الامم المتحضرة . فقد كنت في خلال الحرب ضابط اتصال بين الجيش الانكليزي والفرنسي وكان الزعماء الافريقيون في بعض فرق الجيش البريطاني يرفضون أن يجددوا عقودهم الاّ في حضرة الملك . فكان قواد الجيش البريطاني ينتهزون فرصة زيارة الملك جورج للميدان الغربي ويأتون بهؤلاء الزعماء اليهِ

ثانياً — ان الشعب يتتبع بعناية عظيمة اعمال الاسرة المالكة . ومن شأن هذه العناية في بعض الاحيان تقريب حياة الاسرة المالكة الى حياة الشعب الخاصة . فاذا تزوج أحد الامراء ، كانت الحفلة عيداً قوميًّا ، واذا كان الزواج قائماً على الحبّ ، كزواج دوق يورك وزواج دوق كنت ، وكانت العروس جميلة ، استولى على الجماهير نوع من الثمل النفسيّ

ثالثاً — ان التقاليد التي ترعاها الاسرة المالكة ، وقيود وراثة العرش التي تتقيد بها ، من شأنها ان تسمو بنفوس اعضائها فوق الشهوات الدنيئة كالغيرة والحسد وحبّ الاذى

رابعاً — اذا عرف اعضاء الاسرة المالكة ان ينهضوا بواجبهم نحو الأمة اصبحت الاسرة مرجعاً لحياة الامة الاجتماعية والادبية . فهي تحافظ على التقاليد المحترمة وتصدّ أي انقلاب مفاجيء في آداب السلوك * وقد أدّت الاسرة البريطانية المالكة هذه الناحية من عملها على أتمّ وجهٍ وأوفاه

***

هذا هو عمل الملك الدستوري بوجه عام . ولكن الملك في انكلترا مضطرٌّ أحياناً وفي احوال معينة ، ان يشترك اشتراكاً فعّالاً في شؤون الدولة

فالقاعدة ان الملك يختار رئيس وزرائهِ . ولكن اذا كانت اكثرية مجلس النواب تابعة لحزب واحد فزعيم ذلك الحزب يصبح بطبيعة الحال رئيساً لمجلس الوزراء . وليس للملك ان يتجاهله . وقد حاولت الملكة فكتوريا — وكانت لا تميل كثيراً لغلادستون — ان تفضل بعض اتباعهِ عليهِ ، فذهبت محاولتها ادراج الرياح ، لان مفاتحتها لهم في هذا الموضوع كانت تفضي الى التماس العذر . وكان غلادستون في كل محاولة من هذا القبيل يطلب في النهاية لتأليف الوزارة . فاذا انقسم حزب كبير الى فريقين واصبح زعيم الحزب لا يملك ولاء جميع أعضائه ، فيستطيع الملك ان يرشد زعماء الفريقين الى الطريق الصواب من دون ان يفرض مشيئتهُ عليهم . وهذا ما وقع في سنة ١٩٢٣ لما اضطرّ المستر بونارلو ان يستقيل من رآسة الوزارة لمرضهِ . فقد كان اللورد كرزون مقتنعاً أن رئيس الوزارة لا يمكن أن يكون احداً غيره . ولكن المستر بلفور وغيره من زعماء المحافظين بينوا للملك أن طبع اللورد كرزون لا يتلاءم ومقتضيات المنصب وكانت النتيجة ان استدعي المستر بولدوِن الى قصر بكنهام فقطع الملك العقدة بسيفهِ

والقاعدة كذلك ان الملك لهُ حق حلّ مجلس النوّاب . ولكنهُ في الواقع لا يستطيع ان يحلّ مجلس النواب من دون ان يشير بذلك رئيس وزرائه . الا إنهُ قد تجيء احوال تصبح فيها مسألة حل المجلس مشكلة معقدة . فاذا كان في المجلس ثلاثة احزاب بدلاً من حزبين ، فقد يتفق ان يكون حزب رئيس الوزراء — كحزب مكدونالد الآن — اقلية في المجلس . وقد يشير رئيس الوزراء بحل المجلس في وقت يكون فيه السبيل قد تمهد لائتلاف الحزبين الباقيين والنهوض بشؤون الحكم من دون انتخاب جديد . في هذه الحال تكون كلمة الملك المرجع الاخير

والملك وحده الحق في اسباغ القاب الشرف على العوام . وهذا الحق على ضيق نطاقه ، يمكنه من ان يقترح اسماء او ان يرفض اسماء اخرى مقترحة لهذه الالقاب . ولكن الفائدة الكبرى من هذا الحق هي ان الحكومة تستطيع ان ترجع الى الملك في ممارسته عند ما يرفض مجلس اللوردات الموافقة على مشروعات اقرها مجلس النوّاب . فقد حدث مرة ان مجلس اللوردات رفض

ان يقر الميزانية فاضطرت الحكومة القائمة ان تهدد مجلس اللوردات بتعيين لوردات جدد يكفي عددهم لمنح الحكومة اكثرية في ذلك المجلس . ولكن رئيس الوزراء لا يستطيع ان ينفذ تهديداً من من هذا القبيل الا اذا وافق الملك عليه . وهذه المشكلة توقف الملك احياناً موقفاً حرجاً ، لانه من ناحيةٍ ، رئيس اعيان قومه بطبيعة مقامه ، ومن ناحية اخرى يرغب في ان يتصرف تصرفاً دستوريًّا لا غبار عليه . وسوف نرى في صفحة تالية كيف تصرف الملك جورج الخامس عند ما واجهته حالة من هذا القبيل

ثم ان للملك، اذا اقتضت الحال ، حقٌّ مبهم الآن لقلة الاستناد اليهِ، ولكنهُ فعّال في الملمات وهو ان يكون وسيطاً بين الاحزاب السياسية ، اذا بلغ النزاع بينهما مبلغاً من الحدة والعنف يهدد سلامة الدولة . فالملك ادورد السابع ، لم يحجم عن دعوة المستر اسكوِث رئيس وزرائه ، والمستر بلفور ولورد لنسدون زعيمي المعارضة ، الى قصر بلمورال لتخفيف سورة النزاع عند ما اشتد بين مجلسي النوّاب واللوردات

وكذلك نرى ان عمل الملك معقد وذو شأن خطير في آن واحد . فهو رئيس للدولة لا سلطة واسعة له كسلطة رئيس الجمهورية الاميركية الذي يجمع بين رآسة الدولة ورآسة السلطة التنفيذية — اي بين عمل الملك وبين عمل رئيس الوزراء — ولكن سلطة ملك انكلترا اوسع نطاقاً من سلطة رئيس الجمهورية الفرنسية . فهذا لا يستطيع ان يحل البرلمان الاَّ بعد موافقة مجلس الشيوخ . ومجلس الشيوخ اذا عارض في امر اقره النواب فليس لرئيس فرنسا ان يعين شيوخاً تتغلب بهم الحكومة القائمة على معارضة المجلس لها

فاذا اضفت الى سلطة الملك الدستورية هيبته التي تأذن له في التوسط في بعض شؤون السياسة الخارجية وأمور الجيش ، ادركت ان الملك الدستوري في بريطانيا شأناً كبير في تسير دفة الحكم

فلننظر الآن في حكم الملك جورج الخامس ، محاولين ان نبين كيف مارس الملك هذه الحقوق وكيف نهض بهذه الاعمال في خلال ربع القرن المنصرم

***

كان جورج الخامس الابن الثاني للملك ادورد السابع . فلما توفي شقيقه الاكبر ، دوق اوف كلارنس اصبح وليًّا للعهد . وكان قد تلقى العلوم التي تعدّهُ للانتظام في السلك البحري ، وقضى معظم حياته قبل وفاة شقيقه بعيداً عن البلاط وقد قلّد في فترةٍ ما قيادة سفينة طوربيد ثم قيادة طراد . فلما توفي والده وذهب المستر اسكوِثْ (وكان رئيس الوزراة حينئذٍ) لمقابلتهِ تركت هذه المقابلة اثراً عظيماً في نفسهِ لما شاهده في الملك الجديد من الدعة والرأي السليم . ولكن جورج الخامس ورث من عهد والده مشكلة معقدة . ففي ميدان السياسة الخارجية ، كانت المنافسة بين انكلترا والمانيا قائمة على قدم وساق . الاّ ان الملك جورج الخامس لم ينظر الى القيصر على انه عدوٌّ شخصيٌّ

كما كان يفعل والده ، ولذلك كبر الامل بعد اعتلاء الملك جورج العرش ، بان يسوّي هذا النزاع العائلي على احسن وجهٍ . ولكن هذا الامل لم يلبث قليلاً حتى تبدد . وأما في سياسة البلاد الداخلية ، فكان النزاع بين مجلسي اللوردات والنواب ، قد بلغ اشده . لحزب الاحرار القابض على زمام الاحكام من سنة ١٩٠٦ كان قد تبع خطة ترمي الى غرضين هما ، فرض قبول الميزانية التي اعدها لويد جورج وتعديل الدستور حتى يجرد مجلس اللوردات من قوة النقض لقرارات مجلس النواب . فبعد نزاع وانتخاب عام وافق مجلس اللوردات على ميزانية لويد جورج . ولم تكن ثمة وسيلة للتغلب عليه فيما يختص بالغرض الثاني ، الاّ بتهديده بتعيين ٣٠٠ لورد جديد . وكان الملك ادورد السابع قد وعد المستر اسكوث ، انه يوافق على ذلك ، اذا اقتضى الامر ، بعد انتخاب عام آخر لتبين اتجاه الرأي العام

***

فوفاة الملك ادورد ، والمسألة لا تزال معلّقة ، وضعت المستر اسكوث في مأزقٍ ، لا سبيل الى الخروج منهُ الاّ بالبراعة والكياسة . فرأى اولاً انهُ لا يليق ان يطلب الى الملك ان يتخذ قراراً حاسماً في موضوع خطير كهذا في مطلع حكمهِ وخاصة في فترة الحداد . وفي هذا مثل بليغ على ان وجود التاج يفعل بحكم الطبع ، فعل مسكن في حلبة النزاع السياسي ، وينفخ في السياسة شعوراً انسانيًّا قريباً من القلب . ولما كانت المعارضة تشاطر الحكومة هذا الرأي اجتمع مؤتمر خاص من زعماء الفريقين قصد الوصول الى اتفاق ، فكان سبيله الى الاخفاق بعد جدال طويل

فتحتم عند ذلك على رئيس الوزارة ان يعلم هل يعيد الملك جورج وعد أبيهِ ، ويتعهد بتعيين لوردات جدد اذا اسفر الانتخاب العام عن عودة الاحرار الى الحكم . والواقع انهُ لم يكن ثمة سبيل الى حلٍّ آخر . فاذا رفض الملك استقالت الوزارة ، وعندئذٍ يستدعى المستر بلفور زعيم المعارضة ويُطلب اليهِ ان يؤلف وزارة فيؤلفها وعند تقدمها المجلس يخذلها فتضطرُّ الى الاستقالة . وعندئذٍ يحق للملك من الناحية النظرية ، ان يحلَّ المجلس لاجراءِ انتخابٍ آخر ، ولكن ذلك يزجُّ بالتاج في معارك الانتخابات ويقضي على القاعدة الاساسية التي شيّد عليها النظام الملكي الدستوري . وهذا تحوَّل كان المستر اسكوث عازماً كلَّ العزم على اجتنابهِ ما استطاع الى ذلك سبيلاً . فاذا وعده الملك بتعيين اللوردات عند ما تقتضي الحال ذلك ، وخاض هو وحزبهُ الانتخاب مسلَّحاً بهذا الوعد السري يبقى مقام الملك محفوظاً من الاذى . قال المستر اسكوث : « فاذا خذلنا في الانتخاب لم تكن ثمة حاجة لتنفيذ وعد الملك فيبقى في طيّ الكتمان . واذا نلنا اكثرية ، اضطرَّ اللوردات الى الاذعان ، وكذلك نجتنب ذكر اسم الملك على كل حالٍ »

ومع أن الملك جورج كان قليل الرغبة في اتباع هذه الطريقة ، رأى بعين حكمتهِ ان لا سبيل

آخر للخروج من المأزق . فاتفق على ان يحفظ وعد الملك طي الكتمان وان يسعى الوزراء جهد الطاقة الى الحيلولة دون ذكر الملك في معارك الانتخاب . فلما أسفر الانتخاب عن اكثرية للاحرار اصرّ الملك على أن يعلن الوعد الذي قطعه خشية ان لا تفهم المعارضة موقفهُ اذا ظلّ هذا الوعد مكتوماً ثم تسرّب نبأه الى الصحف . وقد اذيع ذلك في كتاب ارسل الى المستر بلفور ولورد لانسدون . فغضبت المعارضة ولكنها لم تحِر عملاً . فتعيين ثلاثمائة لورد جديد يضعف من مقام الارستقراطية البريطانية ، ويقضي على كلّ حال الى اقرار ما رفض مجلس اللوردات اقراره . فرأى المجلس عندئذٍ ان يذعن لمشيئة مجلس النواب واقرّ القانون المطلوب

وخرج الملك من هذا النزال وقد زادت هيبتهُ ومكانته ، لانهُ لم يحد في خلاله قيد شعرة عن عمله وهو ان يكون حكماً منزهاً عن الغرض الخاص . فقد كان في ناحية الحكومة مستشاراً حكيماً ولكنهُ لم يقف عثرة في سبيلها ، وكان في ناحية المعارضة ، صديقاً ولكنهُ لم يكن حليفاً

***

كان حكم الملك جورج حافلاً بالمشكلات . فما كادت تحل المشكلة الدستورية على الوجه المتقدم ، حتى استفحلت المشكلة الارلندية . ذلك ان المستر اسكوث كان قد اضطرّ الى التحالف مع النواب الارلنديين الوطنيين في مجلس النواب بغية الفوز بأكثرية كافية ووعدهم بتحقيق آمانيهم فيما يخص «الهوم رول» اي الاستقلال الذاتي ، وهو يكاد يكون استقلالاً تامًّا لارلندا . فاقسم البروتستانت في ارلندا الشمالية انهم لن يخضعوا بحالٍ من الاحوال لحكم دبلين وطلبوا ان يفصلوا عن سائر ارلندا ويتركوا وشأنهم . ولكن الوطنيين الارلنديين هالهم ان يفقدوا اغنى شطر من ارلندا . فاقترح المستر بلفور على الملك ان يتوسط ويعلن ان تجزيء الامبراطورية على هذا الوجه موضوع يجب ان يتاح للبلاد ان تعرب عن رأيها الصريح فيهِ . وهذا يعني ان بلفور اقترح على الملك ان يحتم على اسكوث فضّ البرلمان وخوض معترك انتخابات جديدة . اما لورد روزبري فكان رأيهُ ان رفض الملك توقيع قانون اقرّهُ البرلمان مخالف للتقاليد واستعمال لسلطة الملك في غير محله . وظلّ الجدال محتدماً خلال شتاء سنة ١٩١٣ و ١٩١٤ والآراء متناقضة

الاّ ان الملك كان حكيماً ، فلم يصغ الى اصحاب الآراء المختلفة ، المخالفة للتقاليد الدستورية . وظلّ محتفظاً برباطة جأشهِ ، ولكنهُ لم ين عن تذكير وزرائهِ بان الحالة في نظرهِ كانت اشدّ خطراً منها في نظرهم لانهُ باقٍ رئيساً للدولة حالة انهم خالعون جلباب الحكم عند ما يتحوّل الرأي العام عن تأييدهم ، فيحلّ غيرهم محلّهم . ومضى شهراً بعد شهر محاولاً اقناع المتطرفين من الفريقين بالتريث والتأني ، طالباً من كل فريق تخفيف الحدة في الخطب والتصريحات التي يفوهون بها ، وان ينظروا بعين الاهتمام للصعاب التي تعترض موقف الفريق الذي يخالفهم . ودعا الى قصره في بلمورال الى زعماء الاحزاب المختلفة فلعب اللورد كرو احد زعماء الاحرار الجولف مع المستر بونارلو زعيم المحافظين

الجديد . فبدا في موقف بونارلو شيءٌ من اللين في حلبة اللعب لم يؤثر عنهُ . واصر الملك على اجتماع اسكوث رئيس الوزراء ببونارلو زعيم المعارضة وكان الاجتماع سريًّا خشية لوم المؤيدين لكل منهما فوجد كلٌّ منهما صاحبهُ اقرب الى التعقل مما كان يتصوَّر

وفي مارس سنة ١٩١٤ كادت المشكلة ان تتخذ شكلاً عسكريًّا ، وبدت بوادر الحرب الاهلية في ارلندا ، فدعا الملك مؤتمراً من زعماءِ الاحزاب المتعارضة الى الاجتماع في قصر بكنهام وافتتح هو المؤتمر بخطبة مؤثرة ، ولكن النفوس كانت ثائرة فلم يسفر المؤتمر عن نتيجة ما ، ولم تنج ارلندا من نشوب الحرب الاهلية فيها سنة ١٩١٤ الاّ بنشوب الحرب العامة على اثر حادثة سراييڤو

***

في اول اغسطس سنة ١٩١٤ بعث ملك انكلترا بنداءٍ الى قيصر روسيا يطلب اليهِ فيهِ ان يوقف تعبئة الجيش الروسي . وكان اسكوث قد كتب هذا النداء مستعيناً برجال وزارة الخارجية . قال اسكوث : فلما انتهينا من كتابتهِ ذهبت في سيارة اجرة مع ترل الى قصر بكنهام وكانت الساعة الحادية والنصف بعد منتصف الليل . فدعي الملك من سريره وصورة الملك في قبائهِ في تلك الليلة التاريخية من أعجب الصور التي اذكرها

وقد اصرَّ الملك في خلال الحرب ، على ان غذاء الاسرة المالكة يجب الاّ يختلف بوجهٍ من الوجوه عن غذاء الجمهور. فلما قضت حالة الحرب بان توزَّع بعض اصناف الغذاءِ ارزاقاً بمقتضى بطاقات لقلتها كان قصر بكنهام ينال من هذه الارزاق ما ينالهُ بقية الناس . وامر الملك بان لا يقدَّم على مائدتهِ خمر ولا جعة . وقد ذهب في خلال الحرب غير مرَّة الى فرنسا ، لزيارة ابنهِ وولي عهده ، وليكون وجوده هناك من بواعث النشاط والحماسة في نفوس الجنود . فلما انقضت الحرب ، اعرب المستر اسكوث عن اجلالهِ للملك بهذه الكلمات :

« اما والعروش تهوي حولنا ، وقد كان بعضها قائماً على الظلم ، وبعضها مؤيداً بهيكل ضعيف من التقاليد ، فاننا نرى عرش هذه البلاد راسخاً لا يتزعزع قائماً على مشيئة الشعب البريطاني »

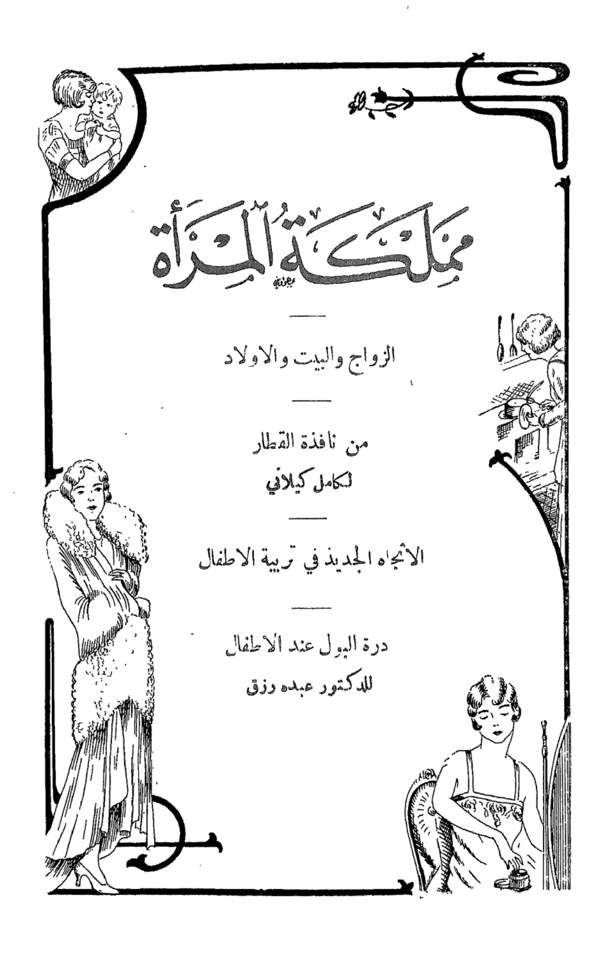
وقد كانت الصعاب التي واجهتها بريطانيا بعد الحرب لا تقل عن الصعاب التي واجهتها قبيل الحرب وفي خلالها . فالاضراب العام ، وفوز حزب العمال ، اقتضيا من الملك ان يبرهن مرة اخرى على مقدرته وحكمته ، كحكم منزه عن النزعة الخاصة او الحزبية . وقد اصاب في ذلك قسطاً وافراً من النجاح ، حتى انه لما مرض سنة ١٩٢٨ كانت الجماهير تقف امام قصره وهي متلهفة لاخباره ، ضارعة الى الله ان يمن عليهِ بالشفاءِ ، ففاقت بولائها له ما عرف عن الولاء لملوك انكلترا الذين تقدموه

وهذا كلهُ يفسر لك قول السر ستافورد كربس احد زعماء العمال المتطرفين اذ قال من عهدٍ قريب : « ان الملكية الدستورية سوف تبقى زمناً طويلاً في هذه البلاد افضل وسيلة لاختيار رأس الدولة »

تتويج جورج الخامس

[سبق الانكليز غيرهم من امم هذا العصر الى الحكم الدستوري ونزع السلطة من ملوكهم ولكنهم مع ذلك لا يزالون متمسكين بكثير من عاداتهم وتقاليدهم القديمة كتتويج ملوكهم والباس قضاتهم الشعور العارية وحراسهم الثياب المقصبة . وفيما يلي وصف جانب من حفلة تتويج الملك جورج الخامس في ٢٢ يونيه سنة ١٩١١ في دير وستمنستر]

... ووقف رئيس اساقفة كنتربري ونادى قائلاً ايها السادة قدمت اليكم الملك جورج ملك هذه المملكة الذي لا شبهة فيه والذي جئتم جميعكم اليوم لكي تقدموا له الطاعة فهل انتم راغبون في ذلك . فهتف الجمع هتافاً متكرراً قائلين احفظ اللهم الملك جورج . ثم ابتدأت الخدمة الدينية وتلي قانون الايمان ووعظت وعظة مختصرة وفي ختامها تقدم رئيس اساقفة كنتربري الى الملك وقال له هل انت مستعد يا مولاي ان تقسم اليمين فقال الملك نعم وأقسم انه يحافظ على الديانة البروتستانتية ويحكم شعبه بالعدل . وسار الى المذبح وركع امامه ووضع يمينه على التوراة وقال ان كل ما وعدت به هنا افعله وأحفظه فليعني الله . وقبل التوراة ووقع صورة القسم ورجع الى كرسيه بجانب كرسي الملكة وسجدا كلاهما ثم عاد الى المذبح وخلع حلة الملك وتقدم الى عرش الملك ادورد المعترف وجلس على حجر تاريخي مشهور فمسحه دين وستمنستر بالزيت المقدس والبسه مهمازه ووضع سيفه على المذبح . وصلى رئيس الاساقفة ضارعاً الى الله ان لا يتقلد الملك سيفه عبثاً بل يستعمله لخدمة الله بارهاب الاشرار وحماية الاخيار ثم ناوله اياه قائلاً اجر بهذا السيف العدل وأوقف نمو الشر واحم كنيسة الله واعن الارامل والايتام وجدد ما عتق واحفظ ما تجدد وأصلح الاثيم وأيد الصالح حتى تنمو كل فضيلة . وناوله بعد ذلك رداء الملك والكرة والصليب قائلاً فليلبسك الله رداء البر وثوب الخلاص واذا رأيت هذه الكرة موضوعة تحت الصليب فتذكر ان العالم كله خاضع لقوة المسيح فادينا ولسلطته . ثم البسه خاتم الملك في اصبعه وناوله الصولجان قائلاً تناول صولجان العدل والرحمة وليعنك الله في اجراء كل ما وهبك من السلطة وكن رحيماً ولكن لا تتناه في الحلم وعادلاً ولكن لا تنسَ الرحمة وعاقب الشرير واحم الصالح وقُد شعبك في السبيل الذي يجب ان يسير فيه . ثم رفع التاج عن المذبح وتضرع الى الله ليبارك الملك ويتوجه بكل فضيلة ووضع التاج على رأسه قائلاً ليتوجك الله بتاج المجد والبر . وللحال رفع الاعيان تيجانهم من تحت مقاعدهم ووضعوها على رؤوسهم وهتفوا للملك . وجلس الملك على عرشه وجعل رجال المملكة يمرون امامه ويسجدون له واحداً بعد الآخر وأولهم رئيس اساقفة كنتربري والاساقفة ثم ولي العهد وامراء بيت الملك وكان كل منهم يرفع تاجه عن رأسه ويركع امام الملك ويقول اني اخدمك بحياتي وأكون اميناً لك حتى الموت فليساعدني الله ثم يلمس تاج الملك بيده ويقبله في وجهه . وفعل مثلهم كل رؤساء فرق الاعيان اما اعضاء تلك الفرق فبقوا راكعين في مجالسهم حاسري الرؤوس


مملكة المرأة
الزواج والبيت والاولاد
من نافذة القطار
لكامل كيلاني
الأتجاه الجديد في تربية الاطفال
درة البول عند الاطفال
للدكتور عبده وزق

الزواج والبيت والاولاد

يجب ان تكون هدف

المرأة في المانيا النازية

قلما ادركت نساء المانيا في بدء الانقلاب النازي ما يكون أثره في حياتهنّ ، ولكنهنّ يعلمنّ الآن انهُ كان فاتحة عهد جديد يختلف في قواعده واتجاهاته عن العهد السابق كل الاختلاف

ففي خلال الحرب الكبرى ، وفي السنوات التي تلتها ، ارتفع مقام المرأة ارتفاعاً سريعاً في ميادين الاعمال والحرف المستقلة والحياة السياسية . ولكن الريخ الثالث يرمي الآن الى اعادتهنّ الى البيت على قدر المستطاع

ففي ميدان الحياة الاقتصادية قضت كثرة العمال المتعطلين عن العمل ان تستبدل النساء العاملات بعمالٍ . وكذلك صدر قرار في يونيو سنة ١٩٣٣ يحول دون اشتغال النساء بالاعمال المدنية اذا كان لهنّ ازواج او آباء عاملون . وليس يقصد بالاعمال المدنية هنا مناصب الحكومة فقط بل جميع ضروب العمل في المنشآت التابعة للحكومة مثل المدارس والبنوك وسكك الحديد والجمعيات والمؤسسات الدينية . وقد عمدت الحكومة الى تطبيق هذه القاعدة تطبيقاً واسع النطاق . ففي مدينة همبرغ اقيلت مائة معلمة دفعة واحدة وعين محلهنّ مائة معلم . بل ان الحكومة عمدت الى التفريق بين الرجال والنساء في مؤسساتها . بجعل راتب النساء اقل من راتب الرجال ، ورفض النساء اللواتي لمَ يبلغنَ الخامسة والثلاثين حالة ان الذكور يقبلنَ في الاعمال نفسها ابتداء من السنة الحادية والعشرين . ولكن هذه القواعد لا تطبق تطبيقاً عامًّا مطلقاً . فالنساء اللواتي يَعُلْنَ اسرهن لا يستبدلن في اعمالهن برجال . وقد احتفظ بالنساء الكواتب على المكتاب (التيب ريتر) والعاملات في مصانع النسيج ، لبراعتهنّ وتفوقهنّ على الرجال . ثم ان القابلات المتزوجات تشجعن على العمل لانهنّ يخدمن هدفاً من اهداف الحركة النازية وهو زيادة النسل

فالزواج في ظل النظام الجديد ، هو الهدف الذي يجب ان تسعى اليه المرأة . ولكن من الواضح ان كثيرات من الفتيات الالمانيات لا يستطعن بلوغه . لان في المانيا ١٩٠٠ ٠٠٠ امرأة زيادة على الرجال . ولا يزال امام هؤلاء ميدان للعمل ، مع ان نطاقه قد ضاق كثيراً . فالطبيبة يجب ، بحسب الرأي النازي ، ان تحصر عملها في امراض النساء ، والمحامية يجب ان تقف نفسها على الناحية القانونية من شؤون المنزل ومحاكم الاحداث . فلا الجراحة في الاول ولا العمل كقاضية في الثانية ، من الاعمال التي يجب ان تزاولها المرأة في المانيا النازية . اما الصحافية فيجب ان توجه عنايتها الى الموضوعات الخاصة بالبيت والطفل واذاعة فلسفة النازي السياسية بين النساء . ولا ريب ان ميدان الحرف الحرة سوف يتأثر في المستقبل ، تأثراً عظيماً ، بتحديد عدد الفتيات اللواتي يسمح لهنّ بالانتظام في معاهد التعليم العالي أي الجامعات

والحيلولة بين المرأة الالمانية والجامعات، بجعل عدد الفتيات اللواتي ينتظمن في الجامعات بعشرة في المائة من مجموع الطلاّب ، يصحبها توجيه عناية المرأة توجيهاً خاصًّا الى مسائل البيت والعناية بالاطفال والوالدات من نواحيها المختلفة ولذلك يشاهد عدد كبير منهنّ مقبلاً على اعمال الخدمة الاجتماعية ، ولكن المناصب الادارية في جميع هـذه المنشآت الاجتماعية ، هي في الغالب في ايدي الرجال . والحكومة تسهّل بواسطة مكاتب خاصة للتخديم ، سبيل الخدمة في البيت للفتيات اللواتي لا يستطعن الزواج ويرغبن في هذا النوع من العمل

وقد كان من شأن هذه الخطة التي اختطّها الريخ الثالث نحو النساء ، ان فرض لعمل النساء السياسي ، حدوداً ضيقة. فقد نقص عدد الموظفات منهن في الوزارات المختلفة ، وحيل بينهنّ وبين عضوية الريخستاج ، مع انهُ في سنة ١٩٣٣ كان في الريخستاج ثلاث وثلاثون امرأة بين اعضائهِ . ولكن تجريد المرأة من حق العمل في منصب سياسي، لا يعني حرمانها حق الانتخاب . بل ان الانتخاب في الفلسفة النازية ، ليس حقًّا للمرأة فقط ، وانما هو واجب مقدس عليها . فقد ذكرت احدى الصحف في السنه الماضية ان سيدة لها مقعد في السوق العامة ، اشير اليها بالاشتراك في الانتخاب مرتين فلم تفعل، فحرمت من مقعدها هذا وحتم عليها ان تلبس بطاقة كتب عليها : « لم اشترك في الانتخاب لان سلامة المانيا واستتباب السلام فيها لا يهمانني » . وقد تكون هذه الحادثة فريدة في بابها ولكن الواقع ان النساء الالمانيات لا ينظرن نظرة استخفاف الى حق الانتخاب

ثم ان الحكومة لا تكتفي بالقوانين تحدُّ بها من نشاط المرأة في ميادين العمل والسياسة ، بل تعمد كذلك الى وسائل الترغيب والدعاية لتغري المرأة بالعودة الى البيت . ومن اشهر هذه الوسائل نظام الزواج الذي وضع في يونيو سنة ١٩٣٣ وبمقتضاه تمنح الفتاة العاملة الف مارك ديناً طويل الاجل ، اذا تركت عملها وتزوجت وعادت بعد الزواج لا تبحث عن عمل . وهذا المبلغ لا يدفع لها نقداً ، بل تعطاهُ اذونات ، تستعملها في تأثيث بيتها . ثم هي تستطيع ان توفي هذا الدين بأسلوب غريب ، فعند ولادة ولدها الاول يحذَف من الدين ربعهُ ، وعند ولادة الولد الثاني يحذف الربع الثاني . فاذا ولد لها اربعة اولاد ، مُسوِّي الدين كلهُ . فكان هذا النظام باعثاً على اقبال مئات من الفتيات والشبان على الزواج ، فقرعت أجراس الافراح في طول المانيا وعرضها ، وتزوج في مدينة همبرج وحدها ، ٥٠٠ فتاة و ٥٠٠ شاب دفعة واحدة .وكان من آثاره ، ان الاقبال على تأثيث البيوت زاد عدد العمال في الصناعات المختلفة الخاصة بالاثاث وأدوات المنزل ١٥٠ الف عامل . ولكن غرضهُ ليس زيادة العمال العاملين فقط بل رفع متوسط المواليد في المانيا ، بعد ان نقص نقصاً تدريجيًّا من سنة ١٩١٣ الى سنة ١٩٣٢ حتى أصبح متوسط المواليد في المانيا اقل منه في اي بلاد اوربية اخرى عدا بلاداً واحدة [يراجع الفصل الذي نشرناه في مقتطف اكتوبر ١٩٣٤ صفحة ٢٢٩-٢٣١ بعنوان « مقام المرأة واتجاهها في المانيا النازية »]

من نافذة القطار

لكامل كيلاني

هيهات ، هيهات ، لا جنٌّ ولا سحره   بقادرين على أن يلحقوا أثره !
هذي المنازل قد مرّت على عجل ،   كأنها ومضةٌ للبرق مختصره
هذي القناطر — والاشجار تتبعها —   هذي الحقول تبدت وهي مزدهره
هذا قطيعٌ — من الاغنام — ألمحهُ ،   وهذه دوحةٌ ، في ظلها بقره
وهذه ترعةٌ — في إثرها ظهرت ،   وتلك ناعورةٌ ، في جنبها شجره
هذا سوادٌ علا فوق القطار ، وقد   عمّ الفضاءَ دخانٌ قاذفٌ شرره
هذا القطار بطيئاً — بعد سرعته —   وذا صفيرٌ يدوّي منذراً خطره
هذي المحطة قد لاحت لاعيننا   اعلامها ، ووفود الناس منتظره
يَحُلُّ فيها قليلاً ، ثم يتركها   لغيرها ماضياً ، مستأنفاً سفره
كالسهم منصلتاً والسيل مندفعاً ،   يثير — في عدوه — الحصباءَ والغبَره

***

هيهات، هيهات ، لا جنٌّ ولا سحره،   بقادرين على ان يلحقوا أثره
هنا غلامٌ أراهُ صاعداً حذراً   على النخيل يرجّي — فوقه — ثمره
وزارعٌ دائبٌ في حرث دسكرة ،   وهضبةٌ ، ومروجٌ — بعدها — نضره
وهذه ثلةٌ — من قريةٍ — خرجت ،   وكلهم — رافعٌ — من دهشةٍ بصره
وهذه مركبات حملت نفراً ،   وفوق اخرى حشيش يابس ، وذُره
وثمّ طاحونةٌ ، لاحت — لاعيننا —   ثوانياً ، واختفت — في الحقل — مستتره
هذا غديرٌ ، وهذي روضةٌ أنفٌ ،   تهبُّ منها — علينا — نسمةٌ عطره
وثمّ مئذنةٌ في الجو ذاهبةٌ ،   وتلك سوقٌ ، بها التجار منتشره
شتى مناظر مرت — خطفَ بارقةٍ —   كما تمرُّ بك الاحلام منتثره
مرت، وليس لها من عودةٍ — أبداً —   كالطيف ولّى ، فمنذا يقتفي أثره

« مقتبسة من الانكليزية »

الاتجاه الجديد

في تربية الاطفال[1]

كان أبناء السادة في بلاد الفرس في العصور القديمة يدرَّبون على ثلاثة أمور : الرمي بالنشاب . وركوب الخيل ، وقول الصدق. ومتى جهزوا بهذه العدة اعتبروا أشخاصاً كملت تربيتهم مستعدين لما يتطلبه منهم المجتمع الفارسي من المطالب البسيطة ، ولم يكن هـذا المجتمع ليتطلب من أعضائه غير قليل عدا الشجاعة الحربية ، والقوة البدنية ، والاستقامة الخلقية . ولا جدال في أنهُ — حتى في تلك العصور — كان المربون والحكماء فارقين في المذاهب النظرية والجدل حول تربية النشء وتقرير مستقبلهم . ولكن غايات التربيـة كانت على كل حال محـددة بجلاء ، وكانت الوسـائل لادراك تلك الغايات في متناول اليد ، وليس الحال كذلك الآن ويالالاسف ! قلب النظر في مجموعة حديثة من كتب التربية تجد آراء كثيرة مختلفة في إدراك حقيقة وظيفتها، بقدر عدد من كتبوها فهل الهدف الذي ترمي اليهِ هو منزلة رفيعة من القوة الذهنية او اعداد ضيق للاحتراف ؟ وهل نؤكد الاهتمام بالفرد وحده أو بمنزلته المستقبلة في المجتمع ؟ وهل تكون الوسيلة نظاماً آليـاً صارماً، أو حرية تمتد الى حدود لا تكاد تصدق ؟ وهل نعنى كثيراً بالادب القديم وتعاليم الماضي أو نستهدي العلوم ومخترعات العصر الحاضر ؟

من يدري ؟ وأي الناس لديه من الحكمة ما يخوله أن يجيب عن ذلك ؟ أليست كل ظنون هؤلاء المربين سواء في قيمتها ؟ يلوح أن هذا هو الواقع فانهم على الرغم من نظرياتهم وتوكيداتهم الجريئة ليس منهم من يبدو على ثقة مما يقرره الا حين يهاجم اخوانه

على أمر واحد اجتمعت كلمتهم ، وذلك هو سحق الطفل — منشأ كل منافراتهم — أو على الاقل اخضاعه وتحويله من مخلوق أبي مستقل وهو ما فطر عليهِ الى شخص سهل القياد اكثر متابعة لاغراضهم .أن نظرية تأثيم[2] الطفولة لا تزال تسيّر جانباً كبيراً من سياستنا التعليمية فيجب وفقاً لها ان يبرأ الاطفال من الشر الاصيل الذي يلابسهم ويجتث منهم ما فيهم من هراء ، ثم يصبون في القالب المطلوب حتى يصيروا ملائمين للمجتمع ! ولولا أن اولئك الاطفال يرغمون على التعلم بجيش من المعلمين والضباط ويد القانون لفروا منهُ ومن كل ما يتصل بهِ من الاعمال

على انهُ قد بدأ حديثاً انتقاض وثورة على تلك التقاليد المرعية

---

(١) هذا الفصل النفيس هو جانب من مقدمة كتاب « ضحايانا الاطفال » الذي وضعته المربية أغنس دي ليمان ونقله الى العربية الاستاذ محمد عبد الواحد خلاف ونشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر في سلسلة مكتبة المعلم

(٢) اشارة الى المذهب المسيحي القائل بان الانسان ولد في الخطيئة

فقد جرأت بعض المــدارس بالفعل على ان تضع موضع التجربة والاختبار نظرية تخالف النظريات القديمة كل المخالفة وتقرر ان النزعات الفطرية للطفل ابتكارية وانهُ لو اعطي المواد الملائمة واتيحت له الفرص لاستعمالها ، واطلقت له الحرية فلا تملى عليهِ ارادة ، لظهرت منهُ قوى وكفايات لا يحلم بها الى اليوم . وليس معنى هذا ان ندع الاطفال يهيمون في كل واد ، بل ان نعطيهم قدراً من الطمأنينة ومن الفرصة للتعبير عن انفسهم يلائم ما بلغوه من اطوار النمو . ان التربية القديمة — او على الاصح اسلوب التعليم السائد المسمى تربية — قد جمعت اعتباطاً علم الماضي وثقافته ، ثم قسمته الى اقسام تامة الانفصال تسمى مواد ، ورتبت هذه المواد الى اجزاء متسلسلة تتدرج من البسيط الى المركب ويرتبط كل منها منطقيًّا بالجزء الذي سبقهُ . والواقع اننا وان كنا لا نعلم كثيراً عن عملية التعلم على الرغم من كثرة رسائل الدكتوراه في الموضوع فاننا قد اهتدينا على الاقل الى انها ليست عملية منطقية اصلاً ، وعلى الرغم من مجهوداتنا المنطقية فان الاطفال لا يتعلمون على هــذا النحو . ففي الفصول التجريبية التي تشرف عليها المس اروين والتي جئنا على وصفها في الفصل الرابع وجد ان عدداً من تلاميذ الفرقة الثانية الذين لم يعطوا شيئاً في الحساب في سنتهم الاولى قد طلبوا فجأة ان يتعلموه وفي شهر واحد قطع بعض نجبائهم فيهِ شوطاً بعيداً حتى لقد وصلوا سريعاً الى عمليات معقدة في الكسور من غير ما حاجة الى حفظ جدول الضرب والتشكيلات التي تسبق عادة مثل هذا العمل

وكذلك شأن الجغرافية فهي في هذه المدارس الحديثة ليست قاصرة على دروس مأخوذة عن كتاب كبير واحد مملوء بالخرائط وكشوف الانهار والعواصم والمحصولات . ان الصغار الذين هم دون روضة الاطفال يبدأون تحديد موضعهم في الفراغ فيحددون وضع حجرتهم بالنسبة للحجر الاخرى في البناء ويحددون وضع المدرسة بالنسبة للمباني الاخرى في الشارع . وبعد زمن يسايرون الطريق الى النهر ويرون المراسي والاحواض والمعادي والسفن . وهل من دافع اقوى من هذا يحملهم على ان يحصلوا لا الحقائق الجغرافية وحدها بل معلومات اقتصادية وصناعية كذلك ؟ ويدلك على صواب هذه النظرية ان الاطفال في هذه المدارس الحديثة لديهم قدر مدهش من المعلومات . لقد لوحظ على فريق من الاطفال في الثانية عشر من عمرهم بمدرسة « والدن » وكانوا قد طلبوا الى الدكتور اسكندر جولدنويزر أن يدرس لهم علم نشأة الانسان[1] انهم كانوا يعالجون مسائل المدنية ، ووراثة الخصائص المكتسبة ، وحرية الارادة والتقديس والتقاليد الدينيــة للشعوب الفطرية ، والاباحة والتحريم ، والعرف الاجتماعي ، وقيمة العادة ، وغير ذلك من المسائل التي تؤجل عادة لفرق اكثر رشداً

ومع هذا فليس اولئك الاطفال بمعجزات او خوارق من الناحية العقلية ، ولكنهم مجرد صبية وبنات لم تقمع فيهم النزعة الفطرية للاستطلاع ، ولم يخمد فيهم الميل للتفكير . فلكي يفكر

(1) Anthropology

الانسان لا يكفي ان يجلس ساكناً ويمتص العلم من فم مدرس . ان الطفل لا يتعلم المشي بأن يأتي شخص تام النمو فيخبره كيف يمشي ، ولا باعطائه وصفاً فنيًّا للتوفيق الحركي الذي تنطوي عليهِ هذه العملية ، بل انهُ حين يؤون الاوان يعلم نفسه بالمحاولة والخطأ والتخبط والوقوع كيف يتزن ، وكيف يدفع قدماً قبل اخرى

وكذلك الحال في تلك المدارس الحديثة تعطي للاطفال كل فرصة ليكشفوا الاشياء بانفسهم . ومن الوسائل الوثيقة الاكيدة لتحقيق ذلك امدادهم بكثير من الادوات التي يستطيعون بوساطتها ان يعيدوا ويحيوا تجارب سابقة ، وبذلك يضعون اساساً لمواصلة بحث جديد . وحقًّا لا شيء أوضح تمييزاً لهذه المدارس الحديثة عن القديمة من استعمال الادوات . ففي المدارس التقليدية تجد غرف الدراسة فضاءً خرباً من الادراج وألواح الكتابة والمواد المستعملة قاصرة على الورق والاقلام والكتب وحتى في رياض الاطفال تجد المواد محدودة واستعمالها مقيداً بقيود . اما في المدارس الحديثة فان الاطفال الى أعلى الفرق يحاطون بعدد كثير من الاشياء المتنوعة ليشتغلوا بها ككتل خشبية ، وأصباغ ، وأقلام تلوين ، ومناسج ، وطين ، ورمل ، وخشب ، وقوارب ، ومكابس طبع ، وآلات كاتبة ، وأدوات للعلوم الطبعية ، وأطقم مسرحية ، وآلات خياطة ، ومعدات كهربائية ، وكل ضرب من الآلات الموسيقية — وأن بيان الادوات في احد الكتب التي تصف تجارب التعليم ليشغل عدة صفحات بالخط الصغير . وللكتب مكانها الذي تستحقهُ بين الادوات كمصادر للمعلومات تكمل ما اكتسب بالاختبار الذاتي اولاً . وكمراجع ذاخرة يرجع اليها

ماذا يكون إذن متى ترك الطفل لشأنهِ دون ان تملى عليهِ اوامر ، وترك مع ادوات كتلك ؟ اذا لم تكن بهِ موانع وجدانية ، وكان سليم البنية بحيث يؤدي وظائفه الطبعية بلا شذوذ ، فنحن في أمان من الخطأ اذا قلنا ان استعماله لتلك الادوات سيكون ابتكاريًّا . راقب طفلاً في الثانية من عمره يرص كتله الخشبية فاذا لم يفسد عليهِ محاولاته الاولى من هو اسن منهُ بتفهيمه عن غباوةٍ كيف يعمل ، فانهُ بلا عناءٍ يرتبها في اشكال ليس حظها من الاتزان والتناسب قليلاً . دع طفلاً وحده ومعهُ الوان او اقلام تلوين وصحائف كبيرة من الورق تجده بعد فترة من التلويث والعبث يبدأ يرسم أشياء مدهشة ، مدهشة في الشكل والتلوين . وحتى لو لم تكن لمنتجاتهِ معنى لدى شخص راق فانها له كطفل ذات معنىً ودلالة . لقد اطلعت بنت في الثالثة من عمرها احد الزوار حديثاً على رسم لرجل رسمتهُ فصاح بها الزائر انهُ لرجل مضحك ، لانهُ ليس له الاَّ رجل واحدة ، فاحمرت الفتاة خجلاً لنقدهِ ، ولكنها لحسن الحظ ثبتت في موقفها وقالت : نعم هذا هو نوع الرجل الذي اردت أن يمثله الرسم

حقيقة ان المدارس الحديثة تواجه مسائل كثيرة لم تحل ، وليس اقلها الضعف البشري العادي الذي يدفعنا الى أن نستبدل باسم الحرية استبداداً جديداً باستبداد قديم . فكثير من المدارس

الحديثة تميل الى اعتبار بعض المبادىء الاجتماعية أو البسيكولوجية اكثر حرمة من الطفل ، وفي كثير منها تقدم فكرة المجتمع المستقبل — وهي محض فكرة معنوية — على كل اعتبار آخر . فالمنهج مصبوغ بالصبغة الاجتماعية ، وكل المجهودات تميل الى جعل الطفل شريكا فطناً في الديمقراطية الاجتماعية المستقبلة . ولهذه الغاية تعطى للطفل موضوعات لا نهاية لها تتصل بنظام الصناعة والحكومة الحديثتين — وهى نوع من التربية الوطنية المضخمة ترمي الى تحويله الى ضرب من الانسان الميكانيكي مصبوغ بصبغة المجتمع من المحقق أن يتعاون بهدوء وكفاية مع رفاقه . وآخرون من دعاة الحرية منهمكون في غرس عادات فيمن هم مردٌ صغار يتعثرون في مشيهم ، عادات لا ندري ان كانت تحد قوى البداهة والاستقلال والابتكار أو لا تحدها . وآخرون يغالون في قيمة «التركيز الوجداني» و«العقد» الى حد غير معقول . وبعض هذه الاخطار قد اشير اليه بالتحديد في هذا الكتاب ، ومع أن هذه العيوب خطيرة ، وقد تزداد خطورة كلما تضاعف عدد المدارس التجريبية ، فاننا لم نصل بعد الى الفوز ولو بقليل من حرية العمل في المدارس العادية . ومع أن عدم التقيد بالمراسم في فصول الدراسة آخذ في التزايد فان الكثرة من الأطفال لا يزالون ضحايا نظم قاهرة تشبه كثيراً ما جاء وصفه في الفصول الاولى من هذا الكتاب . ولم يتقدم قليل من المدارس العامة الى مثل ما وصلت اليه المدارس النموذجية المحافظة كمدرسة هوراس مان ، ومدرسة الثقافة الخلقية التي يجيء وصفها في الفصل التاسع . ويكاد جمهور المدرسين في أنحاء هذه البلاد لا يعلمون شيئاً عما أدته مدرسة لنكولن [1] من الخدمات في وضع المنهج على أساس علمي . ولا تكاد تشق مدارس جاري ودالتون لنفسها الطريق الاّ ببطء مجهد ، مع أنه من السهل التوفيق بينها وبين ظروف المدارس العامة . وفي حالات قليلة فقط أنشئت فصول في المدارس العامة — ولم تعمل طويلاً في الغالب — لتجربة مبادىء انقلابية ، منتهجة السبل التي اقترحتها هيئات ، كمدرسة المدينة والريف ، ومدارس والدن في مدينة نيويورك [2]

رأى زعيمة هندية

سئلت احدى زعيمات النهضة النسائية في الهند عن رأيها في اتجاهات المرأة الالمانية الحديثة الى البيت وفقاً لفلسفة النازي الاجتماعية فقالت : ان الشرق على ما ارجح سوف يكون اقل تأثراً من الغرب بحركة المرأة الالمانية . فهذه الحركة تطرف في الناحية الاخرى من نهضة المرأة الحديثة والغرب اقرب الى الاخذ بالحركات المتطرفة من الشرق . اما نحن فسوف نمضي في اخراج نسائنا من البيت ولو تبعتم انتم اثر المانيا واعددتموهن اليه »

(١) مدرسة نموذجية تابعة لكلية المعلمين في جامعة كولومبيا
(٢) سيأتي وصف نظم هذه المدارس في الفصول القادمة (الكلام راجع الى كتاب : ضحايا الاطفال)

مقال صحي يهني مقبر

درة البول عند الاطفال

أسبابها وعلاجها

للدكتور عبده رزق

من اكثر انواع التبول قهراً عن الانسان واعمها حدوثاً هو سلس البول في الأطفال الذي غالباً ما يكون في أثناء الليل عند ما يكون الطفل نائماً . وهي علة كريهة مزعجة ، وابتداؤها يرجع احياناً الى الايام الاولى بعد الولادة ، لكنها لا تظهر عادة الاّ بتقدم الولد قليلاً في السن . وفي بعض الاحيان نراها تصيب البالغين ايضاً

واكثر الاصابات بهذه العلة يكون من السنة الثالثة الى السنة الرابعة عشرة ثم تقل تدريجاً بعد ذلك . أما اذا أتى دور المراهقة ولم يشف المريض منها فتستمر اذ ذاك حتى دور الكهولة او احياناً ما بعده ، وفي هذه الحالة لا بدّ ان يكون هناك سبب مرضي

ومن الاطفال من يتبول ليليّاً مرة واحدة أو مرات كثيرة في الليلة نفسها وآخرون يتبولون ليلة واحدة من آن الى آخر . وفي أحيان اخرى يكون هذا التبويل متتابعاً أي ان العلة تظهر مدة ٨ ليال أو خمس عشرة ليلة متوالية ثم تزول حيناً من الزمن ثم تعود بعدئذٍ من جديد الى ما كانت عليه قبلاً . وهذه الحالات تكون مصحوبة أحياناً باضطرابات التبول نهاراً تارة من كثرة عدد هذا التبول أو من عدم تفريغ المثانة تفريغاً تامّاً . لكن في حالات المرض المألوفة تقتصر الاضطرابات المذكورة على وقت النوم ليلاً

***

ومما يجدر ذكره هنا هو أن الحمى التيفية والحميات الناتجة عن البثور الجلدية كثيراً ما تعمل على توقيف المرض وقتيّاً ، ان لم تقطعه تماماً في بعض الاحيان . كما أنهُ لوحظ الشفاء منهُ فجأة في بعض أدوار الحياة ، سواء اثناء بروز الاسنان ، أو في سن البلوغ ، أو وقت ظهور الطمث ، أو ايضاً في الزواج ، كذلك بعد الوضع الأول . لكن ذلك لا يعني انهُ يجب الركون الى هذه الحالات الفسيولوجية للشفاء من تلك العلة المزعجة بل من الحكمة وسداد الرأي الاهتمام بأمرها والتخلص منها بالمداواة الجلدية

والاصابات بدرة البول اكثر بين الذكور منها بين الاناث . وقد لوحظ حدوثها على السواء عند الاولاد البدينين وأشداء البنية مثلها عند الضعفاء والعصبيين . وهذه العلة كثيراً ما تكون

وراثية وتشاهد في أفراد العائلات وارثي داء الزهري أو ذوي الاستعداد لبعض الامراض العصبية كالصراع او الخبل مثلاً

أسبابها

تنشأ أسباب هذا المرض احياناً عن التكاسل عن النهوض من الفراش ، وغالباً عن تهييج المثانة أو صغر حجمها عند الطفل او وقت وجود حصاة فيها . ومن الجائز أن يكون منشؤه أيضاً عدم التوازن بين أعصاب الطفل المختلفة التي تسيطر على فتح المثانة أو غلقها ، أو شلل يصيب الصمام أو العضل الذي يغلق هذا العضو . وقد يكون السبب أيضاً نتيجة لمرض في الدماغ أو النخاع الشوكي أو السكر أو ايضاً وجود سرطان في المثانة ، فيعمل على تقلصها وانقباضها كلما وصل اليها البول من الحالبين . وثمة شيء لا ينكر هو أن زيادة حموضة البول الناتجة عن تناول الاطعمة الحارة أو الملهبة تكون سبباً مهمًّا لظهور المرض وهكذا قل عن الافراط في شرب السوائل في الساعات الأخيرة قبيل النوم وخاصة اللبن الحليب أو الحليب والقهوة معاً وقت طعام المساء

عدا ذلك فأمراض الكلى تلعب من هذا القبيل دوراً خطيراً . وقد شوهد حدوث ذات العلة عند الفتيان المصابين بتضيق فتحة الفلقة وكذلك عند الفتيات المصابات بالتهاب الشفرين الناتج عن الاهمال في النظافة . وقديكون سبب ذلك أيضاً وجود ديدان دبوسية في القسم الأسفل من المعى الغليظ . أو اورام صغيرة أو سليلة في الانف التي من شأنها أن تعيق التنفس وتسبب بذلك تسمماً بحمض الكربون — تسمم ناتج عن نقص في تجدد الغازات بين الدم والهواء في الرئتين مما يؤول الى نوم عميق جدًّا بحيث تكون حاسة الطفل او حاجته الى التبويل غير كافية لاستيقاظه

أنواعها

ودرة البول تكون على ثلاثة أنواع :—

١ — درة البول التي تنتج عن التهاون في النهوض من الفراش

٢ — درة بول الطفل الذي يبقى نائماً فيبلل ثيابه وفراشه بدون وعي

٣ — درة بول الطفل الذي يحلم انهُ يبول مثلاً على حائط أو في وعاء فيبلل أيضاً فراشه من دون أن يشعر بذلك أيضاً

ومن ذلك نستنتج ان هذه العلة تظهر عادة في الدور الاول من الطفولة . والنقطة المهمة التي يجب التنويه بها هو ان كل ولد بلغ السنتين او السنتين والنصف وهولا يزال يتبول ايضاً في فراشهِ فمداواته ضرورية بلا ابطاء . وبوجه عام هذا التبويل لا يكون الاّ في الساعات الاولى من الليل او قرب الصباح ومقدار البول وافرٌ في الغالب وفي بعض الاحيان يشعر الولد انهُ يتبول في فراشه ويحاول ان يمسك نفسه لكن بعد فوات الوقت

علاجها

قبل كل شيء لا يجوز ضرب الولد وتعنيفه لهذا السبب . بل تحريضهُ فقط بكلام فعال لان المعالج او احد الوالدين ينال بعبارات التحريض والتشجيع اكثر مما ينال بعبارات التهديد والارهاب بعد هذا علينا الاستقصاء عن سبب هذه العلة او اسبابها ومداواتها جديًّا مع العلم انهُ لا بد من المثابرة وطول الاناة للحصول على الغاية المبتغاة . عدا ذلك يقتضي استعمال الوسائط الصحية التالية:

١ — منع الولد عن النوم حالاً بعد طعام المساء وليكن تناول هذا الطعام باكراً

٢ — الزامه بتفريغ المثانة قبل النوم ووضع وعاء صغير عند فراشه ويوقظ نحو نصف الليل ليبول

٣ — منعهُ شرب الماء مطلقاً من العصر فصاعداً وخصوصاً من شرب الحليب أو القهوة والحليب معاً او الشاي ايضاً — وقت طعام المساء او حمله على تقليل ما يشرب منها

٤ — العمل على تدريب المثانة وزيادة تحملها وذلك بتعويد الولد حبس البول ما امكن خلال ساعات النهار

٥ — ايقاظ الولد ليليًّا لتبويله مع تأخير ساعة هذا الايقاظ في كل مرة وبذلك يتوصل الولد اخيراً الى تمضية الليلة من دون ان يبول في فراشهِ

٦ — اذا كانت درة البول ناشئة عن ضعف في صمام المثانة فيلجأ الى الغسل بالماء البارد صباحاً في الصيف او الى استعمال الكهربائية « التيار الفارادي او التيار المتصل او التيار المتزن »

كما انهُ يستحسن وقت تنويم الولد ان يكون مقعده مرتفعاً اكثر من بقية انحاء جسمه وبذلك تمتلىء المثانة قبل وصول البول الى عنقها . لان وجود هذا البول في القسم الخلفي من المجرى البولي، اي في منطقة الموثة ، يسبب تهيجاً فيهِ من شأنهِ ان يفرغ المثانة ليلاً رغماً عن الولد . وابسط طريقة الى تحقيق هذه الفكرة هو ان تكون رجلا السرير مرتفعة نحو ١٠—١٢ سنتمتراً فاذا قرنت هذه الطريقة باستعمال الوسائط المبينة اعلاه تزول حينئذٍ تلك العلة في خلال ٤٠ الى ٦٠ يوماً . وقد جربها كثيرون من الاطباء فأسفرت عن نتائج مرضية

واذا لم تكف هذه الوسائط يعطى البلاونا بمقادير متزايدة . والانتبيرين والبرومور . وخلاصة الجوز المقيء مرتين في اليوم لولد بين السنة الثالثة والسنة الخامسة عشرة . كذا الصبغة العطرية Aromatica ٢٠ — ٣٠ نقطة وقت النوم ليلاً . وفي حالة حموضة البول الشديدة يعطى الولد ايضاً في اوقات الطعام بيكاربونات اشترات الصوديوم . اما اذا كان البول قلويًّا فالشفاء يحصل باستعمال الحامض الفوصفوريك وقد نصحوا ايضاً بوضع حراقة على اسفل الظهر

فنستنتج من ذلك ان هذا المرض يتطلب كثيراً من العناية والصبر توصلاً الى انقاذ الولد من علة وان لم تكن بحد ذاتها خطرة لكنها ذات نتائج وبيلة اجتماعية وادبية

باب المراسلة والمناظرة

ارشاد لغوى

فى كل جزء كلمة

للاستاذ عبد الرحيم بن محمود

الحمى الوبيلة أو الأجمية « الملاريا »[١]

أطوار الحمى الوبيلة أو الأجمية :

(ا) الرَّسُّ — أول ما يجد الإنسان مسَّ الحمى قبل أن تأخذه وتظهر — ويقابل الرَس باللغة الانكليزية (prodroma)[٢].

(ب) العُرَواء — (Rigor) اذا أخذته لذلك قِرّة ووجد مسَّها

(ج) الرُّحَضَاء (perspiral stage) إذا عرق من الحمى ويقال للمريض مرحوض وقد عنى المتنبي المادح هذا الطور فى مقام حسن التعليل لجود الممدوح وهو هرون بن عبد العزيز الاوراجيّ الكاتب مبالغاً فى قوله

لمْ تحكِ نائلَك السحابُ وإنما　　حُمَّتْ بهِ فصبيبُها الرُّحضاء[٣]

(د) البُرَحاء وهى شدة الحمّى (Fever in its acme)

---

(١) قد سمى الشيخ ابرهيم اليازجى (الملاريا) بالحمى الوبيلة وبالحمى الاجمية وقد أصاب كل الاصابة فى تسميتها بهذين الاسمين وقد تبعته مذ كنت أدرس فن تدبير الصحة بمدارس المعلمين والمعلمات الاولية من سنة ١٩١٠ م الى سنة ١٩٢٢ م وأيدنا الاطباء الحذاق عشاق اللغة العربية في هاتين التسميتين

(٢) أخذت الالفاظ الانكليزية التى فى هذا المقال عن صديقى الطبيب سامى الياس

(٣) النائل العطاء . الصبيب الماء المصبوب . والسحاب اسم جنس يذكر ويؤنث (ادعى المتنبي أن علة نزول الامطار من السحاب على الارض هى عرق حماها بعطاء هرون لانه جعل نواله أكثر من نوال الغمام فاصابتها الحمى حسداً) . والمعنى ان السحاب لا تقصد محاكاة جودك بمطرها لان عطاءك المتتابع أكثر من مائها وأغزر ولكنها حمت حسداً لك فالماء الذي ينصب منها هو عرق تلك الحمى

أنواعها :

(١) حمّى مستديمة وهي التي تأتي كل يوم ويقال لها المُطْبِقَة اذا لم تقلع

(٢) الغِبُّ أن تأخذ المريض يوماً وتدعه آخر ويقال لها ايضاً حمى ثلاثية لأنها تأتي المريض يوماً وتدعهُ يوماً وتأتي ثالث يوم (Tertian)

(٣) حمّى رِبْع وهي أن تأخذهُ يوماً وتدعهُ يومين ثم تجيء في اليوم الرابع (Quartan Malaria) ويقال رَبَعت على فلان الحمى أي جاءتهُ رِبْعاً وأربعتْ عليه وقد رُبِعَ كعُني فهو مربوع وأُرْبِعَ فهو مُرْبَع فإذا دامت مع الصداع أو الثقل في الرأس والحمرة في الوجه وكراهة الضوء فهي البرْسام أو البِلسام وليست الحصبة وإن أشبهتها في كثير من الاعراض

توجيهات :

(١) الوعْكُ أذى الحمّى ووجعها في البدن ويقال رجل وَعِكٌ وموعوك

(٢) الوِرْد يوم الحمّى وقد وردته أو الورد الحمى النائبة كل يوم

(٣) القَلَع. حين تقلع الحمى أي تفارق المريض

(٤) القفقفة (Chill) صوت المحموم من الرعدة او إذا اضطرب فكاه واصطكت أسنانه وفعله قَفْقَفَ

(٥) الحلأ — الحَرُّ الذي يخرج على شفة الانسان عقب الحمى الوبيلة (Herpes)

(٦) الحمى الصالب هي التي تُسيل العرق الغزير وقد صلبت على المريض إذا اشتدت حرارتها ولم يكن معها برد . وقد رأى صديقي الطبيب سامي الياس أن الحمى الصالب هي (الملاريا) لان وصفها يشتمل على أظهر أعراضها ولكني آثرت تسميتها بالوبيلة أو الأجمية على تسميتها بالحمى الصالب (٤) لأن الشيخ ابرهيم اليازجي قد اختار (للملاريا) الحمى الوبيلة أو الحمى الأجمية وقد رأيت من صديقي الطبيب محمد عبد الحميد بك موافقة تامة على تسمية اليازجي مذ كنت في قليوب معهُ من سنة ١٩١٢ إلى اليوم وإني أثق كل الثقة بالطبيبين الفاضلين كما أثق بما نقلته عن علماء اللغة ومن شأني أن أعز شأن الفاضلين وأنسب الفضل إلى ذويه وهذا جناي وخياره فيه إذ كل جان يده إلى فيه

(٤) لم يخطىء الطبيب سامي الياس تسمية (الملاريا) بالحمى الوبيلة أو الاجمية ولكنه يرى ان اللفظ الذي وضعته العرب — الحمى الصالب — أولى بالتسمية

أمراض وأعراض بوزن فعال

محرر المقتطف الفاضل

للاستاذ عبد الرحيم بن محمود فضل بين على اللغة العربية ببحوثه النفيسة المتتابعة على صفحات المقتطف ونشره الفاظاً فصحى يود الى العلماء والادباء احياءها باذاعتها في مؤلفاتهم وكتاباتهم فهو من البحاث الذين يقومون بقسطهم من خدمة لغتهم ولو كان كل علماء اللغة نصفة نشاطى لها غَيُوراً على نموها وازدهارها لما تركوا الوفاً من الالفاظ الفصيحة مهملة في مثاني معاجمها وهناك عشرات في الامصار العربية ممن احاطوا بأسرارها ووقفوا على فصحها ووفق بعضهم الى معرفة اصول كثيرة من الفاظها وكلهم آلون على رفع شأنها واصلاح ملاغيها لو شاءوا ولكنهم لامر ما مهملون واجبهم البنوي بيد ان بعضاً منهم يقومون بقسطهم من الخدمة على عزلة متجنبين سبل النشر مخفين علمهم ونتائج بحوثهم وكان يخلق بهم ان يذيعوها ليستفيد منها اخوانهم ويعمموها فأنا لذلك اثني على همة الاستاذ عبد الرحيم وأستأذنه باضافة بعض اسماء الامراض مما جاء على زنة فُعال تتمة لبحثه راغباً اليه ان يطلعنا على ما يقابلها بالافرنجية فاني اجهل ذلك ولا اجد امامي من الاطباء من استطيع الركون اليه في هذا البحث واني له سلفاً من الشاكرين واما الالفاظ فهي :

الرُداع : وجع الجسد اجمع وقيل النكس ، والغُثار : ابتداء الغشوى ، والهيام : داء يصيب الابل من ماء تشربه مستنقعاً فتهيم في الارض لا ترعى وقيل هو داء يصيبها فتعطش فلا تروى وقيل داء من شدة العطش ، السُهاف : العطاش ، والبوال : داء يكثر منه البول يقال اخذه بوال اذا جعل البول يعتريه كثيراً ، والسكات داء يمنع من الكلام تقول اصابه سكات ولعله بمعنى السكتة الداء الذي تتعطل به الاعضاء عن الحس والحركة الاّ التنفس ، وبمعنى السباه وهو سكتة تأخذ الانسان ، والعُساف : داء يأخذ الابل من الغدة وقال الاصمعي « قلت لرجل من اهل البادية ما العُساف قال حين تقمص حنجرته اي ترجف من النفس وهو للابل كالنزع للانسان ، والقُشاع داء يؤيس الانسان والبطاح مرض يأخذ من الحمى وروي عن ابن الاعرابي ان البطاح هو المرض الشديد والمِلال : وجع الظهر — والنقاب مرضاً او وجعاً يقال اخذه النملان — وعرق الحمى ، والغُضاب : داء يصيب بصر الانسان يقال غضب بصر فلان على المجهول اذا انتفخ من داء يصيبه — وقيل هو الجدري فهو رجل مغضوب ، والجحام داء في العين يصيب الانسان فترم — وداء في رؤوس الكلاب فتكوى من بين عينيها ، والمُضاض : وجع يصيب الانسان في العين

والسُؤاد : داء يأخذ الانسان والابل والغنم من شرب الماء الملح ، والسُواد : داء في الاسنان — وصفرى في اللون — وخضرى في الظفر وفي الانسان السوَاد بالفتح صفرى في اللون تصيب القوم من الماء الملح

والقُداد : وجع في البطن . والرُّماع داء في البطن يصفر منهُ الوجه — ووجع يعترض في ظهر الساقي حتى يمنعه من السقي ، والشُّفاف : وجع البطن أو وجع شفاف القلب — وداء يأخذ تحت الشراسيف من الشق الأيمن ، والقُضَاع : وجع في بطن وتقطيع فيه وهو من الابدال اي من الانقطاع والتقطع ، وسمي ايضاً القَضْع والتقضيع ، والجُحَام داء للابل وغيرها من الدواب يعرض من رعي النشر .وقال الهجري في نوادره انهُ داء يصيب الابل من الندى بأرض الشام يأخذها ليٌّ في بطونها ، والحُبَاطُ داء يعرض للابل وهو وجع في البطن من كلأ تستوبله ويسمى الحَبَط ايضاً

والظُّلاع داء في قوائم الدابة لا من تعب ولا من سير ، والعُقَاف والقُفاع داء في قوائم الشاء تعوج منه وهي شاة عاقف جمع عواقف ، والقُوَام داء يأخذ في قوائم الدابة تقوم منهُ فلا تنبعث ،

والقُفَاص : داء يصيب الدواب فتيبس قوائمها وقال الامير مصطفى الشهابي « كل التحام يحصل في مفاصل الدابة في اي موضع كان من قوائمها بسبب ظهور زوائد عظمية يسمى القفاص ولعلهُ بالفرنسية Fausse anhylose

والرُّحام : داء في الرحم

والنُّحاز : داء للابل في رئتها تسعل بهِ شديداً

والحُكاك : الجرب او داء يُحكّ منه ، والحُصَاص : الجرب لانهُ يتمعط من الشعر ويتناثر

والدُّغام : وجع الحلق ومثله الذُّباح والذِباح والحُلاق

والدُّكاع : داء يصيب صدور الخيل والابل قال القطامي :

ترى من صدور الخيل زوراً كأن بها نحازاً او دُكاعا

والسُّواس : داء في اعناق الخيل ييبسها

والقُعاص : داء في الصدر كأنه يكسر العنق — وداء في الغنم لا يلبثها ان تموت وفي الأساس «اصاب الغنم والناس قُعَاص داء يقعصهم ، اي يقتلهم مكانهم .وقد قعصت الشاة اذا اصابها القعاص»

والنُّقَاز : داء الماشية شبه الطاعون تنقز منه حتى تموت مثل النزاء ، والذُّباب : الطاعون

والقُحَال : داء يصيب الغنم فتجف جلودها فتموت

وقُلاع الاذن : شقاق يعرض في اصل الاذنين يرشح بالمدة والماء الاصفر ، القُلاع ايضاً بثرات تكون في جلدة الفم واللسان ، والنُّكاف : وجع يأخذ في الأذن — وقيل ورم يأخذ نكفتي البعير وقيل داء في حلوقها يقتلها قتلاً ذريعاً فلعله Mumps

والهُناع :داء يصيب الانسان في عنقه ،والقُماس التواء يأخذ في العنق من ريح كأنها تهصره الى ماوراءه

واللدُود : وجع يأخذ في الفم والحلق ، والخُنان داء يأخذ الطير في حلوقها

والحُماق:شبه الجدري يصيب الانسان فيتفرق في الجسد ، وقد حمِق فهو محموق

والفُقاس : داء في المفاصل ، والحُمال داء في مفاصل الانسان وقوائم الحيوان يظلع منه وقد

حُمل فهو محمول وقالوا قَفَس قُفَاساً اذا اخذه داء في المفاصل كالتشنج

والكُناع : قصر اليدين والرجلين من داء على هيئة القطع والتعقف يقال بها كُناع (التاج)
والشُقاق : تشقق يصيب ارساغ الدواب وربما ارتفع الى وظيفها [١] وتقول بيد فلان ورجله شقوق ولا تقل شقاق ، واليُداء : وجع اليد وقد يدي من يده اذا ذهبت يده وليست يقال ما له يدي من يده وهو دعاء عليه كما يقال ما له تربت يداه (الصحاح)

والنفاص : داء في الشاء تنفص بابدالها حتى تموت يقال اخذ الغنم النفاص ، وقد اطم الرجل اذا احتبس بوله من داءٍ يلم بهِ ، وأُطم عليه عسر عليهِ بروز غائطه واحتبس بوله فهو مأطوم ، وكذلك اوتُطم عليهِ اذا اصابه الأُطام وهو احتباس البول او تعسر بروز الغائط

والكُتاف : وجع الكتف وقد كتف الدابة اذا اشتكى كتفه وظلع منها ، والخُرام فساد يعرض في جانب الكتف

والخُلاع شبه خَبَل يصيب الانسان ، والخُباط داء كالجنون وليس بهِ ، والخُراع جنون الناقة — وانقطاع في ظهرها تصبح منهُ باركة لا تقوم

والقُعاد : داء يُقعد من أُصيب بهِ — وداء يأخذ في ادراك الابل فيميلها الى الارض ،

والذُبل : النقابات وهي قروح تخرج في الجنب فتنقف الى الجوف

والشلاق بثر يخرج على اصل اللسان وقيل تقشر في اصول الاسنان Pyorrhoae

والحُمام : حمى الابل وجميع الدواب ،

والقُلاح : حفرة الاسنان — وخضرة بين اسنان البعير

ومما يلحق بالادواء الادوية فكثير منها على وزن فعول : كالسعوط وهو الدواء الذي يُستعط ، والنَشوق وهو كل دواء ينشق مما له حرارة او يدني من الانف ليجد ريحه وحره . والسفوف وهو كل دواء يؤخذ غير ملتوت او معجون ، والسهول : الدواء المسهل ، والاجور وهو الدواء يوجر اي يصب في الفم ، والنشوع وهو بمعنى الوجور ، والعقول وهو الدواء يعقل البطن اي يمسكه ، والحنوط وهو كل دواء يمنع الفساد ، والذَرُور وهو ما يذرُّ في العين وعلى الجرح ونحوه ، والدَقوق وهو دواء يدق للعين واللدود وهو ما يصب بالمسعط من الدواء في أحد شقي الفم ج الدّة ، والغرور وهو ما يتغرغر بهِ من الادوية ، والقشور وهو دواء يقشر بهِ الوجه ليصفو لونه ، والقيوء وهو الدواء يشرب للقيء . واللزوق وهو دواء للجرح يلزمه حتى يبرأ ومثله اللصوق ، واللعوق وهو ما يلعق من الادوية ، والسنون وهو الدواء اليابس المسحوق الذي تدلك بهِ الاسنان

سالم خليل رزق — النبك سورية

(١) قال الشهابي هذا الداء تسميه العامة الجلفام وهو بالفرنسية Yavart cutané

حول ارشاد لغوي

مستشفيات صيغة صحيحة

يشكر الاستاذ عبد الرحيم بن محمود فيما قام به من نشر مباحثه اللغوية الاصلاحية الثمينة وحسناً فعل بنشرها في المقتطف لانها المجلة العلمية الادبية الوَحِيدة التي يفاخر بها الشرق الناهض. وفي جزء فبراير ١٩٣٥ من المقتطف بحث ممتع من تلك البحوث المفيدة بعنوان «المستشفى» أجاد فيه كاتبه اللغوي اذ اوضح فيه ان «المستشفى» هي الكلمة العربية الفصيحة التي يجب ان تحل محل «اسبتالية» الدخيلة

وفي اثناء هذا البحث حاول الاستاذ القاء المؤاخذة بالخطأ على من يجمع المستشفى جمع مؤنث سالماً فيقول «مستشفيات». وفيما يلي تلخيص حججه التي بنى عليها هذا الرأي : —

١ — ان الف المستشفى لام الكلمة وليس للتأنيث ، فهي مثل باء «مستغرب»

٢ — إنه لا يصح ان يراد بالمستشفى : بقعة الاستشفاء فيجمع حينئذ على مستشفيات لعدم صحة ان يقال . «هذه منزل» . وقال لم ينطق بهذا عربي ولا مستعرب

٣ — انه سداسي وليس خماسيًّا كأصطبل حتى يصح جمعه جمع المؤنث السالم . هذه خلاصة دلائل الاستاذ التي بنى عليها رأيه في تخطئة صيغة «مستشفيات» اما نحن فسنقوم بايضاح صحتها تمحيصاً لحقيقة لغوية هامة . والمأمول من رئيس تحرير المقتطف ان لا يضن بنشر بحثنا هذا لان العبرة بما قيل لا بمن قال . نعم يا حضرة الاستاذ ان الف مستشفى هي لام الكلمة كما ذكرت وليست للتأنيث . وبما ان «مستشفى» يصح ان يكون وصفاً وبما ان هذا الوصف هو لما لا يعقل اي المكان المستشفى فيه ، فقد نص علماء النحو والصرف على صحة وقياس جمع اشباهه بألف وتاء [1] فيقال مستشفيات كما يقال في جمع «مرتب» مرتبات

اما نفي الاستاذ لصحة ارادة بقعة الاستشفاء بالمستشفى فهو نفي ننفيه ، ونفي النفي كما يقولون اثبات . فقد ورد في كتاب مغني اللبيب عن كتب الاعاريب لابن هشام الانصاري انه يصح مثل ذلك وقد نطق بهِ العرب ، لانه من باب التضمين . ولا خلاف في جوازه في الاسماء فتقول اتتك كتابي مريداً اتتك صحيفتي او رسالتي [2] كما يصح ان تقول «هذه منزلي» قاصداً به «هذه داري» ولا دليل للاستاذ على تخطئة «هذه منزلي» — في قوله تعالى «وقل ربِّ انزلني منزلاً مباركاً» لان الآية جاءت على غير التضمين وهو الاصل . مما شرح يتضح ان صيغة «مستشفيات» هي صحيحة من هذه الناحية ايضاً . اما ان المستشفى سداسيٌّ لا خماسيٌّ فهو صواب، ومما سبق ايضاحه بينا ان ذلك لا يمنع من صحة جمعه على مستشفيات وبناء على جميع ما تقدم فلا حق للاستاذ في تخطئة «مستوصفات» في جمع مستوصف ايضاً

المدينة المنورة　　　　عبد القدوس الانصاري

---

(١) انظر الصبان على الاشموني «ج ١ ص ٧٣» (٢) ونص ما في المغني «ج ٢ ص ١٧٢ طبع المطبعة الشرقية بمصر» : — ولقد حكى ابو عمرو بن العلاء انه سمع شخصاً من اهل اليمن يقول «فلان لغوب اتته كتابي فاحتقرها» فقال له كيف قلت اتته كتابي ؟ فقال : اليس الكتاب في معنى الصحيفة ؟

عود على بدء

أشكر للأستاذ الفاضل عبد القدوس الانصارى المدنىّ لما أسداه إلىّ من شكر وحمد لبحوثى اللغوية التى طابت بقراءته إياها فى « طيبة » حيث رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جدّى الذى أنتمى اليه نسباً وحسباً وديناً ولغةً . وأرجو أن يستذكر هذا الرد الموجز فيذكره

لا يصح أن يكون المستشفى الذى هو مكان الاستشفاء وصفاً لمذكر غير عاقل حتى يجمع على مستشفيات كما يقال معادن مستخرجات والمفرد معدن مستخرج وكما يقال أشياء مرتبات والمفرد شيء مرتب وقد يحذف الموصوف ويكتفى بالصفة إذا اشتهرت كواجبات جمع واجب (التقدير شيء واجب أو أمرٌ واجب) قال الناظم فيما ينقاس فيه جمع المؤنث السالم

وقسه فى ذى التا ونحو ذكرى ودرهم مصغر وصحرا
وزينبٍ ووصف غير العاقل وغيرُ ذا مسلّم للناقل

فوصف ما لا يعقل يجمع جمع مؤنث سالماً غير منازع ولا ينظر إلى عدد حروفه فقالوا جبال شامخات والمفرد جبل شامخ فشامخ وصف للجبل جمعوه على شامخات . وأيام معدودات والمفرد يوم معدود وقد أشرت إلى هذا فى مقالى بمقتطف فبراير ١٩٣٥ م فقلت (وإن عاملتَ ما زاد على الخمسة معاملته فى الجمع فليكن ذلك فى غير ما أشبه هذا) أى أن المستشفى اسم جنسٍ (مثل مسجد وكنيسة وأسد ورجل فتجمع جموعاً مكسّرة فتقول مساجد وكنائس ورجال وأسد أو أسود أو آساد ويصح جمع كنيسة على كنيسات أيضاً لأن المفرد ختم بالتاء) وليس بوصف وكذلك مستوصف فتأمل . وما أغناك وما أغنانى عن التضمين فى هذا المقام وللتضمين البيانى شروط ليس هذا محلها أما التضمين اللغوى في الكلمات الجامدة فمقصور على السّماع لنصونَ عرض اللغة عن الدنس وإلاّ اختلط الحابل بالنابل. وقول الحجة (أتتنى لسان فكذبتها) دليل على أن المراد باللسان الوشاية وإن قيل أتتك كتابى فقد أريد أتتك رسالتى أو صحيفتى وهذا من التضمين اللغوى أى المسموع وقد أورد له علماء اللغة فى ملاغيهم أمثلة معلومة إذ أنه من اللغة ، والاستعارة التبعية — ولا تكون إلاّ فى المشتقات والحروف — من التضمين البيانى المقيس وحسبى أن القرآن ذكّر المنزل وكفى بالقرآن دليلاً [1] فلا يجمع مستشفى إلاّ على مَشَافٍ . والحمد لله الذى وهب لى الرجوع إلى الحق إذا شمت له بريقاً فأعلن الصواب وإن لم يرشدنى اليهِ مرشد فلست من الممارين فى الحق وكفى بالله شهيداً

عبد الرحيم بن محمود

(١) قال ابن الانبارى (واعلم أن جمع غير الناس بمنزلة جمع المرأة من الناس تقول فى منزل منزلات وفى مصلى مصليات) فعلى هذا يجمع مستشفى على مستشفيات ولا يخطىء جمعه على مشاف وقد خالف جمهور اللغويين ومنهم علماء الصرف — وليت الاستاذ الانصارى اطلع على قول ابن الانبارى هذا فردّ به علىّ بدلاً مما أتى به خطأ . على أن ابن الانباري لم يجعل منزلاً مؤنثاً ولا مصلى مؤنثاً ايضاً كما يفهم ذلك من عبارته . وانى أقول رداً عليه ان ورد عن العرب منزلات فهى جمع منزلة لا منزل أما مصليات فجمع مصلاة لا مصلى كمحلات جمع محلة لا محل الذي يجمع على محال

مكتبة المقتطف

حياة محمد

تاليف الدكتور محمد حسين هيكل بك — صفحاته ٥٤٤ قطع المقتطف — طبع بمطبعة مصر

في دور من أدوار الحرب الريفية التي كان يخوض غمارها الامير محمد بن عبد الكريم الخطابي (من سنة ١٩٢١ الى ١٩٢٥) كان في جملة حملة الاقلام الفرنسيين الذين زاروا المغرب لتغذية صحف فرنسا باخبارها كاتبٌ مهذَّب منصف هو المسيو إميل درمنكهام Emil Dermenghem ، فاتصل في محيط المغرب ببعض الشبان المغاربة المثقفين — ومنهم الاستاذ السيد أحمد عبد السلام بْلافريج — فكشف له الاتصال بهم عن حقائق تتعلق بالاسلام ومبادئه وتاريخه وسيرة صاحب شريعته لم يكن اطلع من قبل عليها بمثل هذه الصراحة والوضوح وأسباب الاقتناع . فلما عاد الى فرنسا شرع يدرس حياة صاحب الشريعة الاسلامية ليسبر الاساس الذي يقوم عليه تفكير اكثر امم الشرق من بضعة عشر قرناً الى الآن ، وكان في دراسته منصفاً . وما قد يكون وقع في كتابه من هفوات قليلة يرجع الى خطإ في الاجتهاد قد يتعرض لمثله كل باحث ، ولا سيما فيما يكون بعيداً عن محيطه

حرب الريف كانت الباعث المسيو درمنكهام على تأليف كتابه (حياة محمد[1] La vie de Mohamet) وكتاب درمنكهام كان — بلا شك — الباعث للاستاذ الدكتور محمد حسين هيكل بك على تأليف كتابه بالاسم نفسه

بدأ هيكل بك دراسة حياة محمد (ص) بترجمة فصول من كتاب الاستاذ درمنكهام ونشرها في السياسة الاسبوعية ، وكان يقدر عند ما امسك القلم ليكتب لقراء السياسة الاسبوعية ترجمة كتاب درمنكهام انه سيقف عند هذا الحد وسينتهي بترجمة كتاب فرنسي بالعربية . ولكنه لما سار في عمله شوطاً اعترضته النصوص العربية التي نقل عنها درمنكهام ، والاعلام العربية التي تكلم عليها درمنكهام ، والجوّ الذي كان موضوع كتاب درمنكهام ، فصار لا بدّ للدكتور هيكل من أن يرجع الى النصوص العربية فينقل متنها تفادياً من ترجمتها مع وجود اصلها ، وصار لا بدّ للدكتور هيكل من أن يحقق الاعلام العربية تفادياً من تحريفها عند نقلها من حروف اللاتين الى حروف العرب وامعاناً في معرفة مدلولاتها . وبذلك تحوّلت الترجمة الى تأليف ، وكان من هذا العمل كتاب (حياة محمد) الذي نشره الدكتور هيكل بك على قرّاء العربية فاحتفل به اصدقاؤه وزملاؤه رجال الصحافة والعلم وكان لذلك دويٌّ بعيد

لقد كانت الصحافة العربية في حاجة الى أن يدرس قادتها مثل هذه الموضوعات التي يحج

(1) Librairie Plan, 1929, Paris

المستشرقون الى بلاد مترامية الاطراف ابتغاء درسها والوقوف على احداثها كما وقعت، ويتجشمون في سبيل ذلك جهوداً ونفقات وإعمال فكر قد لا نحتاج نحن الى جزء قليل منهُ لنقوم بعمل أجود من عملهم وأصحّ وأجمل ، ولست ادري لماذا يزهد كتابنا في ذلك وفيه ما فيه من توثيق اواصرهم بالامة التي ينسجون عقولها ويكوّنون رأيها العام ، وستبقى غريبة عنهم ما داموا في معزل عن الاضطلاع بتاريخها وإكمال سلسلة ماضيها حتى يتصل بآتيها

من ميزات التاريخ الاسلامي ان مادته حُفظت بأمانة وعناية وبالرغم مما ابيد منها في حوادث جلاء العرب عن اسبانيا ، وفي حوادث غزوة الصليبيين للشرق ، وفي حوادث اكتساح التتار غرب آسيا ، بل بالرغم مما اضاعه المسلمون انفسهم في عصور الجهل الاخيرة ، فان الذي ورثناه من تركة السلف الادبية كاف لبناء مجموعات في تاريخ هذه الاوطان الاسلامية نباهي بها الامم ، وتتمنى ارقى أمم الارض لو ان امجادنا كانت في صفحات تاريخها ووقائع ماضيها . فالمادة التي يبنى منها صرح تاريخنا موجودة بين أيدينا ، ونحن لا نستطيع أن نعرف قدر أنفسنا في حاضرنا الاّ اذا علمنا قدر أنفسنا في ماضينا، ولا يمكن ان نعين مطمحنا القومي الاّ اذا عرفنا اتجاه قافلتنا في التاريخ . ولدراسة تاريخ هذه الاوطان في بضعة عشر قرناً الماضية أثر عظيم في الروابط بين الاوطان التي تشترك الآن في هذا التاريخ

اهمال كتابنا هذا الواجب كان مما يؤاخذهم عليهِ الجمهور، وقيام بضعة مؤلفين — آخرهم الدكتور هيكل بك — مما يدل على عناية جديدة بالتاريخ الاسلامي وقعَ عند الناس موقعاً حسناً ، لان أمة تملك ثروة عظيمة من امجاد التاريخ لا يعقل ان تبقى الى الابد محرومة من دفاتر حديثة تسجل ثروتها وتعرضها على انظار الاقربين والابعدين

كتبنا القديمة في التاريخ مادة خصبة للتأليف ، بل هي عين ثرَّة وينبوع غزير من ماء عذب زلال لا نظير له في مصادر التاريخ عند الامم الاخرى . فدولة الرومان وهي أقرب الدول القديمة زماناً وأعظمها عمراناً ، وأشهرها تشريعاً ، لو اراد مؤلف أن يدوّن سند شرائعها التي هي اليوم من أهم مصادر القانون الحديث لما وجد شيئاً تطمئن النفس اليهِ يرجع الى زمن تلك الشرائع . وقس على ذلك كثيراً مما لا يتسع المقام هنا لاستعراضه او الاشارة اليهِ

لقد كان الدكتور هيكل بك موفَّقاً في هضم موضوعه والاحاطه بأطرافه ، فأنشأه انشاء افرغ عليه من جمال الاسلوب وحسن التعبير ونظام التبويب والتقسيم ما يحببه الى القارىء ، ولاسيا القارىء الناشىء الذي اعتاد أساليب العصريين ، فصار لا يأنس الاّ بها ولا يستفيد الاّ منها. ولكن لاحظ عليهِ الكثيرون أنهُ ربما لم يفكر الاّ بهؤلاء عند ما دوَّن كتابه

الموضوع الذي اضطلع بهِ الدكتور هيكل بك حياة نبيّ، وحياة الانبياء فيها جانبٌ غير عادي ولا يمكن لمؤلف يتعرَّض للكتابة في حياة نبي أن يغفل هذا الباب غير العاديّ الاّ اذا ألَّف كتابه لفئة دون فئة وأراد أن يكون لاهل مشرب معين لا تأليفاً عامَّا . لان جميع الانبياء ثبت وقوع

الخوارق على ايديهم ، والتوراة والانجيل والقرآن مليئة بذلك ، وجميع امم الارض مصدقة بوقوع الخوارق للانبياء ، وما وقع من ذلك لنبي الرحمة الذي اختصه الدكتور هيكل بك بتدوين حياته ثابت بروايات صحيحة معروفة الاشخاص ، واذا فتحنا باب الشك في قبول روايتهم فتحنا بذلك باب الشك في جميع وقائع التاريخ بل في جميع ما تنقله الصحف الآن من الحوادث العصرية لانه ليس شيء منها اصح سنداً وأصدق شهوداً من هذه الحوادث التي مهما اوّلنا بعضها وخرّجنا بعضها تخريجاً يحولها الى حوادث عادية ، فانه سيبقى بعد ذلك ما لا سبيل الى تأويلهِ وتخريجه ، والاّ لم يكن النبي نبيًّا ويكون مصلحاً أو مرشداً أو قائداً . فجانب النبوَّة في حياة النبي له صفاته ولوازمه ، وله في أي كتاب يؤلَّف في حياة ذلك النبي حقَّـهُ من العناية ، والاَّ كان للكتاب صبغة خاصة يفرغها عليه مؤلفه ويختارها له ؛ وكان للذين يحترمون ذلك الجانب من حياة الأنبياء وهم يعدّون بعشرات الملايين بل بمئات الملايين عذرهم اذا اعتبروا الكتاب خاصًّا لا عامًّا . والمعجبون بكتاب الاستاذ هيكل بك يريدون لكتابه اكثر مما أراد هو لهُ

وهذا المسلك الذي سلكه هيكل بك أدَّى بهِ الى أن يفهم قراؤه (ص ٩٥) ان شيئاً من القرآن (سورة العلق) نزل على النبي (ص) في المنام كما أدى بهِ الى ترجيح الرواية القائلة عن عائشة في الاسراء (ص ١٥٣) : « ما فُقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن الله أسرى بروحهِ » ، ولعلهُ لاجل ترجيح هذه الرواية وضع حادثة الاسراء بعد حادثة زواج النبي صلى الله عليهِ وسلم بها . واذا علم القارىء أن الاسراء كان قبل زواج النبي صلى الله عليهِ وسلم بعائشة وانها كانت في زمن الاسراء طفلة بعيدة عن منزل النبي صلى الله عليهِ وسلم ولا تعلم متى يبيت في منزله ومتى يفارقهُ ، يتبين حينئذ ان ترجيح هذه الرواية لا يوافق قواعد البحث ، وان تأخير حادثة الاسراء الى ما بعد زواج عائشة إخلالٌ في ترتيب الوقائع ترتيباً تاريخيًّا

أما الذهاب في تأويل حادث المعراج مذهب وحدة الوجود ، فالاسلام لا يعرف وحدة الوجود ، لان الوجود في نظر الاسلام اثنان : واجب الوجود وجائز الوجود ، فواجب الوجود أزليّ أبديّ وهو الخالق وحده بصفاته المعلومة في القرآن ، وجائز الوجود هو هذه المخلوقات المتغيرة . ولا معنى لوحدة الوجود في نظر الاسلام الا اعطاء الكون صفة القدم والبقاء — اي الوجود وجوباً — ومعنى ذلك تأليهُ الكائنات وهو ليس من الاسلام

أما المقدمة البديعة التي توَّج بها الاستاذ الاكبر فضيلة الشيخ المراغي كتاب الاستاذ هيكل بك فقد وقع فيها سبقُ قلم نأمل تلافيه في الطبعة الثانية ، وهو قول فضيلته « وجاء الوحي مفصّلاً قاطعاً في كل ما يخصّ ذات الاله ووحدته وصفاته وكيفية عبادته ، ولم يكن كذلك فيما يخص النظم الاجتماعية للاسرة والقرية والمدينة والدولة منفردة ومرتبطة بغيرها من الدول » . نعم ان الوحي — وبوجه اخص القرآن — جاء بالهداية الى الطريق ، وترك الدلالة على الطريق للرسول ، فالقرآن

ليس محلّ تفصيل فيما يخص النظم الاجتماعية ، لكن الاسلام كان صريحاً في انهُ دين عقيدة وعبادة وحكم ، وانهُ جاء للارشاد الى سعادة الانسان في الدنيا كما جاء للارشاد الى سعادتهِ في الآخرة ، وليس ما في القرآن عن معاني الحكم في الاسلام والاشارة الى احكامهِ اقل مما ورد في القرآن عن العبادة وكيفيتها، كالصلاة وهي عماد الدين ورأس العبادة، لا نستطيع ان نفهم من القرآن كيفيتها وعدد ركعاتها وما يقرأ فيها . وما في القرآن عن الجهاد اوضح بياناً مما فيهِ عن الصلاة

وهناك امور اخرى في الكتاب نبه عليها كثيرون من اهل الفضل كالاستاذ الشيخ احمد محمد حميدة والاستاذ الشيخ محمد زهران ، وكلها جديرة بأن تراعى عند اعادة طبع الكتاب . ان شاء الله

واننا نتمنى أن يجعل الدكتور هيكل بك في وقتهِ نصيباً لمتابعة التأليف في سلسلة تاريخ الاسلام الذهبية ، فان ما استقبل بهِ الناس كتابه جدير منهُ بمواصلة هذا العمل المجيد

محب الدين الخطيب

أديب

تأليف الدكتور طه حسين — يطلب من مكتبة النهضة المصرية — ثمنه ١٠ قروش مصرية

الدكتور طه حسين اديب فذّ نبه اسمه بين كتاب الشرق في القرن العشرين ، كما نبه اسم الاديب الفرنسي العظيم سانت بيف في اواسط القرن التاسع عشر ، وهو كصاحبه الفرنسي ذكي القلب خصب الخيال موفور النشاط ، عظيم الاعتداد بفنه ، جريء في النقد ، كلف بالحرية في شتى مناحي التفكير والكلام ، ولكنه ابعد من صاحبه الفرنسي اثراً في الحياة الادبية ، فهو رجل ثورة وكفاح ، وهو رجل مفاجآت لا يبرح يثير حوله كل يوم تيارات عنيفة من النقد الرائع والنقاش الممتع البارع وهو صاحب مدرسة من اجل ذلك كثيرة الانصار المعجبين به وبأدبه ، على انها كثرة يناوحها جمهور آخر ممن لا يرضون عن مذهبه في التجديد كل الرضا ، ولا يسلمون بآرائه في المدرسة القديمة وان شئت فقل من هؤلاء الذين يباديهم فيفوتهم ولا يملكون له ردًّا ولا يستطيعون معه صبراً . على ان هؤلاء الراضين والمغضبين يتلاقون على رأي واحد فيه ، ذلك انه استحدث لغة جديدة في النثر العربي الحديث لها من رشاقتها وطلاقتها وجزالتها وعذوبة جرسها مميزات الفن القصصي وخصائص لغته العالية التي لا تضيق بالحوار والوصف والتحليل في اسلوب فاتن وتخلص رشيق

وقصة اليوم «أديب» مزاج معتدل من تلك المميزات والخصائص ، على ان لها بعد ذلك قيمتها فهي ان لم تكن ترجمة حياة الكاتب نفسه ، او ترجمة فترة من حياته ، فهي عرض صادق لحياة الجيل الذي عاش فيه واستقراء لآرائهِ في كل ما لابس شؤون الادب والعلم والفكر والحياة جميعاً . وهي ذكريات الحياة الحلوة الوادعة المضطربة الكثيرة الاحلام والاهواء التي ينعم بها العقل والقلب معاً في تلك القصة الممتعة ويستروح فيها الشباب الطامح ارق ذكريات الصبا والحب والامل

قرأت هذه القصة مرتين فخرجت من قراءتها باعجاب لاحدّ له ، ولا زلت اذكر ليالي القرية والقناة

وحديقة المعلم وشجرات التوت واولئك الفتيات الفقيرات الحسان المتبذلات بحكم الفقر وهنّ يطوفنَ بالحقول يلتمسن اقواتهن في التقاط ما يسقط من الحب . ثم ذلك الوصف الرائع لطبيعة مصر وجمال ريفها الذي تسبغه الحياة العاملة الجادة على اهله حين يخرجون من اطوار الجمود ويفنون في طبيعتهم ويصبحون وكأنهم أدوات للعمل والانتاج لهم جد الاداة وصدقها واستقامتها وصبرها واعراضها عن الشكوى وبعدها عن الملل والسأم . ويمضي الكاتب في هذا التصوير الرشيق البديع الذي لا تكاد تخلو منه صفحة من صفحات « اديب » . والذي يذكرنا بصفحات اخرى من كتابه « في الصيف» الذي يدل على ترف في الحس ورقة في الشعور والتفاتات ذهنية خاطفة لا تكون الاّ للشعراء المغنين او الفنانين الموهوبين الذين تكشف لهم الطبيعة عن اسرار خلقها وابداعها

وهانذا انطلق بك من ذلك الجو السحري الهادىء الذي يستغرق التأملات في دعة وطمأنينة الى جوٍّ آخر يرسمه لنا الكاتب بألفاظ لها من جرسها سرعة الحركة ، وخفة الطيف ، وتنقل الاشباح ، وذلك الغموض الرهيب الذي يكتنف حياتنا احياناً حين نقبل على امر من الامور التي تستبدّ بغرائزنا فنمضي وكأننا نستعجل دورة الزمن او نفاجىء القدر . وتحس هذا كله في حديث العربة حيث يقول :

« واذا بالباب يطرق طرقاً عنيفاً واذا صاحبي يدخل وكأنهُ العاصفة ، واذا هو يدعوني في صوت سريع اليّ ان انهض فالبس ثيابي واخرج معهُ ، وان اسرع ، فان العربة تنتظرنا واحاول ان اسأله كيف خرج من ديوانه وما هذه العربة التي تنتظرنا والى اين يريد ان يذهب بنا ولكنهُ لا يجيب ، وانما يستعجلني ويلح في الاستعجال ، حتى اذا تركتهُ وذهبت لالبس ثيابي سمعتهُ وهو يذهب ويجيء كالمجنون ويتغنى في صوته الغليظ بما يحضرهُ من الشعر . ثم اخرج له فيخطفني خطفاً ، ويعدو بي عدواً حتى يلقيني في العربة القاء ...:. »

ومثل هذا الابداع والترسُّل كثير حين تقلب صفحات هذه القصة الممتعة وانت لا تخطىء فيها فنوناً شتى من التحليل لنفسية ذلك الاديب الطموح وحياته المضطربة بين الامل واليأس ، وحديث ذلك الصراع بين القديم والجديد الذي حملت لواءه مصر من فجر القرن العشرين الى اليوم وانت لا تخطىء ذلك التصوير المحزن احياناً لحياة السواد في مصر او عقلية آبائنا في نظرتهم الى العلم والى ما يصيب نفوس ابنائهم من دنس وإثم اذا ما استقلوا السفن الى اوربا في سبيل تحصيله ، وانت لا تخطىء وصفاً بديعاً لحياة هؤلاء الشبان الذين بهرت البابهم ثقافة الغرب فودّوا الاّ يحول بينهم وبينها حائل من التقاليد او المادة ، وانت لا تخطىء نبل الفطرة وتسامي الانسانية عن النُّظُم الارضية وأوضاعها في سياق تلك الرسائل التي تحدث فيها المؤلف عن صاحبه الالماني ، وانت لا تخطىء بعد هذا كله الواناً شتى من الادب الحي والثقافة العالية والفلسفة المستقيمة في صفحات هذه القصة التي هي قصة الحياة والتي تعد في حقيقتها متممة لكتاب الايام الذي فتح بهِ الدكتور طه أُفقاً جديداً في عالم القصة العربية

**

الاسلام والتجديد في مصر

الفه بالانكليزية الدكتور شارلز ادمز — ونقله الى العربية عباس محمود — نشر لجنة ترجمة دائرة المعارف الاسلامية

كأنَّ الاستاذ عباس محمود عز عليهِ أن ينفرد باحث اجنبي بالبحث في ناحية من أهم نواحي الحياة الاسلامية على اسلوبٍ علمي منظم لم يحد عن سبيل الانصاف والنزاهة في الحكم، فنقل هذا البحث إلى اللغة العربية نقلاً راعى فيه الدقة والضبط وتحقيق كل نص ومراجعة الأصل الذي أخذ منهُ، ثم وضعهُ تحت نظر القراء المسلمين ليستفزّ شعورهم ويحرك همّتهم للعناية برجالهم والانتباه الى سير ثقافتهم في تطورها بسبب اتصالها بمختلف المؤثرات الاجنبية

يبحث الكتاب في حركة التجديد الاسلامية في مصر، فيصور نواحيها المختلفة، ويصف الاشخاص الذين قاموا بها وصفاً تحليليًّا مفصلاً، فيعرض للمغفور له الأمام الشيخ محمد عبده ويعرض لتلاميذه الذين اقتبسوا من روحه وساروا على نهجه. والشيخ محمد عبده شخصية من اكبر الشخصيات الجديرة بالاحترام في تاريخ الاسلام الحديث، وهو زعيم حركة التجديد الاسلامية في مصر، ولاشك ان الذين درسوا افكار المسلمين في مختلف بلادهم يعرفون مبلغ تأثير الشيخ محمد عبده في مصر بل وفي جميع بلاد الاسلام من اقصاها الى اقصاها. وقد كان الامام شخصية متعددة النواحي، تقلب في مختلف شؤون الحياة واضطلع بمختلف اعبائها فبينا تراه عالماً وصحفيًّا وقاضياً تراه ثائراً سياسيًّا ومصلحاً اجتماعيًّا وزعيماً دينيًّا يستهدف لخطر النفي وألم الاغتراب والخصومة، فيبرهن بذلك على قوة في الايمان وتمسك بالغاية وهمة لا تنضب. وانت تراه في هذا الكتاب مثالاً من الرجولة الكاملة التي يجب ان يقتدي بها

لم أكن قبل ظهور هذا الكتاب اعرف الكثير عن حركة التجديد الاسلامية في مصر، مثلي في هذا مثل سائر ابناء الجيل الناشىء الذين لم يولدوا الاّ بعد أيام محمد عبده ولم يفطنوا الى مختلف شؤون الحياة الاّ بعد وفاته بزمن طويل. ولم يكتب عن تلك الحركة كتاب مختصر سهل التناول مرتب يغري الشاب بمطالعتهِ. فهذا الكتاب يكشف لابناء الجيل الناشىء عن صفحة هامة من تاريخهم الفكري القريب ومن تاريخ العلاقة بين دينهم وبين مختلف نواحي الحياة السياسية والاجتماعية والعقلية، لان النهضة السياسية سارت مقارنة لهذه النواحي ولا غنى لمن يريد معرفة احداها عن ان يلم بالاخرى، لما بينها جميعاً من تأثير متبادل، وهي خاصة يمتاز بها تاريخ الثقافة الاسلامية من اوله الى آخره، لان الاسلام ليس عقيدة فحسب بل هو مدنية كاملة متشعبة النواحي، فله نظرته الخلقية ونزعته العقلية ومذهبهُ السياسي وآراؤه الاجتماعية. والحق ان الاسلام هو الذي يميز الشخصية الشرقية عن الشخصية الغربية، فهو عنصر اصيل متمكن في حياة الشرق، والشرق الآن يتصل بالغرب اتصالاً وثيقاً ويتأثر بهِ تأثراً بعيد المدى، والمسلمون يسلكون إزاء مدنية الغرب

مسلكاً يختلف باختلاف شعوبهم ، وهم يتخذون وسائل كثيرة ويصطنعون أسلحة الغرب ذاتها دفاعاً عن شخصيتهم وذوداً عن دينهم ورغبة في التوفيق بين مقوماتهم الدينية والاجتماعية وبين العوامل الآتية من الغرب ليبرهنوا على أنهُ خير دين وانه يؤاتي حاجة الانسانية في كل أطوارها .

والكتاب الذي نحن بصدد القول فيه يبحث في هـذه النواحي في مصر ، ولا غنى للشرقيين — بعد ما تقدم — أن ينظروا في أنفسهم ويعرفوا الوجهة التي يقصدونها والعوامل التي تؤثر فيهم وان يعرفوا جهود المجاهدين في هذه الناحية ليواصلوها ويصلحوا ما فيها من خطإ ليمكنهم المحافظة دائماً على مقوماتهم التي لا حياة لهم الاّ بها . فالكتاب اذن حلقة لا غنى عنها من حلقات تطور الفكر الاسلامي ، جديرة بالبحث والتمحيص ، ثم هو قد ألفه اجنبي يستطيع ان يرى من شئون المسلمين ما قد يخفى عليهم احياناً ، وعلى كل حال فله قيمة اخرى لانهُ من وجهة نظر غير وجهة نظرهم

والكتاب يثير مسائل كثيرة جديرة بأن تنال من عناية الباحثين ما هي خليقة به . يقول الباحثون ان الاسلام اليوم ، وهو يواجه المدنية الغربية بتنوع نواحيها ، في موقف شبيه بموقفهِ منذ ألف عام حينما كان يواجه المدنية الاغريقية . واذا كانت تلك الصفحة الهامة من تاريخ الاسلام وصلته بمدنية اخرى قد طويت ، ومن الاسف انها لم تسجل تسجيلاً علميًّا دقيقاً ، فينبغي ألاّ يفوتنا تسجيل هذه الصفحة القريبة العهد قبل ان تعدو عليها عوادي النسيان . ولا شك أنهُ من الشائق ان نوازن بين الموقفين على قدر الطاقة . فالاسـلام هو هو بأصوله المقررة وهو مع ذلك يتسع روحه فيهضم مدنية اليونان ويتمثلها ويصبغها بصبغته ، وهو يريد اليوم هضم المدنية الاوربية الحديثة وصبغها بصبغته ايضاً معتدًّا بأسلحتها العلمية والفلسفية والاجتماعية

وقد اتصلت بلاد الاسلام بمختلف الدول الاوربية . وكل بلد اسلامي يسلك ازاء الدولة الاوربية التي اتصل بها مسلكاً خاصًّا ويتأثر بها الى مدى معين ، فالبلاد الاسلامية متعاونة في أخذها لمدنية الغرب وتأثرها بها ، وفي هذا مجال الموازنة واسع شيق ، وشتان ما بين ما يجري في تركيا وبين ما يجري في غيرها من بلاد الاسلام ، وقد نالت حركة التجديد من العناية في كتابات المستشرقين الذين اختص كل منهم بناحية كتب عنها ، وما أحرى المسلمين ان يلموا بهذا كله ويوجهوا اليه ما يستحقه من عناية وينتفعوا بما يمكن ان يكون فيه من ثمرات ، وهذا الكتاب يوجه نظرنا لهذه الناحية

ومما يجعل لهذا الكتاب قيمة خاصة انهُ يشير الى النهضة السياسية والادبية في مصر الحديثة ، ويبين علاقة كل منهما بحركة التجديد ، فيوجـه نظر الباحثين الى هاتين الناحيتين ليدرسوها درساً أكثر تفصيلاً . ولست ازعم ان الكتاب قد الم بكل تفاصيل موضوعه بل هو اشار الى اهم ما فيه وترك مجالاً لباحثين آخرين

فالشكر للاستاذ ادمس وللاستاذ عباس محمود وللجنة ترجمة دائرة المعارف الاسلامية لما بذله كل من جهد في هذا العمل الجليل

محمد عبد الهادي ابو ريدة

تاريخ شرقي الاردن وقبائلها

تأليف اللفتننت كولونيل فردريك ج . بيك . ترجمة بهاء الدين طوقان . مطبعة دار الايتام الاسلامية الصناعية بالقدس

قد يظن المرء ان شرقي الاردن لا يستحق تاريخاً ولكن المؤلف بين باسلوب حسن جداً انهُ جدير بذلك لانهُ على طريق الغزاة بين اشور وفارس ومصر فهو الطريق التي تمر فيها الجيوش الغازية وانهُ يتعذر عليَّ نقد هذا الكتاب الجليل باسطر قليلة ولكنني سأفعل ذلك على قدر المستطاع .
فالكتاب جزءان جزء تاريخي وجزء في وصف قبائل شرقي الاردن فنبدأُ اولاً بالجزء التاريخي

فالجزء التاريخي من ازمنة ما قبل التاريخ الى يومنا وهو مكتوب بدقة عظيمة وجهد كبير ومؤيد بالاسانيد الكثيرة فقد ذكر المؤلف ما قبل التاريخ ثم مجيء بني اسرائيل وحروبهم ثم دخول الاشوريين والبابليين والفرس ثم اليونان في زمن الاسكندر ثم البطالسة وثورة اليهود ثم دخول الرومان ومملكة اليهود في زمن هيرودس ومملكة الانباط والغساسنة وحروب الغساسنة والمناذرة وما جرى في تلك البلاد الى الفتح الاسلامي وما وقع من الحروب بين العرب والروم الى ان استتب الامر للعرب ثم فصل في الحروب الصليبية الى جلاء الصليبيين ثم دخول الترك العثمانيين ثم جلاؤهم ودخول الحلفاء وجميع ما تقدم مؤيد بالاسانيد التاريخية كما ذكرنا . اما الجزء الثاني فخاص بقبائل شرقي الاردن ذكر فيهِ المؤلف القبائل واحدة واحدة وانصف في ذكرها على عادة الضباط البريطانيين في الانصاف بلا محاباة وانا لا ادري هل الجزء الاول اي التاريخي خير من الجزء الثاني فكله حسن جداً يأخذ بمجامع القلوب والترجمة حسنة ولغته كذلك حسنة مما يدل على سعة اطلاع المؤلف والمترجم واني لا اجد فيه مجالاً للانتقاد الاَّ اموراً طفيفة لا بد انها وقعت سهواً من المؤلف او المترجم

منها في ذكر حيوانات البلاد قوله الفهود الصغيرة واظنهُ يريد النمورة واشباهها فجميعها كانت في شرقي الأُردن الى عهد قريب وهي اربعة انواع النمر Leopard والفهد Hunting leopard or cheeta والوَشَق ويقال الشِيب وعناق الارض Caracal وأما الببر Tiger فبالطبع لا يكون هناك ولا عبرة لما جاء في المعجمات خلاف ذلك . وقال في الزراعة ان الدخان والقنب قديمان هناك فالدخان حديث لا يعرف في البلاد العربية قبل الالف للهجرة قال الشاعر في وصفه

سألوني عن الدخان فقالوا   هل له في كتابكم ايماء
قلت ما فرط الكتاب بشيء   ثم ارخت يوم تأتي السماء

أما القنب فقديم جداً ولاسيا الهندي منه زرعه المصريون القدماء ومما يؤخذ على المترجم قوله جستنيان واظن الصواب يستنيانس بالياء المثناة ومثله ترجان واظن الصواب تريانس أو طريانس فان العرب كتبوا هاتين الكلمتين وأمثالها بالياء منها يوليوس ويسوع ويوسفوس وبايزيد ويعقوب وهي كثيرة ويستنيانس أو يسطنيانس هذا هو القيصر صاحب امرء القيس واظن فؤاد باشا الخطيب لا يزال يذكر انشاده قصيدة

امرء القيس بصوته الرخيم في طريقنا الى جدة لاذكاء نار الثورة العربية وقول امرئ القيس

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه   وأيقن انا لاحقان بقيصرا
فقلت لهُ لا تبك عينك انما   نحاول ملكاً او نموت فنعذرا

فيستنيانس هو القيصر الذي وفد عليه امرئ القيس في القسطنطينية وما يؤخذ على المؤلف قوله ان بعلمين ودوزارس وعلات آلهة مأخوذة من اليونانية واظن الصواب ان هذه الآلهة عربية وصوابها بعل أو هبل واللات وذو الشرى وهو صاحبنا باخوس وقد جرت العادة حتى الآن نسبة كل شيء الى اليونان كقولهم ان سيريوس اي الشعرى يونانية من مادة يونانية معناها احرق والصواب هي سامية قديمة جداً كما تجد في مادتي سعر وشعر في كتب اللغة وما يؤخذ على المترجم استعماله التعريب بمعنى الترجمة فالتعريب على الاصح خلاف الترجمة ولا ادري لاي سبب جرى بعض الكتاب في الشام على ذلك فيقولون هذا الكتاب تعريب فلان والصواب ترجمتهُ وقوله في صدر الكتاب الاردن بفتح الهمزة والصواب ضمها . قال المتنبي

وقعت على الأُردنّ منهُ بلية   نضدت بها هام الرفاق تلولا

هذه هنات قليلة جداً كنت اود ان يخلو منها هذا الكتاب النفيس

والكتاب مقدم الى صاحب السمو الأمير عبد الله أمير شرقي الاردن ومزين برسوم كثيرة منها رسم الامير ورسم نجليه الاميرين طلال ونايف ورسم المغفور له الأمير شاكر من أبطال الثورة العربية ورسم مؤلف الكتاب وغيرهم . وقد قال المؤلف في أول الكتاب انهُ ليس له أية صبغة رسمية وهذا صحيح فقد قرأته من اوله الى آخره فليس فيه شيء من السياسة او الامور الرسمية ولكن ما قول المؤلف في صورة الزعيم كلوب بك فلو ازدردتها أنا فلا اظن سائر العرب يقوون على ازدرادها وهضمها فقد ازدردوا كثيراً حتى الآن. أما القول بأن كلوب بك لا صفة رسمية لهُ او سياسية فقليل من المعد يقوى على هضمها ! على أن الكتاب نفيس جداً يعود على مؤلفه ومترجمه بالثناء العظيم

مصر الجديدة   امين المعلوف

مقتل عثمان بن عفان

تأليف محمود الغزاوي عضو الماجستير في التاريخ الاسلامي بالجامعة المصرية

كنت اعتقد ان موضوعاً كموضوع مقتل عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه، موضوع لا يمت الى طبيعة الاشياء بصلة ، وانما هو حادث من حوادث جمة انتابت الاسلام في ابان قيامه . لكنني اذ انتهيت من قراءة ذلك السفر الجميل عن هذه المأساة المروعة استشعرت من نفسي القوة على ربط الحوادث التاريخية بعضها بأطراف بعض ، وخرجت من ذلك كله بأن هذا الحادث وان يكن مشئوماً في ذاته ، الا انه كما يقول المؤلف نتيجة ثورة « كانت المنفذ الطبيعي أمام شعب ساخط رأى دستور الدولة في يد اناس يتعصبون لذوي قرباهم من سائر عباد الله المسلمين ، وما

هذه الثورة الاّ النتيجة الكيمائية لجملة مواد كانت فوق بوتقة ما لبثت ان تفاعلت كلها بعضها مع بعض وتمخضت عن قتل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنهُ »

هذا مثل من الامثلة العديدة التي يسجلها المؤلف في مواضع كثيرة من كتابه بمثابة آراء شخصية له . وهي ميزة تميز الطابع الذي انطبع به المؤلف في دراسته التي تشرب بها في الجامعة. فهو صريح في تحليل مختلف الآراء شأنه في ذلك شأن كبار المؤرخين الذين لا يكتفون برواية الحوادث التاريخية فحسب بل يعللون هذه الحوادث ويرجعونها الى أسباب قد تكون غامضة بعض الغموض فما يزالون بها حتى يكشفوا الستار عنها

على ان المؤلف قد تعرض في الحقيقة لبحث نقطة واحدة من التاريخ الاسلامي على جانب كبير من كبر الشأن والدقة قلَّ من تعرض لها من المؤرخين على حدة ، فمقتل الخليفة عثمان بن عفان هو حلقة وسطى بين نمو دستوري وبين نمو دستوري آخر: نمو دستوري نشأ بنشوء الاسلام ويعتمد على كلمة الله ، ونمو دستوري آخر اظهر سلطة الامة وصوت الشعب الى جانب كلمة الله . بل ان مقتل عثمان كان بصريح العبارة اول ثورة في الاسلام على المحاباة والمطامع الاشتراكية

وقد قدم الكتاب للجمهور حضرة الدكتور حسن ابراهيم حسن استاذ التاريخ الاسلامي في الجامعة المصرية فشاد بذكر المؤلف — وهو من تلاميذه — وتمنى عليه مواصلة البحث والدرس حتى يكشف عن كثير من حوادث التاريخ الاسلامي الغامضة

ميشيل سليم عبده

جبال النور

[بقية المنشور في صفحة ٢٤]

وارتفاع هذا الهرم الموهوم يساوي ١٣٧ ١٢٩٥ سنتيمتراً اي ١٢٩٥٫١ متراً اي ان « جبل النور » الهرمي الشكل هذا يبلغ طول ضلع قاعدته المربعة اكثر من ١٨٫٣١٥ كيلو متراً وارتفاعه اكثر من ١٢٫٩٥١ كيلومتراً . فتأمل !!

واذا بسطت هذه البرتقالات اللوامع فوق سطح الاراضي المصرية الصالحة للزراعة لبلغ ارتفاعها :ـ

$$\frac{\text{٢٠٤٨ كيلو متراً مكعباً حجم البرتقالات اللوامع}}{\text{٣٢٠٠٠ كيلو متر مربع مساحة الاراضي المصرية الصالحة للزراعة}} = \text{٠٫٠٦٤ كيلو متراً}$$

ولأصبحت الأراضي المصرية الصالحة للزراعة التي تبلغ مساحتها اثنين وثلاثين الف كيلو متر مربع صحيفة لامعة متلألئة تبهر الابصار بارتفاع أربعة وستين متراً . فتأمل !!

ولكن دعني أهمس في أذن قارئي العزيز أن هذا لن يتم فهذه البرتقالات بحجمها الطبيعي العظيم معلقة في الفضاء متماسكة بقوة الجاذبية فاذا ما جمعناها على الوجه الذي تخيلناه لاختل نظام التجاذب الكوني ولهوت كرتنا الارضية وتخبطت في الفضاء اللانهائي، فسبحانك اللهم يامبدع الكائنات

الجزء الاول من المجلد السابع والثمانين

صفحة

١ اثبات الابوة
٨ لورنس والثورة العربية (مصوّرة)
١٦ سوريا في زمن الصليبيين . لنقولا زيادة
٢٣ جبال النور : لصبحي جلبي
٢٥ عالم المستقبل العجيب
٣٧ الفاظ التصنيف في الحيوانات الدنيا : للامير مصطفى الشهابي
٤٢ البعث الاول (قصيدة) : لعلي محمود طه
٤٣ لواء الادب القديم : لاحمد يوسف
٤٧ خدمات العرب للكيمياء الحديثة : لحسن السلمان
٥٤ الپاپاز : ثمر عجيب : لعوض جندي
٥٧ الشعر الحديث : للدكتور احمد زكي ابو شادي (مصوّرة)
٦٥ موسى بن ميمون : للدكتور الفريد يلوز (مصوّرة)
٧٠ عيد بنك مصر وخطبة طلعت حرب باشا (مصوّرة)
٨١ مفردات النبات : لمحمود مصطفى الدمياطي

---

٨٥ باب سير الزمان : الثورة : للدكتور عبد الرحمن شهبندر . الملك جورج الخامس والتاج البريطاني . تتويج جورج الخامس
١٠١ باب مملكة المرأة : الزواج والبيت والاولاد . من نافذة القطار : لكامل كيلاني . الاتجاه الجديد في تربية الاطفال : لاغنس دي ليما . درة البول عند الاطفال : للدكتور عبده رزق
١١١ باب المراسلة والمناظرة : ارشاد لغوي : لعبد الرحيم بن محمود . أمراض وأعراض بوزن فعال : لسالم خليل رزق . حول ارشاد لغوي : لعبد القدوس الانصاري عود على بدء : لعبد الرحيم بن محمود
١١٨ مكتبة المقتطف * حياة محمد : لمحب الدين الخطيب . أديب . الاسلام والتجديد : لمحمد عبد الهادي ابو ريده. تاريخ شرق الاردن : للدكتور امين المعلوف . مقتل عثمان بن عفان : لميشيل سليم عبده

وكلاء المقتطف ومحلات الاشتراك

في القاهرة ادارة المقتطف بشارع الفاصد رقم ١ — بباب اللوق
في الاسكندرية والبحيرة والشرقية مصطفى افندي سلامه في دمنهور
في القليوبية والمنوفية مصطفى افندي سلامة في دمنهور
في الغربية والدقهلية والمحافظات مصطفى افندي سلامه في طنطا
في الفيوم — الشيخ محمود مليجي بالفيوم
في المنيا — ابو الليل افندي راشد في المنيا
في اسيوط — تامر افندي سيف باسيوط
في جرجا — الشيخ عبد الهادي احمد في طهطا
في بيروت—سوريا—جورج افندي عبود الاشقر ص.ب. رقم ٩٢٩
في طرابلس الشام عبد الله الياس حصني
في دمشق — المهاجرين الاستاذ عمر افندي الطيبي
في شرقي الاردن — عمان فهمي افندي يوسف
في القدس الشريف ويافا وحيفا الخواجات بولس سعيد ووديع سعيد اصحاب مكتبة فلسطين العلمية
في حمص—سورية— الخوري عيسى سعد
في الناصرة فلسطين فريد عوده زعمط
في حلب-شارع السويقة-السيد عبد الودود الكيالي صاحب المكتبة العصرية
في صيدا نقولا افندي حريصي داغر — صيدلية الهلال
في حماه السيد طاهر افندي النعساني

في البرازيل
Snr. Miguel N. Farah
Caixa Postal 1393
Sao Paulo Brazil

في الارجنتين
Sr. Fuad Ribeiz
Cordoba 499
Buenos Aires, Rep. Argentina

في الولايات المتحدة والمكسيك وكندا وكوبا
Mr. N. Arida
c/o Al-Hoda
55 Washington St.
New York. U. S. A.

قائمة سلسلة المطبوعات العصرية

التي عنيت بنشرها « ادارة المطبعة العصرية » بشارع الخليج الناصري رقم ٦ بالفجالة بمصر

م

٣٥ القاموس العصري انكليزي عربي (طبعة ثانية)
٧٠ « « « « (طبعة ثالثة)
٧٠ « « عربي انكليزي (طبعة ثانية)
٣٥ « المدرسي عربي انكليزي وبالعكس
٣٠ قاموس الجيب عربي انكليزي وبالعكس
٢٠ « « عربي انكليزي فقط
١٥ « « انكليزي عربي فقط
٧٠ « سقراط سبيرو عربي انكليزي (باللفظ)
٥٠ « « « انكليزي عربي (باللفظ)
١٠٠ « « « « « وبالعكس
١٠ التحفة المصرية لطلاب اللغة الانكليزية (مطول)
١٢ الهدية السنية لطلاب اللغة الانكليزية (باللفظ)
١٠ الف كلمة الماني (لتعليم الالمانية بسهولة)
١٥ في اوقات الفراغ (للدكتور محمد حسين هيكل بك)
١٠ عشرة ايام في السودان « « «
١٢ مراجعات في الادب والفنون للاستاذ عباس العقاد
١٥ روح الاشتراكية (لغوستاف لوبون) وترجمة (الاستاذ محمد عادل زعيتر)
١٥ روح السياسة « «
١٠ الاراء والمعتقدات « «
١٠ اصول الحقوق الدستورية « «
٨ الحضارة المصرية (لغوستاف لوبون)
١٥ حضارة مصر الحديثة (تأليف كبار رجال مصر)
١٠ الحركة الاشتراكية (رمسي مكدونلد)
١٥ ماهي السبيل في مذهب النشوء والارتقاء
٨ اليوم والغد (الاستاذ سلامه موسى)
١٠ مختارات « « «
٨ نظرية التطور واصل الانسان « «
٢٠ اناتول فرانس في مباذله، للامير شكيب ارسلان
١٥ الدنيا في اميركا (للاستاذ امير بقطر)
١٠ المرأة الحديثة وكيف نسوسها (عبدالله حسين)
١٠ جريمة سلفستر بونار (اناتول فرانس)
٥ المرأة بين الماضي والحاضر
٥ مركز المرأة في شريعتي موسى وحورابي
١٥ حصاد الهشيم (الاستاذ ابرهيم عبدالقادر المازني)
١٠ قبض الريح (« « « « «)
٨ قسمات وزوايا شعر منثور مصور
١٠ رسائل غرام جديدة (سليم عبدالواحد)
١٠ الغربال في الادب العصري (ميخائيل نعيمة)
٥ حكايات للاطفال، اول (مصور بالالوان)
٥ « « ثان « «
٥ « « ثالث « «
٥ تذكرة الكاتب طبعة منقحة لاسعد خليل داغر
٢٠ جمهورية افلاطون (للاستاذ حنا خباز)
٦ مراقي النجاح (الارشمندريت بشير)
٥ مريم المجدلية (موريس ميترلنك)

م

١٠ التربية الاجتماعية (للاستاذ علي فكري
٥ خواطر حمار (الاستاذ الجمل)
٥ التعليم والصحة للدكتور محمد بك عبد الحميد
١٥ الحب والزواج (للاستاذ نقولا حداد)
١٥ ذكراً وانثى خلقهم « « «
٥٠ علم الاجتماع (جزآن كبيران « «
١٥ اسرار الحياة الزوجية « «
٣٠ الامراض التناسلية وعلاجها للدكتور فخري
٢٠ المرأة وفلسفة التناسليات « «
٢٠ الضعف التناسلي في الذكور والاناث «
١٥ الزنبقة الحمراء (للاستاذ احمد الصاوي محمد)
١٠ تاييس « « « « «
٥ مكايد الحب في قصور الملوك (اسعد خليل داغر)
١٠ القصص المصرية (٨٠ قصة كبيرة مصورة)
١٠ مسارح الاذهان (٣٥ قصة كبيرة مصورة)
١٢ رواية اهوال الاستبداد، مصورة
١٠ « فاتنة المهدي، او استعادة السودان
٨ « الانتقام المذيب (اسعد خليل داغر)
٥ « فقر وعفاف (للاستاذ احمد رأفت)
١٢ « باريزيت، مصورة (توفيق عبد الله)
١٢ « غرام الراهب او الساحرة المجدورة
٧٥ « روكامبول، ١٧ جزء (طانيوس عبده)
٢٥ « ام روكامبول، ٥ اجزاء «
٢٠ « باردليان، ٣ اجزاء «
٢٠ « الملكة ايزابو ٤ اجزاء «
٢٠ « الاميرة فوستا، جزآن «
٢٠ « عشاق فنيسيا، جزآن «
١٦ « الساحر العظيم ٤ اجزاء «
١٦ « كابيتان، جزآن «
١٦ « الوصية الحمراء، جزآن «
١٦ « بائعة الخبز «
١٢ « فلمبرج، جزآن «
١٠ « فارس الملك «
١٠ « ضحايا الانتقام «
٨ « المرأة المفترسة «
٥ « المتنكرة الحسناء «
٥ « مروضة الاسود «
٥ « شهداء الاخلاص «
١٦ « دار العجائب جزآن (نقولا رزق الله)
١٠ « فرنسوا الاول « «
١٠ « الجنون فنون « «
٨ « حورية « «
٨ « الغلامان الطريدان « «
١٢ يسوع ابن الانسان (جبران خليل جبران)
٥ النبي (« « «)
٥ آلهة الارض (« « «)

« مصر هبة النيل »

تمثال صنعه الفنان ادوار زكي خليل

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الثاني من المجلد السابع والثمانين

١ يوليو سنة ١٩٣٥ — ٣٠ ربيع الاول سنة ١٣٥٤

الارض في محيط الاشعاع

وتأثرها بضروبه المختلفة

ليست الارض في بحر الفضاء الا دقيقة من الهباء . ولكنها مع ذلك تستطيع ان تلتقط من طاقة الاشعاع ، ما يحرك الرياح ويجري الامواه ويدفع النمو في اجسام الاحياء

اذا نظرنا الى السماء في ليلة صافية الاديم ، رأينا المريخ كرة صغيرة محمرّة ، وهو اقرب الى الارض من الارض الى الشمس . فاذا اتيح لمراقب ان يقف على سطح الشمس وينظر من خلال جوها الى رحاب الفضاء ، رأى الارض كما نرى المريخ او اصغر ، فيعجب ان كان عالماً بأحوال الارض ، كيف يستطيع هذا السيار الصغير ان يلتقط من الطاقة التي تسكبها الشمس في الفضاء ، قدراً يكفيهِ . والواقع ان الارض لا تستطيع ان تلتقط من طاقة الشمس الا جانباً يسيراً مما يصيب سطحها وهذا يعني احد امرين : اما ان الطاقة التي تطلقها النجوم — ومنها شمسنا — في الفضاء عظيمة جدًّا ، وإما ان الارض شديدة الاحساس بقسطها اليسير منها

من الطبيعي ان تكون اقرب النجوم الينا ، ابعدها تأثيراً في احوالنا . قد تكون الارض بنت الشمس وقد لا تكون . فالعلماء مختلفون في ذلك . ولكن الرأي السائد الآن ان الارض والشمس وسائر سيارات النظام الشمسي وتوابعها ، نشأت في وقت واحد من كتلة سديمية عظيمة . وعلى ذلك فالشمس شقيقة الارض الكبرى وليست بأمّها . ولكن الامر الذي لا يختلف فيه عالمان ، ان الارض مدينة بجانب كبير من شكلها وخواص سطحها لاشعاع الشمس . فالشمس تطلق اطلاقاً دائماً تياراً

من الطاقة قوته ٦٠٠ مليون مليون مليون حصان . ونصيب سطح الارض من هذا التيار لا يزيد على جزئين من الفي مليون جزء منهُ ، ومع ذلك فهذا النصيب يبلغ مقدار حصان واحد لكل ذراع مربع من سطح الارض المضيء . على ان قدراً يسيراً جدًّا من نصيب الارض ، تمتصُّهُ الارض وتستعمله ، ولكنه كاف لابقاء المحيطات سائلة ، والجو غازيًّا ، وأحوال الحياة على ما هي

اما القمر فأقل من الشمس كتلة بل ان كتلته لا تبلغ الاّ $\frac{1}{27000000}$ جزء من كتلة الشمس ولكنهُ اقرب الينا من الشمس فمتوسط بعده عنا ٢٣٨ الف ميل مع ان بعد الشمس عنا يبلغ متوسطهُ ٩٣ مليون ميل ، وكذلك يعوض قربُ القمر عن صغر كتلتهِ من حيث تأثيره في الارض

ولا نتولّى هنا شرح المدّ والجزر كما يبدوان في مصابّ الأنهر وعلى بعض الشواطىء خاصةً ، وكيف درست تفصيلاتهما درساً مدققاً ، حتى اصبح في الامكان معرفة علو الماء في بعض المرافىء ، معرفة دقيقة في كل ساعة من ساعات النهار والليل

أما ما لم يعرف الاّ من عهد قريب عن تأثير القمر في الارض ، فهو جذب القمر للجو ، واغرب منهُ جذب القمر لقشرة الارض . فقد اثبت العالمان الاميركيان الفرد لومِس وهارلن ستتسن انهُ اذا كان القمر فوق الجانب الشمالي من المحيط الاطلنطي كانت وشنطن اقرب الى لندن بمقدار ٦٣ قدماً ، منها اذا كان القمر فوق الجانب المقابل للمحيط الاطلنطي من سطح الارض . اي ان القمر يحدث مدًّا في قشرة الارض فيقرب المسافة بين مدينتي وشنطن ولندن . والواقع ان الفرق في المسافة بين شواطىء اميركا واوربا ، لا يؤثر في أجور السفر والتلغرافات ، ولكنهُ فرق كبير في نظر العلماء الذين يقيسون خطوط العرض والطول قياساً دقيقاً بالثواني من درجات القوس وأجزائها

وقد عني ستتسن بعد ذلك بالمقابلة بين تواريخ الزلازل والتقويم القمري فظهر لهُ ان الزلازل تكثر عند ما يكون القمر في مواقع معينة في الفضاء

والشهب اصغر من القمر ، ولكنها تفوقهُ في اقترابها من الارض ، وبعضها يسقط على سطحها ويضاف وزنهُ الى وزنها . ويقدر العلماء عدد الشهب التي تخترق جوّ الارض بألف مليون شهاب كل يوم (٢٤ ساعة). نعم ان معظمها لا يعدو كونهُ دقائق وحبيبات من الغبار الكوني ، ويفنى في خلال اختراقهِ لطبقات الهواء العليا ، ولكن بعضها كبير فيخترق الفضاء ويبقى منهُ جانب يصل الى الارض وهي الرجم ، ومنها رجم تبلغ زنة الواحدة منها بضعة اطنان، وكثير منها يقع في الصحاري والبحار والادغال . ولذلك قدر الاستاذ ويلي Wylie جملة ما يضاف الى وزن الارض كل سنة بسقوط الرجم عليها ، بنحو ألفين وخمسمائة طن

وللشهب تأثير آخر هو تأيين ionize طبقات الهواء العليا او كهربتها بتمزيق بعض دقائقها . وقد اكتشف هذا الفعل من مراقبة الزيادة في وضوح الاشارات اللاسلكية في الفترات التي تنهمر فيها شآبيب الشهب . فالشهاب اذ ينقضُّ في الهواء سائراً بسرعة تتباين من عشرة اميال الى مائة

ميل في الثانية يحمى من احتكاكه بدقائق الهواء فيتوهج وتبلغ درجة حرارتهِ احياناً ٣٠٠٠ درجة مئوية فتنطلق اشعاعات قوية وتصطدم بدقائق الهواءِ فتمزّق بعضها ، وكذلك يسحب الشهاب في اثره ذيلاً من الدقائق الممزقة والهواءِ المكهرب

***

هذه هي الاجسام التي تراها العين — الشمس والقمر والشهب — وهذا بعض تأثيرها في سطح الارض وجوّها . ولكن الاشعة الكونية مما تعجز العين عن رؤيتهِ ، بل مما تعجز الآلات الدقيقة عن تبينهِ الاّ اذا كانت قد صنعت خاصة لذلك . والعلماءُ مختلفون في طبيعة هذه الاشعة ، ففريق يقول انها اشعاع من قبيل الاشعة السينية ، وفريق يقول انها مؤلفة من دقائق متناهية في الصغر متناهية في السرعة . ولكنّ احداً لا يرتاب في انها تصدم الارض وما عليها بطاقة عظيمة . فضغط الكهرب في صاعقة قد يبلغ الف مليون ڤولط ، ولكن ضغط بعض الكهارب التي تقذف من المادة عند اصطدام الاشعة الكونية بها قد يبلغ مرتبة عشرة آلاف ڤولط او اكثر من ذلك

ولا يحتمل ان تتعرّض الارض وما عليها لاشعاع هذا قوتهُ ولا تتأثر بهِ . فالاستاذ جولي الجولوجي الارلندي ذهب من بضع سنوات الى ان هناك علاقة بين الاشعة الكونية وتفشي حوادث السرطان . ولا يزال هذا الرأي نظرية من دون برهان يؤيدها . ولكن الاستاذ مولر الاميركي اثبت ان الاشعة السينية تؤثر في احداث التحوُّلات الفجائية في ذباب الفاكهة . ومن هنا نشأ القول بانّ بين الاشعة الكونية ومراتب التطوّر العضوي صلة وثيقة ، بل قد يكون في الاشعة الكونية مفتاح التطور العضوي . الاّ ان البحث الاحصائيّ في كثافة الاشعة الكونية يشير الى ان هذه الاشعة غير كافية لاحداث جميع التحولات الفجائية التي حدثت على مرّ الدهور ، فتحوّلت بها الاحياءُ وتطوّرت ، ولكنّ من المؤكد ان بعض التحولات الفجائية يمكن اسنادهُ اليها

ولعلّ احدث النظريات المتصلة بفعل الاشعة الكونية في الارض نظرية وضعها لوس العالم الاميركي والاستاذ في جامعة كاليفورنيا . فعلماء الجولوجية الطبيعية الذين يستطلعون طلع الارض بالطريقة الزلزالية يقولون ان قلب الارض كرة ضخمة كثيفة من الحديد والنيكل ، تحيط بها قشرة الارض الصخرية ، وهذه تعلوها طبقة التربة في مناطق ومياه المحيطات والبحار في مناطق اخرى

فلما تأمل الاستاذ لوس في هذا التركيب استوقف نظره ما يعرف عن الرجم وهو انها مركبة من هاتين الطائفتين من المواد . فثمة رجم ٩٩ في المائة من أجسامها مركبة من حديد ونيكل ، وثمة رجم اخرى حجرية مركبة من المواد الداخلة في تركيب قشرة الارض بوجهٍ عام

فالصخور التي تتركب منها قشرة الارض والرجم الحجرية مؤلفة في الغالب من السليكون وبعض عناصر اخرى . وذرة السليكون تزن بوجه عام نصف ما تزنهُ ذرة الحديد أو ذرة النيكل . اي اذا استطعت ان تطلق ذرة سليكون على ذرة سليكون اخرى ، في احوال مؤاتية من الطاقة العالية —

على نحو ما يفعل العلماء في تحويل بعض العناصر الآن — فقد تندمج الذرة الواحدة بالذرة الاخرى فتولد ذرة حديد أو ذرة نيكل . يقابل ذلك انك اذا اطلقت تياراً من الطاقة العالية على ذرة حديد أو ذرة نيكل فقد يكون في المستطاع ان تقسم هذه الذرة الى جزئين كلٌّ منهما ذرة سليكون

ولا يخفى ان الحديد والسليكون من العناصر المستقرة والطاقة التي تفعل بهما هذا الفعل يجب ان تكون عالية جدًّا ، أعلى من أية طاقة استطاع الانسان توليدها في المعمل حتى الآن

وهنا نصل الى مكان الاشعة الكونية في نظرية لوس ، لانها تنطوي على ما يظهر ، على طاقة كافية لاحداث هذا التحويل . فالأشعة الكونية تستطيع من الناحية النظرية أن تحطم ذرة حديد أو ذرة نيكل الى ذرتي سليكون . والسليكون كذلك عنصر مستقر ولكن في طاقة الاشعة الكونية ان تحلّ ذرتهُ الى ذرتي عنصرين خفيفين احداهما ذرة المغنيزيوم والاخرى ذرة الهليوم . وكذلك يمضي فعل التحويل فتنشأ العناصر الخفيفة من العناصر الثقيلة. وقد بيَّن الاستاذ لوس ان هناك ثمانية عناصر لها نظائر ، وان اوزان هذه النظائر كسور بسيطة من أوزان الحديد والنيكل ، فهي في الراجح قد نشأت منهما بطريقة التحوُّل التي تقدم ذكرها

وهذه النظائر الثمانية هي العناصر التي تتركب منها الرجُم الحجرية. وعلى ذلك نستطيع ان نتصور الارض مركبة في الاصل من الحديد والنيكل ثم تحوَّل سطحها بفعل الاشعة الكونية منهما الى عناصر القشرة الارضية اي السليكون والمغنيزيوم والالومينوم والصوديوم وغيرها

فالنظرية طريفة تغري بالنظر ولكنها على كل حال لا تقول شيئاً عن اصل الحديد والنيكل وعلاقتهما بغاز السديم الاصلي الذي نشأت منهُ الارض . والاستاذ لوس نفسهُ يعترف بأن غرضهُ ليس وضع نظرية كونية شاملة بل محاولة تعليل بعض الظاهرات التي تستوقف النظر ومنها هذه الظاهرة ظاهرة التشابه بين بعض الرجم وقلب الارض من ناحية ، وبين بعض الرجم الاخرى وقشرة الارض ، من حيث العناصر التي تدخل في بنائها جميعاً وصلة ذلك بالاشعة الكونية

***

الاّ ان حدود الكرة الارضية ليست الطبقة العليا من قشرتها. بل هناك غلافها الغازي الذي نطلق عليهِ اسم الجو . فاذا كانت الارض تتأثر بمؤثرات خارجية ، آتية اليها من الفضاء فالمرجح ان بعضاً من مظاهر هذا التأثر يبدو في جوها . وهذا هو الواقع ، ولكننا ما نزال بعيدين عن معرفة صحيحة لما يضطرب بهِ الجو. والفضل في كشف ما كشف حتى الآن يرجع الى علماء المواصلات اللاسلكية بل ان اعظم اكتشاف حديث في بناء الكرة الارضية ، انما هو اكتشاف ان الهواء مركب تركيباً كهربائيًّا

كان الرأي القديم ان الارض يحيط بها غلاف غازي تقلُّ كثافته رويداً رويداً الى ان يندمج في الفضاء الرحب الفارغ على مائة ميل او اكثر فوق سطح البحر . اما النظر الجديد الى هذا الغلاف الغازي فهو انهُ بمثابة سقف كهربائي للكرة الارضية

لما كشف العلامة الالماني هرتز عن الامواج اللاسلكية، وبدأ المستنبطون والعلماء يتصورون كيف يمكن استعمال هذه الامواج للتخاطب، كانت القاعدة التي بني عليها كل تفكيرهم ان التخاطب بهذه الامواج لا يمكن ان يعدو نقطتين قريبتين على سطح الارض لان الامواج اللاسلكية لا تنحني بانحناء الارض وتكورها . فالمسافة بين محطي التخاطب ، تمكن زيادتها بزيادة ارتفاع الاعمدة التي تحمل الاسلاك الهوائية. وهذه الاعمدة كالمنائر يزداد امتداد ضوئها بزيادة ارتفاع بنائها

وكانت تجارب مركوني الاولى مما قوّى هذا الاعتقاد . ففي سنة ١٨٩٦ جرّب الاتصال اللاسلكيّ بين نقطتين في سهل سلسبوري بانكلترا ، تبعد احداها ميلين عن الاخرى . ثم زاد ارتفاع الاعمدة فزادت المسافة بين النقطتين المتصلتين . فلما كانت سنة ١٩٠٠ كانت هذه المسافة قد بلغت ستين ميلاً ، وفي الاحوال الجوية الموافقة ، امكن الاتصال اللاسلكي على مسافة مائة ميل

وكان مركوني مع اجلاله لآراء العلماء يحسُّ انهُ من الحمق ، الجزم في موضوع لم يدرس درساً وافياً كهذا الموضوع ، وكان علاوة على ذلك يحسُّ ان هذه الامواج اللاسلكية تتحدب بتحدُّب الارض ، والاَّ فكيف يعلّل اجتيازها مائة ميل من محطة الى محطة ، ولو انها كانت كما يقولون لما استطاعت ذلك

لذلك اقدم سنة ١٩٠١ على تجربته المشهورة فاثبت ان في الامكان الاتصال اللاسلكي بين اوربا واميركا (راجع « الكلمات المجنحة » في كتابنا فتوحات العلم الحديث) . فهي من اعظم التجارب العلمية في التاريخ ، لانها اضافت حقيقة جديدة الى العلم وهي ان تكوُّر الارض لا يعيق الامواج اللاسلكية عن الوصول من محطة الى اخرى على جانب الارض المقابل ، ثم لانها كانت مفتتح عصر المخاطبات اللاسلكية العجيب

فاذا كانت هذه الامواج تنحني وتتحدّب بتحدُّب الارض فلا بدّ من شيء يحنيها : وقد كان معروفاً عند العلماء ان موصلاً كهربائيًّا كلوح من النحاس او شبكة من السلك المعدني يستطيع ان يعكس الاشعة اللاسلكية . فاذا فرضنا وجود موصلٍ من هذا القبيل في طبقات الجوّ العليا — كطبقة من الايونات — كان ذلك كافياً لعكس الامواج اللاسلكية. والنظر العلمي كان يقضي ان ترتدّ هذه الامواج من الطبقة الجوية المكهربة او المؤينة (ionized) في زاوية تعدل زاويتها عند اصطدامها بها ، ثم عند عودتها الى الارض ترتدُّ ثانية الى الفضاء ، وكذلك تتقدم في سيرها بهذا التذبذب بين سطح الارض وطبقة الهواء المكهربة

هذه هي القاعدة التي بنيت عليها نظرية هيفيسيد وكنلي وهما مهندسان كهربائيين اولهما انكليزي والثاني اميركي. على ان القول بوجود طبقة مكهربة في اعالي الجو لم يكن قولاً جديداً لان العالم الانكليزي بلفور ستيورت كان قد قال بها بناءً على ادلة اخرى لا صلة لها بالمواصلات اللاسلكية. ولكن هيفيسيد وكنلي كانا اول من فسر انتقال الامواج اللاسلكية بها . وقد ظلّ قولهما نظريًّا ، حتى سنة ١٩٢٥

اذ اثبت وجود طبقة الهواء المكهرب المعروفة بطبقة كنلي هيفيسيد بتجارب جرّبت في اميركا وانكلترا . وكذلك اصبح للغلاف المؤيَّن (ionosphere) مكان في كل بحث جغرافيّ جيولوجي

وقد اثبت البحث الحديث في الطبقة المؤينة انها ليست طبقة واحدة وانها ليست طبقة مستوية بل فيها اودية وجبال ، تتغير اماكنها وفقاً لتقلب النور والحرارة وغيرها من العوامل الآتية من رحاب الفضاء . واشهر هذه الطبقات ثلاث سميت بثلاثة حروف من الابجدية الاعجمية هي D و E و F تردّ الامواج من اعالي الجوّ الى سطح الارض فتجعل التخاطب اللاسلكي مستطاعاً . فطبقة D تعلو ٣٠ ميلا من سطح الارض وترد الامواج اللاسلكية الطويلة ، وطبقة E (وهي المعروفة بطبقة كنلي هيفيسيد) علوها من ٦٥ الى ٧٠ ميلاً وترد الامواج اللاسلكية الطويلة والمتوسطة وطبقة F (وهي المعروفة بطبقة ابلتن) علوها ١٥٠ ميلاً وتردّ معظم الامواج القصيرة . وقد تنفصل طبقة F الى طبقتين او ثلاث طبقات وفقاً لفعل الحرارة والضوء والاشعة المختلفة ، وهذا يعلّل لنا تصرُّف الراديو في بعض الاحيان تصرفاً شاذًّا

***

وهنا يخطر بالبال السؤال التالي . ماذا يكهرب اعالي الجو ؟ والجواب عن هذا السؤال هو ان الشمس هي العامل الاقوى في كهربة اعالي الجو . فقد اثبتت التجارب ان قوة كهربة هذه الطبقات وانفصالها احياناً ، يتبع موقع الشمس في الفضاء واذاً من المعقول اسناد هذه الكهربة اليها . ثم انهُ عند ما تكون كلف الشمس على اشدها فعلاً ، تقع تقلبات عظيمة في الغلاف المؤيَّن

والمقام الاول بين اشعة الشمس المختلفة في تأيين طبقات الهواء العالية هو للاشعة التي فوق البنفسجي . بل ان بعض الباحثين امثال هلبرت ومارس يعتقدون ان الاشعة التي فوق البنفسجي في اشعة الشمس هي المصدر الوحيد لهذا التأيين . ويعتقد تشابن احد علماء جامعة لندن ان دقائق من الكهربائية السالبة تنطلق من الشمس وتحدث بعض التأين في الهواء . ثم هنالك ضروب اخرى من الاشعاع تصدم الهواء وتحدث فيه هذا الفعل بتمزيق بعض دقائقه وذراته

وقد عمل المستر سكلت Skellett جدولاً بمصادر التأيين في طبقات الجو العليا فاذا هو كما يلي

الاشعة التي فوق البنفسجي في ضوء الشمس	٢٨ر٣٦
الشهب	٢ر٤٠٠٣٦
الاشعة التي فوق البنفسجي في ضوء النجوم	ر٠١٤
الاشعة الكونية	ر٠٠٠٣١
الاشعة التي فوق البنفسجي من ضوء البدر	ر٠٠٠٠٤٤

فالارقام في هذا الجدول تدل على وحدات الطاقة التي تقع على مساحة معينة من سطح الارض في الثانية . ويلاحظ فيها ان طاقة الاشعة التي فوق البنفسجي تفوق عشرة اضعاف طاقة المصادر

الاخرى مجتمعة . وليس ذلك لان الاشعة التي فوق البنفسجي اقوى فعلاً من الاشعة الكونية ولكن لان ما تلتقطهُ الارض منه اكثر كثيراً مما تلتقطهُ من الاشعة الكونية

***

وفي ليلة من ليالي سنة ١٩٢٧ لاحظ المهندس اللاسلكي النروجي هالز Hals في اثناء اصغائهِ لاشارات رمزية مذاعة من محطة ايندهاڤن الهولندية ، انهُ يسمع احياناً الاشارة الواحدة ثلاثة مرات . فبعد ما سمع الاشارة الاصلية لبث سُبْع ثانية فسمعها ثانية كأنها واردة من جهة مقابلة ثم بعد انقضاء ثلاث ثوانٍ سمعها ثالثة . اما الصدى الاول فيمكن تعليله بأنهُ تمَّ بعد ما دارت الاشارة اللاسلكية دورة كاملة حول الارض وهذه الدورة تقتضي سبع ثانية من الوقت لان قطر الارض نحو ٢٥ الف ميل تقطعها الامواج اللاسلكية في نحو سبع ثانية . ولكن من اين جاء الصدى الثاني ؟ فان مجيئه بعد ثلاث ثوانٍ يقتضي ان يكون قد قطع ٥٤٨٠٠٠ ميل قبل رجوعه الى الارض فاذا كانت الامواج اللاسلكية تسير جميعاً بسرعة واحدة في انطلاقها من سطح الارض وارتدادها اليها من احدى الطبقات المؤينة، فالطبقة التي ردَّت هذا الصدى الاخير يجب ان تكون على ٢٧٩ الف ميل فوق سطح الارض . وهذا يعني ان هذه الطبقة أبعد من فلك القمر وهو مما يصعب تصديقه . فأحدث هذا النبأ هزة في الدوائر اللاسلكية العالمية وتنبه المشتغلون بالشؤون اللاسلكية للاصغاء الى هذه الاصداء فقيل بعد قليل ان بعضهم سمع صدى بعد خمس ثوانٍ وآخر سمع صدى بعد خمس عشرة ثانية (وهذا يقتضي ان تكون الطبقة العاكسة على ٢٫٣٢٥٠٠٠ ميل فوق سطح الارض) وفي سنة ١٩٢٩ ذكر فريق من علماء فرنسا كانوا قد ذهبوا لرصد الشمس في الهند الصينية انهم سمعوا صدًى لاسلكيًّا بعد انقضاء ثلاثين ثانية على سماع الاشارة الاصلية (وهذا يقتضي ان تكون الطبقة العاكسة على نحو خمسة ملايين ميل فوق سطح الارض)

ويرى العالمان ڤان درپول الهولندي وابلتن الانكليزي ان أفضل تعليل لهذه الاصداء ان بعض الامواج اللاسلكية يحصر بين طبقتين متغيرتين من الايونوسفير اي الغلاف المؤيَّن ، فتتذبذب بينهما مدة من الزمن ثم يطلق أمامها المجال بتحرك احدى الطبقتين او بحدوث فرجة فيها فتعود الى الارض.وهو تعليل لا بأس بهِ ولكن العلماء يقولون انهُ لا يسلم من الاعتراض عليه . وقد نظم في السنة الماضية برنامج دولي لدراسة هذه الظاهرة.ومن غريب ما يروى في صددها ان هذه الاصداء سمعت في اوربا باستمرار منذ ما اشار اليها هالز سنة ١٩٢٧ ولكن المشتغلين باللاسلكي في اميركا لم يسمعوها مطلقاً

هذه هي بعض القوى التي تصدم الارض في خلال سيرها في الفضاء . فاذا كان في طاقة بعض هذه القوى ان يحوّل الفلزات الى ضوء ، وفي طاقة البعض الآخر ان يجعل من الغلاف الغازي غلافاً مكهرباً تُشَقّ فيهِ الاودية وتُبسط السهول وتُرفع الجبال ، فما هو يا تُرى تأثيرها في المادة الحية التي تتكون بين اجسام الاحياء ، او في دقائق الدم وخلايا الدماغ ؟

بحث لغوي في :—

مجلة المجمع الملكي

للاب انستاس الكرملي

[عضو مجمع اللغة العربية الملكي]

١ — توطئة

برز الجزء الاول من مجلة مجمع اللغة العربية الملكي بحلة تزري بحلل العرائس ، فتلقفهُ الادباء ، والعطشى الى اصلاح ما افسد الزمان من لغتنا المبينة ، والراغبون في رقيها ومسايرتها لمقتضيات العصر ، واقبلوا على مطالعتهِ بكل شوق ، للاستفادة منهُ ، وللتمسك بلغة عدنان النقيَّة الصيغة — على ان جمهوراً من هؤلاءِ الفضلاءِ اقتنوهُ لنقدهِ ، وتزييف ما ورد فيهِ ، فانقسموا ثلاث حِزَق : حِزْقة لم ترَ فيهِ حسنة بل كوماً من المساوىء ، وفرقة لم تجد فيهِ سوى المحاسن ، وجماعة كانت بينَ بين ، اي رأت فيهِ محاسن ومساوىء ، وليَّنت عبارة النقد ، فكانت من المنصفين ، الرامين الى هدف الحقّ ، لا غير

اما المسوّئون ، فانهم لم ينطقوا إلاّ عن غرض او مرض في النفس ، او لا اقل من هوى في القلب . وكان المستحسن في أمرهم ان يكونوا اعضاء في المجمع دون غيرهم ، لإظهارهم اياهم مظهر اناس غير اكفاء لما انتدبوا اليهِ . والغاية اذا ما زجت قلب المرء ، أفرغتهُ من مكارم الاخلاق و« عوَّرتهُ » فرأَّستهُ في « مملكة العميان » ، اذ لم تجد سواه ملكاً لتلك الدولة المعيبة — واما المستصوبون لكل ما وقفوا عليهِ من المقالات ، فهم لم يفعلوا هذا الفعل ، إلاّ مدفوعين بدافع ايضاً ، وهذا الدافع هو المصانعة ، في امل انهم يستميلون الخواطر اليهم ، ليكونوا شيئاً او بعض شيء في المجمع من نأيٍ او من كَثَبٍ . — اما الذين جمعوا بين النقد المنزَّه من الغايات الدنيئة والاصلاح المرغوب فيهِ ، فقد احسنوا في المقال والمآل معاً

ونحن من هذا الفريق الاخير ، لوجودنا في المجلة محاسن لا تحصى ، إلاّ انها لا تخلو من بعض مغامز هي لا تكاد تكون شيئاً بالنسبة الى ما حوت من جلائل الاعمال والاوضاع والمصطلحات . وهذه المغامز هي ان بعض اللجان (لا المجمع كما توهم بعضهم) خالفت الاقدمين في بعض القواعد ونحن نعرض هنا على القراءِ وجهة نظرنا للتأمل والتدبُّر ، لعلها تجد موافقة تبدو من تلك اللجان انفسها ، فتطمئن اليها النفوس وتنقاد الى ما فيهِ حسن السبك والصوغ والوضع

٢ النسبة الى فعيل، او فعيلة لغير العَلَم فَعِيْلي لا فَعَلِيْ

جاءَ في مجلة المجمع في (ص ٧٠) ما هذا نصهُ : « القيام بالعمل ، او النشاط العملي — تطلق هذه الكلمة على حالة العضو في اثناء تحقيق الوظيفة ، او على النشاط الوَظَفي » . فنسبت اللجنة الى الوظيفة بقولها « الوَظَفِيّ » وفتحت الواو والظاء المثناة وهذا مخالف لما سُمع ونُقل — اما انهُ مخالف لما سمع ، فلاننا لم نجد من نسب الى فعيلة « النكرة » فقال فَعَلِيّ . فلوَظَفي منسوبة الى الوظيفة . والوظيفة نكرة من النكرات. ولم يسمع في فعيلة هذه فَعَلِيّ بالتحريك البتة. بل فَعِيْلِيّ بابقاء الياء على حالها . فقد قالوا مثلاً : الطبيعي ، والسليقي ، والبديهي ، والغريزي ، والبهيمي ، الى امثالها . ولم يقولوا ابداً : الطبعي ، والسلقي ، والبدهي ، والغرزي ، والبهمي ، بتحريك الاول والثاني واسقاط الياء

ثم عادت المجلة الى تكرار مثل هذا الاصطلاح المخطوء فيه (في ص ٩٨) اذ قالت : « وَشَعَرِيّ الشكل » وضبطت الكلمة ضبط قلم ايضاً بفتح الواو والشين . ونحن لم نعثر على «كلمة واحدة نكرة» نسب اليها هذه النسبة التي نعدها وهماً فظيعاً يَفْقَأُ في عيني المطالع حصرماً شديد الحمَر — واما اذا انكرت علينا مجيء المنسوبات التي ذكرناها لك بهذه الصيغة في كتب القوم ، فنحن نسرد لك مواطن ورودها فنقول :

ا — اما (الطبيعي) ، فقد وردت في جميع المصنفات ، من قديمة ، وحديثة ، ومعاصرة لنا . اما الحديثة والمعاصرة لنا ، فهي اشهر من ان تذكر . والمحدثون والمصريون لا يكادون يعرفون سواها ، واما الاقدمون فقد ذكروها في دواوينهم ، منها كتاب العين . قال صاحبهُ في مادة (ج ب ل) : « جبلة كل مخلوق : تُوسُّهُ الذي طبع عليهِ. وشيء جبلي : منسوب الى الجبلة كما يقال طبيعي» اه. وكفى بالعين حجة . وقد ورد في المصباح ايضاً ما يقارب هذا التعبير في مادة جبل . فليراجع . وصاحبهُ من اهل المئة الثامنة للهجرة

ب — جئنا الى (السليقي) ، فقد جاءَ في لسان العرب ما هذا قوامه : « قال سيبويه : والنسب الى السليقة : سليقي ، نادر . وقد أبنت وجه شذوذه في عُمَيْرة كلب ... الليث : والسليقي من الكلام : ما لا يتعاهد اعرابهِ ، وهو فصيح بليغي في السمع ، عَثُورٌ في النحو . غيرهُ : السليقي من الكلام : ما تكلم بهِ البدوي بطبعه ولغتهِ ، وان كان غيره من الكلام آثر واحسن . وفي حديث أبي الاسود : انهُ وضع النحو حين اضطراب كلام العرب وغلبت السليقية اي اللغة التي يسترسل عنها المتكلم على سليقته اي سجيتهِ وطبيعتهِ من غير تعمُّد اعراب ، ولا تجنب لحن . قال

ولست بنحويٍ يلوك لسانهُ ولكن سليقيٌ اقول فاعربُ اه ما في اللسان

قلنا. قول سيبويه . « سليقي نادر » لا يوافق المنقول من كلام العرب ، كما لا يوافق ائمة النحاة كما سترى بُعَيْد هذا

ج — (والبديهي) ، على ما قاله السيد الجرجاني في تعريفاتهِ (وكذلك في كليات البقاء في ص ١٧٩ من طبعة الاستانة) . « وهو الذي لا يتوقف حصوله على نظر وكسب سواء احتاج الى شيء آخر من حدس او تجربة او غير ذلك ، او لم يحتج . فيرادف الضروري ، كتصوُّر الحرارة والبرودة ، وكالتصديق بان النفي والاثبات لا يجتمعان ولا يرتفقان » اه — ولم نجد مؤلفاً قديماً او مولداً او حديثاً فصيحاً نسب الى البديهة فقال « بَدَهيّ » (او بدَهيًّا ، ان شئت اعراب الكلمة)

د — وورد (الغريزي) في مدّ القاموس ، لكنهُ لم يعزهُ . وهو كثير المجيء في كتب الطب والحكمة والفلسفة . قال ابن سينا في قانونهِ في كلامه على امزجة الاعضاء (ص ٤ من طبعة رومة) : « ان الرئة في جوهرها وغريزتها ليست برطبة شديدة الرطوبة ، لان كل عضو شبيه في مزاجه للغريزي بما يتغذى به . . . فالكبد ارطب من الرئة كثيراً في الرطوبة الغريزية . . . » وجاء في تلك الصفحة في كلامه على امزجة الاسنان . « ولأن الحرارة الغريزية المستفادة فيهم من المنيّ اجمع واحدث وبعضهم يرى ان الحرارة الغريزية في الشبان اقوى بكثير » اه

وقد تكررت « الحرارة الغريزية والرطوبة الغريزية » مراراً لا تحصى في قانون ابن سينا وفي جميع مصنفات الاطباء ، من قديمة وحديثة . ولم اجد كاتباً واحداً قال : غرزي وغرزية — وقال ابن القف المسيحي عند كلامه على خواص العدس « وأما منْ حرارته الغريزية قوية . وطبيعته فائقة جيدة لا يغلبها سبب مرض » اه — وفي مقدمة ابن خلدون في الفصل الـ ٢٦ : « وكذا الحرارة الغريزية في كل طور » وقد اعاد هذه اللفظة مراراً لا تقدر في سفره الجليل . ولو اردنا ان نسرد النصوص التي جاء فيها الغريزي والغريزية لملأنا كتاباً قائماً برأسه . فتدبّر

هـ — اما (البهيمي) فقد ذكرها صاحب مد القاموس ايضاً ولم يعزُها ، مع انها وردت في جميع دواوين الطب عند كلام اصحابها على العشق . قال صاحب الروضة الطبية (في ص ٣٥ من النسخة المطبوعة في القاهرة) : « وبعضهم قالوا انهُ « اي العشق » يختص بالنفس البهيمية ، وهو مرض يعرض لها من قبل افراط الشهوة » — ولصاحبها ايضاً في الصفحة ٣٦ : « ونرى التعشق يختص بالنفس البهيمية اكثر » اه — ووردت الكلمة مرتين اخريين في تلك الصفحة نفسها . وجاءت مراراً لا تحصى في اسفار الاطباء البلغاء عند الكلام على العشق وأنواعه . وكذلك في كتب الادب الباحثة في هذا الموضوع الاخلاقي

٣ — لماذا لا يقال فَعَليّ (بالتحريك) في النكرات والاعلام غير المشهورة

اما انه لا يجوز ان يقال : (الطَبَعيّ) و (السَاقي) و (البَدَهيّ) و (الغَرَزي) و (والبَهَمي)

بالتحريك ، فلأنها ليست بأعلام مشهورة ، ولأن (الطَّبَعِيّ) نسبة الى الطبَع بالتحريك وهو الدنس والوسخ الشديد من الصدإ — ولأن (السَلَقي) نسبة الى السلَق بالتحريك وهو أثر دبرة البعير اذا برئت وابيضّ موضعها ، والقاع الصفصف الاملس ، الطيب الطين — ولأن (البَدَهي) لم يسمع من احد ولم ترد في كلامهم ولا وجود لها في لغتنا — ولأن (الغرزيْ) بالتحريك نسبة الى الغرَز بالتحريك وهو ضرب من الثمام ونبات كنبات الاذخر من شرّ المرعى — ولأن (البَهَمي) بالتحريك نسبة الى البهَم بالتحريك ، وهو جمع بهمة بالفتح وهي اولاد الضأن والمعز والبقر . فما سمعناه ذكرناه قبيل هذا ، وما لم نسمعه ، صرحنا به هنا وبأنهُ لم ينقل عن فصحائهم ولا عن مولديهم ولا عن محدثيهم . فكيف يجوز لاعضاء لجنة من لجان المجمع ان تجري على هواها ولا تعمل بما وصل الينا من كلام البلغاء ؟

٤ — المنقول عن النحاة الراسخين القدم في كلامهم على فَعِيْلي وفَعَلِيّ

كل ما اوردناه الى هنا كان من قبيل المسموع او المنقول عن فصحاء الكتاب من اقدمين ومولدين . اما ان النحاة قالوا لا ينسب الى فعيل او فعيلة النكرة او العلم غير المشهور بحذف الياء بل بابقائها على حالتها فواضح مما نص عليه ابن قتيبة [١] في (ادب الكاتب) ص ٣٠٧ من طبعة الافرنج : « اذا نسبت الى فعيل او فعيلة من اسماء القبائل والبلدان وكان (مشهوراً) القيت منه الياء ، مثل ربيعة وبجيلة : رَبَعيّ وَبجَلِيّ . وحنيفة : حنفيّ . وثقيف : ثقفي ، وعتيك : عتكيّ . وان لم يكن الاسم (مشهوراً) « علماً كان ام نكرة » لم تحذف الياء في الاول « اي في فعيل » ولا الثاني « اي في فعيلة »

فأنت ترى من هذا انه لم يذهب الى حذف الياء في ما ليس بمشهور ، لئلاّ يضلّ الانسان في معرفة الاسم الذي ينسب او نسب اليه . ومما يؤيد قول ابن قتيبة الدينوري انك اذا نسبت الى مدينة الرسول — وهي من اشهر الاعلام وأعرفها بين الناس — قلت : مَدَني ، بالتحريك وبحذف الياء ، لانك ان نطقت بهذا الحذف لم تضل الطريق في معرفتها بل اهتديت حالاً اليها

(١) كان ابن قتيبة من علماء النحاة الذين عاشوا بعد سيبويه . وكان قد اطلع على كل ما كتبه صاحب « الكتاب » لكنه خالفه في امور كثيرة فتكون نظراته بعد مدى من نظرات سيبويه حتى ان ابن الخطيب قال فيه « كان رأساً في العربية واللغة والاخبار وأيام الناس ، ثقة ، ديناً ، فاضلا » وهذا اعظم مديح قيل في رجل . فذا كان ابن قتيبة الدينوري « رأساً » كان سائر العلماء بالنسبة اليه ، اعضاء لتلك الهامة . وليست الاعضاء كلها كالرأس

وفي الفهرست لابن النديم ان ابن قتيبة كان صادقاً في ما يرويه ، عالماً باللغة ، والنحو ، وغريب القرآن ، ومعانيه والشعر والفقه » آه . وراجع ما قاله ابن الانباري وابن خلكان في الوفيات ، وبغية الوعاة للسيوطي وروضات الجنان ومعجم الادباء وابن النديم الى غيرهم تراهم جميعاً يثنون عليه اطيب الثناء

لشهرتها بين جميع الناس قاطبةً . واما اذ نسبت الى المَدْينة بمعنى البلدة ، فانك تقول «مديني» باثبات الياء في موطنها . وكذلك تفعل اذا اردت ان تنسب الانسان او الثوب الى المدينة تقول «مَدَنِي» والطائر ونحوهُ تقول « مديني » — اما اذا اردت ان تنسبهُ الى « المدائن » ، علمَ لمدينة كسرى ، فتقول « مدائني » . قال سيبويه : « واما قولهم « مدائني » فانهم جعلوا هذا البناء اسماً للبلد » اه —

قلت : ومن هذا القبيل قولهم « الفرائضي » للعارف بعلم قسمة التركات على مستحقيها ، فانهم اعتبروا اللفظة (اي علم الفرائض) عَلَماً للعلم المذكور . وسموا الفرائضي ايضاً : الفارض والفراض والفريض والفرضي وكلها من قبيل النسب اما للكثرة واما لغيرها . وقالوا « الفرضي » ولم يقولوا « الفريضي » لانعدام « علم الفريضة » لهذا العلم ، ولان الفريضيّ نسبة الى « الفريض » للعارف بعلم الفرائض . وانت بصير ان اغلب المنسوبات تكون لاعلام المواطن والرجال . وقد جروا في اعلام العلوم كما جروا في اسماء المدن ، التي هي الاصل في النسب . ثم انتقلوا منها الى اسماء الرجال ، وفي الآخر الى النكرات من باب التوسع والتجوز . ولهذا كانت النسبة الى النكرات قليلة جدًّا ، اللهم الاَّ ان تكون نكرات تقع على الجنس ، فتكون من قبيل اعلام جنس لا اعلام نكرات منفردات بنفسها . ولهذا قالوا «فرضي» بالتحريك والنسبة منعاً للبس (اي منعاً لها من الاختلاط «بالفريضي» الذي هو العالم بالفرائض مع ياء النسب ، واحتفاظاً بقاعدة اصل الوضع للنسبة التي اوضحناها لك)

فانت ترى من هذا التتبع ان العرب لم ينسبوا مطلقاً الى فعيل او فعيلة بقولهم « فعَلي » بالتحريك اذا كان غير مشهور ، علماً كان ام نكرة ، بل « فعيلي » باثبات الياء على اصلها . والآن نثبت لك هذه الحقيقة بكثرة ما سمع منهم منذ عهد الجاهلية الى صدر الاسلام الى عهد المولدين الى عصرنا هذا

٤ — شواهد على ورود فَعَلِيّ في الاعلام المنسوبة الى فعيل او فعيلة

قلنا : لا يقال «فَعلي» الاَّ في النسبة الى ما «اشتهر» من الاعلام واجناس النكرات . والاَّ فيقال « فعيلي » في العَلم نفسه وفي النكرات ايضاً . ونحن نسرد لك هنا ، ما عثرنا عليه من هذا القبيل ، مرتباً على حروف الهجاء وهو اكثر من مئة لفظة . ودونكها ، منقولة عن كتاب الانساب للسمعاني ، واللباب لابن الاثير ، ومعجم البلدان ، ومعجم الادباء لياقوت الحموي ، ولب اللباب للسيوطي : —

١ الاديمي كالكريمي نسبة الى الاديم ، بطن من خولان — ٢ الاشيري نسبة الى اشير حصن بالمغرب — ٣ البحيري نسبة الى بحير ، جدٌ — ٤ البديهي نسبة الى البديهة وهي النظم بسرعة — ٥ البذيسي نسبة الى بذيس ، من قرى مَرْوَ — ٦ البريدي نسبة الى البريد وهو الساعي — ٧ البسيني نسبة الى بسينة قرية بمرو — ٨ البشيتي نسبة الى بشيت قرية بفلسطين — ٩ البشيري نسبة

الى قلعة بشير بنواحي الزَوْزان من بلاد الاكراد ، والى جد ايضاً — ١٠ البشيلي نسبة الى بشيلة قرية قرب بغداد — ١١ البصيري نسبة الى بصير ، جد . وهي ايضاً نسبة الى بصير الجَيْدور ، بالجيم والتحتية والمهملة والراء ، من نواحي دمشق — ١٢ البكيلي نسبة الى بكيل ، بطن من همدان — ١٣ التزيدي نسبة الى تزيد من بلاد اليمن ، وبطن من الانصار — ١٤ التليدي نسبة الى تليد ، بطن الازد — ١٥ الثبيري نسبة الى ثبير ، جبل بمكة — ١٦ الجديلي نسبة الى جديلة ، وهو موضع في طريق مكة على طريق البصرة — ١٧ الجليقي نسبة الى جليقة ، بلد بالروم — ١٨ الجميلي نسبة الى جميل ، جد ، والى درب جميل ببغداد حاضرة العراق — ١٩ الجليلي نسبة الى الجليل من عمل صيداء — ٢٠ الجهيري نسبة الى جهير ، جدّ — ٢١ الحديثي نسبة الى الحديثة والحديث من مدن العراق — ٢٢ الحريمي نسبة الى حريم قبيلة ، والى الحريم الطاهري من محلات بغداد — ٢٣ الحزيمي (بالذاي) نسبة الى حزيمة ، بطن من نَهد — ٢٤ الحسيني ككريمي نسبة الى حسين ككريم ، وهو بطن من طيّىء — ٢٥ الحظيري نسبة الى الحظيرة ، موضع فوق بغداد — ٢٦ الحكيمي نسبة الى حكيم ، جد — ٢٧ الحليمي نسبة الى حليمة السعدية ، وجدة ، والى حليم جد الفقيه الشافعي — ٢٨ الحميدي نسبة الى الحميد ، الامير الساماني — ٢٩ الخبيصي نسبة الى خبيص ، وهي مدينة بكرمان — ٣٠ الخصيبي نسبة الى خصيب (بالصاد المهملة) رجل — ٣١ الخطيبي نسبة الى خطيب جد ، كان خطيباً — ٣٢ الخطيمي نسبة الى خطيم ، جد — ٣٣ الدبيري نسبة الى دبير ، قرية بنيسابور — ٣٤ الدبيقي نسبة الى الدبيقية ، قرية ببغداد — ٣٥ الدثيني نسبة الى الدثينة ، قرية باليمن — ٣٦ الدميري نسبة الى دميرة من قرى مصر — ٣٧ الربيعي نسبة الى الربيع ، جد — ٣٨ الزريقي نسبة الى زريق ، محلة بمرو — ٣٩ الرشيدي نسبة الى الرشيد الخليفة العباسي الشهير ، والى رشيد بلدة بمصر — ٤٠ الرهيني نسبة الى رهين ، جد — ٤١ الزبيعي نسبة الى زبيع ، جد — ٤٢ الزبيني نسبة الى زبينة ، جد — ٤٣ الزبيدي نسبة الى زبيد ، مدينة باليمن — ٤٤ الزعيمي نسبة الى زعيم الدولة — ٤٥ السبيري نسبة الى سبيرة ، قرية ببخارى — ٤٦ السبيعي نسبة الى سبيع ، بطن من همدان ، والى محلة السبيع وهي بالكوفة — ٤٧ السعيدي نسبة الى سعيد ، جد ٤٨ السليحي نسبة الى سليح ، بطن من قضاعة — ٤٩ السليطي نسبة الى سليط ، جد — ٥٠ السليمي نسبة الى سليم ، درب ببغداد والى سليمة بطن من الازد — ٥١ السنيجي نسبة الى سنيج ، مدينة من عمل كرمان — ٥٢ السنيكي نسبة الى سنيكة ، قرية بمصر — ٥٣ الشبيني نسبة الى الشبين وهو الصنوبر او نوع منهُ وهو المسمّى في عهدنا هذا بالشربين في سورية ولبنان — ٥٤ الشريجي نسبة الى شريج ، جد — ٥٥ الشريشي نسبة الى شريش مدينة بشذونة — ٥٦ الشريفي نسبة الى شريف بطن من تميم — ٥٧ الشريكي نسبة الى شريك ، بطن من دَوْس — ٥٨ الشعيري نسبة الى الشعير لبائعهِ — ٥٩ الشفيقي نسبة الى الشفيق — ٦٠ الصديقي نسبة الى صديق ، جد — ٦١ الصريمي

نسبة الى صريم ، جد — ٦٢ الصغيري نسبة الى صغير . جد — ٦٣ الضبيسي نسبة الى ضبيس ، بطن من عذرة — ٦٤ الطريفي نسبة الى طريف ، بطن من طيء — ٦٥ الطريقي نسبة الى الطريق وهو علي بن المنذر ، لانهُ ولد في الطريق — ٦٦ الطميسي نسبة الى طميس ، قرية بمازندران — ٦٧ العتيقي نسبة الى عتيق ، جد — ٦٨ العريشي نسبة الى العريش ، موضع بناحية الشام وهي اليوم من ديار مصر — ٦٩ العريفي نسبة الى عريف بن جُشَم — ٧٠ العقيلي نسبة الى عقيل بن ابي طالب ٧١ العليجي نسبة الى عليجة (بفتح العين وكسر اللام) تصغير علي على الطريقة الفارسية — ٧٢ العميري نسبة الى عميرة ، بطن من ربيعة — ٧٣ الغسيلي نسبة الى غسيل الملائكة ، حنظلة بن ابي عامر — ٧٤ الغشيدي نسبة الى غشيدة من قرى بخارى — ٧٥ الفقيري نسبة الى الفقير ، جد — ٧٦ الفليشي ، نسبة الى فليش ، قرية بالاندلس — ٧٧ القتيري الى قتيرة ، بطن من تجيب — ٧٨ القريبي نسبة الى ابي قريبة ، جد — ٧٩ القريحي نسبة الى قريح ، بطن من سامة بن لؤيّ — القشيبي نسبة الى بني القشيب ، بطن من لخم — القطيعي نسبة الى قطيعة الربيع والى قطيعة الفقهاء والى قطيعة ام جعفر والى قطيعة الدقيق . وكلها محلات كانت في بغداد — ٨٢ القطيفي نسبة الى القطيف ، بلد بناحية الاحساء — ٨٣ القميري نسبة الى قمير بن حبشة بن سلوك بن كعب بن عمرو ابن ربيعة — ٨٤ الكبيري نسبة الى كبير ، بطن من اسد وغيره وقرية قرب بخارى — ٨٥ الكثيري نسبة الى كثير ، جد — ٨٦ الكفيني نسبة الى كفين قرية ببخارى ٨٧ اللقيطي نسبة الى لقيط ، جد ٨٨ المريسي نسبة الى مريس ، قرية بمصر . — ٨٩ المريضي نسبة الى المريض ، جد — ٩٠ المطيري نسبة الى المطيرة ، قرية بنواحي سر من رأى — ٩١ المغيلي نسبة الى المغيلة ، قبيلة من البربر — ٩٢ المنيحي نسبة الى المنيحة . قرية بدمشق — ٩٣ المنيعي نسبة الى منيعي جد — ٩٤ النجيحي نسبة الى نجيح جد — ٩٥ النذيري نسبة الى نذير ، بطن من بجيلة — ٩٦ النريزي نسبة نريز قرية باذربيجان — ٩٧ النضيري نسبة الى بني النضير ، قبيلة من اليهود — ٩٨ النعيتي نسبة الى النعيت ، بطن من سامة بن لؤي — ٩٩ النعيمي نسبة الى نعيمة ، بطن من الكلاع — ١٠٠ الوجيزي نسبة الى حفظ الوجيز — ١٠١ الوجيهي نسبة الى وجيه ، جد — ١٠٢ الوزيري نسبة الي الوزير ، جد ، وغيره — ١٠٣ الوكيعي نسبة الى وكيع ، جد . ورجل . وهناك غير هذه المنسوبات وعلى هذا الوجه مما لا يقع تحت حصر . ولا يزيدنا فائدة لعلمنا أن هذه المنسوبات اكثر مما ذكرناه بكثير

***

اذن هذه مائة وثلاث كلمات ، جاءت فيها فعلي منسوب الى فعيل أو فعيلة وكلها أعلام . زد على ما تقدم اننا لم نذكر ما جاء منها اجوف او مضاعفاً لشهرة قاعدتها ان الياء لا تحذف منها في النسبة اليها ، ولو جمعناها لازداد العدد المذكور ضعفين أو ثلاثة اضعاف واكثر هذه الكلم من الالفاظ المعروفة منذ عهد الجاهلية كأسماء بطون من العرب أو اسماء ، مدن في ديار الجزيرة العربية — فأنت

ترى من هذا التعداد الطويل الممل — وان اجتزأنا بالوشل منهُ — ان الاولين ، او قل بالاحرى : ان الاول الذي وضع قاعدة النسبة الى فعيل او فعيلة بحذف الياء لم يستقر جميع ما جاء من هـذا القبيل ولو تتبعها كما تتبعناها لعدل عن قاعدته ووضع ضابطاً مخالفاً لما قرره ، وجعل ما خالف هذا الضابط شاذاً لا غير . لكن الذين جاؤوا بعد الواضع الاول تأثروه في قاعدته من غير أن ينعموا النظر في صحة ما قال او علتهِ ، فقرارة تسفَّهت قراراً

ونزيد على ما تقدم ان النسبة الى فعيل وفعيلة بابقاء الياء في قلب الكلمة وكَسْع الآخر بياء النسبة كثير الورود في ما ذكره القلقشندي في صبح الاعشى ونحن لم نذكر تلك الشواهد ، لانها وضعت بعد العهد العباسي الزاهر . اما ما نقلناهُ عن السمعاني وابن الاثير وياقوت الحموي والسيوطي فهو مما عرف في الجاهلية أو صدر الاسلام او في العصر العباسي . — فأين بقي كلام من يقول خلاف ما ذهبنا اليهِ — وتلك الالفاظ الشاذة لو جمعت بحذافيرها لما رَبَتْ على العشرين ، على اعظم تقدير ، دع عنك اننا لم نذكر من الكلم الاّ ما عثرنا عليهِ في الدواوين المذكورة بسرعة البرق الخاطف لقلة ما بيدنا من الوقت ، ولهذا نظن ان هناك الفاظاً كثيرة فاتتنا في تلك الاسفار نفسها

وسوف نذكر بقية ماجاءَ من الاوهام في مجلة المجمع والتوفيق منهُ تعالى

مقالات لغوية اخرى — في هذا العدد من المقتطف

١ — ايقال كريات بيضاء (صفحة ٢٠٩)

لامين ظاهر خير الله

٢ — اسماء النبات (صفحة ١٦٥)

لمحمود مصطفى الدمياطي

٣ — اللغة وأسماء الامراض (في باب المراسلة والمناظرة)

لعبد الرحيم بن محمود

٤ — تعليق على اسماء النبات (في باب المراسلة والمناظرة)

للفريق امين باشا المعلوف

الاتجاه الجديد في

اشكال السيارات والسفن

والقطارات والطائرات

رغبة في السرعة مع توفير الوقود

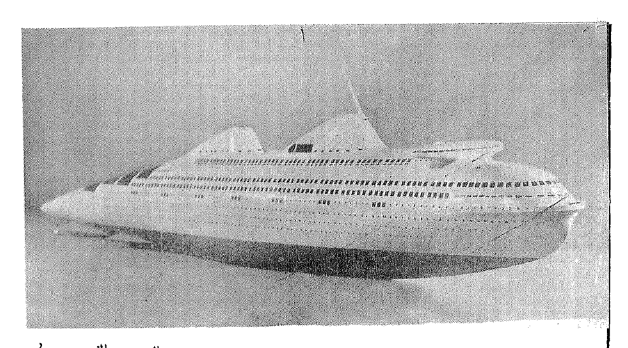
من عجائب الطبيعة انها تتوخى الاقتصاد كلّ الاقتصاد في خلقها ، فقطرة المطر الساقطة من الغمام الهامي ، تتخذ الشكل الذي يجعلها اقلّ ما تكون تعرُّضاً لمقاومة الهواء لها وهو شكل كمثري . والضوء المنبعث من بعض الحيوانات البحرية والبرية لا يضيِّع معظم الطاقة التي تولده في التغلّب على مقاومة السلك كما يحدث في ضوئنا الكهربائي . ومنقار الطير تجعله بحيث يكون افعل ما يكون في نقر الثمار او نقد الحبوب . والعقاب تهيء لها طريقة لكنع جناحيها وهي منقضة لكي لا يزيد الجناحان المنشوران مقاومة الهواء لها . والسمك على اختلاف اشكاله تراعي فيه ان الرزق عسير في البحر الخضم ، وان الاسماك لا طاقة فائضة عندها تنفقها في طلب القوت ، فتخلقها بحيث تقتصد في هذه الطاقة جهدها ولذلك تجعل شكلها اقلّ ما يكون مقاومة للسير في الماء

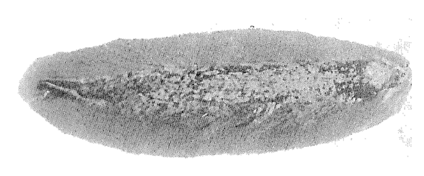
تفعل الطبيعة ذلك لا عن وعي ، ولكن مجاراة لنواميس عامة ، بدأ الانسان يميط عنها اللثام في العصور الاخيرة . ولو هو راعى بعضها لوفّر على نفسه جهداً كبيراً بذل في غير وجه ، وطاقة عظيمة بذّرت على غير سبيل ، ولكفّ عن التبجُّح بانهُ غزا الطبيعة ولقال في دعة انهُ تعلّم منها

خذ سيارة اليوم ، فانت حين تسير بها بسرعة ثلاثين ميلاً في الساعة تنفق نحو نصف قوتها الاندفاعية المستمدة من محركها في مقاومة الهواء ، لان شكل السيارة حين سيرها بهذه السرعة يخلق دوامات من الهواء فوق السيارة وحولها وخلفها تعيقها عن المضيّ . فاذا ارتقت سرعة سيارتك الى ٧٠ ميلاً في الساعة اصبح ما تنفقهُ من الطاقة في مقاومة الهواء خمسة اسداس الطاقة التي يولّدها المحرّك

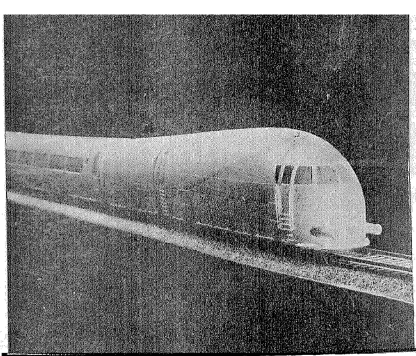
او خذ السفينة الايطالية العظيمة « ركس » . فرغبة اصحابها في زيادة سرعتها عقدتين في الساعة اقتضت منهم زيادة ما تحرقهُ محركاتها من البترول من ٧٠٠ طن في اليوم الى ١١٠٠ طن اي ان زيادة عقدتين في الساعة في سرعة السفينة اقتضى زيادة النفقة على الوقود نحو الف جنيه في اليوم، لان زيادة السرعة تقتضي زيادة مقاومة الماء للسفينة زيادة كبيرة ، ومن هنا زيادة ما ينفق من الوقود للتغلّب على هذه المقاومة

ولو ان الطبيعة تجسمت مهندساً يصنع سيارة او يبني سفينة ، لما عمدت الى زيادة القوة فقط في التغلّب على مقاومة الهواء والماء . بل لحاولت ان تجعل شكل السيارة ، او شكل السفينة ، بحيث





التصميم الذي وضعهُ المهندس نورمس بل غدس لسفينة كبيرة وفقاً للقواعد العلمية وهي تشبه دلفيناً او الحيوان المائي الذي تحتها وهو ضرب من الفقم



تصميم قطار وضعهُ المهندس غدس وقد صنع غير قطار في اميركا من هذا القبيل فتحققت فيه السرعة مع توفير الوقود

نقلاً عن مجلة « التاريخ الطبيعي » الاميركية

يكون اقلّ ما يمكن مقاومة للهواءِ او للماءِ ، حتى ينفق اعظم جانب من الطاقة في احراز السرعة ، وهو ما فعلتهُ في اسماك البحر وبعض حيوانات اليابسة والطيور ، على تفاوت بينها

***

يقول علماء الحركة ان المقاومة التي يلقاها جسم متحرك في الماء او في الهواء تزداد كمربع تسارعه اذا كان هذا التسارع من مرتبة عادية كتسارع سيارة أو طيارة . ثم ان هذه المقاومة تتوقف على حجم الجسم وشكلهِ . والشكل لا يعني شكل مقدم الجسم فقط بل شكل مؤخرتهِ وما بينهما . فاذا ضوعف التسارع صارت المقاومة اربعة اضعاف . أما الشكل فيجب أن يكون بحيث يدرك أقصى سرعةٍ للجسم مع أقل نفقةٍ في الطاقة التي تحركهُ

هذه قواعد علمية قد يتعذر ادراك مغزاها على بعض القراء الاَّ اذا ضربنا مثلاً عليها . خذ لوحاً بيضيًّا من الخشب أو المعدن وغطسهُ في حوض من الماء جاعلاً وجه اللوح الامامي عموديًّا على اتجاه الحركة . ثم حرك اللوح بسرعة معينة فتجد وانت تحركه ان الماء يقاوم هذه الحركة وهذا طبيعي . ولنقُلْ ان مقاومة الماء لحركة اللوح بهذه السرعة تعدل واحداً صحيحاً . ثم خذ قطعة مكعبة من الخشب نفسهِ طولها طول اللوح ، وعرض كل سطح من سطوحها عرض اللوح ، وغطسها في الماء نفسهِ وادفعها بحيث يكون احد سطوحها في خط المقاومة ، وبنفس السرعة التي دفعت بها اللوح ، تجد ان مقاومة الماء لها اقلّ بل هي عند التحقيق تبلغ ٨٢ في المائة من مقاومة الماء للوح . ثم خذ اسطوانة من الخشب نفسهِ طولها طول اللوح وقطر مقطوعها كعرض اللوح ثم حركها في الماء بسرعة حركة اللوح ، جاعلاً مقطوعها في خط مقاومة الماء ، فترى ان مقاومة الماء لها تبلغ ١٨٥ر٠ من واحد صحيح وهو مقاومة الماء لحركة اللوح

فاذا قمت بهذه التجارب قرب سطح الماء ، وجدت ان حركة كل جسم من هذه الاجسام في الماءِ ، تحدث تيارات حولهُ ووراءهُ تختلف عن التيارات التي تحدثها حركة الآخر ، وان الاختلاف في هذه التيارات يصحبهُ نقص في مقاومة الماء لسير الجسم المتحرك ، اي نقص في مقدار الطاقة التي انفقت في احداث قدر واحد من العمل في الاحوال الثلاث

فهذا الاقتصاد في الطاقة نتيجة لما أحدثناهُ في الجسم المتحرك من تغيير في شكلهِ

وقد عمدت الطبيعة الى هـذه القاعدة في خلق الحيوانات المختلفة رغبة في الاقتصاد كذلك . ولكن الانسان لم يعن بها ، الاَّ لما اصبح الخلق الانساني يأبى البطء في الانتقال ، فصار ادراك السرعة العظيمة في السيارة والطيارة ، في السفينة والقطار، هدفاً تتقطع دونهُ الاعناق وتزهق الارواح . عندئذ ادرك الانسان ان زيادة السرعة يقتضي زيادة عظيمة في النفقة لا يسوغها من الناحية الاقتصادية ما توفره السرعة الجديدة من الوقت على المسافر

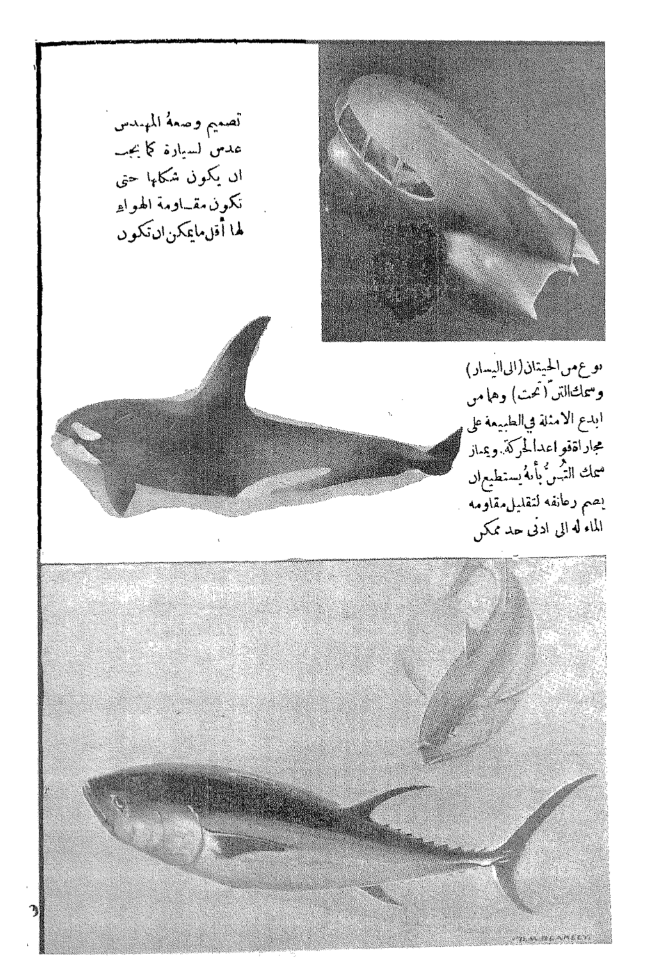
ويقول دانيال ساير Sayre وهو من ابرع مهندسي الطيران في اميركا، انه لو امكن صنع سيارة

بحجم سيارة متوسطة مألوفة ، على ان يفرغ شكلها في القالب الامثل الذي تقتضيه قواعد الحركة والمقاومة ، لنقصت المقاومة التي تلقاها السيارة من الهواء تسعة اعشار اي ان هذه المقاومة تصبح عُشر ما هي الآن . ولكن بلوغ الكمال في هذه الناحية من الحياة متعذر تعذره في سائر نواحيها. الاَّ ان هذا الخفض العظيم في مقاومة الهواء للسيارة لا يبدو لصاحبها وهو يسير بسرعة ثلاثين ميلاً او اربعين ميلاً في الساعة ، بل يبدو عند ما ترتقي السرعة الى نحو مائة ميل في الساعة

ولعلَّ السؤال الاول الذي يخطر بالبال بعد بسط القواعد المتقدمة هو لماذا لا يعمد المهندسون وصانعو السيارات الى صنع سيارات من هذا القبيل لا يقاومها الهواء مقاومة شديدة فيوفرون على مستعمليها جانباً من نفقة الوقود ان لم يرغبوا في زيادة السرعة او حالت القوانين والطرق دونها

والواقع ان الحائل دون ذلك نفسيٌّ في المقام الاول لان الناس وقد أَلِفوا اشكال السيارات كما هي ، يأنفون من اشكال جديدة تختلف عنها كل الاختلاف . فالسيارة المصنوعة على هذه القواعد يجب ان تكون كمثرية الشكل ، وهو قالب تستهجنهُ العين لانها لم تألفه . ثم هنالك حائل اقتصادي يقتضي من اصحاب المصانع احداث تغيير كبير في التصميمات التي يجرون عليها والآلات التي تخرج هذه التصميمات من حيز الرسم الى حيز الفعل . وقد كان غوستاف ايفل ، صاحب برج ايفل المشهور اول من عُني من نحو عشرين سنة ، بدراسة تأثير الهواء وتياراته في سير السيارات والقاطرات ومركبات القطارات والطائرات. ثم شرع العلماءُ والمهندسون يبنون أنفاقاً خاصة لتجربة التجارب فيها بنماذج من الطائرات والسيارات والقطارات . وقد عيَّنت الاميرالية البريطانية لجنة من العلماءِ لدراسة الاحياءِ البحرية مثل سمك التنّ ِ والسلمون والحوت الازرق والقرش رغبة منها في التوصُّل الى اصلح الاشكال لسفن الهواءِ والغوَّاصات . وقد اسفرت هذه الدراسة عن ان افضل الاشكال الطبيعية الجامعة لهذه المزايا ، انما هو شكل القِرش Shark

وعُني المستر هيلد Heald احد علماء مجلس المقاييس والموازين في الحكومة الاميركية بتجربة تجارب في انفاق من هذا القبيل فاخذ اربعة نماذج قياسية لسيارة مقفلة (سيدان) صنعت سنة ١٩٢٢ ولسيارة مفتوحة صنعت سنة ١٩٢٢ ولسيارة (سيدان) خفيفة صنعت سنة ١٩٢٨ ولسيارة (سيدان) خفيفة صنعت سنة ١٩٣٣ ونموذجين لسيارتين مصنوعتين على اساس القواعد التي يجب ان تتوافر في السيارة لتكون اقل ما تكون مقاومة للهواءِ . ثم قاس مقاومة الهواءِ لكلٍّ من هـذه النماذج فوجد ان مقاومة الهواءِ لنموذج سيدان ١٩٢٢ يدلُّ عليها الرقم ٠،٠٠١٧ وان مقاومته لنموذج سيدان ١٩٢٨ يدلُّ عليها الرقم ٠،٠٠١٨ وان مقاومتهُ لنموذج سيدان سنة ١٩٣٣ يدلُّ عليها الرقم ٠،٠٠١٥ اما المقاومة للنموذجين الاخيرين فيدل عليها الرقم ٠،٠٠٠٥ اي ان السيارة التي تصنع وفقاً للقواعد العلمية الصناعية تفوق في كفاءَتها ٣٥٠ ضعفاً كفاءَة سيارة كانت مستعملة من ثماني سنوات . وهذا يعني ان سيدان سنة ١٩٢٢ تحتاج الى قوة ٢٧ حصاناً لتسير بسرعة ٣٠



تصميم وضعهُ المهندس عدس لسيارة كما يجب ان يكون شكلها حتى تكون مقاومة الهواء لها أقل ما يمكن ان تكون

نوع من الحيتان (الى اليسار) وسمك التن (تحت) وهما من ابدع الامثلة في الطبيعة على مجاراة قواعد الحركة. ويمتاز سمك التن بأنهُ يستطيع ان يضم زعانفه لتقليل مقاومة الماء له الى ادنى حد ممكن

نقلاً عن مجلة « التاريخ الطبيعي » الاميركية

ميلاً في الساعة واما سيدان سنة ١٩٢٨ فيحتاج الى قوة ٢٦ حصاناً ليسير بالسرعة نفسها وسيدان سنة ١٩٣٣ الى قوة ١٨ حصاناً وان كلاً من السيارتين المصنوعتين وفقاً للقواعد العلمية تحتاج الى قوة ٨ احصنة فقط . فكفاءة هاتين السيارتين الميكانيكية تزيد ٣٠٠ ضعف على كفاءة سيارة ١٩٣٣ و ٦٠٠ ضعف على كفاءة سيارة سنة ١٩٢٢

هذا فيما يتعلق بالسيارات . فاذا نظرنا الى القطارات وجدنا أن ارتقاء السفر الجوي والانتقال بالسيارات ، قد سلبها جانباً كبيراً من ركابها . ولا ريب في ان السفر الجوي سوف يهدّد قريباً السفن التي تمخر عباب البحار . ومن الغريب ان شركات السفانة عمدت الى تكبير حجم السفن في مواجهة هذه المنافسة من الطائرات غير عابئة على ما يظهر بالقواعد العلمية التي يجب أن تتوافر في تصميمها

ففي الولايات المتحدة الاميركية مهندس يدعى نورمن بل غدس N. B. Geddes لهُ نظرة خاصة في هذا الموضوع يهزأ بها بعض المهندسين لانها متطرفة في رأيهم . ولكن غدس يرى ان شكل السفينة المثلى يجب أن يكون أشبه بالدلفين منهُ بأي شيءٍ آخر . وفي الصورة المقابلة رسم لسفينة مصنوعة على هذا المثال . وعنده أن سفينة حمولتها ٧٠ الف طن وطولها الف قدم ، اذا صنعت على هذا المثال زادت سرعتها ٢٠ في المائة أي نحو ستّ عقد بحرية من دون أن تزيد ما تنفقهُ من الوقود كما فعلت السفينة الايطالية «ركس» فتستطيع ان تختصر مدة سفرها بين نيويورك وبليموث ٢٢ ساعة . ثم ان بناءها على هذه القواعد يخفض مقاومة الريح لها ١٤ في المائة

أما القطارات فحالتها أحرج من حالة السفن الآن لأن الطائرات والسيارات تنافسها في ميدان الانتقال والنقل على سطح الارض . وقد نقص عدد الأميال التي قطعها المسافرون بالسكك الحديد الاميركية من ٤٧ مليوناً سنة ١٩٢٠ الى نحو ١٧ مليوناً سنة ١٩٣٣

وقد صنع في أميركا قطار من هذا القبيل وفقاً لقواعد الحركة العلمية باسم زفير Zephyr . هذا القطار يحتاج الى قوة ٥٠٠ حصان لجرّه مسافة ٩٠ ميلاً حاملاً ١٢٠ مسافراً وما زنتهُ ٢٥ الف رطل من البريد والامتعة . أما القطار المألوف فيحتاج الى قوة ٣٤٠٠ حصان لنقل الحمل نفسهِ بالسرعة نفسها . فعلى القاطرة في القطار المألوف ان تجرّ علاوة على كل راكبٍ ، ما وزنهُ ثمانية اطنانٍ من عربات القطار نفسهِ ، والنفقة التي تتكبدها الشركة على جرّ هذا الوزن الاضافي ، تبلغ ريالاً لكل ميل من السير ، وتنفق القاطرة ما قوتهُ ٣ر٨ الحصان على كل مسافر وما يتبعه . فاذا سمح للمهندس ان يصنع قطاراً تجتمع فيه القواعد التي بسطناها وحولت قاطرتهُ من قاطرة بخارية الى قاطرة كهربائية ، اصبحت القوة التي تنفق على جر المسافر الواحد وما يتبعه خمسة أحصنة بدلاً من ٣ر٨ الحصان ، واصبح ما تنفقه الشركة على الميل الواحد من السفر تسعة قروش بدلاً من عشرين قرشاً . وبذلك تستطيع سكك الحديد ان تنافس السيارات والطائرات . وقد بدأت شركات السكك

الحديد تتنبه لهذا الامر ، ولكنها مترددة في احداث الانقلاب التام الذي يقتضيه ؛ لان الانسان بوجه عام يكره التزحزح عن شيء ألفه ولو كان الربح في الانقلاب مضموناً ، والخسارة في الاستقرار لا ندحة عنها

ان سر السرعة في الطبيعة هو خلق الاحياء حتى تكون مقاومة الوسط الذي تتحرك فيه اقل ما يمكن ان تكون . « فالعودة الى الطبيعة » يجب ان تكون شعار هذا العصر الراغب في السرعة

***

كتبنا هذا المقال ولم نذكر فيهِ اللفظ الانكليزي الذي يُدلُّ به الآن على السيارة او القطار المصنوع على اساس القواعد التي بسطناها . هذا اللفظ هو Streamlining واصل الكلمة من ان حركة السوائل نوعان احدها جريان في خط مستقيم او يكاد يكون مستقيماً streamline motion والثانية جريان مضطرب تكثر فيه الدوامات وتزداد بازدياد السرعة turbulent motion فلفظ streamlining مطبقاً على سيارة مصنوعة وفقاً لقواعد الحركة العلمية يقصد به ان يكون شكلها بحيث تكون حركة السائل او الغاز الذي تسير فيهِ خلواً من الدوامات على قدر الامكان لأن هذه الدوامات هي التي تعيق تحركه اي انها سرُّ مقاومة السائل او الغاز لهُ . وشكل الجسم الذي يسير في سائل او غاز من دون ان يحدث هذه الدوامات ، او يحدث منها اقل مما يحدثهُ اي شكل آخر ، هو الشكل المستطيل البيضي المقدمة المستدق المؤخرة . وقد يصلح القول بأنهُ شكل مساير للتيار (استعمال عوض جندي) ولكننا نفضل كلمة واحدة اذا امكن ليسهل التصرف بها عند الكتابة . فراجعنا في المخصص ما جاء في اوصاف حركة الحيوانات المختلفة لعلنا نعثر فيها على ما يمكن استعارته لما نحن في صدده

ثم خطرت على بالنا مادة مشق ومن معانيها « مشقت الجارية على المجهول مشقاً اي طالت مع رقة . . . . المشق سمكة بحرية . . . (بينا في هذا المقال ان الاسماك بوجهٍ عام اقرب ما يكون من المخلوقات للشكل الامثل الذي تقتضيهِ قواعد الحركة والراجح ان اسم هذه السمكة أَخذهُ العرب من مادة مشق نفسها لانهم كانوا يطلقون على النبات والحيوان اسماء مشتقة من اوصافها فقالوا في طائر طيفور لانه كثير الطفر . وقالوا في نبات إسليح لانه يسلح الحاشية) .... وفي قدها مشق اي طول مع رقة . . . والمشق من الرجال الخفيف اللحم .... المشيق من الخيل الضامر . . . ورجل مشيق اي خفيف اللحم ..والممشوق «من الجواري والقدود والخيل والرجال بالمعاني التي تقدمت » ومن القضبان الطويل الدقيق . . . » ومن عجائب الاتفاق ان من الأمثلة التي يضربها العلماء على stremlining في الطبيعة اغصان جردت من اوراقها وزوائدها

فالطول مع الرقة، وخفة اللحم في الرجال ،والضامر من الخيل،والطويل الدقيق من القضبان، كلُّ هذه معان يتضمنها المقصود من الجسم الذي يصحُّ عليهِ الوصف streamlined لذلك قد يصلح ان نقول سيارة مشيق او ممشوقة بمعنى streamlined car وقطار مشيق او ممشوق streamlined train وهكذا

« مصر هبة النيل »

الربع الاعلى من عين التمثال مكبراً وفيه تظهر رموز الحياة المصرية

النباتات المصرية القديمة

للدكتور حسن كمال

[وكيل القومسيون الطبي العام]

الحبوب وصناعة الجعة

حبوب اللوطس هي الحبوب الوحيدة التي عثر عليها من الزمن السابق للعهد التاريخي . والفضل في ذلك يرجع الى (ده مرجان) الذي اكتشفها مع زميليه (پتري) و(اميلينو) . اما مقابر الاسر الاول (حوالي ٣٤٠٠ ق . م .) فحوت بعض اوعية عثر فيها على نوع من القمح يعرف بالقمح الجبلي او قمح جبل فارس وعلى الشعير ايضاً (Recherches 1897 t II p 100, 94)

(١) قمح جبل فارس : ويقال له باللاتينية Triticum Spelta عثر عليهِ اولاً في اوعية قرابين الموتى الخاصة بغزاة مصر الاقدمين . وثبت وجوده في الزمن السابق لعهد الاسر (٣٤٠٠ ق.م.) . ونسب المصريون الى (ازوريس) شرف اكتشاف الحبوب ودراسة النبات المجهول والدقيق كما نسبوا الى زوجتهِ (ازيس) فخر ابتكار صناعة الخبز

واننا لم نهتد حتى الآن الى موطن هذا النبات الاصلي . لكن الرأي السائد انهُ لا يبعد كثيراً عن فلسطين ويرجح بعضهم وجوده ايضاً في العراق (بلاد النهرين) . وقسم المصريون هذا الحب الى نوعين ابيض واحمر ولا يبعد ان يكون لهذا التقسيم صلة جغرافية بمواضع زراعته كأن يكون الوجه القبلي موطن النوع الابيض والوجه البحري مزرعة النوع الاحمر ويقال لهذا النوع من القمح بالمصرية القديمة (بدت)

(٢) البرّ — او — الحنطة Triticum Vulgare : — قال (ده كاندول)[1] ان الانسان اجتهد من قديم الزمان في تحسين القمح الجبلي (قمح جبل فارس) بطريقة التلقيح المختلط فتمكن بذلك من الحصول على نوع القمح الحالي المعروف بالبرّ او الحنطة . ولما لم يهتد الاثريون على حبوب البرّ منذ اوائل القرن التاسع عشر بعد الميلاد الى عهد قريب استنتج (كروساتس Crosatz)[٢] ان ذلك يتمشى تماماً مع ما نسب الى بطلميوس الاول من انهُ اول من ادخل البرّ في حياة مصر الاقتصادية . لكن عثر حديثاً على آوان وكؤوس حاوية برّاً باحجام متباينة (پتري مجلة مصر القديمة مجلد ١ ص ٧٨ و٧٩) . وكان المصريون يكسون البرّ بطبقة خفيفة من الورنيش للمحافظة عليهِ . واهم انواع الحنطة او البرّ التي كانت معروفة عندهم وقتئذٍ هي (Triticum Amyleum)[٣]

(1) De Condolle, Recherches Sur Les l'origines des plants cultivées p 289

(2) Mem. Sur l'Egypte Paris X t II p 141 (3) Meyer Hist. Vol II

و Triticum Vulgare و Triticum Turgidum . ودار تحف الاوفر بفرنسا يحوي مزيجاً من النوعين الاخيرين . (راجع مجلة العاديات المصرية مجلد ٧ ص ٢١٢)

وكانت مصر تصدّر الحنطة الى جميع سكان البحر الابيض المتوسط . ويستدل على عظم محصول مصر وقتئذٍ بتأثير القحط الذي حل بمصر على بلدان البحر المتوسط . فقد جاء بالذكر الحكيم حكاية عن ذلك « يا ايها العزيز مسنا واهلنا الضرّ وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا » — سورة يوسف . اما سفر التكوين فقد جاء فيه عن ذلك ما يأتي (اصحاح ٤١ آية ٥٧) « واشتد الجوع في ارض مصر . وجاءت كل الارض الى مصر الى يوسف لتشتري قمحاً . لان الجوع كان شديداً في كل الارض » واحتكرت الحكومة المصرية حق تصدير الحنطة وحق بيعها

قال شاباس (Bibl. Egypt. Vol XII p. 32) ان آسيا كانت تورد في عهد تحوتمس الثالث (١٤٧٩ — ١٤٤٧ ق . م) الحنطة كجزء من جزيتها

قال المرحوم كمال باشا : ان «قمح» هو لفظ مصري قديم وجد على الآثار هكذا ـ قمح قمحو ـ بدليل ما جاء في هرم تيتي من ان حوريس اكل خبز القمح الخاص به وكانت قد خبزته له خادمته الكبيرة (Pyr. Teti p 96) . ويوجد من القمح الفرعوني الآن مقادير كبيرة في جميع متاحف اوربا مأخوذة من المقابر المصرية القديمة . ووجدت مرة بالأقصر حوالي سبعة ارادب قمحاً احضرت الى متحف القاهرة . قال لوريه وقد اختبروا زراعة هذا القمح القديم فبذروه بعد ان مضى عليه سبعة آلاف سنة لكنهُ لم ينجح . وبحثه الكيماويون بالقائه في الكؤول الساخن الى درجة الغليان فوجدوا انهُ قد انفصلت منه مادة راتنجية رسبت في قاع الاناء . فاستنتجوا من ذلك نتيجة غريبة وهي أن المصريين الاقدمين كانوا يعدون لمؤونة موتاهم قمحاً مدهوناً بنوع من الورنيش قبل وضعه في المقابر كي يقاوم مرور الزمن وتأثيراته . والواقع ان هذا الدهان الراتنجي حفظ القمح وحفظ ما فيه من الدقيق وخاصيته الى ان وصل الينا . قال ووجد (شوينفورت) قمحاً أقل حجماً من قمحنا الاعتيادي شبههُ بالقمح البحيري ويشاهد القمح مرسوماً بكثرة في المقابر بين المزروعات ومذكوراً في نصوص القرابين. وكانوا يستعملونه كثيراً في الطب مع تراكيب لألم المعدة وفروة الرأس

(٣) الشعير (Hordeum Vulgare) : — وجد بمقابر الاسر الاولى مع القمح الجبلي [1] ولم يعلم للآن موطنه الاصلي القديم بالضبط . وميّز قدماء المصريين بين « الشعير الابيض » و « الشعير الاحمر » . وفي دار تحف القاهرة سنبلة شعير يرجع تاريخها الى الاسرة الخامسة (٢٧٥٠ — ٢٦٢٥ ق.م.) في حالة تحلل (مجلة المعهد العلمي المصري رقم ٥ سنة ١٨٨٤ ص ٤). وعثر العالم (أونجر) في قالب لبن بدهشور على شعير [2] وميز شوينفورت هذا النبات بين ماوجده في جبلين (مجلة المعهد العلمي المصري) سنة ١٨٨٦ ج ٧ ص ٤٢٢

(1) De Morgan, Recherches t II p 100 (2) Loret (La Flore p. 24)

وكان المصريون يصنعون الخبز من الشعير في عهد الاهرام (اي قبل عام ٢٧٥٠ ق .م.) اما الجعة او البيرة فكانت تصنع في جميع العصور من الشعير (هيرودتس ٢—٧٧ ، ديودورس ١—٣٣ استرابون ١٧— ٢٤ ، بليني ٢٢ - ٢٥) . وكان المصريون ينسبون صناعة البيرة دائماً الى المعبودة إزيس وكانت كل سيدة تحرص دائماً على اقتناء البيرة او الجعة بمنزلها (ماسبرو-حكايات العامة ص ٤٢)

ولصناعة الجعة كانوا يستعملون الشعير النابت دون المختمر . قال شوينفورت (مجـلة المعهد العلمي المصري سنة ١٨٨٥ ص ٢٧١) ان هذه الحقيقة ثبتت من وجود شعير نابت بجذور يتراوح طولها بين ٥و٧ سنتيمترات بنفس الوصف الذي تصنع منه الجعة (البوظة) هـذه الايام . وبعد ما يصنعون منه كعكا يكسرونه ثم ينقعونه في الماء حتى يختمر . الى هذه المرحلة فقط كان الاقدمون يكتفون في صناعة جعتهم (بوظتهم). وكثيراً ما تشاهد بالمقابر المصرية القديمة رسوم تمثل صناعة الخبز (لبسيوس دنـكمايلر لوحة ٢١ — مقبرة تي — دشاشة لوحة ٢٧و١٨ الخ) . ويلاحظ ضمن هذه الرسوم الطحانون يطحنون الحبوب بين الاحجار والعجانون يعجنون العجين والخبازون يخبزون الخبز . وبالقرب منهم عمال يصنعون الجعة (البيرة— البوظة) ويصفونها بمصفاة. واعتاد القوم ان يرسموا هذين العملين جنباً الى جنب لانهما يمثلان اهم مرحلتين في صناعة هذا الشراب الوطني

وفي العصور المتأخرة اضاف القوم بعض النباتات الى الجعة ليكسبوها رائحة ذكية وتمكنوا في العهد الفرعوني من عمل عـدة انواع من الجعة . من ذلك الجعة العذبة (البوظة) المقال لها عندهم (حـكـت) ويقابله بالعربية رحاق . رحيق (كمال باشا) . ايضاً سخب — من سكب الماء صبه (كمال باشا) [1] . وفي العصور الاخيرة اشتهر اهالي بلوزيوم (قرب بور سعيد) بصناعة نوع الجعة المعروف باسم زيتوس (Zythus) (راجع ديودورس ١ — ٣٤) . وبعد تصفية الجعة كانت تخزن داخل او ان داخلها مطلي بالقار حتى يتم اختمارها. ويقال للشعير بالمصرية القديمة (ات)— ويقابله بالعربية عُضّ وهو الشعير (كمال باشا) . ومنه اخذت الكلمة القبطية (يوت)

(٤) الذرة (Sorgham vulgare): قال شوينفورت في (مجلة المعهد العلمي المصري سنة ١٨٨٦م ٧ ص ٤٢٦) ان الذرة لم توجد في مصر القديمة لانه لم يعثر عليها في المقابر ولم ترسم على الآثار. وخالفه في ذلك الاساتذة ارمان ولبسيوس واونجر (راجع رسم لبسيوس الذي اورده اونجر في كتابه عن النباتات المصرية القديمة ص ٣٤) حيث قالوا ان هذا النبات منقوش على الآثار . واما ولكنسون فقد ذكر في كتابه عن (عادات قدماء المصريين م ٢ ص ٤٢٦) انه استطاع تمييز الذرة على الرسوم المصرية القديمة باللون والارتفاع والشكل الخ . وهذه الآراء المتناقضة تشير الى ان وجود الذرة ان لم يكن امراً مؤكداً فلا يبعد ان يكون هناك نبات آخر شبيه به استعمل في صناعة الخبز والكعك والمعروف عن الذرة انها نوعان نوع اميركي الاصل يعرف في الشام بالذرة الصفراء وفي مصر

(1) Weil, Les origines de l'Egypte Pharaon p 251

بالذرة الشامية وهي دخيلة في الشرق منشؤها اميركا الجنوبية كما يقول الاستاذ (ايست) بجامعة هاڤرد . قال الفريق امين المعلوف باشـا في مقتطف يناير سنة ١٩٣٥ ص ٣٨ « : اما الذرة المعروفة بهذا الاسم العربي فشرقية نشأت بأفريقيا في عهد راسخ في القدم فاذا ذكرنا هذين النوعين من الذرة ارى ان نسمي الذرة المعروفة بهذا الاسم في كتب اللغة العربية بالذرة الافريقية او الذرة البلدية ونسمي الاميركية بالذرة الاميركية او الذرة الصفراء دفعاً للالتباس . قال واقدم ذكر للذرة بهذا الاسم فيما وقفت عليه هو في القرن الرابع للهجرة اي قبل اكتشاف اميركا بزمن طويل فلا يمكن ان تكون الذرة التي عرفها العرب اميركية الاصل . فهذه زرعها المصريون في زمن عريق في القدم كذلك العبرانيون فقد ورد ذكرها في سفر حزقيال باسم الدخن . ويرى العلماء ان الدخن نوع من الذرة البيضاء وكلاهما قديم في الشرق

(٥) الفول (Vicia Faba) : اعتاد قدماء المصريين ان يقدموا الفول لموتاهم منذ عهد العائلات الاولى (حوالي ٣٠٠٠ ق. م.) واكتشف الاستاذ پتري كثيراً من الفول في مقبرة من عهد الاسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠—١٧٨٨ ق.م.) [1] . وورد ذكر الفول كثيراً في قرابين المقابر الطيبوية . وجاء عن رمسيس الثالث (١١٩٨—١١٦٧ ق. م.) انه زاد في دخل الفول كثيراً لمخازن اغذية معبد آمون (مجلة المعهد العلمي المصري سنة ١٨٨٤ ص ٧)

اما هيرودوتس فقال ان المصريين لم يبذروا الفول في حقولهم . واذا حصل ونبت فانهم كانوا لا يأكلونه طازجاً كان او مطهيًّا . ولم تجرأ طائفة الـكهنة على رؤيته لانهم اعتبروه دنساً

واسمه بالمصرية القديمة فوير ويقابله بالعربية فول (بقلب الراء لاماً كما يحصل كثيراً)

(٦) العدس (Ervum lens) : قال هيرودوتس (٢—١٢٥) ان العدس كان من ضمن اغذية عمال اهرام الجيزة . وقد عثر بمقبرة بدراع ابي النجا بالاقصر على طبق يحوي عجين العدس (مجلة المعهد العلمي المصري سنة ١٨٨٤ ص ٧ رقم ١٢) وهذا العجين محفوظ الآن بمتحف القاهرة

وكان المصريون يفصلون قشور العدس عن حبه . وورد في القصص التاريخية عن فلوطرخوس (قصة ازيس وازوريس٦٨) ان بشائر العدس كانت تقدم الى المعبود هبرو قراط . قال المرحوم كمال باشا (بغية الطالبين) وكان العدس من المآكل المألوفة عند قدماء المصريين . فقد جاء عن بني اسرائيل انهم قالوا ادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الارض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها ويقال له بالمصرية عرمش ويقابله بالعربية بُلسن وهو العدس المأكول (كمال باشا)

(٧) الحمّص (Cicer arietinum) ويقال له بالانكليزية Chick-pea : قال هيرودوتس ان الديانة المصرية القديمة حرّمت اكل الحمص . وفسّر ذلك ديودورس (٢ — ٣٣) بقوله ان هذا المنع مقصود بهِ افهام الناس معنى الحرمان . واسمهُ بالمصرية القديمة لم يعرف بعد

(1) Loret, La Flore Pharaon. II 94

حجم ذرة الاثير

كيفية استخراجه بالمقايسة

بقلم نقولا الحداد

نشأت نظرية الاثير حين ثبت ان النور حركة موجية تحدثها اهتزازات ذرات الجسم المنير . ففرضوا وجود شيء ادق جدًّا من المادة المعروفة يملأ الفضاء سموه اثيراً ، تموجه ذرات المادة وهي مهتزة ، او بالاحرى وهي دائرة على محاورها . فيرحل التموج بسرعة ٣٠٠ الف كيلو متر بالثانية . وبقيت نظرية الاثير سائدة نحو قرنين الى ان اكتشفت بعض ظاهرات طبيعية تدل على ان النور امواج كهرطيسية (كهربائية مغنطيسية) كأمواج الراديو ، وان المادة المتشععة كالراديوم تنقص كتلة مادتها بهذا التشعع نقصاً يدل على ان الشيء الشاع (او الشعاع) هو مادي ايضاً . فقالوا ان النور ذرات مادية Particles منتشرة من الجسم المنير . ثم تحققوا ان كلاًّ من البروتون والكهرب متى قضي عليه لسبب ما بالاندثار تفتت الى ذرات سموها فوتونات . فالكهرب ينحل الى ١٠ آلاف فوتون . ولما كان البروتون يساوي ١٨٤٠ كهرباً كتلة ووزناً فهو اذا اندثر ينحل الى ١٨٤٠ × ١٠٠٠٠ = ١٨،٤٠٠،٠٠٠ فوتون . فذرة الهيدروجين المؤلفة من بروتون واحد وكهرب واحد اذا اندثرت انحلَّت الى ذلك العدد من الفوتونات . والفوتون هو اصغر ما عرف من اجزاء المادة ، ويظن انه آخر « وحدة » Unit منها لا يقبل التجزئة . فاكتشاف الفوتون هذا جعل العلماء يعتقدون ان الشيء الشاع هو الفوتون نفسه وان الذرة التي تنقص بالتشعع Emanations (كالراديوم) انما هي تنقص فوتونات منتثرة في الفضاء بزخم بسرعة ٣٠٠٠٠٠ كيلو متر في الثانية . وقد ظهر ان الفوتون خلافاً للبروتون والكهرب غير مشحون شحنة كهربائية . ولكنه باندفاعه بتلك السرعة يحمل طاقة Energy

بناءً على هذا الاكتشاف قالوا ان النور (وكل تموج كهرطيسي) انما هو هباء مادي ينتقل بنفسه بلا وسيط . فلا لزوم لفرض الاثير . وفي رأي آخرين ان هذا الحكم القاضي على الاثير تسرُّع وتطرُّف . لان المتعمقين منهم في البحث لا يرون غنى عن الاثير ، ما دام النور (وكل تشعع كهرطيسي) يسير امواجاً مختلفة بالطول وبعدد الموجات في الثانية . على ان الذين يصرُّون على جحد نظرية الاثير يزعمون ان الفوتونات المذكورة تسير متموجة من تلقاء نفسها . وفي رأي السر جيمز جينز الذي يصالح بين النظريتين ان الفوتون يسير دائراً على نفسه دوراناً حلزونيًّا في الفضاء كما

تسير رصاصة « دم دم » . وذلك كقولك ان الرصاصة المنطلقة من بندقية « دم دم » تندفع متعرجة بشكل الموجة . ولا نرى مسوّغاً لهذا الفرض لانه ليس اقرب الى العقل من القول ان الرصاصة وهي مندفعة بخط مستقيم تحدث امواجاً في الهواء . وهكذا القول ان الفوتون نفسه يسير متعرجاً ، اذ لا نرى سبباً لتعرجه الاّ اذا كان السبيل الذي يسلكه متعرجاً فيضطر ان يتعرج بتعرجه . واذن فلا مناص من افتراض شيء يملأ الفضاء يمنع الفوتون ان يسير بخط مستقيم . وهو الاثير المفروض

ولا متسع هنا للتوسع في البحث لاثبات ان النور (وكل طاقة كهرطيسية) انما هو امواج اثيرية لافوتونات مندفعة في فضاء فارغ فراغاً مطلقاً . فالاثير يتموج بفعل دوران كل من البروتون والكهرب على محوره ودوران الثاني حول الاول وباندفاع الفوتون فيه . وتموجه هو الكهرطيسية بعينها والنور من ضروبها . وجينز وادنغتون وغيرهما يرجحون نظرية الاثير . وبناء على ارجحيتها نبحث في طبيعة الاثير كما نستدل عليها من قوانين التموج

طبيعة الاثير

من ظاهرات التموج الكهرطيسي (النور وغيره) يستدل ان هذا الاثير ضرب من ضروب المادة (اي لا هو روح ولا هو عقل) وذراته ادق جداً من ذرات المادة (البروتون والكهرب) بحيث يستطيع ان يتخلل كل فراغ بين الجزيئات Molecules وبين البروتونات والكهارب ، وانه ساكن لا يجري في مجارٍ او تيارات ، ولا حركة له الاّ الحركة الموجية الطارئة عليه من دوران الذرات المادية . وهو معلوم ان الحركة الموجية لا تستلزم انتقال الذرات من مكان الى آخر انتقالاً متوالياً ، كما ان تموج الماء مثلاً لا يستلزم انتقال ذراته من اماكنها ، بدليل ان الشيء العائم على الماء (غير الجاري) يعلو ويسفل مع الموجة ولكنه يبقى في مكانه . فالتموج انما هو اصطدام الذرات بعضها ببعض . وهكذا الاثير لا يتحرك جارياً بل ان ذراته يصادم بعضها بعضاً متى جاءتها الصدمة من البروتون او الكهرب او الفوتون

الاثير كالفوتون ليس فيه شحنة كهربائية لا ايجابية ولا سلبية . ولهذا هو ثابت غير جارٍ ، وانما هو بتموجه يحمل طاقة ، اي ان الطاقة تنتقل بواسطة تموجاته . والفوتون متى تلاشت الطاقة التي يحملها في امواج الاثير (اي متى انتقلت الى امواج الاثير) بمصادمته لذراته يهدأ ويصبح كجزء من بحر الاثير ، كما ان الماء المندفع في النهر الى البحر يبقى برهة مندفعاً فيهِ ومحدثاً امواجاً الى ان تتلاشى قوته فيشترك مع ماء البحر في الهدوء او الاضطراب كجزء منهُ

ولان بعض العلماء مثل جينز وادنغتون ولودج لا يتورعون عن القول بانهُ لا يستحيل ان تكون المادة متكونة من ذرات الاثير ، فلا نتورع نحن عن التوسع في فرض ان الاثير هو فوتونات لم تتكون كهارب ولا بروتونات ، او ان بعضها كانت تؤلف بروتونات وكهارب ثم انتهى عملها فعادت الى سكونها

في بحر الاثير الذي تألفت منهُ وفيهِ قبلاً ذرات مادية ، على حد قطرة الماء التي تصاعدت من البحر بخاراً ، ثم تجمعت وهبطت مطراً ، ثم جرت من اليابسة الى البحر حيث انتهى عملها

وبناءً على ان الاثير هو بحر فوتونات غير مؤتلفة ائتلافاً ماديًّا نبحث في مقدار كثافة هـذا البحر الفوتوني الذي سميناه اثيراً . نبحث في مقدار كثافتهِ density بالنسبة الى كثافة ذرات المادة السابحة فيهِ . على اننا ننبه القارىء الى ان هذا الاثير لايزال فرضاً بلا برهان ايجابيّ على وجودهِ ولا دليل محسوس عليهِ سوى ان معظم ظاهرات التموج لا تتفسر الاّ بهِ . وبناءً على هذه الظاهرات نستخرج مقدار كثافتهِ (على فرض وجوده) بالمقايسة بين سرعة امواجه وسرعة امواج المادة كامواج الصوت مثلاً

حجم الذرة الاثيرية

كيف يمكننا اكتشاف حجم ذرة الاثير ؟

اذا درسنا انواع الامواج المختلفة بحسب اختلاف طبائع المواد المتموّجة درساً دقيقاً فقد يمكننا ان نتوصل الى ناموس عام لسرعة التموج بنسبة كثافة الوسط المتموج : — « كلما كان الوسط المتموج كثيفاً كانت امواجه اسرع » . مثال ذلك الصوت . امواجه في الحديد اسرع منها في الماء، وهي في الماء اسرع منها في الهواء : سرعة الصوت في الهواء على درجة حرارة الصفر بمقياس سنتغراد ٣٣١ متراً في الثانية ، وفي الماء على درجة ١٣ سنتغراد ١٤٤١ ، وفي الحديد ٥٠٠٠ متر تقريباً . كل ذلك في الثانية . لان الحديد اكثف من الماء والماء اكثف من الهواء كما هو معلوم

ولكن ايضاح هذا الناموس يستلزم تفسير معنى كل من الكثافة والتموج . فاولاً ما هي الكثافة؟

الكثافة هي نسبة عدد وحدات الجسم (المتموج) الى حجمه . والمراد بالوحدة كل ذرة او كل مجموعة ذرات متحدة في جزيء او مجموعة جزيئات متحدة في كتلة بحيث تتحرك ذرات المجموعة معاً حركة واحدة . فكلما كان عدد الوحدات (ذرات او جزيئات) اكثر في الحجم الواحد كالسنتيمتر المكعب مثلاً عُدَّ الجسم اكثف . فالماء يعد اكثف من الهواء لان في السنتيمتر المكعب منهُ ذرات او جزيئات اكثر مما في سنتيمتر مكعب من الهواء . وفي سنتيمتر مكعب من الحديد ذرات اكثر مما في ذينك الاثنين (فناموس الكثافة اذاً : الكثافة = عدد الذرات ÷ الحجم)

وسبب ان الجسم الاكثف مادةً اسرع تموُّجاً يظهر في تفسير معنى التموُّج — فثانياً ماهو التموج؟

التموج هو مصادمة الذرة (المصدومة بالجسم المصدر الحركة الموجية) لذرة مجاورة لها . ثم ارتدادها عنها (رد فعل) . ثم مصادمة هذه الذرة الثانية لذرة ثالثة اخرى مجاورة لها كما فعلت الاولى بها ، ثم مصادمة الثالثة لرابعة وهلمّ جرًّا . ولا يخفى ان المصادمة تستغرق وقتاً مناسباً للمسافة التي تقطعها الذرة في انتقالها من موضعها الى موضع الذرة الاخرى التي تصادمها او تصطدم بها . فكلما

كانت المسافة بين الذرات اطول (اي كلما كانت الذرات متباعدة وبالتالي تكون الكثافة اقل كما علمت) كان الاصطدام يستغرق وقتاً اطول ، وبالتالي تكون الموجة ابطأ . فاذاً يجمل ناموس التموج هكذا : مثلاً

$$\frac{\text{سرعة تموج الهواء}}{\text{سرعة تموج الماء}} = \frac{\text{كثافة الهواء}}{\text{كثافة الماء}}$$

الى هنا غضضنا النظر عن امر آخر لا بد من ادخاله في الحساب وهو وزن وحدة الجسم (ذرته او جزيئه) وحجمه او الحيز الذي يملأه . فوزن جزيء الماء اثقل من وزن جزيء الهواء (المعدل الاوسط لجزيئات الهواء المختلفة من اوكسجين ونيتروجين الخ) ووزن جزيء الحديد اثقل من وزن جزيء كل من ذينك . فما هو حساب الوزن في سرعة التموج ؟

كلما كانت الوحدة، (ذرة او جزيئاً) ، اثقل كانت حركة المصادمة ابطأ كما هو معلوم من ان تحريك الاثقل يستلزم قوة اكثر لتحريكه . ثم ان اوزان الجزيئات مناسبة لاحجامها على الغالب . فجزيء الحديد اكبر من جزيء الماء ، لان فيه بروتونات وكهارب اكثر تشغل حيزاً اوسع . جزيء الحديد (ثنائي . ذرتان) ١١٠ بروتونات وجزيء الماء ١٦ اوكسجين + ٢ هيدروجين . والنسبة بينهما ٨ الى ١ وهي تقارب النسبة بينهما في الكثافة وهي ٧،٧٥ الى ١ ، لذلك كانت سرعة التموج في الحديد $\frac{٥٠٠٠}{١٤٤١}$ = ٣ ، ٤ اضعاف سرعة تموج الماء في حين ان كثافة ذاك ٧،٧٥ اضعاف كثافة هذا

واذا تفرغ رياضي لهذه المسألة مراعياً فيها الوزن الذري والثقل النوعي والحجم امكنه ان يتوصل الى عبارة رياضية عامة يستطيع بها ان يستخرج حجم ذرة كل جسم متموج بالنسبة الى حجم ذرة الهيدروجين باعتبارها مقياساً . هذا اذا عرف مقدار سرعة التموج في ذلك الجسم . ولا ينكر ان العملية معقدة تستلزم اعنات الفكر . اما نحن في هذا البحث فنستطيع التوصل الى غرضنا من غير عملية معقدة اذا قايسنا بين سرعة امواج الهيدروجين الصوتية وأمواج الاثير النورانية . لان الهيدروجين ابسط العناصر كما هو معلوم وذرته معتبرة الوحدة الاولى لكل العناصر ومركباتها . فهو بروتون واحد مع كهربه . وسرعة الصوت في غاز الهيدروجين ١٢٥٨ متراً في الثانية اي كيلو متر وربع تقريباً (وذلك ٤ اضعاف سرعة الصوت في الهواء)

فاذا صح قانون تناسب السرعة والكثافة الذي تقدم نصه كانت سرعة موجة الهيدروجين ($١\frac{١}{٤}$ كيلو متر) الى سرعة موجة الاثير (٣٠٠ الف كيلو في الفراغ) كنسبة كثافة الهيدروجين الى كثافة الاثير . فلنتخذ الحيز الذي تشغله ذرة واحدة من الهيدروجين وحدة للكثافة لكي نعلم كم ذرة اثير تشغل ذلك الحيز نفسه :

$$\frac{١\frac{١}{٤}\ (\text{سرعة موجة هيدروجين})}{٣٠٠٠٠٠\ (\text{سرعة موجة اثير})} = \frac{١\ (\text{كثافة هيدروجين . ذرة واحدة})}{\text{ك}\ (\text{كثافة اثير})}$$

اذن ، ك = ٢٤٠٠٠٠ ذرة اثيرية

في هذا الحساب اعتبرنا السرعة في خط واحد مستقيم . وهي بالحقيقة تنتشر الى جميع الجهات فاذاً ذلك الرقم ٢٤٠٠٠٠ ليس الاّ عدد ذرات الاثير التي تشغل قطر الحيز الذي يشغله الهيدروجين. فاذا كعَّبناه حصلنا على عدد ذرات الاثير في الحيز الذي تشغله ذرة واحدة من الهيدروجين وهو تقريباً ١٦ الف بليون ذرة

فانظر ما اكثف الاثير بالنسبة الى كثافة الهيدروجين . ولو انحلت ذرة الهيدروجين الى فوتوناتها وهي ١٨ مليون تقريباً لكان بين كل فوتون وآخر نحو ١٠٠ مليون ذرة اثير تقريباً

واذا صدق هذا الحساب وصدق الظن بأن الفوتون ليس الاّ ذرة اثير فلا نعود نتعجب من ان البروتون الذي يساوي الكهرب بالحجم يزن ١٨٤٠ مرة كوزنه ويحتوي على ١٨ مليون فوتون تقريباً محشودة فيه حشداً اكثف من البحر الاثيري . وكذلك لا نستغرب ان الكهرب المحشود فيه نحو عشرة آلاف فوتون لا يكاد يعد ذا كتلة مادية . ولا نستغرب ايضاً ان بين الكهرب وبروتونه رحبة واسعة المدى بالنسبة الى حجمهما ، وان المسافة التي بين فلك الكهرب وبروتونه تشغلها ملايين ذرات الاثير ، والكهرب يفلحها فلحاً في اثناء دورانه ، ولا يكاد يشعر باحتكاكها فيه. مع انهُ يصدر فيها أمواجه الكهرطيسية. فدقة ذرات الاثير لهذا الحد واحتشادها هذا الاحتشاد هما سرّ سرعة النور الفائقة وسرعة كل تموج كهرطيسي . وهذا هو السر في انها السرعة المتناهية التي لا يمكن ان تفوقها سرعة اخرى ، لانه لا يوجد في الكون وسط لانتقال الامواج أدق ذرةً من الاثير واكثر احتشاداً بذراته (كثافة) . أفليس في هذه الحقيقة برهان دامغ على أن النور (وكل طاقة كهرطيسية) انما هو تموج أثيري ؟ لانهُ لو كان مجرد فوتونات منتثرة من الذرات لما كان ذا سرعة ثابتة لا تتغير ، بل كانت الفوتونات تندفع كسائر القذائف وبسرعة تعادل القوة التي قذفتها ، كسرعة القنبلة بالنسبة لقوة المدفع

بعض خواص الاثير

بناءً على تقارب الذرات الاثيرية العظيم بالنسبة الى ذرات المادة كذرات الهيدروجين ، او أي عنصر آخر او اي مجموعة ذرات سابحة في بحر الاثير أو متحركة فيه أية حركة او تدور على نفسها او حول مركز — كانت هذه الذرات من غير بد تصادم ذرات الاثير في طريقها وتشق فيها اثلاماً وتحدث تموّجاً . وهذه بنوبتها تصادم اخواتها التي حولها ، وهكذا دواليك تنتشر الموجة في الفضاء الى ما لا نهاية لهُ

لذلك لا نقدر ان ننفي من الذهن فكرة الاصطدام بين الاثير والذرات المادية المتنوعة وكهاربها خلافاً لرأي السير اوليفر لودج نصير الاثير . فلا بدّ ان يكون بين الذرة والاثير شيء زهيد جداً

من الضغط يساوي جزءًا من ملايين من مقاومة الذرة لذرة اخرى . وفي نظر هـذا العاجز لولا وجود هذا الضغط لما وجد ناموس الجاذبية . ولهذا بحث خاص

لا ينفي السير اوليفر لودج هذه المقاومة فقط بل ينفي اللزوجة عن الاثير . فلا يعاق منهُ شيء بالمادة المتحركة فيه كما يعلق الماء بجوانب السفينة الماخرة في البحر . وهو مصيب بنفي اللزوجة لانها تستلزم وجود تجاذب او الفة بين ذرات الاثير وذرات المادة . وهذا التجاذب غير موجود بحسب رأي جينز وغيره ممن يقولون بأن الفوتون خالٍ من الشحنة الكهربائية . فما للاثير من خاصة الحركة الاَّ انهُ الوسط الذي تنتقل الحركة (او بالاحرى الطاقة) بواسطة تموجهِ

وزعم انصار الاثير انهُ لا وزن له . وانما بحسب حسابنا السابق وباعتبار ان الأثير بحر فوتونات تزن الذرة الاثيرية نحو جزءٍ من ١٨ مليون من وزن ذرة الهيدروجين . ولكننا لا نستطيع ان نزن الاثير كما نزن الماء والهواء لاننا لا نستطيع الخروج منه والاستقلال عنه كما نحن خارجون عن الماء ولا نستطيع ان نفرغ حيزاً منه كما نفرغ انبوبة من الهواء . نحن فيهِ كالسمكة في البحر لو كانت تعقل لما كانت تستطيع ان تعلم ثقل الماء وهي غائصة فيه لا تستطيع الخروج منه

واذا كانت الفوتونات ذرات أثيرية (كما يميل الى هذا الظن بعض العلماء) انحلت اليها المادة بروتوناً وكهرباً. فهي اذن كلما تناثرت من المادة وتدفقت في بحر الاثير العظيم فلا تزيد كثافته فقط بل تزيد اتساعه ايضاً . وقد تعود كثافته الى حالتها الطبيعية باتساعه على حساب الفراغ المحيط بهِ . وهذا الظن يطابق نظرية . إن الحيز الكوني يتسع رويداً كما حققته ارصاد هوبل وكما علله ديستر ولاميتر .

واذا كانت ذرات الاثير كالفوتونات غير مشحونة كهربائيًّا كما قرر العلماء بشأن الفوتون بناءً على اختبارات ظاهرات طبيعية فلا توجد قوة التدافع بينها كما توجد بين الكهارب وكلها سلبية الشحنة من نوع واحد . فلا تصد بعضها بعضاً كما يصد الكهرب الكهرب ، وانما تزحم بعضها بعضاً. واذن فيحتمل جدًّا ان يكون النسيج الاثيري حول الجرم الذي تتدفق منه الفوتونات، كالشمس مثلاً ، كثيفاً جدًّا بسبب ازدحامها . وهـذا الازدحام يقل كمربع البعد (طبقًا لناموس الجاذبية) فلذلك تقل سرعة النور العابر من هناك ويعتوج خط سيرهِ كما أثبته اينشطين

***

اذا صحت نظرية الاثير كما شرحها هذا الضعيف فيما تقدم سهل جدًّا تعليل سر الجاذبية باعتبار ان الجو الجاذبي Gravitational field ليس الاَّ تموجات أثيرية تحدث قوة الشرود عن المركز Centifugal force المعادلة لقوة التجاذب Centripetal force التي هي خاصة من أهم خواص المادة وعلة حركتها . وفوق كل ذي علم عليم

فلسفة الجمال

ESTHETICS

يخلق الحب جمالاً والجمال حبًّا

لحنا ضبابر

ليس في لغات هذا السيّار الصغير اقدس من هاتين الكلمتين : الحب والجمال : على انك لا ترى موضوعاً اقصر الناس باعاً فيهِ منهم في الحب والجمال . واليك المثل المحسوس الملموس . هذا مقتطفنا العزيز ، وقد ادرك الستين من العمر ، ولم يترك من بحوث العلم والادب شاردة ولا واردة . ولكن كم مقالة لهُ في فلسفة الحب ؟ فلست اطرق اذاً موضوعاً مبتذلاً في هذه المقالة . بل اراني غاية في الافتقار الى آراء كبراء الكتّاب والباحثين

***

في كل قلب معبد للجمال ، وفي كل بيت هيا كل ومذابح . على ان القليلين هم الذين يعنون بكشف استاره ، وسبر اغواره . وبحث الجمال والحب هو من خصائص علم النفس — Psychology — ولكن علم النفس تخلى عنهُ للفلسفة ، شأن العلوم في كل بحث عويص ، فانها تتخلّى عنهُ للفلسفة . هذا هو ديدن العلوم ولا سيما العلوم العصرية الممتازة بالمختبرات والتجارب ، وبردّ القواعد العلمية الى المقادير والارقام . فانها عاجزة عن خوض مثل هذا البحث . ولذلك جعلت عنوان هذه المقالة « فلسفة الجمال » وليس « علم الجمال »

على ان الفلسفة نفسها ، وهي في ذروة مجدها ، في العصر الباركليسي وبعدهُ ، لم تُعنَ كثيراً بحلّ مسألة « الجمال » . ما هو الجمال ؟ ولماذا تقول عن شيءٍ انهُ جميل ؟ فاقتصر فيثاغورس في امر الجمال على ردّ السلم الموسيقيّ الى قواعد الرياضة ، ووصف الاتزان بالشكل الكروي . وكان الفلاسفة الاقدمون — قبل سقراط — يصفون الجمال بحدود المكان والمقدار . فكانت الموسيقى عندهم « انتظام الاصوات » وجمال المرئيات « انتظام النسب » . اما افلاطون الالهيّ فوحّد ذاتية الجمال والخير . فالمثل الاعلى عنده هو « الجميل » او « الخير » ولم يفسح للموسيقى مجالاً واسعاً في مدينتهِ المثلى الاّ في تثقيف الاحداث

***

وكان الفيلسوف بمغارتن الالمانيّ اول من افرد الجمال ، وجعلهُ موضوع بحث خاص . واختصّ غروتشي بهِ فدعي « فيلسوف الجمال » . وقد سبقه اريسطوطاليس فوضع للجمال التعريف التالي :

الجمال هو الاتزان ، وحسن اندماج الاجزاء في الكل : وقد اضاف الفيلسوفان لاسن وونكلمن الى هذا التعريف شيئاً يسيراً . فظل الجمال عندهما كما كان عند اريسطوطاليس ، مسألة : بناء وصورة : من حفر وتلوين الخ . اما « الفيلسوف « كنت » ، واضع المذهب التصوري Idealism فتقدَّم خطوة الى الامام في تعريف الجمال ، فجعله : ما يسرُّنا لغير انتفاع : فنسرُّ بالجميل لانهُ جميل ، لا لغرض شخصي . بمثل هذا الشعور السامي نفهم ماهية الجمال ، او نشعر بتأثيرهِ في نفوسنا وحياتنا

ولكن « شوبنهور » جعل الجمال : شعوراً استاتيكيًّا (وضع بمغارتن لفظة « Esthetics » — فلسفة الجمال —) او غريزة فنية في نفوسنا : وبذلك يتحرر العقل نوعاً من سلطة الشهوة ، فيتمكن من تحقُّق المُثُل الافلاطونية « العليا » .على ان « هيغل » عاد بنا صفقة واحدة الى العهد الاغريقي ، فجعل الجمال « الوحدة في التعدُّد » ، او تغلُّب الصورة على المادة

قال « اناطول فرانس » :لسنا نعرف لماذا نقول عن شيءٍ انهُ جميل : ولكن الجمال اشهر مايدور على ألسنتنا ، ويتغنَّى بهِ شعراؤنا ، وتلهج بهِ نفوسنا ، ويعبده افرادنا وجمهورنا . فهل قُضِي على هذه البشرية ان تعبد الهاً تجهله ؟ ! او صحيح ما قيل ان ما يمكن تعريفه ليس بإلهٍ ؟ مع ذلك فالجمال يملأُ الارض والسماء ، والظاهر والباطن ، فهو اشهر ما تراه العين وتلمسهُ اليد . استغفر الله ان الجمال لا يُلمَس ولكن يُشعَر بوجوده شعوراً . انما الذي يُرى هو آثاره ومجاليه .اما ماهية الجمال فمستترة وراء تلك المجالي والآثار . شأن الكليات او المثل العامة العليا

الحكمة واسطة ، والغاية وراءها هي احراز الصحة التامة جسماً وعقلاً . فما هي فائدة الحكمة اذا لم تنتهِ بنا الى بلوغ تلك الغاية ، ولم تحملنا على حب الجميل ؟ وما هي قيمة الحكمة اذا هي لم تخلق فينا جمالاً اسمى مما وهبت لنا الطبيعة ؟ فالفن دون علم مسغبة . والعلم دون فنّ بربرية . والفلسفة تاج الاثنين ، العلم والفن ، على ان الفلسفة نفسها ، حتى الروحية ، هي واسطة لا غاية . اللهمَّ الاَّ اذا وسَّعنا نطاقها فشملت كل مرافق الحياة ووسائلها وجمالها . فاذا لم تنشيء الفلسفة فينا حبًّا كانت غير جديرة بالانسان . والجمال روح الفلسفة وغرضها الخاص . فهو حياة الفلسفة كما انهُ حياة الحب

الجمال الانساني

الشيء جميل لانهُ مرغوب فيهِ . قال الفيلسوف بندكت سبينوزا : لسنا نهيم بشيءٍ لجماله ، بل نراهُ جميلاً لانا بهِ نهيم . فكل ما يسدّ جوعاً في نفوسنا فهو جميل . حتى ان الطعام هو في عين الجائع اجمل من الحور العين . وذلك الشاب الراغب في البحث والطلب ، وقد جدَّ واجتهد ، وصبر وحرَّر ، وعاد من المطبعة حاملاً اجمل شيء في عينه ، اي ملازم اول كتاب عني بتأليفه . فباكورة مؤلفاته اجمل جمال في الوجود . حالة كون جيران ذلك المؤلف من فلاح وبقال لا يريان اية قيمة لاوراق ذلك الكتاب ، الاَّ لصرّ الملح والفلفل أو لمسح أواني المطبخ بعد غسلها

قال نيتشه : الجميل والقبيح كلمتان من خصائص البيولوجيا : فما أضرّ الجنس حسبناه قبيحاً . وما نفع الجنس حسبناه جميلا . قال سندرلند : ليست السماء زرقاء لتسر نواظرنا ، ولكننا ألفنا زرقتها فحسبناها جمالاً . فالجمال قرين النفع . والدراهم يفوق جمالهـا نفعـها في عين المعدم ، من ثمّ كان جمال النور والشعر والملمس الناعم . فالقبيح ما اضعف الحيوية وشوش الهضم والاعصاب . قال سنتايانا الفيلسوف العصري : الجمال لذة مجسمة : وقال ستندهلد : الجمال هو الاستبشار باللذة : وبهذا القول نحا ستندهلد نحو هُبْز عن غير قصد

والجمال في الفرد كالجمال في المجموع ، لا يعنى بهِ المرء الاّ وقد استفضل بعد الاكتفاء . فالحب يخلق جمالاً ، كما يخلق الجمال حبًّا . وكل ليلى هي أجمل بنات حواء في عين قيسها . فالجمال والحب قرينان ، فان يخلق هـذا ذاك خلق ذاك هذا . واصلهما بحسب رأي ول دورنت مستقر في حفظ النوع ، ولا سيما في التوليد . يعني ان غرض الحب والباعث عليه العلاقة الجنسية . وهـذه متى وجدت نحو شخص فاذا لم يكن ذلك الشخص جميلاً في ذاتهِ خلقت له جمالاً . اعني جعلته جميلاً في عين من يحبه، وان كان جميلاً في ذاته زادته جمالاً عليه ، فظاهرات الجمـال وجواذبه ليست الاّ ملابسات التوليد المقارنة عهد الاستعداد له ولذا حسبت جمالاً . فتورُّد الخد ، وتقبب النهد ، واعتدال القد ، وترعرع الصدر ، ودقة الخصر ، وصقل النحر ، وريا المخلخل، واستدارة الكفل ، ونبت العذار في الذكر — هذه الامور وامثالها — حسبت جمالاً لانها ظاهرات تصحب طور الصلاحية للتوليد وتدل عليه . فميل الذكر للانثى هو خالق الجمال الاول . فليس جمالها انشأ حبه . بل حبه انشأ جمالها . وكل ما صحب عهد البلوغ من الظاهرات فهو جمال مستحب . كذلك التستر بالثياب هو من مزيدات الجمال ، لأن الثياب تستر ما يميل المرء الى رؤيته . فهي نوع من الصد ، والصد من مزيدات الوجد . فكما أن السفور يزيد المرءَ هياماً في من يحسبها جميلة ، كذلك التحجب يزيد المرء رغبة فيهنَّ

والمرأة في عرفنا مثل الجمال الاعلى . ولماذا ؟ . لانها مصدر التوليد ، مصدر الجنس، ومحور آماله ، ومحط رحاله . فلم نحبها لجمالها ، بل رأيناها جميلة لأنا نميل اليها ونحبها . جاء في رواية تاييس ما نصهُ . انا جمال الانثى . فانّى تهرب مني يا ارعن ؟ فانك تراني حيثما التفت ، وأينما اتجهت ، فتراني في نضارة الازهار ، وميلان الاشجار ، وخرير الانهار ، وتغريد الاطيار ، وبهاء الاقمار . بل انك اذا اغمضت عينيك وسددت اذنيك فانك تراني حينذاك في ذاتيتك

كان شرخ الشباب جمالاً عنـد الاثينيين والاسبرطيين . لان ذلك آذن بالتوليد . فالجمال عندهم قرين القوة ، لذا كان الفن في عرفهم اكتمال الرجولة . اما عندنا فالفن هو اكتمال المرأة . فاذا استثار رجل حبنا فما ذاك الاّ لان قناة الصداقة والاخلاص عندنا كما عند الاغريق من لوازم الحب المقدّسة

ولقد صارت المرأة مثل الجمال الاعلى لانهُ يحبها اكثر مما تحبّه . وشدة رغبته فيها تزيدها في عينه جمالاً . وقد قبلت هي شهادته — انها أجمل منه — لانها تؤْثر ان تكون محبوبة على ان تكون مالكة . لذا هي تعنى بما يثير هيامه بها . أما هي فبقوته تعنى لا بجماله . فهي تؤْثر قوته ، لأن تلك القوة ضامنة سلامتها واطفالها . والدليل على أن الحب خالق الجمال فتورنا في حب من امتلكنا زمامها ، مع كونها لا تزال جميلة ، لذا قيل ان الزواج يقتل الحب . على أنا ما دمنا نحب فجمال المحبوب لا يذبل . بهذا الاعتبار الحب حياة الجمال ، لا الجمال حياة الحب

جمال الطبيعة

المحبة علة الجمال لا معلوله . والاصل في الجمال جمال الاشخاص ، لا جمال الاشياء . اما جمال الاشياء فهو فرع عن جمال الاشخاص . فكيف نعلل جمال اشياء كثيرة لا علاقة لها بمحبتنا . كقوس قزح ، وحدائق الورود والازهار ، والشلالات ، والاودية ، والغصن الرطيب ، وما لا يحصى من انواع الجمال في العالم الخارجي ؟

الجواب : كما ان لكل كلمة في قاموسنا معنيين ، الواحد اصليٌّ اوليٌّ ، والآخر فرعيٌّ ثانويٌّ ، هكذا في رغباتنا ما هو اوليٌّ اصليٌّ ، وما هو ثانويٌّ فرعيٌّ . فقد تطوَّر الجهاد لاجل القوت فكان منهُ البأس والميل الحربي . وتطورت عاطفة حب الجمال الانساني ، او بالحري فاضت ، فتخطت الاشخاص الى الاشياء . فحبنا الطبيعة فرع حبنا الاشخاص ، وناشيء عنهُ . فنحن لا نحب قامتها الممشوقة لانها تشبه الغصن الاملد . بل احببنا الغصن لانهُ يشبه قامتها . ولم نحب وجنتها لانها تشبه الورد . بل احببنا الورود لانها اشبهت وجنتها . فترى ان النعومة والاستدارة ليست جمالاً في الذات . والاَّ فرمز الكمال عند ارسطوطاليس المربع لا الكروي فنحب الاستدارة والنعومة والبضاضة ، لان هذه الاوصاف من مزايا من نحبها ، وهي الكاعب وما فوق الكاعب من ربات الجمال

كذلك الاصوات الشجية ، التي لها رنة تأسر القلوب ، وكل ما هو لطيف ورقيق في الكون هو جميل في اعيننا لانه يمثل لنا بعض مزاياهنَّ . فحبنا اياهن جعل ما يماثل اوصافهن جمالاً في اعيننا بل انه قادنا الى الاعتقاد في جمال اوصافهنَّ وما ماثله في غيرهن من الاشياء . فلم تكن عين المهى جميلة الاَّ لانها اشبهت عين ميٍّ

ما رأت مثلكِ عين حسناً وكمثلي بك صبًّا لم ترَيْ

فالصوت الشجي استفزاز جنسي في آذان الرجال . على ان الصوت لم يستقل بالاتصاف بالجمال واثارة الحب ، وان كان حنوناً . فهنالك اللحن والايقاع ، وما فيها من حفز والحاف واستفزاز ، لايقاظ العواطف للحب

فالموسيقى تلطف خشونة طباعنا ، وترفعنا الى الملأ الاعلى فتخفف الالم ، وتحسن الهضم ، وتعقل المجنون وتقود الجندي مختاراً الى الموت في ساحات القتال

ولقد اقترن السمو بالجمال (كنت) اقتران الانثى بالذكر ، فهو اكثر رغبة في الجمال منه في السمو . وهي اكثر رغبة في السمو منها في الجمال . لذا كان السمو ضالتها المنشودة ، والجمال ضالته المنشودة . من هنا كان حبها للسامي في الرجال . قالت احداهن لاحدهم ، لم اكن لاكترث لك لو انك رجل عادي . انما انا كلفة بك لانك عبقري وذو همة شماء

اما هو فيقول لها :

قوامك فتَّان وطرفك احور ووجهك من ماء الملاحة يقطر

لذا كانت الانثى ارقى من الذكر ذوقاً اذا صح هذا القول

جمال الفن

فاض حبنا ، وتخطى الاشخاص الى الاشياء ، فانتهى ذلك بانشاء الفن . واليك البيان . حمل الذكر في مخيلته صورة حبيبته ، فقرن تلك الصورة بمشهد كمال الكل ، هذا هو الفن فللفن مولدان بيولوجي وتاريخي

١ — بيولوجيًّا . يتولد الفن من غناء القرين ورقصه وجهوده في احراز الازدهار الذي يستميل العاشقين ويستهويهم

٢ — تاريخيًّا . يتولد الفن عن التطرئة والوشم وخمش الجسوم والتزين بالملابس على انواعها. ولا سيما ما كان منها فضفاضاً آذناً برؤية الزندين ، والنهدين ، وما فوق الكعبين . ولكن التطرئة الى حين ، والثياب فانية ، فآثر شعب عريق بالخلود كالاغريق اثراً خالداً . فرسم رموز حبه ، وصور آراءهُ وعواطفه في تماثيل منحوتة خالدة . هذا هو مولد الفن . وبهذا الاعتبار يكون الحب خالق الفن كما انه خالق الجمال . فالملابس تراد بها الزينة اولاً ، لا التحفظ او الاحتياط الصحي . قال داروِن انه لما اثر في نفسه تحملهن البرد القارس في فيجي ، عطف عليهن وأمدهن بالاقمشة لوقاية جسومهنَّ من قرس البرد . فما كان منهن الا انهنَّ مزقنَ تلك الاقمشة شرائط مستطيلة ووزعنها بعضهنَّ على بعض ، للزينة . اليس ذلك ما تفعله الحسان في اوربا واميركا ؟ فانهنَّ يلبسنَ الفرو صيفاً ، ويحسرن النحر والزندين شتاء . فالملابس عندهم للزينة اكثر مما هي للصحة

***

ولما فرغ الانسان في العصور الخالية من تزيين جسمه عمد الى تزيين الاشياء كالحراب والانصاب والصروح ونحوها . فأفضى به ذلك الى الانصاب والتماثيل . ألا ترى ان ذلك هو الفن . ومع ان

الديانة ليست مصدر الجمال فقد ضحت في سبيل الفن اكثر من كل مضحٍ الاّ الحب . فالحب اعظم المضحين في سبيل الفن . والفن مدين للحب اكثر مما هو مدين للديانة . فلم تكن الانصاب والتماثيل الراقية في عهد المدنية الاّ ارتقاء عاطفة حب الجمال بعد عهد البداوة والخشونة . ولم يعن المثال بالحب الاّ بعد ارتقاء الفن ، ففيدياس دائماً قبل بركستيلس ، هو ناموس عام في كل عصر وفي كل مصر

الجمال الوضعي

بقي في ميدان البحث امامنا المسألة الاساسية وهي : هل للجمال وجود في الخارج ؟ او هو من صور الخيال ؟

من الناحية الواحدة نرى الجمال مختلفاً في مختلف الامم في عصر واحد ، او في الامة الواحدة في مختلف العصور . مثال ذلك ان الجمال عند الهوتنتوت يبدو في ضخامة الشفتين ، وندوب الوشم الازرق. وعند اليونانيين في القوة والاتزان . وعند الرومان في السمو. وفي عصر الاحياء في الالوان وعندنا اليوم في الموسيقى والرقص . ويؤثر اهالي تاهيتي فطس الانوف لذا هم يضغطون على أنوف اطفالهم لاجل الجمال . والمياس — سكان مريدا في مكسيكو — يخرمون الانوف ويتخزمون كما انهم يحددون اسنانهم ويطعمونها . وقد دهش منجو بارك لما علم ان الزنوج يكرهون بياض بشرته

وحتى عند الاوربيين يختلف الجمال في عصر عنه في عصر آخر . فقد كانوا فيما مضى يؤثرون ضخامة الجسم ، بل في عهد الاحياء كانوا يؤثرون الجسوم الممتلئة . أما اليوم فانهم يؤثرون الجسوم الهيف

بهذا الاعتبار نرى ان الجمال انما هو في العقل لا في الخارج ، وفي عين الناظر لا في المرئي الجميل . ولكن هنالك مبدءًا واحداً عامًّا مطاقاً في الجمال ، وهو ما لابس عهد التوليد . أو ارتبط بالتناسل . فكل آلة تصلح لما وضعت له هي جميلة . واذا لم تخدعنا التطرئة فالجمال أمر بيولوجي . فأجمل منظر في عيوننا الفتاة في عهد البلوغ . او المرضع وعلى صدرها طفل مملوء صحة ورونقاً . فالجمال كما ارادته الطبيعة هو ازدهار الصحة ونضارتها وسلامة النسل . وهو ما آل الى سلامة الجنس . لا الى وهنه . وكل ما اضعف الجسم وحط من شأن الجنس فهو غير جميل

***

قال إيلميس وحكمه جدير بالاعتبار ، بناءً على اختباراته الكلية . الجمال مستقل عن الناظر . اي انهُ يرى ان الجمال شيء في الذات لا في العقل . وهو يستند في ذلك الى عمومية استحسان المماثلات عند كل الأمم . وحتى هـذا مردود وفيه مناقضة للاستقراء كما هو معلوم . على ان فلسفة الجمال والاخلاق قرينان . وبذا نوافق استنتاج افلاطون : — مبدأ الخير يرجع الى ناموس الجمال

مفردات النبات

بين اللغة والاستعمال

لمحمود مصطفى الدمياطي

[اجتمع لي طائفة من أسماء المفردات النباتية وحررت ما يقابلها في بعض اللغات الاجنبية لترتيبها في معجم والآن عنّ لي أن أنشرها تباعاً في مجلة المقتطف الغراء في بيان موجز أذكر فيه المفرد ووصفه وموطنه واستعماله مشيراً الى بعض فوائده في الزراعة أو الصناعة أو التغذية أو الطب عسى أن يكون في ذلك بعض الفائدة — الدمياطي]

الكَمْأَة

واحدة (الكَمْء) مثل تمرة وتمر وقيل إنها تطلق على الواحد والجمع ويتنازع اللغويون مفردها وجمعها في كلام كثير وهي معروفة للعرب بهذا الاسم ويسمونها (نبات الرّعد) و(جُدَرِيّ الارض)

وهي ضرب من النبات الفُطْرِيّ لا ورق لها ولا ساق توجد في الارض من غير ان تزرع وطريقة تكاثرها لم تعرف تماماً حتى الآن رغماً عن مشاهدة غبيراتها (جراثيمها)

ويظن بعض النباتيين أن القوارض من الحيوانات اللبونة كالفار والارنب تهتدي اليها بسبب رائحتها وتأكلها فتنقل بواسطتها الغبيرات مع البراز من مكان الى آخر فيكون من ذلك انتشارها وتنقل جراثيمها

والمأكول منها درنات تنمو تحت الأرض شحمية او صلبة مرداء او على سطحها شعيرات قصيرة ملساء او حلمات او ثآليل وتكون عند كمال نموها ذات رائحة خاصة ويشاهد في القِدّة منها مثل عروق الرخام وهذه العروق على نوعين نوع ابيض عقيم (غير مثمر) والثاني ملوّن ملتو يحيط به نسيج برنشيمي مثمر لونهُ شاحب. واما الغبيرات فتوجد داخل زقاق بيضية او كرية في كل منها اربع او اكثر اواقل والغبيرات نظراً لصغرها المتناهي لا ترى بالعين المجردة بل بالمكرسكوب وسطحها شبكي وهي شبيهة بالنخاريب (الثقوب) التي في قرص عسل النحل

ويعرف من الكمأة نحو خمسين نوعاً اغلبها اوربي والباقي في امريقة الشمالية والجمهورية الفضية وجبال حمالايا وشبه جزيرة ملقّا وجزيرة سيلان وغيرها وهي مقسمة اقساماً كثيرة منها قسمان فقط

يشملان الانواع الجيدة التي تؤكل

• واسم جنسها العلمي (Tuber) (توبر) وفصيلتها الكمئية (Tuberaceae) (توبراسية) وبالانجليزية (Trufde) وبالفرنسية (Truffe)

فمن الانواع الجيدة : —

(١) (Tuber aestivum, Mich.)(توبر ايستيوم) وبالانجليزية (Common or Spring Truffle) وبالفرنسية (Truffe de Bourgogne, ou de champagne; Truffe blanche) وهو ينبت في الغابات ذات الشجر المتساقط الاوراق بشمال ايطاليا وفرنسا والمانيا وغيرها ويوجد بكثرة في اسواق اوربا

(٢) (Tuber uncinatum) (توبرانسيناتوم) وبالانجليزية (Autumn Truffle) وبالفرنسية كالسابق

(٣) (Tuber magnatum, Pico.) (توبر ماغناتوم) وبالانجليزية (Grey Truffle) وبالفرنسية (Truffe grise ou T. blanche d'Italie et de la Provence) وينبت في جنوب اوربا بايطاليا ومقاطعة بروفانس بفرنسا وسطح درناته املس ورائحتها كرائحة الثوم وهو نوع مرغوب فيه

(٤) (Tuber melanosporum, Vitt.) (توبر ميلانوسپوروم) وبالانجليزية (Perigord or Winter Truffle) وبالفرنسية (Truffe du Périgord) وينبت في ايطاليا والمانيا وجميع انحاء فرنسا وهو كمأة الشتاء المرغوبة وطعمها كطعم الشليك

(٥) (Tuber brumale, Vit.) (توبربرومالي) وبالانجليزية (Perigord or Winter Truffle) وبالفرنسية (Truffe musquée ou T. du Périgord)

(٦) (Tuber rufum, Pico.) (توبرروفوم) وبالانجليزية (Red Truffle) وبالفرنسية (Truffe rouge) وينبت في أرض الكروم

(٧) (Tuber albidum, Cesa·) (توبرالبيدوم) وهو مثل توبرايستيوم في اسمائه

(٨) (Tuber album) (توبرالبوم) وبالانجليزية (The great White North-American Truffle) وبالفرنسية (Grande truffe blanche de l'Amerique du Noid) وهو أبيض كالثلج وطري كالجبن

(٩) (Tuber cibarium, Sibth.) (توبرسيباريوم) وبالانجليزية (The Black Truffle) وبالفرنسية (Truffe noire) وينبت في وسط اوربا وجنوبها في الغابات التي أرضها جيرية وقد تبلغ درنته زنة رطل ويستعمل من التوابل أو يحمس ويؤكل غذاء طيباً

هذه أشهر الانواع وهي لا توجد بذاتها في بلاد الجزائر وتونس وجزيرة سردانية وغيرها وانما يوجد أنواع اخرى أقل جودة منها درناتها كبيرة يقال لها (ترفا) (terfa) أو (ترفاس) (terfas) أو (قامس) (kames) تابعة لجنسي (Terfezia) (ترفيزيا) و (Tirmania) (تيرمانيا) من فصيلة اخرى تسمى (Terfeziaceae) (تيرفيزياسية) تعرف العرب مواضعها من تفطر الأرض عنها فتستخرجها وهي مغذية ايضاً لوفرة المادة الزلالية (البروتينية) فيها

اما جمعها باوروبا فيقوم به رجال مختصون يرتزقون من ذلك فاذا جمعت اكلت طازجة أو محفوظة

وكانت الكمأة معروفة عند العرب وفي الصدر الاول من الاسلام امتدحها النبي صلى الله عليه وسلم فقد اخرج الترمذي من حديث أبي هريرة ان ناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا الكمأة جُدَرِيّ الأرض فقال النبي صلى الله عليه وسلم الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين . والمراد بكونها من المن انها من المن الذي انزل على بني اسرائيل وهو الطل الذي كان يسقط على الشجر فيجمع ويؤكل حلواً (الترنجبين) فكأنهُ شبه به الكمأة بجامع ما بينهما من وجود كل منهما عفواً بغير علاج . وقيل إن المراد انها من المن الذي امتن الله بهِ على عباده عفواً بغير علاج فهي شيء ينبت من غير تكلف ببذر ولا سقي فهو من قبيل المن . وقيل المن الذي انزل على بني اسرائيل كان أنواعاً منه ما يسقط على الشجر كالطل ومنه ما يسقط عليهم عفواً بغير اصطياد كالسلوى ومنهُ ما يخرج من الارض كالكمأة . والمن مصدر بمعنى المفعول اي ممنون به . فلما لم يكن للعبد شائبة كسب كان منًّا محضاً وان كانت جميع نعم الله على عبيده منًّا منهُ عليهم لكن خصّ هذا باسم المن لكونه لا صنع فيه لاحد فجعل سبحانه قوت بني اسرائيل في التيه الكمأة تقوم مقام الخبز والسلوى تقوم مقام اللحم والطل يقوم مقام الحلوى فكمل بذلك غذاؤهم . فقوله في الحديث الكمأة من المن اشارة الى انها فرد من افراده فالترنجبين فرد من أفراد المن وان غلب استعمال المن عليه عرفاً ولا يعكر على هذا قولهم لن نصبر على طعام واحد لان المراد بالوحدة دوام الاشياء المذكورة من غير تبدل لاعيانها . وفي الحديث وماؤها شفاء للعين يفسره ما ورد في مفردات الغافقي (المتوفي سنة ٥٦٠ هـ) ان ماء الكمأة اصلح الادوية للعين اذا عجن بهِ الإثمد واكتحل به فإنه يقوي الجفن ويزيد الروح الباصر حدة وقوة ويدفع عنها النوازل . وقد ذكر ابن سينا وغيره من أفاضل الاطباء ان ماء الكمأة يجلو العين انتهى ملخصاً من فتح الباري شرح البخاري

***

شجر الأُتْرُجّ

وتقول العامة (الأُتْرُنْج) و(التُّرُنْج)

ترتفع الشجرة الى ستة امتار قصيرة الاغصان شائكة او غير شائكة اوراقها كبيرة متماسكة

مستطيلة كثيرة الغدد الزيتية وتشاهد عليها كالنقط وحافاتها مسننة وأزهارها عديدة التزاوج في لون أرجواني من الخارج وفي إبط كل ورقة زهرات من ٥—١٢

واسم ثمرتها بالفرنسية (Cédrat ou Pomme de Medie) ومعناه أترجة ميديا او تفاحتها وهي التي كانت تعرف عند الرومان باسم (Mala Medica) (مالا مديقا) كبيرة الحجم مثألّلة (ذات ارتفاعات وانخفاضات) وسطح قشرتها اصفر مبيض او ذهبي اللون ويليه طبقة بيضاء ثخينة ويلي ذلك اللب وهو قليل المادة قليل الحموضة على خلاف الليمون

اسمها العلمي (Citrus Medica, L.) (سيتروس مديقا) وفصيلتها السذابية (Rutaceae) (روتاسية) وبالانجليزية (Citron Tree) وبالفرنسية (Cédratier)

ويعتبرها علماء النبات اصلاً لكل انواع (الموالح) وبينها وبين شجر الليمون شبه ففي كثير من اصنافه يكون ثمره شحميًّا ثخينًا يشبه ثمرها

والاترج موطنه القديم بلاد ميديا وبلاد فارس وينبت بطبيعته في الهند وجبال حمالايا والآن يزرع في جزائر صقلية وقورسيقا ومادبرة ومصر وغير ذلك

وهو بالنسبة الى ثماره ثلاثة أقسام :

(١) الاترج الشبيه بالليمون واسمه بالفرنسية (Cédratier limons) ومنهُ نوعان ثخين القشرة (Cédratier à grosses côtes) وليموني الشكل (Cédratier limoniforme)

(٢) الاترج الحقيقي واسمهُ بالفرنسية (Cédratier proprement dits) ذو الثمرة المنبعجة ذات الاخاديد ومنهُ اترج فلورانسة (Cédratier de Florence) واترج سالو (Cédratier de Salò)

(٣) اترج بونسير او الاترج الدرني واسمهُ بالفرنسية (Cédratier Poncires) ذو الثمرة الكبيرة الدرنية الشكل والرغبة في اصنافه قليلة

وعلى الاجمال فالمنتفع بهِ من الاترج انما هو الجزء الابيض او شحم الثمار في عمل (المربات) ويحصل من قشور هذا الثمر على عطر طيار ذكي الرائحة يدخل في ماء الكولونيا ويؤخذ من لبه عصير يستعمل كعصير الليمون في بعض البلاد . والاترج يوجد في بلاد العرب وقد وصفهُ النباتيون الاقدمون واطنب اطباء العرب في خواصه ونقلوا فيه أقوال القدماء . قال ابن سينا إن حماض الاترج يقوي القلب الحار المزاج وينفع من الخفقان الحار وفيه ترياقية تنفع من لسع الافاعي والحيات وانهُ نافع من اليرقان ويكتحل به فيزيل يرقان العين وعلى الجملة فمنافع الاترج كثيرة حسبما وصفه اطباء العرب فانهم جعلوا لكل من قشره ولبه وحمضه وبزره منافع كثيرة لا يتسع المقام لسردها . وكانت العرب تحب رائحته والنظر اليه لما في منظره من جلب الفرح

وقد ضرب النبي صلى الله عليهِ وسلم المثل للمؤمن الذي يقرأ القرآن بالاترجة طعمها طيب وريحها طيب كما ورد في الصحيح

سفن جوية كالقنابل

تشقّ الفضاء كالصواريخ

علم الملاحة بين النجوم

ان موضوع التملّص من قوة الجاذبية ، والانطلاق في الفضاء بين السيارات والنجوم ، موضوع شغل بهِ العلماء والكتّاب من اقدم الازمنة . وفي سنة ١٨٦٥ كتب اشيل ايرو وهو من معاصري جول ڤرن الفرنسيّ كتاباً موضوعهُ « من الارض الى القمر » اقترح فيهِ استعمال « صاروخ » للطيران من الارض الى القمر . اما جول ڤرن فقد تخيَّل روّاد السماء سائرين في قذيفة كقذائف المدافع تنطلق بتفجّر مقدار من المواد المفرقعة . فنظر كبراء العسكريين الى اقتراحهِ هذا شزراً هازئين بهِ . ولكن اقتراح ايرو كان صواباً في مبدإه ، على ما اثبتت التجارب الحديثة في المانيا وغيرها

وفي سنة ١٩٠٧ عني مهندس فرنسي بحساب مقدار الطاقة اللازمة لقذف جسمٍ معيَّن ، بسرعة معيَّنة ، الى القمر ، او الى الزهرة ، او الى المريخ . هذا المهندس هو المسيو روبير اينو پلتري احد ابناء فرنسا الممتازين ومن اذكى مهندسيها واشهر مصممي محركات الطيارات في خلال الحرب الكبرى . وقد نشر حساباتهِ الخاصة بالطيران بين السيارات ، في سنة ١٩١٢ بعد ما عرضها على الجمعية الطبيعية الفرنسية . وفي السنة السابقة كان الدكتور اندره بنغ الباجيكي قد نال امتيازاً لآلة تمكنهُ بحسب قوله من زيادة طبقات الجوّ بلغ الهواء من اللطافة ما بلغ

وفي سنتي ١٩١٢ و١٩١٣ حسب الاستاذ غودَرد الاميركي — وهو من اعلام هذه المباحث — حسابات دقيقة شجعتهُ على محاولة تحقيق فكره في سنتي ١٩١٥ و١٩١٦ في جامعة كلارك الاميركية فوجد انهُ في الامكان صنع صاروخة تصل الى القمر وعند وصولها تشعل مقداراً من مسحوق المغنيزيوم فيضيء بنور لامع تمكن مشاهدتهُ من الارض باقوى النظارات المقربة . ثم عني ثلاثة من الالمان وهم اوبرث (وهو من اصل روماني) وهوهمن وماكس فاليه بدراسة الموضوع كلٌّ على حدة . فوصلوا الى نتائج لا تختلف اختلافاً كبيراً عن النتائج التي وصل اليها اينو پلتري وغودَرْد

ومن بضع سنوات اطلق الروائي الفرنسيُّ روسني لفظ « استرونتكس » على هذا الضرب من المواصلات ومعناهُ « الملاحة بين النجوم » وهو يقابل لفظ « إرونُتكس » اي الملاحة في الهواء

***

وقد مضت سنوات وبعض المخترعين يحاولون أن يصنعوا طائرة تنطلق في الفضاء كالسهم أو كالصاروخ . وذلك بأن يوضع في أنابيب او اسطوانات في مؤخرتها مواد متفرقعة شديدة التفرقع . فاذا انفجرت هذه المواد رويداً رويداً انفجاراً منتظماً ، وخرجت الغازات التي تتولد من هذا الانفجار

من ثقوب في مؤخرة الانابيب بقوة عظيمة دفعت بخروجها الطائرة في الجهة المقابلة

هذا هو المبدأ . اما تطبيقه أي بناء الانابيب المتينة التي تتحمل ضغطاً عظيماً كالضغط الناشىء عن مثل هذا الانفجار ، وصنع المادة المفرقعة المثلى ، و بناء الطائرة المناسبة لهذا النوع من السير ، واعدادها حتى تؤاتي الجسم الانساني — كل ذلك أمور صعبة لا يمكن تحقيقها بين ليلة وضحاها . وقد اقتضت من أعلام المجرّبين وشجعانهم ثمناً فادحاً دفعه معظمهم بحياته

ومع ذلك لا يني هؤلاء عن التجربة والامتحان وقد قطعوا حتى الآن شوطاً لا بأس بهِ نحو تحقيق ما يرمون اليهِ

فقد ذكر كاتب انكليزي اسمهُ وليم مكين انهُ ذهب الى المانيا ، الى مطار السفن السهمية وهو على خمسة أميال من برلين ، لاستطلاع ما تم في هـذه الناحية ، فطالعه أولاً برج ذو ثلاث قوائم متين البناء يستعمل لاطلاق السفن السهمية منهُ في الفضاء

والسفن السهمية التي تجرب الآن ليست مما يستعمل لنقل مسافر أو اكثر ، بل هي تحتوي على أدوات علمية مختلفة لقياس الحرارة والسرعة وغيرها من الظاهرات الطبيعية . ثم أن في مقـدمة الطائرة « مظلة » (باراشوت) لأنهُ اذا نفد المركّب المتفرقع من أنابيب الطائرة وأخذت تهوي الى الارض وجب ان يكون لها ما يحول دون سقوطها كنيزك منقضٍ فتتحطم الآلات التي فيها

***

في المطار ستة مهندسين قلما سمع اسم احدهم الاّ في دوائر خاصة . وهم في الثلاثين من العمر في الغالب ، ويمثلون الشباب الالماني أحسن تمثيل . تراهم يذهبون ويجيئون بين المواد المفرقعة والغازات السائلة من دون كبير اهتمام مع ان الموت كامن في كل دقيقة من دقائقها

وعلى مقربة من المطار بناية صغيرة رأى فيها الكاتب الانكليزي ميكانيكيين مرتدين أثواباً من حجر الفتيلة (اسبستوس) الذي لا يحترق وهم يملأ ون اسطوانات معينة بالاكسجين السائل وخارج البناء صفوف من اكياس الرمل يقف وراءها العلماء والمهندسون عند اطلاق السفينة السهمية في الفضاء ليدرأوا بها ما قد يصيبهم من شظايا اذا انفجر أنبوب من الانابيب المحتوية على المواد المفرقعة

والمواد المفرقعة التي تستعمل في هـذه التجارب صنفان . الاول جاف وهو مبني على أساس من البارود والثاني سائل وهو في الغالب مزيج من الكحول والاكسجين أو البترول والاكسجين . والصنف الثاني أعنف فعلاً وأشد تفجراً من الاول بل هو يفوق اشد المفرقعات في ذلك

وقد يسأل القارىء عن نتيجة كل هذا التجريب والامتحان والتعرض للخطر . والواقع ان الكاتب الانكليزي سأل السؤال نفسه فقيل له ان طائرة من هذه الطائرات قد حلقت الى علو ستة اميال وهي نتيجة لا بأس بها مع انها لا تقابل بتحليق بيكار البلجيكي الى علو عشرة اميال ببلونهِ . ولكن يجب ان نذكر ان هذه السفن السهمية تنطلق بسرعة ٦٠٠ ميل في الساعة لان الغرض منها انفلات الطائرة من

فعل جاذبية الارض وان هذه خطوة اولى فقط . فطائرة ريط الاولى لم تطر يوم ١٧ دسمبر ١٩٠٣ اكثر من ثانيتين ولم تقطع الاّ مئات من الامتار

واذ كان الكاتب واقفاً يوجه السؤال اثر السؤال مستطلعاً قدّم له رجل قوي البنية وقيل له ان هذا هو الرجل الوحيد الذي طار بطائرة سهمية وعاد الى الارض سالماً يحدث بما رأى وشعر

كانت الطائرة من صنع شقيقه الهر برونو فشر . فبعد ان اتمّ شقيقه صنعها نقلها في تكتم شديد الى جزيرة روغن في بحر بلطيق ولم يدر أحد في المانيا بهذه التجربة الاّ زعماء الريخسفهر

وفي يوم احد من شهر اكتوبر ١٩٣٣ صافح اوتو فشر شقيقه برونو وبعض رجال الريخسفهر الذين جاؤوا خاصة لمشاهدة التجربة ودخل الطائرة من باب فولاذي ثم انسحب برونو شقيقه وصحبه الى خندق في الارض على بعد مائتي متر من البرج ثم ضغط على الزر الذي اطلق الطائرة في الفضاء

فبرق بريق يبهر الانظار وحدث دوي يصم الآذان وانطلقت الطائرة وهي بشكل الطوربيد او السيجار كأنها سهم يشق الفضاء وبعد بضع دقائق رئيت الطائرة عائدة الى الارض عوداً وئيداً بفعل المظلة المتصلة بها واذ اقتربت من الارض شوهدت زعانفها الفولاذية تتحرك فادرك المشاهدون ان الرجل حيٌّ في داخلها وانهُ بتحريك هذه الزعانف يوجّه الطائرة حتى لا تسقط في البحر

فلما استقرت على الارض على مقربة من اكياس الرمل فتح الباب وخرج الرجل ممتقع الوجه مهزوز الاعصاب ولكن ثغره كانت تعلوه بسمة الظفر

وكانت رحلته هذه قد استغرقت تحليقاً ونزولاً عشر دقائق وستًّا وعشرين ثانية

***

فسأله الكاتب : وبم احسست . فقال سمعت اولاً دويًّا هائلاً ثم شعرت بضغط عظيم على جسمي سمّرني في ارض الطائرة ثم فقدت وعيي لان سرعة الطائرة العظيمة دفعت جانباً كبيراً من الدم الذي في عروق الرأس والدماغ ولما استعدت وعيي ونظرت الى مقياس العلو رأيته وقد سجل ٣٢ الف قدم . ثم بدأت الطائرة تسقط الى الارض بسرعة فنظرت من نافذة صغيرة الى جانبي فرأيت المظلة وقد بدأت تنفتح فعلمت انني عائد سليماً الى الارض

ومما استرعى نظري الحرارة الشديدة في أرض الطائرة وهي مصنوعة من حجر الفتيلة . وبعد ان قال كلمة عن طريقة تحريك الزعانف ختم حديثه بقوله « ولا يخفى انني سررت سروراً عظيماً بعودتي سالماً »

***

ثم هناك مهندس الماني يدعى يوهانس فنكلر ، مضى عليه بضع سنوات ، وهو يحاول ان يحقق امنية قديمة له . وهي الوصول الى القمر بطائرة سهمية . ومن نحو ثلاث سنوات ، أتمّ بناء هذه الطائرة ، ونقلها الى سهل رملي فسيح في بروسيا الشرقية . وكان طول الطائرة ست اقدام وقطرها ١٨ بوصة وكان الوقود المتفجر في انابيبها خليطاً من كحول الخشب والاكسجين السائل ، وكان قد انفق

٧٥٠ جنيهاً على بنائها . فلما تمت المعدات ، اطلقت هذه الطائرة فارتفعت مسافة خمسين قدماً تقريباً ثم انفجرت احدى حجراتها الداخليــة ، وسقطت على الارض قرب الخندق الذي توارى فيهِ صاحبها وصحبهُ ، لمراقبة التجربة عن كثب من دون ان يتعرضوا لخطر ما . والواقع ان هذا الانفجار لم يؤذِ احداً ، ولكنهُ غطى المنطقة المحيطة بالمطار بسحابة قاتمة من الدخان

واذا حاولت ان تستطلع طلع الدكتور فنكار في هذا الصدد رأيتهُ الآن اميل الى الحرص اذ لم نقل الى الكتمان . فهو يقول انهُ كسب شيئاً كثيراً من الخبرة من تجربتهِ الخائبة . وقد فسّر الكاتب الانكليزي انصراف المستنبطين عن استعمال الوقود المتفجر الجاف ، اي القائم على اساس من البارود واقبالهم على استعمال الوقود المتفجر السائل القائم على اساس الاكسجين السائل . فضرب له مثلاً بطائرة سهمية لنقل مقدار معين من البريد مسافة معينة . فقال انها تحتاج الى نحو مليوني رطل من الوقود البارودي ولكنها تحتاج الى ٤٠٠٠ رطل من الوقود السائل في انجاز العمل نفسه . ولذلك ترى المستنبطين الالمان وقد اتجهوا الآن الى اتقان طائرة سهمية على هذا الاساس ، الغرض منها نقل البريد ثم يعمدون بعد ذلك الى الطائرة السهمية التي غرضها الرحلة بين السيارات

ومن نحو سنة تقريباً ذهب الى لندن مستنبط الماني شاب في السادسة والعشرين من عمره ، يدعى جرهارد زوكر ليعرض طائرة سهمية خاصة بنقل البريد وهي مصنوعة من الالومنيوم المقسّى بالفولاذ وتتسع لنحو الفي رسالة . وقد اتيح للهر زوكر من بضعة اشهر ان يجرب طائرتهُ هذه امام جمهور من المهتمين بهذا الضرب من الاختراع وكان بينهم لورد لندندري وزير الطيران البريطاني فلم تسفر التجربة عن نجاح تام . وضعت الرسائل في حجرة خاصة في مقدمة الطائرة وملئت الانابيب بالوقود وهو مركب وفقاً لوصفة وضعها الهر زوكر ولا تزال سرّاً مكتوماً . وكان الامل ان يستطاع نقل هذه الرسائل بالطائرة السهمية من احد ميادين « الجولف » في مقاطعة همشير الى جزيرة ويت على مقربة من شاطىء انكلترا الجنوبي . ثم اطلقت الطائرة فرقت في الفضاء كالسهم وسقطت على بعد ميلين من الميدان الذي اطلقت منه . وقد يبدو لبعض القراء ان تجربة كهذه لا تصلح ان تكون اساساً للبحث في رحلة الى القمر ولكن الاستاذ غومنتش الالماني يقول : « اني لواثق انه اذا حدث ما يضطرنا الى محاولة بلوغ القمر تمكنا من ذلك بالوسائل والمواد التي في متناولنا الآن . الا ان الرحلة الى القمر تقتضي منا مواجهة اختلافات شديدة في ضغط الهواء وحرارته والاصطدام ببعض الرجم المنطلقة في الفضاء بزخم شديد ولذلك اظن اننا لن نحاول ذلك لأن النفقة اعظم من ان تسوغهُ »

***

وطار الكاتب من برلين الى بروكسل فقابل الاستاذ بيكار وهو الرجل الذي حلق الى اعلى ما بلغه انسان بطيارة او منطاد فسأله في موضوع الطائرة السهمية فقال بيكار انهُ لا يرتاب في

اتقان الطائرة السهمية في المستقبل وعنده ان طائرة المستقبل سوف تكون وسطاً بين الطائرة المألوفة الآن والطائرة السهمية فتطير وهي في طبقات الجو السفلي بمحركاتها كما تطير الطائرات التجارية والحربية الآن، فاذا بلغت الطبقة الطخرورية حيث يصعب على المحركات جرّ الطائرة في هواء لطيف كل اللطف، تطير بالطاقة المولدة من مادة متفجرة في انابيب خلفية خاصة اي تنطلق فيه كأنها سهم او صاروخ. وبذلك تستطيع هذه الطائرات ان تبلغ سرعة عظيمة جدًّا في الطبقة الطخرورية . الا ان المسافرين بالطائرات الطخرورية (stratoplanes) يجب ان يجهّزوا بوسائل وافية لتدفئتهم لان طائرة تكون منطلقة بسرعة فائقة في جوٍّ حرارته ستون درجة تحت درجة الجمد تقتضي ذلك . ومن المؤكد ان هذه الطائرات يجب ان تكون سوداً حتى تمتصّ اكبر قدر من حرارة اشعة الشمس . فسأله الكاتب في موضوع الرحلة الى القمر فهزّ العالم رأسهُ وقال : ان الملاحة بين السيارات والطيران الى القمر وما اليه مسائل لم نجد لها حلاًّ وافياً حتى الآن ولا يحتمل ان نبلغ القمر الآن ولا في المستقبل القريب الاَّ انني لا احسب الوصول اليه مستحيلاً والراجح اننا نحقق ذلك يوماً ما

— بالطائرة السهمية ؟

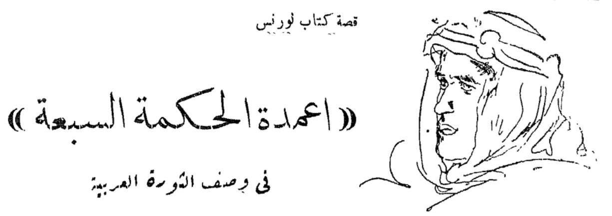
— طبعاً بالطائرة السهمية ! انها الوسيلة الفذة للطيران في هواء لطيف كل اللطف وادراك سرعة عظيمة تمهد لنا يوماً سبيل التفلت من جاذبية الارض . ان المباحث الحديثة في هذا الصدد قد جعلت الطيران بين القارات بهذه الوسيلة امراً وشيك التحقيق

***

ولقي الكاتب في مدينة ليون اشد العلماء حماسة لموضوع الطيران الى القمر وهو الاستاذ ايزيدور باي مدير الجمعية الفلكية بمدينة ليون ومن اقواله في هذا الصدد ان التفلت من جاذبية الارض يقتضي ان تبلغ سرعة المقذوفة سبعة اميال ونصف ميل في الثانية وهذه سرعة تفوق اسرع الطيارات ستين ضعفاً اما مقدار الطاقة اللازمة لقذف ما زنتهُ كيلو غرام واحد بهذه السرعة فيجب ان يكون ١٥ الف وحدة حرارية

ثم قال الاستاذ باي ان العلماء لم يتوصلوا حتى الآن الى صنع مادة متفجرة تستطيع ان تولد هذه الطاقة ولكن كيلو غراماً واحداً من الراديوم يولد في خلال « حياته » ٣٠٠ مليون وحدة حرارية فاذا استطعنا ان نسرع تحول الراديوم اي اذا استطعنا ان نزيد سرعة انطلاق الطاقة منهُ كانت الطاقة الكامنة في كيلو غرام من الراديوم لقذف ما زنتهُ بضعة أطنان الى الفضاء ولكن غلاء ثمنهِ يظلّ حائلاً دون استعماله

وليست الولايات المتحدة الاميركية والمانيا وفرنسا البلدان الوحدة المعنيّة بهذا الضرب من الطيران ولكن ايطاليا وروسيا مهتمتان به اشد الاهتمام . الاّ ان الكاتب الذي نقلنا عنه لم يتح لهُ السفر اليهما ليصف بعض ما تم على ايدي علمائهما في هذا الصدد ولعله يفعل ذلك قريباً



قصة كتاب لورنس

« اعمدة الحكمة السبعة »

في وصف الثورة العربية

اصرّ هوغارث[1] على لورنس بان التاريخ يقتضي منهُ انشاء كتاب جدير بذكرى الثورة العربية . فسلّم لورنس بذلك متلكئاً . ولكنهُ لما سلّم بهِ اقبل على إنجازه بنفس الاندفاع الذي امتاز بهِ في معاركها

قلما نجد كتاباً عظيماً الشيء ومؤلفهُ موزّع الفكر كما كان لورنس عند انشاءِ هذا الكتاب . بل ان اصولهُ فقدت مرتين ، الاولى في روما لما تحطمت الطيارة التي كان لورنس مسافراً بها الى الشرق الادنى وكان لا يزال في مستهلّـه ، والثانية عند الانتقال من قطار الى آخر في محطة ردنغ بانكلترا وهو ذاهب الى اكسفرد ، وكان قد اوشك ان يتمّهُ

ما كاد يضع لورنس منهجاً لفصول الكتاب حتى تبيّن له انهُ في حاجة الى مراجعة اوراقهِ ويومياتهِ وكانت لا تزال في القاهرة . فعرض عليهِ الجنرال غروفز مندوب بريطانيا الجوّي في مؤتمر الصلح ان يسافر في احدى طائرات السلاح الجوّي ، وكانت طائفة منها متجهة الى الشرق الاوسط لتخطيط المواصلات الجوية الامبراطورية . فكتب لورنس مقدمة « الاعمدة السبعة » في الطائرة وهي محلقة فوق نهر الرون بين باريس ومرسيليا ولم يكد يتمها حتى تحطمت الطيارة التي كان فيها عند وصولها الى روما ، فقتل سائقاها ونجا هو لانهُ كان جالساً وراءَ المحركات بعد ان رفض دعوة السائقين الى الجلوس بينهما . فنجا بحياته ولكن ثلاثاً من اضلاعه كسرت وكذلك عظمة ترقوته واخترقت احدى الاضلاع المكسورة رئتهُ وقد ظلّ أثر ذلك يبدو فيها على أثر اي جهد كبير يبذله

لم تكن هذه الحادثة الفردة التي نجا فيها من الموت بل ان لورنس قال للكابتن لِدل هارت — ونحن ناخص عن كتابهِ الموسوم ت . ي . لورنس — انهُ نجا سبع مرات من حوادث مميتة في خلال معالجتهِ الطيران وكانت حادثة روما سادستها . وقد نجا مرتين اخريين على الاقل من حادثتي اصطدام خطيرتين لانهُ كان شديد الميل الى السرعة وهو ممتطٍ دراجته الخاصة وكانت من احدث طراز في « الموتوسيكلات »

---

(١) هو غارث دايفد جورج «١٨٦٢ — ١٩٢٧» عالم أثري انكليزي وكان رئيساً للجمعية الجغرافية الملكية وأميناً للمتحف الاشمولي في اكسفرد ، ومديراً للمكتب العربي في القاهرة خلال الحرب الكبرى وصديقاً حميماً للورنس

بعد ان لبث يومين او ثلاثة ايام في احد مشافي روما تحدث تلفونيًّا مع رفيقهِ في الحرب فرنسيس رُدْ نجل السر رنل رُدْ وكان السر رنل حينئذٍ سفيراً بريطانيًّا في عاصمة ايطاليا فنقل لورنس الى السفارة وبعد بضعة ايام اصرّ على مواصلة السفر الى مصر مع سائر طيارات السرب. وكان عند مغادرتهِ روما لا يزال في جبائر الجبير ، ولكن الحوائل التي حالت دون الاسراع في وصول الطيارات الى مصر مهّدت له فترة للراحة فالشفاءِ

فلما انتصف الصيف كان قد عاد الى باريس فنقل سكنهُ بعيد وصوله الى مقرّ الوفد العربي في دار قرب «بوا ده بولون» وهناك اكبّ على عمله. وقد قال لورنس انهُ كان يكتب في فترات قد تطول احداها حتى تبلغ اربعاً وعشرين ساعة ، لا يتوقف في خلالها الاّ مرة واحدة لتناول الطعام. وكان متوسط ما يكتبهُ حينئذٍ من الف كلمة الى الف وخمسمائة كلمة في الساعة . وقد بلغ اكثر ما كتبه في أطول هذه الفترات ٣٠ الف كلمة أو نحو سبعين صفحة من صفحات المقتطف اذا كان اساس القياس عدد الكلمات . وكان بين فترات الكتابة فترات طويلة ، يعمد في خلالها الى تحقيق ما كتب وتنقيحهِ

ذلك ان كتابته كانت ثلاث مراتب . ففي المرتبة الاولى ، كان يروي الحوادث كما يتذكرها ، ثم بعد ذلك يراجع الوثائق و المذكرات اليومية ويعيد كتابة ما كتب وهي المرتبة الثانية . أما المرتبة الثالثة فكانت تنقيح الكتابة من ناحية الاسلوب، حتى يكون الكتاب كلهُ متجانساً . وكانت المرتبتان الثانية والثالثة تستغرقان أياماً بعدد الساعات التي ينفقها في المرتبة الاولى

ومع ذلك ، كان كتابهُ هذا قد اوفى على التمام عند ما غادر باريس في أواخر الصيف . كان قد سرّح من الجيش في شهر يوليو ولكنهُ دعي الى حضور مؤتمر الصلح . وفي نوفمبر اختير لزمالة في كلية كل الارواح All Souls بجامعة اكسفرد تدوم سبع سنوات حتى يتاح لهُ وضع تاريخ للشرق الاوسط ولكنهُ لم ينتظم في كلية كل الارواح فوراً بعد عودته الى انكلترا بل أقام في غرفة فوق مكتب صديقه السر هربرت بايكر المهندس المعماري حيث مضى في انجاز كتابهِ عن الثورة العربية

[وفي آخر السنة غادر لندن متجهاً الى اكسفرد حاملاً معهُ معظم أصول الكتاب في حقيبة من الجلد كالحقائب التي يحملها بعض التجار . وكان عليه ان ينتقل من قطار الى آخر في محطة ردنغ فذهب الى بوفيه المحطة ليتناول بعض المنعشات فوضع حقيبتهُ تحت الخوان ولما نهض للسفر بالقطار التالي نسيها فلما وصل الى اكسفرد تحدث بالتلفون مع مدير البوفيه فلم يعثر هذا على أثرٍ لها

فكان شعوره الاول شعور فرجٍ وكذلك كتب الى هوغارث فرحاً ساخراً فقال : « لقد ضيّعتُ الكتاب الملعون » ! ولكن هوغارث كان قد قرأ اصول الكتاب كلها أو معظمها هو وصديقان آخران من أصدقاء لورنس ، فاضطرب عند ما بلغهُ هذا النبأ ، وعاد يحاول اقناع لورنس بوجوب كتابتهِ كتابة جديدة

ألقى هذا الطاب على كاهلي لورنس عبئاً لا ريب في أن كلّ كاتب يؤثر التملص منهُ . ولا يزال

ضياع أصول كتاب جديد من اكبر المخاوف التي تقلق بال المؤلفين . ولكن لورنس تغلب على ذلك الشعور ومضى في عمله مستعيناً بذاكرته التي كادت ان تكون كألواح التصوير الشمسي، ومستنداً الى يومياته . فعاد الى الغرفة فوق مكتب السر هربرت بايكر واكبَّ على العمل فما أقبل ربيع سنة ١٩٢٠ حتى كان لورنس قد كتب ثمانية من فصول الكتاب العشرة وهي الفصول التي ضاعت اصولها ، ونقح الفصلين الباقيين وكذلك تمَّ الكتاب

لم يكن الاسراع في النشر ، الباعث الذي حمل لورنس على بذل هذا الجهد العنيف في انجاز كتابه . بل كان غرضه الرئيسي تفريغ ما في ذهنه من حوادث الثورة العربية بكتابتها ، لا فائدة الغير ، اوهو على الاقل لم يرمِ الى فائدة احد في عصره . ومما يدل على ان النشر لم يكن الغرض من الاسراع في انجاز الكتاب ان الكتاب لم ينشر قبل سنة ١٩٢٦ وانهُ الّف ثلاثة كتب اخرى ولم ينشر الاّ واحداً منها فقط . وكان احدها كتاباً وصف فيه رحلاته في الشرق الادنى والشرق الاوسط ، فما كاد يتمه حتى حرق اصوله حرقاً . ومن غرائب الاتفاق ان عنوان ذلك الكتاب كان «اعمدة الحكمة السبعة » وهو مستمد من عبارة جاءت في امثال سليمان : — «الحكمة بنت بيتها ونحتت اعمدتها السبعة . ذبحت ذبائحها ومزجت خمرها وصففت مائدتها . ارسلت جواريها تنادي على متون مشارف المدينة . من هو غرٌّ فليمِلْ الى هنا وتقول لكل فاقد الاب . هلموا كلوا من خبزي واشربوا من الخمر التي مزجت . اتركوا الغرارة واحيوا . انهجوا طريق الفطنة ...... »

كان الكتاب الذي كتبه قبل الحرب ، كتاب وصف ينطوي على مغزى ادبي . ولكن الكتاب الذي كتبه بعد الحرب كان كتاب تاريخ ينطوي على فلسفة

انقضت فترة ليست بالقصيرة ، بين انجاز التأليف واخراج الكتاب . فقد كان لورنس غير راضٍ عن اسلوبه فيه . فمضى ينقحه ويصقل عبارته ولم يكتف بذلك بل عني بدراسة اصول التأليف دراسة وافية . فطلب الى نفر من اصدقائه ، وكان بينهم طائفة من اكتب الكتّاب باللغة الانكليزية ، ان يكشفوا له عن المبادىء والقواعد التي يرعونها في كتاباتهم . وهو يعترف بأن ذلك لم يهده الى السبيل السوي، وان كبار الكتّاب لا يجرون على قواعد معينة في الكتابة ، جرياً واعياً، وان الهواة فقط يفعلون ذلك . ولذلك كانت القواعد التي اتبعها في كتاباته ، نتيجة تفكيره الخاص وقد لابسته ملابسةً حتى اصبحت كل رسالة كتبها قطعة من الفن مطبوعة بطابعه الممتاز

وقد جرى على هذه القواعد في تنقيح كتابه في الثورة العربية خلال سنتي ١٩٢١ و ١٩٢٢ فلما انجز النص الجديد، حرق النص القديم، وطبع ثماني نسخ منه بمطبعة اكسفرد، لان نفقة الطبع بالمطبعة كانت اقل نفقة من الطبع بالمكتاب او مثلها على الاقل، فكلفه طبعها — والكتاب مؤلف من ٣٣٠ الف كلمة — نحو ثمانين جنيهاً . وكان يعتقد ان النسخ الثمان التي طبعها تكفي اصدقاءهُ الذين كانوا يرغبون في الاطلاع على وصف تام لحوادث الثورة العربية . ولكن دائرة الاصدقاء

الراغبين في ذلك كانت اوسع مما ظن ، فلما اشتدَّ اصدقاؤهُ في محاولة اقناعه بوجوب طبع الكتاب عجز عن ردهم ، وبوجه خاص لانه كان يميل ميلاً خاصًّا الى الكتب المطبوعة طبعاً متقناً والمجلّدة تجليداً فاخراً

وكان الباعث الذي حمله على تقرير طبع الكتاب رغبة المس جرترود بل في حيازة نسخة منه بعد ما اطلعت على نسخة صديق لها . فحثته على اخراج طبعة محدودة لاصدقائه . فسلم بذلك لان الطبعة الجديدة تتيح له ان يخرجه على الوجه الذي يرتضيه . فعين لثمن النسخة الواحدة ثلاثين جنيهاً . ثم اتسعت دائرة الأصدقاء حتى صارت شاملة لاصدقاء الاصدقاء . ولما كثرت الاشتراكات حمله ذلك على التفكير في اخراج الكتاب إخراجاً أفخر مما كان يتوقع . فعهد الى طائفة من رجال الفن برآسة إرك كننغتن في وضع الرسوم لهُ . وكذلك زاد ثمن النسخة الواحدة من ثلاثين جنيهاً الى تسعين جنيهاً . ولكنها مع ذلك ظلت دون ما يقتضيهِ هذا الاخراج من النفقة

وقد قدرت نفقات الطبعة المحدودة بثلاثة عشر الف جنيه ، وكان هو عاجزاً عن النهوض بها فتقدم أحد أصدقائه في الحرب — روبن بكستن وكان عند الاقدام على طبع الكتاب أحد مديري بنك مارتنز — متعهداً بتوفية الفرق بين نفقات الكتاب ودخله . ولكن لورنس رغب في أن يحول دون أية خسارة ، يتكبدها صديقهُ ، فاتفق معهُ على اختصار الكتاب ، واخراج طبعة عادية منهُ ، بعنوان « ثورة في الصحراءِ »

وأخيراً ظهر كتاب « أعمدة الحكمة السبعة » في سنة ١٩٢٦ . فتنقلت بعض نسخهِ تنقلاً سريعاً من بائع الى شارٍ الى ان عرضت احداها في دكان كتبيّ بلندن بسبعمائة جنيه

أما كتاب « ثورة في الصحراءِ » فظهر سنة ١٩٢٧ واعيد طبعهُ خمس مرات . فلما علم لورنس أن ما بيع من هذا الكتاب كافٍ لتوفية الدين على كتاب « الأعمدة السبعة » طلب الى الناشرين ان يكتفوا بذلك . ولكن ما بيع منهُ في الولايات المتحدة الاميركية ، أسفر عن ربح كبير للمؤلف الاّ ان لورنس رفض رفضاً باتًّا أن يمسّ فلساً واحداً من هذا المال . بل انهُ كان قد دبَّر تدبيراً قبل نشر الكتاب ، اشترط فيهِ تعيين لجنة يحق لها أن تتصرف بأي مال يجنى من بيعهِ في الوجه الذي تراهُ . ولما طلب اليهِ أحد الناشرين الفرنسيين ان ينشر ترجمة لكتابهِ اشترط أن يطبع على النسخة الفرنسية العبارة الآتية : « خصص ريع هذا الكتاب لضحايا الظلم الفرنسي في سورية »

ومن عجائب ما يروى عن كتاب « الاعمدة السبعة » انهُ ظهر من غير ان يظهر عليه اسم المؤلف. والواقع ان اسمهُ كان مطبوعاً على تجربة الصفحة الاولى فلما اطلع عليها شطب اسمهُ ، فلما سئل في ذلك ، قال يبدو الكتاب كذلك أنقى مما لو كان اسمي عليهِ (It looks cleaner) . أما النسخ التي أهداها الى أخصائهِ ، فلم يمهرها بالحروف T. E. L. أي ت.ي. لورنس بل مهرها بحروف T. E. S. أي ت . ي . شو وهو الاسم الجديد الذي اتخذه عند ما انتظم في فرقة الدبابات وسلاح الطيران

نجران

بحث جغرافي تاريخي

في منطقة تكاد تكون مجهولة من بلاد العرب

لسعادة فؤاد بك حمزة وكيل خارجية المملكة العربية السعودية

لدراسة جغرافية نجران شأن كبير يرتكز على ثلاثة اعتبارات : أولاً — من الوجهة التاريخية والأثرية بسبب انتشار اليهودية والنصرانية فيها قبل الاسلام ووجود بقايا آثار مدن قديمة فيها قد تساعد كثيراً على حسر اللثام عن حوادث تاريخية غامضة . ثانياً — من الوجهة السياسية لأنها كانت السبب المباشر للنزاع بين الملك ابن سعود والامام يحيى مما جرّ الى الحرب الاخيرة بينهما . ثالثاً — من الوجهة العلمية والاجتماعية لان أكثر الخرائط الحديثة لا تحوي عن هذه البلاد شيئاً صحيحاً ولان كثيرين خلطوا في أحوالها ووجود اليهود والاسماعيلية فيها ثم لان موقعها الجغرافي الصحيح ووضعها بالنسبة الى البلاد المجاورة مجهولان بعض الجهل

موقع نجران

نجران احد الاودية الستة ، وأقربها الى جهة خط الاستواء ، التي تصفي مياه الأمطار المتحدرة من السفوح الشرقية لسلسلة الجبال الممتدة من جنوب بلاد العرب الى شمالها بعد دخولها في البلاد المشمولة بحكم ابن سعود والتي يسميها العرب جبال «السراة» أو «الحجاز» (١) . ومع ان نجران ليس أهم الاودية الستة المشار اليها من حيث طوله ، والروافد التي تصب مياهها فيهِ والقرى والمزارع القائمة على جوانبه ، فان له شأناً خاصًّا من جهات عديدة اخرى اهمها علاقته بتاريخ النصرانية واليهودية ووجود آثار كنيسة ومباني مدينة قديمة يدعي بعضهم انها بقايا المدينة الوارد ذكرها في القرآن باسم «الأخدود» ولما كنت قد ذكرت الأودية الستة فانني أرى من المناسب ان أذكر اسماءها والبلاد التي تنبع منها والتي تنتهي اليها مبتدئاً بها من الجنوب الى الشمال على وجه الترتيب

الاودية الستة بحسب وضعها من الجنوب الى الشمال (٢)

اولاً — وادي نجران وهو منفصل عن الاودية التي في بلاد الامام يحيى بجبال مرتفعة تشكل سطحين مائلين لخط تقسيم المياه ، سطح جنوبي تتصفى مياهه الى واديي الفرع واضدح اللذين ينتهيان

---

(١) بعضهم يسمي السلسلة ساق الغراب وهم بالاحرى يسمون السلسلة الغربية ساق الغراب والسلسلة الشرقية لها اسماء اخرى (٢) حصرنا بحثنا في الاودية القائمة ضمن حدود المملكة العربية السعودية فقط

في بلاد الجوف في اليمن، وسطح شمالي تتصفى مياهه الى وادي نجران الآ ان اكثر مياه الوادي تأتيه من جهة الغرب لا من جهة الجنوب . ومياه الامطار التي تأتي الى وادي نجران من جهة الغرب تتجمع من السيول والروافد العديدة القادمة من بلاد قبيلة سحار وبعض قبيلة بني جماعة (وكلتاهما ترجع في أصولها الى قبيلة خولان بن عامر) . وأما مجرى الوادي نفسه واطرافه ومنتهاه فانه ملك لاحد فروع قبيلة همدان بن زيد المعروفة باليامية

ثانياً — وادي حبونه (ويسميه جغرافيو العرب المتقدمون حبونن) ويقع الى الشمال من نجران وتفصله عنه هضاب عديدة اكثرها مرتفع وفي أعاليها منبسط اسمه الصحن . والواديان يسيران متوازيين تقريباً وبعد أحدها عن الآخر في غالب نقاطهما مسافة يوم للجمال المحملة ومصبهما عند رمال المهمل اي الربع الخالي يبعد هـذه المسافة ايضاً . ووادي حبونة أقل اهمية من نجران وأقل عمراناً وقرى بالرغم من أن هنالك أودية مشهورة تصب فيه منها أودية بدر والخانق وهدادة والحرشف . وهو يصفي المياه التي تنحدر الى جهة الشرق من القسم الشمالي من بلاد بني جماعة اليمانيين كما انهُ يصفي بلاد وادعة من همدان والقسم الجنوبي من بلاد قبيلة قحطان . ويمكن ذكر ستة أودية مهمة في بلاد بني جماعة ووادعة وقحطان يمكن اعتبارها أساساً لوادي حبونة وهي (١) وادي الحاجر ويصب في هدادة (٢) وادي قتام ويمر ما بين عقبتي الشطبة وعلب اللتين هما نقطة الحدود بين بلاد ابن سعود والامام يحيي الفاصلة بين حدود بني جماعة وسحار الشام وحدود وادعة (٣) وادي العرين ويمر في قرى عديدة منها ظهران والجزعة (٤) وادي الغيل وينتهي الى حبونة بعد أن يمر في وادي القرن (٥) وادي طلحة (٦) وادي رشاد

ثالثاً — وادي تثليث وهو يصفي الامطار التي تتجه الى جهة الشرق من بلاد بطون قبيلة قحطان كما انهُ منتهى عدة أودية مهمة تصفي قسماً من بلاد قبيلة شهران صاحبة الوادي الرابع الذي سنذكره فيما يلي . وهذا الوادي أطول من الواديين المتقدمين واكثر اعوجاجاً منهما وهو في اتجاهه مختلف عنهما نوعاً لانهُ منحرف الى الشمال الشرقي، والاودية التي تصب فيه كثيرة نذكر أهمها وهي (١) المَجْمَع (٢) جَنَاب (٣) سَروم (٤) راحة سَنْحَان (٥) راحة شُرَيف (٦) وادي الحرَجَة (٧) وادي مِحْلاَة (٨) وادي يَعْوض (٩) وادي الوفيرة (١٠) طَريب (١١) الهَيَج (١٢) وادي المُسَيْرق وهو يتألف من ثلاثة أودية كبيرة في بلاد شهران : وادي الشيّق ووادي السَّليل ووادي خيبر، ومجمعها بقرب خيبر، وتتجه الى وادي تَفْن ثم تصب في تثليث (١٣) وادي القاعة . وينتهي وادي تثليث عند الرمال المعروفة باسم المختمية بقرب وادي الدواسر . وقد فاض تثليث عام ١٩١٧ وكسر السد الرملي وطغى على وادي الدواسر فأغرق قرى كثيرة وسبب خسائر عظيمة في الارواح والاموال . ويمكن القول ان مجرى الوادي واطرافه ملك لفروع قبيلة قحطان ما عدا المسيرق والقاعة فانهما لشهران

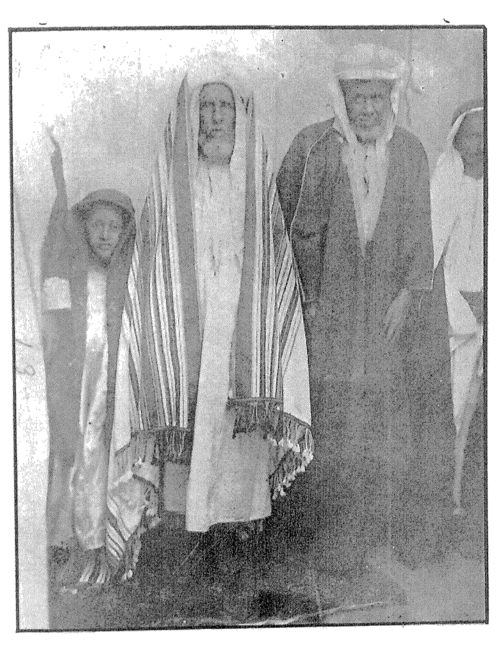
رابعاً — وادي بيشة وهو أطول الاودية الستة وأهمها ولذلك يقسمونه الى ثلاثة أقسام يسمونها بيشة بن سالم من قحطان وبيشة بن مُشَيْط وبيشة النخل . وهو يصفي مياه الأمطار التي تتجه الى الشرق والشمال من ديار بطني رُفَيدة وعَبِيدة من قبائل قحطان وديار قبيلة عسير كلها وديار شهران عدا ما يصب في تثليث من المسيرق والقاعة وديار بالاحمر وبالاسمر وبني شهر كلها. أما الاودية الكبيرة التي تصب فيه فاننا نذكرها على وجه الاختصار لان ذكرها كلها يستغرق من التفصيل ما لا يسمح المجال بذكره هنا (١) وادي تندحة (٢) وادي أبها الذي يكون اسمه في علوه حيث ينبع عند السقا مركز بني مفيد من عسير (خَبِيبي) (٣) وادي عتود (٤) وادي الحُمْرة (٥) وادي هرجاب (٦) وادي ترج (٧) وادي تبالة (٨) بطنة الحبيب . ومن المهم أن نذكر ان وادي بيشة ينبع في علوه من بلاد عبيدة ورفيدة من قحطان عند مكان فيهِ آثار قديمة لبلدة خربة كانت مشهورة في الكتب العربية باسم « جرش » وبعد أن يمر في بلاد ابن مشيط يجتمع بهِ وادي تِنْدَحة قادماً من ضفته اليمنى ووادي عتود وابها من جهة الغرب ووادي الحمرة الذي هو الى الغرب والشمال من وادي ابها الى أن تلتقي عند بلاد ابن هشْبَل فيصبح اسم الوادي اعتباراً من هذا المكان وادي شهران ثم يظل هذا الاسم عليهِ الى أن يصل الى مزارع تسمى وَاعِر وهي تعتبر أول وادي بيشة الذي هو الاصل فيما يطلق عليهِ «وادي بيشة» وهي تبعد عن الرَّوْشَن مركز بيشة اكثر من يومين للجمال المحملة . ويمتد الوادي بعد قرى بيشة التي آخرها الخينة الى أن يصل الى منطقة الرمال فيغور فيها في الرمل المسمى رغوة عند مكان اسمه ظاعن

خامساً — وادي رنية ومنبعه الاصلي في بلاد غامد الواقعة الى الشمال من بلاد بني شهر من موضع اسمه ثَراد وبعد ان يصفي ديار قبيلة غامد وبعض زهران وبالحارث وبني عمرو يبدأ العمران فيهِ عند نخيل اسمه الاملح وبعد أن يسقي القرى العديدة الموجودة على اطرافه والتي آخرها من جهة مصبه بلدة العماير الى ان يصل رغوة وينتهي عند هجلة المتحتمية . ويصب في هـذا الوادي اودية فرعية عديدة أهمها (١) غثران (٢) الهجرة (٣) قَرّة

سادساً — وادي تَرَبة واصل منبعه في علوه في ديرة زهران وبني مالك ولكن اكثر مياهه تأتي من ديرة البقوم في حضن واطرافه من حرة سبيع الواقعة الى الشرق والجنوب من الخرمة وينتهي الوادي في عرق سبيع الرملي عند القنصلية والعرق يبعد مسيرة مرحلة المطية عن الخرمة ويفصل وادي تربة عن وادي رنية حرة سبيع المشهورة . ويصب في وادي تربة عدة أودية أهمها (١) الهجرة (٢) المبايع (٣) سعدانات (٤) الجوفا (٥) الحرملية (٦) الشضو (٧) الجنينة (٨) الظليم ومعيذ والسدري

نجران في كتب العرب

ورد ذكر نجران في كثير من الكتب العربية غير انهُ يتراءى لي ان الذين كتبوا عنها في الاعصر القديمة انما كتبوا ما سمعوه كما فعل المتأخرون والفرق بين كتابة السامع والمشاهد عظيم واكثر



داعي الاسماعيلية في نجران (لابس البرد المخطط) والى يمينه احد
اولاد حسين بن احمد الكرمي الواقف الى يسار الداعي . وقد
اخذت هذه الصورة في ابها .

المؤلفين من العرب يذكرون ان نجران مخلاف من مخاليف اليمن وانهُ يقع بين صنعاء واليمامة (نجد) ويذكر بعضهم ان اسمه مشتق من اسم احد حفدة يعرب بن يشجب ويغلب على الظن انهم كانوا يشيرون الى نجران كانهُ علم لمدينة كبيرة لأنهم يذكرون ان نجران وجرش مدينتان هما دون صعدة الى جهة مكة وانهما متشابهتان (ذكرت عن جرش انها خربة وقد بقيت منها اطلال دارسة في علو وادي بيشة) . وقد ذكر اسم احدى قرى نجران المسماة بالاخدود في القرآن الكريم في سورة البروج وورد الاسم ايضاً في السيرة النبوية بمناسبة وفود اهل نجران الى النبي (صلعم) ودخولهم في الاسلام قبيل وفاته . وورد ذكر اهل نجران بمناسبة اخرى ايضاً وهي حديث النبي عن مشاهدته لقس بن ساعدة الايادي خطيب العرب المشهور وقد كان قس اسقفاً لنجران قبل الهجرة

النصرانية واليهودية في نجران

يذكر مؤرخو العرب ما يستفاد منهُ ان النصرانية سبقت اليهودية الى نجران وان محاولة احد ملوك اليمن الحميريين الذين هادوا ان يرغم نصارى نجران على اعتناق اليهودية ادت الى تدخل قياصرة الروم بواسطة الحبشة والى فتح اليمن من قبل الاحباش كما هو مشهور في الكتب العربية . وقد لخص السير وليم موير في كتابه (حياة محمد) اقوال مؤرخي العرب في ذلك ونقل الدكتور هيوز في كتابه (قاموس الاسلام) ما هذه خلاصته

كان ذونواس الحميري في احد اسفاره الى المدينة اعتنق الديانة اليهودية وحينما عاد الى اليمن حاول نشرها فيهِ ايضاً . فلقي مقاومة عنيفة من اهل نجران الذين كانوا يدينون بالنصرانية فجهز عليهم جيشاً كبيراً وهدم كنيستهم وقتل كثيرين منهم وكان يحفر لهم حفراً يغرقهم فيها ومعنى الحفرة الاخدود وهو المقصود بالآية الكريمة الواردة في سورة البروج« قتل اصحاب الاخدود الخ» وكان من اثر ذلك ان استنجد نصارى نجران بالقسطنطينية التي كانت حامية للدين المسيحي فعهدت هذه الى ملك الحبشة بنصرة نصارى نجران وكان ما كان من استيلاء الاحباش على اليمن (عام ٥٢٥ م) ونشر النصرانية فيهِ وشروعهم في مهاجمة الحجاز لهدم الكعبة المكية واقامة كعبة اخرى مكانها في صنعاء يسميها العرب (القليس) وربما كانت محرفة عن كلمة (Eglise)

ومن المعلوم ان النبي ولد في العام الذي غزا الاحباش مكة فيهِ . ولم يدم ملك الاحباش في اليمن كما ان النصرانية ظلت في نجران الى ظهور الاسلام وظل في اليمن كثيرون من اليهود ومن العرب الذين دانوا باليهودية الى يومنا هذا . وحينما انتشر الاسلام اوفد اهل نجران اساقفتهم ورؤساءهم الى النبي وصالحوه على ان يظلوا على نصرانيتهم ويؤدوا الجزية ولكن حينما قرر الخليفة عمر ألاّ يبقى في جزيرة العرب دين آخر مع الاسلام صدر الامر باخراج من يصر منهم على النصرانية وعوض على من خرج مالاً مقابل املاكه

الاسماعيلية في نجران

يتمذهب اهل نجران كما يتمذهب سائر ابناء عمومتهم واخوانهم من قبيلة يام بالمذهب الاسماعيلي وهو مذهب احدى الفرق الشيعية الباطنية في الاسلام واتباعه يعتبرون أئمة سبعة من اهل البيت آخرهم محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق ويختلفون عن الاثني عشرية بان هؤلاء يقولون بامامة اثني عشر اماماً آخرهم محمد الحسن العسكري ولا يعترفون لمحمد بن اسماعيل بل يتبعون موسى الكاظم . والاسماعيلية بانفسهم منقسمون الى عدة فرق اهمها (١) فرقة الخواجية التي يترأسها آغا خان (٢) فرقة الداودية التي يترأسها طاهر سيف الدين من بومباي (٣) فرقة السليمانية التي يترأسها الداعي المكرمي الذي له منصب في الهند في بدر باغ وهو غلام حسين الهندي . اما كيفية دخول الاسماعيلية بين اهل نجران وسائر يام فما لا نستطيع الجزم بهِ ولا تحديد وقت معين لحصوله . الاَّ ان الذي يتراءَى لي ان طبيعة اليامية جعلتهم يميلون الى مخالفة جيرانهم من القبائل في العقائد الدينية وفي العادات الاجتماعية ومع ان اليامية بطن مهم من بطون همدان بن زيد فانهم يختلفون عن مجاوريهم بانهم عرفوا بعزيتين الاولى اختلاف المذهب والثانية كونهم من اشد القبائل شكيمة وقت الحروب ومعتادين الغزو والغارات. ولم تشتد دعوة الاسماعيلية في نجران وتصبح لرؤسائهم سيطرة مدنية وقوة عسكرية حكومية الاَّ منذ ثلاثة قرون ونصف تقريباً حينما قدم الى نجران الداعي الاسماعيلي المسمى محمد بن اسماعيل المكرمي فارّاً من بلدة (طيبة) التي تبعد عن مدينة صنعاء مسافة بضع ساعات الى جهة الجنوب [(١)]

المكارمة في نجران

كنت مخطئاً في ظني ان المكارمة من السادة العلويين الى ان اتيحت لي فرصة الاجتماع المتكرر مع نائب المنصوب عن الداعي والمسمى حسين بن احمد فاعلمني ان المكارمة قحطانيون وسرد لي سلسلة نسبه الى يعرب (حسين بن احمد بن حسن بن حسين بن علي بن حسين بن علي بن حسين بن احمد بن محمد وهذا اول من سكن بدر من المكارمة ابن الفهد بن صلاح بن داود التامر بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن علي بن صبيح بن حسان بن مكرم بن سبا بن حمير الاصغر بن المنتهب بن عمرو ابن علاق بن ذي ابين بن ذي يقدم بن الصوار بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن حيدان بن قطر ابن غريب بن زهير بن ايمن بن الهميسع بن حمير الاكبر بن يشجب بن يعرب بن قحطان). وسرد عليَّ المكرمي حادثة قدوم محمد بن اسماعيل الى نجران ثم كتب اليَّ خلاصة وافية نقلها عن كتاب جامع لتاريخ ائمة الاسماعيليين ودعاتهم واعمالهم في مدة الدعوة ولكنهُ رفض ان يطلعني على اصل التاريخ الذي عنده مع انهُ قديم ويتناقله الدعاة خلفاً عن سلف . وفهمت ان سبب امتناعه عن اطلاعي عليهِ يعود الى ان ما فيهِ عائد لشؤون باطنية محضة وقاعدة اهل الباطن في الاسلام المحافظة على اسرار معتقداتهم وعدم اطلاع الاجانب عنهم عليها

---

(١) ذكر لي المكرمي ان بلدة طيبة كانت تسمى في الزمان القديم دورم

كان المكارمة مقيمين في طيبة ولكن الدعوة لم تنتقل اليهم الا متأخرة فقد قرأت فيما كتبه الي المكرمي اسماء اربعة دعاة من الهنود قاموا بأمر الدعوة في الهند وطيبة من عام ٩٧٤ الى ١٠٨٨ هجرية وهم داود بن عجب الذي حصل بعد وفاته انفصال فرقة الداودية عن السليمانية وسليمان بن حسن هندي وجعفر بن سليمان وعلي بن سليمان وحين وفاة هذا اوصى بالامر لشخص اسمه ابراهيم ابن محمد بن الفهد (راجع سلسلة النسب) ابن صلاح المكرمي فقام بالدعوة في بلدة طيبة مدة ٤٤ سنة وحين وفاته عهد بها الى حفيده محمد بن اسماعيل بن ابراهيم فحصل بينه وبين الزيود حرب غلب فيها فهرب الى القنفذة ومنها دعاه اسماعيليو نجران ليكون بينهم فحضر الى بلاد نجران وسكن في بلدة بناها وأسماها الجمعة ولكنها الآن خراب

ومع ان المكارمة غرباء عن نجران وليس لهم سلطة زمنية (لا سيما اذا اخذنا بعين الاعتبار ان اليامية مؤلفة من ثلاثة فروع لكل فرع رئيس زمني قوي) فانهم نجحوا في اعمالهم وأصبحوا اصحاب الشأن في الامور الدينية والزمنية وامتدت فتوحاتهم الى الاطراف المجاورة ووصل بعضهم الى تريم في حضرموت وبعضهم الى اواسط نجد أيام النزاع بين آل سعود وابن دواس وآل معمر

أما الذين تعاقبوا من دعاة المكارمة في نجران فهم: (١) محمد بن اسماعيل توفي ١١٢٩هـ (٢) هبة ابن ابراهيم توفي ١١٦٠ (٣) اسماعيل بن هبة توفي ١١٧٤ (٤) حسن بن هبة توفي ١١٨٩ (٥) عبد العلي بن الحسن بن اسماعيل بن ابراهيم توفي ١١٩٥ (٦) عبد الله بن علي بن هبة توفي ١٢٢٥ (٧) يوسف بن علي بن هبة توفي ١٢٣٤ (٨) حسين بن حسين بن علي بن هبة توفي ١٢٤١ (٩) اسماعيل ابن محمد بن حسن بن هبة توفي ١٢٥٦ (١٠) حسن بن محمد بن حسن بن هبة توفي ١٢٦٢ (١١) حسن بن اسماعيل وهو من آل شبام ومن غير المكارمة توفي ١٢٨٩ (١٢) احمد بن اسماعيل بن محمد بن حسن بن هبة توفي ١٣٠٦ (١٣) عبد الله بن علي توفي ١٣٢٣ (١٤) علي بن هبة توفي ١٣٣٠ (١٥) علي محسن ابن حسين آل شبام تولى ١٣٣٠ وهو الداعي الى الآن وخليفته غلام حسين الهندى والمنصوب الآخر حسين بن احمد المكرمي . وجميع المكارمة الاحياء الموجودين في بدر ونجران وشهارة في اليمن اربعة افخاذ ويجتمعون في جد اعلا اسمه محمد بن الفهد المار ذكره في سلسلة النسب وحسين بن احمد المكرمي الخليفة المقبل يقول ان فخذه اسمه فخذ آل ذي الجدين دليلاً على انه مكرمي اباً وأمًّا

سكان نجران

يقطن نجران فرع من فروع قبيلة همدان بن زيد القحطانية كما انه يوجد فيه عدد قليل من الذميين (اليهود) بعضهم من اصل يهودي والبعض الآخر من العرب الذين اعتنقوا الديانة اليهودية ويوجد فريق ثالث من السكان يحسب من الطبقات المنحطة التي لا يحترمها العرب ومكانة هذا الفريق اعلى من مكانة اليهود وأحط من مقام القبائليين . اما اليهود فانني قد علمت بعد البحث الدقيق بواسطة زعماء المكارمة واليامية انهم لا يزيدون عن مائة عائلة منتشرة في قرى وادي نجران

وحبونة وعملهم في الصنائع التي يحسب العرب القبائليون انها حطة في قدرهم مثل الخرازة وسائر اشغال الجلود والحدادة والسمكرة وسائر الاعمال الصناعية . ولليهود كاهن يقيم في المخلاف يسميه الاهالي « الذبَّاح » وهم يسبتون يوم السبت ويجتمعون غالباً في بيت الكاهن ويقرأون بالعبرانية واليهود متمتعون بحماية زعماء اليامية الثلاثة وحماية المكارمة ايضاً ويظهر انهم مسرورون من معيشتهم وهم يؤدون الجزية سنة فسنة ويبلغ مقدارها ريالاً واحداً عن البالغ ذكراً او انثى . وذكر لي بعضهم ان احد هؤلاء اليهود اغري على السفر الى فلسطين فأقام فيها مدة ثم عاد منها الى قومه فسئل عن اسباب عودته فقال : « وجدت معاملة المسلمين والنصارى غير التي نعرفها عنهم في بلادنا وغير ما نقرأه في كتبنا ووجدت اليهود غير اليهود الذين نعلمهم فقنعت نفسي وعدت الى قومي »

اما العرب القبائليون او اليامية فانهم ثلاثة بطون :—

﴿ اولاً ﴾ — بطن آل فاطمة — كبيرها جابر بن حسين ابو ساق

١ آل سالم
٢ آل شرية
٣ آل مسعد
٤ آل المحامض
٥ آل سليم
٦ آل ذيبان
٧ الزبادين
٨ آل زمناذان
٩ آل القفيلي
١٠ آل بشر
١١ القشانين
١٢ الشركان في هداءة
١٣ المكاييل في حبونه
١٤ آل مخلص بدو
١٥ آل زابن »
١٦ آل معجبة »
١٧ آل راكه »
١٨ آل فطيح »
١٩ آل رشيد »
٢٠ آل فهاد بدو
٢١ آل العرجاء »
٢٢ آل سالم بدو وحضرهم في بدر وفي حبونه
٢٣ آل فروان بدو وحضرهم في بدر وفي حبونه
٢٤ آل سفران بدو وحضرهم في بدر وفي حبونه
٢٥ آل لبيد بدو في بدر
٢٦ آل عمرو » وحضرهم في بدر
٢٧ آل معمر »
٢٨ آل زائد حضر في حبونه
٢٩ آل شرار حضر في نجران
٣٠ آل دكان » » »
٣١ آل معيط » » »
٣٢ آل سعد » في حبونه
٣٣ آل فائد » في حبونه
٣٤ آل الخريت » » »
٣٥ آل الطويل » » »
٣٦ ابن قنة » » »
٣٧ ابن حامد » في نجران

(٢٩–٣١: هؤلاء يطلق عليهم آل ابو غبار)

﴿ ثانياً ﴾ — بطن آل ام واجد كبيرها ابن نصيب آل المهري

١ وهم ثلاثة أقسام آل غانم وآل علي بن سعيد وآل حسن المحمد وابن الخروبر يسكنون نجران
٢ آل الحارث وفيهم آل بحري — آل الحارث في نجران — وآل بحرى في حبونه
٣ ابن الحزوبر
٤ آل عامر
٥ الدلاوين
٦ آل بنيان { يطلق على هؤلاء الثلاث
٧ العطازة { آل عامر وهم بدو
٨ آل علي بن عامر { وحضرهم في حبونه
٩ آل صليع بدو وحضرهم في حبونه
١٠ الخضرا في حبونه
١١ آل هميم «
١٢ آل بحري
١٣ آل عباس في نجران
١٤ وادعة « «
١٥ آل قريع بدو وحضرهم في حبونه
١٦ الهيسان بدو وحضرهم في حبونه
١٧ آل رزق بدو وحضرهم في نجران
١٨ آل علي بن الأحسن في نجران وحبونه حضر

﴿ ثالثاً ﴾ — بطن ادشم (اجشم) وكبيرها سلطان بن منيف

١ آل مقاتل ومنهم بنو منيف في نجران
٢ آل حرث «
٣ زبيد «
٤ آل بوزيده في نجران
٥ آل منصور «
٦ آل سليمان وفيهم آل بدر وال مطيف والحمسان وآل كليب وآل مطارد وآل خطاب وآل سنان وآل جريشه والدويس في نجران
٧ آل حسن في نجران
٨ ابن سليمان وهم آل هتيله بن علي وآل مشرف — وآل حابس وآل سوران وآل حوار في نجران
٩ ابا الحارث في نجران
١٠ الصقور «
١١ آل جعفر « ويقال لهم آل جبير
١٢ آل ربعه «
١٣ آل مصعب «
١٤ آل ريح «
١٥ الاشراف « هجرة آل الهندي
١٦ آل جعران « في بدر
١٧ آل الهندي وقد ورد ذكرهم بصفة متفرقة ولكنهم كما يأتي :—

آل حسن
آل سليمان
بالحارث
آل منصور
آل مقاتل
آل حرث
آل ابو زيده آل جبر
الربعة الاشراف هجرة آل الهرفى
آل جبر

ومن اليامية بدو يتبعوق الاقسام السابقة وبعضهم ليس فيها

١ جماعة ذيب المهان (من آل فطيح)
٢ جماعة ابو نقايا (من آل فطيح)
٣ جماعة حسين بن سداح بن آل معجبة
٤ جماعة الخدري من آل مطلق وآل مخاص
٥ جماعة منير الرشيد من آل زائد من الرشيد
٦ جماعة فلاح بن سمحه من آل عمرو

(يتبعون جابر بن حسين بو ساق)

٧ جماعة ابراهيم الاسلومي من آل عامر يتبع بن نصيب
٨ عوض بن حليمة من آل فروان
٩ مفاشر آل سالم من آل سالم
١٠ صالح بن محمد آل لبيد من آل لبيد

(يتبعون جابر بن حسين بو ساق)

١١ جابر بن دكام يتبع بن نصيب

ثانياً : آل ام واجد وكبيرهم ابن نصيب واكثر في حبونة ولهم في نجران ثماني قرايا سأذكرها فيما بعد ثالثاً : ادشم او اجشم وكبيرهم سلطان بن منيف ولهم في نجران ١١ قرية كبيرة سنأتي على ذكرها حين ايراد اسماء القرايا ومواقعها فيما يأتي :

قبائل اليمن المشهورة ونسبة اليامية الى همدان بن زيد

علمت من كثيرين من الثقاة ان القبائل العربية التي تقطن جبال اليمن الواقعة الى الشمال من صنعاء حتى حدود بلاد ابن سعود ترجع انسابها الى اصلين كبيرين ويحدها من شماليهما قبائل عربية سعودية تنحدر من اصل آخر سأذكره ايضاً . اما الاصلان فهما : اولاً همدان بن زيد والثاني : خولان بن عامر والاصل الذي يجاورهما من شماليهما هو قحطان بن عامر « وربما كان ابن عمرو» . اما قبيلة همدان بن زيد فانها تنقسم الى قسمين كبيرين (١) حاشد وهو اقربهما الى صنعاء (٢) بكيل وتنقسم بكيل الى عدة اقسام اذكرها فيما يلي

اولا — دهم وتتألف من فرقتين ذوى محمد وذوى حسين وهما رأس بكيل . ثانياً — سفيان اهل الحرف . ثالثاً — ارحب . رابعاً — وائلة وأهل الفرع . خامساً — اليامية وهي اهل نجران وحبونة وآل مرة والعجمان في نجد . سادساً — وادعة التي تقيم في بلاد ظهران

واما قبيلة خولان بن عامر فانها تقيم في السورات الى جهات الغرب من اقسام وفروع بكيل ولخولان ثلاثة مراكز رئيسية في الادارة الاول : مركز رازح والثاني : مركز ساقين والثالث : مركز صعدة . واما اهم اقسام خولان فانها كما يأتي : —

اولاً قبيلة سحار وهي في صعدة واطرافها وفي بلاد الصعيد المجاور لصعد تولها قرية واحدة منفصلة عن بغية سحار بواسطة بني جماعة وهي اقرب القرايا اليمانية الى حدود الملك ابن سعود واسمها « يباد » قرية ابن صبحان . ثانياً قبيلة بني جماعة وهي في بلدة باقم واطرافها . ثالثاً قبائل رازح والنظير . رابعاً قبائل بني مشيخ وبني منبه . خامساً قبائل فيفا وبني مالك وبني عبد الله التابعون لابن سعود . ويفهم مما ذكرنا اعلاه ان لليامية اقارب في نجد وفي اليمن على السواء . (ومن شاء زيادة التوسع عليهِ ان يراجع قسم القبائل العربية في كتابي قلب جزيرة العرب)

[للبحث تتمة مع خريطة لنجران]

طلسم الآباد

لالياس قنصل

لا تطمعي يا نفسُ في ادراك ما　　أعيي حجا المتعمق المتفلسفِ

طُلّسمُ آبادٍ خلال قشوره　　تبدو الظنون الحائمات وتختفي

القربُ منه هو البعاد بعينه　　ان لم يزد في غمضه المتكثفِ

أنا ما عدلتُ عن التسائل قانعاً　　بحقيقة أروت غليل تشوّفي

لكنني الفيتُ ابلائي سدى　　ثوب الشباب من الجنون المتلف

ولو أنني ادركتُ بعد الجهد ما　　امتلتهُ ، وكشفتُ ما لم يكشف

افكنت ادرج في نعيم دائم　　صفو السعادة فيه غير مزيّف ؟

لا ! فالحياة بجهلنا وبعلمنا　　لم يعرُها نقصٌ ولم تتشرّف

يا نفسُ لن تجدي السبيل فاطفئي　　هذا السراج ، فما الضياء بمسعف

ما زلتُ ابحث ممعناً في حيرتي　　واجدٌ خلف الوهم جدّ تلهّف

حتى رجعتُ الى الشكوك مصدّعاً　　ورأيتُ اني مصدر السر الخفي

عاصمة الارجنتين

الدفتيريا وعلاجها الواقي

بحث علمي صحي

للدكتور محمد علي

[بكتريولوجي بمعامل مصلحة الصحة]

اذا اردنا ان نحدد معلوماتنا الطبية عن مرض الدفتيريا ، وجدناها تقع في اربع مراحل ، الاولى مرحلة المشاهدات الاكلينيكية ايام كان الطبيب يشخص الدفتيريا معتمداً على مشاهدات خارجية اكثر ما تكون عرضة للخطإ للتشابه الكبير بين الدفتيريا وامراض الحلق المختلفة الاخرى . والثانية مرحلة اعتمد فيها الطبيب على التشريح المرضي في تمييز الامراض وتشخيصها . والثالثة مرحلة التجارب وفيها تكشف للطب سبب المرض . فبالتجربة العلمية امكن احداث مرض الدفتيريا في الحيوانات فكان ذلك مدعاة للتفكير والبحث عن العامل الخفي المجهول المسبب لهذا المرض . وفي عام ١٨٨٤ نال فخر هذا الاكتشاف العظيم العلامة لوفلر بكشفه عن الميكروب المسبب للدفتيريا ، وما لبث ان ايد العلماء كشفه فأصبح حقيقة ثابتة . وتوالت الجهود بعده فكشف الشيء الكثير عن خواص هذا الميكروب وتاريخ حياته . وأمعن كل من رو ويرسين في دراسة خواصه وتوصلا سنة ١٨٨٠ الى فصل سم الدفتيريا الفعّال (توكسين) وذلك بترشيح مزرعة من الدفتيريا في المرق ، وبحقن هذا التوكسين في حيوانات التجارب تبين لهما الشبه بين مفعوله ومفعول باشلس الدفتيريا نفسه . وكان عملهما هذا ختام مرحلة التجارب وتمهيداً للمرحلة الرابعة الهامة

ويعتبر عام ١٨٩٠ بداية المرحلة الرابعة التي اضاء فجرها اكتشاف بهرنج وكيتا ساتو لمصل الدفتيريا العلاجي . ذلك الاكتشاف الخالد الأثر الذي يعتبر بحق فاتحة جديدة للتقدم المطرد الذي بلغه تحضير الامصال العلاجية فيما بعد ، وقد بلغ الغاية في هذه الايام ، ولعل اول نتيجة مذكورة مشكورة محسوسة له هي قلة الوفيات من الدفتيريا ، قلة واضحة في جميع انحاء العالم

***

بعد ذلك اتجهت البحوث الى ايجاد الوسائل لوقاية القابلين للعدوى بالدفتيريا وخصوصاً الاطفال بين السنة الاولى والخامسة عشرة من العمر حينما يكونون اكثر تعرضاً للمرض من غيرهم

كان من المعلوم اذ ذاك امكان التحصُّن ضد الدفتيريا بزيادة مقدار الانتي توكسين Antitoxin الطبيعي الذي في الجسم اي في الدم وذلك بحقن مصل الدفتيريا الحاوي للانتي توكسين . وهو المصل المضاد لسموم الدفتيريا وقد رغبوا في الاستفادة من تلك الظاهرة في الوقاية كأول خطوة في هذا السبيل ولكن التجارب المتعددة والمشاهدات الكثيرة اثبتت حبوط هذه الطريقة . ومما لا شك فيه انه يمكن تأخير ظهور اعراض المرض بحقن مقدار كافٍ من مصل الدفتيريا لمن تعرض للمرض او لمن اصابته العدوى وما زال في دور الحضانة ، فتحدث بذلك مناعة وقتية تبقى ما بقي في الدم مقدار وافٍ من « الانتي توكسين » المحقون ، واذا ما تضاءل هذا المقدار بسرعة وهو غالباً ما يحدث ، زالت عن المريض المناعة وتعرض للمرض فتبدو اعراضه واضحة خصوصاً ما زال ميكروب الدفتيريا في حلقه

وحبوط هذه الطريقة في ايجاد الوقاية الكافية صرفت عنها الافكار وحوَّلتها الى اتجاه آخر

***

وفي عام ١٨٩٢ قام كل من فون بهرنج ووارنيك بعدة تجارب في الحيوانات القابلة للعدوى ، فأثبتا امكان حقنها مع بقائها سليمة بمقادير متزايدة من الميكروبات الحية الفعالة وذلك بعد اعطائها حقنة واقية من المصل . مضى على ذلك ست سنوات عند ما تمكن نيكاروف من تحصين الحيوانات باعطائها حقناً متكررة من التوكسين المتعادل بالانتي توكسين (اي ان كل حقنة من هذه الحقن كانت تحتوي على مقدار معين من التوكسين مع مقدار آخر معيَّن من الانتي توكسين لتخفيف فعلهُ التسممي) . ثم حقنها بعد ذلك بالتوكسين وحده بغير ضرر يذكر . وفي عام ١٩٠٠ اقترح درايز تبين المقادير اللازمة من التوكسين والانتي توكسين وذلك بواسطة حقنها في خنازير الهند قبل استعمالها في تحصين الخيل

وبالرغم من الجهود المتوالية لاستنباط طرق للوقاية لم تسفر أية طريقة حينئذ عن الفائدة المرجوة في الحيوانات فكان من الصعب جدًّا تطبيق احداها على الانسان

وجاء بعد ذلك بهرنج عام ١٩١٣ واعلن عن نجاحه في توصله الى طريقة نافعة لتحصين الانسان ضد الدفتيريا . وطريقته : ان يحقن مركباً مؤلفاً من التوكسين والانتي توكسين داخل الجلد . وصرح أن تركيبه هذا الذي لم يذكر طريقته لا يضر خنزيراً من خنازير الهند اذا حقن بهِ

ولعلَّ الفضل كل الفضل في تقدم هذه الطريقة في العلاج الواقي من الدفتيريا راجع جلُّهُ الى اعمال بارك وزنجر اللذين استعملا مركباً معيَّراً من « التوكسين انتي توكسين » فكان ذلك سبباً في ذيوعه وتعميمه لتحصين الاطفال والافراد القابلين للعدوى . ومما يؤسف لهُ ظهور بعض العواقب غير المحمودة لاستعمال هذا المركب . ويعزى ذلك الى خطإٍ في تركيبه وتحضيره ، فكان باعثاً على صرف النظر عنهُ الى محاولة استعمال التوكسويد (التوكسويد هو توكسين الدفتيريا مضافاً اليهِ مادة

الفورمالين بحيث يضعف فعله التسممي مع بقاء مقدرتهِ على توليد المناعة) بدل التوكسين لقلة ضرره اذا قيس بالتوكسين مع كفائته في التحصين. وأول من استعمل مركباً من التوكسويد والانتي توكسين هم الانجليز والاميركيون وكانت نتائجه محمودة . أما الممالك الاخرى وخصوصاً فرنسا فاقتصرت على استعمال التوكسويد وحده فأسفر فيها عن نتائج تفوق ما كان منتظراً منهُ ويرجع فضل ذلك في فرنسا الى اكتشاف رامون سنة ١٩٢٤ لخواص هذا التوكسويد الذي سماه « اناتوكسين رامون »

وتركيبه هـذا عبارة عن توكسويد ، محضر باضافة فورمالين الى السموم الموشحة من مزرعة دفتيريا في مرق ، ثم حفظه في فرن التفريخ مدة طويلة كافية لازالة قوته السامة وهو مع ذلك لم يفقد خاصة اتحاده بالانتي توكسين بل يظل كفوءاً للتحصين كما تبين ذلك من التجارب العديدة

***

ويحسن هنا ان نشير الى طريقة شيك المتبعة لكشف قابلية العدوى في الاشخاص . فهي عبارة عن حقن مقدار يسير جداً من التوكسين داخل الجلد ومراقبة تأثيره المحلي في الجلد . فمن كان قابلاً للعدوى ظهر في مكان الحقنة التهاب يختلف شـدة وضعفاً باختلاف قابلية الشخص للعدوى وتعتبر التجربة ايجابية وليس لها أي تأثير ضار بالشخص . واذا لم يبدُ أي تفاعل موضعي يعتبر الشخص سلبيَّ النتيجة لتجربة شيك أو غير قابل للعدوى لتمتعه بنوع ما من المناعة الطبيعية ضد الدفتيريا وتعرف هذه التجربة باسم كاشف شيك Schick

ويقول رامون ان الحالات التي اصبحت سلبية لتجربة شيك بعد تحصين تام بالاناتوكسين (أي بعد ٣ حقن) بلغت نسبة النجاح عندهم من ٩٤ الى ٩٨ في المائة أي ان نجاحها فاق كثيراً نتائج استعمال « التوكسين انتي توكسين » بل ان كثيرين غيره من العلماء منهم ديكس وسفارتس وجيتي يذكرون الاناتوكسين بالنجاح الكامل اذ بلغت نسبة النجاح عندهم ٩٨ ./· أو ما يزيد

وطريقة الوقاية بهِ هي أن يعطى على ثلاث دفعات حقناً تحت الجلد. الاولى نصف سنتمتر مكعب والثانية سنتمتر مكعب بعد ثلاثة أسابيع من الحقنة الاولى . والاخيرة حقنة تختلف من سنتمتر مكعب الى سنتمتر ونصف بعد اسبوعين من الحقنة الثانية . ومنعاً لمـا قد يحدث من تفاعل في البالغين يحسن اعطاء مقادير صغيرة تتراوح بين عُشر سنتمتر مكعب وربع سنتمتر حقناً تحت الجلد قبل اعطاء العلاج الواقي السالف الذكر .

وللحقنة الثالثة شأنها الكبير وقد وجد ان ٣٣ ./· ممن اكتفوا في الوقاية بحقنتين يظلُّ امتحانهم يسفر عن نتيجة ايجابية لكاشف شيك دلالة على عدم تكون المناعة اللازمة لديهم [1]

وينصح رامون امعاناً في الوقاية لكل من أتمَّ العلاج الواقي اي الحقن الثلاث ان يأخذ سنويًّا حقنة اناتوكسين مقدارها سنتمتر مكعب واحد

(١) وقد جاء في بعض المجلات العلمية انهم قد حسنوا هذه الطريقة بحيث يكتفي فيها بحقنتين بدلا من ثلاث حقن

والثابت الآن أن المناعة تتم في نهاية الشهر الرابع من أخذ الحقن ، وتبلغ أقصاها في الشهر السادس كما يتبين جلياً من مراقبة المحقونين بتجربة شيك وتستمر المناعة في الاطفال عامين أو ما يزيد اذا لم يتم العلاج كله . أما اذا أتمّ الحقنة الثالثة فالمناعة اكيدة مدى أعوام طويلة

***

ولقد كان لتعميم استعمال « الاناتوكسين » للوقاية بفرنسا اكبر الفضل في اختفاء أوبئة الدفتيريا من جلّ المعاهد والمدارس وتدليلاً على ذلك يذكر موزار انهُ حقن ما يزيد على ٣٠٠٠ طفل في مستشفى برش في مدى سنوات اربع بدايتها ١٩٢٥، ففي العامين الاوليين اي ١٩٢٦ و١٩٢٧ كان عدد حالات الدفتيريا ١٠٣ وعدد الوفيات بها ٨ ، اما في العامين التاليين لهما اي ١٩٢٨ و ١٩٢٩ فبالرغم من شدة التعرض لعدوى جديدة من المرضى الجدد لم تظهر سوى خمس حالات في ١٠٠٠ طفل محصَّن . وحتى هذه الحالات الخمس كان شفاؤها سريعاً

أما في المدارس فقد هبطت عدد الاصابات بالدفتيريا في المحصنين الى حد أدنى

وفي عام ١٩٢٨ عممت الحكومة التحصين المجاني باناتوكسين رامون

وفي فبراير ١٩٢٨ حقن ٥٥٠٠ طفل في المدارس الابتدائية منهم ٥٠٪ تقل أعمارهم عن ٦ سنوات ولم يمرض أحدهم بالدفتيريا لغاية سبتمبر سنة ١٩٢٨

وفي اجتماع يناير ١٩٣٠ لجمعية طب الاطفال ذكر لبربوليه وجورنيه انظهوراصابات الدفتيريا في الافراد المحصنين أمر نادر الحصول ، بل وجدا انها لا تظهر الاّ فيمن لم يتم العلاج بحقنهِ الثلاث

وكذلك اتضح جلياً فائدة هذه الطريقة في الوقاية من الدفتيريا ، فاصبح لزاماً تعميم استعمالها كطريقة صحية ناجعة في فرنسا عموماً وادخلت حتى في الجيش

ثم اتخذتها بلجيكا وهولندا طريقة للوقاية من الدفتيريا فنشأ عن ذلك هبوط عظيم في عدد الوفيات بهما كما دلت على ذلك تقارير مصالح الصحة

***

وكان لنجاح طريقة التحصين ضد الدفتيريا بالحقن في امريكا اكبر الاثر في انكلترا في البداية ، ولكن النجاح الباهر الذي نالهُ في انكلترا بعد ذلك فاق كل وصف . فمثلاً في ادنبره حصّن ١١ الف نفس وبقي ٩٥ الف بغير تحصين فبلغت نسبة الاصابات بالدفتيريا في غير المحصنين ١٠ امثالها في المحصنين ولم تحصل اي وفاة في المحصنين ، وقد بلغت الوفيات في غير المحصنين ٦٣ من كل ١٠٠٠٠٠ نفس وهذا احصاءٌ واحدٌ فقط من الاحصاءات التي تبين اثر التحصين ومفعوله في انكلترا مما ادى الى تعميم استعماله في جميع انحاء انكلترا واسكتلندا وارلندا ، ومما يستحق الذكر دلالة على عدم ضرر التحصين انهُ لم يصب اي واحد من ١٥٠٠٠٠ نفس حصنوا بها باي ضرر يذكر

وفي الولايات المتحدة ويبلغ سكانها ١٢٢ مليون و ٧٠٠ الف نفس عام ١٩٣٠ بدأ التحصين ضد

الدفتيريا من امد طويل، ولكن المجهود الجدي بدأ حقيقة عام ١٩٢٩ — ١٩٣٠ حيث عم التحصين في نظام مضمون وكانت اصابات الدفتريا عام ١٩٣٠ تبلغ ٦٢،٢٧٤ في الالف تقابل ٨٠،٠٤١ في الالف عام ١٩٢٩ اي ان نسبة الاصابات هبطت من ٠،٩٧ في الالف الى ٠،٦٥ في الالف وهي قلة واضحة ولا شك

وكان عدد الوفيات في عام ١٩٣٠ — ٥٠ ./. اقل منهُ عام ١٩٢٩ والاصابات قلت في عام ١٩٣٠ — ٦٥ ./. والوفيات ٧٠ ./. عن عام ١٩٢٨

ومن الادلة الواضحة ان في عام ١٩٣٠ حدثت ٣٥٣٠ اصابة وكان ٩٣ ./. من اصحابها تقريباً ممن لم يتحصن ضد الدفتيريا و٢ ./. ممن تحصن وهؤلاءِ لم يستعملوا العلاج كاملاً

اما عام ١٩٣٠ فقد قلت الاصابات فيهِ قلة واضحة مما دل على فائدة التحصين ضد الدفتيريا

***

اما في المانيا فقد اختلفت الآراء في بادىء الامر بين تحبيذ لهُ ورفض ولكن ساد اخيراً الاعتقاد بفائدة التحصين فذاع استعماله في كثير من المدن والمعاهد والمدارس

وقررت وزارة الصحة البروسية في نوفمبر سنة ١٩٢٧ تحصين جميع الاطفال الذين تقل اعمارهم عن خمس سنوات كما قررت تحصين كل من كان ايجابيًّا لتجربة شيك وعمره اكثر من خمس سنوات خصوصاً في الاماكن التي زادت فيها اصابات الدفتيريا

وفي كندا سنة ١٩٣٠ كانت اصابات الدفتيريا ٧٥٣٤ والوفيات ٥٧٩ يقابل ذلك في عام ١٩٢٩ ٨٨٨٤ اصابة و٨٧٩ وفاة ويدل ذلك على نقص في اصابات الدفتيريا ووفياتها . وما من شك في ان النجاح سيكون عظيماً عند اتمام التحصين العام الذي بدأ عام ١٩٣٠

امام هذه الدلائل الواضحة على فائدة التحصين ضد الدفتيريا نجد ان ممالك الارض طرًّا قد اتخذتهُ كاداة ناجعة في الوقاية من مرض طالما فتك بالانسانية . ومن ذلك مثلاً ما قررتهُ اليابان والصين وبلدان اميركا الشمالية والجنوبية وروسيا وجميع ممالك اوربا

***

اما مصر فلا يمكن اعتبارها بين البلدان التي تحسب معرضاً للدفتيريا ولكن الجدول الآتي يحتوي على نسبة اصابات الدفتيريا في القاهرة : —

٣٣٣	اصابة عام	١٩٢٦	اي بنسبة	٣٠،٢	في	١٠٠،٠٠٠
٤٨٦	»	١٩٢٧	»	٤٤،١		»
٣٤٤	»	١٩٢٨	»	٣١٫٣		»
٣٠٥	»	١٩٢٩	»	٢٧،٦		»

وهي نسب عالية وقد لاحظتها مصلحة الصحة العمومية ، فعملت على تحضير الاناتوكسين في معاملها بالقاهرة حتى تزود المصريين بسلاح ناجع في مقاومة هذا المرض الخطر على غير المحصَّنين

سوريا في زمن الصليبيين

[تتمة البحث]

لنقولا زياده

الصليبيون وجموعهم

كانت اوربا المسيحية في القرنين العاشر والحادي عشر تختلف كل الاختلاف عن الصورة التي رسمناها للشرق . كان الاقطاع سبيل الحياة السياسية ، الا حيث قامت المدن التجارية التي ابتاعت حريتها من النبلاء ، لقاء ضريبة تدفعها لهم . وقد فرض هـذا على الاتباع قيوداً اجتماعية سياسية ثقيلة جداً ، كما فرضت عليهم الحياة الزراعية قيوداً اقتصادية . ولم يعرف الحرية الا اولئك التجار الذين كانوا يرتحلون بين اوربا والشرق . وكانت الكنيسة قد سيطرت هناك على العقول ، فأغلقت دونها أبواب المعرفة الا ما رضيتهُ ووافق عقائدها وتقاليدها ، فكانت آمال اتباعها في السماء ، وسبيل تحقيقها ارضاء الرئيس الروحي أو التبرك بأثر من آثار القديسين أو الحج الى البلاد التي قضى فيها المخلص أيامه على الأرض [١] . وهذه فكرة جديدة تستهوي الافئدة ، وتملك الالباب ، ذلك أن عودة المسيح أصبحت قريبة فليعمل كل جهده ليكون له ملكوت السماوات . فكان همُّ الكبير والصغير ، المجرم والبريء ، أن يفوز بهذه النعمة

وهذا الطاعون والقحط ، يهجمان على غرب اوربا في أواخر القرن الحادي عشر ، فيتركان الناس على شر ما يكونون [٢] ، فقر مدقع ، وارض ليس من يعمل فيها ، ويأس من النجاح في بلادهم . فسعى بعضهم الى الارض المقدسة ليكفر عن ذنبه ، ودخل آخرون الدير ليصوموا ويصلُّوا [٣] . ومن هنا كانت بين الجماعات الأوروبية نزعة قوية نحو تبديل ما هم عليه ، وميل الى تحسين أمورهم [٤] ، وكثيرون خرجوا من بلادهم ليعملوا في مكان آخر لندرة الاعمال عندهم [٥]

والتجار الذين سحرتهم ثروة الشرق ، وراقتهم اسواقه ، رغبوا في أن يكون لهم منها حصة اكبر ، لتزداد مغانمهم ، ويقوى نفوذهم ، لاسيما وان التنافس بين تجار المدن الايطالية نفسها كان قويًّا ، والتزاحم كان شديداً [٦]

---

(١) راجع «الرحلة والرحالون في القرون الوسطى» — المقتطف (٢) Lamb 39,42 (٣) Lamb 33 والرحلة والرحالون (٤) Prutz 15 (٥) حوانقيل ١٧ (المقدمة) (٦) الحسني ١٠٨—١٠٩

والامراء جالت في نفوسهم خواطر متعددة عن أمارات خاصة ينشئونها ، في البلاد التي «تفيض لبناً وعسلاً » ، حيث لا ملوك يحكمونهم [١] . والفرسان كانت تعروهم هزة اذا هم ذكروا انهُ من الممكن أن يحققوا الاغراض التي أقسموا ان يسعوا وراءها ، يوم قلدوا وشاح الفروسية

والبابا [٢] كان يتطلع وهو شديد الشوق الى اليوم الذي يستطيع فيه أن يعيد الكنيسة البزنطية الشرقية والارمنية الى حظيرة الهدى ، وحصن الطاعة الروحية

هذه هي الهواجس التي كانت تجول في الخواطر ، لما ان جاءت رومة ، او ادعي ان قد جاءت رومة [٣] ،رسالة صاحب بزنطية ، يستنجد بحامي النصرانية الاكبر ، ان يوقف التقدم الحثيث ، تقدم الجيوش التركية ، في هجومها العنيف على دولته الكبيرة

وسنحت الفرصة ، وكان على العرش الروحي ، البابا الذهبي [٤] ، اوريانوس الثاني ، الفرنسي الاصل . فتسلل الى كلرمون الفرنسية ، في خريف ١٠٩٥ ، ووقف بين مئات من رجال الدين والامراء وآلاف من غيرهم [٥] ، وقال «ان الاتراك قد أسروا وقتلوا كثيرين (في الشرق) وهدموا الكنائس ودمروا مملكة الله [٦]» . وطلب من الحاضرين [٧]« ان يذكروا الالوف الذين لاقوا موتاً شنيعاً » وعدد الفظائع التي زعم ان الشرقيين ارتكبوها مع الحجاج المسيحيين ومع مسيحيي الشرق ، وفي الكنائس . وذكرهم بقول المسيح ان من ترك بيته وارضه وأهله من أجلي ، جوزي على ذلك بمائة ضعف ، ونال ملكوت السموات . ولما وثق أنهُ أثار الشجون ، وأسال العبرات ، استصرخهم : «فعلى عاتق أي غيركم يقع اذن واجب الانتقام ؟ من أعمال الظلم هذه ؟ واسترداد الاراضي المقدسة؟ انتم الذين حباكم الله بالاسلحة والشجاعة الفائقة ؟ والقوة الجسدية والمقدرة على الانتصار على كل من يجرؤ على مقاومتكم ؟ لا ترهبوا الموت ، لأن فيه تاج الشهادة . فالطريق قصير ، والعناء قليل ، والجزاء وفير أبدي. احملوا سلاحكم وامضوا فانهُ خيرٌ لكم ان تقعوا في المعركة من ان تتألموا لما يصيب اخوانكم ، وما تتعرض له مقدساتكم . سيروا . . . فانني أرى أمامكم في الطليعة ، القائد الذي لا يغلب — المسيح »

وفعلت هذه الكلمات فعلها في نفوس الجماهير ، فصاحت « ارادة الله ، ارادة الله » وشجع كل من سمع الخطاب من لم يسمع ، وكذلك انضم الناس الى الجيوش التي بدأت في السنة التالية تمد على سوريا لتنقذ البلاد المقدسة من أيدي حكامها المسلمين . وروج كل طمّاع الدعوة بين الفئات المتدينة

---

(١) Lamb 53, 65-6,25,69,95 وKugler 86 و Prutz 120 (٢) Kugler 124 و Lamb 41 وتاريخ الكنيسة ٧٥ و La Monte 295 والعلاقة بين البابا والفرق الدينية في La Monte 206 والمتاجر الايطالية والبابا وهناك بحث وافٍ في العوامل التي دفعت البابا الى اثارة الحروب في Lamb 277-9 (٣) Lamb 277-9 (٤) Lamb 41,43,44 (٥) حضر الاجتماع ١٤ من رؤساء الاساقفة و٢٢٥ مطراناً و ٤٠٠ رئيس دير — Kugler 18 (٦) الكلية ١٨ : ٢٠٧ و Kugler 11 (٧) Lamb 46-9 ,

أو الناقمة على الحياة الاجتماعية بما يتفق ورغبته. فهم تكال للمسلمين جزافاً[١] — «هم عباد اصنام[٢]..» «وهم يعبدون محمد كاله[٣]» و«هم جبناء ضعفاء تعوزهم الشجاعة ... يعمدون في الحرب الى طريقة الهرب ... سهامهم مسمومة، وهي، لا الشجاعة، التي تنزل الموت بعدوهم[٤]» — ليزيدوا حماستهم. وتشويق المؤمن الى ملكوت السموات، والمجرم الى الغفران، والعبد الى الحرية[٥]، والجائع الى الشبع، والفقير الى الثروة، والامير الى الامارة، والفارس الى الاجر[٦]، والتاجر الى الربح[٧]، والشهواني الى النساء الشرقيات الجميلات — كل يخلع ثوبه ويرتدي ثوب التقى والصلاح، ويضع شارة الصليب، لانها حرب دينية

هذه الحملات الصليبية اذن حققت تلك الاماني التي كانت تخفق بها الصدور، واوجدت للقوى والرغبات الحبيسة منفذاً للانطلاق، ومجالاً للعمل، وسبيلاً للاعلان عن نفسها[٨]. ثم فقدت بعد سنين، صبغتها، وصار للفرنسيين والبنادقة اعمال اخرى[٩]. من دون ان يعنى الآخرون بالدين في فلسطين. وبعض الامراء أرادوا ان يتخلصوا من نقمة ملك فرنسا عليهم، فحملوا الصليب ذرًّا للرماد في العيون[١٠]

والحملة الصليبية الاولى. والفظائع التي ارتكبتها في طريقها[١١]. وفي احتلال القدس[١٢]. ليست مما يشرّف. وقد تظهر لنا رغباتهم من خلال تصرفهم السيء مع مسيحيي فلسطين أنفسهم. فقد استولوا على اديرتهم. وطردوهم من الكنائس والبيوت. فتبعثر المسيحيون في جهات فلسطين وشرق الاردن[١٣] وكان بطريركهم يقيم في القسطنطينية أو في القاهرة تحت حماية الخلفاء الفاطميين[١٤]

وعلى هذا فان هذه الزوبعة الاجتماعية التي هبت على اوربا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر. كانت لها عوامل اقتصادية وسياسية ودينية[١٥]. وقد هزت شعوب اوربا من نزوح الى صقلية. وحملت في مدى القرنين الى سوريا نماذج من جميع الاصناف والاجناس البشرية التي كان العالم الاوروبي يعج بها[١٦]. وعلى ما بينها من تفاوت في الجنس واللغة والفكر، فقد كانت كلها تجمعها وحدة الدين والحماسة والشارة[١٧]. فهم على حد تعبير شرف الدين ابن عنين[١٨]

قد اجتمعوا رأياً ودينًا وهمةً وعزماً وان كانوا قد اختلفوا سنا

(١) Prutz 88 (٢) الكلية ١٨ : ٢٠٨ — ٢٠٩ و Lamb 153 (٣) الكلية نفس المكان (في الكلية ١٨ : ٢٠٦ — ٢١٢ مقال في الموضوع) (٤) الكلية ١٨ : ٢١٠ والنوادر ١٢١ (٥) Prutz 16 وفي نفس الكتاب ٧٢ — ٨٨ و ١٠٨ — ١٠٩ (٦) جوانفيل ٢٦١، ٢٤٠، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٦٢، ٣٠٢ (٧) الحسني ١١٠ (٨) Prutz 15 وجوانفيل ٣٣ — ٣٤ (المقدمة)، ١٧٦ (الاصل) و Kugler 65,426-7 (٩) جوانفيل ١٦ (المقدمة) (١٠) جوانفيل ١٧ (المقدمة) (١١) راجع Lamb 175 عن احتلال المعرة (١٢) Kugler 61 (١٣) تاريخ الكنيسة ٧٥ (١٤) نفس المكان (١٥) حتي — كتاب المقتطف الذهبي — ١٤٣ و Prutz 119 (١٦) La Monte 203 و Lamb 126 (وهذه رواية مؤرخ معاصر هو فلكر) (١٧) Kugler 11 و Lamb 126 (١٨) المقريزي (السلوك) ١ : ٢١١

تداعوا بأنصار الصليب واقبلت جموع كأن الموج كان لهم سفنا

كان في الجيوش الصليبية . ومع التجار الصليبيين (١) . الفرنسيون من مختلف المدن (٢) . واللومبارديون (٣) من مدن ايطاليا التجارية الشمالية . والمالطيون (٤) . والاسبان (٥) والاسكندنافيون (٦) . والانكليز . والهنغاريون (٧) . والبلغاريون (٨) . والجرمان من القبائل المتفرقة في أواسط اوروبا وكان عددهم كبيراً جداً حتى تألفت منهم فرقة الفرسان التوتون . وكانت قلاعهم الخاصة حصينة (٩) . وكان بين هؤلاء القادمين على رواية المؤرخين المعاصرين من الغربيين . القاتل . واللص . وقاطع الطريق . والمجرم (١٠) . والقرصان . والسكير . واللاعب . والراهب . والراهبة . والرجل . والمرأة . والطفل . والعاهرة . والمحكوم عليه بالاعدام (١١) . والملك . والأمير والفلاح . والتاجر . والنبيل . والغني . والفقير . وباختلافهم اختلفت الغايات والاطماع (١٢) . من دينية خالصة . الى مادية بحتة . والأخيرة هي التي غلبت متسترة بالأولى (١٣) . وقد كان هناك من جاء يفتش عن اميرة شرقية غنية يتزوجها (١٤)

***

انهُ لمن الصعب تقدير عدد الاوربيين الذين هبطوا البلاد السورية في القرنين المذكورين ، فان هذا البحث لم يستوفه المؤرخون بعد ولكننا نسمع دائماً الارقام تعدو عشرات الالوف الى المئات في الحملة الواحدة . فالحملة الاولى كانت نحو نصف مليون (١٥) والثانية فاقتها (١٦) والثالثة بلغت ربع المليون (١٧) وفي حصار عكاء كان عدد الافرنج لا يقل عن خمسمائة من الآلاف (١٨) حتى ان القاضي ابن شداد ركب دابته بعد احدى المعارك العادية في تلك السنوات ، وخاض بين القتلى واجتهد ان يعدهم فلم يقدر (١٩) . وهناك غير المتحاربين التجار والحجاج الذين زاد عددهم كثيراً في هذه الاثناء ولذلك فلا يبعد ان يكون عدد الذين اشتركوا في هذه الحروب مليونين من الافرنج (٢٠)

---

(١) ان التجار وحركتهم جزء من الحملات الصليبية . راجع La Monte 227,8,30,33,34 (٢) Prutz 25 وقد كان عدد الآتين من بريتني كبيراً حتى انشىء لهم مستشفى خاص بهم في عكاء (١٢٥٤) . (٣) Prutz 112 ، الخطط ١ : ٢٨٤ و ٣٠٤ والحسني ١١٠ (٤) Prutz 112 (٥) راجع Prutz 112 و Lamb 43 و 277-9 (٦) مثل سيجور وجماعته . راجع EarlyTravels 50-62 و Kugler 10,11,101 (٧) وقد عثر في البلاد السورية على نقود هنغارية وغيرها . Prutz 113 (٨) ابن جبير ٢٩٣ (٩) منها قلعة القرين في ضواحي عكاء (١٠) بركهارد في Prutz 119 (١١) يعقوب فتري — في Prutz 119-120 ، راجع ايضاً Lamb والفتح ١٦٩ — ١٧١ (١٢) Kugler 11,21,31 و Prutz 337 و La Monte 228,230-1 (١٣) Prutz 120-1 (١٤) في Prutz 121 امثلة كثيرة لهذا النوع من المحاربين (١٥) Kugler 30 وميشو — في الخطط ١ : ٢٧٩ راجع ايضاً La Monte 138 و Lamb 276-7 (١٦) Kugler 137 (١٧) Kugler 23 راجع الهامش (١) (١٨) الخطط ٢ : ٧١ (١٩) النوادر ١١٣ (٢٠) الحسني — عن قطف الزهور — ٩٩ ويقدر محمد كرد علي (الخطط ٢ : ١٢٨) عدد من قتل من الشرقيين والغربيين بخمسة ملايين

الاختلاط في سوريا

يبدو لنا الآن ونحن ننظر النظر المشارف مدى احتكاك هذه الملايين من مختلف الاجناس البشرية، والعادات والاخلاق خلال قرنين ، والاثر العميق الذي تركه هذا الاختلاط في نفس الجماعات الغربية التي اتيح لها ان تعاشر اقواماً راقين ، مخالفين لهم في الدين والمدنية . وهذا الاحتكاك امر فرضه التجاور في المسكن ، والتبادل في المصلحة . فان الصليبيين بعد ان استوطنوا سوريا ، ورأوا ماعاد عليهم من الفائدة المادية ، كان امراؤهم وتجارهم يحبون ان ينتشر السلم ويستتب الأمن بينهم وبين جيرانهم المسلمين ، ليعيشوا في اطمئنان [1] وليضمنوا لتجارتهم سيراً اميناً الى اسواق بغداد . وكان اكثر الساعين الى ذلك تجار ايطاليا في الموانىء الكبيرة . حتى انهُ لم يكن غريباً ان يكون بين المسلمين والصليبيين حروب ومعارك ، وفي نفس الوقت تروح القوافل بالمتاجر وتجيء [2] وليس عليها الا ان تدفع الجعل [3] . وقد يتفق ، كما روى ابن جبير ، ان يدخل سبي الافرنج مدينة ، وتخرج في نفس اليوم قافلة من تجار المسلمين الى بلاد الصليبيين [4] . اضف الى هذا ان امراء الصليبيين قد جندوا كثيرين من اهل البلاد في جيوشهم [5] . ثم ان جهل هؤلاء الامراء اصول الزراعة ، وقلة الزراع الافرنج ، حملاهم على استخدام السكان الوطنيين . وكانوا بادىء الامر يشتدون معهم ، لكن بعد حين احسنوا إليهم [6] واقطعوا اصحاب النفوذ منهم الارض [7] بل ولّوا على بعض الضياع التي كان لا يعمرها الاّ المسلمون ، رؤساء مسلمين من قبلهم ، حتى في امكنة قريبة من مراكزهم [8] . وكثيراً ما قيل ان فارساً افرنجيًّا اخذ اقطاعاً من امير عربي ، لقاء مال دفعهُ اليهِ [9] . وقد كانت بعض الاراضي الواقعة على الحد بين المسلمين والصليبيين تقتسم غلاتها مناصفة ، مثل البطحاء ، بين بانياس وهونين [10] وعلى هذا فقد كان الافرنج والمسلمون يعيشون معيشة ترفيهٍ ، خشي منها ابن جبير فاضاف الى وصفها [11] « نعوذ بالله من الفتنة » . ولعل اغرب ما روي عن الاتفاقات التي عقدت حينئذٍ ما رواه ابن جبير ، من انهُ كانت شجرة كبيرة بين بيت جن (الشامية) وبانياس ، تسمى شجرة الميزان ، وهي حد بين الامن والخوف فمن اخذ وراءها (شرقها) الى جهة بلاد المسلمين ، ومن اخذ امامها (غربها) فالى جهة بلاد الافرنج . ولهم في ذلك عهد يوفون بهِ [12]

وهكذا فقد ضعف النفور بين السكان انفسهم من الفريقين [13] حتى ان ابن جبير لاحظ

---

(١) Prutz 61,62 وحتى انه لما استولى ابن قلاون على عكاء كان فيها تجار مسيحيون اوربيون (٢) ابن جبير ٢٦٨ و Prutz 360 (٣) الحسني ١١٥ (٤) ابن جبير ٢٨٠ و ٢٨٢ وجوانفيل (٢٤٦) يقص حكاية يوحنا الارمني الذي ارسله صليبيو عكاء الى دمشق ليبتاع معدات عسكرية مع ان صاحب دمشق وافرنج عكاء كانوا في حرب (٥) موزرو — السكلية — ١٨ : ٢١١ و Lamb 270 ولامونت . (٦) الحسنى ١٠٦ وموزرو — السكلية ١٨ : ٢١١ و La Monte ٢٠ (المقدمة) (٧) اسامة ١٠٣ و ١٢٠ و La Monte 21 (المقدمة) . (٨) ابن جبير ٢٨٤ وأسامة ٨٢ (٩) اسامة ٩٧ «قرية كانت بيننا وبين فارس من افرنج كفر طاب و Lamb 173 (١٠) ابن جبير ٢٨٢ — ٢٨٣ (١١) ابن جبير ٢٨٤ (١٢) ابن جبير ٢٨٤ (١٣) Prutz 61

ذلك في اهل صور فقال عنهم انهم [(١)] « ألين في الكفر طبائع ، واجرى الى بر غرباء المسلمين شمائل ومنازل ، فخلائقهم اسجح، ومنازلهم اوسع وافسح، واحوال المسلمين بها اهون واسكن » وقد شهد ابان اقامته بصور عرساً صليبيًّا ، فوصفه ، ووصف ثوب العروس المزركش الفضفاض ، ومشيتها الفاتنة، ونقلها الى بيت عريسها ، يتقدمها المسلمون وسائر النصارى من النظار ، وليس من ينكر ذلك [(٢)]. حتى الرهبان كانوا يضيفون المسلمين في الدير [(٣)] واهل لبنان المسيحيون يقدمون للمنقطعين لله من المسلمين القوت ، ويحسنون اليهم [(٤)]

ويحدثنا المؤرخون المعاصرون عن الثقة المتبادلة بين المسلمين وجيرانهم من الصليبيين ، بعد ان اقاموا في البلاد مدة ، وتبلدوا وعاشروا المسلمين [(٥)] وكثيراً ما كان صاحب الامر في جهة ، يمر بهِ رسول عدوه فيكرمه [(٦)] او يطلب احدهم الامان لجماعة تجتاز بلاده فلا يبخل بذلك [(٧)] وتصل المعرفة بينهم حدود المودة ، كهذا الذي يحدثنا اسامة عنهُ ، فانهُ كان فارساً محتشماً وصل من بلادهم يحج ويعود . فأنس باسامة ولازمهُ وكان يدعوه « أخي » وبينهما المودة والمعاشرة [(٨)]. وهذا صلاح الدين ، يفد عليهِ صاحب صيدا بالناصرة ،فيحترمه ويكرمه ويؤاكله ، ويعرض عليهِ الاسلام ويذكر طرفاً من محاسنهِ ويحثهُ عليهِ [(٩)] كما ان تبادل الهدايا مع الرسل كان مألوفاً [(١٠)]

فسوريا اصبحت لهؤلاء الصليبيين بلاداً تفوق غيرها بالحرية حيث الملك والبطريرك والامراء والتجار والحجاج والعامة من الناس جربوا ان يتبلدوا مع جيرانهم من المسيحيين الشرقيين [(١١)] والمسلمين

والحق ان الاختلاط الاجتماعي [(١٢)] بدأ بين الشرقيين والغربيين بعد مرور زمن قصير جدًّا من نزولهم البلاد . فان بلدوين ملك القدس ارسل لحيتهُ . وحيّى بالانحناءة الشرقية . واكل على بساط على الارض . وقدم امامه المبوقين على عادة سلاطين الشرق . وتنكر واتخذ الزي الشرقي . فلبس العمامة والجبة المرصعة بالجوهر . [(١٣)] وعلى هذا سار كثير من الامراء فيما بعد . حتى ان الامير هنري طلب الى صلاح الدين ان يبعث له بعمامة وفروة . لان الفرنج يحبون هذا الزي [(١٤)] ولم يقتصر هذا على الامراء . بل شمل الكل تقريباً . رجالاً ونساءً [(١٥)] وحذا الفرنجة حذو الشرقيين في اعيادهم وحفلات لهوهم . فاستخدموا جوقات الطرب في ساعات السرور . وقلدوهم في بناء دورهم . فجعلوها فسيحة ذات غرف واسعة ودواوين مكشوفة [(١٦)] وقلدوا الشرقيين كذلك في مآكلهم . واتخذوا طباخات مصريات . وامتنع بعضهم عن اكل لحم الخنزير تقليداً المسلمين [(١٧)]

---

(١) ابن جبير ٢٨٧ (٢) ابن جبير ٢٨٨ (٣) ابن بطوطة ١ : ٤٩ (٤) ابن جبير ٢٦٨ (٥) اسامة ١٣٤ و١٤٠ و ١٩٦ و Lamb 262 ينقل قول فلكر المعاصر « ان الثقة المتبادلة جمعتنا » (٦) اسامة ٨٢ و٨٧ (٧) اسامة ٣٤ (٨) اسامة ١٣٢و١٤٠ (٩) النوادر ٢٤ (١٠) القلانسي ٣٥٦ (١١) Lamb 262 (١٢) جوانفيل ٢٦١ — ٢٦٣ (١٣) و(١٤) Prutz 62 (١٥) Early Travels واسامة ١١٦ (١٦) حتي كتاب المقتطف الذهبي ١٤٥—١٤٧ (١٧) اسامة ١٤٠

وقد كان كثيرات من المسيحيات في حريم الامراء والكبار من المسلمين . وكان اولادهن دعاة سلم . وعمال صلح بين الفريقين[١] وكان صاحب جبيل (الصليبي) متزوجاً ابنة سلطان حلب[٢] وتزوج كثير من الصليبيين بنات البلاد المسيحيات اومن تنصر من المسلمات كما ان المسلمين تزوجوا مسيحيات ابقين على دينهن او اسلمن[٣]

واعجب الافرنج ببراعة السوريين في الرماية والمسابقة واللعب بالصوالجة . واخذوا يرتاضون بها . وينسجون على منوالها[٤] وكثر اجتماع الفرسان من الفريقين للرياضة والصيد وعقدوا لهذا عهوداً خاصة[٥] وكانوا يقبلون هدايا بعضهم مهما كان نوعها حتى في ايام الحرب[٦] وشملت هذه العادة فرسان الفرق الدينية الصليبية والحشاشين الشرقيين[٧] كما ان الجند العادي كان اذا وقفت رحى الحرب انس البعض بالبعض بحيث ان الطائفتين كانتا تتحدثان وتتركان القتال وربما غنى البعض ورقص البعض لطول المعاشرة . ثم يرجعون الى القتال بعد ساعة[٨]

وكثيراً ما احتفظ السلاطين والملوك والامراء برهائن توثيقاً لحلف اومعاهدة . وهؤلاء الرهائن كانوا عادة من كبار القوم وابناء الامراء . ومعاشرتهم لاندادهم من المسلمين كانت ذات اثر طيب في تعريف الفريقين كل بالآخر[٩] حتى الاسرى كان امراء المسلمين يعاملونهم معاملة حسنة . ويعطونهم قسطاً وافراً من الحرية . وعلى هذا المنوال كان حظ بعض المسلمين في اسرهم عند الصليبيين[١٠]

وتعلم كثيرون من القادمين اللغة العربية ليتمكنوا من التخاطب مع السكان في المتاجرة والمناسبات الاجتماعية[١١] كما تعلم بعض الشرقيين اللغة الفرنسية والايطالية[١٢] واتخذ كثير من الامراء كتاباً شرقيين يتكلمون العربية وغير العربية من اللغات الشرقية[١٣] كما انهُ كان من حق الاستاذ الاعظم ونائبه في الفرق الدينية ان يكون له كاتب عربي[١٤] وعمل العرب كتاباً وتراجمة للتجار واصحاب المعامل التي انتشرت في المدن السورية[١٥] ، وقلما فرق هؤلاء في المعاملة بين المسلم والمسيحي الشرقي[١٦] وقد رأى ابن جبير في عكاء كتاب الديوان من النصارى يتكلمون العربية ويكتبون بها[١٧]

وقد ادرك الصليبيون من اول الامر تفوق الشرقيين عليهم في الطب ، فكانوا يستدعون اطباء المسلمين لمعالجتهم[١٨] وللصليبيين العذر في استدعاء اطباء المسلمين اذا كان اطباؤهم من ذلك النوع الذي اورد ذكره اسامة بن منقذ في الاعتبار[١٩] فقد روى ان صاحب المنيطرة كتب الى عمه يطلب

---

(١) و(٢) Prutz 63 (٣) Prutz 141-3 والكلية ١٨ : ٢١٢ (٤) حتي «كتاب المقتطف الذهبي» ١٤٤
(٥) Prutz 68-9 والكلية ١٨ : ٢١٢ (٦) Prutz 69 (٧) جوانفيل ٢٤٥ و٢٤٨ و ٢٥٠
(٨) النوادر ٩٢ (٩) اسامة ١٠٥ والقريزى «السلوك» ١ : ٢٠٨ والفتح ١٩٣ (١٠) الكلية ١٨ : ٢١٢
(١١) جوانفيل ٢٤٦ والنوادر ٨٠ (١٢) Prutz (١٣) جوانفيل ٢٧٧ و Sykes 64 والخطط ٤ : ٣٩ (١٤) دائرة المعارف البريطانية مادة Templars (١٥) Prutz 145 (١٦) Prutz 146 والكلية ١٨ : ٢١٢ (١٧) ابن جبير ٢٨٥ (١٨) Prutz 62 نقلا عن يعقوب الصوري (١٩) اسامة ١٣٢–١٣٤

انفاذ طبيب يداوي مرضى من اصحابهِ . فارسل اليهِ « ثابتاً » فما غاب عشرة ايام حتى عاد ، فقالوا له : « ما اسرع ما داويت المرضى » قال « احضروا عندي فارساً قد طلعت في رجله دملة ، وامرأة قد لحقها نشاف . فعملت للفارس لبيخة ، ففتحت الدملة وصلحت . وحميت المرأة وربطت مزاجها . فجاءهم طبيب افرنجي فقال لهم : هذا ما يعرف شيء يداويهم . وقال للفارس دايماً أحب اليك أن تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين . قال اعيش برجل واحـدة . قال . احضروا لي فارساً قوياً وفأساً قاطعاً . فحضر الفارس والفأس . وأنا حاضر . فحط رجله على قرمة خشب وقال للفارس : اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة اقطعها . فضربه . وأنا أراه . ضربة واحـدة . ما انقطعت . ضربه ثانية فسال مخ الساق . ومات من ساعته . وابصر المرأة فقال . الشيطان قد دخل في رأسها . فأخذ الموسى . وشق رأسها صليباً وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح . فماتت في وقتها . فقلت لهم : بقي لكم الي حاجة ؟ قالوا « لا » ، فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم اكن اعرفه . وروى اسامة عن أحد امراء الصليبيين[1] وقد رافقه من عكاء الى طبرية ، انهُ كان في بلد الامير فارس كبير القدر ، فمرض وأشرف على الموت ، فجاؤا الى قس كبير من قسوسهم ، واستصحبوه الى المريض. فلما رآه القس طلب شمعاً فلينه وعمله مثل عقد الاصبع ، وعمل كل واحدة في جانب أنفه ، فمات الفارس

وقد كان عند الافرنج أمر آخر آثار استغراب العرب ، وهو محاكماتهم ، فقد كانوا لا يزالون يحتكمون الى وسائل الامم الجرمانية التي استعملتها في القرن الخامس للميلاد وقبله . وقد ذكر لنا اسامة انه مرّ بنابلس ، وحدث ان أحد الفلاحين اتهم انه كبس ضيعة من ضياع المدينة فقال الفلاح « انصفني : أنا ابارز الذي قال عني اني دللت الحرامية على القرية » فجاء صاحب القرية المقطع بحداد قوي ، واعطاهما شحنة البلد عصاً وترساً ، واخيراً تغلب الحداد الشاب ، وبرك على خصمه يداخل أصابعه في عينيه ، ثم قام عنه وضرب رأسه بالعصا حتى قتله . فطرحوا في رقبته حبلاً وجروه وشنقوه ، اذ ثبتت لهم ادانته[2]

ولعلّ خير ما يمثل الاتصال بين الغربيين والشرقيين ما ذكره المقريزي عن الامبراطور فردريك من انهُ كان متبحراً في علم الهندسة والحساب والرياضيات ، وانهُ بعث الى الملك الكامل بعدة مسائل مشكلة في الهندسة والحكمة والرياضة فعرضها على الشيخ علم الدين قيصر الحنفي — المعروف بتعاسيف — وغيره فكتب جوابها[3]

فالاستيطان في البلاد الشرقية ، وتقليد الشرقيين ، والتزاوج ، والثروة التي حصل عليها الغربيون أنستهم بلادهم الاصلية ، فلم يفكروا بالعودة اليها ، ولم يسمعوا حتى باسمها ، واثبتت لهم أنهُ من الممكن للمسيحيين أن يعيشوا مع المسلمين على وفاق تام ، فيكون لكل حظه من العمل والاتجار

(١) اسامة ١٣٧ (٢) اسامة ١٣٧ — ١٣٩ (٣) السلوك « المقريزي » ١: ٢٣٢

والزرع والربح [١] ، بل ويكون لكل معبده: فللمسلم مسجده وللمسيحي كنيسته ، وبهذا نستطيع ان نعلل ما رواهُ المعاصرون من ترك الصليبيين المتأخرين للمساجد في المدن . فالهروي يقول [٢] « ان جميع ما على أبواب الصخرة من آيات القرآن العزيز واسامي الخلفاء (ر) لم تغيره الافرنج». وابن جبير قضى مدة اقامته بصور بمسجد بقي في أيدي المسلمين [٣] ويضيف «ولهم فيها مساجد اخرى» ويصف الهروي [٤] مساجد عكاء ، وابن جبير وابن بطوطة يوافقانه على ذكر المساجد . ومن هذا ما رواه المؤرخون [٥] من انهُ لما زار الامبراطور فردريك القدس نزل في دار القاضي ، وفي تلك الليلة أمر القاضي المؤذنين ان لا يؤذنوا ألبتة . فلما أصبح قال الملك للقاضي « لمَ لم يؤذن المؤذنون على المنائر ؟ » فقال القاضي «منعهم المملوك اعظاماً للملك واحتراماً له» فقال له الامبراطور « اخطأت فيما فعلت . انهُ كان اكبر غرضي في المبيت ببيت المقدس ان اسمع أذان المسلمين وتسبيحهم بالليل»

وقد تغير رأي الصليبيين في الشرقيين والدين الاسلامي . فقد بلوا من شجاعتهم الكثير من اول الامر . فبعد ان قالوا عنهم انهم يفرّون من الحرب ولا يجرؤن على التلاحم في العراك [٦] رأوا « انهُ ليس لهم الحكمة والعلم الكافي على وصف شجاعة الاتراك [٧] واعترفوا « بمهارة الشرقيين الحربية وفروسيتهم وكرم اخلاقهم » [٨] و« انهم محبو الضيافة والفائقون في الادب واللطف » [٩] ومن الجميل ان نلاحظ ان الصليبيين كانوا في السنين الاولى من القرن نفسه قد عللوا اعظمة عماد الدين زنكي بان جعلوه ابن الكونتس ايدا (Ida) التي اشتركت في حملة ١١٠١ ، وفي زمن الحملة الثالثة اعتقدوا ان قلج ارسلان من نسل جرماني شريف . ولكن بعد ان انتشرت شهرة صلاح الدين ، ظهرت خرافة تعلل عظمة توماس بكت احد مشاهيرهم بجعله ابناً لام عربية [١٠] ومن تأثرهم بالحياة الشرقية اعتنق كثيرون منهم الاسلام [١١] ، حتى شعر البابا غريغوريوس العاشر بالخوف من ذلك ، وبضرورة وضع حد لهذا الامر ، فحرم مد يد المعونة الى المرتد [١٢] وفي معاهدة عقدت سنة ١٢٨٣ أرغم الافرنج على التعهد بحماية حقوق المرتدين عن الدين المسيحي [١٣]

***

ويحق لنا ان نسأل الآن ، ما كانت آثار هذا الاختلاط ؟ ما الذي حمله هؤلاء الغربيون من بذور المدنية الشرقية الى بلادهم ؟

المؤرخون والباحثون مجمعون على ان هذه الحملات احدثت انقلاباً كبيراً في الحياة الاوربية ، في

(١) Prutz 72 . وهذا ما كانت تقاومه الكنيسة لانه يحول دون تحقيق غاياتها (٢) الهروي « المخطوطة ١٩ (٣) ابن جبير ٢٨٨ (٤) الهروي « المخطوطة» ١٩ (٥) المقريزي «السلوك» ١: ٢٣١–٢٣٢ وهناك تجد الروايات المختلفة للقصة اللطيفة (٦) الكاية ١٨: ٢١٠ (٧) الكاية ١٨: ٢١١ و Lamb 120 وهو ينقل عن مؤلف معاصر هو كاتب الكتاب المعروف باسم Gesta (٨) الكاية ١٨: ٢١١ وهنا ينقل مونرو عن جيبرت (٩) الكاية ١٨: ٢١٩ نقلا عن بركهارد «١٢٨٣م» (١٠) مونرو الكاية ١٨: ٢١٦ (١١) مونرو الكاية ١٨: ٢١٩ عن رئيس فرقة الدومنيكان الاعلى (١٢) مونرو الكاية ١٨: ٢١٩ . صدر هذا الامر سنة ١٢٧٤ (١٣) نفس المكان

المجتمع ، والثقافة ، والحكومة [١] والقانون [٢] والبابوية ، والكنيسة ، والتجارة [٣] ولكن الخلاف بينهم في مدى هذا الانقلاب كأثر لهذه الحملات . وسبب ذلك ان المدنية العربية انتقلت الى اوروبا عن طريق الأندلس وصقلية [٤] والشرق . والمتفق عليه أن العلم كان سبيله الطريقين الاولين ، والناحية الاجتماعية والاقتصادية تأثرت بالطريق الثالث [٥] فالحروب الصليبية فتحت امام اوروبا أبواباً جديدة للعمل والتفكير ، واوجدت لهم اغراضاً جديدة في الحياة فاتجهوا في نهضتهم اتجاهاً نافعاً حراً ، بعد أن كانوا مقيدين بالنظام الاقطاعي [٦] والنواحي التي نقل الصليبيون اثرها الى اوروبا متعددة ، لا نستطيع ان نحيط بها في هذه الالمامة الوجيزة ، وعلى ذلك فنحن نجتزىء بأمثلة تبين القصد ، دون ان تبلغ بنا الحد [٧] . فقد اخذوا من الشرق الورق [٨] ، والسكر [٩] ، ودود القز وتربيته [١٠] ، والفواكه كالليمون والمشمش [١١] ، وصنع الاقمشة كالموصلين (الموصلي) [١٢] والدمقس (الدمشقي) والاقطان [١٣] والسجاد [١٤] والاصباغ واسماء الالوان [١٥] والجبة وصنع المرايا [١٦] وطواحين الهواء [١٧] واستعمال الرنوك والشعار الخاص [١٨] والمسابح [١٩] واستخدام الحمام الزاجل [٢٠] وقلدوهم في البناء الحربي والديني [٢١] والتطعيم بالصدف والتنزيل بالفضة والعاج [٢٢]

وكانت طبيعة الحروب التي شنوها تقضي عليهم بتخليد ذكرى ابطالهم بقصص شعرية ثم اخذوا القصص الشرقية لاشعارهم [٢٣] مثل كتاب كليلة ودمنة [٢٤] ولما عرفوا قصص التسامح الاسلامي كما ظهر في اعمال صلاح الدين وخلفائه صاغوها شعراً وقصصاً واصبحت غرام الشعراء في اواسط اوروبا بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر [٢٥] وهكذا فقد تأثرت الحياة الادبية والانتاج الادبي وكان تأثره عميقاً [٢٦] كما انهم افادوا معرفة جغرافية من الرحلة ومن درس الكتب العربية [٢٧] وعلوماً جديدة [٢٨] كالصيدلة والجبر والطب فان مدرسة مونبلييه الطبية أثر من آثار احتكاك الصليبيين بالشرقيين [٢٩] كما انهم نقلوا عن الشرقيين مستشفياتهم [٣٠]

عكاء (فلسطين)

---

(١) Prutz 335,402 وفي المكانين يعطي امثلة لكلمات ادارية دخلت اوربا عن طريق الحروب الصليبية (٢) La Monte 20-24 « المقدمة » ، حتي « كتاب المقتطف الذهبي » ١٤٢ (٣) يمكن مراجعة الاماكن التالية للحصول على آراء المؤرخين في المسألة . Legacy of Islam ٦٨ــ٧٧ و Sykes 64 وجوزي ١٢١ و Travel & Travellers و Kugler 431-2 و Prutz ٥٥ و ١٩٤ و ٤٥٣

(٤) و (٥) Legacy of Islam 63-1 و Legacy of Israel 215-237 (٦) Sykes 65 « نقلا عن بزلي » و Prutz 55,72,397,479,493 وحتي « الكتاب الذهبي » ١٤١ و Legacy of Islam 148 (٧) راجع التفصيل في Prutz والكلية المجلد التاسع (٨) الخطط ٢ : ١٢٩ (٩) حتي و Lamb (١٠) Prutz 323 (١١) Prutz 408 (١٢) و (١٣) نفس المكان (١٤) Prutz 433 و Leg. of Islam 63 (١٥) Legacy 61 و Prutz 410

(١٦) حتي « الكتاب الذهبي » (١٧) و (١٨) Prutz 415 (١٩) Legacy 60 (٢٠) النوادر ١٢٨ (٢١) Prutz 194,423 ورأي باركر في Legacy 58,62,63 وآراء اخرى في Legacy ايضاً ص ١٦٨ و ١٧٦ (٢٢) Prutz 432 (٢٣) Prutz 444,450 (٢٤) Prutz 450 و Legacy (٢٥) Prutz 441 و Legacy 64 (٢٦) Leg. 64 و Prutz 441,451 (٢٧) Legacy 65,471 (٢٨) Legacy 349-50,473 (٢٩) حتي « الكتاب الذهبي » ١٤٤-١٤٨ و Legacy 57 (٣٠) Legacy 349-50

عجيبة المرأة المضيئة

امرأة ايطالية تنطلق منها اضواء غريبة

ورأي الدكتور بروتي بعد فحصها

من الحقائق المعروفة ان بعض اسماك البحر وحشرات اليابسة يضيء اضواء فصفورية درسها العلماء وفسروها [1]. وقد نقل الرواة روايات عن ظهور مثل هذا الضوء احياناً في آدميين ولكنهُ كان في الغالب يسند اليهم قبيل الوفاة . واذن لا يستغرب القول بان ما يعرف عن هذا التألق في الانسان نزر لا يعتمد عليهِ . لذلك عني العلماء في مختلف الاقطار بما روي عن سيدة ايطالية تدعى «حنة مونارو» وقد اطلق عليها لقب «سيدة بيرانو المضيئة». ولكن الدكتور بروتي احد اطباء البندقية لم يشأ ان يدع الحكاية للسماع فاغتنم هذه الفرصة ليدرس ظاهرة التألق في هذه المرأة درساً علمياً

بدأ الدكتور بروتي يجمع اقوال الذين شاهدوها فتبين له من اقوالهم ان ميعاد ظهور الضوء كان في الهزيع الاول من الليل وانهُ لا يظهر مطلقاً في خلال النهار او حين تكون حنة نائمة نوماً خفيفاً . هذا التألق او هذا الضوء الفصفوري لا يدوم اكثر من ثلاث ثوان او اربع ، وهو يظهر دائماً في ناحية القلب ويختلف في لونه من اخضر الى احمر

اما السيدة نفسها بحسب اقوال الشهود فلا تشعر بالضوء والضوء لا يؤثر فيها ولا يترك اي اثر من رائحة او حرارة او لون

فذهب الدكتور بروتي الى هذه السيدة وفحصها فحصاً دقيقاً فوجدها سوية من كل ناحية الا انها تشكو « الازما » « اي الربو » وارتفاعاً يسيراً في ضغط دمها . وهي فقيرة معوزة ولكن الطعام الذي تتناوله لا يختلف عن الطعام العادي المألوف في شيء . ولكنها في الصيام تصوم وتحافظ على جميع قواعد الصوم محافظة دقيقة فلا تتناول الاّ الحساء واللبن . وفي خلال الصوم تبدو ظاهرة التألق فيها على اشدها وخاصة في خلال الاسبوع المقدس عندما يكون الصوم مطلقاً حتى الظهر من كل يوم — ففي ليلة واحدة من ليالي هذا الاسبوع ظهر الضوء فيها ٢٥ مرة

ولما اقتنع الدكتور بروتي بأن ظهور هذا الضوء ليس وهماً اجمع عليه الرواة اقام آلة سينمية قوية لها فلم شديد الاحساس يمكن ان يدوّن عليه اي اثر ضوئي من تلقاء نفسه « تدويناً اوتوماتيكياً » في خلال الليل

وعلق فوق منطقة القلب بصاصة — (وهي بطارية كهربائية ضوئية تتأثر بأقل اختلاف في قوة

(١) راجع فصلي الضوء البارد والاحياء المنيرة في مقتطف يونيو ١٩٣٠ ص ٥١ ويوليو ١٩٣٠ ص ١٥٩

ضوء ما حتى انها تفرق مثلاً بين الضوء المعكوس عن سيجارين لون أحدها أغمق من لون الآخر ويظهر تأثرها هذا في قوة التيار الكهربائي الذي تولده) — متصلة بآلة كهربائية حساسة تدعى غلفانومتر لمقياس قوة الضوء بعد تحوله الى تيار كهربائي في البصاصة. ومبالغة في الاحتياط أقام آلة كهربائية اخرى تدعى الكتروسكوب عملها ان تثبت ان طاقة كهربائية لم تستعمل في احداث هذه الظاهرة ، وهذه الآلة تفعل ذلك بفحصها مقدار الشحنة الكهربائية في الهواء حول سرير المرأة ، وهل تغيرت هذه الشحنة وما مدى تغيرها . ثم انهُ فصل بين قوائم السرير والارض بمادة عازلة ليحول دون اي اتصال كهربائي خفي

وبعيد ما اطفئت الانوار في الغرفة ظهر ضوء خارج من اغطية السرير فأدار الدكتور بروتي الآلة السينمية لتصويره وكان متوسط سرعة الجهاز ست عشرة صورة في الثانية

وقد استغرق ظهور الضوء ثلاث ثوان وثلاثة اجزاء من ١٦ جزءاً من الثانية (٣ ٣/١٦) ثم خبا رويداً رويداً . وقد اضيء به عظام الفكين والوجه . وظهر من منطقة حول القلب مساحتها بقدر الكف وكان على جانب من اللمعان حتى ظهرت بهِ الاسرة المجاورة . أما الغلفانومتر وهو الآلة التي تقيس التيار الكهربائي فلم تسجل شيئاً ، وأما الالكترسكوب الذي يقيس الشحنة الكهربائية في الهواء فلم يدل على ان قوة كهربائية خارجية قد استعملت

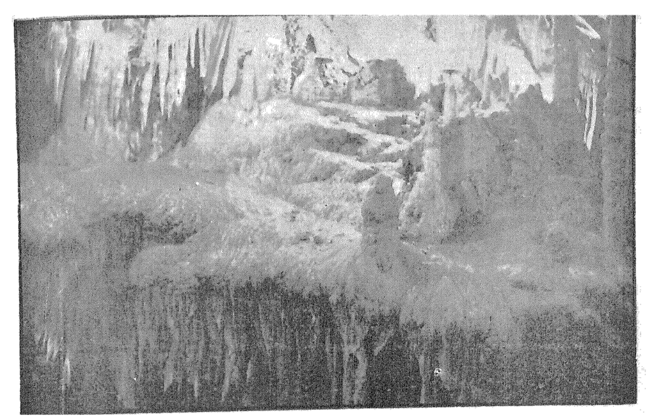
أي أن المظاهر صحيحة على قدر ما يستطيع الباحث أن يؤكد ذلك بعد اتخاذ جميع أسباب الحيطة

بعد ذلك فحص الطبيب الباحث دم المرأة لمعرفة قوته الاشعاعية فظهر انهُ يفوق الدم السوي في ذلك ثلاثة اضعاف . ولهذه الحقيقة صلة بتعليل الظاهرة

يرى الدكتور بروتي انهُ قد حال دون الخداع كتناول الفصفور أو استعمال تيار كهربائي ثم هو يقول انهُ يمكن تعليل هذه الظاهرة كما يلي على ما جاء في مجلة اللانست الطبية : —

ان شعور المرأة الديني القوي يؤثر في عمل غددها الداخلية أي الغدد الصم فيحدث تغيرات فسيولوجية تؤثر في املاح الدم وخاصة املاح الكبريت فيه فتجعلها تتألق تألقاً فصفورياً وهو يرى ان حالة الصوم تساعد على حدوث هذه التغيرات

ومما يؤيد رأي الدكتور بروتي ان الطبيب الباحث الأميركي الدكتور كريل اثبت من عهد قريب أن طوائف من الاشعة تنطلق من أدمغة الكلاب ومنها الاشعة تحت الاحمر وان اشعاعها يزيد بحقن خلاصة الغدة الدرقية أو خلاصة الغدة التي فوق الكلى ثم ينقص اذا حُقن بمادة مخدرة . أي ان الدكتور كريل بيَّن ان هناك صلة بين الغدد الصم وحالة الاشعاع وهي هذه الصلة التي يعتمد عليها الدكتور بروتي في تعليل ظاهرة الضوء الشاع من حنة مونارو « سيدة بيرانو المضيئة »



صورة داخل مغارة قاديشا

مغارة لوراي بولاية فرجينيا الاميركية وهذا الجانب منها يعرف بمضرب العرب

مشاهد لبنان في الصيف

مغارة قاديشا العجيبة

لميشيل سليم كميد

... وقفلت راجعاً من الأرز الخالد ، بعد ان قضيت زمناً في هيكل الدهور ، في ذلك الصبح السعيد ، وقد ارتفعت الشمس في كبد الافق ، فاسرعت الى الفندق ، وجمعت حقائبي ، ومن هناك الى السيارة . وكان بنزينها قد نفد بالامس لدى وصولنا الى الارز . ولكن انحدار الطريق يسهل علينا الهبوط الى بشرّي ، مدينة المقدّمين ، حيث نملأها ثانية

ورفع السائق قدمه عن الضواغط ، فانحلّت ، وتدحرجت السيارة هابطة على ذلك الطريق الكلسي الابيض ، على كنف قاديشا الجميل ، الوادي المقدس ، حيث لا يزال الى اليوم يفوح من جنباته شذى القداسة ، وعطر التقوى . وكان تدحرج السيارة لذيذاً مريحاً ، لا عنف فيه ولا شدة ... ألا ليت السيارات تدرج بهذه السهولة ، دون ضجيج آلاتها المزعج ! و يالها من أمنية !

وعند ما انتصفنا الطريق ، ما بين الارز وبشرّي ، ضغط السائق على الكوابس ، فوقفت السيارة ، وهمدت حركتها الاندفاعية . فنزلنا منها ، أنا والسائق ، ومن هناك أخذنا طريقاً فرعيًّا ضيقاً كمسالك العنز ، فالوادي العظيم الهائل تحت اقدامنا عن جانب ، والجبل يلتصق باكتافنا عن الجانب الآخر ، وكلّما تقدمنا ازداد ارتفاعاً وشموخاً . وعرض هذا المسلك المؤدي الى مغارة قاديشا لا يتجاوز في بعض الاحيان متراً وربع متر ، وقلما يتسع الى مترين . انهُ حقًّا لمنظر يبعث الدهشة والروعة في النفس ، ويأخذ بمجامعها . وكنت اتوقف مراراً عن المسير ، ونحن معلقين بين السماء والارض لأتملى من منظره ، واجتلي روعة محاسنهِ المخيفة ، فعشرات الامتار من فوقنا ، ومئات الامتار من تحتنا ... ترى لو زلّتْ قدم أحدنا ، وهوى الى الهوّة السحيقة ، فوق الصخور الناتئة ، ماذا يكون مصيرهُ ؟ لا لا خوف من الزلل ما دامت الاعصاب ثابتة والسير هادئاً وطيداً !

سرنا مسافة طويلة ، قد تزيد على ثلاثة ارباع الميل ، على درب الماعز هذا ، وما هو كذلك بل هو ممر شقته شركة كهرباء قاديشا الوطنية ، لتصل الى المغارة لاجل اعمالها الخاصة . ولما نكد ندنو من المغارة ، حتى طرق اسماعنا خرير المياه العذب ، الذي تحوّل ، مع اقترابنا شيئاً فشيئاً ، الى هدير عظيم، هدير تلك الامواه المتدفقة ، على دوّامات شركة الكهرباء ، التي تنير شمال لبنان كله ، هابطة

نحو الوادي العظيم ، كأنها امواج بحر صاخب تتدافع بعضها أثر بعضها ، في زئير دائم متواصل ، هي رمز الحياة الجاهدة المثمرة

هذه المياه التي تمنح الحياة للوادي المقدس ، لعرين لبنان ، تحكي في تدفقها الحي ، التدفق الخصب الذي امتاز بهِ الشعب الذي يرتوي منها على مدى الاجيال . وما السمعاني والحصروني ويوسف كرم وجبران ، سوى بعض اولئك الذين شربوا من هذا المعين الخالد ، فنفحهم بروح العبقرية ، ووهبهم اكسير الخلود !

ووصلنا المغارة ، والمياه تهدر هديراً ، فوجدنا هناك بعض الزوّار ، ينتظرون في الخارج ، المراقب الدليل القائم عند مدخلها ، الذي اقتطع لنا تذاكر الدخول . ومن ثم ادخلنا اولاً الى شبه غرفة منقورة في الصخر . فأضيئت الانوار الساطعة ، لتنير حالك الظلام المخيم في جوف هذه الانفاق الممتدة المتشعبة تحت الجبل الشامخ ، مسافات لا يعلم مداها وعدد شعبها الاّ الله خالقها

تبلغ مساحة هذه « الغرفة » الاولى ، اكثر من خمسة وعشرين متراً مربعاً على احد جوانبها يقع الممر الضيق الذي يبلغ عرضهُ اكثر من متر واحد ، مدته شركة كهرباء قاديشا مسافة طويلة في الداخل . ومن بعد هذا الممر حتى الحائط المقابل من الغرفة المذكورة ، مياه المغارة التي تنصبُّ خارجاً الى مجراها في الوادي المقدس ، حيث تعرف بنهر قاديشا ، حتى مقربة من طرابلس ، ومن هناك يتبدل الاسم الى نهر « أبو علي » .. ويبلغ عمق هذه المياه ، في « الغرفة » كما استدللت بالحدس والتخمين ، امتاراً عدة ، لا كما هي في اعماق المغارة ، حيث هي اقلُّ عمقاً بحسب اتساع المجرى او ضيقه

غطسنا ايدينا في هذه المياه ، فاذا بها باردة كالثلج ، ولم يسعنا ابقاؤها فيها كثيراً . ثم ارتشفنا منها قليلاً ، وتلذذنا بطعمها العذب ، بهذا الرحيق الزلال ، الخارج من كنف الطبيعة قبل ان تدنسه يد الانسان

انّ تخطينا هذه « الغرفة » او قل ان انتقالنا منها الى مقدمتها ، نحو الظلام ، ثم انارة الكهرباء ، وسطوعها ذلك السطوع الباهر ، الذي يحيل ليل المغارة الدامس الى نهار منير ، هو الذي خيل الينا وجود هذه « الغرفة » الوهمية ، لاتساعها عما سواها ، ولشكلها المربع تقريباً ، لضيق النفق في ناحيتها الداخلية . على اننا لم نكد نتخطاها ، ونضيء الانوار ، حتى سمعنا صوت الدليل يقول : « من يطلب بطيخاً او قرعاً ؟ لدينا هنا من كل صنف . فمن يرغب ؟ » . والتفتنا نحن في دهشة واستغراب ، نفكر في ما يعنيه وما الذي بعثهُ في هذا المكان على المناداة على شيء يجتنى في الحقول ، لا بين الصخور وفي اغوار الكهوف ، فاذا تحت اقدامنا هوة واسعة ، فيها اشكال من الصخور الشمعية اللون ، في قوالب مختلفة مستديرة منها ما يشبه البطيخ او القرع حقًّا . ولما رأيناها عرفنا قصد صاحبنا . فابتسمنا لوصفه الفكاهي الطريف . فهذه المغارة ، تعج بهذه البوارز والنواتىء في الصخور فمنها ما يبرز من الارض

Stalagmite ومنها ما يتدلّى من السقوف Stalactite وهذه الرواسب المتحجرة توجد في كثير من المغاور او الكهوف في العالم وتكثر وتقل في بعضها لكن المغارات المشهورة بها قليلة . وهي تتخذ في اكثر الاحيان اشكالاً غريبة ، كرأس فيل ، او رؤوس بشرية ، او اقدام ، أو تماثيل ، وقد تتكون اشكالاً مخروطة ، أو تبدو كالجليد ، ويغلب عليها اللون الاصفر الشمعي ، ويضرب لونها مراراً الى الاحمرار أو الاسوداد ، وغير ذلك من الالوان الجميلة ؛ انما تبدو كلها كأنها مصنوعة من الشمع ، مع انها من الصخر ، وتحس في نفسك لدى رؤيتها بشعور غريب . وانك تود مسكها ، وانها ستذوب أو تنثني أو تنكسر حال لمسك لها . مع انك حين تمسها حقيقة تشعر بها صلبة دون شك لانها من الصخر ، وتحس بها باردة كالثلج ، وخاصة في المغاور التي كقاديشا

في فرنسا مغارات عديدة مثل هذه : أشهرها ، كما أعرف ، ما يقع في جبال البيرينه ، فهناك قرب لورد عدة منها : كمغارة الذئب ، ومغارة الملك ، وقد زرت الاخيرة . لكن أشهرها مغارة بيتارام التي يقصدها السياح خصيصاً ، وفيها ينحدر المرء في بعض أجوافها الى ستين متراً . وفي لبنان ايضاً غير مغارة قاديشا هذه ، مغارة نهر الكلب ، أي مغارة جعيتا ، قرب بيروت . وهاتان المغارتان تعدّان من أشهر مغاور العالم ، بهذه النواتىء الغريبة التي فيهما ، فضلاً عن أن حدود نهايتهما لا تعرف حتى اليوم ، رغم الجهود التي بذلها كثيرون من الباحثين . والذي اذكره ان بعض اساتذة الجامعة الاميركية ، دخلوا مغارة جعيتا في زورق ، قبل الحرب بعدة سنوات ، قاصدين ارتيادها والوصول الى آخرها ، اي الى منبع نهر الكلب ذاته ، وبقوا هنالك زمناً طويلاً ، وأعادوا الكرة مرة أو مرات اخرى ، لا اعلم تماماً ، فلم يفلحوا ، لبعد الشقة ، ثم لضيق المغارة في الاقاصي التي وصلوها . وكذلك دخل المغارة منذ بضع سنوات ، ثلاثة من الروس ، وقضوا فيها يوماً أو يومين ، وخرجوا منها من دون نتيجة — وقد قبض عليهم البوليس وحقق معهم ، خوفاً من أن يكونوا من الشيوعيين ، وبغيتهم تسميم أهالي بيروت . كذلك مغارة قاديشا ، لم يعرف بعد منتهاها ، ولم اسمع ان احداً سعى لمعرفته ، بذات الاجتهاد الذي بذل لاجل معرفة مغارة جعيتا ، وذلك لان المغارة المذكورة لم تكتشف أو بالاحرى لم يشق اليه درب الماعز الذي سبق وصفه ، الاّ منذ ست سنوات ، على ما اتصل بي . وقد سألت الدليل ، حينما وصلنا الى اقصى ما سُمح لنا بالتوغل فيها ، هل نهايتها قريبة من مكاننا : فقال لي أن بعضهم توغل فيها قليلاً ، فاتضح لهم انها طويلة جداً . هذا مع العلم ان المسافة التي سرناها نحن تعد بعشرات الامتار ، كلها تحت الجبل العظيم . الذي تنبت عليه ، من فوقنا ، أشجار الارز الخالد !

وكان الدليل يسير بنا ، يروي لنا ما يفقهه من معنى هذه الاشكال ، فيصفها بلهجة فكاهية ، بتلك اللهجة اللبنانية العذبة ، التي يمتاز بها أهل الشمال . ولما ادخلنا الى كهف صغير هناك اضطررنا ان ننحني كثيراً ، لان المدخل كان واطئاً جداً . كذلك في الداخل كان السقف واطئاً ، فكنا ننحني

فيه قليلاً . وقد شعرنا في هذه النقرة ببرودة اكثر مما شعرنا بهِ في النفق الكبير ، مع ان لا ماء فيها أبداً . وأرانا الدليل شيئاً في طرف هذه النقرة المستديرة المجوفة السقف، يشبه شرابة (زر) طربوش مغربي ، وقال لنا : « هـذا طربوش ابينا نوح ، ألا ترون شرابته هنا ؟ ... قد تركه هنا لما زار لبنان ، اذ نام هنا فنسيه . وكبر الطربوش كما ترون ، وصار مغارة صغيرة ، في داخل المغارة الكبيرة . ويظهر ان الجبل ارتفع مع انتفاخ الطربوش ! »

وكان الدهليز أو النفق يضيق احياناً الى مترين ونصف متر ، ثم يتسع الى خمسة او اكثر قليلاً ونحن نسير على الممر الضيق ، ونستند الى الحائط بأيدينا ، في ذلك الجو المشبع بالبرودة ، وان لم يكن رطباً ، كما يظن المرء لاول وهلة . وكانت الاشباح العديدة في النواتىء تعد بالعشرات في كل خطوة ، ولهـذه الكثرة ما عدت اذكرها كلها ، بل بعض التي فكهنا الدليل بأوصافها الغريبة . ولكني لا اقدر ان اعدد هنا حتى هذهِ : —

« انظروا هنا لا في أعلى : هذه هي الملكة فكتوريا ، ونابوليون ، والملك ادوارد ... ما لكم ؟.. لا تضحكوا .. اني اتكلم جادًّا .. أنا لا اعرف الهزل ... انظروا جيداً . نعم ، هؤلاء هم ، الملكة فكتوريا ، التي دعوا باسمها الدارعة التي غرقت في طرابلس قبل الحرب .. وهـذا نابليون . انتم تعرفونهُ ! ولويس الرابع عشر ... لا تخالوني اسخر منكم ... لا ... هم ليسوا في بلادهم في اوروبا ، بل جاؤوا الى هنا ، وجمدوا ايام الشتاء ، لما اشتد البرد عليهم ... انظروا ايضاً ، هذا خرطوم فيل ، مده ليأخذ تلك التفاحة ، أو عنقود العنب ، فجمد . . . أتريدون شراء بعض التفاح ، والبرتقال اليافاوي ، والعنب الزحلاوي ... أتريدون غزلاناً ... !! »

وكذلك كنا ننتقل من مكان الى آخر ، والدليل يتابعنا بهذه الاحاديث . ويسلينا بوصفه لتلك الاشكال والاشباح الغريبة . والحقيقة ان بينها ما كان يشبه الملكة فكتوريا ، ونابوليون ، والملك ادوارد ، وسواهم ، عن بعد ، بعض الشبه ، كأن احد المثالين نحتهم على عجل في الصخر . . . وهذه المغارة تعد حقًّا أعجوبة من أعاجيب الطبيعة لكثرة ما فيها من النواتىء ، وانها لترتسم صورها في المخيلة لغرابة اشكالها . ولما انتهينا الى آخر الممر ، ووجدنا الصخر يرتفع في وجهنا ، مع ان دهليز المياه ذاته ، لا يزال واسعاً يتغلغل الى الداخل ، لكن لا سبيل الى السير فيه ، التفت الينا الدليل قائلاً : — « هنا آخر الحدود المسموح بها ، كما ترون . والنية متجهة الى التوسع في داخل هذه الدهاليز والانفاق ، عما قريب . ولعلكم تشاهدونها وقد تمت في الزيارة التالية ... والآن نرجع من حيث أتينا . . . ومع السلامة ! . . . . »

***

وكان الميعاد قد أزف للمثول بين يديّ غبطه البطريرك الماروني الجليل ، فأسرعت خارجاً من المغارة، نحو السيارة . . . . فالى الديمان ! . . . .

أيقال كريات بيضاء

لأمين ظاهر خير الله

نظر النطاسي اللامع امين باشا المعلوف في الجزء الاول من مدخل فن الجراثيم للطبيب احمد حمدي افندي الخياط فجاد عليه بكلمة نشرها مقتطف مارس سنة ١٩٣٥ جاءَ فيها ما يأتي :

« قال الكريات البيضاء والكريات الحمراء والصواب بيض وحمر ولا يجوز غيرها » (كذا) واظن انها غيرهما فسقطت الميم في الطبع

وهذا الاعتراض شافهني بهِ العلاّمة الأب انستاس ماري الكرملي سنة ١٩٣٢ في مدينة بيروت فردَّ قولي الهضاب الملساء وقال المُلْس

ورأيت هذا القول نفسه لشيخ العروبة احمد زكي باشا اذ كنتُ في القاهرة سنة ١٩٢٠ فان نسيباً لي هنالك عرض مقالاً له لدى ذلك العلامة جاءَ فيهِ الليالي السوداء فابدلها بالسود

وهذه قضية لا يصحُّ ان تظل تحت خفاء فها اناذا اوضح ما عندي فيها

التاء والالف في الدلالة سواء فكما تقول التاء للجمع تقول الالف للجمع ايضاً وهذه أَدلتي

١ — « كلِم عوراء وعوران » جمع افعل وفعلاء على فُعْل وفعْلان معلوم تقول اسود وسوداء على سود وسودان والنظير كثير

وكلِم مختلف فيها فالمعاجم تجمع كلمة على كلم فهي صيغة جمع عندها . واما المحقق الاطوي فيورد في شرحه امتحان الاذكياء للعلامة البركوي ص ٣٤ من نسخة الاستانة سنة ١٢٧١ ما يأتي :

«الكلم اسم جنس . اشارة الى انهُ ليس بجمع ولا اسم جمع . مع ان عدم وقوعه الاّ على الثلث (الثلاث) فصاعداً كونهُ احدها . ووجهُ اولها عدم ثبوت فعِل بكسر العين في صيغ الجمع وارجاع ضمير المفرد اليهِ (كالكلم المحكم) وجعله مصغَّراً ومنسوباً بلا ردهِ الى واحده . ولو كان جمعاً لم يجز واحد مما ذكر . ووجه الثاني مجيء واحدهِ بالتاء وهو لم يوجد في اسم جمع » اهـ

فاللغويون قالوا كلم جمع كلمة والاطوي يقول كلم اسم جنس الواحد منهُ كلمة . ولا ريب في ان اسم الجنس يشارك الجمع على انهُ يدل على اكثر من اثنين .ولهذا عد اللغويون اسم الجنس من الجموع

وقد جاءَ كلمٌ عوراء . قالت امية بنت ضرار (حماسة البحتري فصل ١٧٤)

ما بات من ليلة مذ شدَّ مئزره قبيصةُ ابنَ ضرارٍ وهو موتورُ
لا تعرف الكلم العوراءَ مجلسهُ ولا يذوق طعاماً وهو مستورُ

وكلم عوران . قال كعب ابن سعد الغنوي (حماسة البحتري فصل ١٠٨)

وعوراء قد قيلت فلم استمع لها وما الكلم العوران لي بقبول

فالجمع او اسم الجنس يأتي نعته على صيغة فعلاء

٢ — الحمر الخشباء — جاء في مادة قرين في معجم البلدان « القرين... موضع ذكره ذو الرمة قال:

يردفن خشباء القرين وقد بدا لهن الى ارض الستار زيالها

اي ركبن الحمر الخشباء وهي القطعة من الارض كانها جبل » اه . فحمر هنا جمع حمراء وقد نعتها بخشباء ونعت الجمع جمع . فخشباء من صيغ الجمع

٣ — الشيعة الشنعاء[1] جاء في ذروة من معجم البلدان قول الصليحي

وطالعت ذروة منهن عادية وانصاعت الشيعة الشنعاء شردادا

ولشيعة وجها تخريج . اولهما : شيعة جمع شائع بمعنى ناصر او موافق . مثل صحبة جمع صاحب وروقة جمع رائق . والاصل شيعة فجيء بكسرة بدل الضمة لسلامة الياء كما جرى ذلك في شيب جمع أشيب والاصل شيب . وقد جاء الصحاح بفعلة جمعاً لفاعل وشاهده قول امرىء القيس

علون بانطاكية فوق عقمة كجرمة نخل او كجنة يثرب

فان هذا القول رده بعضهم ونقل ردهم صاحب البستان فقال «جاء الصحاح بهذا البيت شاهداً على الجرمة بمعنى القوم والصحيح ان الجرمة هنا ما جرم وصرم من البسر » فذهبت الى صيغة جمع لا وجه لردها

وثانيها . شيعة جمع شاع بمعنى نصير مثل جيرة جمع جار وقيعة جمع قاع وفتية جمع فتى وإخوة جمع اخ (أخو) وولدة جمع ولد اي أن فعلة صيغة جمع لفعل والشواهد على جمع فعلة على فعل كثيرة

فشيعة صيغة جمع لا شك فيها وقد جاء نعتها على فعلاء ونعت الجمع جمع فشنعاء صيغة جمع لا صيغة مفرد . ومن هذا الباب قول طاهر ابن ابي هالة من قواد ابي بكر الصديق (أخابث في معجم البلدان)

فلم تر عيني مثل جمع رأيته بجمع مجاز في جموع الاخابث

قتلناهم ما بين قنة خامر الى القيعة البيضاء ذات النبائث

فقيعة جمع قاع كما تقدم التنظير . ولكن المعترض له ان يعترض هكذا : قيعة مفرد ودليل ذلك قول معيار اللغة « القاع أرض مهملة مطمئنة مستوية .. والقيعة كصيغة بمعناه كالقيع بلا هاء ومنهم من جعل الاولى (أي قيعة) جمعاً ومنهم من جعل الاخيرة جمعاً » وقول محيط المحيط « وقيل قيعة مفردة بمعنى القاع . ويستدل على صحة قيعة مفرداً نعتها بذات فذات من نعوت الافراد لا الجموع

(١) هذه كلمة نقلتها كما جاءت اما انا فمن يجلون شأن الشيعة (امين)

قلت لو صحّ عند اللغويين ان قيعة مفرد كجيفة وصيرة لاقتضى ان يذكروا صيغ جمعها كما ذكروا لجيفة جيفاً وأجيافاً وهذه في الحقيقة جمع اي جيَف على أجياف كعنب على أعناب. وذكروا لصيرةٍ صيْراً وصيَراً فما هي صيغ الجموع التي ذكروها لقيعة وهي وزان قِدّة وقد جمعوا قِدّة على قِدَد وأقدّة فان هـذا الاهمال اما عن عدم اطمئنان الى ان قيعة مفرد واما عن عدم استيفاء البحث. فعلى الرأي الاول تكون قيعة عند اللغويين صيغة جمع لا صيغة مشتركة بين الجمع والمفرد وعلى الثاني يكون الاهمال دليل نزازة المادة اللغوية عند اصحاب المعاجم او حيرتهم في هذه الصيغة

أما ذات فمن نعوت المفرد والجمع ودليل ذلك ان معجم البلدان قال «أميل جبل من رمل جمعهُ أُمُل (مثل قَلِيب وقُلُب) قال الراعي

مهاريس لاقت بالوحيد سحابة الى أمُل الغرّاف ذات السلاسل

فنعت أملاً بذات. وجاء في شعر ذي الرمة (طبع بيروت)

وبين الحبال العفر ذات السلاسل. والحبال جمع حبل اي الرمال المستطيلة فنعتها بذات. وجاءت ذات نعتاً لحمام. قال الشماخ (الساري في معجم البلدان)

حنّت الى سكة الساري فجاء بها حمامة من حمامٍ ذات أطواقِ

فجعل ذات نعتاً لحمامة من القطع بين الموصوف والصفة وهو معيب عند البلغاء وجعلها لحمام من الفصيح. وحمام كسحاب فمن قال سحابة ج سحاب قال حمامة جمعها حمام ومن قال سحاب اسم جنس والمفرد سحابة قال الحمام اسم جنس والافراد بالتاء ومن هذه الطائفة نعامة ونعام والخلاصة أن ذاتاً نعت لاسم الجنس او للجمع واسم الجنس في معناه جمع. فمن قبل قيعة في قول طاهر الآنف الذكر صيغة جمع يجد بيضاء نعتاً لجمع ونعت الجمع جمع

٤ — كتيبة شهباء وفارسية خضراء وسمهرية سمراء. مجيء الجمع بالتاء وارد كثيراً على صيغ متعددة فنسوة جمع نسوٍ ومارّة جمع مارٍ وعسّالة جمع عسّال ومسلمة جمع مسلم ومقاتلة جمع مقاتل وهندية جمع هندي وكتيبة جمع كتيب. وفارسية جمع فارسي وسمهرية جمع سمهري. وقد نعت باعث ابن صريم اليشكري (من شعراء حماسة حبيب) كتيبة هكذا

وكتيبةٍ سفع الوجوه بواسل كالأسد حين تذبُّ عن أشبالها

وما ينعت بجمع فهو جمع. وقد جاء في صفة كتيبة فعلاء كشهباء وخضراء قال حسان (السيرة لابن ابي اسحاق) بكتيبة خضراء من بلخزرج

وجاء في شعر ابن حلزة اليشكري

ثم حجراً اعني ابن ام قطام ولهُ فارسيـــة خضراءُ

وجاء في شعر المتنبي

وبساتينك الجياد وما تحـ ـملُ من سمهريةٍ سمراءِ

والسمهرية والعسّالة مثلان في مجيء التاء جمعاً لمفردها وقد نعت المتنبي عسالة بُذبُل قال

معطي الكواعب والجُرْد السلاهب والـ بيض القواضب والعسّالة الذبل

اذن لا فرق بين سمراء وذُبل ومن يذهب الى وجود فرق بينهما عليهِ أن يجيء بدليله فسمراء صيغة جمع لان الجمع ينعت بجمع ولا ينعت بمفرد . ومن هذا الباب مركوزة جمع مركوز ومقربة جمع مقرَب قال المتنبي

وأَرديةٌ خُضْرٌ ومُلكٌ مُطاعةٌ ومركوزةٌ سُمْرٌ ومُقْرَبةٌ جُرْدُ

٥ — اسم الجمع ينعت بفعلاء . اسم الجمع كما عرفه الاطوي له مفاد الجمع وليس له مفرد من بنائه ولا يفرد واحده بالتاء او بياء النسبة كفيلق . فقد جاء فيلق شهباء وفي السيرة لابن اسحاق للعباس ابن مرداس السلمي قوله

حتى صبحنا أهل مكة فيلق شهباء يقدمها الهمام الاشوسُ

وفي السيرة ايضاً شاهد آخر هو

رُميَتْ نطاةُ من الرسول بفيلق شهباء ذات مناكب وفقار

واسم الجمع متضمن معنى الجمعية اذن صيغ الجموع وصيغ اسماء الجموع وصيغ اسماء الاجناس يجيء في نعتها بِناء فعلاء

٦ — فعلاء صيغة جمع — اما مجيء فعلاء صيغة جمع فوارد كثيراً . ففي ترجمة الاحنف التميمي التي نشرتها المكتبة العربية في دمشق ان زياد ابن ابيه قال له : « هذه الحمراء قد كثرت بين اظهر المسلمين وكثر عددهم (كذا) وخفت عدوتهم . والمسلمون في ثغرهم وقد خلفوهم في نسائهم وحربهم . وحمراء جمع احمر كأحمرين جمع احمر

وجاء في مادة شجر في محيط المحيط « قال سيبويه الشجراء واحد وجمع وكذلك القصباء والطرفاء والحلفاء » ومن هذه الطائفة البرشاء والغوغاء والعثراء والدهماء وذهب اقرب الموارد الى ان برشاء جمع ابرش وبرشاء

ومجيء الواحد والجمع على بناء واحد وارد في فُعُل كفُلُك وفُعْل كفُلْك وفِعال كدِلاص وفعيل كقطين وفاعل كالحاج والداجّ ووالد قال جرير (ديوانه جزء ١ : ١٣٢ طبع مصر)

اعيالك والدك الادنون فالتمسْ هل في شفاعة ذي الاهدام مفتخر

فكما شارك بناء فعلاء بناء افعل في المجيء على فعل وفعلان شارك بناء أفعل بناء فعلاء في المجيء على فعلاء

٧ — عرب عاربة وعرب عرباء اي عربٌ صُرَحاء خلّص — هذا نص وارد في كتب اللغة فماذا يقال في عرب أاسم جنس او جمع

جاء في الصحاح « النسبة الى اعراب أعرابي لانهُ لا واحد له . وليس الاعراب جمعاً لعرب كما كان الانباط جمعاً لنبط . وانما العرب اسم جنس »

فهذا قول صريح بأن عرباً اسم جنس . واردُّه هكذا : قد جعل الصحاح عرباً من طائفة مستقلة عن طائفة نبط وحبش وعجم . والتفرقة بين طائفتين لا بد لها من فارق فأين الفارق ؟ فقد جاء نبطي وحبشي وعجمي للواحد كما جاء عربي للواحد. وحبش وأحباش وحُبُش وحُبْشان كعرب وأعراب وعُربان وعُرُب وعُرْب . ووجه الخلاف ان اعراباً ليست جمعاً لعرب كما ذكر الصحاح وأحباش جمع حبش . قلت أعراب أصالة جمع عرب ثم نقل الى فئة من العرب هم البدو وواحدهم بدوي . فالشيء يكون عامًّا ثم يتخصص فكل ثمر يجتنى قطيف ثمراً كان او مشمشاً او خوخاً او تفاحاً وجمع قطيف قطائف كضمير وضمائر . والاستعمال خصص قطائف بنوع من التمر. والمنجور كل ما نجر صندوقاً كان او خزانة او باباً او شباكا وقد خصص منجور بالمحالة . والدقيق كل مدقوق بزر صعتر كان او بزر كتان او قمحاً او شعيراً وقد أطلق الدقيق على القمح خاصة فاذا اريد سواه قيل دقيق صعتر او دقيق شعير والنظائر كثيرة . ومن هذا الباب استعمال اعراب للبدو فالتفرقة بين اعراب وانباط واعجام وأحباش من عمل الاستعمال لا من عمل اللغة . والاعرابي كالانصاري والحرسي والبدوي فالبدو جمع باد كالصحب جمع صاحب

***

أما الذهاب الى ان عرباً جمع فلوالدي رحمه الله وقد أورد في لمعِ النواجم في اللغة والمعاجم مقدمة معجم الطالب لتأييد مذهبه ما يأتي

اولاً — لا يقال عرب على الواحد ولا على الاثنين وانما يقال على الثلاثة فما فوق تقول هذا الرجل من العرب وهذان الرجلان من العرب وهؤلاء عرب . (ويصح ان تقول هو عربي وهما عربيان وهم عرب كما تقول هو حبشي وهما حبشيان وهم حبش وهو حرسي وهما حرسيان وهم حرس) وذلك من خصائص الجمع واسم الجمع ولكن اسم الجمع لا يكون له مفرد من لفظه يجمع عليه جمعاً قياسيًّا وعرب له مفرد من لفظه يجمع عليه جمعاً قياسيًّا فهو جمع (مثل حرس وحارس)

ثانياً — وجوب كون الضمير الراجع اليهِ ضمير الجمع او ضمير الجماعة نحو العرب يقولون والعرب تقول وما هو اسم جنس يعود اليه ضمير الجمع فيقول القنا الخطية والقنا السُلُب قال الأخطل (ديوانه طبع بيروت)

ومن ربط الجحاش فان فينا   قناً سُلُباً وافراساً حسانا

وقال أبو الاخيل العجلي (حماسة حبيب)

كفى حزناً ان لا أزال ارى القنا   تمجُّ نجيعاً من ذراعي ومن عضدي

وضمير المفرد ايضاً قال الاخطل (ديوانه) «اذا ما القنا الخطي عُلّت مخاضبهُ» وقال المتنبي

بناها فأعلى والقنا يقرع القنا وموج المنايا حولها متلاطمُ

لذلك تكون صيغة عرب ليست اسم جنس كما ذهب اليه الجوهري ولا اسم جمع لانهُ يقال فيلق شهباء وفيلق الجيب

ثالثاً — اتفاق اللغويين والنحاة على انهُ مؤنث وليس فيهِ علامة تأنيث ولا هو مما يطلق على مفرد مؤنث وهذه خاصة جمع التكسير كالرجال قامت وقعدت

رابعاً — تصغيره على عريب بدون تاء والمفرد المؤنث المعنوي اذا صغّر تلحقهُ التاء كشمس وشميسة وارض وأريضة . وجمع التكسير الذي لا تاء فيه اذا صغر لا تلحقهُ التاء كأُصيحاب . ولما خفيت هذه الحقيقة وحسبوه مفرداً مؤنثاً قالوا ان تصغيره بدون تاء شذوذ . (وما الشذوذ الاّ ثمرة نقلهم له من طائفته الى طائفة اخرى . ولو انزلوه في طائفته لوجدوا قياسهُ صحيحاً فالشذوذ من عملهم لا من بناء صيغته) وازيد على ذلك ان عرباً جمع لعارب أو عريب فلعارب كخدم لخادم ولعريب كخدم لخديم . وعرُب وعرْب لعارب كجاهل وجهُل وجهْل ولعريب كقليب وقُلُب وقُلْب . وعُرْبان وعِربان لعارب مثل حوران لحائر وحيطان لحائط ولعريب مثل فُصلان وفِصلان لفصيل واعراب لعارب كاشهاد لشاهد ولعريب كاشراف لشريف . اما عاربة فلعارب خاصة مثل سابلة ومارة وقاطنة وجالية فهي لسابل ومار وقاطن وجالٍ وبهذا يعرف ان عارباً اولى من عريب بعرب

***

فبما ان عرباً جمع وجاء نعته بعرباء فصيغ الجمع يأتي نعتها بفعلاء . وبما أن عرباء وصرحاء وخلص معنى واحد ولا خلاف في جمعية صرحاء وخلص فلا وجه للشك بأن عرباء صيغة جمع والاّ كان بين صُرحاء وعرباء فارق فما هو وما الدليل عليهِ . اذن يقال أدلة غراء كما قال والدي في تسميته أحد كتبه الادلة الغراء وهضاب ملساء كما جاء في كلامي وشمائل حسناء كما اورد شاعر الاقطار العربية خليل بك المطران في رثاء الامير كمال الدين بن السلطان حسين كامل رحمهُ الله . وكريات بيضاء كما جاء في كلام احمد حمدي افندي الخياط

ولكل من الاب انستاس ماري الكرملي الجليل والنطاسي امين باشا المعلوف ومن يذهب مذهبهما ان يزيف ادلتي واشترط في الرد ما يأتي

١ — ان يكون نقيّاً من المطاعن فينظر الى القول لا الى القائل

٢ — ان يعيّن موضع الشاهد فلا يكتفي بانهُ قال المازني او الفارسي او الشاعر لأتمكن من العثور على موضع الشاهد

٣ — ان يرسل نسخة من رده اليّ لا تصفح ما جاءَ بهِ . فانهُ لا يعلم الغيب الاّ الله ولا شك في أن الحقيقة بنت البحث

دمشق : البطريركية الارثوذكسية

صورة قلمية

الدكتور احمد النقيب

بقلم نقولا شكري

لا يزال بيننا وبين الطبيعة مناجاة دائمة تحدثنا بمقاييس ملموسة نحسها في كل شيء . فان الزهرة النضرة ، أو السنبلة التي يقصفها الريح في الحقل ، أو العنقود الذي تطمح اليهِ أنظارنا متهدلا بالبستان انما هو دليل واضح تبديه الطبيعة اشارة الى خصبها ، وانها تعطي الانسان دائماً ما تنطوي عليهِ من ثمار وزهر

وليس أبلغ من هذا الشعور تناجينا بهِ طبيعة مصر الخصبة التي ما زالت تحتفظ بمقاييسها القديمة بينها وبين أهلها وزروعها وشمسها وسائر ضروب حياتها . فان الثمرة التي تنبتها تربة خصبة لا تكاد تختلف عن الانسان المثقف الذي يخرجه نوع سامٍ من التهذيب . ولعل سرّ الطبيعة نفسها في ذلك التهذيب لا يفترق عن اثرها في النبت . وهذا لعمري ما نسميه بالعلاقة بين الانسان ووطنه

***

هذا رجل من رجال مصر ، في حدود الأربعين ، ذو ثقافة عالية ، ربعة الى الطول ، حنطي اللون ، ساكن النظرات ، حاضر البديهة ، موفور القوة ، متواضع السمت ، يغلب عليه الحياء ، وتبدو عليهِ مع ذلك مخائل الثقة العظيمة بالنفس ، والرغبة العميقة في ان يعمل دون أن يتكلم

هذا الدكتور احمد النقيب ، الطبيب الجرّاح الذائع الصيت ، هذا الشاب المصري الطموح ، الشجاع ، الجريء ، قد ضرب لأمثال مصر وشبابها المتوثب أحسن الامثال كيف يستحيل الامل الكامن عملاً بارزاً ، ونصراً مبيناً . وأقام الدليل الحسي على ان استعداد شباب مصر المأمول لجسام الاعمال التي تحتاج الى الجرأة والاعتداد بالنفس ، والاعتماد على الله وعلى الهمة العالية الشماء ، لا يقلّ مثقال ذرة عن استعداد أية أمة غربية أو شرقية ، أو عن استعداد أي شباب في أي بلد عظيم

هذا الدكتور النقيب قد جاهد في الطليعة مع النخبة المستنيرة من رجال المواساة لتشييد صرح مصري عظيم يكون بينة على النهضة القومية في هذه البلاد ودليلها ، وآية المبادىء الوطنية التي نجاهد في سبيلها بارزة في أحسن مظاهرها وأجمل صورها ، والنهضة الاجتماعية في بعض معالمها الواضحة للابصار المتحدثة بلغة القومية ومنطق الاستقلال

وغداً يجوس المصريون خلال فكرة قومية استوت قائمة على أحسن بقعة مصرية ، في رأسها

يخفق العلم المصري مدللاً على قوة باعثها ، وصدق احساسها ، وسلامة دوافعها . وتمشي في ساحة مستشفى المواساة الفخم جموع المصريين يشهدون الوطن على مدى وطنيتهم ، وقوة ايمانهم بالفكرة القومية التي تتمثل بهم ، ومبلغ عرفانهم لمعناها البارز فيهم . غداً يتفقد المصريون ردهات هذا المستشفى ، ويشهدون أجزاءه وجهاته ، فيغتبطون بوجودهم على قطعة مستقلة من مصر المطالبة باستقلالها ، فتجتمع بهم وبالبناة الصالحين الذين أنشأوها ، الوطنية المصرية بسائر قواتها ، وتواجه العقيدة القومية اثباتها ، وتزدحم في مكان واحد معانيها وآياتها ، وتتجلى مصر في أفخم عناوينها وشاراتها ، ويبرز الايمان بالكفاءة المصرية شواهده قائمة ماثلة . ومنشآته في البر متحدثة عنهُ بلغة العزمات النافذة ، والهمم المنجزة ، والاخلاص المكين

وغداً يذكّر الدكتور النقيب اخوانه من شباب مصر بما تحتويه فطرتهم من صفات الرجولة ، ومناقب الفتوة التي تنازعها الآمال ، فاذا بالعزيمة الصادقة تسمو بتلك الآمال من عالم الأماني والاحلام الى عالم الحقائق المجيدة ، يسجلها الوطن للعاملين من أبنائه في كتاب العزة الوطنية التي أودعها القدر بين ايدي الشباب العاملين امانة مقدسة

لقد وضع الدكتور النقيب ورجال المواساة النواة الطيبة الصالحة ، وبقي امام الشعب بأكمله ان يستكمل هذه المنابت ، وينمي هذه الحقول ، فان كل نواة تقتضي تعهداً ، وكل مستنبت يطلب مزيداً من الجهود ، واذا كان الدكتور النقيب والعاملون من رجال المواساة قد اقاموا هذا الصرح الانساني الفخم بجهود الجبابرة ، وهمة البطولة ، واخلاص الوطنية ، فقد وضعوا بهِ القاعدة ، واصبح الواجب القومي مقتضياً البناء فوقه ، والمزيد عليهِ ، والتوسع في اجنحته وطبقاته . وما دام أخطر دور التعمير والانشاء قد تم ، فلتمض الامة اغنياءَ وقادرين وزعماء وهداة وغيورين ، في بناية الباقي ، والوفاء بما يريد الوطن . ويوحيه استقلاله ، ويقتضيه مكانه بين الشعوب

***

وهنا يحق لنا ان نشرح بايجاز حياة الرجل الذي يَعدُّ رمزاً عالياً للفكرة التي اوحت بانشاء هذا المستشفى

ولد الدكتور احمد النقيب بمدينة الزقازيق في ١٠ يناير سنة ١٨٩٥ وتلقى علومه الاولية بمدرستها الابتدائية ثم انتقل الى القاهرة وحصل على شهادة البكالوريا من المدرسة التوفيقية ثم انتظم في مدرسة الطب ونال شهادتها في يناير سنة ١٩١٩ وتولى بعد ذلك تدريس التشريح العملي بها الى ان عين طبيباً بمستشفى قصر العيني . وفي غضون ذلك ظهرت آيات براعتهِ وخبرته ، وافضت بهِ كفاءته الى اداء مهمته في المستشفيات العامة وفي سنة ١٩٢٥ عين جراحاً لمستشفى الاسكندرية . وكانت رغبتهُ القوية في خدمة الطب تسوقهُ دائماً الى الاختبار والترقي فانهُ في سنة ١٩٣١ تخصص في جراحة المجاري البولية على الاستاذ العالمي السر طومسون دوكر والمستر ايفردج بانجلترا ولم ينقض عامان حتى قصد

الى برلين في بعثة جديدة للغرض نفسه فتخصص على الاستاذ « ليشتنبرج » من اشهر اطباء جراحة المجاري البولية في المانيا

ولم ين الدكتور النقيب في غضون هذه المدة عن البحث واختبار حالات معاهد الطب في عواصم اوربا وزيارة المستشفيات الكبيرة حيث خطرت له فكرة مستشفى المواساة على أثر مشاهدة مستشفى «مارتن لوثر» في برلين . وكان قبل ذلك قد بحث هذه الفكرة عن طريق اتصاله المباشر بالطبقات الاجتماعية وهو ذلك الاتصال الجليل الذي يتوصل اليه الطبيب لعلاقة مهمته المباشرة بادواء الناس . ولأنهُ اكفأ من سواه في اقتراح الوسائل التي تخفف آلام الجماهير . وكان يعلم ان الطبقات الراقية مع اعترافها في الغالب بخبرة الاطباء الوطنيين تميل الى الالتجاء نحو المستشفيات الاوربية على اعتقاد انها اكمل واعظم ضماناً ، ويعلم من جهة اخرى حال المستشفيات الوطنية وحدود تراجعها المحزن عن الخطوات التي وصل اليها الطب الحديث باعتباره قاعدة رئيسية في الحضارة ، وان الامم التي وصلت الى الترقي الحقيقي انما وصلت عن طريق القوة التي يوفرها الطب . ونعتقد ان الترقي الاوربي مدين للطب باشياء كثيرة جميعها ذات أثر ظاهر في نشاط الجماعات الغربية . ولما عرضت هذه الفكرة وجهت النظر بادىء ذي بدء الى تقدم العصر وجود الوسائل الصحية وبخاصة المستشفيات الوطنية ، وكان من الطبيعي ان يدل ذلك على الفارق بين طموح مصر الجديدة الى الترقي وتراجع قاعدة تعدّ اعظم قواعد الحضارة وهي الطب . وفي الحقيقة ان الكثير من الوطنيين اذا فكر في الالتجاء الى احد المستشفيات الوطنية يرى انهُ في حاجة الى ضمان كاف يقنعهُ بتحقيق الغاية التي يرجوها . ولعلَّ ذلك يرجع الى ضعف الجهود التي ينبغي ان تبذل لترقية المستشفيات المنسوبة الى الوطنيين ، وقد عرض الدكتور النقيب فكرته الشريفة على رجال المواساة فقوبلت بالتأييد . والظاهر انها رغبة كمينة في نفوس الذين يميلون الى خير مصر وسعادتها . واقترن هذا التأييد باستعداد صادق لانشاء مستشفى وطني يضارع سائر المستشفيات الاوربية وان تكتمل فيه الوسائل ، وان يكون نموذجاً صحيًّا يرمز على الدوام الى جهود الوطنيين

***

ومن الممكن ادراك هذه الجهود من مجرد النظر الى البناء الفخم الذي تحقق به المشروع والذي يقال انه استنفد ما يقرب من ربع مليون جنيه . وهو وحده كاف للدلالة على ان الفكرة التي تحققت قد خيبت ظنون الذين كانوا ينسبون الى جمعية المؤآساة التعلق بالنظريات والاحلام . ولا شك في ان اكتمال هذا المشروع سيظلُّ رمزاً للخطوات الواسعة التي وصلت اليها الوسائل الصحية في مصر بل في سائر الشرق العربي فان الجهود التي بذلت تدل على الثقة في ان المستشفى سيكون صورة تجاوز باستكمالها وفخامتها ما بلغه العصر من الرقي . وطبيعي ان هذا الانشاء الصحي سيظل يحض الذريات المصرية على الاعتراف بالجميل للطبيب صاحب الفكرة الذي استحثَّ جماعة المواساة على سد الفراغ الحادث من تأخير المستشفيات الوطنية ونقص وسائلها ومباشرة العمل على

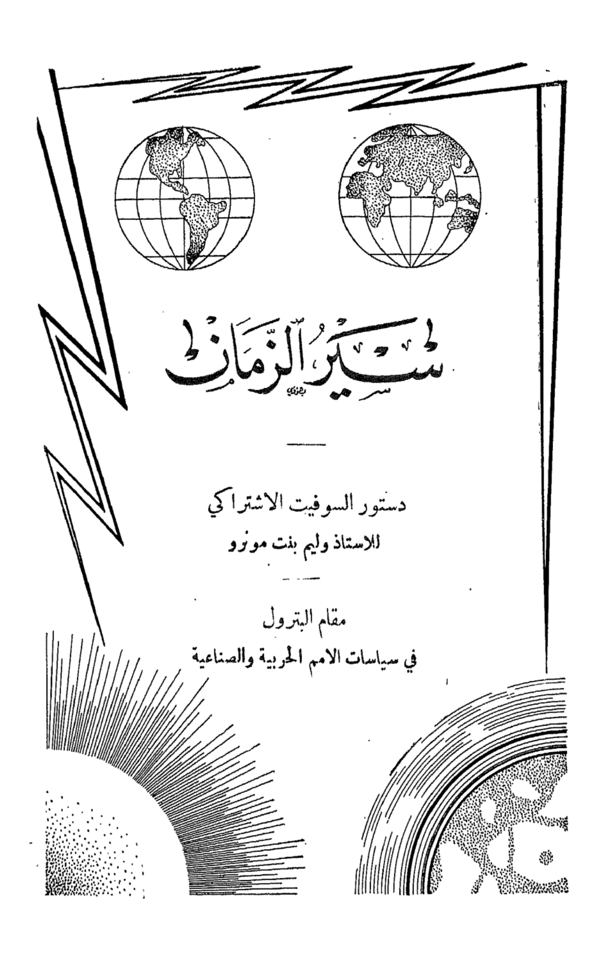
ان لا يكون ثمة ميزة تجعل الوسائل الصحية في عاصمة كبيرة مثل الاسكندرية تتخلف عند الحاجة عن تحقيق آمال جميع الطبقات

وبعد ، فلعل الظاهرة البارزة في حياة الدكتور النقيب لا تُحَدُّ بشغفه بالفكرات الجيدة التي تولي صاحبها خلوداً حقيقيًّا ، بل ان هذه الظاهرة تشمل اشياء اخرى ، بل ترجع الى اول عهده بصناعته عندما كان طبيباً بمستشفى قصر العيني حيث برهن على مقدار ثقة الرجل الكفء بخبرته ومقدرته . فقد حدث في الهزيع الاخير من احدى الليالي ان نقل الى مستشفى قصر العيني رجل مطعون بسكين في صدره وبطنه حتى تمزقت رئته وطحاله ومعدته . وكانت حالته تنبيء بأنهُ ليس ثمة امل في انقاذه فحادث الطبيب « النوبتجي » البروفسور « دولبي » الذي كان يتعين عليه وقتئذٍ اجراء العملية للمصاب فكلفه البروفسور دولبي إجراءها وكان المصاب يمت بنسب الى اسرة عريقة من الاعيان واتفق ان الدكتور بدرخان كان حاضراً فأكبر ان يجري العملية طبيب آخر غير البروفسور دولبي فلم يطق الطبيب النوبتجي هذا الشك في كفاءته وغضب ثم نهض لساعته وتولى بنفسه اجراء العملية الجراحية ونجح في انقاذ المصاب بعد ان كانت حالته تنذر بالخطر وكان ذلك الطبيب النوبتجي هو الدكتور احمد النقيب فنال بتصريح خاص مكافأة كبيرة على توفيقه في اول عمل جراحي برهن على براعته . ومنذ ذلك الوقت ظهرت مهارة الدكتور النقيب وذاعت شهرته وطار صيته . والدكتور النقيب يتصف بالصراحة التي تكون عادة في فطرة المشتغلين بصناعة الطب ، وتتجلى في حديثه القوة وفي منطقه بيان الرجل المثقف الواسع الاطلاع الغزير العلم . وهو الى هذا كله خطيب زلق اللسان ، فصيح العبارة، تقترن فصاحته بحماسة وجاذبية تنم على مقدرته وقوة تأثيره

ولعل اكبر مزايا الدكتور النقيب نشاطه ، وانه رغم قيامه بمهمته في المستشفى الاميري حيث يقوم باجراء العمليات الجراحية يؤدي هـذه المهمة نفسها في مستشفى خاص له في حي محرم بك بالاسكندرية، ولا يترك الفرص التي يزيد بها في تجاربه وعلمه عن طريق انقاذ المرضى الذين يجدون فيه دائماً الطبيب البارع المنقذ

وبعد ، ففي هذا العصر الذي قوي فيه النشاط في الحياة العلمية وبخاصة الطب ، وهو نشاط يتكافأ مع الحالة التي وصلت اليها الانسانية بعد الحرب ، نستطيع ان نعد الدكتور النقيب في مصر من الرجال الذين تفخر بهم البلاد

واخيراً ما دامت مصر تؤدي مهمتها في سبيل الترقي فحسب الشباب ان يراقب دائماً المثل العليا التي تخلدها حوادث ظاهرة في تاريخ الجماعات . فاذا ذكر مستشفى المواساة باعتباره مثلاً لمجهودات صحية عظيمة فلا غرو ان هـذا الفخر سيشترك فيهِ اسم الطبيب الذي اقترح انشاءهُ ومهد السبيل لتحقيقه . فاذا كان هذا المشروع عملاً لخير الانسانية ومواساتها فانهُ من جهة اخرى يغذي النشء بنية طاهرة تعوده التضامن لخدمة الوطن


سير الزمان
دستور السوفيت الاشتراكي
للاستاذ وليم بنت مونرو
مقام البترول
في سياسات الامم الحربية والصناعية



الدكتور احمد النقيب

الدستور السوفياتي الاشتراكي (١)

الاستاذ وليم بنت منرو (٢)

—١—

حملت الينا الاخبار اللاسلكية ان مؤتمر سوفيت الاتحاد الاعلى — وهو اعلى هيئة تشريعية في بلاد الاتحاد السوفياتي — اقر في اجتماعه السنوي الملتئم في موسكو خلال شهر يناير من السنة الحالية ، إدخال تعديلات جوهرية على الدستور السوفياتي الاشتراكي يمنح فيها للفلاحين حق التمثيل المباشر والاقتراع السري والمساواة بين الريف والمدينة في جميع ما يتعلق بالانتخاب الى هيئات الحكومة المحلية وحكومة الاتحاد العليا. وقد تلقت الصحافة والدوائر السياسية خارج بلاد السوفيت هذه التعديلات بالاعجاب والامتعاض معاً . اما الذين أُعجبوا بها فهم الشيوعيون والدمقراطيون الذين يرون فيها تقدماً نحو تحقيق المجتمع القائم على الدمقراطية الاقتصادية اولاً والسياسية والاجتماعية ثانياً ، وهم المؤمنون بان لا سبيل الى تحقيق الدمقراطية الحقيقية ونجاحها الا بمعالجة النظام الاقتصادي من الاساس والقضاء على حكم الطبقات في المجتمع . اما الذين امتعضوا من هذه التعديلات فهم الرأسماليون ودعاة دكتاتورية الطبقات المستغلّة كالفاشستية والنازية الذين يرون فيها نجاحاً جديداً للمبادىء التي يدّعون انها مستحيلة النجاح وان الافضل للشعب ان يجرد من إرادته ويخضع للحكم الفردي . ومهما يكن موقف البلاد الرأسمالية ازاء هذه التعديلات والنظام المطبَّق في الاتحاد السوفياتي فالحقيقة الواضحة هي ان الدمقراطية السياسية التي أعلنتها الطبقات البورجوازية منذ الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ تعاني اليوم ازمة الاخفاق في معظم بلاد اوربا وحتى في البلد الذي اعلنت فيه وطبقت فيه اولاً . حالة اننا نرى نجاح الدمقراطية في البلاد التي كانت الى قبل الحرب العظمى ابعد البلدان عنها يتحقق شيئاً فشيئاً في الاتحاد السوفياتي تحت اشراف دكتاتورية العمال التي تطبقها على اسس غير التي طبقت عليها دمقراطية البورجوازية وترمي الى غايات غير التي ترمي اليها هذه الطبقات الرأسمالية الاستعمارية . وفيما يلي دراسة للدستور السوفياتي الذي يعد اول دستور من نوعه طبق في العالم

كثيراً ما يتوهم البعض ان روسيا امة واحدة كما هي انكلترا او فرنسا او ايطاليا اذ يرون على الخريطة الجغرافية اراضي واسعة تمتد غرباً الى شمال اوربا وشرقاً الى شمال آسيا تزيد مساحتها على ثمانية ملايين ميل مربع او ما يقارب سدس الجانب اليابس من الكرة الارضية او ثلاثة اضعاف مساحة

---

(١) Socialist Soviet Constitution (٢) استاذ التاريخ والحكومات في معهد جامعة كالفورنيا الفني باميركا وقد نقل هذا الفصل المتع كامل قزانجي مدرس الاجتماع والتاريخ بمدرسة النجف الثانوية في العراق

الولايات المتحدة الاميركية تقريباً، ويطلق عليها جميعاً اسم (روسيا) ويقرأون ايضاً ان فيها ما لا يقل عن ١٥٠[١] مليون نسمة من الروس يسكنون هذه الاراضي الواسعة تديرها حكومة واسعة من العاصمة موسكو فليس غريباً اذاً ان يعتبروا روسيا بلاداً موحدة كما هي الولايات المتحدة الاميركية

لكن روسيا ليست امة بهذا المعنى بل هي مجموعة غير منتظمة لاقطار واجناس مختلفة. فقد كانت قبل الحرب مكونة من اقاليم ضعيفة الصلة فيما بينها يزيد عددها على العشرين يسكنها الروس والبولونيون واليهود والفنلنديون واللتيّون والتتر والاتراك والمغول وغيرهم من عناصر مختلفة اللغات والاديان والميزات يقارب عددها المائتي عنصر . واولى هذه المقاطعات واكبرها مساحة واكثرها سكاناً هي (روسيا الاصلية) التي تمتد من سواحل بحر البلطيق الى جبال اورال ومن الدائرة القطبية الشمالية الى البحر الاسود ويسكنها الروس على اختلاف طوائفهم. وفي الجهات الشمالية الغربية والغربية والجنوبية الغربية من بلاد الروس تقع فنلندة ولاتفيا ولتوانيا وبولندة تسكن كل واحدة منها شعوب ذات لغات واديان مختلفة ، وفي الجهات الجنوبية والجنوبية الشرقية تقع قفقاسية وآسيا الوسطى الروسية وسيبيريا وفي هذه الاقطار ايضاً تسكن شعوب تختلف عن بقية شعوب الامبراطورية في اللغة والدين والجنس ايضاً . هكذا كانت روسيا قبل الحرب امبراطورية واسعة تشمل ما يقارب سدس القسم اليابس من الكرة الارضية فيها شعوب مختلفة الاجناس واللغات والاديان الى غير ذلك من الفوارق الاجتماعية . لكن المعاهدات التي عقدت بعد الحرب العظمى فصلت بعض هذه المقاطعات عن امبراطورية آل رومانوف واصبح الجانب الاكبر الباقي من هذه الامبراطورية يدعى بـ(الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية المتحدة — United Socialist Soviet Republics, U. S. S. R.) او بتعبير مختصر (الاتحاد السوفياتي — Soviet Union, S. U.)

ولكي تفهم حاضر الاتحاد السوفيتي يجدر بنا ان نلقي نظرة سريعة على تاريخ الامبراطورية القيصرية في عصورها الاولى فنقول : نشأت الامبراطورية القديمة بطريقة هجرة التجار او اللاجئين الى الحدود الروسية حيث احتكوا بالقبائل الاصلية ولم يمض زمن طويل على احتكاكهم هذا حتى استأثرت القبائل الجديدة بأملاك القبائل الاصلية . اما في العصور التي اعقبت الهجرات الاولى فقد توسعت الامبراطورية الروسية بالطريقة التي توسعت بها امبراطورية روما القديمة اذ اعتمدت على الدم والحديد فكانت الحروب والفتوح عماد هذه الامبراطورية التي لم تختلف عن روما في طرق الاحتلال والفتح

لكن قياصرة الروس لم يكونوا رجالاً منظمين اداريين كما كان أساتذتهم قياصرة روما . فقد أقاموا حضارة بيزنطية اكثر منها رومانية واسيوية اكثر منها اوروبية ويرجع السبب في ذلك الى

(١) كان عدد سكان الامبراطورية الروسية قبل الحرب العظمى يقارب ١٥٠ مليون نسمة اما بعد سنة ١٩٣٤ فقد بلغ ما لا يقل عن الـ ١٦٨ مليون نسمة في بلاد الاتحاد السوفياتي بالرغم عن انفصال بعض اقسام الامبراطورية القديمة عنها

وقوع روسيا خلال القرن الثالث عشر تحت سيادة التتر وفي القرنين الخامس عشر والسادس عشر تأثرت كثيراً بالمبادىء السياسية والعقائد الدينية البزنطية بسبب سقوط الامبراطورية البزنطية ودخول الارثوذكسية الى روسيا

ولم تدخل الحضارة الاوربية الى روسيا الاّ في عصر بطرس الاكبر بفضل الجهود التي بذلها لاخراج بلاده من عزلتها وتأسيس حكومة مركزية قوية فيها ولو أنهُ لم يتمكن أن يؤثر فيها اكثر من ان يعطيها صبغة اوروبية شفافة فقط

وبفضل جهود القيصر الاكبر ومن عقبهُ من القياصرة ، مثال كاترين الثانية اصبح لروسيا شأن كبير في السياسة الاوربية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . ومع ان مبادىء الثورة الفرنسية لم تدخل روسيا لكن نابوليون حمل راياتها اليها وهو في أوج عظمته في حملته على موسكو فارتدّ بجيشه متعثراً على ثلوجها فكان في ذلك بدء انحطاط امبراطوريته اذ كان تقهقره هذا أمام الروس بداية ضعف قوة فرنسا الحربية التي انتهت بواقعة واترلو . هكذا كانت روسيا ولا تزال في موقع حصين مكنها من أن تقهر نابوليون وتحمي نفسها من الفتوحات الخارجية طيلة عصور تاريخها

ان جميع ما كان في روسيا ساعد على قيام حكم القياصرة المستبدين الطغاة وأهم هذه العوامل سعة البلاد وتعدد الاجناس الساكنة فيها وأمية الشعب والروح الحربية والحياة الريفية المتأخرة وتقاليد العقلية الشرقية ، كلها ساعدت على قيام الحكم الاستبدادي وبقائهِ فيها ، ومع أن بعض القياصرة كانوا يحاولون بين آن وآخر ادخال مبادىء الحكم الدمقراطي لكن عملهم لم يكن بذي بال لانهم لم يريدوا أن يضعوا السلطة العملية بأيدي ممثلي الشعب . ولما سارت الروح الدمقراطية بعد سنة ١٨٤٨ وقادت الى وضع دساتير في فرنسا وايطاليا وبروسيا وادخلت بعض التعديلات السياسية في النمسا ، لم يكن لها أثر يذكر في النظم السياسية في روسيا

وبعد بضع سنين من ثورات سنة ١٨٤٨ في اوروبا ألغى القيصر اسكندر الثاني العبودية الاقطاعية بين الفلاحين في روسيا سنة ١٨٦١ وادخل الاصلاحات على حالة الفلاحين الاقتصادية لكنهُ لم يقض على سلطة الملاك ولم يمنح الشعب حق الاشتراك في ادارة شؤون الحكومة المركزية بل اكتفى بمنحهم بعض الحقوق في الادارة المحلية في المقاطعات بأن ينتخبوا منهم بطريقة الانتخاب غير المباشر — ممثلين في مجالس الولايات (الزمستفوس Zemstvos) التي خوّلت حق فرض الضرائب المحلية والانظمة المتعلقة بشؤون محلية كنظام الطرق والجسور والمدارس والصحة العامة والبنايات العامة ودور العجزة وجمعيات اعانة الفقراء لكنهُ رفض تأسيس مجالس بلدية أو (دوما — Dumas) في المدن للقيام بالاعمال التي تقوم بها الزمستفوس في الولايات

وما فتئت هذه المجالس المحلية حتى اصبحت معاقل للحركات الدستورية الحرة التي كانت ترمي

الى الاصلاح السياسي في الامبراطورية بأجمعها واخذت تزداد قوة في مطالبتها بدستور دمقراطي ودعوة برلمان عام . ولم تتقدم هذه الحركات الدستورية الحرة تقدماً محسوساً الا بعد نهاية القرن التاسع عشر . أما السلطات المركزية والحاشية المحيطة بالقيصر فكانت تعتبر هذه المبادىء الحرة ثورية لذلك كانت تخاف من كلمات (الدستور) و (البرلمان) خوفاً شديداً حتى أخذت تمنع ظهورها على صفحات الجرائد ، وفي نفس الوقت كانت تعاليم كارل ماركس وتلاميذه تتغلغل في روسيا فتحول الكثير من الشبان الاحرار الى الاشتراكية وتعيد الاعضاء للحزب الاشتراكي الدمقراطي

ودامت الحال على هذا المنوال حتى خاضت روسيا الحرب مع اليابان سنة ١٩٠٤ — ١٩٠٥ وخرجت منها مقهورة في البر والبحر فأحدث هذا الخذلان إستياءً عامّاً أقلق السلطات الامبراطورية المستبدة واضعف مركزها . وقابل هذا الضعف في سلطة القيصر ازدياد عدد الاشتراكيين الدمقراطيين في روسيا وتمكن مبادئهم بالرغم من الاضطهادات العنيفة المتواصلة التي كانوا يلاقونها . وزاد في خوف السلطات تكاثر الاضطرابات والاضرابات المتتالية التي كان ينظمها الاشتراكيون الدمقراطيون بين عمال المصانع والفلاحين في الارياف حيث أخذ الفلاحون يسطون على أملاك الاشراف ويحتلون قصورهم مما اضطر السلطات الى اعلان الاحكام العرفية في كثير من انحاء الارياف المختلفة . وكان تلاميذ المدارس في المدن ينظمون الاضطرابات والاضرابات العامة الخطرة فتغلق الجامعات . وقد اوضحت جميع هذه التبدلات العامة وجوب تعديل السياسة الرجعية القديمة القائمة على الاستبداد والاضطهاد ، لذلك رأت الحكومة القيصرية — احتفاظاً بمقامها — ان تبدأ بالنزول على مطاليب الشعب بدعوة برلمان امبراطوري عام

لذلك أسرع القيصر واصدر في عام ١٩٠٥ سلسلة من المراسيم وعد فيها بوضع دستور للشعب الاّ أن هذه المراسيم القيصرية — بالحقيقة — لم تلغ الحكم الفردي الاستبدادي بل — بالعكس — اكدت سيادة سلطة الامبراطور التنفيذية وايدت حقه بالرفض (فيتو — Veto) لجميع التشريعات التي يضعها البرلمان بصورة عامة وصرحت بابقاء الوزراء مسؤولين أمام القيصر فقط . لكنها منحت الحق بدعوة برلمان وطني عام يتألف من مجلسين . المجلس الاعلى وهو مجلس الامبراطورية ، والمجلس العام او الدوما . وفرضت هذه المراسيم تعيين نصف اعضاء مجلس الامبراطورية الاعلى من قبل القيصر وانتخاب النصف الآخر من قبل مجالس المقاطعات والملاّك والاشراف وغرف التجارة والصناعة والكنيسة والجامعات لمدة تسع سنوات على ان لا يقل عمر المنتخب عن الـ ٤٠ سنة وان يكون حاملاً لدرجة علمية . أما فيما يخص اعضاء الدوما فقد حتمت المراسيم القيصرية ان ينتخبوا بواسطة مجالس الولايات على اساس اقتراع الذكور فقط . واكدت أوامر القيصر عدم السماح بالبحث في هذه المراسيم او في الشؤون الحربية والخارجية والمالية في مجلس الدوما انما يكتفي بأخذ موافقة هذا المجلس في وضع القوانين العامة فقط

ظهرت هذه التبديلات وهي على الورق بمظهر جذاب ينبيء عن بدء موفق في سبيل الوصول الى توطيد سيادة الشعب لانها اوصلت روسيا سنة ١٩٠٥ الى ما كانت قد وصلت اليه انكلترا منذ سبعمائة سنة مضت حين فاز الاشراف بالبراءة العظمى Magna Carta في زمن الملك يوحنا سنة ١٢١٥ . لكنها لم تكن بداية عصر جديد لسببين هما : اولاً — لان الشعب الروسي لم يعرف كيف يتصرف بالسلطة التي منحها تصرفاً معتدلاً . وثانياً — لان القيصر ووزراءه لم يقبلوا النظم السياسية الجديدة عن طيبة خاطر

***

ولما اجتمع مجلسا الدوما الاول والثاني بين ١٩٠٦ و ١٩٠٧ كان بين اعضائه كثير من الاحرار والمتطرفين الذين اقلقوا الوزراء بخطبهم الشديدة وحملوا مجلس الدوما على الاستياء وعدم الاكتفاء بالسلطات التي منحها حتى تهجم بعض زعمائه على الدستور الصوري، وطالبوا بدستور قائم على سيادة الشعب الحقيقية. وبالرغم مما نصت عليه المراسيم القيصرية بدأ مجلس الدوما يبحث في كيفية جعل الوزراء مسؤولين امام الدوما مباشرة ليؤسسوا بذلك نظاماً برلمانيًّا حقيقيًّا . وكذلك طلب اعضاء الدوما العفو العام عن جميع المسجونين السياسيين وتقسيم الأراضي على الفلاحين والانتخاب المباشر لاعضاء الدوما بحسب انظمة الاقتراع العام . وذهب بعض المتطرفين الى حد المجاهرة بأن واجب الدوما ليس سن القوانين فقط بل العمل للثورة الاجتماعية وانجاحها

ولما اتضح للسلطات القيصرية ان مجلس الدوما شديد التطرف في دمقراطيته ومناقشاته ومبادئه لم تر بدًّا من حله مرتين متتاليتين وقرر القيصر ووزراؤه ان قد حان الوقت لادخال التعديل في قانون الانتخاب فأصدر القيصر مرسوماً سنة ١٩٠٧ الغى بهِ الاقتراع الفردي للذكور وأمر ان ينقسم المقترعين الى طبقات (كوريا — Curiae) هم الملاك وأصحاب المعامل والتجار والفلاحون والعمال وان يخصص لكل طبقة عدد من المقاعد في المجلس . وكذلك ادخل تعديلات أُخرى ترمي الى منح حق تمثيل غير متناسب الى الملاكين من بين المقترعين . فكانت جميع هذه التعديلات منافية تماماً للحقوق التي منحت سنة ١٩٠٥

وطبقت تعديلات سنة ١٩٠٧ كما امل القيصر ووزراؤه اذ انتخب الدوما الثالث تحت رقابتهم وبموجب التعديلات الاخيرة فكان اقل تطرفاً وأسهل انقياداً لرغبة الوزراء اذ كان مؤلفاً من الملاكين والتجار بالدرجة الاولى فكان هؤلاء يطيعون الاوامر عادة ليبقوا طيلة السنوات الخمس أي مدة اجتماع المجلس . اما الدوما الرابع فقد افتتح خلال سنة ١٩١٢ وبقي منعقداً حتى نشوب الحرب . لكن كلا المجلسين الثالث والرابع لم يكونا يمثلان الشعب الروسي تمثيلاً حقيقيًّا وكانا تحت تأثير الطبقات المالكة والمرفهة من الشعب . ومع انهم كانوا يستطيعون في بعض الاحيان

اقناع القيصر او الوزراء بتعديل مراسيمهم الاّ انهم لم يكونوا —بالحقيقة— ليقوموا الاّ بالاعمال الاستشارية فقط . وقد مثل الحالة حينذاك احد الاحرار الروسيين بقوله «ولكي يتمكن الشخص من التمتع بحق البقاء حيًّا عليه ان يصبح آلة صماء في ماكنة الدولة الاوتوقراطية المستبدة »

وكذلك اخفقت الحركة التي كانت ترمي الى تحقيق الدمقراطية السياسية والتي ابتدأت حوالي سنة ١٩٠٥ فكان مثل الشعب الروسي كمثل الذي طلب الخبز فأعطي حجراً . وأيقظ هذا الاخفاق السياسي احرار الروس واضطرهم الى الاتفاق مع الاشتراكيين الدمقراطيين في اعتقادهم ان ليس في الامكان توطيد النظام البرلماني في روسيا بالوسائل الدستورية

***

وعند نشوب الحرب الكبرى كانت معظم الطبقات في روسيا باستثناء الامراء وبعض الملاك ومعظم اصحاب الصناعة الكبرى — ترى رأي الاحرار الدستوريين والاشتراكيين الدمقراطيين . ومع ان نشوب الحرب ودخول روسيا فيها وحد البلاد توحيداً ظاهراً زمناً قصيراً — كما يظهر ان الحرب تعمل على ذلك وقتيًّا — الاّ ان الحالة لم تدم طويلاً اذ بالرغم من انحياز الدوما الرابع الى جانب الحكومة القيصرية وتعضيده لها في دخول الحرب لكنه عندما اقترح القيام ببعض الاصلاحات الضرورية والتي من شأنها ان تساعد على فوز القيصر في الحرب بعد اندحارات سنة ١٩١٤و١٩١٥ لم يلاقِ من القيصر وحاشيته الاّ الرفض وعدم الاستحسان لاقتراحاته ونصائحه . وزاد في استياء جميع طبقات الشعب وحنقها الشديد على الوضع ما كان يسود من فساد وارتباك في جميع دوائر الحكومة المدنية منها والعسكرية على السواء — فقد كانت الرشوة والتبذير في الاموال والاهمال في الواجبات ظاهرة في جميع مناحي الادارة المدنية والعسكرية بينما كانت تعوز الجيش القيادة المنظمة القادرة كما كانت تنقصه الاسلحة والمعدات الضرورية والمؤونة والالبسة وليس هذا فقط بل ان جميع الوسائل التي حاولتها الحكومة لتزويد السكان المدنيين بالاكل اخفقت فراح الشعب يهلك جوعاً بينما كانت آلاف القناطير من المواد الغذائية تهرب الى المانيا والنمسا من قبل التجار الروس انفسهم والمنتفعين من مضاربات الحروب ليبيعوها لدوائر التموين في الجيش الالماني والنمساوي بأرباح كبيرة جدًّا . فاتضح اخيراً ان الحكومة الاوتوقراطية غير قادرة ان تنهض باعباء الحرب العظمى وغير كفوءة لها

وفي هذا الموقف الحرج الذي كان يتطلب اقصى ما يمكن من الحكمة والحذر والتوفيق بين العناصر السياسية ارتكب القيصر غلطة كانت القاضية على مقامه اذ انتخب وزارة من اكثر العناصر رجعية ولم يكن لديها طريقة لمعالجة المجاعة والاستياء العامين الاّ باستعمال الشدة مع شعب هائج يموت جوعاً . ومع ما كان عليه مجلس الدوما من المحافظة والانحياز الى جانب الحكومة القيصرية والميل

الى التعاون معها الاّ انه بعد ما جابه الواقع خرج عليها لشدة تأثره من المجاعات والفوضى التي كانت تداهم الشعب باشتداد يوماً بعد يوم . وهكذا اصبحت منصة الخطابة فيه المحل الوحيد في جميع روسيا حيث يتيسر للحرّ التعبير عن آرائه وموقفه بحرية لذلك أخذ اعضاء الدوما يهاجمون الوزراء مهاجمات شديدة جداً ناسبين الخيانات الى الرجال الذين كانوا يديرون الحركات الدبلوماسية والعسكرية معاً . وزاد في هياج المجلس رواج اخبار مؤداها ان الحكومة كانت تفاوض العدو سرّاً ولما بحثت هذه الاخبار في الدوما وانتقد اعضاؤه الحكومة انتقاداً شديداً تشجع زعماء الاشتراكيين واشتدت قوتهم بين العمال في المدن ونظموا الاضرابات العامة في بتروغراد العاصمة وموسكو والمدن الصناعية الاخرى وفي وسط هذا الهياج والاضطراب والخيبة اصدرت الحكومة القيصرية اوامرها بحل المجلس وطلبت من العمال انهاء الاضرابات لكن الدوما رفض التفرق ولم يعر العمال اوامر الحكومة التفاتاً وهكذا اندلعت نيران الثورة كلهيب احمر يتقد في السماء

***

بدأت الثورة الروسية الاولى في بتروغراد في مارس سنة ١٩١٧ قبيل دخول الولايات المتحدة الحرب بجانب الحلفاء وبدأت كما تبدأ سائر الثورات عادة . اذ خرج العمال المضربون والسكان الجائعون في شوارع العاصمة يهاجمون الحكومة ويطلبون الخبز والطعام . وكان القيصر غائباً عن العاصمة عندئذٍ لكن وزراءه حاولوا صرف الجموع او تفريقها باخراج جنود الحامية في بتروغراد لكن الجنود رفضوا اطاعة الاوامر الصادرة اليهم بمقاتلة اخوانهم بل التحقوا بالجموع الثائرة المالئة جميع الشوارع . وحمل الشعب الروسي — كما حمل قبله الشعب الفرنسي في ثورته الكبرى سنة ١٧٨٩ على سجن الباستيل — على الباستيل الروسي وهو القلعة المعروفة باسم قلعة القديسين بطرس وبولس واطلقوا سراح المسجونين . وبينما كانت الجموع تقوم باعمال الثورة في المدن والارياف تشكلت لجنة من اعضاء مجلس الدوما نصبت نفسها بنفسها وقبضت على اعنة الموقف وعينت وزارة جديدة واقامت حكومة موقتة ووعدت بوضع دستور جديد وترأس الحكومة الموقتة (مليوكوف) زعيم الاحرار ثم اعقبهُ (كرنسكي) زعيم الاشتراكيين الدمقراطيين . اما القيصر فقد اضطر ازاء هذا الموقف ان يعلن تنازلة عن العرش وأُخذ سجيناً مع عائلتهِ

وفي اليوم الذي تشكلت فيهِ الحكومة الموقتة نظم مجلس عمال (سوفيت — Soviet) بتروغراد من مندوبي العمال والجنود . ولما كان لكل من الحكومة الموقتة وسوفيت العمال وجهات نظر مختلفة اخذ كل منهما يصدر اوامر يناقض بها الآخر . لكن السوفيت تمكن اخيراً من ارغام الحكومة الموقتة على قبول سلسلة من الاوامر والانظمة التي حل بموجبها انظمة الجيش القديمة وبذلك تمكن من اضعاف قوة الجيش المعنوية وكانت قبل قد اضعفها الارتباك السائد في ادارتهِ . ولكي يتحاشى

السوفيت والحكومة الموقتة السير في وجهات متضاربة شكلا تحالفاً في شهر مايو لكن حتى جهودها المشتركة لم تمكنهما من وضع حد للارتباك الذي كان يسود البلاد سواءٌ في الجيش او في الحالة الاقتصادية الحرجة

ولما زاد الموقف حرجاً وسوءًا في ربيع سنة ١٩١٧ لم يقوَ الاحرار ولا الاشتراكيون الدمقراطيون (المنشفيك) على معالجة الحال في ظل الحكومة الموقتة والتحالف الذي اعقبها فزاد بذلك نفوذ (الحزب البلشفي Bolshevik Party)—وهو الفرع المتطرف من الحزب الاشتراكي الدمقراطي— في ادارة شؤون الحكومة واخذوا على عاتقهم معالجة الموقف بأن اكدوا بوجوب تحقيق الثورة الاقتصادية والسياسية معاً . وساعدهم على تحقيق مبدئهم ان العمال اخذوا يستولون على المعامل والفلاحون يطردون الملاكين من اراضيهم ويحتلونها . ومع ان البلاشفة لم يكونوا اكثرية الشعب الروسي الاَّ انهم كانوا حزباً منظماً لهم منهاج معين واضح سهل على الجنود والعمال والفلاحين فهمه واتباعه اذ كانوا يرمون الى عقد السلم حالاً ونبذ المطامع الاستعمارية القيصرية واعلان (دكتاتورية العمال Dictatorship of The Proletariat) ليبدأوا بانشاء (المجتمع الخالي من الطبقات Classless Society الذي تصبو اليه (الشيوعية ــ Communism) وزد على ذلك ان الحزب البلشفي كان يمتاز عن الاحزاب الاخرى بزعمائه المخلصين الاكفاء أمثال (نيقولاي لينين ــ Nikolai Lenin) و (ليون تروتسكي ــ Léon Trotsky) و (جوزيف ستالين ــ Joseph Stalin) وقد كان الاثنان الاولان في المنفى خارج روسيا عند ابتداء الثورة لكنهما لم يتأخرا عن الاسراع في الرجوع اليها وقيادة اتباعهما قيادة عملية ناجحة

ان في ناحية القيادة في هذه الثورة ما يماثل القيادة في الثورة الافرنسية سنة ١٧٨٩ اذ كما انتقلت السلطة من ميرابو الى دانتون ومن دانتون الى روبسبير كذلك في الثورة الروسية سنة ١٩١٧ انتقلت السلطة من مليكوف الى كرنسكي ومنهُ الى لينين . وهكذا زادت كل من الثورتين تطرفاً بانتقال القيادة فيها من زعيم الى آخر . ولم يتأخر زعماء البلاشفة عن تمكين سلطتهم في سوفيت بتروغراد وموسكو والمدن الاخرى . وباعتمادهم على الجيش تمكنوا ان يسقطوا الحكومة الموقتة في نوفمبر سنة ١٩١٧ فحققوا نجاح دكتاتورية العمال

وبعد اتمام الثورة الروسية الثانية المعروفة بالثورة البلشفية عين مؤتمر السوفيت (Congress of Soviets) مجلس قوميسارية الشعب (Council of Peoples Commissars) برآسة لنين واسندت شؤون الجيش الى قوميسار الحربية تروتسكي . وحال تسلم الحكومة البلشفية زمام الحكم اقترحت وجوب عقد الصلح بين الدول المتحاربة وعند ما رفضت الدول قبول اقتراحها هجرت جانب الحلفاء وبدأت تفاوض المانيا على حدة فعقدت معها معاهدة (برست لتفسك Brest-Litovsk) ومع ان المعاهدة كانت مجحفة بحق روسيا القيصرية الاَّ ان البلاشفة قبلوها لانهم لم يكونوا يرغبون في تحقيق غايات الحكومة القيصرية الاستعمارية اذ لا تتفق مباديهم الشيوعية مع الحرب والاستعمار

وكذلك ارادوا ان يتخلصوا من مشاكل اوربا الرأسمالية ليوجهوا جهودهم الى إكمال الانقلاب الذي بدأوه في حياة البلاد الاقتصادية والسياسية ليؤسسوا النظام الاشتراكي . وفي خلال ذلك اخذوا يصدرون سلسلة من المراسيم والانظمة يلغون بمقتضاها التملك الفردي لوسائل الانتاج والتوزيع معلنين مصادرة جميع السكك الحديدية والبنوك والمعامل والمناجم والاراضي من ايدي الافراد من الطبقة الاقطاعية والبورجوازية لاستخدامها وتثميرها للنفع العام من قبل حكومة العمال والفلاحين والجنود . اما القيصر فلم تمض عليه مدة طويلة في السجن حتى قتل مع عائلته واعملت الحكومة القتل والسجن والنفي في كثير من اعضاء الاسرة المالكة والامراء والملاك وموظفي الحكومة القيصرية السابقين ومحرري الصحف الرأسمالية وكل من كان له علاقة عملية بالحكومة القيصرية . ولم تتأخر الحكومة الجديدة عن تعيين مندوبين سوفيانيين في ادارة الصناعة في جميع انحاء البلاد وحلوا الكنيسة الارثوذكسية التي كانت الكنيسة الرسمية للامبراطورية القيصرية . وهكذا لم تمض بضعة أشهر حتى وضعت البلاد على اساس شيوعي من ناحية التشريع والانظمة والادارة معاً

***

لكن هذا الانقلاب لم يرق حلفاء روسيا السابقين الذين كانت لهم كثير من المعدات الحربية والمؤن في موانىء روسيا وكذلك كانوا يرون في نجاح البلاشفة في روسيا قضاء على موقفهم الحربي وخطراً يهددهم بفقدان طبقاتهم الحاكمة الثروة التي تعتمد عليها للسيطرة على جماهير العمال في اوربا والبلاد المستعمرَة ومعنى هذا القضاء على المبدإ الفردي الذي تعيش في ظله الطبقات الرأسمالية الاستعمارية . لذلك اسرع الحلفاء بارسال فرق من جيوشهم بحجة المحافظة على اموالهم وبذلك سهل على كثيرين من المعارضين للبلاشفة التجمُّع في الموانى والالتجاء الى فرق الحلفاء حتى اخذوا ينظمون حملات لاحباط الثورة . وزيادة على ذلك تضافر الحلفاء بعد خروجهم من الحرب لمهاجمة بلاد الاتحاد السوفياتي من جميع الجهات فجردوا حملة بولندية واخرى تشيكوسلوفاكية من الغرب واحتلت جيوش بريطانيا مناطق النفط في ققفاسية وتقدمت قوات المهاجرين من الروس البيض في الشرق الاقصى تساعدهم اليابان والصين وبريطانيا وتابعت هذه الحملات تقدمها نحو موسكو خلال سني ١٩٢٠ ــ ١٩٢١ حتى أصبحت على مقربة منها لكن البلاشفة عرفوا كيف يستعيذوا من هذا التدخل ، وقد كان الحلفاء يرمون بهِ الى اقتسام امبراطورية آل رومانوف . فاستنفر رجال الحكومة الجديدة الشعب الروسي المتحرر فاتحد لمقاومة الدسائس والحملات الاجنبية التي كان يرى انها ترمي الى اعادة حكومة القيصر الطاغية . وقد تمكن البلاشفة من ردّ الحلفاء وراء الحدود بفضل الجيش الاحمر والخطط الحربية والسياسية التي تبعوها وهكذا قضي على حركة ضد الثورة وعلى التدخل الأجنبي بسرعة ونجاح وخرج البلاشفة أقوى مقاماً وأعم سلطة مما كانوا قبلاً

[التتمة في العدد القادم]

مقام البترول

في سياسات الامم الحربية والصناعية

لما اشتدت الحرب الكبرى ، وضيق الخناق على فرنسا ، في ايامها الاخيرة وقبيل انفراجها النهائيّ كاد البترول ينفد من مستودعات فرنسا ، فاضطرب كلمنصو وقلق ، فأرسل برقية فيها توسل شديد ودعاء حار طالباً من الرئيس ولسن ان يمد فرنسا بالبترول . ولخصت الصحف هـذا التلغراف حينئذٍ بقولها ان كلمنصو قال لولسن : « كل قطرة بترول تعدل قطرة دم »

وللبترول ، في هذا العصر ، مقام خاص في حياة الدول السلمية والحربية ، ولذلك تسعى الشركات الكبيرة والحكومات الى السيطرة على منابعه ، وحول هذا السعي نسجت طائفة من الدسائس الدولية تبعث على الدهشة في دقتها وإحكامها . وفي سبيل هـذه السيطرة تثار الثورات والحروب الاهلية أحياناً ، لكي يمنع فريق من اصحاب المصلحة فريقاً آخر منافساً له ، من الفوز بالمنابع دونه. فقد قرأنا عن الثورات المتعاقبة التي حدثت في المكسيك من مطلع هذا القرن الى الآن ، ما حملنا على عزو هـذه الثورات الى فوران الدم المكسيكي وحرارته واندفاعه ، طبيعة ورثها عن أسلافه ، وتعززها احوال البلاد المناخية وتاريخها الحديث . ثم اطلعنا على كتاب لكاتب يحمل تبعة ما ينشره باسمهِ ، ان شركات البترول ، في اوربا واميركا ،كانت تتنافس على الفوز بمنابع البترول الغنية في المكسيك فاذا كان صاحب السلطة يميل الى فريق منهما ، بذل الفريق الآخر المال لاثارة الخواطر ، ومنّى زعيماً آخر بالتأييد والمال ، اذا هو تقلد الحكم ومنحهم ما يطلبون من الامتياز ؛ وليس في هذا التعليل ما هو غير معقول . فما هو السر في ذلك ؟

الحضارة الحديثة قائمة على الصناعة الآلية ولا بد للصناعة الآلية من الوقود . وفي هاتين العبارتين يتلخص سر مقام البترول في شؤون الدول . ذلك ان البترول يفوق كل اصناف الوقود المستعملة في الصناعة حتى الآن

فاستنباطه سهل كل السهولة ونقله أسهل فليس على الشركة التي تملك منابع بترولية الاّ ان تمدّ الانابيب من منطقة المنابع الى معامل التقطير او الى اقرب المرافىء فينقل في سفن خاصة صنعت لنقله . كذلك تقل نفقات العمال الذين يتولون استنباطه وتصفيته ونقله الى أدنى حد ممكن . ثم ان الحرارة التي يولدها قدر معين منهُ ضعف الحرارة التي يولدها مثل ذلك المقدار من أفخر انواع الفحم . وهذه الامور تضمن لهُ سعراً نسبيًّا أرخص من سعر الفحم ، وتجعل صناعته بمعزل عن القلاقل الصناعية التي تستولي على المعدنين وغيرهم من طوائف العمال

لذلك ترى استعمال هـذا السائل الثمين، هذا « الذهب الاسود » كما دُعي ، يتسع نطاقه رويداً رويداً في السفن الحربية والتجارية وسكك الحديد والصناعات على اختلافها ، فضلاً عن السيارات

والطيارات وما اليها . ففي الولايات المتحدة التي بلغت أرقى مستوى من التقدم الصناعي يستعمل البترول في معظم مصانعها . وشركات السكك الحديدية في أميركا وروسيا تستعمله في قاطراتها مؤثرة اياه على الفحم . على أن فوائده تتجلى في السفن الحربية والتجارية . واليك المثل :—

لنفرض اننا نريد الموازنة بين سفينتين متماثلتين ، احداهما بخارية يسيرها الفحم والاخرى يسيرها البترول . وان قوة كل منهما ٢١ الف حصان فالآلة البخارية التي تولد ٢١ الف حصان يجب أن يكون وزنها نحو ٣٤٠٠ طن ، وأما الآلة البترولية التي تولد القوة بنفسها فوزنها الف طن فقط . كذلك تستهلك الاولى نحو ٣٦٠ طناً من الفحم كل يوم . أما الثانية فتستهلك مائة طن من البترول لتوليد القوة نفسها . فاذا استعدت السفينتان لرحلة طولها خمسة عشر يوماً ، وجب على الاولى ان تتمون ٥٤٠٠ طن من الفحم تملأ ٧٠٠٠ متر مكعب ، أما الثانية فتكتفي بألف وخمسمائة طن من البترول تملأ نحو ١٧٠٠ متر مكعب

فينجم عن ذلك ، ان الباخرة (أي السفينة البخارية) لا تستطيع بما تتمونه من الوقود أن تسير اكثر من خمسة عشر يوماً ، من دون ان تدخل الى مرفإٍ خاص لتتمون فحماً . مع انها لو استعملت مخازن الفحم فيها ، لخزن البترول ، وحولت آلتها البخارية الى آلة بترولية لتمكنت من المسير ٢٧ يوماً من دون ان تضطر الى دخول مرفإٍ ما لهذا الغرض

أما السفن الحربية فتفوُّق البترول على الفحم فيها أجلى منهُ في السفن التجارية

ان مداخن السفن الحربية المسيرة بقوة الفحم . والدخان المنطلق منها ، تنمُّ على السفن نفسها من بعد عشرة كيلو مترات ، لكن السفن التي تسير بالبترول لا ينطلق منها دخان ولا هباب ، ولا حاجة بها الى المداخن ، فلا تبدو السفينة الحربية منها ، في منظار قائد العدو ، الاّ خطّاً رمادياً على الأفق

ثم ان الاسطول المسيَّر بالبترول ليس مضطرّاً ، الى دخول المرافىء لتموُّن الوقود ، اضطرار الاسطول المسير بالفحم . وهو لذلك أخف وزناً وأعظم سرعة ، فاذا قل ما يجب أن يحمله من الوقود ، للسبب الذي قدمناه ، تمكن صانعوه من استعمال فرق الوزن في زيادة كثافة دروعه وضخامة مدافعه

ومما يمتاز بهِ الاسطول الحربي المسيَّر بالبترول سرعة حركته ، فاشعال النار في الفحم وتوليد الضغط الكافي في المراجل حتى يكثف البخار ويدفع الاسطوانات ، يستغرق ساعات ، أما اذا استعمل البترول ، فلا يمضي نصف ساعة على تلقي الامر بالرحيل ، حتى تكون السفينة مستعدة للقيام ثم لا تمضي ٣٥ دقيقة أخرى حتى تكون قد بلغت سرعتها العادية وبعد ست دقائق أخرى تبلغ أقصى سرعتها المستطاعة ، يضاف الى ذلك ان الاضطرار الى مواصلة السير ، لا ينهك الرجال الذين في يدهم ادارة الآلات ، وهم يعدون على أصابع اليد او اليدين ، ثم ان تموينها بالبترول سهل وسريع ، لا

يقتضي عملاً كثيرين وقذراً كالغبار الاسود المتطاير من الفحم لدى تعبئته . ان تموين سفينة الاولمبك بالفحم تستغرق خمسة ايام ويقتضي عمل ٥٠٠ رجل اما تموينها بالبترول فلا يستغرق اكثر من ١٢ ساعة ولا يقتضي اكثر من عمل ١٢ رجلاً . وعلاوة على ذلك ان تموين السفينة بالبترول يمكن ان يتمّ وهي في عرض البحر بواسطة نقالات البترول ، وكل منها لا تخرج عن كونها حوضاً كبيراً عائماً ، فتمد الانابيب وفي بضع ساعات ينقضي الامر ، وهذا متعذر اذا أريد تموينها فحماً

هذه الاعتبارات الخطيرة حملت انجلترا وأميركا سنة ١٩١٢ على استعمال البترول في معظم سفن اسطوليهما وحمل المانيا على استعماله في ٢٩ طراداً من طراداتها وروسيا في جميع سفنها الحربية في بحر بلطيق

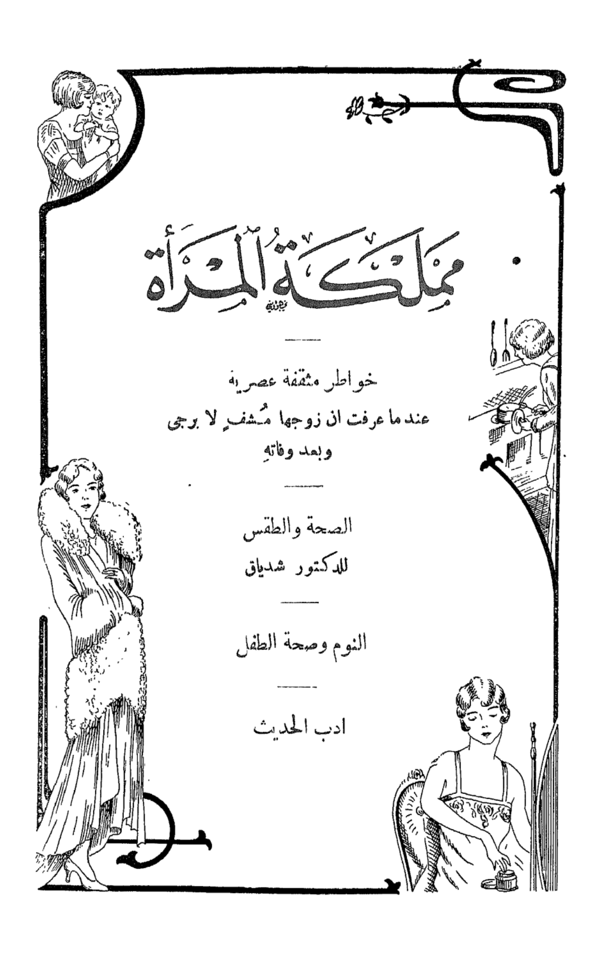
اما فرنسا فكانت متأخرة عن مزاحماتها ، عند نشوب الحرب الكبرى ، فكانت لا تملك في اسطولها الحربي سفينة واحدة من السفن الكبيرة ، تسير بالبترول ، ولكنها اصلحت هذا الخطأ بعد الحرب فقد جاء في قول المسيو فلاندان سنة ١٩٢٨ « في المستقبل القريب يعفو اثر الفحم كوسيلة من وسائل الوقود في سفننا الحربية ، وجميع سفننا الجديدة سوف تسير بالبترول »

ويصح القول الآن بأن كل الاساطيل الحربية التي لها شأن دولي ما ، قد عمدت الى استعمال البترول في وحداتها الجديدة ، وقد لا تمضي بضع سنوات حتى نودع السفن البخارية الاخيرة بنفس البسمة الساخرة ، التي ودع بها اسلافنا الاولون من قبلنا السفن الحربية الشراعية التي حاربت في طرف الغار ونافارين

ومن المؤكد انه لو لم تكن انجلترا وأميركا من حلفاء فرنسا في الحرب العالمية ، لكان اهمال فرنسا لسياستها البترولية قبل الحرب سبباً في خذلانها وهزيمتها

لذلك صرح مدير احدى شركات البترول البريطانية « ان الامة التي تسيطر على البترول تتقلد زمام التجارة العالمية فلا الجيوش ولا الاساطيل ولا الاموال ولا كثرة السكان نفسها ، تغني عن البترول في هذا العصر فتيلاً . وصرح المسيو هنري برنجه المفوض السامي « للبترول » في وزارة كلمنصو — قال سنة ١٩١٩ — (من يحز البترول يحز الملك — ملك البحر بالبترول الكثيف (الوسخ) وملك الجو بالبترول المصفى (اي اعلى اصناف البنزين للطيارات) وملك اليابسة بالبنزين والغازولين (للسيارات والدبابات والنقالات والمصانع وغيرها) وملك العالم بالقوة المالية المرتبطة بمادة هي اثمن وأقوى واتم سيطرة على الارض من الذهب نفسه »

ثم قال : -- ان الامة التي تصبح سيدة لتموين البترول ، تشهد تيارات الملايين من اموال الناس متدفقة نحوها ، لتنفق فيها ثمناً له ، فسفن الامم الاخرى لاتستطيع ان تسافر الاّ اذا دخلت مرافئها وتموّنت من احواضها . فاذا بنت اسطولاً تجاريًّا فليس ما يحول دون سيطرتها الكاملة على تجارة العالم البحرية . ثم لا تلبث الصناعات ان تنشأ وتترعرع حول مرافئها ، وتصبح في ايدي مديريها السيطرة التامة على الاعتمادات المالية الدولية ، فتسيطر على الصناعة والتجارة والسياسة نفسها



مملكة المرأة

خواطر مثقفة عصرية

عند ما عرفت ان زوجها مُشفٍ لا يرجى

وبعد وفاتهِ

الصحة والطقس

للدكتور شدياق

النوم وصحة الطفل

ادب الحديث

خواطر مثقفة عصرية

عندما عرفت ان زوجها مُشـفٍ لا يرجى
وبعد وفاته

قال الطبيب : اظنك تستطعين ان تتحملي صدمة النبإ . ليس ثمة امل في ان يفوز زوجك بالشفاء والراجح انهُ سيموت فجأة — وقد يكون ذلك غداً او في الاسبوع القادم او في الشهر القادم او حتى في السنة القادمة . وليس في وسعك الاّ ان تعتني بهِ وتعطفي عليهِ ولكن يجب ان تكوني مستعدة لصدمة ذلك اليوم

ولذلك مضى عليَّ شهر وانا احاول ان الاءم نفسي للحال الجديدة ، مهتمة كلّ الاهتمام باخفاء حقيقة حاله عنهُ . ومع انني لا اوافق على اخفاء حالة المريض عنهُ بوجهٍ عام ، ارى انهُ يتعذّر على اي انسان ان يقول لاحبّ انسانٍ اليهِ «ليس في وسعك ان تشفى» . او «انك مائت لا محالة» . وقد اعددتُ نفسي لذلك اليوم من الناحية العقلية. فاستطيع ان ادبّر امري واتوقع حكم القدر . وانا الآن اعلم بالضبط ماذا افعل عندما تأزف الساعة . ولكن من ناحية الشعور احسُّ بانني لا ادري ما يكون شعوري حقيقة عندها . فانني عاجزة عن ان اتصوَّر كيف تكون الحياة من دون الرجل الذي شاطرني كلَّ جزءٍ وكلّ ناحية من حياتي مدى عشرين سنة . ولذلك اراني عاجزة عن تصور شعوري حينئذٍ ومما يزيد الامر وقعاً في نفسي ان زواجنا كان زواجاً نادراً لانهُ كان اشتراكاً تعاونيًا من جميع الوجوه . فقد مضت سنوات لم يفترق فيها احدنا عن الآخر اكثر من بضع ساعات . ولم يخف في خلالها احدنا عن الآخر سرًّا ما . فتى مات زوجي افقدهُ حبيباً وصديقاً وزميلاً . ليس لنا اولاد وقد تخطينا الشباب ودرجنا الى الكهولة ، ومحبة كلٍّ منا كانت مركّزة في صاحبهِ . واكاد لا اصدق انهُ في يوم من الايام سوف اشرع اعيش وحدي — أعمل ، وألهو ، وآكل ، وأنام وحدي ! كيف استطيع ان اتمتع بمطالعة كتاب، او بمشاهدة شريط سينميّ ، او بسماع برنامج لاسلكيّ اذا كنت لا استطيع ان ابدي رأيي فيها لهُ . كيف استطيع ان اقضي سهرة عند جماعة من الاصدقاء من دون فترة تعقبها في البيت حيث نتحدث عما رأينا وسمعنا ؟ كيف استطيع ان اغتبط بما أُحرزه في عملي من الظفر ، او كيف استطيع ان اتحمل ما يعروني من القنوط احياناً ؟ كيف استطيع ان اعنى بنفسي ، محاولة الاحتفاظ بغضاضة شبابي وحسن هندامي ؟

سوف لا امتنع عن اي شي من هذا . وانني لاحتقر الارامل اللواتي يلِنّ للحياة عند ما تحلُّ بهنّ مصيبة ، فيجعلنَ حياة اصدقائهنّ وصديقاتهنَّ مترعة بالبؤس لشدة ما يتنهدنَ في المجتمعات او لشدة ما يمتنعنَ عنها

اما انا فلن ابكي وأولول متكئة على اكتاف الآخرين ، ولن اتحدث حديثاً لا ينقطع عما اصبته من السعادة مع « هيو » ولن اكون باعثاً من بواعث الكدر والانزعاج في اجتماعات اصحابي

ولست اطلب الاّ ان أُتركَ وشأني ، في مكافحتي للتغلب على كل هذا . ولكنني لست ادري كيف استطيع ان أحمل هذه الوحدة . انه لا سهل عليّ ، ان افقد ذراعي ، او عيني ، على ان أُنزعَ هذا النزع العنيف الاليم من رجل اصبح جزءاً من حياتي وشخصي لا يتجزأ عنهما

ومع ذلك فالحياة ماضية في طريقها المرسوم . و « هيو » يظن انهُ ناقه ، او انني ارجو انهُ يتصور ذلك . فهو عاجز عن ادراك الحقيقة ، والاّ لما وجب عليّ ان اتبعه طوال النهار محذرة من التعب محرضة على الراحة . ومع ذلك يجب ان لا اشغل بالهُ كثيراً بعنايتي لان شغل البال أضر به لشدة ضعفه من رفع حمل ثقيل . ثم يجب ان ادبر عنايتي به ، بحيث لا توقظ في نفسهِ اي شك في حقيقة حاله . وانهُ ليسرني انني استطيع ان افعل كل هذا

ولكن في ضمن هذا النطاق الحافل من الحياة اليومية ، اجدني ، اجد نفسي الحقيقية ، محيرة، مرتاعة، محاولة ان تدرع درع الشجاعة، آناً سائرة في دردور، وآناً محلقة في فراغ، عالمة ان في اية دقيقة، قد ينفصل النطاق الخارجي، فتبرز هذه النفس من عالمها الخاص الى عالم الحقيقة الواقعة. انني اكتب هذه الكلمات الآن، وقد ارفع بعد هنيهة نظري الى زوجي وهو يصغي الى اذاعة الراديو ، فأسأله ولا يجيب

وبعد ذلك

كنت احسب انني اعددت نفسي لفقده . والآن أراني على خطإٍ . لم أسقط اعياءً عند ما دنت الساعة الاخيرة ، مع انهُ سبقها يومان عانى فيهما آلاماً جسدية وعقلية أيَّ معاناة . فنظرت في كل الشؤون الخاصة التي تبعث في النفس ذلك الالم العميق الذي لا قرار لهُ . لم أذرف دمعة واحدة في اليوم الاول لشدة غمي وهول مصابي ، وقد انقضى عليّ شهران الآن وأنا ماضية في عملي المألوف محاولة ان املأ كل دقيقة من ساعات اليقظة بعمل يصرفني عن التأمل في حالي ويمنعني عن الشعور بالوحدة الاليمة. وقد بدا لجميع معارفي انني قابلت مصابي ، بهدوءٍ عجيب ، فلما كان أحد زملائي في العمل يحدثني أمس في موضوع لهُ صلة بزوجي طلبت منهُ فجأة ان يغير الموضوع فقال دهشاً « لقد واجهت مصابك بشجاعة وصبرٍ فلم يدر في خلد أحدنا أنك متأثرة بهِ الى هذا الحد »

لم استطع حتى الآن ان أنشط الى زيارات بيوت اصدقائي ، ولكنني لا أمتنع عن قبول زيارات اصدقائي والتحدث معهم في هدوء في كل موضوع حتى في كل ما يتصل بزوجي . وقد ذهبت من أسابيع الى بلدة اخرى لانقل رماد زوجي في قارورة ، وانني لن أنسى كيف جاهدت لأملك نفسي عن الاعوال أمام الناس في القطار وأنا ضامة تلك القارورة الى صدري الذي لن يستند اليهِ رجل آخر بعد الآن . فلما وصلت الى داري اوصدت الباب وتهالكت على مقعدٍ . ولكن لم تمض ساعة عليّ حتى كنت جالسة أمام مكتابي أقوم بعملي اليومي . الاّ ان الشخص الذي يفعل هذه الاشياء ليس أنا ، لان « أنا » التي كانت تهتمُّ بالحياة تحوَّلت رماداً في محرق الجثث

وقد تعلمت شيئاً جديداً من رسائل التعزية . انها تُسيل جراحاً تكاد تلتئم . فأفضل ما يفعلهُ أصدقاؤك وأنت تسير في وادي ظلّ الموت ، أن يتركوك تجتازه . وكثيراً ما قيل لي ، ان الزمان يدمل الجرح ، ويخفف من وقع الضربة ، كأن الانسان يجد شيئاً من التعزية اذا علم انهُ سوف يخوض جحيماً مدى سنة أو سنتين او خمس سنوات فقط . لقد ذكرني من أراد تعزيتي ، بكرم «هيو» ولطفهِ ودماثتهِ وهذه كلها أمور أعرفها معرفة أتمّ واعمق من معرفتهم هم . وقد اكدوا لي انهُ خيرله ان يموت من أن يعيش مريضاً مزمناً مع انني علمتُ من شفتيهِ انهُ كان يفضل ان يبقى حيًّا على اية حال . وقد قيل لي كذلك انهُ اخذ نصيبهُ من الحياة ، وانهُ بلغ من العمر سنًّا وافية ، حالة انني انظر من النافذة فارى رجلاً يصحّ ان يكون والد « هيو » وهو عائد من رياضتهِ اليومية في الخلاء ، ويزاول الذهاب الى مكتبهِ ستة ايام في الاسبوع . ولكن « هيو» الذي كان واسع العلم ألمعيّ الذهن ، قد مضى ولن يعود

وانا الآن مشغولة بتفكيك بيت قضينا عشرين سنة في انشائهِ لان دخلي لا يسمح لي باستبقائهِ . ثم انهُ اكبر مما احتاج اليهِ . ولست احتمل احداً آخر يشاطرني بيتي بعدهُ رجلا كان او امرأة . ولذلك اراني مضطرة ان اتخلّى عن جميع القطع التي كان لها مكانة خاصة في نفوسنا ، فجعلت لنا من الشقة بيتاً

عرفت رجلاً احتفظ بكل شيءٍ في داره ، بعد وفاة زوجتهِ ، على ما كان عليهِ في حياتها . علبة «البودرة» وقلم «الاحمر» على مائدتها زينتها ، وفساتينها معلقة في خزانتها ، وامر الخدم بان يعدّوا لها مكانها على مائدة الطعام كلّ صبحٍ وظهر ومساءٍ ولكنني اظنّ هذا نوعاً من الشعور المريض

وانني لاشكر الله انني قويتُ حتى الآن على مواجهة الحالة الجديدة بكل مقتضياتها العسيرة . ولكن الزمن لم يخفف من وقع الصدمة كما قالوا . بل انا لا اصدق ان الزمن يدمل الجروح . فقد كان جدّي في الثالثة والثمانين عند ما حضرتهُ الوفاة ، وكان آخر لفظ فاه بهِ ، اسم اول فتاة احبها قبل ان عرف جدتي

ولكنني اعدّد النعم القليلة شاكرة . واذا كان لي ان اسرّ ، فقد سرّني انهُ سبقني ، لانني لو سبقتهُ ، لتحيّر واضطرب وعجز عن مواجهة مقتضيات حالتهِ الجديدة . ثم أنهُ يسرني انهُ عاد الآن لا يتألم . ويسرني كذلك انني استطيع ان اتذكر الآن ، دلائل حبي لهُ ، وقيامي على عهده ، وعنايتي بهِ . بل لاغتبط انهُ كان محبوباً من جميع عارفيه وانهم عرفوا قدرهُ ومكانتهُ

***

ولكن ذلك لا يكفي . فحبنا كان يزداد ويقوى يوماً بعد يوم فلم يفقد جدته ، بذهاب رواء الشباب . وكنا لشدة صلتنا أحدنا بالآخر ، نحلم في بعض الليالي الاحلام نفسها ، او يجيب احدنا عن الاسئلة التي تجول في خاطر الآخر . فقد كان أحدنا قلب كيان الآخر ، والباعث لهُ على حب الحياة ، ومواسيهُ في الخيبة . كان الفردوس فردوسي ، ولكنه ضاع ، ولن يستعاد !

الصحة والطقس

للدكتور فيليب شدياق

[نشر الدكتور فيليب شدياق سلسلة من المقالات الصحية في التدرن وعلاجه في جريدة الاجبشن ميل فرأينا ان نلخص احداها لما احتوت من الفوائد الصحية العامة]

« آخر دوا تغيير هوا » من الامثال السائرة . وقد ينطوي هذا القول على شيء من التعريض بعجز وسائل الطبيب فيحاول عندئذٍ ان يتخلص من مريضه بارساله الى اقليم آخر لتبديل الهواء

ولكن اطلاق هذا المثل القديم اصبح لا يتفق بوجهٍ من الوجوه مع التقدم العلمي الحديث في التفريق بين أنواع مختلفة من الطقس والجوّ والاقليم وهذا يمكن الطبيبمن ان يصف للعليل نوع الطقس الخاص الذي يتفق وعلتهُ الخاصة . ولذلك تحسَب الاقامة في جوّ موافق جانباً مهما متمماً لوسائل العلاج العلمية

والاقليم من الوجهة الصحية هو تأثر الأحياء بماءِ منطقة ما وتربتها وهوائها . وهـذا التأثر يتوقف : (اولاً) على العوامل الجوية كالحرارة والنور والرطوبة والريح (ثانياً) على العوامل الارضية كالارتفاع عن سطح البحر والتربة والنبات

***

اذهب الى قلم الجوازات وراقب مئات الناس المنتظرين هناك بفارغ صبر الحصول على التأشيرات اللازمة على جوازاتهم ليتمكنوا من السفر الى بلاد يصيبون فيها جوًّا أبرد من جوّنا الحار . فالى أين يذهبون لقضاء فصل الصيف ؟ إما الى جبلٍ وإما الى ساحلٍ من السواحل حيث الشاطىء يتيح الرياضة والاستحمام بماء البحر ، ولكن كيف يفضلون هذا على ذاك أو ذاك على هذا ؟ لان صديقاً كان في الجبل فوصفهُ وصفاً يأخذ بمجامع النفس ، او لان صاحباً قضى صيفه السابق على الشـاطىء فتحدث بمحامده ولم يكلّ ، وكلاهما قال ان نفقات المعيشة معقولة

ولكن قلما تجد مصطافاً — الاّ في القليل النادر — يدرس المكان الذي يقصد اليهِ من ناحية ارتفاعه ، والرياح السائدة فيهِ ، ورطوبة هوائه ، حتى يتأكد أن كل ذلك يتفق ومطالبه الصحية بوجه عام . والغالب ان يذهب الناس الى اماكن الاصطياف ، خبط عشواء ، فيذهبون ويعودون وقلما يجنون فائدة تذكر من الذهاب والاقامة والاياب

اذا كانت حالة اعضائنا الرئيسية متعبة ، وكان عملنا يسمح لنا في تبديل الهواء فلماذا لا نذهب الى طبيب يفحصنا ويشير علينا ببقعة نستريح فيها وتكون مؤاتية للقلب والكلى والرئتين

فللحرارة شأن كبير في صحة الانسان ومرضهِ . واثرها الضار في الكبد واعضاء الهضم اشهر

من أن يذكر . وامراض الرئتين يؤاتيها الاقليم المعتدل . وفي معالجة سل الرئتين لا يكفي ان تكون الحرارة معتدلة ، ولكن الجو يجب ان يكون مستقراً ، أو غير متقلب تقلباً فجائياً يعرض المريض لما لا قبل لهُ بهِ . فالتقلب الفجائي بين الحر والبرد ، يؤثر في الجهاز العصبي الذي يضبط حرارة الجسم ويتطلب منهُ جهداً غير مألوف ، وهذا يضني الجسم ويجب ان نتجنبهُ على أية حال

بل قد نقول في ما يتعلق بسل الرئتين ان الهواء الرطب رطوبة يسيرة مفيد لانهُ يريح الاعصاب حالة ان الهواء الجاف ضار لانهُ يهيجها. وعلى الضد من ذلك ان الهواء الجاف يؤاتي المصابين بروماتزم المفاصل وامراض الكلى حالة ان الهواء الرطب يضرُّ بها

فالمريض المصاب بسل الرئتين يجب ان يذهب الى مكان على شواطىء البحر الابيض المتوسط حيث الجو معتدل والهواء على جانب من الرطوبة، ولكن هذا الهواء الرطب ينقلب ضاراً اذا كانت التربة لزجة لا تمتص المطر، او ان امتصاصها لهُ قليل جداً . وهنا اريد ان اوضح ما اعني . فكثرة المطر لا تضرُّ المسلول ، لان المطر بدلاً من ان يبرد الهواء يدفئه قليلاً ويحول دون تقلباتهِ المفاجئة ولكن اذا كانت التربة في منطقة ما ، لا تمتص المطر بسرعة وسهولة ، تصبح الارض وحليَّة شديدة الرطوبة ، او اذا كان الهواء متقلباً يحدث في تقلبه تغييراً مفاجئاً في الحرارة وصفاءِ الجو ، فتلك المنطقة لا تصلح للمسلول . ثم يجب على الطبيب ان يتبين مهابّ الرياح في منطقة ما قبل ان يصف تبديل الهواءِ فيها لاي مريض وخاصة المسلول. وخير الرياح ما يهبُّ من فوق البحار ، لانهُ يجيء معتدل الحرارة غير ملوث بالجراثيم . وشرُّها ما هب من بقع يغطيها الجمد او من الصحارى

***

واذا ذكرنا الارتفاع ، فعندي ان ارتفاع ١٢٠٠ متر هو الحدُّ الفاصل بين الارتفاع الذي يجهد المريض والارتفاع الذي يريحهُ

فالشواطىء البحرية تختلف عن الاماكن المعتدلة الارتفاع في ان ضغط الهواءِ فوقها كبير جداً وعدم تعرُّضها لانخفاض مفاجىء في الضغط وهو ما تحدثهُ الرياح الشديدة في الاقاليم المعتدلة الارتفاع . واذاً فالشواطىء البحرية من هذا القبيل توصف للمتعبين العاجزين — لاسباب في جهاز التنفس او في جهاز الدورة الدموية — عن الملاءَمة السريعة بين اجسامهم والضغط الجديد الذي يحدثهُ هبوب الريح . وهذه الملاءَمة السريعة مما تقتضيهِ الحياة في اماكن مرتفعة . فالمصابون بالسل او بالازما او بضعف القلب ، يحسُّون بشيءٍ من الفرج عندما يهبطون من الجبال الى السواحل

وللسن تأثير كبير في احداث هذه الملاءَمة او العجز عنها . فالشبان اقدر عليها على قنن الجبال من المتقدمين في السن . وقلما نجد مصاباً بالسلّ ، يستطيع بعد سن الخامسة والاربعين ، ان يعيش في جوٍّ بارد وفي مكان مرتفع من دون ان يصاب باعراض الالتهاب . بل ان المسلولين المزمنين الذين تصلبت جوانب من رئاتهم يعجزون بعد سنّ معيّنة عن المعيشة في مكان مرتفع

واذاً فالاماكن العالية ليست بالاماكن التي توصف للمصابين بتصلب الشرايين او ضعف الكلى او القلب او النزيف من الرئتين او للذين يتمرضون لفقد جانب كبير من وزنهِ بسرعة . نعم ان كريات الدم الحمر تتكاثر بسرعة في الاماكن المرتفعة ، ولكن البحث اثبت انها تتكاثر كذلك بعد اقامة قصيرة على شواطئ البحر . ففي خلال الاسابيع الثلاثة الاولى من الاقامة على شاطئ البحر تطرد زيادة هذه الكريات ، ثم تبدأ تقلُّ ، ولكنها تبقى مع ذلك اكثر مما كانت قبل قدوم صاحبها الى الشاطئ

قلما يختلف جوّ الشاطئ عن جوّ الجبل من حيث النتروجين والاكسجين وثاني اكسيد الكربون، ولكن الاوزون في هواءِ الجبال الحرجاءِ اكثر منهُ في هواءِ الشاطئ . الاَّ ان هواءَ الشاطئ يفوق هواءَ الجبل بما يحتوي عليهِ من الملح واليود . والاوزون يختلف عن الاكسجين في ان دقيقته تحتوي على ثلاث ذرات اكسجين ، وهي لذلك لها فعل مطهر ووجودها في الجوّ دليل وبرهان على نقائهِ . واستنشاق الاوزون يزيد مقدار الهيموغلوبين النسبي في كريات الدم الحمر . وهذا يعني تحسُّن الحالة الصحية بوجهٍ عام

اما اذا هبَّت الرياح فوق البحر فانها تحمل دقائق من الملح نستنشقها مع الهواءِ الذي نستنشقهُ اما الملح في هواءِ البحر فليس مقداره ثابتاً بل يتغيَّر بتغيُّر الاحوال . واما اليود فعنصر دائم في هواءِ البحر ومقداره فيهِ يفوق ١٢ ضعفاً مقدارهُ في الهواءِ الذي يهبُّ في داخل البلاد بعيداً من الشاطئ

نوم الاطفال

من قواعد علم النفس الجديد ان السنوات الخمس الاولى من حياة الطفل لها اكبر مقام في مستقبل صحتهِ العقلية والنفسية . وهي قاعدة تنطبق كذلك على الصحة الجسدية ، لان البيئة التي ينشأ فيها الانسان ، والغذاء الذي يتناوله ، والعادات الصحية التي يتعودها ، لها اكبر مقام في حياتهِ ، لانها تتأصل في تلك السنوات ويمتدُّ أثرها الى آخر الحياة

ومن الامور التي جزم فيها بعض العلماءِ والاطباءِ ان اهمال قواعد الصحة في سن الطفولة ، لا تعوضهُ اية عناية في المستقبل ، تعويضاً تامًّا . وعبء هذا العمل العظيم — عمل الاحتفاظ بقوى الاولاد الجسدية وتنشئة العادات الصحية الصالحة التي يمهد اليها في المستقبل في حفظ هذه القوى — يقع على كواهل الوالدين ولكنهُ يكفل نموّ الاطفال شباناً وشابات تفيض الصحة ويسيل الشباب السليم من معاطفهم ومعاطفهن

وليس الغرض من هذا المقال الاَّ ذكر بعض المسائل العلمية ومعالجتها من ناحية تطبيقها على صحة الاطفال . فلا بد للطفل من النوم الكافي لينمو صحيحاً ، جسداً وعقلاً . ومن الامور التي

لا يختلف فيها الباحثون ولكنها مع ذلك مما يبعث على اعظم الاسى ، ان الاطفال في الجماعات المتحضرة ، كثيراً ما ينشأون رجالاً ونساءً ضعاف الاجساد والعقول ، لعدم حصولهم في طفولتهم وما بعد طفولتهم على النوم الكافي الوافي . وانك لتستطيع ان تعرف الطفل المحتاج اشد الحاجة الى النوم من بعض عاداته . فهو في الغالب يغطّ في النوم صباحاً ، وينهض عند ايقاظه متثاقلاً ، ويسرع في تناول فطوره ، ويتأخر عن الوصول الى مدرسته في الميعاد ، وقلما يكون منتبهاً انتباهاً كافياً في فصول المدرسة ، فاذا طالت حاجته الى النوم ، يشحب لونه وتضطرب اعصابه ، وينشأ هزيلاً ويصبح شديد التعرض لكل داء من ادواء الطفولة وامراضها

ومن الواضح ان تدبير كل ما يلزم لتمتع الطفل بقدرٍ كافٍ من النوم يقع على عاتق الوالدين وهؤلاء يجب ان يعلموا ، عدد ساعات النوم الذي يوافق عمر الطفل . فالوليد قلما يفعل غير الاكل والنوم . ثم ان الاطفال بوجه عام يحتاجون الى ١٤ ساعة نوم كل يوم الى ان يبلغوا السنة السادسة من العمر . والى ١٢ ساعة نوم بين السادسة والثانية عشر ، والى عشر ساعات نوم ، فوق ذلك العمر

وميعاد النوم له شأن كبير في سلامة النوم . فالصغار الذين في الثانية والثالثة الى السادسة يجب ان يناموا حوالي الساعة السادسة مساء ثم يؤخر ميعاد نومهم رويداً رويداً حتى اذا بلغوا الثامنة من العمر كان ميعاد نومهم الساعة الثامنة مساء . وبعد ذلك يؤخر ميعاد النوم ربع ساعة بزيادة كل سنة في عمرهم ، حتى اذا بلغ الولد الرابعة عشرة من العمر ، كان ميعاد نومه قد اصبح الساعة التاسعة والنصف مساء

وعلى الوالدين ان يجروا على هذا البرنامج جرياً دقيقاً حازماً . وقد يقال احياناً ان السماح للولد بتأخير ساعة نومه بمثابة عيد او هدية له ، ولكن ذلك يجب ان يكون نادراً لئلاَّ يتحول الى عادة. ثم يجب ان يتخذوا كل تدبير في وسعهم ، ليكون نوم اولادهم هادئاً ومريحاً . فالوالدون يجب ان يعنوا عناية كبيرة ، بازالة كل باعث من بواعث الضجيج في البيت وقت نوم الاطفال او على الاقل قرب حجرهم. اما حجر النوم فيجب ان يتخللها الهواء ، والفرش يجب الا تكون باردة حتى لا تحول دون تمدد الطفل فيها تمدداً يريحه . واذا كانت اغطية السرير وافية فيجب ان تترك النوافذ مفتوحة . ويجب الحيلولة بين الاطفال النائمين وبين تغطية رؤوسهم بأغطية السرير او بالوسائد

أما الدرس قبل النوم ، والقراءة في السرير ، فيجب ان يمنعا . ومن الواضح ان ما يأكلهُ الطفل قبل النوم يؤثر في نوع الراحة التي يصيبها من النوم . فاذا تأخر في تناول طعام العشاء وشرب معه الشاي او القهوة ، فالغالب ان تقطع نومه الاحلام المزعجة والكوابيس المرعبة

وأخيراً يجب ان يحال بين الهم والاضطراب والطفل الذاهب الى سريره . فاذا رأى الوالدان او احدهما ان امراً ما يقلق بال الطفل ، فحديث يستغرق خمس دقائق قبل النوم يريح بال الصغير ، فيصيب في نومه الراحة المطلوبة

آداب الحديث

من آداب الحديث والسمر عند الغربيين انك اذا اجتمعت باحد فاول ما يجب عليك معرفتهُ هو هل تراهُ اكثر ميلاً الى الاصغاءِ او الى الكلام فان كان يميل الى الاول فاكثر من الثاني او الى الثاني فاكثر من الاول . والحديث الطيب هو ما كان منسجماً طبيعيًّا لا ثقيلاً ولا خفيفاً . كثير الفائدة ولكن ليس الى حد الصَّلف بالعلم واظهار بضاعتك منهُ . فكهاً ولكن بلا جعجعة . مهذباً ولكن بلا اتورية

ومن شروطه ايضاً ان يكون بين بين في طوله لا خطاباً مستفيضاً ولا موجزاً الى حد الاقتضاب . وان يكون معقولاً بحيث لا يحتمل الاخذ والرد والجدل الكثير . والحسن الحديث يحدث سامعيهِ عن كل شيء كيما يجتني كلٌّ منهم ما يهوى ويلتقط من درره المتساقطة ما يشتهي . ويحثه في جميع المسائل التي يتحدث بها سطحي أو اعمق من السطحي قليلاً ولكنهُ لا يغور الى قعر المسائل كما يفعلون في الجمعيات العلمية البحتة

ومن أقوالهم لا تحدث الموسيقي بالموسيقى ولا بالطب مثلاً إلاَّ اذا كان مريضاً وكان الطبيب غائباً . ولا تحدث الناس بالمسائل المبتذلة عندك والمجهولة عندهم لئلا يكون مثلك معهم مثل الكركي والثعلب اذ صنع الاول للثاني مأدبة وقدم الطعام اليهِ في قصاع بعيدة الغور ضيقة العنق فالتهم المضيف كل شيءٍ ولم يذق الضيف شيئاً

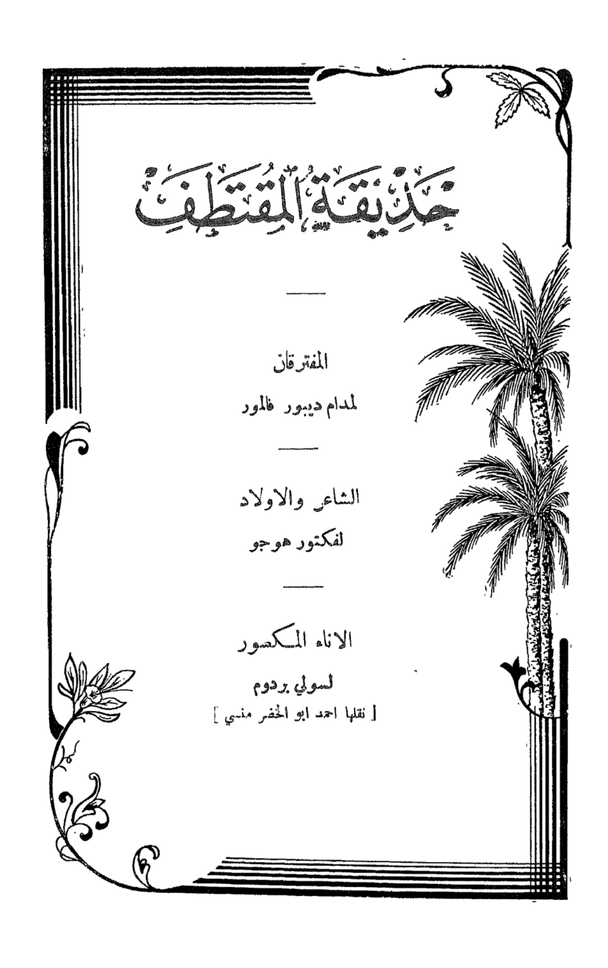
قالوا واسكت عن نفسك واطراء اقوالك واعمالك . فانها ان كانت حسنة تستحق المدح نشرت شذا عرفها من نفسها أو اتاح لها الله لسان حسود . وان كانت سيئة فكلما سكت عنها تحسن صنعاً

ولا تقطع على محدث حديثه واسكت اذا قطع الكلام عليك . وقل الخير عن الجميع . قال بعضهم «قل عن الناس كلهم ما يستطاع من الخير . واذا اردت ان يقال الشر على احد فاعهد في ذلك الى الشيطان»

من الحكايات اللطيفة التي يحكونها ان سيدة كانت تحدث ضيفة لها في منزلها في حضرة طفل لها والطفل لاهٍ يلعب ببعض الدُّمى بين يديهِ . واذا بضيفة ثانية قد دخلت ثم ما عتمت ان انصرفت وبعد انصرافها جعلت السيدتان تفتشان عن عيوبها وتذكرانها باقبح الاوصاف فلم تبقيا ولم تذرا . وكان الطفل في خلال ذلك مشغولاً بلعبهِ في الظاهر . ولكنهُ رفع رأسهُ هنيهة وقال للضيفة المحتشمة « وهذا ما تقوله « ماما » عنك بعد انصرافك »

ومما قالوا ان سوءَ التفاهم وعدم الانتباه اكثر ضرراً من الغش والاحتيال

وليكن حديثك بالمسائل التي كثر بحثك لها وأصغ الى المسائل التي قلّ علمك بها فان المعرفة كالحَبِّ لا يصح استعماله في الاعمال إلا بعد تجفيفهِ وتيبيسهِ . وليس شيء ادعى الى سآمة الحديث مثل ان يفرغ المحدث جعبتهُ في الموضوع الذي يتكلم فيهِ . قال كرومول الانكليزي : اذا كثر هرف محدثك فدعهُ وانصت له مسروراً اذن انت العاقل . واذا اخطأ في قول فاسكتهُ بكلام لا يقبل المراجعة . واذا صدق فافرح بقول الحق »



حديقة المقتطف

المفترقان

لمدام ديبور فالمور

الشاعر والاولاد

لفكتور هوجو

الاناء المكسور

لسولي بردوم

[نقلها احمد ابو الخضر منسي]

المفترقان

لمدام ديبورد فالمور

وهي شاعرة فرنسية ولدت سنة ١٧٨٥ وتوفيت في باريس سنة ١٨٥٩

لا تكتب ! فاني حزين اشتهي الموت
ما عهود الصيف الجميلة بدونك الاّ الحب بغير اشتعال
لقد طويت ذراعي لما اعجزهما الوصول اليك
والقارع على قلبي كالقارع على قبر

فلا تكتب !

لا تكتب ! فلا نعلّم انفسنا الاّ ان نموت
ولا تسأل الاّ الله ... والاّ نفسك اذا كنت احبك
ان سماعي انك تحبني وانت في شديد صحتك
كمن يسمع عن السماء وما هو بصاعد اليها ابداً

فلا تكتب !

لا تكتب ! اني اخافك . اني اخاف ذا كرتي
فانها قد حفظت صوتك الذي يناديني غالباً
لا تدلّنّ على الماء من لا يستطيع له شرباً
ان كتاب عزيز لديك صورة منهُ قريبة الشبه

فلا تكتب !

لا تكتب هذه الكلمات الحلوة التي عدت لا اقوى على قراءتها
فكأن صوتك يلقيها على قلبي ويفيضها
وكأني اراها خلال ابتسامتك تلمع
وكأنها بقبلة منك على قلبي تُطبع

فلا تكتب !

الشاعر والاولاد

لفكتور هوغو

الشاعر الفرنسي العظيم وُلد سنة ١٨٠٢ وتوفي سنة ١٨٨٥

على دكة اجلس ، فلا ادري لِمَ
جميع الصبية الصغار يجتمعون حولي
فما اكاد اجلس حتى اذا هم جميعاً عليَّ يقبلون
ذلك انهم يعلمون اني اجد مثل ميولهم ، ويذكرون
اني أُحبُّ مثلهم الهواء والزهر والفرَاش
والبهائم التي تُرَى عادية في الغيطان
ويعلمون اني امرؤٌ احبهم
واني انسان يسعهم اللعب بقربه ، بل
الصياح والضجيج والكلام المرتفع
واني كنت اضحك مثلهم وأشد منهم في ما مضى
واني اذ اشهد اليوم ملاعبهم
أبشّ لهم ايضاً ، وان اكن اشد تَرَحاً وبثّا
ويقولون ، وياما احيلى مودّتهم ، اني لا يمكنني
ان اغضب ابداً وانهم يلعبون معي وان اصنع
اشياء من ورق مقوّى ورسوماً بالقلم
واني اقص اذ يوقد السراج
ويا عجباً ! اقاصيص لذيذة تخيف اذا الليل جنّ
وبالجملة اني لطيف غير مستكبر ، واني ذو علم كثير !

الاناء المكسور

لسولي برودم

وهو شاعر فرنسي ولد سنة ١٨٣٩ وتوفى سنة ١٩٠٧

صدع بدا من مَس ّ مروحة
في آنية فيها رَعيُ الحمام (١) قد ذَوَى
وكأن الاصابة لم تمسس الآنية
اذ لا صوت أبدى بها

ولكن ذلك الثَلْم الخفيف
كان كل يوم يسرى في الزجاج
سيراً خفيفاً مستمكناً
حتى طوق الاناءَ على مَهَل

سال منه ماؤه البَشَام قطرة قطره
والزهر غاض ماؤه وجفّ
وما فطن بعد أحد الى ما كان
لحذار أن تمسه انهُ قد انكسر

كذلك يقع غالباً ان يداً نحبُّها
تمس القلب فينجرح
ثم يتصدع القلب من نفسه
فتذبل فيهِ زهرة حبه

لا يبرح بأعين الناس لم يُثْلَم
وهو يستعر بجرحه الرقيق البليغ
ينمو ويبكيه متكتماً
لقد انكسر لحذار أن تمسَّه

(١) نبات وزهر جميل منظره أنيق

بابُ المُراسلةِ والمُناظرة

إرشاد لغوي

في كل جزء كلمة

للاستاذ عبد الرحيم بن محمود

لفيفٌ ثانٍ من أمراض وأعراض

بوزن فُعَال

الى الاُستاذ الباحث سالم خليل رزق في النبك من سورية

تحيتي لكم وبعد فقد قرأت في مقتطف يونيه كلمتكم الجامعة فحمدت إليكم الله الذي رفع بمثلكم شأن اللغة العربية في زمان فيه اللُّغى تتقدم . ولا غرو فأنتم من القامة عليها — وعالم ذو همة يحيي أمّة — وما كنت في بحوثي اللغوية في المقتطف الاّ مؤدياً واجباً عليّ قد خالط دمي ولحمي ولا أسأل العرب والمستعربين عليها أجراً الاّ قراءتها للانتفاع بها فيما يكتبون ويقولون نثراً وشعراً بعد نقد كلماتي نقد الصيرفي دراهمه . ولذلك أشكر لمن أجاب دعوتنا ونهل من منهلنا وورد موردنا واستقرى قِرانا[1] والضيوف إذاً أكرم من المضيف إذا عدَّ ما أقدمه لهم قِرىً ولا إخاله كرماً!!

لعمرُ أبيك ما نُسِب المُعلّى إلى كرمٍ وفي الدنيا كريمُ
ولكنّ البلادَ إذا تعرّتْ وصوّح نبتها رُعِيَ الهشيمُ

وقد غرس القُدامي شجراً يُؤتي اُكلَهُ كلّ حين فأكلنا ثمراً جنيًّا وكذلك نحن نغرس ليأكل حَفَدَتُنا وما لديّ قليل وإن استكثره إخواني فأنت أولى مني بالشكر والحمد إذ أنك تحيي لغتك وتبعث أمتك في لسانها من رمسها وتربط تليدها بطريفها وفي لغتك الفصاحة والبلاغة — أعزك الله ما أعززت أمّ اللغات التي هي أبقى على الزمان من الزمان.

---

(١) استقرى طلب الضيافة — القرى بكسر القاف وفتح الراء ما يقدم للضيف من طعام وهو أجود ما عند المضيف الكريم عادة فمعنى استقرى قرانا طلب قرانا

بَلِيَتْ هاشمٌ وبادت نِزارُ والّلسان المُبين ليس ببالي

أما استفتاؤك لي في الأمراض والأعراض التي جئت بها في مقالك المشار إليه فإني قسمته ثلاثة أقسام : أولها ما يتعلق بالطب البشري وهذا أفتيك فيه بمعونة اصدقائي الاطباء الحذاق في اجزاء من المقتطف إن شاء الله وقد نبّهت مني غافلا وأردتني على ما يريده مني قراء المقتطف ولاسيما رجال المجامع اللغوية العربية أعانهم الله وعصمهم ونفع بهم . وثانيها ما يتعلق بالطب البيطري ولي من اصدقائي البياطرة في مصر معينون غير أني أؤجل الاجابة عن هذا القسم بعد استيفاء الاجابة عن سابقه (لا بد من صنعا وإن طال السفر)

وثالثها ما يتعلق بالأدوية وستكون كلماتكم في جَبهة الأدوية التي أعنى بها في المقتطف إذا حان حِينها وأدرككم إبانها ولي منهج في بحوثي لا أحيد عنه قيد شعرة — وكل ما هو آتٍ آت

لم يملك المحبوب صبـ ـراً عنك حين ملكتَ صبرك

وإني أوجه نظرك الى أن فريقاً من الكلمات اللغوية التي وردت في كلمتك لم تفصل شرحها الملاغي[1] بل أجملت وأوجزت فالبحث عما يرادفها باللغة الاجنبية من المستحيلات اذا رعينا الامانة حق رعايتها وتخصيص العام لا يلزم إلا بالاجماع وهيهات ان يكون في هذا العصر وأغربة البين قد عششت في كل اقليم شرقي . بل انها اتخذت في كل بيت من بيوتاتنا اوكاراً ولا ارى كالشرقيين تظهر في أفرادهم القوة وفي مجموعهم الضعف وأنا منفرداً أكثر مني عملاً في جماعة ومتى تحين اويقات الاتفاق وكلنا يوده ولا يتخذ اليه سبيلاً . ولقد صدق من قال عنا « اتفقنا على الاّ نتفق » ورحم الله المتنبي وهو القائل :

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم إلاّ على شجب[2] والخلف في الشجب

***

وليعلم القرّاء أن الأطباء الذين يعينونني يجهدون جهداً معي في اختيار اللفظ الاجنبي المرادف للفظ العربي حتى تتم المطابقة بين المعنيين ولا بد لي من عرض كلماتهم على أطباء سواهم للمبالغة في التحقيق وبين أيديهم المصادر الموثوق بها من عربية وغير عربية بعد النقد الذي سداه الحق ولحمته الصدق

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

ودار المقتطف التي يشرف عليها صديقي الاستاذ فؤاد صروف قد غصت بالمصادر العالية ولها نصيب موفور في التحقيق الذي يرفع بحوثنا الى الغاية التي يتطلبها عشاق الحقيقة الخالدة . وقليل من

(١) الملاغي كتب اللغة والمفرد ملغي أي كتاب اللغة كالقاموس ولسان العرب وغيرهما
(٢) الشجب بفتح الشين والجيم الهلاك

الثروة الادبية يُنفى خَبَثه خير من كثير فيه خبث وهذه طائفة مما سألتني عنه فهاك الاجابة عنها :

﴿ الرُّداع ﴾ ورد فى اللغة بمعنى النكس ومرادفه بالانكليزية (Relapse) وورد ايضاً بمعنى الالم الذى يصيب الجسد كله ومرادفه بالانكليزية General malaise

﴿ الفُتَار ﴾ ابتداء الغشْيَة ويرادف هذا اللفظ بالانكليزية Fainting Sensation

﴿البُوال﴾ وهو البول السكرى (أى الصادق أو الظاهر سببه) وترجمته بالانكليزية كما يلي Diabetes mellitus

ويأتى أيضاً بمعنى البول الكثير أى الكاذب أو الخفى سببه فى اصطلاح الاطباء وترجمته بالانكليزية Diabetes Insipidus

ويأتى أيضاً بمعنى تتابع البول وترجمته Incontinence of urine أو Frequency of urine [(١)]

﴿ السُّكات[(٢)] ﴾ ما يمنع من الكلام — غير البكم والشلل ويرادفه بالانكليزية Aphasia

﴿ الرُّمَاع ﴾ وجع يعترض فى ظهر السقّاء حتى يمنعه من السقي يقال أرمع السقّاء أى أصابه الرُّماع ومرادفه (Lumbago) وهو المعروف عند أبناء سورية بالسَبْرقة وأيضاً ينشأ من التهاب العضلات وترجمته (Myositis)

وجع شَغَاف[(٣)] القلب (Pericarditis)

﴿ الرُّحام ﴾ وجع الرحم (Metritis)

﴿ الحُصَاص ﴾ مرض يتناثر منهُ الشعر (Alopecia)

﴿ قُلاع﴾ الاذن (Autitis Media)

﴿ الحُماق ﴾ هو جدرى الدجاج وقد تلتبس هذه الحالة بالجدرى البشرى لتشابه فى كثير من الاعراض وترجمته (Chicken Pox) والحُماق أيضاً هو الجُدَيْرِى أو جُدَرى الماء ومرادفه (Varicella)

﴿الخُبَاط﴾ اي الصرع وهو نوع من التشنج العصبي وهو داء عاقبته الجنون فالموت وترجمته (Epilepsy)

﴿ الحُكَاك ﴾ هو الجرب على التحقيق وترجمته Scabies

---

(١) الترجمة الاولى للطبيب سامي الياس والاخرى للطبيب شكرى مشرق والالفاظ الطبية الانكليزية التى فى هذا المقال للطبيبين الفاضلين المذكورين ولقيت تأييداً من غيرهم من اخوانهم الاطباء بعد عرضها عليهم

(٢) وليس بمعنى السكتة التي تتعطل بها الاعضاء عن الحس والحركة الا التنفس كما ترى لاما يرى أهل الفن

(٣) شغاف القلب بفتح الشين ، غلافه

﴿الظلاع﴾ العرج وترجمته Lameness أو Claudication

﴿القحال﴾ ورد في معجم الطالب قحل جلد فلان جفّ ويبس وأقحل الصوم جلد فلان أيبس جلده على عظمه ويرى الطبيب شكري مشرق أن توضع الكلمة (قحال) لما يرادف بالانكليزية Scleroderma إذ أن الجلد يجف من هذا المرض ويتقلص حتى يلصق بالعظم أو يكاد يلصق به

﴿القُعاس﴾ مصدر بمعنى القعس وهو مرض به يخرج الصدر ويدخل الظهر ويقال لصاحبه أقعس إذا كان ذكراً وللانثى قعساء ضد الأحدب والحدباء ومرادف القُعاس Lordoses . وأما الحَدَب فترجمتهُ Kyphoses

هذا وقد اكثر اللغويون من المعاني والمترادفات لكثير من الأمراض والاعراض مما جاء في مقال الاستاذ النابه سالم خليل رزق على توغلها في الإبهام والعموم فصدفنا عنها أو آثرنا نحن والأطباء بعض هذه المعاني على غيره مما ثقفنا مرادفه باللغة الانكليزية لاتقاء الافتئات — والمقتطف رائد القراء « إن الرائد لا يكذب أهله »

وهذه كلمتي أسوقها إلى أبناء العرب والمستعربين الذين بهم تحيا اللغة إذا أرادوا لها حياة وبحياتها يحيون وبموتها يموتون — ومن يصن مجد قومه ولغة قومه وأخلاق قومه فقد صان عرضه الذي هو عرضهم والسلام

الهشاب

والقتاد والعكوب

أعرف مصطفى بك الدمياطي منذ خمس وعشرين سنة او اكثر وكنا نجلس في اسبلندد بار في أيام مجده وكان يرافقه الى هذه المجالس ابنه محمود ثم عدت الى مصر فسألت عن محمود فاذا هو استاذ في مدرسة الزراعة في الجيزة وقد نبغ في علم النبات ورأيت له مقالات نفيسة في المقتطف تدل على علم واسع وتحقيق دقيق جدًّا ولما كنت أعرفه وهو غلام فاني استأذنه في نقد بعض ما جاء في مقالاته

فقد أجاد في السنط أيما اجادة واجاد في احد انواعه وهو الهشاب ووصفه وصفاً حسناً جدًّا مما يدل على علم وتدقيق وبحث فهو ليس ناقلاً جمَّاعاً بل يعرف هذا النبات حق المعرفة وانما فاته ذكر اللفظ العربي الفصيح له وهو القتاد ذكره احمد عيسى بك في معجمه ص ٣ قال Acacia sengal Syn. Acacia verek وقال اسمه هشاب وقتاد (اليمن) واظن احمد بك اخذ القتاد

عن الكتاب الآتي A. Deflers, Voyage au Yemen 1887 والكتاب كان في مكتبتي فاستعاره الامير مصطفى الشهابي ولم يعده على عادة الادباء في عدم اعادة الكتب المفيدة ولكن لا بأس لأن الامير يستفيد منهُ اكثر مني واظنه لو قرأ عن القتاد في النسخة التي عنده في دمشق لوجد ان دفلرس وصفه كما وصفه الاستاذ محمود مصطفى الدمياطي وكما وصفه صاحب التاج. قال التاج « القتاد كسحاب شجر صلب له شوكة كالابر وجناة كجناة السمر ينبت في نجد وتهامة واحدته قتادة. وقال أبو زياد من العضاه القتاد وهو ضربان فاما القتاد الضخام فانهُ يخرج له خشب عظام وشوكة حجناء قصيرة. واما القتاد الآخر فانهُ ينبت صعداً لا ينفرش منهُ شيء وهو قضبان مجتمعة كل قضيب منها ملآن ما بين اعلاه واسفله شوكاً وفي المثل من دون ذلك خرط القتاد وهو صنفان فالاعظم هو الشجر الذي له شوك والاصغر هو الذي له نُفاخة كنفاخة العُشَر » الى آخر ما ذكره صاحب التاج في هذه المادة. قلت هذا هو القتاد الذي قال فيهِ كليب التغلبي ماذا يريد جسَّاس من عُليَّان ودونهُ خرط القتاد في الليلة الظلماء وهو الذي ذكره دفلرس وعيسى بك وهو ليس الخشّاب على ما ورد في معجم شرف بك مما يدل على ان كل واحد من المؤلفين الفاضلين بحث مستقلاً عن الآخر والصواب ما جاء في معجم عيسى بك وما قاله الاستاذ الدمياطي الا انهُ اصاب في الهشاب وفاته القتاد

وهناك قتاد لم يرد في كتب اللغة في ما اعلم بل ورد في ابن البيطار وهو الكَثيراء ولا محل للبحث فيهِ هنا ولا يخفى ان كلا النباتين مستعمل في الطب وارى ان يقتصر على القتاد والهشاب لهذا الذي يخرج منهُ اجود اصناف الصمغ العربي وعلى الكثيراء لهذا الذي يستخرج منهُ الصمغ الآخر

***

بقيت هفوة اخرى نقلها الاستاذ محمود عن عمدة المحتاج للرشيدي وهي ان القردون هو العكّوب فالعكّوب اسمهُ العلمي Gundelia Tournefortii فليس هو الكعيب ولا العكوب ولا الكَعوب بالتخفيف ولا العقّوب ولا الكويب كما جاء في معجم الطبيبين الفاضلين بل هو العكّوب كتنور كما ورد في التاج وقد اسهبت في ذلك في مقالة لي نشرت في مقتطف يونيو سنة ١٩٣٣

فأرجو من صديقي الاستاذ الدمياطي ان يستمر في ابحاثه المفيدة لانه يكتب عن هذه النباتات كتابة عالم خبير واني ادعو الله ان يمد في اجلي لارى معجماً في النبات من تأليفه فاننا في حاجة كبيرة الى معجم يعتمد عليه وانما احذره من امرين وهما الادعاء والحذلقة فقد سئمنا الحذلقة في مصر والشام والعراق فلم يكن الجاحظ متحذلقاً ولا ابن البيطار كان مدعياً لانهما كانا على علم كبير واني لا ارى الادعاء والحذلقة الا في هذا الزمن فنوعان من الاقاقية ذكرهما صواباً كما فعل الاستاذ الدمياطي خير من ثلاثين نوعاً ليس فيها نوع واحد خالياً من الخطإ فاننا نريد معجماً نعتمد عليهِ وهذا الامر ليس عسيراً اذا سرنا على طريقة الاستاذ محمود الدمياطي

امين المعلوف



رسالة من برلين — للدكتور بشر فارس

تآليف المستشرقين

ابرهيم مدكور ، « منزلة الفارابي في المدرسة الفلسفية الاسلامية »
٢٥٤ ص ، من القطع المتوسط ، باريس ١٩٣٤

Ibrahim Madkour, "La Place d'al Fârâbi dans l'école philosophique musulmane"
Editions Adrien — Maisonneuve, Librairie d'Amérique et d'Orient, Paris

تخرج صديقي ابرهيم مدكور في دار العلوم ثم شخص الى باريس فطلب في جامعتها الفلسفة ، وما زال في اجتهاد وتحصيل حتى نال شهادة (الليسانس) ، ثم صرف همه الى الآلهيات والمنطق حتى ظفر بالدكتوراه في الآداب برسالتين احداها المذكورة فوق هذا الكلام

ان الباحثين في الفلسفة الاسلامية لم يعنوا بالفارابي عنايتهم بغيره من المفكرين المسلمين ، ذلك انهُ لم ينتهِ الينا مما الفه الرجل الاّ اقله (انظر مقالة كارا دي فو في دائرة المعارف الاسلامية ج ٢ ص ٥٨) . ثم هناك ما عدل باولئك الباحثين عن الفارابي بعض الشيء ، ذلك انه قام في اعتقادهم او كاد يقوم ان الرجل انما جال في دائرة الفلسفة الارسطية [1] فلم يحدث شيئاً (انظر Munk, Mélanges de Philosophie juive et arabe, 1927 ص ٣٤٣ ، ذكره المؤلف) . هذان امران ثبت لهما الدكتور مدكور فنقضهما اذ رأى ان ما وقع الينا من تآليف الفارابي يدلنا على اركان مذهبه دلالة كافية وبخاصة إن نحن عارضناها بتآليف من اخذ عنه امثال ابن سينا وابن رشد. وأما الامر الثاني فما وقع في خلد الدكتور مدكور ان الفارابي — وان حذا حذو ارسطو وغرف من بحره ما شاء الله ان يغرف — لصاحب فلسفة قائمة برأسها ، ألاَ وهي الفلسفة الاسلامية . وقد استقامت هذه الفلسفة على يد المعلم الثاني (اي الفارابي) دون الكندي الذي كان الى العلوم الطبيعية اميل منهُ الى العلوم العقلية ، ومنزلة الكندي من الفارابي منزلة المفكرين اليونانيين الاولين بين حاسبين واطباء ومنجمين من ارسطو

اعتماداً على هذه النظرات انطلق الدكتور مدكور يبحث في فلسفة الفارابي ويحللها ويرد مسائلها الى سوابقها في الفلسفة اليونانية وما اخذ مأخذها ويتتبعُ لواحقها في الفلسفة الاسلامية وما قفا إثرَها . فما دارت عليهِ مباحث هذا الكتاب النفيس ان مذهب الفارابي يندرج تحت الفلسفة

(١) نسبة الى ارسطاليس او ارسطوطاليس

الروحانية — المعنوية ، فالروح فيهِ صاحب العمل والعقد على حين المعنى أس ووسيلة . وهذا المذهب منحدر — جملةً — من جانبين احدهما الفلسفة الافلاطونية — الارسطية والآخر الفلسفة البلوطينية. وطرافة المذهب ان الفارابي عالج مسائل اسلامية محضة كمثل الجمع بين الايمان والعقل اي الدين والفلسفة تلك المسئلة التي شغلت المتكلمين على اختلاف مللهم زماناً طويلاً . ومما يأتي بعد هذا ان ابن سينا انشأ مذهبهُ على مذهب الفارابي الاّ شيئاً، وان ابن رشد اخذ أخذ الفارابي على الغالب وان حاول ان يدفع طائفة من آرائهِ وآراء الشيخ الرئيس لتعصب كان فيهِ لأرسطو . هذا ثم ان نظرية الفارابي في « الاتصال » قد راجت عند ابن باجة وابن طفيل. على ان تأثير الفارابي لم يكن مقصوراً على الفلسفة الاسلامية بل جاوزها الى علم الكلام اليهودي والمسيحي في القرون الوسطى من طريق ابن سينا وموسى بن ميمون وغيرهما ، والى التصوف عند ابن سبعين الاندلسي «والاشراقيين» اصحاب الشيخ المقتول ، بل الى الفلسفة الحديثة : فكلام سبينوزا Spinoza على السياسة المدنية والنبوة والعقل والايمان يميل ميل كلام الفارابي عليها جميعاً قليلاً او كثيراً

ذلك مضمون الكتاب، وبهِ نزع صاحبه عن مصدر من مصادر الفلسفة الاسلامية حجاباً فشهر جانباً ضخماً من جوانبها ورفع من شأنها في اسلوب علمي دقيق قويم

كل هذا أصدقه صديقي . على اني اصدقه شيئاً آخر ، ذلك ان لي على كتابه استدراكات مالي بكتمانها قراء هذا الباب من المقتطف يدان :

أثبت الدكتور مدكور في آخر كتابه جدول المصادر التي عوَّل عليها (ص ٢٢٣ — ٢٤١) وقد خطر لهُ ان يلحقها بنقد جامع جرياً على طريقة علماء الفرنجة . ويسمى هذا النقد بالفرنسية مثلاً Bibliographie Critique واني والله ليسوؤني أن أقول ان هذا الجدول ليس من محاسن الكتاب . ففيه مثل هذا النقد الذي أنقله حرفاً لحرف

« كتاب وفيات الاعيان لابن خلكان — لا بدَّ منهُ لمعرفة سير أعلام المسلمين » ، « كتاب الفهرست لابن النديم — تأليف جليل الشأن نظراً الى العلوم الاسلامية والكتب المنقولة الى العربية» و «كتاب تاريخ الحكماء للقفطي — ذو شأن عظيم جدًّا » و «معجم الادباء لياقوت — من أعظم تآليف العرب في التراجم » و « تاريخ الآداب العربية للألماني بروكلمان C. Brockelmann — مصدر حسن (كذا) لسير المسلمين المفكرين وتآليفهم » ، « ارسطاليس للانجليزي رُس W. D. Ross — بحث مستفيض غاية الاستفاضة يدل خاصة على معرفة الفلسفة الارسطية من مختلف مصادرها » اه

ولعل القارىء يجاريني على أن الفهرست وتاريخ الحكماء ووفيات الاعيان ومعجم الادباء وتاريخ الآداب العربية لبروكلمان في غنية عن هذه التعريفات ، وهيهات أن يكون بأصحابها حاجة الى مثل تلك التلويحات . واما رُس فهو أمام العصر فيما يتعلق بأرسطاليس . هذا ومما يصل اليهِ علمي

ان نقد المصادر في التآليف العلمية انما يستقيم على غير هذا الاسلوب . فإما ان تنشر عيوباً مستورة أو تذيع محاسن مجهولة اوتحلل تحليلاً تامًّا أو تحول الانظار الى كتاب ظهر حديثاً أو تثبت جميع «طبعات» كتاب من الكتب وما قيل فيه وكتب. وقد رأيت المؤلف لم يذهب في هذا المجال مذهباً بعيداً . مثال ذلك انهُ لا يذكر لنا تاريخ طبعة كتاب « الطب العربي » ولا مكانها Arabian Medicine by Browne المنقول الى الفرنسية ، وانهُ يهمل طبعة الديار السورية « المنقذ من الضلال للغزالي » وطبعة مصر « لآراء أهل المدينة الفاضلة للفارابي » وانهُ يغفل بحث شيخي احمد زكي رحمهُ الله في رسائل اخوان الصفا (انظر Etude Bibliographique sur les Encyclopédies Arabe, Le Caire 1308 h.) وان يعرض عند الكلام على « مروج الذهب للمسعودي » عن الاشارة الى ما في طيات هذا التاريخ من الاساطير والمبالغات (انظر «مقدمة ابن خلدون» طبعة بيروت سنة ١٩٠٠ ص ٣٦ مثلاً) وانه يفرط في الايجاز عند ذكر كتاب المستشرق فنسنك Wensinck الموسوم «بالعقيدة الاسلامية» The Muslim Creed, Cambridge 1932 في حين ان هذا الكتاب حديث العهد ، وانهُ لم يطلع على هذا الكتاب « مقالات فلسفية لابن سينا والفارابي والغزالي وابن العبري وابن العسال مع تعريب اسحق بن حنين لمقالات (ارسطو وافلاطون) (بيروت ١٩٠٨)

ثم ان المؤلف يميل الى ارسال احكام مبهمة وارمة . من ذلك قوله «تلخيص حسن» (ص ٢٣٣ س ٧ تحت ، ٢٤٠ س ٧). وقوله «بحث دقيق مستفيض» (ص ٢٣٦ س ٣) ، وقوله «عرض حسن» (ص ٢٣٦ س ١٩ ، ص ٢٣٢ س ٤)

ولن أدع هذا الباب — باب جدول الكتب — دون ان أخبر المؤلف انهُ لم يرجع الى ثلاثة مباحث لها شأنها بل بينها وبين موضوعات كتابه علاقات . فأحدها يبحث في فلسفة (سبنوزا) Spinoza «على ضوء» الفلسفة الاسلامية اليهودية وعنوانه The Philosophy of Spinoza, unfolding the latent processes of his reasoning, 2 vol. Cambridge 1934, by H. A. Wolfson وقد برز هذا الكتاب قبيل بروز كتاب المؤلف (طالب نقده في مجلة « الاندلس » التي يخرجها لفيف من المستشرقين الاسبانيين ، الكتاب الثاني ، العدد الثاني ، سنة ١٩٣٤، ص ٤٣٨). والبحث الثاني يعرض للصلة التي بين فلسفة ابن سينا وفلسفة ديكارت فيما يلحق باثبات النفس (وحكاية هذه الصلة في الكتاب ص ١٥٣) وقد نشر ذلك البحث مستشرق ايطالي G. Furlani في مجلة ألمانية مستشرقة Islamica سنة ١٩٢٧ ، الجزء الاول ، ص ٥٣ — ٧٣) تحت عنوان Avicenna e il Cogito, Ergo Sum di Cartesio . وأما المبحث الثالث فالكتاب الآتي نقده في هذه الرسالة

ولننتقل الآن الى مجال آخر مجال رسم الحروف العربية بالشكل الافرنجي Transcription بالفرنسية و Transliteration بالانجليزية :

يقول المؤلف في صدر الكتاب تحت عنوان جدول رسم الحروف العربية « إنا عمدنا الى

اسلوب نرسم بهِ الحروف العربية على وجه النطق بها » . فهل للمؤلف ان يبيّن كيف جعل للجيم حرف j الفرنسي (لا الانجليزي) ؟ والمعلوم ان مخرج هذا الحرف بالفرنسية مخرج الجيم في اللهجة الشامية . ثم هل له ان يبين كيف جعل للضمة العربية حرف اللين o الفرنسي ؟ فان حرف اللين o يلفظ في الفرنسية ممالاً اي بين الضمة والفتحة على نحو ما تلفظ عامة مصر الهمزة المضمومة في هذه العبارة مثلاً « أُلْـتِيلُـهْ » . فما ضر المؤلف لو اتبع في رسم حروف العربية طريقة دائرة المعارف الاسلامية او الجمعية الاسيوية الفرنسية . ولاشك ان له ان يضع طريقة في ذلك يستحدثها استحداثاً وانما وجه الاعتراض في قوله انهُ «عمد الى اسلوب يرسم بهِ الحروف العربية على وجه النطق بها » tels qu'ils se prononocent حالة ان ذلك الاسلوب ينحرف احياناً عن النطق الصحيح بتلك الحروف

ومن الاعتراضات التي تلحق بهذا الباب ان لفظة «المتكلمون» (اي اصحاب علم الكلام) رسمت على هذا الشكل « المتكلمين » كذا : les Motakallemîn غير مرة (١٤٦ ، س٢١، ص ١٤٧ س١٣ ، ص ١٥٠، س ٢٣ و٢٥، ص ٨٠ ، س ٣ تحت) . فلم ادرك السبب الذي من اجله رسمت هذه اللفظة بالحروف الافرنجية في حالة النصب او الجر (اي بالياء والنون) بدلاً من ان ترسم بتقدير الابتداء بها والوقف عليها (اي بواو ونون ساكنة) كذا Les Mutakallimoun فحالة الرفع هي الغالبة إذا وقعت اللفظة مفردة فيما أعلم ، والمستشرقون على هذا النحو جارون . ثم اني لم أدرِ لِمَ رُسمت كسرة اللام من «المتكلمين » بالحرف اللين e الفرنسي اي ممالة على نحو ما تلفظها العامة عندنا ، والوجه في هذا ان ترسم بالحرف اللين i الفرنسي كما اثبت ذلك المؤلف في «جدول رسم الحروف العربية» المتقدم ذكرهُ

ومما يلي هذا ان المؤلف اضطر الى ان يترجم نصوصاً للفارابي رغبة في التدليل والتبيين ولغة الفارابي على جانب عظيم من الايجاز . ومن نتائج الايجاز المفرط الالتباس والاشتباه . فلولا ان يكون المؤلف راسخ القدم في العربية عالماً بالفلسفة الفارابية لما قوي على ان ينقل تلك النصوص الى اللغة الفرنسية نقلاً حسناً . الاّ ان نصّاً اختلطت عليَّ سطوره حتى اني لم اخرج منه بشيء (ص ١٣٨ س ٨ الى ١٩) . ومما بدا لي وأنا اقرأ هذا الكتاب الجامع ان المؤلف اتفق له الحين بعد الحين ان يستند الى مباحث العلماء والمحدثين في فلسفة ارسطو ومن قبله ومن بعده وفلسفة آباء الكنيسة وسبينوزا وغيرهم عوضاً عن ان يرجع الى تآليف هؤلاء الفلاسفة انفسها (انظر مثلاً : ص ٣٣ حاشية ٦ ، ص ٣٦ ح ٣ ، ص ٧٠ ح ١ و ٢ ، ص ٨٠ ح ١ و ٦ ، ص ٨٦ ح ٢ ، ص ٩٢ ح ٢ ، ص ٩٥ ح ٣ ، ص ١٢٧ ح ٦ ، ص ١٣٣ ح ٤ ، ص ١٤٤ ح ٥ ص ١٧٤ ح ١ و ٢ و ٣ ، ص ١٩٠ ح ٢ ، ص ٢٠٧ ح ١ و ٥ ، ص ٢٠٨ ح ٤) انه لا يخفى علي انه اعتمد على ائمة ، غير ان البحث الذي نهض له يقتضي الرجوع الى الاصول من حيث انه بحث قائم على معارضة الفلسفة اليونانية وما جرى مجراها وفلسفة القرون الوسطى بالفلسفة الفارابية خاصة والاسلامية عامة

بقي اني لو شغلت صدري أمنية لوددت لو اردف المؤلف كتابه بذيل ادرك فيه اصطلاحات

الفلسفة الفارابية كاملة . فالاصطلاحات الواردة في الكتاب المبسوطة في جدول في آخره لا تنقع غلة وبنا اليوم حاجة ماسة الى تدوين الاصطلاحات الفلسفية ، بل حاجة الى معرفة اصطلاحات الفلاسفة واحداً واحداً على تعاقب السنين . وخاتمة النقد اني اشهد ان تلك الاستدراكات « اللاحقة بالعرض لا بالذات » لا تغض من شأن هذا الكتاب الغزير مادةً

ا.م . جواشو — المدخل الى ابن سينا — رسالة الحدود له

(ترجمة وتعاليق) ٢٥٤ ص ، من القطع الصغير ، باريس ١٩٣٣

A. — M. Goichon — Introduction à Avicenne. Son épitre des définitions (traduction avec notes) — Edition Desclée, de Brouwer et Cie — Paris

عمل المستشرق الاسباني ميجيل أشين بلاسيوس Miguel Asin Palacios مقدمة لهذا الكتاب . ومما جاء فيها « ان مسألة الاصطلاحات الفنية ولاسيما الفلسفية من ملتويات اللغة العربية . والمتمنى ان ينهض لفيف من العلماء الى تآليف فلاسفة العرب فيدونوا اصطلاحاتهم واحداً واحداً بحيث انهم يؤلفون معجماً للمواضعات الفلسفية عامًّا وخاصًّا في آن ، اي جامعاً للالفاظ بمفاداتها المتحولة على ايدي الفلاسفة زماناً ومكاناً . والحق ان معاجم اللغة لا تكاد تلتفت الى هذه المواضعات واما المعاجم الموقوفة على الاصطلاحات نحو « مفاتيح العلوم » للخوارزمي و « التعريفات » للجرجاني و « كشاف اصطلاحات الفنون » للتهانوي (وهنا اغفل المستشرق الفاضل « الكليات » لابي البقاء طبعة بولاق ١٢٥٣ ، وطهران ١٢٨٦ ، والاستانة ١٢٨٧) فهي تسوق الالفاظ جملة من دون ان تقيدها بمصادرها ومواردها » اه

تلك امنية يطول حبلُها ! وها هي ذي تنقاد بمثل هذا الكتاب . فقد عمدت صاحبته فيه الى ايضاح اصطلاحات ابن سينا خاصة مستندة الى رسالته في الحدود . فجاء هذا الكتاب توطئة لفلسفة ابن سينا من حيث انهُ يبين مفادات اصطلاحاته ويبسط وجوه آرائه في آن . ذلك بأن المؤلفة علقت على كل حد من حدود ابن سينا فشرحتهُ شرحاً مسهباً مستضيئة بتآليفه الاخرى راجعة الى تآليف الفلاسفة اليونانية وبخاصة الفلسفة الارسطية التي اقتبس منها ابن سينا الشيء الكثير . وهنا كنا نود أن تعارض المؤلفة اصطلاحات ابن سينا باصطلاحات الفارابي من الناحية التاريخية — اللفظية

وثمة عمل مرهق نهضت به المؤلفة ، ألا وهو نقل كتاب الحدود الى اللغة الفرنسية ولا يسع الناقد الاَّ ان ينوه بما قدمت يداها وان يتجاوز عن عثرات معدودات منها ترجمة « الامور القبيحة والحسنة » هكذا le laid et le beau (ص ٣١) أي القبيحة والحسنة من جهة الجمال والمراد من جهة الاخلاق ، فالوجه أن يقال : le bien et le mal وترجمة « الفهم » بالعقل (الذكاء) l'intelligence (ص ٩) واظن الوجه la compréhension أو (l'entendement) (وكذلك ترجم في ص ٢٣) وترجمة « النطق » بالعقل la raison وأظن الوجه le langage (كما في ص ١٣) ثم اشتباه في ترجمة المكان والحيز (ص ١٥٠ — ١٥٢) وترجمة « الفطرة » بالعقل l'intelligence (ص ٣٤ — ٣٥) والفطرة هنا الطبيعة

وكان يحسن بالمؤلفة أن تنشر النص العربي مرة أخرى وتجعله قِبَل الترجمة الفرنسية حتى يتتبع القارىء الترجمة فتعظم الفائدة . ومما يقال — فوق هذا — ان المؤلفة لم ترجع في المباحث اللغوية المحضة الى الاصول العربية الاولى من المعاجم بل وقفت عند قاموس لين Lane الانجليزي. انها لم تستفد من معاجم الاصطلاحات التي تقدم بك ذكرها ولم تعارض مواضعات ابن سينا لتعاريفها حدودها

والذي يسوء القارىء في هذا الكتاب ان الالفاظ العربية قد رسمت بالحروف الافرنجية على غير وجهها الصحيح في الغالب . ولو اخذت أسرد الادلة على ذلك لضاقت « مكتبة المقتطف » بها . وحسبك هذه السقطات « الطُبيب» (اي الطبيب ، ص ١٦ رقم روماني) « المجز » (اي الموجز ، الصفحة عينها) «اللاتي» (والمراد التي ، ص ١٧ رقم روماني) «أسْبَبْه » (والمراد اسبابه ، ص ١٩ رقم روماني «المُوت» (أي المَوْت ، ص ٢٦ ، رقم روماني) «متوقّي» (والمراد متوقّى، ص ٢) « أخِذَ » (أي : أخَذَ ، ص ٢٨) « التغذّى » (أي : التغذي ، ص ٢٩) ، « صُحَّة » (أي صحَّة، ص٣١) « لا وجودَ لها» (اي : وجودَ ، ص ٥٢) ، «الخُطء »(والمراد : الخَطء، ص١٤٦) الخ ، الخ . ولا جرم ان هذه السقطات تجعل الكتاب موضع نكير وغمز ، ولربما سأل الناقد نفسه كيف استقامت الترجمة لمن كان بينهُ وبين العربية الفصحى مثل هذا الشَسْع ب . ف .

المعجم في بقية الاشياء

لابي هلال العسكري — طبع بمطبعة دار الكتب المصرية في ١٧٤ صفحة من الحجم الصغير —

لأبي هلال العسكري فضل لا يجحد على اللغة وأدبها ، فلقد ترك لنا ثروة قيمة من مؤلفاته ، ونخصُّ منها في علم اللغة كتبه « التلخيص » و « ما تلحن فيه الخاصة » و « الفروق في اللغة » و « المعجم في بقية الاشياء » . وهذا الأخير ، ولو أنهُ صغير الحجم الاّ أن فائدته جزيلة ، ولقد قصره على ايراد اسماء بقايا الاشياء . ان معجماً كهذا لا ترطيب في تسهيل الحصول على امثال هذه الكلمات فقد يتعذر على الكاتب في بعض الاحيان اطلاق اسم على كل شيء من البقايا الصغيرة فينقب في المعاجم وقد يفنيه البحث قبل ان يجد غايته . وليس من ينكر فضل التخصيص في تسهيل المعارف وتيسيرها

والآن ، ونحن نترقب من مجمع اللغة الملكي ، ترقية اللغة واظهار ابنائها على ما خفي بين المعاجم من الكلمات مما يصلح للتعبير عن كثير من خلجاتنا ، ووضع معجم جديد يتفق وحاجة العصر ، نعدُّ اظهار هذا المعجم خدمة طيبة يشكر عليها الأستاذان ابراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي اللذان قاما بتكملة هذا المعجم والتعليق عليه وضبطه ، ونشكر لحضرة محمد مصطفى نجم افندي فضله في الانفاق على هذا المعجم وإخراجه في هذا الثوب القشيب . ولعلهم يتعاونون على اخراج باقي مؤلفات هذا العالم الجليل واحياء النفيس من مخطوطات المكتبة العربية فيقدمون الى ابناء هذه اللغة يداً لا تنسى

ضحى الاسلام

تأليف الاستاذ احمد امين بكلية الا داب بالجامعة المصرية . الجزء الثاني يبحث في نشأة العلوم في العصر العباسي — ٣٦٣ ص من قطع النصف — طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

من الاسراف ان يقول ناقد ان أي بحث يتناول تاريخ نشأة العلوم عند العرب في بدء حضارتهم يمكن ان يلم بأطراف ذلك الميراث العظيم الذي حققته العلوم الاسلامية في ثلاثة القرون الاولى بعد الاسلام . ولذلك اسباب تناولها كثير من المؤرخين بالبحث والتنقيب وخص بعضهم عن علاقة نشوء العلم عند العرب من ناحية العلاقات السياسية والاقتصادية او الاجتماعية التي أثرت في الفكرة الرئيسية للاسلام أو العقائد التي ذاعت بين العرب بعد الرسالة . غير ان ذلك لم يأت تامًّا ولا يمكن ان يصل يوماً حدّ الكمال . فان ما ضاع من آثار العرب في العواصم الاسلامية بسبب الحروب ، وما فقد من الآثار العلمية التي خلفها منشئو الحضارة العربية ، في مختلف نواحي العلم والحياة ، يجعل الوصول الى رسم صورة جامعة من حياة العرب العقلية في أيام حضارتهم امراً عسيراً بل متعذراً وغاية ما يصل اليه المؤلف ان يجمع اجزاء متفرقة ليحاول أن يخرج منها صورة جامعة . اما رسم هذه الاجزاء وجمعها فأهون بكثير من تركيبها كلاًّ واحداً واخراجها صورة كاملة الاجزاء مؤتلفة النواحي ، فان فقدان الحلقات التي تربط بينها ، يقف أمام المؤلف حجر عثرة دون الوصول الى الغاية الاخيرة التي يبغيها من تكوين هيكل كامل للحضارة العربية

***

مثال ذلك ما ورد في نهاية الفصل الاول من كتاب الاستاذ احمد أمين عند الكلام في حرية الرأي عند العرب . فان الاستاذ على دقة بحثه واحاطته بالموضوع الذي يكتب فيه احاطة شاملة ، لم يستطع أن يكوّن فكرة جامعة عما كانت الفكرة في حرية الفكر في ذلك العصر . وكل ما استطاع ان يستخلص من علمه الواسع بتاريخ ذلك العصر ، بضع صور متلاحقة من خليفة كان يتسمح مع الزنادقة أو المعتزلين ، الى آخر يضطهدهم ويؤيد السنيين . ولكن الى اي مدى أثرت هذه الحرية من ناحية ، والاضطهاد من ناحية اخرى ، في الفكر العربي جملةً وتفصيلاً ؟ ذلك ما لم يصل مؤلف الى تحليل دقيق فيه ، خرج منهُ بصورة اشبه بالصورة التي يمكن رسمها لعصر الاضطهاد في اوربا تحت لواء محاكم التفتيش

مع كل هذا استطاع الاستاذ احمد امين ان يبرز صوراً بديعة مؤتلفة الاجزاء وبخاصة في التشريع الاسلامي والفقه والتاريخ ، وهي نواح من التاريخ العربي مصادرها اوفى من مصادر غيرها من فروع الفكر التي ازدهرت في عهد الحضارة العربية

بجانب هذا نقول ان تبويب كتاب في تاريخ الفكر العربي عنصر من أهم العناصر التي تعين المؤلف على الوصول الى غايات بعيدة من تحقيق الغرض الذي يرمي اليهِ . ولاشك في ان ترتيب ابواب كتاب ضحى الاسلام وتساوق موضوعاتها قد مكّن الاستاذ الفاضل من تقريب الصورة التي حاول انَ يرسمها لذلك العصر من الفهم تقريباً قلما تقع على مثال له في كثير من الكتب التي تصدت للكلام في موضوع العلم في الحضارة العربية

على ان لنا بعد ذلك ان نتناول ناحية عامة من الكتاب . وعندي ان اخطر ما يتعرض له مؤرخ في ضحى الاسلام هو استقراء الاتجاهات التي اتجه فيها اللغويون و المترجمون من الاستعانة بالاصول العربية في وضع المسميات التي عرض لهم الكلام فيها على نحو ما فعل المؤلف عند كلامهِ في المذاهب اللغوية في العصر الذي أرّخ فيهِ . وعندي ان البحث اللغوي في هذا العصر سيتجه اتجاهاً جديداً يخرج فيهِ على الاوضاع القديمة . فان اكثر اسماء النبات والحيوان التي وردت في المعاجم مشتق من اصول عربية صحيحة قد لحص فيها صفة في الحيوان او النبات . هذا اذا لم يكن الاسم معرباً . وجرى العربي في ذلك على غير قاعدة قياسية . فان القياس والسماع و الجدل فيهما لم يظهرا في الواقع الا في عصر ضعفت فيه السليقة العربية والذوق العربي عند اختيار الوزن الذي يؤخذ منه الاسم. ولذا قيل ان ما سمع من العرب موزوناً على بعض الصيغ صحيح ، ولكن لا يقاس عليه . مثال ذلك صيغة — فِعَّوْل — فقد جاء منها خنوس وخنوص و قلوبّ وسنّور ولكن ليس لك ان تصوغ اسماء على هذا الوزن لحيوانات تريد تسميتها الآن . وكذلك صيغة يفعول وفيعول وإفعيل مثلاً. عدا غيرها من الصيغ التي لا يتناولها حصر

وهنا نقع في مشكلة كبيرة، اذ ليس امامنا في هذا الاّ احدى طريقتين : فاما ان نصوغ من كل الاوزان التي سمعت عن العرب اسماء لما نريد تسميته الآن ، فنحصر كل الاوزان التي وردت في اسماء الحيوانات والنباتات والاسماء الاخرى ، ونجعلها قياسية يوزن عليها في العلوم قياساً بحيث يكون الاسم مأخوذاً من اصل عربي يشتق منهُ ، وإما ان نلجأ الى التعريب ، فنزن المعرب على وزن عربي حيناً ، وعلى غير وزن عربي حيناً آخر. ومذهبي ان الصوغ من الاوزان التى سمعت عن العرب اولى من التعريب ، بل اني اكاد اقطع باننا اذا قلنا بقياسية ما سمع عن العرب استغنينا عن التعريب وهذا ما نعني هنا من القول بان البحث اللغوي يجب ان ينتحي منحى جديداً يتناول حاجة اهل العصر والتسمح في وضع قواعد جديدة يجري عليها اهل اللغة

***

واني لارجوان تتاح لي فرصة اخرى اوفي فيها هذا البحث حقه من الاستفاضة والبيان. ولاشك في ان اتجاه تاريخ العلوم عند العرب هذا الاتجاه مفيد بل انهُ الركن الاول في توجيه البحوث اللغوية توجيهاً جديداً فيهِ الخير كلهُ لابناء العربية في عصرنا هذا

اسماعيل مظهر

ديوان حافظ

من صباه الى وفاته

٢٦٨ صفحة بحجم المقتطف — طبع مكتبة الهلال بالفجالة بالقاهرة — الثمن ١٥٠ مليما

لم يعرَف شاعر حديث أحب الى الشعب المصري من فقيد الادب المغفور له محمد حافظ ابراهيم بك . وليس ذلك لان له قوة فنية تبذُّ غيره من الشعراء المعاصرين الممتازين وانما ذلك لان حافظاً يعبر أصدق تعبير عن شعور هذا الشعب تعبيراً شعريًّا ساذجاً في الغالب متعمقاً أحياناً بحيث ان ديوان شعره يمثل سيرة المشاعر المصرية الوطنية في ثلث قرن . فاذا أحبه الشعب المصري فانما يحب ذاتيته المنفعلة الممثلة في شعره الصادق الوطنية المندمج كل الاندماج في أحاسيس الامة المصرية

ولقد توفي حافظ في احوالٍ لم تمكن الامة من تقديره مجتمعة فقدره أفرادها متفرقين كأنما موته كان خسارة عائلية لكل منهم ، والى ذلك أشار شاعر العربية الاشهر الاستاذ خليل مطران في مقدمته البديعة التي صدرت بها هذه الطبعة من الديوان اذ قال أطال الله بقاؤه :

« الامة المصرية بارك الله فيها تكرم شعراءها الكبار وعلماءها العاملين وأعلامها البارزين في كل منحى من مناحي المعارف والآداب والسياسة والقضاء والادارة والاجتماع والاقتصاد . وما منهم الاّ من له في فؤادها مقامٌ معلومٌ فان زعم زاعمٌ أنها تنسى موتاها العظماء ففي الحق انها لا تنسى ، غير انمظاهر حبها ووفائها تختلف عن أمثالها عند الامم الاخرى . هي تنفق من شعورها ما لا ينفق سواها . ولكنهُ قد يفوتها في احوال جمع كلّها المتفرقة من حيث انها لم تألف التعاون على متعدد صوره فذلك لا ينقص من كنه ما بذلت بيد انه ينقص من قوته وخصوصاً فيما يبدو منهُ للناس . مثل شعورها في اكثر أمرها مثل الماء الضحضاح المنتشر رقيقاً فوق وجه الارض لتبدُّد أجزائه ، ولو احتفر له مسيلٌ مهما رحب ، ورُدّت أطرافه الى ذلك العقيق ، لاندفع اندفاع النيل يحمل الثقال من الجواري المنشئات تخطر عليه خفافاً ، ولا فاض الخير من كل جانب . وذلك كان شأنها مع المغفور له محمد حافظ ابراهيم بك شاعرها الذي كان في مدى اربعين سنة من سنيها الأخيرة ملء ابصارها وأسماعها . وكانت له المواقف التي وطدت وايدت سيادتها الادبية في العالم العربي ، وكل قارىء وكاتب من أهلها كان يعرف حافظاً ويحب حافظاً وينشد شعراً لحافظ لأن حافظاً كان المعبر عن آمالها وآلامها بأصدق ما عبر عنها شاعر سواه ، فحيثما حل فله الاكبار ، وحيثما انتقل فله الكرامة الموفورة والتجلة النزيهة . عاش كذلك بينها منذ ابلغته عبقريته الجوادة وطنيته الفياضة مكانته الرفيعة بين جوانحها . فلما قبض الى ربه عم حزنها عليه ، لم يخل منه انسان ولا بيت ولا عشيرة ، كما حقق ذلك كل منا في نفسه وفي محيطه » . وتبعاً لهذا نشعر بفرحة خاصة كلما اطلعنا على أثر من آثار التقدير لشاعرنا الفقيد الكبير ، وما اخراج ديوانه في نمط جديد إلاّ مثالاً من امثلة هذا التقدير المحبوب

وبعد فيقضي عليَّ واجب النقد الادبي أن أقول في صراحة مع شكري للمكتبة الناشرة ان أملي كان اضعاف ما حقق على يديها ، ولذلك ارجو باخلاص ان يتدارك النقص المحسوس في طبعة هذا الديوان عند اصدار طبعات اخرى في المستقبل القريب ان شاء الله . اما ملاحظاتي النقدية فأجملها فيما يأتي واكتفي بها لاهميتها خصوصاً وشعر حافظ مشهور لدى القراء وقد سبق درسهُ في (المقتطف) فلا حاجة بنا الى الاستشهاد بهِ في هذا المقام :—

(١) — ليست قصائد الديوان منسقة التنسيق الواجب بحسب الابواب او التواريخ بل هي تمثل خليطاً عجيباً

(٢) — ينقص الديوان كثير من شعر حافظ كقصيدتهِ الميمية الكبرى في الجامعة المصرية ورثائه لمصطفى كامل ومحمد ابو شادي ، فضلاً عن شعره السياسي الاخير واخوانياتهِ العديدة ، وكان الواجب على الناشر الفاضل ان يدعو الادباء الى معاونتهِ في ذلك وأن يمهلهم مهلة كافية لا أن يطبع الديوان على هذه الصورة

(٣) — شرح البلدان قليلٌ ومقصورٌ على قصائده القديمة . كذلك تجرد الديوان عن ذكر المناسبات لمعظم القصائد مع ان هذه مساعدة اي مساعدة على تفهم القصائد تفهماً فنيًّا وخدمتها بالنقد الادبي المستقل وهذا ما نطالب بهِ . شعراءنا الاحياء ، فما فات ديوان حافظ سابقاً كان يجدر بالأدباء تلافيه في هذه الطبعة التي خلت حتى من الفهرس ولم تخل من كثرة الاغلاط المطبعية

(٤) — من رأيي أن يعتمد حضرة الناشر او غيره في المستقبل على لجنة من خاصة الادباء بين مريدي الفقيد الكريم للاشراف على اخراج طبعة أتم من هذه تكون جامعة لشعر حافظ جمعاً صحيحاً مبوباً مشروحاً أوفى شرح ، وتكون في الوقت ذاته فنية المظهر والرونق بما يتفق والاعزاز الذي في نفوسنا لفقيد الشعر المصري والوطنية المصرية

هذا اقل ما تتطلبهُ الذكرى الادبية لشاعر النيل من مصر التي مجدها اي تمجيد في شعره ،وكان الترجمان الامين لآلامها وآمالها — مصر التي أعلا كرامتها وتسامى بعزتها ونفسيتها فقال على لسانها من قصيدتهِ الرائعة الخالدة (مصر فوق الجميع)

وقف الخلق ينظرون جميعاً كيف أبني قواعد المجد وحدي
وبناة (الاهرام) في سالف الدهـ ـر كفوني الكلام عند التحدي
أنا تاج العلاء في مفرق (الشر ق) ودراتها فرائد عقدي
أي شيء في (الغرب) قد بهر النا س جمالاً ولم يكن منه عندي ؟!

وأخشى ان (الغرب) المتحدي يسأل (مصر) أي ذكرى عملية تقوم بها نحو أعلامها الراحلين ؟ رحم الله حافظاً عداد حسناته

محمد عبد الغفور
(سكرتير التعاون بوزارة الداخلية)

شعراؤنا الضباط

تأليف محمد عبد الفتاح ابراهيم

بعد ان تفرغ من قراءة هذا الكتاب تتمثل امامك صور خمسة رجال تلتمع السيوف بأيديهم احياناً، وتأخذ الاقلام مكان تلك السيوف اخرى، يتجاذب كل من السيف والقلم حنان صاحبه اليه ونزوعه الى امتشاقه، فما يقضي السيف امره حتى تهتز القريحة شوقاً الى القلم، وما يجري القلم بفيض القريحة حتى تستعر الحماسة لا تبغي الا الحسام، ولكننا نرى هؤلاء الرجال في بعض الاحيان التي يحنون فيها الى السيف بعد طول هجر القلم كالخيل تعلك اللجم، يصولون ويجولون لا في ساحة الوغى بل في ابيات من الشعر تحدها الاوزان والقوافي

اولئك هم محمود سامي البارودي، وحافظ ابراهيم، وعبد الحليم حلمي المصري، ومحمد فاضل، ومحمد توفيق علي، شغلوا شطراً كبيراً من القرن الماضي، وصدر القرن الحاضر. والمؤلف هو ايضاً ضابط اديب، وقد عني بدرس هؤلاء الشعراء الضباط ملائماً بين حياتهم الشعرية وحياتهم العسكرية فقد وفق في هذه الناحية كما وفق في تحليل العوامل التي ادت الى ان يقول كل منهم في الاغراض الشعرية المختلفة، فهذا البارودي قضى مستهل حياته في الجندية الحافلة بالحوادث، وخاض غمار الحروب فتحدث في شعره عن بلائه فيها، ووصف المعارك والقتال، وكان ذلك الى نفسه الكبيرة وروحه العالية داعياً الى الفخر بعزائمه وسجاياه، وعاش حيناً من الزمن في خدمة الخديوي اسماعيل قائداً في حرسه، وقربه اسماعيل منه، فقال في مدحه وأشاد بذكره، وساهم في الثورة العرابية فكانت صيحاته اولى الصرخات السياسية في العصر الحديث، وأفاض في حديث السياسة في جرأة وصراحة وترجم عن الاماني القومية بدافع نزعته الى الحرية، ونفي الى جزيرة سرنديب فمكث في منفاه يشكو ويتوجع، ويذكر الشباب وذكرياته، ويحن الى مصر ويتشوق الى جرعة من نيلها، وعاد الى مصر بعد العفو عنهُ مقوس الظهر مكفوف البصر، فمدح عباساً وذكر أيام اسماعيل، وكان طبيعيًّا — وقد مرت بهِ كل تلك الحوادث — ان يتحدث عن الحياة على حقيقتها، ويسوق الحكم كما اخذها عن تجاربهِ

وعلى هذا الغرار وبمثل هذا التحليل تحدث المؤلف عن بقية الشعراء الضباط

واذا كان الانصاف قد اقتضانا ان نذكر ما للمؤلف فان الانصاف نفسه يقتضينا ان نذكر ما عليهِ أهم ما عنى بهِ ترجمة حياة الشاعر وبيان العوامل التي دعتهُ الى القول في كل غرض، ولكنهُ لم ينظر في الشعر نظرة نقد مستقصية، والشعر ينظر فيهِ — عدا الاغراض — من حيث المعاني والاخيلة والالفاظ والاساليب وغيرها، وهو لم يوف شيئاً من ذلك حقه، بل حاول ان يعرض لبعض ذلك فلم يوفق، مثال ذلك انهُ اتهم البارودي بادعاء الخطابة في قوله: (ص ٢٧)

أنا فارس أنا شاعر في كل ملحمة ونادي
فاذا ركبت فانني زيد الفوارس في الجلاد
واذا نطقت فانني قس بن ساعدة الايادي

وقال ان القافية وحدها هي التي ارغمته على ان يتحدث عن قس بن ساعدة الايادي ! ونحن نقول له : ان قساً يضرب به المثل في مطاق البلاغة لا في الخطابة وحدها ، وما زلنا نقول « بلاغة قس وبيان سحبان » والشاعر يقول « انا فارس انا شاعر » ولم يقل « انا خطيب » والبيتان الثاني والثالث يفصلان البيت الاول ، فالبيت الثاني يفسر فروسيته ، والبيت الثالث يبين بلاغته في نطقه بالشعر لا كونه خطيباً كما حسب مؤلفنا الفاضل . ولو لم يكن الشاعر رجل حرب لكان شأن الابيات غير شأنها هذا

وساق قصيدة للبارودي في رثاء زوجته وأعقبها بقوله (ص ٤٦) : « ولن تجد في حزن البارودي عنفاً . فقد رأيته يتحدث عن الدمع الذي سيلازم وسادته بينا سواه يدك الجبال ويكسف الشمس ويخسف القمر » ومعنى هذا ان حزن الشاعر ضعيف لانه لم يشرك فيه الجبال والشمس والقمر ! ونحن نقول له : ليس مقياس شدة الحزن وضعفه دك الجبال وكسف الشمس وخسف القمر وما الى ذلك ، وان الدمع الذي يلازم الوسادة لابلغ في الحزن وأدل على عنفهِ من تلك المبالغات السخيفة . وثمة مآخذ اخرى على نقد المؤلف لم تتسع لها هذه الكلمة

ومهما يكن من شيء فان الاستاذ عبد الفتاح ابراهيم نبه بتأليف هذا الكتاب على ناحية من نواحي أدبنا الحديث، وأدى مهمته كضابط أديب ، ووفق فيها توفيقاً لا بأس بهِ

عباس حسان خضر

هوامش الصحافي العجوز

اصبحت كلمة « على الهامش » علماً على الصحافي العجوز . . . فكلما ساقت الصحف حديثاً أو خاضت في شخصية تطلع القراء المثقفون الى هامش الاهرام متشوقين . وهناك لا يكاد رجل الهامش يتريث الا ريثما يدور القمر دورتهُ اليومية ثم يطلع على قرائهِ فيشفي العليل ويروي الغليل .. وفي العام الماضي صدرت مجموعة من هذه الهوامش بعنوان « برسوم العريان وآخرون » وها نحن في هذا العام نحظى بمجموعة اخرى عنوانها « ابو جلدة وآخرون »

والمجموعتان متشابهتان في الحجم وفي صنف الورق وفي حروف المطبعة فان رأيتهما لا تكاد تحسبهما كتابين مستقلين صدرا في عامين وانما تحسبهما اخوين توأمين كان المؤلف يسهل على مقتنيهما تجليدهما معاً وحينئذٍ لا تشعر العين في قراءتهما بالانتقال من كتاب الى كتاب . وهذه الملاحظة من المؤلف نهاية في الذوق الفنيّ الاصيل

والمجموعتان متشابهتان ايضاً في طريقة اختيار الموضوعات وطريقة ترتيبها وفي طريقة الكتابة والاسلوب . فدستور المؤلف في اختيار موضوعاته ان يكتب عن كل مسألة او شخصية شغلت حيزاً من وعي الناس وهو في ذلك لا يبالي هل كتب عن قديس كبرسوم العريان او كتب عن شخصية لص كابي جلده وزميله العرميط فالمهم عنده هو ان هذه الشخصية ظهرت على مسرح الدنيا ومثلت دورها في الحياة تمثيلاً لفت اليها الانظار في فترة من الزمان — كذلك طريقته في ترتيب الموضوعات في المجموعة فهو دمقراطي الى ابعد حد فلا بأس ان يجعل موضوع اللورد غراي مثلاً بجانب موضوع برنس دار الكتب فمجموعات الهوامش من هذه الناحية اشبه بالمحافل الشعبية او بالمتاحف الفنية التي تترك بدون تصنيف لتكون ادنى الى نظام الطبيعة واكبر الظن ان صاحبنا لا يتكلف لكتبه هذا الوضع الدمقراطي وانما ذلك يصدر عفواً عن طبيعته الفنية صدى لنفسيته الحرة ومرآة لمسيحيته الاصيلة السمحة التي تفتح ملكوت الله للجميع

***

أما طريقة كتابته في التراجم فهي ليست تحليلية غالباً وانما هي استعراضية كل همه فيها أن يعطيك عن المترجم قصة حياة مصطنعاً في نقلها لك أقل ما يمكن من الالوان . ولو سمح لي الاستاذ العجوز أن اكشف عنها قليــلاً لقلت انهُ لم يعزف عن الطريقة التحليلية تحقيراً لشأنها اذ من الواضح انهُ يحسن استخدامها في حياته العملية كما أنهُ يوسطها في تعرف اصدقائه وسبر من يصلح للصداقة ومن لا يصلح وانما هو يعمد الى الطريقة الاستعراضية حتى لا تلوّن مبادئه وميوله مبادىء الآخرين وميولهم عند تحليلها ، كأنهُ يريد ان يعيش دائماً ملفوفاً على نفسه مدارياً بقدر ما يستطيع . اذن فتراجم الهوامش لا تعنى بالتغلغل في عناصر الشخصية المترجمة وكل عنايتها ان تقدم لك هذه الشخصية في قسمات وسمات واضحات ثم تتركها لذكائك تفهم منها ما تريد — ومن العجيب ان صديقنا العجوز وخلفه اربعون سنة تؤيد منزلته في الفن والشهرة لا يزال يصدر كتبه بمقدمات لكتاب قد يكونون كأبنائه او حفدتهِ اذا راعينا السن فقط واغمضنا عن غير ذلك من الاعتبارات كأن نصف قرن في الصحافة لا يكفي لتعريفه للقراء . حقّـا انهُ لون من التواضع عجيب

كتبت عن الصحافي العجوز مرة قبل هذه فقلت ان فيهِ نصيباً من الشاعر والفيلسوف فغضب ورجاني ان ابعد عنهُ هذه التهمة وكنت اود ان افعل ولكن ما ذنبي وهو نفسه يدفعني الى تأكيد هذا الاتهام تأكيداً فأقول انهُ فيلسوف ساخر وساخر من الطراز العميق

أجل يا صديقي انك تسخر بالشهرة وتسخر بالاقدار وتسخر بالحياة وان تواضعك ما هو الانوع من السخر يعرفه أصحاب اناتول فرانس في تهكماته واصدقاء المعري في مواربتهِ للناس ومداراته ولعلك تتحفنا على ذكرهما بهامشين عن هذين الرجلين والى اللقاء عندئذٍ أيها الصديق الكريم

محمود أبو الوفا

باب الاخبار العلمية

نورمندي

ملكة البحار السبعة

وصفنا هذه الباخرة في مقتطف ابريل من السنة الماضية في مقال عنوانه «معجزات السفانة» ثم قرأنا وصفاً طريفاً لها في احدث جزء من اجزاء مجلة « الميكانيكا العامة » فآثرنا اتحاف قرائنا به في حينه ، لكيلا تفوتهم شاردة ولا واردة من المعلومات الخاصة بتلك الجارية العجيبة واليك البيان :—

يبلغ وسق نورمندي ٧٩٢٨٠ من الاطنان وهي باخرة نسيج وحدها في سعتها وضخامتها وآخر ما أتم صنعه من السفن حتى اليوم ، فمن العسير منافستها . ورسمها وزخرفها لا مثيل لهما في تاريخ السفانة . ولا تحتوي اية سفينة من السفن الكبرى ما احتوته نورمندي من المخترعات العصرية . ومظهرها الخارجي البديع دليل جليّ على شكلها الداخلي الانيق . وجؤجؤها ودواخنها مصنوعة ، على شكل مساير للتيارات

والقوة الكهربائية المحركة لها تكفي لمدينة عدد سكانها ٣٠٠٠٠٠ نفس . وكل شيء في نورمندي (عروس الاطلنطي) يسترعي الاعجاب فضهورها خالية من الروازن (منافذ التهوية) والزناجير ، وغيرها من الآلات والادوات المعرقلة للسير . وتستطيع نورمندي ان تدرأ عن نفسها ، بجؤجؤها المساير للتيارات غائلة الامواج الطاغية . ويتاح لها بقوتها الضخمة ان تقطع المحيط الاطلنطي في ٩٦ ساعة بحيث لا يعيقها اي عائق ، ريحاً كان او مدًّا او جزراً او اسراباً من الحيتان او عواصف جبارة او غيرها ، عن وصولها في ميقاتها المضروب

فاذا قيض لك ركوبها ، تجلت لك فيها آيات الزخارف العصرية والرياش الفاخر والانوار الباهرة والالوان المطابقة لها . وفي نورمندي من الاثاثات الثمينة والمنسوجات النفيسة والمصنوعات الخشبية طرفٌ لم ترَ العين مثلها في اية باخرة اخرى ، لان خشبها النادر استورد من جميع انحاء العالم . وقصارى القول ، ان محتويات نورمندي تدل على اسمى ما بلغته الحضارة والعلوم في هذا العصر . وسرعتها ثلاثون ميلاً بحريًّا في الساعة وطولها ١٠٢٩ من الاقدام وعرضها ١١٩ ½ من الاقدام . وغاطسها ٣٦ قدماً و ٧ قراريط وعدد ملاحيها ١٣٣٩ وقوة محركاتها ١٦٠٠٠٠ من الاحصنة وارتفاعها من قاعدتها الى ذروة مرقبتها bridge ١٢٨ قدماً

وفيها كل ما تشتهي الانفس ، وتقرُّ برؤيته الاعين . فهي جزيرة عائمة ، بحيث لا تطلب شيئاً الاّ وجدته فيها يسير المنال ، من طعام ووقاية وعلاج ومكتبات ومسارح وجمباز

واحواض للسباحة وجرائد وراديو وحوانيت حلاقين للرجال ، واخرى لتنسيق وتزيين شعور السيدات ، وفيها كذلك الخياطون وغيرهم من الصناع . وتحتوي على الملاهي المختلفة الانواع ، والمتاجر الخاصة ببيع الملابس ومتعلقاتها

واذا قُدّر لك السفر فيها ، استطعت الاختلاط بأجناس شتى من الناس فتسمع اهم اللغات الحية وغيرها من اللهجات. وقد استخدم في صنعها الوف من الصناع واستغرق ما ينوف على خمس سنين

وتشمل نورمندي جميع اسباب الترف ، ففيها حجرات لألعاب الاحداث وغرف للعب الورق (كوتشينة) وأروقة للصيد ، وغرفة للتدليك وثلاثة مشافي وحانوت لبيع الازهار وحجرة للتصوير الفوتوغرافي واخرى للعلاج . وحمامات كهربائية وبخارية ، وحظيرة للسيارات تسع ١٠٠ سيارة ، وبيوت للكلاب وأحواض لاغتسالها ومتنزهات للكلاب ايضاً !

وغرف الدرجة الثالثة في نورمندي موضوعة بقرب مؤخرها ، بدلاً من حشرها في الجؤجؤ كما هي الحال في غيرها . وتحتوي الباخرة على ساحة رحبة للتشمس تستطيع الطيارات النزول عليها ، طولها ٣٠٠ قدم وعرضها ٧٥ قدماً ، خالية من العوائق المعتادة في البواخر الاخرى مثل الآلات والادوات وغيرها فتصلح ملعباً كملاعب الفضاء المختلفة الانواع

وتحتوي الدرجة الاولى في نورمندي على حديقة شتوية طولها ١١٢ قدماً وعرضها ٣٩ قدماً وفيها ردهة للاستراحة طولها ٩٥ قدماً وارتفاعها معادل لارتفاع ثلاث طبقات في الباخرة وفيها مصاعد تصعد بركابها الى اية طبقة من طبقاتها الاحدى عشرة . وفي الباخرة مسرح يسع ٣٥٠ مقعداً يستعمل إما للتمثيل وإما للسينما الناطقة . وفيها حوض للسباحة طوله ١٢٠ قدماً وعرضه ٣٠ قدماً ذو عمق مدرّج تتاح فيه المنافسة في السباحة والغوص للراغبين من الركاب . وفيها ثماني رِدَه لتناول الطعام ، عدا مطعم الدرجة الاولى وهو مطعم فاخر طوله ٣٠٠ قدم وارتفاعه يعادل ارتفاع ثلاث طبقات من طبقاتها . وهذا مما يجعله من اكبر المطاعم في البر والبحر

وفي نورمندي اجهزة توقظ ركابها عند حدوث الحريق وتكافحهُ . وكذلك فرقة من مطفئي الحرائق ليس لزعيمها اي عمل الا الاضطلاع بتلك المهمة والسهر عليها

وجميع حيطان الباخرة ، وفواصل غرفها ، مغشاة بطبقات من الواح معدنية من « الدورالومين » Duralumin موضوعة بين طبقتين من الاسبستوس (معدن لا يحترق) وفي كل حجرة من حجر الركاب جهاز منبه على الحريق ، فاذا ما وصلت حرارة اية غرفة ، الى درجة شاذة ، قرع الجهاز ناقوساً في المقر العام لفرقة الحريق، واغلق الجهاز ، في الوقت نفسه ، الروازن المجددة للهواء في ذلك القسم من اقسام الباخرة

والدائرة الكهربائية في اغلب الغرف مستقلة عن غيرها . وفي سقف كل غرفة ، كوة تصل الى مركز مطفئي الحريق في الاحوال المستعجلة. واذا ما اختل جهاز الاضاءة الكهربائية ، في نورمندي فانطفأت مصابيحها، تمكن الركاب من الاستضاءة

بانابيب غاز النيون والغازات المماثلة لهُ . وفي نورمندي اجهزة راديو شتّى تعمل مستقلة عن القوة الكهربائية التي تتولد فيها

ومن غرائب هذه الباخرة ، انها على ضخامتها المتقدم وصفها، يستطيع تسييرها ٤٠٠ رجل فقط . اما باقي عمالها فمخصصون لخدمة الركاب . ولكن في غرفة القيادة (وقد وضعنا لها لفظ مرقبة) ، مئات من الاجهزة الكهربائية تحل محل الوف من العمال البشريين

وعند ما تسير نورمندي بين اوربا واميركا تطلق دواخنها ١٥٠ طنًّا من الدخان في الهواء . وذلك بانابيب مسايرة للريح صنعت لتلك الغاية لكيلا يصل الدخان البتة الى وجوه الركاب . وقد أتمت رحلتها الاولى ففاقت كل ما سبقها من السفن

تهجين القمح

جعل علماء الزراعة في جمهورية الولايات المتحدة الاميركية يبحثون في تهجين قمح لا يستهدف لآفة الصدأ . وقد يتعذر على الباحث تقدير الضرر الذي يصيب الزراعة من تلك الآفة الماحقة . وحسبنا ان نعرف ان الخسارة التي لحقت زراع اميركا الشمالية وحدها منها في سنة ١٩٢٧ كانت تقدر بملايين الجنيهات

وكل ما يعرفه الفلاح بشأن آفة الصدأ النباتي انه غبار احمر اللون ، يغشى اوراق القمح وسوقه فتحبط آمال الزراع في استغلال محصول جزيل من اراضيهم اذ يظفرون بمحاصيل ضئيلة . اما الخبير الزراعي فيقول انهُ نبات دقيق جداً لا يرى بالعين المجردة وهو من فصيلة الفطريات المعروفة في مصر باسم عيش الغراب

وقد استدل الخبراء من التجارب ان ذرّ كبريتات النحاس التي كانوا يستعملونها اولاً لوقاية الحبوب من الفطر ، ما هي الاّ وسيلة وقتية لان المطر متى هطل على النباتات ، غسل عنها الكبريتات وكذلك الارياح الهوج تذروها عن الغلال فلا تستقر عليها استقراراً متسقاً ومن ثم اقتنع الخبراء بأن العلاج الناجع هو تهجين قمح لا يصيبه الصدأ

ولما كانت اصناف القمح تزيد على الالف عدًّا . وجميعها معرضة للاصابة بآفة الصدأ بينما توجد اصناف اخرى ، ليست جيدة لصنع الخبز ، ولكنها لا تسطو عليها جراثيم الصدأ رأى مهجنو النباتات في جامعة منيسوتا وفي مختبر الصدإ في كندا ، الشروع في تلقيح الحنطة التي لا تنتج خبزاً فاخراً ، بأصناف من الحنطة السليمة الحبوب غير المشهورة بانتاج الخبز اللذيذ ، ولكنها تضاد الصدأ . ولذلك فحص الخبراء ١٥٠٠٠٠ نوع من القمح في مدينة وينبيج في خلال ستة اشهر حتى وفقوا لتهجين صنف منها يقاوم الصدأ

عوض جندي

العين وطول الحياة

اعلن الدكتور فيلكس برنشتين الاستاذ بجامعة كولومبيا الاميركية ان سر طول العمر او قصره في عين الانسان ، بل في عدستها . فالناس في الغالب اذا تخطوا سن الاربعين الى الخمسين ظهر شيء من التصلب في عدسات عيونهم ·

فاذا كان هذا التصلب سويًّا (Normal) دل ذلك على ان مدى الحياة سوف يكون سويًّا فاذا ظهر هذا التصلب مبكراً دل على ان صاحبه لن يكون من المعمّرين . وعلى الضد من ذلك اذا ظهر متأخراً فالراجح ان صاحبه مكتوب له العمر الطويل . وهذا بصرف النظر طبعاً عن العوارض التي قد تقتل الانسان طفلاً وفتىً وشابًّا وكهلاً

ويقول الدكتور برنشتين انه توصل الى هذه النتيجة بعد ما بحث في خمسة آلاف حالة من حالات تصلب العدسة في العين ، دونت تفصيلاتها في عيادات جامعتي غوتنجن وليبتسغ وعيادتي طبيبين من اطباء العيون المشهورين وقد تتبع تاريخ كل حالة من هذه الحالات التي دونت كما تقدم من لدن تقدم اصحابها لامتحان العين الى حين الوفاة فتبين له ان الذين يصابون باكراً بتصلب العدسة يموتون باكراً وان الذين يتأخر تصلب العدسات في عيونهم يعمرون

آذان جديدة للجيش

صنع للجيش الاميركي «آذان» صناعية عجيبة في مكنتها ان تتبين هدير طائرات العدو وهي على بعد ١٢ ميلاً ثم اذا تبينته اطلقت من تلقاء نفسها اشعة قوية على هذه الطائرات فيستطيع رجال المدافع الخاصة بمقاومة الطائرات ، ان يسددوا قنابلهم اليها كأنهم يرونها في رابعة النهار

وقد تم هذا الاستنباط على يدي رجل يدعى فرانك هوس بعد خمس سنوات من البحث والتجربة

والسر في هذه « الآذان » جهاز خاص يستعمل فيها كالغربال اذا اردنا التشبيه اي انهُ يصد عن « الآذان » كل الاصوات الصادرة من مصادر ارضية ولا يأذن الاّ لهدير محرك الطائرة وآلتها بالوصول الى الجزء الحساس ومهما يكن الهدير لطيفاً يكبر ويقوى عند دخوله . وهذا الجهاز يمكن رجال الجيش من الاعتماد على هذه «الآذان» في العواصف والامطار وقد جرب في مثل هذه الاحوال فأسفرت التجارب عن نتائج تماثل نتائج الاجهزة المستعملة فعلاً في أتم الظروف هدوءًا وسكوناً

سرعة الحيات او بطؤها

اذا رأيت حية منسابة ظننت انها من الحيوانات السريعة ولكن القياسات العلمية تدل على انها ليست كذلك . فالدكتور دالني موزور احد اساتذة جامعة كاليفورنيا وجد بالاستقراء ان اسرع الحيات لا تقطع اكثر من ٣،٦ ميل في الساعة

والحية التي بلغت هذه السرعة في انسيابها اضطرت اليها اضطراراً وعجزت عن المضي فيها الاّ مسافات قصيرة

وقد اجرى الدكتور موزور تجاربه بستة انواع من الحيات المألوفة في ولاية كاليفورنيا وقد استخرج لكل نوعين سرعتين . الاولى سرعتها الطبيعية عندما تبحث عن فرائسها والثانية عند ما تستحث حتى تبلغ اقصى سرعة تستطيعها

فمنها حيات بطيئة كل البطء فلا تزيد سرعة انسيابها العادية على عُشر ميل في الساعة واقصى سرعتها ميل وخمس ميل في الساعة . وثمة ضرب من البواء في كاليفورنيا لا يبلغ اقصى سرعته اكثر من ربع ميل في الساعة

الجزء الثاني من المجلد السابع والثمانين

١٢٩ الارض في محيط الاشعاع

١٣٦ بحث لغوي في مجلة المجمع الملكي : للاب انستاس الكرملي

١٤٤ اشكال السيارات والسفن (مصورة)

١٤٩ النباتات المصرية القديمة : للدكتور حسن كمال

١٥٣ حجم ذرة الاثير : لنقولا الحداد

١٥٩ فلسفة الجمال : لحنا خباز

١٦٥ مفردات النبات : لمحمود مصطفى الدمياطي

١٦٩ سفن جوية كالقنابل

١٧٤ اعمدة الحكمة السبعة

١٧٨ نجران : لسعادة فؤاد حمزة بك

١٨٧ طلسم الآباد (قصيدة) : لالياس قنصل

١٨٨ الدفتيريا وعلاجها الواقي : للدكتور محمد علي

١٩٣ سوريا في زمن الصليبيين : لنقولا زيادة

٢٠٣ عجيبة المرأة المضيئة

٢٠٥ مغارة قاديشا العجيبة : لميشيل سليم كميد (مصورة)

٢٠٩ أيقال كريات بيضاء : لامين ظاهر خير الله

٢١٥ الدكتور احمد النقيب : لنقولا شكري (مصورة)

---

٢١٩ باب سير الزمان — الدستور السوفياتي الاشتراكي : للاستاذ وليم بنت مونرو . مقام البترول في سياسات الامم الحربية والصناعية

٢٣١ باب مملكة المرأة — خواطر مثقفة عصرية . الصحة والطقس : للدكتور فيليب شدياق. نوم الاطفال . آداب الحديث

٣٣٩ حديقة المقتطف — المفترقان : لمدام ديبورد فالمور . الشاعر والاولاد : لفكتور هوجو . الاناء المكسور : لسولي برودم

٢٤٥ باب المراسلة والمناظرة — ارشاد لغوي : لعبد الرحيم بن محمود . الهشاب والقتاد والعكوب : للفريق الدكتور امين المعلوف باشا

٢٤٧ مكتبة المقتطف * تآليف المستشرقين : منزلة الفارابي . المدخل الى ابن سينا ورسالة الحدود له : للدكتور بشر فارس . المعجم في بقية الاشياء . ضحى الاسلام : لاسماعيل مظهر . ديوان حافظ : لمحمد عبد الغفور . شعراؤنا الضباط : لعباس حسان خضر . هوامش الصحافي العجوز : لمحمود ابو الوفا

٢٦٠ الاخبار العلمية * نورمندي . تهجين القمح : لعوض جندي . العين وطول الحياة . آذان جديدة للجيش . سرعة الحيات او بطؤها

قائمة سلسلة المطبوعات العصرية

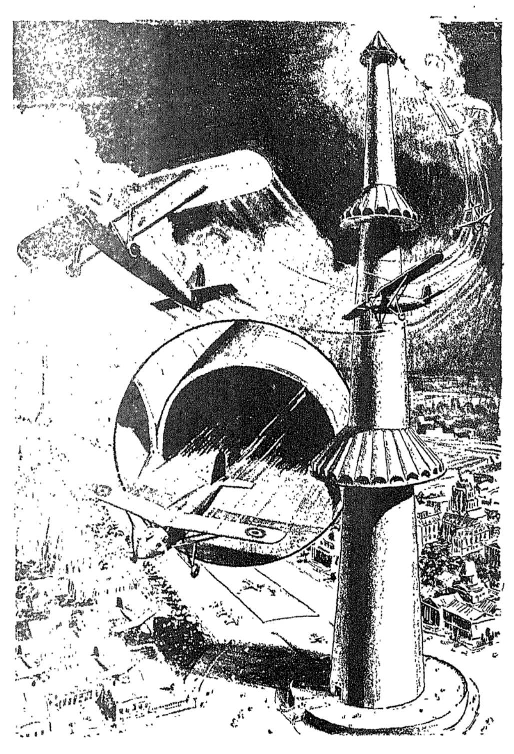
التي عنيت بنشرها « ادارة المطبعة العصرية » بشارع الخليج الناصري رقم ٦ بالفجالة بمصر

م

٣٥ القاموس العصري انكليزي عربي (طبعة ثانية)
٧٠ « « « « (طبعة ثالثة)
٧٠ « « عربي انكليزي (طبعة ثانية)
٣٥ « المدرسي عربي انكليزي وبالعكس
٣٠ قاموس الجيب عربي انكليزي وبالعكس
٢٠ « « عربي انكليزي فقط
١٥ « « انكليزي عربي فقط
٧٠ « سقراط سبيرو عربي انكليزي (باللفظ)
٥٠ « « « انكليزي عربي (باللفظ)
١٠٠ « « « « « وبالعكس
١٠ التحفة المصرية لطلاب اللغة الانكليزية (مطول)
١٢ الهدية السنية لطلاب اللغة الانكليزية (باللفظ)
١٠ الف كلمة الماني (لتعليم الالمانية بسهولة)
١٥ في اوقات الفراغ (للدكتور محمد حسين هيكل بك)
١٠ عشرة ايام في السودان « «
١٢ مراجعات في الادب والفنون للاستاذ عباس العقاد
١٥ روح الاشتراكية (لغوستاف لوبون) وترجمة (الاستاذ محمد عادل زعيتر)
١٥ روح السياسة « «
١٠ الآراء والمعتقدات « «
١٠ اصول الحقوق الدستورية « «
٨ الحضارة المصرية (لغوستاف لوبون)
١٥ حضارة مصر الحديثة (تأليف كبار رجال مصر)
١٠ الحركة الاشتراكية (رمسي مكدونلد)
١٥ ماقي السبيل في مذهب النشوء والارتقاء
٨ اليوم والغد (الاستاذ سلامه موسى)
١٠ مختارات « «
٨ نظرية التطور واصل الانسان « «
٢٠ اناتول فرانس في مباذله (للامير شكيب ارسلان)
١٥ الدنيا في اميركا (الاستاذ امين بقطر)
١٠ المرأة الحديثة وكيف نسوسها (عبدالله حسين)
١٠ جريمة سلفستر بونار (اناتول فرانس)
٥ المرأة بين الماضي والحاضر
٥ مركز المرأة في شريعتي موسى وحمورابي
١٥ حصاد الهشيم (الاستاذ ابرهيم عبد القادر المازني)
١٠ قبض الريح (« « « « «)
٨ نسمات وزوابع شعر منثور مصور
١٠ رسائل غرام جديدة (سليم عبد الواحد)
١٠ الغربال في الادب العصري (مخائيل نعيمة)
٥ حكايات الاطفال ، اول (مصور بالالوان)
٥ « « ثان « «
٥ « « ثالث « «
٥ تذكرة الكاتب طبعة منقحة لاسعد خليل داغر
٢٥ جمهورية افلاطون (الاستاذ حنا خباز)
٦ مراقي النجاح (الارشمندريت بشير)
٥ مريم المجدلية (موريس ميترلنك)

م

١٠ التربية الاجتماعية (للاستاذ علي فكري
٥ خواطر حمار (الاستاذ الجليل) حميد
٥ التعليم والصحة للدكتور محمد بك عبد ا
١٥ الحب والزواج (للاستاذ نقولا حداد)
١٥ ذكراً وانثى خلقهم « « «
٥٠ علم الاجتماع (جزآن كبيران) «
١٥ اسرار الحياة الزوجية « «
٣٠ الامراض التناسلية وعلاجها للدكتور فخري
٢٠ المرأة وفلسفة التناسليات « «
٢٠ الضعف التناسلي في الذكور والاناث «
١٥ الزنبقة الحمراء (للاستاذ احمد الصاوي محمد)
١٠ تاييس « « « «
٥ مكايد الحب في قصور الملوك (اسعد خليل داغر)
١٠ القصص العصرية (٨٠ قصة كبيرة مصورة)
١٠ مسارح الاذهان (٣٥ قصة كبيرة مصورة)
١٢ رواية اهوال الاستبداد ، مصورة
١٠ « فاتنة المهدي ، او استعادة السودان
٨ « الانتقام المذهب (اسعد خليل داغر)
٥ « فقر وعفاف (الاستاذ احمد رأفت)
١٢ « باريزيت ، مصورة (توفيق عبد الله)
١٢ « غرام الراهب او الساحرة المجدورة
٧٥ « روكامبول ، ١٧ جزء (طانيوس عبده)
٢٥ « ام روكامبول ، ٥ اجزاء «
٢٠ « باردليان ، ٣ اجزاء «
٢٠ « الملكة ايزابو ، اجزاء «
٢٠ « الاميرة فوستا ، جزآن «
٢٠ « عشاق فنيسيا ، جزآن «
١٦ « الساحر العظيم ، اجزاء «
١٦ « كابيتان ، جزآن «
١٦ « الوصية الحمراء ، جزآن «
١٦ « بائعة الخبز «
١٢ « المبرج ، جزآن «
١٠ « فارس الملك «
١٠ « ضحايا الانتقام «
٨ « المرأة المفترسة «
٥ « المتنكرة الحسناء «
٥ « مروضة الاسود «
٥ « شهداء الاخلاص «
١٦ « دار العجائب جزآن (نقولا رزق الله)
١٠ « فرنسوا الاول « «
١٠ « الجنون فنون « «
٨ « حورية « «
٨ « الغلامان الطريدان « «
١٢ يسوع ابن الانسان (جبران خليل جبران)
٥ النبي (« « «)
٥ آلهة الارض (« « «)



صورة برج ينتظر تشييده لمعرض باريس سنة ١٩٣٧ علوه ٦٩٠٠ قدم
وقطره عند قاعدته ٧٠٠ قدم وعند قمته ١٢٥ قدماً

المقتطف
مجلة علمية صناعية زراعية
الجزء الثالث من المجلد السابع والثمانين

١ اكتوبر سنة ١٩٣٥ — ٤ رجب سنة ١٣٥٤

الغدد والشخصية

الشخصية لفظ مولّد ، حديث التوليد في اللغة العربية ، ولّد ليدلّ على ما يدل عليهِ اللفظ الانكليزي Personality . والشخصية لفظ يصعب تحديدهُ حتى في اللغات الاعجمية ، وان كان معناهُ بوجهٍ عام لا يخفى على اللبيب . وموضوع هذا الفصل يتناول اثر الغدد الصمّ في احداث المميزات الخاصة التي تميّز شخصية عن اخرى . وهو من قلم الدكتور هسكنز Hoskins مدير معامل البحث في معهدٍ خاصٍّ بدرس الجهاز العصبي والغدد الصم في مدرسة الطب بجامعة هارفرد الاميركية

في كل جسمٍ غدد كثيرة . وهي في الواقع معامل كيمائية حيّة . ولعلّ اشهرها الغدد اللعابية التي تفرز اللعاب فترطب بهِ الفم . والغدد الدمعية التي تفرز الدموع . وغدد العرق في الجلد التي تفرز العرق فتهسل على الجسم الابتراد بتبخرها في حرارة الصيف . هذه الغدد جميعاً تتناول من الدم الذي يجري فيها في عروق دقيقة ، مواد مختلفة ثم تركبها فتصنع منها مفرزاتها الخاصة بها . ثم تفرز هذه المفرزات في اقنية خاصة الى الفم او العيون او سطح الجلد

ولكن الغدد التي يدور عليها بحثنا في هذا الفصل تختلف عن الغدد التي تقدّم ذكرها ، في ان مفرزاتها لا تفرز في اقنية الى الخارج ، بل تعاد رأساً الى الدم وهو مارٌّ في عروقهِ الدقيقة التي تخترقها . وفعلها لذلك لا ينحصر في عضوٍ خاص دون آخر ، بل تجري مع الدم الى جميع اعضاء الجسم وانسجتهِ فتؤثر فيهِ تأثيراً يختلف باختلاف العضو او النسيج وباختلاف المادة المفرزة والغدة التي افرزتها

هذه الغدد تعرف بالغدد الصمّ ، ومفرزاتها تعرف بالمفرزات الداخلية او بالهرمونات

والهرمونات من اقوى العقاقير التي عرفها الانسان واشدّها فعلاً . ففي كل جسم سويّ ، مبلغ خمس قمحة من هرمون تفرزه الغدة الدرقية . والجسم يستعمل من هذه المادة نحو ثلاث قمحات ونصف قمحة في السنة ، اي انهُ يستعمل منهُ ما قدره نصف قرص من الاسبيرين . ولكننا مع ذلك لا نستغني عنهُ ، بل اذا أضربت غدة احدهم الدرقية لعلّة ما ، عن افراز هرمونها هذا (وهو يعرف باسم الثيروكسين نسبةً الى اسم الغدة ثيرويد وقد يصحّ ان ندعوه باللغة العربية دَرَقين قياساً على نسبتهِ الى اسمها العربي) فقد ذلك الرجل نعمة الفكر واصبح أبله لا يعقل

وثمة هرمونات اخرى غير الثيروكسين ، تشبههُ في قوة فعلها ، بل بعضها يفوقهُ ، ونحن نعتمد عليها في حياتنا وفي كل ما يجعل لهذه الحياة شأناً في نظرنا

على اننا يجب الاَّ نغالي . فبعض الكتّاب الذين المّوا ببعض ما للغدد الصم من الاثر في حياة الانسان تطرّفوا في القول اذ ذهبوا الى ان شخصية الانسان لا تعتمد الاّ على مفرزات الغدد الصم . ولكن الواقع ان العناصر والعوامل التي تكوّن « الشخصية » كثيرة ومختلفة . ولكن العنصرين الذين يفوقان غيرها في تكوينها ، هما ذهن الانسان وشعوره ، أي تفكيره وانفعاله . فعلى عقلهِ يتوقف الرأي في هل هو ذكيّ أو أبله ، والذكاء يتوقف على الدماغ الذي يرثهُ الانسان من اسلافهِ . ولكن نموّ العقل يتوقف الى حد بعيد على هرمونات الغدد الصم . وأهم من العقل في تكوين الشخصية انفعال الانسان وحدتهُ ومداه وكبتهُ لانفعاله او استسلامه لهُ فنحن نحب من الرفاق من كان مرحاً لعوباً ، وقد نعرض عمن كان مقطباً يغلب فيهِ القتام على النور . والانفعال متصل اوثق اتصال بالغرائز . بل قيل ان الانفعالات تمثل للانسان ما تحسّ بهِ غرائزه . والغرائز تعتمد اعظم اعتماد على مفرزات الغدد الصم في طبيعتها وقوتها

فلننظر الآن في بعض هذه الغدد كل على حدة

في الدماغ غدة تدعى الغدة النخمية Pituitry تقع في منخفض من الجمجمة في مؤخر الدماغ . فاذا عجزت هذه الغدة عن النموّ نموّاً سويّاً ، ظلّ صاحبها صغير الجثة طول الحياة . وصغر جثتهِ يميزهُ عن غيره ، ويؤثر من الناحية السيكولوجية في شخصيتهِ ، لانهُ يحسّ دائماً بحافز نفسي يحفزه الى محاولة التعويض بكلامهِ أو عملهِ عن هذا النقص البادي في جسمهِ

واذا كبرت هذه الغدة في عهد الطفولة كبراً غير سويٍّ ، نشأ جسم صاحبها عملاقاً . ففي احدى الولايات المتوسطة في اميركا شاب في السابعة عشرة من العمر ، يبلغ طوله ثماني اقدام ، لأن غدتهُ النخمية طغت في نموها وكثرة افرازها على الحدود الطبيعية . فاذا طغت الغدة النخمية هذا الطغيان بعد سني الطفولة ، ظهر اثرها في نمو الجسم نمواً مشوّهاً . فقد تطول الذراعان والساقان ولا يكبر الرأس . أو قد يكبر الرأس وتطول الساقان وتبقى الذراعان سويتين . فيصبح صاحبها مسخاً من المسوخ يشبه الغورلاّ . ولا ريب في ان لهذا التشويه الخَلْقي تأثيراً في خُلُقهِ وشخصيتهِ

بل عليهِ ان يواجه خطراً اعظم من هذا . فانهُ يكون في بدءِ نموّهِ العجيب نشيطاً شديد النشاط وافر الحيوية ، فيفعل ما يعجز عنهُ الاسوياء ثم تضعف قوتهُ ويخمد نشاطهُ ويصبح وكأنهُ حطام انسانٍ لا انساناً . وعلماء الولايات المتحدة الاميركية يضربون المثل في هذا التحول بلاعب رياضيّ مشهور عندهم زاد ما تفرزهُ غدتهُ النخمية ، فصار لوفرة نشاطهِ يقذف الكرة (بايس بول) قذف جبّار فيعجز انداده عن ردها أو التقاطها . فطار ذكرهُ كلَّ مطار ، وصار كل فريق يتنافس مع الفريق الآخر في ضمهِ اليهِ ، ثم لم يلبث حتى خبت تلك الشعلة فيهِ وخمد ذلك النشاط ، فأخذ يهوي من فريق المقدمة الى آخر في المرتبة الثانية فالثالثة ، الى ان اصبح متشرداً زائغ البصر متهدّل الاعضاء

وتفرز الغدة النخمية هرموناً آخر لهُ صلة وثيقة بالنموّ الجنسي او الشقي (sexual) . فاذا عجزت هذه الغدة عن افراز المقدار الكافي من هذا الهرمون ، ظلّ صاحبها من الناحية الجنسية هو والطفل سواء . ولا يبعد ان يكون هوَسة المصلحين من هذا الطراز من الناس . فان عجزهم عن اشباع الغريزة الجنسية فيهم يدفعهم الى محاولة اصلاح العالم ، ويغالون في محاولتهم ، لان ذلك يضفي عليهم لوناً من ألوان الشعور بالقوة والسلطان

وقد كشف العلماء من عهد قريب هرموناً آخر تفرزهُ الغدة النخمية يضبط توليد اللبن في الانثى. ففي المراحل الاخيرة من حمل المرأة ، وبعد ولادة الطفل ، يكون عمل هذا الهرمون تنبيهَ الاعضاء والنسج اللازمة لاعداد غذاءِ الوليد . وقد ثبت ان لهذا الهرمون — وقد دعي باسم برولاكتين prolactin — أثراً في فعل غرائز الامومة وتنبيهها في الحيوان ، ولا يبعد ان يكون لهُ هذا الاثر نفسهُ في الانسان كذلك . فحقن هذا الهرمون في اناث الجرذان حملها على ان تتبنى صغاراً وترأمها بعناية الام . وحقن الديوك بها حملها على أن تقيق قَيْق الدجاج. ولا اريد ان اقول ان حب الام يرجع الى هذا الهرمون وانما ارجح ان البحث في المستقبل سوف يبيّن ان للبرولاكتين اثراً عظيماً في حب الام

***

في الجانب الاسفل من العنق نجد الغدة الدرقية . فاذا عجزت هذه الغدة عجزاً مطلقاً عن افراز هرمونها ، كانت سرعة الافعال الحيوية في صاحبها نصف سرعتها في الاسوياء من الناس فيكون في الغالب شارد الفكر بطيء الفهم ضعيف الذاكرة . اما حياتهُ الانفعالية فتكاد تكون كالبحر الرهو لا يثيرها مثير ولا يحفزها حافز ، ولكن البحث أثبت ان العجز التام في الغدة الدرقية نادرٌ ، ولكن بعض العجز فيها ليس بالنادر ، بل هو كثير الوقوع ، ومما يبعث على الاسف ان معظم الاطباء يتخطَّاهُ او يجهلهُ

فالذين تعجز غددهم الدرقية عن افراز هرمونها ، بعض العجز ، يميلون الى السمنة في الغالب ، ويتعبون بسرعة من كل عمل جسماني ، ويغضبون ويبرمون لاقل سبب . ثم تراهم وقد جمعوا ما تفرّق

من حبال حياتهم ، فيملكون زمام امرهم ، ولكن ذلك لا يطول ، فيستغرقون في لجة الشعور بالضعف والعجز . ولا يمكننا الآن ان نستند الى احصاءات وافية في هذا الصدد ، ولكن المرجَّح ان الذين يوصفون في الحياة والمجتمع ، بانهم مصابون بالنورستينيا هم في الواقع مصابون بعجز غير تام في غددهم الدرقية

ولا بدَّ من القول في هذا المقام ان للنورستينيا اسباباً اخرى غير عجز الغدة الدرقية ، ونقص هرمونها ، فاذا كان السبب هذا العجز امكن في الحال اصلاحها . فاضافة عُشْرحبة من خلاصة الغدة الدرقية في اليوم يكفي احياناً لذلك

يقابل ذلك ان لتضخم الغدد الدرقية وطغيان افرازها نتائج اصعب من نتائج عجزها ونقص هرمونها . فتضخمها وطغيان هرمونها يزيدان سرعة الافعال الحيوية ، بل يضاعفانها احياناً ، فيعيش صاحبها وكأنهُ سلك كهربائي ، فيصبح نهماً ولكن نهمتهُ قلما تجدي في تجهيز موقده الحيوي بالوقود الكافي ، فلا يلبث ان يحترق فعلاً ويموت . وقد عولج بعضهم باستئصال هذه الغدة وحقن صاحبها بمقدار ما يجب ان تفرزهُ الغدة السوية في جسمهِ كل يوم فنجح العلاج . أو قد يستأصل جانب منها حتى لا يفرز الباقي من الهرمون الاَّ ما يكفي صاحبهُ ليعيش عيشة سوية

***

وفي اعلى الصدر الغدة الصعترية وقد طال البحث فيها ولكنهُ لم يسفر بعدعن نتائج يصحُّ السكوت عليها . وانما يظنّ ان لها صلة بالنموّ وان ضمورها او عدم نموّها يجعل صاحبها ضعيف الجسم ضعيف الشخصية . ولكن في خلال السنة الماضية جربت تجارب بهرمونها دلّت على ان حقنها في صغار الجرذان يستعجل نموها ويستحثّ افعالها الحيوية والعقلية

فقد اخذ الدكتور رونتري الاميركي وصحبه طائفة من الجرذان واضافوا الى غذائها خلاصة الغدة الصعترية خمسة اجيال متعاقبة . ثم لاحظوا جرذان الجيل الخامس فاذا السرعة في نموّ الجرذان نموَّاً جسميَّاً وعقليَّاً ستة اضعافها في الجيل الاول . فقد ظهرت الاسنان في جرذان الجيل الرابع في خلال اربع وعشرين ساعة تقابلها تسعة ايام او عشرة في الجيل الاول . وفتحت العينان ونبت الصوف في جرذان الجيل الخامس في اليوم الثاني والثالث بدلاً من اليوم الرابع عشر الى السابع عشر . وفطمت في اليومين الثاني والثالث بدلاً من اليوم السادس . وتقدمت سن البلوغ في ذكور الجيل الخامس الى الفترة الواقعة بين اليوم الرابع واليوم الثامن عشر بدلاً من الفترة الواقعة بين اليوم الخمسين واليوم التسعين . اما في الاناث فتقدمت سن البلوغ فيها من ٧٠ — ٩٠ يوماً الى ٢٠ — ٢٥ يوماً وزادت قوة الاخصاب كذلك

وهذا اذا تصورنا ما يقابله في البشر كان كما يأتي : اذا اضفنا خلاصة الغدة الصعترية الى غذاء

خمسة اجيال من فريق من الناس استطعنا ان نفطم طفل الجيل الخامس اذ يبلغ بضعة اسابيع من العمر وتمكن الطفل نفسه من المشي وعمره نصف سنة وان يبرع ويبرز في الالعاب في الخامسة وان يتخرَّج في المدارس الثانوية وهو في العاشرة

ومن الغدد التي لها تأثير في شخصية الانسان الغدد المعروفة بالغدد الكلوية . وهي واقعة في الجسم فوق الكليتين . وتفرز هرموناً يعرف باسم الادرينالين . والراجح ان افراز هـذه الغدد لا مقام لهُ في حياته الهادئة المألوفة . ولكنهُ يصبح ذا شأن كبير في الحوادث العارضة والمفاجآت والاحوال التي يسيطر فيها الانفعال على الجسم . ففي هذه الاحوال تفرز هذه الغدد افرازها الخاص فتمكن الجسم من مواجهة الحالة الجديدة ، التي تقتضي احياناً الفرار من خطر محدق ، او القوة والنشاط في مواجهة خطر محدق . ولولا الادرينالين هذا لما كانت شخصية الانسان ما تكون عليهِ عادةً في امثال هذه المواقف

ولكن الفرق بين الانسان البدائي والانسان المتحضر ان العوارض كانت تقتضي من الاول دائماً نشاطاً عظيماً في مواجهتها او الفرار منها وكان الادرينالين يعينهُ على ذلك ولكن الانسان المتحضر يجد ان بعض هذه المواقف العارضة تقتضي منهُ كبت الانفعال وكبح جماح النفس ، ومع ذلك تظل هـذه الغدد تفرز الادرينالين والادرينالين يحثّهُ من غير أن يدري إلى النشاط والعنف . فتزيد صعوبة ضبط النفس عليهِ

وتفرز الغدد الكلوية هرموناً آخر يدعى « كورتين » والظاهر ان لهُ تأثيراً عامًّا في جميع خلايا الجسم . فاذا عجزت هذه الغدد عن افراز الكورتين اصيب صاحبها بمرض يدعى مرض أَديسن فيضعف جسمهُ ويصبح قلقاً برماً تسهل استثارتهُ ويرغب عن التعاون مع رفاقهِ . فاذا حقن بالكورتين استردَّ عافيتهُ ونشاطهُ ورغبتهُ في العمل والتعاون . ولم يفرغ العلماء حتى الآن من بحث هذا الهرمون وتأثيرهِ في الجسم وانما تدل بعض التجارب والحوادث التي وصفها الاطباء على ان لهُ صلةً بالحياة الجنسية

***

واخيراً لا بدَّ من كلمة عن الغدد الجنسية أو الشقية . ففي العصور القديمة كانت الحيوانات المستعملة في الحقول تخصى لكي تلين ولا تشاكس ولكي يسهل تسمينها توطئة لبيعها . فاذا ازيلت هذه الغدد قبل البلوغ ، في الحيوان أو في الانسان ، قصَّر مَنْ تسلُّ منهُ ، عن البلوغ الجنسي ، وفقد النشاط ، فيفقد الحيوان شهوة المزاوجة والانسان كل عناية بالجنس الآخر . ولكن اذا عملت عملية السلّ بعد سن البلوغ كان لها نتائج تختلف عن نتائجها قبلهُ . فيصبح الرجل قلق الطبع ، وتضحى المرأة شديدة الانفعال سريعة التبرُّم والتأثر ، وفي كلا الجنسين يميل من سُلَّت غدده الجنسية الى السمنة

حكمة « جوته »

بقلم عبد الرحمن صدقي

ليست الحكمة وقفاً على الشيخوخة . ولكن الحكيم لاشك يزداد مع السن حكمة بما يجتمع له على تطاول الايام من المشاهدات والتجاريب ينضم بعضها الى البعض فيستوفي بها الجملة ويبلغ القمة . فاذا اضفنا الى هذا ما هو معلوم مشهور عن الالمان من انهُ لا كاتب منهم الا وهو بطبعه من طلاب الفلسفة ونقاد الاخلاق ، لخلص لنا التقدير الصحيح لحكمة جوته كبير ادبائهم وهو في السبعين من عمره الحافل المديد. وهذه الحكمة التي تعرض لآفاق الفكر جميعها من فنون وعلوم وشعر وخبرة عملية وفلسفة ودين وغير ذلك لا تنحصر في حيز بعينه كالازهار المجففة بل هي الشجرة الفينانة تمتد اغصانها ناضرة الريعان وتنوّر غلائلها متعددة الالوان في كل صفحة من صفحاته وفي كل سفر من اسفاره سواء أكان منظوماً او منثوراً ، مبحثاً علمياً او نقداً فنياً ، قصصاً او ترجمة لحياته او مسرحية من عديد مسرحياته . وجوته مثال الحكيم . والذي يجعله اتم تمثيلاً للحكمة هو انهُ أوتي ما لا يؤتاه الحكيم عادة من مختلف المواهب وشتى الدوافع النفسية

وتقوم حكمة جوته على انهُ لا ينفك يضم الى نفسه ما تشعب ويؤلف المتعارض من الميول والنزعات كما تلتقي اقطار الدائرة في المركز . فليس هو من اهل المذهب المدرسي ولا المذهب الابداعي وانما هو فيما وراء هذا وذاك . وليس هو بالمسيحي ولا الوثني ولا غير ذلك من العقائد الملزمة لانهُ في المحل الأرفع الأبعد ونعني به الاقرب الى المركز حيث لا تشعب ولا افتراق . فهو يستوفر ويستكثر على الدوام ومن كل شيء . وكأنما عنده سر يجعل القيم المتفاوتة ووجهات النظر المتضاربة تجتمع في عيشة واحدة بل ينضاف بعضها الى البعض فيحصل من تضافرها زيادة الكل . ولم يكن جوته في موقف سالب يترك الاشياء تقبل عليه فحسب. بل كان فعالاً موجباً يسعى لها ويجذبها اليه من شتى الآفاق مهما كانت غريبة وسحيقة . والعجيب العجيب ان نجد مجموع هذه الاشتات الهائلة فيه كتلة متماسكة . وثمة عظمة جوته الحكيم . وسيلمس القارىء هذا الجمع العجيب مجلواً فيما اخترناه له من اسفار الحكمة في ديوانه الشرقي :

كتب التفكير والحكمة والمثل

تصدر هذه الكتب عن تجاريب شاعرنا وحكمته بعد بلوغه هذه السن . وهي حافلة بالهداية والعبرة . ولا مشاحة في ان جوته افاد الكثير في هذا الباب من مطالعاته لترجمة كتاب العظات لفريد الدين العطار وكتاب قابوس فضلاً عن المامه بحكم لقمان وبيدبا وغيرهما . ونحن نجتزىء بفقرة من كل سفر من اسفار جوته الثلاث على سبيل المثال :

﴿لذة الاحسان﴾ ما احلى نظرة الجارية ذات الدل وهي تغمز بطرفها ، والنديم تلمح عينه بالرضى ساعة يحتسي كأسه ، وما أحلى تسليم السيد الآمر يشملك بعطفهِ ، وشعاع الشمس في الخريف ينعشك بدفئهِ . فليكن أحلى من ذلك جميعه في نفسك هذه الخفة اللطيفة تمتد بها كف الفقير في طلب الصدقة وتتلقى منك بالحمد الجميل ما تجود بهِ . وما أحلاها وقتئذٍ نظرة وما احلاها تحية وما أحلاها بلاغة في السؤال . تأمل هذا فاذا أنت الكريم الجوّاد على الدوام»

﴿دين التسليم﴾ « من الحماقة أن يتعصب كلٌّ لدينه . واذا صحَّ أن الاسلام هو التسليم لله لوجب أن نحيا ونموت مسلمين أجمعين »

﴿مثل الايمان﴾ « تحدَّرت من السماء الى لجة الخضم قطرة مرتجفة . فألحت عليها الأمواج خفقاً وتصفيقاً . ولكن الله جزاها عن صبر إيمانها خيراً . فوهب لقطرة المطر قوةً واعتصاماً . فاحتوتها الصدفة في حرز حريز . وأتمَّ عليها العز والجزاء الأوفى فهي اليوم على تاج مليكنا درّة تتألق حلوة اللمح سنية البهاء »

كتاب السخط

ليس في طاقة الانسان أن يكبت فورات غضبه ويكظم نوازي نقمته . بل من الخير أن يحتال على تنفيسها ، ولاسيما ان كان حرج صدره بحيث يكدر صفاء الخاطر ويعتاق الخيال عن تحليقه . وأمرّ ما يعانيه الشعراء سوء التقدير فتراهم يقابلونهُ بالمغالاة بأقدارهم والمفاخرة بمزاياهم. وليس يخاف ان الناس اذا ذكروا العظماء فأول ما يحبون امتداحه فيهم التواضع ثم لا يفيضون فيما عداه من المناقب والملكات . والتواضع ابداً حليف المصانعة وضرب من التمليق مقصود بهِ الى إنامة الحسد أو الشعور بالغضاضة بين فاضل ومفضول ، فهو في الظاهر تسوية وفي الباطن ترضية وكأنهُ اعتذار النابغ عن نبوغه . وما حسن المعاشرة بين الناس الاَّ انكار كل كبير لنفسه وفي هذا حكم على المجتمع بالبطلان ، اللهمَّ الاَّ اذا تأتت للكبير القدرة على ان يترضى اعتزاز الغير بأنفسهم ليرتضوا منهُ اعتزازه بنفسه . ولقد كان شعراء الشرق يبسطون اللسان في ممدوحيهم بالهجاء كلما أخلفوا منهم الظن وخيبوا الرجاء أما شاعرنا فكان ذا حظوة عند الامراء . وانما شكواهُ من سوء التقدير من الشعب وعليهِ يصب جام نقمته وسخطه

﴿البغض بالجملة﴾ « اني لأحب البغض ولا غنى للفؤاد عن حبه . وليس بي بغض شخص بعينهِ . فاذا كان لا بدَّ لي من البغضاء فها أنذا على الاهبة ، أبغض أصنافاً من الناس بالجملة »

﴿اعتبارات سخيفة﴾ « يعاب على المرء مدحه لنفسه . ولكن أليس فاعل الخير بالمادح نفسه بالخير الذي هو فاعله ! ثم، أليس الخير لولا التعمية في الكلام هو الخير في كل حال وبالرغم من كل مقال! أيها الحمقى ، ذروا للحكيم الواثق بحكمته أن يلذ مثلما تلتذون جنونكم بالاستهتار بتافه محامدكم وسخيف اعتباركم »

﴿ ماذا في الكبر ﴾ « ما بالكم أيها المشايخ الدجاجلة ، تذمون نفخة الكبر العاتية ؟ لو شاء الله لي أن أكون دودة لكان خلقني دودة »

﴿ كيد الوضيع للرفيع ﴾ « كيف ألومهم ، وهذا لسان حالهم يقول : ليس في الامكان أن نرفع رفيعاً الاَّ وضعنا من أنفسنا . أو كنا نحيا لو تركنا غيرنا يحيا ؟ »

﴿ شاهد الكنود ﴾ « ما من سعيد هانيء الاَّ بادره الجار بالتنغيص . كذلك لم يعش ذو فضل حياته العاملة الاَّ كان همّ الناس في رجمه ، فأذا ما قضى نحبه جمعوا على الفور الهبات الوفيرة ليقيموا لتكريم هذا المنكود بهم تمثالاً . ولو عقلوا وجه مصلحتهم لكان الأولى لهم ان يكتموا أمر المسكين ويدعوهُ في طوايا النسيان أبد الآبدين »

﴿ الدناءة ﴾ « فيمَ التشكي من الدناءة ، وانها في الدنيا لذات الحول والطول . هي صاحبة الامر في الشر طلباً للمنفعة، وهي المتصرفة في العدل كما شاءَ لها الهوى . أفتريد أيها الحاج المتنطس خروجاً على القضاء المحتوم ؟ ألا دع الصلصال والاعصار ، فلا بدَّ من الدوار وتذرية الغبار »

كتاب الساقي

لا يمكن أن يخلو ديوان شرقي من ذكر الولع بالخمر وهوى الغلمان . ويقول جوته انهُ بمقتضى أدب العصر يتناول هذا الغرض الاخير بمنتهى الطهر . ويقدم الى ذلك بأن الميل المتبادل بين الشباب والكبر هو على أصح معانيه علاقة تهذيبية بين معلّم ومتعلم. وتعلّق الفتى بمن يكبرهُ سنّا ليس بالظاهرة النادرة ولكن النادر هو حسن الالتفات الى الاستفادة منهُ . وليس أدل على ذلك من مراقبة العلاقة بين الحفيد والجد ، ففي هذه العلاقة تنمو ذهنية الاطفال حق النماء ولان همهم يكون منصرفاً الى الشيخ المحبوب يرعون وقاره ويطيعون كلمته ويعون ما استطاعوا وعيه من خبرته . وما لنا نقصر الكلام على سن الطفولة ، وهذي سائر النفوس المطبوعة على الطهر تأنس من نفسها في كل اطوارها حاجة الى هذه العلاقة القائمة على التقدير والاجلال . ولئن كان الصبي يستغل أحياناً عطف الشيخ لادراك رغائبه الصبيانية واشباع بداوته البريئة الاَّ ان اصطناعه التلطف والمراضاة يحمل على التساهل والاغضاء . وليس الشيخ بأقل سعادة بهذه العلاقة فانه ليطربهُ ويتصباهُ أن يرى الفتى الغضّ الطموح مأخوذاً بالعجب والاعجاب برجاحة عقله وحكمة سنّه في حين تنبثق طوالهُ من هذا العقل في النفس الناشئة الزكية . واليك بعض المقطعات من هذا الكتاب :

— فلنكن سكارى جميعاً. فالشباب سكر بلا خمر، والشيوخ يستدركون الشباب بفضل الشراب، ولا غرو فالحياة المسكينة معذبة بالهم ، وليس يطرد الهم مثل الكرم

— الخمر محرَّمة بلا ريب . فاذا كان لا بدَّ من شربها فلا تشربها الاَّ صرفاً . فانك ان عاقرتها ممذوقة كنت مضاعف الاثم

— أقول غير مبالغ في القول : من كان منكم غير قادر على الشرب فليس يصح له حب . كذلك

انتم أيها الندامى لستم بأحسن حالاً ، فمن كان منكم غير قادر على الحب فليس يصح له شرب

— تعال أيها الغلام الحبيب . لماذا تلزم الباب ؟ كن من اليوم نديمي تكن الخمر كلها رحيقاً

— يا لك من خبيث صغير ! أبق من الخمر على رشدي . وهذا هو المهم عندي ، لكي آنس بقربك أيها النديم الخبيث على الرغم من سكري

— اليوم في البكور قامت في الحانة جلبة يا لها من جلبة ، صاحب الحان والقيان والمشاعل والزحام . وكم من لجاج وكم من خصام ! والناي يعزف والطبل يقرع . عربدة ما أفظعها عربدة . فدخلت مع الناس في غمارها من غبطة ومن حب . ان الخلق لينعون عليّ الاستهتار وخلع العذار ولكنني مبتعد في حزم وسلام عن مجادلة فقهاء المكاتب ووعاظ المنابر

— يدعونك الشاعر العظيم كلما طلعت في الاسواق . واني لشديد الاصغاء حين تنشد واني لأشد اصغاءً لك حين تصمت . ولكني أحبك اعمق ما احبك حين تقبلني قبلة التذكار . فان الكلام يذهب ، أما القبلة فباقية في صميم الفؤاد . ولئن كان لنظم القوافي قدرها الكبير فان خيراً منها إطالة التفكير . فانشد الناس فنوناً من النظيم واصمت صمتك البليغ مع النديم

كتاب الفرس

في هذا الكتاب يشيد جوته بذكر دين المجوس ويرى أن عبادة الشمس والنار مهما تكن معنوية فانها مع هذا عملية جد عملية . ولا غرابة في ان يتحمس جوته لتعاليم من يعبدون الله في نور الشمس وفي النار والهواء والماء وفي خصب الارض وحياة النبات . فان هذا التأليه للطبيعة يتفق واحساسه العميق بها حتى لينطق به كل سطر من « وصية المجوسي الأخيرة » لاخوانه في الدين وهو من الحياة في آخر الذروة المغمورة بالنور الازلي

« اذا الشمس فوق أجنحة الفجر ذرّ قرنها ، واطلّع جانب قرصها الوهاج فوق الذرى ، فمن ذا الذي لا يرفع اليها البصر خاشعاً . لكم أحسست في حياتي المديدة مراراً لا تحصى لدى شروقها انني عارج اليها لكي اشهد الرحمن على عرشه واسبح باسمهِ سبحانه مصدر الوجود ورب العالمين ، ولكي اسلك الصراط المستقيم صراط الذين هم أهل لهذا المشهد العظيم ، ولكي اهتدي ابد الدهر بنوره العميم . وبعد فهذي وصيتي المباركة اودعها صدور اخواني واوكلها الى صدق عزائمهم : « عليكم القيام بفرائض الحياة الشاقة كل يوم . وما بكم حاجة بعدها الى وحي يوحى » . . . .

ويلي هذا تفصيل الفرائض وكلها ناطق بعبادة جوته للحياة وتقديسه الجهاد فيها

كتاب تيمور

يرى جوته ان كتاباً كهذا كان من حقه ان توضع دعائمه بعد عامين كاملين من العكوف والتوفر على موضوعه حتى يتأتى للشاعر مواجهة هذي الخطوب الجسام بما يتفق وروعتها وترامي

آفاقها . كما يحمل به تخفيفاً لفجاعتها من حين الى حين ان يظهر الاستــاذ نصر الدين النــديم الى جانب مولاه الطاغية المخرب . وما اكثر ما يروي الرواة من نوادره ويخص جوته بالذكر هذه النادرة :

«وكان تيمور دميم الخلقة أعور أعرج ، وفي ذات يوم والاستاذ نصر الدين بين يديهِ أمر تيمور بالحلاَّق فلما أتمَّ حلق رأسه عرض لهُ بالمرآة فلما رأى تيمور في المرآة قبحهُ أجهش بالبكاء وبكى الى جانبه الاستاذ . وظلَّ الاثنان يبكيان نحو ساعتين وأقبل بعض الخلاَّن فجعلوا يواسون تيمور ويسرون عنهُ بالحكايات حتى نسي . وكفَّ تيمور عن بكائه ولكن الاستاذ لم يكف بل زادت عبراته انهماراً . فقال لهُ تيمور : « وبعد ، انني نظرت في المرآة فرأيت فرط قبحي ، فحزنت وانا صاحب الحول والطول وخزائن المال والجواري الحسان ان اكون بهذا القبح . وانت ، ماذا يجعلك تبكي وتمضي في البكاء ؟ » فأجاب الاستاذ « إنك صادفت وجهك في المرآة مرة فلم تطق رؤيتهُ وطفقت تبكي . فماذا يكون من امري أنا المقضيّ عليَّ برؤية وجهك صباح مساء ، فاذا لم ابكِ فامن البكاء» فضحك تيمور لقوله حتى استلقى على ظهره

ومع ان الشاعر لم ينفسح لهُ الأجل لتحقيق ما رسمهُ لنفسه ، ووقف عند المقطوعتين اللتين نظمهما ولم يشتمل كتاب تيمور على غيرها الاَّ انهما في الحق حسبه جلالاً وروعةً

﴿ الشتاء وتيمور ﴾ « هذا الشتاء أنزل بهم بلاءه ، وتنفّس بينهم برد انفاسه فثارت صرصراً عاتية ، وسلط عليهم زعازع زمهريره وغواشي صقيعهِ . ثم انحدر حتى مجلس تيمور وأهاب بهِ مرعداً متوعداً : « على رسلك واتئد ايها الشقي ! ايها الطاغية الغشوم ! او لم يكف القلوب ما اصطلت من عذابك وا كتوت بهِ من نارك ؟ فان تك مريداً من الشياطين فانا المريد الآخر . وانك شيخ تمرَّس بالسنين وتمرَّست بهِ واني لكذلك . وانت المريخ وانا كيوان . وكلا الكوكبين شؤم وفي اقترانهما إيذان بالويل والثبور وعظائم الأمور . وانت تهلك الأنفس وتخمد جذوتها ، ولكن رياحي أقتل برداً مما تستطيع . ولئن كانت عصائبك الهمج قد سامت المؤمنين سوء النكال . فقد كان ما كان ! وسترى اذا آن الاوان باذن الله شرَّاً مما جرى . ووالله انك لست لي بكفء وهو على ما أقول شهيد . أجل والله سوف لا تغني عنك حرارة الوطيس المسجور وشواظ كانون شيئاً ، ولن يعصمك عاصم من بردِ الموت

﴿ قارورة العطر ﴾ « لكي يتحبب اليك المحب بالعطر العبق ويزيد في انشراحك وبهجتك ، يهلك العطار على النار العدد العديد من اكمام الورد . وليستقطر ملء قارورة صغيرة تهدى اليك ، قارورة مخروطة مستدقة كسبط أناملك ، لابد لهُ من عالم منها . عالم من القوى الحيّة التي تتفتق عنها الورود مؤذنة بهيام البلبل بها وترجيعه شجيّ اغانيه في حبّها

فهل ترانا نذكر هذه الآلام والعطر يفعم حسّنا ويزيد في متاعنا ! لكم هلكت أنفس لا عداد لها ظلماً في سبيل عظمة تيمور ! »

مجمع اللغة العربية الملكي

للاب انستاس الكرملي

[عضو المجمع]

٥ — النسبة الى الكيمياء : كيمياويّ

وردت (الكيميائي او الكيميائية) بالهمزة ، مراراً عديدة في مجلة المجمع ، وانا اذكر هنا ما ورد منها بهذه الصورة في « خلاصة لاعمال لجنة علوم الحياة والطب » . من ذلك في ص ٦٨ و٧٢ و٧٩ (وكررت اربع مرّاتٍ) و٨٠ و٨٣ (وكررت اربع مرّات) و٩٠ و٩٢ ولا اتعرّض لسرد ما بقي منها في سائر الصفحات ، فان المجلة لم تذكر النسبة الى الكيمياء الاّ بالهمزة اي كيميائي . وهو غلط بيّن لا يحتاج الى التصريح بهِ . نعم ، ان اصحاب الكتب والجرائد والمجلات في ديار وادي النيل يقولون ما نطق بهِ مجلة المجمع . اما العراقيون الخُلَّص والسوريون الاقحاح واللبنانيون الفصحاء والفلسطينيون البلغاء فلا يقولون إلاَّ « كيمياوي او كيموي او كيميّ او كيماوي » حسب تقدير الكلمة المنسوب اليها من « كيمياء او كيميا او كيما » اللهمّ الاَّ بعض الحديثي العهد منهم في الكتابة (والمراد بهم هنا اولئك الذين هم من البلاد الناطقة بالضاد) فانهم اخذوا يقلّدون المصريين في نسبتهم هذه . وهي — على ما قلنا — صريحة الخطأ . وذلك لانك ان اعتبرت هذه اللفظة (اي كيمياء او كيميا او كيما) دخيلة في العربية او اصيلة ، فانك لا تقول إلاَّ « كيمياويّ » اذا نسبتها الى المهموزة الآخر ، و« كيميّ او كيموي او كيماويّ » اذا نسبتها الى كيما

***

اما ان الكيمياوي نسبة الى الكيمياء المهموزة الآخر هي الصحيحة ، دون الكيميائي ، التي هي خطأ شنيع ، فظاهر جلي من كلام سيبويه . فقد قال في كتابه الجليل (٢ : ٧٨ من طبعة بولاق) ما هذا نصُّهُ بحرفهِ : « هذا باب الاضافة الى كل اسم كان آخرهُ الفاً ، وكان على خمسة احرف . . . « واما الممدود ، مصروفاً كان او غير مصروف ، كثر عددهُ او قلّ ، فانهُ لا يحذف . وذلك قولك في خنفساء : خنفساوي ، وفي حرملاء : حرملاوي ، وفي معيوراء : معيوراوي . وذلك ان آخر الاسم لما تحرك ، وكان حيّاً ، يدخلهُ الجرّ والنصب والرفع ، صار بمنزلة سلامان وزعفران ، وكالاواخر

التي من نفس الحرف نحو احرنجام واشهيباب ، فصارت هكذا ، كما صار آخر معزى حين نوّن بمنزلة آخر مَرْمَى . وانما جسروا على حذف الالف لانهامية لا يدخلها جرّ ولا نصب ولا رفع فحذفوها » اه

وقال في ص ٧٩ من كتابهِ المذكور : « هذا باب الاضافة [اي النسبة حسب تعبير الغير] الى كل اسم ممدود لا يدخله التنوين ، كثير العدد كان او قليله — ... فالاضافة اليهِ ان لا يحذف منهُ شيء وتبدل الواو مكان الهمزة ، ليفرقوا بينهُ وبين المنوَّن الذي هو من نفس الحرف ، وما جعل بمنزلتهِ وذلك قولك في ذكرياء : ذكرياوي ، وفي بروكاء : بروكاوي » . اه بنصه

فعلامَ تعتمد اللجنة في قولها « كيميائي » ، فان كانت قد اعتمدت على القواعد العربية المقرَّرة في جميع كتب النحاة والصرفيين فان هذه الضوابط لم تخرج في النسبة عما ذكرناهُ ، اي كيمياوي بالواو لا بالهمزة . اما اذا قيل ان السماع نقل الينا « كيميائي » بالهمز لا بالواو ، فاننا لم نرَ ذلك في ديوان قديم يعتمد عليهِ اعتماد حجة ، أو ثبت ، بل رأينا نحن بالعكس في ما عثرنا عليهِ

قال ابن الاثير (وهو كما تعلم من فصحاء الاخباريين وعبارتهُ منقحة احسن من عبارات كثيرين من اندادهِ) في حوادث سنة ٥٠٢ للهجرة (١٠ : ٣٣١ من طبعة ليدن في هولندة) : « وصل الى المهدية ثلاثة نفر غرباء ، فكتبوا الى اميرها يحيى بن تميم يقولون انهم يعملون الكيمياء ، فاحضرهم عنده وأمرهم ان يعملوا شيئاً يراهُ من صناعتهم ... فلما رأى الكيماوية المكان خالياً من جمع ثاروا بهم ... واخذ القائد ابرهيم السيف فقاتل الكيماوية ، ووقع الصوت ، فدخل اصحاب الامير يحيى فقاتلوا الكيماوية ، وكان زيهم زي اهل الاندلس »

وقد لاحظ الناشر ان في نسختين من هذا الكامل وردت في مكان الكيماوية « الكيميانية » (اي بنون بعد الالف) قلنا : وهذه تكون على الطريقة الإرَميَّة ، وليس على الاسلوب العربي الفصيح ، ولعلها من الناسخ الذي كان واقفاً على اسرار النسبة عند الإرَميين . ووردت الكيماوي والكيمياوي في كتاب النويري على ما ذكره دوزي في معجمه . وذكر دوزي عدة مؤلفين استعملوا الكيماوي والكيموي في كلامهم فنحيل القارىء على مطالعة معجمه . ثم قال المستشرق الهولندي المذكور : « ذكر الكيميائي » بالهمز صاحب الفهرست في ص ٣٥١ من طبعة الافرنج ، الاَّ ان الاعتماد على نص هذا الكتاب ضعيف ، لأن النسخة التي اعتمدها الناشر كانت في غاية السقم وركة العبارة وكثيرة الاوهام . فقد ورد في الصفحة المذكورة وفي السطر عينه ما هذا قوامه : « المقالة العاشرة من كتاب الفهرست ويحتوي على اخبار الكيميائيين والصَنعويين من الفلاسفة القدماء والمحدثين »

فقوله « الصنعويين » نسبة الى الصنعة ، غريب جدًّا ، بل شنيع وفي ابعد غاية من الشناعة والقباحة والغلط ، اذ حقهُ ان يقول : « الصنعيين » مثلاً او اهل الصنعة او اصحاب الصنعة او ما ضاهى هذا الاستعمال ، لان الكيمياء تسمى ايضاً الصنعة والصناعة وعلم الصنعة من باب

التغليب . ومن العجيب ان كلمة « الصنعويين » لم تتكرر في السفر المذكور ولا كلمة «الـكيميائيين» فالظاهر انهما من اغلاط النساخ . وقد بين الاستاذ المحقق عبد الله مخلص ان كتاب الفهرست هذا المطبوع في اوربا (الذي طبع طبعة ثانية مشوَّهة في مصر) مشحون اغلاطاً بل نسيج اغلاط لا تقدر وكلها او معظمها اقبح من قرد او من غول . راجع مقالة الاستاذ الجليل والمدقق الكبير في مجلة لغة العرب (٦:٥٠٢ الى ٥٠٦) ترَ العجب ، فهي جزيلة الفائدة لمن يحاول الاعتماد على هذا التأليف من غير ان يتصدى لنقده نقداً صحيحاً

والخلاصة اني رأيت الترك والفرس ومن اخذ عنهم لا يقولون الاَّ «الكيميائي» وأما فصحاء العرب من عراقيين وسوريين ولبنانيين وفلسطينيين ، من اقدمين ومعاصرين ، فلا يقولون الاَّ « كيمياوي » . على ان بعض المحدثين من الناطقين بالضاد اخذوا يقلدون المصريين في مصطلحهم من غير ان يتثبتوا في صحة هذا الامر ، لكن ذلك لم يؤثر في واضعي المعاجم ادنى تأثير. راجع المعاجم الفرنسية الى العربية والانكليزية الى العربية كنجاري بك وبادجر ومن نقل عنهما كصاحب الفرائد الدرية والقاموس العصري وغيرها فانك تجدهم يقولون جميعاً « كيمياوي »

وبعد هذا البسط الصريح ، من ذا الذي لا يرى ان صحة النسبة الى الكيمياء : « كيمياويّ» وما الكيميائي الاَّ غلط شنيع ؟

٦ــ البعولة لم ترد بمعنى الجنس او الشق

ومن « مصطلحات لجنة علوم الحياة والطب » ما جاء في ص ٩٦ قول اعضائها : « التكاثر غير البعوليّ asexual multiplication » والعرب لم تعرف البعولة بمعنى sex الانكليزية او sexe الفرنسية والذي عرفوه بهذا المعنى « الجنس » قال في لسان العرب في مادة (ح ر ي) : « من قال حرًى لم يغيره عن لفظه في ما زاد على الواحد ، وسوَّى بين الجنسين اعني المذكر والمؤنث لانهُ مصدر» اه . وكذا ورد ايضاً في شرح القاموس للزبيدي

على ان بعضهم رأى ان « الجنس» بهذا المعنى قد يختلط بالجنس لما هو فوق النوع . ولذلك اقترحنا ان تكون اللفظة العربية « الشقّ» بكسر الاول لمنع كل لبس . وكنا قد كتبنا ذلك في احد اعداد الجوائب الصادرة في سنة ١٨٨٣ التي كانت تنشر في الاستانة . ثم عدنا فكتبنا في مجلتنا لغة العرب في سنة ١٩٢٩ ما هذا نصُّه : (٧ : ٨٩٤) « ويوضح المؤلفان بنوع خاص ان التعقيم لا يتلف عضو الجسم او غدته ، بل يُظْهِران ان لا اثر له في رغبة الشق (الجنس من جهة الذكورة والانوثة) . آه » — فعددنا الشقّ والجِنس شيئاً واحداً . والسبب في تفضيلنا الشق على الجنس اجتناب اللبس على ما قلنا . — وثانياً لان الكلمة الغَرْبية مشتقة من اللاتينية Sexus ، التي قال فيها صاحب معجم اصول الكلم اللاتينية ص ٣٤٥ : « Sexus معناها الحرفي «التقسيم والتفريق والتمييز » والكلمة مشتقة من اصلٍ هو Sec ومنها جاءت كلمة Secare والظاهر ان اللفظة كانت

في اول وضعها Sec-tus اي تفريق . وفي اللسان القديم (اللاتيني) T C تنتقل غالباً الى C S مثل auxilium و vexare والجنس المشترك secus (وهو لا يتصرَّف) يفيد ايضاً معنى الجنس ...» اه كلام المحقّقين.

قلنا ولما كانت اللاتينية sexus والعربية « شِقّ » بمعنى واحدٍ ، خيَّرنا الشق على الجنس لما قدَّمنا من الاسباب : ولاسيَّما لان من معاني « الشِقّ » ايضاً في العربية : النصف من كل شيءٍ وعلماء البشر يذهبون الى ان الناس نصفهم ذكور ونصفهم اناث ، فالشق اذن يوافق ان يكون بمعنى « الجنس » وان كانت هذه الكلمة لاغبار عليها

وقد ذكر محمد بك شرف في معجمهِ الانكليزي الى العربي بازآءِ sex مايأتي : « (جنس). شِقَّة [وضبطها ضبط قلم بكسر فتشديد] (ج . شقائق) « ان النساء شقائق الرجال » . وقد عرَّبها المحدثون بكلمة جنس . والحال ان الجنس يقابلهُ genus بالفرنجية ولهذا وجب التمييز لأَمْن اللبس » اه كلام البك — قلنا : ان الجنس عربي فصيح لاغبار عليهِ بمعنى احد قسمي الخلق الذكور والاناث . وهو ليس من وضع المحدثين ، بل من وضع الاقدمين على ما رأيت من استشهادنا بلسان العرب وتاج العروس. والنحاة والصرفيون الاقدمون كثيراً ما استعملوا «الجنس» ليشملوا بهذا اللفظ الذكور والاناث . — اما (الشِقَّة) التي استعملها الدكتور العلامة فانها لم ترد في كلام العرب الاقدمين ولا المولدين ابداً . والعبارة التي اوردها حضرتهُ هي حديث على ماروه صاحب النهاية ، اذ قال : « النساء شقائق الرجال » وفسَّرها بقولهِ : « نظائرهم وامثالهم في الاخلاق والطباع ، كأَنهنَّ شققن منهم ، ولأن حوّاء خلقت من آدم عليهِ السلام » اه

فالشِقَّة كما ترى لاتعني الجنس ابداً وهي وزان كِسْرة ولاتجمع على شقائق بل على شِقَق ككِسر ، واما الشقائق فهي جمع شقيقة ككبيرة وكبائر وقليلة وقلائل وصغيرة وصغائر . والذي يستغرب في كلام الدكتور النطاسيّ انهُ استعمل الجنس بعد ان رذلهُ وذلك في ما بقي من مصطلحاتهِ في هذا اللفظ ، ولم يستعمل الشِقّ ولا الشقيقة ولا الشِقَّة . فانك تراهُ يقول بعد ذلك : « ارتكاس جنسي وانقلاب جنسي وانتخاب جنسي وتنقية جنسية ونقاوة جنسية والجنسية وكيفية الجنسيَّة وجنسيًّا ومن جهة الجنسية » وهـذا عجيب منهُ بعد ان طعن في اول الامر بهذهِ اللفظة ، فكيف عاد الى اتخاذها وترك سواها بتاتاً ؟ أليس لانهُ رأى ان «الجنس» هي أحسن لفظة تقوم بمعنى اللفظة الافرنجية ؟

واما قولهُ : « والحال ان الجنس يقابلهُ genus بالفرنجية ، ولهذا وجب التمييز لأَمن اللبس » فنقول لحضرتهِ . إطْمَئِنَّ بالاً اذ لاخوف في اللبس فان اليونانيين يستعملون genos لكلا المعنيين اي للجنس الذي هو فوق النوع وللجنس الذي هو بمعني قسم الذكور وقسم الاناث . هذا فضلاً عن ان الاقدمين لم يعرفوا « الشِقّ » ولا الشِقَّة ولا الشقيقة لمعنى الجنس . وفي هذا القدر مجزأة

٧ — الوحيدة مؤنث الوحيد لا الوَحِدة

ومما قرأناهُ بغرابة بالغة قول احد اعضاءِ المجمع في صدر الصفحة ١٥٥ : «وحيدة . ترد هذه الكلمة على الالسنة والاقلام كثيراً . فيقال مثلاً . » وهي المسألة الوحيدة . . . » او« الفتاة الوحيدة .» وهو خطأ ، اذ لم ينقل هذا التأنيث عن العرب فيما نعرفهُ من اقوال اللغويين . فانهم قالوا في تأنيث وحيد : وحِدَة . فقد جاء في ، اللسان : ورجل أحَد ،ووَحَد ، ووَحِد ، ووَحْد ، ووحيد ومتوحّد : اي منفرد . والانثى وحِدة . حكاه ابو عليّ في التذكرة ،وانشد : كالبيدانة الوحدة اه . والبيدانة الاتان الوحشية ، او التي تسكن البيداء . قاموس . وقال في شرح القاموس : وهي ، اي الانثى ،وَحِدَة بفتح فكسر فقط . اه

قلنا : الوحِدة (بفتح فكسر) ليست الاَّ تأنيث الوَحد كحذر ، دون سائر الالفاظ. اما أحَد ووَحَد بالتحريك فانهما تقعان على المذكر والمؤنث معاً كما في المصباح ، كما قد يكون لاحد مؤنث خاصّ بهِ ، اذ قال الفيوميّ نفسهُ : « واما تأنيث احد فلا يكون الاَّ بالالف ، لكن لا يقال إحدى الاَّ مع غيرها نحو : احدى عشرة واحدى وعشرون . قال ثعلب : وليس للاحد جمع ... وتأنيث الواحد : واحدة بالهاء » اه . — قلنا : وتأنيث متوحّد : متوحّدة على القياس المشهور . وكذلك يقال في (وحيد) فان مؤنثها (وحيدة) بالهاء لا وحدة بحذف الياءِ ، إذ هذا القول مخالف لاحكام العربية ونصوص أئمتها ولانهُ لم يسمع بهِ احد ، ولان الوَحِدة (بفتح فكسر) مؤنث (وَحِد) بفتح وكسر وليس بمؤنث سائر مترادفاتها . ومؤنث (وَحْد) بسكون الحاء (وَحْد) بلا تغيير او (وَحْده) بهاء في الآخر . وانما خصّ المؤلف الوَحِد بقوله وحدة تنبيهاً للغافل ، لان فعلاً بفتح فكسر قد يبقى على حاله في التذكير والتأنيث وقد يغير ، اما انهُ قد يبقى على حاله فكقولهم (عَجِف) بمعنى (اعجف) فان مؤنثهُ بلا هاءٍ كما في اللسان والتاج . واما انهُ قد يغير فكقولهم (حذِر) فان مؤنثهُ (حذرة)

اذن فلم يبق الاَّ التنبيه على مؤنث (وَحِد) لينفي اللغوي كل صورة اخرى عن فكر المطالع ويقف على الحقّ الصراح. زد على ما نقول ان الامر ينجلي من كلام الشارح . وهذا نصّ عبارتهِ : « ورجل وَحَد وأحَد محركتين ، ووَحِد ككتف ووحيد كأمير ، ووحْد كعدل ومتوحّد اي منفرد ... وهي اي الانثى وَحِدة بفتح فكسر فقط ، ولذا عدل عن اصطلاحه وهو قوله : وهي بهاءٍ لانهُ لو قال ذلك لاحتمل او تعين او يرجع للالفاظ التي تطلق على المذكر مطلقاً . قاله شيخنا . قلت: وهذا حكاه ابو علي في التذكرة وانشد: كالبيدانة الوحدة .قال الازهري: وكذلك فريدٌ وفرِدٌ وفرْدٌ » . اه المقصود من ايراده

فهذا نصّ صريح على ان « الوحدة »مؤنث لفظةٍ واحدةٍ دون اخواتها المترادفات وهي «وَحِد »

بفتح فكسر . ويدعم كلامهُ هذا بقوله : « وكذلك فريد وفَـرِد وفرْد » فهو نصّ صريح جليّ على ان « وحيداً » يؤنث بالهاء كما ان فريداً يؤنث بالهاء اي فريدة ، وقد صرّح بذلك جميع اللغويين سرًّا او جهراً . على ان بعض المكابرين قد يرون في تعبير الشارح إبهاماً ، اذ فيهِ شيءٌ من الغموض او اللُّـبْس ، فلا يسلمون بما اوضحناه . فنزيد على ما تقدَّم نص صاحب الاوقيانوس فهو اوضح من الشمس في رائعة النهار ، فقد قال: « وَوَحِـد وزان كتف بمعنى وحيد يؤنث وحدِة » فهل بعد هذا التصريح شبهة او ريب ? ومع ذلك نأتيك بنصّ آخر اطمئناناً لقلبك . قال ياقوت في معجم البلدان : « الوحيدة مؤنثة الذي قبله (والذي قبلهُ هو الوحيد) من اعراض المدينة بينها وبين مكة » فلو لم يكن في كلامهم (الوحيدة) بل (الوحدة) لقالوا هذه دون تلك

على اننا لانقول ان (وحِـدة) بفتح فكسر غلط ، بل نقول ان الوحِـدة مؤنثة الوحد.والوحيدة مؤنثة الوحيد . واخطأ من ذهب الى غير هذا المذهب . ومن الغريب أني قرأت بعض مقالات كتبت بعد صدور مجلة المجمع ، واذ بأصحابها يخطئون (الوحيدة) اعتماداً على ما جاءَ في المجلة ولا يسلمون الاَّ بالوَحِـدة . فانظر الى هذا الضرر الصادر من كاتب ينشر مقالهُ في مجلةٍ يعتمد عليها ، فاذا هي تسوق الناس الى آراءٍ لم يقل بها العلماء الاثبات والائمة الثقات

٨ — اكتشف الشيء فصيح

وورد في الصفحة ١٤٧ كلام هذا نصُّهُ : « يخلّط الكتاب كثيراً في استعمال هذهِ الافعال فيقولون مثلاً : اكتشف طبيب دواء كذا كما يقولون : استكشفهُ ، ويقولون . العالم المكتشف وهم في ذلك كله مخطئون . ذلك بان (اكتشف) جاءَ لازماً ومتعدياً في معنيين مختلفين . وقد مثلوا للاَّزم بما يأتي : اكتشفت المرأة ، اذا بالغت في التكشف . . . . » ومثلوا المتعدي بقولهم : اكتشف الكبش النعجة ، اذا نزا » اه — قلنا : اذن فالكلام فصيح في قول من قال : اكتشف الدواء والعالم المكتشف ، اذ هو من باب المجاز ، فمعنى اكتشف الشيء الهجوم على حقيقتهِ أو على ما خفي منهُ وإلقاحهُ وانتاجه وانمــاؤه وبثهُ في العالم للانتفاع بهِ . وهو من باب الاستعارة ، فهو اذن من فصيح الكلام وعاليه وما فصحهُ واعلاه الاَّ الاستعارة . (راجع المقتطف في صفحة ٣١٤ جزء ٣ مجلد ٨٦ من جزء مارس ١٩٣٥ تَرَ فيهِ بحثاً مسهباً في هذا الموضوع)

وكان قد اطلع على زبدة هــذا البحث العلامة الجليل واللغوي المدقق الاستاذ مصطفى افندي جواد فكتب الينا ما هــذا بعض عباراتهِ البديعة المعنى وذلك بتاريخ ٢٩ آذار (مارس) سنة ١٩٣٥ من باريس :

«أما مقالتكم في « اكتشف » وتجويز هذا الفعل ، فالدنيا كلها معكم ولا عليكم . . . وتجويز هذا الفعل عندي يستند الى عدة اركان : (الاول) انهُ زيدت عليهِ التاء لقصر الفعل على ارادة الفعل

التصرُّفيّة . ويقابلها في الفرنسية للغائب SE . والفرق بين النتيجتين ان الفعل الفرنسي يصبح لازماً والفعل العربي متعدّياً ، الاّ ما عاد على جسد الفاعل ، مثل : « اغتسل » و « امتشط » . ومن هذا الباب : « خار واختار ، ونخب وانتخب ، وعاق واعتاق ، وعدَّ واعتدَّ ، وجرّ واجترّ ، وصاد واصطاد ، وبنى وابتنى ، وعلا واعتلى ، (كأن في العلو منفعة خاصة بنفسهِ) ونحا وانتحى ، وعرا واعترى ، وصلى واصطلى ، وشرى واشترى ، وباع وابتاع ، وشهى واشتهى ، وحلب واحتلب ، وقطع واقتطع ، وقدح واقتدح ، وقاد واقتاد ، وعاد واعتاد ، وكنف واكتنف » وما يصعب ذكره ويطول . فاضافة تاء التصرُّف الى الفاعل مما لاحاجة بالقائل ان يستأمر فيهِ ولا ان يستأذن ، وكذلك هو في الفرنسية كالذي اشرنا اليهِ ، فاكتشف المتعدّي من هذا الباب الذي يعتري امرهُ الافعال اللازمة فيصيرها متعدّية في احيان ، مثل : « صفا واصطفاهُ ، وجبي واجتباهُ ، وبدر وابتدرهُ ، وعام واعتامهُ ، ومحن وامتحنهُ » وما الى ذلك . فالمكتشف ممن يستبقون الخير لانفسهم ويجلبون العظمة لمراتبهم

(والوجه الثاني) انهُ من اكتشف الكبش النعجة اي نزا عليها . والامر على ما قلتم ، فان المكتشف ينزو على الحقيقة ليلقحها وينتجها . ومن هـذا الاسلوب : « قتله بحثاً وعلماً وتحقيقاً » والقتل للاحيـاء وهي من الجسمانيات . ومنهُ : « دقَّق النظر » فان التدقيق للجسمانيات كالحجارة والحديد . و« أحْسَنَ اخلاقهُ » فالحسن للجسمانيات . ومنهُ قول ابن جني : « وكدورة الفكر وجمود النفس » وهما للماء وهو من الجسمانيات . ونقول « من العناصر الاربعة » . وان اعترض معترض بأن هذا التوجيه يجيز استعمال « اكتشف » للمعنويات ولا يبيحهُ للجسمانيات لان قولهم : « اكتشف الصقع الفلاني » لا يفسر « بلقحهِ ونتجهِ » فيرد عليهِ قولهُ بأن الذهن لا يبادر الى هـذا التفسير لمنع القرينة اياه ، كما لا يبادر ذهن القارىء في كتب الحديث وعللهِ الى أن « جَرْحَهُ » في باب الجرح والتعديل ، يفيد الجرح الحقيقي لمنع القرينة الحصينة ، بلْهَ ان المراد بـ « اكتشف الكبش النعجة » هو النزو عليها وما يحصل بعد النزو ، فهو تابع ومتمم . يدل على ذلك ان اكتشف هو واصله من (الكاف والشين والفاء) لا يفيدان معنى الالقاح والنتج ، فهذا المعنى عارض لا اصيل وتابع لا متبوع واذ كان الاصل لمعنى « اكتشف » هذا هو « النزو » ، حَسُنَ ان يستعمل فيما يعنيه الكتَّاب اليوم لافادة التسلط مع السابقية . ويسوغ مثل هذا الاستعمال قولهم قديماً « نُتِيج هذا من ذاك » وقول الحريري في المقامة السادسة عشرة وهي المغربية : « فتداعينا الى ان يستنتج لهُ الافكار ، ونفترع منهُ الابكار »

(والوجه الثالث) ان يُعدَّ من « اكتشف فلان » بالغ في التكشف . كما ورد في كتب المغازي فان احد المحاربين قد حملتهُ الحمية ان يكتشف — كما في مغازي الواقدي والاغاني — فكأنهُ كان

قد رفع ما على رأسهِ حماسة واغتياظاً . ولا تزال العرب تفعل ذلك عند احتدام غضبها وركوبها خطةً وعرةً ونية خشناء . ثم ينقل الفعل الى حالة التعدية لتعدّيه بنفسهِ الى المنصوب فيكون مثل « اصطادهُ واعتلاهُ واشتهاهُ » فالاصل فيهنَّ جعلهُ « ينصاد وينعلي وينشهي » ولاعقاب ولاحساب في شرح مثال هذا بـ « ينفعل » فاكتشفهُ : جعلهُ « ينكشف » وبغير هذا التحليل اللغوي الفلسفي لا تصح تعدية « افتعل » المقصور على « ارادة الفاعل التصرفية » لان الاصل اللزوم مثل : « امتشط واغتسل واعتجر وادّرع واقتبع وادّهن واطّلى » فان قال قائل : ان هذه افعال تختص بجسده فلا حاجة الى المفعول ، قلنا : انها وان كانت افعالاً خاصة بجسده ، فانها خاصة ايضاً بأجزاءٍ من جسده فلِمَ لم يقولوا : « امتشط شعره ، واغتسل بدنهُ ، او بشرتهُ ، واعتجر رأسهُ » وغيرها مما يجانسها ؟ على انهم قالوا : « دهن رأسهُ ، وطلى بدنهُ » وما شابههما . ويزيدك يقيناً بأن مذهبنا لاحب ورود « اكتسى الثوب ، وارتداه ، وانتعل النعلين » في كلام فصحائهم . وهو من اطوار تحول الافعال الذي اشرنا اليه » . الى هنا كلام الاستاذ المصطفى

وكنا قد كتبنا في المقتطف في المقالة المذكورة ايضاً (في ص٣١٧) : « وكان الاقدمون من السلف (يكتشفون أي يكشفون عوراتهم) في المصيبة العظمى أو لبثّ التحمس في صدور الشهود . » فكتب الينا الاستاذ المحقق من باريس في ٢٨ ابريل من هذه السنة ١٩٣٥ يقول :

« اكتشف الذي رأيتموهُ في تاريخ الطبري (١ : ١٣١٦ من طبعة اوربة) ورأيتهُ أنا في كتب المغازي وذكرتهُ في ردودي بمعنى : رفع ما على رأسهِ لا كشف عن عورتهِ . ولم تفعل العرب للتحميس التكشيف عن عوراتها

أما قولكم ان العرب كانت تفعل ذلك في الملمات ، فلا اعتقدهُ البتة . فأني — وان كنت تركي الاصل خالص التركية — لا أجد في العرب من يستحق ان ينسب اليهِ هذا القول ، ولا يزالون اليوم يفرّعون رؤوسهم (كما تقول العامة) عند الغضب . نعم ، ورد في حوادث الجبناء من كشف العورة شيء قليل ، وهو ضد الحماسة ، كما فعل عمرو بن العاص في صفّين حينما ادركهُ عليّ بن ابي طالب ليضربه بالسيف ، فرمى بنفسهِ عن فرسهِ ، وكشف عن عورتهِ ، لان عليّ ابن ابي طالب لم يكن ينظر الى عورتهِ ، ولا الى عورة غيره ، وهذه الحادثة تؤيد ذلك . فنجّى عمرو نفسهُ . وقال الشاعر : « كما ردَّها يوماً بسوْأتهِ عمرو » . يعني ردَّ ضربة السيف . وكما قال الشاعر الشامي في وصف ابن العاص ، والشاعر هو مهذّب الدين الطرابلسي :

هـذا ولم يغدر مُـعَـا ويةُ ولا عمرو مكَـرْ
بطل بِسَـوْأتِـهِ يُـقا تِل لا بِصَـارمهِ الذكَـرْ

وهذا من اقذع الاهجية عندهم . فكيف يكشفون عوراتهم للحماسة والانكرار في الحرب ؟ هذا ما وصل اليهِ علمي » . اه كلام الاستاذ

النظام الادبي

بين الحيوانات[1]

يسلّم معظم المتعلمين بأن الحيوانات العليا متصفة بالذكاء وان كانت درجته أدنى من درجة ذكاء الانسان . ولكن يندر بينهم من تراهُ مستعدًّا للتسليم بأن الحيوانات تشاطرهم قواعد النظام الادبي الذي يسود الحياة فالنظام الادبي في نظرهم صفة خاصة بالانسان . ولكن الباحث يستطيع ان يكشف بين الحيوانات الواناً من التصرف يصح ان تحسب اساساً للنظام الادبي وأهمها اربعة

حق التملك

اولاً — ان الحضارة الصناعية راسية على ما يعرف بحق التملك . وجانب كبير من قوانيننا المدنية يدور على هذا الحق . أتستغرب ايها القارىء اذن اذا قلنا لك ان حق التملك معروف عند الحيوانات كذلك وانها تدافع عنه ؟

ان حق التملك هذا مشاهد بين الحيوانات من اعلاها الى السمك ولكنه على اوضح ما يكون بين الحيوانات العليا . فالطيور مثلاً تدعي حق تملكها للعش الذي تقطنه والمنطقة التي تجاورهُ كذلك . وبعض العقبان لا تسلّم لمنافس من العقبان ان يشاطرها المناطق الخاصة بها . اما حق التملك عند القردة فيمتد الى كل شيء له قيمة في نظرها . فالباحث « برهم » Brehm يذكر ان «بابوناً» عني بقصعة من الصفيح لسبب ما فصار يأخذها معهُ كل ليلة الى المكان الذي ينام فيه ويعالجها كأنها ملكه الخاص . والفرديس Alverdes راقب قرداً اسيراً كان يلعب بكرات من المطاط وقطع من الخشب فصار يحنق حنقاً شديداً اذا مسها احد لان هذه الاشياء ملكه الخاص . واذا جاز لنا ان نفسر افعال الحيوانات كما نفسر افعال الناس صحّ لدينا ان نقول انها متصفة بحس التملك وانها تدرك حقها في التملك نتيجة سَبْقها الى بقعة من البقاع او الى استعمالها شيئاً من الاشياء كحق الغزو او الفتح بين الشعوب

الالم الادبي

ثانياً — لا ريب في انك ايها القارىء لاحظت تصرف كلب من الكلاب عندما أنّبهُ صاحبه او نهره . فهو لا يفر من أمامه كأنهُ يخشى ان يلكمهُ او يلطمهُ بل يظل قريباً من صاحبه او بالحري يقترب منهُ وفي عينيه معنى التوسل وقد يحاول ان يلحس يدي صاحبه . فهذا التصرف ليس قائماً على خوف الكلب من العقاب . فعلى ماذا يقوم ؟

وقد قام بين الالمان عالم يدعى كوهلر قضى سنوات في مستعمرة من القردة المعروفة باسم

---

(١) ملخص مقال للكاتب العلمي جيمس لوبا في مجلة هاربرز الاميركية

شمبانزي في جزيرة تناريف ووضع كتاباً جعل عنوانه « عقلية القردة » فذكر فيهِ القصة التالية :

لاحظت في احد الايام وانا اطعم طائفة من القردة مجتمعة حولي ان احدى الاناث تنتزع الطعام من احد الذكور الضعاف .فنهرتها وضربتها . فتراجعت الى الوراء وصرخت ثم جعلت تحدق بي واذا بها في اللحظة التالية قد رمت ذراعيها حول عنقي ولم تستقر حتى ربتُّ لها على ظهرها . وهذه ظاهرة غير عادية في حياة القردة الانفعالية . فالذي يتأثر بهِ الكلب والقرد ليس الخوف من العقاب الاليم ضرباً او لكماً بل هي تصاب اذا ضربت او اقصيت عن جماعتها بألم أدبي هو من قبيل الالم الذي تصاب بهِ اذا قاطعك او اقصاك من تحب

العطف والمساعدة

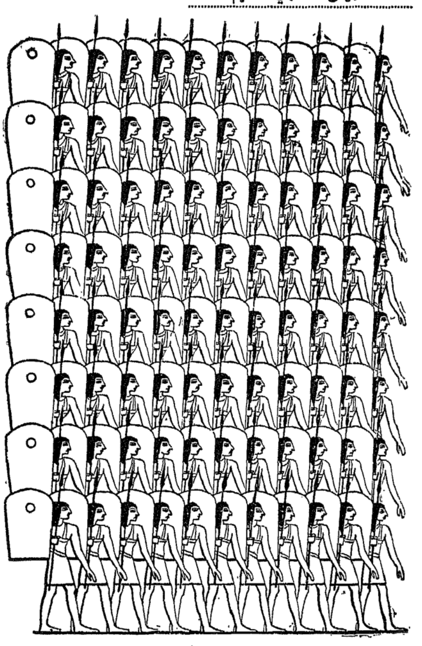
ثالثاً — ان السخاء والمساعدة الصادرين من انسان لا غرض له ولا غاية خاصة من اجلّ الصفات الادبية في الانسان واسماها . وقد لوحظت هذه الصفات عينها في الحيوانات . فالطيور من نوع معين تتصرف بعضها مع بعض تصرفاً لو شاهدناهُ في الانسان لدعوناهُ « الحنان » . ولعل هذه الصفة اي صفة الحنان تبدو على اروعها في الفيلة — بصرف النظر عن القرود .فاذا جرح فيل برصاصة اصابتهُ تهرول اليهِ الفيلة التي على مقربة منهُ لغوثهِ . فاذا وقع الجريح ركع بعضها الى جانبهِ فيضع بعضها انيابه تحته ويلف البعض الآخر خراطيمه حول عنقه بغية انهاضه

ولكن القردة تفوق حتى الفيلة في هذا . ففي الكتب التي وضعها العلماء ودوَّنوا فيها حياة القردة نجد أمثلة عديدة على ذلك ولكننا نكتفي بذكر مثال واحد منقول من كتاب طومانيس في « ذكاء الحيوانات » . وهو ان ذكراً من الحيوان وقع من شجرة فاصيب في معصمهِ . فنال عناية خاصة من القردة الاخرى وخاصة من قردة عجوز مع انها لم تكن تتصل بهِ بصلة نسب . فكانت قبل ان تبدأ طعامها تأخذ اول قطعة من الطعام تقدم اليها وتعطيه اياها . وقد قال طومانيس انهُ في خلال مراقبته للقردة مدة طويلة لاحظ انهُ اذا صرخ قرد ما صرخة الم احاط بهِ جمهور من القردة واحاطوهُ بعطفهم ولم يكن من النادر ان يحيطوه كذلك باذرعتهم كما نفعل نحن الناس بطفل متوجع

الشكر والاعتراف بالجميل

رابعاً — ومن الصفات الادبية التي تلاحظ في القردة صفة الشكر والاعتراف بالجميل . فالعلامة وهلر الالماني يذكر حادثة اقفل فيها الباب خطأً على قردين فاضطرَّا ان يبقيا خارجه وكان الجو بارداً ماطراً . وكانا واقفين امام الباب ينتظران .وعلى وجهيهما امارات الخوف اذ مرَّ بهما ففتح لهما الباب. ولكنهما بدلاً من ان يسرعا الى الدخول تأخر كل منهما قليلاً لكي يشكر لصاحبه هذا الخير بوضع ذراعيه حول عنقه. ولو كان الغرض من هذا المقال رسم صورة تامة لحياة الحيوانات من ناحية انفعالاتها لوجب ان نقول شيئاً عن حسدها وغيرتها وخوفها ولرأى القراء اذن ما يراهُ العلماء الذين توفروا على درس حياتها وهي ان هذه الحيوانات اقرب ما تكون الى الانسان من ناحية حياتها الانفعالية

اسلحة الجيش المصري القديم — ١



فصيلة من الجنود المشاة المسلحة بأسلحة ثقيلة

مقتطف اكتوبر ١٩٣٥ امام صفحة ٢٨٥

اسلحة الجيش المصري [1]

في ايام الفراعنة

لعبد الرحمن زكي
الملازم الاول في الجيش المصري

اذا استعرضنا الادوار التاريخية التي مرَّ بها الجيش المصري القديم وجدنا ان اهم المعارك التي خاضها كانت في عصر الامبراطورية الجديدة التي وضع اساسها احمس الاول طارد الهكسوس من مصر وهو الذي يلقبهُ بعض مؤرخي العصر الحديث بلقب نابليون مصر القديمة . ولم تكن الحروب التي خاض الجيش المصري غمارها حتى ذلك الحين سوى معارك صغيرة نشبت بين المصريين وقبائل الصحراء او بين امراء المصريين انفسهم

بدأ الجيش الذي قام على رأسهِ احمس يتدرَّب على اعمال الحروب الكبيرة كما شرع الامراء يتذوَّقون طعم الاقتتال . ووافق ذلك ضعف الاحوال السياسية في البلاد الشمالية المجاورة للحدود المصرية .فلما قام ملك مصر بتأسيس ملكه الجديد لم يلق مقاومة تذكر في سوريا . ولا يغيب عن بالنا ان قتال شعب منظم يتبع نظاماً دقيقاً من قواعد الحرب يختلف باختلاف الغارات التي تشنها قبائل البدو او جماعات اهل النوبة بقصد الاستيلاء على الرقيق او نهب المواشي او اتلاف المحصولات والزراعة. فلما جاء عصر تحوتمس الثالث كانت الخطط العسكرية (الستراتيجية) قد بلغت حدًّا فائقاً من الدرس. فنجده يقصُّ علينا انباء حملاته المتتالية بأسلوب عسكري ووصف دقيق احتوى على كل التفصيلات التي نجد مثلها اليوم في وصف حملة عسكرية حديثة، بدلاً من الاساليب العامة الدارجة التي وصف بها اسلافه غاراتهم التي شنوها ضد اعدائهم من البربر وسكان البادية . وكان ملك مصر يقود حملاته ضد اعداء بلاده بدلاً من القواد الذين كانوا يخضعون قبائل الحدود الثائرة ويتسلمون قيادة الوحدات الكبيرة . ووجد الملوك ان الحرب فضيلة وفي دماء المعركة اسمى معاني « التضحية »

كان فرعون مصر يأخذ مكانه في طليعة المعمعة يقاتل في عربتهِ الحربية التي يقودها بنفسه كما يقاتل جنوده . وان النقوش التي على جدران الهيا كل الأثرية لتبين جليًّا اشتراك الملوك المصريين مع جنودهم الى حيث قادهم المجد في ساحات القتال

أن مبدأ تكوين الجيوش المصرية الكبيرة وجد في مصر منذ طرد احمس الرعاة . ومن ثمَّ كان

---

(١) هذا الفصل مقتبس من كتاب في تاريخ الجيش المصري في أيام الفراعنة أعده كاتب هذا المقال للطبع

ظهورها في آسيا حيث خلدت أعمالها على آثار لا تزال باقية الى يومنا هذا. وليس الغرض التحدث عن تنظيم الجيوش المصرية في المملكة القديمة وان كان هذا البحث مما يلذ الوقوف عليهِ . ولكن الناحية التي سأقصر الكلام عليها هي الاسلحة التي استخدمها الجيش في فتوحاته المجيدة وغزواته الخالدة

الاسلحة الهجومية والدفاعية

يمكن تقسيم اسلحة قدماء المصريين الى قسمين : الاسلحة الهجومية والاسلحة الدفاعية

فمن اسلحة القسم الاول : القوس والرمح والجريدة والمقلاع والسيف القصير المستقيم والخنجر والمدية والسيف القصير المحدب والبلطة ذات اليد القصيرة وبلطة القتال والصولجان واللسان الذي يشبه العصي المعوجّة كالتي يحملها العبابدة والاثيوبيون. ومن اسلحة القسم الثاني : الخوذة المعدنية وواقية الرأس والدرع او سترة الزرد المصنوعة من الصفائح المعدنية ولم يعرف المصريون واقية الأرجل . وكانت اغطية الذراعين جزءًا من الزرد تؤلف كـمًّا قصيراً يمتد الى الكوع

الدرع

كانت الدرع اهم ما يدافع بهِ الجندي عن نفسهِ ، طولها لا يزيد عن نصف قامة الجندي وكانت في الغالب ضعف عرضها . وفي اكثر الاحوال كانت تغطَّى بجلد ثور والشعر الى الخارج كالدرع الاغريقية وتقوَّى في بعض الاحايين بحافة او بحافتين من المعدن وترصع بالمسامير والدبابيس المعدنية. اما الناحية الاخرى للدرع فكانت مبطنة بأغصان جافة مجدولة . ويحيط بحافتها أطار خشبي مغطى بالجلد على طريقة الدروع الرومانية والاغريقية

وكان شكل الدرع المصرية مشابهاً لالواح الموتى التي تحفظ في المقابر والتي عثر عليها في القبور ، مستديرة من اعلاها ومربعة من اسفلها تنتفخ قليلاً عند القمة . وبالقرب من الجزء العلوي لسطح الدرع الخارجي كانت توجد تجويفة مستديرة في محل السُرّة . وكانت هذه التجويفة اعمق في الاجناب منها في الجزء المركزي وسطح هذا الجزء كان مع مستوى سطح الدرع تقريباً . ويصعب معرفة الغرض الحقيقي من صنع هذا الجزء على هذا النمط وهل لهُ فائدة دفاعية او هجومية . وكان يثبَّت في السطح الداخلي للدرع «علاَّقة» لتعلق بها حول الرقبة وكانت هذه العلاَّقة تعمل احياناً بكيفية يسهل معها ادخال الذراع فيها والقبض على الحربة وكان للدرع احياناً قبضة يسهل بها تحريك الدرع في اي اتجاه . وكانت هذه القبضة تركب اما تركيباً عموديًّا واما تركيباً افقيًّا على الدروع

وقد شوهدت على جدران الآثار القديمة ما عدا مقابر بني حسن نماذج اخرى من الدروع تختلف عما سبق وصفه ويغلب على الظن ان هذه كانت تستخدمها الجنود المستأجرة فقط

وكان لبعض الدروع المصرية مقاسات كبيرة غير مألوفة . اختلفت في شكلها عن الدروع العادية فكانت محدبة من القمة على اسلوب العقود القوطية وذات حجم كبير يصعب استخدامها بسهولة

لثقلها . وقد شوهد هذا النوع من الدروع في مقبرة بعض حفريات اسيوط «ليكوبوليس» ولاشك انهُ كان من الامور الاولية التي تراعى في صناعة الدروع خفة موادها لسهولة حملها في السير الطويل وفي ميادين القتال ونشك في انها كانت مغطاة بأي نوع من المعادن

القوس

كانت القوس المصرية تشابه القوس الاوربية التي استعملت قبل عصر البارود . وكان الوتر يثبت اما في جزء بارز مصنوع من القرن في نهايتي القوس أو يثبت في خدش أو حز في خشب القوس من نهايتيهِ على غير طريقة تثبيت الوتر عند الاسيويين الذين كانوا يثبتونه في خابورين بطرفي رأسي القوس المستديرين

واتبع الاثيوبيون والليبيون وقد اشتهروا بمهارتهم في رماية النبال طريقة المصريين في تثبيت الوتر وكانت قوسهم مشابهة في الهيئة والحجم لقوس جيرانهم

كانت القوس المصرية قطعة اسطوانية من الخشب طولها خمس اقدام أو اكثر بنصف قدم . وهي أما مستقيمة مدببة الطرفين أو مقعرة الوسط عند ما لا تكون مشدودة ، وفي بعض الاحيان كانت تلتصق بها قطعتان من الجلد فوق منتصفها بقليل وتحتها

واذا أريد تثبيت الوتر ركزت نهاية القوس في الارض وضغطت الركبة على الجانب الداخلي من القوس بينما تجذب اليد اليسرى القوس الى الداخل وتدخل اليد الاخرى الوتر في الحز العلوي للقوس. وكان الجندي يجري هذه العملية اما وهو واقف واما وهو جالس على مقعد كما يستطيع تثبيته بينما يضعه مقلوباً فوق كتفه . وفي اثناء الرماية كان الجندي يضع واقية وقاية من الجلد على ذراعه اليسرى لكي لا تصاب بالوتر عند ارتدادهِ او كانت تلف أيضاً حول المعصم . ويسحب الوتر بجذبه بشدة نحو الجسم بواسطة الاصبعين السبابة والابهام وتفرد اليد اليسرى الى نهايتها ويصوّب السهم نحو الهدف

وكان الوتر المصري يصنع من الجلد أو القماش الكتاني أو القنب او امعاء الهررة بعد تجفيفها . واختلفت الأسهم طولاً من ٢٢ الى ٣٤ بوصة بعضها صنع من الخشب والبعض من القصب . وفي غالب الاحيان كانت مغطاة برأس معدنية تحف بهـا من كلا جانبيها ثلاث رياش مغراة وموزعة بالتساوي واستبدلت أحياناً الرأس المعدنية بقطعة مدببة من الخشب القوي . وكانت هـذه ضعيفة التأثير في الحرب فقصر استعمالها على الصيد والقنص والالعاب . واستبدلت القطعة المعدنية بأخرى من حجر الظران المدبب

وكان يحمل القواس جعبة مستطيلة قطرها أربع بوصات تسع عدداً وافراً من الأسهم يثبتها الجندي في حزامه المار فوق صدره الى الجانب المقابل على خلاف طريقة الاغريق الذين كانوا يضعونه فوق اكتافهم . وكان المصريون في اثناء السير يضعون جعبة السهام هذا الوضع . وكان للجعبة

غطاء مزخرف عليهِ رأس أسد اذا كان صاحبها من كبار القواد . وكان الغطاء يثبت في العلبة بواسطة عروة من الجلد لكي لا يفقد عند فتح الجعبة اثناء الاقتتال . وكان للقوس علبة تحميها من الشمس والرطوبة وتحفظ لها مرونتها . وكان لهذه العلبة غطاء من الجلد الناعم مثبتاً بعناية في نهايتها العلوية . وكانت تركب دائماً في العربة الحربية ويقابلها في الجانب الآخر من العربة علبة كبيرة اخرى تحتوي على رمحين وعدد من السهام فضلاً عن العلبة (الجعبة) السابق ذكرها المثبتة حول وسط الجندي

وكان جنود سلاح القوّاسة المشاة يجهزون بغمد صغير للقوس مصنوع من الجلد ويلف حول القوس ويمسك اثناء السير . وبجانب القوس وهو السلاح الرئيسي في حالة الهجوم كانوا يحملون كجنود سلاح القوّاسة الخيالة الذين يحاربون في العربات الحربية خنجراً وعصا مقوسة وصولجاناً وبلطة للالتحام عند ما تنفد سهامهم . وكانت اسلحتهم الدفاعية تشتمل على الخوذة أو واقية الرأس وسترة معدنية . لكن الجنود كانوا لا يحملون الدروع لانها تعرقل استخدامهم للقوس بحرية تامة

الرمح

كان يصنع الرمح او المنخس من الخشب بطول خمس اقدام ، او ستٍّ ، ورأس معدنية يدخل اليها ساق الرمح ويثبت بالمسامير

أما الجريدة Javelin فكانت اخف من الرمح واقصر . وكانت تصنع من الخشب ورأسها مزدوجة الحرفين من المعدن ذات شكل معين . فإما ان تكون مفرطحة واما ان يزيد سمكها قليلاً من الوسط أو مدببة جدًّا من حرفها . وكان الطرف الاخير ينتهي بكرة ثقيلة من البرونز لتجميلها وتساعد على توازنها . وكانت تستعمل احياناً مكان الحربة فتقبض عليها كلتا اليدين في حالة الاشتباك القريب . وقد وجدت اشكال كثيرة من الجريدة صنعت من القصَب للصيد لا داعي لوصفها هنا

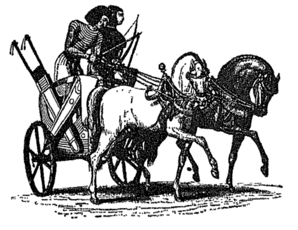
المقلاع

صنع المقلاع من عروة جلدية او حبل مضفَّر عريض من الوسط له خيّة حلقة (خية) Loop في احد طرفيه تثبت بهِ وتقبض بشدة باليد . اما الطرف الآخر فينتهي بسوط . وعند استعمال المقلاع كان يدار مرتين او ثلاثاً فوق الرأس لموازنته ولزيادة قوته الدافعة . وكان الاغريق لا ينظرون الى المقلاع كسلاح من الاسلحة المحترمة التي تحملها المشاة الثقيلة وان كانت تستخدمه المشاة الخفيفة . وقد ذكر المستر كورتيس كيف ان اسكندر المقدوني لما اراد تصوير جندي فار من جنود الاعداء امر مصوره ان يجعل هذا الجندي مسلحاً بالجريدة والمقلاع . وكانت ذخيرة المقلاع الحصى الصغير والحجارة المدببة او المستديرة وكانت توضع في حقيبة صغيرة تعلق في حزام الوسط

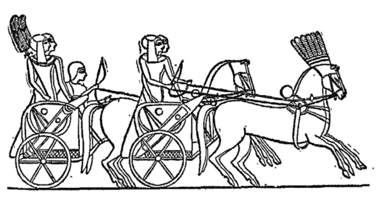
السيف

كان السيف المصري مستقيماً وقصيراً يتباين طوله من قدمين ونصف قدم الى ثلاث اقدام . له

اسلحة الجيش المصري القديم — ٢

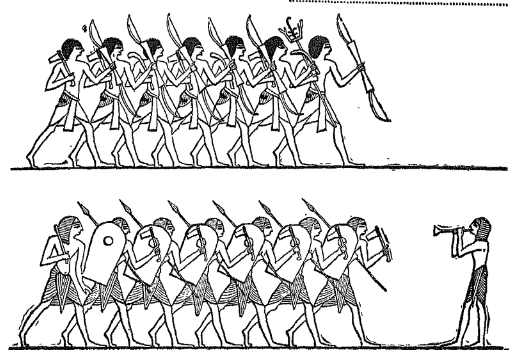


مركبة حربية يجرها جوادان وفيها اميرها ومساعده



مركبة مصرية يقودها اميران ويتبعهما ضابطان كأُركان حرب

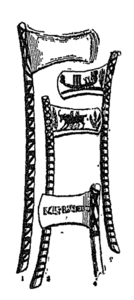
(جميع الصور في هذا المقال منقولة عن ولكنسون)



فوق : فصيلة من الجنود المشاة حملة الاقواس . تحت : فصيلة من الجنود المشاة حملة التروس



المدية المصرية وغمدها



البلطة المصرية

سن مزدوج ومدبب الطرف . وكان يحمل السيف ورأسه الى اسفل ويستخدم كالخنجر وكانت القبضة بسيطة الصنع منتصفها مجوّف تزداد سمكاً بالتدريج من مكان اتصالها بالنصل الى نهايتها وكانت ترصع احياناً بالاحجار الثمينة او الاخشاب النفيسة او المعادن. وكان لسيف الملك رأس او رأسان تصنعان على شكل صقر رمز المعبود رع او الشمس . ويمكن ان نضع الخنجر مع السيف القصير لتشابههما تقريباً مع ان الاول كان أقصر من الثاني. وكانت قبضة الخنجر كقبضة السيف مرصعة بالجواهر. وكان النصل من البرونز السميك من الوسط وله حز خفيف يمتد بين طرفيه . وفي متحف برلين خنجر مصري قديم بغمده عثر عليه الاثري « باسالاكوا » في احدى حفريات طيبة منذ نصف قرن او اكثر . وهو يمثل تمثيلاً واضحاً صناعة الاسلحة عند قدماء المصريين

المدية

اما المدية فكانت اقصر من السيف ذات حرف (نصل) واحد وقد استخدمت للقطع فقط وكانت تحملها جنود الاسلحة الخفيفة والثقيلة على السواء

السيف القصير Falchion

وكان الضباط والجنود يحملون ضمن اسلحتهم سيفاً قصيراً وفي كثير من النقوش يرى ملك مصر مشتبكاً مع العدو وهو يحمله ومعهُ البلطة ذات اليد القصيرة او النبوت (الصولجان) وكثيراً ما شوهد ضباط الجيش المصري القديم وهم يحملون العصي الخفيفة كالتي يحملها ضباط اليوم . أما في اثناء قيادتهم للجند للاشتباك فكانت اسلحتهم كأسلحة الملك عند ما يحارب على قدميه . وفي حرب العربات كانوا يسلحون بالقوس

البلطة ذات اليد القصيرة

وكانت البلطة صغيرة الحجم بسيطة الصناعة لا يزيد طولها على قدمين ونصف قدم . لها نصل واحد . ولم ترَ بلطة مصرية ذات نصلين كما كانت عند الرومان . وشكل هذه البلطة يشبه شكل البلطة التي يستعملها النجار المصري ولم يكن القصد من حملها ان يستعملها الجنود كسلاح هام في الاشتباك بل كانوا يهشمون بها ابواب المدن التي يهاجمونها او يكسّرون الاشجار التي يحتاجون الى خشبها لمعداتهم. وكانت البلطة اقل جميع اسلحة القتال زخرفة وبعضها نقش على نصلهِ صورة حيوان أو قارب او رمز من الرموز الدينية ينتهي في الغالب بقدم غزال. وكان الجندي خلال مسيره يحملها في يده او يعلقها على ظهره . ولم يظهر على النقوش الاثرية هل كان للبلطة غمد ام لا . وكانت أيدي بعض البلطات قصيرة جدًّا لا تزيد قدماً عن طول النصل. وان كان طولها في الغالب يقرب من ثلاث اقدام

وكان شكل النصل في الغالب نصف دائري وقد تفنن الصناع في نقشهِ ورسمهِ

الصولجان

ومن اسلحة المصريين الصولجان الخشبي . كان يحاط باسلاك البرونز . طوله قدمان ونصف قدم. تشتبك في احدى نهايتيهِ قطعة مثلثة من المعدن تسمى الحارس لتحكيم اليد فوقها حتى لا تفلت عفواً اثناء الضرب . له كُرة معدنية تضرب بها الخوذات والدروع . وكانت تسلح بهِ الجنود المشاة او جنود العربات الحربيــة الذين كانوا يحملون صولجانين معهم يعلّـقان على جانبي العربة . وكان للصولجان شأن كبير عند اشتباك فريقي المعركة . فتظهر البسالة بأجلى مظهر لان فرقة من الجنود الشجعان حملة القضبان يستطيعون ارباك العدو وتحطيم قواه بسرعة عجيبة

وكان لدى المصريين نوع آخر من الصوالجة منتظم السمك في طوله الكامل عريض في نهايتهِ العليا وليست له كُرة او حارس . وكانت العصي المقوسة او النبابيت (اللسان) تستعملها جنود الاسلحة الخفيفة او الثقيلة وحملة الاقواس . وهذه العصي وان كانت تظهر لاول وهلة كسلاح عديم الفائدة لكن التجارب اثبتت انها تفي بالغرض اثناء الالتحام . وكانت قبائل البشاريين الى عهد قريب تستعمل العصي بدلاً من السيوف

اسلحة بعض الفرق

وكان جنود الاسلحــة الثقيلة مجهزين بالدروع والحراب وبعضهم يحملون الدروع والصوالجة والبعض يحملون بلط القتال والدروع ومنها احياناً السيف والعصا المقوسة (اللسان) والعصا العادية

والجنود الخفيفة الذين ليسوا من رماة النبال كانوا مسلحين بنفس الاسلحة لكن اسلحتهم الواقية كانت اخف . اما اسلحة الخيّـالة المصرية فلم نعثر على مصادر تسهل الكلام عليها. والآن ننتقل الى وصف العربة الحربية التي كانت عنصراً هامًّـا في الجيش المصري

العربة الحربية Chariot

كانت تسع العربة راكبين على مثال العربة الاغريقية Diphros وتسع احياناً ثلاثة : السائق وقائدين . لكن كان ذلك نادراً ولم يشاهد الاَّ عند ما كان الملك يصطحب اميرين في بعض الحفلات احدهما يحمل الصولجان الملكي او الفلابيلا Flabella والآخر يقود العربة

وفي القتال كان كل ضابط يركب عربته ومعهُ سائقهُ وتعلّـق خلفه العــلامة المميزة لهُ على حزام عريض ويكون حرًّا في استعمال يديهِ للقوس والاسلحة الاخرى . وعند ما يخرج الملك او احد الزعماء بقصد النزهة او لزيارة صديق يستقل عربتهُ وحده ليقودها بنفسهِ وامامهُ تجري السوّاس . فاذا وقفت العربة قبضوا على السروع (جمع سرع مولَّـدة لسير اللجام) ويأخذون جياد العربة لتسييرها حتى عودة السيد . وكنت ترى دائماً في المعركة هؤلاءِ الاتباع على استعداد لاية اشارة . فاذا نزل قائد من عربتهِ لقيادة جنوده فوق تل او مرتفع لا تستطيع العربة تسلّـقهُ او عند حصار مدينة محصنة

اسرع هؤلاء الاتباع الى الجياد وأخذوها الى مكان امين حتى عودة سيدهم . او تبعوه عن كثب . وفي الغالب كان يوجد فريق آخر من العربات في مؤخرة الجيش لاستبدال العربات المتقدمة عند حدوث مفاجاءات او عند ما تضطره الاحوال العسكرية للتقهقر

ويرى الملك في المشاهد العسكرية المنقوشة على جدران المعابد المصرية راكباً جواده او في عربته وليس معهُ سائق . والسروع ملفوفة حول وسطه . ويرى كذلك وهو يحني قوسهُ ضد الاعداء . ويحتمل ان الفنان المصري تعمد عدم اظهار السائق بجانب الملك لاعتبارات فنية ولكي يظهر الملك وحده واضحاً على الآثار . واشتملت العربة الحربية على راكبين من درجة واحدة يشتركان معاً في خطر القتال ومجده . فاذا كان سائق العربة الملازم للقائد لا يحمل رتبة عالية كان يعد تعيينه لهذا العمل فخراً وامتيازاً . وفي الغالب كان لا يملأ هذه المناصب الاّ اصحاب الاخلاق الحميدة والمنزلة الرفيعة والذين كانوا اهلاً لاكتساب الشرف لملازمتهم ابناء الملوك والامراء والقواد . وكان اكثر الضباط المصريين ماهرين في قيادة عرباتهم الحربية لا يحتاجون الى من يقود لهم عرباتهم وكانوا يعتبرون ذلك فخراً لهم ودليلاً على مهارتهم في استعمال اسلحتهم اثناء قيادتهم للعربة

العربة الحربية في المعركة

استعمل المصريون السوط كابطال هوميروس في ملحمته الخالدة واستعملوا احياناً العصي القصيرة . وكان السوط عبارة عن قبضة مستديرة من الخشب الناعم لهُ عروتان احداها في اعلاه والاخرى في اسفله ولهُ قدة من الجلد او قطعة من الحبل طولها قدمان . يستطيع الجندي ان يعلقهُ من احدى عروتيه في اسفله بينما يستعمل قوسهُ او رمحهُ بسهولة

وعند ما يقابل احد الابطال زعيماً من الاعداء كان يترجل في الحال لينازله بقوة جسمهِ وبيدهِ بدلاً من القوس او الرمح او البلطة كما كان يفعل الاغريق واهالي طرواده . فأذا تغلب عليهِ وقتلهُ جردت جثتهُ من الاسلحة . فاذا جرح واصبح غير قادر على المقاومة واستسلم طالباً الرحمة نقل من الميدان في عربة حربية . اما باقي الاسرى الذين يسلمون اسلحتهم ويقدمون انفسهم فكانوا يعاملون معاملة اسرى حرب ويرسلون الى مؤخرة الجيش تحت الحراسة لتقديمهم الى الملك ثم يشتركون فيما بعد في حفلات النصر بعد انتهاء الحرب . وكانت تعد ايدي القتلى من جند الاعداء امام الملك وتسجل اعدادهم رسميًّا بواسطة المسجلين . ويذكر عددهم تمجيداً لذكر حكم الملك . وترى مشاهد الاسرى امام الملك على جدران مدينة هابو بطيبة . والصورة الكبيرة المنقوشة على الفناء الداخلي من هذا المعبد العظيم تمثل الملك رمسيس جالساً في عربته وامامهُ المسجل يأخذ ايدي القتلى ليضعهم في كوم كبير ويعدهم يداً بعد يد

ويستدل من مكان الملك في تلك اللوحة على انهُ من المحتمل ان كان للعربة المصرية مقعد وان كانت اكثر النقوش لا تظهر مقعداً في العربة فكان الجالس يركب على الحرف الامامي او الجانبي

فيها وكانت ارض العربة المصرية مصنوعة من اطار مثبت فيهِ شبكة متينة من الاغصان الجافة او الحبال كشبكة قوية تقاوم ضغط راكبيها وتكون لينة تحتهم اثناء الجري

ولاشك ان العربة المصرية كانت تصنع من الخشب كما اثبتت النقوش العديدة التي يستدل منها على صناعة اجزاء العربة وادوات العمل والقطع التي استعملها الصناع القدماء

وكان جسم العربة خفيفاً جدًّا يتركب من اطار خشبي منقوش ومزخرف بقطع معدنية اومكسوٍّ بالجلد يفوق في ذلك اكثر العربات التي وصفها هوميروس. وكان فمر العربة الذي يقف عليهِ الجندي مستوياً مكوناً من قطعة واحدة او من جرائد مفتولة ترتكز على العريش بعد اتصاله بخشب محور عجلتي العربة لتستطيع المحافظة على توازنها وسهولة تحركها وحدها من دون ان تنقلب ولكي لا يكسر العريش . وفي هذه الحالة يكون الثقل موزعاً بين العجلات والجياد . ولم تكن العربة ثقيلة الحمل فان جنديًّا واحداً كان يستطيع حملها بسهولة اذا حمل آخر متاع الجياد . وفي حالة ركوب اثنين لم يكن من الصعب على جوادين شد العربة والجري بها . وكان لكل عربة مسند او قائم متوسط الارتفاع ليتكىء فوقها العريش عند ما تؤخذ الجياد بعيداً فلا يقع العريش على الارض . وكان هذا القائم على شكل انسان يمثل اسيراً من الاعداء

قلنا ان اكثر اجزاء اجناب العربة وظهرها كانت مكشوفة . وهذا الجزء الاخير لم يكن له أطار أو حرف لمنع الجندي من السقوط الفجائي . وكانت تُعلق على احد الجانبين جعبة السهام او علبة القوس محلاة بالنقوش والزخارف تعلوها صورة اسد وتوضع الجعبة مائلة متجهة الى الامام . ولا يتسع المقام هنا لتفصيل عمل كل من النجار والحداد وصانع الجلود ...هؤلاءِ الثلاثة الذين اشتركوا في صناعة العجلات الحربية. وكان لكل عجلة ستة «برامق» spokes اسطوانية وكان للعجلات المستعملة في الشؤون المدنية او العربات الخاصة المستعملة في داخل المدن اربعة « برامق» فقط . وكانت تثبت العجلة في نهاية المحور بواسطة (شيوى) او خابور له احياناً رأس مزخرفة وله (تيلة) متينة تمنع انزلاق العجلة من محورها ولم تشاهد على الآثار عربات لها اكثر من عجلتين . ولم يكن للعربات المصرية حاجز لوقاية راكبها من الامام او الاجناب

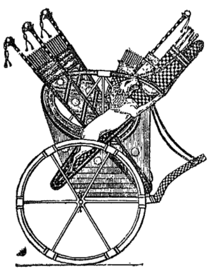
لم ترَ عربات مصرية يجرها اكثر من جوادين وان كان بعض اعداء المصريين استعملوا العربات التي تجرها اربعة جياد . وكان فيلق العربات المصرية كالمشاة مقسماً الى جنود خفيفة وثقيلة وكلاهما مسلح بالأقواس فالاول هو سلاح العربات الخفيفة فكان يستخدم لازعاج العدو بمقذوفات الحجارة ولذلك كان يستلزم خفة الحركة . اما الثاني وهو سلاح العربات الثقيلة فكان يستخدم لتفريق شمل الجماعات الكثيفة من مشاة الاعداء بعد امطارهم بوابل من السهام الثقيلة

نماذج من الاسلحة المصرية بالمتحف

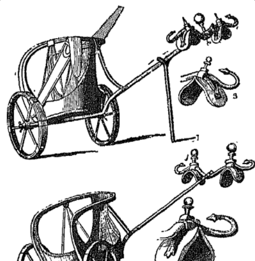
واننا لنشاهد كثيراً من انواع الاسلحة القديمة معروضة في ابهاء المتحف المصري . فيرى



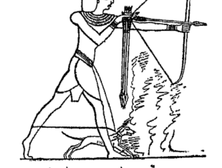
صورة تمثل الدرع الـكبيرة



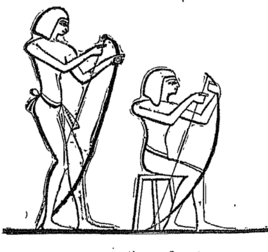
منظر جانبي للمركبة الحربية



منظر عام للمركبة الحربية «وأطقم» الجياد



صورة تمثل الاستعداد لاطلاق السهم وحمل اسهم اضافية



طريقة شد القوس

الزائر مجموعة من اسلحة الظران (الصوان) التي ترجع الى عصور قبل التاريخ في مصر . كما يشاهد مجموعة اخرى من العصي والحراب والبلط والخناجر والعصي المعقوف التي ترمى بها الطيور ومقابض للتروس (ارقام المتحف المصري ٦١٠٠ A, B)

وبين مكتشفات مقبرة توت عنخ آمون يشاهد هيكل مركبة حربية من خشب مذهب ومزين برسوم بارزة ومطعم بشرائط من الزجاج المختلف الالوان . وفي الوسط «خراطيش» الملك والملكة يحملها صقر باسط جناحيه وبين قمة المركبة وحافتها الخارجية جملة رسوم تمثل ستة من الاسرى الزنوج والاسيويين . وبالقرب من هذه العربة يشاهد الزائر مركبة اخرى عليها شارة الملك على شكل ابي الهول يطأ اسراه بأقدامه ويرى ايضاً اربعة سروج من عدة الجياد التي كانت تجر العربات وقد ازدان زوج منها برأسين مذهبتين للاله «بس » (١٠٥—١٠٨)

وتحتوي مكتشفات مقبرة هذا الملك الشاب على مجموعة جميلة من الاقواس المطعّمة والمكسوة بالذهب والعصي الخشبية المزركشة برقائق الذهب والصوالجة والاقواس والمدى والسكاكين والسهام التي لا يزال كثير منها محافظاً على رياشه ، ونصالها مختلفة المواد والاشكال . فنها ما هو مصنوع من البرونز على شكل كمثرى او رصاصة ومنها ما هو مصنوع من الزجاج او له اسنة من العاج او من الخشب . ومنها ما هو مدبب او مخروطي النصل للعب

« اطقم » الجياد

ويستطيع القارىء بعد زيارة معروضات بلاد النوبة في المتحف المصري ان يستخرج صورة كاملة للاطقم والحلى التي كانت تزين رؤوس الجياد . فقد كانت تصنع من الحديد او النحاس او الفضة المطعمة بالاحجار الكريمة التي لا يمكن تمييزها عن الصناعة الحديثة التي نشاهدها اليوم . ولا يمكن تمييز الاجزاء التي يتألف منها الطقم الذي صنع في مصر القديمة من الطقم الذي يخرجه احدث مصنع في هذه الايام تناسقاً وتنميقاً ودقة . كذلك لا تختلف الاجزاء الجلدية من السرج القديم عن السرج الحديث . فالقرطمة والسروع والركابات واللجم لم تتغير منذ القدم . وكانت للجواد مكانة عزيزة لدى سيده . فاذا فارق السيد الحياة زين جواده بأحلى اطقمه واقتيد الى مدفن مولاه لينفق ثم يدفن في غرفة ملاصقة للقبر . وكانت الجياد تدلل بالنواقيس النحاسية الصغيرة والخرز الملون والعقود الجميلة على الاسلوب الذي تدلل بها جياد اليوم

المراجع

١ — تاريخ مصر للعلامة برستيد وترجمة الدكتور حسن بك كمال
2 — Manners and Customs of the Ancient Egyptians by "Wilkinson" 3 Vols
3 — Life in Ancient Egypt. by "Erman"
4 — Die Bewaffnung des alt agyptischen Heeres. by Wolf.

خليل شيبوب

البنفسج

قد التحفت اوراقها وتطأمنت على نفسها في رقة وتواضع
مكحلة الاجفان يقضي حياؤها عليها باغضاء اللحاظ الخواشع
فتكسرها في غمزةٍ ثبتت بها محيرةٍ في ناظر غير دامع
وتثني من الاشفاق جيداً منعماً يميل بإطراق الحيي المانع
فيطمعنا فيها اريجُ عفافها ورب عفافٍ كان أغوى لطامع
مجاورة ترباً نماها ولم تزل تحنُّ اليهِ وهو قيد اصابع
كأن لها ذكر الجميل فريضة تردّدها في صمتها المتتابع
لدن باسقات الدوح ترفع هامها مولية عنه الى كل رافع
وهل كبرياء الدوح تعدل نظرة لمهومةٍ في ثوبها المتواضع
بنفسجة قد أسكرت كلَّ ناشقٍ كما بهرت باللطف كل مطالع
منمنمة في الروض قامت متيّمة بمكحول جفنيها طرازَ الوشائع
محببة ان زيّنت صدرَ حاملٍ حمت ذوقهُ من صارخ اللون فاقع
كأنَّ بها في معرض الزهو خجلةً تردُّ طموح الثائر المتدافع
ضحية لهو في الزمان ونزوةٍ تزيد بها نوراً على كل ساطع

***

أيا رمزَ نفسي في الحياة تحيةٌ تحاكي هتافَ النائحات السواجع
ارددها في لاعج اليأس كاظماً على غلّةٍ تذكي حنايا الاضالع
لعمرك كم سامي الذرى كشفت له ذراهُ عيوباً كنَّ حليةَ واضع
وكم وادعٍ في لطفهِ متطامنٍ على نفسهِ أعلتهُ رقّةُ وادع
وأكثر هذا الناس زهرٌ بلا شذا ومرأى بلا لونٍ ووَقْرٌ مسامع
هناك كنوزٌ لا تباح لهم ولا يقودُ اليها فضلُ شافٍ وشافع
غنى عنهم في العمر تشعرهم بهِ وإن بقيت مغمورة نفسُ قانع

سطور زرق

رعشة البحر ووجهه وحديثه واصواته

لراجي الراعي

وقفت امام البحر اسأل عن رعشته واحلّل معانيها

لماذا يرتعش البحر ؟؟

أهو يرى نفسه على رحابته وعظمته سجيناً في مكان رُسم لهُ في الارض لا يستطيع ان يفلت من قضبانه ليهجم على اليابسة عدوّته الازلية ويغمرها فيرتعش رعشة الاسد السجين الذي يرى امامه قطعاناً يمكنهُ ان يفترسها ولكن الحديد يقف بينهُ وبين مطامعه ، رعشة القوي الشاعر بقوته ولكنهُ لا يستطيع ان يمارسها ..

ام هو يشعر بجريمته عندما يمرّ على بقايا الابطال من غرقاه فيرتعش رعشة الخاطىء الذي حالف الموت فاعطاه في اعماق الماء مكاناً يلقي فيها بعض الخلائق التي حصدتها مناجله وضاقت بها الاضرحة ...

ام هو يضنّ بدرره المستقرة في قلبه ويخاف عليها من حيتانه فيرتعش رعشة الغني امام الايدي الجريئة التي تمتد حول خزائنه الغاصة بذهبها الموفور الدفين ...

ام هو نبيٌّ يرى كل يوم بعين النبوّة يومه الاخير الذي يسدل فيهِ على روايته ستارها الازرق ويعود الى اليابسة فيرتعش رعشة الحيّ المتشبّث بيومه الخائف من غده ...

ام هو شاعر عبقري روحاني نوراني خلق ليعيش في عالمه الخاص بين افكاره واحلامه وعواطفه بعيداً عن الانسان والانسانية قريباً من نفسه ومن خالقه وليكون جزيرة بارزة مستقلة عن التراب وابنائه في بحر الوجود ، يرى نفسه مُلكاً لسواهُ وساحة عامة يطأها كل عابر وصدراً مفتوح الرئتين والقلب والضلوع تشقّه السفن والدارعات والطرادات والنسّافات على مختلف اسمائها والوانها وتنفث فيهِ دخانها وتصيح صيحاتها وتلقي مراسيها فيرتعش رعشة العبقرية التي أقامت لنفسها الهياكل العاجية فاستبيح حماها واسودّ عاجها ، رعشة الشاعرية التي سُدلت الستائر على آلهتها فمزّقتها الايدي القاسية الاثيمة ...

ام هو يرى في مائهِ تلك الدموع التي التقطها من العيون الباكية وانهُ من اجل ذلك يجسّم اليأس وان كل كئيب يصبّ فيه ثمالة كأسه وانهُ مجموعة الثمالات في كأس واحدة ومجموعة الدموع في عين واحدة فترتعش فيهِ الوهية الالم التي اتخذته لها معبداً . . .

ام هو يحدق بالههِ « نبتون » ويؤمن بانهُ اله الآلهة فيرتعش رعشة العبادة والايمان . . .

ام هو بين موجته المجنونة وغايته المجهولة رجل اضاع عقلهُ فارتعش رعشة المجنون . . .

ام هو يرى الزبد في موجته خمرة في فمه فيرتعش رعشة الثمل . . .

ام هو المرأة المرأة ذات العينين الزرقاوين والقامة التي هي اطول من قامات النساء جميعهنَّ مندغمات في قامة واحدة ، يراها « كوبيد » اله الحب منتهى حبّه واطار خيالهِ فيمسح بثوبها الازرق دم كل سهم من سهامه بعد ان يرمي بها العشاق فترتعش الرعشة الكبرى ، رعشة الرعشات ، الرعشة التي يرى فيها كل جميل حبه وكل جميلة وجهها الساحر وقلبها الخفاق . . .

لا أدري لماذا يرتعش البحر ولا هو يدري ، هو البحر ومع ذلك فهو لا يعرف نفسه ولعله لا يعرف نفسهُ لانهُ البحر . . .

ان رعشته هي سرّه ، سر قوته ، سر الههته ، هي عينه الناظرة واذنه السامعة وفمه الناطق، هي روحه بل هي كل شيء فيه وهو يجهلها لان عظمته تمادت ومجده علا الى حيث لا يراها ... ومن بلايا الانسانية ان صغيرها وكبيرها يجهلان نفسيهما فالصغير لا يرى في صغره لنفسه وجهاً والكبير يرى نفسه في كبره واتساع خياله على صور وألوان عديدة يضيع بينها فلا يدري ايها يختار . . .

البحر مرآة رأيت فيها وجوهاً لم أرها في مرآة ورأيت هذه الوجوه تواكبها ذكريات بعيدة

رأيت أبانا القديم نوح يختال بفلكه على اليمّ وعلى رؤوس الغرقى ثم يستقر على سفح جبل اراراط فسألت نفسي : أين استقى نوح تلك المزايا الفريدة التي اصطفاه من اجلها الله فأغرق الخلائق وابقاه حيًّا ، سألت هذا السؤال لكي أنسج على منوال ذاك الرجل

البار العظيم فأنال حظوة في عيني الرب عند ما تطفح الكيل ويبلغ سيل الخطايا ربى الخليقة فتغمر الخليقة بطوفان آخر . . .

ووثبت فوق القرون وثبة هائلة رمتني تحت اقدام المسيح فرأيته يمشي على الماء وحييته باسم الوداعة والتقى والحلم والصبر والالم والاستشهاد والرحمة والعدل والحكمة وفتحت كتاب التضحية واخذت اقرأ سير الشهداء وتخيلت على كل موجة صليباً ...

ورأيت الفراعنة يتتبعون آثار موسى السائر الى ارض ميعاده فتغرق جيوشهم وخيولهم وأعلامهم فقلت : أين هم الظلاّم المستبدون يرون دماء ضحاياهم في هذا البحر الاحمر وهل يشعرون ان لكل منهم بحره الاحمر يغرقه باسم الضعيف المظلوم وباسم الحرية المسجونة . . . .

وسمعت اصواتاً طنّانة صخّابة متناقضة تخرج من اعماق البحر فتتجاوب اصداؤها في اودية كياني ، وللبحر كلماته وقاموسه ولغته واحساسه وخواطره . . .

سمعت صوتاً يقول لي : انظر اليّ كيف تتلاقى في ساحتي جميع قوات الارض والسماء كأنها على موعد في بيتي وكيف تشق عبابي السفينة ويلعب باحشائي الغوّاص وكيف يرتد عني الطرف وهو كليل ، انظر وكن مثلي صبوراً رحب الصدر بعيد المطامح واسع الخيال . . . .

وسمعت صوتاً آخر يقول :

صارع صخورك كموجاتي فالحياة جهاد مستديم وأنا عنوان هذا الجهاد ، كن مثلي وثّاباً دائماً وأبداً واذا استرحت من وثبة الامس فلتكن راحتك تأهباً لوثبة الغد . .

وقال صوت ثالث :

أنا مع عظمتي ورحابتي رجل اسير تقيّده شواطئه التي لايستطيع ان يجاوزها فاذكر دائماً وابداً انك مهما علوت وعظمت وشمخت وحملت الصوالجة وركبت العروش لا تستطيع ان تكون حرّاً ، واذكر دائماً وابداً ان الغاية من الحياة انما هي السعي طيلة ايامك ولياليك المعدودة للتملص من ربقة الشاطىء الذي يقف في طريق نفسك الهائجة فيمنعها من ان تنبسط بكليتها وتتجلّى بكل ما فيها من انوار ونيران فتحقّق جميع احلامها وتسكب جميع خمورها في كأس الخليقة . . .

وقال لي صوت رابع :

انا رجل وادع ثائر ، عاقل مجنون تراني يوماً ليّن الملمس كالحرير مصقولاً كالمرآة ويوماً فاغراً فماً فيهِ نيوب الليوث وباسطاً يداً تحمل اشدّ البراثن فتكاً فكان رأسي يحمل وجهين وجه الحياة ووجه الموت فكن مثلي حكيماً وافرق بين نداك وسيفك فلا تضع احداهما مكان الآخر . . .

وارتفع صوت خامس يقول :

ايها المشرف على عالمنا المتفرس في حياتنا البحرية انظر اليّ انا السمكة الصغيرة تبتلعني السمكة الكبيرة لانها القوة ولانني الضعف ، واليك اشكوها ايها الانسان فهل لك ان تحوّل بطشها عني وتضع في قلبها شيئاً من الرحمة والحنان ، فقلت لها : ايتها المستجيرة بي ، ان ما بك في الماء هو ما بنا على الشاطيء ، نحن اسماك الارض يأكل كبيرنا صغيرنا ويقتل قويّنا ضعيفنا فسيف القوة مصلت في البرّ والبحر وكأن الاقوياء فيهما يؤلفون عصبة واحدة ويتنادون فكلما ربح الظلم فريسة في بطن الماء ربح مثلها على سطح الارض — الظلم يا سمكتي الصغيرة قديم والظلم في كل مكان فلا تحسدي ابناء الارض ولا تحسبي انك اذا خرجتِ من الماء افلتّ من قبضة الاقوياء ...

ودُرتُ حول البحر اسأله : هل هناك ما يشبهك في الارض فحنى رأسهُ متواضعاً وقال نعم : تشبهني الصحارى ولكنها بحور جامدة والليالي ولكنها بحور سود . .

وسألتهُ : كيف انت والافق فقال : نحن شقيقان لفظتنا احشاء امرأة واحدة هي الطبيعة والصلات التي تجمعنا عديدةٌ فلوننا واحد هو الزرقة وجيوشنا لا تعدّ ولا تحصى فللافق نجومه ولي موجاتي ، وكلانا رمز العظمة واللانهاية ولكل منا وجههُ الغضوب فللافق صاعقته التي يعطس بها انفه ولي بركاني الثائر على شاطئي ، وفي قلبينا تستقر الدرر ...

وسألتهُ : كيف انت والصياد فقال بلهجة الفائز : انني آخذ اكثر مما اعطي ، ان غرقاي الذين اغنمهم اوفر عدداً من الاسماك التي يغنمونها مني ...

وسألته هل انت رجل عصاميّ ايها البحر فاجابني متأسفاً : ان عيبي الوحيد هو انني استعير مجدي وقوتي من سواي فلولا تلك الينابيع والانهار والجداول لم اكن ، انها تموت فيَّ لأحيا وتصبّ فيَّ كنوزها لأصبح مثرياً ، انها تعطيني حنينها لا تجبّر وتضع في صدري الواحد الملايين من القلوب ليظلّ نابضاً الى الابد ، انا كالقمر يستعير

نوره من الشمس ولولاها لم يكن القمر ، انا البحر ولكنني رجل مدين لا استطيع ان انطح السحاب بانفيَ الجبّار ...

وسألتهُ عن البخار لماذا ينفثهُ فمه فبدت على وجهه الرحمة وقال : انفثه ليؤلفهُ الافق غماماً ويسكبهُ ماء فيحيي ما يبس في الارض ، انا ابن الحنان ، انا ابن التضامن ، لقنتني امثولته القوى التي تضافرت فولدتني ...

وسألتهُ هل للشعر مكان فيك فاجاب : شاعريتي هي في رعشتي وصور خيالي المتوالية المتعاقبة في هذه الموجات المتعاقبة المتوالية ...

وسألتهُ : كيف انت والظمأُ ايها البحر فقال بين الحسرة والدهشة : انا بين ظمأين ظمأي وظمأ الناس فلا فمي يشرب مائي ولا يرتوي من يشرب مني ...

وسألتهُ عن البراكين التي يثيرها على بعض شواطئه بقوته الدافعة فأجاب : عند ما اغضب الغضبة الكبرى وتعجز الموجة عن ان تسعها اطلق بركاني ومن عجائبي انني اخرج النار من مائي ...

وسألته : كيف انت والجبل فقال : الجبل ضيق وانا فسيح ، الجبل مقطب الجبين وانا طلق المحيا ، الجبل صخرة وأنا رعشة ، الجبل عقل صارم وارادة باطشة وأنا قلب خفاق وشعور صارخ ، واذا كان للجبل عقبانهُ على قمته فلي كنوزي في اعماقي ...

وسألته عن الغزاة الفاتحين فقال :

ان لهم بحورهم ولكنها من دماء وأنا خير منهم فانك لا ترى على جبيني طابع الجريمة ......

وعن الفلاسفة فقال : أنا في كل كرة من كرات شكهم ويقينهم ، انهم يموتون صرعى بين امواجهم التي تغمر كيانهم ...

وعن المنتحرين فقال : انهم يؤثرون موجتي الصارخة على التراب الصامت

وسألته عن هؤلاء العراة الذين يستحمون فيه فهزّ رأسه وقال :

ان مذهب العري ينتشر في العالم ولكن العريان الذي نريده ليس هذا الذي ينزع ثيابه ويستسلم اليّ ليزداد وزنه ولتقوى معدته واعصابه وانما العريان الحقيقي الذي ننشده هو ذاك الذي ينزع عنه اطمار تقاليده واوهامه التي حملته اياها القرون السالفة فتبدو نفسه حرة جريئة طليقة من قيود الجهل والذل

وسألتهُ : كيف انت والموت فقال : نحن لسانان في فم واحد يوم نغضب

وسألته كيف انت والخيانات فقال : اني اعرفها فكم من عقيدة طرحها في صاحبها ولم يسأل عن غده . . .

وسألته : من هم أعداؤك الالداء فقال : القناعة والبخل والكآبة والعقم . . .

وسألته عن الاحلام فقال : ان نصفها يتلاشى في طيّاتي . . .

وسألته عن الامجاد فقال : انها موجات في بحر الخلود . .

وتماديت في الاسئلة حتى خشيت ان يستهويني البحر فتتلقّفني يد من اياديه ولكنني قبل ان تركت الشاطىء وعدتُ الى صلابة الارض سجدت امام « نبتون » وصليت صلاتي الزرقاء فقلت :

يارب الماء

ضع من قلبك في قلبي فتتّسع دائرته ويغزر دمه ، واضرب بموجاتك الصخور القائمة في طريق خيالي واحلامي

غذّ ارادتي لأحطم كآبتي وضعفي ، وارفعني الى مستواك لأبسط كتابي في العالمين . .

انزع مني الجداول و الانهار والبحيرات والسواقي واجعلني بحراً . .

انا من محبيك ايها الاله نبتون ومن المعجبين برعشاتك وصيحاتك فاجعلني من اتباعك وافتح لي صدر الموجة لتضمني اليها . .

افتح عيني لتسعك كلك وافتح اذني لتسمع جميع اصواتك ...

جمّلني بالصبر والحكمة واجعل صدري رحباً ليسع الناس ولؤمهم والاقدار وظلمها

اغرق فيَّ الوجه القبيح من انسانيتي وابق لي وجهها الجميل وزده جمالاً . . .

أغرق صحرائي واجعلني بحراً وخذني أنت لا سواك في يومي الاخير وارحني من وطأة ذلك الحجر البارد الثقيل اللئيم أيها الكريم الرحيم . . .

بيروت راجي الراعي

الدين والثقافة الحاضرة

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

شأن الدين : ان نظرة واحدة اجمالية في تاريخ الدين تدل على الدور العظيم الذي مثلتهُ العقائد الدينية على مسرح الحياة الاجتماعية ، ولا ادلَّ على المقام الرفيع الذي يتبوأهُ الدين في قلوب الجماعات — حتى في السنين الاخيرة الطافحة بالشكوك والثورات على انواعها — من هذه الغارة الشعواء التي تشنها الحكومات اللادينية على العقائد الدينية المتأصلة في النفوس لعلها تستطيع ان تزحزحها عن مكانها . ومن اللغو ان يحاول كاتب في التاريخ الحطَّ من شأن العامل الديني في التطور الاجتماعي وان يقتصر على العوامل الطبيعية وحدها ، واذا وجد ما يبرّر هذا الموقف في القرن الذي نعيش فيهِ فلن نجدله مبرراً في القرون الخالية ، لان الدين كما قالت « المعلمة البريطانية » قوة دافعة من اعظم القوى ، فقد الّفت هذه القوة الامم ومزّقتها وجمعت الامبراطوريات وفرّقتها واجازت افظع الاعمال المنكرة واوحشها واقسى العادات واخشها والهمت الخلق أنبل الافعال في البطولة والايثار والاخلاص واحدثت اهول الحروب والثورات والاضطهادات وجلبت للناس الحرية والسعادة والسلام ، وكانت في بعض الايام نصيرة الاستبداد وفي بعضها الآخر محطمة قيود الاستعباد ، وكانت حيناً من الزمن اساساً متيناً لمدنية جديدة لامعة برّاقة ثم كانت للتقدم والعلم والفن خصماً عنيداً وعقبةً كؤوداً

البحث العلمي والعقيدة الدينية : اننا على اتم وفاق مع « الموجز في الاجتماع » عند قوله :[1] لادخل للمباحث المتعلقة باصل الدين في المسألة الآتية وهي : هل كان ثمت وحي استطاع بفضله الانسان ان يعرف ربه ؟ فالبحث العلمي الفلسفي عن اصل الشعور الديني هو غير البحث في قولنا هل اظهر الله ارادته للخلق واطلعهم على مشيئتهِ ؟ ويهمنا كثيراً ان نعرف ما هي الاحوال الطبيعية التي احاطت بالانسان الاول حتى زرعت في نفسه الشعور الديني وساقتهُ الى العبادة وسائر الشعائر الدينية وهنالك شبه اجماع على ان الدين ظاهرة اجتماعية تلازم الجمعية البشرية كما تلازمها الظواهر الاخرى فيما تألف مجتمع من الافراد فمن لوازمه الاولية ظهور الاوضاع الاساسية من نظام وحكومة وادارةٍ واقتصاد وعقيدة دينية

وقد اجاد الاستاذ ماثيوس في قوله[2] ومع كل الفروق البدهية التي تميز اديان الناس بعضها

---

(1) Outline of Modern Knowledge, p. 49 (2) Outline of Sociology, p. 252

عن بعض ، وما لهذه الفروق من قيم متنوعة ، فالدين شيء اكبر من اي دين خاص بعينه، وهو يضع على بساط البحث قضايا سابقة لكل قضية تنشأ عن التعاليم التي يقول بها اي مذهب من المذاهب

التعصب الديني عقبة في سبيل البحث : ولم تعالج الموضوعات الدينية بالطريقة العلمية المضبوطة الاَّ في القرن الماضي لان التعصب الديني كان عثرة في سبيل البحث والاستقراء ، يدلك على ذلك ما كان يفعله العلماء حتى اهل الاخصاء منهم عند تصنيفهم الاديان فكانوا يقسمونها الى اديان صحيحة واديان فاسدة غير مدركين ما يعد اليوم بداهة وهو ان الدين ظاهرة اجتماعية تلازم الجمعية البشرية منذ نشأتها الاولى ، وهم يقصدون بالاديان الصحيحة ما وجدوا عليهِ آباءهم طبعاً وكل ما خالف ذلك فهو فاسد من عمل الشيطان . (ولمكس مولر) العالم الالماني الانكليزي المشهور فضل عظيم في محاربة مثل هذا التصنيف الضيق كما حارب تصنيفاً آخر يشابهه وهو القول ان الاديان قسمان اديان الهامية سماوية واديان وضعية ارضية(١)

ولم ينظر احد الى الاديان فيما اعلم نظرة رحبة سمحة ترى اليد المحجبة وراءها تدير شؤونها وتبعث روحها مثل المتصوّفة في الاسلام فقد وقف بعضهم منها موقفاً يجب ان يكون درساً بليغاً حتى للكثيرين ممن يعنون بمثل هذه الامور في اوربا واميركا في العصر الحاضر . وليت بعض السخفاء من المتحمسين الغربيين الذين يستدرون المال من ابناء دينهم « لهداية الوثنيين والمسلمين » او « لنشر النور بين العميان » ينهنهون من غربهم فيقرأوا على ضوء الحقائق التي قرّرها علماء (الدين المقارن) ما قاله ابن العربي وقد توفي سنة ٦٣٨ في قصيدتهِ التي طالما استشهدنا بها على سموّ الشعور الديني عند العرب وجعلناها عنواناً لا للتعمق فقط بل لله وللعقيدة والمبدأ ايضاً ، ذلك ان ابن العربي كان من القائلين بوحدة الاديان ويرى جميع المتدينين يعبدون الاله الواحد المتجلي في صورهم وصور جميع المعبودات والقصيدة هي :

لقد كنت قبل اليوم انكر صاحبي ... اذا لم يكن ديني الى دينه داني
وقد صار قلبي قابلاً كل صورة ... فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لاوثان وكعبة طائف ... والواح توراة ومصحف قرآن
ادين بدين الحب انى توجهت ... ركائبه فالحب ديني وايماني

وابن العربي هذا لا حاجة به الى من يذكرهُ من المتشددين الثقيلي الوطأة بأن هنالك في بعض الاديان المنحطة من السخافات والاعمال المنكرة ما لا يجوز ان يتسع لها قلبهُ او يطمئن اليها لبه، فهذا كله كان معلوماً عنده الاَّ انهُ كان في موقفه المستجد اسمى من ان يفوته المعنى العظيم المتجلي الشامل بانصرافه الى الجزئيات الموضعية الخاصّة . واذا كان الكون في نفسه الحسّاسة الصافية اشبه

(٣) Lectures on the Science of Religion p. p. 123—143

بقطعة شعرية نفيسة منسجمة فمصراع واحد معوج او بيت واحد فاسد لا يحول دون تمتعه بالقصيدة كلها كاملة واعجابه بالفنان المبدع الذي اجاد نظمها واحكم قوافيها ووزنها

وخذ مثالاً آخر على هذه الروح السمحة الرفيعة ما قاله ابن الفارض الحموي المصري المتوفى سنة ٦٣٢ هجرية في تائيته الكبرى :

وان نار بالقرآن محراب مسجد فما بار بالانجيل هيكل بيعة
وان عبد النار المجوس وما انطفت كما جاء في الاخبار في الف حجة
فما قصدوا غيري وان كان قصدهم سواي وان لم يظهروا عقد نية
فلا عبث والخلق لم يخلقوا سدًى وان لم تكن افعالهم بالسديدة

ولا اعرف احداً من المتقدمين قارب هذه المعاني — وان لم يبلغ شأوها — سوى الانبياء القيديين من الهنود فقد صاحوا في زمنهم « ان الناس ليدعونه — « اي ليدعون الله » — اندرا او مترا او ڤارونا او اغني وانّ الحكماء ليطلقون عليه الاسماء المتنوعة، اما هو فليس الاّ واحداً في جميعها»

وسوى (مكسيموس المادوري) لما قال لاغسطين في نحو سنة ٣٩٠ « ان هنالك الهاً واحداً عليّا ليس له ولد وهو الله القدير ابو الجميع، وان قوى هذه الآلهة التي عمّت الخلائق — يشير الى الآلهة الجديدة التي انتشرت في الامبراطورية الرومانية بدخول المؤمنين بها تحت طاعة الرومانيين — هي ما نتجه اليه بالعبادة تحت اسماء مختلفة بالنظر الى جهلنا اسمهُ الحقيقي ، فيحدث اننا اذ نقترب بعبادتنا ونحن منفردون من بعض اجزاء الوجود الالهي نجد اننا انما نعبد من كانت فيه هذه الاشياء جميعها وحدة كاملة »

ومن خير من عرفنا ممن يمثلون هذا الاتجاه البعيد الغور في الأعصر الحاضرة رئيس اعظم مؤسسة وجدت في الشرق للتبشير خوّلها بسعته للتثقيف وهو المرحوم الدكتور هورد بلس رئيس الجامعة الاميركية في بيروت. قال لي « لقد بقيت نصرانيًّا ادين بالمسيحية لاعتقادي انها تحوي مثلاً ٧٥ في المئة من الحق في حين اعتقد ان الاسلامية تحوي ٧٠ في المائة فقط واما انت فقد بقيت مسلماً على مثل هذا الاساس لاعتقادك بهذه النسبة ولكن في مصلحة الاسلام ، وخمسة في السبعين هي اختلاف ضئيل في المقدار لا اختلاف في الجوهر »

وعقد المستر «هربرت سبنسر» في كتابه «درس الاجتماع [١]» فصلاً شيقاً في التعصب الديني وتأثير العقيدة المتوارثة العمياء في احكام الناس . قال ان الصامويين — وهم سكان جزائر «صاموا» في المحيط الهادىء — متصفون باللطف والدعة والكرم الحاتمي والرجال والنساء منهم مطبوعون على حب اولادهم ، وللشيخوخة في نظرهم حرمة ووقار ، ويأبى الواحد منهم ان يدعى خشناً قليل المعروف

(١) The Study of Sociology, 293

وتمتاز نساؤهم بالفضيلة والالفة ، ولا تعرف عندهم جريمة قتل المواليد ، ولاحظ السياح انهم يعاملون المرضى معاملة انسانية كريمة جهد طاقتهم

هذه حال الصامويين اجمالاً ، فلننظر ما يقال عن جيرانهم «الفيجيين» اكلة اللحم البشري . فهؤلاء لا يكترثون لحياة الناس ويعيشون في خوف دائم بعضهم من بعض ويحسبون البوق «وهو الغدر» من الشمائل الكريمة ، وليس سفك الدم في نظر الفيجي جناية بل شرفاً ، فهم يقتلون المقعدين والعجزة والمرضى ونحو ثلثي مواليدهم ، ومن بقي منهم حياً فأول درس يتلقنه ان يضرب امه ، ومن خصالهم الحث على الانتقام واثارة الغضب وقتل من كان ادنى منهم مرتبة بمجرد اهماله تأدية السلام على الاصول ، وهم يئدون العبيد بجانب القوائم التي يبنى عليها بيت مليكهم ، ويذبحون عشرة منهم او اكثر على ظهر ركوة — زورق — جديدة ينزلونها الى الماء تعميداً لها بدمائهم ، ويخنقون نساء الامير وحجابه وامناءه عند موته تشريفاً لهم وتكريماً ، وعادة اكل اللحم البشري منتشرة عندهم الى حد ان اميراً من امرائهم رثى ابنه فقال في ختام رثائه انهُ لا يحجم عن قتل نسائه واكلهنَّ اذا ما اغضبنه » . وهم في بعض الاحيان يشوون فرائسهم البشرية احياء قبل ان يبتلعوهم ، وقطع (طانوا) احد امرائهم ذراع ابن عم له ولعق الدم السائل منهُ ثم طبخ هذه الذراع واكلها في حضرتهِ وبعد ذلك قام اليهِ فمزقه ارباً ارباً . أما آلهتهم — وقد وصفوا بأوصافهم وطبعوا على غرارهم — فكانوا يرتكبون هذه الاعمال نفسها ، لا جرم انهم يعيشون على ارواح الفرائس التي يفترسها الناس بشيِّهم هذه الارواح على النار اولاً ، وليست هذه الارواح في الواقع الاَّ « قرائن » الفرائس او نسخة ثانية عنها

ويصف الفيجيون هذه الآلهة بأنها محتالة متكبرة منتقمة تتحارب وتتقاتل ويأكل بعضها بعضاً ، ومن اسماء التمجيد التي يكرم بها الاله الفيجي قولهم « الزاني » و « خاطف المرأة » و « آكل الدماغ » و « القاتل »

تلك صفات الصامويين وهذه صفات الفيجيين فاسمع ما يقول هؤلاء عن اولئك

«يرتعش الفيجيون من ذكر الصامويين لانهم ليس لهم دين يدينون بهِ ولا عقيدة بآله من امثال الآلهة الفيجية يؤمنون بهِ ، وهم لا يعرفون شيئاً من تلك الشعائر الدموية المنتشرة في الجزائر الاخرى ، وفي احد الايام اظهر السائح « جكسون » شيئاً من قلة الاحترام لاحد آلهتهم فغضبوا عليهِ ولقبوه (الكافر الابيض) »

قال (سبنسر) وكل من قلب هذه الصفحات يرى الدرس البليغ المستخرج منها ، ولا نحتاج الى كبير عناء في تطبيقه على العقائد والمشاعر في الاقوام المتمدنة . ولا شك ان الرجل الفيجي الشرس يرى ان افتراسه فريسة بشرية باسم احد آلهته من اكلة اللحم البشري هو عمل مبرور في حين يرى ان جاره الصاموي الذي لا يقدم قرباناً لهذه الآلهة بل يعدل في معاملته ويحسن الى اخوانهِ يدل بعمله هذا على ان الدناءة تسير وقلة دينهِ كتفاً لكتف

اما وقد فسر الفيجي الحقائق على هذا المنوال فهو عاجز عن تصور المجتمع الصاموي تصوراً صحيحاً . وهو بما احدثهُ من الخبط والخلط بين الرذائل والفضائل وفقاً لعقيدتهِ الدينية المستحكمة لا بدَّ ان يرى الخير المتولد عن بعض النظم الاجتماعية شرًّا والشر خيراً

ولا يصعب على الباحث في اي دين من الاديان متى استعرض في ذهنهِ الحوادث والاشخاص ان يذكر بعض الذينهم في تصلبهم الديني الاعتقادي كجلاميد الصخر وفي سيرتهم العملية الاخلاقية لينو العريكة قليلو الاكتراث حتى ليلوح للمتتبع ان ليس ثمت ارتباط وثيق بين العقيدة والاخلاق فكان مجرد الاعتقاد بوجود قوة محجبة يتقرب اليها المؤمن بالركوع والسجود والادعية توصله الى الجنة الموعودة كما يوصل مجرد اسم (بدوح) على الغلاف الرسالة الى اصحابها

وقد اثرت عقيدة الناس بخطورة الايمان الديني وحده واتمام الشعائر والعبادات في الاصول من غير نظر الى الاعمال تأثيراً بليغاً في جميع الاوساط التي عرفناها ، وكنت اسمع في صغري من هذا القبيل مثلاً لا يزال كثير الشيوع للدلالة على قوة العبادة وحدها وهو «صل الفرض ونم بالعرض» يعني متى اديت عدداً من الركعات في يومك معيناً في الاوقات الخمسة فنم قرير العين هادىء البال

وانني لا اعد مثل هذه العقيدة الابتدائية شيئاً مستغرباً في بيئة عامة من بيئات الشرق بل العجيب ان ترسل اوربا وأميركا طبقة من خريجي جامعاتها — من اكسفرد وكامبردج وهارفرد وكولومبيا — ليبشروا بالدين فيسيئوا اليه بما يحملون من عقائد لا تختلف في جوهرها كثيراً عن عقائد الفيجيين ، فعند بعضهم مثلاً ان مجرد الايمان بالثالوث ينجي صاحبهُ وان لا دخل للاعمال في مصائر الناس ، وقرأت في منشورٍ وزعهُ بعضهم على البدو في العراق في سنة ١٩٢٧ قولهم: «ايها الموحدون اياكم ان تتكلوا على صالح الاعمال واحذروا ان تعتقدوا انها تدخل عاملها جنة الرب المتعال . ففتشوا عن الشفيع وابحثوا عن صفاته القدسية ترشدوا وآمنوا بالمخلص من الخطايا تهتدوا وان عسر عليكم فهم شيء فاسألوا الذين يقرأون الكتاب كما امركم بذلك القرآن يا اولي الالباب»

انني لما قرأت هذه العبارة المهينة للعمل الصالح لم اتمالك ان قلت في نفسي ما احوج اصحاب هذا المنشور الى هدي البدو لهم لان اصغر بدوي في العراق يعلم ان دخول الجنة متوقف على العمل الصالح ولو باطعام جائع وايمان خائف . ولو اطلع كاهن بسيط من كهنة البوذية في الشرق على هذا المنشور لحمد لغوتاما بوذا مذهبه « الكرما » الرائع الذي اصبح اساساً للدين وخلاصته ان مصير المرء في التناسخ الازلي متوقف على عمله او كما جاء في القرآن فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره

اما الحملة على العبادات وحدها من غير صلاحٍ يؤيدها فللشرق في ذلك مواقف رائعة قال المعري :

ما الدين صوم يذوب الصائمون له ولا صلاة ولا صوف على الجسد
وانما هو ترك الشر مطرحاً ونفضك الصدر من غل ومن حسد

وفي صحيح البخاري « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في طعامهِ وشرابه » وتقريع المسيح للفريسيين على تمسكهم بالقشور دون اللباب اشهر من ان يذكر

وحضرت مرة مجلساً للمرحوم عبد القادر بك المؤيد العظم فجاءه رجل يدعي حقًّا عليهِ وأخذ يدلي بحججهِ ومنها انهُ رجل لا يؤخر الصلاة ولا يترك الصيام فأجابهُ بغضب «الصلاة عادة والصوم جلادة»

وقد بيَّن الاستاذ « هوبكنس » (١) الضرر الشديد الذي قد يصيب الروح الدينية النبيلة من الاقتصار على الشعائر وغيرها من المظاهر الصورية ، ولما كان الدين ركناً ركيناً للاخلاق فكل ما يحدث فيهِ ضرراً يتناولها بالضرر ايضاً ويعرضها للخطر . وقد ذكر المؤلف من القصص النادرة في هذا الموضوع انهُ رأى في احد الايام امرأة تصلي في احدى الكنائس اللاتينية وبيدها سبحة لتلاوة الاوراد فركعت بجانبها امرأة غريبة تدل مظاهرها على الثروة والغنى فلاحت من صاحبتنا التفاتة فرأت طرف منديل يخرج من جيب الغنية عرضاً واتفاقاً فاغتنمت هذه الفرصة السانحة ونشلته لانها لم تستطع مقاومة هذه المحنة في نفسها ، واعتقد الاستاذ (هوبكنس) انها لم تأت الكنيسة للسرقة بل دلّته ملامحها على اخلاصها في عبادتها . وبعدما اتمت سرقتها جدّدت صلاتها بنشاط وحماسة اشد من قبل كأنها شعرت بالشكر والامتنان على ما اصابته من نجاح . وغني عن البيان ان مثل هذه الصلاة كانت عملاً صوريًّا من اعمال الشعائر . ويقال ان الرجل من سكان جزيرة صقلية يطعن بالمدية قابضاً عليها باليد الواحدة في حين يقبض على الصليب او الأثر المقدس باليد الاخرى فدينه كما ترى دين الشعائر . وفي شمال الهند طائفة تدعى طائفة (الثوجيين) مؤلفة من اخوان يعبدون الهاً يسمى (كالي) ومن عاداتهم الدينية المقدسة انهم يخنقون الفرائس البشرية تقرباً لالههم وتعبداً وكانوا يحصلون على معاشهم من الاسلاب التي تأتيهم بهذه الطريقة وقد استمروا في شعائرهم الدموية المقدسة هذه الى ان الغتها الحكومة البريطانية حوالي سنة ١٨٤٠

وفي الحملة النجدية الوهابية التي شنت الغارة على شرق الاردن منذ نحو عشر سنوات هجم بدوى من الغطغط في جملة من هجموا على قرية تدعى « أم العمد » ليجاهد في سبيل الله أعداء الدين من المرتدين الذين يجوزون زيارة القبور وطلب الشفاعة من أصحابها ، فرأى امرأة في حجرها ابنها فنادت تستغيث وتطلب الامان ولكن لا أمان للمرتد فذبح الطفل اولاً ثم ذبحها وهو يهلل ويكبر وينشد النشيد المعروف

هبّت هبوب الجنة رائح فين يا باغيها

(١) Origin & Evolutiun of Religion, p. 270

وكثيراً ما ناقضت بعض الاديان الاخلاق على هذا النمط فملايين « مملينة » ذهبت ضحايا الآلهة وفرائس العبادات. والاغواء كان جزءاً من العقائد الدينية في الهند وهو مع الاسف لا يزال كذلك الى اليوم ، وأخرت اديان اخرى الاخلاق بطرق اكثر حذاقة واشد مهارة فان ادعياء خدمة الدين المتصدرين للكلام بلسانه قد تمسكوا بالقواعد الاخلاقية الهرمة البالية وشووا المتهمين بالزندقة على النار في حفلات عامة يخيم عليها التبجيل والوقار وذلك عملاً بالامر الديني الذي يحرم سفك الدماء ! وقاوموا الافكار الحرة بحرقهم الكتب الاخلاقية والفلسفية التي تنافي العقائد الاخلاقية والسياسية الجامدة المقلدة . وتؤيد في يومنا هذا الاباحية وهي الحب الطليق بين الذكر والانثى تأييداً علنيًّا باسم دين لهُ مئات الملايين من الاتباع فقد جاء في كتاب « رقص شيفا » المطبوع في نيويورك سنة ١٩١٨ — وشيفا هذا هو اله الاصلاح في الثالوث الهندوكي — قوله عن هذه الاباحية « ان لها معنى روحيًّا عميقاً فهي تمثل الاتحاد الصّوفي بين المتناهي واللامتناهي»

وعرفت رجلاً من سلك القضاة الشرعيين في سورية توفي منذ سنوات فكان لا يترك صلاة في الضحى ولا صوماً في عاشوراء ولا مالاً ليتيم في المحكمة الشرعية ! ولم يدر في خلده ابداً ان الصلاة يجب ان تنهى عن الفحشاء والمنكر لتكون صلاة صحيحة

***

تعريف الدين : الدين عقيدة داخلية تدل عليها الطريقة التعبدية الخاصة التي تسلكها الجماعات نحو آلهتها وفقاً لتلك العقيدة . وفي امهات المعاجم العلمية ان الدين هو المظهر الخارجي في الشكل او في الفعل الذي يدل الناس بواسطته على اقرارهم بوجود اله واحد او آلهة متعددين لهم سلطة على مصير هؤلاء الناس ولهم واجب الطاعة والعبادة والحرمة اللائقة . او هو شعور داخلي واعراب خارجي عن حب وخوف ورهبة من قوّة مسيطرة خارقة فوق البشر ، ويتم هذا الاعراب بالاقرار بالعقيدة او بالقيام بالشعائر او بالسيرة الشخصية التي يسيرها المرء في حياته

وقد دلّ التتبع الدقيق ولا سيما في الاقوام الابتدائية على ان الدين عقيدةً وعملاً انما هو سعي للاحتفاظ بما ثبتت منفعته اجتماعيًّا . ويضرب العلماء[١] المثل على ذلك بالشعائر التي يقوم بها (التوديون) وهم جيل من الناس الابتدائيين يسكنون في آكام « نلجيري » في جنوب الهند وعددهم قليل مبعثر هنا وهنالك ويؤلف لبن الجاموس والبقر وما يستخرج منهُ من المحصول جلّ طعامهم . اما دينهم فيرتكز على هذا الرزق الذي هو ركن معيشتهم وهو الشيء القيم الثمين الذي يهمهم الاحتفاظ بهِ في الدرجة الاولى . فالواجب ان يكون اللبن غزيراً ونقيًّا لذلك كان جميع متعلقاته من بقر وملابن ولبانين ومحالب« وهي ادوات العمل في الالبان» مقدساً ، وان بعض الملابن

(١) A. Student's Philosophy of Religion, p. 19

هي في الواقع معابد يؤمها الناس للعبادة واللبانون القائمون على سدانتها هم كهنة

ويتفاوت البقر في قدسيته ، فهنالك البقر العادي يسوسه رجال القرية وصبيانها بالشيء القليل من الاحتفالات ، فيؤخذ اللبن ويمخض أمام كوخ السكن من غير شعائر خاصة تقام له ولا قيود يقيد بها استعماله أو المحصول الناتج منه . على ان الرجال والصبيان يحيون الشمس قبل مباشرتهم البقر وهكذا نرى استخدام الدين للاحتفاظ بهذا الخير الثمين محدوداً . وبخلاف ذلك البقر المقدس والملابن المقدسة فهي تحاط بالشيء الكثير من الرعاية الدينية ، فالعناية بملابن « ألْتي » مثلاً وهي أكثر الملابن شعائر ومناسك يقوم اللبان باحتفالات دقيقة محكمة قبل دخول محل عمله المقدس وعليه ان يبقى متبتلاً ما دام في هذا العمل ، وان يعيش في ملبنته منقطعاً عن الناس انقطاع الراهب في الدير

وعلى الكاهن في كثير من الملابن المقدسة ان يتلو صلاة معينة عند ما يشعل مصباحه وذلك قبل مباشرته البقر في الفجر وبعد حلبها، وقبل سوقها الى المرعى، وعليه في جميع هذه الملابن ان يتلو الصلاة في المساء قبل الحلب وبعده وعند ما يزرب البقر للمبيت ليلاً . وتتألف صلاة « التودیين » من جزئين اثنين «الاول» المقدمة وهي عبارة عن سرد اسماء كل اسم منها تسبقه كلمة معناها «لاجل» و(الثاني) الجزء الجوهري . اما المقدمة فهي مقدسة ويجب ان تبقى سرية حتى ان الذين عنوا بتدوين خبر (التودیين) لقوا صعاباً جمة في حملهم على ذكرها . وهي في احدى الملابن المعروفة في قرية «كودر» تشمل فيما تشمله الاسماء الآتية وهي اسم القرية والقبيلة والملبنتين الكبيرة والصغيرة والمصباح في الملبنة الاولى ، وزريبتي الجواميس في القرية وحظيرة العجول ، واسم الجواميس على نوعيها المقدسة والاعتيادية واسم الينبوع في القرية المختص بالملبنة واسم الجاموسة التي يزعمون ان لبنها مصدرهذا الينبوع ، واسم التلال الاربع القريبة من القرية ، واسماء بعض الجواميس التي يعتقدون ان الالهة «تيكرزى» اهدتها في بعض الايام للقبيلة ، واسم العجل الذي كان بحسب اساطير القوم وخرافاتهم السلف الصالح لبعض الجواميس الحاضرة

وبعد ان يردد كاهن الملبنة هذه المقدمة همساً بصوت ضعيف لا يكاد يفسرهُ من يقف بجانبه ينتقل الى الجزء الجوهري من صلاته فيتلوه بجلبة وخشخشة قائلاً : « لتكن حال الجواميس حسنة وليبتعد عنها الاذى والهلاك وشر الحيوانات السامة والوحوش البرية واضرار الفيضان والنيران وليكن عندها بحبوحة في الماء والكلأ »

***

افلا تدل مثل هذه الصلاة على انها سعي جدي للاحتفاظ بخير اجتماعي عميم له شأن عند القبيلة من المقام الاول

للبحث صلة

ما بين

الذهن الالماني والذهن الفرنسي

للدكتور بشر فارس

ان ثمة عبارة دارت على الاقلام وخلصت الى الاسماع حتى أشربت العقول اياها واطمأنت اليها ، ألا وهي قولهم « المنهج الاوربي» La méthode européenne ، عند الـكلام على الطرق العلمية فيما يتعلق بالبحث والتنقيب والتأليف . وبعيدٌ ان ينصرف حديثي هنا الى شرح نشأة هـذا المنهج وبسط خصائصه . فانما هذا يرجع الى فن المنطق العلمي ثم الى تاريخ الفلسفة ، وقبيح بي ان اطارح قرّاء المقتطف مثل ذاك الحـديث فما أظنهم الاّ ولهم عنه غنىً . وانما الموضوع الذي أحب ان اعالجهُ من الفرعيات ، ألا وهو الفرق بين المنهج الالماني والمنهج الفرنسي فيما يختص بالعلوم العقلية ، والذي استدرجني الى معالجة هذا الموضوع اني حصلت الفلسفة وما يلحق بها على أساتذة جامعة باريس ثم اتفق لي ان اشخص الى برلين فاجتمعت بطائفة من علماء الالمان وسمعت عليهم ووقفت على سياقة تآليفهم . فسرعان ما فطنت الى ان بين هؤلاء واولئك وجوهاً من الفرق

ان الـكاتب الفرنسي الى الادب ميال ، وان كان عالماً . فتجده يعنى بالمبنى فيحاول ان يقلب العبارة عذبة المدخل الى السمع لطيفة المنفذ الى النفس ،وذلك بأن الفرنسي يقيم للذوق الادبي وزناً عظيماً ، ومن شواهد ذلك ان امثال (تين) Taine و (رينان) Renan و (برجسون) Bergson لهذا العهد من أبعد الـكتّـاب ذهاباً في تهذيب اللفظ وإحكام السبك . ثم ان العالم الفرنسي لا يحاول ان يكون بحراً فيأبى — على الغالب — ان يجمع الاشتات ويستقصي الاطراف ، بل ربما مال عن الاحاطة بالاصول كلها . فهو خطّـاف علوم[1] ، يساعدهُ على ذلك ادراك وثّـاب وفطنة متقدة . فان استقامت له بضاعة علمية انطوى على نفسه وجعل يفكّـر ، فان الّـف برزت آثار تفكيره فوق آثار علمه : فالمصادر والوقائع عنده وسيلة ، وانما الغاية الخروج بنتيجة سواء كانت حقيقية او نظرية . ثم ان العالم الفرنسي قصير الصبر بحيث انهُ لا ينجذب الى التقصي البعيد والتفتيش المضني نحو اثبات كتب فن من الفنون

وأما العالم الالماني فمن أبعد الكتّـاب عن الادب . ولتجدنّ عبارته جامدة ، بل خشنة المطاوي

---

(١) أريد بالخطف الاخذ السريع ، دون تعريض ولا تلميح

مائلة عن مذاهب السلامة . ومن المعلوم ان اللغة الالمانية غريبة التركيب بل زائغة عن المنطق اللغوي فيما ارى ، وهنالك علماء يزيدون في تعقيد مبانيها باستمساكهم بالاسلوب القديم المنحدر قليلاً او كثيراً من جانب اللاتينية . ثم ان العالم الالماني يتغرّف العلم وهمه ان يردّ ذهنهُ موسوعة: فان اقبل على المشرقيات ومطلبه اللغة العربية تعلم جميع اللغات السامية ثم التركية والفارسية ، وفي نيّته ان ينبري للبحث فيها جميعاً والتنظير بينها ، وبعيد ان يكون الرجل كاذب العزم في ذلك فهو يتشبث بالاصول كتلك قواعد اللغة ومناحي التاريخ ، الاّ انهُ لا يكاد يصيب مخلصاً الى نفسه فيخلو بها، ذلك لانهُ اسير العلم وصريع الوقائع : فان ألّف توارى خلف معارفهِ ، وان اجترأ على بث رأي فكانهُ يحلف ليدعّمنهُ بوثائق لا سبيل عليه لآخذ . ثم ان العالم الالماني غوّاص على النوادر ، نقاب عن الدقائق ، ومن الامثلة على ذلك اني قرأت بحثاً للاستاذ « فِشِر » A. Fischer — وهو من اعضاء المجمع العربي الملكي المصري — في رسم اسم « امرىء القيس » ، فوقع البحث في مائة صفحة او تزيد، وفي اثنائهِ من الشوارد والاشتات ما لا يدور لذهن ، وما اظن احداً يقوى على ان يخرج شيئاً في هذا الباب بعد ذلك المقال . ومما يعين العالم الالماني على ذلك الجهد جلد متين العرى . فقد عرفت علماء يجلسون الى مكاتبهم اربع عشرة ساعة بل ست عشرة ساعة، وذلك كل يوم الاّ في النادر . وانك لتامس هذه العناية بالتدقيق والتمحيص التي تتطلب صبراً ما وراءهُ صبر في مثل كتاب تاريخ الآداب العربية « لبروكلمان » Brockelmann فان هذا المؤلف لايكاد يعدو اثبات المصادر وسياقة التراجم، الاّ انهُ كنز نفاسته في المحل الاول. وعليهِ اعتمد زيدان رحمهُ الله و« نكلسون » Nicholson الانكليزي و« هوار » Huart الفرنسي . وان انت قرأت مؤلف « هوار » هذا في الادب العربي خرجت منهُ برأي شامل ناصع ، ذلك ان الرجل فرنسي ... ولكني اشهد ويشهد غيري انهُ لم يك ليصنع شيئاً لو لم يبذل له « بروكلمان» كتابهُ الغزير مادةً

بقي اني لو سألني سائل من قومي : فان كان ذلك كذلك فالى المانيا نصعد ام الى فرنسا ارادة التفقه في العلوم الحديثة ، اجبت ، بنا حاجة اليهما جميعاً ، الاّ اني انظر في الذهن المصري أو السوري او العراقي لهذا الزمان فأراهُ الى الذهن الفرنسي اقرب منه الى الذهن الالماني . وقصة ذلك اننا قوم الى الأدب منجذبون ، والى خطف العلم ميّالون ، وبنفاد الصبر مصابون . ولا شك اننا اذا انطلقنا الى فرنسا تلقينا عن علمائها مذاهب المنهج الاوربي ، غير اننا لا يتم لنا ان نجاهد انفسنا المجاهدة كلها . هذا واذا نحن شخصنا الى المانيا اصلحنا معايبنا العقلية بترويض اذهاننا واكراهها على التماس ما تنفر منه . فان خرج الذهن من هذه البلوى غانماً اضاف الى مزاياه الفطرية مزايا اخرى مكتسبة لا تقل شأناً عن تلك . . . كل هذا وأنا استثني في هذا المقال الذهن الانجليزي ، ذلك الذهن الجبار ، ولي اليه عودة ان شاء الله

النباتات المصرية القديمة

للدكتور حسن كمال

الخضراوات

البامیا . الملوخية . الكرنب . البسلة . الكرات . الفجل . الخس . الحيض . الخيار
الكرفس . البصل . الثوم . الترمس . التوابل

سبق ان تكلمنا في « مقتطف » يوليو ١٩٣٥ عن الحبوب المصرية كالقمح والشعير والذرة . والآن نواصل بحثنا في الخضراوات . لكن هناك بعض الحبوب تدخل ضمن الخضراوات كالفول ونحيل القارىء اليها اذا اراد التثبت منها

والخضراوات تكوّن الجزء الاكبر من الغذاء المصري القديم . وتحوي موائد قرابين الموتى أنواع الاغذية مثل الفواكه والخضراوات والفطير واللحوم وغير ذلك . وسنقصر بحثنا على اهم الخضراوات الواردة على الآثار المقطوع بصحتها تاركين للزمن اماطة اللثام عن المجهول منها . ويقال للخضراوات بالمصرية القديمة (رنبت)

١ — ❁ البامیا ❁ يقال لها باللاتينية Hibiscus esculentus وبالانكليزية Bamiah او Ladies' finigers . قال روزاليني « ج ١ لوحة ٣٩ ص ٣٨٠ — ٣٨١ » ان رسم هذا النبات ورد على الآثار الفرعونية . وفاكهة هذا النبات تكسوها شعور حادة وتحوي حبوباً كروية بيضاء اللون هشّة المادة سكرية الطعم نوعاً

٢ — ❁ الملوخية ❁ ويقال لها باللاتينية Torchorus olitorius وبالمصرية القديمة « مِنح » « كمال باشا — لآلىء درية ص ١٣٠ — ١٣٣ » . كانت تنبت على الاخص بالوجه البحري . وأورد الاستاذ بروكش في قاموسهِ عبارة مصرية قديمة هذه ترجمتها « البردي والملوخية واللوطس الازرق والبشنين وجميع النباتات التي تنبت على النيل »

٣ — ❁ الكرنب ❁ ويقال له باللاتينية Brassica oleracea وبالانكليزية Cabbage كان يزرع في مصر كغذاء اعتيادي . ورد ذكره في قرطاس ساليير الفكاهي حكايةً عن البستاني « انهُ يمضي نهاره يروي الكراث وليله في ريّ الكرنب » (قرطاس ساليير لوحة ٢ — ٦ — ٦)

٤ — ❁ البسلّة ❁ ويقال لها باللاتينية Pisum Sativum . وبالانكليزية Peas وجد منها

مقدارٌ كبير في مقبرة هوارة وكاهون بالفيوم . وكان المصريون يزرعونها في عهد الاسرة الثانية عشرة « ٢٠٠٠ — ١٧٩٠ ق . م . » — وتسمى بالقبطية « لا كونشة—كال باشا » . وهناك نوع يقال له بسلة هندية Pisum Indicum . قال عنهُ بروكش باشا انهُ كان معروفاً عند المصريين باسم « عنخ آرى » . وهناك نوع ثالث يقال له باللاتينية Pisum arvense وجد الاستاذ Unger حبوبه في هرم دهشور . كل ذلك يثبت ان البسلة من النباتات المصرية القديمة . وميّز الاستاذ « نيوبرى » نوعاً من البسلة كان ممزوجاً مع شعير عن غير قصد في مقبرة بكاهون « اسرة ١٢ : ٢٠٠٠—١٧٩٠ق.م» يقال له باللاتينية Pisum elatius

٥ — ﴿ الكراث ﴾ ويقال لهُ باللاتينية Allium porrum . قال الاستاذ لوريه عن بلينيور ان الكراث نبت مصري لورود ذكره في التوراة . ولان « شوينفورت » وجده بمقبرتين قديمتين . وقرّب الاستاذ كال باشا اللفظ العربي كراث باللفظ المصري القديم كاراتا « لآلىء درية ص ٢٧٣ »

٦— ﴿ الفجل ﴾ ويقال له باللاتينية Raphanus Sativus وبالانكليزية radish قال هيرودوتس في رواية يغلب انها خرافة — انهُ كان منقوشاً على هرم الجيزة الاكبر ما معناه : « ان العمال الذين شادوا هذا الهرم كانوا يغذون بالفجل والبصل والثوم » . وميّز الاستاذ اونجر (Unger) طوابع هذا النبات على قالب من اللبن بدهشور . وتعرَّف ايضاً على رسمين لهذا النبات بمعبد الكرنك اوردها في رسالة عن النباتات المصرية القديمة « ص ٥١ رسم ٢٤ و ٢٩ » . قال لوريه : ومما يؤيد ايضاً ان الفجل قديم في مصر وجود فجلتين في احدى مقابر كاهون التي يرجع تاريخها الى زمن الاسرة الثانية عشرة « ٢٠٠٠—١٧٩٠ ق . م »

٧ — ﴿ الخس ﴾ ويقال لهُ باللاتينية Lactuca Sativa وبالانكليزية Lettuce كانت مصر القديمة تنتج عدة انواع من الخسّ ووجد هذا النبات مرسوماً ضمن القرابين العديدة التي تقدم للموتى . ويمكن معرفته من بينها بواسطة اوراقه الطويلة المدبّبة . وهي خضراء اللون مائلة الى الزرقة « دنكابلر ٢ لوحة ١٣٩ بني حسن أُسرة ١٢ » وتحوي دار تحف برلين حبوباً لهذا النبات يرجع تاريخها الى العهد الفرعوني . ويقال له بالمصرية « إبو »

٨ — ﴿ الحميض ﴾ واسمه باللاتينية Rumexdentatus وبالانكليزية Sorrel. وجد الاستاذ شيابرلّلي اغصان الحميض مغطية لبعض الفواكه المحفوظة . ونشر اكتشافه هذا في مجلة المعهد العلمي المصري سنة ١٨٨٥ « مجلد ٦ ص٢٧٢ — ٢٧٥ » وقال انهُ عثر على هذا النبات في قعر بئر عميق من العهد اليوناني

٩ — ﴿ القثاء والخيار ﴾ القثاء ويقال لهُ باللاتينية Cucumis Chate والخيار ويقال لهُ Cucumis Sativus وبالانكليزية Cucumber . يكثر رسم هذا الخضر بنوعيهِ بين قرابين الموتى . وقد أسف عليهِ بنو اسرائيل وقت خروجهم من مصر « اعداد ١١ — ٥ » . واستعمل قدماء المصريين

عصيره كمليّن في الطب من بين مواد اخرى كالملح « قرطاس ايبرس » . ويقال للقثاء بالمصرية « قاد» وللخيار « شب » (كمال باشا لآلىء درية ص ٢٤٤) . وورد ذكر القثاء في هرم تيتي من انهـا كانت تحت أرجل المعبود « سب » . وشبِّه بها في ورقة « ايبرس » النبات المسمى « سنوت » من حيث امتداده على الارض . ووجد « پتري » اجزاءً من فروع الخيار العادي بأوراقها بمقبرة كاهون وهوارة بالفيوم (اسرة ١٢ — ٢٠٠٠ — ١٧٩٠ ق.م)

١٠ — ﴿ الكرفس ﴾ ويقال له باللاتينية (Apium dulce) وبالانكليزية celery ورد ذكرهُ بهرم (مرزع) (اسرة ٦ : ٢٦٢٥ — ٢٤٧٥ ق . م .) وعثر على بذره في مقبرة مصرية قديمة ومنهُ المعروض في متحف فلورنسة بايطاليا . ووجدت اوراقه وفروعه ضمن اكليل الكاهن « كنت » الذي عثر عليهِ في جهة الشيخ عبد القرنة بالأُقصر . وقيل ان ذكره ورد في قرطاس « ايبرس » الطبي في علاج الاسنان والاذنين والعينين وغيرها . غير ان اسمهُ بالمصرية لم يعرف للآن بالضبط

١١ — ﴿ البصل ﴾ ويقال له باللاتينية Allium cepa وبالانكليزية Onion وجد مرسوماً على على الآثار المصرية منذ عهد الاسرة السادسة « ٢٦٢٥ — ٢٤٧٥ ق . م . » وروى « هيردوتوس » ان المصريين كانوا يأكلون البصل بكثرة . واعتاد القوم تقديمه قرباناً لموتاهم لوجوده في يد موميا. وثابت في قراطيسهم انهم استعملوا هذا النبات لادرار البول « ايبرس ٥٠ — ١٣ — ٤ » ولاصلاح الهضم « ايبرس ٣٩ — ٢٥ » . واعتادوا وضع هذا النبات على جحر الثعبان لمنعهِ من الخروج كما انهم كانوا يداوون بهِ لدغة العقرب والحيوانات السامة . وعثر الاستاذ پتري على مقادير كبيرة منهُ في مقبرة هوارة بالفيوم . ويقال له بالمصرية « بصر » وهو أصل لفظ بصل

١٢ — ﴿ الثوم ﴾ ويقال له باللاتينية (Allium Sativum) وبالانكليزية (Garlic) . قال (ديوستوريدس) ان الثوم المصري له بصلة صغيرة كالكراث وهو حلو الطعم مائل الى اللون الارجواني قصير الطويل . أما في البلدان الاخرى فهو اكبر حجماً ويتكون من عدة بصيلات ذات اللون الابيض . وقد تذكره اليهود بحسرة وقت خروجهم من مصر (اعداد ١١ — ٥) . وجاء عن رمسيس الثالث « ١١٩٨ — ١١٦٧ ق . م . » انه قدم منه الى معبودات طيبة ٣٦٠ مكيالاً زيادة على ٦٢٠٠ مكيال وهو المقدار المعتاد صرفها « قرطاس هويس ١٩ — ١ — ١٣ — ١٤ » . وهذا المجموع يعادل ٦١٧٦ لتراً . وكان المصريون قبل حكم الاسر « قبل ٣٤٠٠ ق.م. » مغرمين بالثوم كما يستدل بالمقادير التي عثر عليها منه في مقابرهم « بتري Prehistoric Egypt ١٩٢٠ — ٢٤ » . وعثر على حزمة من الثوم كاملة طول أفرعها ستون سنتيمتراً بمقبرة جهة العساسيف . واسمه بالمصرية « حتوم »

١٣ — ﴿ الترمس ﴾ اسمه باللاتينية (Lupinus) وبالانكليزية lupine . وجد الاستاذ (بتري) في مقبرة قديمة بهوارة بالفيوم بعضاً منه . فدلّ ذلك على انه كان معروفاً عند المصريين في العصرين اليوناني والروماني

١٤ — ﴿ التوابل ﴾ Spices — استعمل المصريون التوابل بكثرة في أغـذيتهم . وانتقل عدد كبير منها الى اوربا بعد الحرب الصليبية . وأهم التوابل القديمة هي : —

ا — ﴿ الـكزبرة ﴾ واسمها باللاتينية Coriandrum Sativum وبالانكليزية Coriander قال بلينوس في تاريخه الطبيعي «٢٠—٨٢» ان الـكزبرة المصرية هي اجود ما عرف من نوعها . واعتاد القوم ان يخلطوها بالنبيذ لزيادة قوته المسكرة ولاكثار السرور (مريت — دندرة — ١—٦٦—٤١ ولتهييج الاعصاب وتنبيه الاعصـاب التناسلية « ماسبرو — دراسة مصرية ١ — ٢٣٣) . وورد ذكر الـكزبرة سبع عشرة مرة في قرطاس «ايبرس» وثلاث مرات في قرطاس «برلين» وذلك ضمن وصفات لتقوية شهية الطعام ومقاومة التهوّع وعلاج الاورام والقلب والكبد الخ . لذلك اعتاد المصريون ان يضعوا مع موتاهم بعضاً من حب الـكزبرة وقد عثر على سرّتين من حب الـكزبرة في مقابر مصرية قديمة معروضة الآن بهولاندا « متحف ليدن — دليل — ٤٨ » . وعثر الاستاذ « شوينفورت » على بقايا الـكزبرة بالدير البحري . وورد ذكر الـكزبرة في قائمة قرابين قدماء المصريين « دار تحف اللوفر ب — ٤٩ — اسرة خامسة — ٢٧٥٠ — ٣٦٢٥ ق.م . » . واسمها بالمصرية القديمة «اِنش» — كمال باشا

ب ﴿ سمسم ﴾ ويقال له باللاتينية Sesamum indicum وبالانكليزية Sesame اورد «لوريه» رسماً للسمسم في كتابه « La Flore ص ٥٧ و٤١٥ » مأخوذاً من مقبرة رمسيس الثالث « ١١٩٨ —١١٦٧ ق.م.» مبيناً استعماله مع الفطير كما يستعمل الآن بين المصريين . واسمه بالمصرية القديمة شمشم « كمال باشا » ويطلق هذا اللفظ على النبات وحبّه على السواء

ويرى الاستـاذ ولكنسون « عادات المصريين ج ٢ ص ٤١٥ » والاستاذ اونجر « نبـاتات مصر القـديمة ص ٤٥ » ان قدماء المصريين استعملوا السمسم واليانسـون والـكمون كحبوب معطرة في الفطائر

« ج » كمون — واسمـهُ باللاتينية Cuminum Cyminum وبالانكليزية Cummin وبالمصرية جنى — كمال باشا — كانت اليهود تأخذ عشوراً على الـكمون والنعناع والشبت وورد ذكر الـكمون عشر مرات بقرطاس « ايبرس » الطبي . وقد وصفه « ديوسقورديس » المرضى. وعثر على حبوب الـكمون بمقبرة مصرية قديمة معروضة الآن بدار تحف « فلورنسة » بايطاليا

« د » شبت :— اسمه باللاتينية (Anethum) وبالانكليزية anise وبالمصرية القديمة (إمست) — نبت مصري قديم دخل ضمن وصفات الصداع . قال الاستاذ « لوريه » ان بذر الشبت دخل ضمن وصفة لشفاء اوعية الفخذ « قرطاس برلين لوحة ١٥ »

تجارب عجيبة

بأشعة تعطل وتميت

في انكلترا والمانيا وفرنسا وايطاليا واميركا

ردّد الكتّاب من أصحاب الخيال في السنوات الأخيرة ذكر شعاعة تطلق من بعيد فتميت الانسان والحيوان وتدمر الطائرات والسيارات . وقد حملت الينا الانباء البرقية غير مرة في العهد الاخير نبأ تحقيق هذا الخيال ثم ظهر ان ما قيل سابق لاوانه . ولا يخفى ان اقدم ذكر ورد لهذا الضرب من الاشعة ما نقل عن الاقدمين من استعمال المرايا في الحروب لعكس أشعة الشمس على العدو واستعمالها لحرق سفنه وعتاده الحربي . والواقع ان طائفة من العلماء المجربين في أشهر البلدان يجربون تجارب من هذا القبيل . والى القارىء شيئاً عن بعض هذه التجارب وأصحابها

يقول الاستاذ لو العالم الانكليزي انه اذا نشبت الحرب القادمة قبل استنباط هذه الوسيلة فلا ريب في ان الحكومات سوف توجه اليها جهدها عند نشوب الحرب . عند ذلك يصبح كل سلاح من أسلحة الحرب ولا فائدة منه بل ان استعمال هذه الاشعة يقضي على الحرب لانهُ يكفي لشل أمم بأسرها في بضع دقائق بعد اعلانها . فالطائرات اذا وجهت اليها هذه الاشعة قتل سائقوها أو عطلت محركاتها فتسقط الى الارض لا حراك فيها

ففي انكلترا عالمان يبحثان عن هذه الضالة ويظنان انهما على وشك الفوز بها . أحدهما يدعى غروندل ماتيوز وهو يحيط تجاربه بستار من الكتمان وترقبها الدوائر الرسمية البريطانية بعناية كبيرة . يقيم في كوخ على قمة جبل في جنوب ويلز يدعى جبل العشب . والكوخ يحيط بهِ سور من الاسلاك الشائكة وعلى مقربة منهُ ساحة للطائرات . ويدعي المستر ماتيوز ان في كوخه جهازاً يطلق اشعة في مكنتها أن تقتل فأرة أو ان تعطل سيارة . وهو يقول انهُ من المستطاع في المستقبل استعمال اشعة من هذا القبيل لتعطيل محركات الطائرات والسيارات عن بعد . واستعمالها يقتضي نفقة كبيرة ولا ريب ولكن الحكومات لا تحجم عن هذا عند الاضطرار . غير ان الطائرة التي تصيبها هذه الاشعة لا تدمر وانما يعطل محركها فلا تستطيع الحراك

والمستر ماتيوز ليس جديد العهد بالاختراع . فله في دار تسجيل المخترعات امتيازات عديدة لها صلة بالمواصلات السلكية واللاسلكية . وكان في خلال الحرب الكبرى قد استنبط زورقاً يسير بمحرك كالسيارة يمكن أن يطلق في البحر ويوجه بشعاعة من الضوء ، ثم يطلق مدفعاً صغيراً فيه بالطريقة نفسها . فاشترت الحكومة البريطانية منه هذا الاختراع بخمسة وعشرين الف جنيه

وهذا يدلك على ان تجارب المستر ماتيوز بأشعة الموت ليست من قبيل الفكاهة والتسلية

وهناك عالم آخر يدعى تشدفيلد وهو محاضر في كلية ليستر العلمية . وقد مضت عليهِ شهور وهو يجرب في مختبره الخاص بمدينة ليستر تجارب من هذا القبيل . وقد صرح ان لديهِ جهازاً الآن يستطيع ان يقتل بهِ فئراناً على بعد مئات من اليردات . وهو يدعي كذلك ان الرسائل العصبية في الاحياء كهربائية الاصل . وانهُ يمكن قتل الاحياء بتعطيل جهازها العصبي بواسطة اشعة مختلفة في طول امواجها . وقد استخرج رخصة من وزارة البريد لانشاء آلة من هذا القبيل قوتها ٥ كيلو وط

وقد صرح المستر تشدفيلد لاحد الصحافيين انهُ عازم على الحرص على استنباطه لئلاَّ يقع في ايدي من يستعمله للاذى لان انساناً واقفاً في مسار هذه الاشعة يقتل وهو لا يحس بذلك . فانهُ يشعر اولاً بقليل من الدفء ثم يفقد الشعور . وقد وجه اشعته هذه الى طوائف من الفئران والذباب فماتت من دون ان يبدو عليها كيف ماتت

وقد تستعمل هذه الاشعة لقتل البقر والاغنام بدلاً من ذبحها أو دق اعناقها في السلخانات

ولكل حي ضرب من الاشعة خاص بهِ يختلف في طول موجتهِ عن الضرب الآخر وهو يبحث الآن محاولاً اكتشاف هذه الضروب المختلفة . على ان انكلترا ليست بالبلاد الوحيدة التي تجرب فيها هذه التجارب . وقد اشارت الصحف والانباء البرقية غير مرة الى التجارب اللاسلكية التي يجربها المخترع العظيم ماركوني في ايطاليا بين قصر بوكتشيا وروما ، باشعة لاسلكية قصيرة جدًّا

وقد قيل انهُ في خلال قيام ماركوني بتجاربه هذه ، توقفت طائفة من السيارات الدارجة على شقة معينة من الطريق بين روما واوستيا لغير سبب معروف . ولما حاول سائقوها تسييرها ذهبت محاولاتهم ادراج الرياح . وقد اقترن اسم ماركوني في اواخر القرن التاسع عشر ببحر الامواج اللاسلكية وعجائبها . لذلك يقال انهُ على وشك اختراع عظيم . ويؤكدون ان هذا الاختراع ، ليس إلاَّ اشعة تؤثر في «ماغنيتو» السيارات والاجهزة الكهربائية في محركات الاحتراق الداخلي التي تسير بها السيارات والطائرات فتعطلها وتبقى معطلة ما دامت في نطاق تأثير الاشعة . وما لوحظ في ايطاليا من وقف السيارات ، لوحظ كذلك في المانيا . فقد كان احد تجار ڤينا دارجاً بسيارته في بافاريا ، فتوقفت السيارة فجأة ولم يدر السبب . ثم توقفت سيارة اخرى وراءه عن السير . فلما اقبل البوليس وقصت عليهِ القصة ، قال لا تخشوا بأساً ايها السادة . فبعد بضع دقائق تعود سياراتكم الى حالها الاولى

وما انقضت خمس دقائق حتى حركت المحركات فتحركت ومضت السيارات في سبيلها . وقد علم بعدئذٍ انهُ عالماً بافاريًّا قد بين انهُ يستطيع ان يعطل جهاز الاشتعال في محرك الاحتراق الداخلي ، بشعاعة من الاشعة اللاسلكية . ويقال انهُ اذا ظلت سيارة بضع دقائق في مسير شعاعة من هذا القبيل صهر معدن «الماغنيتو» فيها . وفعل هذه الشعاعة يمتد الى ميلين ولو كانت مولدة من جهاز صغير

ثم ان في المانيا خبيراً بالطيران يدعى نيغل تانغي يقول انهُ سمع تفصيلات عجيبة من طيار مشهور

موظف الآن في وزارة الطيران الالمانية . وقد جرّب هذا الطيار تجربة خاصة بتوجيه ضرب من هذه الاشعة الى الطائرات فاسقط الطائرات بها ، ولم ينفع في حجبها عن الطائرات حاجز ما

وقد اتخذت هذه التجارب شكلاً آخر في فرنسا . فقد استنبط هنالك جهاز يشبه المسدس في تركيبه ، ويطلق اشعة قوية الطاقة من الضوء . وقد جربت بهِ تجربة عجيبة ، بأشعة ضعيفة الطاقة ، امام جمهور من خبراء الجيش وسلاح الطيران . فاطلقت اشعته على جمهور من الراقصين والراقصات في ميدان كبير في باريس . وما كادت تطلق عليهم هذه الاشعة حتى فقدوا قوة التحرك ، ووقفوا جموداً في اماكنهم من دون ان يتموا خطوات الرقص التي كانوا بسبيلها ، وسقط بعضهم على الارض . فلما حولت الاشعة عنهم عادوا كما كانوا اناساً اسوياء يرقصون ويطربون

ويقولون في فرنسا ان عندهم جهازاً عاكساً استنبط حديثاً قد يثبت انهُ اصلح الوسائل لمقاومة الطائرات الحربية . وهذا الجهاز مؤلف من قرص معدني عاكس تتوسطه بندقية او آلة للقذف . فالبندقية تطلق نوعاً من الذرور شديد الالتهاب كذرور المغنيسيوم المستعمل في التصوير الشمسي ليلاً او في الظلام . الاَّ ان ذرور هذا الجهاز ألمع ضوءاً من المغنيسيوم عند اشتعالهِ وتركيبهُ لا يزال سرًّا مكتوماً . فعني اولو الامر من الفرنسويين بهِ عناية خاصة فطلبوا الى مستنبطيهِ ان لا يصنعاه للبيع في السوق العامة . ويقول احدهما اننا نستطيع بطلقة واحدة ان نحدث ضوءًا يبلغ اشراقه اشراق ثلاث ملايين شمعة ويستمر جزءًا من مائة جزء من الثانية . فاذا اصاب هذا الضوء عيني طيار محلق فوق مدينة ما بهر بهِ واصيب بعمى وقتي يدوم ثلاث دقائق فاذا وضعت بطريات من هذا الجهاز في المواقع الموافقة في قلب حاضرة كباريس وحواليها امكن وقايتها من هجمات الاساطيل الجوية المعادية عليها . وفي الولايات المتحدة الاميركية مستنبط كهربائي قديم العهد من اصل سربي يدعى نقولا تسلا . وقد اعلن من شهور عند بلوغه السنة الثامنة والسبعين من عمره انهُ اكتشف ضرباً من الاشعة يمكن استعماله في بناء سور يحيط ببلاد ما ولا يمكن ان تخترقه القوى العسكرية . وهو عازم على جعل هذا الاكتشاف رهن تصرف جامعة الامم لتستعمله في تعزيز السلام . ويؤخذ من تصريح آخر لهُ انهُ اتقن جهازاً يستطيع ان يبعث بهِ بتيارات من الدقائق المتناهية في الصغر بسرعة عظيمة وقوة عجيبة فتستطيع ان تسقط اسراب العدو وان تفتك بجيوش عظيمة اذا أصابتها

وهذا الاستنباط — اذا صحَّ — يجعل الحرب العدائية متعذرة ولكنه في الوقت نفسه لا يمكن ان يستعمل في اعتداء امة على اخرى اي انه لا يمكن ان يستعمل الاَّ في الدفاع . لان هذه الدقائق لا يمكن ان تتولد الاَّ من آلات كهربائية ضخمة . وهذه بحكم الطبع يجب ان تكون راسخة في الارض وليس في الوسع تنقيلها لتسير مع الجيوش الهاجمة

ولا يخفى ان الاشعة السينية والاشعة المنطلقة من الراديوم تستطيع ان تتلف الانسجة الحية . ولكن الغرض من هذه التجارب هو استعمالها او استعمال ما يقابلها على مدى بعيد وفي نطاق واسع

استاذنا الامام

حجة الاسلام

السيد محمد رشيد رضا

بقلم الشيخ أحمد محمد شاكر

فقد الاسلام في هذه الايام عَلَماً عالياً من أعلامه ، وإماماً حجةً من أئمة الهدى ، ومجاهداً كبيراً ، ومصلحاً عظيماً ، عاش حميداً ومات شهيداً [1]

ولد استاذنا الامام (السيد محمد رشيد رضا) رضي الله عنهُ في يوم الاربعاء ٢٧ جمادى الاولى سنة ١٢٨٢ (١٨ اكتوبر سنة ١٨٦٥) بقرية (القلمون) ، وهي قرية من قرى جبل لبنان على شاطىء البحر الابيض المتوسط ، وتبعد عن مدينة (طرابلس الشام) نحو ثلاثة أميال

وأسرة ابيهِ من السادة الاشراف الذين ينتهي نسبهم الى جدّنا الأعلى سيدنا الحسين بن علي عليهما السلام ، وهم من اهل العلم والارشاد والرياسة ، ذوو كرم وكرامة ، ودين وتقوى ، وعزة نفس وترفع . وقد عاشرنا في مصر منهم افراداً ، فكانوا من أنبل الناس خُلُقاً ، وأطهرهم قلباً ، واصدقهم حديثاً . وكان ابوهُ من اعز الرجال نفساً ، وأجرئهم جناناً ، واسخاهم يداً . وأمهُ : من أسلم النساء فطرة ، وأكرمهنّ أخلاقاً ، وأوفاهنّ لزوج ، وأحناهنّ على ولد . واسرة امه ينتهي نسبها الى سيدنا الحسن بن علي عليهما السلام

اول ما تعلمّ — رحمهُ الله — في كتّاب قريتهِ ، فتعلم قراءة القرآن والخط وقواعد الحساب الأربع ، ثم ادخل في (المدرسة الرشدية) بمدينة « طرابلس الشام » وهي مدرسة ابتدائية للدولة العثمانية ، يدرس فيها الصرف والنحو والحساب ومبادىء الجغرافية ، والعقائد والعبادات ، واللغة العربية واللغة التركية ، وكان جميع التدريس فيها باللغة التركية [2]

ثم دخل « المدرسة الوطنية الاسلامية » في سنة ١٢٩٩ وهي أرقى من المدرسة الرشدية ، وجميع التعليم فيها باللغة العربية ، الاّ اللغتين التركية والفرنسية . وتدرس فيها العلوم العربية والشرعية ، والمنطق والرياضيات والفلسفة الطبيعية . وكان استاذه العلامة الشهير « الشيخ حسين الجسر الازهري »

---

(١) فانه رحمه الله خرج مع ركب الامير سعود حين سفره من مصر الى الحجاز ، فذهب معهم الى السويس ، ومات في العودة عند ما وصل الى مصر الجديدة ، وماكان خروجه هذا مجاملة أو تقرباً للامير ، وانما كان ليحدثه في شؤون المسلمين ويعرض عليه آراءه في طرق الاصلاح ، ليعرضها سمو الامير على جلالة والده الملك عبدالعزيز بن السعود ، فكان خروجه عملا من أعمال الجهاد في سبيل الله ، ولم يقو جسمه في هذه السن على احتمال المشاق ، فمات مجاهداً شهيداً ، ان شاء الله . وكان ذلك في يوم الخميس ٢٣ جمادى الاولى سنة ١٣٥٤ (٢٢ اغسطس سنة ١٩٣٥)

(٢) المنار والازهر (ص ١٣٩)

هو المدير لها ، بعد أن كان هو الذي سعى لتأسيسها ، لأن رأيه أن الامة الاسلامية لا تصلح ولا ترقى الاَّ بالجمع بين علوم الدين وعلوم الدنيا على الطريقة العصرية الاوربية ، مع التربية الاسلامية الوطنية ، تجاه التربية الاجنبية في مدارس الدول الاوربية والامريكانية (١)

فلم يدخل المدارس الاَّ بعد تجاوزه الخامسة عشرة من عمره ، وكان ذلك عن رأي والده وإرشاده ، خوفاً عليه مما يعرض في المدن للناشئين من الفتن . فلما أن وثق من دينه وخلقه ورشده أذن له بالاقامة في مدينة طرابلس الشام لطلب العلم في المدارس

وكان قبل دخوله المدارس شديد العناية بمطالعة كتب الأدب وكتب التصوف . قال في كتابهِ « المنار والازهر » ص ١٤٠ « وكان أعجب كتب التصوف اليّ احياء علوم الدين لحجة الاسلام أبي حامد الغزالي ، فهو الذي طالعته كله ، وكنت اكثر مراجعته وقراءة بعض ابوابهِ عوداً على بدء . ثم صرت أقرؤه للناس ، وكان له اكبر التأثير في ديني واخلاقي وعلمي وعملي . وإنهُ لتأثير صالح نافع في اكثره ، ضارّ في أقله . وقد عالجت الضار منهُ بعد العلم بهِ : فما كان فيهِ من خطأ علمي فقد رجعت عنهُ بالتدريج ، بعد اشتغالي بعلم الحديث ، ولاسيما عقيدة الجبر والتأويلات الاشعرية والصوفية والغلوّ في الزهد ، وبعض العبادات المبتدعة . وأما تأثيره الوجداني في الزهد واحتقار الدنيا والمتكالبين عليها وعلى وظائف الحكومة — : فلم استطع الاعتدال فيهِ ،فضلاً عن التفصي منهُ »

وقد تلقى العلم عن كثير من العلماء الاعلام . فمنهم العلامة الشهير الشيخ حسين الجسر : أخذ عنهُ العلوم العربية والشرعية والعقلية . ومنهم شيخ الشيوخ الشيخ محمود نشابة : أخذ عنهُ الحديث وفقه الشافعية . ومنهم العالم المحدث العابد الشيخ محمد القاوقجي الكبير : تلقى عنهُ بعض مؤلفاته في الحديث . ومنهم العلامة الشيخ عبد الغني الرافعي : حضر عليهِ قليلاً من نيل الاوطار للشوكاني ، واستفاد كثيراً من معاشرته في العلم والادب والتصوف

ونشأ عابداً متعبداً ، زاهداً متنسكاً ، يذهب الى المسجد في السحر ، ولا يعود الى البيت الاَّ بعد ارتفاع الشمس ، ويصلي في الليل متهجداً تحت الاشجار في بساتين آله . ورباه أهله ثم ربى نفسه على الحياء والصدق والاخلاص والامر بالمعروف والنهي عن المنكر والشجاعة في ذلك ، فلا يخشى الاَّ الله

وكمل نفسه بكثير من العلوم العصرية ، ووسع دائرة تفكيره بالاطلاع على شؤون الاجتماع وسياسة العصر . فكان يطالع المجلات العلمية ، وفي مقدمتها « المقتطف » والمجلات السياسية وأهمها « العروة الوثقى » التي كان يصدرها في باريس المرحوم الاستاذ السيد جمال الدين الافغاني والمرحوم الامام الشيخ محمد عبده . ولقد حدثني صديقي الكاتب الفاضل السيد محيي الدين رضا انهُ سمع عمه المرحوم السيد رشيد يعترف بفضل « المقتطف » عليهِ في توسيع دائرة معارفه في نشأته ، وانهُ كان يواظب على قراءته ما وجد سعةً من وقته

(١) المنار والازهر (ص١٣٩و١٨١)

واما مجلة (العروة الوثقى) فانها كان لها اكبر الاثر في توجيه تفكيره الى الوجهة الاصلاحية للمسلمين[1] والى وضع منهج واضح يسير عليهِ في سبيل الاصلاح . وقد اتبع ما رسم لنفسه من خطة ، لم يحد عنهُ قيد شعرة ، حتى لقي الله

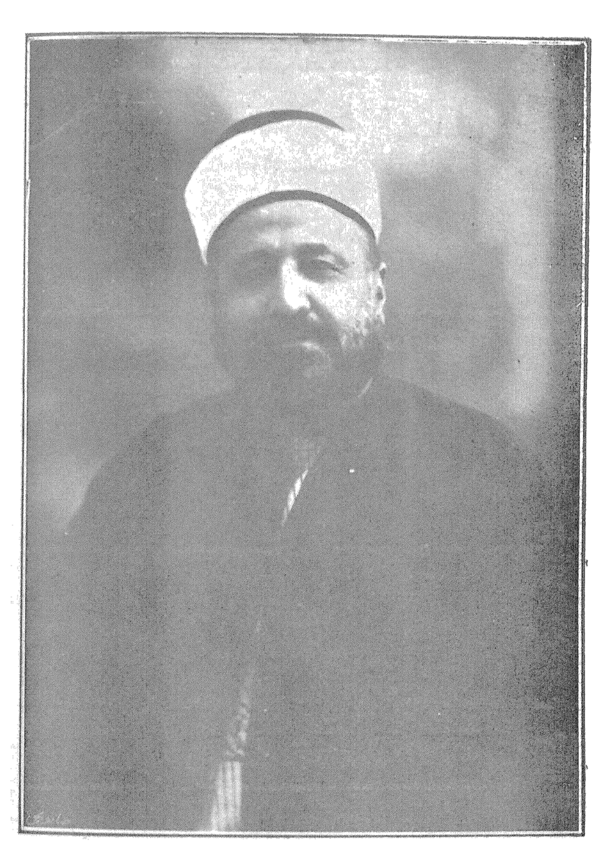
وأُوتي موهبة الكتابة العالية في إبان نشأته ، ونشر بعض مقالات في جريدة (طرابلس) فكان صحفيًّا بطبعه وفطرته ، وما زال يكتب ويحرّر الى حين وفاته . فكان من ابلغ الكتاب قلماً ، واوسعهم مجالاً ، واقومهم بحُجة

وقد عزم على الاتصال بالمرحوم السيد جمال الدين الافغاني « لتكميل نفسه بالحكمة والجهاد في خدمة الملة ، فلما توفاه الله تعالى اليهِ ، واشتهر ان السياسة الحميدية هي التي قضت عليهِ ، ضاقت عليهِ المملكة العثمانية بما رحبت ، وعزم على الهجرة الى مصر ، لما فيها من حرية العمل واللسان والقلم ، ومن مناهل العلم العذبة الموارد ، ومن طرق النشر الكثيرة المصادر . وكان اعظم ما يرجوه من الاستفادة في مصر الوقوف على ما استفاده الشيخ محمد عبده من الحكمة والخبرة وخطة الاصلاح التي استفادها من صحبة السيد جمال الدين ، وان يعمل معهُ وبارشاده في هذا الجوّ الحرّ »[2]

ثم يسَّر الله لهُ اسباب السفر الى مصر ، ورضي بهِ والداه رحمهما الله ، ولما وصل الى بيروت في طريقهِ الى مصر عرض عليهِ عبد القادر افندي القباني ان يقيم في بيروت ، ويتولى رئاسة التحرير لجريدته (ثمرات الفنون) . قال السيد رحمهُ الله : « فقلت لهُ : ان الحرية التي في بيروت لا تسعني قال : او تريد ان تنقد جلالة السلطان عبد الحميد او تخوض في سياسته ؟ قلت : انما أريد اصلاح الاخلاق والاجتماع والتربية والتعليم . قال : إن لك أوسع الحرية في هذا . قلت : إذا أردت ان أكتب في فضيلة الصدق ومضارّ الكذب ومفاسده فأبيّن ان أكبر اسباب فشوّ الكذب في الامم الحكم الاستبدادي ، أتنشر لي ذلك جريدتكم ؟ ! قال : لا ، لا ، عجّل بالذهاب الى مصر ولا تخبر أحداً ! [3] »

ويجدر بنا في هذا الموضع أن نصحح خطأً مشهوراً ، يظنه اكثر الناس صواباً ، وذلك : انهم يزعمون أن السيد رشيد رحمهُ الله جاء الى مصر لاتمام الدراسة العلمية ولذلك تتلمذ للشيخ محمد عبده. والحقيقة انهُ رحمهُ الله لم يغادر بلاده الاّ بعد اتمام دراسته ، وبعد نيل الشهادة العالمية والاذن لهُ من شيوخه بالتدريس ، وكان قد جاوز الثلاثين من عمره . وانما اتصل بالاستاذ الشيخ محمد عبده كما يتصل العالم الصغير بالعالم الكبير ، وبقي تلميذاً لهُ — على هذا المعنى — الى حين وفاته ، كما كان يفعل سلفنا الصالح رضي الله عنهم ، ولو بقي الاستاذ الشيخ محمد عبده حيًّا الى الآن لبقي السيد رشيد تلميذه الى الآن ، ولـوَفى لهُ في حياته كما وفى لهُ بعد مماته ، رضي الله عنهما

(١) تاريخ الامام محمد عبده (ج١ ص٨٤ و ٣٠٣ و ٩٩٥ — ٩٩٦) (٢) المنار والازهر (ص١٩١)
(٣) المنار والازهر (ص ١٩٢)



السيد محمد رشيد رضا

فكان السيد رحمه الله مع الاستاذ الامام تلميذاً لهُ وصديقاً ، وناصحاً ومخلصاً ، وكان مستودع أسراره والداعية لآرائه ، والمدافع عنهُ في كل معركة من معارك جهاده . بل كان كما وصفهُ الاستاذ الامام — لوالدي الاستاذ الاكبر الشيخ محمد شاكر حفظه الله — « ترجمان افكاره »

جاء السيد رشيد الى مصر وقد وضع نصب عينيهِ صحبة الاستاذ الامام ، ثم انشاء صحيفة اصلاحية يستمد فيها من حكمته وخبرته . فوصل الى الاسكندرية مساء الجمعة ٨ رجب سنة ١٣١٥ «٣ يناير سنة ١٨٩٨ » فأقام فيها أياماً ثم انتقل منها الى طنطا فالمنصورة فدمياط ، ثم عاد الى طنطا وسافر منها الى القاهرة قبل الظهر من يوم السبت ٢٣ رجب « ١٨ يناير سنة ١٨٩٨ » وفي ضحوة اليوم الثاني (الأحد ٤ رجب) ذهب الى زيارة الاستاذ الشيخ محمد عبده في داره بالناصرية . ثم اتصل الأمر بينهما واستشار السيد أستاذه في انشاء الصحيفة التي يريدها ، وشاوره في تسميتها ، وذكر له اسم (المنار) . مع أسماء أخرى ، فاختار الامام اسم (المنار) . ثم شرع السيد في تحريره ، وكتب فاتحة العدد الأول بقلم الرصاص في جامع الأسماعيلي المجاور لدار الاستاذ بالناصرية — وكان ذلك في منتصف شوال سنة ١٣١٥ (مارس سنة ١٨٩٨) — وذهب بها الى داره وعرضها عليه ، فأُعجب بها كل الاعجاب ، وارتضى كل ما ذكره فيها من المقاصد والأغراض ، إلاَّ كلمة واحدة : هي تعريف الأمة بحقوق الامام ، والامام بحقوق الأمة . قال ما معناه : « إن المسلمين ليس لهم اليوم إمام إلاَّ القرآن ، وإن الكلام في الامامة مثار فتنة يخشى ضره ولا يرجى نفعه الآن » فحذف السيد هذه الكلمة عن رأي الأستاذ وإشارته[1]

وقد اقترح السيد على الاستاذ الامام عقيب اتصاله بهِ — وكان أول اقتراح له عليهِ — أن يكتب تفسيراً للقرآن ينفخ فيهِ من روحه التي وجد روحها ونورها في مجلة (العروة الوثقى) فاعتذر الامام عن ذلك . فاقترح عليهِ أن يقرأ دروساً في التفسير ، فكان يعتذر ، ثم لم يزل بهِ حتى أقنعهُ برأيه ، فبدأ الاستاذ الامام في قراءة التفسير بالازهر الشريف في غرة المحرم سنة ١٣١٧ وانتهى منهُ في منتصف المحرم سنة ١٣٢٣ عند تفسير قوله تعالى «وكان الله بكل شيءٍ محيطاً » من الآية ١٢٦ من سورة النساء ، فقرأ زهاء خمسة أجزاء في ست سنين ، ثم توفى الامام الى رحمة الله يوم ٨ جمادى الاولى سنة ١٣٢٣ . وكان السيد رحمهُ الله يكتب في أثناء الدرس مذكرات بأهم ما يقوله الاستاذ ، ثم بدا لهُ باقتراح بعض الراغبين في الاطلاع على تفسير الامام : أن ينشر هذا التفسير في المنار ، فشرع في ذلك في المحرم سنة ١٣١٨

قال السيد رحمهُ الله : « وكنت أولاً أطلع الاستاذ الامام على ما اعده للطبع كلما تيسر ذلك بعد جمع حروفه في المطبعة وقبل طبعه ، فكان ربما ينقح فيه بزيادة قليلة او حذف كلمة او كلمات ، ولا اذكر انهُ انتقد شيئاً مما لم يره قبل الطبع ، بل كان راضياً بالمكتوب بل معجباً به . على انه لم يكن

(١) تاريخ الاستاذ الامام (ص ٩٩٥ — ١٠٠٥ وص ٩١٣)

كله نقلاً عنهُ ومعزوًّا اليهِ ، بل كان تفسيراً للكاتب من انشائه ، اقتبس فيهِ من تلك الدروس العالية جل ما استفاده منها »(١)

ثم استقلَّ السيد رحمهُ الله بعبء التفسير وحده بعد أستاذه فقام بهِ خير قيام ، بل فاق في هذا المجال استاذه الامام . فان الاستاذ الشيخ محمد عبده انما كان روحاً وثاباً ، وحكيماً عظيماً ، وقائداً ماهراً ، ولكن لم يكن مطلعاً على السنة النبوية اطلاعاً كافياً ، ولا يكون ، المفسر للقرآن مفسراً حقًّا الاَّ بالتوسع في دراسة الحديث النبوي والتشبع منه ، لان رسول الله صلى الله عليهِ وسلم أمر ببيان الكتاب للناس ، فقوله وفعله وكل حالاته شرح لهذا الكتاب الكريم

وقد أتمَّ السيد تفسير اثنى عشر جزءاً من اجزاء القرآن ، طبعت كلها . وفسر بعض آيات من اول الجزء الثالث عشر ، ثم فقدناه أُحوج ما كنا اليهِ ، رحمهُ الله ورضي عنهُ

وان اخوف ما كنت اخاف هو هذا الموقف الذي صرنا اليه : مات السيد رشيد ولم يكمل تفسير القرآن . ولقد أذكر أني تحدثت اليهِ في هذا المعنى منذ عشرين سنة تقريباً ، وكنت من اقرب الناس اليهِ وأبرّهم به ، فألححت عليهِ في ان يوجه عزمه وهمته الى اتمام التفسير ، وان يدع كل مشاغله الاخرى ويتفرغ لهذا العمل الجليل النافع ، الذي لا نعرف احداً من العلماء يضطلع بهِ ، ولا نرى له أهلاً غيره . ولكن هكذا قُدّر فكان . ولعلنا نجد من علمائنا من يوفق لاقتفاء أثر السيد رحمهُ الله في تفسير القرآن حتى يتمهُ . ان شاء الله

وبعد : فان آثار السيد رشيد في دفاعهِ عن الاسلام ، وتقريبهِ للاذهان لا يحصيها مقال او كتاب ، فانهُ رجل مكث قريباً من اربعين سنة يكتب في مجلتهِ وفي الصحف الاخرى ، ويؤلف الكتب والرسائل ، كل هذا لله وفي سبيل الله ، ولا يخشى في الله لومة لائم . ولكن أعظم آثاره وأنفعها ، وأرجاها للمسلمين ، وأبقاها على الدهر — : هو هذا التفسير العظيم

واني كنت قد وصفت بعض مزاياه في مقال نشرتهُ في مجلة (المنار) في العدد (٣ من المجلد ٣١) ربيع الآخر سنة ١٣٤٩ سبتمبر سنة ١٩٣٠ — ومما قلت فيهِ : إنهُ «خير تفسير طبع على الاطلاق ، ولا أستثني ، فانهُ هو التفسير الأوحد الذي يبين للناس اوجه الاهتداء بهدي القرآن على النحو الصحيح الواضح — إذ هو كتاب هداية عامة للبشر — لا يترك شيئاً من الدقائق التي تخفى على كثير من العلماء والمفسرين »

«ثم هو يظهر الناس على الاحكام التي تؤخذ من الكتاب والسنة ، غير مقلد ولا متعصب ، بل على سنن العلماء السابقين : كتاب الله وسنة رسوله . ولقد أوتي الاستاذ من الاطلاع على السنة ومعرفة عللها ، وتمييز الصحيح من الضعيف منها — : ما يجعله حجة وثقة في هذا المقام ، وأرشده الى فهم القرآن حق فهمه »

« ثم لا تجد مسألة من المسائل العمرانية او الآيات الكونية الاَّ وأبان حكمة الله فيها ، وأرشد الى الموعظة بها ، وكبت الملحدين والمعترضين بأسرارها ، وأعلن حجة الله على الناس . فهو يسهب

(١) تاريخ الاستاذ الامام ص (٧٦٥ — ٧٦٨) وتفسير المنار (ج ١ ص ١٢ — ١٥)

في ازالة كل شبهة تعرض للباحث من ابناء هذا العصر ، ممن اطلعوا على اقوال الماديين وطعونهم في الاديان السماوية ، ويدفع عن الدين ما يعرض لاذهانهم الغافلة عنهُ ، ويظهرهم على حقائقهِ الناصعة البيضاء ، مع البلاغة العالية ، والقوة النادرة . لله دره ! » ...

« ولقد عرض للكثير من المشكلات الاجتماعية والسياسية التي عرضت في شؤون المسلمين فأفسدت على كثير من شبانهم هداهم ودينهم ، فحللها تحليلاً دقيقاً . وأظهر الداء ووصف الدواء من القرآن والسنة ، وأقام الحجة القاطعة على ان الاسلام دين الفطرة ، وأنهُ دين كل أمة في كل عصر . ونفى عن الاسلام كثيراً مما ألصقهُ بهِ الجاهلون ، أو دسهُ المنافقون ، من خرافات وأكاذيب كانت تصد فئة من أبنائه عن سبيله ، وكان اعداؤه يجعلونها مثالب يلعبون بسببها بعقول الناشئة ليضموهم الى صفوفهم ، وينزعوهم من أحضان أمتهم »

« وإنهُ لكتاب العصر الحاضر يفيد منهُ العالم والجاهل والرجعي والمجدد بل هو الدفاع الحقيقي عن الدين »

« وأنا أرى من الواجب على كل من عرف حقائق هذا التفسير أن يحض إخوانه من الشبان على مطالعته ، والاستفادة منهُ ، وبث ما فيهِ من علم نافع . لعلَّ الله أن يجعل منهُ نواة صالحة لاعادة مجد الاسلام ، وأن ينير بهِ قلوباً أظلمت من ملئها بالجهالات المتكررة »

ولو شئنا أن نطيل في ترجمة السيد رشيد وتعداد مناقبه وفضائله ، أو في بيان مزايا تفسيره ونفعه للناس عامة — : لكان مجال القول أمامنا واسعاً ، ولأعجزنا ان نستوعب ما نريد من ذلك . ونسأل الله سبحانهُ أن يجزيه عن المسلمين خير الجزاء ، وأن يجعلهُ من السابقين الأولين

وإن الاخ الفاضل السيد عبد الرحمن عاصم — ابن عم أستاذنا وصهره — أعلم الناس بسيرته الشخصية والاجتماعية ، والسياسية الاسلامية والعربية ، وقد شهد لهُ بذلك السيد رشيد نفسه في كتاب المنار والازهر (ص ١٩٤) . وأنا أرى انهُ جدير بهِ أن يكتب ترجمة وافية ، أو يعين غيره على كتابتها ، وقد عاش معهُ نحواً من خمس وعشرين سنة ، ويخيل اليَّ أن هذه الشهادة للسيد عاصم تشير الى رغبة الاستاذ في ذلك ، وكأنها وصية منه ينبغي تحقيقها

وبعد فان من أمارات الخير ودلائل التوفيق أن السيد — رضي الله عنه — ركب السيارة يوم وفاته من السويس ، وشرع في قراءة القرآن ، ولم ينقطع عن التلاوة حتى قبضهُ الله اليهِ في مصر الجديدة

وأخرى : أن آخر ما كتب في تفسير القرآن تحت عنوان (دعاء يوسف عليهِ السلام بحسن الخاتمة) أنهُ فسر قوله تعالى حكايةً عن النبي يوسف عليهِ السلام (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ المُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي من تأويلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بالصَّالِحِينَ) ، وكتب في آخر تفسيرها : « فنسأله تعالى ان يجعل لنا خير حظٍّ منهُ بالموت على الاسلام » . فكانت دعوةً استجيبت ، وكانت — ان شاء الله — أمارةَ حُسْنِ الختام

مفردات النبات

بين اللغة والاستعمال

لمحمود مصطفى الدمياطي

[اجتمع لي طائفة من أسماء المفردات النباتية وحررت ما يقابلها في بعض اللغات الاجنبية لترتيبها في معجم والآن عنّ لي أن أنشرها تباعاً في مجلة المقتطف الغراء في بيان موجز أذكر فيه المفرد ووصفه وموطنه واستعماله مشيراً الى بعض فوائده في الزراعة أو الصناعة أو التغذية أو الطب عسى أن يكون في ذلك بعض الفائدة — الدمياطي]

التمر الهندي

ويقال لهُ (الحُمَر) كصُرَد او (الصُّبَار) بالضم وفي السودان اسمهُ (العَرَدِيب) شجرتهُ كبيرة الحجم او متوسطته مظلّة جميلة المنظر بطيئة النمو ترتفع الى ٨٠ قدماً او اكثر ذات جذع ثخين مستقيم قائم قد يكون طول محيطه ٢٥ قدماً وقلفها اسمر قاتم وأوراقها من النوع المركب الريشي الصغير الذي لا ينتهي بوريقة طول الواحدة منها من ٧½ سنتيمتراً الى ١٥ وبها من ١٠ ازواج الى ١٥ من الوريقات الصغيرة الاهليلجية الملساء . وأزهارها مجتمعة في عناقيد غير مكتظة في الواحد منها من ١٠ زهرات الى ١٥ بأطراف فروع جانبية صغيرة قصيرة . وثمراتها قرون سمر متدلية يتراوح طول الواحد منها بين ٧½ سنتيمتراً و١٠ وعرضه ٢½ سنتيمتراً وبداخله كتلة لب احمر يضرب الى السمرة مزّ الطعم حلو وهو الذي يتّجر بهِ ويشاهد في مصر مكبوساً كالعجوة . اما بذوره وتسميها العرب (القاريط) او (القراريط) فسمر اللون صلبة

اسمه العلمي (Tamarindus indica, L.) (تامارينْدوس انديقا) وفصيلته الخيار الشنبرية او السنائية (Caesalpiniaceae) (سيزالبينياسية) وبالانجليزية (The Tamarind Tree; Indian Date) وبالفرنسية (Tamarinier de l'Inde)

قيل موطنه إفريقية وآسيا الاستوائيتان وهو يزرع عادةً في الجهات الدافئة من الهند وجزيرة سيلان وجزائر ملايا والسودان وغيرها للاستظلال به والانتفاع بلب ثمره المزّ المشتمل على الحامض الليمونيك والتفاحيك والطرطاريك وهو المستعمل في الطب لتليين البطن وفي صنع انواع الشراب المنعش المرطب وتصدر منه كميات وافرة من جزائر الهند الغربية الى بلاد الانجليز وغيرها . وأهالي الشمال من جزيرة سيلان يستعملون خلاصة من اللب لحفظ السمك . وفي الهند تستعمل اوراقه الصغيرة الغضة كِمَادة على كل دُمَّل وخُرَّاج وغَلْفاً سطحية لحفظ التبغ في المناطق الجافة وبذوره دواء لمعالجة الاسهال . وفي السودان يستعمل قَلَف الجذع قابضاً ومقوّياً ويعتصر

من البذور زيت يدخل في صناعة (الورنيش) وخشب هذا الشجر صاب صفيق جميل المنظر جيد في الصقل مرغوب فيهِ في الهند وغيرها لصنع الاثاث وعجلات جر الاثقال وأوتاد الخيام والمهاريس المستعملة في تبييض الأُرْز وفي صنع السفن ومعاصر الزيوت وقصب السكر الى غير ذلك

الخُرْنُوب

ويقال له (الخُرُّوب) وفي العراق (القِثّاء الشامي) شجرته صغيرة تنمو ببطءٍ وتعمر طويلاً وتغل الى اكثر من مائة سنة ترتفع من ٦ امتار الى ٩ قلف جذعها املس سنجابي اللون وهي دائمة الخضرة . أوراقها من النوع المركب الريشي في الواحدة منها من ٥ وريقات الى ١٠ وهذه الوريقات خضر برّاقة بيضية الشكل ملساء كالجلد كاملة الحافة منفرجة القمة . وأزهارها صغيرة جدًّا عديمة البتلات (وريقات التويج) مخضرة مجتمعة في عناقيد اسطوانية الشكل . أما ثمارها فعبارة عن قرون منبسطة ثخينة سمر اللون قائمة متدلية ذات لب سكري حلو يتراوح طول الواحد منها بين ١٥ سنتيمتراً و ٣٠ وعرضه ٢/١ ٢ سنتيمتراً

اسمه العلمي (Ceratonia Silíqua, L.) (سيراطونيا سيلكوا) وفصيلته الخيار الشنبرية او السنائية (Caesalpiniaceae) (سيزالبينياسية)

وبالانجليزية (St. John's Bread, Locust-bean, or Carob Tree)

وبالفرنسيــة (Caroubier; Arbre de carrouge)

وهو ذائع بجنوب اوربا باسبانيا والجزائر وبشرق البحر الابيض المتوسط والشام ودخل مصر وشمال الهند وكوينزلاند والولايات المتحدة وجنوب إفريقية وغـيرها ويزرع بمنطقة البحر الابيض المتوسط لثمره الحلو المنبسط الذي يتجر بهِ كثيراً وهو يؤكل كما يعطى علفاً للماشية مغذياً مسمناً كما يستدل من تركيبه الكيميائي وهو :— ماء ١٤٫٦ ./٠ — البيومينات او بروتيدات (مكونة للّحم) ٧٫٦١ ./٠ — كربوهيدراتات (نشا وسكر الى غير ذلك) ٦٧٫٦٩ ./٠ — زيت او دهن ١٫٦١ ./٠ — ليف او سليلوز ٦٫٦٤ ./٠ — رماد ٢٫٦٩ ./٠ أما خشبهُ فثقيل متين احمر اللون جميل المنظر يرغب فيه للنجارة والوقود

وثمَّ نوع آخر من جنس الشجر المعروف في مصر (بخف الجمل) من الفصيلة نفسها معروف في السودان باسم (خروب) و (تـمْـبَـريب) و (ابو خميرة) اسمه العلمي (Bauhinia reticulata D C.) (بوهينيا ريطيقولاتا) جاءَ عنهُ في كتاب برون ومامى عن نباتات السودان المطبوع سنة ١٩٢٩ ان الشجرة منهُ صغيرة تضرب اجزاؤها الحديثة الى الحمرة أوراقها كبيرة الواحدة منها ذات فصين أزهارها عديدة تيجانها بيض وكؤوسها تضرب الى الحمرة . ثمرتها قرن منبسط طويل مقوّس قليلاً اسمر اللون قائم برّاق طوله قدم وعرضهُ ثلاث بوصات . خشبها صاب على نوع ما أسمر اللون فاتح يستعمل وقوداً . ويتخذ بعض نساء السودان من الياف قلف هذه الشجرة حبالاً ونسيجاً للثياب

وتؤكل البذور ويتمضمض بغلي الاوراق في وجع الاسنان ويحصل من الجذور على صبغة لونها يضرب الى الحمرة كلون خشب الماهوجانة

السّنى

بالقصر والمد نبت يتداوى بهِ والسَّنى يطلق على الاوراق والقرون الجافة لانواع معيّنة من الجنس النباتي المسمى علميًّا (قاسيا) (Cassia) وهو من فصيلة خيار الشنبر او الفصيلة السّنائية (سيزالبينياسية) (Caesalpiniaceae) وهي المعروفة بخواصها المليّنة وتستعمل في الطب كثيراً

(١) من احسن الانواع في التجارة (السّنى المكّي) ويحصل عليهِ من النبات المسمى علميًّا (قاسيا انجوستيفوليا او قاسيا لانسيولاتا) (Cassia angustifolia, Vahl. Syn. Cassia lanceolata, Royle) وبالانجليزية (Mecca, Bombay, or Tinnivelly Senna) وبالفرنسية (Séné de la Mecque, de Bombay, ou Séné de Tinnivelly) شجيرته عشبية صغيرة معمرة اوراقها من النوع الريشي المركب في الواحدة منها من ٥ ازواج الى ٨ من الوريقات البيضية المستطيلة الضيقة. أزهارها مجتمعة في عناقيد اطول من الاوراق المتأبطة لها. ثمرتها قرن عريض مستطيل مقوس قليلاً مستدير الطرف مصراعاه في نعومة الجلد مجردان عن الزوائد

ذائع في شمال إفريقية وشرقها ووسطها الاستوائي والجنوب الغربي من آسيا في بلاد العرب والسند وجنوب الهند بريًّا او يزرع ويغل كثيراً فينتج الفدان المزروع منهُ من ٧٠٠ رطل الى ١٤٠٠ من الاوراق الجافة حسب تربة الارض

(٢) وهناك السَّنَى الاسكندري او النوبي) المعروف في السودان (بسنى الكاب) ويحصل عليه من (قاسيا اوبوواتا او سنا أُبتيوزا) (Cassia obovata, Coll. Syn. Senna obtusa, Roxb.) وبالانجليزية (Alexandrian or Nubian-Senna) وبالفرنسية (Séné d'Alexandrie, ou séné de la Nubie)

شجيرته عشبية معمرة اوراقها من النوع الريشي المركب في الواحدة منها من ٣ ازواج الى ٧ من الوريقات البيضية او المستطيلة المقلوبة الملساء. أزهارها مجتمعة في عناقيد إبطية قائمة. ثمارها قرون منبسطة كلوية الشكل مستطيلة مستديرة الاطراف عريضتها للواحد منها مصراعان رقيقان في نعومة الجلد

وهو ذائع في الجنوب الغربي من آسيا بالسند وجنوب الهند ومنتشر في إفريقية ببلاد السنغال ومصر والسودان وغيرها وكثيراً ما تخلط اوراقه وثماره بأنواع السَّنىَ الحقيقية في التجارة كما يحصل منهُ ايضاً على جزء من السنى الحلبي والطرابلسي والايطالي والسنغالي الى غير ذلك

(٣) ومنها السَّنَى الاسكندري الحقيقي) ويقال لهُ في (مصر لسان العصفور) او (سنى صعيدي) او (سنى مكي) وفي السودان (سنى الرّيف) و (سنى مكة) ويحصل عليهِ من (قاسيا آكوتيفوليا) (Cassia acutifolia, Del.) وبالانجليزية (True Alexandrian Senna) وبالفرنسية (Veritable Séné d'Alexandrie) شجيرته عشبية معمرة اوراقها من النوع الريشي

المركب في الواحدة منها من ٤ ازواج الى ٥ من الوريقات البيضية او البيضية المستطيلة الحادة القمة أزهارها مجتمعة في عناقيد بآباط الاوراق العليا وهي اكثر طولاً من الاوراق . ثمارها قرون منبسطة مستطيلة عريضة مقوسة قليلاً طول الواحد منها ٥ سنتيمترات تقريباً

وهو ذائع في مصر وشمال إفريقية ومنطقتها الاستوائية والسودان والجنوب الغربي من آسيا وتخلط اوراقه الجافة في التجارة باوراق السَّنى الاسكندري او النوبي والسَّنى المكي السابقين

والعنصر الفعّال في السّنى هو الحامض القثارتيك الذي يوجد في نباتات اخرى . وعلى الجملة فهذه الثلاثة هي الانواع المهمة التي يحصل منها على السَّنى الطبي

وقد جاء ذكر السّنا في الهدي النبوي في علاج يبس الطبع لليِنه . روى الترمذيّ في جامعه وابن ماجة في سننه من حديث اسماء بنت عُمَيْس قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بما ذا كنت تستمشين قالت بالشبرم قال حار جار ثم قال استمشين بالسنا فقال لو كان شيء يشفي من الموت لكان السنا . وفي سنن ابن ماجة عن ابراهيم بن ابي عبلة قال سمعت عبد الله بن حَرام وكان ممن صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى القبلتين يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عليكم بالسنا والسنوت فان فيهما شفاء من كل داء الاَّ السام قيل يارسول الله وما السام قال الموت . قوله بمَ تستمشين اي تليين الطبع حتى يمشي ولا يصير بمنزلة الواقف فيؤذي باحتباس النجو

الحبة السوداء

ويقال لها بالفارسية(الشُّونيز) وهي (الكمون الاسود) و(الكمون الهندي) معروفة بمصر و(بحبة البركة) و(بالحبة المباركة)

هي نبات عشبي سنوي ساقه قائمة الى ٣٠ سنتيمتراً أزهاره زرق فاتحة ثماره علبية بيضية الواحدة منها مكوّنة من ٣ كاربلات (اعضاء تأنيث) الى ٦ ملتحمة الى القمة وبذوره خشنة سود ذات رائحة عطرية وطعم حرّيف . اسمه العلمي (Nigella sativa, L.) (نيجيلاً ساتيوا) وفصيلته الشقيقية (Ranunculaceae) (رانتقولاسية) وبالانجليزية (Small Fennel-flower or Black Cumin) وبالفرنسية (Nigelle cultivée, Nouelle romaine; Toute épice) موطنهُ جنوب اوربا ويزرع في صعيد مصر والسودان وبلاد البحر الابيض المتوسط والهند وفارس للحصول على بذوره العطرية المذهبة للريح المقوية المعدة . قال اهل العلم بالطب ان طبع بذور الحبة السوداء حار يابس وهي تذهب النفخ وتنفع من حمى الربع ومن البلغم وتفتح السدد وتذهب الريح وتجفف بلة المعدة وتذيب الحصاة وتدر البول والطمث وفيها جلاء وتقطيع واذا دقت واديم شمها نفعت من الزكام البارد وتفيد في علاج اليرقان وضيق النفس والصداع البارد ووجع الاسنان الناجم عن برد . وقد ذكر ابن البيطار وغيره ممن صنف في المفردات في منافعها ما تقدم واكثر منهُ وتستعمل مفردة ومركبة مسحوقة وغير

مسحوقة أكلاً وشرباً وسعوطاً وضماداً يستخرج منها زيت يستعمل بنجاح في السعال العصبي واوجاع الصدر وتعتبر من التوابل ويعطَّر بها الخبز. وقد ورد ذكرها في حديث صحيح عن عائشة رضي الله عنها انها سمعت النبي صلى الله عليهِ وسلم يقول إن هذه الحبة السوداء شفاء من كل داء الاَّ السام (والسام الموت) والمراد كل داء يقبل العلاج بها فانها انما تنفع من الامراض الباردة. فقوله في الحديث كل داء من العام الذي يراد به الخاص لانهُ ليس في طبع شيء من النبات ما يجمع جميع الامور التي تقابل الطبائع ومعالجة الادواء بمقابلها ولأن النبي صلى الله عليهِ وسلم كان يصف الدواء بحسب ما يشاهده من حال المريض فلعلَّ قوله في الحبة السوداء وافق مرض من مزاجهُ بارد فيكون معنى قوله شفاء من كل داء اي من هذا الجنس الذي وقع فيهِ القول واستثنى السام في هذا الحديث كما استثنى في حديث ما انزل الله داء الاَّ انزل له شفاء الاَّ السام في بعض رواياته. ولعلَّ التقدير الاداء الموت اي المرض الذي قدر على صاحبه الموت. واعتبار الموت مرضاً جار على ما تقول العرب وداء الموت ليس لهُ دواء

وثمَّ انواع اخرى من الحبة السوداء او الشونيز اهمها:

(١) الشونيز الدمشقي (.Nigella damascena, L) (نيجيلا داماسينا) وبالانجليزية (Love-in-a-mist; Catehrine's flower; Damask fennel-flower) وبالفرنسية (Nigelle de Damas) اي شونيز دمشق و(Cheveux de Vénus) اي شعر الزُّهْرة. وهو اجمل نوع في المنظر واصله من قسم البحر الابيض المتوسط من بلاد البرتغال الى ما وراء البحر الاسود ويوجد في شمال فرنسا ودخل مصر في القرن الماضي واستنبت في البساتين كثيراً حتى نشأت عنهُ اصناف عديدة. ساقه بسيطة قائمة الى ٤٠ سنتيمتراً. أوراقه ريشية شبيهة بالشعر. أزهاره زرق فاتحة. ثماره ملساء كروية الواحدة منها مكوَّنة من خمس كاربلات ملتحمة ورائحة بذوره كرائحة الشليك. قيل إنها مقوية مشدّدة طاردة للرياح مخية مدرة للطمث والبول

(٢) الشونيز الاندلسي (.Nigella hispanica, L) (نيجيلاَّ هيسپانيقا) يزرع للزينة ببلاد اسبانيا وبلاد المغرب وفرنسا ودخل مصر في القرن الماضي. وهو نبات خال من الزغب سنوي ساقه ثخينة قائمة الى ٦٠ سنتيمتراً أزهاره زرق او بيض في حجم أزهار الشونيز الدمشقي ثماره خشنة غدّية كبيرة عرض الواحدة منها مثل طولها ومكونة من ٨ كاربلات الى ١٠ ملتحمة وبذوره ملساء

(٣) الشونيز البرّي (.Nigella arvensis, L) (نيجيلاّ ارونسيس) وبالانجليزية (Field fennel-flower) وبالفرنسية (Nigelle des champs) اي شونيز المزارع ينبت بكثرة في المزارع التي تحصد باوربا وبلاد المغرب والمشرق وقليل الوجود في مصر وهو نبات صغير جميل ساقه بسيطة عديمة الزغب ترتفع الى ١٥ سنتيمتراً تقريباً. أزهاره زرق سنجابية. قيل إن بذوره معطّسة

التفاؤل والتشاؤم

Optimisme & Pessimisme

لاسماعيل عبد الغني اليمني

ما اسعدك لو اتيح لك ان تلج حديقة ابيقور الجميلة حيث الطير الشادي بلا انقطاع ، والزهر الدائب الايناع ، وحيث الشجر المورق النمير ، والجدول الدائم الخرير ، وتجلس في اصيل من ذهب فوق بساط من سندس ، تحت خميلة من ياقوت ، وتغمس رجليك في قناة من لجين ، وشعرك في نسيم من حرير ، وتطير بعقلك في سماء من خيال فتشعر بأن كل ما ترى وكل ما تسمع ، وديع كالحمل حلو كالقبل ، ضاحك كالشمول ، فيصفو ذهنك ، ويرهف حسك ، وتميل نفسك وأنت في هذا الجو المشبع بشذا الحب وشذا العطر ، المليء بالموسيقى والشعر ، أن تحتسي بضع اكؤس من تلك الخمر النيسابورية المساغة ، تترقرق من ثنايا الرباعيات الخالدة التي صاغها الشاعر الفيلسوف عمر الخيام في سويعات نشوته ، واحلام يقظته ، ثم تساقيت معها أكؤساً اخر من تلك الخمر البغدادية الشهية التي عصرها ابو نواس من عناقيد خياله ، والتي اصطلح الناس على تسميتها شعراً ، وهي مع ذلك وقبل ذلك ضرباً من ضروب الخمر بل لعلها اجود ضروب الخمر التي يثمل منها الشارب وينتشي

لا ريب انك تسخر من هذا العالم الترابي ، الذي يحيا فيه الناس مع الانعام ، وان تزور عنه ، فهذي روحك الخالدة ، قد غالبت جسدك الفاني ، وسمت بجناحيها فرحة مستبشرة حتى ولجت جناناً لما يطأها بشر ، فثمَّ صرح من قوارير ممرد . وثمر من اجناس منضد ، وطير ابابيل مغرد ، وثمَّ متاع جميل اسمى ما يكون الجمال ، طاهر أحق ما يكون الطهر ، لا شائبة فيه ولا دنية . يا للمقام الساحر ! لقد اعادك الى الطفولة وانت رجل ومنحك بسمة الطفل المدلل وأنت بأعباء التبعة مثقل وألقى بك بين احضان حلم جميل يرنحك فوق لجات الخيال كما ترنح القارب الصغير في رفق الأم موجات من النهر قد عشقته وهو بين يدي صانعه الواحاً ودسراً !!

لكنك هبطت الارض ثانية ، وانت الحين في المعرة ، ولم يبق في نفسك مما نلت من لذة . وما تذوقت من متعة ، الا آثار الذكرى . بيد انك تركت الدور ورحت تجوب انحاء القبور . تنظر عن يمينك وعن شمالك متأملاً مفكراً ، ثم هأنتذا قد وقفت أمام قبر كتب عليه

هذا جناهُ أبي عليَّ وما جنيتُ على أحد

فصحتَ بصوت قطع سكون المقبرة الرهيب ... هنا يثوى أبو العلاء فهذا بيته !! وفي هذه

البقعة الموحشة الرهيبة تكلم رهين المحبسين وكان كلِماً فيه جمال وفيه حزن وقليل من سُخر. فثمَّ حبات من در يتيم قد نثرت من جوف رمس ظليم، فاستحالت وحدها الى عقد نظيم، تريث ولا تعجل فقد يكون وراء هذا العقد شيء، فهذه قطعة اخرى تصلح ان تكون قرطاً ! وهذه اخرى تليق بأن تكون سواراً !! عـد الآن الى حسنائك فأنت اليها مشوق وزين جيدها ومعصمها الجميلين وأذنيها الصغيرتين بهذه اللآلىء الغوالي فهن خير ما يُهدي الحبيب الى الحبيب !! لكن يا لسوء حظك فهذا الدر اليتيم الذي خلت انك بالغ به قلب حسنائك لم يزدها الاَّ نفوراً منك واعراضاً عنـك . لقد ظنتك تسخر منها وتكيد لهـا فهي لهذا قد أبت منك الدر وارتضت من خصيمك الخرز !! حاولت أن تزين به جسدها لتزداد جمالاً فازدادت قبحاً ودمامة وبدا عليها كما يبدو الثوب الفضفاض على الرجل النحيل بل بدت فيه كما تبدو بلباس (الكرنفال) حقـًا ان الدر قد لمع في موضعه — ولكنهُ ما لمع حتى اطفأ لألاء الابتسام على ثغرها والنور في جبينها وحتى انقبض صدرها وانساب الخوف الى قلبها فألقت به أمام عاشقها وفرَّت عجلى تنشد ملاذاً !! ألا تُرباً لك أيها العاشق وجندلاً سمعت بشهرة الصائغ أبي العلاء فدار بخلدك — أن تزور حانوته . لكن أبا العلاء قد خـدعك عن نفسك . فباعك درًّا لا يصلح لان يكون سوارا (خطبة) أو عقد (عروس) أو قرط (حب) !! فياليتك حين كنت في حـديقة ابيقور قد قطعت وردة أو زنبقة ، أو جملة من طَلْح وشيء من سدر قليل أو ليتك وانت تحتسي من راح الخيام وراح ابي نواس قد فكرت في استبقاء كأس من هذه وكأس من تلك . اذن لنلت ما كنت تطمح من قلب حسنائك ولما افتقدت حبها في اللحظة التي ترقبتك فيها لتهبك قلبها خالصاً بلا ثمن !! فنفسك لم ان كنت لا بد لائمـاً وعبثاً تنتظر أوبة عصفورك الهارب . عند وكره، فما هو براجع اليه ابداً !!

صدعت قلبك الصدمة . فأنت مفتقر الى طبيب يضمد جراحه فلمَّ اخترت نطاسيًّا من (المانيا) هو (شوبنهاور) ليعالج تضميد جراحك وتسرية همومك ورقأ دموعك ؟ لن يكون دواؤه عند كل صباح ومساء الاَّ ان يلقي عليك فصولاً من سفره الخالد (الارادة) ولسوف يجذبك وهو يسمعك هـذه الفصول المنمقة الثمينة الى فراديس رحاب فيها دوح ونَهَرْ ، وفيها زهر وثمر ، ونصحنا لك ان شئت ان تقبله ألاَّ تلجها وحسبك ان تقف لدى بابها وقفة الآبي ، فقد ترى في منظرها عن كثب شيئاً يسر وشيئاً يخلب ، خيرٌ لك ان تظمأ ، وخيرٌ لك ان تجوع وأن تؤوب صادياً طاوياً ، من ان تشرب جرعة ، او تطعم ثمرة ، فالماء والثمر ، كلاهما قد نفثت فيهِ الافاعي فسممتهُ فأصبح قاتلاً !!

ويلوح لنا انك عدت من المانيا مريضاً كما ذهبت اليها مريضاً وان الطبيب شوبنهاور لم يفدك ولم يستطيع ان يفيدك لان مرضك التوى عليهِ واستتر. وخيرٌ لك اذن ان تلقي بقنانينه واربطته (ومراهمه) بما حوت من دواء دون ان تجرع منهُ قطرة او تضع على جرح من جراحك (لزقة) فقد يكون

فيه حتفك ان فعلت . ولعلك وانت في ايابك سادماً حزيناً قد عنّ لك ان تتجه نحو ذلك الموسيقي البائس (لامنييه) وهو يعزف على قيثاره (انشودة اليأس) لكن حذار ان تسمعه بقلبك وعواطفك واقنع منهُ بسمع لا يتجاوز صماخ الاذن ، تلذذ بموسيقي النغم دون ان تذهب معها بعيداً حيث تحاول ان تستقر فقد يكون مستقرها ناراً تحرق او بحراً يغرق ! ! ارث لهُ رثاء انسان مجدود لانسان مفؤود لا يستطيع ان يمحو شيئاً من بؤسه وشقائه . ولا تعجب بهِ او تحاول ان تشاركه في حزنه فأنك وان كنت مثله حزين الاَّ ان حزنك قد جدَّ في سيره حتى لحق الفجر وهو من الصبح قاب قوس في حين ان حزنه والليـل صنوان التفـَّا في مئزر واحد وسيظلاَّن كذلك ابداً ! ! انت تصيح لهُ وهو ينشد !

(ايه أيتها النفس لِمَ انت دائمة الحزن والاكتئاب ? أليست الشمس في جمالها الخلاَّب ترسل اشعتها حباتٍ من اليـاقوت الاحمر وهي طفلة في المهد يرعاها الفجر ? وسلاسل من ذهب خالص وهي عذراء قد نمت وترعرعت ثم سفرت من خدرها تغازل الصبح ? انظري ايتها النفس الى اوراق الشجر كيف تختال في اغصانها رافلة في حلل مختلف الوانها ! وانظري الى الازهار كيف تفتحت اكامها على نور اشعتها كما تتفتح اجفان الهُجَّع عند اليقظة ، بل انظري الى الطبيعة جميعها كيف نفضت عنها رداء الكرى ، وهبت فرحة متهللة لتستقبل حياة جديدة كلها بهجة وكلها حراك ! ان كل كائن يتنفس قد شحذ لسانه ليحمد للطبيعة هذه الآلاء العديدة التي اغدقتها عليه في سخاء لاحدَّ له ولا منَّ معهُ . فهذا العصفور الصغير قد وقف على فننه اللدن ينشدها قصائد مديحه والفضاء يردِّد صداها وهذه ربات الشهد قد طنطنت بين الكلأ الاخضر رائحة وغادية . فلماذا تأتزرين بكساءٍ من الحزن كثيف اذا كان كل مخلوق على وجه البسيطة قد تمدَّد بين احضان المسرَّة وانغمس في كوثر الحب في ذهول الثمل ? ان الشمس جميلة حقـًا واشعتها خلابةٌ حقـًا والطبيعة جميعها قد استعادت على ضوئها الحياة . وانتقعت غلتها وارتوت ولكنني احز الودج حزناً واقرع السن ندماً لان هذه الحياة البهيجة المنعشة التي ابتسمت لها ثغور الاطيار والاشجار والبحار قد وقفت حيث هي ولم تمد اليَّ يداً . فثمَّ عالم قد غمرتهُ الشمس بأمواج من الضوء وتيارات من الدفء في حين ظلَّ عالمي الذي تعيش فيه نفسي محروماً من قبس من نور او جذوة من نار فهو دائماً في ليل داج مقرور قد لفهُ الشتاء في كساءٍ من ضباب اغلب ظني انه كفنه الابدي . فلنذر اولئك التعساء الذين ليس لحياتهم ربيع ولا وراء ليلهم صبح ان يبكوا من القلب دماً فدمع العين قد جفَّ ونضب بعد ان جرح الاجفان وما اطفأ اللهب) (١)

نداء يائس أترضى ان تجيبه ?... والآن ماذا ترى في ابيقور وصاحبيه الخيام وأبي نواس ? ترى فيلسوفاً وشاعرين او فيلسوفين وشاعراً قد ابتسموا للحياة فابتسمت لهم الحياة وتوددوا اليها تودُّد الاغصان الى النسيم ، فحنت عليهم حنوّ المرضعات على الفطيم ، ورضوا عنها رضاءً لا يشوبهُ تذمر او شكاة

(١) عن لامنييه La mennais بتصرف

فكشفت لهم عن نفسها في عري فرأوا جمالاً لم تره عين ، ولا سمعت بمثله اذن فراحوا يمرحون ويعبثون ويختلسون اللذات اختلاساً ويستمتعون في شهوة النهم ! ثم ماذا ترى في رهين المحبسين وصاحبيه شوبنهاور ولامنييه ؟ ترى فلاسفة ثلاثاً ، قد وضعوا على اعينهم مناظر سود فرأوا كل ما في الكون اسود كالليل ، ووضعوا اصابعهم في آذانهم فألفوا كل ما في الكون هادئاً كالقبر ، فبرموا بالحياة وعبسوا في وجهها . عابوا محاسنها وهنَّ ملاح ، وارتطموا بالراح في الاقداح ، فكسروا الاقداح وأراقوا الراح ، وقالوا الحنظل اريق . فأين الرحيق ؟ وقالوا والشمس في هودجها فتاة ، يا لك من ليل اطول من ظل القناة ! وقالوا للبلبل وقد فتح فاه ، وغرَّد فرحاً بالحياة ، توار غراب البين ، وانعق في مكان سحيق !

والانسان في هذه الحياة احد رجلين رجل كأبيقور وصاحبيهِ وآخر كالمعرّي وصاحبيه !! رجل متفائل مستبشر بالحياة راضٍ عن عيشه الاَّ في لحظات قصار اشد ما يكون القصر ، لا يقنطهُ ما تصنعهُ به يد الناس والقدر ، ولا ما يحيق بهِ من الاحداث والغِيَر ، ان سُرَّ لم يذهب بهِ السرور الى حد الخيلاء والبطر ، أو تألم لم يهو بهِ الألم الى حضيض الضعف والخور ، يرى أن ما هو فيهِ خير ، وينتظر ما هو أخْير ! يعمل في هدوء ما يوحيه الزمان والجد ، ولا يحمل نفسه عبء الاهتمام بما قد يجيء بهِ الغد ، يرى ان كل جرح لا بد أن يندمل مع الزمن وأن كل نجاح في سعي بوقتهِ مرتهن ، فهو لهذا لا يقرع على ماضٍ سن ندم ، ولا يوجس خيفة من آتٍ لفَّ في دثر من ظُلَم ، ان نام ملء جفنيه لا يشهد سهداً !! وان استيقظ استيقظ وهو منشرح الصدر يستقبل في يومه الجديد آمالاً جُدُداً . اما الناس عدوه وصديقه فلا سبيل له معهم الاَّ ان يحبهم كأخ سمْح ، ينظر الى محسنهم بالمدح والى مسيئهم بالصفح ، والى معوزهم بالمنح وهو في كل هذا يرى ان لكل مخطيء عذره مادام الانسان خلق ضعيفاً وما دام اول ناسٍ أول الناس

(انظر الى عيني هذا الانسان المتفائل كيف يلمع فيهما بريق الأمل والرجاء وتأمل نظراته تجدها ملأى باليقظة والجاذبية والحياء ، وانظر الى شفتيه ألا ترى انهما دائماً على أهبة الابتسام عند اقل اعتذار ألسنا جميعاً نحب ان نحيي هذا الابتسام الحلو بابتسام مثله حلو ؟ ألسنا نرقب أن يسمعنا هذا الثغر تحية صباح أو مساء ؟ انهُ يذكرنا بهبات الرياح على سنابل القمح ، وتكسر الموجات على شطآن البحر ، وخطرات النسائم بين الشجيرات والزهر ، وبكل صوت في الطبيعة يأسر اللب ويملك الحس . انهُ مليء بالموسيقى والشعر ، مليء بالجمال والسحر !!

(ثم انظره كيف يمشي ترَ قدمين ثابتتين وخطوات مرنة متزنة تنم على رصانة واتئاد ، وتراه يحمل ساعديه في خفة او يدعهما يترنحان الى الجانبين في انتظام ويداه واصابعه ؟ هلاَّ تكشف عن قوة وعزم ؟ ورأسه الشامخة في غير زهوٍ او صلف — ولكن في رفعة معتدلة ووضع منتظم هلاَّ تدل على احترامه لشخصه وامتلاكه ناصية ذاته او ثقته بنفسه ؟ هلاَّ تدل في وقت واحد على انه

متواضع في غير ذلة متعال في غير كبرياء ؟ وعلى انه في وقت واحد شديد في غير قسوةٍ ، لين في غير خضوع ؟)[1]

لا ريب انك تريدني أن اصف لك الرجل الآخر الذي يقف من هـذا الذي وصفناه من قبل موقف الليل من النهار ، والحنظل من العُقار ، حسبك ان تقلب الوصف وتعكس الآية فتظفر بما تريد وهل هو الاّ رجل قانط متشائم ينتظر الضر حيث لا ضُر ، ساخط متبرم بعيشهِ احلولى ذلك العيش أو مرّ ، لا تسره شمس تطلع ولا شمس تغيب ولا يبهجه شتاء ذو صَرْ ولا صيف ذو لهيب ، تضيق به الغرفة كما يضيق به الفضاء ، ويقبضه نظره الى الارض أو نظره الى السماء . يريد دنيا غير هذه الدنيا . وأناساً غير هؤلاء الاناس . بل لعله يريد نفساً غير نفسه وحسّاً غير حسه ، هو حائر مضطرب يصور لهُ عقله المقيد بقيود الوهم كل جميل في هذا الوجود قبيحاً ، وكل شاد في الكون يصيح ويشكو . (انظر اليهِ ترَ عينين كليلتين قد فقدتا منذ زمن بعيد ما أعارهما الشباب من جذى مشتعلات . تأملهما لا ترى فيهما بارقة أمل أو لمعة حياة . . . . . . وشفتين متدليتين قد ضلتا سبيلهما الى الابتسام يحييانك ان مرّ بك صاحبهما تحية لا بهجة فيهما ولا روح . بضع كلم مصطلح عليهِ كله تصنع وكله فتور ! ! وقدماهُ ؟ ألا ترى انهما متوانيتان تسحب احداهما الاخرى كأنهما لا تجدان ميلاً الى المسير او لا تريدان أن تحملا ذلك العبء الثقيل ؟ . . . وذراعاهُ ؟ معلقتان الى الجانبين في ضعف وجمود وأصابعه رخوة كاصابع المحتضر)[2] انسان قد اهرم وهو شاب فراح يتوكأ على عكاز شيخ وجبان يخشى ان يرفع قدمه مخافة ان يصيبها الزلل يفر من الفيء ويخاف من لا شيء . يذر رياض السعادة الزاهرة الثامرة وراءَ ظهره ليخبط خبط عشواءَ في بيد من الضلال لا اول لها ولا آخر ولا ثمار فيها ولا ازاهر ولا طير ولا نهر . ولا ديار ولا شيء الاّ عراء يقصر فيهِ قاب الطرف وهو هكذا موغل فيهِ كالمنبت لا طوق لهُ على بلوغ نهايته ولا قدرة لهُ على المآب ان اراد . . . هذه حياة المتشائم من الناس سوداوي المزاج ، ولو ان السعادة سعت اليهِ في أبهى حللها لشاح عنها بوجههِ باسراً فان ابت الاّ تعلقاً بهِ اقصاها عنهُ وفر من المكان الذي هي فيهِ كما يفرّ جبان من خصيم يتقيه

حقّاً أن الحياة لا تخلو من الالم . وهذا المعلم ، لا يريد أن يعذبها وانما هو يريد أن يهذبها والدمع الذي يولدهُ ، منها يسقي زهرتها كما تسقي الزرع قطرات الطل وماء المزن . والالم مرّ . ولكنهُ مرّ كالدواء والنفس التي ترفض الالم شبيهة بالمريض الذي يرفض الدواء الذي فيه شفاؤه حتى اذا أعضل داؤه استحال البرء منهُ ابداً . انا حينما نخاف دائماً ان تزل بنا القدم لا نسير ولا نتقدم نبين كأنا (أجبن من صافر) وان نك اشجع من اسد ضارٍ وحينما نخاف السقاط لا ننبس ولا نتكلم نبين كأنا

(١) Elements of Success (Lily L. Allen

(٢) بتصرف عن (ليلي . ل آلان)في كتابها (Elements of Success)

(أعيا من باقل) وأن نك (أخطب من سحبان وائل) افهل مثل هذه السعادة الحرجة المحدقة بسيران من التردد والخيفة سعادة انسان حي ام سعادة جلمود وجيفة ؟ او ليست هذه نملة من ركن الى الرذيلة ورضى (بحشفٍ وسوء كيلة) ؟ انظر الى انفس ما في العالم وانظر الى اجمل ما في العالم ترَ النفيس والجميل كلاهما حزين وترَ ان هذا الحزن نفسه يزيد النفيس نفاسة والجمال جمالاً . فالبحر المترقرق كأنه بساط من لجين ترقص عليهِ الزوارق والسفين هذا البحر الذي يلوذ بهِ القنطون ليعصمهم من القنوط ويعيدهم الى مرفأ الامل هو الآخر يتألم ويتألم في صبر وصمت فاذا عيل صبره وناء به صمته ، تذمر وشكا فمجَّ موجه وطغت على الشطآن لججه . والسماء الصافية الاديم ينوء كاهلها بما تحمل ولكنها لاتستطيع ان تلقي به لانهُ قدِّر عليها ان تحمله امانة حتى آخر الدهر . هذه السماء تتألم ولكنها لا تحب ان يشهد أحد أَلمها لانها فخورة بما تحمل من كوكب ونجم فخر البطل بما يحمل من اوسمة المجد . فهي لهذا كثيراً ما تتشح بالضباب لتخفي حزنها على أن هـذا الحزن قد يعدو عليها فيمزق ثوبها ويفضحها فتبكي على الرغم منها دِيَماً هواطل ! وهذه الدموع التي تترقرق من عينها جميلة وهي تتساقط كالدر النثير وجميلة حينما تهبط على الارض الموات فتحيلها الى روض نضير !!

والجبال الرواسي قد علا قمتها الثلج ألا تذكرنا برؤوسنا حين يعلوها المشيب ؟ وهذه الاطلال الدوارس هلاَّ تذكرنا بآمال حسان قد ذوت وحب شهي قد اخفق ؟ اوليس في هذه الذكرى ألم ولكن هذا الالم محبب الى النفس لانهُ ألم نبيل يعيد الينا ذكريات جميلة ، نحب ان نحيا معها في حلم نوم او يقظة ! (وآيات الفن التي انتجتها القرائح البشرية الممتازة هلاَّ تفيض آمالاً واحزاناً وشكايات ودموعاً ، ففيدون لافلاطون ، وفايدر لراسين ، وهملت لشكسبير ، وفاوست لجيتي ، والليالي لدى موسيه ، هي خير ما اخرج للناس من آيات البيان القديم والحديث لانها تنساب الى قلوبنا وتتغلغل في مشاعرنا حاملة احزاناً قد جلت عن الوصف واعتصمت من النفاد !!) [1]

(فهذا الالم ما اجملهُ وما اجلهُ ! تعساً لمن يعقهُ فيفعل به ما يفعلهُ الحطاب بالغصن يظله ! كم كان ينبغي للانسانية التي تسلقهُ بألسنة حداد ، وتنقم منهُ ، كما تنقم من الأُجم الجياد ، ان تباركه وان تمعن في تمجيده ، لو انها كانت تفكر فيما تدين بهِ له من يُـدى سابغات !! انهُ عصى موسى التي تفجر من الصخور الممحلة العارية ينابيع عذبة صافية ، يرتوي منها الصداة من البشر . لله دره من مؤدب حكيم ! يُـثـوِّب الجاني على ذلتهِ ، ويفيق الغافل من غفلته ، ويحيل الطفل الماجن الذي لا يفرق بين التمرة والجمرة ، الى رجل مسؤول يقدر عبء التبعة ، والرجل المسؤول الى بطل عظيم يحمل آمال أمة ، وتحيل البطل العظيم الى قديس كريم ، لا يحصر جهده في حدود وطنه ، بل يتعداها الى كل بقعة درج عليها انسان يؤثر غيره عليهِ يشقى ليسعده ، ويحترق كالشمعة ليضيء له ، فيهتدي بعد ضلال ، ويرعوي بعد تأثيم [2]) . فأنت ترى ان المتفائل لا بدَّ له من ان يتألم ولا بدَّ له من ان

(١) عن بول جانيه Paul Janet من كتابه فلسفة السعادة (٢) جانيه : فلسفة السعادة

يبكي لانهُ لا يمكن تصور الحياة خالية من الآلام ولا من الدموع . بل لعلّ المتفائل اكثر تألماً وأغزر دمعاً وفي الحق انهُ لكذلك لانهُ ادق حسًّا وأرق نفساً ولأنهُ اكثر ارتباطاً بالناس وحبالهم وثقة فيهم من المتشائم الذي اعتزلهم وما يحبون !

ولكن هذا المتفائل سعيد مجدود لان هذه الآلام الكثيرة التي يتحملها وهذه الدموع الغزيرة التي يريقها لا تصرفهُ ، ولا يمكن ان تصرفهُ ، عن حب الحياة ، لأنها الثمن الذي بهِ اشتراها والذي بهِ اصبحت الحياة غالية ثمينة !! وكيف يتسنى للعاشق الذي جاب من اجل معشوقتهِ السهل والحزن واليابسة والماء ، والبادية والحضر واستعاض من اجلها عن الاقامة بالسفر وعن النوم بالسهر ان يتخلى عن حبها بعد ان كلفهُ هذا الثمن الباهظ ؟!

اما المتشائم فأغلب ظني ان المهُ قُل ، ودمعهُ نزر ، فهو قلما يبكي لانهُ يستزري الحياة ويبخسها ثمنها فهو يدَّعي انها لا تساوي دمعة — لانهُ ليس فيها متعة ، وهذا الوجود الذي ليس فيهِ اثر ثمين ، لا يستحق تجعيدة جبين ! ولكنه مع هذا بأس مرزأ بل لعله ابأس خلق الله طُرًّا ، ذلك لان ألمهُ صامت ، ودمعهُ جامد ، وليس اشق على النفس من الالم الذي لا يتكلم ، والدمع الذي لا يتفجر هذا فضلاً عن انهُ لا يجد امامهُ غرضاً سامياً يرمي اليهِ ويتعزى بهِ ويعيش له ولا يجد امامهُ املاً يلوذ بهِ من يأسهِ

قد تحيط بالمتشائم لذائذ ومتع ولكنهُ لا يعرف كيف يتذوّقها ولوقد تذوّقها كما ينبغي لها ان تتذوّق لكان أسعد الثقلين . قد تسمعهُ يضحك ويسرف في الضحك ولكنه يضحك من الفم لا من القلب ، فضحكه ميكانيكي لا بهجة فيه ولا هناء ، كالسراب الكاذب والبرق الخلب ليس وراءهما ماء وانما هما خداع سمع وبصر ، فالمجنونُ يضحك كما يضحك العاقل ، والثكلى تضحك كما تضحك العروس ، والسبع يبدو نابه اذ يغضب. وقل ايضاً : والسبع يبدو نابه اذ يضحك !! فالعبرة اذن بمصدر الفعل لا بمظهره . والعبرة ايضاً بجوهر الفعل لا بمظهره ، فكما تتفق المظاهر وتختلف الجواهر فكذلك تتفق المظاهر وتتباين المصادر . وخطأ نحكم على الناس من الوجوه او الثغور فما كل باكٍ مصاب ولا كل ضاحك مغتبط راضٍ وليست دموع الباكين وضحكات الضاحكين الاَّ خدعة تخدع بها عن الحقيقة التي لا تتغيَّر ابداً. على انهُ بفرض ان ضحك المتشائم كان مبعثه السرور فهذا قليل وسروره فضلاً عن انهُ مشوب فهو وقتي والسرور الوقتي ليس دليلاً على سعادة صاحبه (فان خطافة واحدة لا تدل على الربيع لا هي ولا يوم صحو واحد فلا يمكن ان يقال ان سعادة يوم واحد بل ولا بعض زمن من السعادة يكفي لجعل الانسان سعيداً محظوظاً) (١)

بقي علينا وقد تعرضنا لشرح فلسفة التفاؤل والتشاؤم ان نعالج الاسباب التي جعلت هذا

(١) عن كتاب الاخلاق لارسطو ترجمة الاستاذ لطفي السيد بك

الانسان راضياً بقُله ينعم حتى في ألمه ، وذاك ساخطاً على كُثره يشقى حتى في نعيمه فنقول : —

لا مرية في ان نفوس الناس متباينة أشد ما يكون التباين حتى بين التوأمين ومع اللدنين ، فالنفوس معادن منها النفيس ومنها الرخيص ، والنفس الانسانية هي السبب الجوهري والرئيسي في توجيه الانسان وفي تكييف حياته واليها يرجع اكبر الفضل فيما يصيب من غُنم ، وعليها تقع اكبر التبعة فيما يناله من غُرم !! ولكل انسان — بَلْه نفسه التي بين جنبيه — صفات متنوعة ورثها عن ابيه وجده ، وتجارب شتى اكتسبها بسعيهِ وجده ، ثم هو اما ان يقدر لهُ ان يمشي في ضوء العلم ، كما يمشي الساري في ضوء البدر يرتشف من مناهل المعرفة شراباً سائغاً ، ويطعم من جنان الحكمة أُكُلاً جنيًّا ، فيكون لهُ تحت قبة الشمس مكاناً يُغبط ولا يُغمط ، او يقضي طيلة حياته في ليل من الجهل بهيم يسير تحت سماء حالكة ، وفوق سبل شائكة ، يجوب اودية الضياع ، وقد عدَّ بين الناس من سقط المتاع ، وهذا الانسان بطبعهِ مدني لابدَّ له من جلاَّس صالحين او طُلَّح ، وخلاَّن اوفياء او غُدَّر ، قد يسخط على بيئتهِ ويمعن في السخط ولكنهُ ما يزال يؤثر فيها ويتأثر بها ، ولا يمكن لهُ ان ينفرد بنفسه بالمعنى المقصود من الكلمة ، وانما هو ينأى عن المنتديات والمجاميع فلا يغشاها وهو في كل عشية او ضحاها متصل بنفر من خلصائهِ — هم بلا ريب من صميم المجتمع الذي خال انهُ قد تخلص منهُ ابداً . هو بعيد عن جسم المجتمع ولكنهُ دائب الاتصال بروحه ، هو بعيد عن المصباح ولكنهُ يقرأ في ضوئهِ ، ينعم بشذا الزهور ولا يراها ، ويسمع هزيج الورق . وهو بعيد عن اوكارها . والطبيعة التي تحدق بهِ أليس لها في نفسه اثر ؟! قد تكون أليفة ساذجة كجنان الزنبق والورد ، وكمروج العشب ، وكالجداول ذات الخرير الهامس كحديث العذراء ، وذات الماء الفضي ينساب كالافعى بين الرمال الميثاء ، او مناظر غليظة كمناظر الغابات ذات الاشجار العالية كالاعلام ، او البحار المائجة الصاخبة كأنها مع الشطآن في حرب وخصام ، وكالابنية تطاول السحاب وكالمصانع ذات الدخان كأنهُ الضباب . . . ثم هو اما ان يكون في بسطة من الرزق تجعلهُ دائماً في مأمن من العوز او فقيراً مملقاً لا يكاد يصيب قوت يومه الاَّ بشق النفس وذل الرقيق واما ان يكون متديناً يؤمن بقضاء الله وقدره او ملحداً ينسب كل شيء الى الطبيعة والى نفسه او متشككاً يمزج الايمان بالكفر مزجاً — فنفس الانسان التي حلت في هيكله وصفاته التي ورثها عند مولده ، وتجاربه التي اكتسبها وثقافته التي حصل عليها ، وبيئته الاجتماعية والطبيعية التي احاطت بهِ ، ودينه الذي اعتنقه ، وغناهُ الذي أعزه ، أو فقره الذي أذلهُ ، كل هذه تدفع بهِ متساندة متضافرة وهو كالزورق الصغير بين لجات خضم الحياة الزاخر العاج الى مرفأ الامل والرجاء أو تهوي بهِ الى قرارة اليأس والقنوط . . . !!

العبقرية العلمية

وحداثة السن

وماذا يبتغي الشعراء مني وقد جاوزت حدَّ الاربعين

كان غليليو في الثامنة عشرة من عمره لما اكتشف ان خطرات الرقاص متساوية ثم انقضت اربع سنوات فنشر مباحثهُ في الثقل النوعي ومركز الثقل في الاجسام الجامدة. وكان في الثالثة والعشرين من عمره لما اكتشف ناموس الاجسام الساقطة. وقد قال أحد كبار العلماء « ان اكتشاف هذا الناموس أفاد العلوم الطبيعية اكثر من كتابات جميع الفلاسفة الذين سبقوا غليليو »

اما السر اسحق نيوتن فولد سنة ١٦٤٢ ودخل جامعة كمبردج لما كان في التاسعة عشرة من عمره فتعلم كل العلوم الرياضية المعروفة حينئذٍ وملك ناصيتها في وقت قصير

ولما كان في فرقة المدركين أي في الثانية والعشرين من عمره وضع قاعدة « تربيع المعادلات » في علم الجبر وبعيد تخرجهِ سنة ١٦٦٥ وضع حساب التمام والتفاضل ففاق عمله العلمي في سنتين أي في الثالثة والعشرين والرابعة والعشرين من عمره عمل أي رجل قبله أو بعده. وسنة ١٦٦٦ اي لما كان في الرابعة والعشرين من عمره بدأ يبحث في فعل الجاذبية بالقمر واعلن حينئذٍ جانباً من ناموس الجاذبية العام الذي اتمهُ فيما بعد. ولم يوفق الى اثبات صحة هذا الناموس حينئذ وتطبيقه على حركة القمر لأنهُ استعمل في حساباتهِ رقماً لقطر الارض ثبت بعدئذٍ انهُ خطأ ولولا ذلك لكان أتم في الرابعة والعشرين من عمره أعظم عمل علمي عرفهُ التاريخ. ثم انصرف الى درس النور وصنع المرقب العاكس قبلما بلغ السادسة والعشرين من عمره

> وزع المقتطف في الشهر الماضي هديته السنوية وهي كتاب «أساطين العلم الحديث» المشتمل على سير ثلاثين عالماً من أشهر أقطاب العلم في العصور الحديثة فرأينا ان ننشر على ذكر صدوره مآثر العلماء الذين اشتهروا في حداثتهم بمكتشفات خلدت ذكرهم في تاريخ العلم

وكتب هويجنس العالم الطبيعي الهولندي بحثاً في تربيع الدائرة والشكل الاهليلجي في الثانية والعشرين من عمره. واستنبط الساعة ذات الرقاص في السادسة والعشرين. وفي السنة نفسها تمكن من تعليل الفواصل في حلقات زحل فكان أول عالم تمكن من ذلك

أما ليبنتز الفيلسوف الالماني الذي يشارك

نيوتن في الفخر لانهُ اكتشف على حدة قواعد حساب التمام والتفاضل ، فتعلق على درس القانون في صباه وكتب كثيراً من الرسائل الممتعة بين السادسة عشرة والعشرين من عمره . واشتهر ايضاً بالتاريخ واللاهوت والفلسفة والسياسة والرياضيات وهندسة المناجم والآداب . وكان اكتشافهُ لقواعد حساب التمام والتفاضل في التاسعة والعشرين من عمرهِ

وولد پسكال سنة ١٦٢١ وتعلم هندسة السطوح والاجسام في الثانية عشرة من عمره . ونشر بحثاً في « هندسة القطوع المخروطية » لما كان في السادسة عشرة منهُ ضمنهُ مبدأً لا يزال معروفاً باسمهِ الى الآن

وقد انجبت اسرة برنولي ثمانية نوابغ في العلوم الرياضية في القرنين السابع عشر والثامن عشر واكثرهم نبغوا في حداثتهم فنقولا برنولي كان يتكلم اربع لغات لما كان في الثامنة من عمره وفاز بشهادة الدكتوراه العلمية من جامعة بال في السادسة عشرة وعين استاذاً للرياضيات في الحادية والعشرين

أما دالمبر (١٧١٧ — ١٧٨٣) العالم والفيلسوف الفرنسي فكتب بحثاً يدل على النضوج والابتكار في حساب التمام والتفاضل لما كان في الثانية والعشرين . ولما كان في السادسة والعشرين بحث في « الديناميكا » بحثاً وصفهُ أحد العلماء بانهُ « فاتحة عصر جديد في الفلسفة الميكانيكية »

ونشر لابلاس أعظم علماء الفلك الفرنسيين بحثهُ في « حساب التمام والتفاضل » قبلما بلغ سن العشرين واتبعهُ في السنوات الاربع التالية بمباحث مبتكرة في « قانون المرجحات » استدعت اعجاب العلماء في اكادمية العلوم الفرنسوية

ونال العالم بولو السويسري لقب استاذ في العلوم لما كان في السادسة عشرة من عمره وكتب رسالة نال بها احدى الجوائز التي تمنحها اكادمية العلوم الفرنسية وهو في سن العشرين وعيِّن استاذاً للطبيعيات في بطرسبرج في الثالثة والعشرين واستاذاً للرياضيات العالية في السادسة والعشرين

ولقِّب لاغرانج العالم الرياضي الفرنسوي « اعظم عالِم رياضي حيّ » وهو في سن الخامسة والعشرين

وقيل ان كارل فردرك غوس احد نوابغ العلوم الرياضية في العصور الحديثة (١٧٧٧ — ١٨٦٥) كان يستطيع ان يستخرج الجذور المكعبة في عقلهِ من غير كتابة لما كان في الثامنة من عمرهِ . وبحث مباحث رياضية عميقة ومبتكرة قبل الرابعة والعشرين

***

هذا في الرياضيات واما في الكيمياء فكثير من المكتشفات الاساسية كشفها علماء في حداثتهم فجوزف بلاك اثبت ماهية اكسيد الكربون الثاني في السادسة والعشرين من عمرهِ ولافوازييه (١٧٤٣ — ١٧٩٤) ابو الكيمياء الحديثة مُنح الوسام الذهبي من اكادمية العلوم الفرنسية في

الثامنة والعشرين من عمره جزاءً لهُ على رسالة كتبها وبحث فيها في افضل الوسائل لانارة مدينة كبيرة . وفي السادسة والعشرين من عمرهِ نشر نتائج امتحانهِ الاول الذي اثبت فيهِ ان الاحتراق هو اتحاد المادة المحترقة بالاكسجين . واعلن الكيماوي الفرنسوي غاي لوساك القانون المعروف باسمهِ وهو في الثانية والعشرين ومؤدى هذا القانون ان الفراغ الذي يشغلهُ مقدار معين من الغاز على درجات مختلفة من الحرارة يتناسب مع درجة حرارتهِ اذا بقي الضغط واحداً . وكان السر همفري دايفي في العشرين من عمرهِ لما اكتشف ما لاكسيد النتروجين الاول من الفعل الفسيولوجي وعيّن استاذاً في المعهد الملكي بلندن في الثانية والعشرين . واستخرج الصوديوم والبوتاسيوم بطرق كهربائية لما كان في السادسة والعشرين

وكان فراداي تلميذ مجلد كتب فلم يكن ينتظر ان تأتي مكتشفاته العلمية باكراً لانهُ لم يدخل في خدمة السر همفري دايفي الاَّ في الثالثة والعشرين من عمرهِ وكان ما تلقاهُ من العلوم حينئذٍ نزراً يسيراً ولكنهُ لم تنقض عليهِ سنتان او ثلاثة حتى بدأ يكتشف مكتشفات تضارع مكتشفات استاذهِ

ونال ليبغ الكيماوي الالماني المشهور رتبة الدكتوراه العلمية في التاسعة عشرة من عمرهِ وعيّن استاذاً في جامعة غيسن في الحادية والعشرين منهُ فاسس فيها المعمل الكيماوي الاول الذي تعلَّم فيهِ الطلبة مبادىء الكيمياء على الاصول الحديثة . وكان وهلر في السابعة والعشرين لما اكتشف معدن الالومنيوم وفي الثامنة والعشرين لما ركّب اليوريا من مواد غير عضوية . ويحسب هذا العمل مبدأ الكيمياء العضوية . وبدأ توماس غراهام في الرابعة والعشرين من عمرهِ مباحثهُ في اختلاط الغازات التي ادَّت الى كشف المبدأ المعروف باسمهِ . وعني برتلو الكيماوي الفرنسوي بمباحث الكيمياء العضوية في الثالثة والعشرين من عمرهِ فأمرَّ مقادير من الالكحول والحامض الخليك وغيرها من المواد البسيطة في انابيب محماة فركب منها بنزيناً وفينولاً ونفتالينا فكان عملهُ هذا وما تلاه العامل الاقوى في تنشيط المباحث المختلفة في الكيمياء العضوية . وولد بنصن سنة ١٨١١ فنال رتبة الدكتوراه العلمية من جامعة غوتنجن سنة ١٨٣٠ اي لما كان في التاسعة عشرة من عمرهِ . وبحث دوماس الكيماوي الفرنسوي في كيمياء الدم لما كان في الحادية والعشرين ففاق بحثهُ كل المباحث السابقة لهُ في هذا الموضوع

ولما كان السر وليم پركن تلميذاً لهوفن الكيماوي الالماني صنع اول صبغ صناعي من قطران الفحم الحجري فترك الدرس على هوفن وخاض ميدان صناعة الاصباغ فتغلب على كثير من الصعوبات الفنية والصناعية قبلما احرز المقام الذي عُرف بهِ وهو « مؤسس صناعة الاصباغ من قطران الفحم الحجري وما يتفرع عنها » وكان ذلك قبلما بلغ سن العشرين . وكان پاستور في الخامسة والعشرين من عمره لما بحث في العلاقة بين الاشكال البلورية وفعل املاح الطرطير الضوئي ، فأحرز بمباحثهِ هذه مكاناً رفيعاً بين علماء عصرهِ

وعلى هذا النمط نستطيع ذكر اسماء ڤانت هوف وله بل وارهينيوس ورتشردس وماير وفشر وغيرهم . ولا يخفى ان السر وليم رمزي الكيماوي الانكليزي احرز شهرتهُ العلمية بعدما تقدم في العمر فانهُ بدأ مباحثهُ في الغازات النادرة في الهواء حوالي سنة ١٨٩٢ فكشف غاز الارغون سنة ١٨٩٤ وتالتهُ الغازات الاخرى وكان ذلك في الثانية والاربعين من عمرهِ . ولكن لرمزي مباحث مبتكرة كيمائية وطبيعية قام بها في الثلاثين من عمرهِ فانتخب عضواً في الجمعية الملكية لما كان في السادسة والثلاثين

***

نلتفت الآن الى علماء الطبيعة فنبدأ بكارنو الفرنسوي الذي بدأ مباحثهُ في طبيعة الحرارة لما كان في الثالثة والعشرين ونشر بحثهُ الذي عنوانهُ « الدورة » وهو في الثامنة والعشرين وكان بحثهُ هذا ركن علم « الترموديناميكا » . ونشر جول الطبيعي الانكليزي نتيجة بحثهِ في علاقة الحرارة بالطاقة الميكانيكية وهي المعروفة في كتب الطبيعيات « بعبارة جول » لما كان في الرابعة والعشرين

وسنة ١٨٤٦ كان هلمهلتز الفيلسوف الالماني في السادسة والعشرين من عمرهِ فوضع مبدأ حفظ القوة او عدم تلاشيها وكان قد اشتهر قبلاً وهو في الحادية والعشرين من عمرهِ باكتشاف الخلايا العصبية في العقد العصبية

وكتب لورد كلڤن رسالة في الثامنة عشرة من عمرهِ ضمَّنها خلاصة رأيهِ في عمر الارض ثم توسع في هذا الموضوع في كهولتهِ وشيخوختهِ . وكتب رسالة اخرى لما كان تلميذاً ، تدور على سير الحرارة في الاجسام الجامدة . وتخرج في جامعة كمبردج في الحادية والعشرين من عمرهِ وبحث اهم مباحثهِ في علم الترمودينامكا بين السنة الثالثة والعشرين والرابعة والعشرين من عمرهِ

وولد العالم الطبيعي ينغ سنة ١٧٧٣ وهو من اشهر العلماءِ الذين بحثوا في النور فعلَّل وهو في العشرين من عمرهِ الاسلوب الذي تتكيف بهِ العين وفقاً لتغير قوة النور بالتغير الذي يطرأ على عدسيتها. ولما كان في الحادية والعشرين من عمرهِ انتخب رفيقاً في الجمعية الملكية ولما كان في السابعة والعشرين نشر كتابين ضمنهما اهم مباحثهِ العلمية ذكر في احدها القواعد الميكانيكية التي تجري عليها العين وبحثاً في ماهية الداء الذي يصيب العين لخلل يصيب تحدب بلورتها Astigmatism وكيف تبصر العين الالوان وماهية العمى اللوني وغير ذلك مما يتعلق بالنور والعين . والثاني في النور بيَّن فيهِ الادلة على صحة مذهب التموج. ولما كان عمرهُ ١٥ سنة كان يلمّ باللغة اللاتينية واليونانية والعبرية والفرنسوية والايطالية والفارسية والعربية وفي اواخر ايامهِ اشتهر بين كبار علماءِ الآثار

اما فوكول وفيزو وميكلصن وكلهم من العلماءِ الذين عنوا بقياس سرعة النور ففعلوا ذلك قبل بلوغهم سن الثلاثين

والظاهر ان نبوغ كلارك مكسول كان باكراً جدًّا فتلا رسالتهُ العلمية الاولى امام جمعية ادنبرج

الملكية قبلما بلغ الخامسة عشرة وكان موضوعها « وصف المنحنيات البيضوية » وكتب رسالتين اخريين في موضوعات رياضية عويصة قبلما بلغ الثامنة عشرة وبدأ مباحثهُ المشهورة في ماهية المغنطيسية والكهربائية لما كان في الخامسة والعشرين ونال جائزة ادمز من جامعة كمبردج على رسالة في « حلقات زحل » لما كان في السادسة والعشرين

وكشفت مدام كوري الراديوم والپولونيوم في الثلاثين من عمرها فكان اكتشافها اساساً للمباحث الجديدة في الاشعاع. والظاهر ان كثيراً من مباحث صُدي ورذرفرد وهما من اكبر علماء الطبيعيات المعاصرين قاما بها في التاسعة والعشرين من عمرها

وكشف موزلي مكتشفات عويصة كبيرة الشأن في الطبيعيات الحديثة لما كان في السادسة والعشرين وقتل في غليبولي في السنة التالية فكان موتهُ من فواجع الحرب العامة . ونشر اينشتين الجزء الاول من مذهبهِ في النسبية وهو في السادسة والعشرين وهو الآن يناهز الثالثة والخمسين

***

واذا التفتنا الى علماء الحياة والتاريخ الطبيعي وجدنا ان لينيوس (١٧٠٧ — ١٧٧٨) الذي « وضع علم النبات » اظهر كثيراً من النشاط والمقدرة في زرع النباتات وجمعها وملاحظة طرق نموها قبلما بلغ العاشرة من عمرهِ . واسترعت النباتات كل انتباههِ فاهمل دروسهُ حتى قنط ابوهُ من اعدادهِ لدخول احدى الجامعات وعزم ان يُنظمهُ في سلك التجارة والصناعة ولكن احد الاطباء عرفهُ وادرك نبوغهُ فساعدهُ في اظهار مواهبهِ . وكذلك تمكن لينيوس وهو في الثانية والعشرين ان يكتب كتابات مبتكرة في « اجناس النباتات » من حيث هي ذكور او اناث وفي الثامنة والعشرين نشر كتابهُ المشهور بـ « نظام الطبيعة » واتبعهُ بكتب اخرى قبل سن الثلاثين

وكان جفري سانت هيلار في الحادية والعشرين من عمره لما عيّن استاذاً لعلم الحيوانات الفقرية في متحف باريس . واشتهر نبوغ كوفيه مؤسس علم التشريح المقابل في الخامسة والعشرين من عمره وعين عضواً اصيلاً في المعهد الفرنسوي حين تأليفه سنة ١٧٩٥ ونشر تبويبه لانواع الحيوانات في التاسعة والعشرين من عمره

اما اسكندر فون همبولت (١٧٦٩—١٨٥٩) فنشر مباحثه الجولوجية الاولى في سن العشرين وعين مراقباً لمصلحة المعادن لما كان في الثانية والعشرين على اثر كتابته رسالتين في اشكال النباتات الباقية آثارها في الفحم الحجري. وله مباحث مبتكرة في الكيمياء والطبيعيات والجولوجية انشأها كلها قبل سن الثلاثين

وولد الاستاذ هكسلي اكبر انصار دارون سنة ١٨٢٥ وتخرج من جامعة لندن حائزاً على المدالية الذهبية في الحادية والعشرين من عمره ، ونشر بحثه الذي عنوانه « بحث في تشريح المدوزا » قبلما بلغ الخامسة والعشرين فأحله في المقام الاول بين علماء الحياة -ويحسب اساساً لفلسفة علم الحيوان

لحديث . وانتخب رفيقاً في الجمعية الملكية وهو في السادسة والعشرين ومنح مداليتها في السنة التالية

وولد السر تشارلس ليـل العالم الجيولوجي الانكليزي سنة ١٧٩٧ وانتظم في سلك المحاماة في السادسة والعشرين الاَّ انهُ تعلق على علم الجيولوجيا فبحث فيها مباحث ممتعة فاعترف بقيمة مباحثه كل من كوفيه وهلمهلتز وغيرهما وانتخب رفيقاً في الجمعية الملكية وهو في التاسعة والعشرين . ونشر كتابه المشهور في مبادىء الجولوجية وهو في الثالثة والثلاثين ومقامه في علم الجولوجية مثل مقام كتاب داروِن « اصل الانواع » في علم الحياة

وكتب جوهانس مولر رسالة عنوانها « تنفس الجنين » وهو في سن العشرين وكتب كتابه المسهب في الباثولوجيا العامة وهو في الثامنة والعشرين

واكتشف تيودور شوان الفسيولوجي الالماني مادة الببسين وهي من المواد التي في العصارة المعدية لما كان في الخامسة والعشرين وشرح رأيهُ في « تركيب الجسم الخلوي » في التاسعة والعشرين

ونشر داروِن كتابه اصل الانواع وهو في الخمسين من عمره على ان خاطر الانتخاب الطبيعي خطر له وهو سائح في سفينة البيغل وكان حينئذ في السادسة والعشرين من عمره

***

اما المستنبطون والمخترعون فاليك بياناً مقتضباً عنهم :

بدأ وط بحثه في الآلة البخارية لما كان في الرابعة والعشرين من عمره واتمها في الثامنة والعشرين . وسجل هورتني آلتهُ لحلج القطن في الثامنة والعشرين من عمرهِ

واستنبط « هو » آلة الخياطة في السادسة والعشرين

واستنبط اديصن الوسيلة لارسال رسائل كثيرة على سلك تلغرافي واحد في السادسة والعشرين من عمره والفونغراف في التاسعة والعشرين . وسجل بل تلفونه في التاسعة والعشرين . وبرش محركه الكهربائي في السادسة والعشرين ونوره القوسي في السابعة والعشرين. واستنبط وستنغهوس فرملتهُ الهوائية التي تستعمل في القطارات في الثانية والعشرين من عمره . واستنبط هول طريقة كهربائية تجارية لاستخراج الالومنيوم من معدنه وهو في الثالثة والعشرين

نحن والطبيعة

الطبيعة ! تكتنفنا وتحتضننا فنعجز عن الانفصال عنها ، ونعجز كذلك عن النفوذ الى ما وراءها . انها ابداً مشغولة بابتداع اشكال جديدة . فما هو كائن الآن لم يعهد من قبل . وما عهد من قبل لن يعود. كل شيء جديد ، ومع ذلك فليس في طياته الا القديم (غوته)

تقدم المباحث الطبية في

الغدد والفيتامين

وغيرهما من شؤون الصحة والعلاج (١)

[نقلها عوض جندي]

ما انفكت الغـدد مدار اهتمام الاطباء خلال السنين العشر الماضية ، اذ ثبت انها بمثابة سلسلة ذات حلقة مفرغة يؤثر بعضها في بعض . ومن الاعمال الباهرة التي تمت فيها ، استخراج مادة منها تسمى كورتين Cortin وذلك من غلاف الغدة الكلوية (ادرينال) . ويستعمل الكورتين في علاج الاصابات المستعصية من مرض البول السكري البرنزي أو مرض أديسون Addison's disease الذي كانت الاصابة به تفضي الى الموت الزؤام . ولعلّ أهم ما تم في السنين الاخيرة في الغدد ، ثبوت أن الكبد ، وجدار المعـدة ، يحويان مادة حيوية ، لتكوين خلايا الدم الحمر . وان استعمال تلك المادة يمكن المصابين بالانيميا الخبيثة القتالة ، من استرداد صحتهم

وكان اهم ما تبينهُ العلماء في السنة الماضية ، ان الجسم لا يولد الهرمونات وحـدها ، بل مضاداتها ايضاً . وبعبارة اخرى انهُ حينما تفرط الغدد في الجسم ، في اطلاق عناصرها المختلفة، تأخذ الاعضاء والنسج ، المنوط بها مقاومة تلك المفرزات ، في توليد مواد مضادة لهـا ، تحدد فعل الهرمونات ، وتحدث التوازن في الجسد على الدوام . وتوكد تلك المشاهدات ، القاعدة الأساسية، وهي ان الجسد البشري آلة تنظم نفسها بنفسها وانهُ في احواله الطبيعية يستحيل حدوث حموضة فيه تزيد على حاجته ، ولا وجود سمنة مفرطة ، ولا نحافة شاذة ولا ضخامة خارقة ولا نقاد(٢) . اما اذا استهدف الجسد لأحوال غير عادية إما من مرض واما من فشل الاعضاء أو عجز أي عضو حيوي عن اداء عمله بطل توازن الجسد وحلت فيه حالة غريبة . ويلي المكتشفات الخطيرة الخاصـة بالغدد في عظم الشأن ، تقدم المباحث الخاصة بالتغذية . فقد كنا بالامس الغابر ، نعدّ الغذاء بمثابة وقود لتسيير حركة الجسد ، فأصبحنا موقنين ان للغذاء مهمة اخرى وهي احتواؤه على انواع الفيتامين الضرورية للنمو ودرء السقم . وتبين من تلك المباحث ايضاً مبلغ منافع المواد المعدنية للصحة

وانواع الفيتامين المعروفة حتى اليوم خمسة وهي المرموز لها بالاحرف الافرنكية A,B,C,D,&E.

---

(١) بقلم الدكتور موريس فيشبين رئيس تحرير هيجيا ومجلة الجمعية الطبية الاميركية. نقلاعن مجلة الميكانيكا العامة

(٢) Cretinism —النقد— و cretin النقد بالكسر القليل الجسم البطيء الشباب — اي الذي لا يشب كما جاء في الفيروزابادي . واذ انه ذكر ولم يذكر مصـدره ولا فعله فنرجع الى القياس فنقول نقاد بضم النون وزن فعال لانه دل على داء وهو أفضل من مقرقم

فالنوع الاول A — أ — ضروري لصون سلامة النسيج ومقاومة الجسد للمرض بوجه عام . فاذا حرم الجسم منه ، تعرضت العينان للاصابة بمرض السلاق zerophthalmia [١] واذا نقص مقدار ذلك الفيتامين عما يحتاج اليهِ المرء ، نجم عنهُ اعتلال الاغشية المخاطية ، ولا سيما في منطقة التنفس . وقد يكون ذلك النقص مقروناً بالنوازل العادية ونحوها من الادواء الخاصة بجهاز التنفس . ويصحبه ايضاً ظهور بعض الامراض الجلدية . واذا حرم امرؤٌ من فيتامين B اي النوع الثاني ، صار عرضة لمرض البرص الايطالي (البلاغرا) او لداء البريبري [٢] وربما تصحبه اضطرابات في المنطقة المعوية والمعدية ، وفقد القابلية للطعام . واذا حرم الجسد من فيتامين C اي النوع الثالث ، ظهر فيهِ الاسقربوط . واذا عدم الجسم فيتامين D اي النوع الرابع ، تعرَّض للكساح

ومن احدث المستنبطات الخطيرة في السنين الاخيرة ، استخلاص انواع الفيتامين ، نقية . وقد اعلن استخلاص فيتامين C في سنة ١٩٣٤ الماضية . وكذلك استخراج فيتامين A اي النوع الاول الذي يسمى كاروتين Carotene بعد ان تبين ان المادة الملونة في الجزر الاصفر تعدُّ من اغزر المواد المعروفة ، احتواء على ذلك الفيتامين . وقد ثبت في الوقت نفسه ان كبد القفندر halibut هو اكثر اكباد السمك احتواء على فيتامين النوع الاول اي A [٣] . فاذا مزجناه بزيت كبد القد ، صار المزيج ادسم مادة طبيعية تحوي فيتامين A و D اي الاول والرابع — لان زيت كبد القد ادسم مادة طبيعية تحتوي على فيتامين D . وقد تجلى لنا ايضاً ان الاشعة التي فوق البنفسجية في الشمس ، تؤثر في الجلد البشري فتولد فيه فيتامين النوع الرابع اي D وذلك من مادة يحتويها الجلد . فأصبح الانتفاع بالاشعة التي فوق البنفسجية مشهوراً ونشأ عنهُ اختراع المصادر الصناعية لضياء الشمس

وعقب تلك التحقيقات ، تبين للباحثين ان انواعاً شتى من الاغذية يمكن تعريضها للاشعة التي فوق البنفسجية لتكتسب منها فيتامين النوع الرابع اي D . وصار ميسوراً توليد ذلك الفيتامين في الحليب والخبز . ولما كان الكساح داءٌ يصيب الاطفال والاحداث في الغالب ، واللبن يحوي فيتامين النوع الرابع أي D فتناول اللبن من افضل الوسائل لاعطاءِ ذلك الاطفال الفيتامين الذي يحتاجون اليهِ . ولم يظهر الكساح بين الناس الاَّ عند شيوع استعمال زجاج النوافذ المعتاد ، لانهُ يحول دون دخول الاشعة التي فوق البنفسجية في البيوت . وكذلك المصباح الكهربائي الدريّ (المتوهج) لا يولد تلك الاشعة . بيد اننا اذا استطعنا الاستعاضة منهُ بنوع آخر جديد من المصابيح ، قد نتمكن من اضاءة بيوتنا ومدارسنا بضوءٍ يحتوي على مقدار من الاشعة التي فوق البنفسجية فتؤثر تأثيراً حسناً في الكساح

والكساح كما لا يخفى على القراءِ ، داءٌ يصيب العظام الطويلة فيمنع نموها كما يجب ، ويحدث

(١) السلاق — غلظ الاجفان في تحمر وتقرح (٢) البريبري نوع من الاستسقاء العام — مصحوب بفقر دموي وتنمل أو شلل في الاطراف السفلى وهو مرض معد يظهر بشكل حاد أو مزمن في الهند واليابان وسيلان . ولا يزال سببه مجهولاً ويحتمل ان يكون ميكروبياً ولسوء الغذاء شأن فيه ايضاً (٣) انظر ما كتبته في مقتطف نوفمبر ١٩٣٤ بعنوان (احدث المباحث في انواع الفيتامين)

عيوباً في الاسنان والعظام الاخرى . وفيتامين النوع الرابع اي D يتحكم في تمثيل الكلس والفصفور في الجسد البشري ، ومن ثمَّ كانت علاقته شديدة بكثير من الامراض التشنجية والكساح

وقد اثبت العلاّمة باستير حوالي سنة ١٨٩٠ أن الجراثيم مصدر للامراض . فتقررت بذلك أسباب كثير من الامراض المعدية وثبتت طرق نقلها وعرفت وسائل الوقاية منها . وأضحت الحمى الصفراء والطاعون والكوليرا والجدري ، نادرة في كل وسط متحضر . وامكن التغلب على الدفتيريا والحمى التيفوئيدية والحمى القرمزية

ومع ذلك لما تعرف اسباب الحصبة وشلل الاطفال ومرض النوم الامريكي Encephalitis الوبائي والتهاب الغدة النكفية والحماق[1] معرفة يقينية . غير ان المباحث التي تمت في السنين الاخيرة ، قد اسفرت عن تقدم باهر في كبح جماح تلك الامراض . وكذلك تمكن الباحثون من اختراع وسائل جديدة لمكافحة جراثيم التدرن . ثم بذلوا عناية خاصة في تطعيم الاطفال بجراثيم تدرن حية أُزيل ضررها قبلاً بالوسائل الكيماوية . وقد اخترعت كواشف جلدية تبين عاجلاً ، هل الطفل قابل للعدوى بالتدرن او مصاب بهِ فعلاً . ثم تحسنت أجهزة أشعة رنتجن باستعمال نوع جديد من فيلم ورقي لكي يسهل تصوير فريق كبير من الاطفال بتلك الاشعة بنفقات زهيدة جداً فيتسنى الوقوف على احوال رئاتهم واتخاذ الوسائل الصالحة مبكراً لوقايتها من ذلك الداء العضال

واذا بحثنا اسباب الوفيات ، تبين لنا ان كثيراً من اشد الاخطار التي تتعرض لها حياة الناس العصرية قد نجمت عن ادخال المواد الكيميائية الجديدة في الصناعة والبيوت ، ومن اختراع الآلات الحديثة ايضاً ومنها السيارات . والاسباب الستة الرئيسية للوفيات هي امراض القلب والكلى والالتهاب الرئوي والسرطان وتصلُّب الشرايين وارتفاع ضغط الدم والبول السكري . ولم تكن السيارات قبل سنة ١٩٠٠ معدودة من اسباب الوفيات اما الآن فان حوادثها تأتي في المقام العاشر في قائمة اسباب الوفيات

والمواد الكيميائية المضرة بالصحة المشار اليها قبلاً ، هي غاز اول اوكسيد الكربون والبنزين Benzene ومشتقات الانيلين المختلفة الانواع ، والرصاص والزرنيخ ، وقد وجّهت عناية عظيمة في السنين الاخيرة نحو المادة الكيميائية المحتوية على حلقة البنزين — وهي المؤلفة من ستة جزيئات كربون التي اذا دخلت جسد انسان حساس قللت بغتة عدد خلايا دمه البيض ، وهي الخلايا التي تحميه من الجراثيم ، ومن العقاقير التي تحتوي على دائرة البنزين ، البيراميدون Pyramidon وهو الدواء المستعمل لتخفيف الآلام ، ويدخل ايضاً في تركيب الادوية المنومة ، والعقار المسمى دينيتروفينول Dinitrophenol الذي يوصف لتخفيف السمنة

وازاء تفاقم الوفيات الناجمة عن اول اوكسيد الكربون والتسمم الزئبقي ، قد اتفقت جماعة من الكيميائيين والاطباء على بحثها لكي تكافحها . فاخترعوا وسائل جديدة لعلاج ذلك التسمم ينتظر نجعها

(١) الحماق — جدري الدجاج

وظهرت فائدة جليلة من استعمال ازرق المثيلين Methylene كترياق قاطع لسم اول اوكسيد الكربون، ولسم السيانور كذلك . وقد تقدمت ايضاً الوسائل التي استعملت لعلاج شلل الاطفال ، فقد اخترع الطبيبان موريس برودي Maurice Brodie في نيويورك وجون . كولمر John A. Kolmer في فيلادلفيا ، لقاحاً استخرجاه بنقع الحبال الشوكية للقرد المصابة بذلك الداء ، ثم ازالا السم من ذلك الحبل الشوكي باستعمال المواد المطهرة . وينتظر ان ينتفع الاطفال بذلك اللقاح كوسيلة للمناعة وكعلاج للادوار الاولى من ذلك المرض. ولم ينقطع البحث والتحقيق في مرض السرطان في جميع انحاء العالم ولاسيما في الخلايا السرطانية وطبيعتها فأسفرت عن كون خلايا السرطان تدخر السكر كمصدر لنموها

واخترع المهندسون الكهربائيون اجهزة لاشعة رنتجن اقوى بكثير مما سبق ان اخترعوه ، وهي نافعة جدًّا لعلاج السرطان وانجع للوصول الى اصابات السرطان الغائرة من جميع الوسائل المعروفة. وانتشر استعمال الراديوم بمثابة مقذوفات قوية تقصر زمن العلاج وتكفل فلاحه

وكان اختراع المخدرات الجديدة ، والاجهزة الحديثة التي تقطع اللحم بالكهربائية ، وتقف نزف الدم ، وكذلك اختراع المطهرات الجديدة التي تمنع انتقال العدوى، بمثابة معجزات في عالم الجراحة ، فغدا الجراحون يكادون يستطيعون الوصول الى كل عضو من اعضاء الجسد . فنشأ عن ذلك تمكن الجراحين في كثير من الاصابات من نزع النصف الامامي للمخ فأنقذوا المصابين بسرطان الدماغ . كما استطاعوا في عدة حوادث استئصال احدى الرئتين وابقاء اختها ، محافظة على حياة المريض . وكان القلب معدوداً من الاعضاء البعيدة المنال على الجراحين ، فأضحى في مقدور الكثيرين منهم اجراء العمليات الجراحية فيه وخياطته ، وبتر بعض تاموره [١] ونحوها من العمليات

ولا غرو فان الآلات الجديدة ، والاجهزة الحديثة المنوعة التي اخترعت في هذا العصر ، تساعد الاطباء مساعدات باهرة في ذلك الميدان ، وتعد دعامة من دعائم تقدم الطب الحديث

وابتدعت آلات تساعد على التخدير ، فتريح المريض ، وتكفل سلامته . واستحدثت اجهزة ترفع درجة حرارة الانسان رفعاً صناعيًّا لعلاج الامراض المعدية وبعض حالات المخ. وقد استعملت جميع الوسائل التي تمد الجسد البشري بالحرارة اللازمة لعلاج الادواء الروماتيزمية

واخترعت ايضاً رئات صناعية يستعاض بها عن الرئات الطبيعية ، حينما تصاب هذه بالشلل كما يحدث للاطفال ، وحينما يتسمم امرؤ بأول اكسيد الكربون ونحوه . واخترع جهاز نافع يمد اعضاء الجسد بضغط جوي متعاقب يساعد في حالة التهاب الانابيب الدموية في الساقين

واخترعت مخترعات صغيرة لا تحصى ، تساعد على درس الطوارىء التي تطرأ على الجسد البشري وتسمع خفقان القلب ، واختلاج الرئتين وتقيس وظائف اعضاء الجسم المختلفة ، وهذه كلها اساس تقدم الطب ونجاح الاطباء

---

(١) التامور — غلاف القلب

سير الزمان

دستور السوفيت الاشتراكي

للاستاذ وليم بنت مونرو

حول المشكلة الايطالية الحبشية

المستعمرات والموارد الطبيعية

نظام العقوبات

القنال والموقف الدولي

الدستور السوفياتي الاشتراكي [1]

للاستاذ وليم بنت منرو [2]

— ٢ —

في صيف سنة ١٩١٨ أقرّ مؤتمر السوفيت — الذي اصبح فيما بعد يدعى مؤتمر جميع الروس — دستوراً أعدّه له زعماء البلاشفة وهو لا يزال الى الآن دستور (اتحاد جمهوريات روسيا الاشتراكية السوفياتية) وفي الوقت نفسه منحت الأقاليم التي كانت قبل الثورة مستعمرات للتاج القيصري استقلالها وأقامت لها جمهوريات سوفياتية منفردة اتحدت بعضها ببعض وفي سنة ١٩٢٢ عقد بين جميعها معاهدة اتحادعامة. وكانت نتيجة هذه المعاهدة نشوء (الاتحاد السوفياتي) أو (اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية) (Union of Socialist Soviet Republics, U. S. S. R.) يشمله دستور اتحادي واحد وقعت عليه جميع الجمهوريات الداخلة في الاتحاد سنة ١٩٢٣ . ويشمل هذا الاتحاد السوفياتي العام سبع جمهوريات اتحادية رئيسية وهي : —

١ — اتحاد الجمهوريات الروسية الاشتراكية السوفياتية — Russian Socialist Federated Soviet Republics, R. S. F. S. R. وهي روسيا وسيبيريا الاصلية ولكل جمهورية داخلة فيها عاصمة ادارية أهمها موسكو وهي عاصمة الاتحاد العام ايضاً

٢ — جمهورية روسيا البيضاء الاشتراكية السوفياتية White Russian S. S. R. وعاصمتها منسك

٣ — جمهورية اوقرانيا الاشتراكية السوفياتية — Ukrainian S. S. R. وعاصمتها خاركوف

٤ — اتحاد جمهوريات قفقاسيا الاشتراكية السوفياتية — Transcaucasian Socialist Federated Soviet Republics وهي عدة جمهوريات لكل منها عاصمة ادارية أهمها تفليس عاصمة جمهورية اذربيجان وعاصمة الاتحاد القفقاسي ايضاً

٥ — جمهورية تركمانستان الاشتراكية السوفياتية — Turkmenistan S. S. R. في أواسط آسيا وعاصمتها عشقباد

٦ — جمهورية ازبكستان الاشتراكية السوفياتية — Usbek S. S. R. في اواسط آسيا ايضاً وعاصمتها طاشقند

٧ — جمهورية تاجستان الاشتراكية السوفياتية — Tadzhikistan S. S. R. في أواسط آسيا ايضاً وعاصمتها ستالين آباد

---

(١) Socialist Soviet Constitution (٢) استاذ التاريخ والحكومات في معهد جامعة كالفورنيا الفني بامبركا وقد نقل هذا الفصل الممتع كامل قزانجي مدرس الاجتماع والتاريخ بمدرسة النجف الثانوية في العراق. راجع مقتطف يوليو الماضي صفحة ٢١٩

وفي كل من هذه الجمهوريات السبع الرئيسية جمهوريات او اقطار ومناطق تتمتع باستقلال داخلي في شؤونها القومية حسبما تقتضيه التقسيمات الادارية والفروق الجنسية اللغوية . ومع ان لكل جمهورية عاصمتها الداخلية الاَّ أن جميعها تبعث بممثليها الى حكومة الاتحاد العام في موسكو

وقد انفصلت عن امبراطورية آل رومانوف عدة أقطار كانت قبلاً مستعمرات لروسيا لكنها الآن دول مستقلة وهي فنلندة ولتوانيا واستونيا ولاتفيا وأُلحقت بسَّارابيا برومانيا واعيدت بولندة الروسية الى بولندة الاصلية

يعلن دستور سنة ١٩١٨ في فاتحته ان روسيا «جمهورية سوفيت مندوبي العمال الفلاحين والجنود» وهي تقوم على اساس «اتحاد حر لأُمم حرة» . ثم يعقب اعلان حقوق «الجموع العاملة المستَغَلَّة». — وليس حقوق جميع أفراد الشعب لان ليس (للشعب) معنى اقتصادي سياسي واحد في المجتمع الطبقي — وفي هذا القسم من وثيقة الدستور يؤكد عمل السلطات الثورية ويوافق على عملها بالغاء التملك الفردي ومصادرة جميع وسائل الانتاج من قبل الدولة وجعلها ملكاً للمجتمع تستغلهُ لمنافعه العامة . وهكذا اعلن ان جميع الاراضي والمناجم والمعامل وجميع وسائل الانتاج والتوزيع والمواصلات ملك عام للمجتمع تشرف الدولة على استغلالها وادارتها واعطتها للعمال من دون مقابل على ان لا يكون لاحدهم فيها الاَّ حق الاستعمال والاستغلال بحسب مشروعات السوفيت أو السلطات المحلية وسلطات الاتحاد العام . وكذلك أعلنت الحكومة الغاء جميع ديون الحكومة القيصرية للحكومات أو الشركات الرأسمالية فكان ذلك ضربة شديدة على الحكومات الدائنة والمؤسسات المالية الدولية

يمنح الدستور السوفياتي جميع الحقوق المدنية ومنها حق الانتخاب لجميع المقيمين والمقيمات في الاتحاد السوفياتي البالغين سن الثامنة عشرة فما فوق من دون أي تفريق في الجنس أو الدين أو اللغة ومن دون أي قيدٍ خاصٍّ بالاقامة على شرط (وهنا يؤكد الدستور) ان يكون المصوّت أو المصوّتة «ممن يقتنون عيشهم بعمل منتج ولا يستخدمون غيرهم بقصد الاستغلال والربح الشخصي». وتنص مواد الدستور على ان الجنود والبحارة هم من الذين يحصلون على عيشهم بعمل منتج لذلك هم يتمتعون بحق التصويت كغيرهم ، لكنه يصرح بحرمان الطبقات الآتية من حق التصويت واشغال المناصب والتمتع بالحقوق المدنية وهي : —

١ — كل من يستخدم الآخرين لغاية الاستغلال والربح الشخصي وجمع الثروة (ولا يشمل هذا استخدام الخدم في البيوت على ان لا يتجاوز عددهم حدًّا صغيراً معيناً)

٢ — كل من يعيش على دخل لا يُجبى من اتعابه الخاصة (كالربا والايجار والارباح الغير المشروعة) وكل من يتعاطى هذه الاعمال بأي صورة كانت

٣ — التجار الفرديين والوكلاء وغيرهم من اصحاب الاعمال النفعية الفردية التطفلية الغير الانتاجية

٤ — رجال الاديان على اختلاف طبقاتهم ومذاهبهم (وعلى الاخص اذا كانوا يعيشون بفضل مركزهم الديني لا من حرفة او عمل منتج معين)
٥ — الاشخاص الذين كانت لهم اعمال او صلة ببعض دوائر الحكومة القيصرية
٦ — كل معتوه او فيه خلل عقلي او من يرتكب جريمة مأجورة او مخلة بالشرف

وكذلك ينص الدستور على منح الحقوق المدنية وحق التصويت للاجانب الذين يقيمون في بلاد الاتحاد السوفياتي إن كانوا يقومون بعمل منتج ويعتبرون مواطنين سوفياتيين من دون شرط معاملة رسمية اذا كانوا يعيشون على اتعابهم الخاصة في عمل منتج ويحافظون على قوانين وانظمة الاتحاد العام والسلطات المحلية . ومع ان عمر المصوّتين محدد عند سن ال ١٨ سنة إلاّ ان في الامكان تبديله بأمرٍ من اي سوفيت محلي بعد موافقة السلطات المركزية

والذي يجدر بنا ملاحظته ان هذه الحدود لا تمنح التصويت العام لانها تحرم جميع الاشخاص إلاّ العمال بما فيهم الفلاحين والجنود ومعنى هذا ان نظام التصويت هذا يحرم كل من تبقى من البورجوازية الروسية وبقايا الاقطاعيين بما فيهم من جميع اصحاب الدكاكين الفردية والتجار الفرديين وكل من يستخدم شخصاً واحداً على الاقل لغاية الربح الشخصي وحتى الفلاح الذي يؤجر فلاحاً آخر في عمله الفردي يحرم من حق التصويت . وهكذا نرى ان الدستور السوفياتي يرمي الى تأسيس الدمقراطية الاقتصادية أولاً التي عليها وبواسطتها يمكن ان تنجح الدمقراطية السياسية والاجتماعية لذلك نراه يبدأ بتوطيد الدمقراطية بين الطبقات العاملة بينما يعلن دكتاتورية العمال على الطبقات الاقطاعية والبورجوازية القديمة . اي ان الطبقات العاملة تتمتع بالدمقراطية وتفرض دكتاتوريتها على الطبقات المستغلّة القديمة لكي تتمكن من ادماجها في الطبقات العاملة إن عاجلاً وان آجلاً . وفي هذا العمل بدء منطقي للبلاشفة لان نظرية الحكومة الطبقتية في نظر الشيوعية تتلخص باعتبار جميع الطبقات الغير العاملة مستغلة متطفلة تعيش على الطبقات العاملة لذلك يتحتم على الطبقات العاملة التي تأتي في آخر الطبقات في التدرج التاريخي ان لا تتساهل مع الطبقات السابقة لها في الحكم وان لا تشجعها على البقاء متطفلة بمنحها الامتيازات السياسية وبذلك تقضي على نظام الطبقات بجعلها المجتمع كله طبقة واحدة عاملة مالكة تنتج الثروة عامة وتستهلكها عامة

إن الشكل الذي وضعهُ دستور سنة ١٩١٨ للحكومة السوفياتية كثير التعقد وقد وضع بهذا الشكل المعقد تعمداً لان الزعماء الشيوعيين رأوا ان الذي يحاول ان ينتزع الحكم من الطبقات القديمة عليهِ ان يجعل شكل الحكومة صعب المهاجمة لكيلا يتعرض لتلاعب اعداء النظام الجديد به . وقد احتفظ بالهيكل الحكومي الذي وضع سنة ١٩١٨ في معاهدة الاتحاد سنة ١٩٢٢ التي جعلت من امبراطورية روسيا اتحاد جمهوريات سوفياتية اشتراكية

إن اعلى مؤسسة تستمد منها السلطة في الاتحاد السوفياتي هي : — (مؤتمر سوفيت الاتحاد

الاعلى All-Union Congress of Soviets) ويتكوّن من مندوبي سوفيت المدن بمعدل مندوب واحد عن كل ٢٥ الف عامل صناعي ، اما الاقاليم الريفية فقد كانت تمثل بمعدل مندوب واحد عن كل ١٢٥ الف ساكن في الريف قبل التعديل الدستوري الذي أجريَ في اوائل يناير سنة ١٩٣٥ الحالية على اساس التمثيل الغير المباشر والتصويت العلني ، اما بعد التعديل الاخير فقد وضع الريف على قدم المساواة مع المدينة بان يمثَّل بمندوب واحد عن كل ٢٥ الف صوت حتى الفلاحين ايضاً وأُلغي التمثيل الغير المباشر وحلّ مكانه التمثيل المباشر والتصويت السري مكان العلني . ويجتمع هذا المؤتمر بانتظام مرة واحدة في كل سنة . وفي المدة التي لا يكون المؤتمر منعقداً تضطلع بالسلطة التشريعية العليا (لجنة الاتحاد التنفيذية المركزية العليا — All-Union Central Executive Committee, Tsik.) التي ينتخبها المؤتمر في كل سنة وهي تجتمع مدة اسبوعين كل ٣ اشهر . وهذه اللجنة هيئة واسعة تشمل على ما يقارب ٤٠٠ عضو وتنقسم الى مجلسين : ١ً — (سوفيت الاتحاد Soviet of the Union) وهو يمثل كلاًّ من الجمهوريات السبع الرئيسية وما فيها من المناطق والاقاليم الذاتية على اساس عدد سكان كل جمهورية على حدة . ٢ً — (سوفيت القوميات — Soviet of Nationalities) وهو يمثل جميع القوميات والاجناس الداخلة في الاتحاد على اساس المساواة بين جميعها وعددها يقرب ٢٠٠ قومية ، وللجنة التنفيذية هيئة (رآسة — Presidium) او لجنة مسيرة مكونة من ٢٧ عضواً ينتخبون من قبل اعضاء اللجنة التنفيذية وعلى هذه الهيئة تقع إدارة كثير من الشؤون الجارية اليومية وكذلك تعتبر السلطة التشريعية العليا وعليها ان تراقب مجلس القوميساريين عندما لا تكون اللجنة التنفيذية المركزية العليا مجتمعة

وتنحصر السلطة التنفيذية بالوزارة او (مجلس قوميساري الاتحاد الاعلى All-Union Council of Commissars) وهو هيئة مكوّنة من ١٥ قوميساراً تنتخبهم اللجنة التنفذية المركزية العليا ويكونون مسؤولين نحوها ونحو مؤتمر سوفيت الاتحاد ونحو مجلس الرآسة ايضاً . ومن هؤلاء القوميساريين واحد رئيس و٤ نواب رئيس بالترتيب . ويقوم كل من القوميساريين عدا الرئيس بمهام قوميسارية معينة كقوميسارية الشؤون الخارجية ، الحربية ، البحرية ، التجارة الخارجية ، المواصلات ، العمل ، الطعام والمالية الخ . . . . ، وتشمل الاوامر والانظمة التي يصدرها مجلس قوميساري الاتحاد جميع افراد الاتحاد ويجب تنفيذها حالاً من قبل قوميساري كلٍّ من الجمهوريات الداخلة في الاتحاد . وقد نشأ داخل هذا المجلس هيئة صغيرة تعرف باسم (سوفاركوم — Sovarkom) او قوميسارية داخلية يرأسها جوزيف ستالين السكرتير العام للّجنة التنفيذية المركزية العليا للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي . ومع هذه الهيئة هيئة اخرى صغيرة تدعى (البوليتبورو — Politbureau) وكلتاهما تقبضان على جميع شؤون الاتحاد

يمنح دستور الاتحاد سلطات واسعة لهيئات حكومة الاتحاد التي اوضحناها سابقاً ومن هذه

السلطات ادارة جميع شؤون المعاهدات والشؤون الخارجية وحق اعلان الحرب وعقد السلم وعقد الديون الخارجية وتنظيم التجارة الخارجية وتنظيم السكك الحديدية والبرق والبريد والمؤسسات العسكرية ووضع عملة عامة منظمة وحق وضع نظام الضرائب الموحد وتوحيد الاوزان والمكاييل والمقاييس. وكذلك يمنح سلطات الاتحاد حق « وضع الاسس العامة التي يجب ان تتبع من قبل الجمهوريات الرئيسية فيما يخص القانون المدني او الجنائي والاساليب القضائية وتشريعات العمل والمدارس » . ومن حق سلطات الاتحاد العليا (رفض — Veto) كل قانون او مرسوم او نظام تضعه اي واحدة من الجمهوريات الرئيسية اذا تعارض مع المعاهدة والدستور الاتحاديين اللذين يعتبران قانون البلاد الاعلى

إن تكوين الاتحاد لم يمحُ الدساتير التي كانت لكل من الجمهوريات السبع الرئيسية إذ احتفظت كل واحدة منها بنظام حكومتها القائم على الاساس الاشتراكي السوفياتي . وهذا لا يختلف كثيراً في الجمهوريات المختلفة . وكل من هذه الجمهوريات السبع مستقلة استقلالاً ذاتيًّا ولها من الحقوق ما يساعدها على تنفيذ الاوامر التي تأتيها من سلطات الاتحاد في موسكو ولهذه الجمهوريات الرئيسية وما فيها من مناطق واقاليم ذاتية داخلية سلطة على الشؤون المحلية كالتربية والصحة والتأمين الاجتماعي وادارة القضاء في المحاكم الثانوية وتشجيع الزراعة والصناعة على شرط ان لا تخرج ولا تتعارض في هذه الشؤون مع السياسة العامة التي تقررها سلطات الاتحاد العليا . ولكل منها مجلس قوميسارين خاص بها له السلطة في ادارة شؤونها الخاصة

فأساس هذا النظام ١ً — هيئات العمال في المعامل وحوانيت الشغل في المدن — ٢ً — هيئات الفلاحين في القرى والمجتمعات الريفية . هذه الهيئات في كل معمل او منجم او محطة او دائرة او قرية او مزرعة اشتراكية الخ ... تنتخب لها مجلساً (سوفيت) محليًّا . واذا كان المعمل او القرية او المزرعة الاشتراكية صغيرة جدًّا تتحد عدة منها وتنتخب مندوباً عنها في سوفيتها المحلي . وهكذا يبدأ هيكل الحكومة السوفياتية بهذه المجالس المحلية الى ان يبلغ عددها عدة آلاف في جميع بلاد الاتحاد . على هذه الاسس يقوم البناء الاهرامي لحكومات الجمهوريات والمناطق والاقاليم الذاتية وحكومات الجمهوريات السبع الرئيسية وحكومة الاتحاد معاً

وهذه المجالس المحلية في المدن والارياف تنتخب مندوبين عنها الى هيئات أعلى على طريقة التمثيل المباشر والتصويت السري وهذه الهيئات هي كما يلي : —

١ — كل سوفيت اولي محلي زراعي يبعث مندوبيه الى سوفيت الريف . وكل سوفيت اولي عملي صناعي يبعث مندوبيه الى سوفيت المدينة

٢ — يبعث كل من سوفيت الريف وسوفيت المدينة مندوبيه مباشرةً الى : — ا — مؤتمر سوفيت الاقليم — ب — مؤتمر سوفيت المنطقة التي تقع فيها عدة مدن وارياف — ج — مؤتمر

سوفيت جميع الجمهورية الرئيسية (مؤتمر سوفيت جميع الروس)د — مؤتمر سوفيت الاتحاد الاعلى

والذي يجب ملاحظته هنا ان سوفيت الارياف الزراعية كانت قبل التعديل الدستوري الاخير محرومة من التصويت السري والتمثيل المباشر في المؤتمرين الاخيرين لكنها كانت تمثل فيها بطريقة غير مباشرة بواسطة مندوبين من مؤتمرات المناطق وفي بعض الاحيان من مؤتمرات الاقاليم ايضاً ، وكذلك لم يكن التمثيل متناسباً مع السكان اذ كان يجري على اساس عدم المساواة بين الريف والمدينة لان نسبة تمثيلهم كانت تقارب نسبة ١:٥ في الريف والمدينة على الترتيب

وقد كان هذا التفضيل الموقت للمدينة على الريف مقصوداً من قبل قادة الثورة اذ كانوا يعتقدون ان العمال في المعامل صناعيون حقـا فهم لذلك اكثر اخلاصاً للنظام الاشتراكي ويمكن الاعتماد عليهم في بناء الاشتراكية لانهم اكثر فهماً لمبادئها وأساليبها وأقوى شعوراً بالنضال الطبقي ومساوىء النظام الرأسمالي الذي كانوا يعيشون في ظله ولانهم اكثر تحرراً من التقاليد والعقلية الرجعية الشديدة القوة عند الفلاحين الفرديين . اما بعد مرور ما يقارب ١٧ سنة على قيام دكتاتورية العمال في الاتحاد السوفياتي تمكنت المبادىء الاشتراكية في قلوب الفلاحين بعد ان شملتهم مشروعات السنوات الخمس وعمت بينهم التربية لذلك اخذ زعماء النظام يشعرون بالاطمئنان الى اخلاص الفلاحين فأقروا منحهم التمثيل المباشر والتصويت السري القائم على اساس المساواة بين المدينة والريف دون ان يخشى الزعماء انقلاب الفلاحين على النظام الذي اصبحوا منتظمين فيه مرفهين بواسطته

ولهذا النظام السوفياتي للحكومة — عدا عن هذه الخصائص — ميزات اهمها : —

١ — اتحاد واسع مفتوح لا وحدة مغلقة ضيقة — ان هذا الاتحاد لا يقوم على اساس الوحدة المغلقة التي تكون فيها السيادة مطلقة بيد القومية الاكثرية لكنهُ اتحاد حر لقوميات حرة على اساس التحالف والتعاون لا القوة والاستعمار كما كانت في عهد الامبراطورية القيصرية . لكن لما كانت روسية الاصلية اوسع جمهوريات الاتحاد مساحة اذ تبلغ ٩/١٠ مساحة الاتحاد بأجمعه وفيها من السكان ما يقارب ثاني سكان الاتحاد ايضاً ، ولما كانت هي التي قامت بالثورة الكبرى لذلك اصبحت هي المسيرة لشؤون الاتحاد العامة تاركة للجمهوريات الاخرى التمتع بالاستقلال الذاتي في شؤونها الداخلية والثقافية على الاخص وتعليم ناشئتها باللغة القومية الخاصة . وللجمع بين حكومة الاتحاد وحكومة روسيا الاصلية يدير الشؤون العليا عادة نفس الزعماء السياسيين ، لكن هذا لا يمنع تقلد غير الروسيين من الاجناس الاقلية مناصب في حكومة الاتحاد العامة

٢ — جمع السلطات — والميزة الثانية ان ليس في نظام الحكومة السوفياتي فصل السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية الواحدة عن الاخرى فصلاً مطلقاً . فالسلطة التشريعية والتنفيذية موحدتان وفي بعض الاحيان تدخل السلطة القضائية ايضاً في هذا التوحيد . لذلك اصبح في امكان نفس السلطات ان تهيىء القوانين وتوافق عليها وتصدرها وتنفذها وتفسرها وفي بعض الاحيان تعاقب المخالفين لها

« للبحث تتمة »

حول المشكلة الايطالية الحبشية

— ١ —

المستعمرات والموارد الطبيعية

لا يسع الباحث ان ينعم النظر في ما ورد في الاسابيع الاخيرة من أنباء النزاع الايطالي الحبشي وأقوال الاقطاب فيه الاَّ أن يدرك ان سر الخلاف أبعد مدى من قول ايطاليا ان الحبشة لا تصلح أن تكون عضواً في جامعة الامم لانها لم تنهض ببعض العهود التي قطعتها أو أن موسوليني حشد ما حشد من القوى المسلحة ليحمي المستعمرات الايطالية في شرق افريقية من تهديد الاحباش لها . مع ان هذين القولين على جانب غير يسير من الصحة

ولكن سرّ النزاع ان في هذا العصر الصناعي الذي اكتسحت فيه النزعة القومية في الميدان الاقتصادي معظم الامم ، حتى بريطانيا المشهورة بتعلقها بحرية التجارة ، نجد أمماً كبيرة تتدافع الحياة في عروق ابنائها ، لا تملك مستعمرات تستطيع أن تعتمد على موارد ثروتها الطبيعية لتقيم أود صناعاتها من جهة وتجعلها سوقاً لمصنوعاتها ومنفذاً لازدحام ابنائها في وطنهم الاصلي من جهة اخرى . ولكننا نجد في الوقت نفسه بعض أمم اوربا يملك بلداناً تقدر مساحاتها بملايين من الاميال المربعة شديدة الغنى بموارد الثروة الطبيعية فيها بحيث اصبحت طائفة غير يسيرة من المواد الخام التي لا تقوم قائمة للصناعة الحديثة من دونها ، أشبه ما يكون باحتكار لها . وهذه الحالة تفضي في الدول المحرومة الى شعورها بالحرمان فبالثورة عليه . فهي لذلك لا تطمئن ولا يستريح لها بال ولا يمكن أن تكون في اوربا عامل استقرار بل لا بدَّ ان تظل عامل قلق واضطراب حتى تُكفَى حاجتها في هذا الصدد

ونحن لا نقول ان الاستعمار خير . ولكننا من الوجهة العملية يجب أن نعترف بأن سلام اوربا لا يتوطد حتى تجد ايطاليا والمانيا بعض الرضى على الاقل من هذه الناحية . وقد اعترف السر صموئيل هور في خطبته التاريخية في الجمعية العمومية بجامعة الامم بخطورة هذا الأمر وقال أن حكومته مستعدة أن تنظر في الموضوع بقصد إعادة توزيع الموارد الطبيعية توزيعاً يكون أقرب الى العدل — اذا كان في الاستعمار عدلاً — وأوفى بالحاجة . وقد نقلت الينا البرقيات من المانيا ان الهر فون روبنتروب أحد أقطاب الريخ الثالث ومستشار الهر هتلر في شؤون التسلح صرح بأن المانيا لا يسعها أن تصبر طويلاً على حرمانها من هذه الموارد

فكأن اوربا من هذه الناحية مائدة لها اربع قوائم اثنتان متساويتان طولاً وثالثة أقصر منهما ورابعة مجزوزة من أصلها فلا تقوى المائدة على الوقوف الاَّ اذا تساوت قوائمها الاربع أي الاَّ اذا أحرزت ايطاليا والمانيا ما تحتاجان اليه اسوة ببريطانيا وفرنسا

وهناك عامل آخر يؤثر تأثيراً نفسيًّا بعيد المدى وهو أن لبعض الدول الاوربية الصغيرة كالبرتغال مستعمرات ليست حاجتها اليها مثل حاجة ايطاليا والمانيا . وفي هذا باعث على شعورها بالامتهان لكرامتهما القومية

فلما نشبت الحرب الكبرى وحصرت المانيا بأساطيل الحلفاء وأصبحت لا تستطيع الدفاع عن مستعمراتها سطت دول الحلفاء على المستعمرات الالمانية واحتلتها ، فاحتلت حكومة جنوب افريقيا مستعمرات المانيا في الجنوب الغربي من افريقية واحتلت استراليا الجانب الخاص بألمانيا من غينيا الجديدة واحتلّ اليابانيون الجزائر الالمانية في الجانب الشمالي من المحيط الهادىء والبريطانيون شرق افريقية وبلاد الكمرون . وقد صارت هذه الاخيرة من نصيب فرنسا بعدئذٍ

وكان شعور الناس لا يزال مستفزًّا بعيد الحرب فكان من المتعذر أن تقنع الدول المحتلة وقد آتاها الظفر ولها حق في الغنائم والاسلاب ، بارجاع المستعمرات الى أصحابها حتى ولو قضت بذلك الحكمة العملية وبعد النظر السياسي . ويروي الاستاذ غلبرت مري وهو من أعلام الانكليز انهُ سعى بعيد الحرب لانشاء حركة غرضها ارجاع مستعمرات افريقية الشرقية الى أصحابها السابقين فقال له من لا يرتاب في صدقه وصحة حكمه ان ابناء تلك البلدان يتوجسون خيفة من ذلك ويؤثرون الانتقال بسائمتهم الى قلب افريقية . لذلك كان حل هذه المشكلة بعيد الحرب متعذراً

***

أما ايطاليا فتختلف مشكلتها قليلاً عن مشكلة المانيا ولكنّ المشكلتين ترتدان الى أصل واحد . فايطاليا لم تبلغ المقام الاول بين دول اوربا الاَّ من عهد قريب فلما بلغته وبدأت تحس ما تقتضيهِ صناعتها وتجارتها وازدحام أبنائها في بلاد تحتاج إلى معظم المواد الخام اللازمة للصناعة ، وجدت أن معظم بقاع الارض التي تصلح لها من هذا القبيل ، قد اقتسمتها الدول فقنعت أولاً بالاريترة والصومال وهما منطقتان لاتسدان حاجتها من هذه الناحية ، وظنت أن الحلفاء ينصفونها في مؤتمر الصلح فخاب ظنها فكتمته على مضض وهي تتحين الفرص لتحقيق ما تريد أو بعض ما تريد

وقد كان الفاتحون في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لا يقيمون وزناً لضمير أو حساب اذا رأوا بلاداً يريدون احتلالها فكانوا ينتحلون الاعذار ويقيمون الحرب ويحتلون البلاد . فاذا اعترضتهم دولة او اكثر صانعوها أو فاوضوها أو حاربوها أو اتفقوا معها على أن تحتل هي بلاداً اخرى كأنهم موكلون بسطح الكرة يهبونه من يشاؤون

ولكن الحال تغيرت بعد عقد معاهدة فرساي ففيها قطع الحلفاء عهداً بالجري على شروط ولسن والشرط الخامس منها ينص على وجوب إعادة النظر في المطالب الاستعمارية بروح الانصاف والتجرد ومراعاة مصلحة المستعمَرين (بفتح الميم) . ثم انها كانت قد صرحت برغبتها عن ضم بلدان جديدة اليها اذا استثنينا مقاطعتي الالزاس واللورين. وقد كانتا في حكم الحق يعاد الى صاحبه. لذلك اخترعوا

نظام الانتداب ، فاحتفظ الحلفاء بالمستعمرات التي احتلوها في خلال الحرب وبمظاهر الشروط الولسنية التي قطعوا عهداً باحترامها

ولو أن العالم مال بعد الحرب الى الأخـذ بحرية التجارة وبحرية المهاجرة لـكان من السهل على الدول التي فقدت مستعمراتها ، أو الدول التي ليس لهـا مستعمرات تكفيها ، أن تقنع بذلك الى حد ما من الوجهة المادية العملية — دون القومية وكرامتها — لان ذلك يمكنها من استيراد ما تريد استيراده من دون عائق يعوقه . وتصدير ما تريد تصديره الى حيث تريد من دون عقبات تجارية واقتصادية تقوم في وجهه — كالحواجز والحصص وغيرها من القيود — . والسبق في ذلك لمن كان أدق علماً وأبرع صناعة وأوفر حيلة تجارية . ثم أن ما تشكوه بعض الامم من ازدحام أبنائها كانت تجد له منفذاً في بعض هذه المستعمرات المترامية الاطراف أسوة بغيرها والفوز هنا لمن كان من الشعوب أصلب عوداً على الاجواء المختلفة وأمضى عزيمة في استغلال مواردها

فالحضارة الصناعية في لبها تقتضي اعادة النظر في هذا الموضوع الحيوي . ولا يغرنَّ أحد ان المشكلة الحبشية قد تنتهي سلماً بما يحقق بعض مطالب ايطاليا ويحفظ استقلال الحبشة ، أو حرباً يبسط سيادة ايطاليا على الحبشة — ولو لم تفض الحرب الخاصة الى حرب عالمية . فان المشكلة تبقى هي هي لان ما تجهر ايطاليا بطلبه اليوم وتعد له العدة تطلبه المانيا بصوت خافت اليوم ولا بدَّ ان تطلبهُ بصوت جهوري غداً يصحبهُ صليل السيوف. ولا يمكن ان يستقر لاوربا قرار ما لم تتساو القوائم التي تقوم عليها مائدتها

***

فهذا النزاع سواء أحل بالاتفاق أم بالحرب ليس الاَّ نذيراً لدول اوربا بان ما ارتكب في معاهدة فرساي من الهفوات قد أخذ يستفحل اثرهُ الآن وينذر بحروب استعمارية بين الدول كالحروب التي دارت رحاها في القرن السادس عشر . فقد كتب المستر همند الانكليزي في مجلة السبكتاتور يقول «ان وضع معاهدة فرساي كان خاضعاً من الناحية الاوربية للصورة القائمة في ذاكرة كلمنصو من هزيمة فرنسا في حرب السبعين . فضيق واضعو المعاهدة الخناق على المانيا . ومن الناحية غير الاوربية كان خاضعاً للجشع البريطاني فكانت النتيجة ان عدم التساوي في المستعمرات الذي سبق الحرب الكبرى استفحل بعدها . وقد ظهرت نتائج الخطاءِ الاول من بضع سنوات وبدأت الآن تظهر نتائج الخطاءِ الثاني حتى ليخشى ان نكون في خطر من عودة دول اوربا الى سلسلة من الحروب الاستعمارية كما كانت الحال في القرن السادس عشر»

فبعد ما اكتشفت الطرق البحرية الكبيرة وتسابقت الامم الى احتلال البلدان الجديدة التي افضت اليها هذه الطرق نشبت سلسلة من الحروب بين اسبانيا والبرتغال وهولندا وفرنسا وانكلترا على جزر الافاويه والهند والعالم الجديد . ولكن هذا الخلاف بين الدول الاوربية في المستعمرات

نفسها لم يفض الى خلاف عظيم بينها في اوربا . ثم ان اقتسام افريقية لم يسبب حروباً تذكر بين هذه الدول. ولكن نتائج هذا الاقتسام اخذت تفعل فعلها الآن وهي تهدد بما لا يريد محب للسلم ان يتخيله . وتفسير ذلك ان السلطة في مستعمرات العالم الجديد انتقلت من ايدي الحكومات الاوربية الى ايدي المستعمرين من ابنائها بالقوة بعد ما ابيدت في الغالب الشعوب الاصيلة فخلت مشكلتها على هذا النحو

اما في افريقية او في معظمها فيظهر ان الحكم سيبقى طويلاً في ايدي الاوربيين. وامتلاك البلدان الافريقية مثار للنزاع بين الحكومات الاوربية لانها بلدان أصبحت قيمتها في عيون الاوربيين الآن ضعف ما كانت قبل نصف قرن من الزمان . وسبب ذلك مثلث . فالحضارة الصناعية تدفع الدول الى التنافس في البحث عن المواد الخام والاسواق الجديدة التي لم تتخم بمصنوعاتها . ولا يخفى ان الثورة الصناعية كانت من نحو قرنٍ لا تزال في مستهلها في المانيا وروسيا والولايات المتحدة الاميركية بل كانت اساليبها لا تزال غريبة عن اليابان وايطاليا فارتقت ارتقاءً عجيباً في الربع الاخير من القرن الماضي وما انقضى من هذا القرن وصحب اشتداد التنافس بين الدول الصناعية على المواد الخام والاسواق ، احاطة البلدان التي تصلح لذلك باسوار من الحواجز والحوائل . وقد اجمع اهل الرأي وكان لورد كرومر من اقطابهم أن بقاء الامبراطورية البريطانية كان متعذراً في القرن الماضي ومطلع هذا القرن لولا حرية التجارة وسياسة الباب المفتوح . وجاء ردح من الزمن ظن فيهِ ان سائر الدول ستتبع بريطانيا في خطتها هذه . ولكن بريطانيا نفسها اصبحت اليوم من الدول الآخذة بخطة حماية التجارة . فاشتداد التنافس مع ما يصحبه من القيود الاقتصادية هو سر الخطر الذي اشار اليهِ المستر همند في مقالهِ ووزير خارجية بريطانيا في خطبته في جنيف

ويرى السر نورمن انجل وهو من كبار الباحثين الانكليز في الموضوعات الاقتصادية وصلتها بالسياسة الدولية ان الدول الصناعية يجب ان يتاح لها على السواء الوصول الى المصادر الطبيعية للمواد الخام من دون اي تمييز بينها من جهة ، والى الاسواق العالمية من جهة اخرى . ولكنه ينكر ان الاستعمار او امتلاك المستعمرات او اعادة توزيعها سبيلها الى ذلك . فكون كندا مثلاً احدى الولايات المستقلة في الامبراطورية البريطانية لا يبيح لاصحاب معامل انكلترا ان يأخذوا منها موادها الخام بلا مقابل او ان يشتروها بثمن مخفض . وهو لذلك يرى ان موطن الخطر ليس في عدم توزيع المستعمرات على مختلف الدول بل في استفحال النزعة الاقتصادية القومية التي توصد في وجوه الدول الابواب الموصلة الى المصادر الطبيعية او الى الاسواق . ومن آثار هذه النزعة الحواجز والحوائل والحصص وسائر القيود الاقتصادية. وعنده ان العلاج لا يكون باعادة توزيع المستعمرات بل بالجري على خطة من حرية التبادل وعندئذ تستوي الامم المستعمرة وسائر الامم في الفرص الاقتصادية التي تتاح لها في المستعمرات وما اليها

— ٢ —

نظام العقوبات

ما هو نظام العقوبات في دستور جامعة الامم؟ وما هي انواعها؟ وكيف تفرض؟ وعلى من يقع عبء تطبيقها؟ وهل يمكن فرض العقوبات الاقتصادية من دون اللجوء الى الحرب لجعل هذا الفرض فعالاً؟ هذه هي الاسئلة التي تخطر للباحث فما هي الاجوبة عنها

تعتمد جامعة الامم على انواع من العقوبات في تأييد قراراتها. الاول أدبي وهو قوة الرأي العام الدولي. والثاني اقتصادي وهو فعل الحصر البحري والبري. والثالث عسكري وهو القوة المسلحة على انواعها اي الحرب

واول ما تحتاج اليهِ الجامعة في توجيه الرأي العام الدولي الى حل مشكلة دولية معقدة او خلاف قائم بين دولتين او اكثر من الدول، هو اذاعة الحقائق المتصلة بهذا الموضوع. فلا يلبث جمهور القراء من مختلف الامم اذا كانت الحقائق صريحة وكان الظلم بادياً في جهة دون اخرى، حتى يتأثر بما يذاع وينحاز في الغالب مع المظلوم على الظالم. او مع المعتدى عليهِ ضد المعتدي. وقد اعترف واضعو دستور الجامعة بما لهذه الاذاعة من المقام الكبير في تأييد مكانة الجامعة وتعزيز احكامها فجعلوا جمعيتها العمومية منبراً عامًّا ومنحوها الحق في ان تتناول في اجتماعاتها كل موضوع يدخل في نطاق عمل الجامعة او له صلة بسلام العالم. (المادة الثالثة من عهد الجامعة) ولا ريب في ان بحث مشكلة دولية بحثاً حرًّا وافياً في مؤتمر عام يحضره مندوبو معظم امم الارض، وسيلة من افعل الوسائل لاطلاع الرأي العام في كل بلاد ممثلة في الجمعية العمومية — وغيرها كذلك — على حقائق الموضوع. والباحث في عهد الجامعة لا يكاد يرى للجمعية العمومية عملاً غير هذا العمل. وكأنَّ بعضهم لا يقيم وزناً للرأي العام في المشكلات العامة فسخر من الجمعية العمومية اذ وصفها بانها « جمعية مناظرة »

وقد أشارت المادة الثامنة من عهد الجامعة الى القوة المعنوية التي تعتمد عليها في تنفيذ ما يعقد من اتفاقات نزع السلاح اذ قالت « ان اعضاء الجامعة يتعهدون بان يتبادلوا تبادلاً صريحاً تامًّا كل ما يختص بمدى تسلحهم وبرامجهم العسكرية والبحرية والجوية وحالة المصانع الصالحة لاغراض حربية». فالجامعة تعتمد في هذا الصدد على قوة الرأي العام في الحيلولة بين اي عضو من أعضاء الجامعة ونبذ اتفاق نزع السلاح (او تحديده) لان اذاعة الحقائق تدل على نقضه الاتفاق وعلى سوء نيتهِ. وقد كانت هذه النقطة موضوع بحث طويل ودقيق عند اقتراح انشاء لجنة للرقابة يحق لها الاطلاع على كل ما يختص شؤون التسلح في الامم المختلفة. وكانت بريطانيا في مقدمة المعارضين في انشائها

وليس الغرض من هذا الفصل ان ننشيء بحثاً فقهيًّا مسهباً في مواد العهد ولكننا نقول ان ثلث مواده على الاقل يشير اشارة صريحة كل الصراحة او بعضها الى اعتماد الجامعة على الرأي العام الدولي

في تحقيق اغراضها ووسائل تنويره ومنها ما جاءَ في المادة الخامسة عشر وهي ان على مجلس الجامعة ان يضع تقريراً يبسط فيه حقائق المشكلة التي رهن البحث ويضمنهُ المقترحات التي يراها لحسم النزاع

على ان واضعي عهد الجامعة لم يعتمدوا على الرأي العام وقوته المعنوية دون غيرها في المحافظة على السلام الدولي . فنصوا في المادة السادسة عشرة على ما يعرف بالعقوبات . والجانب الاول من هذه المادة بل جلّ نصوصها عدا نصًّا واحداً ، يقتصر على ذكر العقوبات الاقتصادية . وليس ثمة من يرتاب في ان مهمة الحصر البحري او البري او كليهما لتنفيذ العقوبة الاقتصادية عمل مشترك يقع على عاتق جميع الاعضاء ولكن الصعوبة في هذا كله ان الامم المختلفة لا تلزم بتنفيذ العقوبة الاقتصادية الاّ بعد ان يقرر مجلس الجامعة ان دولة ما انتهكت حرمة العهد وبعد ان يوصي المجلس بالقوات المسلحة التي على كل دولة ان تقدمها للقوة المشتركة المتحركة باسم الجامعة لحماية عهود الجامعة

واول ما يتجه اليهِ الحصر البري والبحري اي اول غرض من اغراض العقوبات الاقتصادية هو حظر تصدير الاسلحة الى البلاد التي يراد توقيع العقوبة عليها . ولكن كيف تستطيع الجامعة الآن ان توقع هذه العقوبة وثلاث من الدول الكبرى التي فيها طائفة من اكبر مصانع الاسلحة في العالم — ونعني اليابان واميركا والمانيا — ليست اعضاء في الجامعة فهي غير مقيدة بقرارها . ثم ان هذا الحظر لا يضر ايطاليا لان فيها مصانع سلاح كبيرة ووافية المعدات

ثم يتجه النظر بعد ذلك الى منع توريد المواد الخام التي تدخل في صنع الاسلحة . فاذا امكن الاتفاق بين الدول التي تصدر هذه المواد فالاتفاق كاف لشل صناعة الاسلحة في الدولة التي تمنع عنها . ولكن قيل في الايام الاخيرة أن بعض الدول بدأ يشكو من الآن — مع ان الحديث لم يتعدَّ الكلام التمهيدي — ان توقيع العقوبة الاقتصادية قد يضر بمصالحها التجارية . ولا يفوتنا أن نشير في هذا الصدد الى اقتراح كان قد اقترحهُ السر توماس هلند وهو عالم جيولوجي بترولي مشهور في خطبة الرئاسة بمجمع تقدم العلوم البريطاني من سنوات ثم أعاده من اسابيع وهو ان يمنع تصدير بعض الفلزات والمعادن النادرة التي لا بد منها في صنع اصناف الصلب الجيدة القاسية . فأنواع الصلب القاسي لابد منها في صناعة المدافع والبنادق والدبابات وغيرها من الاسلحة . وهي تحتاج لكي تبلغ درجة وافية من القساوة ، الى مقادير يسيرة من عناصر المولبدنوم والتنغستن والكروم والنكل والقصدير وغيرها . فمنع تصدير هذه المواد اليها فعال في شل صناعاتها الحربية ولا يضر ضرراً كبيراً بالتجارة الدولية لان ما يستعمل منه مقادير يسيرة . وقد يقال ان الامة التي تنوي الحرب قد تخزن منها مقادير كبيرة . ولكنها لا تستطيع ان تمضي في الحرب طويلاً قبل ان تنفد هذه المقادير المخزونة

وقد يوسع نطاق هذا النوع من بتّ صلة التبادل التجاري حتى يشمل جميع الواردات والصادرات ولكن اعتراض الامم المصدرة عليه يشتد بقدر ما تتأثر بهِ تجارتها الخارجية

وقد تتخذ العقوبة الاقتصادية شكل الحصر المالي فلا تعقد لها قروض ولا تباع عروضاً الاّ

نقداً ولا تفتح لها اعتمادات فاذا لم يكن لدولة ما اعتمادات سابقة في المراكز المالية او ذهب كاف في خزائنها توفي به نقداً ثمن ما تبتاعه عجزت عن مواصلة الحرب . ولكن الغالب ان الدوائر المالية في العالم ترغب عن الاخذ بهذه الخطة

ويرى السر آرثر سولتر وهو من كبار المشتغلين بالشؤون الاقتصادية وصلتها بالسياسة الدولية في انكلترا رأياً ملخصهُ ان افضل شكل يمكن ان تتخذه العقوبات الاقتصادية في مرحلتها الاولى ، هو الاتفاق على عدم استيراد اي عرض من صادرات البلاد التي تفرض عليها هذه العقوبات . فهذا النوع من العقوبات الاقتصادية اسهل تطبيقاً من الناحية السياسية ، لان الامم اقل اعتراضاً على من يمنعها من الشراء منها على من يمنعها من البيع . اي ان الامم التي تعتذر عن تطبيق العقوبات الاقتصادية بالضرر الذي يلحق تجارتها اذا امتنعت عن التصدير الى بلاد ما قد لا تكون شديدة الاعتراض اذا طلب اليها ان تمتنع عن شراء ما تصدره تلك البلاد اليها . وهو اسهل تطبيقاً من الناحية الادارية لان نظام الجمارك كفيل بتنفيذه من دون اي اداة حكومية جديدة تنشأ لهُ ولانهُ اسهل جداً في هذا العصر ان تعرف مصدر العروض والبضائع من ان تعرف مصيرها. فقد تبيعها لتاجر من اليونان وهذا بدوره يبيعها لتاجر في ايطاليا . فمنع صادرات البلدان المختلفة من الوصول الى بلاد معينة يقتضي في آخر الامر حصراً بحريًّا او بريًّا او كليهما وهذا يعني الحرب . يضاف الى ذلك ان الامتناع عن شراء ما تصدره بلاد معينة يحرمها من ثمن هذه الصادرات في الاسواق الخارجية فلا تستطيع ان تبتاع ماتحتاج اليهِ الاَّ اذا كان لها اعتمادات مفتوحة او كانت تملك ذهباً كافياً توفي بهِ ثمن ما تشتري

والمحك الاخير في كل هذا هو اجتماع كلمة الدول الكبرى على تطبيق العقوبات المتقدمة والمتفق عليها . ولسنا نعلم إلى أي مدى يمكن الفوز بهذا الاتفاق بين الدول التي لا تزال أعضاء في الجامعة دع عنك الدول التي خارجها . ولا يخفى أن السنيور موسوليني قال أن كل سعي لتطبيق العقوبات على ايطاليا يقاوم من الامة الايطالية بالقوة المسلحة . فمن العبث أن تقول الدول بفرض العقوبات الاقتصادية ان لم تكن على استعداد لتأييد قرارها بالقوة المسلحة . ولذلك تقول الديلي اكسبرس وفي قولها تصيب كبد الموضوع « ان الحرب هي العقوبة النهائية » . لان الحصر الاقتصادي أشبه ما يكون برجل قوي قابض بكلتا يديه على عنقك يحاول ان يخنقك ولا يمكن ان يكون ذلك العمل عملاً سلميًّا

والسر آرثر سولتر يعتقد كما يعتقد غيره ممن يعالج هذه الموضوعات من ناحيتها العملية ، ان العقوبات ايًّا كانت لا تصلح لتحقيق الغرض منها الاَّ اذا كانت فعَّالة . ولا يمكن ان تكون فعَّالة الاَّ اذا كانت الامم متفقة على تأييدها بالقوة ، متخذة العدة لاظهار هذا التأييد بمظهره الفعال . ولكنه يشدد في ان الانصاف يقتضي من هذه الدول ان تعين موقفها هذا في بدء النزاع لكي لا يخامر الدولة التي قد تفرض العقوبات عليها أي ريب في هذا الصدد

واذن فالعقوبات العسكرية او بالحري الحرب نفسها هي الملجأ الاخير لردع دولة معتدية على احد اعضاء الجامعة . او منتهكة لحرمة العهد . وهذا هو لب السلامة الاجماعية ولا معنى لها من دونه

فما هي النصوص الخاصة بفرض العقوبة العسكرية التي ينطوي عليها عهد الجامعة وكيف يمكن تطبيقها ؟

تنص المادة العاشرة في عهد الجامعة على ما يلي : « يتعهد اعضاء الجامعة بان يحترموا الوحدة السياسية والاستقلال السياسي لكل عضو من اعضاء الجامعة وان يقوها من الاعتداء الخارجي فاذا وقع الاعتداء او اذا كان هناك تهديد بوقوعه فعلى مجلس الجامعة ان يشير بالوسائل التي ينجز بها هذا التعهد »

نعم ليس في هذه المادة اية اشارة الى القوى المسلحة ولكن من الجلي انهُ اذا هوجمت امة في عقر دارها فلا سبيل الى المحافظة على وحدتها السياسية واستقلالها الاَّ بطريقة واحدة وهي تنظيم قوة حربية دولية ترسل الى البلاد المغزوة لرد الغازي وقد يكفي احياناً بأن يهدد مجلس الجامعة بأنهُ مستعد لحشد قوى اعضاء الجامعة ضد الدولة الغازية ليردعها ويحملها على سحب قواتها ولكن اذا لم يفلح التهديد في تحقيق هذا الغرض فعلى المجلس ان يتعدى القول الى الفعل

واستعمال القوى المسلحة المنصوص عليها في المادتين ١٦ و ١٧ من عهد الجامعة يقصد بهِ معاقبة دولة معتدية . الاَّ ان الفرق بين المادتين ان الاولى (أي ١٦) تشير الى دولة تعمد الى الحرب متجاهلة عهودها اذا كانت تلك الدولة من اعضاء الجامعة . واما الثانية (أي ١٧) فتشير الى دولة غير منتظمة في الجامعة اي خارجها . فاذا شجر خلاف بين دولة غير منتظمة في الجامعة واخرى عضو فيها تدعى الاولى لقبول ما تفرضه الجامعة على اعضائها من العهود والتبعات فاذا رفضت وعمدت الى الحرب فعندئذٍ تستعمل العقوبة العسكرية ضدها دفاعاً عن عضو الجامعة اي تطبق عليها المادة ١٦

وبالرجوع الى المادة ١٦ من عهد الجامعة والمادة ١٧ كذلك نجد ان الخطوات الاولى التي تتخذها الجامعة هي الحصر البري والجوي ولكن الفقرة الثانية في المادة ١٦ تنص ان للجامعة ان تعمد الى القوة المسلحة برية وبحرية وجوية اذا وجد ان ذلك ضروري « لحماية عهود الجامعة » . والفقرة الثالثة في المادة نفسها تشير الى واجب اعضاء الجامعة في تمهيد السبيل لمرور القوات المسلحة التي تبعثها احدى الدول من اعضاء الجامعة المتعاونة في الدفاع عن عهودها

وهاتان العبارتان تشيران من دون ريب الى أن واضعي عهد الجامعة كانوا يرمون الى اعمال عسكرية واسعة النطاق اذا اقتضت الحال ذلك

ولكن نظام الجامعة يجعل تطبيق العقوبة العسكرية صعباً كتطبيق العقوبات الاقتصادية. ففي المقام الاول يجب ان يكون قرار المجلس باستعمال القوى المسلحة اجماعيًّا (ما عدا صوتي او اصوات الدول المتنازعة) ثم يجب ان يكون قراره اجماعيًّا كذلك في تعيين ما على كل دولة من الدول ان

تقدمه من قواتها المسلحة للقوة المسلحة المشتركة التي تعمل باسم الجامعة . وكل هذا يجب ان يتم قبل ان يبحث اصحاب الشأن في توحيد القيادة للقوة المشتركة واختيار قائد لها وما يجره ذلك من المناقشات وما عهدنا بصعوبة توحيد القيادة في جيوش الحلفاء في الجبهة الغربية ببعيد

— ٣ —

القنال والموقف الدولى

اجتمع مجلس جامعة الامم في ٤ سبتمبر الحالي وشرع حالاً في معالجة مشكلة النزاع بين الحبشة وايطاليا . وكان يغلب على مساعي الدول روح الرغبة الصادقة في البحث عن حل سلمي يضمن حرمة العهود والمواثيق الدولية المختلفة ويصون استقلال الحبشة ويمهد السبيل لتحقيق ما اعترفت به المعاهدات السابقة لايطاليا من مقام ممتاز وحقوق خاصة في الحبشة واستغلال مواردها . وقد ساعد على تعزيز تلك الروح تنصل الحكومة البريطانية بتصريحات حاسمة من الامتياز الاقتصادي الكبير الذي فاز به المستر ريكيت ، واشارتها على النجاشي بامساكه ، وقرارها ان تستمر الآن في حظر اصدار السلاح الى الحبشة لكي لا يكون الغاؤها لهذا القرار استفزازاً لايطاليا ، والتعاون الصادق بين لندن وباريس في سبيل الوصول الى صيغة تكفل ما تقدم . ثم ان العقوبات وفرضها على ايطاليا من قبل الجامعة اذا هي مضت في طريقها وشهرت الحرب على الحبشة ، لم تذكر مطلقاً في حديث او خطبة رسمية تمشياً مع هذه الروح مع كثرة التحدث بها قبل الاجتماع لان اقطاب الجامعة يدركون ان الاشارة الى هذه العقوبات وجعبة الحلول السلمية لم تفرغ بعد لا بد ان تحسبه ايطاليا سهماً يصيب كرامتها القومية وتفسره بأنه تحدٍّ لها لانه يوقفها امام الرأي العام الدولي موقف المتهم

ومع ذلك لا يزال ذكر قنال السويس واقفاله او تركه مجازاً حرًّا في حالة نشوب الحرب موضوع مقالات ضافية تنشرها الصحف ومباحثات قانونية دقيقة بين المستشارين القضائيين في الحكومات ذات الشأن . والاسئلة التي تخطر للباحث في موضوع قنال السويس من حيث ان اقفالها سيكون احدى العقوبات الثلاث التي تفرض على ايطاليا اذا اقتضت الحال فرضها هي :

١ — هل معاهدة سنة ١٨٨٨ التي تنص على ان القنال يجب ان تكون مجازاً حرًّا لجميع الدول في زمن الحرب وزمن السلم للسفن التجارية والسفن الحربية على السواء معاهدة نافذة الآن

٢ — هل للحكومة البريطانية سيطرة شرعية على القنال

٣ — اذا اختلف عهد جامعة الامم عن معاهدة ١٨٨٨ في حكم من الاحكام فهل يحل العهد محل المعاهدة اي هل يكون الفصل في الخلاف بحسب نصوص العهد دون نصوص المعاهدة

وقد عني المستر ريمون لسلي بيول وهو من كبار الثقات الاميركيين في التاريخ السياسي الحديث ورئيس جمعية السياسة الخارجية الاميركية بدراسة الموضوع فنشر رسالة تاريخية أشار فيها الى ان

القوات البريطانيــة نزلت في الاسماعيلية سنة ١٨٨٢ وأقفلتهــا بضعة ايام . ولـكن في العقد السابق عرض موضوع القنــال مرتين . ففي الحرب الفرنسوية البروسية (١٨٧٠) سمح لبوارج الدولتين المتحاربتين بأن تجتاز القنال ولكن لما نشبت الحرب الروسية التركية سنة ١٨٧٧ بعثت حكومة بريطانيا الى حكومة روسيا بمذكرة في ٦ مايو من تلك السنة حذرتها فيها من ان كل سعي للتدخل في شؤون القنال تحسبه الحـكومة البريطانية تهديداً للهند . فردت حكومة روسيا بأنها لن تمس القنال بأذى

كان هذا قبل معاهدة سنة ١٨٨٨ فلما نشبت الحرب الاميركية الاسبانية سنة ١٨٩٨ سمحت الحـكومة المصرية للاسطول الاسباني وكان في طريقه الى مانيلا عاصمة جزائر الفيلبين بأن يعبىء الفحم في مرافىء القنال بعد ان وعد بالعودة الى اسبانيا . وفي الحرب الروسية اليابانية (١٩٠٤ — ١٩٠٥) سمحت الحـكومة البريطانية للاسطول الروسي باجتياز القنال مع انهُ كان في طريقه الى منازلة اسطول حليفة لها . وفي الحرب التركية الايطالية سنة ١٩١١ جازت البوارج الايطالية القنال مع ان مصر كانت حينئذ جزءًا من الامبراطورية العثمانية . وفي بدء الحرب الـكبرى أصدرت القيادة العسكرية البريطانية امراً يحظر على اي سفينة من سفن الاعداء دخول القنال . ولـكن تركيا اعترضت بأن هذا الامر انتهاك لحرمة معاهدة ١٨٨٨ فسوغته السلطات البريطانية بأنهُ لا ندحة عنه للدفاع عن سلامة القنال نفسها . فالحقائق الاساسية في موضوع القنال هي :

أولا — ان ادارة القنال في يد شركة خاصة مصرية تملك الحـكومة البريطانية جانباً من اسهمها ولـكن اساس هذه الشركة امتياز منحته الحـكومة المصرية ينتهي سنة ١٩٦٨

ثانياً — ان معاهدة الاستانة (١٨٨٨) تنص على ان القنال مجاز حرٌّ في زمن الحرب وزمن السلم لـكل سفينة حربية او تجارية بصرف النظر عن العلم المرفوع عليها . وان موضوع الدفاع عن القنال يجب ان يرجع في آخر الامر الى مجمع الدول

ثالثاً — اعلنت الحـكومة البريطانية من ناحيتها الخاصة الحماية على مصر سنة ١٩١٤ واقفلت القنال في وجه سفن الاعداء . ولـكن الحماية الغيت سنة ١٩٢٢ وكان موضوع حماية القنال احد التحفظات الاربعة

رابعاً — ان مصر صاحبة السيادة على القنال والارض التي تجتازها ولـكنها ليست عضواً في جامعة الامم ولا هي اعترفت بمعاهدة سنة ١٨٨٨

خامساً — لم تعقد مصر معاهدة ما اعترفت فيها لبريطانيا بحق الدفاع عن القنال

ويرى المستر بيول في نتيجة بحثه انه اذا قرر مجلس جامعة الامم ان يفرض عقوبات على ايطاليا وعهد الى الحـكومة البريطانية في اقفال القنال وفقاً للمادة العشرين من عهد الجامعة فللحكومة الايطالية حينئذ من الوجهة القانونية الدولية ان تعارض في ذلك امام محكمة العدل الدائمة في لاهاي مدعية ان معاهدة سنة ١٨٨٨ لا تزال نافذة الفعل وان السيادة على القنال هي لمصر لا لبريطانيا

حديقة المقتطف

ثلاث قصائد لميخائيل نعيمة

السباق

الجوع

الحائك

الوالد

قصة للكاتب النرويجي

بيورنسن

السباق

لا تقل يا أخي قد خسرتَ السباق !

فأنا وان اكن اخفَّ منك قدماً وأوسع خطىً ، فسبيلي وسبيلك ابداً يلتقيان في الفضاء الذي لا سبل فيهِ ولا شُعب

***

سريعة هي الريح ، ولكن النسيم الناعس الذي يلدها ، ثم ينام في احضانها ، ليس بأَبطأَ منها

والعصفورة المرفرفة فوق وكرها مهما تمادت في الفضاء ، لا تستطيع ان تسبق الفراخ في الوكر

والنهر الذي يكر من ذروة جبل معربداً مزبداً ، ليس بأسبق الى الأَعماق السحيقة الساكتة من دمعة او قطرة ندى

***

قم بنا يا أخي ، قم بنا !

فالنهار ما يزال فتيًّا ، ونحن ما نزال في المضمار

وليس لنا ان نتساءل عمن هو السابق واللاَّحق الاَّ من بعد ان ينصرم الزمان ويتقلص المكان

اما الآن فهات دموعك لنغرق فيها ضحكي ، طارحين عنا اثقالها القتَّالة للروح ولنسر في سبيلنا غير آبهين بالهازجين ولا بالساخرين الباركين على جوانب الطريق

الجوع

ألقت الاقدار في قلبي بذرة

وسرعان ما اشتبكت جذورها وتمادت ، وضخمت ساقها وتعالت ، والتفت أغصانها وترامت الى ان حجبت عني الارض والسماء

وها هي اليوم مثقلة بثمارها التي لا أخال الملائكة يتذوَّقون مثلها

وانا الذي يغذيها بعصير قلبه : — وان اكن جائعاً حتى التلف — لا أجرؤ ان امد يدي الى ثمرة من ثمراتها

الحائك

انا هو المنوال والخيط والحائك

وأَنا احوك نفسي من الاموات الاحياء ، اموات الامس واليوم والأَيام التي لم تولد

وما احوكهُ بيدي لا يستطيع احد ان يحله حتى ولا يدي ! ها هي قصتي يا عابر الطريق

فصلِّ معي لكيما تكون المحبة قائدة لمكُّوكك مثلما هي قائدة لمكُّوكي في هذه اللحظة التي اراك فيها على منوالي صورة سرية كالقدر وسرًّا سرمديًّا كالله.

والآن سر في سبيلك ، ولا تقل لي وداعاً !

فأنا لا اقول وداعاً لأُحد

أنا ماضٍ في حياكتي

[نقلها خليل هنداوي]

من الادب النرويجي

الوالد

مؤلف هذه الحكاية بيورنستيرن بيورنسون Bjornstjerne Bjornson ١٨٣٢ — ١٩١٠ وهو من اركان الادب النرويجي الحديث كان شاعراً ومؤلفاً قصصياً ومسرحياً وسياسياً وزعيماً من زعماء الشعب . ولحكاياته short tales مكانة عالية بين آثاره الادبية والحكاية التالية في نظر النقاد آية صغيرة في بساطتها وايجازها

كان الرجل الذي تروى حكايتهُ في هذه السطور اغنى رجال مقاطعتهِ واعلاهم نفوذاً . وكان اسمهُ ثورد اوفرساس

جاءَ الى مكتب القسيس في احد الايام ووقف امامهُ بقامتهِ المديدة ونظرتهِ القوية وقال :

— لقد ولد لي ولد واريد ان اقدمهُ للمعمودية

* وما عسى ان يكون اسمهُ

— فِنْ ، وهو اسم والدي

* ومن عسى ان يكون ضامنهُ

فذكرت اسماء طائفة من الرجال النساء فاذا هم من اكبر اقرباءِ ثورد مقاماً في المقاطعة

* فقال القسيس : وهل ثمة شيءٌ آخر ؟

— فتردّد الفلاح الكبير قليلاً وقال : اريد ان يعمَّد ولدي وحدهُ

* اي انك تريدهُ ان يعمَّد في احد ايام الاسبوع

— يوم السبت القادم عند الظهر

* فسأل القسيس وهل ثمة رغبة اخرى

— كلاَّ . ثم وضع ثورد قبعتهُ على رأسهِ يتحفَّز للخروج

* فوقف القسيس . واخذ ثورد من ذراعهِ وقال : بقي ان اتمنى لك ان يكون ابنك نعمةً عليك

***

وفي احد الايام ، بعد ستة عشر عاماً جاءَ ثورد ثانية الى القسيس ودخل عليهِ في مكتبهِ . فقال القسيس بعد ان حدجهُ بعينهِ : حقاً انك محتفظ بفتوتك

— فقال : ثورد لانني لا اعاني همـا ما

* فلم يردَّ القسيس على هذا القول ولكنهُ بعد هنيهة قال : ما هي رغبتك الليلة

— اتيتك الليلة في شأن آخر لولدي . انه ينتظم في الكنيسة غداً

* انهُ ولد ذكيٌّ

— ولكنني لا اريد ان ادفع رسم الكنيسة قبل ان اعلم أين تكون مكانته بين الشبان المتقدمين معهُ للانتظام فيها

* في المقدمة

— قيل لي هذا . دونك عشرة ريالات

* أليس ثمة خدمة اخرى استطيع ان أسديها . قال القسيس هذا وهو ينظر نظرة ثابتة في عيني ثورد

— كلاَّ . وخرج ثورد

***

ثم انقضت ثماني سنوات اخرى، وفي أحد الايام سمع القسيس ضجة وصياحاً خارج مكتبه ، لأن جماعة من الرجال كانت تقترب منهُ وعلى رأسهم ثورد ، فتقدمهم في الدخول الى المكتب

فحدق فيهِ القسيس وعرفهُ . وقال :

* لقد أتيت مصحوباً الليلة

— لقد أتيت الليلة لاطلب اصدار رخصة بزواج ابني . انهُ سيتزوج كارن ستور ليون ابنة «غودمنود» الواقف الى جانبي

* انها أغنى فتاة في المقاطعة

— فقال ثورد وهو يمرُّ كفهُ على شعره كأنهُ لا يعبأ : كذلك يقولون

فاتكأ الكاهن على مكتبهِ كأنهُ غارق في بحار التأمل . ثم دوّن الاسماء في كتابهِ، وعلّق عليها بما يرى، وتقدم الرجال من صحبة ثورد ووقّعوا . ثم ألقى ثورد ثلاثة ريالات على المكتب

* فقال القسيس : حقي منها ريال واحد فقط

— اعلم ذلك حق العلم ولكنهُ وحيدي واريد ان يكون زواجهُ فخماً

فاخذ القسيس المال

* هذه هي المرّة الثالثة التي اتيتني فيها في شأن لولدك

— نعم : ولكنني انتهيت منهُ الآن . قال ذلك وهو يطوي محفظتهُ في جيبهِ ثم ودّع وانصرف وتبعهُ صحبه

***

وبعد انقضاء اسبوعين على ذلك، كان الرجل وابنهُ يجذفان في زورق قاصدين الى ستور ليون ليتمّا تدبيرات حفلة الزفاف . كان الجوّ صافياً والبحيرة كأنها مرآة زرقاء

واذ هما يجذفان قال الفتى : هذا المقعد متقلقل . ووقف في الزورق يبغي تثبيت قدة الخشب التي كان جالساً عليها . ولكن القدّة التي وقف عليها، زلقت من تحت قدميهِ، فرفع ذراعيهِ في الهواء، وصاح وسقط في البحيرة

فصاح والدهُ وقد قفز الى قدميهِ ومدَّ مجذافهُ : تمسّك بهذا المجذاف . وبعد ان حاول الفتى ان يمسك بالمجذاف، مرة او مرتين، على غير طائل، تصلّب جسمهُ

فصاح الوالد : اصبر قليلاً . وجعل يجذف نحو ابنهِ . ولكن الفتى انقلب على ظهرهِ، ونظر الى والدهِ نظرة طويلة وغاب في الاعماق

فلم يكد ثورد يصدّق ما حدث . فجلس في الزورق المستقرّ ساهماً . يحدق في البقعة التي غاص فيها ولدهُ، كأنهُ عائد بلا ريب الى سطح الماء . فرأى اولاً فقاقيع

صغيرة على سطح الماء ، ثم اخرى ، واخيراً رأى فقاعة كبيرة تنفجر واذا البحيرة عادت ساكنة صافية كالمرآة

ويقول الناس انهم شاهدوا الوالد ثلاثة ايام بلياليها يجذف حول تلك البقعة غير عابئ بالأكل ولا بالشرب . كان يبحث عن جثة ولده . وفي فجر اليوم الثالث ، وجدها ، فحملها بين ذراعيه وتوقل بها الآكام الى مزرعته

***

وبعد انقضاء نحو سنةٍ على ذلك اليوم ، كان القسيس جالساً في مكتبه ، والمساء مساء خريف كئيب ، اذ رأى في المجاز امام بابهِ رجلاً يبحث عن قفل الباب ليفتحهُ. ففتح القسيس الباب ، واذا هو امام رجل طويل نحيف محني الظهر ابيض الشعر . فحدّق فيهِ طويلاً قبل ان عرفهُ . لانهُ كان صاحبهُ ثورد

* فقال القسيس وهو واقف امامه : انت متأخر في عودتك الى دارك

—فقال ثورد : نعم . وتهالك على مقعد

فجلس القسيس كذلك ، كأنهُ ينتظر ، وبعد صمت طويل قال ثورد

— معي شيءٌ اريد ان اعطيه للفقراء . اريد ان يثمرّ هبة باسم ولدي. ثم وقف ووضع على المائدة مبلغاً من المال وعاد الى مقعدهِ

فاحصى القسيس النقود . وقال

* هذا مبلغ كبير من المال

— هو نصف ثمن مزرعتي . فقد بعتها اليوم

فصمت القسيس طويلاً ثم قال لثورد بلطف و تؤدة وماذا تبغي ان تفعل الآن

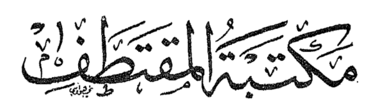
— خيراً مما فعلت في الماضي

ولبثا هنيهة صامتين . الوالد ذابل النظر يحدق بالارض . والقسيس يحدق بثورد ثم قال القسيس متمهلاً متلطفاً:

* اظن ان ولدك قد اسبغ عليك النعمة الحقيقية اخيراً

— اني على رأيك

والتفت الى القسيس فاذا دمعتان كبيرتان تنحدران على خدّيهِ



المعجم الفلكي

تأليف الفريق امين فهد المعلوف — طبع بمطبعة دار الكتب المصرية — ثمنه ١٥ قرشاً

للفريق أمين فهد المعلوف باشا مؤلف هذا المعجم فضل على اللغة العربية العلمية لا يدرك قيمته الاَّ من أدركته حرفة الكتابة العلمية باللغة العربية فاضطرَّ في خلال الترجمة أو التأليف أن يحقق اسم حيوان أو نبات أو جرم من الاجرام السماوية . ولو لم يشغف الفريق العلامة بهذه المباحث لما وسعه ان يديم النظر فيها مدى ثلاثين سنة أو تزيد . الاَّ ان الشغف وحده لا يكفي وان كان لا مندوحة عنه . وقد أعدَّ الباشا عدَّته لهذه المباحث من علم منظم وأسفار واسعة النطاق وصبر لا ينفد وتدقيق وانصاف هي في الواقع صفات العالم العامل ويجب أن تشد بعضها بعضاً والاَّ كانت نتيجة العلم مشوهة . وقد اتحفنا من سنوات بمعجم الحيوان بعد ان نشر معظمه فصولاً متتابعة في المقتطف. وها هو ذا يتحفنا اليوم بالمعجم الفلكي وفيه أسماء النجوم وصورها وأهم المصطلحات الخاصة بأقدارها وأفلاكها

قال في مقدمته انهُ اعتمد على ما نشر من كتب الفلك وخصَّ بالذكر منها اصول علم الهيئة ومحاسن القبة الزرقاء (فانديك) وبسائط علم الفلك (صرُّوف) وعلم الفلك عند العرب وزيج الصابىء (نللينو) والآثار الباقية (للبيروني) وترجمته للدكتور ادورد ساخو وترجمة تاج العروس (لاين) . وأشار الى كتب اخرى كان فانديك قد أخذ عنها لذلك أسند التحقيق الى فانديك ولم يتخطه الى القزويني أو الصوفي أو اولغ بك أو التيزيني . وهذا الاعتراف من الفضائل العلمية التي يتصف بها المؤلف ويجب أن تذاع ليأخذ بها جميع المؤلفين المحققين

والمعجم مرتب وفقاً للابجدية الاعجمية فيبتدىء باصطلاح Aberration of Light وما يقابلها باللغة العربية وينتهي باسم نجمين في صورة العقرب

لم يكتف المؤلف بذكر الاسم العلمي باللغة الاعجمية وما يقابله باللغة العربية بل وضح الاسم العربي في الغالب بنبذ تاريخية أو علمية تدل على واسع علمه . ولا يستغني عنها الباحث . فتحنا الكتاب ففتح عند الصفحة ٣١ فاذا في الصفحة تحقيق تاريخي نفيس لاسم النجم الكبير في صورة الجبار المشهور باللغة الاعجمية باسم Betelgeuse فقال بعد ان وضع امام الاسم الفرنجي مقابلين عربيين هما منكب الجوزاء ويد الجوزاء ما يلي :—

والمشهور عند الافرنج ان الكلمة من إبط الجوزاء بالعربية وهي ليست كذلك . فكتبت الى

السيد البكري استفتيه في ذلك وقلت اني لم اعثر على إبط الجوزاء في كتاب عربي قديم ولعلّ الافرنج قرأوا يد الجوزاء بالياء المثناة بد الجوزاء بالباء الموحدة فأجابني بما يؤيد رأيي» .

وجواب السيد البكري يستغرق عشرة سطور وفي كل سطر تحقيق علمي مفيد

وليست جميع التعليقات في المعجم في طول هذا التعليق ولكنها جميعاً تؤدي الخدمة التي يتوخاها المؤلف لمن يعتمد المراجعة في معجمه

ولا يسع الباحث ان يقلب صفحات هذا المعجم من دون أن يستوقف نظره كثرة الأسماء الفلكية باللغات الاعجمية المنقولة من أسماء عربية بعد تحريفها تحريفاً يسيراً أو كبيراً . بل لا تخلو صفحة من صفحات هذا المعجم من اسم واحد على الاقل. فتحناه عند الصفحة ٧٣ فوجدنا Menkalinan وهو من منكب ذي الاعنة و Menkar نجم في صورة قيطس وهو منخر قيطس وكذا Menkib منكب الفرس و Merak وهي مراق الدب الاكبر . وهذا في صفحة واحدة

ولم يكتف المؤلف الفاضل بترتيب ما حققه السابقون من أعلام البحث . بل حقق بنفسه الفاظاً مختلفة واسماء عدة نجوم منها الماصح Achromatic أي خال من اللون فيقال مرقب ماصح وشبحية ماصحة. واللصيق Acolyte وهو نجم خفي قرب نجم آخر أشد منهُ لمعاناً كالسها في الدب الاكبر

ومن الصور النجومية صورة تعرف باللغة الاعجمية باسم ترجمته «الصليب الجنوبي» ومنه أخذ اسم الطيارة المشهورة التي استقلها كنسجفورد سمث الاسترالي في رحلاته الجوية . ولكن المؤلف لم يكتف بالترجمة بل علم من المستر فلبي ان العرب يسمون هذه الصورة «نعيا» والحاشية التي كتبها في تحقيق هذا الاسم تدل على الجهد الذي بذل في اعداد الكتاب

وكنا نود ان يشتمل المعجم على بعض المصطلحات في علم الفلك الحديث مما لا يستغني عنهُ الكاتب في هذا الموضوع مثل عبارة Expanding Universe وقد ترجمت بألفاظ وعبارات عربية مختلفة فقيل الكون المتمدد والمتشتت والآخذ في التمدد او التشتت أو الاتساع وغيرها . وعبارة Red line shift وقد ترجمت بحيود الخط الاحمر (نظيف) وانحراف الخط الاحمر . وهذه العبارة من مصطلحات علم البصريات ولهُ صلة بظاهرة تفرق السدم اللولبية خارج المجرّة ولا يمكن أن يكتب فصل في علم الفلك الحديث من دون الاشارة اليها . ثم هناك لفظ Interferometer وهو جهاز دقيق استنبطه العلاّمة ميكلصن لقياس أقطار النجوم السحيقة وثمت عبارات والفاظ اخرى لاغنى عنها

والسدم انواع ميز بينها العلم الحديث منها ما هو داخل المجرّة ومنها ما هو خارجها وما كان منها داخل المجرة انواع كذلك ولكن المؤلف لم يشر الى كل هذا واكتفى بذكر السدم مع ان الكاتب العلمي باللغة العربية لا يكاد يطرق موضوع السدم حتى يشعر بالحاجة الى اسماء عربية تطلق على أنواعها المختلفة

ثم اننا لا نعلم لماذا رسم المؤلف الفاضل لفظ Ether وهو الوسط المفروض في طبيعة القرن

التاسع عشر المالىء لرحاب الفضاء — «ايثر» بتقديم الياء على الثاء . والذي نعلمه أن المصطلح السائر الآن تعريباً لهذا اللفظ هو «اثير» بتقديم الثاء على الياء تمييزاً له عن السائل الطيار المخدر المعروف للاطباء . فالوسط المفروض في الطبيعة «اثير» والسائل الطيار «ايثر» وبهذا الفرق يميز أحدهما عن الآخر . وفي هذا تحديد لمعنى اللفظين

وفي ترجمته لفظ epoch (مبدأ التاريخ) ولفظ era بـ (التاريخ) غموض لان لكل من هذين اللفظين معنىً عامًّا ومعنىً فلكيًّا ومعنىً جيولوجيًّا فالتفصيل في هذا المقام كان أدل أو على الاقل تفصيل المعنى الفلكي لان المعجم فلكي

والخلاصة ان الكتاب مفيد مفيد وبوجه خاص في كل ما يتعلق بأسماء النجوم والسيارات والصور النجومية

ولا يسعنا أن نختم الكلام على هذا الكتاب من دون الاشارة الى اتقان اخراجه . فالفرق بين حروف الاسماء الرئيسية وتوابعها واضح كل الوضوح ، والحروف اليونانية لا بدَّ منها في أي معجم فلكي لان نجوم الصور الفلكية سميت بالحروف اليونانية فيقال الفا الكلب وهي الشعرى اليمانية والفا السنبلة وبيتا الاسد . وهذا المعجم يحتوي عليها في مواقعها . ومعظم الفضل في اخراج هذا السفر النفيس على هذا الشكل المتقن يعود الى الاستاذ نديم مدير مطبعة دار الكتب المصرية

نبات سورية وفلسطين

تأليف بوست — المجلد الثاني — المطبعة الاميركية ببيروت

Flora of Syria and Palestine

نبغ في بيروت في النصف الثاني من القرن الماضي طائفة من العلماء يشار اليهم بالبنان منهم في الجامعة الاميركية — وكانت تسمى قبلاً المدرسة الكلية السورية الانجيلية — الدكتور كرنيليوس فان ديك وابنهُ وليم والدكتور يوحنا ورتبات والدكتور جورج بوست والدكتور ادون لويس والدكتور يعقوب صرُّوف والدكتور فارس نمر والدكتور هارفي بورتر والشيخ خليل اليازجي والاستاذ جبر ضومط والاستاذ الفرد داي ، وفي المطبعة الاميركية الشيخ ابرهيم الحوراني ، وفي جامعة القديس يوسف للآباء اليسوعيين الاب لويس شيخو والاب هنري لامنس والاستاذ سعيد الخوري الشرتوني ، وفي المدرسة الوطنية المعلم بطرس البستاني وابنهُ سليم والشيخ ناصيف اليازجي ، وفي مدرسة الحكمة للمطران يوسف الدبس الشيخ يوسف الاسير والشيخ عبدالله البستاني ، وفي مدرسة الثلاثة الاقمار للروم الارثوذكس الاستاذ شاهين عطية ، وفي المدرسة البطريركية نسبة إلى البطريرك غريغوريوس الشيخ ابرهيم اليازجي ثم الشيخ ابرهيم الحوراني ، وفي الشوير على مقربة من بيروت الدكتور كارسلو والاستاذان ظاهر خيرالله وجرجس همَّام وكلاهما من الشوير ، ولم يبقَ من هؤلاء العلماء الاعلام على قيد الحياة الآنَّ ثلاثة هم الدكتور فارس نمر والاب هنري لامنس والدكتور وليم

فانديك اطال الله في عمرهم . اما الباقون فتوفوا الى رحمة خالقهم بعد ان تركوا آثاراً خالدة ابد الدهر ولعلَّ الدكتور كرنيليوس فانديك والمعلم بطرس البستاني واليازجيين والاب لويس شيخو والدكتور جورج بوست اكثرهم آثاراً علمية وان القلم ليعجز عن ذكر مؤلفاتهم وهي لا تزال حية حتى الآن ولا اعلم في رجال التاريخ العربي من فاقهم في كثرة المؤلفات المفيدة الاَّ جلال الدين السيوطي

اما الدكتور جورج بوست مؤلف هذا الكتاب فمن علماء النبات المشهورين فهو من طبقة بواسيه السويسري والسر جوزف هُكر الاسكتلندي والدكتور شوَينفورث الالماني وكان معاصراً لهم وكانت بينهم مكاتبات . ولا شبهة ان كتابه في نبات سورية وفلسطين وسيناء خير ما كتب في هذا الباب . وقد كان الدكتور بوست جرَّاحاً مشهوراً وخطيباً مفوَّهاً يعرف العربية كاحد ابنائها وكان معلمهُ على ما قيل لي في اوائل عمره الاستاذ الياس سعادة الطرابلسي لذلك بقيت اللهجة الطرابلسية في كلامهِ الى آخر ايامهِ . اما مؤلفاته التي اذكرها فكثيرة منها علم النبات وهو كتاب مدرسي ونبات سورية وفلسطين والبادية وهو بالعربية وكتابه هذا وهو بالانكليزية وهو اشهر مؤلفاته طبع للمرة الاولى في بيروت نحو سنة ١٨٩٢ وكنا نعتمد عليهِ في المدرسة . وله كتاب في الحيوان اسمه نظام الحلقات في سلسلة ذوات الفقرات وهو جزءان. ومن آثاره الطبية كتاب الاقراباذين والمصباح الوضّاح في صناعة الجرّاح ومجلة الطبيب . ومن آثاره الدينية فهرس الكتاب المقدس مجلدان وقاموس الكتاب المقدس مجلدان . اما مواعظه وخطبه فكان يرتجلها بلغة عربية فصيحة ولا اعرف اجنبيًّا ولد في بلاد اجنبية يحسن العربية مثله ومثل الدكتور كرنيليوس فانديك وكانا يتكلمانها بلا عجمة في النطق وربما فاقه فانديك في ذلك واذكر كتاباً من كتب فان ديك المديدة في علم العروض وقليلون يعرفون ذلك

اما كتاب بوست في نبات سورية فقد طبع لاول مرة في سنة ١٨٩٢ كما تقدم وطبع في المرة الثانية في سنة ١٩٣٣ وامامي الآن الجزء الثاني منهُ اما الجزء الاول فلم اره ولكن يمكن معرفة الجزء الأول بمقابلتهِ بالطبعة الاولى وهي في مكتبتي فالطبعة الثانية نفيسة جدًّا وهي في ٩٢٨ صفحة منها الاضافات والتصويبات وتمتاز عن الطبعة الاولى بفهرس الالفاظ العربية وهذا لم يكن في الطبعة الاولى . كذلك فهرس الالفاظ العبرانية . على اني لم ار ذكراً لكثير من الالفاظ العربية منها العكّوب مثلاً فقد ورد في المتن في الصفحة ٧٤ ولم يرد في الفهرس . ثم ان في الطبعة الثانية اشياء كثيرة لم تكن في الطبعة الاولى فهي طبعة منقحة وفيها زيادات كثيرة وانهُ يتعذَّر عليَّ نقد هذا الكتاب النفيس وانا لا قِبَل لي بنقده فالمؤلف استاذي وله فضل كبير عليَّ وهو الذي علمني فكيف انقد استاذي وهو من مشاهير علماءِ النبات وكتابه هذا خير ما كتب في نبات سورية وفلسطين وشرقي الاردن وسيناء وليس عليَّ ان اقول سوى ان المستر دنسمور قد احسن واجاد في اخراج هذا الكتاب النفيس الذي هو من مفاخر الجامعة الاميركية في بيروت وسيبقى كذلك ابد الدهر

مصر الجديدة امين المعلوف

شهر في اوربا

بقلم سامي الكيالي ١٩٠ ص من القطع الصغير

اذا خلا كتاب من الادعاء والتكلّف واللغو فليكن هذا الكتاب . فان سطوره لتجري رشيقة خفيفة ، وكأني بالقلم الذي خطها لم يعالج شدة ولم يكابد عقبة ، بل كأني به لم يطلب خطة بعيدة ، وشاهد ذلك ان صاحبه قال (ص ١٥٤) «اني انقل حسّي وارسم ما تقع عليهِ عيني» . ألا لو اراد المؤلف غير ذلك لما تمَّ لهُ ان يخرج مثل هذا الكتاب ، وهل لأحد من الناس ان يقدر على الفحص البعيد والبحث الدفين وهو جائز طريق . وهل تُخبر اوربا في شهر او سنة ؟

ففضل هذا الكتاب انهُ ينتقل بك من روما الى باريس الى لندن الى غيرها من البلدان وانت لهُ منقاد واليهِ منبسط . وبعيد ان يكون هذا الكتاب مجموعة اوصاف « موضوعية » و«تقريرات » جافّة ، فان صاحبه احسّ وفكر وحاول بصدق بيانه ان يجعلك تشاركه في احساسه وتفكيره ، وان كانا — في الغالب — « من الخارج » على قول الفلاسفة . إلاّ ان المؤلف ربما اتفق لهُ ان يعلل ظاهرة من الظواهر (كالقبلات في الطريق ص ٤٣) ، او يستوضحها (كالشعور الايطالي الوارم ص ١٤٢) ، او يتوجع لها (كالفجور في باريس ، ص ٦٤) ، او يتهكم بها (كالقصر الابيض ، ص ٣٣١) ولهُ في كل هذا قلم أخّاذ ينزل توًّا الى وليجة النفس

وانك لتلمس في هذا السفر نزعات المؤلف الوطنية . فعربيّته الصادقة وشرقيّته الغالبة عليهِ تقفزان من بين الاسطر . فاذا هو وقف امام قصر عصبة الامم كتب«العرب يطلبون حقًّا . كيانهم مفقود . . حريتهم مضيعة . . استقلالهم مسلوب . . » (ص ١٣٢) واذا رأى انجليزيًّا يطعم العصافير خبزاً بسطت عليهِ زبدة قال « . . اترى هذا الخبز من دقيق الهند ؟ . . الانسان في الهند يضنيه الجوع وعصفور لندن يتلذذ بالخبز الابيض والزبدة النقية ؟ » (ص ١٠٢) . ولكنهُ اذا انتهى الى خاتمة كتابه لم يفته ان ينوّه بصفات الغرب كمثل المرح والنشاط والاتكال على المرأة والعدول عن الشعور الى العقل (ولأزد هنا « معرفة الواجب ») ، تلك الصفات التي اخذت بيد الغرب الى مقاعد السيادة والغلبة

وبعد فهنالك تعابير لم تنشط لها أذني ، منها « البحر الحالم » (ص ١٥٣) ، « النساء العاريات اللواتي يعرضنَ اجسامهنَّ عليك عرضاً بوهيميًّا (؟) » (ص ٦٢) ، « العوائل » (اي الأُسَر) (ص ٦٤) ، « ونأخذ فكرة لا بأس بها عن طابع البلد » (ص ٣٥) . بيد ان كل هذا الى الذوق يرجع [1]

برلين بشر فارس

(١) كأني بالمؤلف يعبث بالهمزة ، فانه يرسم مثلاً : « ضئولة » (ص ٣٦) ، « في نفوس اعضاءه » (ص ١٣١) «أفاجأه» ص (١٣٢)

مؤلفات المستشرقين رسالة من برلين

الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير (الجزء التاسع)

لابي طالب علي بن انجب تاج الدين المعروف بابن الساعي الخازن

عني باخراجه مصطفى جواد — طبع في المطبعة السريانية الكاثوليكية في بغداد — سنة ١٩٣٤
٣٩٠ ص ، بقطع الثمن ، ثمنه ١٢ شلناً

ان الاب انستاس ماري الكرملي علاَّمة العراق وعضو مجمع اللغة العربية الملكي قد اصطنع الى المشتغلين بالتاريخ العربي معروفاً يومَ نشر الجزءَ الثامن من « كتاب الاكليل » لابن ابي الدمينة . وها هو ذا يتحفهم بسفر آخر نشره على نفقتهِ ووكل اخراجه الى الاستاذ مصطفى جوَاد. والاستاذ مصطفى جوَاد فوق التعريف : تخرّج على الاب الكرملي فيمن تخرَّج عليهِ وأخذ عنه فانصرف الى علوم اللغة العربية في نشاط لا تكاد تصيبه اليوم عند شبابنا . ومقالاته في فنون العربية تشهد بوقوفه على اسرارها واحاطته بأصولها وفروعها

اصاب الاستاذ مصطفى جواد هذا الكتاب مخطوطاً في المكتبة التيمورية الملحقة بدار الكتب المصرية ، ايام كان نزيل مصر فانبرى له ينسخه . ولما انقلب الى العراق جعل ينظر فيه فأصلح تصحيفه وقوّم نواحيه وعلق عليه ثم نشره بنفقة الاب الكرملي

وهذا الجزء من تاريخ ابن الساعي (المتوفى سنة ٦٧٤) تجري فيه حوادث ١٢ سنة (من ٥٩٥ الى ٦٠٦) . وهو مرتب على السنين يبدأ بالسنة فيذكر حوادثها ثم يأتي بتراجم من مات فيها من الاعيان . وفي الكتاب من الحوادث ما له شأنعظيم . مثال ذلك فصل في «الفتوة» انطوى على قصة نَقْلِها الى الخليفة الناصر لدين الله مقدمة مستجدّة (ص٢٢١ وما يليها) . وقد عمل مخرج هذا الكتاب مقدمة له تقع في ٣٦ صفحة ادرج فيها وصف النسخة المخطوطة وترجمة المؤلف وثبت تصانيفه وذكر شيوخه وأقوال العلماء في تاريخه الجامع . ثم صنع بعد ذلك خمسة فهارس : اولها للسنوات الواردة عرضاً في الكتاب، وثانيها لاعلام الناس، وثالثها للكلمات المفسرة والاصلاحات المشروحة ، ورابعها للاخلاق والعادات والشؤون الاجتماعية في الكتاب (مثل اسلام اهل الذمة والاستخلاف في القضاة والاسعار وتراخيها) ، وخامسها لاسماء المواطن . ومما لا يفوتني ذكره ان مخرجي الكتب سواء في الشرق او في الغرب لم يألفوا اثبات فهرست «عمراني» للاخلاق والعادات والشؤون الاجتماعية . فأن يصنع مخرج الكتاب مثل هذا الفهرست ذلك عمل جليل جدًّا . الاَّ اني لعلني تمنيت ان يكون للكتاب فهرست سادس شامل يهتدي به القارىء الى نواحي الكتاب وفهارسه الاخرى

ثم ان صفحات الكتاب مشحونة بالتعاليق المفيدة بين لغوية وتاريخية وجغرافية وعمرانية ، وقد اعتمد المخرج في اجرائها على تآليف قويمة نحو اخبار الحكماء لابن القفطي وشرح نهج البلاغة

والفخري الى غير ذلك مما اثبته في جدول خاص (ص يو) . ولربما اخذت على الناشر اثباته هذه التآليف على اسلوب غير تام ، ذلك بأنهُ لم يذكر سنة الطبع ولا مكانهُ ، ولربما اتفق له ان يغفل اسم المؤلف

وقد صنع المخرج فوق هذا ثلاث خرائط طريفة : الاولى خريطة بغداد الشرقية في اواخر الدولة العباسية، والثانية خريطة بغداد الغربية في ذلك العهد نفسه ، والثالثة خريطة «دار الخلافة» فيه . وأما صحة طبع الكتاب فلا غبار عليها . ومن المتعذر ان (تجد تصحيفاً او تحريفاً او اضطراباً او سوء فهم للنص ، ومخرج هذا الكتاب الى الناس مخرجه ؟)

برلين بشر فارس

الشاعر العراقي جميل صدقي الزهاوي

بقلم الدكتور . ج . ڤِدْمِر

في مجلة « عالم الاسلام » (الالمانية) ، المجلد السابع عشر سنة ١٩٣٥ ص ٩٧ من القطع المتوسط

Der Irâqische Dichter, Gamil Sidqi az-Zahawi
(in : "Die Welt des Islams", B. 17, H. ½ 1935)

مما لا يخفى على قراء المقتطف ان المشتغلين بالآداب العربية في بلاد الفرنجة يستوضحون الادب الحديث فضلاً عن فحصهم الادب القديم . وعلى رأس هؤلاء المستشرقين الاستاذ كراتشكوفسكي الروسي وجبّ الانجليزي وكامْفْماير الالماني . واظن الاول اسبقهم في هذا الميدان : فله عدة مباحث نشرها بالروسية والالمانية والعربية ثم له مبحث مدرج في ملحق دائرة المعارف الاسلامية (التي تبرز في هولاندا) ، وقد عالج فيها جميعاً نشوء الادب العربي الحديث وارتقاءه بدراية وفطنة

والحقّ ان هذا الادب لموضع عناية من حيث انهُ نفيس في ذاته لا من حيث انهُ مظهر من مظاهر النهضة الفكرية في البلاد العربية . ومما انكره ان بعض المستشرقين — وما هم بجهابذة والحمد لله — قد انصرفوا الى بحث ادبنا الحديث مستخفين بهِ لاهين باصحابه ، وفي هؤلاء المتحاملين تارة البلداء اخرى نفر من الفرنسيين خاصةً يذهبون الى ان التفكير العربي لهذا العهد حقير الشأن . تلك قضية سأنقلب اليها تفصيلاً في هذا الباب ان شاء الله، الاّ اني احب ان اقول ان للاستاذ كراتشكوفسكي مقالاً مدرجاً في المجلة الالمانية المذكورة أعلاه سنة ١٩٢٩ (الخاتمة خاصة ، ص ١٩٩) يدفع ذلك الرأي دفعاً من طريق غير مباشر (١)

هذا ومما يفسح الصدر ان المستشرقين وبخاصة الالمان منهم ما يزالون على عنايتهم بأدبنا الحديث. واليك عدداً من أعداد مجلة «عالم الاسلام» موقوفاً على الشاعر العراقي البعيد غاية ، ألا وهو جميل صدقي الزهاوي . وينقسم هذا العدد قسمين . اولهما ترجمة حياة الزهاوي وبحث في طريقته ،

(١) ليأذن لي الاستاذ محمد كردعلي — وقد امتد نفس الكلام بقلمي الى هذا الحد — أن لا أسايره في طعنه على الاستاذ كراتشكوفسكي (انظر الاسلام والحضارة العربية مصر ١٩٣٤ ص ٢٣—٢٨) فلقد اطلعت على مقال الاستاذ كراتشكوفسكي ، ذلك المقال الذي عليه دار الطعن ، فاشهد اني لا اربأ بقلم الاستاذ محمد كردعلي ان ينبري على ذلك النحو

والثاني طائفة كبيرة من قصائده منقولة الى اللغة الالمانية . والذي عُني باخراج هذا العدد هو الدكتور ج . ڤِدْمِر G. Widmer وللرجل مباحث سالفة في أدبنا

يستند الدكتور ڤدمر في ترجمته لحياة الزهاوي الى ثلاثة مصادر ، الاول : « كتاب الادب المصري في العراق العربي » لرفائيل بطي الاديب العراقي العامل ، والثاني : مقالة للزهاوي نشرت في مجلة المجمع العلمي العربي (الدمشقي) سنة ١٩٢٨ ، والثالث : ايضاحات بعث بها الزهاوي نفسهُ الى المؤلف . فجاءت الترجمة وافية اذ ضمت الوان سعي الزهاوي في سبيل استقلال العراق وتحرير الفكر . هذا وفي رأي الدكتور ڤدمر ان الزهاوي شاعر فحل بقريحته دون حكمته ، وأنهُ يمت الى المعرّي بصلة

ولا يسع الناقد — وان انحرف بعض الشيء عن رأي الدكتور ڤدمر في الزهاوي — الاّ ان يشكر له اليد التي اتخذها عند الادب العربي الحديث وينوه بالجهد الذي بذله في اخراج عيون شعر الزهاوي. على انهُ صرّح (ص ١٧) بأن قلمه كثيراً ما كبا عند نقل روعة قصائد الشاعر العراقي فاي قلم يقوى على ان ينقل الشعر من لغة الى لغة بل من لغة سامية الى لغة غير سامية بزهده واناقته ؟

بقي اني لا ارى منصرفاً عن ان احدث قراء المقتطف عن مجلة « عالم الاسلام » التي تقدم الكلام عليها . فان الغاية التي اليها تجري هذه المجلة انما الفحص عن احوال « النهضة العربية — الاسلامية » لهذا الزمان فحصاً لا ينخفض بهِ تشيع ولا يزوغ بهِ لؤم قائماً على تدبر المصادر نفسها على اختلاف الوانها . وقد جرت تلك المجلة في هذا الميدان الواسع شوطاً بعيداً على يد ناشرها الاستاذ كامفماير Kampffmeyer وهو ممن يميل الى الشرق العربي ويحتج له وينزله من نفسهِ منزلة كبيرة

برلين ب . ف .

مكتبة الاطفال الحديثة

وضع احمد عطية الله — مجموعها ٢٦ كتاباً — مختلفة الموضوعات

انفق الاستاذ أحمد عطية الله مؤلف لندن وبسائط علم النفس وقتاً غير قليل في وضع مكتبة حديثة قيمة للاطفال مجموع كتبها ٢٦ كتاباً بين صغير وكبير ضمنها الكثير من الفوائد الادبية والعلمية والادبية والتاريخية فضلاً عن مجموعة حكايات مبتكرة عن النبات بطريقة أخّاذة وقصص شيقة عن مبادىء الطبيعة موضحة بصور كثيرة ملونة بالالوان الجميلة وهذا مما يحتاج الى معرفته الاطفال لانها تربي فيهم ملكة المطالعة والدرس . وقد أعجبنا بهذه المجموعة لما فيها من الفوائد الجمة وما تحويه من لذيذ القصص والحكايات نذكر منها قصة ملك النهر الذهبي ومعروف الاسكافي والديك المغرور والزمار الصغير وهذه الاخيرة من القصص العالمية (بيتربان) للكاتب الانكليزي سير جيمز بري ملخصة للاطفال بها ١٨ صورة وصورتان بالالوان وصفحاتها ٤٠ صفحة

كتاب الاساس

في الامم السامية ولغاتها وقواعد اللغة العبرية

تصفحت كتاب الاساس بكل دقة فوجدته كتاباً جميل المنظر مطبوعاً على ورق ابيض فاخر مجلداً تجليداً جيداً ولكنهُ ضخم كبير الحجم ثقيل للمناولة والدراسة يقع في ٦٥٤ صحيفة . نصفه الإخير عبارة عن مجموعة تمارين ومفردات وقاموس للافعال . وعن فصول من التوراة تشغل ١٤٠ صفحة من النصف . وعدد كبير من الصحائف يحتوي على ٦ او ٧ اسطر فقط لا تزيد عن ٢٧ — ٣٣ كلمة . مما يدل على علامات البذخ والاسراف في الطبع . وأما شكل الحروف العبرية ولا سيما الكبيرة فليست من نوع المربع الجميل المألوف . وكان يمكن الاستغناء عن قاموس الافعال والمفردات وفصول التوراة اذ لم تكن من خصائصه فيخف حجمه

يقسم الكتاب الى قسمين الاول بحث في علم اللغات عموماً والسامية خصوصاً للدكتور علي العناني . والقسم الثاني في آداب اللغة العبرية للاستاذ ليون محرز في دار العلوم

بحث الدكتور في القسم الاول منه مليًّا وأفاض وأفاد في تعريف اللغة وبسط الآراء في كيفية نشأتها وشرح المذهبين في تكوينها الديني والطبيعي وتكوين المقاطع والالفاظ. ثم تناول وضع الكلمات والقواعد ولغة الانسان الاولى فقال اما كانت واحدة بحسب نظرية المذهب الديني واما متعددة بحسب المذهب الطبيعي وظهرت في بقاع مختلفة

ثم انتقل في البحث الى اللغات القديمة . فنها (١) القديمة التي لا يوجد دليل لحدها وهذه تشمل العربية القديمة . والكنعانية والبابلية والسانسكريتية ومنها (٢) المعروفة النشأة والزمن كالعبرية والسريانية والاغريقية واللاتينية . ومع أقدميتها نجد فيها قواعد وتنسيقات لغوية مما يثبت وجود قواعد في الصرف والنحو قديمة العهد جدًّا

ثم انتقل الى علم اللغات عموماً (الفيلولوجيا) وبحث في اصل هذه اللفظة وبعدها وفي اول من نطق بها وهو افلاطون ثم في نوعيها الاكلاسية او المحتذاة والعامة وتاريخ ابتدائها يرجع الى القرن ١٨ ثم عن فوائدها وما انتجت المقارنة اللفظية والمعنوية بها وفي آدابها وعلم فقه اللغة والنقد الفني والادبي وفي أدوارها الاربعة (١) الايطالياني من القرن ١٤ — ١٦ و (٢) الفرنسي الى القرن ١٧ و (٣) الانكليزي الهولندي الى القرن ١٨ و (٤) والالماني الاخير الى الآن

ثم بحث مطولاً في مجاميع اللغات واقسامها والاسس التي استندوا اليها في التقسيم ثم كيف انهُ بمجهود عنيف ومثابرة وصلوا الى حل النقوش والخطوط القديمة ولغاتها الهيروغليفية والمسمارية والسنسكريتية وبروايات الكتب المقدسة والرحلات والروايات المتوارثة والوثائق الرسمية وصلوا

ايضاً الى التاريخ الدقيق ثم الى المروي الاسطوري ما خلا من الاعتماد على التاريخ الدقيق ما لم تدحضهُ البراهين الاثرية والمباحث العلمية الطبيعية

ثم بحث طويلاً في مجاميع اللغات واقسامها والاسس التي استندوا اليها في التقسيم ومنها تقسيم التوراة الى سامي حامي ويافثي وتقسيات الطبيعة بحسب الوان البشر والاماكن والاوسطة ثم اضافوا مجاميع اخرى فاوصلوها الى ١٠ وتعرف بالسامية والآرية . ثم بحث في اقسامها ولهجاتها . وتناول قسماً آخر الحادي عشر وهو مجموعة اللغات المنعزلة التي لا تشبه بعضها بعضاً ولا رابطة وصلة لها كالجركسية واليابانية والاسكيمو . وبين في احصاء اللغات ان عددها يتراوح ما بين ٩٠٠ و ١٥٠٠ وقد اوصله ادلونغ الى ٣٠٠٠ لغة

ثم انبرى الى المجموعة السامية وفروعها الاصلية العربي والعبري والسرياني وأول من سماها بالسامية شلوتزر ١٧٨١ وبين اختلافهم في مهدها الاول وفي كيفية نشأتهم في اماكن مختلفة في مصب النهرين وكنعان والحبشة وفي افريقيا وبلاد العرب وان انصار الرأي الاخير الراجح اي في بلاد العرب ومنها ابتدأت الهجرة السامية الاولى . وبناء على هذا الرأي يعتقد أن اللغة السامية الاولى كانت عربية . وهي اما العربية الارمية او ام لها نشأت منها اللهجات التي تفرعت عنها لهجات العرب

ثم قارن بينها مقارنة لفظية فنية اي في اللغة . ومعنوية ادبية اي تاريخية وفي التفكير الديني والفني الاجتماعي المدني والفلسفي والمجهود العقلي التاريخي الادبي ثم عن العلاقة وتأثير الامتين العربية والعبرية وتقرير تاريخه . ثم بين مقارنة ثالثة تختص بجميع اللغات السامية ونتائجها الخاصة وتعيين أثرها في الحضارة وبالنسبة الى حضارة الانسانية العامة وهذه المقارنة خاصة بالجنس السامي

اما نشأة هذه المقارنة المعنوية الادبية تنسب الى منتصف القرن ١٩ وكان رينان الفرنسي المستشرق اول من كتب كتاباً في قواعد اللغات السامية والمقارنة بينها وبحث عن نوعها اللغوي والمعنوي ثم نولدكه وبروكلمن . ثم قال الخلاصة ان اهم مجاميع اللغات العشر لا يتعدى المجموعتين السامية والآرية وان اعظم الاجناس البشرية وافضلها ينحصر في السامي والآري وان لهذين الشعبين السلطان الاكبر في قيادة الامم . والسامي أقدم وأبعد من الآري . ومن اطلع على المباحث في هذا الجزء النفيس من الكتاب يتأكد من متانة الاستاذ عناني في علم اللغات ولا سيما في اللغات السامية وكفاءته وتضلعهِ منها وقد سد فراغاً محسوساً في لغتنا العربية في هذا الموضوع

***

ثم بحث الاستاذ ليون محرز في الجزء الثاني من الكتاب فأفاض عن الخط العبري وعن اصله من الكنعانية اصل جميع الخطوط السامية . وكان يعرف الخط العبري القديم بالقلم العبري (كتاب عبريت والاصح كتاب عبري) الى عهد بابل وآثاره موجودة للآن في نقش سلوان قال « يصف هذا

النقش عملية الحفر في جبل سلوان في عهد الملك حزقيال حوالي ٧٠٠ ق م » اني لا اعلم ملكاً لبني اسرائيل بهذا الاسم مطلقاً ولربما يقصد الملك حزقيا . واذكر بهذا الصدد نقشاً آخر واقدم منهُ وهو حجر موآب للملك ميسع ملك موآب اكتشف في ديبون ١٨٠٨ عبري فينيقي موجود في باريز الآن يرجع تاريخه الى سنة ٨٦٠ ق م يحتوي على ٢٨٠ كلمة في ٣٤ سطراً

ثم ترك العبريون هذا الخط واخذوا الخط المربع الاشوري المستعمل للآن وكانوا يستعملونهُ في الشؤون الدينية فقط والقديم الى نهاية القرن الثاني ب . م ومن الغرابة ان الاستاذ لم يذكر شيئاً عن الخط المعروف بالراشي الذي كتبت به معظم شروحات التوراة والتلمود وغيرها من المؤلفات التي لا تحصى الى يومنا هذا

ثم بين كيف ان نظام الابجدية وحساب الجمل معروف قديماً ونجده في المزامير والمراثي والامثال في التوراة وكيف انهم استعملوا حروف العلة في الابتداء لضبط النطق ثم اخترعوا نظام الحركات في القرن ٥ و٦ وانهُ كان لها عدة نظم اشهرها العراقي والطبري المستعمل للآن

***

ومما يؤسف له أن الاستاذ لم يستوف الكلام عن الحروف وأنواعها وحروف الابدال والحروف التي تنقص في العبرية وحروف العلة والحروف الحلقية والمقاطع . ولا عن الحركات الثابتة والقابلة التغيير ولا عن الحركات اللحنية أي علامات الترقيم التي عليها يتوقف تقطيع الآيات في ضبط قراءة التوراة ولا عن المقاف علامة الوصل والمتغ والجعيا ولا عن أحكام الشوا والقامص ونبرة الصوت وحروف المعاني كواو القالبة وواو العطف وشين الموصولية ولا عن الحروف الزائدة « اهوين » ولا عن الحذف في الحروف ولا عن صيغة المنسوب ولا عن اوزان الاسماء كما يجب ولا عن الحروف والظروف وأهمل كليةً اسم التصغير كما في العربية وقواعد التأنيث والتثنية واوزان النعت . وهاء الندا والرافه علامة التخفيف وقواعد الاختصار وعلاماتها واوزان المزيدات في الافعال النادرة غير السبعة

ولم يضبط كيفية لفظ الحروف الحلقية المشكلة بالفتحة التي سماها المستعارة (والاضبط المختلسة كما هي في العبرية) فانها تلفظ كالضمة المختلسة بتقدير حرف الالف ولا اليود او الواو ولم يتقن كيفية لفظ الحركات بالعربية ولم يأتِ بالاسماء العبرية المعربة في بعض المحال

ثم جاء بسلسلة تمرينات وتراجم حياة بعض الشعراء وبعض مفردات في اللغة ومعجم في الافعال العبرية ولكن ينقصه كثير من الافعال التي وردت في التلمود . ثم جاء بفصول من التوراة مع ترجمتها العربية شغلت نحو ١٤٠ صحيفة من الكتاب . ومن الغرابة أنهُ لم يتكلم عن قواعد النحو « كلية » (شموش هلاشون) وأظن أنهُ كان أولى وألزم من المعجم والمفردات التي جاء بها وليست من خصائص هذا الكتاب فكان أوفى وأخف وأنسب مما هو الآن ككتاب في قواعد اللغة

الدكتور هلال فارحي

قصص علمية للاطفال

الجزء الاول : النحلة العاملة — الجزء الثاني : العنكب الحزين — للاستاذ كامل كيلاني

ليس اسم الاستاذ كامل كيلاني في حاجة الى تقديم وتعريف ، فهو من خاصة أدباء الشرق الذين كان لانتاجهم أثر كبير ، وقد عرف بنشاطه المتواصل في الإنتاج ، وتعدد جوانبه في التأليف ، فما أخرج في الادب : رسالة الغفران وديوان ابن الرومي وابن زيدون ، ومما أخرج في التاريخ : ملوك الطوائف ومصارع الاعيان والخلفاء. ومما أخرج في القصة : مختار القصص، وروائع من قصص الغرب

ومنذ سنين صرف قسطاً كبيراً من جهده في انشاء مكتبة للاطفال ، ووضع لها برنامجاً يفي بالحاجة . وهذه فكرة قويمة ، لانها تسد في المكتبة العربية فراغاً من العار أن لا يسد ، وقد وفق في كل ما انفذه من برنامجها الوسيع ، فالذي بين ايدي القراء من هذه الكتب يدل دلالة واضحة على ان مؤلفها يدخر لها ذخيرة نفيسة من اليقظة والعناية

وعلى الرغم من ان تلك الكتب التي وضعت خصيصاً للاطفال هي الاولى من نوعها في اللغة العربية ، وانها فتح جديد في عالم التأليف ، فقد بلغت من الاجادة المبلغ الذي يخيّل ان مؤلفها سار في طريق صادر وارد ، وان كتبه نتيجة تطور ، وخاتمة تجارب ، ووثبة سبقتها خطوات . . .

ومن حديث ما اظهره الاستاذ كامل كيلاني من كتب الاطفال ، كتاب : « قصص علمية » وهو جزءان كبيران ، الاول اسمهُ : « النحلة العاملة » والثاني اسمه : « العنكب الحزين »

وهذا الكتاب — كما يدل عليه عنوانه — قصص صغيرة مملوءة بالمعلومات العلمية في الحيوان والنبات ، واسلوب هذه القصص طلي غاية الطلاوة ، تتخللهُ المحاورات التي توقظ انتباه القارىء وتغريه بمتابعة القراءة ، اما المعلومات العلمية فمسوقة في اطواء القصة بلباقة ومهارة وحذق ، بحيث يتلقاها القارىء الراغب في التسلية بشغف ورضى . وهذه الظاهرة وحدها جديرة بالاعجاب

وقد اخذ المؤلف على قلمه ان يستعمل الكنى العربية للحيوانات التي يرد ذكرها في القصص ، مثل « ام خداش » للهرة ، و« ام راشد » للفأرة ، وهذه وسيلة طريفة للتسمية ، ولو ذكر الحيوان باسم جنسه ، او سمي باسم خاص ، لما اخذ سياق الحديث هذا الرواء الذي اخذه باستعمال الكنى . على ان لهذه الوسيلة فائدة اخرى ، هي اطلاع القارىء على ثروة لغوية يتبين بها سعة الفصحى ، وضربها في كل فن بسهم . ويحسن ان نذكر هنا ان الجزء الاول من هذا الكتاب ختم بمعجم لغوي لاسماء الحيوان وكناه ومعجم آخر للنحّال شمل اسماء النحل وبيته وولده وما اليهِ . ويبدو ان هذين المعجمين لم يستقل بهما كتاب لغوي فيما نحسب، بل جمعت موادها من كتب لغوية شتى

ومن ظريف التدبير في الجزء الثاني أن كل قصة أتبعت بها قصة منظومة نظماً رائعاً وبذلك اجتمعت في الكتاب مقطوعات تؤلف ديواناً صغيراً للأطفال

والحق أن ذلك الكتاب ، بنبل موضوعه ، وحسن أسلوبه ، وأناقة طبعه ، تحفة رائعة ، تناصرت على تزيينها قُوَى عاملة من المؤلف والناشر كليهما

***

الحرب والمرض

بحث احصائي طريف

قيل ان قتلى الحرب العالمية بلغوا عشرة ملايين نفس . ولكن الباحثين ورجال الاحصاء يذهبون الى ان الحرب العالمية لم تنته في ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ بل عندهم ان الثورة الروسية والحرب التركية اليونانية ذيلان من ذيولها . فالحرب الاهلية والانقلاب في روسيا افضيا الى مساعي فرنجل ودنيكين وكولشاك وغيرهم من الروس البيض على ما يدعون، لانقاذ روسية من براثن البلاشفة . ثم هناك الحرب الروسية البولونية التي انتهت سنة ١٩٢٠ « بقيادة الفرنسويين وشجاعة البولونيين »

ويقدر قتلى هذه الحروب بنحو ثلاثة ملايين ونصف مليون نسمة . تضاف الى الملايين العشرة الذين قتلوا في الحرب العالمية

والمرض يصحب الحرب دائماً . فالهواء الاصفر صحب حرب القريم والحرب البروسية النمسوية وسار في اثرها . وصحب مرض الجدري الحربَ الفرنسية البروسية فمات به ٢٧٠ الفاً من الناس . ولم تشذ الحرب العالمية عن الحروب السابقة . واشهر الامراض التي تفشت فيها وبعدها حمى التيفوس والنزلة المعروفة بالانفلونزا وقد زاد فتك هذين المرضين ضعف الناس جنوداً وغير جنود عن المقاومة ، وضعفهم نشأ عن عسر المعيشة في ايام الحرب . فالذين ماتوا بالانفلونزا يجب ان يحسبوا من قتلى الحرب ، كالجنود والضباط الساقطين في الميدان

وقد عجبنا قبلاً لماذا نعتت الانفلونزا باسنادها الى اسبانيا . ولكن كاتباً في مجلة الفورم الاميركية يقول ان اقلام المراقبة في دول الحلفاء منعت اولاً تسرب اخبار الانفلونزا الى الجماهير لئلاَّ يفتّ نبأ المرض وتفشيه في عضدها . ولم يذع نبأ هذه الوافدة الاَّ لما تخطت في فتكها البلدان المحاربة الى البلدان المحايدة فبدأت عندئذٍ انباء تفشيها تتسرب الى الخارج . ولما كانت اسبانيا من البلدان المحايدة التي اصيبت بها شر اصابة ، كانت الانباء الاولى التي اذيعت عنها في العالم مقرونة بذكر ضحاياها العديدين في اسبانيا . فقيل الانفلونزا الاسبانية مع ان هذا المرض لم ينشأ في اسبانيا

وقد بلغ عدد الذين ماتوا في الولايات المتحدة الاميركية بالانفلونزا ٦٠٠ الف نسمة . وهذا احصاء يعتمد عليه . ويقال ان عدد الذين ذهبوا ضحيتها في المكسيك ٤٠٠ الف نسمة وهو تقدير تقريبي . اما بلدان جنوب

اميركا فقد اصيبت بها اصابة شديدة ، حتى ليسع الباحث ان يقول ان عدد الذين ماتوا بها في قارتي اميركا الشمالية واميركا الجنوبية بلغ ١٥٠٠ر٠٠٠ نسمة

وبلغ عـدد الذين ماتوا بها في اوربا ٢٥٠٠ر٠٠٠ نسمة وفي افريقيا مليون (وقد كان القطر المصري من البلدان التي اصيبت بها شر اصابة) . اما عدد ضحاياها في بلدان آسيا فلا يكاد يصدق . فقد قـدرت وزارة الصحة العمومية في بريطانيا عدد الذين ماتوا بها في الهند بثمانيـة ملايين نسمة وخسرت بها اليابان ٢٥٠ الفاً وايران ٢٠٠ الف وجزائر الفيلبين ٨٥ الفاً فمجموع ما خسرتهُ بها آسيا يكاد يكون عشرة ملايين . اما مجموع الخسارة في القارات المختلفة فكما يلي :

آسيا	١٠ر٠٠٠ر٠٠٠
اميركا الشمالية والجنوبية	١ر٥٠٠ر٠٠٠
اوربا	٢ر٥٠٠ر٠٠٠
افريقية	١ر٠٠٠ر٠٠٠

ومن الامراض التي حصدت كثيرين مرض السل. فقد زاد متوسط الوفيات بهِ بعيد نشوب الحرب . ولما اشتدت حرب الغواصات بلغ متوسط الوفيات بهِ مبلغاً عظيماً سببهُ سوء التغذية في البلدان المحاربة

ففي سنة ١٩١٨ كان متوسط الوفيات بهِ في فرنسا ١٠ في المائة اعلى من المتوسط السنوي قبيل الحرب وفي انكلترا ٢٥ في المائة وفي ايطاليا ٤٤ في المائة . ولكن زيادة الوفيات بهِ بلغت اقصاها في اوربا الوسطى . ففي تشكوسلوفاكيا زادت ٣٤ في المائة عما كانت عليهِ قبيل الحرب وفي المانيا ٦١ في المائة وفي النمسا ٦٧ في المائة . وقد زاد عدد وفيات السل في المانيا خـلال سنوات الحرب ١٦٠ الفاً على عدد وفياته في سنة ١٩١٣ و١٤٠ الفاً من هؤلاء كانوا من غير الجنود

وكما زادت وفيات السل في الحرب عما كانت عليهِ قبلها زادت كذلك الوفيات بالامراض الاخرى. وهذا يصدق على جميع البلدان المحاربة. ولكن احصاءات ايطاليا يصح ان تتخذ مثالاً فقد زاد عدد الوفيات بالسكتة القلبية فيها من ٣٥ الفاً في السنة الى ٤٤ الفاً . والوفيات بالانيميا من ١٠ آلاف في السنة الى ١٥ الفاً. وبالامراض المعوية من ١٦٠ الفاً في السنة الى ٩٣ الفاً . وبالتهاب الرئة والتهاب الرئة الشعبي من ٧١ الفاً في السنة ١٧٨ الفاً وبالتيفوئيد من ٧ آلاف الى ١١ الفاً وهكذا

ولم ينحصر أثر هذه الامراض في البلدان المحاربة بل تعدَّاه الى البلدان المحايدة لان حالة معيشتها من الوجهة الصحية لم تكن تختلف كثيراً عن حالة البلدان المحاربة . وقد عكف الاستاذ هرش احد اساتذة جامعة جنيف على درس هذه الناحية من الموضوع درساً احصائيًّا فوجد ان زيادة عدد الوفيات في اسبانيا خلال الحرب على عددها قبل الحرب بلغ ٥٣٠ الف وفاة

فاذا جمعت هذه الارقام وجدنا ان نحو ٢٧ مليوناً من غير المحاربين ماتوا خلال الحرب الكبرى بسببها . فاذا اضيف هذا الرقم الى عدد ضحاياها في الميدان بلغا ٤١ مليوناً من الناس

عود الى البلون

والبلون الالماني الجديد

بعد النكبة التي أصابت البلون البريطاني ر ١٠١ باصطدامه باكمة قرب بوفيه سنة ١٩٢٩ فقدت بريطانيا الثقة التي كانت قد عقدتها على البلونات كوسيلة من وسائل السفر الجوي بين بلدان الامبراطورية . وقد خسرت بريطانيا في تلك النكبة لورد طمسن والسر سفتن برانكر فخسرت رجلين كانا في مقدمة الداعين فيها الى استعمال البلونات في المواصلات الامبراطورية

وقد أصيبت الولايات المتحدة الاميركية بغير نكبة واحدة في بلوناتها الكبيرة . فاصيب اولاً البلون شننددوى ثم اصيب البلون اكرون ولكن ذلك لم يقعد الاميركيين عن المضي في بناء البلونات . ففي يناير من هذه السنة قررت لجنة الطيران الاميركية انشاء محطة للمباحث وتجربة التجارب الخاصة باستعمال البلونات للنقل بين اميركا واوربا تغلبا على منافسة السفن البحرية الجديدة . فلما حدثت نكبة البلون الاميركي «ماكون» في فبراير أي بعيد ما اتخذت اللجنة قرارها المتقدم جاءت تلك النكبة عائقاً في سبيل استعمال البلونات أو بنائها في لميركا

وقد ثبت حتى الآن ان الالمان فقط نجحوا في استعمال البلونات وسيلة صالحة للنقل والانتقال على مسافات بعيدة . وقد بلغ من نجاح التجربة بالبلون المشهور المعروف باسم غراف تسبلن ، ان عمدوا مؤخراً الى بناء بلون جديد دعي باسم (LZ ١٢٩) وينتظر أن يقوم برحلته في الشهر القادم فيكون حينئذ اكبر بلون بني حتى الآن

وارتقاء البلون مقترن باسم رجلين المانيين كان لهما اكبر شأن في ارتقائه . نعني الكونت تسبلن والدكتور هوغو اكنر

أما الاول فهو الصائغ الصناع وقد مضى على مصنعه خمس وثلاثون سنة وهو يصنع بلونات بلا توقف . وأما الثاني فهو الربان البارع الذي سار بالبلون غراف تسبلن في الشرق والغرب في الشمال والجنوب ، فوق البحار الشاسعة وفوق الجبال الشاهقة وفوق الفيافي المقفرة . وطوق الارض وعبر المحيط الاطلنطي حتى الآن سبعين مرة ناقلاً في كل مرة ركاباً وبريداً

رحل البلون غراف تسبلن رحلته الاولى سنة ١٩٢٨ وكانت من مدينة فريدر كسهافن بالمانيا الى مطار ليكهورست بنيوجرزي في الولايات المتحدة الاميركية . وقد انقضت عليه ست سنوات وهو ينقل الركاب والبريد بين بلدان الارض وفي السنوات الاخيرة كان يطير بين المانيا وجنوب اميركا طيراناً منتظماً

فمجرد الساعه لاربع وعشرين من الركاب يقطعون ألوف الاميال في راحة ورفاهة ، ومقدرته على قطع المحيط سبعين مرة من غير حادث يحدث له الاَّ في رحلته الاولى — دليل

على إن السفر بالبلون امر عملي يمكن الاعتماد عليه — كالسفر بالسفن والقطارات ولكن على شرط واحد وهو حسن قيادته

والبلون الالماني الجديد (LZ ١٢٩) يتسع كيسه لسبعة ملايين قدم من الغاز أي انهُ يفوق البلون الانكليزي المنكود (ر ١٠١) خمسين في المائة حجماً . وقوة محركاته ٤٤٠٠ حصان وتدار بالزيت الخام ويستطيع أن يقطع ثمانية آلاف (٨٠٠٠) ميل من دون أن يحتاج الى الوقود. طوله ٨١٠ أقدام وقطره ١٣٤ قدماً ويبلغ عدد ملاحيه ٣٥ ملاحاً ويتسع لخمسين راكباً وينتظر ان يملأ كيسه بغاز الهليوم وهو غاز غير قابل للالتهاب كغاز الايدروجين الذي ملىء بهِ كيس البلون غراف تسبلن وكيس البلون (ر ١٠١)

من المتعذر على بلون واحد يقطع مسافة طويلة بين بلادين ان يعود على اصحابه بربح ولو كان ربحاً يسيراً . ولكن اذا كثر عدد البلونات قلت نفقات البلون الواحد ، سواء في صنعه أو في الترتيبات اللازمة له في المدن التي يبغي أن ينزل فيها

لذلك يقترح الدكتور اكنر صنع اربعة بلونات كبيرة تمتد خطوطها بين المانيا وريو جانيرو بالبرازيل . وبين الولايات المتحدة الاميركية وجزائر الهند الشرقية . وثمت خط ثالث يقترح انشاءه وهو مثلث الشكل يمتد بين اوربا واميركا الشمالية واميركا الجنوبية. وينتظر ان يقترح كذلك خطاً رابعاً يمتد بين اوربا والهند وجزائر الهند الشرقية

وقد تمَّ الاتفاق على ان يسير البلون الالماني الجديد سيراً منتظماً مرة كل اسبوعين بين المانيا والولايات المتحدة الاميركية فينزل أما في ليكهرست بنيو جرزي الى الجنوب من نيويورك أو في مدينة ميامي وهي المشتى المشهور في فلوريدا . وتستغرق هذه الرحلة خمسين ساعة واجرتها ستون جنيهاً ، وهي لا تزيد كثيراً على اجرة السفن التي من الطبقة الاولى بين اوربا واميركا

وقد اتفقت الحكومتان الالمانية والاسبانية على انشاء خط آخر بين برلين وبرشلونة واشبيلية على ان يكون من حق البلونات التي تسير في هذا الخط ان تتم الرحلة الى اميركا الجنوبية

فاذا تحقق جانب من الخطط الالمانية التي اشرنا اليها كان ذلك باعثاً جديداً يحفز سائر البلدان وبوجه خاص اميركا وبريطانيا لتجديد عنايتهما بالبلون

تقاليد زوجية قديمة

يقول الباحث الاثري الشاب جون الكسندر ان رسائل النساء البابليات اعسر حلاً من رسائل البابليين ولكنها ابعث على الدهشة . فقد وجد رسالة قديمة لسيدة بابلية ، تدل على انها اتمت صفقة زوجية لزوجها بشراء زوجة ثانية له، ذلك انها اتخذت فتاة شقيقة لها ثم قدمتها الى زوجها كزوجة ثانية ولكنها اشترطت انهُ اذا قرر زوجها ان يطلقها — ي الزوجة الاولى — فلها ان تأخذ معها كل ممتلكات الزوجة الثانية. اما اذا اشتدت غيرتها هي ورغبت في ان تترك زوجها فليس لها ان تأخذ معها شيئاً

العنب والذباب والحرارة

من المعروف عند علماء الحشرات ان بعض الآفات الحشرية التي تصيب النباتات المختلفة تنتقل في الغالب مع شحنات الثمار المختلفة كشحنات البرتقال والتفاح والكمثرى والعنب وغيرها . ومن هنا نفهم دقة القوانين التي تحول دون استيراد اصناف معينة من الفواكه من بلدان مصابة بالآفات الى بلدان غير مصابة بها

وقد كان العنب الذي يجنى من كروم اميركا الجنوبية من الفواكه المحظور استيرادها الى اميركا الشمالية أي الولايات المتحدة الاميركية ولكن اكتشافاً علميًّا حديثاً يمكن الآن اصحاب الكروم الجنوبية من تصدير عنبهم الى اميركا الشمالية

وخلاصة الحكاية انهُ في سنة ١٩٢٨ ارسل الدكتور داربي وزوجته وكلاهما من علماء الحشرات الاميركية الى بلاد المكسيك ليبحثا عن أفضل الطرق لمكافحة ذبابة الفاكهة المكسيكية وهي من الآفات التي يخشى شرها كثيراً في اميركا وخصوصاً في المناطق المشهورة ببساتين الفاكهة

وبعد البحث والامتحان وجد الدكتور داربي وزوجته ان هذه الحشرة شديدة الاحساس بفعل الحرارة وان حرارة من درجة ١١٢ فارنهيت (نحو ٤٥ سنتغراد) تكفي لقتلها

وما كاد هذا الاكتشاف يذاع ، حتى سطت ذبابة الفاكهة المعروفة في مناطق البرتقال باسبانيا ، على بساتين فلوريدا ، فخشيت وزارة الزراعة الاميركية شرها وعمدت الى تطبيق اكتشاف داربي وزوجته فوجدت ان الحرارة التي تقتل ذبابة الفاكهة المكسيكية تقتل كذلك ذبابة الفاكهة الاسبانية . وان هذه الحرارة نفسها لا تضر بالفاكهة . واذن صار في الامكان معالجة الفواكه المعرضة لهاتين الآفتين بالحرارة فتصبح صالحة للتصدير من مواطنها

الحمى وأشعة اكس

وجدت طائفة من الاطباء الباحثين في مستشفى رتشستر التذكاري بولاية نيويورك ان استعمال الحمى يتخللها العلاج باشعة اكس قد يكون علاجاً ناجعاً للسرطان

وقد قصرت التجارب الاولى بهذا العلاج على نوع من السرطان يصيب الارانب فاستعماله في السرطان الذي يصيب البشر قد لا يكون ممكنا قبل التوسع في تجربة هذا العلاج بانواع السرطان التي تصيب مختلف الحيوانات . فقد وجد احد هؤلاء الاطباء واسمهُ الدكتور ورن ان الحمى العالية تقتل الخلايا السرطانية خارج الجسم في مدة معينة ثم وجد كذلك ان الحمى العالية تقتل الخلايا السرطانية داخل الجسم ولكن في ٢٥ في المائة من الاصابات فقط . ووجد ان استعمال اشعة اكس يسفر عن قتل الخلايا السرطانية داخل الجسم في ٤٢ في المائة من الاصابات . فلما جمع بين استعمال الحمى واستعمال اشعة اكس ثبت لهُ ان هذا العلاج المزدوج يقتل الخلايا السرطانية داخل الجسم في ٨٤ في المائة من الاصابات

التنويم المغنطيسي والجوع او الشبع

من الامور المعروفة ان المنوم المغنطيسي يستطيع ان يقنع من ينومهم بأنهم جياع فيحسون بالجوع او انهم شباع فيشعرون بالشبع او التخمة . وكان الرأي حتى الآن ان هـذا الاحساس انما هو احساس نفسي فقط لا يؤثر في اعضاء الهضم نفسها . ولكن ثلاثة من علماء الجمعية الفسيولوجية الاميركية اجروا تجارب ثبت لهم منها ان الحالة النفسية التي يخلقها المنوم المغنطيسي تؤثر في الجهاز الهضمي

فقد اخذوا رجلاً في الرابعة والثلاثين من العمر ونوم تنويماً مغنطيسيًّا بعد صوم دام من ١٨ الى ٢٠ ساعة ثم اوحى اليهِ المنوم انهُ اكل وشبع فظهر في حركة اعضاء الهضم ما يظهر فيها عند الشبع الحقيقي وكانت قبل هذا الايحاء تتحرك الحـركة التي تصاحب الشعور بالجوع الشديد

زيت الزيتون ووزن الاطفال

انقذ الاطباء في بلطمور عشرين طفلاً من الموت جوعاً بحقن زيت الزيتون في عروقهم . لم يكن سبب جوع الاطفال قلة الغـذاء ولكن اضطراب اجهزتهم الهضمية حال دون انتفاعهم بالغذاء يتناولونهُ عن طريق الفم

اخذ زيت الزيتون ومزج بمادة اللسيثين المستخرجة من صفار البيض ثم عولج المزيج تحت ضغط عظيم ، لتفتيت كريات الزيت الـكبيرة وتحويلها الى كريات صغيرة يسهل مرورها في انابيب الدم الشعرية في الرئتين ثم عقم المزيج وحقن في الاوردة

ومضى الاطباء اسبوعاً يحقنون كل يوم كل طفل من هؤلاء بحقنة من هذا المزيج تحتوي على مقدار من الدهن يساوي مقدار الدهن الذي يتناوله الطفل من غذائه المألوف لو كان يستطيع تناوله . وبعد الحقنة الثانية ظهرت على الاطفال دلائل زيادة الوزن

فحقن الزيت والدهن في الاوردة مباشرة اسلوب جديد من اساليب الطب ويمكن استعماله في حالات اخرى غير حالة اضطراب الجهاز الهضمي عندما يتعذر على المريض تناول الطعام . ونحن نقول انهُ قد يصاب المرء باضطراب عصبي في جهازه الهضمي يحول بينهُ وبين الطعام حتى اذا تناول قطرة من الماء تهيجت المعدة وحملته على القيء . ونعرف من اصيب بهذا فضعف وهزل . فحقنه بحقنة من هذا القبيل تمكن الاطباء المعالجين من الاحتفاظ بقوته في خلال المعالجة

تغريد الـكنار

تغريد الـكنار من ارخم ما يسمع من تغريد الطيور . وكان يقال ان الـكنار الصغير يتعلم التغريد من الـكنار الـكبير . ولـكن طائفة من علماء جامعة كاليفورنيا الجنوبية أثبتت ما هو عكس ذلك . فقد أخذت اثنتي عشرة بيضة كنار ملقحة ووضعتها في اقفاص لا يخترق الصوت جدرانها ، ففقس البيض وربيت الصغار فيها ، فلما ترعرعت ظهرت فيها المقدرة على التغريد

السلولوز وثفل قصب السكر

كل ما يتعلق باستعمال الثفل المتبقي من قصب السكر بعد استخراج السكر منهُ يهمنا وهذا الثفل هو الالياف المقطعة المتبقية من القصب بعد عصره . وقد بلغ مقدار الثفل المتبقي في مصانع السكر بولاية لوزيانا الاميركية نصف مليون طن في السنة . وفي مصانع بورتو ريكو مليوني طن في السنة . ولا نعلم ما وزن الثفل المتبقى في مصانع السكر في القطر المصري كل سنة

وكانت العادة قد جرت على استعمال هذا الثفل وقوداً في مصانع السكر نفسها . ولكنهُ لا يصلح كثيراً للوقود . فطن من الثفل الاخضر يحل محل برميل من النفط الخام أو الزيت الوسخ . وثمن هذا البرميل الآن يختلف من ريال الى ريال وربع ريال في اميركا . فقيمة الثفل من حيث هو وقود ليست كبيرة

وقد استعمل بعض الثفل في صنع الواح عازلة ولكن هذه الصناعة لا تستنفد منه الاَّ قدراً يختلف من ٢٠ في المائة الى ٢٥ في المائة ثم جرّب بعضهم ان يستعمله في صناعة الورق فثبت بعد التجربة أن الياف قصب السكر لا تصلح لذلك

ولكن في خلال الخمس عشرة سنة الاخيرة زاد الطلب على السلولوز (المادة الخشبية في النبات) ليستعمل في مطالب منوعة غير صناعة الورق . ففي خلال هذه المدة نشأت صناعة الحرير الصناعي وما يتصل بها مثل صناعة السلوفان . وقد كان ما تصنعه الولايات المتحدة الاميركية من الحرير الصناعي سنة ١٩٢٠ يسيراً لا يذكر ولكن بلغ ما يصنع منه فيها سنة ١٩٣٤ ما وزنهُ ٢٠٨ ملايين رطل . وما صنع من الحرير الصناعي في مختلف بلدان العالم بلغ وزنهُ ٧٣٥ مليون رطل في السنة الماضية . والفروع التي تفرعت على صناعة الحرير الصناعي او اتصلت بها تقتضي استعمال مقادير كبيرة من السلولوز لا يمكن تقديرها الآن ، وبعد ما رأيناه من سرعة الزيادة فيما ينفق من السلولوز في صناعة الحرير الصناعي

***

وقد دلت تجارب محطة المباحث التابعة لمكتب الكيمياء والتربية بوزارة الزراعة الاميركية انهُ يمكن تحويل ثفل قصب السكر الى سلولوز صالح لهذه الصناعات فيستعمل الحامض النتريك المخفف في تحويل الثفل الى رب . ولا يخفى ان امكان استعمال الحامض النتريك يجعل هذا التحويل عملاً اقتصاديًّا لأن هذا الحامض رخيص لامكان صنعهِ من الامونيا والامونيا يسهل الآن صنعها من الهواء المباح لكل انسان

ويقال ان السلولوز الذي حضر من ثفل قصب السكر يجاري أفضل انواع السلولوز المستعمل في مصانع الحرير الصناعي . ونفقات تحضيره أقل من نفقات السلولوز المماثل له الذي كان مستعملاً حتى الآن

فيتامين جديد والبول السكري

في الاجتماع السنوي الاخير الذي عقدته الجمعية الاميركية الطبية والجمعية الكندية الطبية ، بسط الدكتور بست احد الذين اشتركوا في اكتشاف الانسولين (علاج البول السكري) نتائج بحثه في فيتامين جديد قال انه لا ندحة عنه لقيام الكبد بعملها قياماً سويًّا ولذلك يرجح ان هذا الفيتامين سوف يكون لهُ شأن كبير في حالة الاصابة بالبول السكري

عرفت انواع الفيتامين التي كشفت حتى الآن بحروف الابجدية الفرنجية فمنه فيتامين A وفيتامين B وفيتامين C وفيتامين D الخ . اما هذا الفيتامين الجديد فقد اطلق عليه اسم لاحرف وهو يعرف باسم كولين Choline ويوجد في كثير من مواد الغذاء ولكنه كثير في اللحم ومح (صفار) البيض و الخميرة

لم يغتصب الدكتور بست فخر اكتشافه اغتصاباً بل صرح في رسالته ان جانباً كبيراً من المشاهدات الدقيقة التي افضت الى اكتشافه قام بها الدكتور هرش والمس هنتسمن وكذلك يعترف اهل العلم الصحيح بالفضل لذويه

ويقول الدكتور بست ان نقص هذا النوع من الفيتامين يفضي الى تشحم الكبد فتعجز عن صنع السكر او تصريف الصفراء او غير ذلك من الاعمال الحيوية التي يجب ان تعملها . وقد اكتشف هذا الفيتامين في خلال البحث في الانسولين وتجربة التجارب به .

فالكلاب التي سُلت منها الغدة الحلوة (البنكرياس) عجزت عن ان تحيي اكثر من بضعة شهور رغم حقن الانسولين التي تحل محل افراز البنكرياس عادة . فلما غذيت هذه الكلاب بالغدة الحلوة مفرومة علاوة على حقن الانسولين عاشت حياة جديدة

فاقبل الباحثون على الغدة الحلوة يدرسونها من جديد فوجدوا انها تحتوي على مادة الكولين علاوة على الانسولين ومادة هاضمة . ثم ثبت ان الكولين في الحلوة المفرومة هو ما يفيد الكلاب بعد سل هذه الغدة منها

وقد قال الدكتور بست ان الاصابة بالبول السكري (الديابيطس) ليس سببها اصابة الغدة الحلوة دائماً . بل قد تنشأ عن اصابة الكبد وضعفها من ناحية أو شدة فعلها في توليد السكر من النشويات والبروتينات من ناحية اخرى . وقد دلَّت التجارب على أن الكولين لازم لقيام الكبد بوظيفتها قياماً سويًّا ومن هنا صلة هذا الاكتشاف بالبول السكري

فيتامين د والتهاب المفاصل

المعروف عند المشتغلين بعلوم الطب والغذاء ان الفيتامين د يفيد في منع الكساح . وقد قرأنا الآن ان الدكتور ريد الاستاذ بكلية الطب في جامعة الينوي الاميركية قال في رسالة تلاها امام الجمعية الاميركية الفسيولوجية ان هذا الفيتامين نفسه يفيد في معالجة التهاب المفاصل (الفصال) الذي يدعى احياناً باسم الروماتزم

فقد عالج الدكتور ريد وصحبه في الكلية

التي تقدم ذكرها ٧٠ مصاباً من مائة مصاب بالتهاب المفاصل خففت وطأة اصابة بعضهم وشفي البعض الآخر

وقد استعمل هذا الفيتامين في شكل مركز وكانت الجرع كبيرة جداً . فالجرعة المستعملة في حالة الكساح لا تزيد على ثلاثة آلاف وحدة ولكن الدكتور ريد استعمل في حالات التهاب المفاصل جرعاً تحتوي على ثلاثة ملايين وحدة وقد استفاد جميع المصابين بالتهاب المفاصل الاَّ الذين سبب اصابتهم التعقيبة (السيلان)

مرايا المراقب وطلاؤها

المراقب نوعان النوع الكاسر وقد قلَّ استعماله الآن والنوع العاكس وهو النوع السائد في معظم مراصد العالم الكبيرة . فالمرقب العاكس يحتاج الى مرآة مقعرة . وقد كانت مرايا المراقب العاكسة تطلى بالزئبق أو الفضة . ولكن أحد العلماء جرَّب من عهد قريب طلاءها بمعدن الالومنيوم فأسفرت تجربته عن نتائج تبعث على الدهشة اذ زادت قوة المرآة العاكسة وصحب هذه الزيادة نقص في نفقة الطلاء لان الالومنيوم أرخص جداً من الزئبق أو الفضة . وينتظر الآن أن تطلى مرآة المرقب الكبير الذي يبنى باميركا — وقطر عدسته مئتا بوصة أي ضعف قطر العدسة في اكبر مرقب عرف حتى الآن وهو مرقب جبل ولسن بكاليفورنيا — نقول إنهُ ينتظر أن تطلى مرآة المرقب المنتظر بالالومنيوم فيقتصد نحو مائتي الف جنيه في نفقات المرقب وتزيد قدرة مرآته على عكس الاشعة الواقعة عليها

ارتفاع حرارة الهواء في طبقاته العليا

تختلف حرارة الهواء قرب سطح الارض باختلاف الارتفاع عن سطح الارض فتقل حرارته اذا توقلنا جبلاً ولا يخفى ان أعلى الجبال مكللة هاماتها بعمم من الثلج الدائم ويقول الطيارون الذين حلقوا بالطائرات او البلونات الى ما فوق قمم الجبال ان الهواء هناك أبرد منهُ على متن الجبال العالية

فهذه الحقائق حملت الباحثين على الظن ان برد الهواء يزداد بازدياد امعاننا في التحليق

ولكن طرقاً جديدة للبحث دقيقة كل الدقة حملت العلماء على الاعتقاد بان الهواء في طبقاته العليا ليس بارداً كما يظن

وقد نشر الاستاذ ابلتون — وهو من اكبر الثقات المعاصرين في موضوع الامواج اللاسلكية — بحثاً طريفاً من نحو شهرين اقام فيه الدليل على ان حرارة الهواء في يوم من ايام الصيف تبلغ الف درجة مئوية (ميزان سنتغراد) على ارتفاع ثلثمائة كيلو متر

وهذه الحرارة تعني انه اذا استطعنا ان نعلق قطعة من النحاس على هذا العلو حتى تصبح حرارتها كحرارة الجو المحيط بها ، كانت حرارة هذا الجو حينئذٍ كافية لصهرها

واذن فسكان الارض يعيشون داخل كرة من النار لا يمنع اذاها عنا الاَّ طبقات الهواء التي بيننا وبينها

***

ويعود الفضل الاول في هذه الناحية من

البحث الى عالم فرنسوي يدعي تسرنك ده بورت فقد اطلق في سنة ١٨٩٨ بلونات تحمل مقاييس للحرارة وادوات اخرى فدهش لما عادت البلونات وظهر من مقاييس الحرارة فيها ان حرارة الهواء فوق باريس ظلت تهبط حتى بلغ البلون الى علو سبعة اميال ثم وقفت الحرارة عن الهبوط . فانكر معظم الطبيعيين ذلك اولاً ثم وجد علماء الظواهر الجوية ان الارتفاع الذي تقف عنده حرارة الهواء عن الهبوط اقرب الى القطبين منه الى سطح الارض عند خط الاستواء

ولكنهم مع ذلك ظلوا عاجزين عن تعليل هذه الظاهرة تعليلاً مقبولاً

***

وظل الرأي بعد اكتشاف ده بورت ان حرارة الجو فوق ذلك الارتفاع المعين — وهو ١١ ميلاً فوق خط الاستواء واقل من سبعة اميال فوق القطبين — تظل ثابتة لا تتغير . ولكن في سنة ١٩٢٢ تبين للعالمين لندمان ودوبيس من مراقبة الشهب ودرجات اشراقها ان حرارة الهواء تأخذ في الارتفاع على ٣٧ ميلاً (او نحو ستين كيلو متراً) فوق سطح الارض

الحلوي والعمل العقلي

في بعض الاعلانات الاميركية والانكليزية البارعة عن اصناف السجاير المشهورة عبارة مؤداها «مد يدك وخذ سيجارة» أما «رسالة العلم الاسبوعية» فتقول ان هذه العبارة تكون في محلها اذا كنت ممن يبغون النحافة ولكن اذا كنت ممن يتحتم عليهم القيام بأعمال عقلية جاهدة فيجب ان تمد يدك وتأخذ قطعة من الحلوى

ذلك ان التجارب قد اثبتت ان طاقة الدماغ على التفكير مستمدة من السكر المعروف باسم غلوكوز . وهذه النتيجة قد توصل اليها العالمان الاميركيان همتش وفازيكاس من علماء جامعة يايل وبعثا بهما في رسالة الى الجمعية الفسيولوجية الاميركية

والدماغ يتناول السكر من الدم ثم يحله الى مركبات كيمائية بسيطة ويحرق الحامض اللبنيك المتولد منه فيستمد من حرقه طاقة ونشاطاً كما تستمد القاطرة طاقتها من حرق الفحم وتوليد البخار . وقد وجد همتش وصاحبه صدفة واتفاقاً انه اذا كان في اناء ما قطعة من نسيج الدماغ وكان في الاناء نفسه قليل من النيكوتين وهو المادة الفعالة في التبغ ، تعذر على نسيج الدماغ ان يحرق الحامض اللبنيك ، ولكن النيكوتين الذي يصل الى الدماغ من تدخين سيجارة اقل من ان يؤثر في مقدرة الدماغ على حرق الحامض اللبنيك

***

وعلى ذكر النيكوتين نقول اننا قرأنا في رسالة العلم الاسبوعية نفسها ان جماعة من علماء جامعة كورنل الاميركية يقولون ان التسمم بالنيكوتين يوقف التنفس لان اطراف الاعصاب في عضلات جهاز التنفس تشل عن العمل وقد كان الرأي قبلا ان النيكوتين يشل مركز التنفس في الدماغ . والفرق بين الاثنين واضح

تقدم الاختراع وسرعته

في سنة ١٨٣٦ اي من تسع وتسعين سنة اخرج قسم « الباتنته » في الحكومة الاميركية الامتياز الاول لاختراع جديد طلب منها تسجيله فيها . وفي ٣٠ ابريل سنة ١٩٣٥ منح هذا القسم امتيازاً لمهندس في شركة يد الصناعية فكان رقم امتيازه ٠٠٠ر٢٠٠٠ وسيرة هذا المهندس نفسه تدلك على سرعة التقدم في الاختراع . ففي سنة ١٨٩٩ استخرج هذا المهندس امتيازاً فكان رقمه ٦٣٨٦٤٣ أي ان ٣٦ سنة انقضت بين ١٨٣٦و١٨٩٩ سجل في خلالها ست مائه الف اختراع ولكن في المدة الثانية أي من ١٨٩٩ الى ١٩٣٥ (٣٦ سنة) فقد سجل نحو ١٣٠٠٠٠٠ اختراع او ما يزيد على ضعفي ما سجل في المدة الاولى

علاج لدوار الجو والطيران

يقول المشتغلون بعلوم الطب ان الدوار الذي يصاب به بعض الذين يستقلون الطائرات للسفر سببه حالة تدعى زيادة التهوية أو التهوية الزائدة (وقد اقترح بعضهم لفظ الترويح بدلاً من لفظ التهوية). فالمسافر يكثر في هذه الحالة من زفر ثاني اكسيد الكربون فيصاب بالدوار والعلاج يقوم بتجهيز المسافر بوسيلة تمكنهُ من استنشاق قدر من ثاني اكسيد الكربون ويتم ذلك باعطائه كيساً من الورق يتنفس فيه فيزفر فيه هذا الغاز ثم يعود فيستنشقه فيزول هذا الدوار . وقد يفيد في علاج هذه الحالة الامساك عن التنفس مدة ١٥ ثانية . وتقول المجلات العلمية التي اطلعنا عليها ان هذه الطريقة افيد على ما يظهر من بعض أنواع العلاج التي ذكرت حتى الآن لانها تعالج السبب

بذ الراديوم بأشعة صناعية

كان الاعتماد حتى الآن في معالجة السرطان بالاشعة على اشعة غما المنطلقة من الراديوم . ولكن طائفة من العلماء في معهد كاليفورنيا التكنولوجي الذي يرأسهُ العلامة ملكن كتبوا رسالة في المجلة الطبيعية الاميركية يقولون فيها انهم ولدوا اشعة غما في المعمل تفوق قوة اختراقها للاجسام نحو ستة اضعاف قوة اشعة غما المنطلقة من الراديوم فطاقة اشعة غما المولدة في المعمل تبلغ ١٦ مليون فولط حالة ان طاقة اشعة غما المنطلقة من الراديوم لا تزيد على ٠٠٠ر٦٠٠ر٢ فولط

فاذا صح ما نقلناه وكانت نفقة توليد هذه الاشعة غير كبيرة فلا بد من ان يهبط سعر الراديوم ويشيع استعمال هذه الاشعة المولدة في المستشفيات لمعالجة السرطان

القوة المحركة في السفن الكبيرة

تقدر قوة المحركات الكهربائية في السفينة الفرنسوية « نورماندي » بمئة وستين الف حصان . فهي تفوق في هذا الصدد جميع السفن التجارية والحربية الا سفينتين وهاتان السفينتان هما حاملتا الطائرات في الاسطول الاميركي وقوة كل منهما ١٨٠ الف حصان وتدعيان « لكسنغتن » و« سراتوغا »

الجزء الثالث من المجلد السابع والثمانين

صفحة

٢٦٥ الغدد والشخصية

٢٧٠ حكمة جوته : بقلم عبد الرحمن صدقي

٢٧٥ مجمع اللغة العربية الملكي : للاب انستاس الكرملي

٢٨٣ النظام الادبي بين الحيوانات

٢٨٥ أسلحة الجيش المصري : لعبد الرحمن زكي : (مصوّرة)

٢٩٤ البنفسجة : لخليل شيبوب : (قصيدة)

٢٩٥ سطور زرق : لراجي الراعي

٣٠١ الدين والثقافة الحاضرة : للدكتور عبد الرحمن شهبندر

٣٠٩ ما بين الذهن الالماني والذهن الفرنسي : للدكتور بشر فارس

٣١١ النباتات المصرية القديمة : للدكتور حسن كمال

٣١٥ تجارب عجيبة بأشعة تعطل وتميت

٣١٧ السيد محمد رشيد رضا : بقلم الشيخ احمد محمد شاكر (مصوّرة)

٣٢٤ مفردات النبات : لمحمود مصطفى الدمياطي

٣٢٩ التفاؤل والتشاؤم : لرسلان عبد الغني البنبي

٣٣٧ العبقرية العلمية وحداثة السن

٣٤٣ الغدد والفيتامين : لعوض جندي

---

٣٤٧ باب سير الزمان — الدستور السوفياتي الاشتراكي : للأستاذ وليم بنت مونرو : حول المشكلة الايطالية الحبشية : المستعمرات والموارد الاقتصادية : نظام العقوبات : القتال والموقف الدولي

٣٦٣ حديقة المقتطف — السباق : الجوع : الحائك — لميخائيل نعيمة : الوالد قصة لبيورنستيرن بيورنسون

٣٦٩ مكتبة المقتطف * المعجم الفلكي : نبات سورية وفلسطين : شهر في اوربا : الجامع المختصر في عنوان التاريخ وعيون السير (الجزء التاسع) : الشاعر العراقي جميل صدقي الزهاوي : مكتبة الاطفال الحديثة كتاب الاساس : قصص علمية

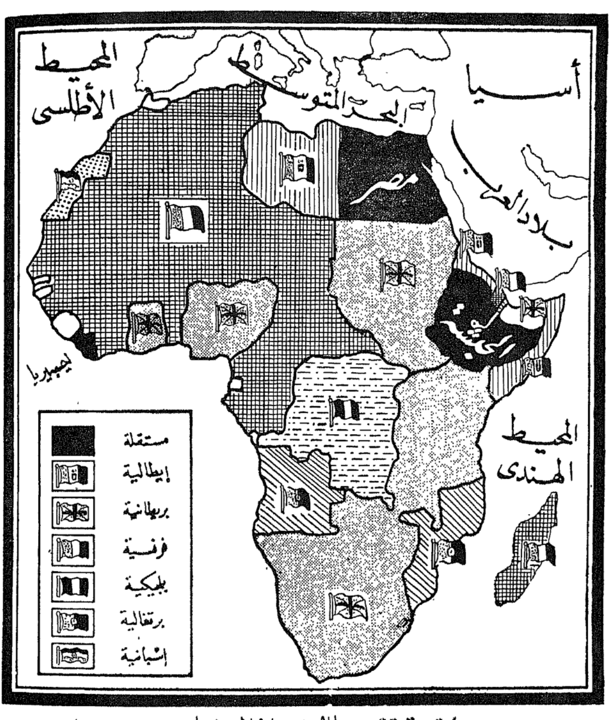
٣٨١ الاخبار العلمية * الحرب والمرض : عود الى البلون : تقاليد زوجية قديمة : العنب والذباب والحرارة الحمى واشعة اكس : زيت الزيتون ووزن الاطفال : تغريد الكنار : السلولوز وثقل قصب السكر : فيتامين جديد والبول السكري : فيتامين د والتهاب المفاصل : الحلوى والعمل العقلي : مرايا المراقب وطلاؤها : ارتفاع حرارة الهواء في طبقاته العليا : تقدم الاختراع وسرعته : علاج لدوار الجو والطيران : بذ الراديوم : القوة المحركة

قائمة سلسلة المطبوعات العصرية

التي ... ادارة المطبعة العصرية» بشارع الخليج الناصري رقم ٦ بالفجالة بمصر

ص
٣٥ القامو ... ي،ربي (طبعة ثانية)
٧٠ « (طبعة ثالثة)
٧٠ « كليزي (طبعة ثانية)
٣٥ « نكليزي وبالعكس
٣٠ قاموس ا. بزي وبالعكس
٢٠ « زي فقط
١٥ « ي فقط
٧٠ « سقراد كليزي (باللفظ)
٥٠ « « ربى (باللفظ)
١٠٠ « « « وبالعكس
١٠ التحفة المصرية بزية (مطول)
١٢ الهدية السنية لط زية (باللفظ)
١٠ الف كلمة الماني بسهولة)
١٥ في اوقات الفر ... هيكل بك)
١٠ عشرة ا ... «
١٢ مرا ... اس العقاد
١٥ ...) وترجمة
عادل زعيتر)
« «
سقدات « «
لحقوق الدستورية « «
ارة المصرية (لغوستاف لوبون)
حضارة مصر الحديثة (تأليف كبار رجال مصر)
١ الحركة الاشتراكية (رمسي مكدونلد)
١٥ ملتقى السبيل في مذهب النشوء والارتقاء
٨ اليوم والغد (الاستاذ سلامه موسى)
١٠ مختارات « « «
٨ نظرية التطور وأصل الانسان « «
٢٠ اناتول فرانس في مباذله (للامير شكيب ارسلان
١٥ الدنيا في اميركا (للاستاذ امين بقطر)
١٠ المرأة الحديثة وكيف نسوسها (عبد الله حسين)
١٠ جريمه سلفستر بونار (اناتول فرانس)
٥ المرأة بين الماضي والحاضر
٥ مركز المرأة في شريعتي موسى وحمورابي
١٥ حصاد الهشيم (الاستاذ ابرهيم عبد القادر المازني)
١٠ قبض الريح (« « « « «)
٨ نسمات وزوابع شعر منثور مصور
١٠ رسائل غرام جديدة (سليم عبد الواحد)
١٠ الغربال في الادب العصري (نخائيل نعيمة)
٥ حكايات الاطفال ، اول (مصور بالالوان)
٥ « « ثان « « «
٥ « « ثالث « « «
٥ تذكرة الكاتب طبعة منقحة لاسعد خليل داغر
٢٥ جمهورية افلاطون (للاستاذ حنا خباز)
٦ مراقي النجاح (الارشمندريت بشير)
مريم المجدلية (موريس ميترلنك)

ص
١٠ التربية الاجتماعية (للاستاذ علي فكري
٥ خواطر حمار (للاستاذ الجمل) حميد
٥ التعليم والصحة للدكتور محمد بك عبد ا
١٥ الحب والزواج (للاستاذ نقولا حداد)
١٥ ذكرا وانثى خلقهم « « «
٥٠ علم الاجتماع (جزآن كبيران) « «
١٥ اسرار الحياة الزوجية « «
٣٠ الامراض التناسلية وعلاجها للدكتور فخري
٢٠ المرأة وفلسفة التناسليات « «
٢٠ الضعف التناسلي في الذكور والاناث «
١٥ الزنبقة الحمراء (للاستاذ احمد الصاوي محمد)
١٠ تاييس « « « « «
٥ مكايد الحب في قصور الملوك (اسعد خليل داغر)
١٠ القصص العصرية (٨٠ قصة كبيرة مصورة)
١٠ مسارح الاذهان (٣٥ قصة كبيرة مصورة)
١٢ رواية اهوال الاستبداد ، مصورة
١٠ « فاتنة المهدي ، او استعادة السودان
٨ « الانتقام العذب (اسعد خليل داغر)
٥ « فقر وعفاف (الاستاذ احمد رأفت)
١٢ « باريزيت ، مصورة (توفيق عبد الله)
١٢ « غرام الراهب او الساحرة المجدورة
٧٥ « روكامبول ، ١٧ جزء (طانيوس عبده
٢٥ « ام روكامبول ، ٥ اجزاء «
٢٠ « باردليان ، ٣ اجزاء «
٢٠ « الملكة ايزابو ٤ اجزاء «
٢٠ « الاميرة فوستا ، جزآن «
٢٠ « عشاق فنيسيا ، جزآن «
١٦ « الساحر العظيم ٤ اجزاء «
١٦ « كابيتان ، جزآن «
١٦ « الوصبة الحمراء ، جزآن «
١٦ « بائعة الخبز «
١٢ « فالمبرج ، جزآن «
١٠ « فارس الملك «
١٠ « ضحايا الانتقام «
٨ « المرأة المفترسة «
٥ « المتنكرة الحسناء «
٥ « مروضة الاسود «
٥ « شهداء الاخلاص «
١٦ « دار العجائب جزآن (نقولا رزق الله)
١٠ « فرنسوا الاول « «
١٠ « الجنون فنون « «
٨ « حورية « « «
٨ « الفلامان الطريدان « «
١٢ يسوع ابن الانسان (جبران خليل جبران)
٥ النبي (« « «)
٥ آلهة الارض (« « «)



افريقية وتقسيمها الجغرافى السياسى



١ نوفمبر سنة ١٩٣٥ — ٥ شعبان سنة ١٣٥٤

المتفجرات الحربية

والبحث العلمي

يتأثر تطبيق المعارف العلمية على اساليب الحرب ، برأيين متناقضين . فقواد الجيوش يرغبون بوجهٍ عام عن تغيير الوسائل والقواعد التي جرى عليها كبار القواد من قديم الزمان ، ويحسبون كلَّ اقتراح بتعديلها او تغييرها ، اعتداء على حقوقهم المقدسة . يقابل هذا ، ان الاساليب الجديدة تمنح مستعمليها في الحروب امتيازاً كبيراً على خصومهم ، فلا يلبث هؤلاء الخصوم طويلاً حتى يعمدوا الى وسائل اعدائهم الجديدة . فقد كان الالمان في الحروب الكبرى اول من استعمل الغازات والابخرة السامة ، فاضطرَّ الحلفاء ان يستعملوها مع اعتراضهم عليها وتنديدهم بها . وقد جنت الجيوش البريطانية بوجهٍ خاص فائدة كبيرة من استعمال الدبابات ، مع ان القواد اهملوا ملاءمة الخطط العسكرية لاستعمال هذا السلاح الجديد . ولا ريب في ان عجز الالمان عن مجاراة الحلفاء في استعمال الدبابات كان له اثر غير يسير في خذلانهم . واذن فلا ينكر احد ان الحرب الكبرى كانت باعثاً قويًّا على تشجيع البحث العلمي من ناحية تطبيقه على وسائل الحرب وأساليبها . فالطيران لولا حافز الحرب الكبرى وفائدته فيها لما بلغ الشأو العظيم من الارتقاء الذي بلغه في خلال اربع سنوات من تأجج نيرانها . يضاف الى هذا انهُ اصبح يتعذر على اي كان ان يعين الخط الفاصل بين الصناعات الحربية والصناعات غير الحربية . فغاز الكلور يصلح غازاً سامًّا في الحروب ومع انهُ غاز جليل الفائدة في تعقيم الماء وتطهير الجروح

من اعجب المكتشفات في التاريخ اكتشاف البارود والبندقية . ووجه العجب في اكتشاف البارود انهُ اكتشاف في العلم المطبق . وقد تمَّ في عصرٍ كان العلم فيهِ لا يزال طفلاً مقمطاً في المهد. ولا بدَّ ان سبق البارود اكتشاف طريقة لتنقية ملح البارود (نترات البوتاسيوم) وهو المادة الاساسية فيه واكتشافها عمل كبير اذا اعتبرنا حالة العلم في ذلك العهد . والظاهر ان البارود صنع اولاً في الصين في اوائل القرن الثالث عشر ، ولكنهم استعملوه في الالعاب النارية فقط ، والراجح ان تأثير الالعاب في الحروب كان معنويًّا لا ماديًّا ، اي ان رؤيتها كانت تبهر الاعداء وتخيفهم

اما البندقية فلم تخترع الاَّ في القرن الرابع عشر ، والراجح انها اخترعت في المانيا . ولكن قبل انقضاء حرب المئة سنة (١٣٣٧ — ١٤٥٣) بين فرنسا وانكلترا كان استعمالها قد اصبح عامًّا في غرب اوربا . وقد تقدم صنع البارود وصنع البندقيات جنباً الى جنبٍ لانهُ كان من خرق الرأي ان يعمد صانع البارود الى صنع بارود قوي التفجُّر اذا كانت البندقيات لا تقوى على ان تتحمل ضغط انفجاره

اما استعمال البارود في نسف الصخور وشق المناجم والمحاجر فتأخر كثيراً .فلم يذكر استعمالهُ لهذا الغرض الاَّ في اوائل القرن السابع عشر في بلاد المجر. والظاهر انهُ لم يستعمل في انكلترا الاَّ سنة ١٦٨٩ وذلك في مناجم كورنول. وهذا مما يبعث على الدهشة لان الانكليز استعملوا البارود في لغم الحصون في حصار هونفلور سنة ١٤١٥

ومقدار ما يستعمل من البارود في نسف المناجم والمحاجر يفوق المقادير المستعملة منهُ لجميع الاغراض الاخرى . بل ان صناعة الديناميت تعتمد في حياتها على ما يستعمل منهُ لهذا الغرض

فتاريخ البارود مثال يدلّ على تأثير الحرب في شقها الطريق الى استعمال مادة حربية لاغراض صناعية وتجارية

فاذا نظرنا في ما تمَّ في ميدان المتفجرات والمفرقعات في العصر الحديث ، رأينا أثر الحرب فيها واضحاً كلَّ الوضوح

***

اكتشف قطن البارود في سنة ١٨٤٥ — ١٨٤٦ وكان مكتشفهُ استاذاً للكيمياء في بال يدعى « شوينبين » ، فادرك في الحال قيمة هذه المادة من ناحية تفجّرها ، فاحتفظ بطريقة تركيبها سرًّا وهو يحاول ان يبيعهُ لحكومات مختلفة . فاثبت انهُ اذا فُجّر قطن البارود في بندقية musket فاقت قوة قذفهِ قوة مقدارٍ اكبر جدًّا من البارود . فذهب الى انكلترا وجرّب تجارب مختلفة في مدرسة وولتش الحربية وفي بورتسموث على مرأى من رجال مجمع تقدم العلوم البريطاني . ثم سجّله في دائرة الباتنته وأجّر حقوقهُ لمصنع جون هول وابنائهِ . ولكن في ١٤ يونيو سنة ١٨٤٧ حدث انفجار

هائل في المعمل دكَّهُ من اساسهِ وقتل ٢٩ من رجالهِ . وحدث مثل هذا الانفجار في فرنسا . والظاهر ان مساعي بذلت في النمسا لصنع قطن البارود فكان مصيرها القتل والتدمير . وظلّت الحال كذلك الى ان اكتشف الكيماوي البريطاني فردريك آبل — كيماوي وزارة الحربية البريطانية — طريقةً لجعلهِ مركّباً مستقرّاً وكان ذلك سنة ١٨٦٥

***

كانت التجارب الاولى بقطن البارود متجهة الى الحصول على مادة متفجّرة تصلح للاستعمال في الاسلحة النارية ، ولكن الباحثين كانوا مهووسين بوجوب استعمالها كما يستعمل البارود . فكانوا يسحنونهُ ويضغطونهُ ثم يحولونهُ الى حبيبات دقيقة . فكان مسحوقاً سريع الانفجار تصعب السيطرة عليهِ ، ولكنهم وجدوا انهُ يصلح لبندقيات الرش

اما البارود الذي لا دخان لهُ فاستنبطهُ اولاً الكابتن شولتز احد ضباط المدفعية الالمانية سنة ١٨٦٥ . وفي سنة ١٨٦٨ اكتشف احد مساعدي آبل — وكان اسمهُ برون — ان قطن البارود الجاف يمكن ان يتفجر بالضغط ثم وجد ان لوحة من قطن البارود الرطب يمكن تفجيرها بضغط جزءٍ جافٍ منها . فافضى هذا الاكتشاف الى استعمالهِ في الاعمال العسكرية لان حفظهُ رطباً حال دون تفجّرهِ اتفاقاً . ولا يزال الانكليز يستعملونهُ مع ان الالمان وبعض الدول على البرّ الاوربي احلّت محله مركب « الترينيتولوين » وهو اعنف تفجراً واسهل حفظاً

الاَّ ان بارود شولتز لم يصنع من القطن بل من نترجة nitrating الياف الخشب ، والمادة في كلا القطن والخشب اساسها واحد وهو السلولوس ولكنهما تختلفان قليلاً . وباع حقوقهُ في النمسا لمصنع فولكمن فعكف عليهِ كيماويوهُ وحسَّنوهُ بتفتيت بناء الخشب الليفي بمعالجتهِ بمزيج في الكحول والايثر . وبعد ان مضى هذا المصنع في صنعهِ سنوات حظرت الحكومة النمسوية صنعهُ لانهُ يتعارض مع احتكارها لصنع البارود

ولما حاصر الالمان باريس في سنة ١٨٧٠ دعت الحكومة الكيماوي المشهور مارسلان برتلو لمساعدتها فعكف على دراسة المتفجرات ومقدار ما ينطلق من المواد المتفجرة ، من الحرارة والطاقة عند التفجر . واحتفظت الحكومة بخدماتهِ بعد انتهاء الحرب فأنشأ مصلحة حكومية غرضها البحث في جميع الاختراعات ووجوه التقدم الخاصة بهذا الموضوع وتنظيمها . ومعظم ما يعرف عن المتفجرات يرجع الى مباحثهِ . ومن أهم النتائج التي اسفرت عنها مباحث هذه المصلحة ، اكتشاف ڤيي Vieille في سنة ١٨٨٤ ان قطن البارود يمكن تحويلهُ الى جسم هلامي (جلاتيني) القوام بمعالجتهِ بمزيج من الايثر والكحول فيصبح معجوناً يمكن تحويلهُ الى حبوب او قدد ، ثم يجفف المذيب الكحولي فتبقى مادة قرنيــة ، اذا اشعلت احترقت احتراقاً منتظماً في طبقــات متوازية .

فدعيت هذه المادة « المتفجرة » مسحوق (B) . وحرف (B) هنا يرمز الى الاسم بولانجه Boulanger ولكن لا يعرف على وجه التحقيق هل المقصود بولانجه وزير الحربيــة حينئذٍ او الاناء الذي كان قطن البارود يمزج فيهِ بمحلول الايثر والكحول وكان شائعاً حينئذٍ بين الخبازين . والخبّـاز بالفرنسية « بولانجه » كذلك

وكذلك حلّـت مشكلة تحويل قطن البارود الى بارود لا دخان لهُ يصلح للاستعمال في البندقيات والمدافع . وهذا البارود الجديد يفضل البارود الاسود القديم من وجوهٍ عديدة ، وما كاد يصنع حتى أفضى الى وجوهٍ جديدة من التقدم في الاسلحة نفسها

وبعد بضع سنوات تمّ صنع اصناف البــارود الهــلامي . ففي سنة ١٨٨٨ استنبط الفرد نوبل (صاحب جوائز نوبل المشهورة) مادة البالستيت Ballistite بمزج مقدارين متساويين تقريباً من النتروسلولوس (حيث مقدار النتروجين فيهِ قليل) والنتروغليسرين . وفي السنة نفسها عيّنت الحكومة البريطانية لجنة مؤلفة من السر فردريك آبل (F. Abel) والسر جيمس ديور (J. Dewar) فأسفر بحثها عن اكتشاف مادة الكورديت Cordite وهي مزيج من النتروغليسرين وقطن البارود (حيث مقدار النتروجين فيهِ كبير) وهلام معدني (الفازلين) . وقد جرى الجيش البريطاني والاسطول البريطاني على استعمال هذه المادة من وقتها ، حالة ان الفرنسيين قصروا استعمالهم على مواد لا يدخل النتروغليسرين فيها وتعرف انواع بارودهم ببارود النتروسلولوس . وقد كتبت فصول كثيرة للمقابلة بين مزايا النوعين من دون الوصول الى نتيجة حاسمة في تفضيل الصنف الواحد على الآخر . اما الايطاليون فقد اخذوا بأنواع البارود التي يدخل النتروغليسرين في تركيبها

***

اما في المانيا فصنع دوتنهوفر احد علماء مصنع روتويـل للبارود ، باروداً جديداً من النتروسلولوس بعد تحويلهِ الى هلام بمعالجتهِ بالايثر الخلي Ascetic ether ولكنهُ ظلّ متأثراً بطريقة صنع البارود القديم بخفقهُ وضغطهُ وطحنهُ حبوباً صغيرة

الاّ ان السلطات العسكرية الالمانية ادركت الفائدة العظيمة التي جنتها حكومة فرنسا من البحث العلمي المنتظم في هذا الموضوع فطلبوا الى باحثٍ يدعى « ول » Will وكان اكبر مساعدي الكيماوي هوفمن ان ينشيء للحكومة الالمانية مصلحة للقيام بهذا النوع من البحث . وعنيت صناعة الاسلحة والذخيرة الحربية في الوقت نفسهِ بانشاء فرع للمباحث العلمية في هذا الموضوع ، يدعى (سنترستال) . وكذلك نشأ في المانيا مقرّان لهذا البحث الواحد يقوم على تأييد الحكومة وبنفقاتها والآخر على تأييد مصانع السلاح وبنفقاتها ، فكان لكليهما اكبر شأن في ترقية صنــاعة الاسلحة والذخيرة الحربية في المانيا

وكانت المانيا تختلف عن فرنسا وانكلترا ، في ان الدولة لم تكن تملك مصانع للذخيرة ، فكانت المصانع الخاصة في المانيا مطلقة من القيود حرّة في تجربة التجارب لانشاء اصنافٍ جديدة من المواد المفرقعة بناءً على ما تفضي اليهِ مباحث العلماء المختصين . وقد دلّت مباحثهم وتجاربهم على ان لكل من البارود المصنوع من النتروسلولوس والبارود المصنوع من النتروغلسرين دائرة خاصة يمتاز فيها. فبارود النتروسولولوس اصلح في رأيهم للبنادق ومدافع الميدان المتوسطة ، حالة ان بارود النتروغليسرين اصلح للمدافع الضخمة

فلما نشبت حرب افريقية الجنوبية تبين ان استعمال البارود الجديد يبري باطن المدافع بسرعة فعينت لجنة برآسة لورد راليه للبحث في هذه المشكلة وفي مشكلات اخرى تتعلق بالمواد الحربية المتفجرة . فحاولت اللجنة ان تقنع مصانع السلاح والذخيرة في انكلترا ان تنشيء مركزاً للبحث العلمي على طريقة « السنترستال » الالماني ولما عجزت عن ذلك ، انشأت فرعاً للبحث العلمي في مدرسة وولتش الحربية ، فكان لمباحثهِ شأن عظيم في الحرب الكبرى وبوجهٍ خاص في صناعة الكورديت

***

ومن الاكتشافات التي تستوقف النظر في السنترستال الالماني ، اكتشاف تين Thiene في سنة ١٩٠٦ لما يعرف باسم « سنترالْيت » واسمهُ العلمي « دايفنل–داياثل–يوريا » . فاذا اضيف مقدار يسير من هذا المركّب الى مسحوق النتروغليسرين واندمج المركبان احدها بالآخر بضغط مدَاحٍ حامية ، تحوّل المزيج النتروسلولوس الى هلام من دون استعمال محلول طيّار لذلك الغرض . فيستغني كذلك عن عملية التجفيف بعد الحل ويوفر ذلك الايثر والكحول او ثمن الاستون. ولا يخفى ان قلة الاستون في انكلترا في اثناء الحرب كادت تعرقل عمل الكورديت . ولولا قلة الغليسرين في المانيا في خلال الحرب الكبرى لكان في وسعها ان تصنع مقادير كبيرة من المتفجرات باستعمال السنتراليت. يضاف الى ذلك ان اضافة السنتراليت تجعل البارود اكثر استقراراً في تركيبه الكيماوي لانهُ يتحد بالمواد المنحلة وهي اذا تركت حرّة تقصر عمر البارود

وما لمسناه من الفرق في تحضير اصناف البارود واستعمالها ، نلمسهُ كذلك في المتفجرات العنيفة (ويرمز اليها بالحرفين .H. E اي High Explosives) التي تحشى بها القنابل . على ان هناك فرقاً واحداً في الحالين ، وهو ان الاقوال مختلفة في تفضيل بارود على آخر حالة انه لا اختلاف هناك في تعيين افضل المتفجرات لحشو القنابل

كان البارود يستعمل في حشو القنابل الى اواخر القرن التاسع عشر مع ان سبريغل Spregel كان قد بين سنة ١٨٧٣ ان الحامض البكريك يمكن تفجيره بكبّاس يحتوي على احد املاح الحامض الفولمينيك . ولكن هذا الاكتشاف لم يسفر عن نتيجة عملية حتى بين توربين Turpin سنة ١٨٨٥

اسباب تفضيله على غيره لحشو القنابل لانهُ عنيف فعَّال وفي الوقت نفسه لا يتأثر بالحرارة ولا بالاصطدام اذا قيس بالمواد المتفجرة الاخرى . يضاف الى ذلك ان تحضيره لا يقتضي نفقة كبيرة لانهُ يحضَّر بنترجة الفينول (الحامض الكربوليك) وهو احدى المواد التي يمكن استخراجها من قطران الفحم الحجري . ولذلك عمدت الحكومة الفرنسية الى استعماله باسم مليفيت وتبعتها حكومات الدول الاخرى . فشرع الالمان يستعملونهُ سنة ١٨٨٨ وحذا الانكليز حذوهم حوالي ذلك العهد ولكنهم اطلقوا عليه اسم لديت Lyddite نسبة الى لِدّ Lydd حيث تجري مناورات المدفعية البريطانية

ولكن الالمان لم يرضوا عنهُ كل الرضا . لان درجة ذوبانه عالية فيصعب تذويبه وافراغه في الشكل المطلوب . ثم انهُ يأكل الرصاص وغيره من المواد فتتكوَّن مركبات خطرة . ثم وجدوا ان حوادث تفجره اتفاقاً اكثر مما كان يظن . فوالوا البحث في معهديهم فأسفر سنة ١٩٠٤ عن استعمال مركب الترينيتوتولوين ويرمز اليه عادة بثلاثة حروف .T. N. T وهو يفضل الحامض البكريك من جميع هذه النواحي . ومع ان انكلترا كانت عالمة بتقدُّم هذه المباحث في المانيا ظلَّت لا توليها العناية الوافية حتى نشبت الحرب الكبرى اذ ظهر ان مقدار الفينول اللازم لاعداد « اللديت » غير كافٍ فشرع قسم المباحث في اعداد المعدات لصنع مادة .T. N. T وكانت السرعة التي حوّلت بها المصانع لهذا الغرض سبباً في حدوث انفجارات عديدة أودت بحياة كثيرين . بل ان بعض القنابل المحشوة بمادة .T. N. T المحضَّرة على عجل في انكلترا كانت تنفجر في الميدان وهي في اسطوانات المدافع قبل اطلاقها فتمزقها وتقتل بعض المدفعيين . حالة ان شيئاً من هذا لم يقع في المانيا . وسببهُ ان الالمان قضوا سنوات يبحثون ويجرّبون حتى اتقنوا معرفة جميع التفصيلات في هذه الصناعة الخطرة ، ولكن الانكليز لم يقبلوا على هذا البحث الاَّ على عجل وبدافع الحاجة فاضطروا ان يقدموا على صناعة هذه المركَّبات الخطرة قبل ان يتقنوا جميع اساليبها

ومع ذلك ظلَّ الاسطول البريطاني محافظاً على استعمال الحامض البكريك في قنابله والى استعماله يعزى غرق طائفة من البوارج والطرادات البريطانية في معركة جتلند ، لانها كانت عند اصابتها ببعض قنابل العدو تنفجر قنابلها المحشوة باللديت من تلقاء نفسها فتغرق بمن فيها

اما المدرعات الالمانية فكانت لا تغرق الاَّ اذا دمَّرتها قنابل الانكليز ، ومنها ما عطل عن العمل ومع ذلك لم يغرق

***

ليس الغرض من هذا المقال ان يكون بحثاً وافياً في المواد الحربية المتفجرة ، ولكن الغرض اقامة الدليل على الصلة بين البحث العلمي وتقدم صناعة المتفجرات ، بضرب بعض الامثال . ولعلّ القارىء يجد ابلغ مثل على هذه الصلة في الفصل التالي وهو ترجمة المحاضرة النفيسة التي القاها الدكتور شوشه بك في موضوع الغازات السامة وفعلها الفسيولوجي ووسائل مكافحتها والوقاية منها

الغازات الحربية

اصنافها وخواصها وفعلها والوقاية منها

للدكتور علي توفيق شوشه بك
مدير معامل الصحة

ان امم الارض قاطبة معنية اشد العناية الآن باعداد العدة للحرب الكيمائية . ولما كانت الحكومات تلتزم الكتمان الشديد فمن النادر ان يعرف ما تمّ لعلمائها في هذا الصدد . وقوانين الجيش في مختلف البلاد تحظر معالجة موضوع الدفاع ضد الغازات السامة معالجة وافية

وقد بذلت مساعٍ كثيرة ، رسمية وخاصة ، لاخراج المدن والمراكز الحافلة بالسكان من المناطق المعرضة للهجوم الجوي ، ولكن لا يحتمل ان تقنع الامم المتحاربة بقصر الهجوم الجوي على القواعد الحربية ، بل المرجح ان تستعمل الطائرات في المستقبل لمهاجمة القواعد الحربية ولتدمير بلاد العدو بوجه عام كذلك . والغالب ان الجانب الثاني من عمل الطائرات الحربية لا يكون عسكريًّا بالمعنى الدقيق بل يقصد به الى اضعاف القوة المعنوية في الشعب من الناحيتين النفسية والسياسية فيستولي عليهِ شعور الضعف واليأس ويغدو مثقلاً بكابوس الحرب شديد الرغبة عن مواصلتها

وكذلك تصبح الدول غير شاكية السلاح ، غنيمة باردة للدول المدججة بهِ التي تحركها المطامع العسكرية فلا تتورَّع عن مد نطاق الحرب حتى تشمل الشعوب الآمنة . ومصر معرضة لخطر الهجوم من الجو عليها ، فيجب على كل من يعنيه الامر ان يعد المعدات اللازمة لحماية شعب آمنٍ اذا قضي الامر وامتدت الحرب الى هذه البلاد

وسائل الهجوم الجوي

قد تكون القنابر التي تلقيها الطائرات من الجو قنابر محشوَّة بمواد متفجرة او بمواد ملتهبة او بالغازات . اما القنابر المحشوة بالمواد المتفجرة والمواد الملتهبة فلا تستوقف نظرنا الآن لانها خارجة عن نطاق موضوعنا . وأما استعمال القنابر المحشوّة بالغازات ففي وسع صانعيها حشوها بغازات سامّة . وقد حلَّ محلّها من عهد قريب رشّ المواد السامّة من طائرات صنعت خاصّة لذلك

والغازات الحربية لا تزال على ما كانت عليهِ تقريباً عند خاتمة الحرب الكبرى ، على الرغم مما يقال مخالفاً لذلك . اما ما اذيع عن اهوال الغازات الحربية الجديدة وتأثيرها المخيف فقد دحضتهُ اللجنة المختلطة غير الدائمة التي عينتها جامعة الامم لتحديد السلاح . فقد قالت في تقريرها الخاص بالغازات

ما يلي : «وليس هناك ما يسوّغ القول بانهُ في الامكان اختراع غازات حربية جديدة تفوق من ناحية فعلها العسكري على الغازات المعروفة الآن »

ومما يجب ان نوجه اليهِ النظر رأي فريق كبير من الاختصاصيين في جميع الامم ومؤدّاهُ ان القنابر المحشوّة بالمواد المتفجرة والملتهبة ، اذا اطلقت من الجوّ سواءٌ اطلقت مفردة ام في كميات كبيرة ، اشدُّ فعلاً من قنابر الغاز ، على شرط ان يكون جمهور الشعب قد درّب على اساليب الوقاية من قنابر الغاز وانذر بنوع القنابر التي تلقى عليهِ . يضاف الى هذا أن التدمير الذي تحدثهُ قنابر الغاز اقلُّ من التدمير الذي تحدثهُ القنابل المتفجرة والملتهبة

والغازات المستعملة في الحرب قليلة . فثمة الكلور اولاً والفوسجين ثانياً . وهما غازان بالمعنى العلمي الدقيق . واما المواد الكيمائية الاخرى المستعملة في الحرب ، فسائلةٌ وهي تُرشُّ في قطيرات دقيقة جدًّا ، فتبدو في الجوّ كأنها رشاش او غبارٌ او غيم

خواص المواد الكيمائية الحربية

ولا يستعمل من المواد الكيمائية الحربية الاَّ ماكان منها متصفاً بالخواص الآتية : —

اولاً — يجب ان يكون مقدار صغير من المادة الكيمائية كافياً للحصول على نتيجة كبيرة وقد استنبط العلاَّمة هابر نسبة رياضية دقيقة بين المقدار المستعمل من الغاز الحربي او السائل الحربي وتأثيره وهي م × و = ف حيث الحرف م يرمز الى المقدار والحرف و يرمز الى الوقت والحرف ف الى الفعل او التأثير. ومقدار الغاز يحسب بالملغرامات في سنتمتر مكعب من الغاز الذي يستنشقهُ الانسان. والوقت يشير الى المدة التي تنقضي بين بدء الاستنشاق وظهور الفعل الضار في الانسان . فاذا ضربت الكمية الاولى في الكمية الثانية كان الحاصل دليلاً على فعل الغاز الضار

ولذلك لا يمكن ان يحسب اول اكسيد الكربون (Co) غازاً حربيًّا ، مع انهُ بحدّ نفسهِ غاز سامّ ولكن لا يمكن تركيزهُ تركيزاً كافياً حتى يكفي مقدار صغير منهُ لاحداث تأثيرهِ السام . وما يقال عن غاز اول اكسيد الكربون يصحُّ كذلك على الغاز الايدروسيانيك

ثانياً — يجب ان يكون الغاز السام في حالتهِ البخارية اثقل من الهواءِ ، اي ان ثقلهُ النوعي يجب ان يكون اكبر من ثقل الهواءِ النوعي لئلاَّ يرتفع في الهواءِ فلا يؤثر في الذين اطلق عليهم على سطح الارض . ولذلك نجد جميع المواد الكيمائية الحربية اثقل من الهواءِ

ثالثاً — يجب ان يكون طيّاراً حتى يمكن انتشارهُ في الهواءِ رشاشاً او بخاراً او غباراً او غيماً

رابعاً — يجب ان يكون مستقرّ التركيب فلا تؤثر فيهِ عناصر الهواءِ وبوجه خاص اكسجين الهواءِ وبخارهُ المائي

خامساً — يجب ان يكون مستقرّ التركيب كذلك لا يمكن حلّهُ بمواد تطلق عليهِ في سبيل الوقاية منهُ





كمامات واقية من الغاز السام في الحرب



سادساً — من الخواص التي يجب ان ينظر اليها عند اختيار غاز حربي مدى انحلاله في الماء. فالمواد التي يسهل انحلالها في الماء لا تصلح في الغالب لهذا الغرض صلاح المواد التي لا تنحلّ في الماء مطلقاً او تنحلّ انحلالاً يسيراً. لان المواد الكيمائية الحربية التي تنحلّ في الماء يغسلها ماء المطر فتضيع جزافاً

تقسيم الغازات الحربية

يمكن تقسيم الغازات الحربية وفقاً لاعتبارات مختلفة . ولكن التقسيم الذي يهمّنا بوجه خاص في كلامنا الآن قائم على تأثيرها في الجسم اي تقسيمها من الناحية الطبية . وعلى ذلك يمكن تقسيم الغازات السامة اربعة اقسام

اولاً — الغازات التي تؤثر في اغشية العين وتعرف باسم (غازات الدمع)

ثانياً — الغازات التي تؤثر في القسم الاعلى من جهاز التنفس اي الانف والحلق وتعرف باسم (طائفة الصليب[١] الازرق)

ثالثاً — الغازات التي تؤثر في اغشية الرئتين وتعرف باسم (طائفة الصليب الاخضر)

رابعاً — الغازات التي تؤثر في الجلد وتعرف باسم (طائفة الصليب الاصفر)

غازات الدمع

اهم الغازات التي في هذه الطائفة غازا « بروم اسيتون » Brom—aceton وزيليلبروميد Xylylbromide . والغازات الدمعية مما يسهل نشره بالرش وهي تهيج اغشية العين ولو استعملت في محلولات ضعيفة ، فتحمل العيون على سكب الدموع وتحدث العطاس . وهي تلتصق بالملابس وتظل لاصقة بها حتى بعد تطهيرها وتعقيمها . وبقاء آثار يسيرة منها لاصقةً بالملابس بعد التطهير والتعقيم يسبب التدميع والعطاس

فاذا استعملت هذه الغازات في محلولات ضعيفة كانت تأثيرها مؤقتاً . فالتهاب اغشية العين يزول بعد مدة قصيرة على اثر استعمال المكمدات الباردة. اما اذا استعملت في محلولات قوية فانها تحدث عسر التنفس وسعالاً تشنجيًّا والتهاباً في الشعب الرئوية

ويمكن الاستدلال على وجود هذه الغازات في الهواء برائحتها اللاذعة المهيجة لغشاء الانف والعين . وقد استعملت في اميركا في تسكين هياج الجماهير والقبض على المجرمين . بل قيل ان غير بنك واحد في اميركا ثبت في جدران ساحته انابيب تنطلق منها هذه الغازات عند الحاجة اليها اي عند هجوم فريق من اللصوص او الاشقياء عليه

اما اسعاف المتأثر بها فيتمّ بوضعه اولاً في الهواء الطلق وتغيير الملابس واستعمال المكمدات الباردة والراحة ثم معالجة الالتهاب بالوسائل الطبية المعروفة

(١) استعمل الالمان علامة الصليب بألوان مختلفة على القنابر الغازية تسهيلا لمعرفتها . فعرفت باسم الصليب الازرق أو الاخضر او الاصفر

طائفة الصليب الازرق

تشتمل هذه الطائفة من الغازات على مواد عضوية هي خليط الايدروكربونات الزرنيخية والكلوريدات ، وهي تحدث تهيجاً عنيفاً ولكنها تؤثر في الغالب في الانف والحلق وقد تسبب القيء

وتستعمل على الاكثر رشاشاً دقيقاً فتراها كأنها غيمة بيضاء او رمادية اللون . وهي اثقل من الهواء طبعاً وتبقى مدة طويلة في المنطقة التي ترش فيها

ومن خواصها العجيبة انها تخترق الكمامات العادية الواقية من الغاز ولذلك أطلق عليها اسم « مخترقة الكمامات » . ويمكن الحيلولة بينها وبين الكمامات باستعمال مصفاة من الورق النشاف توضع أمام الكمامة . ومقدرتها على اختراق الكمامات العادية حملت بعضهم على استعمالها أولاً فيضطر الجندي الذي اخترقت هذه الغازات كمامتهُ ان يرفعها عن وجههِ وعندئذٍ تطلق عليهِ الغازات الخانقة من طائفة الصليب الاخضر . وفعلها مفصل في الفقرة التالية . اما اعراض الاصابة بغازات الصليب الازرق واساليب معالجتها فتشابه اعراض الاصابة بالغازات الدمعية واساليب معالجتها

طائفة الصليب الاخضر

﴿ الفوسجين ﴾ اهم غازات هذه الطائفة هي الفوسجين والپرستوف والكلوروبكرين . فالفوسجين (COCl 2) غاز من اشد الغازات فعلاً ساماً . وهو غاز لا لون له، قوي الرائحة تشبه رائحته رائحة التبن الفاسد، اثقل من الهواء ثلاثة اضعاف . فاذا اضيف الى الماء انحلَّ الى ثاني اكسيد الكربون والحامض الايدروكلوريك . ويفوق في شدة فعله السام الحامض الايدروسيانيك ثلاثة اضعاف . فالمتر المكعب من الهواء اذا كان يحتوي على ٤٥ ملغراماً من هذا الغاز كان خطراً على مستنشقهِ . فاذا استنشق منهُ ما مقداره ثلاثة ملغرامات ونصف ملغرام (٣٫٥ ملغرام) في الدقيقة كان مميتاً . ومما يجب ان يذكر ان الهواء المحتوي على مقادير يسيرة من الفوسجين، لا يسبب اعراضاً ما عند استنشاقه ، ولكن اثره يتجمع فيصبح مميتاً اذا طال زمن الاستنشاق . فاذا رشَّ المكان الذي يكون فيهِ هذا الغاز بالماء النشادري انحل وزال . واذا كان هناك مقدار يسير منهُ في الهواء كانت رائحة الهواء تشبه رائحة التفاح الفاسد . لذلك كان الجنود يدعونهُ في خلال الحرب غاز التفاح . وهو يختلف عما تقدم من الغازات المهيجة في انهُ يؤثر في اجزاء الرئتين العميقة

فهو يهيج أدقّ أطراف جدران الرئتين عند انحلاله بامتزاجهِ بالماء الذي في مجاريهما وتحولهِ بعد الانحلال الى حامض ايدروكلوريك وثاني أكسيد الكربون . وقد يؤثر تأثيراً مباشراً في جدران الرئتين . واذا كان مقداره في الهواء يسيراً (من ٥ ملغرامات الى ١٠ ملغرامات في المتر المكعب) لا يهيج الافعال العكسية الدفاعية في الجسم مثل السعال والاختلاج الشعبي وكذلك يمكن أن يستنشقه المرء وهو لا يدري

يحدث استنشاق هذا الغاز نزيفاً في الاغشية المخاطية وانتفاخاً شديداً (اوذيما) في الرئتين ، ويتلف تخاريب الرئتين ، فيختنق مستنشقهُ في سائلهِ الدموي . ويتضخم حجم الرئتين حتى تبلغا من اربعة اضعاف الى ستة اضعاف حجمهما السويّ وتبدوان كأنهما مضغوطتان بين الاضلاع . ولما كان الارتشاح من الرئتين كثيراً ، فالدم يتركز بسرعة فيسفر ذلك عن وجود تخثر دموي محمرّ الى السمرة في جميع الاوعية الدموية وفي القلب كذلك . ثم ان جدران التخاريب تصبح مما يسهل على الدم اختراقهُ فتمتلىء بالسائل الدموي وكذلك تظهر اعراض الاوذيما الحادة . ومما يشار اليهِ في هذا الصدد ان حالة الاوذيما تتكوّن ببطءٍ اولاً ثم بعد بضع ساعات تظهر اعراض الاختناق الشديد

واذن هناك فترة حضانة بين استنشاق الغاز وظهور الاعراض . ففي حالاتِ التسمُّم الخفيفة لا تبدو عليها علامات خطرة خلال بضع ساعات ، بل قد تبدو انها تتحسن تحسناً يسيراً . ثم ان القلب والدورة الدموية يتأثران عند ما يبدأ الدم ، بتركزهِ ، يحتك بجدران الاوعية الدموية الكبيرة

فالحالات « الخفيفة » تظهر فيها علامات التهييج في جهاز التنفس وعلامات التهاب شعبي منتشر يعقبهُ الشفاء السريع

والحالات « المعتدلة » يخفّ انتفاخ الرئتين (اوذيما) تدريجاً فيها

وفي الحالات « الشديدة » يزداد عسر التنفُّس خلال بعض ساعات بعد استنشاق الغاز وتحدث الوفاة بالاختناق عقب ألم شديد . فاما أن يبقى المصاب فاقد الوعي أو يصاب بحالة هبوط سببها ضعف الدورة الدموية. ففي الحالات الاولى يكون لون الجلد مزرقًّا وفي حالة خور القلب يصبح شاحباً. أما البصاق فيكون رغوة مصفارّة ، او حمراء الى السمرة . وقد تفضي نوبة السعال الى تمزيق نسج الرئة وقد يحدث حينئذٍ اما انتفاخ البلورا واما انتفاخ عام

ويعقب التسمُّم الشديد بعد بضعة ايام الاصابة بالنزلة الرئوية الشعبية (برونكرنومونيا) ومن مضاعفات هذه الحالة انتفاخ الوجه والاصابع ونزيف في الشبكية والاغشية المخاطية ويقترن مصير المريض النهائي بحالة قلبهِ ونبضهِ . ويجب ان ينعم المصابون بالراحة التامة لاجتناب كل جهد عضلي فيقلّ بذلك مقدار ما تستهلكهُ الاعضاء من الاكسجين

والعادة ان المصابين الذين يتحملون الثلاثة الايام الاولى من الاصابة يمكن عقد الرجاء على شفائهم . فمن المتعذر ان يعرف الطبيب ، عند حصول التسمُّم ، مبلغ شدة الاصابة او خفّتها ، ولا يمكنهُ ان يعين الانذار النهائي . فقد لا تبدو على المصاب اعراض خطرة في فترة الحضانة ، بل قد تظهر عليهِ احياناً بوادر التحسُّن ، ولكن الوفاة قد تقع احياناً بعد انقضاءِ بضع ساعات على ذلك بسبب انتفاخ (اوذيما) الرئتين . وانما يمكن ان يقال ان اكثر الوفيات تحدث في الايام الثلاثة الاولى وتقل بعد اليوم الخامس ويقوى الامل في الشفاء بعد اليوم الثامن

ومن اخطر ما يتعرض لهُ المصاب من بدءِ التسمُّم الى حين الشفاء ، الجهد العضلي ، وذلك

بانتفاخ الرئتين وتركز الدم وضعف القلب . فالمصابون بالغاز السام لا يسمح لهم بالتحرك ويجب ان ينقلوا نقلاً رفيقاً من مكان الى مكان ، لان بذل الجهد العضلي يفضي في الغالب الى الوفاة بخور القلب وبعض المصابين يبقون بعد اليوم الثامن مصابين بالتهاب الشعب والربو ويظل القلب متعباً مدة طويلة

﴿ البرستوف ﴾ ويعرف هذا الغاز باسم « سوربالبت » بالفرنسية وباسم داي‌فوسجين بالانكليزية . وهو شبيه بالفوسجين الاَّ انهُ اشدُّ منهُ فعلاً فثقلهُ ضعف ثقل الفوسجين بل هو سائل لالون لهُ ودرجة غليانهِ ١٢٨ درجة مئوية . يرش على الارض والملابس فيلبث لا يتطرق اليهِ الانحلال بضع ساعات . اما الابخرة المتصاعدة منهُ فتهيج جهاز التنفس اكثر مما يهيجها غاز الفوسجين . ثم ينحلُّ في الرئتين كما ينحل الغاز السابق

﴿ العلاج من الاصابة بالغازَيْن ﴾ وتقتضي معالجة المصابين بهما نقلهم حالاً من منطقة الغاز الى الهواءِ الطلق وتغيير ملابسهم بل يجب اخراج الملابس من حجرة المصاب بسرعة لان الغاز يلصق بها مدة طويلة — واجتناب كل جهدٍ عضلي — واستعمال غسولٍ خفيف مثل محلول الحامض البوريك أو محلول ملحي فسيولوجي برمنغنات البوتاس (واحد في الالف) لتخفيف التهاب الاغشية المخاطية — وغسل العينين بمحلول سلفات الزنك (قوة نصف في المائة) او دهنهما بمرهم كربونات الصوديوم (قوة ٢ في المائة) لتخفيف تهيجهما — استعمال محلول خفيف من الاتروبين لمعالجة نفور العينين من الضوء — واستنشاق بخار الماءِ لتخفيف تهيج جهاز التنفس — وحقن حقن تحت الجلد (٤٠٠ — ٨٠٠ سنتغرام من محلول كلوريد الكلسيوم قوة واحد في المائة وغلوكونات الكلسيوم) لتخفيف انتفاخ (اوذيما) الرئتين — الامتناع عن التنفس الصناعي في حالة انتفاخ الرئتين لما تقتضيه حركاته من الجهد العضلي ويجوز استنشاق الاكسجين الصرف — فاذا تعسر التنفس يحقن تحت الجلد بحقن لوبيلين (٠٠٠٥ر٠ الى ٠١ر٠) او بحقن كافور

اما حالة تركز الدم قبل حصول انتفاخ الرئتين فالفصد خير علاج لها . وانما يجب على الفاصد ان يلاحظ ان الدم يكون كثيفاً في الغالب وانهُ يتخثر في الاوردة . ففي هذه الحالة يمكن فصد الشرايين على ان تربط حالاً بعد ذلك . ويمكن فصد مقدار من الدم يختلف من ٥٠٠ سنتمتر مكعب الى ٧٠٠ او الى الف . ويفضل ان لا يكون الفصد مرة واحدة بل مراراً حتى يسع القلب ان يلائم عمله لقلة الدم الناجمة عن الفصد . ولتخفيف ما يخسره المصاب من الدم يصفق المفصود على دفعات ، بمحلول ملحي فسيولوجي . ويستعمل لتخفيف تركيز الدم حقن قطارة ويعمد الى شرب المياه المعدنية القلوية ويستعمل لتنبيه القلب الكارديوزول او الكافيين او الديجيتالس او حقن وريدية من الغلوكوس بمقدار ٣٠ الى ٥٠ سنتمتراً مكعباً بقوة ١٥ الى ٢٠ في المائة . ولما كانت المواد المخدرة وخاصة المورفين ضارة فيحسن استعمال قطرات من الفاليريانا والبرومور . ومما يستعمل لتخفيف الظمإ اللبن الساخن والشاي والقهوة وعصارة الفواكه والمياه المعدنية ويفضل استعمال الغذاء المائع

طائفة الصليب الاصفر

اهم الغازات في هذه الطائفة غاز اسمهُ الكيماوي «دايكلور داي اثيل سلفيد» ويعرف باسم غاز الخردل وهو غاز شفاف كالماء يذوب في الكحول والايثر وينحل انحلالاً متدرجاً في مقادير كبيرة من الماء له رائحة مثل رائحة الخردل الخفيفة او البصل واذا كانت مقادير صغيرة منهُ منتشرة في مقادير كبيرة من الهواء تعذر تبينهُ برائحته . وقد استعمل في الحرب الكبرى للدفاع بنشره بواسطة قنابر تحشى بهِ في مناطق واسعة . وهو غاز بطيء الفعل ولكنهُ شديده . فما ينشر منهُ في الهواء الغائم يظل فعالاً مدة طويلة واذا كانت الحرارة معتدلة احتفظ بفعله اياماً بل وأسابيع . ولكن ضوء الشمس و المطر يضعفان من فعله كثيراً

وهو يحلُّ بفعل محلول كلورو الجير او المستحلبات التي تصنع منهُ وعوامل الاكسدة كما يحلُّ بغسلهِ بالماءِ . فالمناطق التي يبث فيها هذا الغاز يجب ان تغسل بالماءِ ، او بما يفضل الماءَ في هذا الصدد وهو محلول كلورو الجير. واذا اذيب الكلورامين في الماءِ كان المحلول مما يزيل فعلهُ السام

وانما يجب ان يراعى في استعمال محلول كلورو الجير ان لا يتصل بالغاز في حالتهِ المركزة لان مقادير كبيرة من الغاز تبخر قبل انحلالها بالاكسدة وهذه الابخرة تحرق الجلد وجهاز التنفس

وموضع الخطر في استعمال هذا الغاز مقدرتهُ على تخلُّل الملابس جميعاً وحتى الجلد. فالذين تقضي اعمالهم بالسير في مناطق بث فيها هذا الغاز يجب ان يرتدوا الملابس التي تحول دون تخلّلهِ اياها

ومن اسهل ما يكون ان يتعوَّد عصب الشمّ رائحة غاز الخردل ، فيعتقد من تعوّد عصبهُ هذه الرائحة ان الغاز قد زال من المنطقة التي يكون فيها ، مع ان الغاز يكون باقياً فيها . وقد تنقضي ساعات بعد استنشاق الغاز ، قبل ان تظهر اعراض التأثر بهِ ولذلك يعسر على مستنشقه ان يعيّن الساعة التي استنشقهُ فيها اولاً . وخير وسيلة لدرء خطرهِ عند اجتياز منطقة بثَّ فيها ان تغطى الاحذية بدثار مبلول بمحلول الكلورامين . اما الملابس التي لصق بها هذا الغاز فيجب الاَّ تعلَّق في البيوت والمشافي بحيث تنتشر منها دقائق الغاز في الحجر. والغالب ان تتحرك غيمة غاز الخردل في جهة هبوب الرياح على سطح الارض ولكنها قد يستقرُّ جانب منها في حفرة او خندق ، او تتغلغل في الادوار التي تحت الارض من المباني كما يفعل غاز الكلور وغاز ثاني اكسيد الكربون

﴿ فعلهُ ﴾ هذ الغاز لا يؤثر في المرء على الفور ، فلا يحسُّ من يتعرَّض لهُ بحكة او حرق في جلدهِ ، ولكنهُ يتخلل الجلد في خلال ثلث ساعة . وانما يتوقف اختراقهُ للجلد على بنائهِ التشريحي فجلد العنق والابط والذراع والصفن اسرع تأثراً بهِ من جلد الكفين والقدمين. ويظهر على الجلد عند تأثره بهذا الغاز بقع حمر لا تلبث ان تتخذ شكل النفاطات الناشئة عن الحرق بالنار . واذا استنشق المرء ١٢ ملغراماً منهُ في الدقيقة افضى ذلك الى تلف الرئتين . ولا يخفى ان المصاب بغاز الفوسجين يضيق نفسهُ فيحاول عبثاً استنشاق نسمة من الهواء ، واما المصاب باحد غازات الصليب الاصفر

فيجلس ساهماً محدقاً في الفضاء . وتتأثر العينان بهذا الغاز فتتقيحان وتتلف ملتحمتهما وقرنيتهما بل تتلف العين كلها. واذا كان مقدار الغاز في متر مكعب من الهواء يختلف من عُشر سنتمتر مكعب الى خمس سنتمتر مكعب اثر في الاغشية المخاطية فاذا بلغ المقدار من سنتمتر واحد الى ثلاثة سنتمترات مكعبة في متر مكعب من الهواء كان استنشاق هذا الهواء مميتاً

ويشبه غاز الخردل في فعله غازاً آخر يدعى « لويسيْت » وهو خليط من كلورو فينيل ارسين دي كلوريد وداي كلور دي فينيل ارسين كلوريد وتراي كلور تري فينيل ارسين كلوريد

﴿ علاجهُ ﴾ افضل طريقة لعلاج تآكل الجلد استعمال كلورور الجير ويمكن دهن الجلد بهِ جافا او معجوناً ، فبهِ يستطاع منع تلف الجلد في الدقائق الاولى من اتصال الغاز بهِ . وبعد انقضاء عشر دقائق لا يبقى الاَّ احمرار خفيف او نفاطات خفيفة . واذا كان مقدار غاز الخردل الراسب على الجلد كبيراً وجب ان يغسل ويمسح بكلورو الجير حالاً واذا كان الجلد قد اصيب بالتهاب فيجب ان يستعمل كلورور الجير في غسل الجلد المجاور للبقعة الملتهبة لوقايتهِ . وبعد ذلك يجب ان يغسل مدة ساعة او ساعتين بمحلول داكين او محلول كارل . اما الاول (اي محلول داكين) فمؤلف من ٢٠ غراماً من كلورور الجير و١٤ غراماً من كربونات الصوديوم في لتر من الماءِ تخضُّ خضّاً عنيفاً مدة نصف ساعة . ثم يرشح المحلول ويعدَّل باضافة اربعة غرامات من الحامض البوريك . واما المحلول الثاني (اي محلول كارل) فمؤلف من ١٢ غراماً ونصف غرام من كلورور الجير تسحق جيداً مع قليل من الماءِ حتى تصبح معجوناً ثم يضاف اليهِ الماءُ رويداً رويداً حتى يصبح حجم الكل لتراً واحداً . وبعد الخضّ جيداً يضاف ١٢٫٥ غرام من الحامض البوريك ويخضُّ الكل جيداً ثم يرشح المحلول . وجميع المحلولات التي يدخل كلورور الجير في تركيبها لا يمكن حفظها مدة طويلة فيجب ان تحضَّر قبيل الاستعمال . واذا تعذر الحصول على كلورور الجير فيمكن استعمال برمنغنات البوتاسيوم (قوة نصف في المائة) او كلورامين (قوة ١ في المائة) او ماءُ الصابون عند الاضطرار . ثم يفرك الجلد بالفازلين وعلى الطبيب ان يلبس قفازاً من الجلد في خلال قيامهِ بهذه الاسعافات . اما المناشف التي يستعملها فيجب اما ان تحرق وإما ان توضع في محلول كلورو الجير . والملابس التي تخللها غاز الخردل يجب ان تغسل حالاً بمحلول كلورور الجير في ماءِ صابون ساخن

وقد تشق النفاطات على ان تتخذ الاحتياطات المانعة للفساد في شقها، ولكن جلدها يجب ألاَّ يقطع لان الجلد افضل واقٍ للنسج الحساسة التي تحتهُ . ويجب كذلك الامتناع عن تضميد النفاطات والقروح المشقوقة بضمادات رطبة . او رشها بمسحوق ما . ويمكن تجفيف جرح رطب بالهواء الساخن ثم يغطى بالفازلين ويشار باستعمال الفازلين مع مادة مخدّرة في حالة الالتهابات والنفاطات الاليمة

اما العيون الملتهبة فيجب ان تغسل مرة كل ساعتين او ثلاث ساعات بمحلول بيكربونات الصودا ، ثم يلي ذلك دهنها بمرهم قلوي . ثم ان دهن العينين بالفازلين يفيد في وقاية العين من فعل غاز

الخردل ويعالج تأكل الاغشية المخاطية في مسالك الانف والحلق باستعمال البخار الصاعد من ابريق النزلة الشعبية ويمكن تخفيف السعال باستعمال الكودايين والبيوكودايين

وسائل الدفاع

تختلف المشكلات التي يتعرَّض لها جمهور الشعب وتتحتم عليهِ معالجتها ، في الوقاية من قنابر الغاز ، عن المشكلات التي يتعرّض لها الجيش . وقد اجمعت الامم الاوربية بعد الحرب الكبرى على ان الدفاع العسكري وحدهُ لا يكفي لحماية الشعب الآمن ووقايتهِ الصحية . فاتخذت الوسائل اللازمة لتنظيم هذا الدفاع . فيقسم الشعب الى طائفتين احداها صغيرة وتعرف بالطائفة الفعّالة active ، وهي تشتمل على رجال البوليس والمطافىء وجمعيات الاسعاف والاطباء وعمال النقل . اما الطائفة الاخرى فتشتمل على بقية الشعب . فالطائفة الاولى تجري على قواعد معيَّنة اهمُّها تحذير الجمهور من هجوم جويّ منتظر وانباؤهُ بهِ عند وقوعهِ وعند انتهائهِ والمحافظة على النظام والامن العام ونشر غشاءٍ من الضباب للتخفي عن المهاجين واسعاف المصابين بالعناية الطبية اللازمة وتنظيف الشوارع والمباني باستعمال المواد الكيمائية التي تغسلها او تحلُّها

ولا ريب في ان فائدة كبيرة عامة تجنى من تنفيذ هذه الوسائل تنفيذاً دقيقاً ولكنها قلما تجدي في وقاية افراد الطائفة الاولى وكل منهم بمثابة الجندي العامل يكون دائماً في مواقع الخطر . ففي حالة هؤلاء تستعمل الكمامات . والكمامات المعروفة باسم S تنطوي على احدث وجوه التقدم في هذه الصناعة . وهي تشبه الكمامة العادية في انها تصنع من ثلاثة حجوم ولها صمام خاص لزفر النفس فلا تدخل رطوبة الهواء المزفور المرشح الذي داخل الكمامة ومن المعروف انَّ الرطوبة تقصر مدة فائدتهِ . امّا رجال فرق اطفاء النار ورجال الاسعاف فيجب ان يجهزوا بأجهزة تغذيهم بالاكسجين عند الحاجة . ولما كانوا يتعرضون لغازات الصليب الاصفر وجب ان يرتدوا ملابس وقلانس وقفازات واحذية تقي من فعل هذه الغازات . واستعمال مقادير كبيرة من الماء وكلورور الجير في تنظيف المناطق التي غشيها الغاز يعرضهم لتطرق بعض دقائق الماء ومقادير غير يسيرة من كلورور الجير الى مرشَّحات التنفس داخل الكمامات ، فتبطل فائدتها . فيقترح في هذه الحالة استعمال مرشَّح واقٍ لتغطية مرشح التنفس . وهذا المرشَّح يصنع عادة من مادة يخترقها الهواء دون الماء

اما جمهور الشعب فمن المتعذّر ان يجهز بالكمامات فالثمن كبير والكمامات لا فائدة منها الاَّ اذا استعملت كما يجب ان تستعمل وحفظت سليمةً من العطب بفحصها فحصاً دوريًّا وهذا الفحص لا يمكن ان يتمَّ الاَّ في حجرات صنعت خاصة لذلك . والغالب ان السواد من الشعب لن يعنى بجميع هذا عناية وافية . يضاف الى هذا ان العناية الفردية غير لازمة اذا اتبع الجمهور التوصيات اللازمة للوقاية الاجماعية . فاذا أُعدت ملاجىء لوقاية طوائف كبيرة من الشعب من تأثير الغازات اصبحت العناية الفردية غير ضرورية فالذين يتفق وجودهم في الشوارع او الميادين اوصحون الدور عند وقوع الهجوم الجوّي يتعرّضون

لخطر قنابر الغاز التي قد تنفجر على مقربة منهم . فشعار هؤلاءِ يجب ان يكون الفرار من الميادين الى اقرب دار واذا دخلوها يجب ألا يقتربوا من الباب. واذا تعذر عليهم وجود دار على مقربةٍ منهم فليبحثوا عن اي منخفض في الارض ويستلقوا فيهِ ووجوههم الى سطحها . اما اذا كانوا خارج المنطقة التي تلقى فيها القنابر فليبقوا حيث هم . فمحاولتهم مساعدة غيرهم عبث علاوة على تعرضهم لاعظم المخاطر

ثم ان الطبقات الارضية والتي تحت الارض (البدروم) افضل الامكنة في الدور المختلفة للالتجاء اليها . وقد ثبت في خلال الحرب الكبرى ان هذه الطبقات تقي من تركيز غازي في الهواء يفوق اي تركيز عرف حينئذٍ . اما الطبقات العليا فمعرَّضة للهدم بوقوع القنابر المحشوة بالمواد المتفجرة عليها . يضاف الى هذا ان الطبقات التي تحت سطح الارض لا نوافذ لها في الغالب او لها نوافذ قليلة وصغيرة فيمكن سدُّها سدًّا محكماً . ويفضَّل ان يكون امام « البدروم » دهليز يحول دون دخول الغاز مباشرة الى الحجر حيث يتجمع اللاجئون ، ويستعمل لتنظيف المتأخرين في دخول « البدروم » مما يكون قد علق بهم من الغاز

اما عدد الذين يسعهم الالتجوء الى «بدروم» ما فيختلف باختلاف سعته . وقد حسب الحاسبون ان المرء يحتاج الى متر مكعب من الهواء في الساعة . فاذا اضطرَّ ان يبقى في مكان ما ثلاث ساعات استنفد الاكسجين من ثلاثة امتار مكعبة من الهواء . وانما يجب ان يلاحظ انهُ رغبةً في الحيلولة دون استنفاد مقدار زائد من اكسجين الهواء يجب ان يمنع التدخين والانارة باشعال شموع او ما اليها والحركة

ومما يستعمل لسد هذه الحجر وجعلها منيعة على الغاز وضع لوحين من الخشب على كل نافذة بينها اكياس من الرمل . واذا كانت الالواح مصنوعة من قدد فيجب ان تسد الفواصل بين القدد بقدد ضيقة توضع فوق الفواصل . ويحسن ان يغطى اللوح الداخلي بورق يلصق عليهِ بالغراء. اما الابواب فتسد سدًّا محكماً بتغطيتها بقددٍ من اللباد المغموس في زيت او اية مادة عازلة او قد يستعمل ورق مطوي عدة طيات . وتسدُّ ثقوب المفاتيح بالقطن . واذا لم يكن بين البدروم ودهليزه باب ، وجب فصل احدها عن الآخر بملاءات كثيفة مغموسة في محلول الصودا . ويجب ان تكون الملاءات طويلة حتى تدلى على الارض حيث تثبت عليها باثقال منعاً لتسرب الغاز من الفاصل بين طرفها الادنى وارض الحجرة

واذا انقضت مدَّة وفريق من الناس محصور في ملجإٍ من هذا القبيل ، يقل الاكسجين في هواءِ الغرفة ويكثر ثاني اكسيد الكربون فيجدَّد الهواءِ باستعمال خراطيش صوديوم پيروكسيد فتثبت ثاني اكسيد الكربون وبخار الماءِ وتطلق الاكسجين او باستعمال قنابر الاكسجين لزيادة اكسجين الهواء وفي الوقت نفسهِ تبيض بالجير الجدران فيثبت ثاني اكسيد الكربون

ويجب ان تكون هذه الملاجيء مجهزة ببطريات جافة للاضاءة او بمصابيح كهربائية من نوع مصابيح الجيب ويتحتم الامتناع عن انارة الشموع او اي ضوء ذي لهب . ويجب ان تكون فيها جميع وسائل الراحة والغذاء والاسعاف الاولي ومكافحة النيران والماء للشرب والغسل

الشاعر والمرأة

للشاعر علي محمود طه

قصيدة اخرى ، من ملحمة البعث الاول التي نشرنا احدى قصائدها في مقتطف يونيو ، وفي هذه القصيدة حديث عذراء الى صواحباتها عن فن الرجل وكن يقرأن لها شيئاً من اشعار شاعر ضمنها اتهام امرأة باغراء فنان شاب ، كان يرى فيها روحاً للجمال والفن ، فأصبح يراها كلها مادة من جسد يشتهى :

كفانا فقد جُنَّ هذا الفتى وجاوز حدَّ الكلام المباحْ
نكاد نُحسُّ اختلاجَ النجوم ونسمعُ مضطرباً في الرياحْ
مريضُ الغريزةِ فتَّاكُها حَبَتْهُ الطبيعةُ أمضى سلاحْ
سَقَتْهُ الشياطينُ محمومَها فجَّ الرحيقَ وذمَّ الصباحْ

***

تأثَّم بالفنِّ حتى غوى وما الفنُّ بالمرأةِ الخاطئه
هو الدمُ واللحمُ ما يشتهي هو الخمرُ والمتعةُ الطارئه
وكم في الرجالِ سُعارُ الوحوش اذا لمسوا الجثَّةَ الدافئه !
فلا تذكري فنَّ هذا الفتى بل الحيوانيةَ الخاسئه !

***

رأى جسمَ حوَّاءَ فاشتاقهُ فهاجتْ بهِ النزوةُ المسكرهْ
حوى جسمَها فاشتهى روحَها فثارتْ بعزَّةٍ مستكبرهْ
تمَّمَتْ روحها وتأبَّتْ عليهِ - فجرَّدَ في وجهها خنجرهْ
وهمَّ بها فالتوى قصده فأرسل صيحتهُ المنكرهْ

أَلم ينسم الخلدَ من عطرها ؟ ألم يعبدِ الحسنَ في زهرها ؟
الم يسرق الفنُّ من سحرها ؟ ألم يقبس النورَ من فجرها ؟
شَفَتْ غلّةَ الفنِّ حتى ارتوى وإنْ دنَّس الفنُّ من طهرها
وهامتْ على ظمإٍ روحُها وكم ملأُوا الكأسَ من خمرها !

***

على مذبح الحبِّ من قلبها سراجٌ يسبِّحُ مَنْ لألأهْ
منارٌ يجوبُ الدجى لمحُه فيلقى الضليلُ به مرفأهْ
يبثُّ الحرارةَ بردَ الشتاءِ ويُلهبُ شعلتَه المطفأهْ
وتمشي الحياةُ على نوره وما نورهُ غيرُ عينِ امرأهْ ! !

***

لهيبٌ إذا الروحُ طافتْ به تضاعفتِ الروحُ في نارهِ
يطيق القويُّ لظى جمره ويعشو الضعيف بأنوارهِ
رمَت فيه حواءُ آثامها فسالتْ كذائبِ أحجارهِ
لقد قرَّبتْ جسَداً عارياً وقلباً يضنُّ بأسرارهِ

***

أمن صنعةِ الله هذا الجمال ؟ نعم ومن الفنِّ هذا المثالْ !
على معرض مرمريِّ الدُّمى ترامى أشعتُهُ والظلالْ
تماثيلُ من جسَدٍ فاتنٍ تأبَّى على شهواتِ الرجالْ
حبتهُ الطبيعةُ اسرارَها ولاقى الحقيقةَ فيهِ الخيالْ !

تحدُّب الفضاء

وماذا عنى به النسبيون ؟

ولماذا لا تصلح له هندسة اقليدوس ؟

بقلم نقولا الحداد

اذا قلت للعامي : الفضاء منحنٍ ، او متحدّب ، حسب هذا القول هذياناً او كلاماً فارغاً ، كفراغ الفضاء ، لا معنى له . واذا قلت للمثقف ثقافة عامة وهو يفهم ان اي حجم من الفضاء هو ذو ثلاثة ابعاد متعامدة وذو وجهات ستٍّ يستهجنهُ ويسأل : ماذا تعني بتحدب الفضاء ؟ فاذا قلت له : اعني بهِ ان الخط المستقيم الذي عرّفهُ اقليدس بانهُ اقصر مسافة بين نقطتين لا وجود له في الفضاء لان كل خط في الفضاء منحنٍ بالنسبة الى هذا الخط المستقيم الذي عرّفه اقليدس ، وبالتالي الفضاء متحدّب — اذا قلت لهُ هذا القول عدّهُ سخافة واجابك انهُ قول غير منطقي لانهُ مناقض بعضهُ لبعض ، فضلاً عن انهُ مناقض للاختبار ، لاني اذا ادليت بحبل طويل معلق فيهِ جسم ثقيل من مكان عالٍ رأيت الحبل خطًّا مستقيماً . واذا تصورت حبلاً مثله مدلى من الارض الى الشمس التي هي مركز الثقل في النظام الشمسي تصورت هذا الحبل الذي طوله ٩٣ مليون ميل خطًّا مستقيماً . لا استطيع ان اتصوره منحنياً . واذا كان الخط المستقيم طبيعة للفضاء فلا استطيع ان اتصور الفضاء منحنياً . ولا افهم كيف يكون متحدباً

هكذا يكون جواب الشخص المثقف على اقوالك الآنفة . فكيف بهِ اذا زدت عليها قولك : ان الخط المستقيم يلتقي طرفاهُ ، خلافاً لقول اقليدس البديهي ان الخط المستقيم مهما مددتهُ فلن يلتقي طرفاه . وكيف بهِ اذا قلت له ان الخطين المتوازيين يلتقيان ، خلافاً لقول اقليدوس البديهي انهما مهما امتدّا فلن يلتقيا البتة . وكيف بهِ اذا قلت له ايضاً ان زوايا المثلث لا تساويان زاويتين قائمتين وان زوايا المربع والمكعب ليست زوايا قائمة ، خلافاً لما هو معلوم في هندسة اقليدس التي لا تزال هندسة المدارس والعلوم والفنون العصرية — كل ذلك يعدهُ هذا المثقف سخافة وخرافة

***

لذلك يجب ان نتحقق ماذا عنى اينشطين واتباعه من علماء النسبية بتحدب الفضاء واستحالة وجود خطوط مستقيمة فيهِ بالمعنى الاقليدوسي .

ما هو الفضاء

ليس فيما قالهُ اولئك النوابغ ما يستفاد منهُ تلك المزاعم المناقضة للمعقول . ولا يمكن ان يلقوا الكلام على عواهنه . وانما كتاب الجرائد والمجلات الاجنبية عزوا تلك المزاعم الى نظرية النسبية على اثر ظهورها ولغطوا بها كثيراً من غير ان يفسروا المراد بها لانهم لم يدرسوا النسبية ولا تفهَّموها. وحذا كتَّاب العربية حذوهم . فتراءت قضايا النسبية ، ومنها « تحدب الفضاء » سخافة مستهجنة . والحق يقال انهم بكتابتهم عن تلك القضايا بلا تفهم ولا تفسير مسخوا نظرية النسبية مسخاً اجرامياً

والسبب الاساسي في هذا المسخ هو عدم تفسير الكتَّاب الاجانب لفظ « الفضاء » وترجمة كتَّاب العربية كلامهم بلا تفسير ايضاً . فاولئك ذكروا الفضاء بلفظ Space وحسبوه فضاءً خالياً Emptiness . وكذلك فهمهُ كتَّاب العربية فترجموه بلفظ « فضاء » وهو لفظ ابلغ لمعنى ذاك اللفظ لانهُ يُشعرنا بمعنى الفراغ المطلق

ولكن علماء العصر ، ولاسيما علماء النسبية ، عنوا بلفظ Space الحيز الذي تشغله المادة من اجرام واجواء Fields جاذبية وكهرطيسية واثير (اذا اقتضى الامر ان يذكروا الاثير) فهو حيز مملوء لا فارغ . واما اذا اقتضى الامر ان يذكروا الفراغ المطلق قالوا Emptiness . وهم يعنون بهِ الفضاء المجهول الطبيعة الذي يحيط بالحيز الكوني المادي ، وما هو الاَّ العدم

لذلك يعد استعمال لفظ « فضاء » في لغتنا العربية لرحاب الكون المادي خطأً لان هذه الرحاب ليست خالية بل هي ملأى من انواع التشعُّع او التموج المختلفة : جاذبية وكهرطيسية . والاصوب استعمال لفظ « حيز » تحاشياً لايهام معنى الفراغ المطلق او الخلاء . فالمقصود بالتحدب الذي نحن بصددهِ هو تحدب الحيز وانحناء كل خط حركةٍ فيه على الاطلاق . ولذلك لا يستقيم تفسير هذا التحدب الاَّ بما عنيناه بلفظ الحيز المشغول بالمادة والمحدود بها . فكيف يكون هذا التحدب ؟

اذا اريد بالخط رسم الخط الوهمي التصوري فالخط المستقيم الاقليدوسي (اقصر مسافة بين نقطتين) موجود . يمكن وجوده بالتصور، وبالفعل ايضاً في المسافات القصيرة، وبالرسم على الورق. واما اذا اريد بهِ الخط الذي يسلكه الجسم المتحرك فلا يكون الاَّ منحنياً . لان العلم العملي مختص بالحركة التي هي حاصل اندماج القوة بالمادة . وخط الحركة لا يكون مستقيماً بالمعنى الاقليدوسي بل هو منحنٍ. اي ان خط الحركة الفعلي لا يطابق الخط الهندسي الاقليدوسي . ولا يمكن ان يطابقه . لماذا ؟

ان سرَّ هذا الانحناء هو في مصدر القوة المنتجة كل حركة في الوجود . وما هو مصدر القوة ؟ — الجاذبية !

سنَّة الجاذبية سبب الانحناء لكل خط حركة في كل جو جاذبي على الاطلاق . ولانهُ لاوجود للحركة خارج الجو الجاذبي اذ لا جسم متحرك هناك فلا وجود لخط حركة مستقيم البتة . اذن لابد من تفسير معنى الجاذبية ولو بايجاز كلي تمهيداً لتفسير كيفية هذا الانحناء

ما هي الجاذبية

رأى فاراداي كما رأى غيره ان جذب المغنطيس للحديد عن بعد ، من غير واسطة تصل بينهما تنقل القوة من الواحد الى الآخر ، امر غير معقول . لذلك فرض وجود شيء ينشره المغنطيس حوله الى جميع الجهات بالتساوي سمّاه الجو المغنطيسي Magnetic field وهذا الجو يفعل في الحديد فيدفعهُ الى جهة المغنطيس . فليس المغنطيس نفسه فاعلاً مباشرةً في الحديد بل جوه الذي هو محدثهُ يفعل في هذا . ولكن ما هو هذا الجو ؟ لم يستطع احد تحقيقه . وانما استعين بفرض الاثير في تفسيره باعتبار انهُ تموجات اثيرية يحدثها المغنطيس في الاثير . وسواء كان هذا التفسير سديداً او خطاء فنظرية فارادي تعني ان الحيز الذي بين المغنطيس والحديد او بالاحرى الحيز المحيط بالمغنطيس ليس فراغاً مطلقاً كما نرى ونظن بل هو جو صالح لانتقال القوة (او بالاحرى حركتها) فيهِ

لم يقتصر فاراداي على النظريات الفلسفية بل اعتمد على الامتحانات العملية فاكتشف «الامواج» الكهرطيسية Electro Magnetic وسمي الحيز الذي تنتشر فيهِ الجو الكهرطيسي » . وجاء بعده مكسويل وآخرون واشتغلوا عمليًّا في تحقيق خواص هذا الجو . ثم جاء نجاح اختراع اللاسلكي برهاناً دامغاً على نظرية فاراداي وفوزاً باهراً لها جعل مجد فاراداي لامعاً

ولما ثبتت هذه النظرية اطلقها العلماء وفي مقدمتهم اينشطين على كل ظاهرة من ظواهر الجذب ، ولا سيما على « الجاذبية العامة » بين اجرام السماء . فقالوا ان الاجرام تنشر حولها جوًّا جاذبيًّا الى جميع الجهات تساوي حدّته Intensity حاصل ضرب كتلها المتجاذبة بعضها ببعض وتنقص كمربع البعد بينها ، وهذا الجو هو الذي تنتقل بهِ قوة الجذب من جرم الى آخر بالتبادل . فالشمس مثلاً لا تجذب بنفسها السيارات اليها وانما جوها الجاذبي الذي تنشره حولها هو الذي يدفع سياراتها اليها كما ان جو السيارات بنوبته يجذب الشمس اليها . فاذا صحّ ان كل جو جاذبي : مغنطيسي او كهرطيسي ، انما هو امواج اثيرية يصدرها الجسم فلا بدع ان تكون « الجاذبية العامة » امواجاً اثيرية ايضاً يحدثها الجرم او الجسم ، وان ذلك الجو الجاذبي بحر اثيري متموج

وحاصل القول ان الرحاب التي بين الاجرام ليست فراغات مطلقة بل هي بحار امواج (اثيرية عند من يعتقد بنظرية الاثير او مجهولة الحقيقة عند من ينكر النظرية) وهي « الجو الجاذبي » بعينهِ . فاذا قلنا ان الفضاء ، او بالاحرى ، الحيز متحدب عنينا ان هذا الجو متحدب بمعنى ان الخطوط التي ترحل فيها القوة على متن تلك الامواج بين الجاذب والمجذوب منحنية لا مستقيمة . وهو ما نُعنى بشرحهِ فيما يلي . ومنهُ نعلم الفرق بين جاذبية نيوتن وجاذبية اينشطين :—

جاذبية نيوتن وجاذبية اينشطين

لم يراعِ نيوتن الزمن الذي تستغرقه القوة « الجاذبة » في رحيلها من المركز (الشمس مثلاً)

الى الجسم الواقع تحت تأثيرها (كالارض) ولذلك صاغ ناموس الجاذبية باعتبار ان القوة تبلغ الى الارض حالما تصدر من الشمس بلا استغراق مدة البتة . واما اينشطين فراعى الزمن لان ناموس سرعة النور وناموس النسبية ايضاً اللذين لاغبار عليهما يقضيان حتماً بأنهُ يستحيل ان توجد في الكون سرعة اسرع من سرعة النور . ولذلك مهما كانت القوة الراحلة من المركز الى المحيط سريعة يستحيل ان تكون اسرع من النور . حَسْبَها ان تكون كسرعة النور . (وفي رأي هذا الضعيف انها كسرعة النور تماماً بناءً على عقيدة ان الجاذبية كالنور تموّج اثيري . ولتموج الاثير سرعة واحدة في كل مكان وزمان . لان سرعة التموج تتوقف على الكثافة كما شرحناه في المقال السابق في المقتطف تحت عنوان «حجم ذرة الاثير» . ولانّ الاثير اكثف مادة في الكون . فتموجه اسرع تموج . او هو منتهى السرعة . وهو السرعة المطلقة Absolute Velocity)

والتموج الاثيري هذا هو الوسيلة لنقل القوة Energy او الطاقة محمولة على متنهِ . فلنتتبع موجة جاذبية واحدة فقط صادرة من الشمس (في الرسم) ومنتشرة في الحيز الجاذبي (الفضاء بعرف العامة) الى جميع الجهات بسرعة واحدة . ولنفرض ان الدوائر التي في الرسم تمثل المواقع المتوالية لتلك الموجة المفردة في خمس برهات متساوية . ولنفرض ان الارض(ض) انتقلت في اثناء هذه البرهات الخمس من ض الى ضَ متنقلة على النقط الخمس بَ جَ دَ هَ ضَ ذات المسافات المتساوية في نفس البرهات الخمس التي تنقلت فيها القوة (الموجة) على الترتيب نفسه من ١ — ٥

لو كانت الارض خلواً من حركة استمرارية Inertial البتة ، اي لو كانت ساكنة لكان حكمها كحكم الحجر الساقط من علٍ الى الارض . اي انها تسقط في الخط المستقيم من ض الى ش . ولكن لان لها قوة استمرارية تعادل قوة الجاذبية وتعامدها تسير في فلك مستدير (تقريباً) بفعل القوتين المتعامدتين كما هو معلوم

قلنا ان القوة الصادرة من المركز تنتشر الى جميع الجهات فلا يصيب الجسم الواقع تحت تأثيرها كالارض الاَّ جزءٌ منها كما هو ظاهر ومفهوم بالبداهة . ويسمى الخط الذي يسير فيهِ هذا الجزء «خط القوة» Radius Vector لانهُ يجتاز خطّاً من الشمس الى الارض (فلا هو مسطح ولا هو مجسم) فلما كانت الارض عند ض كان جزء القوة يتجه اليها في الخط ش ض . ولكن الارض لم تبق في مكانها تنتظر جزء القوة هذا بل سارت في سبيلها. فما بلغ جزء القوة الى ب في البرهة الاولى حيث صارت الموجة في الدائرة الثانية حتى كانت الارض قد برحت الى بَ واصبحت تقابل خط قوة آخر أي صار جزء قوة آخر يتجه اليها في الخط ش ض . ولكن القوة لم تدركها هناك فما بلغت الى ج في البرهة الثانية حيث صارت الموجة في الموقع الثالث حتى كانت الارض قد رحلت الى جَ واصبحت تجاه جزء آخر من القوة قادم اليها في الخط ش جَ . ولكنه لم يدركها ايضاً هناك لانها سبقت الى د واصبحت تجاه جزء آخر من القوة في خط ش دَ . وهكذا لم تبلغها القوة عند هَ لان الموجة لا تزال في الدائرة

الرابعة والارض تجاوزت اتجاه خط القوة ش هَ . فما ادركها من القوة الاَّ الجزء المتجه في الخط ش ضَ فالتقيا عند ضَ

نرى مما تقدم ان جزء القوة الذي ادركها في الموجة التي صدرت من الشمس حين صارت عند ضَ هو غير الجزء الذي كان متجهاً اليها حين كانت عند ض . فاذا وصلت بين نقط «خطوط القوة» التي تعاقبت في الاتجاه اليها في البرهات الخمس المتوالية (ش ج د ه ض) رأيت الخط الذي يمر في هذا النقط منحنياً . اذن القوة التي رحلت من الشمس الى الارض لم تسر اليها في خط مستقيم — لا في الخط ش ض ولا في الخط المنقوط ش ضَ — بل رحلت اليها في الخط المنحني ش ض ج د ه ضَ ولك أن تقول بعبارة اخرى : منذ صدرت من ش القوة ، أو الجزء منها المقابل للارض ض جعل هذا الجزء يميل في سيره منحنياً كما تراه

يستفاد مما تقدم ان ناموس نيوتن يعتبر القوة راحلة الى الارض في خط مستقيم في الحال (بلا استغراق وقت) قبل أن ترحل الارض من موقعها ض . ولكن ناموس اينشطين يعتبر ان القوة استغرقت وقتاً في الرحيل الى الارض السائرة في طريقها . فاضطرت (أي القوة) أن تسير في ذلك الخط المنحني لكي تدركها

فالخط المستقيم ش ض الذي اعتبره نيوتن «خط القوة» يمثل مسافة البعد بين الشمس والأرض مجرداً من الزمن. لذلك صاغ ناموسه باعتبار ان الراديوس (نصف القطر) ش ض مسافة البعد بين المتجاذبين الشمس او الارض وان نسبة قوة الجذب بينهما كنسبة مقلوب مربع البعد بينهما $\frac{١}{(\text{ش ض})^{٢}}$

وأما الخط المنحني الذي اعتبره اينشطين طريقاً للقوة في رحيلها من الشمس الى الارض فلا يمثل مسافة البعد فقط بل يمثل المسافة والزمن جميعاً . لأن الراديوس يمثل الزمن الذي استغرقتهُ القوة في مسافته ، والخط ض ضَ يمثل الزمن الذي استغرقتهُ الارض في مسيرها من ض الى ضَ . ومجموع مربعي الراديوس وهذا الخط يساوي مربع الخط المنحني ش ضَ كما هو معلوم . فاذاً هذا الخط المنحني يمثل الزمن الذي استغرقتهُ القوة في سيرها من ش الى ضَ واستغرقتهُ الارض في في مسيرها من ض الى ضَ حيث التقت بالقوة . لذلك صحح اينشطين ناموس الجاذبية بأن حسب البعد بين المتجاذبين ذلك الخط المنحني لا الراديوس الذي حسبه نيوتن . فاذاً

$$\text{ناموس نيوتن للجاذبية} = \frac{\text{ش} \times \text{ض} = \text{كتلة الشمس} \times \text{كتلة الارض}}{(\text{الخط ش ض})^{٢}}$$

$$\text{ناموس اينشطين : الجاذبية} = \frac{(\text{ش} \times \text{ض})}{(\text{الخط ش ضَ المنحني})^{٢} = (\text{ش ض})^{٢} + (\text{ض ض})^{٢}}$$

يتضح مما تقدم ان معنى تحدُّب الجو الجاذبي هو أن الجسم الذي يقع في أي جو جاذبي يكون تحت تأثير قوة واردة اليه في « خط قوة » منحنٍ كما علمت

قصور هندسة اقليدس

اذا سكتنا عند هذا القول بقي البحث ناقصاً . فلنتقدم فيه خطوة اخرى لكي نعلم كيف يختلف هذا التحدُّب باختلاف مواقع الاجسام في الجو الجاذبي

من فروع ناموس الجاذبية التي هي من مقتضياته « ناموس التسارع بالنسبة الى البعد» وهو ان الجسم الاقرب الى مركز الجذب يكون أسرع في فلكه من الجسم الابعد عن المركز بنسبة $\frac{س^٢}{ش}$ باعتبار ان س رمز السرعة و ش رمز البعد (الذي يعبر عنهُ بالشعاع أو نصف القطر أو الراديوس) وقد شرحت هذا القانون الفرعي في المقتطف منذ نحو سنتين

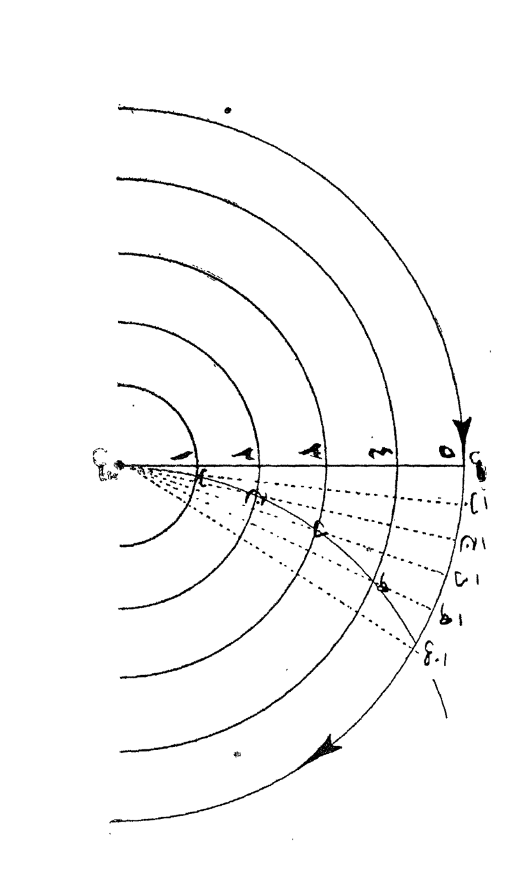
بناءً على هذا القانون يكون انحناء « خط القوة» تجاه الجسم الاقرب أشد منهُ تجاه الجسم الابعد. لان ذلك اسرع من هذا فيواجه من «خطوط القوة» عدداً اكثر مما يواجه هذا ، فلا تدركه القوة الاَّ وقد رحل مسافة (بعد ما يرحل هذا) . ولذلك يكون «خط القوة» اكثر انحناء . ولا أظن القارىء يتعذر عليهِ فهم هـذه النقطة من الموضوع اذا فكّر قليلاً . ولذلك لا أرى داعياً لتمثيلها برسم شكل ثانٍ

وبناءً على هذا القانون الفرعي ايضاً يكون ان الجرم الذي له من السرعة الاستمرارية (الذاتية) ما يحميهِ من السقوط الى مركز الجذب يسير بخط منحنٍ متمم دائرة حول المركز . فكلما كان أقرب الى المركز كان خط سيره اكثر انحناء (كما هو معلوم ان قوس الدائرة الصغرى اكثر تقوُّساً من قوس الدائرة الكبرى)

اذاً يتضح مما تقدم ان تحدُّب الجو الجاذبي يكون اشدُّهُ على مقربة من المركز واضعفهُ كلما كان ابعد عنهُ

وبناءً عليه اذا مرّ فيهِ خيط من النور (واشعة النور خاضعة لتأثير الجو الجاذبي كما رأى اينشطين وأيدتهُ الارصاد الفلكية) الوارد من نجم سحيق والمار على مقربة من الشمس يظهر انحناؤه حين مروره في جوها الجاذبي الاقرب اكثر من خيط آخر يمر في جوها الابعد . وقد حققت هذه الظاهرة بعثة فلكية بريطانية حين حدث كسوف كلي يرى من مناطق الارض الجنوبية سنة ١٩١٨ وثبت لها ان الزاوية بين الخط المنحني والخط المستقيم ١ ، ٧ الثانية كما تنبأ اينشطين بحسابهِ الرياضي . وكان حسابه مبنيًّا على تصحيحه لناموس نيوتن الذي بسطناه آنفاً

يتضح مما تقدم ان الفضاء (الحيز) يُعد متحدّباً باعتبار أن المراد بالفضاء ذلك الجو الجاذبي الذي نحن بصددهِ اي الحيز الذي يملأُه هذا الجوّ . فاذن حيث يوجد جو جاذبي ، اي حيث توجد اجرام متجاذبة ، يكون الحيز (الفضاء) متحدّباً . وحيث لا اجرام فلا جو جاذبي ، كما هي الحال في الرحاب الشاسعة بين الجزر الكونية — المجرات المتباعدة ابعاداً سحيقة . وبالتالي يعتبر الفضاء الخالي هناك غير متحدّبٍ



في هذه الرحاب الخالية تصلح هندسة اقليدوس ذات الخطوط المستقيمة اذ لا أجرام متحركة هناك . واما في الاجواء الجاذبية فلا تصلح ، لانهُ يستحيل ان تحدث فيها حركة في خط مستقيم البتة . والاجرام تسير في افلاك مستديرة (او اهليليجية) والقوى الفاعلة فيها ترد اليها في خطوط منحنية . لذلك لا يصح اي حساب فلكي على قاعدة الخطوط المستقيمة بل لابدَّ من الحساب على قاعدة الخطوط المنحنية على الاطلاق . وقضايا اقليدوس بشأن الخطوط المنحنية قاصرة لا تفي بالغرض . ولذلك توسع فيها الرياضيون الحديثون الى ان وفت بالغرض . و لا ينكر انهم بنوا توسعهم على قواعد الهندسة الاقليدوسية . لذلك لا يصح القول انهم كسفوا مجد اقليدوس بل بالاحرى اظهروه لامعاً

***

بقيت ملاحظة اخرى لا بدَّ من ذكرها لازالة وهم قد يطرأ على ذهن القارىء . وهي ان رحاب الفضاء الخالية من السدم والاجرام وجزر الكون الاعظم ليست خالية من الاجواء الجاذبية خلوًّا مطلقاً بل ان اجواء الجزر منتشرة فيها انتشاراً ضعيفاً جدًّا لا يحسب حسابه

بناءً على ثبوت التحدب في كل حيّز جاذبي بالمعنى الذي شرحناه آنفاً يستنتج اينشتين ان حيز الكون الاعظم الذي يشمل الملايين من العوالم كعالم المجرَّة انما هو لوح (يعبرون عنه بلفظ Surface محدب بحيث تلتقي جميع حواشيه بعضها ببعض ويصبح كالكرة الفارغة الجوف (وفي رأيه كالبيضة ، اي بيضي الشكل Oval) ضمنه فراغ مطلق وحوله فراغ مطلق (عدم) والعوالم تسبح في قشرة البيضة . وبسط مذهب اينشتين هذا يشغل مقالاً قائماً بذاته

فاذا صحَّ ان الكون الاعظم لوح محدب على هذا النحو فبالطبع كل خط مستقيم يمرُّ في هذا اللوح يكون محدَّباً ويمكن ان يلتقي طرفاه ، كما ان الطيار الذي يطير في جو الارض في خط مستقيم بحيث لا يحيد يمنة ولا يسرة ولا يحلق ولا يهبط لا بدَّ ان يصل اخيراً الى النقطة التي رحل منها . فالخط المستقيم الذي لازمه في رحيله انما هو دائرة تامة لا خط مستقيم اقليدوسي . ومع ذلك لك ان تقول ان هذا الخط اقرب مسافة بين نقطتين في حين انهُ متحدّب كتحدب السطح الذي مرّ فيهِ . لا يكون الخط الاقصر بين نقطتين في قشرة البيضة المحدَّبة الفارغة مستقيماً بالمعنى الاقليدوسي الاَّ اذا اخترق القشرة ومرَّ في فراغها وظهر مخترقاً ناحية اخرى فيها . وهذا خط تخيلي لا يمكن ان يتسنَّى لخطوط الحركة الكونية التي لا تستطيع ان تفارق الاجواء الجاذبية . حتى النور نفسه لا يستطيع ان يفارق الحيز الكوني الكروي الفارغ الجوف . فلا يمر في تجويفه ولا يشرد في العدم المحيط بهِ بل تضطره الاجواء الجاذبية ان يلازم اللوح الكروي

بعد هذا الشرح اصبح الرياضي يفهم كيف ان المثلث في سطح محدب لا يمكن ان تساوي زواياهُ قائمتين . والمربع والمكعب لا تكون زواياها قائمة . وكيف ان الخطين المتوازيين قد يلتقيان في قطب — الى غير ذلك مما يناقض هندسة اقليدوس

النشوء والارتقاء

للشاعر عبد الرحمن شكري

أَراكَ فريسةَ الجُوعَيْـــنِ سغباناً وشهوانا
برَبِّك أيها الانسا ن لِمْ أصبحتَ إنسانا
بعقلٍ يبلغ الشمــس وأقصى الكون عرفانا
وجدتَ لكل ما كان من الأكوان ميزانا
كأنك خالق الخَلْقَيْـــن أكواناً وأزمانا
وسَخَّرْتَ الرياح مَطِيَّـــةً والبرق فرسانا
وقد أعليتَ عمراناً وقد قَدَّسْتَ أديانا
وردت العيش عرياناً وترجع عنه عريانا
وملء حياتك الأحزا ن والآلام ألوانا
وتُبكيك الحياة كما يفتُّ الجَوُّ صوانا
وتصرعك الجرائم كما لو كنت ديدانا
وقد تهلك غرثانا وقد تهلك مِبْطَانا
وقد تغدو الى اللذا ت فَتَّاكاً وخزيانا
فبين الجوع والشهو ة قد أُجْرِيتَ ميدانا
وللتحليل والتحري م قد أعددتَ تبيانا
فما أصلحت حالَيْكَ ولا طهرتَ أدرانا
وفُقْتَ الطير والحيوا ن آثاماً وأشجانا
وزنت الذَّرَّةَ الصغرى وما أعددت ميزانا
لعيشك كي يكون العيش إسعاداً وإحسانا

* * *

بربك ايها الانسا ن لِمْ أصبحتَ إنسانا

غزل المتنبي

لخليل شيبوب

يجوز لنا ان ننعت بعض الابواب من الشعر كالمديح والرثاء والهجاء بأنها موضوعية الى حدٍّ ما لان الشاعر ينظر فيها الى ممدوحه او الى خصيمه ليقول ما فيهما حيناً وما ليس فيهما احياناً ما . اما الغزل في الشعر فانهُ ذاتي محض لان الشاعر ما لم يكن مقلداً او سارقاً لا يمكنهُ ان يعرب الاَّ عن شعوره الخالص فيسبغ على قوافيهِ فيض احساسه وقرارة نفسه

والشاعر غـزِلٌ بطبيعته لانهُ مرهف الحس متسع الخيال . وهما جناحان يحلق الشاعر بهما في سماء الفن . ومن كان كالمتنبي جامح العبقرية، صعب الشكيمة ، دافق النفس كان لا بدَّ ان يفوق سواه في افتتانهِ بالمرأة التي تظل المثل الاعلى للجمال في هذه الدنيا لانها هي الجمال بمختلف صوره ومعانيه التي تزهو فيها الحياة فتخاطب العقل والقلب والدم وتتحد فيها اغراض الحياة جميعاً

ولا اعرف في غير آداب اللغة العربية تقسيماً للشعراء يتناول جزئيات الشعر من الجهة الفنية . فبينما يقال ان شكسبير روائي وهوميرس قصصي ترانا نقول هذا شاعر غزل مثل عمر ابن ابي ربيعة او مدَّاحة نوَّاحة مثل ابي تمام او هجَّاء مثل دعبل او وصَّاف مثل ابن المعتز او ما شا كل ذلك من النعوت التي تعد من تفاصيل الشاعرية العامة لأن في الرواية او القصة غزلاً ومدحاً ونوحاً وهجاءً ووصفاً، وقد يجيد الشاعر الموهوب القصة والرواية معاً او يجيد هذه ولا يجيد سواها

واذا نظرنا الى المتنبي على ضوء التقسيم العربي نخطىء اذا قلنا انهُ غزل او مدَّاح او هجَّاء او وصَّاف لانهُ كل هذا بل هو فوق هذا كله لانهُ شاعر الحياة فهو اذن من كبار شعراء الانسانية

ان هذا الرجل الفذ الذي نبت في الطبقة الدنيا اذ كان ابوه يبيع الماءَ بالكوفة حدثتهُ نفسهُ ان يدَّعي النبوة وان يطمح الى الامارة فعاش عيشة الجد والاستكبار متطلعاً الى غرضٍ سامٍ اراد تحقيقه عن طريق النبوَّة ثم قذف بهِ من حالق فعمد الى الشعر يتخذه وسيلةً حتى اذا فاته ذلك الغرض عاش اسمه بهذا الشعر في درجة الخالدين من الانسانية . وها هو بعد الف عام من وفاته يقيم الشرق ويقعده . وتعقد لهُ الحفلات في كل بلد . وتخصص لهُ اعداد الصحف الدورية وغير الدورية فاذا كان قد فاتتهُ الامارة في عصره فانهُ بلغ امارة الشعر على العصور . واذا لم يحكم على الاجسام بسيفه وسطوته فقد تحكم في العقول والنفوس بعبقريته وقوافيه

وطالما سألت نفسي ما كان يجري لو بلغ المتنبي مأربهُ من الولاية او الامارة . أَتراه يبقى على

عبقريته القوية ام يجنح بهِ تصريف آلة الحكم عن الادب والفن ام يتمشى بهِ الترف الى الليونة والتراخي ؟ وهو سؤال لم اقنع نفسي بأي ردٍّ عليهِ الى اليوم . . . ولكنني اميل الى الاعتقاد بأنهُ لو تم ذلك لهُ لما اقفل باب التاريخ في وجه ابن الرومي دهراً . ولا رجح اسمه بأبي تمام والبحتري ولا شغل الناس عن الشريف الرضي ومهيار الديلمي وابن حمديس وجميع من جاء بعده الى الحد الذي شغلهم بهِ عنهم

وقد اجمع المؤرخون على ان المتنبي كان كثير الجد في حياته . قويم الخلق لا يميل الى لهوٍ ولا الى دعابة . واكبر الظن انهُ لم يكن يمزح بل لعله لم يفهم الدعابة والمباسطة . وكم تصورته في مخيلتي رجلاً عصبيًّا . عابس الوجه . مرير الطبع . منغص القلب في معيشته مقيماً لكل حديثٍ وزناً لاهمَّ له الاَّ كسب الاموال . وبلوغ المعالي . وسبق الاقران . واثارة الاعجاب بنفسه عند الذين يحيطون بهِ . ومن كان كذلك لابدَّ لهُ ان يتجانف عن اللهو والمزح ويصدف عن مجالس الشراب الا اذا اضطرَّ اليها ويكبت ميله الى الحسان اذ كان العرف السائد ان العشق اذا طغى على قلب الرجل ذهب بهِ كل مذهب . ودفع بهِ الى الاستهتار بجد الامور . وقعد بهمته عن جلائل الاعمال . ولا يتفق هذا لمن يطمح الى امارة وزعامة

لم تذكر التراجم العربية عن المتنبي هوًى اختصَّ بهِ امرأةً بعينها ولكننا نقرأ لهُ كما نقرأ لسواه شعراً يعرب فيهِ عن شغفه بالنساء ووقوفه بالاطلال وتفجعه من الوداع وما يلحق بهذا من وصف الحمى ومنازل الحسان وسكب الدموع شوقاً . ونحول الجسم هياماً . وما اشبه ذلك من مألوف الغزل الذي عاش بهِ الشعر العربي قروناً طويلة

تلك هي النظرة العجلى في ذلك الغزل المتفشي في تضاعيف القصائد . ولكن القارىء المتريّث يلاحظ في ثنايا المعاني اتجاهات خاصة اذا الّف بينها انجلت له مبادىء المتنبي الغزلية — اذا جاز هذا التعبير — فنفى من شعره ما كان فيهِ مقلداً وأخذ بما هو ذاتي جديد صادر عن شعور عميق صادق . وليس كشعر المتنبي للاستدلال بالبحث فيهِ على الذاتي منهُ وغير الذاتي . لانه صاحب اغراض خاصة . ومعان متسلسلة مبتدعة لم يسبقه اليها من تقدمه ولم يلحقه فيها من تأخر عنه لفقدانه الحاجة اليها بفقدانه الغرض منها وان كان المتنبي ليتناول البادرة الهينة فيتوسع فيها الى ابعد غايات الحياة من مشاعر كل عصر . واغراض كل جيل . حتى يبز بها من سبقه ومن لحق به

ولابدَّ هنا من الاشارة الى ان ديوان المتنبي فريد بين الدواوين القديمة بكونه مبوَّباً على الطريقة الحديثة لان قصائده متسلسلة التنسيق تبعاً لسني النظم والانشاد لا لابواب الشعر وحروف الهجاء. وعلى الرغم من ان بعض ما نسب منها الى نظمه اياها في صباه لا تقنع بصحة موقعها من الديوان الاَّ ان ذلك التنسيق يساعد كل المساعدة على تتبع المتنبي في اطوار شبابه ونضوجه واكتهاله

اجل لقد اشتهر كثير من الشعراء بغرام خاص حفظ التاريخ اسم صاحبته امثال ابي نواس وجنان

وابن الاحنف وفوز وقبلهما عشاق الصدر الاول للاسلام ولكن المتنبي لم يشتهر بحب امرأة بعينها فهل كان ذلك مجرد مصادفة ؟ . . . لا اظن ذلك كذلك بل اظن ان مرضه بحب الامارة جعله يستنكف اقتران اسمه باسم امرأة ربما عيره بها اعداؤه وان تغنى بحب الجمال وانتسب الى زمرة العشاق ابان صباه الاول اثباتاً لرجوليته . وتوكيداً لسامعه ان لم يكن بعزهاة معتبراً هذه الصفة منقصة لشعوره . فالمسألة خلقية قبل كل شيء ولعلها الى جانب هذا تدخل في طبيعة المتنبي لان شعره يدل على انه كان غزلاً ملتهب العاطفة الاَّ انه كان عزوفاً عن مواقف التخصيص فهو من الفريق الذي يسميه الفرنجة «دون جوان» Don Juan — ولعلَّ لفظة عِشّيق (بكسر العين والشين المشددة) لا زير نساء تؤدي معناها — فهو تستصبيه المرأة الجميلة كيفما عنَّت له ولا يقنع بحب واحدة او اثنتين بل يعشقهنَّ جميعاً ويصبو اليهنَّ جميعاً وهذا الطراز من المحبين يأخذ بالصورة الماثلة التي تثير العاطفة وتستفز نوابض القلب ولا يهمه ما وراء هذه الصورة ولعله لا يطيل التفكير بها كأنما كل صورة اذا لم تمح سابقتها فهي تضعف تأثيرها بلا ريب

وقد ابدع المتنبي يصف نفسه في مواقف غزله بما ينطبق كل الانطباق على تعريف هذا الصنف من المحبين حيث يقول :

فما امر بربع لا اسائله ولا بذات خمار لا تريق دمي

وحيث يقول : ما لاح برق او ترنم طائر الاَّ انثنيت ولي فؤاد شيق

وحيث يقول على التعميم :

فالثغر والنحر والمخلخل — والمعصم دائي والفاحم الرجل

وهكذا لا يمر بربع الاَّ وقف يسأل قطينه اين ذهبوا وماذا جرى لهم ولا يرى ذات خمار الاَّ استشفَّ جمالها من وراء خمارها فشعر انهُ يموت حبًّا وهو ما كنى عنهُ بأراقة دمهِ كما انهُ يصبو لكل برق يلوح وطائر يترنم وانما داؤه حب الثغر والنحر والمخلخل وسائر الاعضاء الجميلة ومظاهرها فأين تذهب بهذا تلك المحبوبة المنفردة التي يختصها بعاطفته ويقف عليها صبوته لذلك نرى المتنبي يفرط في التغزل بالنساء عامة وبالحسان مجتمعات كقوله :

الراميات لنا وهنَّ نوافر والخاتلات لنا وهنَّ قواتل

وقوله أيضاً : لبسنَ الوشيَ لا متجملات ولكن كي يصنَّ بهِ الجمالا

وضفَّرنَ الغدائر لا لحسنٍ ولكن خفنَ في الشعر الضلالا

وقوله وهو في درجة لا تدانى من الابداع :

ديار اللواتي دارهنَّ عزيزة بطولى القنا يحفظنَ لا بالتمائم

حسان التثني ينقش الوشي مثله اذا مسنَ في اجسامهنَّ النواعم

ويبسمنَ عن درٍّ تقلدنَ مثله كأنَّ التراقي رصّعت بالمباسم

وفي البيت الثاني صورة يعجز عن ابرازها أكثر الراسمين . وان الشعر الذي يؤيد هذه النظرية متوافر في الديوان كل التوافر. على ان من كان ملتهب العاطفة كثير التعشق على هذا النحو لا يبعد ولا يستغرب ان تستعبدهُ احدى الجميلات ولو حيناً فتشعرهُ بنار العشق التي تقلقل الضلوع . ولعلَّ المتنبي وقع في العشق واكتوى بناره أيام شبابه الاول على الاقل وقبل اتصالهِ بسيف الدولة . لانهُ لا يمكن للعبقرية مهما عظمت ان تدل صاحبها على شعور لم يحسهُ فلا بد ان يحس بهِ ولو قليلاً لان تجسيمه عن طريق الخيال لا يستقيم الى الحد الذي يستقيم بهِ من وراء الاحساس وكل صاحب فن لا تتطرق الصورة او العاطفة الى فنه الاَّ عن طريق حواسه . غير ان العبقرية هي التي تجعله يحلل شعوره ويدرس خلق النساء في تفكير وتأمل . ولم يكن المتنبي في ادبهِ صاحب فن فحسب بل هو مفكر نافذ البصيرة ثاقب النظر الى الحياة يحيط بها من شتى جوانبها . ولعلهُ قد وقعت لهُ حادثة غرام واحدة تضاف الى تنقله في التعشق جعلتهُ يصف أخلاق النساء على نحو ما قال :

اذا غدرت حسناء وفت بعهدها　　فمن عهدها ان لا يدوم لها عهد
وان عشقت كانت اشد صبابة　　وان فركت فاذهب فما فركها قصد
وان حقدت لم يبق في قلبها رضى　　وان رضيت لم يبق في قلبها حقد
كذلك اخلاق النساء وربما　　يضل بها الهادي ويخفى بها الرشد
ولكن حبًّا خامر القلب في الصبى　　يزيد على مرّ الزمان ويشتد

ولا شك ان هذه الابيات تشعر بشيءٍ من القسوة في الحكم مرجعهُ الى العصر والبيئة وما عدا هذا فانهُ فيها من تفهم طبيعة المرأة ما تبقى حقيقته ما بقيت هذه الطبيعة . على انهُ في البيت الاخير مرارةً ولوعةً لا يحس بهما الاَّ من جرب مثل ذلك الحب الذي خامر القلب في الصبى ولم يزده مرُّ الزمان الاَّ اشتداداً على الرغم مما خبره من تلك الاخلاق التي وصفها . واننا نعرف ما نعرف عن كبرياء المتنبي وتعاظمه حتى قال عن نفسه

تغرب لا مستعظماً غير نفسه　　ولا قابلاً الاَّ لخالقه حكما

وقال كثيراً غير هذا في معرض القوة والجبروت فاذا بهِ في معرض الحب يقول :

تذلل لها واخضع على القرب والنوى　　فما عاشق من لا يذل ويخضع

فلا ريب ان شعوراً مفرطاً بالحاجة الى استرضاء حبيبةٍ بعينها افهمه ان الخضوع هنا لا يعد هواناً وجعله يحرص كل الحرص على انهُ يدعي عاشقاً ويقول معتذراً :

وعذلت اهل العشق حتى ذقته　　فعجبت كيف يموت من لا يعشق

ولا يني في الاعراب عن خوالج صدره بالذهاب في صحة عاطفته الى اقصى غايات الوصف التي لا يوفق اليها الاَّ من ذاق واختبر وهداه اختباره الى استنباط الدقائق الحية واستكناه خفيات المشاعر النفسية كقوله

جرى حبها مجرى دمي في مفاصلي　　فاصبح لي عن كل شغل بها شغل

وقوله ايضاً : قد كنت اشفق من دمعي على بصري فاليوم كل عزيز بعدكم هانا

وقوله في موقف الوداع : تنفست عن وفاءٍ غير منصدع يوم الرحيل وشعب غير ملتئم

قبلتها ودموعي مزج ادمعها وقبلتني على خوفٍ فماً لفم

ولقد تركت تلك القبل في فمه طعماً تناولته شاعريته الكبيرة فوضعته موضع التشبيه البارع حيث قال :

للهو آونة تمرُّ كأنها قبل يزودها حبيب راحل

قال كثيراً من هذا الشعر الغزلي الصادق الذي يتدفق من صميم النفس والقلب. وقد ظن المتنبي ان العاشق يجب ان يكون نحيلاً فقال في صباه :

كفى بجسمي نحولاً انني رجل لولا مخاطبتي اياك لم ترني

فاذا بهِ يعجب بهذا المعنى جدًّا والمرءُ معجب ببنات افكاره حتى لو كان المتنبي لذلك عاد الى نظمه ثانياً

ولو قلم القيت في شق رأسهِ من السقم ما غيرت في خط كاتب

وعاد فنظمهُ ثالثاً : وبليتي فقد السقام لانهُ قد كان لما كان لي اعضاء

ونظمهُ رابعاً باضافة شيء على المعنى :

دون التعانق ناحلين كشكلتي نصب ادقهما وضم الشاكل

وكرر معنى صدر هذا البيت خامساً :

حلتِ دون المزار فاليوم لو زرت لحال النحول دون العناق

وهكذا بقي المتنبي شغوفاً بمعناه هذا يبالغ بهِ في وصف النحول وصفاً يخرجهُ عن المعقول بل هو من الاغراق المرغوب عنهُ . وهو في جملتهِ لا يخرج عن قول ابن ابي ربيعة :

وتقلّبت في الفراش وما تعلم الاَّ الظنون اين مكاني

ولا شك ان المتنبي وضع معناه وضعاً ولم يقتبسهُ اقتباساً والاَّ لما افرط في الاعجاب بهِ حتى كرره ايضاً وهو يهجو ابن كيغلغ لما ورد الخبر بأن غلمانه قتلوه فقال :

فسائلوا قاتليه كيف مات لهم موتاً من الضرب ام موتاً من الغرق

واين موقع حد السيف من شبح بغير جسم ولا رأس ولا عنق

ويصح ان نسمي البيت الاخير من الخيال المستحيل على انهُ وفق مرة واحدة الى وضع هذا المعنى في موضعه الصحيح حين صرفه الى وصف الموت فاستقام في قوله :

وما الموت الا سارق دق شخصه يصول بلا كف ويسعى بلا رجل

ولم يفت المتنبي تعريف الحب ونشأته وحالاته وكيف يطغى على العقل ويغلب العاطفة على الفكر ويعقل الارادة فقال :

وما هي الاَّ لحظة بعد لحظة اذا نزلت في قلبه رحل العقل

وقال : ومن يعشق يلذ لهُ الغرام . وقال في باب التعريف :

الحب ما منع الكلام الألسنا وألذ شكوى عاشق ما أعلنا

ويعتبر هذا البيت من ادق الملاحظات النفسية المتوافرة في الديوان . وقد اشتط بعض النقاد حينما وهم ان في البيت تنافراً معنويًّا اذ زعم ان الحب يمنع اللسان من الكلام وان الشكوى لا تعلن الاَّ بالكلام الذي منعهُ الحب فكيف يكون ذلك . على ان هذا الاعتراض لا يؤبه لهُ اذا علمنا ان العاشق الصادق يذهل في مواقف الغرام ويختبل حتى لا ينبس بحرف وهذا معنى صدر البيت ثم انه لا بد لهُ ان يشكو فاذا اعلن شكواه شعر بلذة غريبة قريبة من بعض اللذة التي يحدثها الالم وهذا معنى عجز البيت . وفي تناقض العشق والعقل يقول المتنبي

يا عاذل العاشقين دع فئة اضلها الله كيف ترشدها

ويقول ايضاً : الى مَ طاعية العاذل ولا رأي في الحب للعاقل

هذا هو موقف المتنبي من العشق والغزل الى السنة الاولى التي لحق بها بسيف الدولة . ومن ثم بدأ عند سيف الدولة حياة جديدة تقتضيه التسامي بنفسه عن كل شائبة . صوناً لكبريائه بين منافسيه فصرنا حينئذ نسمع مثل هذا السؤال الانكاري : أ كل اديب قال شعراً متيم . . . وصار غزله صناعيًّا الاَّ اصداءً بعيدة تتجاوب في نفسهِ لتلك العواطف الزاخرة التي تدفقت في شعره الاول كقوله :

وكيف التذاذي بالاصائل والضحى اذا لم يعد ذاك النسيم الذي هبَّا
ذكرت بهِ وصلاً كأن لم افز بهِ وعيشاً كأني كنت اقطعهُ وثبا

ومثل قوله وهو يسيل حناناً : اذا زلتم ثم لم ابككم بكيت على حبي الزائل

ومثل قوله ايضاً : لعينك ما يلقى الفؤاد وما لقي وللحب ما لم يبق مني وما بقي

ولا بد هنا من الاشارة الى افتتان المتنبي بجمال العينين لوفرة ذكرها في شعره فهل كان ذلك مصادفة شعرية ام هو افتتن بذات عينين جميلتين انطبعت صورتهما في قرارة صدره حتى قال

عزيز اسىً من داؤه الحدق النجل عياء بهِ مات المحبون من قبل

وقال : وعيون المهى ولا كعيون فتكت بالمتيم المعمود

وقال : وفتانة العينين قتالة الهوى اذا نفحت شيخاً روائحها شبا

وفي القصيدة التي ساق مطلعها الى هذا الاستشهاد على السؤال يقول :

وما كنت ممن يدخل العشق قلبه ولكن من يبصر جفونك يعشق

ويقول في وصف العيون مبدعاً :

ادرن عيوناً حائرات كأنها مركبة احداقها فوق زئبق

ويقول ايضاً : ألم يرَ هذا الليل عينيك رؤيتي فتظهر فيه رقة ونحول

ولما اكتهل قال متغزلاً وهو صادق :

افسدت بيننا الامانات عيناها فخانت قلوبهنَّ العقول

وقد اشار الى ان الجمال اكثر ما يكون في العينين حيث قال :

الحسن يرحل كلما رحلوا معهم وينزل حيثما نزلوا
في مقلتيْ رشاءٍ تديرها بدوية فتنت بها الحلل

وما احسن قوله : كل جريح ترجى سلامته الاَّ فؤاداً رمته عيناها

ثم ان المتنبي لما لزم سيف الدولة طفق يبعد بنفسه عن كل ما يخشى ان ينعكس عليه سوء فهمه فلم يعد يكثر من ذكر الغرام والهيام كأنهُ يريد تفهيم سيف الدولة ان نفسه لا تشغله اليوم عنه كما كانت تشغله من قبل عن سواه وان همه ان يرضيه ويظهر لدنه بمظهر الرجل الكبير الذي يستحق الامتيازات التي حصل عليها منهُ . انهُ لا يقبل الارض بين يديه ولا ينشدهُ الشعر واقفاً ويتقاضاه كذا الوفاً على قصائد معدودة فهو جدير بكل احترام على الرغم من ان حرفة الشعر لم تكن ايامئذٍ تسمو بصاحبها الى المعالي وعلى هذا شرع المتنبي يصف نفسه بالعفة والتصون كقوله :

يرد يداً عن ثوبها وهو قادر ويعصى الهوى في طيفها وهو راقد
وهل يشتفي من لاعج الشوق في الحشا محبٌّ لها في قربها متباعد

بل هو ذهب الى ابعد من ذلك فنبذ استهلال القصيدة بالغزل على طريقة اسلافه من الشعراء وصار يدخل مباشرةً في موضوعه والشواهد عديدة على ذلك :

— اعلى الممالك ما يبنى على الاسل — على قدر اهل العزم تأتي العزائم
— اذا كان مدح فالنسيب المقدم — بغيرك راعياً عبث الذئاب
— لكل امرىءٍ من دهره ما تعودا — عقبي اليمين على عقبي الوغى ندم
— طوال قنا تطاعنها قصار — غيري باكثر هذا الناس ينخدع

وعشرات غير هذه من القصائد التي لا ذكر للغزل فيها البتة. وانتفخت اوداج ابي الطيب كبرياءً لما علت مرتبته وانتشر اسمه في الاقطار ولقي من سيف الدولة بالغ الحفاوة والاجلال فتطورت آراؤه في النساءِ تطوراً عجيباً حتى صارت الانوثة شبه مسبة عنده فهو يعتذر عن ام سيف الدولة انها انثى

ولو كان النساء كمن فقدنا لفضلت النساء على الرجال
وما التأنيث لاسم الشمس عيبٌ ولا التذكير فخرٌ للهلال

ولا يقولنَّ احد ان المتنبي اراد في البيت الثاني ان يساوي بين التذكير والتأنيث وانما ساقهُ الموقف الى هذا التشبيه بعد ان قرر في البيت الاول تفضيل الرجال على النساء . وجاء بعدئذٍ يقول ان التـأنيث ليس عيباً . ومعنى ذلك انهُ ليس بعيب اذا كانت ام سيف الدولة انثى ولكنهُ عيب في سواها . . وبلغت قلة الذوق بالمتنبي وهو مسوق بآرائهِ هذه انهُ لم يستنكف حين عزَّى سيف الدولة فيما بعد بفقد اختهِ الصغرى ان يقول لهُ :

واذا لم تجد من الناس كفئاً ذات خدر ارادت الموت بعلا

وذهب الى أبعد من ذلك فقرر ان شيمة النساء الغدر وان الدنيا غادرة فهي تشبه النساء. ولعلَّ هذا الشبه جعل لفظ الدنيا مؤنثاً . فقال والضمير عائد الى الدنيا :

وهي معشوقة على الغدر لا تحـــفظ عهداً ولا تتمم وصلا
شيم الغانيات فيها فما أدري لذا أنَّث اسمها الناس ام لا

فالتأنيث والغدر ونقض العهد كل هذا واحد في نظر المتنبي. وقد لزمتهُ هذه الفكرة في الغواني الى آخر عمره فصار لا ينظر الى المرأة الاَّ انها أداة لهو واستمتاع وصار غزله ماديًّا بحتاً حينما عاد في ابان اكتهالهِ الى الغزل كقوله :

ولا ليـلة قصرتهـا بطـويلة أطالت يدي في جيدها صحبة العقد

وقوله : شامية طالما لهوت بها تبصر في ناظري محياها
فقبلت ناظري تغالطني وانما قبلت بهِ فاها

وقوله ايضاً وهو قبيح : عد وأَعدها فحبذا تلف ألصق ثديي بثديها الناهد

ولو لم تكن نضبت حيوية المتنبي لما قال :

فـما حرمت حسناءَ بالهجر غبطـةً ولا بلغتها من شكا الهجر بالوصل

كل هذا وقع له وهو كهل في السنوات القصيرة التي قضاها بعد يأسه من التصون والتعفف ولكنه كان قد قسا عوده وجفت عواطفه واصبح لا يستلذ بالخالجة التي تلجلج النطق وتذهل العقل بل صار يطلب الموقف المثير والملمس الوثير بل صار يعكس مواقف الغرام فيجعل المرأة تقبله وتستبيته ولم يعد طلب الوصل رجاء بل اغراءً فلسفيـًّا مزيجاً من اللذة والتفكير بفناء الدنيا والقارىء المتأني يعجب كل الاعجاب بهذين البيتين :

زوّدينا من حسن وجهك مادام فحسن الوجوه حالٌ تحول
وصلينا نصلك في هذه الدنيا فان المقام فيهـا قليل

على انهُ بعد انفصاله عن سيف الدولة ولحاقه بكافور لزم في مصر حيال كافور خطته مع سيف الدولة في الانصراف عن الغزل . ولا نرى المتنبي تغزَّل في مصر الاَّ مرة واحدة حينما وازن بين الحضريات والبدويات في قصيدته التي مطلعها

من الجآذر في زي الاعاريب حمر الحلي والمطايا والجلابيب

اما قصيدته التي يقول فيها : ولكن قلبي يا ابنة القوم قلّب . فقد دعا حسناءهُ ابنة القوم وفاقاً لعادة عربية قديمة تنادي بها المرأة هكذا امتداحاً لها بأن لها قوماً تعتز بهم فجعل نفسه غريباً عنها وفيها يقول

احنُّ الى قومي واهوى لقاءهم واين من المشتاق عنقاء مغرب

وهل اشرف من عاطفة الحنين الى الاهل فالمتنبي يقف في مصر مواقف مشرفة لان رأسه تغلي بأطماعهِ المعروفة وكافور يطاولهُ ويمنيه واذا جاز الافتراض قلنا لعلَّ كافوراً اوعز من باب السياسة الى

بعض اشياعه ان يعير المتنبي بتطلعه الى النساء ومعاقرة الخمر دفعاً عن اطماعه ولعلَّ التهمة قرعت سمع المتنبي والاَّ فما معنى ان يدلل طويلاً بعفته وابائهِ واجتنابهِ للخمر ويذكر هاتين الخلتين مفتخراً فيقول

وغير فؤادي للغواني رمية   وغير بناني للزجاج ركاب

ثم يشفق ان يتهم بالضعف في موضوع الحسان فيقول :

وللخود مني ساعة ثم بيننا   فلاة الى غير اللقاء تجاب

وراح يسلك في تعريف العشق مسلكاً لا يتفق مع ما سبق له في قصائده السالفة فيزعم ان العشق غرور وطمع حيث قال :

وما العشق الاَّ غرة وطماعة   يعرض قلب نفسه فيصاب

وصار يقول ايضاً : يحب العاقلون على التصافي   وحب الجاهلين على الوسام

فيجمع بين الحب والعقل بعد ان أشاد طويلاً بالتفريق بينهما وينسب الجهل الى عشاق الجمال وانكى من هذا قوله

مما اضرَّ بأهل العشق انهم   هووا وما عرفوا الدنيا ولا فطنوا

تفنى عيونهم دمعاً وانفسهم   في اثر كل قبيح وجهه حسن

كأن كل عاشق جاهل وكل جميل الوجه قبيح النفس وكأنهُ لم يكن يحب اهل العشق هؤلاء الذين يرميهم بالجهل وهو الذي قال :

وما انا الاَّ عاشق كل عاشق   اعق خليليه الصفيين لائمه

وقد يتزيا بالهوى غير اهله   ويستصحب الانسان من لا يلائمه

وهو الذي قال : ضروب الناس عشاق ضروبا   فاعذرهم اشفهم حبيبا

اجل لم يكن المتنبي ليجسر على الجهر باطماعه عند سيف الدولة ونحن نعرف ما كان عليهِ من الشجاعة والفروسية والعزة والسطوة بل هو من قومهِ بني حمدان في سياج من الامراء والقواد ممن لا يجوز للمتنبي ان يفكر في تخطيهم الى ملك او امارة . ولكن الحالة في مصر غير الحالة في حلب وكافور عند اسود اغتصب ملك سيده وتصدر لتصريف شؤون البلاد والعباد وليس له قوم يرتكز على عصبيته فيهم وقد الحَّ في استدعاء المتنبي ليرفع به جاهه ويدل به على غيره من الملوك فلا ضير على المتنبي اذا طلب الولاية والامارة وهو لن يتخطى اليها احداً من اهل كافور الاقربين وسواء في حلب او في مصر فان المتنبي لزم خطته في التغني بمناقبه الرفيعة واخصها بعده عن النساء وترفعه عنهن ولكن بعد ان هرب من مصر ولحق ببني بويه وقد انهارت آماله واخفقت مساعيه عاد الى الغزل واطلق لنفسه العنان في صدر قصائده على السيرة القديمة المألوفة ولكنهُ كان قد تجاوز سن العشق فجاء غزله ماديًّا كما اسلفنا وظلت المرأة كما صورتها له كبرياؤه بعد طور الصبا

ومن العجيب ان يذهب المتنبي ضحيــة امرأة هجــاها فأفحش فقتـله اخوها . وهذا منتهى سخرية الاقدار !

آراء الباحثين

في اصل الشعور الديني

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

كثيراً ما كنت اسأل والدتي في طفولتي ورأسي على حجرها سؤالاً كان يشغل بالي يومئذٍ كما يشغل بالي اليوم وهو « من اين اتى ابي ؟ » فتقول « من جدك » و« جدي ؟ » فتقول « من جد بابا » وهكذا الى ان نصل الى آدم كما هي العادة فاسألها « ومن اين اتى آدم ؟ » فتقول على الاصول « خلقهُ الله من التراب » وهنا تحاول كثيراً ان تقطع الحديث ولكنني ويا للأسف كنت استمر في سؤالي شأن من لم يستفرغ الحقائق المنشودة فاقول لها ببساطة الاطفال ومن غير وجل « ومن اين اتى الله؟ » فتعبس في وجهي حالاً وتقطب جبينها وتقول « اسكت ... حرام ... كفر ... » فكنت اسكت حقاً ولكن على مضض وانا خائف ان اكرر سؤالي حتى لا اغضبها

تمثل هذه الصفحة المقتضبة من طفولتي تاريخ كثير من الاطفال غيري ، وما حب الاستقصاء المتسلسل الوارد فيها الاّ ميزة من ميزات العقل البشري وصفة ملازمة له لا تستطيع الوالدة مهما كانت محبوبة ومحترمة ان تقف في وجههِ . فالسؤال عن اصل الموجودات او عن سبب حدوثها متأصل في النفس تأصل سائر الخصائص التي لازمت العقل البشري منذ ما انتقل من البساطة الحيوانية التي كان عليها . واذا صحّت نظرية النشوئيين فيما يقولون من ان سن الطفولة في الفرد يمثل عصر البشرية في المهد فيكون مثل هذا السؤال الذي ازعج والدتي كثيراً من الاسئلة التي خطرت للانسان الاول وهو لا يزال في الكهوف والبحيرات والغابات ، وكانت مساعيهِ يومئذٍ للحصول على الجواب الشافي بمثابة البحوث الاولى في الدين والعمل لتعليل السبب والمسبب واللازم والملزوم والازل والابد. لا جرم اننا نرى في جميع الاديان المعروفة خبراً طويلاً مستفيضاً عن بدء الكائنات ومصيرها وعن الجلد والظلمة والغمر وروح الله التي كانت ترفرف على الماء وعن خلق آدم من التراب وحواء من ضلعه وكذلك الخبر عند المجوس عن الاثني عشر الفاً من السنين الطوال التي يتصارع فيها اله النور (اهورامازدا) واله الظلمة (اهوراماان) وعند الهندوكيين عن تلك العشرات من ملايين السنين التي تنتهي بتفاني الخلق واندثارها في براهما

ان هذه الصفحات الغزيرة المستوفاة عن البدء والمصير هي روح تلك الصفحة الاولى التي خطرت لي وانا مستند الى حجر والدتي وستخطر للاطفال امثالي ما بقيت لهذا العقل الذي زين الانسان تلك الخصائص النفسية التي يحق لنا ان ندعوها « السببية » « والتلازمية » « والازلية » « والسرمدية » وفي نظري ان مذهب النشوء والترقي ان هو الاّ محاولة علمية استقرائية بعثها في قلوب العلماء مثل

هذا الشعور المتأصل في النفس لتعليل الانسان بالعودة بأصله الى الحيوانات من القردة فما دون الى الحيوانات ذات الخلية الواحدة . بيد ان هذه النظرية تقف وقوف سائر المذاهب والعقائد عند ما نتساءل « ومن اين اتت الحياة لهذه الحيوانات الدنيا ؟ » ومتى وصل العالِم حتى من كان دهريًّا بحثاً الى هذا المقام فهو ليس ببعيد كل البعد عن منطقة الدين وما لهُ من ولهٍ في تعليل المبدأ والمصير .
وفي الجزء الثاني من كتاب « زاد المعاد في هدي خير العباد » لابن القيم الجوزي (ص ٣٥) : «وقال صلى الله عليهِ وسلّم (لا يزال الناس يتساءلون حتى يقول قائلهم هذا الله خلق الخلق فمن خلق الله ؟ فمن وجد من ذلك شيئاً فليستعذ بالله ولينته »

وقرأت في مقتطف مايو الماضي للاستاذ نقولا حدّاد مقالاً طريفاً عن « الزمكان » فيهِ خلاصة النظرية النسبية للاستاذ (أينشتين) في الزمان والمكان فقلت في نفسي هذه هي الضالّة التي انشدها وهذا بيت قصيدي لانهُ يعالج بالطرق الحديثة الفضاء ويضع لهُ حدًّا فلننصغ الى طريقته

قال الاستاذ حدّاد: «لذلك ما نسميهِ فضاءً هو فضاء محدود بالمادة ، متناهٍ ، لان المادة متناهية اي ان لها قدراً معيناً والفضاء محدود بها ، لهُ اول ولهُ آخر» ، فقلت في نفسي ان (اينشتين) وجميع شهرته العالمية لم تحل ويالأسف شيئاً من العقدة لانني لا ازال حتى هذه الساعة اسأل بحكم فطرتي وتركيب عقلي واختباري اليومي في الموجودات « ما الذي كان يا ترى قبل اول الفضاء وما الذي يأتي بعد آخره ؟ » ولشد ما كان تعجبي اذ رأيت الاستاذ حدّاداً نفسه يعقب على جميع ما اتى بهِ من البراهين لاثبات ان المكان محدود بجملة واحدة تهدم هذا التحديد وتعود بنا الى المواقف المتحيرة التي وقفها حكماء الهند واليونان والعرب منذ الوف السنين وهي قوله « ولا تسل عما قبل الاول وعما وراء الآخر فهذا مستحيل على العقل البشري تصوره » وهو لا يختلف كثيراً عن قول والدتي ورأسي على ركبتها « اسكت ، . . حرام . . . هذا كفر . . »

ثم اني لم اقصر سؤالي لها على آدم وتسلسله فقط بل كثيراً ما كنت اسألها عن السماء ايضاً وما فوقها وعن الارض وما تحتها فلم يكن ليصعب عليها ان ترد عليَّ بذكر السبع الطباق وبقرن الثور ولكنني كنت ألاقي منها نفس الاعراض والتقطيب متى جاوزت السماء السابعة الى العرش وقعر الارض الى قرن الثور

فانت ترى ان البحث في المكان واللانهاية مثل البحث في الزمان والازل خاصيّة من خصائص العقل البشري لا محيد عنها ، وقد جال فيها علماء الطبيعة كما جال فيها الحكماء المتقدمون وعلماء الدين ، ولعمري ان المستكشفات الحديثة في علم الفلك وما توصلت اليه من تقدير الابعاد بالسنين الضوئية قد ضاعفت حيرتنا من هذا الكون وابهته وجلاله ، وكل طالب علم يذكر كيف قضى في فراشه الليلة الاولى التي رصد فيها الافلاك بالمرقب لاول مرة وكيف سبح وهمه ساعتئذٍ بين الاجرام السماوية محاذياً لها حتى تراءت له حدود اللانهاية فعاد خاسراً وهو حسير . ومع كل هذا

السلاح العلمي الدقيق الذي نتسلح به اليوم فنحن ازاء هذه المعضلات الزمانية المكانية لسنا بعيدين عن مقام الحيرة الذي بلغهُ اعلام التصوف من رجالنا الماضين ، وبخاصة الحيرة من اللانهاية فقد مثلت هذه الحيرة ادق الادوار وأخطرها في تصوراتنا الدينية ومعتقداتنا الروحية

ولقائل ان يعترض فيقول ان ما ذهبنا اليه من هذه الخصائص العقلية التى مازت الانسان لا ينطبق على الانسان الوحشي الاول فمثل هذه المرتبة الراقية في التفكير تحتاج الى انسجام منطقي لم يبلغه ، وان الطفل ابن الخامسة من ابناء اليوم هو في مقام الحكماء اذا ما قيس بالانسان النيندرتالي مثلاً ، ثم ان الدين قضية اجتماعية من اولها تولدت من اتصال الانسان بأخيه الانسان ولا يكفي في تعليلها الاعتماد على الشعور الفردي مهما كان خطيراً ، وجوابي عن ذلك كله ان الشعور باللانهاية على انواعها ، اللانهاية المكانية التي لاقرار لها واللانهاية الزمانية التي لا منتهى لها ، واللانهاية الطبيعية في القوة التي لا تنضب وظواهرها الجبارة التي يتضاءل عندها الانسان فينقاد لاحترامها وتبجيلها والرهبة منها صاغراً ، كل ذلك كان له اعظم الاثر في تفكيرنا الديني منذ ما جاز ان يطلق على هذا الانسان انه حيوان مفكر

المذهب الاجتماعي الطبيعي في تعليل الدين : ان هذا الذي ذكرناه في تعليل الدين يحتاج ولا شك الى شيء من الارتقاء العقلي قد لا يكون موجوداً في البشر الاول ، لذلك رأينا ان نطلع القراء على خلاصة رأي الاجتماعيين في هذا الباب وكيف عللوا الظواهر الدينية منذ نشأتها الاولى معتمدين في الاكثر على ما كتبهُ الاستاذان (هوبكنس) و (جيدنغز) وعلى ما ورد في « الموجز في علم الاجتماع » :

ان المشاكل المعضلة التي لقيها الانسان في حياتهِ على وجه الارض فولّدت في نفسهِ الافكار الدينية وما يتعلق بها من أعمال هي مشاكل شديدة التعقد ، والعلائق القائمة بينها دقيقة جدًّا ، فنرى ان العقل البشري بما بذلهُ من المساعي الجدية للخروج من التيه المرتبك الذي وضعتهُ فيهِ ظواهر الطبيعة والخلاص من الحيرة المختبطة التي احاطت به من البشر انفسهم قد هيأ التربة الصالحة التي نمت فيها شجرة الدين ، فيجوز ان يقال اذن ان البشر الاول وهو منتقل حديثاً من المرتبة الحيوانية العجماء بعقل لا يفضل كثيراً عقل الحيوان حملق في هذا الكون فرأى ما فيهِ من قوى وحشية وبشرية همجية فاعتراهُ الخوف ولكنهُ لم تتضح له جلية هذا الشيء المخوف اذ كانت الافكار التي تجول في نفسهِ لا تزال مجموعة صور خليط لم تدخلها بعد عوامل التنسيق والتبويب . بل امتلأ قلبه ذعراً من شيء اطلق عليه العلماء اسم « المرعب الاعظم » او « البعبع » وعنوا به قوة مرعبة محجبة تكتنفها الاسرار وتحيط بها الهواجس تسلطت على لب هذا البشر الوحشي وضايقتهُ ولازمتهُ حتى حملتهُ على اتخاذ اتجاه خاص نحوها فكان يفكر كيف يفسر هذا المرعب الاعظم ويعللهُ ويقوم بمعاملتهِ والتقرب اليهِ ومن هنا ابتدأت فكرة الاسترضاء والاستفسار والعبادة كما يتضح مما يأتي

فالبشر حتى منذ ما كان على الحالة الحيوانية ادرك معنى التفوق او السيادة من جهة والخنوع والخضوع من جهة اخرى ، وتوصل الى فهم بعض الاشياء والاحاطة بمعناها وذلك لفهم الناس من حوله ، وتعلم كيف يعقد أواصر الاتصال بهم ويمشي اموره معهم ، ومن المعقول جداً ان يمتد هذا الفهم وتزداد أواصر الاتصال حتى يتسعا فيشملا الظواهر الطبيعية المحيطة بهِ والتي لم يدرك كنهها ولكنهُ حرص على استمالتها اليهِ واسترضائها . لم يدرك البرق والرعد والعاصفة والسيل والشلال مثلاً ولكنهُ توسل بجميع الوسائل التي سبق له ان استعان بها لاسترضاء أخيهِ الانسان لاكتساب عطفها ورضاها . لا جرم انهُ فسّر كل شيءٍ مستغرب مجهول بالمشاعر التي تجول في نفسهِ وتجول في نفس البشر اخوانه وعزا اليها ما عزاه اليهم وعامل هذه المجهولات التي اعجزهُ فهمها بنفس الطريقة التي عامل بها اخوانه ومشّى حاله معهم

وعلاوة على ذلك فقد دلّتهُ التجارب على ان الطريقة التي نجحت في اكتسابهِ معونة البشر اخوانه واسترضاءهم قد نجحت هي ذاتها في اكتسابهِ معونة الحيوانات واسترضائها . وقد تجلى ذلك له في تدجين بعضها والعمل لتأنيسها . ثم ان الصراع الذي كان قائماً بينهُ وبين الحيوانات البرية قد أرشدهُ حتى قبل مباشرته عمل التدجين هذا الى ان عقول هذه الحيوانات تشبه بعض الشبه عقول الناس مَن كان عليهِ ان يتصل بهم ويعاملهم . فاذا كان في وسعه ان يعيش مع الناس ويتعامل مع الحيوانات باتباعهِ بعض القواعد وسلوكهِ بعض السبل ، افليس من المعقول ان يستنتج استنتاجاً منطقياً خالياً من الارتباك والتعقيد ان هذه القواعد والسبل نفسها تنجح في فهم واسترضاء اشياء اخرى منتشرة حوله في الكون لا تقل غموضاً وغرابة ؟

وقد احتفظ الانسان بهذا الاتجاه العقلي المنطقي في جميع اعماله وطوال حياته ، واذ كان جاهلاً ان في الدنيا اسباباً غير شخصية تصدر عن قوى طبيعية عمياء فقد توهم الشخصية في كل سبب مرغماً ونسب الى الظواهر الطبيعية من حوله التي لا دخل للناس فيها ايدي الاشخاص ، اذن فما دام السبب الذي يحدث النتيجة شخصاً فالواجب ان يكون شخصاً مثل سائر من عرف من الاشخاص — شخص حبٍّ وكره ، شخص عطف ونفرة ، شخصاً مكوناً من قوة مستغربة غامضة ، عليهِ ان يعاملها بطريقة من الطرائق . فاذا كانت هذه القوة ساخطة فالواجب استرضاؤها وتسكين روعها ، والطريقة المثلى الوحيدة التي تخطر بالبال هي الطريقة التي يسترضى بها البشر متى كان ساخطاً لذلك تخيل الانسان الطبيعة جميعاً حافلة بالارواح من نمطهِ ، ثم ان شخصيته ذاتها لم تكن اقل غموضاً وتعمية بالنسبة اليهِ من ظواهر الطبيعة ووقائعها فهو اذا ما صاح سمع صوتاً يهزأ بهِ يتردد من الروابي والغابات وهو الصدى الذي لا يدهش أحداً منا ، واذا ما انحنى على البركة ليشرب رأى في اعماقها وجهاً ينظر اليهِ مثل وجههِ أو وجه من يكون معهُ من الرفقاء وهو الصورة المنعكسة عن سطح الماء التي لا يكترث لها احد منا ، واذا ما نام حلم في منامهِ انهُ يجول ويقوم بشتى الاعمال ولكنهُ عند ما يصحو يجد انهُ لم يغادر البقعة

التي نام فيها ، وفي بعض الحالات الاخرى يضطجع ثم يقوم ويمشي وهو نائم الى ان يصطدم بشيءٍ من الاشياء فيصحو ، اذن فهذه الحوادث الطارئة والاختبارات المتتابعة التي مشى فيها وجال وتكلم هي في منطقهِ البسيط اختبارات حقيقية وحوادث واقعة لاغبار عليها . فكيف يفسرها ? كيف يستطيع المرء ان ينام ويمشي في آن واحد من غير ان يغادر مكانه ? والتعليل الوحيد الذي يخطر لهُ من جميع هذه المشاهدات هو انه شخص مزدوج مؤلف من قرينين — والقرين في العربية هو النفس او هو الشيطان المقرون بالانسان لا يفارقهُ ، وكلا المعنيين لا يبعد عن معنى الازدواج الذي قصدناه — ففي المنام يبقى احد قرينيه في موضعه والقرين الآخر يتمشى خارجاً ، ومعنى ذلك في حسابه ان لهُ روحاً وهذه الروح تلازمهُ في صحوه ، واما اذا نام او اصيب باغماءٍ او ذهولٍ فانها تغادر جسمه وتروح وتغدو بعيدة عنهُ ، وهي محجوبة عن نظره لا يستطيع مهما حاول ان يراها . ولكن اي برهان على وجودها يا ترى أصح وأسد من هذا البرهان المحسوس الملموس ?

ثم انه بسائق العقل البسيط الذي يحمله في رأسهِ يستنتج ان روحاً تشبهُ هذه الروح تحل في الطبيعة كلها وهذه الروح هي شخص ذو خصائص ذاتية مثله ومثل رفقائهِ ، تحب وتبغض ولها شهوات وانفعالات وعواطف ويساورها الغضب وتشتهي الهدايا والمنح وتصاب بالهوى والوسواس ، اذن فهي شيء ينظر المرء اليهِ بالرهبة والخوف ويعقد معهُ اواصر الصلح والسلم والوئام

ثم هنالك حادثة الحوادث — هنالك الموت وما فيهِ من غرابة وغموض وابهام ، وقد دلتنا جميع الملاحظات التي جمعناها على أن الشعوب الابتدائية البالغة درجة التفكير في الامور تهتم بالموت ، فالانسان الاول وهو مقيم دائماً في وسط القوى الوحشية التي قضت عليها المدنية فيما بعد او أخضعتها ودجنتها لخدمة البشر قلّما مات ميتة طبيعية حتف أنفه ، فاذا كتب له أن يعيش فيموت هذه الميتة فانها تكون حينئذٍ ظاهرة غريبة تفسر على هذا النمط المزدوج القائم على وجودٍ آخر هو الروح المحجوبة أو القرين الخفي

والغالب أنهُ يموت قبل بلوغهِ أرذل العمر وهو سن الشيخوخة البالية اذ يقول انه لا يرى لذة في الحياة بل تكون الحياة على عكس ذلك لا تزال لذيذة حلوة والموت نكبة لا راحة ، ولما كانت الوحوش البرية الضارية والبشر الاشد منها توحشاً وشراسة واقفة له بالمرصاد في كل ناحية للانقضاض عليهِ فالخوف الطبيعي الغريزي من الموت كان ابداً ماثلاً أمام عينيه ، ولما أخذ يفكر في هذه الاحوال والاشياء خطر له هذا السؤال بالطبع وهو « ما هو الموت ? » فهل يجد الجواب الشافي عن هذا السؤال الاَّ في تلك الاختبارات التي تشبه الموت كثيراً ? لقد نام وأفاق ، ورأى في بعض الاحيان أناساً صرعوا في القتال فأغمي عليهم حيناً من الزمن ثم عادوا الى وعيهم ، ورأى آخرين أصيبوا بغشيان او دهشة وذهول فلما صحوا قصوا على الناس ما رأوا وما سمعوا ، أليس الموت شيئاً مثل النوم والاغماء والذهول الاَّ ان غياب الروح فيهِ عن الجسد أطول أمداً ? أولا تكون الروح أو

القرين في حالة الموت حية في مكان آخر ترى وتسمع وتتلذذ وتعي وتشتهي وتنفعل وتحب وتبغض كما لو كانت في الجسد ؟ ثم تحدث حادثة مشؤومة ليس لها سبب ظاهر ، فليت شعري لم لا يكون ميت من الاموات الساخطين قد أحدثها ؟ فمثل هذ الميت لما كان حيًّا انتقم لنفسهِ ، والآن وهو ميت وقد غضب واغتاظ فالواجب ان يسترضى ويهدأ روعه بنفس الطريقة كما لو كان حيًّا

وربما كان الميت رئيساً كبيراً أو حاكماً للجماعة مطلقاً فيخشى منهُ في موته بقدر ما كان يبجل في حياته وزيادة ، لان المعروف من أمره وهو ميت أقل بكثير مما كان يعرف وهو حي ، لذلك لفَّفهُ الموت بالاسرار وحجبهُ بالطلاسم والمعمّيات فاحاطهُ بالاسباب الداعية إلى الذعر والرهبة ، وهكذا نشأت عبادة السلف أو بمثل هذه الطرق كانت الافكار الدينية الاولى الخالية من الانسجام للاعراب عن نفسها ، وهي أفكار طافحة بالمتناقضات مثل أفكار الرجل الابتدائي أو مثل افكار الطفل الصغير في أوائل تفكيره ، ومغشّاة مبهمة « ومتبّلة » خليط بعضها فوق بعض تشبه العواطف والانفعالات والاندفاعات المتولدة في نفسهِ من اتصاله بالكون وما فيهِ من أشياء وأشخاص . على ان هذه الافكار هي جهود جهدها لانقاذ الموقف الكريه بشيءٍ من العمل مهما كان نوعه ، هي بوادر تعليل نظري للعالم الذي يعيش فيهِ ، وهي المحاولات المغلوطة الاولى للحصول على الوسيلة التي يتمكن بها من اخضاعه والتسلط عليهِ .هي آراء منعكسة عن الجمعية البشرية التي هو جزء منها وعضو فيها ، ولهذه الآراء نظائرها في نفسهِ وفي نفوس الناس من حولهِ ممن يتصل بهم ، فالآلهة التي يصطنعها لنفسهِ يعملها على غراره وغرار اخوانهِ ولكنها اعظم منهم شأناً وأشد بأساً وأسدُّ حكمةً واكثر ابهاماً وأقل جلاءً

وقصارى رأي الاجتماعيين الطبيعيين في نشوء الاعمال الدينية والعبادات هو ان اتصال الانسان الابتدائي الاول بالطبيعة وبالناس من حوله ادى الى استحداثهما في نفسه فهما من صنعه ويبتدئان من عنده وينعكسان عن تجاربه . وكلما نما الطفل الصغير وأضحى على اتصالٍ بالشخصيات الاخرى تعلم ان يكيف نفسه بحسبها وعلى مقتضى الاحوال التي تحيط بها فهو يرى انهُ اذا قام ببعض الاعمال استرضاها وعقد اواصر الوفاق معها وان قام بغيرها أغضبها وأثار حفيظتها ، فهنالك اشياء تستدعي سرورها واخرى تسيئها ، ومن مثل هذه المفاجآت الاختبارية الدائمة يتعلم ماذا يعمل لاكتساب رضاء الشخص الآخر . وعلى اساس هذا الاختبار يستخلص لنفسهِ قاعدة عامة ويختار دستوراً يوافق جميع الناس . والآن وهو يعتقد ان الظواهر الطبيعية يسببها اشخاص فانهُ يتبع في معاملتهِ روح الجبل او روح العاصفة مثلاً نفس الخطة التي يتبعها في معاملة الناس . ويجب ان يكون الاشخاص الذين يحدثون هذه الظواهر ويدبرون امرها مثل الاشخاص الذين عرفهم لذلك يتخذ اتجاهاً خاصًّا نحوهم ويستميلهم بالهدايا والقرابين ويسكن غضبهم او يكتسب رضاءهم ورعايتهم بالثناء عليهم والتضرع اليهم واقامة الصلاة لتمجيدهم

العناية بالصحة الشخصية

في العهد الفرعوني

للدكتور حسن كمال

١ — ﴿ مقدمة ﴾ كلنا نعرف ان العناية بصحة الفرد اصبحت الآن غير قاصرة على الفحص وقت المرض ووصف الدواء . بل تعددت وتنوعت وأصبحت تعرف الآن بالطب الواقي . يضاف الى ذلك الوسائل الحديثة في التشخيص والعلاج . وقد تغلغل الطب الواقي حتى شمل حالات الانسان الخاصة كالمأكل والمشرب والمسكن ونظافة الجسم والعناية بالجلوس والنوم واستنشاق الهواء النقي والاهتمام بالالعاب الرياضية وغير ذلك مما لا يقع تحت حصر . وهذه الامور الشخصية لم تكن الى عهد قريب موضوع بحث فني ولا عناية طبية . لكن مكانتها اضحت الآن حقيقة ثابتة لا تقل عن التطعيم ضد التيفودية او الدفتريا على سبيل المثال

٢ — وكلنا نعرف ايضاً ان المشرب والمأكل والملبس وكثيراً من العادات الشخصية هي وليدة التربة والطقس والوطن وذات صلة وثيقة بمدنية الشعب ورقيه الفكري واستقلاله السياسي . هذه كلها عوامل جدية في حياة الانسان المعاشية . وعليه نجد للقطر المصري ميزات خاصة منذ قديم الزمان . وهذه الميزات طبيعية واجتماعية . اما الطبيعية فلكثرة الخضراوات واللحوم وانتشار الزراعة والتعرض للشمس وغير ذلك نجد ان قدماء المصريين كانوا يمرضون بما له صلة بهذه العوامل كالديدان المعوية والبلهارسيا والانكلستوما . واما العوامل الاجتماعية فنتيجة نشاط العنصر المصري وذكائه وقوة ابتكاره وشعوره بالسيادة . لذلك نجد اجدادنا شديدي العناية بكل ما له علاقة بمظاهر السيادة والتفوق مثل نظافة الجسم والمسكن ووسائل الراحة والنعيم والعناية بالملبس والصحة بل وحتى تجاعيد الوجه الدالة على الشيخوخة . وقد توسعوا في ذلك فشملوا بعنايتهم حجرات النوم والدورات المائية والالعاب الرياضية وغيرها . وصحب كل ذلك تحسين وتنسيق وتهذيب على مر الايام حتى بلغ القوم في العناية بأشخاصهم درجة حسدتهم عليها الممالك الاجنبية . وصار هذا المجهود انموذجاً يراعى في البلاد الراقية اما مراعاة وله فيها حرمة التقديس

لكن نكبات الدهر والغارات الاجنبية والاسراف في الترف أضعفت من نفوس المصريين — كما أضعفت من نفوس الرومان — فأنستهم فضل آبائهم واجدادهم وألهتهم عن النافع ووجهتهم نحو الفساد وذلك منذ الفتح الفارسي عام ٥٣٥ ق . م

ولما بدأنا حديثاً نبحث عن مدنيتنا القديمة اتضح لنا ان كثيراً من العناية بصحة الفرد الحديثة انما يرجع الفضل فيه الى مجهود اجدادنا . وسيأتي ذلك مفصلاً ومدعماً بالصور الاثرية بوضوح



١ — مكاحل مصرية قديمة ومرود ٢ — مائدة قرابين عليها اطباق واوزتان وابريقان ٣ — امشاط مصرية قديمة ٤ — سيدة مصرية قديمة تتجمل مستعينة بالمرآة وترى وهي تخطط شفتيها ٥ — العناية بالاطفال وهي رسوم من طيبة

قال هيرودوتس (١١ — ٧٧) ان المصريين كانوا اكثر الناس اشتغالاً بالأمور الذهنية . يشربون مسهلاً كل يوم ثلاثة ايام متوالية . ويعنون بمداراة صحتهم وحفظها بواسطة المقيئات والمسهلات لأنهم يعتقدون ويؤكدون ان كل الامراض تأتي من الاطعمة . واورد ديودورس الصقلي ما يؤيد هيرودوتس فيما ذهب اليهِ . والآثار المصرية والقراطيس البردية تحوي الكثير من المعلومات في هذا الموضوع

٢ — ﴿ العناية بالرأس ﴾ اهتمَّ المصريون قدماً بحلق رؤوسهم رجالاً واطفالاً واحتفظوا للاخيرين بخصلة طويلة على احد الجانبين . وكان العمال والفلاحون يخرجون الى الحقول عراة الرؤوس. قال هيرودوتس وهذا هو السبب في صلابة جماجم المصريين وعدم انتشار الصلع بينهم . ولا يعني هذا ان افراد الطبقة المذكورة لم يلبسوا لباساً لرؤوسهم مطاقاً فقد وردت رسوم كثيرة تظهرهُم بهذا المظهر في ظروف خاصة . اما سراة القوم فامتازوا بلبس الشعور العارية في الاحتفالات وغيرها. وارسل النسوة شعورهنَّ طويلة ولم يحلقنها الاَّ وقت الحزن . واخذ الرومان عن المصريين استعمال الشعر المستعار ولا يزال قضاة الانكليز يلبسونهُ في جلسات محاكمهم

واعتاد القوم ان يحلقوا لحاهم وشواربهم ولا يرسلونها الاَّ وقت الاتراح . وجاء في التوراة ان سيدنا يوسف عليهِ السلام حلق رأسه لما استدعاه فرعون مصر من السجن . وكان هـذا الحلق ضرورياً حتى انهم مقتوا كل مرسل لشعره . واذا ارادوا ان يحقروا شخصاً رسموه بلحية وشارب. ولما كان حب النكتة غريزياً في مصر لم يسلم ملوكهم منهُ . فرسم القوم ملكهم رمسيس السابع بقبره في طيبة ملوّن اللحية كأنها مرسلة لمدة ثلاثة ايام . وورد على الآثار رسم لرمسيس الثاني في مواقعه الحربية يمثله بلحية مرسلة قصد اثبات انهماكه في الحرب بدرجة أنستهُ حلق لحيته

وامتاز الكهنة بالنظافة المطلقة . فحلقوا اجسامهم كل ثلاثة ايام. واستحموا مرتين صباحاً ومرتين مساءً كل يوم . واتبع كثير من الاهالي هذه التعاليم . وجاء عن يوسف عليهِ السلام انهُ طلب من اخوته ان يحلقوا لحاهم وينظفوا اجسامهم وقت استحضار والدهم لمصر مراعاة لعادات المصريين واحتراماً لها . وحقّر المصريون الاسيويين واليونانيين لارسالهم لحاهم . ورفضوا اكل حيوان ذبحه يوناني لهذا السبب . والحلاقة اولى خطوات التمدين. والحلاقون نسل الحضارة . ولا ادل على ذلك من عادة الرومان الذين كانوا يحلقون لحاهم عند بلوغهم سن المراهقة ويقدمونها الى آلهتهم اثباتاً لرشدهم. وعلى ذلك فحلاقة الرأس باكمله عادة مصرية قديمة . وهذا هو السر في ندورة امراض الشعر المتعددة عندهم كالقراع والاكزيما الجافة والسعفة (ringworm) . ويمتـاز سراة القوم بلحاهم المستعارة ذات الاشكال المخصوصة. وكان افراد الطبقة الوسطى يتزينون بلحى مستعارة لا يزيد طولها على خمسة سنتيمترات ولحى الملوك المستعارة طويلة وذات زوايا مستقيمة . ولحى المعبودات ملتوية الطرف السفلي

واعتاد النسوة ان يرسلنَ شعورهنَّ وان يضفرنها ضفائر رفيعة حتى لوحتي الظهر . وان يرسلنَ

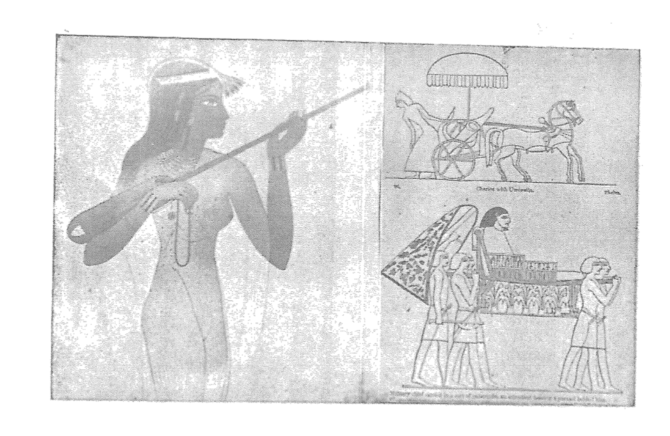
شعر جانبي الرأس المضفر بنفس الكيفية على صدورهنَّ من الامام . وكل ضفيرة عبارة عن مجموعات ثلاث كما هي العادة الآن . وتثبت حول الرأس شبكة خفيفة للحلية وحفظ الشعر محله . وتزين هذه الشبكة احياناً بزهرة اللوطس . وكثيراً ما كانت ضفائر الرأس تثبت بامشاط او دبابيس كما هي العادة الآن . اما الامشاط فكانت ذات حدين احدهما غليظ الاسنان وثانيهما دقيقهما . ويبلغ طول المشط عشرة سنتيمترات تقريباً . وهناك امشاط بحد واحد . والقصد من الاسنان الغليظة تسريح الشعر . اما الدقيقة فلتنظيفه من الحشرات . والمشط من اهم ادوات العناية بصحة الفرد . وابتكاره راجع الى قدماء المصريين . وتستعمل الامشاط الآن في مقاومة التيفوس والحمى الراجعة

واهتمَّ القوم باطالة شعر المرأة واستعملوا لذلك زيت الخروع (ايبرس وصفة رقم ٢٥١) . وكذلك عنوا بانبات الشعر بعد سقوطه كما هو واضح بقرطاس ايبرس (وصفة ٤٦٤ — ٤٧٦)

٣ — ﴿ العناية بالعينين ﴾ ليس هذا مقام الاشادة بفضل قدماء المصريين في تشخيص امراض العيون وابتكار العقاقير الهامة التي لا تزال مستعملة للآن في الرمد الحبيبي وغيره . لذلك سأقتصر هنا على ما كان الفرد يقوم به في سبيل تجميل عينيه . ويشاهد ذلك بوضوح عند السيدات . والمعروف انهُ كلما زادت الرغبة في اظهار جمال الشيء كانت العناية به في حالتي الصحة والمرض عظيمة

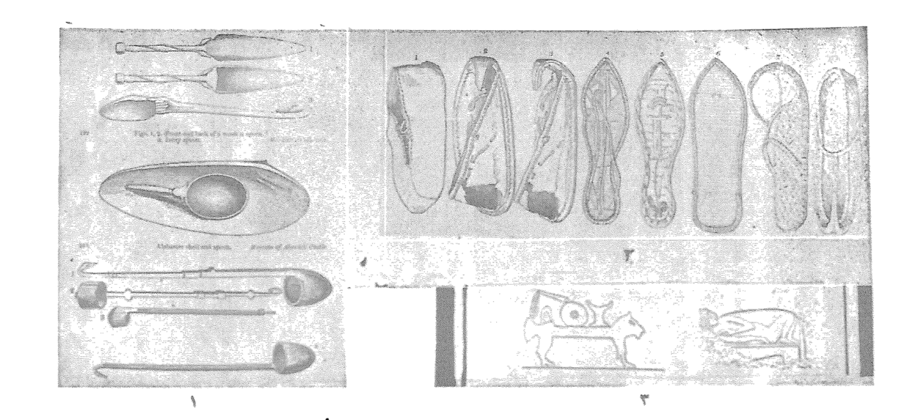
اعتاد المصريون منذ اقدم العصور ان يكحلوا اعينهم . واتى الرومان فأخذوا عنهم ذلك . والقصد من ذلك تجميل العينين باظهارها كبيرتين وذلك باضافة اطار اسود حولها . واعتقد المصريون ان الكحل يحسن البصر . وهذا يفسر كثرة المكاحل والمراود التي عثر عليها في المقابر المصرية وتعدد انواعها وتباين المواد المصنوعة منها كالحجر والخشب والخزف

وهناك نوعان من الكحل اخضر واسود . اما الاخضر ويعرف بالحجر الملكي Malachite (وهو المعروف كيمائيًّا باسم green ore of copper) احد املاح النحاس . واما الاسود فهو احد املاح الرصاص (يعرف باسم dark grey ore of lead او galena) والكحل الاخضر اقدم من الاول ولكن استعيض منهُ تدريجاً بالاسود . واستعمل القوم كلهم جافًّا او ممزوجاً بالماء وذلك بعد سحقه جيداً في كلتا الحالتين . ويرتد استعمال الكحل الاخضر الى اقدم الازمنة المعروفة حتى عهد الاسرة التاسعة عشرة (١٣٥٠ — ١٢٠٠ ق. م.) . اما الكحل الاسود فبدأ استعماله منذ عهد الاسرة الاولى تقريباً ودام حتى العهد القبطي . وقد عثر على مقادير من الكحل بنوعيه مسحوقة وغير مسحوقة . ولم يعثر على الاثمد (antimony) الاَّ في نموذج واحد من الكحل القديم . اما الكحل الحديث فمصنوع من هباب البخور او قشر اللوز او من حرق القرطم ويستعمل ببلّ المرود بالماء ثم غمسه في مسحوق الكحل ثم وضع الكحل حول الاهداب . واقدم مراود عثر عليها يرجع تاريخها الى عهد الاسرة الحادية عشرة (٢١٠٠ — ٢٠٠٠ ق. م.) ويغلب ان القوم كانوا يكتحلون بأصابعهم قبل ذلك . وموطن الكحل الاخضر طور سيناء وصحراء العرب اما موطن الكحل



مظلتان من المظلات التي كان قدماء
المصريين يستعملونها والعليا منهما
شبيهة بالمظلات الحديثة

عازفة العود
رسم على جدار قبر في الاقصر
من عهد المملكة الحديثة



١ — ملاعق ومغارف مصرية قديمة   ٢ — احذية ومباذل من العهد اليوناني في الغالب وبعضها اقدم من ذلك

٣ — (يمين) مضجع للنوم من عهد المملكة الحديثة. (يسار) سرير نوم بمعداته: وسادة . مسند للرأس . (منشة) لطرد الذباب

الاسود فاقليم اسوان وشاطىء البحر الاحمر وقد وردت وصفات عديدة في القراطيس الطبية خاصة بالعين كعتامة العدسة « ايبرس ٣٧٨ — ٣٨٠ » و احتقان العين «ايبرس ٣٩٠» وتقوية البصر « ايبرس ٤٠٧ و ٤١٤ » والشعرة « ايبرس ٤٢٤ » وضيق الحدقة « ايبرس ٣٤٥ » والرمد الحبيبي« ايبرس ٣٥٥ الخ » والرمد الصديدي « ايبرس ٣٥٤ » وغير ذلك

٤ — ﴿ العناية بالاسنان ﴾ اهتم المصريون بازالة الالم وقت التسنين (ايبرس ٧٤٨) وبتقوية اسنانهم (ايبرس ٧٤٣—٧٤٤) وبتعطير رائحة افواههم بمضغ مزيج من الكندر واليانسون والعسل وغيرها (ايبرس ٨٥٣ ب) . ولم نهتد للآن الى استعمال السواك او الفرش لنظافة الاسنان . لكن يلاحظ ان الموميات القديمة امتازت بسلامة اسنانها على اختلاف اعمارها . وذلك لان صحة الاسنان تابعة لصحة الجسم فاذا كان الاخير سليماً كانت الاسنان سليمة ايضاً

٥ — ﴿ العناية بالوجه ﴾ عثر على كثير من ادوات الزينة (التواليت) بالمقابر المصرية من قارورات واوانٍ توضع فيها المراهم والاكحال والقطرات . وعثر ايضاً على عدد وفير من المرايا والامشاط والصناديق الصغيرة والملاعق والاطباق الصغيرة . ومراهم القوم المستعملة للوجه والجسم كانت عطرية ولا يزال بعضها حافظاً لرائحته للآن . ووضع القوم مراهمهم في مواعين او اوان مرمرية او زجاجية او عاجية اوعظمية اومحارية او حجرية «ولكنسون ٢—٣٤٤» . وحضّر القوم عطورهم بشكل زيوت او مراهم ورد ذكرها بكثرة على الآثار وفي مصنفات اليونان والرومان (لوكاس مواد مصرية قديمة ٨٥) . والمعروف ان العطور الحديثة عبارة عن محلول كحولي متباين النسبة مذاب فيه العطر . وهذا الاخير يستخرج من الزهر او الفاكهة اوالاخشاب او اوراق النبات او حبوب النبات

اما عطور قدماء المصريين فتختلف كثيراً عن الحديثة لجهلهم بامكان ذوبان العطر في الكحول وبطرق تقطير الكحول بالاساليب الحديثة . ويجدر بنا ان نذكر في هذا المقام ان اقدم ذكر للتقطير هو الذي اورده ارسطوطاليس(Meteorologica I 9, 11 II 3) وذلك في القرن الرابع بعد الميلاد واحسن مادة لحفظ العطر بعد الكحول هو الزيت او الشحم . ولا تزال هذه الطريقة مستعملة في استخراج عطر الازهار وذلك بنقع ورق الزهر في الزيت او الشحم المدة الكافية ثم اذابة ذلك في الكحول ثم تقطيره . اما قدماء المصريين فاقتنعوا بنقع الازهار او ما شاكلها في زيت الزيتون او زيت اللوز وزيت الهلج او الزقوم (Balanitis agyptiaca) او الشحم الحيواني . وولع المصريون برائحة المر واليانسون وصنعوا منها زيوتاً عطرية بكثرة كما رواه پلينيوس وثيوفراستوس

اما احمر الخدين فقد عثر على كثير من بقاياه على الواح بالمقابر وهو عبارة عن ملح حديدي يعرف باسم (haematite او red ochre او red oxide of iron والغالب ان المصريات لوّنّ به خدودهنّ وشفاههنّ (ارمان ص ٢١٦ رسم ١٠١)

وتتجسم الهمة في ازالة تجاعيد الوجه في العبارة الواردة بآخر قرطاس ادوين سميث الجراحي

« ١٦٠٠ ق . م تقريباً » وتتلخص في غلي نبات يقال له همايت مراراً ثم دهن الوجه بالعجين الناجم من هذا الغليان ويقرب فعل هذا الدواء من « حسن يوسف » « المستعمل الآن عند العامة لهذا الغرض
ووردت عدة وصفات لملاسة جلد الوجه « ايبرس ٧١٧ - ٧٢٠ » وتحسين الجلد « ايبرس ٧١٥ »

اما المرآة وهي التي تعكس لهم صورتهم الشخصية وتشجعهم على العناية بمظهرهم وصحتهم الخارجية فابتكار مصري قديم ككل شيء قديم مفيد . وكانت تصنع من النحاس المصقول بدقة وتعكس المرئيات بوضوح تام . وفي المتحف المصري مرآة قديمة يشاهد فيها الناظر تقاطيع وجهه جلياً . وكانت العادة في المرآة ان تكون مستديرة مثبتة في يد خشبية اومعدنية

٦ — ﴿ العناية باليدين والقدمين ﴾ في مقبرة (سسا) بسقارة (٢٦٠٠ ق . م) رسوم تمثل احد الاطباء يعالج اليد اليمنى لمريض يظهر على وجهه أثر الالم ، ورسوم اخرى تمثل علاج القدمين . ويظن (كابار) ان هذه الرسوم تمثل تقليم الاظافر

اما « القفازات » فالمعروف انها كانت مستعملة منذ عهد الاسرة الثامنة عشرة (١٥٥٥ — ١٣٥٠ ق . م) كما انها كانت ضمن الجزية التي قدمتها آسيا لمصر في عهد الملك تحوتمس الثالث (١٥٠١ — ١٤٤٨ ق . م) . وعثر على كثير من القفازات الكتانية الطويلة المحلاة بخطوط زرقاوية . ومقبرة (توت عنخ امون) تحوي كثيراً من هذه القفازات وهي معروضة الآن بدار تحف القاهرة

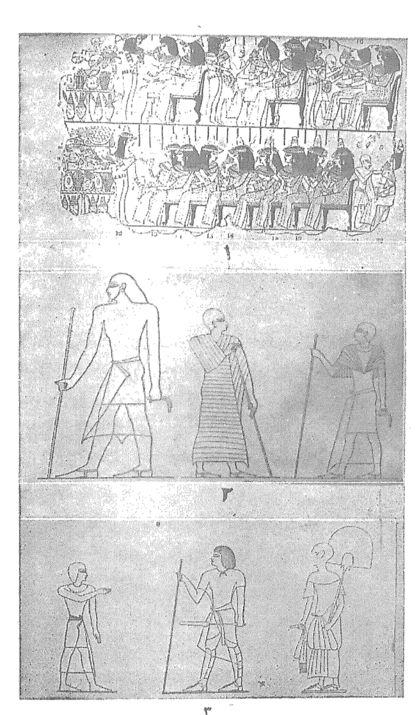
والقفازات ابتكار هام في الطب الواقي . ولو انها كانت تستعمل اولاً لتدفئة اليدين ووقايتهما من البرد الاّ انها لما صنعت اخيراً من المطاط وافادت كثيراً في عدم وصول جراثيم الامراض الى جروح العمليات من جهة والى يدي الجراح من جهة اخرى

اما « النعال » المصرية القديمة فعلى عدة اشكال . فنعال السيدات وافراد الطبقة الراقية كانت مجدولة ملتوية الطرف الامامي وتعمل من سعف النخل او سيقان البردي او سيور الجلد وتكسى بعد ذلك بقماش مرسوم عليه أسير اجنبي (ولكنسون ص ٣٣١) . وعثر على كثير من الاحذية في طيبة والغالب انها من العصر اليوناني وهي مصنوعة من الجلد الاخضر

وكثيراً ما كان القوم يغسلون ايديهم قبل الطعام وارجلهم قبل الدخول في الولائم والافراح (ولكنسون : ص ٧٦) . وجاء في التوراة ان سيدنا يوسف عليه السلام امر خدمه ان يغسلوا أرجل اخوته قبل تناولهم الطعام . حيث ورد بسفر التكوين اصحاح ٢٤ ما تعريبه :

« وأدخل الرجل الرجال الى بيت يوسف وأعطاهم ماءً ليغسلوا أرجلهم » . واستعملوا لذلك الاباريق والاطشات كما يرى ذلك على الآثار . وأورد هيرودوتس ان امازيس وزأريه كانوا يغسلون اقدامهم في طشت من ذهب . ووردت على الآثار (ارمان ص ٢٣١ كتابه عن مصر) رسوم توضح أساليب غسيل الملابس وعصرها وتجفيفها مما يضيق المقام عن سرده هنا

وما دمنا الآن نتكلم عن العناية باليدين والقدمين جاز لنا هنا ان نذكر شيئاً عن استعمال الحناء



١ — وليمة تبين المأكل والمشرب واستعمال الكراسي ومرور الخدم والموائد ولبس السيدات وقص شعورهن ٢ — الرسمان الايمن والاوسط يمثلان ثوبين غير اعتياديين من عهد الدولة الوسطى والرسم الايسر يمثل الرداء المزدوج ٣ — ثلاثة نماذج الايمن من عهد اخناطون والاوسط من عهد امنحوتب الثالث ويشاهد فيهما الرداء الخارجي اطول من الداخلي . والايسر يمثل اللباس في عهد الاسرة ١٩

عند قدماء المصريين. فقد استعملها القوم كما تستعمل الآن وذلك بسحق اوراقها وتحويلها الى معجون باضافة الماء اليها ووضع هذا المعجون على راحتي اليدين واخمص القدمين والاظافر والشعر . واخذ الرومان عن المصريين طريقة صبغ الشعر بالحناء . وعثر الاستاذ اليوت سميث على شعر موميا (حنتاوي) (اسرة ١٨ — ١٥٥٥ — ١٣٥٠ ق . م) مخضبة بالحناء على الارجح . واثبت نافيل ان اظافر يدي موميا من عهد الاسرة الحادية عشرة (٢١٠٠—٢٠٠٠ ق . م) كانت مصبوغة بالحناء ايضاً . وعثر (نيوبري) على افرع الحناء في مقبرة هوارة من عهد البطالسة

٧ — ﴿ الختان ﴾ وردت عملية الختان مرسومة على مقبرة بسقارة (٢٦٠٠ ق . م .) مما يشير الى ان المصريين كانوا لا يختتنون الاَّ قبل الزواج بزمن قليل. والجثث المصرية القديمة يكثر فيها الختان وهكذا يكون اجدادنا قد سبقونا في اتخاذ الوسائل الجراحية الفعَّالة للوقاية من الزهري والسرطان

٨ — ﴿ الملبس ﴾ للملابس شأن كبير في صحة الجسم لانها تدفىء الجسم وتحفظ حرارة الجلد بقدر الامكان عند حدها الطبيعي وتمتص العرق . وهي تصنع الآن من الكتان والقطن والحرير والصوف . ومعظم الاقمشة المصرية القديمة التي عثر عليها هي الخاصة بالموتى ولما كان الكتان شبه مقدس عندهم كانت معظم تلك الاقمشة من الكتان. والكتان المصري القديم من النوع المعروف باسم Linum usitatissimum ويرجع تاريخه الى عهد البداري . اما الصوف فانهُ بالرغم عن قلة ما عثر عليهِ من منسوجاتهِ فان سراة القوم صنعوا بعض ملابسهم منهُ . واما القطن فاقدم ذكر ورد عنهُ هو عن (بلينيوس)— القرن الاول بعد الميلاد —واما الحرير فصناعته بدأت في الصين ومنها انتشرت الى الفرس ثم الى سواحل البحر الابيض المتوسط . هذا باختصار تاريخ هذه المواد الاربعة

أما تحوُّل الملبس فموضوع مشوّق كل التشويق لانهُ ولد وترعرع في مصر. ففي عهد المملكة القديمة « ٣٢٠٠ — ٢٢٧٠ ق . م . » كان اللباس قصيراً ساتراً للعورة بادئاً من الخاصرة ومنتهياً عند الركبة . وحوالي عام ٢٠٠٠ ق . م . ظهر رداء آخر فوق المذكور واصلٌ الى منتصف الساق . وفي القرن السادس عشر قبل الميلاد وبعده زاد حجم الملبس حتى كسى الصدر والساقين. وملابس الملوك كانت تمتاز عن ملابس الامراء. وهؤلاء كانوا يلبسون زيًّا مخالفاً لزيّ الفلاحين. ولما كان الصغار كثيري التشبه بالكبار في الزيّ اضطر هؤلاء الاخيرون أن يغيّروا ملبسهم محافظة على مكانتهم الاجتماعية كلما لاحظوا أن زيهم أصبح دارجاً . وهذا هو سرّ تغيّر الازياء «المودة»

لكن هناك احوال أخرى تحتم على الشخص تغيير ملبسه ككبر السن وما يتطلبهُ من التدفئة واتقاء تقلبات الجو . كذلك مقابلات الملوك كانت دائماً تتطلب هنداماً خاصًّا

لذلك نجد أن المصري بعد ما كان قدماً يستر نفسهُ بفراء الحيوانات كالفهود أخذ يلبس منطقة حول الخاصرة مثبت فيها من الامام كيس يستر بها عورتهُ . وفي ذاك الوقت كانت النسوة يسترنَ أجسامهم بملاءة . بعد ذلك ظهر اللباس القصير المنقوش على الآثار والذي يظن أنهُ كان مصنوعاً من

القصب أو الياف النخيل لانهُ يحوي خطوطاً رأسية . ولما تعلم المصري صناعة الكتان ظهر الرداء على الآثار أبيض اللون أملس ومثبتاً حول الخاصرة بحزام . وفي عهد الاهرام زاد هـذا الرداء طولاً . وحوالي ٢٦٢٥ ق . م . زاد القوم على هذا الرداء بعض الحلية . وحوالي ٢٠٠٠ ق . م صنعوا حزاماً لتثبيت الثياب حول الخاصرة انيق الشكل ينتهي مقدماً بانشوطة . ولما تفنّن القوم في صناعة المهلهل من الكتان لبسوا ثوباً آخراً تحته لستر العورة . اما الطاعنون في السن فكانوا يرتدون ثوباً كاسياً لجميع الجسم تقريبا . ومنذ سنة ١٥٥٥ ق . م انتشر بين القوم لباس الاثواب القصيرة الواسعة المثبتة في الخاصرة . واصبح للذراعين كامل الحرية في الحركة لان الجزء العلوي المضاف الى الجزء القديم لايحيط بالعضدين بل يكسوها حتى وسطها . وهذه هي الخطوة الاولى في ابتكار الاكام . اما الجزء السفلي فحافظ على جزئيه بدون تغيير من حيث احتوائهِ على جزئين داخلي وخارجي . لكن يلاحظ ان الرداء الخارجي اخذ يقصر تدريجاً من الامام ويزداد طولاً من الخلف

وفي سنة ١٣٨٠ « عهد اخناطون » ازداد الازار الداخلي طولاً وسعةً واما الزي الخارجي فثني الى اعلا وثبت طرفه في الخاصرة فظهر بشكل منتفخ . والازار الداخلي كان مجعداً بهيئة ثنايا صغيرة « تعرف الآن باللفظ الفرنسي (بليسه) . ويلاحظ ان طرفا الحزام ينحدران اماماً الى اسفل السرة . وبعد زوال اخناطون ودولته بطل زي عصره وصنع القوم لباسهم الخارجي أملساً وزادوه طولاً عن قبل . هذا من حيث زي الرجال . اما لباس السيدات فيتكوَّن من رداء واسع او قميص واصل الى الكعبين لهُ كمان واسعان اوضيقان ملتصقان بالجلد . وهذا الرداء مثبت حول العنق برباط . وكنَّ يلبسنَ فوق ذلك رداءً آخر قصيراً مثبتاً في الوسط بحزام

اما نساء الطبقة الراقية فكنَّ يرتدينَ قميصاً مثبتاً بحزام ملوّن او بشريطين على الكتفين وفوق هذا القميص كنَّ يرتدين جلباباً مهلهلاً من الكتان بأكمام طويلة ومربوطاً اماماً اسفل النهدين . وفي بعض الحفلات كانت النسوة يخرجنَ اذرعهنَّ اليمنى من اكمامهنَّ ويتركنـها عارية كما يشاهد ذلك في الرسم الوارد في عازفة العود . واما الاطفال فاعتاد القوم ان يلفوهم في ملاءات ويحملوهم على ظهور امهاتهم او فوق صدورهنَّ واعتادوا ايضاً استعمال التمائم لهم وذلك من ذهب او حجر بهيئة علامة العدالة او الميزان قصد جلب الفضيلة والذكاء وابعاد العين الخبيثة او نكد الطالع كما يشاهد الآن بين عامتنا

من ذلك يتضح ان الزي المصري القديم تتوفر فيهِ كثير من الشروط الصحية كعدم الضيق والخفة وموافقه مادته لمناخ القطر . وابتكر القوم طريقة عمل تمثال لنصف الجسم العلوي « كالمعروف الآن باسم مانوكان » صنعوا عليهِ الملابس كالذي عثر عليهِ بمقبرة توت عنخ امون . بهذه الطريقة كانت الملابس تقطع وتخاط وترسل لصاحبها جاهزة مطابقة لجسمهِ من حيث الطول والعرض وخلافه مما يزيد في مظهر الشكل رونقاً وجمالاً

« البقية في باب الاخبار العلمية »

تحديد الادب

بقلم حليم متري

يستطيع هذا الجيل الصاخب بشتى الظواهر أن يلهم الاديب من المعاني والصور ومن الأفكار والآراء ما يؤهله لدرس معضلات الحياة. ويستطيع هذا الجيل أن يلهم الاديب من التعابير المستحدثة والاخيلة الرائعة ماينتج به، أدباً خالصاً ممتازاً ؛ يستطيع هذا الجيل انيلهم الاديب هذا ويستطيع أن يلهمه اكثر من هـذا ككل عهد من العهود أو جيل من الاجيال في تاريخ الحياة الانسانية. فقد لا يحسب الادب قوة ناقدة اذا لم يطرق هذا الكون بحثاً ودرساً. وليست الحياة قاصرةً على العلم بحقائق الاشياء بل ليست الحياة متجهة دائمـاً الى النظر الفلسفي أو متجهة دائماً الى الهدف العلمي. فالحياة العقلية في الانسان بدأت بالدين وستنتهي حتماً بالعلم. وأقول ستنتهي بالعلم لأن العلم بعيد الغور لا يستطيع عالم في أي فرع من فروعه أو قسم من أقسامه ان يحدده ولا يستطيع ان يدل على نهايته. بل لقد استأثر العلم بكثير من الحقائق او ما يشبه الحقائق فلم يخرجها عن كونها « ظواهر اجتماعية » كغيرها من الظواهر العامة في الوجود. أليس يرى العـلم في الفن أنهُ ظاهرة من ظواهر التاريخ ؟

ثم أليس يرى العـلم في الدين انهُ ظاهرة من ظواهر الاجتماع كاللغة يبحثها على الضوء الارضي الذي يبحث عليه نشوء الجماعة نفسها. ويعلل ذلك بأن الدين وما يشبه الدين واللغة وما يشبه اللغة انما دبرا وجودهما كما دبرت الجمـاعة نفسها وجودها في الحياة... ! واذن فالعلم هو التحليل والتطور عماده البحث والاستقصاء بل ان وظيفة العلم التي يسعى لاثباتها وصف الظواهر وتحليلها الى عناصرها الاولى. فالحياة العقلية اذن لا تستطيع ان تنتهي الى العلم الاَّ اذا مرت في مرحلة تطورها بالأدب والفلسفة. ولعلّ اتصال الادب بالفلسفة مما جعل له مكانة خاصة في تراث الثقافة العالمية. بل لعلّ اتصال الادب بالفلسفة مما جعل للحياة العقلية هذا الانتاج الفكري القوي الذي ينمو بتطور الحياة نفسها ويسمو بما فيه من حيوية

أما الادب فهو الانتاج الفكري في قالب المنطق والخيال. وان كان التعبير عنهُ باللفظ المختار واعتماده على المادة والروح — انصحَّ هذا التعبير. ولا ينبغي للاديب أن ينحو نحواً خيالياً عامًّا فيكون تعبيره حسيـًّا فرديـًّا أو ينحو نحو المنطق فيكون تعبيره علميـًّا تركيبيـًّا نائياً عن الروح الادبي. فطبيعة الادب اذن ان يمزج مزجاً دقيقاً ليجمع بين هاتين الناحيتين وهذا المزج هو التصوير

الحقيقي للادب بل هكذا يجب أن ننشئ الادب ونترواه . فنشوء الادب كنشوء أي كائن حي يتخذ حياتهُ من طبيعته الاولى التي تحوي التراكيب والمعاني . فالتراكيب تهيء رسمه وقيمة وجوده المادي . والمعاني تهيىء للعقل ما يتضمنه من تعيين عبارة أو وصف خاطرة أو التبيان عن عاطفة . والادب اذن يستمد عنصريه من اللغة ومن العقل فاللغة لها نشوؤها الخاص ولسنا بصدد بحثه فرجع هذا الى «علم اللغات» والعقل له مناحيه واستنتاجاته ومظاهر تفكيره العامة

***

والادب فن من فنون الجمال . غايته تصوير ما في النفس الانسانية من معان وأوضاع وما في الاجتماع من أساليب ونظم . وما في الوجود من آثار قيمة لها مكانتها . وما في الحياة بوجه عام من اخلاق وطبائع ومن أسباب ونتائج . على أن الادب في العصر الحديث يشمل مناحي جديدة في الدراسات النفسية العميقة فيعرضها على انها طائفة شائقة من البحوث الخالدة التي تستحق التسجيل والتي يجب ان يعرض لها بكل ما فيه من أداة للبحث . . . وفي هذا الجو نشأت الدرامة والقصة التحليلية وأشباهها من الآثار الممتعة . والادب لكي ينتهي الى هذا كله يتخذ العلم والفلسفة سبيلاً لتوضيح هذه الموضوعات . بل يتخذ أداته الطبيعية لايداعها في أجزل اسلوب وأقوى معنى . وليس الادب حديثاً للفظ منمق أو عبارة موشاة انما الادب أسمى من أن يقتصر على هذه الألفاظ الجوفاء التي اتسم بها كتّاب العصر الماضي عند ما كانت «المقامة» وأشباه المقامة والهجاء والمديح في الشعر تطمو على هذا الفن الرائع . وحياة الادب في استيعاب شؤون الحياة نفسها فليس بدعاً ان يعرض الادب للاجتماع أو الاقتصاد أو التاريخ كما تحتكم للعلم أو كما تحتكم للفلسفة . فالادب مرآة الجيل اي الظواهر الحية بوجه عام . ولسنا بصدد حالات معينة أو طائفة من الآراء خاصة تدع الادب وقفاً على بحث دون آخر . واذا كان العلم لم يدع شيئاً مادياً أو روحياً الاَّ وتناوله بحثاً واستقصاءً ، فأحرى بالادب أن يصور المثل الأعلى لاتساع الامد العقلي وسبر غور الحقائق المعنوية في اطراء المعضلات الاجتماعية اذ انهُ من تحصيل الحاصل ان ينتهي الادب الى تقدير الالفاظ ودلالتها على المعاني . او المشتقات اللغوية فليس هذا موضوع الأدب . وليس هذا مجال البحث القائم على الاسلوب العلمي . ولكي نقدر هذا ينبغي ان نعلم ان هناك طبقة من رجال الادب تنتصر للاساليب القديمة التي محورها البهرجة والزينة . والتي تنفرد بالمديح حيناً وبالهجو حيناً او تفهم من الأدب انهُ أداة للكسب . ولعلَّ هؤلاء يصورون احوال الناس وطرائقهم في الحياة كما تحكم المادة وحدها . وشر الأدب ما استعمل في تصوير وجهة خاطئة في لباس من الصدق وان كان في هيكل من هيا كل البيان الرائق الجذاب . بل شر الأدب ما استعمل في الحياة لاكساب الشر معنى الخير وهو عنهُ ناءٍ . ولعلَّ في تاريخ الشعراء والكتّاب في عصور الادب المتباينة ما يقرر هذه النظرية . ولعلَّ في تاريخ الشعراء والكتّاب ما يعبر بأجلى بيان عن ابتذال الادب اذا ما استخدموه في مباذل عهودهم وجعلوه

سبيل حديثهم وعلاقاتهم بالخلفاء والامراء واصحاب السلطة ... ان العصور التي ساد فيها هذا الأدب لا وجه فيها بتاتاً لنهضة ادبية جديرة بالتقدير . فليس تحقير النفوس والإعمال في غير صدق بأدب وان بلغ فيهِ الاسلوب حد الاعجاز . وليست الرفعة الكاذبة بمجدية خيراً على الحياة والواقع ، وان صورت باطياف الطبيعة وكان الفن فيها حقيقة ملموسة . فادب المديح او الهجاء له أسلوب خاص فيهِ كثير من الإثم والمبالغة

بين التقليد والخيال

يجب ان نعلم ان هناك طبقة من الادباء تمجد هذا الروح القديم الذي سيطر على الحياة الادبية في العهدين الجاهلي والاسلامي . وقد انفرد هذا الروح بنزعة اللفظ المبهرج في مختلف المناسبات الادبية فحوته الرسائل الخاصة والعامة والاحاديث والخطب والمديح والهجاء في الشعر والنثر والتفاسير والسير والتاريخ بوجه عام . فالكتابة بأسلوب معين متشابه في كل مناسبة تثبت معنى التقليد وتحصر فيه ميزتها ولعل التقليد في الادب العربي يلمس لمساً شديداً في هذه الفصول التي كان يكلف الأدباء واشباه الأدباء وضعها في سبيل الامراء والخلفاء من اصحاب القوة والسياسة فكان الأدب التقليدي ادب فئة خاصة لا تظفر فيه بعواطف العامة ولا تلمس فيهِ الروح الانساني الشعبي بل تستطيع ان تجد فيهِ هذه الالقاب ومظاهر الثراء واخبار المجالس التي يكثر فيها السمر والشراب والتي اقتصرت عليها حياة بعض الخلفاء والامراء والتوابع والخدم . ولعلّ هذا تلمسهُ في كثير من ادب الشعراء وأخبار الادباء . هذا الادب الذي ساد في العصر الوسيط . على ان العامة كان لها كلف شديد باستطلاع القصص التي كانت تتلى عن الابطال والعظماء . وكان لها ولع خاص بهذه الموضوعات التي تصور حياة الناس ووقائع الملوك والقادة . وكان الكتّاب الشعبيون يثيرون بهذا شعوراً قويًّا . فبدأوا بوضع الاقاصيص الخيالية التي لا تنطبق في كثير او قليل على الواقع والتي لا تخرج عن حد المبالغة في تصوير الوقائع والحوادث . وجد الكتّاب والشعراء اذن في هذا انصرافاً عن هذا الادب الخاص الذي لا يعدو اصحاب السياسة وينحصر في مرضاتهم

على أن هذا اللون من الأدب الخيالي كان نتيجة لازمة لعهد الأدب التقليدي وان كنا نرى في الأدبين التقليدي والخيالي صوراً مشوّهة فيها كثير من التجني والتحريف عن الادب الواقعي . وانني لألمس في اشباه « الف ليلة وليلة » هذا اللون الظاهر للأدب الخيالي . فالف ليلة وليلة من المصادر الدالة على النزعة الخيالية في الأدب . على ان هذا اللون الخيالي لم يترك غرضاً الاَّ وعالجه في لفظ مصطفى ودقة إداء وبلاغة تعبير

ولقد اعتمد الادب الاوربي على هذه النزعة الخيالية العربية التي اكسبتهُ لوناً جديداً من الوان التأليف والتي كانت محط العواطف الانسانية الشعبية ترى فيهِ راحة وإقبالاً لمناحي غرائزها وتذكيرها

ولقد نشأ الادب «الرومانتيكي» على انقاض الحياة العربية . وانك لتلمس فيه روح الادب العربي في المعاني والآراء والنتائج .. ويعييك التحليل والبحث اذا أرجعتهُ الى الادب اللاتيني .. لانهُ لا ينتمي اليهِ بحال

النزعة الانفرادية والادب القومي

الادب نوعان خاص وعام . فالادب الخاص ما يصور حياة جماعة او امة . والادب العام ما يصور حياة جيل ملخصاً في مجموع طائفة من الامم والشعوب . والادب العام هو الادب الذي يحدد التفكير الانساني والعقلية الاجتماعية في شتى مظاهرها . فالادب العربي له نزعته الخاصة في العصر الاموي وله نزعة اخرى تغايرها المغايرة كلها في العصر العباسي على ما بين العصرين من مواضع للشبه ومناح للتمثيل . ولقد زخر الادب بلونيه الانشائي والوصفي في هذا العهد العباسي العظيم كما اتيح لهذين اللونين ان يظهرا ظهوراً واضحاً ايضاً في غضون الحياة العربية بالاندلس . فكان للادب من منثور الكلام ومنظومه روح خاص وطابع ممتاز في املاء الخواطر النفسية والمشاعر الاجتماعية . فكان الطابع الانساني لحياة هذه الطائفة الخاصة من الناس سبيلاً لانشاء الشاعر وسبيلاً لخلق الادب العصري المصور للحياة «الارستقراطية» التي سادت جو الامراء والخلفاء . كما تناول الادب الوصفي حياة هذا الادب الانشائي تناولاً عامًّا يحلل ما فيه من قوة وضعف ومن خيال وحقيقة . وبخلق هذا الادب الوصفي سادت الحياة الاجتماعية ظاهرة النقد في مناحيها المختلفة . ولقد نشأ الادب العام بنشوء العقلية الشرقية متمثلة في الجنسين السامي والآري . ولعلك تجد هذا واضحاً في ادب القدماء المصريين . فهذه الناحية من حياتهم العقلية تجدها في قصص البردي والاقاصيص الدينية التي اخذت تنمو في عصورهم الذهبية وقد تزعمها الكهان والملوك والزعماء . والادب الآري له نزعة خاصة من وجهة الخيال وفيه اثر الروح الشاعرة التي لا تحيى في جو التفكير المادي . والادب الآري يحوي فيما يحوي الادبين الهندي والفارسي والادب الهندي ادب الحكمة العالية والفلسفات الدينية والتصوف وله في الجوهر منزلة خاصة عند مؤرخي الآداب العامة . والادب الفارسي له تاريخ عظيم في سجل الآداب الشرقية وبهِ طائفة من صفوة الكتاب والشعراء المنتجين ويكفي ان نذكر على سبيل المثل منهم الشاعر العظيم الفردوسي صاحب الشاهنامة

والادب الذي يعبر عن رأي خاص لكاتب من الكتاب او جماعة من الجماعات هو الذي يدعو الى النزعة الانفرادية وأما الادب القوميّ فهو ادب خاص بأمة لاتستطيع ان ترده الى غيرها . فالادب العربي أدب قومي لاتستطيع ان ترده بحال من الاحوال الى الاغريق او اليونان وانما الادب الانجليزي ليس ادباً قوميًّا في نشأتهِ لانهُ يردُّ الى الادبين اللاتيني واليوناني . على ان الأدب العالمي بصفة عامة ما سما الى المثل العليا الجديرة بالتسجيل والخلود . والمثل الاعلى في الادب يمثل النظرة الفنية له . فقد

تكون هذه النظرة خاصة بالحقيقة او بالجمال او بالدين أو بالطبيعة . نعم النظرة الفنية لا النظرة العلمية او النظرة الطبيعية او النظرة الفلسفية . فالنظرة الفنية نظرة المزاج ونظرة النفس وطبيعة الخلق واكتمال الثقافة . واما ما عداها فنظرات فيها هذا اللون من الادراك العقلي الخاص بالنفس وكنه الاشياء او هذه الفلسفة التركيبية التي عبر عنها بادراك الحكيم الاجتماعي العالمي « سبنسر »

على ان نظرة الاديب في الحياة تحدد ادبه او تحدد عقليته الاجتماعية في الحياة والوجود وهذا ما يعبر عنهُ بمواهب الاديب وطابع أدبه أو ما ندعوهُ « رسالة الأديب ». فابسن كانت له رسالة في حياته وان عرف عنهُ طابع «الهوسة» وشو يماثله من الوجهة الاجتماعية في هذا العصر وولز له رسالة « العالمية » « وأنوفارنجر » له رسالة « الجنسية والنوع »

وعالمية الادب تكوّن عظمة الأنتاج العقلي لأمة أو أمم ولشعب أو شعوب على ان الأدب الذي يمثل العالمية من فجر التاريخ هو الأدب الاغريقي الذي يدعو الى كثير من التأمل والدرس والذي يصور في مجموعه أرقى نزعات الآداب واقواها . فالى اليوم يُعد غذاء طائفة كبيرة من اعلام الكتّاب وأئمتهم . بل ان طابع القوة لأدب هذا العصر يستقي خصائصه ومميزاته من عناصر الأدب الاغريقي

حرية الادب

هي روح البحث العلمي الذي يجعل من الادب فناً قائماً بنفسه فيهِ عناصر الاستقلال يتحدث عن الشعور والحس بل هذه الحرية ما ينبغى ان نتناول فيها الأدب كما نتناول ظواهر الحياة كلها نتناوله كما نتناول فنون الجمال وكما يتناول العالم الرياضي أو الطبيعي الموضوعات العلمية بالبحث والتحليل. يجب ان نُخضع الأدب للحياة لا أن نخضع الحياة للأدب . فالجوهر ان نترك هذا المعتقد البالي الذي صور الأدب في هيكل القداسة والالوهية . والذي لم يجرؤ اصحاب الأدب القديم ان يبحثوه على انهُ شيء يستحق البحث . ان هذه الحرية تتيح للأديب حظاً وافراً من قوة البحث بل ان هذه الحرية التي تسود جو الأدب هي الفضيلة العلمية التي يستطيع الأدب ان يفخر بها والتي تُعد دُرّة الفكر في جبين الثقافة الحديثة

بين الادب والدين

الحياة كفكرة . و الحياة كمذهب من المذاهب . والحياة كما افهمها انا لا كما تفهمها انت . والحياة كحوار متصل بين اصحاب الأدب واصحاب العلم أو بين اصحاب الأدب واصحاب الدين جعلت العقول تتحفز للوصول الى معنى فيهِ شيء من الاستقرار وفيهِ شيء من الاقتناع . على ان الأدب الذي عاصر الدين من يوم بعثه كان ولم يزل عنصراً لازماً لنشره وكان ولم يزل سبباً لهذا

الضرام المستعر الذي يقوم بين اصحاب الأدب والفكر الحر وبين اصحاب الدين . فشاعر المعرة لا تستقيم آراؤه واصحاب الدين وقد كان الغزالي متهماً بالالحاد وان مات وهو حجة الاسلام وقد يكون هذا سببهُ تعريض اصحاب الأدب برسالة العقيدة أو المذهب الديني ولقد كانت كتابات روسو وڤولتير ورينان نقداً عنيفاً للمذاهب والمعتقدات بل أن « جحيم دانتي » أروع صورة من صور الأدب المناهض للدين . مصدر هذا كله هذه الثورة التي طالما خبا أوارها في صدور الادباء المفكرين الذين يجعلون من اقلامهم سبيلاً لبعث الأدب الحي الذي يعبر عن مكنونات النفس الروحية وكان الادباء في اوربا في خفية هذا الصراع يسيرون على نمط زعيمهم الأكبر « ديكارت » عندما نشر كتابه « عن الاسلوب » واصبح من حق المفكرين ان يقيموا الحجج أمام اصحاب الدين ممن استولوا على سلطة العلم والفن والثقافة في وقت واحد . وقد ظفر الأدب حقًّا يوم اتيح للدولة ان تنفصل عن الكنيسة

بين الادب والسياسة

العلاقة بين السياسة والأدب قائمة على ممر العصور . لا سبيل الى قطعها . فقد تطغى السياسة على الادب كما تطغى على العلم أو الفلسفة . فالتاريخ يحدثنا عن هذا كله والتاريخ يحدثنا مثلاً عن فوز الأدب في فترات الخمود السياسي . والتاريخ يحدثنا ايضاً عن ازدهار الأدب في إبان النهضات السياسية . نعم قد تدعو السياسة الى نهوض الأدب أو الى اهماله وقد تكون السياسة باعثاً قويًّا على نشاطه وذيوعهِ ولكن الادب في الحالين لا يكون صالحاً للتعبير عن المثل الأعلى الذي من اجله وجد . فالأدب قد يقرر هذه الحالات كلها وقد يعرض لها في شيء من التحليل والتفصيل

على ان هذه الحالات استحقت التسجيل والتقرير فهي صورة من صور الوصف المحدود بالزمان والمكان أو هي صورة نقدية لعصر من العصور ادعى للأثبات . وان كان الفن فيها مفقوداً أو شبيهاً بالمفقود

نعم قد تعتور الأدب فترات ركود أو خمود ويكون سببها هذه المحن السياسية وهذه الدوافع الخفية التي تحوط الجو الأدبي . ولكن الثورات السياسة التي تعرض للحياة الاجتماعية كثيراً ما تنهض بالأدب فيبرز في حلته الرائعة ومظهره الاعلى . وقد نرى ابلغ دليل نهضة الأدب الفرنسي الثائر عقب نهوض الثورة الفرنسية الكبرى متمشياً مع النهوض الاجتماعي الفكري في كل مظاهرهِ وكذلك نهضة الأدب الانجليزي في اواسط القرن التاسع عشر في اعقاب عهد « العصابات » وبزوغ فجره في العصر الفكتوري المجيد

المعادن والتبعات الدولية

مكانتها في الصناعة

وصلتها بالحرب والسلام

يعتمد الانسان كل الاعتماد على الوسط الذي يعيش فيهِ . ولكن هـذا الوسط قد بلغ من التعقيد في هذا العصر بحيث يتعرّض الانسان لنسيان العوامل الطبيعية والحيوية التي لا ندحة عنها لحياته . فارتقاؤه الاجتماعي الى المرتبة التي بلغها الآن ، قد استغرق نحو مائتي الف سنة ، كان همّهُ الاكبر في خـلالها ، حاجتهُ الى الطعام ، والى وسط مؤاتٍ يعيش فيهِ ، ورغبتهُ في انجاب الاولاد . ولا تزال هذه البواعث بوجهٍ عام همهُ الاكبر الآن . الاَّ ان التقدُّم الاجتماعي في القرون الحديثة ، وخبرة اسـلافهِ المتجمعة ، وسعت نطاق الوسط الاجتماعي ، وجعلتهُ شديد التعقيد ، فأصبح يشتمل في ما يشتمل عليهِ على جميع الوسائل اللازمة لصحتهِ الخاصة وصحة جماعتهِ والاساليب التي لا ندحة عنها لرفاهتهِ وسعادتهِ

فحياة ملايين من الناس في هذا العصر ، لا تعتمد على انتزاع المواد اللازمة للحياة من صدر الطبيعة بالسعي الفردي ، بقدر ما تعتمد على نظام اجتماعي ، يمكن الجماعة من جمع المواد الخام وتحويلها بالصناعة الى عروض وبضائع نراها اليوم اشدَّ ما نكون حاجةً اليها ، بل لا غنى لنا عنها

ففي هذا العصر ، الذي انتظمت فيهِ الصناعة على اساس واسع النطاق ، وساء فيهِ التوزيع . يميل الانسان الى ان ينسى ان المواد الخام من حيث توزيعها الجغرافي ، وجودتها ، ومقاديرها ، مسيطرة على حضارتنا الحديثة

ويمكن ان تقسم مصادر الثروة الطبيعية الى قسمين عامين احدهما زراعيٌّ ، والثاني معدنيٌّ ، وقد ازداد مقام المواد المعدنية في ارتقاء الانسان الاجتماعي ، ازدياداً مطرداً حتى بلغ ذروتهُ في هذا العصر الذي اطلق عليهِ بعض الكتَّاب اسم « العصر الآلي » او « العصر الميكانيكي »

ولا يحتاج الكاتب الى اقامة الدليل على انهُ لولا الفلزّات ، لما كان في المصانع آلات ومحرّكات ، ولا في الاسواق ما تنتجهُ المعامل من العروض . ومن خواص الفلزات metals انها تستخلص جميعاً من معادن Minerals . والمعادن التي لها قيمة اقتصادية مركزة في الغالب في أتربة وصخور تعرف باسم تبر او ركاز Ore . فاذا نفد التبر تعذّر على الانسان ان يصنعهُ . فالمعادن ، تختلف عن موادِ الغذاء واللباس ، في انها مما لا يمكنه صنعهُ ، كما نصنع الحرير الصناعي بدلاً من الحرير الطبيعي .

ثم ان الوقود المعدني عبارة عن طاقة مخزونة تألبت عوامل طبيعية خلال ملايين من السنين على خلقها وفي وسع الانسان ان يستهلكها ولكنهُ عاجزٌ عن صنعها . فنفاد مصادر الثروة المعدنية ، مرهون بما يكشف منها، مما لم يكشف حتى الآن. وبمعدل استهلاكها . ومما لا ريب فيه ان الانسان لم يكشف حتى الآن جميع مصادر الثروة المعدنية . وقد ارتقت في العهد الاخير الاساليب العلمية في البحث عن المعادن المطمورة في احشاء الارض والاعتماد عليها زاد ما يعرف عن انواع الوقود والمعادن المخزونة

الاّ ان موضوع المصادر المعدنية كالفحم والنفط والمعادن الفلزية من ناحية توزيعها الجغرافي اهم جدًّا من الوجهة الدّولية من موضوع نفادها وتعيين ميعاده

فاذا صرفنا النظر عن الفلزات الثمينة اي البلاتين والذهب والفضة ، وجدنا اثني عشر فلزًّا مهمًّا توجد في مركبات معدنية معقّدة . ففي بيان احصائي لحكومة الولايات المتحدة الاميركية هنالك ٢٨ معدناً تبلغ قيمتها سبعون في المائة من جميع المواد الخام المعدنية التي تتداولها التجارة . ويدل البحث الجغرافي الاقتصادي ، ان الولايات المتحدة الاميركية والامبراطورية البريطانية تسيطران على ثلثي مصادر المعادن التي لا ندحة عنها للصناعة في هذا العصر . وبكلمة واحدة ان الشعوب الناطقة باللغة الانكليزية قد فازت تدريجاً وبوسائل مختلفة بالسيطرة كلّ السيطرة او بعضها على الجانب الاكبر من ثروة الارض المعدنية . واهم هذه المعادن الاساسية في الصناعة هي الحديد والنحاس والالومنيوم والرصاص والخارصيني (الزنك) والقصدير والنيكل وتليها المعادن اللازمة للاخلاط المعدنية اي التي تستعمل لتقسية المعادن الاساسية وهي الانتيمون والكروم والمنغنيس والتنغستن

ويضاف الى ما تقدم معادن غير فلزّية مثل الفحم والنفط والنترات والفوصفات والبوتاس وغيرها مما لا ندحة عنهُ للنجاح الصناعي والزراعي

***

فاذا كانت الأحوال الدولية سوية ، فالولايات المتحدة الأميركية تملك مصادر جميع المعادن التي تحتاج اليها ، ما عدا فلزّات الاخلاط (الانتيمون والكروم والمنغنيس والتنغستن) والنترات . وقد يكون من بواعث الدهشة عند القرّاء أن يعلموا ان الولايات المتحدة الاميركية تنتج في الاحوال السوية ٧١ في المائة من محصول النفط العالمي ولكنها تستهلك اكثر مما تنتج ولذلك تحتاج الى الاستيراد . اما المواد المعدنية التي تستطيع ان تصدرها اميركا الى الخارج ، لان ما تستخرجهُ منها من مناجمها يفوق ما تستهلكه فهي الفحم والفوصفات والكبريت . ويمكن ان يقال بوجهٍ عام ، ان الولايات المتحدة الاميركية على غناها بالثروة المعدنية ، تفوق أية دولة اخرى في مقدار ما تستهلكه منها

فاذا نظرنا الى المانيا وجدنا انها اصبحت بعد الحرب الكبرى ، ولا تملك مصادر للمعادن الفلزية تفي بحاجتها الداخلية . ففي بلاد مصادر محدودة جدًّا للنحاس والحديد والرصاص ، ثم انها تعتمد

كل الاعتماد على البلدان الاخرى في الحصول على سائر المعادن . الاَّ انها غنية بالفحم والبوتاس وما يستخرج منهما يفوق ما تحتاج اليهِ منهما

أما فرنسا فلا تفضل المانيا كثيراً من هذا القبيل . فهي تستخرج من أرضها من الالومنيوم والبوتاس والحديد اكثر مما تحتاج اليهِ منها ولكنها تحتاج ، كما تحتاج المانيا ، الى استيراد النفط وجانب مما تحتاج اليهِ من الفحم

أما انكلترا فما يستخرج منها من الفحم يفيض على حاجتها ، وحديدها يكفيها ، والمقادير المستخرجة من الرصاص والقصدير لا بأس بها . الاَّ انها تحتاج الى استيراد كل معدن آخر . ولكن اذا حسبنا انكلترا قلب الامبراطورية البريطانية ، وجدنا ان ما يستخرج من الامبراطورية يفيض عن حاجتها جميعاً ويصدَّر الى الخارج ، الاَّ الانتيمون والبوتاس والزئبق

فقوة بريطانيا العظمى الاقتصادية تتوقف حقيقة على تماسك الامبراطورية البريطانية، ومقدرتها على استخراج المعادن الضرورية اللازمة للصناعة من مصادر لها عليها سيطرة سياسية او اقتصادية. فاذا قوبلت من هذه الناحية بالولايات المتحدة الاميركية امكن القول بأن ثروتها المعدنية تفوق ثروة اميركا ولكنها لا تملك مصادر هذه الثروة في بلاد خاضعة لسيادتها المطلقة ، بل هي موزعة في بلدان مترامية في جميع اقطار الارض ، وتماسك هذه الاقطار يزداد صعوبة عاماً بعد عام

***

اما الحالة في اليابان من ناحية ثروتها المعدنية فهي اهم مشكلة يواجهها العالم في هذا الميدان . ففي اليابان خارصيني ونحاس ولكن ما يستخرج منهما يكاد لا يكفيها . وليس في بلادها الاَّ بعض ما تحتاج اليهِ من الحديد ومركبات الكروم وعنصر المنغنيس والفحم والنفط . اما في ما عدا هذه المعادن فانها تعتمد على الاستيراد من الخارج كلَّ الاعتماد . ولذلك نرى اليابان مهتمّة كلَّ الاهتمام بالفوز بحق استغلال المناجم في البلدان المجاورة لها سدًّا لهذا النقص في ثروتها المعدنية وعند ذلك يمكنها ان تستقلَّ من هذه الناحية عن الدول الاجنبية التي تستورد منها ما تحتاج اليهِ

وليس في البلجيك من هذه المعادن الاَّ الفحم والنحاس وعليها ان تستورد كلَّ ما عداها من الخارج

وموقف ايطاليا من هذا القبيل لا يقل حرجاً عن موقف اليابان. فليست تملك سيطرة ما على منابع للنفط ولا مناجم للفحم بل انها ليست احسن حالاً في ما يخصُّ الحديد والرصاص . ولا يخفى ان ايطاليا واليابان في الفريق الاول من الدول ، وكلاهما تسعى للاحتفاظ بمكانتها رغماً عن عوزها الشديد في مصادر المعادن . والواقع انهما اسوأ حالاً من انكلترا نفسها ولو فصلت هذه عن الامبراطورية البريطانية

وتختلف اسبانيا عن معظم الدول التي تقدَّم ذكرها في ان ارضها تحتوي على مصادر غنية بالنحاس والحديد والرصاص والمنغنيس والزئبق . ولكنها لا تعنى الآن عناية كبيرة باستغلالها ولا يبعد ان تصبح باعثاً من بواعث الاضطراب بين الدول في غرب اوربا اذا ظلَّت كذلك

فقد قال السر توماس هلند ان «حدود الامم السياسية رسمت اصلاً بناءً على اعتبارات زراعية ولا صلة لها الآن بمصادر الثروة المعدنية داخلها» . وهذه حالة خطرة كان لها شأن كبير ولا يزال في التجارة والسلام الدولي . فالتقدم العلمي والصناعي في صنع ادوات الحرب ومعداتها ، جعل المصادر المعدنية الطبيعية ، عاملاً حيويًّا في اعداد معدات الهجوم والدفاع . خذ مثلاً على ذلك عنصر التنغستن فهو مادة لا غنى عنها في صناعة اجود اصناف الصلب واقساها . وهو يستخرج في الغالب من ركاز يدعى « ولْفراميت » لا يوجد الاَّ في بورما تقريباً . ومناجم الولْفراميت في بورما خاضعة لسيطرة الشركات البريطانية . فلما نشبت الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ كان الالمان قد خزنوا من هذا الركاز ما يكفيهم سنتين . فلما نفد المخزون منهُ عمدت المانيا الى استعمال الموليبدنوم بدلاً من التنغستن في صناعاتها الحربية . وكانت تستورده من بلاد محايدة هي بلاد النرويج . فردَّ الانكليز على ذلك بشرائهم كلَّ ما يستخرج من الموليبدنوم في النروج لمنعه عن المانيا . فعمدت المانيا الى فلز ثالث لا يساويهما في تقسية الصلب ولكنهُ يأتي بعدها وهو عنصر النيكل وكانت تستورده من كندا — البريطانية ! — بواسطة البلدان السكندينافية المحايدة . فحيلولة بريطانيا دون استعمال التنغستن في المانيا كان صدمة كبيرة لالمانيا . ولو استطاعت ان تمنع عنها واردات النكل كذلك لفاز الحلفاء في تقديم ساعة الظفر

فهذه المسألة العلمية الصناعية لها صلة وثيقة بالعهود الدولية التي قطعت حديثاً لحفظ السلم . وهذه العهود لن تنجح في تحقيق الغاية المنشودة الاَّ اذا نظر رجال السياسة الى توزيع المعادن كأداة من الادوات الفعالة في ضبط المعاملات الدولية في المستقبل . لانهُ اذا كانت المعادن لا ندحة عنها لحضارتنا الصناعية فهي جديرة بأن تخوض الشعوب غمار الحروب لاجلها . واذا كانت باعثاً من بواعث الحرب فالسيطرة عليها يجب ان تجعل أداة من أدوات السلم . وربط توزيع المعادن بالشؤون الدولية لا يحملنا على اقحام مسائل جدلية في الموضوع ! فجميعنا نتفق على أمرين أحدها رغبتنا في السلام . والثاني وضع بيان علمي للمعادن المطمورة في مختلف بلدان الارض ثم تنقيح كلما تغير نوع المعادن المسيطرة على الصناعة

***

والخلاصة التي يخرج بها الباحث مما تقدَّم ان مصادر الثروة المعدنية في العالم يجب ان تعالج معالجة دولية . لانها اذا ظلت كما هي الآن موزعة توزيعاً غير متساوٍ بين الامم التي تحتاج اليها ، فالرغبة في الحصول عليها او الاستئثار بها لابدَّ ان يبقى عاملاً من عوامل النزاع والحرب بين الامم

تأثير العلم

في الفلسفة الحديثة والفكر الحديث

لطه الباقر

العلم والصورة الكونية

مما يميز الفلسفة الحديثة عن سواها من الفلسفات السابقة مجابهتها طائفة كبيرة من الحقائق العلمية الجديدة عن الانسان وعن العالم . ومهما يختلف الناس في موقفهم تجاه الفلسفة والعلم ، بين تفضيل الواحد على الآخر ، او التعويل على الواحد دون الآخر ، فان محاولة التوفيق بين الاثنين تقتضي من كل مفكر يأمل لطريقته الفلسفية انتشاراً وتابعين ، أن يعترف بصورة العالم كما رسمها العلم الحديث ، وان يجعل المعرفة العلمية اساساً وخطة كائناً هدفهُ ما كان . وسر هذا السلطان ، سلطان العلم على الفلسفة ، هو ما احرزه من ثقة الناس باساليبه ونتائجه وما احدثهُ في حياة البشر من انقلاب . فالطريقة العلمية اضحت المقياس العصري لكل بحث وتفكير ، والانقلاب الصناعي الذي انتجه العلم ، والحقائق الغريبة التي جمعها عن الكون وعن الانسان ، كل ذلك حدا بالفلسفة الى الخضوع لإرادة العلم سواء كان ذلك في تعيين موضوعات بحثها ام في قسرها على قبول ما تجمع لديه من حقائق عن الكون وعن الحياة

وسنرى في ما يلي أن ابرز واثبت طابع احدثهُ العلم في الفلسفة هو ما نتج عن الصورة التي رسمها العلم للعالم وللحياة ، والتي يمكن اجمالها بعبارة « العالم الميكانيكي المتطور » . ولتفصيل اجزاء هذه الصورة وتحليلها ، نقتطف نبذاً من الحقائق العلمية عن العالم وعن الانسان

قال اللورد بلفور : « ليس الانسان ، كما ينص على ذلك العلم الطبيعي ، العلة الغائية لوجود هذا العالم . وليس هو المخلوق الهابط من السماء والوارث لجميع العصور . وما نفس وجوده إلاَّ حادث عارض ، وما تأريخه الاَّ فترة قصيرة في حياة احقر سيار . ومع جهل العلم بتلك الاسباب الاولى التي انتجت هذا المخلوق العضوي الذي نسميه انساناً ، بتحويل مركبات عضوية مائتة ، فاننا نعرف أنهُ منذ البدء تضـافر الجوع والتناحر والسفك على انشاء جنس يعرف أنهُ حقير وأنهُ لا شأن له في هذا الكون . لنستعرض الماضي فماذا نجد ؟ نجد ذلك الذي ندعوهُ تأريخاً ليس الاَّ دماءً ودموعاً ، اخطاء وفظائع وثورات . والمستقبل ! ماذا في المستقبل ؟ نعرف انهُ بعد فترة ، طويلة اذا قوبلت بحياة الفرد ، وقصيرة اذا قوبلت بما عرفناه عن حياة العالم ، ستنحلُّ قوانا وسيزول مجد الشمس ، والأرض

الخامدة لن تتساهل بوجود الانسان الذي ازعج عزلتها برهة ، اذ ستؤدي به الى العدم . وسيعقب هذه الطنطنة التي احدثها الانسان في احدى زوايا العالم ، سكون وهدوء ، فلا مادة ولا خلود ولا أعمال ولا معرفة ، وحتى الموت نفسه والحب الذي هو أقوى منهُ ستكون كأنها لم تكن مطلقاً »

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

اما العالم الفلكي فنجده يقول : « ليس عالمنا الاّ وحدة من مجموعة عوالم كثيرة نقف امامها حيارى اذ لا تمكننا وسائلنا من البحث في تلك الابعاد حيث يسود الظلام المطبق . واذا كان توغلنا في تلك العوالم لا يجدينا معرفة عنها فانه مكننا من ان نعرف اننا كلما ابتعدنا عن عالمنا ازدادت ضآلة شأن الانسان . وعرفنا ثلاثة اشياء ايضاً : (١) اطراد الناموس الطبيعي في تلك الابعاد اللامتناهية (٢) انتفاء البينة على وجود غاية يمكن العثور عليها في أي جانب من جوانب الكون الفسيح (٣) ان معرفتنا عن الكون وبحثنا في ارجائه لا ترينا أضأل أثر لوجود ذات روحية »

واذا سألنا البيولوجي أو السيكولوجي اجابنا : الانسان حي « كيماوي طبيعي » — Physico-Chemical — وما أمله وطموحه وحبه وخوفه وأثرته وايثاره ومعرفته الاّ نتيجة تفاعلات كيماوية وقوانين تسيطر عليها فتكوّن الوان سلوكهِ وتصرفهِ » . والفيزائي ، وهو الذي كشف مجاهيل عالم الذرات المكوّن منها الانسان وعالمه ، يملي علينا الحقائق الآتية : « معرفة التركيب الذري كشفت لنا عن ظواهر كان حتى نفس وجودها غير منتظر قبلاً . وبهذه المعرفة الجديدة نجد صورة «المادية» — Materialism — واضحة غير مشكوك فيها . ونحن في كل بحوثنا ومعرفتنا لم نجد أي غاية للوجود . وكل ما نجده في هذا الوجود هو الاتساق والنظام الناشئين من اطراد الناموس الطبيعي وانتظامهِ حتى لو قلنا بأن الكون سائر الى الفناء النهائي فذلك لا يعني وجود أية غاية ، كما لا يستلزم وقوف الساعة وعطلها قصداً سابقاً . وأخيراً لا نجد في هذا الميدان الجديد من الكشوف العلمية مكاناً لأي فاعل روحاني . نعرف مما تتكون المادة ونعرف انها طاقة ولكن الطاقة مادية من عالم المادة وليست من عالم الروح ولا يمكن ان تحلل الى الروح . فأين عالم الروح إذن ؟ »

يظهر من ذلك أن العلم في مكتشفاتهِ ووسائله ما كشف عن أي أثر لصديق للانسان سوى الظواهر الطبيعية ، ولم يوفق خلال تنقله بين العوالم إلى أن يعثر على أية قوة إلهية تعنى بالانسان ، او على اي مبدأ يضمن للانسان نجاحاً في كفاحه وغاية من وجوده . فعين العلم لا ترى الانسان الاّ وحيداً في عالم نفس وجوده فيهِ عارض وصدفة . واذا كان ما يراهُ العلم صحيحاً ، فماذا حدا بالانسان ، من قديم الزمان حتى الآن ، إلى ان يشعر بأن هناك قوة سماوية تعنى بهِ وأنها خلقت كل شيء من اجله ؟ الانتروبولوجي يجيبنا عن هذا السؤال بقولهِ : « نحن حيوانات اجتماعية من

وع تلك التي تعيش قطعاناً ، وكذلك كان اجدادنا منذ عصور كثيرة . وبغريزتنا الاجتماعية هذه ننظر الى العالم فندرك فيهِ الحنوّ والاخوّة والصداقة . هـذا ما يخبرنا بهِ دارسو الحيوانات الاجتماعية اثناء تدجينها بملاحظتهم ما يطرأ على عادات الحيوان الاجتماعي وعلاقة تلك الطوارىء بوحدة ذلك الحيوان وحنينه الى قطيعه المفقود .وكذلك تكونت عند الحيوانات الاجتماعية غريزة البحث عن اصدقاء غير موجودين . فمن المحتمل إذن ، او قد يكون اكثر من المحتمل ، أن نشوء فكرة ذلك الصديق عند الانسان يرجع الى تلك الغريزة التي تتصف بها الحيوانات المجتمعة ؟ أي أن اصل الفكرة تشوق الانسان الاجتماعي الى البحث عن القطيع ، او دليل القطيع ، فتعدى في بحثهِ هذا حدود الارض الى ما وراء النجوم »

ولكن العلم وان يكن لا يجرؤ على نفي ذلك الصديق قطعاً فانهُ زعزع امل الانسان في العثور عليهِ وجعله وحيداً في هذا العالم الغريب . واذا لم يكن العلم قد نفى الصديق عن الانسان، فما سبب هذا اليأس والتشاؤم ، او كيف استطاع العلم أن يزعزع أمل الانسان وايمانه ؟

استطاع العلم أن يزعزع ايمان الانسان وأمله لا لأنهُ قال لهُ او فرض عليهِ ان ينبذ الايمان ؟ فالعلم لا ينفي شيئاً ولا يثبت شيئاً إلاَّ بعد التجربة والتمحيص. انهُ لم يقل ذلك مطلقاً ، ولكن هناك آثار ثانوية مصاحبة للعلم وقد كان من اثرها زعزعة أمل الانسان وايمانه . وهذه الآثار هي : —

١ . تغلغل الروح العلمية او العقلية العلمية والثقة التي حازت عليها بين الناس جعلهم يتخذونها المقياس المعول عليهِ في شتى القضايا حتى شمل تطبيقها البحث في كل فن . وهذه العقلية العلمية ، وما تتصف بهِ من شك وتجربة وتمحيص ، جعلت الانسان يقف بها تجاه الايمان والمعتقد كانهما قضية قابلة للتجربة والامتحان

٢ . وقد ينبعث ذلك الشك في الايمان من مصادر غير الروح العلمية ، كما حدث وكما يحدث لافراد ليسوا علماء وليسوا متصفين بما نسميه العقلية العلمية . فتعرض الايمان للشك دوماً ، وتعلقنا بالايمان وبالأمل اللذين يحدوانا الى السير في حياتنا قانعين بل ومغتبطين ، كل ذلك جعلنا نبحث دوماً عمَّا يقوي ذلك الايمان وذلك الامل في نفوسنا . ولطالما لجأنا الى وسائل شتى نعزز بها ايماننا ، فاتخذنا المنطق والفلسفة وصناعة الكلام ، بل والعلم ، سبيلاً الى الغاية نفسها .ولما تراكمت معرفة الانسان في هذا القرن ، ووصلت الى ما وصلت اليهِ من الشموخ والتعالي والثقة ، لجأنا الى العلم نسأله ونريد منهُ أن يطمأننا في املنا وفي أمانينا وجعلناه الحكم في شكنا . ولكن بماذا أجاب ؟ لم يجب إلاَّ باللاادرية القاسية والعجز ، وهو الذي نعتقد فيهِ القوي القادر ، فزعزع ذلك أملنا وتسرَّب الشك إلى ايماننا

٣ . ولو اقتصر الأمر على لا ادرية العلم تلك لهان الأمر ولسهل على كثير من النفوس أن تظل مشبعة بسعادة الايمان والأمل، ولكن الأمر تعدى ذلك الى كشف حقائق علمية عن الحياة والكون

مثل « المادية العلمية » التي هدم بها العلم عالم الروح ، ومثل قابلية فناء المادة ، وفناء العالم ، ونظرية النشوء والارتقاء ، إلى غير ذلك مما له تأثير في اضعاف ذلك الايمان فينا

تجاه تلك الحقائق العلمية عن الكون والحياة نشأت مواقف مختلفة للمفكرين وسبل متمايزة للفكر الحديث والفلسفة الحديثة : فطائفة من الناس عزَّ عليها أن تدع أي شك يتطرق إلى ايمانها وابت ان تعترف بكل ما جاء بهِ العلم عن الكون وعن الانسان . وهذه الطائفة المحافظة ليست موضوع بحثي ، وانما هناك فئات اخرى اثر فيها العلم فترك فيها نتائج مختلفة ، يمكن تصنيفها ودرجها كالآتي :—

١ — المتشائمون Pessimists

٢ — المتفائلون او المثاليون Optimists, Idealists

٣ — العمليون والطبيعيون Pragmatists. Naturalists

١ — المتشائمون

فالمتشائمون هم أول فريق ظهرت البوادر الاولى لنتائج تلك الحقائق العلمية في افكارهم ووجهة نظرهم في الحياة . ولما طبعت عليهِ نفوس هؤلاء من التشاؤم ، ولما امتازت بهِ نتائج العلم الحديث من الاجماع على الاخذ بها ، كان لا بدَّ ان نجد تلك النفوس صاخبة أو نسمعها نادبة حظ الانسان وباكية على النهاية المحزنة لقصة الانسان على هذه الارض . فنسمع مثل تنسون يقول « إذا لم يكن هناك خلود فسأرمي بنفسي في اليم » . وفي ملحمته الذكرى In Memoriam — نجد العالم يعاني آلاماً قاسية ومستمرة . ولكننا نجد في شوبنهور مثل تلك النتيجة واضحة ، ففلسفته هي ابلغ تعبير عن عبث الجهود البشرية وعدم وجود غاية في الحياة وفي الطبيعة . وعنده ان نجوى الحياة هي الكفاح الأعمى والجهاد غير المجدي ، وان قوة غاشمة وغير مدبرة هي التي انتجت هذا العالم ومن يعيش عليهِ ، وهي التي يدعوها « بالارادة » . فهو يقول : « كل انسان وفترة وجوده في الحياة ليسا الاَّ حلماً قصيراً لارادة الحياة المستمرة . وما الانسان الا صورة زائلة ترسمها الطبيعة في صحائفها الكثيرة لا تسمح لها في الظهور الاَّ برهة قصيرة تعود بعدها الى العدم لتفسح المجال لصور غيرها »[١] وقد يجد الانسان في العلم وفي الفن وفي مساعدة غيره من اخوانه تعزية وملهاة . ولكن شوبنهور يرى أن هذه نفسها لا تستحق ما يقاسيه الانسان في سبيل الوصول اليها : « فاذا شبهت الحياة بطريق متوهج بنار حامية إلاَّ بضعة اشبار باردة ، الفينا المنخدعين من الناس يجدون في تلك الاشبار الباردة تعلة وتعزية ، ووجدنا الذين نفذت انظارهم الى ما وراء ذلك الخداع فعرفوا حقيقة الكل ، ليس لديهم ما يتعزون بهِ فينسحبون من الطريق »

وبعد ان بكى هؤلاء المتشائمون كثيراً وندبوا طويلاً آل بهم الجزع والاعياء الى البحث عن

(١) « العالم كارادة وتمثيل » Die Welt als Wille und Vorstellung

التعلة والتعزية في الفن والجمال ، وصرنا نسمع مثل والتر باتر — Walter Pater — في كتابه
— Conclusion to the Renaissance — ورينان في — Examen d'un Conscience Philosophique —
يبشرون بانجيل الفن والجمال كملجإ للانسان من تلك الحقائق العلمية المرة ، على انهُ وان ادعى اولئك المبشرون بأن تمجيدهم للفن وللجمال هو لاجل الفن والجمال ، الاّ اننا نستطيع أن نتلمس فيه صدى الصوت القديم القائل « لنأكل ونشرب ونكن سعداء فاننا غداً نموت » . وهكذا نجد هذه الابيقورية العصرية تتغلغل في روح العصر . اذ كل فلسفاتنا الاجتماعية حقاً ، ما هي الاّ وسائل مزخرفة للتمتع بالاكل والشرب والحصول على الغبطة في أحسن شكل ممكن . فروح العصر على وفاق مع الخيام ، سواءٌ اعترفنا بذلك ام أبينا الاعتراف

٢ — المتفائلون أو المثاليون

يختلف هؤلاء عن المتشائمين في انهم وان كان كثير منهم سلم كما سلم المتشائمون بالصورة التي رسمها العلم للعالم ، فقد ظلّ بينهم فريق كبير شديد الرغبة عن التخلي عن معتقداته الموروثة وآماله القديمة : فاتجه هــذا العدد منهم الى تلك النظريات التي انتجتها أخيلة الرمانتيكيين كرد فعل لصورة العــالم النيوتونية في عصرهم . وهكذا نجد النزعة المثالية (idealism) قد نمت من جديد وأضحى أصحابها يحاولون ان يبرهنوا على ان العلم لم يقص قصة الحياة الكاملة ، وان الطبيعة عاملة مع الانسان لخيره وصالحه . اي ان هذه النزعة المتجددة كانت نتيجة تردد تلك الفئة بين التخلي عن آمالها كل التخلي ،وبين الصعوبة التي وجدتها في رفض الحقائق العلمية ، فهي توفيق بين المعرفة والامل ، اي بين العقل والعاطفة . ووجد هذا الفريق في « كانت » خير حل للمشكلة وخير توفيق بين العلم وبين املهم . فهم كـكانت يعترفون بأن كل ما كشفه العلم صحيح وحقيقي ضمن دائرة العلم ، الاّ ان عالم العلم ما هو الاّ عالم الظواهر ، ويكمن وراءه او يتخلله عالم الحقيقة الذي يختلف كثيراً عن عالم الحس. وعلى هذا فعالم الحقيقة ليس كما يصوره العلم ميكانيكيًّا لا غاية له ، وانما هو عالم روحي اخلاقي يضمن للانسان جهوده وكفاحه . فأضحى هذا المعتقد خير تعزية لكثير من النفوس ، ولا سيما تلك المتعلقة بالايمان والامل ، اذ استطاعت أن تبرهن بهِ على وجود الله وان عجز العلم عن أن يجده ، وأن تسوّغ قواعد الحياة الاجتماعية والدينية

إلاَّ انهُ بعد انقضاء جيل، اي في مستهل القرن العشرين ، نجد تلك النزعة المثالية وقد اخذ عدد معتنقيها يتناقص، اذ نرى انفسنا أمام جيل النشوء والارتقاء ، حيث الايمان القديم يخلي المكان لايمان جديد هو « تمجيد النشوء والارتقاء » . وكما يسم كل معتقد معتنقيه بطوابع مختلفة ، كذلك الحال في هذا المعتقد الجديد الذي احدث وجهات نظر مختلفة بين المؤمنين بهِ : ففئة تمجد فكرة النشوء وتعلق عليهــا الآمال ، وترى أن على الانسان أن يجعل اتجاه سيره وفقاً لنواميس الطبيعة ووفقاً

لسنن النشوء ولا سيما بعد ان عرفت تلك النواميس . يحدثنا « سبنسر » عن ذلك فيقول : « إن اسمى شيء في الحياة هو السعادة البشرية . والمجتمع الذي يعنى بكل فرد من افراده يفوز بالسعادة العظمى . ونستطيع ان نخلق مثل ذلك المجتمع إذا أسسناه على مبادىء المنافسة والتزاحم الحر وعلى اطلاق العنان للفرد يفعل ما يشاء لصالحه . وسيكون مجتمع المستقبل المتطور متسماً بالوفاق مع النواميس الطبيعية ، وستكون مؤسساته على اتساق والبيئة البيولوجية والطبيعية . » وفئة اخرى رأت ان في هذا الايمان الجديد خير ضامن لتقدم الانسان وارتقائه وبلوغه الكمال ، فنراها تعقد الآمال على الناموس الكوني في نشوء ذلك المجتمع الكامل . و « ماركس » يشبه سپنسر في تمجيد ناموس النشوء والارتقاء ، الاَّ انهُ يختلف عنهُ في فهم ذلك الناموس ، اذ « سبنسر » يراه مفضياً الى « الفردية Individualism » في حين ان « ماركس » يراه مفضياً الى الاجتماعية والاشتراكية ، فيقبض فيهِ العمال على آلات الانتاج ويستخدمونها لصالحهم . ففهم « ماركس » لناموس النشوء فهم مادي وليس فهماً بيولوجيـًا . وسواء أخذنا برأي ماركس الاجتماعي او برأي سبنسر الفردي ، فان كلا الرأيين يمثل لنا كيف صار الناس يؤمنون بان هذا العالم « الميكانيكي المتطور » ليس شراً كما حسبه المتشائمون ، وان الاعتقاد بهِ غير مفضٍ الى اليأس والتشاؤم وانما إلى الأمل اللامتناهي

وهناك عدا الفئتين السالفتين ، فريق رأى ان فحوى نظرية النشوء هو التغيير والتجدد ، وعلى ذلك جعل هذا الفريق التجدد والتطور مثلاً أعلى . وعند هؤلاء ان ماهية التجدد هي الخلق والابتداع ، والانسان يحوز بعقله وذكائهِ اعظم قوة خالقة ومجددة . فدعهُ اذن يعيش ويخلق وينتج . فاذا وقف نفسهُ على العمل والتجدد كان الانسان الطبيعي الحق

وهناك طائفة اخرى يمثلها نيتشه ، ارى الضرورة تقضي بابداء الملاحظات الآتية على موقفها

١ — ادرك نيتشه انهُ اذا اخذنا بفكرة النشوء وبما تجهزنا به من مقاييس اخلاقية ، وجب علينا ان ننشىء لنا مثلاً جديدة ومقاييس اخلاقية غير التي ورثناها والتي هي على طرفي نقيض والعالم المتطور الذي نعيش فيه فما كان حسناً في الوقت الذي كانت تحكم فيهِ العناية الإلهية لم يعد كذلك في وقتنا. واذا اردنا ان ننشىء جيلاً نبيلاً قادراً على ان يسير والنواميس الطبيعية وجب علينا نبذ كل ما ورثناه عن الماضي والذي من شأنهِ الاستسلام والضعف ومعاكسة نواميس النشوء والارتقاء

٢ — وعلى هذا المنوال نرى نيتشه يمجد المستقبل ويتصور نشوء الانسان الكامل ، على انهُ لا يتوقع ذلك بتركنا الامر الى العوامل الطبيعية تخلق لنا من تلقاء ذاتها ذلك الانسان . بل علينا ان نكدح ونعد العدة للمستقبل ، يجب ان نفعل ذلك وان تطلب الامر منا ان نكون قساةً . ونحن ان لم نفعل ذلك فالانسان بدلاً من ارتقائهِ الى كمال الآلهة ، سينحط الى مستوى الحشرات

٣ — اعتمد نيتشه اولاً على فلسفة شوبنهور ثم حرر نفسهُ من الانطباع بصورة الحياة كما رآها شوبنهور . ولكن اصالة نيتشه ، وهي التي تفرقهُ عن شوبنهور تبرز في رفضه الاخذ بالنتيجة السلبية التي

رآها شوبنهور ، وهي الانهزام في وجه الحياة الحافلة بالكفاح والتناحر اللذين تفرضهما على الفرد « إرادة الحياة » الشوبنهورية . اذ بذينك العاملين سيظهر « السبرمان » . وتوقع ظهور ذلك الانسان الكامل هو الذي جعل نيتشه يثبت في الميدان مسوّغاً كل ما يكلفنا ذلك التناحر من اتعاب ومستسيغاً مأساة الحياة الحاضرة اذ سيعقبها في المستقبل الفرح العظيم

٤ً — وكثيراً ما يتهم نيتشه بتأليه الجشع التجاري والقومية والوطنية، مشجعاً الحروب والتناحر بين الشعوب . ولكن لا شيء ابعد من هذا عن رأي نيتشه الذي يحتقر الصناعة الرأسمالية ويمقت الساسة والقادة المهرجين ، ويعتبر التوسع التجاري القومي ومعهُ الوطنية اسوأ انواع الشرور اذ يرى هذه الاشياء عائقة ومؤخرة لولادة ابن المستقبل — السبرمان —

٣ً — العمليون او الطبيعيون

هذه الفئة اقرب الى المتفائلين منها الى المتشائمين . الاّ فرق واحد هو ان المتفائلين ، لا سيما النشوئيين منهم ، يؤمنون باستخدام قوى الطبيعة والتعاون معها لتقريب ذلك اليوم الذي يولد فيه الانسان الكامل

على ان العمليين — وهم يمثلون الفلسفة الحديثة وبوجهٍ خاص في امريكا — يرون ان الانسان في عالمه هذا الذي يصورهُ العلم ليستطيع ان يعيش بذكائه وكفاحه حياة فردية او اجتماعية راقية . فعالم العلم لا يجب نبذه كما لا يجب تمجيده تمجيداً اعمى ، بل من الخير ان نقبله كمسكن الانسان الطبيعي ومستودع مواد عمله وصناعته

واذا كان الانسان جزءًا من الطبيعة ونتاج قواها ، فانهُ ليستطيع ان يستغل تلك القوى لنفسه ، مستعملاً في ذلك عقله وذكاءه اللذين منحته اياها الطبيعة . فالنشوئيون عبدة المستقبل والعمليون عبدة الحاضر

ليست هذه الفلسفة وليدة اليوم ، لاننا اذا رجعنا الى الماضي الفينا في ميدان الفلسفة اليونانية أفراداً اعتقدوا وقالوا بأن الحياة شيء يجب ان يستمتع بهِ على ان تدار وتساس ميول الانسان الطبيعية وعواطفه. وفي فجر العلم الحديث نجد « بيكن » يبشر بتجيل العلم والعمل وباستخدام العلم لتسخير قوى الطبيعة لمنفعة الانسان . وهكذا نجد هذه النزعة « الطبيعية Naturalism » البيكونية وقد اتحدت بنزعة اليونان في تلوين هذه الفلسفة العصرية التي يمكن ان نسميها بالعملية او الآلية Pragmatism or Instrumentalism والتي يفاخر الاميركيون بانها فلسفتهم الخاصة بهم . وربما اعدت الكرة فذكرت شيئاً وافياً عن هذه الفلسفة الجديدة في الاعداد القادمة (جامعة شيكاغو)

مقام دراسة الشرق

في معاهد الولايات المتحدة الاميركية

جاء في خطاب لاحد العلماء الاميركيين منذ سنوات ما فحواه ان الغرب يغالي في الاهتمام بفكرة اتصلت بهِ من القرون الوسطى ترمي الى جعل التاريخ القديم قائماً على صرحين هما صرح اليونان وصرح الرومان. ثم انهُ دعا متأدبة الامة الى نقض هذا القول الناقص لان لمصر وأشور وبابل وفينيقية ودول الحثيين والفرس والعبران نصيباً اعرق وأوفر من اليونان والرومان في تكوين العصور القديمة ولولا تحدر آثار هذه الشعوب الى فلاسفة الاغريق الذين تذوقوا طعمها وصبغوها بصبغتهم ثم اعطوها لاوروبة بواسطة الرومان لما كان لهذا الزمن ما يفاخر به من حضارة وعمران[1]

وان في الولايات المتحدة طائفة لا يستهان بها من جهابذة المستشرقين منصرفة الى دراسة الشرق درساً بعيد الغور، وحسب المرء ان يحضر اجتماعاتهم السنوية للوقوف على جهودهم الجبّارة في سبيل احياء ماضينا . وكان من حسن الطالع ان ضمتني جلسات الجمعية الاميركية الشرقية المنعقدة لسنتها المائة والسادسة والاربعين في مدينة فيلادلفيا في نيسان (ابريل) من الربيع المنصرم، فأعجبت بما لاحظته من رسوخ هؤلاء الباحثين الاعلام في معالجة الامور الشرقية لغوية وتاريخية وفلسفية وذهلت لما شاهدته من سعة اطلاعهم وفيض بيانهم في الاخذ بجميع المطالب العلمية ذات البال . وهم موفدون مما يزيد على مائة معهد وجمعية ومتحف منها امهات الجامعات والمتاحف الشهيرة والمكاتب الكبرى المنتشرة في طول البلاد وعرضها . ويوضح تضلعهم من العلوم الشرقية اختصاصهم الواسع فهذا مكبٌّ على اللغات السامية مثلاً وذلك اختصاصه اللغة البابلية (الاكادية) فقط وغيره يعرف كل ما يُعرف عن العرب او اليهود او مصر وما اشبه . واليك بعض الموضوعات التي تناولتها مباحث الاعضاء اوردها على سبيل المثال غير جاهل انها لا تمثل الاّ ناحية يسيرة من نواحي مناهجهم : رسالة حسن البصري في القدر — بحث في نشوء كلمات ساميّة منها ادريس وعمورة ودليلة وناداب — مقابلة بين الشتم عند البابليين واليهود والمصريين القدماء — نقوش سومرية (شمرية) تشير الى القربان — بحث في حياة الخصيان في القصور

وعبثاً نحاول وصف دقتهم وايجازهم واجادتهم المعنوية السائدة مناقشاتهم . فالروح العلمية المرفرفة على بهو الاجتماع كانت حقيقة بالثناء العاطر حتى لاح لي ان افضل ما يقتنيه الشرق من ثروة روحية حرية بالخلود قد انتقل الى هذه الديار النائية فانطلق ابناؤها يتبارون في درسه وتحليله

(1) Julian Morgenstern, Journal of the American Oriental Society, Vol. XLVIII, No. 2, 1928, p. 105.

ولعلّ شغفهم بهِ واقبالهم عليهِ انساهم ما يحيق بموطنهم من مكاره اقتصادية وما يكتنفه من محن اجتماعية افضت اليها الازمة الحاضرة فاركبتهم مركباً خشناً لا نفهمه نحن الشرقيين وقد تعوّدنا عيشة البساطة والقناعة ولم يذللنا نير المعامل والمصانع ولاسطا علينا تيّار المادة الجارف

ومما طالعتهُ رسالة وضعها باحثان من اعضاء الجمعية المذكورة احدها استاذ في جامعة جونس هوبكنز العظيمة اتفق وادارة ذلك المعهد ان يقضي الشطر الاول من عامه في فلسطين منصرفاً الى البحث الأثري على ان يقفل راجعاً في الشطر الثاني ليتولّى منصبه التدريسي. والآخر استاذ كبير في جامعة بنسلفانيا . وقد اعلن الكاتبان تحت عنوان « الاستعداد لدرس الشرق الادنى وآثارهِ » ما للمباحث الأثرية الجارية في فلسطين من خطر الشأن على شريطة ان يكمل الدارس استعداده العلمي قبل مبارحة اميركا . ثم خصّا باباً من رسالتهما بالعراق واشارا الى اركان الملمّين بأحواله الجغرافية والتاريخية والأثرية ويؤخذ من كلامهما ان الشرق ينبوع عذب لا يرتوي ظمأ العالم منهُ آلاّ اذا جاب اقطاره وشاهد بأم العين ميادين الحضارة الاولى في ربوعه الفتانة (1)

ولمستشرقي الولايات المتحدة مدرستان بارزتان في الشرق العربي تقومان باعمال الحفر والتنقيب وهذا بصرف النظر عن وفود البحث الأثري في وادي النيل من امد بعيد . الاولى في بيت المقدس والاخرى في بغداد . ولا يُظهر فضل هاتين البعثتين مثل الاطلاع على نتائج اعمالها التي افضت الى تعديل جانب كبير من تاريخ الشرق القديم وافراغ اخباره في حلة قشيبة . والعدول عن كثير من الحقائق المسلم بها قبلاً وتفسير الشؤون الخطيرة تفسيراً ينطبق على مكتشفات المنقبين الاخيرة

ولا بدّ لنا في هذه الرسالة ونحن نسعى الى تصوير عناية العالم الجديد بالنهضة الشرقية وتاريخها المجيد ونحاول اكتناه مايساور الرأي العام فيهِ من آثار الروح السامية من العرض لمقام اللغة العربية. واول ما يتبادر الى الذهن المساعي الحميدة التي يبذلها العلامة الدكتور فيليب حتي فما كاد يتسلم اعباء منصبه الخطير في جامعة برنستون حتى انبرى لاعلاء مقام العرب والتفرّغ لبثّ اخبارهم بين متعلمة القوم. ويا ليت المجال يتسع لذكر اعمالهِ . فانهُ عدا تأسيسه مطبعة عربية وجمعه شتات المخطوطات العربية من بعد ان حشد ما يزيد على الـ ١٥ الف مجلد عربي ثمين في مكتبة الجامعة اشتغل في ادّخار المال الكافي لتنظيم هذه المخطوطات وتولى الاشراف على وضع فهارسها وتقاويمها العلمية . ولا يقف عزمه عند هذا الحد بل انهُ ينوي البدء بمشروع واسع النطاق يستغرق عشرات السنين ويضمن جمع جميع ما في البلاد من مخطوطات عربية ونشر جانب هام منها .والى كل ذلك فهو يدأب ليل نهار في تأليف كتاب مستفيض في الانكليزية يحوي بين دفتيه تاريخ الامة العربية والمرجح ان يفضي ظهور هذا السفر العتيد الى طور جديد في دراسة الحضارة الشرقية في هذه القارّة ويضاعف العناية بآداب العرب وتمدنهم

(1) W. F. Albright, and E. A. Speiser, Suggested Approach to the Study of Near East Archaelogy, Philadelphia.

ولا جدال في ان الاوروبيين هم الذين سبقوا الى الفتوحات الباهرة في هذا المضمار فمنهم دي ساسي المتوفي في النصف الاول من القرن الاخير صاحب الايادي البيض على علم اصول اللغة العربية . وبعده قام في القرن ذاته ومن ابناء فرنسا ايضاً اديب فذّ لم يعدم ميوله الى الابحاث العلمية وقائمة مصنفاته وان كانت اليوم مفروغاً منها من الوجهة العلمية الاَّ انها لا تزال حلقة مكينة في سلم ارتقاء المشرقيات عند اهل الغرب . نعني الكاتب الطائر الصيت ارنست رينان . فقد ألمَّ بتاريخ فينيقية وتوغَّل في شؤون بني اسرائيل منعماً نظراته في سفر ايوب وكان قد نشر قبل هذين المؤلفين بحثاً في تاريخ اللغات الساميَّة . ومن آثاره « حياة المسيح » و « ابن رشد وعقيدته » وسواها مما هو معروف لدى القراء . وأما المستشرق الالماني تيودور نولدكه فانه شيخ المستشرقين قاطبةً ولد سنة ١٨٣٦ ومات عن عمر كبير ومآثر خالدة في مختلف العلوم الشرقية التي تناولها وكانت ميوله جامعة شاملة فلم يهمل زاوية من زوايا المشرقيات بل طرقها كلها وصار حجة فيها

وفي مرتبة هؤلاء يعد العالمان هرغرونيه ودي غويه وهما لا يقلان تدقيقاً وتنقيباً وهذا الاخير حسبه ما نشره من تاريخ الطبري في مجلدات سهلة المأخذ زينها بالفهارس والحواشي العلمية

ومن المعاصرين الانكليز عالمان يجدر بنا الاشارة اليهما احدهما استاذ في جامعة كامبردج والآخر في اكسفورد اعني نكلسون وندّه مرغوليوث . اما الاول فأشهر مؤلفاته تاريخ الآداب العربية وله سوى ذلك ما يستحق الذكر مما نقلهُ من الشعر الشرقي . وللاستاذ مرغوليوث جولات معهودة يشهد لهُ فيها بطول الباع وقد أصدر تاريخ الدولة الاموية والدولة العباسية في لغتهِ الخاصة نقلاً عن سلسلة جرجي زيدان التاريخية . الاَّ ان درس المؤلفات الشرقية التي يصدرها المستشرقون منذ اكثر من قرن يحملنا على الاقرار للالمان بقصب السبق . ولكن احداث السياسة الاوربية والتضييق الفكري الذي يعانيه العلماء يحملان على الظن بان النشاط الفكري في اوربة في هذه الموضوعات التي لا يمكن ان تنهض الاَّ في جو ملائم للبحث الحر سيتأخر لما انتاب حرية البحث في بعض بلدانها من مآسٍ جسام

ثم ان عدد الفحول الالمان الذين امّوا هذه البلاد على اثر الانقلاب الاخير يدعم قولنا . أو لم يهبط بعضهم ارض الاتراك كذلك طلباً للسكينة والامن . ومنهم من هجر مسقط الرأس قادماً الى اميركا ولو لم يكن ممن استهدف لسهام الاضطهاد ، طمعاً بما في المهجر من بحبوحة العيش ووسائل النمو العقلي وسبل العمل الحرّ فما تقوم عليه النزعة الجديدة في الولايات المتحدة من الاعتناء بشؤون الشرق العلمية وما يغذيها من ميول صادقة لا تحفزها المطامع الاقتصادية والسياسية مضافاً الى ما يعتور الحياة الفكرية في القارّة الاوربية من الصعاب ينذر بانتقال معقل المشرقيات الى ما وراء بحر الظلمات في المستقبل غير البعيد

ولا ريب في انهُ اصبح لبلاد العرب ولغتهم وامتهم مكانة لم نعهدها من قبل . اما علو شأن البلاد فلان اجماع رأي العلماء يميل الى حسبانها مهد الساميين . واهمية اللغة العربية راجعة الى كونها

مفتاح الفيلولوجيا السامية . واما مقام الامة فلأنها انقى العناصر التي يتمثل فيها الجنس السامي ولقد آلت هذه النظرية الجديدة الى قلب الاصول التي كان يتمشى عليها العلماء في درس التوراة . واول من مهد السبيل الى هذه الطفرة Pococke في القرن السابع عشر ثم قام Schultens فايّده وجاراه في وضع حجر الاساس حتى اذا ما جاء القرن التاسع عشر تمّت الفكرة الجديدة على يد العالمين Wellhausen و W. Robertson Smith وقبل عشر سنوات ظهر كتاب للاستاذ مرغوليوث احتوى ثلاثاً من محاضراته تحت عنوان « علاقات بين العرب والاسرائيليين قبل نهوض الاسلام » ابان فيه كثيراً من الغوامض واثبت ان الشيء الكثير من تاريخ العبرانيين وآدابهم يسهل فهمه اذا درسناه بعد انعام النظر في اللغة العربية ولغة عرب الجنوب

ثم كانت السنة الماضية فأصدر العلامة الاميركي مكدونلد كتابه في « عبقرية العبرانيين الادبية » وذهب فيه الى ان آداب اليهود لازالت على مرّ السنين مدينة في تكوينها للغة الضاد وتوسع في مباحثه فجعل حياة النبي داود واشعاره شبيهة بسيرة امرؤ القيس وقصائده ضارباً امثالاً كثيرة على القارىء اللبيب ان يرجع اليها لرؤية ما يتوسم فيه من تشابه بين الشعبين . وقد قال هذا العالم ان مفسري العهد القديم في السنين المقبلة يجب ان يكونوا من الواقفين على متون اللغة العربية

واخيراً ظهر مؤلف للاستاذ مونتغومري سماه « الجزيرة العربيـة والتوراة » اتى فيه بحقائق ثابتة وآراء طريفة تؤكد بما يقبله العقل وتقرّه الشواهد التاريخية والعلمية ان فهم تاريخ اسرائيل لا يمكن ان يتمّ الاّ اذا تمكن الطالب من تفهم احوال الجزيرة . وقد شفع المؤلف اقواله بمستندات فيلولوجية وتاريخية ولا غرو فهو من اساطين العالمين ثم تطرّق الى تفصيل قضية المناخ في الجزيرة وازدياد الجفاف فيها على مرّ السنين والقرون ثم عرض لعلاقات العبرانيين التجارية بأبناء البادية وطرق باب الحكمة العربية وقابل بين هذه وما يجده الباحث في صفحات ايوب والامثال ثم عكف على الاسباب التي ادّت الى افول نجم العز في جنوب الجزيرة بعد تألقه ردحاً طويلاً من الدهر في العصور القديمة وتخلص بآراء حصيفة في أثر الصحراء الجلي الظاهر في ديانة العبرانيين

ومهما يكن من امر فان العناء بالمشرقيات في هذه الديار لهو مقرون بقسط وافر من التشجيع والتنشيط ويؤمل ان يظفر بمقام يليق به وبالشرق الذي اوجده . وهاك كلام احد ائمة العلم الذين يؤبه لهم قال « يجب ان ندرس الشرق لانهُ لا يزال مبعث النور والالهام ويجب ان نُعْنَى بتفهّم تعابير الساميين لان اللفظة من الفاظهم اشبه شيء بشحنة الكهرباء التي يحار الفهم في قدر قوتها والاحاطة بماهية طاقتها . هكذا تعجز السنتنا الغربية عن ازاحة الستار عن المعاني السامية وفقه مكنوناتها لانها ذات مرام بعيدة تستعصي علينا ولا عجب فهي متصلة باعماق النفس ولا سبيل الى سبر غورها الاّ بعد امعان شديد »

جامعة بنسلفانيا — الولايات المتحدة ادورد جرجي

الاسطول والبحرية

أيام محمد علي

للدكتور علي مظهر

— ١ —

في الوقت الذي أخذت فيه دول كثيرة تعد عدتها للهجوم أو للدفاع وفي الايام التي نرى فيها الدول تأمر أساطيلها ومراكبها الحربية بالتنقل من مرفإ الى مرفإ ومن ثغر الى ثغر وفي الشهور التي تنادي فيها أمم بالويل والثبور وعظائم الامور لمن يعتدي على حرمة بلادها وتمد ما استطاعت من بأس وقوة ومن رباط الخيل ترهب به اعداءها ، دع الطيارات والمصفحات والدبابات والمهلكات والغازات الخانقة والسامة ، وفي الوقت الذي تدعي فيه بعض الشعوب ملكية بعض البحار فتقول عنه (بحرنا) وتأبى الا أن تكون سيدة ذلك البحر الخضم — في هذا الوقت الذي نرى فيه كل تلك المعدات ولا نرى لمصر فيها معدات تذكر فلا أسطول ولا بحرية ، يجب علينا أن نرجع البصر ونقلب صفحات الماضي المجيد فنذكر ما كان لنا من قوة وبأس ومن أسطول وبحرية ليس في الماضي المترامي في القدم أيام الفراعنة ومن تلاهم فحسب بل وفي السنين القريبة منا التي يكاد يذكرها بعض المسنين ممن نعموا بالعيش فيها والتي يذكرها أولاد من اشتركوا في خدمة مصر في تلك الأيام حتى انا لنكاد نرى خيال تلك العظمة ماثلاً أمامنا اذا ما عثرنا على شيخ هرم اشترك في جيش ذلك العهد أو حدثنا رجل من اعيان الارياف عن أبيه الذي كان قبطاناً في الاسطول المصري أيام محمد علي

واني لأذكر يوماً في هذا الشهر جلست في صباحه مع عين من أعيان الفيوم وكان الحديث ذا شجون ورحنا ننتقل من حديث الى حديث وكان جلستنا وكانت على بحر يوسف ونحن نرى مياهه النيلية الحمراء تتدفق أمامنا وتمر بسرعة كما مر قرن أو يزيد على تلك الذكرى السارة المؤلمة ، ذكرتنا بما كان لمصر من عز ومنعة قبل قرن من الزمان أيام أبي الشعب المصري في العصر الحديث فاخذ الرجل يحدثنا عن ابيه الذي كان قبطاناً لسفينة حربية من سفن الاسطول المصري اذ كانت البحرية المصرية أيام منشئها محمد علي كالنيل النجاشي وهو يزخر بمياهه ويتدفق في عظمته وجلاله وما أصبحت عليه البحرية اليوم فهي كقناة صغيرة تستمد مياهها القليلة بشادوف

يعمل فيه صاحبه بجهدٍ ليروي قيراطاً وسهماً من الارض. ولعلَّ رؤيا مياه بحر يوسف أمامنا وقتئذٍ وانتقال الخيال السريع هو الذي دعا ذلك السيد أن يحدثنا عن البحر والاساطيل والمراكب فتمر بالوسنان كشريط من اشرطة الصور المتحركة وأن يحدّثنا عن الماضي والآباء والجدود. وليس ذلك السيد هو الخَلَف الوحيدمن سلالة من اشتركوا في قيادة السفن الحربية أيام محمد علي أو في بنائها فأنت أينما سرت وبحثت عثرت على ذريتهم منتشرة من ساحل البحر الابيض المتوسط الى أقاصي السودان. وكان ذلك الحديث هو الذي أثار الذكرى لاتمام بحثنا عن البحرية المصرية قديماً وحديثاً وكنا قد نشرنا جانباً كبيراً منهُ قبل اليوم على صفحات المقتطف. فلنعد اليوم الى ذكر مفخرة من مفاخر الاجيال ونشر شذا الذكر الطيب عن تلك الايام السعيدة بعد أن شغلتنا أمور عن نشرها

محمد علي والبحرية المصرية

يمكن تقسيم الكلام على البحرية المصرية الى قسمين كل قسم منها يخصص الكلام فيه على مدة فالمدة الاولى تبدأ بسنة ١٢٢٤ هـ الموافقة لسنة ١٨١٠ ميلادية وتنتهي سنة ١٢٤٣ هـ الموافقة لسنة ١٨٢٩ والمدة الثانية تبدأ من سنة ١٢٤٤ هـ الموافقة لسنة ١٨٢٩ ميلادية وتنتهي بولاية ابراهيم باشا سنة ١٢٦٥ هـ الموافقة لسنة ١٨٤٨ ميلادية

المدة الاولى

بعد أن لبث محمد علي والياً على مصر عدة سنوات ارسلت اليهِ الدولة التركية العثمانية أمراً بتوجيه حملة عسكرية على الوهابيين لاسترداد البلاد التي احتلوها من الحجاز خشية استفحال أمر دولتهم الناشئة في قلب جزيرة العرب. فرأى محمد علي أن نقل الجنود والمعدات الحربية من مصر الى الحجاز غير ميسور الاَّ على ظهور المراكب عن طريق البحر الاحمر فبادر الى تشييد دار صناعة السفن ببولاق لانشاء تلك السفن فأمر بقطع الاشجار الصالحة لبناء السفن وتجهيزها ثم تنقل مفككة على ظهور الابل الى السويس فتركب هناك ثم تنزل في البحر لحمل الرجال والعتاد الحربي والمؤن والذخائر وبذا يمكن أن يقال ان تلك السفن المنشأة كانت النواة الاولى للبحرية المصرية أيام ذلك الرجل العظيم وكان لتلك السفن فضل كبير في نجاح الحملة التي وجهت الى الوهابيين وجعلت لمصر مقاماً وهيبة في البحر الاحمر وثغوره

وقد ذكر الجبرتي في تاريخه في حوادث شهر ذي الحجة سنة ١٢٢٤ هـ ما نصه:

واستهلَّ شهر ذي الحجة بيوم الاحد سنة ١٢٢٤ هـ (يوافق ٧ يناير سنة ١٨١٠ ميلادية) وفيه شرع الباشا (يريد محمداً عليًّا) في انشاء مراكب لبحر القلزم (البحر الاحمر). فطلب الاخشاب الصالحة لذلك. وارسل المعينين لقطع اشجار التوت والنبق من القطر المصري القبلي والبحري وغيرها من الاخشاب المجلوبة من الروم (بلاد الاناضول). وجعل بساحل بولاق ترسخانة (دار صناعة

للسفن) وورشات (معامل ومصانع) وجمعوا الصنَّاع والنجَّارين والنشَّارين فيهيئونها وتحمل اخشابها على الجمال ويركّبها الصنَّاع بالسويس سفينة ثم يقلفطونها ويبيضونها ويلقونها في البحر فعملوا اربع سفائن كبار احداها تسمى الابريق (لشبهها بالابريق وكانت عبارة عن سفينة بساريتين وقلوع مربعة واسمها عند الافرنج بريك) وخلاف ذلك داوات لحمل السفار والبضائع

ويفهم من كلام الجبرتي في حوادث سنة ١٢٢٧ ﻫ (توافق سنة ١٨١٢ م.) أن دار صناعة بولاق كانت تنشيء (المراكب الكبار والصغار التي تسرح في النيل من قبلي الى بحري ومن بحري الى قبلي ولا يبطل الانشاء والاعمال والعمل على الدوام وكل ذلك على ذمته (على حساب محمد علي باشا) ومرمتها وعمارتها ولوازمها وملاحوها باجرتهم على طرفه لا بالضمان كما كان في السابق. ولهم قوَمة ومباشرون متقيدون بذلك الليل والنهار)

ثم انهُ ذكر في حوادث تلك السنة عينها ما نصهُ :

ان الباشا ارسل لقطع الاشجار المحتاج اليها في عمل المراكب مثل التوت والنبق من جميع البلاد القبلية والبحرية فلبث المعيَّنون لذلك في البلاد فلم يبقوا من ذلك الاَّ القليل لمصالحة اصحابهِ بالرشا والبراطيل حتى يتركوا لهم ما يتركون فيجتمع بترسخانة (دار صناعة السفن ببولاق) الاخشاب لصناعة المراكب مع ما ينضم اليها من الاخشاب الرومية (من بلاد الاناضول) شيء عظيم جدًّا يتعجب منهُ الناظر من كثرته. وكلما نقص منهُ شيء في العمل اجتمع خلافه اكثر منهُ

وعاد الجبرتي فذكر في حوادث سنة ١٢٣١ ﻫ (توافق ١٨١٦ م.) ما نصه : والعمل والانشاء بالترسخانة مستمر على الدوام والرؤساء والملاحون يخدمون فيها بالاجرة وعمارة خللها واحبالها وجميع احتياجاتها على طرف الترسخانة. ولذلك مباشرون وكتَّاب وامناء يكتبون ويقيدون الصادر والوارد. وهذه الترسخانة بساحل بولاق بها الاخشاب الكثيرة والمتنوعة وما يصلح للعمائر والمراكب ويأتي اليها المجلوب من البلاد الرومية (الاناضول وغيره) والشامية. فاذا ورد شيء من انواع الاخشاب سمحوا للخشابة بشيءٍ يسير منها بالثمن الزائد ورفع الباقي الى الترسخانة. اه

ففي دار صناعة السفن ببولاق كان انشاء البحرية المصرية الاولى ايام محمد علي وفيها انشأ سفناً كباراً حتى رأى انشاء دار الصناعة بالاسكندرية. ويقال ان ذلك المجهود الهائل من نقل الاخشاب من مختلف بلدان مصر والشام والاناضول وبقية البلاد التركية الى بولاق لعمل السفن مفككة لتنقل على ظهور الجمال كان يستدعي استخدام نيفاً وعشرة آلاف من الابل كان يهلك بعضها اثناء العمل فيعوض بغيرها وامكنهُ بذلك ان ينشيء ثماني عشرة سفينة كبيرة كاملة العدة وانزالها الى الماء في مدة عشرة اشهر [١] وذكر اسمعيل باشا سرهنك في كتابهِ (حقائق الاخبار عن دول البحار ج ٢ ص ٢٢٦) بعد الكلام عن دار صناعة بولاق ما نصه :

(١) المسيو فيلكس مانجان F. Mangin في تاريخه عن مصر مطبوع بباريس سنة ١٨٣٩

وشيد بالسويس مباني لصناعة السفن انشأ بها اربع سفن جسيمة من نوع الابريق (وهي سفن بساريتين وقلوع مربعة) واحدى عشرة سفينة اخرى من نوع السكونة (وهي سفينة بسارية واحدة لها قلوع مربعة ونصف سارية ذات قلوع مخروطية) . ثم توجه العزيز (يعني محمداً عليـاً) بنفسه الى السويس لمشارفة ما بها من السفائن سنة ١٢٢٥ هـ . وهناك امر بضبط ما بها من المراكب وما بغيرها من سواحل البحر الاحمر لاستعمالها في الحملة الوهابية . وروى سرهنك باشا رحمهُ الله (ص ٢٢٨) يذكر عودة الوهابيين للقتال بعد تعهدهم بالكف عنهُ فقال ما نصه : واستعد محمد علي باشا لقتالهم واعد السفن ببولاق مصر لحمل الجنود بالنيل الى مدينة قنا لتسير من هناك الى ثغر القصير وجعل على هذه القوة ولده ابراهيم باشا (١٢ شوال سنة ١٢٣١ هـ — ٣ سبتمبر سنة ١٨١٦ م.) ثم ركبوا اسطول البحر الاحمر الى ينبع اهـ . وهذه كانت الحملة الثانية لمحاربة الوهابية كما يفهم من سياق الكلام . ويظهر ان الفرق في عدد السفن التي امر محمد علي ببنائها في رواية مسيو فيلكس مانجان ورواية سرهنك باشا وهو ثلاث سفن هو الذي اخذه محمد علي مما وجده بالسويس كما يشير الى ذلك الباشا في روايته هذه

الاسطول المصري في البحر المتوسط

على ان محمداً علياً كان ذا نفس وثابة طموحاً الى انشاء دولة كبيرة بعيد النظر لحماية بلاده فرأى ان ينشىء اسطولاً ضخماً الى جانب الجيش الذي كوّنهُ للمحافظة والدفاع عن البلاد وللفتح كما رأينا من سيرة ذلك الرجل العظيم

ولما كانت مراكبه التي اصبحت تمخر البحر الاحمر لا يمكنها ان تسير الى البحر المتوسط اذ لم تكن القنـاة قد انشئت وقتئذٍ . ولما كان يعلم أن بلاده في حاجة الى اسطول يحمي شواطئها الشمالية والى بحرية ليستعين بها على نقل المتـاجر والمعدات ولتكون صلة وصل بين مصر وغيرها من الدول الاخرى لهذا رأى ان ينشىء عمارة مصرية واسطولاً قويـاً يمخر عباب البحر المتوسط بين افريقية وآسيا واوربا

فلجأ اولاً الى شراء سفن حربية من الخارج واوصى على انشاء بعضها في ثغور اوربا مثل مرسيليا وليفورن وتريستا وجنوه وسلحها بالمدافع وعهد بقيادتها الى قباطين من الاسكندرية والاتراك كانوا بالسفن التجارية . اما ملاحوها ونوتيتها فكانوا من المتطوعين . وعهد الى بعض الضباط من فرنسا وايطاليا في تدريب البحارة وتعليمهم . يضاف الى ذلك سفينتان حربيتان كان السلطان محمود العثماني قد اهداها اليه . اما السفن التي احضرها محمد علي بواسطة بعض تجار الفرنج فكانت من نوع الفرقاطة والقرويت والابريق على مثال السفينتين اللتين اهديتا اليه من السلطان

وكان في الاسكندرية دار صناعة قديمة تبنى بها بعض السفن من طراز قديم وجعل شاكر افندي الاسكندري رئيساً للهندسة فيها وضمَّ اليه رجلاً عرف ببراعته في فن بناء السفن وكانوا من مشهوري

المعلمين بالاسكندرية يسمى الحاج عمر فجعله محمد علي رئيساً للانشاء وعمارة السفن وجعل الحاج احمد اغا ناظراً على بناء السفن . ولما حضر المسيو بيسون Besson وكان من ضباط السفن الحربية الفرنسية الى مصر في سنة ١٨٢١ وعرض خدمته على محمد علي جعله ملاحظاً للسفن التي امر بصنعها في دور صناعات السفن بأوربا . وقد حاز ثقة الباشا (محمد علي) وارتقى حتى انعم عليه برتبة البكوية وعرف بالفيس اميرال بيسون بك (اعني نائب امير البحر) . وأوجد ادارة خاصة للاساطيل المصرية وجعل صهره محرم بك محافظ الاسكندرية رئيسها مع احتفاظه بعمله كمحافظ .

واشترى محمد علي عدة سفن شراعية لنقل الذخائر والمهمات كانت تجلب الاخشاب اللازمة لدار الصناعة الجديدة بالاسكندرية وقد كانت على الشاطىء الشرقي من الميناء الغربية جهة خط الصيادين بالاسكندرية.وجعل بها معامل للحدادة والنجارة والقلفطة وغير ذلك مما تحتاج اليهِ السفن الحربية . وكانت تلك السفن الشراعية تجلب الاخشاب اللازمة من سواحل بلاد الاناضول

وقد اشتركت السفن التي انشأها محمــد علي في الاسكندرية مع السفن التي أمر بانشائها في دور صناعة السفن باوروبا أو التي اشتراها والسفينتين اللتين اهديتا اليهِ من السلطان في وقعة نافارين ببلاد موره باليونان في يوم ٢٠ اكتوبر سنة ١٨٢٧ م

ويرى صاحب السمو الامير العلامة عمر طوسون الذي يعنى عناية خاصة بأعمال جده الكبير ان السفن الحربية التي اشتركت في تلك المعركة كانت اربعاً وثلاثين قطعة غير سفن النقل التي بلغت اربعاً واربعين ، وقد عرف الامير الجليل من سفن محمــد علي الحربية قبل موقعة نافارين اسماء خمس فرقاطات وهي

(١) شير جهاد (٢) رشيد (٣) ثريا (٤) احسانيه (٥) جهادية وستة قراويت وغولتات هي :

١ — بلنك جهاد — ٢ رهبر جهاد — ٣ نافارين — ٤ جيلان — ٥ وشنطن — ٦ تمساح

وقد سمى امين باشا سامي في كتابه تقويم النيل ج ٢ اثنتين من الفرقاطات المذكورة باسم سوريا والحربية بدلاً من ثريا وجهادية

ولا يسعنا الاَّ شــكر سموه أجزل الشكر على هذا البحث القيم وعلى الصور التي سمح لنا بنقل نسخ منها لبحثنا هذا كما توجد بعض الصور لفرقاطات محمد علي الاولى في كتاب (فرقاطات محمدعلي الاولى من سنة ١٨٢٤ — سنة ١٨٢٧ لجورج دوين

Les Premières Fregates de Mohamed Aly 1824—1827 par Georges Donin

فليرجع اليهِ من يريد

ولمــا كانت موقعة نافارين البحرية من الشهرة التاريخية بمكان فقد رأينا أن نتكلم عليها قبل انتقالنا الى الدور الثاني من الكلام على البحرية والاسطول المصري أيام محمــد علي وموعدنا العدد التالي ان شاء الله

هي الدنيا

الشاعر رشيد ايوب

بكتكَ عيون السحابْ اذا ادمعي لم تفي
ربيعي بشرخ الشبابْ اذ الحب لم ينطفي
وقلبيَ كالموقدِ

ويا صيفَ عمري اذا ذكرتُ زمان الصفا
اقول عداك الاذى عفا الله عما عفا
وعمَّا جَنَتْهُ يدي

وانت زمان الخريفْ فياحزن روحي عليكْ
مشيت بقلبي الضعيف بما قد تبقّى لديكْ
من الامس نحو الغدِ

وجاء زمان الشتا وهبَّت رياح الشمالْ
فقلت لنفسي متى يحطُّ الغريبُ الرحالْ
ويمضي الى المرقدِ

حمامة وادي الغرامْ بحقِّ الحسان الملاحْ
قفي فوق تلك الخيامْ وصيحي المعنّى استراحْ
وراح بلا موعدِ

أورقاء فوق الغصونْ بجمرتها تصطلي
انا قد برتني السنونْ وامسيت في معزلِ
ولا جمر في موقدي

مفردات النبات

بين اللغة والاستعمال

لمحمود مصطفى الدمياطي

[اجتمع لي طائفة من أسماء المفردات النباتية وحررت ما يقابلها في بعض اللغات الاجنبية لترتيبها في معجم والآن عنّ لي أن أنشرها تباعاً في مجلة المقتطف الغراء في بيان موجز أذكر فيه المفرد ووصفه وموطنه واستعماله مشيراً الى بعض فوائده في الزراعة أو الصناعة أو التغذية أو الطب عسى أن يكون في ذلك بعض الفائدة — الدمياطي]

شجر النَّارَنْج

بفتح الراء وكسرها فارسيته (نَارَنْك) ولعلَّ أصله مشتق من السنسكريتية (نَاجْرَنْجا) (Nagrunga) وبالهندية (نَارَنْجِي) (Narungee) تتفرع شجرته اقل من شجرة البرتقان كثيراً . وفروعها الصغيرة خضراء اللون فاتحة . ولأوراقها ذنيبات (اعناق) للواحد منها جناحان متميزان اكبر كثيراً منهما في ورقة البرتقان . وكذلك أزهارها بيض اكبر واذكى رائحة . وثمرتها في حجم البرتقانة الاَّ ان سطحها اكثر خشونة ولونه اصفر برتقاني يكون فاقعاً عند النضج . ولبها ذو عصارة حامضة مرّة مقسوم الى ١٢ فصًّا أو ١٤

اسمه العلمي (Citrus aurantium, L., Var. Bigaradia, or amara, L.) (سيتروس اورانشيوم بيغاراديا او أمارا) او (Citrus vulgaris) (سيتروس ولغارس) وفصيلته السذابية (Rutaceae) (روتاسيــة) وبالانجليزية (Marmalade, Sour, Bitter, or Seville Orange) وبالفرنسية (Bigaradier, ou Oranger amer)

قيل موطنه القديم جبال هيمالايا بالهند واصبح الآن يغرس في جميع المناطق الحارة وجنوب اوربا وجزائر آسورة بالمحيط الاطلنطي وجزائر الهند الغربية ومصر والشام والسودان وغيرها من اجل ثماره وأزهاره واوراقه . اما ثماره فيصنع منها نوع من المربى والطريقة في ذلك ان يبتدأ بتقطيع النارنجات الناضجة الى انصاف ثم الى ارباع وتنتزع ألباب الارباع وبذورها وترمى ثم تقطع القشور الى شرائح رفيعة وتنقع في المـاء اربعاً وعشرين ساعة وبعدئذٍ تغلى في ماء جديد بمقدار ثلاثة ارطال وربع من الماء لكل رطل من النارنجات حتى يصير لونها اصفر كالكهرمان ثم تغلى

ثانية مع سكر مقداره ثلاثة ارطال عشرين دقيقة اخرى ويستمر في غليها حتى تصير فالوذجية فتكون مربى النارنج . وبعبارة اخرى يؤخذ لكل رطل من النارنجات ثلاثة ارطال وربع من الماء وثلاثة ارطال من السكر . وقد يصنع من القشور نوع من الحلوى تحفظ مسكرة . ويسمى العنصر المرّ في قشر النارنج (هسبريدين) (Hesperidine) وفي بذوره (ليمونين) (Limonin)

وشجر النارنج يحصل من زهره الابيض الطيب الرائحة بالتقطير على زيت طيار ذكي الرائحة جداً يسمى (زيت نيرولي) (Neroli Oil) يدخل في صنع الروائح العطرية الثمينة وكثيراً ما يحصل عليه في جنوب فرنسا من زهر النارنج والبرتقان معاً فيكون بنسبة نصف جرام الى جرام واحد من الزيت من كل كيلوجرام من الزهر . وقد قدّر بعضهم ما ينتج من الفدان من زهر النارنج في بعض البلدان بخمسين جنيهاً وهو ربح وفير

ويستقطر من الاوراق والاغصان والثمار الفجّة الصغيرة زيت طيار آخر يسمى (زيت بتيجران) (Petitgrain Oil) يدخل في الروائح العطرية قيل اجوده يأتي من باراغواي بأمريقة الجنوبية

ويستقطر من الأزهار كذلك ماء الزهر المعروف وهو هاضم للطعام مضاد للتشنج والصداع هذا الى ان منقوع الاوراق مع اوراق البرتقان دواء مسكّن معروف في الطب . والنارنج بالنسبة الى ثماره ثلاثة اصناف :

١ — (النارنج العادي) والنارنجة منهُ كبيرة عصارية مرّة ولونها اصفر برتقاني فاقع وهو الذي يربّب عادةً

٢ — (النارنج الورديّ) وسطح النارنجة منهُ متأَلل بلا نظام وهو نادر في مصر

٣ — (النارنج الحلو) شجرته كبيرة والنارنجة منه اصغر منها في العادي ويمتاز بعدم حموضة لبه بل بحلاوته في مرارة وبوفرة عصارته . قيل إنهُ كان في حديقة احمد طوسون باشا ابن محمد علي باشا بشبرا فكان يسمى (النارنج الطوسوني) وسمي ايضاً (بالنارنج اليوسفي) نسبةً الى يوسف افندي الذي كان محافظاً لرشيد على عهد المرحوم محمد علي باشا وصار بعد ذلك امين نزل في جزيرة كريد مع العساكر المصرية

شجر البرغموت

صنف من النارنج اوراقه شبيهة بأوراق الليمون ولهذا يقال لهُ في مصر (ليمون الجرجون) وورقتهُ مستطيلة قمتها حادة او منفرجة حافتها مسننة قد يكون لذنيبها جناحان. وأزهار البرغموت صغيرة ذكية الرائحة جداً . وثمرتهُ في شكل الكمثرى مستديرة من قمتها ضيقة من قاعدتها طولها تسعة سنتيمترات وعرضها سبعة تقريباً مقعرة عند اتصالها بالغصن . قشرتها رفيعة ملساء اومحببة سطحها اصفر اللون فاتح . لبها ابيض تقريباً رائحته ذكية جداً وطعمهُ حمضي قليلاً

اسمهُ العلمي (Citrus aurantium, L., var. Bergamia, Risso.) (سيتروس اورانشيوم برغاميا) من فصيلة النارنج واسمهُ بالانكليزية (Bergamot) وبالفرنسية (Bergamotier)

موطنهُ الصين وهو نادرفي مصر وكثيراً ما يزرع بكلابريا في جنوب ايطاليا . اما ثماره فيستقطر من قشورها زيت طيار ذكي الرائحة ثمين يقال له (زيت البرغموت) (Bergamot Oil) يدخل في تركيب الروائح العطرية جاء في بعض المراجع انهُ يحصل على ثلاثين اوقية منهُ من كل الف ثمرة وان ثمن هذا المقدار من الزيت جنيه ونصف الى جنيهين بحسب درجة نقاوته

هذا وقد يستخرج من الأزهار زيت آخر ايضاً له استعمالات كالسابق

وهناك صنف آخر من هذا الشجر مشهور بزيت أزهاره الذكي الرائحة جدًّا وارتفاع ثمنه وهذا الصنف يسمى بالفرنسية (بيغارديه) (Bigardier)قيل إنه يستقطر جرامان فقط من هذا الزيت من كل كيلو جرام من الزهر وان ثمن الرطل منه يتراوح بين ١٢ و١٨ جنيهاً

شجر البُرْتُقَان

أو (البُرْتُقَال) او (النَّارَنْج الحلو) وفي الشام (البُرْدُقَان) قيل إنهُ مشتق من التركية (پورْتُقَال) او (پُورْتُوقَال) او أَنهُ نسبة للبورتغاليين الذين نشروه بين الناس بعد سياحاتهم الكثيرة الى بلاد الهند موطنهُ الاصلي فقد سماهُ فورسكال[1] (نارنج البرتغال) ويسميه الاسبان الى الآن نَارَانْجَا (Naranja) وما زال اهالي نيقوسية عاصمة قبرص يسمونهُ (پورتغالي)

ترتفع شجرته من ٨ اقدام الى ١٢ قدماً أوراقها مستطيلة خضراء اللون قائمة.وأزهارها تنبثق على الاغصان فرادى او مجتمعة بتلاتها (وريقات التويج فيها) بيض ثخينة كثيرة الغدد الزيتية المصفرة وثمرتها البرتقانة المعروفة سطحها اصفر واليهِ تنسب الصفرة البرتقانية ولبها حلو سكَّري مقسوم الى ٨ فصوص او ١٠

اسمهُ العلمي (Citrus Aurantium, L., Var. sinensis, Gall. Citr, or dulcis Volk.) (سيتروس اورانشيوم سيننسيس او دولسيس) وفصيلته السذابية (Rutaceae) .(روتاسية) وبالانجليزية (Common, or Sweet Orange) وبالفرنسية (Oranger)

موطنهُ قديماً في الجنوب الشرقي من آسيا وفي رأي في الهند الشمالية واصبح الآن يزرع في جميع المناطق الحارة وجنوب اوربا وجزائر آسورة بالمحيط الاطلنطي وجزائر الهند الغربية ومصر والشام والسودان وغيرها كما اصبحت تجارته تعود بربح وفير.والبرتقان يؤكل عادة طازجاً كفاكهة

(١) بيترفورسكال (Peter Forskal) الرحالة والعالم الطبيعي السويدي عاش من سنة (١٧٣٦ — ١٧٦٣م .) وبعد ان اتم علومه في جامعة جوتنبرج بالمانيا ارسله ملك الدانيمارك في بعثة علمية الى مصر وبلاد العرب فوضع كتاباً في نباتات مصر وبلاد العرب وتوفي في ريعان شبابه بالطاعون في يريم من بلاد اليمن

او يعتصر منهُ شراب او يتخذ منهُ نبيذ في بعض البلدان . ويحصل من قشوره بالتقطير على زيت طيار رخيص يعرف (بزيت البرتقان) يدخل في تركيب بعض الروائح العطرية الثمينة

ويحصل من أزهاره الطازجة كما في النارنج على زيت نيرولي الذي يدخل في صنع الروائح العطرية ويستقطر من اوراقهِ وثماره الصغيرة زيت طيار آخر استعماله كالسابق ويستخرج من الازهار ماء الزهر المعروف بفوائده في الطب في حالات التشنج والصداع . قيل إن الرائحة الخاصة في عسل شبه جزيرة سورّنتو القريبة من نابولي بايطاليا انما ترجع الى اغتذاء النحل من زهر البرتقان فيها

هذا وشجر البرتقان قد يكبر فيعمر طويلاً فقد جاءَ في بعض المراجع انهُ عمّر في قرطبة باسبانيا نحواً من ٧٠٠ سنة وان شجرةمنهُ كانت معروفة باسم (جران بوربون)(Grand Bourbon) بفرساي عمرت نحواً من ٤٦٠ سنة. أما خشب البرتقان فابيض اللون يضرب الى الصفرة صفيق صلب جيد في الصقل جميل المنظر عطري الرائحة لا يفتك به السوس يصلح لنجارة بعض الاثاث ولكنهُ لا يصمد للتغيرات الجوية

وعلى الاجمال فالمنتفع بهِ من شجر البرتقان انما هي الثمار والأزهار والاوراق والخشب . وهو بالنسبة الى ثماره اصناف كثيرة اهمها :

١ — (البرتقان البلدي) في مصر شجرته قوية كثيرة الثمر وهو جيد الطعم بوجه عام

٢ — (البرتقان السكَّري) شجرتهُ غير شائكة وهو متوسط الحجم او كبيره قليل البذور معروف في مصر

٣ — (برتقان القديس ميخائيل) كبير الحجم قشرته رفيعة ولبه احمر قانٍ وطعمه جيد قيل في كثرة ما تنتجه شجرة واحدة منهُ إنها حملت عشرين الف برتقانة في السنة في جزائر آسورة بالمحيط الاطلنطي

٤ — (البرتقان ابو سرَّة) ويعتبر اجود اصناف البرتقان كبير وفي طرف قمة الواحدة منهُ نكتة شبَّهوها بالسرَّة ولبه كثير العصارة يكاد يكون بلا بذور وشجرتهُ غير شائكة تقريباً تبكر في حملها وقد انتشر في مصر حديثاً

٥ — (اليافاوي) ويقال له (الشاموتي) يمتاز بكبر البرتقانة وحجمها البيضي ولبها العصاري الكثير وبقلَّة البذور فيها او عدمها

٦ — (البرتقان الاحمر) ويقال له (أبو دم) وهومتوسط الحجم ذو لب قرمزيّ اللون قانٍ شبيه بالدم قليل البذور شجرتهُ غير شائكة معروف بمصر

٧ — (برتقان بلنسية) صنف مستحدث شجره مشهور بطول وقت إنتاجه خلافاً المعتاد

٨ — وثمَّ نوع منْ البرتقان اليابان يقال لهُ (كومكوات) (Kumquat) من الفصيلة نفسها اسمهُ العلمي (Citrus japonica, Thunb.) (سيتروس جاپونيقا) ذائع في اليابان والصين ونادر

في مصر ترتفع شجيرته من متر الى مترين اوراقها صغيرة رفيعة اهليلجية الشكل مستطيلة حافاتها ذات اسنان كبيرة . وثمراتها صغيرة الواحدة منها في حجم حبة كبيرة من العنب الافرنجي المسمّى بالانجليزية (Gooseberry) أي عنب الاوز الذي هو نوع من (الريباس) (Ribes) والحبة سطحها اصفر برتقالي فاقع برّاق وقشرتها رفيعة حلوة الطعم ذات رائحة خاصة ولبها مزّ الطعم مقبول مقسوم الى خمسة فصوص

واهل اليابان والصين يزرعونهُ ويحبون اكل ثماره ذات القشور الحلوة والالباب المزّة وكثيراً ما يصنعون منها نوعاً من الحلوى المحفوظة مسكّرة او يتخذون منها مربى

شجر يوسف افندي

او (البرتقان اليوسفي) نسبةً الى رجل ارمني كان يسمى يوسف افندي ارسله المرحوم محمد علي باشا الى فرنسا لتعلم فن الزراعة الاوروبية فلما عاد في سنة ١٢٤٨ هجرية جلب معهُ صنفاً من البرتقان من مالطة غرسهُ بحديقة شبرا التي وظف بها وطعّم منهُ اصنافاً اخرى اهمها النارنج فتكاثر منه شجر يوسف افندي

وشجرة يوسف افندي ترتفع من ثلاثة امتار الى اربعة . فروعها رفيعة وأوراقها رمحية الشكل ملساء برّاقة تفوح منها وهي غضة رائحة عطرية . ثمرتها كالتفاحة حجماً وشكلاً . قشرتها رفيعة وسطحها اصفر اللون يضرب الى الحمرة تنزع بسهولة . وفصوصها سهلة الانفصال طعمها حلو لذيذ

اسمهُ العلمي (Citrus nobilis و Lour. Syn. Citrus deliciosa, Ten.) (سيتروس نوبيليس او سيتروس دليسيوزا) من فصيلة البرتقان وبالانجليزية (The Mandarin) وبالفرنسية (Mandarinier) موطنه الهند الصينية والآن عمّت زراعته في الهند وفلوريدا واوربا ومصر والشام والسودان وغيرها من اجل ثماره التي تؤكل فاكهة

وهو بالنسبة الى ثمره اصناف عديدة اهمها :

١ — (اليوسفي البلدي) معروف في مصر اغلبه حلو الطعم كثير العصارة والمظنون انهُ الاصل في الاصناف المصرية

٢ — (الملكي) صنف امريكي معروف بمصر نادر كبير الحجم جيد

٣ — (الهندي) ويعرف (بالسنترا) (Suntra) نادر في مصر مشهور بحلاوة طعمه

٤ — (الياباني) ويقال له (الساتزوما او الانخوس) (Satsuma or Unchus) كبير الحجم يكاد يكون بلا بذور وينشأ على اغصان شجره في شكل عناقيد كبيرة وهو نادر في مصر

٥ — (السيلاني) ويعرف (بالنازناران) (Nas-naran) في جزيرة سيلان الثمرة منه صغيرة الحجم أو متوسطته ولها طعم عطري خاص

سير الزمان

قناة السويس

مكانتها من الناحية الاستريتجية

للملازم الاول عبد الرحمن زكي

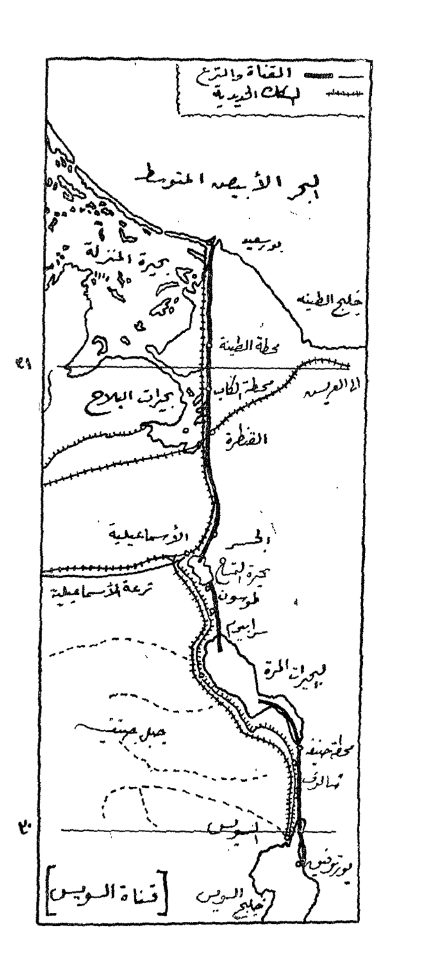
طبيعة الحبشة الجغرافية

وصلتها بمنعتها الحربية

ملخص تاريخي

لصلة الحبشة باوربا

الدستور السوفياتى



القناة والترع
السكك الحديدية
البحر الأبيض المتوسط
بورسعيد
بحيرة المنزلة
خليج الطينة
محطة الطينة
٣١
محطة الكاب
العريش
بحيرات البلاح
القنطرة
الإسماعيلية
الجسر
بحيرة التمساح
ترعة الإسماعيلية
طوسون
سرابيوم
البحيرات المرة
محطة جنيفة
٣٠
السويس
بورتوفيق
خليج السويس
قناة السويس

قناة السويس

مكانتها من الناحية الاستراتيجية

للملازم الاول عبد الرحمن زكي

لا جدال في مكانة قناة السويس كحلقة اتصال بين اوربا وآسيا فهي أقصر طريق يصل بين الممتلكات البريطانية في الشرق وبريطانيا . وقدقال بسمارك (Bismark) انها «كالعامود الفقري». وعلاوة على ذلك فالقناة أهم العوامل الرئيسية في تشكيل سياسة بريطانيا الخارجية وتسلطها عليها يفسر ما للانجليز من مكانة متفوقة في الشؤون العالمية

ولتقدير قيمة تمسك الانجليز بالقناة يجب ان لا يغيب عن بالنا ذلك المبدأ الاساسي لسياسة بريطانيا الخارجية وهو المحافظة والعمل على توسيع الامبراطورية . فالهند تعد العقد الاساسي في الامبراطورية فاذا اطمأنت انجلترا الى سيادتها هناك فان همها الاول ينحصر في حراستها وتأمينها بجميع الوسائل الممكنة. وقد عرفت كيف تستفيد من قوتها البحرية فوضعت يدها على جميع المواقع الاستراتيجية الحيوية في طريق مواصلاتها التي تربط المحيطين الاطلانطي والهندي واستحوذت على مستعمرة الكاب من الهولنديين عام ١٨٠٦ فضمنت سيادتها على طريق الكاب ثم وضعت يدها على جبل طارق مفتاح البحر المتوسط (١٧٠٤) ثم على مالطة عام(١٨٠٠) وقبرص (١٨٧٨) وباستيلائها على عدن (١٨٣٩) وجزيرة بريم (١٨٤٧) والصومال الشمالي (١٨٨٤ — ٨٦) وسوقطرا (١٨٨٦) حولت البحر الاحمر الى بحيرة انجليزية . واخيراً ساد نفوذها على مصر فضمت آخر حلقة من حلقات المواقع العسكرية (١٨٨٢) وبذلك ضمنت بريطانيا سيادتها على الطريقين السلطانيين العظيمين الى الشرق وهما قناة السويس والكاب

وقدوجهت حملة نابليون الى مصر عام ١٧٩٨ انظار انجلترا الى ما لموقع مصر من المقام الاستراتيجي كمركز هام للدفاع عن الهند فاتبعت سياسة الاحتفاظ بالامبراطورية العثمانية وعدم الاضرار بها وتوثيق الصلة بين السلطان العثماني والوالي المصري . وكان اهم اسباب تلك السياسة خوف انجلترا من الروسيا لكي لا تضع يدها على تركيا وترسخ قدمها في البحر المتوسط فتسيطر على العالم الاسلامي وتعرض طريق المواصلات الى الهند للخطر . فمثل هذه الاعتبارات الامبراطورية حملت انجلترا على مقاومة النفوذ الفرنسي في مصر واقتنع رجال السياسة البريطانيون بان استقلال سياسة الامبراطورية العثمانية وسلامة أراضيها أمر حيوي لا ندحة عنه لسلامة الاملاك الانجليزية في الشرق

وبينما كانت انجلترا تبذل كل نفوذها لعرقلة مشروع شق قناة السويس كانت قد صممت أن لا تدع أية فرصة لاية دولة لاسيما فرنسا أن يكون لها المقام الاول في البلاد المصرية . فحماية الهند

كما قلنا تقتضي ان تكون جميع المنافذ الموصلة اليها في أيد انجليزية . ولما تسلّم «فردنان دلسبس» امتياز القناة ظلت معارضة انجلترا لها قوية واستمرت في خطة المقاومة اثني عشر عاماً . وبالرغم من كل مساعيها في تلك الناحية تم شق القناة وواجهت بريطانيا الامر الواقع فوجدت في انشائهـا ما لا يطاق لموقعها . . . ممر سلطاني أقصر ما يؤدي الى امبراطورية الهند يقع في قبضة اجنبية ومصدر ازعاج لرجال الامبراطورية كما وجد رجال ملاحتها غضاضة لا تريحهم في العمل مع شركة فرنسية وهم الذين يقبضون على نواصي الحركة التجارية وكان عليهم ان يدفعوا ضرائب المرور الثقيلة ويتبعوا تعليمات شركة القناة وينفذوها بكل دقة

ومن هنا نشأت الحماسة لشراء اسهم الخديو اسماعيل باشا ليكون لانجلترا صوت مسموع في ادارة القناة . وعلى الرغم من انها أصبحت أكبر مساهم فيها لم تخضع القناة لمراقبتها بل استمرت القناة فرنسية كما استمر النفوذ الفرنسي في مصر قويًّا . لكن انجلترا استطاعت بعد أعوام قليلة الانتفاع بنمو الحركة العرابية في مصر فوضعت يدها بلباقة على أهم موقع جغرافي في العالم وضمنت مراقبة القناة الفعلية . ولما أصبح لانجلترا النفوذ السامي في مصر اتبعت سياسة أخرى تجاه الباب العالي . فقد كانت فيما قبل راغبة في المحافظة على « الرجل المريض » وهو مشرف على الموت . اما اليوم فعادت لا تعبأ به لأنها نالت مآربها ولم ترَ في بقاء تركيا ضماناً ضروريًّا لحماية الهند وغدت السياسة الانجليزية ترى أنهُ من مصلحتها فك الصلة التي تربط السلطان بالخديو ورمت الى اكتساح نفوذه نهائيًّا

وكانت انجلترا قد خطت الخطوة الاولى في هذا السبيل بتأييد تلك السياسة فمنعت الباب العالي من ارساله تجريدة عسكرية لاخماد الثورة العرابية عام ١٨٨٢ وتظاهرت بأنها ستؤدي تلك المهمة بقواتها الانجليزية وتثبت عرش الخديو ثم جاءت حملة استرجاع السودان عام ١٨٩٨ فلم تظهر في الميادين العسكرية سوى الجنود المصرية والانجليزية وتمت الاتفاقية المصرية الانجليزية في يناير ١٨٩٩ وكأن تركيا لم يكن لها دخل مطلقاً ! فكانت هذه الاعمال دلائل قوية على ان انجلترا حلت محل تركيا في نفوذها بمصر . ثم كان المسلك الشاذ الذي اتبعته انجلترا في مسألة حادث العقبة عام ١٩٠٦ ودلت نتائجهُ على ان انجلترا قد أصبحت صاحبة الكلمة العليا في مصر

أهمية موقع مصر

كانت لمصر مكانة استراتيجية خلال كل العصور التي مرت بها ولقد قال نابليون ذات مرة أن من يكون صاحب مصر يكون سيد الهند . وكانت حملته على مصر عام ١٧٩٨ تهديداً لا يمكن لانجلترا ان تنساه . ولما شقت القناة أصبحت مصر بحكم الطبع ذات أهمية عظمى لانجلترا وأصبح واضحاً جدًّا ان الدولة التي تسيطر على مصر لا بدَّ لها من ان تسيطر على القناة أيضاً . وذكر « أدوارد ديسي » (Edward Dicey) ان مصر من ضروريات الامبراطورية التي لا غنى عنها » قال ذلك في عام

١٨٧٧ قبل الاحتلال البريطاني . « فاذا أصبحت للانجليز اليد المطلقة في مصر فالواجب يقضي بأن تكون لها مكانة ممتازة بين البحر الاحمر وحدود الهند . فاذا تم لبريطانيا تقوية مركزها العسكري في مصر استطاعت ان تصد اي هجوم يوجه الى الهند من وادي الفرات . والشيء الوحيد الضروري لانجلترا هو ضمان حرية الملاحة في القناة » . وقال كاتب انجليزي آخر « ان مصر هي مرتكز العتلة لسياستنا الخارجية فهي في منتصف الطريق من الناحيتين السياسية والبحرية الاستراتيجية وبين امبراطوريتنا الشرقية والغربية فهي نقطة التوازن التي توفق بين علاقاتنا الخارجية وممتلكاتنا الامبراطورية » . ولذلك نجد في مصر انهُ من أسهل الامور إدراك الحالة السياسية او تأمينها فاذا تحققنا من مقام انجلترا في توزيع التجارة الشرقية استطعنا ان ندرك لماذا حاولت الوصول الى حفظ القناة بعيدة عن حرية تدخل الدول في تسيير دفتها ولماذا سعت السنين الطوال وجاهدت من دون كلل جهاداً سياسيًّا وعسكريًّا وأدبيًّا واقتصاديًّا لتسود القناة من جميع النواحي . ولم يرض اصحاب النظرية الامبراطورية بأقل من الرقابة الفعلية عليها »

وذكر « ديسى » في مقام آخر ان: « فكرة الحياد لا تتفق مطلقاً مع حاجاتنا فأي تأويل مبهم لتلك الكلمة يضعنا في مركز يزداد سوءًا . فالضمانات الدولية مهما تعني قيمتها ليست كفيلة بتأمين صلاتنا الحرة مع الهند او بعبارة اخرى لضمان امبراطوريتنا . ولما كانت الطريق الى الهند بفضل القناة تقع خلال شبه جزيرة سيناء ، ولما كان المتسلط على شبه الجزيرة يتحكم في القناة وجب علينا لطمأنينتنا ان نضع ايدينا على شبه الجزيرة . فنحن نرى انفسنا بين عاملين اما ان نرى طريقنا الى الهند مهدداً في زمن الحرب وإما ان نحتل مصر. ومن هذه الورطة لا ارى مفرًّا »[١]

وبانتهاء القناة اصبحت الطريق الرئيسي الى الهند فكان ضروريًّا ان ترغب انجلترا في مراقبتها وجاء منطق التاريخ فجعل هذه الحقيقة واضحة وبموجب هذه النظرية دافع ديسي في كتاباته فقال:

يجب علينا بكل الوسائل ومن جميع النواحي ان نعمل على وضع القنال تحت ايدينا . وهذا هو الغرض الحقيقي الذي نسعى اليه ويجب ان تكون قاعدة كل مفاوضة في المستقبل مصممة على هذا المبدأ . لقد حكم القضاء بأن تكون انجلترا سيدة القنال كما اصبحت سيدة مصر . وضد القضاء المحتم يضيع سدى كل ما تعمله الآلهة والبشر سواء اكانوا في السويس ام كانوا في بناما [٢]

عقب ذلك اثيرت في انجلترا مسألة القناة من ناحية حيويتها للمحافظة على الامبراطورية وفي عام ١٨٧٧ تساءل غلادستون (Gladstone) ماذا عسى ان تكون النتيجة لو وقفت انجلترا مساعيها تجاه القناة . فكان الرد عليه بأن الضربة تكون قاضية لما يصيبها من التأثير في التجارة والرخاء

---

(١) مجلة القرن التاسع عشر يونيو ١٨٧٧ . مجلد ١ صحيفة ٦٨٤ (٢) مجلة القرن التاسع عشر اغسطس ١٨٨٣ مجلد ١٤ صحيفة ٢٠٥ من مقال بعنوان «لماذا لا نشتري قناة السويس؟»

والرفاهية العالمية . فنحن أعظم ناقلي المتاجر وأول امة تجارية في العالم المسيحي وسنكون في مقدمة الخاسرين

وكان من رأي « السر شارلز دلك » (Sir Charles Dilke) ان القناة تكون غير مأمونة في حالة اعلان الحرب ضد دولة بحرية كبيرة . فالقناة كسبيل من سبل المواصلات في زمن الحرب تصبح واهية كخيط العنكبوت فان سفينة او سفينتين تغرقان فيها او مقداراً من الديناميت ينفجر فيها بالقرب من خليج السويس او بعض طوربيدات تكمن في اثناء الليل تكفي لسدّها . وثمة غير هذا من العراقيل البحرية التي يسهل ارتكابها . كل هذه تساعد سد المرور خلال القنال وتحرم السفن من اجتيازه مدة ايام او اسابيع وتمنع النقل بواسطة البحر المتوسط باستثناء الجنود من دون عتادهم الحربي ويكون من الصعب جداً المحافظة على حرية الملاحة في القناة حتى لو كانت داخل حدود الامبراطورية البريطانية . كما ان واجب حراسة القناة يستلزم تخصيص قوة كبيرة من الجنود لحمايتها ومراقبة المنافذ المؤدية اليها بواسطة جزء كبير من الاسطول . لكننا لا نملك حقوقاً خاصة تتعلق بالقناة وليست لنا قوة تمنع عنها العدد الضخم من السفن التجارية التي تتعمد اغراق نفسها في منتصف القناة » (١)

قال المؤلف الانجليزي جورج هوبر (G. Hooper) في مقال نشره في مجلة الخدمة المتحدة عام ١٨٩٠ ان القناة غيرت الموقف البريطاني الى ما هو أسوأ حالاً فقد سمحت لدول ثانوية أخرى بالذهاب الى الهند بسهولة وكانت الاحوال الى قبيل انشائها تجعل للانجليز سيادة لا نزاع فيها في تجارة الشرق . . . وقناة السويس أصبحت اليوم من اسباب النضال العنيف . ونحن اليوم اذا رأينا فردنان دلسبس تشع من تمثاله هالة المجد التي تعترف بنبوغه وتفوقه فأنا نراه ايضاً كمعبود اقيم لتفرقة البشر . ولقد انشئت القناة ضد رغبة انجلترا وصممت في الاصل لكيدها ولطعنها في صميمها . ومن المحتمل جداً انها كانت انتقاماً فعّالاً من معركة واترلو نجح نابليون الثالث في توقيعه

ولم يتفق الكابتن ماهان Capt. Mahan مع من قالوا بالتخلي عن طريق القناة لعدم تأمينه في زمن الحرب لانهُ مع كل ما يلحق بالقناة حتى ولو انتهى الامر الى ردمها لا يغير سير الاحوال الطبيعية التي جعلت لمصر مركزاً استراتيجيًا للممر الرئيسي بين الشرق والغرب وهو يعتقد انهُ من الخطأ الشنيع ان تسحب انجلترا يدها من مصر

ان موقع مصر العسكري ليس لهُ مثيل في توسطه فمركزها يسمح بحشد اكبر عدد من القوات العسكرية لتوزيعها الى اي مكان في حالتي الدفاع والهجوم ومنها تحوّل الى جبل طارق والهند . ومصر ملتقى لاستقبال المواد من جميع الموارد فلا تستطيع بحرية أية دولة ان تعارضها وتقطع عليها خط الرجعة . وهذه الموارد اذا لم نبالغ في عددها قلنا انها تجيء من ميدانين او ناحيتين

(١) كتاب مشكلات بريطانيا العظمى ، لندن عام ١٨٩٠ ص ٦٥٧ — ٦٥٨ Problems of Great Britain

هما طريق البحر الاحمر والبحر المتوسط . فأي اسطول يمكنهُ الجمع بين الاثنين ؟ واذا امكن عرقلة طريق البحر المتوسط بقيت طريق البحر الاحمر اقصر السبل الى الهند واستراليا والكاب وموارد تلك البلاد تكفيها بل تزيد على ما تتطلبه وتستطيع الثبات مدة طويلة بينما يكون البحر المتوسط مقفولاً . ولا ننسى ان لبريطانيا طريقاً آخر هو طريق الكاب رغماً عن طوله . وعلى كل حال فالمواصلات تبقى مستمرة كما هي . وهي خطة تقضي بها السياسة الاستراتيجية في حالة الدفاع فقط وليست في حالة الهجوم . والحل الوحيد لانقاذ الموقف لدولة تضع يديها على مالطة وجبل طارق ان تسيطر بقوانها على مصر وتعزز مركزها فيها . وهناك في الهند واستراليا والكاب تؤسس مصادر للامدادات الضرورية

وسواء أكانت القناة حيوية ام غير حيوية لانجلترا فهذه ترى ضرورة السيطرة عليها لمنع كل دولة من عرقلة مواصلاتها الى الشرق . وقد كانت روسيا زمناً طويلاً اكبر مهدد لانجلترا في الهند . ونحن نذكر لها محاولتها العنيفة في الشرق الادنى ومساعيها لكسب ميناء تطل على البحر المتوسط ولفتح المضيقين (البسفور والدردنيل) لسفنها الحربية وتدخلها في شئون البلقان ومطامعها في الحبشة . كل هذه الامور اثارت ظنون انجلترا وشبهتها وخوفها . فانهُ بعد فتح القناة بدأت روسيا تهتم بشئون الحبشة ورغبت في تحويلها لحمايتها لتعارض بها سيادة بريطانيا على الطريق البحري نحو الشرق ولتعمل على مقاومة نفوذها لكي تجعلها قاعدة استراتيجية لها في حالة نشوب حرب بينها وانجلترا

وفي اثناء الحرب التركية الروسية (١٨٧٧ — ٧٨) حذر لورد دربي (Derby) الروسيا ضد أي هجوم تحاول القيام بهِ على قناة السويس وارسلت بريطانيا اسطولاً انجليزيًّا الى الاستانة . وفي يونيو ١٨٧٨ وضعت انجلترا قدميها في قبرص وهي اقرب جزر البحر المتوسط للقناة وجعلتها قاعدة للعمليات الحربية في شرق البحر المتوسط . وظلت مسألة المضيقين سنين طويلة من أهم عوامل الشقاق والمنافسة بين الانجليز والروس ولكي تظل انجلترا صاحبة النفوذ في حماية القناة والملاحة في البحر المتوسط بقيت تقاوم كل محاولة تبذلها روسيا في سبيل السماح لها بمرور السفن الحربية من المضيقين . وهذا يفضي بنا الى عام ١٩٠٢ لما حصلت الروسيا من السلطان على الاذن بمرور أربعة سفن طوربيد من الدردنيل والبوسفور للانضمام الى اسطول البحر الاسود فخشيت انجلترا هذا المبدأ . وفي يناير التالي قدم « السر . ن . أوكنور » مذكرة للباب العالي بطلب الحق في الحصول على نفس الامتياز لمرور السفن الحربية الانجليزية اذا اقتضت الاحوال

وفي عام ١٨٨٨ تألفت شركة المانية تحت اشراف « البنك الالماني » واشترت من الانجليز خط السكة الحديدية الممتدة من حيدر باشا الى ازميت ثم تولت فيما بعد باسم شركة سكة حديد الاناضول انشاء فرع الى انقره . ولم تمض عشر سنوات حتى انتهى الالمان من مد ما يقرب من الالف كيلو

متر من الخطوط الحديدية داخل تركية الاسيوية . وفي مارس ١٩٠٣ تسلّم البنك الالماني امتيازاً آخر لانشاء خط فرعي يصل بين قونيه والخليج الفارسي . وهذا المشروع الذي عرف باسم سكة حديد بغداد وضع الاستعماريون الالمان فيهِ املهم لاحياء الامبراطورية العثمانية اقتصاديًّا وسياسيًّا وعسكريًّا وبذلك تحدّت سكة حديد بغداد سيادة انجلترا في الشرق واصبحت اسرع وسيلة للنقل الاوربي تنافس بهِ منافسة جدية الحركة التجارية في قناة السويس . وبحصول الالمان على منفذ بحري مطل على الخليج الفارسي يستطيعون تهديد المصالح البريطانية في تلك الجهة . ويستطيع ذلك الخطان يتصل فيما بعد بسكة حديد سوريا والحجاز فتهدد مواصلات الامبراطورية وتوقع بها اضراراً جسيمة . لكن لم تخف على انجلترا نتائج النيّات الالمانية فاستطاعت عام ١٨٩٩ الاتفاق مع أمير الكويت على ان لا يعقد أية اتفاقات دولية بدون موافقة المستشار البريطاني المقيم . وكان لذلك العمل نتيجة سريعة في احباط المشروع الالماني لمد الخط الى الخليج الفارسي

وقد ادرك كبار الكتاب الالمان ما لسكة حديد بغداد من المكانة الاستراتيجية وكان من اشد المتحمسين لها الدكتور بول روهرباخ (Dr. Paul Rohrbach) الذي اشار مراراً خلال كتاباته الى الاخطار التي تلحق بالامبراطورية الانكليزية بسببها وكان مما ذكره انه يمكن مهاجمة انكلترا واصابتها بطعنة نجلاء في البر من اوربا في مكان واحد وهو مصر . وليس معنى خسارة مصر ان تختتم سيادتها على قناة السويس وانهاء سيطرتها على مواصلاتها الى الهند والشرق الاقصى فقط بل من المحتمل اصابتها ايضاً او فقدها لمستعمراتها بأفريقيا الوسطى والشرقية . وان غزو مصر بقوة اسلامية كتركيا مثلاً كان يؤذي المصالح الانكليزية ويعرض سيادتها على الستين مليوناً من المسلمين في الهند للزوال . ولقد اشار اللورد كرومر الى خطر هجوم يقوم به الاتراك على القناة ومصر من ناحية شبه جزرة سينا وذلك منذ عام ١٩٠٦ عقب جفاء العلاقات السياسية بين بريطانيا وتركيا بسبب حادث الحدود . ومنذ ذلك الحين بدأ اهتمام هيئة اركان حرب الدفاع في بريطانيا بتلك الاعتبارات المهمة ودرس العسكريون خطط الدفاع عن القناة متوقعين كل الاحتمالات وقد رأينا كيف حشدت بريطانيا قواتها في اثناء الحرب العظمى دفاعاً عن القناة لصد هجوم الاتراك والالمان عليها حتى لا تشل مواصلاتها المستمرة مع الهند واستراليا وزيلندا الجديدة واتقت بذلك الضربة التي وجهت اليها

وبانتهاء الحرب العظمى ماتت فكرة الهجوم من تلك الناحية الصحراوية ولم يعد هناك ما يخيف انجلترا بما اصبح لها من النفوذ العسكري وبما انشأته من المطارات في العراق وفلسطين وشرق الاردن حتى العقبة

وهناك كثيرون يقولون أنه من المحال تدمير قوة انجلترا في حرب واحدة . ولكن قد يكون من الممكن تنفيذ هذا العمل في الاراضي المصرية . وان انشاء قناة السويس كان مصيبة لانجلترا وكان السياسيون الانجليز قد تنبأوا بهذا الخطر فعارضوا في شقها . ولا شك أنه اذا قدرت هزيمة

انكلترا في مصر لدوت نتائج الهزيمة من جبل طارق الى سنغافورة . واذا تدمر مفتاح العقد انهار كل البناء واندكّ صرح القوة الانجليزية في العالم(١)

البحر الابيض المتوسط

نرى اليوم انجلترا أقوى دول البحر المتوسط بما تحتفظ به من القوات الكبيرة في قواعدها البحرية الموزعة بين جبل طارق ومالطة وقبرص والسويس وحيفا فهي تشرف على جميع انحاء هذا البحر الذي يريد ساهل ايطاليا تسميته « بحرنا» (Nostro Mare) ولا نتناسى ان لفرنسا في ذلك البحر عدة مصالح تشرف عليها بقواعدها البحرية في قورسيقا وبيزرتا وأوران والجزائر . كما نذكر أيضاً وصايتها على سوريا . كذلك لايطاليا قواعد بحرية في جزر الديدوكانيز ورودس وجنوة ومسينا ونابولي وهي لا تقنع بمقامها الحالي . وسياستها في البحر المتوسط ترمي الى زيادة نفوذها ورفع مكانتها ليكون لها المقام الاول بين دول البحيرة الايطالية ! وكثيرون من الكتّاب الايطاليين تجد في كتاباتهم عن الدولة الايطالية الناشئة قولهم ان نصف سواحل فرنسا او اسبانيا تطل على البحر المتوسط فاذا اغلق في يوم من الايام في وجه الايطاليين باقدام انجلترا على اقفال جبل طارق والسويس استطاعت الجمهوريتان اللاتينيتان ان تعيشا ولا تهلكا لاتصالهما بمياه المحيط الاطلانطي ولا تشل حركة اعمالهما بأي حال من الاحوال . لكن ايطاليا وهي من دول البحر المتوسط القوية تمتد كقنطرة في عرض البحر وتطل كل شواطئها على مياهه وليست لها سواحل تمس بحاراً أخرى . فايطاليا تعتمد عليه كل الاعتماد بل وحياتها تتوقف على المقاصد الطيبة التي يضمرها للايطاليين من بأيديهم مفاتيح هذا البحر . وهي جبل طارق والسويس ومن أقاموا لهم قواعد قوية لأغراض امبراطورية ليست قومية في مالطة وقبرص مثلاً . والنتيجة المحتمة هلاك شعب تعداد سكانه ٤٣ مليوناً في شهور قلائل اذا اوصدت انجلترا منافذ البحر لتنفيذ أعمالها العدائية فتصبح ايطاليا سجينة وتمنع عنها واردات الحنطة والفحم وزيوت الوقود والحديد وجميع المواد الخام الضرورية لحياة شعب متمدن حديث

فنحن نرى اليوم مشكلة ايطاليا في البحر المتوسط معقدة كل التعقيد . وان عراكاً تظهره الأيام المقبلة لأجل السيادة فيه بين اصحاب الحق او من يدعيه امر محتمل الوقوع عاجلاً او آجلاً وسنرى انجلترا عاملة في سبيل تحقيق أغراضها الى النهاية . وقد قال السير آرثر ولرت عام ١٩٢٨ : ان البحر المتوسط هو المركز الاستراتيجي للامبراطورية فاذا فقدنا حرية المواصلات فيه من جبل طارق الى قناة السويس تفكك العامود الفقري لسياستنا الاستعمارية»(٢)

---

(١) من مقال للدكتور بول روهرباخ بعنوان "Das grössere Deutschland" نشر في ١١ سبتمبر ١٩١٥

(٢) من كتاب "Aspects of British Foreign Policy" للسير "Arthur Willert" طبعت في نيوهافن عام ١٩٢٨ — ص ٢٢

طبيعة الحبشة الجغرافية

وصلتها بمنعتها الحربية(١)

يرى السنيور موسوليني ان ايطاليا مسوقة بالحاجة القاسرة ، اقتصادية وشعبية ، الى بسط سيطرتها السياسية على الحبشة . الاّ انّ ما عرف عن الاحباش وتمسكهم باستقلالهم ، يجعل كل محاولة للتوسع الايطالي متعذّرة الاّ بعد نزاعٍ عسكري واسع النطاق مع جيوش الامبراطور هيلاسلاسي . وقد كانت اقوى الوسائل التي اعتمد عليها الاحباش في الدفاع عن بلادهم طبيعتها الجغرافية والطبوغرافية ولا يخفى ان وسائل الحرب الحديثة قد اضعفت من شأن عوامل الاقليم والطبوغرافيا في الخطط العسكرية ، في الاحوال العادية . ولكننا كلما تعمقنا في درس النهج الذي يحتمل ان تنهجهُ الحملة الايطالية في الحبشة هالنا ما للعوامل الطبيعية من الشأن في مسيرها ومصيرها

ليس لايطاليا الاّ قاعدتان تستطيع ان ترتكز عليهما في حملتها على الحبشة وهما مستعمرتاها الافريقيتان اي الاريترية والصومال الايطالي . فالاولى على ساحل البحر الاحمر الى الشمال من الحبشة والثانية على ساحل المحيط الهندي الى الجنوب وعلى مقربة من خط الاستواءِ

ففي الاريتريا حشد موسوليني الجانب الاكبر من الحملة الايطالية الافريقية ومنها شرع في محاولتهِ اكتساح الحبشة . ليس لمستعمرة الاريترية في حد ذاتها اي قيمة حقيقية من الوجهة الجغرافية . اما من الناحية الاقتصادية فمكانتها قائمة على انها تسيطر على منافذ التجارة من شمال الحبشة وهي تجارة مقدارها يسير على كل حال . ولكن مكانتها من الناحية العسكرية كبيرة لانها تجهّز الايطاليين بقاعدة للاعمال العسكرية معتدلة الجوّ ، وترسّخ اقدامهم في شمال النجد الحبشي . فاسمرا عاصمة الاريترية بلدة متوسطة على ارتفاع سبعة آلاف قدم ومتوسط حرارة جوها السنوي ستون درجة بمقياس فارنهيت (اي ١٥ درجة مئوية) ولذلك يسهل على الاوربيين ان يقطنوها . الاّ ان ما يصدق على اسمرا لا يصدق على مرفإِ مصوّع ، حيث تشتدُّ الحرارة في معظم شهور السنة . واكبر الصعاب التي يتعرَّض لها سكان الاريترية قلة الماءِ فيها الناشئة عن قصر فصل الامطار

اما بلاد الصومال الايطالي في الجنوب فتختلف كل الاختلاف عن مستعمرة الاريتريا . فهي جزءٌ من تلك المناطق الشبيهة بالصحراوية التي تحدق بالنجد الحبشي من ناحية الشرق ومنها بلاد الصومال البريطاني والصومال الفرنسي وسواحل الاريترية وولايات الحبشة الشرقية الشمالية والشرقية الجنوبية . ففي الصومال الايطالي لست تجد جبالاً ذات شأن . فانخفاضها وقربها من خط الاستواء

(١) ملخص فصل للمسيو سكتا Scaetta صاحب المباحث العلمية في شمال افريقية وقلبها وشرقها وهو الآن استاذ علم الاقليم البيولوجي Bioclimatology في جامعة بروكسل في بلاد البلجيك . وقد نشر في عدد اكتوبر من مجلة الشؤون الخارجية Foreign Affairs الربعية الاميركية

يجعلان سكناها متعذرة على البيض . وسكانها الاصليون يعيشون على الزراعة يعالجونها بأساليب ووسائل بدائية، ورعي القطعان . واصلح مقاطعاتها للزراعة واديا نهر جوبا ونهر وبي شبيلي . فهذان النهران يأتيان من النجود العالية بماء للري وتربة خصبة تسمد الارض التي ترسب فيها . فالجيش المتقدم من مقادشيو عليه ان يسلك هذين الواديين او ان يخترق منطقة جافة طولها نحو ٢٠٠ ميل قبل ان يصل الى آبار وال وال وغرلوغوبي حيث تظهر على سطح الارض المياه المتحلبة تحت الارض من النجود الشمالية . فهذه الآبار من الناحية الستراتيجية لها مكانة عظيمة جداً

***

اما النجد الحبشي ، وهو بوجه عام ما كان يعلو اكثر من خمسة آلاف قدم فوق سطح البحر ، فهو الجانب الوحيد من بلاد الحبشة الذي يصلح لاستعمار البيض . هنا يقطن الاحباش المسيحيون المتكلمون اللغة الامحرية ، المسيطرون على القبائل القاطنة في الولايات التي تحيط بهذا النجد . والنجد نفسهُ مكوّن من صخور رسوبية مرتفعة تعلوها طبقة صخرية من اصل بركاني . وثمة جبال كثيرة يبلغ ارتفاعها عشرة آلاف قدم ، وبوجهٍ خاص في الشمال ، وعدة جبال يبلغ ارتفاعها خمسة عشر الف قدم . والى الشرق ، بين النجد والبحر منخفض صحراوي من الارض يعرف بمنطقة الدناكل ، وهو منطقة جافية جافة وبيئة بعض اجزائها اوطأ من سطح البحر ، ولم يفلح في اختراقها حتى الآن الاّ فريقان من الرحّالين الاوربيين احدهما بقيادة لودفيكو نسبت Nesbitt وقد دعاه « عقر الخليقة الجهنمي » . وتضيق هذه المنطقة الى الجنوب فتصبح كأنها خندق يفصل النجد الحبشي عن النجد الصومالي . فالطرف الجنوبي من هذا المنخفض اقل مناعة على الغزاة من منبسطهِ الشمالي وقد سلكتهُ غزاة « الجلا » مراراً من القرن السادس عشر حين ارادت طوائف منهم ان تغزو الحبشة . يضاف الى هذا ان النجد الصومالي لا ينخفض انخفاضاً فجائيًّا في هذه الجهة . فالعقبات الكبرى التي قد تعترض تقدم الايطاليين من هذه الناحية ، هي طول المسافة وقلة الماء ، اكثر منها طبيعة البلاد الطبوغرافية

اما في الشمال فعلى كل قائد ينوي ان يغزو الحبشة من ناحية الاريتريا ان يحسب حساب الخنادق الطبيعية التي خدّدها نهر التاكاز وروافده في النجد الحبشي . ولما كانت هذه الروافد تعترض في اتجاهها خط التقدم العسكري ، ولما كان عمقها يزيد احياناً على نصف ميل ، فانها ولا شك تعرقل اي تغلغل عسكري في الحبشة وراء عدوه وبوجه خاص لعدم وجود جسور او طرق لعبور هذه الخنادق . فاذا شاء القائد ان يجتنب هذه الصعاب فعليه ان يوجه جيشه من شرق هذه المنطقة عن طريق ماكال ومجدلا . وهذه هي الطريق التي سلكتها حملة الجنرال نابيير Napier الانكليزي ضد الامبراطور ثيودوروس سنة ١٨٦٨

ويقسم الاحباش بلادهم ثلاث مناطق اقليمية

اولاها يسمونها «ديجا» وهي تشتمل على جميع البلدان التي تعلو اكثر من ثمانية آلاف قدم عن سطح البحر . ويدخل في نطاقها جانب كبير من شمال النجد الحبشي والحاشية الشمالية من النجد الصومالي . هنا تجد قطعان البقر والغنم مراعي على مدار السنة . ولكن بعض الثقات يرتابون في هل يصلح اقليم هذه المنطقة لسكنى البيض من جنوب اوربا . ويختلف متوسط الحرارة السنوية من ٤٠ الى ٦٠ بميزان فارنهيت (٤ ٤/٩ — ١٥ ٥/٩) بميزان سنتغراد اي ان جوها بارد

والثانية ترتفع من ٤٨٠٠ قدم فوق سطح البحر الى ٨٠٠٠ قدم . وتعرف عندهم باسم «ويناديجا» وفيها يختلف متوسط الحرارة السنوية من ١٥ ٥/٩ الى ٢٠ درجة مئوية (سنتغراد) . هذه المنطقة المعتدلة تشتمل على جانب كبير من قلب النجد الحبشي والمناطق العليا من حوضي نهر جوبا ونهر وبي شبيلي . وفي جوانبها توجد آثار الحراج الاستوائية التي ابقي عليها بعد ان اغتالت النار والقطع معظمها . هنا تكثر الحبوب والعنب والثمار الليمونية ويقول الاحباش انهُ في الامكان جني ثلاثة محاصيل في السنة . واذاً فهذه البقعة اصلح ما تكون لسكنى الاوربيين

اما المنطقة الثالثة فيختلف ارتفاعها من ٢٨٠٠ قدم فوق سطح البحر الى ٤٨٠٠ قدم وتعرف عندهم باسم « كولاّ » . هنا يختلف متوسط الحرارة السنوية من ٢٠ درجة مئوية الى ٢٥. والاحباش يرون هذه المنطقة شديدة الخصب فاذا دبرت لها اساليب الري الحديث زادت خصباً . فثمة صنف جيد من البن يزرع في اعاليها ، والقطن وقصب السكر يزرعان في مواطيها . وهي اقل صلاحاً لسكنى الاوربيين من المنطقة الثانية ولكنها في الوقت نفسه تصلح لتجهيز ايطاليا ببعض المواد التي تحتاج اليها اذا احسن تدبيرها وبوجه خاص القطن

اما المناطق التي اوطأ من المناطق الثلاث المتقدمة فشديدة الحرارة ومتوسط الحرارة السنوية هناك ٣٠ درجة مئوية . ويقطنها في الغالب قبائل رحل مقلقة للامن ولا تهمُّ الاوربيين

***

ثم هناك اعتبار عسكري كبير الشأن . فالنجد الحبشي يرتفع احياناً الى قنن ذاهبة في الجو ، وينخفض احياناً اخرى انخفاضاً فجائيًّا الى اودية عميقة ذاهبة في جوف الارض كما قدمنا . وليس بين المرتفعات والمنخفضات سهولٌ ما او ان السهول قليلة وضيقة . فالنجد مضرّس تضريساً شديداً، الاّ في منطقة بحيرة تانا ومنطقة البحيرات الى الجنوب من اديس ابابا . فلستَ تجد في النجد الحبشي اماكن يمكن ان تتخذ قواعد كبيرة لمناورات جيوش جرّارة

ومن الحقائق التي يجب على قيادة الجيش الايطالي ان تحسب لها حساباً في خططها نوع من التربة الحمراء توجد عادة في البلدان الاستوائية . وهي كثيرة في الحبشة في الاماكن التي يقلُّ ارتفاعها عن

٦٠٠٠ قدم . ففي فصل الجفاف تكون هذه التربة جافة صلبة في الظاهر ولكن اقل ضغط تعرّضها يحولها دقيقاً دقيقاً . فاذا سقط رذاذ تحوّلت الى معجون زلق كأنهُ صابون ، فيعسر السير فيها حتى مشياً . وفي هذه الحالة يتعذر على اية مركبة ان تصعد في طريق شديدة الانحدار . وان قافلة من الدبابات او سيارات النقل اذا فوجئت وهي في طريقها بهطول مطر غزير ، لتضطرّ ان تلبث في مكانها حتى ينحبس المطر وتشرق الشمس وتجفف التربة . وهذا يفسّر تعذر القيام باي اعمال حربية في الحبشة قبل سبتمبر وهو الشهر الذي ينتهي فيهِ فصل الامطار

مما تقدم من وصف الحبشة الجغرافي والطبوغرافي يستطيع القارىء ان يتصوّر الخطة العسكرية التي يجب ان يجري عليها من ينوي غزو الحبشة . فالقوة الزاحفة من سواحل المحيط الهندي ، عليها بعد ان تجتاز سواحل الصومال الايطالي واوغادن ، ان تجعل هدفها الاول احتلال الجانب الشمالي من النجد الصومالي وهو يقع في ولاية هرر . فاذا اتخذت وال وال وغرلوغوبي قاعدتين لها استطاعت ان تسلك واديي جوبا ووبي شبيلي وهي كما تقدم ، تؤاتي ذلك من ناحيتي الجو والماء

فاذا فازت باحتلال هذه المنطقة مكّنها ذلك من السيطرة على فاصل النهرين الرئيسيين في الصومال الايطالي ، وعلى ذلك الجانب من نهر هواش الذي يسير في وادي الرفت ، وهو الوادي الذي تقطعهُ سكة الحديد من اديس ابابا الى جيبوتي . حتى اذا لم تحتلّ القوة الغازية سكة الحديد ، فانها تستطيع ان تسيطر عليها باحتلالها للجانب الشمالي من النجد الصومالي

***

اما الهدف الذي تتجه اليهِ القوة الزاحفة من الاريتريا فيجب ان يكون احتلال الجبال الى الشمال والشرق من بحيرة تانا . لانه مازالت هذه البلاد الوعرة في ايدي العصابات الحبشية فلا تجرؤ اية قوة على التغلغل الى قلب النجد الحبشي لئلاَّ تتعرَّض مؤخرتها لهجوم العصابات . وقد يكون من العوامل العسكرية في هذه الناحية ، ان انهار الاتبرة والتكاز والنيل الازرق تنبع في هذه المنطقة ، ومياهها — وخاصة مياه النيل الازرق النابع من بحيرة تانا — متصلة اوثق اتصال بحياة مصر . فالراجح ان بريطانيا تحتفظ بسياستها التقليدية في صدد هذه المنطقة وهي منطوية في عدة معاهدات وتصريحات رسمية وقاعدتها عدم التسليم لاية دولة اوربية بأقلاق السلام فيها

ولابدَّ للجيش الايطالي الزاحف من شق الطرق وبناء الجسور والاَّ تعذَّر عليهِ ان يجني فائدة ما من استعمال الدبابات والسيارات المسلّحة . الاَّ ان هناك صعوبة هندسية كبيرة ، ولكن التغلّب عليها غير مستحيل ، وهي وجوب نقل المواد اللازمة في بناء الجسور مسافات طويلة من ايطاليا الى مصوّع ومن مصوّع الى اسمرا الى المناطق التي يحتلّها الجيش الزاحف . يضاف الى هذا ان الجسور نفسها ، والطرق الجبلية ، والمستودعات ، معرَّضة دائماً للسيول تجرفها في تدفقها

وليس ثمة ما يقي منها . فعلى المهندسين العسكريين يقع معظم التبعة في نجاح الحملة اوخذلانها

ولما كانت حاصلات الحبشة الزراعية لا تكاد تكفي الاحباش انفسهم ، وما يحتاجون اليهِ يسير بالقياس الى ما يحتاج اليهِ جيش اوربي ، فلا يعقل ان تستطيع القيادة الايطالية الاعتماد عليها في جانب من مؤونة الجيش . ولذلك سوف تضطرُّ الى استيراد كلِّ ما يحتاج اليهِ الجيش من الخارج وهو عمل شاق وكبير النفقة

***

يتضح مما تقدم ان تقدم الجيوش الايطالية في زحفها على الحبشة يتوقف على شق الطرق الصالحة للفرق الميكانيكية بين القواعد الحربية المتقدمة وقواعد الذخيرة والمستودعات على الساحل . لذلك يكون كل تقدم سريع من ناحية الاريتريا محفوفاً بالخطر . ومع ما جهزت بهِ الحملة الايطالية الافريقية من وسائل الحرب الميكانيكية ، فان فتح اي بلاد يقتضي احتلال المراكز العسكرية الهامة وتنظيم ادارتها وابقاء حاميات كبيرة فيها . فاللبث في كل من هذه المراكز قبل التقدم الى غيرها يفسح المجال للمهندسين فيشقون الطرق ويرصفونها . ولا يستطيع الجيش الايطالي ان يجني الفائدة كل الفائدة من تفوقه في الاسلحة الميكانيكية الا على هذا النمط

ولا ننسى أن أحد العناصر التي تسهل زحف الجيش الايطالي او تؤخره ، مدى المقاومة التي يبذلها الاحباش وعنفها . والاحباش يفوقون خصومهم في ملاءمتهم لاحوال البلاد . ففي وسعهم ان يجتازوا مسافات شاسعة مشياً يعجز عنها البيض الاوروبيون . فهم يستطيعون ان يقطعوا مسافة تختلف من ٢٥ ميلاً الى ٤٠ ميلاً في اليوم ويمضوا في ذلك بضعة ايام متوالية . ويستعملوا صنفاً خاصًّا من البغل الاهلي يتصف بخفة الحركة والصبر والاكتفاء بيسير من الغذاء . واستعمالهُ يمكنهم من نقل المدافع الرشاشة والمدافع الجبلية الى قمم منيعة فيعرقلون تقدم العدو باستعمالها من اعاليها

ان اساليب الحرب الميكانيكية ، ورجال المشاة المثقلة باعبائها الحديثة ، تفقد اكبر جانب من تأثيرها في مثل هذه الاحوال . اي ان القوات الغازية يجب ان تستعمل جماعات كبيرة من رجالها للتغلب على عصابات اقلّ منها عدداً واضعف عدة ولكنها متصفة بخفة الحركة ومعرفة البلاد . ولما كانت طبيعة البلاد الطبوغرافية ما هي ، فالراجح ان الاحباش لا يعمدون الى التجمُّع بل على الضد من ذلك يجدر بهم ان يعتمدوا على التفرق والتخفي والتسلُّل . فاذا جروا على هذه الخطة واستطاعوا ان يستدرجوا خصومهم الى الاودية والخنادق الطبيعية وهناك يمزقون شملهم . ولا ريب في انهم سيحاولون في الوقت نفسهِ ان يعرقلوا الصلة بين فرق العدو المتقدمة وقواعدهِ الاساسية

ان سرَّ نجاح الاحباش في مقدرة الامبراطور على الاحتفاظ بحرية حركة جيوشهِ وسرعتها . فاذا استطاع ذلك ، اضطرَّ الايطاليون أن يهاجموا معاقل منيعة بطبيعتها . وهذا من شأنهِ ان

يفلّ من سورة جيش غير متعوّد الاجهاد البدني في بلاد مرتفعة . يقابل هذا انهُ اذا اتيح للعدو الزاحف ان يحتلّ بعض هذه المعاقل المنيعة، فقوّاد الاحباش يضطرون حينئذٍ ان يغامروا بطوائف كبيرة من جيوشهم لاسترجاعها ، وفي هذه الحالة لا تجدي شجاعة الاحباش كثيراً ضدّ المدافع الضخمة والرشاشة وقنابل الغاز

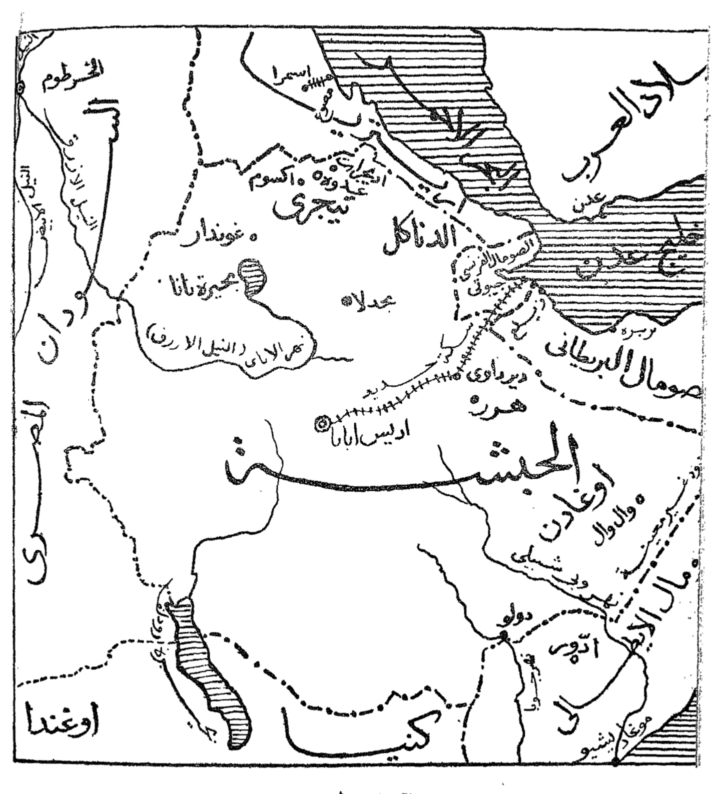
ولا ينتظر ان تجنى فائدة كبيرة من اسراب الطائرات الايطالية ، لقلة الاهداف التي تتجه اليها. فلا يحتمل ان تفاجيء جموعاً كبيرة من جيوش الاحباش لان المتوقع ان هذه الجموع لا تحتشد الاّ ليلاً . وليس هناك مدن كبيرة او مراكز آهلة تصلح ان تكون اغراضاً تتجه اليها الطائرات وتلقي عليها قنابلها . والراجح ان جلّ الفائدة التي يمكن ان تجنى من اسراب الطائرات الايطالية فائدة معنوية ، اذ قد يكون مشهد هذه العفاريت الطائرة وهي تطلق مدافعها الرشاشة مما يبعث الهلع في الجيش والشعب على السواء .

نعم للطائرات فائدة كبيرة في استطلاع حركات العدو ، وقد تكون عوناً في حركة المشاة ، ولكن مدى طيرانها محدود بما يمهد لها من المطارات . وقد تجد القيادة الايطالية ان جميع هذه العوامل تقضي بالاقلال من الاعتماد على الطائرات في ادراك اغراضها . ولكن يجب ان نذكر انهُ لم تنشب حرب كبيرة بعد اتقان الطائرات الحديثة بين احوالها واحوال الحرب الايطالية الحبشية شبه ما ، ولذلك فالحكم في هذا الصدد مرهون باختبار سلاح الطيران الايطالي في الحبشة

***

ثم ان موسوليني يجب ان يحسب حساباً لطول فصل الجفاف في الحبشة لتحقيق اغراضه الاولية والنهائية، فهل ادراك الغرض النهائي وهو اخضاع الحبشة قاطبة ، مستطاع في فصل واحد؟

لقد بينَّا في ما تقدم ان الجيش الزاحف من الشمال عليهِ ان يحصن القواعد التي ترتكز عليها مواصلاتهُ مع اسمرا ومصوّع ويبقي فيها حاميات كبيرة . وان تقدّمهُ لذلك لابدّ ان يكون بطيئاً في البدء . وان التقدم من الجنوب قد يكون اسهل منهُ في الشمال ولكن الجيش الزاحف مع ذلك يحتاج الى تأمين طرق مواصلاتهِ بعد انشائها . وانهُ بعد احتلال الولايات المحيطة بقلب النجد الحبشي يكون الايطاليون في بدء مغامرتهم الحقيقية في الحبشة لا في نهايتها .فاخضاع الحبشة يقتضي اخضاع الامحريين والشوعيين وهم شعوب وقبائل شديدة الشكيمة يجري حب الاستقلال في دمائهم ويضيفون الى منعة معاقلهم الجبلية الوعرة ، كرهاً للاجانب يغذيه شبانهم المتعلمون في اوربا واميركا . واذن فالراجح ان لا يكفي فصل واحد لادراك الاغراض النهائية التي وضعها موسوليني نصب عينيهِ وعندئذٍ يتحوّل النزاع الى حرب عصابات قد تطول سنين . فاخضاع ليبيا ، وهي اقرب الى ايطاليا ، وليس فيها الاّ ٢٠٠ الف مسلم للقيام بحرب العصابات، اقتضى من ايطاليا عشرين سنة . وفي هذه الحالة تضطرُّ الحكومة الايطالية ان تنفق بدرات من الاموال ومهج الوف والوف من ابنائها



خريطة لبلاد الحبشة

والبلدان المحيطة بها وبعض مواقعها الحربية

فصول الرواية

ملخص تاريخي

لصلة الحبشة بأوربا من اواسط القرن الماضي الى الآن

١٨٦٧ الحملة البريطانية بقيادة السر روبرت نابيير (لورد بمدألني) Napier وهي حملة جرّدت على الامبراطور ثيودورس لاطلاق سراح بعض الانكليز الذين اسرهم وكان بينهم قنصل بريطانيا . وقد دخلت الحملة مجدلا في ١٣ ابريل سنة ١٨٦٨ فوجد قائدها الامبراطور ثيودورس وقد انتحر . وفي مايو سنة ١٨٦٨ غادرت الحملة بلاد الحبشة

١٨٧٥ اشترت حكومة بريطانيا نصيب الخديوي اسماعيل من اسهم شركة قناة السويس (راجع تأثير هذه الصفقة في مقام بريطانيا في مصر في مقالة « قناة السويس ومكانتها من الناحية الاستراتيجية صفحة ٤٧٣ من هذا العدد)

١٨٨٢ ثورة عرابي باشا في مصر واحتلال انكلترا للقطر المصري

١٨٨٩ معاهدة اوتشالي (Ucciali) بين الحبشة وايطاليا . عقدت هذه المعاهدة مع منليك بعد ارتقائه عرش الحبشة بتأييد من الايطاليين . ثم فاوضوه في تحديد العلاقة بين الحكومتين فانتهت المفاوضات الى معاهدة اوتشالي . وقد جاء في النص الايطالي لهذه المعاهدة ان منليك يتخذ من الحكومة الايطالية سبيلاً له في جميع مفاوضاته من الدول والحكومات الاخرى . وهذا معناهُ بسط الحماية الايطالية على الحبشة . ولكن يظهر ان النص الامحري كان يختلف عن النص الايطالي في هذا الصدد . ولما اخذ الايطاليون يتقدمون في ولاية «التيجرة» ويحاسنون بعض الزعماء من خصوم منليك، ثبت لمتتبعي الحالة ان اغراضهم تتعارض ورغبة الامبراطور منليك في الاحتفاظ باستقلاله . ولذلك اعلن منليك الدول في سنة ١٨٩٣ بالغاء معاهدة اوتشالي

١٨٩٦ معركة عدوة . ولكن الايطاليين مضوا في تقدمهم . فكان من اثر هذا التقدم توحيد الامبراطورية الحبشية وضم صفوفها بزعامة منليك . وفي شهر مارس من سنة ١٨٩٦ التقت قوة ايطالية مؤلفة من ١٤٥٥ جنديًّا وضابطاً بقوة حبشية مؤلفة من ١٠٠ الف مقاتل على مقربة من عدوه فهزم فيها الايطاليون شر هزيمة فعقدت بعدها معاهدة في اديس ابابا الغيت بمقتضاها معاهدة اوتشالي واعترف باستقلال الحبشة المطلق وقضى منليك الاثنتي العشرة السنة التالية في التغلُّب على القبائل الخارجة عليهِ

وعقد المعاهدات مع الدول الاوربية لتعيين الحدود بين الحبشة والبلدان المجاورة لها الخاضعة لبريطانيا وفرنسا وايطاليا

١٨٩٧ ففي شهر مارس من سنة ١٨٩٧ عقدت معاهدة مع فرنسا عيّنت بمقتضاها حدود الصومال الفرنسي . وفي شهر مايو من السنة نفسها عقدت معاهدة مع بريطانيا لتعيين حدود الصومال البريطاني . وقد نصّ فيها على ان قبائل الصومال البريطاني التي تدخل مقاطعتي هرر واوغادن في طلب المراعي لها حق في استعمال المراعي والآبار التي في هذه المنطقة . وعقدت في السنة نفسها معاهدة مع ايطاليا لتعيين حدود الصومال الايطالي ولكنها لم تنشر وانما ذكرت في معاهدة الحدود سنة ١٩٠٨

١٩٠٠ في شهر يوليو من سنة ١٩٠٠ عقدت معاهدة مع ايطاليا لتعيين حدود الاريترية من ناحية الحبشة

١٩٠٢ وفي شهر مايو من سنة ١٩٠٢ عقدت معاهدة مع بريطانيا لتعيين حدود السودان وفي الشهر نفسهِ عقدت معاهدة اخرى مع بريطانيا لتعيين الحدود بين السودان والحبشة وبين السودان والاريترية

١٩٠٦ المعاهدة الثلاثية بين بريطانيا وايطاليا وفرنسا وقد تعهّدت فيها هذه الدول الثلاث بالمحافظة على سلامة الحبشة ، وان لا تعمد احداها الى التدخل في شؤونها من دون الاتفاق مع الدولتين الاخريين وحددت فيها منطقة نفوذ كلّ منها في الحبشة وقد اعترضت الحبشة على هذه المعاهدة

١٩١٩ عقدت معاهدات الصلح ولم تمنح ايطاليا مستعمرات ما في افريقية وفقاً لمعاهدة لندن السرية التي عقدت قبيل دخولها الحرب الكبرى في جانب الحلفاء فكان ذلك مدعاة لامتعاضها وتبرمها

١٩٢٣ انتظمت الحبشة في جامعة الامم باقتراح فرنسا وتأييد ايطاليا . وكانت بريطانيا قد عارضت في انتظامها اولاً ثم سلّمت بهِ مجاراة لرأي الاكثرية . وكان وزير خارجية فرنسا يومئذٍ المسيو هانوتو الذي كان وزيراً للمستعمرات يوم حادث فاشودة . وقد قيل ان تأييد فرنسا وايطاليا لانتظام الحبشة في الجامعة كان غرضهُ احباط خطة بريطانيا في الحبشة او ما فسّر على انهُ خطتها هناك عند ما دعت الى السعي لالغاء الرقّ فيها

١٩٢٥ تبادلت الحكومتان البريطانية والايطالية مذكرات في صدد اتفاق على بناء سد على بحيرة تانا ومدّ طريق من حدود السودان اليها وانشاء خط حديدي ايطالي بين الاريتريا والصومال . والى القارئ الفقرة المهمة من مذكرة السفير البريطاني نقلاً عن مجلّة الشؤون الخارجية Foreign Affairs الربعية الاميركية

« لذلك لي الشرف بناء على تعليمات وزير خارجية جلالة الملك ان اطلب الى سعادتكم تأييدكم ومساعدتكم في أديس ابابا قِبَل الحكومة الحبشية للحصول على امتياز لحكومة جلالته (الحكومة البريطانية) ببناء سد على بحيرة تانا مع حق بناء طريق للسيارات لنقل العمال والموظفين ومؤونتهم من حدود السودان الى السد

« يقابل ذلك ان حكومة جلالته مستعدة ان تؤيد الحكومة الايطالية في الحصول من الحكومة الحبشية على امتياز ببناء سكة حديدية من حدود الاريترية الى حدود الصومال الايطالي ويكون من المفهوم بيننا ان سكة الحديد هذه وكل ما يلزم لها من الاعمال لبنائها وتسييرها يكون لها حق مطلق في اجتياز طريق السيارات التي اشير اليها في الفقرة السابقة

« فتحقيقاً لهذين الغرضين يصبح من الضروري ان يبعث بتعليمات متماثلة لممثلي بريطانيا وايطاليا في الحبشة ليعملا مشتركين امام الحكومة الحبشية للحصول على الامتيازات التي ترغب فيها حكومتا بريطانيا وايطاليا في بحيرة تانا وبناء سكة الحديد التي تصل الاريترية بالصومال الايطالي ولكي يكون منح هذين الامتيازين في وقت واحد . فاذا فازت احدى الحكومتين بامتيازها الخاص الذي تسعى اليهِ واخفقت الاخرى يتعين على الحكومة التي فازت بما تطلب ان لا تتهاون في سعيها الحثيث لتحقيق ما تتطلبه الحكومة الاخرى

« فاذا تمَّ لحكومة جلالة الملك (بريطانيا) بمساعدة حكومة ايطاليا الحصول على الامتياز الخاص ببحيرة تانا من الحكومة الحبشية فهي (اي حكومة بريطانيا) مستعدة ان تعترف بانشاء منطقة نفوذ اقتصادي ايطالي في غرب الحبشة خاصة بها وفي كل المنطقة التي تجتازها سكة الحديد المذكورة آنفا . ثم انها تتعهد بأن تؤيد طلب حكومة ايطاليا لامتيازات اقتصادية في تلك المنطقة امام حكومة الحبشة »

وقد قبل السنيور موسوليني القواعد التي ذكرت في هذه الوثيقة الرسمية ولكن فرنسا عارضت فيها لان معاهدة ١٩٠٦ الثلاثية تنص على حظر اي اتفاق ثنائي خاص بالحبشة. ولما كان هذا الاتفاق او مشروعه قد تمَّ بين ايطاليا وبريطانيا من دون علم فرنسا فقد عارضت فرنسا فيهِ وبوجهٍ خاص لانها لم تكن صديقة لايطاليا حينئذٍ . وكذلك اعترضت عليهِ الحبشة من طريق جامعة الامم فلم يعمل بهِ

١٩٢٨ عقدت معاهدة تحكيم بين ايطاليا والحبشة والمادة الاساسية فيها تنصُّ على ما يلي:

« تتعهد الحكومتان ان تعرضا للمصالحة والتحكيم الخلافات التي تنشأ بينهما والتي تتعذر تسويتها بالاساليب الدبلوماسية المألوفة من دون اللجوء الى القوة المسلَّحة .

وعلى الحكومتين ان تتبادلا مذكرات في صدد الاسلوب الذي يتخذ لتعيين المحكمين »

وفي ٧ اكتوبر من هذه السنة توّج الرأس تفري ملكاً . وماتت الامبراطورة زوديتو في ابريل سنة ١٩٣٠ فتوّج امبراطوراً في ٢ نوفمبر من السنة نفسها ، متخذاً لنفسهِ لقب هيلاسلاسي الاول

١٩٣٠ في شهر اغسطس من سنة ١٩٣٠ وافقت حكومة الحبشة على تنفيذ الاتفاق الخاص بتجارة السلاح الذي وقع في « سان جرمان آن لاي » سنة ١٩١٩

١٩٣٤ سبتمبر : اتفقت ايطاليا والحبشة على الامتناع عن الاعتداء

نوفمبر : اعتذرت الحبشة عن مهاجمة القنصلية الايطالية في غوندار

دسمبر : اصطدام جنود صوماليين ايطاليين بجنود احباش في وال وال

١٩٣٥ يناير : عقدت ايطاليا وفرنسا اتفاقاً في روما تنازلت فيهِ فرنسا لايطاليا عن جانب من اسهم سكة حديد اديس ابابا وصرّحت ان مصالحها في الحبشة محصورة في ما يتعلّق بهذه السكة

فبراير : بدأت ايطاليا تعدُّ حملتها الافريقية

مارس : رفضت ايطاليا طلب الحبشة ان يعهد الى جامعة الامم في تحقيق حادث وال وال . وقطعت المفاوضات المباشرة بين الحبشة وايطاليا

ابريل : مؤتمر ستريزا واتفاق فرنسا وبريطانيا وايطاليا على موقف مشترك في صدد المشكلات الاوربية

مايو : عين مجلس جامعة الامم لجنة للمصالحة والتحكيم

يونيو : ذهب الكابتن ايدن الى روما وعرض على موسوليني اعطاء الحبشة منفذاً الى البحر في زيلع في الصومال البريطاني لقاء ما يتنازل عنهُ النجاشي من اراضي الحبشة لايطاليا فرفض موسوليني ما عرض عليهِ

يوليو : اجّلت لجنة التحكيم اجتماعاتها . والغت حكومة ايطاليا القانون الخاص بجعل الغطاء الذهب للنقد ٤٠ في المائة . ناشد البابا الحكومات للاحتفاظ بالسلام . حظرت بريطانيا تصدير السلاح الى كلتا ايطاليا والحبشة

اغسطس : ١٨ منهُ . عقد مؤتمر في باريس بين ممثلي حكومات بريطانيا وفرنسا وايطاليا ، فاخفق في محاولتهِ الوصول الى تسوية لان ايطاليا رفضت ان تنظر في المقترحات التي عرضتها فرنسا وبريطانيا . وجاء في بيان من الحبشة ان النجاشي عرض ان يتنازل عن مقاطعة اوسا مقابل اراض تمنحها الحبشة في ناحية اخرى

١٩٣٥ ٢٢ اغسطس : قرّرت الوزارة البريطانية ان تقف من جامعة الامم موقفاً يعزّز عهدها

٣١ منهُ : اذيع نبأُ الامتياز الذي منحهُ النجاشي في الحبشة المستر ريكيت الانكليزي نائباً عن طائفة من اصحاب المصالح المالية في انكلترا واميركا . ففسّر هذا العمل عند اذاعته على انهُ سعي من انكلترا « لحلب البقرة قبل تسليمها لموسوليني » فكذّبت وزارة الخارجية البريطانية اي صلة لها بهذه الصفقة وطلبت الى وزيرها المفوّض في اديس ابابا ان يشير على النجاشي بامساك الامتياز وافضى تعقُّد الحالة الناشئة عن ذلك الى انسحاب شركة ڤاكوم منهُ وكانت صاحبة اكبر نصيب فيهِ . وقرّر الكنغرس الاميركي ان يحظر توريد الاسلحة الى كلا الفريقين المتحاربين

سبتمبر : ٣ منهُ . قدّمت لجنة التحكيم — وكان المسيو بوليتيس اليوناني قد اختير محكماً خامساً فيها — تقريرها في حادثة وال وال فاذا هو لا يلقي اللوم على احد الفريقين

٤ منهُ : عين مجلس جامعة الامم لجنة الخمسة للبحث في الموضوع واقتراح تسويةٍ

١١ منه : القى السر صموئيل هور خطبته في الجمعية العمومية لجامعة الامم متعهداً فيها بالنيابة عن الحكومة الانكليزية باستعداد بريطانيا « للدفاع المشترك عن عهد الجامعة كاملاً » واعربت سائر الدول عن مثل هذا العزم

١٨ منهُ : قدمت لجنة الخمسة تقريرها . فقبلته الحبشة اساساً للمباحثات . ورفضته ايطاليا رفضاً باتّاً

٢٣ منه : اعلنت ايطاليا زيادة جيشها الى مليون جندي ، ووجوب استعداد الامة لحشدها عند الدعوة اليه . وشرعت انكلترا في تعزيز اسطولها في البحر المتوسط

٢٥ منهُ : اعلن الرئيس روزفلت قائمة بالمواد الحربية التي يحظر تصديرها الى البلدان المتحاربة

٢٦ منهُ : اجتمع مجلس جامعة الامم واقر بالاجماع مقترحات لجنة الخمسة وان يمضي في السعي لحل النزاع الايطالي الحبشي بمقتضى المادة الخامسة عشرة من عهد الجامعة (مادة المصالحة Conciliation)

٢٩ منهُ : ردت بريطانيا على فرنسا بأنها مستعدة ان تشترك في كل مقاومة اجماعية لدولة معتدية بحسب عهد الجامعة

اكتوبر : ٢ منهُ : تخطت الجيوش الايطالية حدود الحبشة

الدستور السوفياتي الاشتراكي [1]

للاستاذ وليم بنت منرو [1]

— ٣ —

٣ : تمثيل الحرف — أهم ما يمتاز به نظام الحكم السوفياتي هي القاعدة المتخذة اساساً للتمثيل السياسي . فاننا نرى بريطانيا وفرنسا والمانيا والولايات المتحدة وغيرها من الدول الرأسمالية البرلمانية تتخذ الموقع الجغرافي اساساً للتمثيل فيجري الانتخاب من قبل جميع الناخبين في الالوية والاقضية والنواحي المتكونة منها الدولة بحسب المناطق او الدوائر الانتخابية التي تعين على أساس جغرافي . والنائب المنتخب على هذه الصورة يمثل لواء فيه فلاحون وعمال صناعيون وعمال مناجم وموظفو سكك الحديد واصحاب حرف حرة وتجار وملاك وأصحاب معامل الى غير ذلك من انواع الطبقات الاقتصادية، فهو يمثلهم كجماعات من السكان بلا التفات الى احوال معيشتهم اليومية المتباينة ومصالح طبقاتهم المتضاربة . والسبب في تطبيق هذا التمثيل هو ان النظرية الجغرافية تعتبر ان مصالح المصوت تتأثر بالمكان الذي يعيش فيه وليس بالحرفة التي يعيش عليها

اما النظام السوفياتي فيتخذ من الحرف اساساً للتمثيل السياسي ، ومع ان المناطق الجغرافية تستعمل ايضاً في التمثيل الحرفي الا ان استعمالها ليس إلاَّ لتسهيل عملية التصويت الحرفي . وفي هذا النوع من التمثيل يصوت الاشخاص ذوو الحرف المختلفة كل على حدة مع افراد حرفتهم : فعمال المناجم يصوتون في فريق وعمال الحديد في فريق آخر والجنود في فريق ثالث والفلاحون في فريق رابع الخ . . . كل بحسب اختصاصه الحرفي ينتخب ممثليه من طبقته . فلا يمثل عامل المناجم او الفلاح المنتخب الى مؤتمر سوفيت الاتحاد مدينة موسكو او تفليس او البلدة التي يأتي منها بل يمثل افراد فريقه بالمهنة بلا إلتفات الى محل الاقامة . وهذا النوع من التمثيل اقرب الى التمثيل الحقيقي لمصالح الناخبين من التمثيل الجغرافي بكثير وهو يعد افضل اسلوب للتمثيل جرب في العالم لانهُ يمثل حقيقة مصالح كل فريق حرفي تمثيلاً صحيحاً حالة ان التمثيل الجغرافي خلو من معنى الدمقراطية الصحيحة وصيانة مصالح الناخبين بل هو حيلة تفوز بواسطتها الطبقات المثرية الاقطاعية والبورجوازية في البلاد الرأسمالية بالقوة السياسية مع ادعائها منح المساواة والدمقراطية لجميع افراد المجتمع

ومن الواضح ان التمثيل الجغرافي الذي تتمشى عليه البلاد الرأسمالية على الاخص ضعيف من اساسه لا يتلاءم والدمقراطية الحقيقية التي تدعي انها تصونها لانهُ لا يعير اي اهتمام الى كون ان

---

(١) Socialist Soviet Coustitution (٢) استاذ التاريخ والحكومات في معهد جامعة كالفورنيا الفني باميركا وقد نقل هذا الفصل المتمم كامل قزانجي مدرس الاجتماع والتاريخ بمدرسة النجف الثانوية في العراق . راجع مقتطف يوليو واكتوبر ١٩٣٥ صفحة ٢١٩ و٣٤٧

المصوّت ينتمي الى طبقة او فريق اقتصادي بحكم الحرفة التي يؤمّن بها على موارد عيشه وهو عضو اقتصادي اكثر منهُ ساكناً او مقيماً في بلدة او ريف ما ، لذلك يكون فيهِ الاخلاص لمصلحة حرفتهِ المعيشية اكثر من إخلاصه للمكان الذي يتفق ان يقيم فيهِ والطبقات الاخرى التي يعيش معها طلباً للرزق . والتجار والعمال المأجورون والفلاحون وأصحاب المهن الحرة — كل واحد منهم لا يضحي بمصالحه ومصالح فريقهِ الاقتصادية والاجتماعية لذلك لا يمكن ان تنشأ بين المصوتين المختلفي المهن رابطة اقتصادية دائمة ولو كانوا يعيشون في بلدٍ واحد او ريف واحد او دائرة انتخابية جغرافية واحدة . ومع انهُ ليس من المؤكد دائماً ان يتفق ذوو الحرفة الواحدة على رأي واحد فيما يخص بعض قضايا السياسة العامة لكن يمكن الاعتماد على ان تكون الحرفة المعيشية اساساً أفضل للتمثيل من الموقع الجغرافي في احوال الحياة الحاضرة . وقد اقترح هذا التبديل في الولايات المتحدة كثير من قبل الساسة المجددين ومنهم وليم مكدونالد في كتابه « دستور جديد لاميركا الجديدة » حيث كتب : «من الواضح انهُ إذا شاءت الولايات المتحدة ان يكون لها هيئة تشريعية تمثلها تمثيلاً حقيقيًّا فيجب ان يبدل نظام التمثيل الحاضر بحيث تأخذ بعين الاعتبار ليس فقط السكان كما هي الحالة الآن بل الفروق في المهن والحرف كذلك ايضاً » لأن التمثيل الجغرافي باعتباره الصلة الجغرافية أهم من الصلة الطبقية لا يمكن ان يصون مصالح جميع المصوّتين المنتمين الى طبقات مختلفة متضاربة المصالح لذلك يكون النائب عادة من الطبقات ذات القوة الاقتصادية ولا يخدم الاّ مصالح طبقته وفي معظم الاحيان يكون أميل الى نسيان مصالح ناخبيهِ والاعتناء بمصالحه الخاصة قبل غيرها ففي منطقة انتخابية جغرافية ما ، يفوز صاحب المعمل والملاّك مثلاً بتمثيل الفلاحين والعمال المقيمين معاً لما لديهما من الثروة والقوة الاقتصادية والسياسية لكن الفلاح لا يفوز بتمثيل الملاّك ولا العامل يفوز بتمثيل صاحب المعمل

لكن هناك وجهة ثانية للقضية تنحصر في : هل يكون خير المجتمع اكثر ضماناً وتقدماً اذا وزعت القوة السياسية بحسب المناحي التي يحصل بها أصحاب المهن المختلفة على عيشهم ؟ تقوم النظرية السوفياتية على مبدإ ان حرفة الانسان وطريقة معيشته هي التي تملي عليه موقفه اراء قضايا السياسة العامة وعلاقاته الاجتماعية. أما البلاد الرأسمالية فقد تمشت على مبدأ اعتبار الشخص اميركيًّا او انكليزيًّا أو فرنسيًّا اولاً وعاملاً أو فلاحاً أو تاجراً ثانياً

وجرياً على هذا المبدأ يطلب من الشخص ان يكون موقفه تجاه مصالح الامة بأجمعها فوق مصلحته الخاصة أو مصلحة حرفته أو طبقته الاقتصادية ولو كلفه ذلك التضحية بالثانية في سبيل الاولى فالنائب في المجلس على هذا المبدأ ينتخب من قبل مصوتي المنطقة فلا يمثل تلك المنطقة بل يمثل الامة بأجمعها لانهُ يتقاضى مخصصاته من الخزينة العامة . لكن الواقع لا يتفق مع النظرية في النظام الرأسمالي لان النائب فيه ينقاد عادة الى الاعتناء بمصالحه الخاصة أولاً — كما اسلفنا —

وهي مصغر مصالح حرفته أو طبقته الاقتصادية . فلا يكون بذلك ممثلاً حقيقياً لجميع ناخبيه. لكنه اذا انتخب من قبل فريق حرفته أو طبقته فلا يطلب منه أن يمثل المجتمع كله بل أن يمثل طبقته فقط وبهذا التحديد في نطاق مسؤوليات النائب ، ضمان اقوى لقيامه بواجبات التمثيل

فالذي تقصده الشيوعية في نظام التمثيل هذا هو تحقيق الديمقراطية الاقتصادية تمهيداً لتحقيق ونجاح الدمقراطية السياسية التي تعاني اليوم الازمات الشديدة في الدول الاوربية الرأسمالية لعدم استنادها الى نظام اقتصادي دمقراطي اذ تمنح الحقوق الدمقراطية السياسية لافراد المجتمع وهم بعدُ لا يزالون على أساس مالي يتناقض مع روح الدمقراطية الحقيقية . وهنا منشأ الازمات

وبتطبيق التملك العام لجميع وسائل الانتاج والتوزيع ومنابع الثروة يقضي النظام السوفياتي الاشتراكي على الفروق الطبقية وحرب الطبقات معاً، وبوضعه التمثيل على اساس حرفي يضمن التعاون بين الفرق الحرفية المختلفة ويصون مصالحها . لكن قبل ان يطبق هذان المبدآن وضعت السلطة بيد طبقة واحدة هي طبقة المنتجين من عمال وفلاحين وجنود وبفوز دكتاتورية العمال لم يعد في استطاعة اي طبقة اخرى من الطبقات السابقة ان تعلن حرباً او تناهض القوة القائمة في الحكم مهما حاولت ان تفعل ذلك. فلا يبقى امامها الاّ ان تندمج في الطبقات المنتجة حتى يتكامل المجتمع فيصبح لاطبقياً او تهرب من حكم الطبقة الحاكمة ، وفي كلتا الحالتين تقدم نحو الغاية القصوى وهي « المجتمع اللاطبقي » . لكن وان اعتبرت المصالح الاقتصادية اساس النظام الانتخابي فالنظام السياسي هو بالحقيقة خاضع « لدكتاتورية العمال » التي تشرف على دور الانتقال من الفردية الى الشيوعية

٤ — البعد بين الناخب والحاكم — والميزة الرابعة للنظام السياسي السوفياتي هي البعد بين الهيئات الحاكمة والشعب المحكوم . ففي اميركا مثلاً ينتخب الشعب الهيئات التنفيذية والتشريعية في ولاياتهم فلا يبعد الرئيس واعضاء الكونغرس عن المصوتين اكثر من درجة واحدة . اما في الاتحاد السوفياتي فتنفصل هذه السلطات عن الناخبين عدة درجات . فالفلاح السوفياتي ينتخب سوفيت قريته او مزرعته الاشتراكية وهذا السوفيت الاولي يبعث ممثلين عنهُ الى سوفيت الاقليم ومؤتمر سوفيت المنطقة وهذا بدوره يتمثل في مؤتمر سوفيت جميع الروس اذا كان في روسيا ، او في مؤتمر سوفيت جميع الشعب الساكن في الجمهورية الفلانية مثلاً وهذا الاخير يعين اللجنة التنفيذية المركزية لجمهوريته وهذه تعين مجلس القومساريين في تلك الجمهورية . اما في حكومة الاتحاد فيتمثل الفلاح بواسطة مندوبيه الذين يرسلون من سوفيت ريفه او اقليمه الى مؤتمر سوفيت الاتحاد الاعلى وهذا يعين اللجنة التنفيذية المركزية العليا وهذه تعين مجلس القومساريين . وهكذا قل عن تمثيل العمال في المدن . وعلى ذلك نرى ان المصوّت الاول في الريف او المعمل ينفصل بثلاث او اربع درجات عن الهيئة التنفيذية العليا ولطول هذه المسافة تقل مسؤولية القومساريين المباشرة امام الشعب وتنحصر مسؤوليتهم امام مؤتمر سوفيت الاتحاد واللجنة التنفذية العليا ومجلس الرآسة فقط . وبذلك يقل

تساقط القومساريات في فترات قصيرة . فمع ان جميع سكان الاتحاد السوفياتي يشتركون في ادارة حكومتهم لكنهم بممارستهم هذه الادارة بهذا الشكل الهرمي تحدد السيادة العامة ويقل تأثر السلطات التنفيذية بتقلبات الرأي العام وفي هذا استقرار سياسي عام ضروري للبلاد وهي في دور الانتقال من الاقطاعية والرأسمالية الى الاشتراكية

﴿القضاء والمحاكم﴾ لكل من الجمهوريات السبع الرئيسية والجمهوريات والمناطق والاقاليم الذاتية الكائنة في كلٍّ منها نظام قضاء وقوانين خاصة بها . لكن القوانين والنظام القضائي في كل من هذه الجمهوريات لا تختلف اختلافاً جوهريًّا عن الاخرى . وتعتبر محكمة الاتحاد العليا المرجع القضائي الاخير لجميع القضايا في انحاء الاتحاد السوفياتي . وهناك محاكم تعرف باسم (محاكم الشعب) في كل منها حاكم ومحلفين او اكثر وهناك كذلك عدة محاكم خاصة كمحاكم العمل والتحكيم والمحاكم العسكرية والنظامية الخ . . . وفوق هذه جميعها تأتي محاكم المناطق وفي كل واحدة منها عدة حكّام يتفاوت عددهم بحسب الحاجة . والحكّام في جميع المحاكم في جمهوريات الاتحاد يعينون من قبل سلطات المناطق ويبقون في مناصبهم سنة واحدة . ويستثنى من هذا حكام محكمة الاتحاد العليا الذين تنتخبهم لجنة الاتحاد التنفيذية المركزية او بالحقيقة : مجلس رآسة اللجنة . اما المحلَّفون في محاكم الشعب ومحاكم المقاطعات او المحاكم العليا فيستدعون للعمل مدة ٦ ايام كل سنة وينتخبون من عدد من بين المواطنين المصادق عليهم وليس في الاتحاد نظام ثابت للمحاكمة امام هيئة من الحكّام بل يقوم المحلفون مقام هيئة الحكّام فيبتون في القضايا مع الحاكم باجماع الاصوات

لكن قد يتبادر الى ذهن القارىء ان يسأل : — لماذا لا ينهار هذا النظام الهرمي من سوفيت ولجان ومؤتمرات وهيئات ومجالس بسبب علوه وثقله ? ولماذا لا يرتبك هذا النظام وينحل بسبب التناقس وسوء التفاهم الذين يحتمل وقوعهما بين سلطات الاتحاد وسلطات الجمهوريات الرئيسية وبين هذه وسلطات المناطق والاقاليم والمدن والارياف ? اما الجواب فبسيط يتلخص في ان ليس في الاتحاد الاّ حزب سياسي واحد يسود جميع هذه المؤسسات ويسيطر على هذا النظام . وكل موظف رسمي في الاتحاد مهما اختلفت مرتبته يجب ان يكون عضواً في الحزب الشيوعي الذي يشرف على جميع شؤون السوفيت واللجان وغيرها من مؤسسات الاتحاد ويديرها بواسطة المكتب السياسي فيه . ولما كان الشيوعيون لا يتقاسمون الحكم مع من يخالفهم في المعتقد فهم لا يؤمنون بامكان وجود معارضة مخلصة في الاتحاد السوفياتي او في اي مجتمع يريد تحقيق الشيوعية فلذلك هم يعتقدون أن كل من يعارض الحزب الشيوعي خائن وضد الثورة والدولة . فاذا نشأ نزاع في قضية ما يحل النزاع داخل الحزب اذ تعتبر جميع القضايا حزبية لا سياسية عامة ، وبعد تقرير الحزب خطة ما أزاء القضية المختلف فيها يجب على الجميع الرضوخ لقرار الاكثرية الفائزة بوجهة نظرها . وفي سيادة الحزب الواحد هذه على جميع المناطق الجغرافية وجميع مرافق الحكومة من دون اعترافٍ باي معارضة السرّ كل السرّ في

القوة التي تحفظ هـذا النظام . فعندما اختلف تروتسكي مع ستالين حول متابعة الثورة العالمية بحسب رأي تروتسكي أو الاهتمام بالتشييد الاشتراكي ومشاريع الخمس سنين بحسب رأي ستالين وحول أي الخطتين تقوم على الاخرى فاز رأي ستالين بمعاضدة الحزب له فلم يسمح لتروتسكي ان يتولى جبهة معارضة حوله بل نفي حالاً الى خارج الاتحاد. وهكذا مع رايكوف وغيره من الخارجين على ارادة الحزب العامة أمثال كامنيف وزينوفيف من زعماء الحزب المؤسسين وفلاسفة النظام السوفياتي ، عند ما اختلفوا مع ارادة الحزب العامة وزعمائه الاقوياء أصبحوا أعداء الدولة فأعدم معظمهم حالاً ونفي القسم الآخر الى سيبيريا

الحزب الشيوعي — ومع أن الشيوعيين كانوا أقلية بين سكان روسية أيام الحرب العظمى لكنهم كانوا محكمي التنظيم اذ تقوم عضوية الحزب على أساس التكتل بشكل طوائف ، في كل قرية ومعمل طائفة واحدة على الاقل . وكل طائفة تبعث ممثلاً عنها الى مؤتمر الحزب الذي ينتخب لجنة مركزية وهذه بدورها تعين اعضاء المكتب السياسي الذي يقود حركات الحزب ولشدة علاقة الحزب بأعمال الدولة كثيراً ما يتقلد المناصب العليـا في الحكومة وفي الحزب نفس الاشخاص والزعماء . ونظام الحزب صارم جداً يقوم على الطاعة المخلصة والتنظيم العسكري وينزل العقاب الشديد بكل من يُشـك بهِ شكاً طفيفاً ويطرد من الحزب أو يحمَّـل آلاماً وخسائر عديدة

ولا يمكن لاحد ان يصبح عضواً الاَّ بعد ان يجتاز مدة امتحان يكون خلالها تحت مراقبة شديدة . فالحزب الشيوعي هو القوة المحركة والمنظمة لجميع شؤون الاتحاد

ويعلن الدستور السوفياتي لسنة ١٩١٨ بكل ارتياح انهُ يعترف « بالمساواة في الحقوق لجميع المواطنين » لكنهُ يقول في الفقرة التالية مؤكداً ان ليس من حق اي مواطن ان يدعي التمتع بأي حق او امتياز يمكن استعماله للاساءة لروح الثورة الشيوعية ولهذا السبب لا يحدد الدستور قائمة الحقوق . فالمواطن السوفياتي ليس له اي حق على الدولة وهذا ما اتبعه النظام الفاشستي فيما بعد باعتباره الدولة غاية الجميع وليس الفرد الاَّ واسطة لهذه الغاية . اما في الاتحاد السوفياتي بالمقابلة مع ايطاليا فالغاية هي (المجتمع اللاطبقي) الذي يقوم على اساس التملك العام ويكون فيه جميع الافراد عمالاً منتجين يتمتعون جميعهم بما يملكون وينتجون موحدين جهودهم لتحقيق غايات مشروع واحد عام ورفع مستوى معيشة الجميع المادية والادبية . لذلك نرى الفلسفة الفردية تنعكس فتصبح حرية الصحافة والخطابة وحرية التعامل التجاري كما يفهمها بقية العالم الرأسمالي غير متفقة مع روح هـذه النظرية الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي لان هذه الحريات لا يجب ان تصان الاَّ اذا كانت تساعد على تقوية النظام الجديد لانهُ اذا كانت غاية الانسان الرئيسية تحقيق المجتمع الشيوعي والمساعدة على الاحتفاظ بشكل من الحكومة تعمل على تحقيق هذا المجتمع فلا يكون للمواطن أي حرية أوْ مصلحة تتعارض مع الغاية التي يحرص عليها والوسائل التي ينتهجها لتحقيقها .

التربية الاجتماعية والصحية

متى يغتفر الكذب

لشاكر الحنبلي

تحريم السرقة

الاستشارة الطبية الدورية

للدكتور حسن كمال

متى يغتفر الكذب

لشاكر الحنبلي

قرأت في مجلة الهلال الغراء مقالاً للعلامة الامير مصطفى الشهابي تحت عنوان « غرائب المصانعة» تناول فيها جانباً من النقص الاخلاقي في بعض الافراد الذين يلبسون لكل حالة لبوسها ويتلوّنون في آرائهم واحاديثهم تلوّن الحرباء على حسب ما يرضي مخاطبهم لاما يرضي ضمائرهم ويعدون ذلك من مقتضيات الكياسة وحسن السياسة . وقد استثار هذا المقال اهتمام بعض المفكرين فكتب الاديبان اديب عباسي والياس يعقوب مقالين في هذا الصدد عابا بهما هذا الخلق واعتبراه ضعفاً في النفوس البشرية واعوجاجاً يجب تقويمه والتحذير من التعرض لآفاته التي تفقد المرء ذاتيته حتى يصبح بمثابة الحاكي الذي يردّد اقوال الغير وافكارهم بدلاً من ان يكون له في الحياة كيان مستقل

وقد نبهتني هذه المقالات الى ناحية اخرى من نواحي اخلاقنا الاجتماعية تكاد تكون عامة بين جميع الطبقات وهي الكذب في الحديث والرواية والعمل لا لشيء سوى التخلص من عتاب صديق او عناء زيارة متوجبة او دفع تبعة محتملة كاعتذارك عن تلبية دعوة بداعي المرض مع انك لم تكن مريضاً او قولك لخادمك عند زيارة احد تكره مقابلته: قل له اني لست في الدار مع انك فيها وتجاهل امرٍ تعرفه او التغاضي عن شيء تكره افشاءه والتمارض السياسي الذي يتظاهر به بعض الساسة — كل ذلك من هذا القبيل، والمصانعة والمداهنة والرياء والتقية وان اختلفت اسماؤها فهي في الحقيقة لا تخرج عن حد الكذب ما دام الكذب هو الاخبار بشيء على خلاف ما هو عليه مع العلم به . فالمصانع والمداهن والمرائي جميعهم يقولون بخلاف ما يعتقدون وهو الكذب بعينه . والذين يستعملون التقية وهي اظهار خلاف ما يبطنهُ المتكلم دفعاً لضرر يظنونهُ لاحقاً بهم ان هم صارحوا بالحقيقة ليسوا سوى كذّابين ايضاً

فلماذا يرتكب الناس هذا النوع من الكذب ويفرّون من مواجهة الصراحة ولا يرون في ذلك غضاضة عليهم ولا حرجاً ؟ اليس لهم مندوحة عن الكذب بالعدول عنهُ الى ما يؤدي الغرض منهُ ؟ وهل هنالك حالات يغتفر فيها الكذب وما هي ؟ هذه قضية جديرة بالبحث والتمحيص لمساسها بناحية دقيقة من نواحي اخلاقنا الاجتماعية : ان الكذب هو بلا ريب من اقبح الخلال واوضعها ولهذا نهت عنهُ جميع الشرائع والأديان ومقتتهُ العقول وكفى بالكذب شيناً ومهانة ان صاحبهُ

مرذول محتقر لا يصدقهُ الناس ولو صدق . ولا حاجة بنا الى سرد ما قيل في شناعة الكذب والكذابين فذلك مما يطول شرحه وليس هو غرضنا من هذا المقال وانما نريد ان نعرض للكذب من حيث غرض الكاذب وغايته لنرى اتبرر الغاية الشريفة هذه الواسطة الوضيعة في نظر العقل والشرع وان بررتها فما هو مدى هذه الغاية ؟

ان الشرع قد اجاز لنا ارتكاب بعض المنهيات للضرورة فاجاز للمضطر اكل مال الغير لدفع الجوع متى خشي الهلاك عملاً بالقاعدة الفقهية «الضرورات تبيح المحظورات » كما اجاز ارتكاب اخف المفسدتين واختيار اهون الشرين متى تعارضا فاباح لمن أكره بالقتل التكلم بالكفر مع اطمئنان قلبه بالايمان ولكنه مع ترخيصه بهذه المنهيات قد قيدها بالقدر الذي تندفع به الضرورة فنصَّ على ان «الضرورات تقدر بقدرها» فلا يجوز للجائع ان يأكل من مال الغير الاَّ بالقدر الذي يحفظ حياته ويدفع عنه الهلاك ومتى امكن دفع الضرر بالاخافة والتهديد او الضرب العادي فلا يصار الى دفعه بالقتل لأن القدر الزائد عن الضرورة مساوٍ للاعتدال بل زائد عليه . فلا يسوغ لنا التجوز في الرخص وارتكاب ما نهى عنه الشرع في سبيل مصالحنا وشهواتنا تحت ستار الضرورة . وهكذا الكذب فهو وان كان حراماً إلاَّ انه قد يباح في بعض الاحيان للضرورة متى كان في الجهر بالصدق خشية ضرر او فتنة اشد شرًّا من الكذب

***

يقول العلماء ان الكذب ليس حراماً لعينه بل لما فيه من الضرر على المخاطب او على غيره وربما كان واجباً في بعض الاحيان . ارأيت لو ان رجلاً سعى خلف آخر بالسيف ليقتله فدخل دارك فانتهى اليك الرجل يسألك هل رأيت فلاناً فماذا كنت قائلاً ؟ الا تقول ما رأيته وهذا كذب ولكنهُ خير من الصدق بل واجب عليك لان فيه حقن دم

ذكر الامام الغزالي في كتابه احياء علوم الدين « ان الكلام وسيلة الى المقاصد فكل مقصود محمود يمكن الوصول اليه بالصدق والكذب معاً فالكذب فيه حرام وان امكن التوصل اليهِ بالكذب دون الصدق فالكذب فيهِ مباح ان كان تحصيل ذلك القصد مباحاً وواجب ان كان المقصود واجباً كما ان عصمة الدم واجبة . فمتى كان في الصدق سفك دم امرىء قد اختفى من ظالم فالكذب فيهِ واجب ومتى كان لا يتم مقصود الحرب او اصلاح ذات البين او استمالة قلب المجني عليهِ الا بكذب فالكذب مباح . الاَّ انهُ ينبغي ان يحترز منهُ ما امكن لان الانسان اذا فتح باب الكذب على نفسهِ فيخشى ان يتداعى الى ما يستغنى عنهُ والى ما لا يقتصر على حد الضرورة فيكون الكذب حراماً الاَّ لضرورة . روي عن ام كلثوم قالت ما سمعت رسول الله (ص) يرخص في شيء من الكذب الاَّ في ثلاث الرجل يقول القول يريد بهِ الاصلاح والرجل يقول القول في الحرب والرجل يحدث امرأتهُ

والمرأة تحدث زوجها . وقالت ايضاً قال رسول الله (ص) ليس بكذاب من اصلح بين اثنين فقال خيراً أو انمى خيراً . وروي عن ابي كاهل قال وقع بين اثنين من اصحاب النبي كلام حتى تصارما فلقيت احدهما فقلت مالك ولفلان فقد سمعتهُ يحسن عليك الثناء ثم لقيت الآخر فقلت لهُ مثل ذلك حتى اصطلحا ثم قلت اهلكت نفسي واصلحت بين هذين فاخبرت النبي (ص) فقال يا أبا كاهل اصلح بين الناس ولو . . اي بالكذب

«فهذه الثلاث ورد فيها صريح الاستثناء وفي معناها ما عداها اذا ارتبط بهِ غرض مقصود صحيح للقائل او لغيره اما ما كان لهُ فمثل ان يأخذه ظالم ويسأله عن ماله فله ان ينكره او يأخذه سلطان فيسأله عن فاحشة كانت بينهُ وبين الله تعالى فله ان ينكر ذلك فيقول ما زنيت وما سرقت وقال صلى الله عليهِ وسلم من ارتكب شيئاً من هذه القاذورات فليستتر بستر الله وذلك ان اظهار الفاحشة فاحشة اخرى فللرجل ان يحفظ دمه وماله الذي يؤخذ ظلماً وعرضهُ بلسانهِ وان كان كاذباً واما الكذب لغرض غيره فبأن يسأل عن سر اخيهِ فله ان ينكرهُ وان يصلح بين اثنين وان يصلح بين الضرّات من نسائهِ بأن يظهر لكل واحدة انها احب اليهِ او يعتذر الى انسان وكان لا يطيب قلبهُ الاّ بانكار ذنب وزيادة تودد فلا بأس ولكن الحد فيهِ ان يقابل بين الكذب والصدق بالميزان القسط فاذا ظهر له ان المحذور الذي يحصل بالصدق اشد وقعاً في الشرع من الكذب فله ان يكذب وان كان ذلك المقصود أهون من مقصود الشرع فيجب الصدق. وقد يتقابل الامران بحيث يتردد فيهما وعند ذلك الميل الى الصدق اولى لان الكذب يباح لضرورة او حاجة مهمة فان شك في كون الحاجة مهمة فالاصل التحريم فيرجع اليهِ . . ولكن بالنظر لغموض ادراك مراتب المقاصد ينبغي ان يحترز الانسان من الكذب ما أمكنهُ وكذلك متى كانت الحاجة له فيستحب له ان يترك اغراضه ويهجر الكذب فاما اذا تعلق بغرض غيره فلا تجوز له المسامحة لحق الغير والاضرار بهِ . واكثر كذب الناس انما هو لحظوظ انفسهم ثم هو لزيادة المال والجاه ولامور ليس فواتها محذوراً ... »

فيظهر مما ذكره حجة الاسلام الغزالي ان الكذب قد رخص بهِ للضرورة في بعض المواطن دفعاً لضرر لا يمكن اجتنابهُ الاّ بالكذب فيباح حينئذٍ ولكن هذه الرخصة يجب ان لا تتعدى حدود الضرورة . وكان السلف يعدلون عن الكذب الى المعاريض ويرون فيها مندوحة عن الكذب عند ما يضطرون اليه ومثال التعريض انهُ اذا بلغ الرجل عنك شيء فكرهت ان تكذب تقول ان الله تعالى ليعلم ما قلت من ذلك من شيء فيكون قولك (ما) حرف نفي عند المستمع وعندك للابهام . وكان معاذ بن جبل عاملاً لعمر رضي الله عنهُ فلما رجع قالت له امرأتهُ ما جئت به مما يأتي به العمال الى اهلهم وما كان قد اتاها بشيء فقال كان عندي ضاغطاً قالت كنت اميناً عند رسول الله وعند ابي بكر فبعث عمر معك ضاغطاً وقامت بذلك بين النساء واشتكت عمر فلما بلغه دعا معاذاً وقال له ابعثت معك ضاغطاً قال ما اجد ما اعتذر به اليها إلاّ ذلك فضحك عمر واعطاه شيئاً فقال له ارضها به .

ومعنى قوله ضاغطاً يعني رقيباً وأراد به الله تعالى . وكان النخعي اذا طلبه من يكره أن يخرج اليه وهو في الدار قال للجارية قولي له اطلبهُ في المسجد ولا تقولي ليس ههنا كيلا يكون كذباً . وكان الشعبي اذا طلب وهو في المنزل وهو يكره الخروج خط دائرة وقال للجارية ضعي اصبعك فيها وقولي ليس ههنا

وهذا كله في موضع الحاجة . وقالوا في توجيه هذا النوع من المعاريض ان المحذور من الكذب تفهيم الشيء على خلاف ما هو عليهِ في نفسهِ الاَّ ان ذلك مما تمس اليهِ الحاجة وتقتضيه المصلحة في بعض الاحوال وفي تأديب الصبيان والنسوان ومن يجري مجراهم وفي الحذر من الظلمة وفي قتال الاعداء والاحتراز عن اطلاعهم على أسرار الملك فمن اضطرَّ الى شيءٍ من ذلك فهو صادق وان كان كلامه معهما غير ما هو عليهِ لان الصدق ما أُريد لذاتهِ بل للدلالة على الحق والدعاء اليهِ فلا ينظر الى صورته بل الى معناه ففي مثل هذه المواضيع ينبغي ان يعدل الى المعاريض ما وجد اليهِ سبيلاً . وكان رسول الله (ص) اذا توجه الى سفر ورَّى بغيره كي لا ينتهي خبره الى الاعداء وليس هذا من الكذب في شيءٍ

وقد أباحوهُ أيضاً في المزاح لما فيهِ من المطايبة على ان لا يتجاوز حد الاعتدال . وكان النبي (ص) يمازح بعض الصحابة والصحابيات ولكنهُ لا يقول الاَّ حقاً . روي عن الحسن أنهُ قال : أتت عجوز الى النبي (ص) فقالت يا رسول الله ادعُ لي بالمغفرة فقال لها : لا يدخل الجنة عجوز فبكت فتبسم وقال لها انك لست بعجوز يومئذٍ أما قرأت قوله تعالى « انَّا أنشأناهنَّ انشاءً فجعلناهنَّ أبكاراً عرباً أتراباً » . فانظر الى هذا المزاح اللطيف الذي لا يخرج عن قول الحق ومثل النبي قادر أن يمزح ولا يقول الاَّ حقًّا . فأين هذا من مزاح بعض الناس الذين لا همَّ لهم الاَّ ان يضحكوا الناس من قولهم كيفما كان

ويغتفر الكذب في الشعر أيضاً عن طريق المبالغة حتى قالوا « أعذب الشعر أكذبه » . وقد أمر رسول الله (ص) حسان بن ثابت الانصاري بهجاء الكفار والتوسع في المدح فانهُ وان كان كذباً فلا يلتحق بالكذب الحرام كقول ابي تمام في وصف الخليفة المعتصم :

ولو لم يكن في كفه غير روحه   لجاد بها فليتق الله سائله

فان هذا عبارة عن الوصف بمنتهى الجود والسخاء فان لم يكن صاحبه سخيًّا كان كذباً وان كان سخيًّا فالمبالغة من صنعة الشعر . وقد أنشدت ابيات بين يدي رسول الله لو تتبعت لوجد فيها مثل ذلك فلم يمنع منهُ . قالت عائشة رضي الله عنها كان رسول الله (ص) يخصف نعله وكنت جالسة اغزل فنظرت اليهِ فجعل جبينه يعرق وجعل عرقهُ يتولد نوراً قالت فبهت فنظر اليَّ فقال مالك بهت فقلت يا رسول الله نظرت اليك فجعل جبينك يعرق وجعل عرقك يتولد نوراً ولو رآك ابو بكر الهذلي لعلم انك احق بشعره قال وما يقول قات يقول :

واذا نظرت الى اسرة وجهه   برقت كبرق العارض المتهلل

قالت فوضع ما كان بيده وقام اليَّ وقبل ما بين عينيَّ وقال جزاك الله خيراً يا عائشة ما سررت مني كسروري منك . ولما قسم النبي (ص) الغنائم يوم حنين امر للعباس بن مرداس باربع قلائص فاندفع يشكو في شعر وفي آخره :

وما كان بدر ولا حابس   يسودان مرداس في مجمع
وما كنت دون امرئ منهما   ومن تضع اليوم لا يرفع

فقال صلى الله عليهِ وسلم اقطعوا عني لسانه فذهب بهِ ابو بكر الصديق حتى اختار مائة من الابل ثم رجع وهو من ارضى الناس فقال له النبي اتقول فيَّ الشعر ؟ فجعل يعتذر اليهِ ويقول بأبي انت وأمي اني لأجد للشعر دبيباً على لساني كدبيب النمل ثم يقرصني كما يقرص النحل فلا اجد بدًّا من قول الشعر فتبسم النبي وقال « لا تدع العرب الشعر حتى تدع الابل الحنين » ومثل هذا كثير في اشعار العرب وغيرهم . فالمبالغة في الوصف تغتفر على شرط ان يكون في الموصوف بعض هذه الصفات

ومثل اطراء الممدوح في حفلات التكريم والتأبين . فانك تلاحظ في اقوال الخطباء اطراء يخرج عن حدود الحقيقة ولكن الناس يغتفرون ذلك ويرونهُ ضروريًّا لتطييب قلب المحتفل بهِ او مواساةً لاهل الفقيد بل يعدونهُ من المجاملات الاجتماعية التي لا بدَّ منها . وكذلك تجاهل العارف هو في حقيقتهِ كذب ولكنهُ من الصناعات الادبية في الادب العربي

***

ومن الكذب الممدوح ما يقصد به الايثار على النفس وهو نادر ويعد من مكارم الاخلاق كما فعل ذلك الانصاري الذي جاء الى النبي فوجد عنده ضيفاً ولم يكن عند النبي ما يقدمهُ الى ضيفه فذهب الانصاري بالضيف الى اهله ثم وضع بين يديه الطعام وأمر امرأته باطفاء السراج وجعل يمد يده الى الطعام كأنهُ يأكل ولا يأكل حتى اكل الضيف الطعام . فلما اصبح قال له رسول الله لقد عجب الله من صنيعك الليلة الى ضيفكم ونزلت آية « ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة » فيا حبذا الكذب من هذا النوع

هذا وان الناس قد فتحوا باب الكذب على مصراعيه وتجوَّزوا فيهِ في غير محال الضرورة حتى كاد يكون خلقاً من اخلاقنا الاجتماعية فاذا اردت ابتياع سلعة او استصناع حذاء مثلاً قال لك التاجر او الصانع ان رأس مالها كذا قرشاً وراحاً يعززان قولهما بأغلظ الأيمان وهما كاذبان في قولهما ويمينهما وهكذا تغلغلت خصلة الجبن في نفوسنا حتى صارت عادة مستحكمة تصدر عنا عفواً وبلا تأمل كأنها من الغرائز الطبيعية . ولو حللنا عوامل هذه النقيصة الاخلاقية تحليلاً نفسيًّا لم نجد لها سبباً سوى الجبن او الانانية فالكذاب يقصد بكذبهِ سواء اكان صريحاً او عن طريق المصانعة او

المداهنة او الرياء او التقية الى اتقاء شر يخافه او جلب خير يرجوه وكلاهما يتلخصان بالخوف والانانية . نعم ان الحياة الاجتماعية قد تلجىء المرء في بعض الاحيان الى الكذب والمصانعة كما قال زهير بن ابي سلمى

ومن لم يصانع في امور كثيرة يضرَّس بأنياب ويوطأ بمنسم

إلاَّ ان ذلك يجب ان يقصر على مواطن الحاجة والضرورة وعلى الاحوال التي لا مندوحة فيها عن الكذب فلا يسوغ لنا ان نسرف فيهِ اسرافاً يخرجهُ عن هذا القدر ويصرفهُ عن مقصد الشارع في الترخيص بهِ . فالكذب والمصانعة وما جرى مجراها من ضروب المين بمثابة السم الذي يستعملهُ الطبيب لمعالجة بعض الامراض فان أعطى المريض منهُ مقداراً زائداً عن الحد المقدَّر لهُ طبّاً أودى بحياة المريض

وهكذا الكذب يخشى اذا نحن أسرفنا في التجوز بهِ ان يوردنا موارد العطب والهلكة لا سيما وان تقدير مواطن الضرورة فيهِ من أدق الامور وأصعبها بل هو من مزالق الاقدام ولذلك كان السلف يحتاطون في الترخيص بهِ ويقولون لا يجوز للرجل ان يكذب لصلاح نفسه فما عجز الصدق عن اصلاحه كان الكذب أولى بفسادهِ »

فيجب على قادة الرأي فينا من علماء وأدباء وكتَّاب ان يعالجوا هذا المرض الاخلاقي معالجة دقيقة ويصفوا لهُ الدواء الشافي او الواقي . ولعلَّ خير ما يصنعون ان يكثروا من المحاضرات والمقالات في هذا الصدد فعسى ان يكون من وراء ذلك ما يحقق الغرض من تقويم اعوجاج نفوسنا وتطهيرها مما علق بها من أدران وأوضار فنحن أحوج ما يكون الى تجدد أخلاقي يبنى عليه صرح نهضتنا القومية التي نسعى اليها . وكل رقيٍّ لا يشاد على أساس الفضائل الاخلاقية فمصيره السقوط والانهيار . ورحم الله القائل :

وانما الامم الاخلاق ما بقيت فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

تحريم السرقة

سئل الدكتور صرُّوف ، رحمة الله عليهِ ، ما هي الادلة القاطعة على تحريم السرقة فقال :

التحريم أمرٌ دينيٌّ . والاديان تنهى عن السرقة . ولا دليل فوق ذلك . ولكن اذا اردتم الدليل على ضرر السرقة فالسارق قلما يُضَرُّ . والذي تسرق امواله يُضَرُّ غالباً بحرمانهِ مما هو لازم لمعيشتهِ وراحتهِ . ولكن الضرر الاكبر يقع على الجماعة التي تجيز السرقة لانها تفقد حق التملك الذي هو اساس العمران وتعود الى البداوة والفوضى

الاستشارة الطبية الدورية

أهميتها — فوائدها

للدكتور حسن كمال

١ — يعلم القراء أن الصحة هي اهمّ ما يدّخره الانسان . وقد شبّهها بعضهم بتاج على رؤوس الاصحاء لا يراه الاّ المرضى . ولا غرابة في ذلك فالجسم المعافى الخالي من الامراض الكامل النموّ هو الاطول عمراً والاقدر على تحمّل المشقّات والاكفأ على ادارة الامور بحزم وجدّ ونشاط مع شعور بالراحة والطمأنينة والانشراح . والمثل يقول العقل السليم في الجسم السليم

٢ — وفي هذا الصدد يبدو لنا لاول وهلة سؤالان « كيف الوصول الى هذه الصحة ؟ وكيف نحافظ عليها اذا ما اهتدينا اليها ؟ الجواب عنهما يتلخص في ما يلي : —

اولاً : وقاية الجسم من العلل والسقام قبل ان تصل اليه

ثانياً : المبادرة بعلاج كل حالة مرضية تظهر في الجسم لأن الاختبار علّمنا أن استئصال المرض في مبدئه سهل اذا قيس باستئصاله بعد تمكّنه وتثبّته وتركّزه . سهل لانهُ لا يتطلب حينذاك عناءً كبيراً . فمقدار يسير من الدواء او اصلاح يسير في المسكن والملبس او تعديل خفيف في الغذاء يكفي لشفاء معظم الامراض المبتدئة فتقصر مدة المرض ويتفرغ الشخص لمهامه المعتادة وتنعدم ابواب مصروفات المعالجة ويزول الهم والغم ويبقى الفرح والسرور

٣ — فاذا كان الامر كذلك — فما هي الطريقة التي تجمع بين وقاية الجسم من المرض حتى لا يصل اليه والشفاء منهُ بسرعة اذا ما تسرّب اليه ؟ — الطريقة الوحيدة الناجعة هي الاستشارة الطبية الدورية . وربّ سائل يسأل : وما معنى الاستشارة الطبية الدورية التي تدعو اليها وتريد ان يتبعها الجمهور؟ الجواب عن ذلك ان المقصود بالاستشارة الطبية الدورية هوالتردّد على طبيبك الخاص وانت في حالة الصحة كي يفحصك . فاذا ما لاحظ عندك مرضاً مبتدئاً لا تعلمهُ أشار عليك بالدواء . أو لاحظ انك معرّض لبعض العلل من جهة ملبسك او مشربك او مأكلك او مسكنك أو مهنتك أشار عليك بالعمل اللازم حتى لا تقع فريسة لامراض الملابس الغير صحية او الطعام الذي لا يوافقك

او المسكن الذي لا يتفق مع حالة جسمك او الشغل الذي قد يؤثر في اعصابك او نظرك او معدتك والمعروف ان درهم وقاية خيرٌ من قنطار علاج

وعليهِ فالاستشارة الطبية تعني اخذَ رأي الطبيب . اما كلمة دورية فتعني الاستمرار في ذلك في مواعيد مناسبة او بعبارة اخرى في ادوار موافقة لحالة الجسم والسن

٤ — وأهمُّ فوائدِ الاستشارة الطبيةِ الدورية هي معرفةُ المرض في مبدئه . ومعلومٌ ان الأمراض نوعان حاد ومزمن . فالحاد هو الذي يبدأ فجأة وبشدة ويكون عادة قصير المدة . أما المزمن فهو الذي يتخلف عادة من الحاد وهو طويل المدة قليل الشدة . هذان النوعان اذا شخصا في مبدئهما تمكن الطبيب من مكافحتهما ووصف الدواء لهما فتقصر مدتهما وتقل مضاعفاتهما ويخف تأثيرهما السيء في الجسم وعليه فمعرفة المرض عند ظهوره هو اهم عامل لضمان صحة الفردِ والمجتمع

٥ — وقد اهتمت الدول الغربية بالاستشارة الطبية . ثم توسّعت فيها فاباح بعضها التعقيم الجراحي فيمن ينتظر ان يتركوا ذريةً مريضةً تكون عالةً على المجتمع عديمة الفائدة للوطن فسبقوا في احتياطهم هذا ظهور الامراض في النسل

٦ — والاستشارة الطبيةُ الدوريةُ من أهم العواملِ التي تُنمّي معلوماتِ الاطباءِ فهي لذلك مفيدةٌ لهم افادتُها للأفرادِ . لانها تتطلّبُ مهارةً فنيةً ودقّةً كبيرة في معرفة الامراضِ المبتدئة . لذلك نجد أن كثيراً من الامراض يرجعُ الفضلُ في استئصالِه او تخفيفِه الى الاستشارةِ الطبيةِ الدورية . ومن هذه الامراضِ السلُّ والسرطانُ وهما مرضان خبيثان أصبحا الآن بفضلِ معرفتِهما في مبدئهما أقلَّ خطورةً وأقربَ الى الشفاء عن ذي قبل

٧ — متى يُبدأُ بالاستشارةِ الطبية الدورية ومتى يُنتهى منها ؟ — الجوابُ ان هذه الاستشارةَ يُبدأُ بها منذُ الوضع ويُستمرُّ فيها حتى الوفاة

٨ — ومن هو اجدرُ الناس بالقيام بهـذا العمل ؟ — هو طبيبُ العائلة — لعدةِ اسبابٍ منها (ا) إن اشرافَ الطبيبِ على افرادِ العائلة في اوقاتِ الصحة يزيد كثيراً من عنايته بها أثناء المرض (ب) ان طبيبَ العائلة ادرى بأحوالها الصحيةِ والماليةِ والمعاشيةِ فهو لذلك أكفأ الاطباء في ادارة شؤونها الصحية بأسلوبٍ ظريفٍ كيّس

٩ — وفي بعض البلدانِ كالولايات المتحدة قسائمُ مطبوعةٌ للاستشارةِ الطبيةِ الدوريةِ يملأ خاناتِها الطبيبُ الكشّافُ ويذكر بها الملاحظاتِ والاعراضَ المهمةِ وقتَ الكشفِ ويحتفظُ لنفسه بنسخةٍ منها ويُعطي الطالبَ نسخةً اخرى ينتفع بها وقتَ الحاجة

١٠ — وتتلخص الاستشارةُ الطبية الدوريةُ في وزنِ الشخص (ولهذا مكانتهُ عندَ الاطفال) وقيـاس الارتفـاع ودرجة الحرارة والضغط الدموي وتحليل البول وفحص الهيـكل العظمي والغددِ الليمفاويةِ ووظائفِ الاعضاءِ وارتخاءِ العضلاتِ وسلامةِ الجلد وحركاتِ المفاصل. ومظاهرِ الجسمِ الخارجيةِ . ولا يخفى ان الشكلَ الخارجي كثيراً ما يشيرُ الى امراضٍ كامنةٍ ثم يـفحصُ الرئتان والقلبُ والنبضُ . وتلاحظُ العاداتُ الضارة كالتدخين وتناول المشروباتِ الروحية. كذلك الامراض العائليةالوراثية . ثم تلاحظُ درجة تعرّضِ الشخصِ لامراضِ حرفته . ويفحص الفم للتأ كدِ من سلامةِ الاسنانِ وحالةِ اللوزتين وكذا الانفُ والعينانُ

١١ — هكذا تمسُّ الاستشارةُ الطبية كلَّ جهاتـنا المعاشية . وسأتمشّى مع حضراتِكم على سبيلِ المثالِ . وافرضُ ان اسرة من الاسر اتفقت مع طبيبها الخاصِ ان يقوم بفحصِ افرادِها الصغارِ كلَّ ستةِ اشهرٍ والـكبارَ كلَّ سنةٍ بالمنزل تارةً وبالعيادة تارةً أخرى . مـثلُ هذا الترتيبُ يـُزيل كثيراً من الـكلفة بين الطبيبِ وافرادِ الاسرة ممـا يوسع نطاق اطلاعه على احوالها ويجعلُ لنصائحه منزلةً محترمةً عندَها بصفةٍ خاصة . ويمكنه ايضاً من الاشتراك معهـا في شعورها فيفرحُ لفرحِـها ويأسَـفُ لأسفِـها . إذن ما ذا يـُنتَـظرُ من استشارةِ مثل هذا الطبيب دوريًّـا — هذا هو السؤال الذي سأفسّره لحضراتكم

١٢ — اولُ ما يَـتطرقُ الى ذِهن الطبيبِ انـ يُـلاحظَ مسكنَ العائِـلة وان ينصحَـها باتخاذِ مسكنٍ كثيرِ النوافذِ تدخلهُ الشمسُ له دورةُ مياهٍ نظيفةٍ

١٣ — بعد ذلك تأتي مسألةُ الخدم . فيفحصهُـم قبلَ التحاقهم بالعائلةِ كي يتأ كدُ من عدمِ اصابتهم بامراضٍ معديةٍ او عاهاتٍ تمنعهم من أداءِ اعمالِـهم المطلوبةِ منهم

١٤ — ثم تأتي مسألةُ الاطفالِ . وهؤلاءِ يـُوزنون باستمرارٍ لمراقبة نُـموّهم . وطريقة تغذيتهم وتُـلاحَـظ ملابُـسهم ومحال نومِـهم . واعلموا حضراتُـكم ان كثيراً من امراضِ الاطفال يُـدركها الطبيبُ قبلَ ان تظهرَ للوالدين . من ذلك مرضُ لينِ العظام فان له اعراضاً مبدئية في الاضلاع ونهايةِ العظام تمكّـنُ الطبيبَ من معرفةِ الداءِ في بدايته فيصفُ لذلك الدواءَ والغذاء اللازم وتُـعالجُ الحَـالةُ قبلَ وضوحِها . كذلك مرضُ احدى غدد العنق الذي تصحبـهُ السمنةُ وخشونةُ الجلدِ وقلّـة النّـمو وظهـور اعراضِ الـكسلِ والخمولِ وبلادة الذاكرةِ يمكنُ تداركُـها في اولِـها بسهولةٍ وهناك المرضعةُ التي يجبُ التأكُّـد من خلوّها من الامراضِ المعديةِ ومن جودةِ لبنِـها . هكذا تفيدُ الاستشارة الطبيةُ الاطفالَ

١٥ — بعد ذلك تأتي مسألة تحصين العائلة ضد الامراض . كالتطعيم ضد الجدري والحقن ضد الدفتريا وخلافها كالحمى التيفودية . والطبيب هو الذي يرشد العائلة الى ذلك ويتولى تنفيذه . وهناك امراض كالحصبة يمكن حصرها في الطفل المصاب دون سواه عند ظهورها بحقن الاخرين بمصل يمنع اصابتهم او يخففها على الاقل . اليست كل هذه فوائد لا يستهان بها ؟

١٦ — والالعاب الرياضية ، التي اصبحت الزامية بمدارس بعض البلاد الغربية لما تحدثه من كمال النمو وزيادة مقاومة الجسم والنشاط وتعود النظام في الجلوس والوقوف والمشي واداء الاعمال اليومية . هذه الالعاب هي اهم ما يصفها الطبيب وهي على انواع بعضها يؤدى بالمدارس والبعض الآخر في الاندية الرياضية والمنازل

١٧ — وقد دلتنا التجربة والابحاث العديدة ان لطول الجسم ووزنه وشكل صدره علاقة ببعض الامراض وان الطبيب الكشاف يمكنه ان يصف العلاج والغذاء الذي يزيد في مقاومة الجسم ضد هذه الامراض . فالبدانة وقصر القامة وغلظ العنق كثيراً ما يصحبها زيادة الضغط الدموي . والطبيب الكشاف يراقب ذلك ويمنعه . كذلك الاصابة بالدرن لها علاقة كبيرة بشكل الصدر والطبيب الكشاف يقي مثل هذا الشخص من النزلات الصدرية وخلافه مما يبعد هذا المرض

١٨ — وهناك مسألة العينين التي يجب العناية بها لكثرة الرمد الحبيبي هنا وانتشار قصر البصر الطبيعي . كذلك الاسنان فان تلفها يسبب تقرحات اللسان والتهاب اللثة يحدث التهاب المفاصل المزمن وغيره . فالطبيب يرشد الشخص الى مثل هذه الامور في اولها

١٩ — ثم مرض الكلى والبول السكري كثيراً ما تشاهد اعراضها بالبول دون ان يشعر صاحبهما بالمرض حتى يستفحل امره ويشتد ضرره . وعليه فمجرد تحليل البول باستمرار كثيراً ما يقي الشخص من ويلات هذين المرضين

٢٠ — هكذا تصبح الاستشارة الطبية الدورية درساً نافعاً لافراد العائلة منذ نعومة اظفارهم يفهمهم النافع من الضار ويعلمهم مبادىء علم الصحة ووظائف الاعضاء والحالات النفسانية المتنوعة او بعبارة اوجز يعلمهم قيمة الصحة . قال تعالى (وهل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) صدق الله العظيم

***

لوحظ في هذا المقال (١) الاختصار (٢) بساطة التعبير (٣) اجتناب المصطلحات الطبية

باب المراسلة والمناظرة

لا تقل كريات بيضاء [1]

---

١ : تخطئة رأي

نشر الاديب امين ظاهر خير الله مقالة في المقتطف (٨٧ : ٢٠٩) عنوانها : « أيقال كُريّات بيضاء ؟ » حاول فيها ان يثبت للقارىء جواز قول من يقول « كريات بيضاء » واورد لذلك شواهد لم تُثبت شيئاً مما توخاه من ردّه ، إذ جاءَنا بالفاظ هي اشباه جمع او اسماء جمع او اسماء جنس او احرف هي بين الافراد والجمع فتوهم فيها جماعة الإفراد وتوهم فيها آخرون الجمع وفي مثل هذه الاحوال لا جدال في ان ينعت الموصوف بصفة مفردة او مجموعة

***

وأول شواهده « الكلم » بفتح فكسر وهذه اللفظة اختلف في حقيقتها : أهي جمع ام شبه جمع وللناس فيها مذاهب على كل حال فان مفردها « كلمة » فيجوز في وصفها الافراد او الجمع

وثانيها « الخشباء » فانها هنا منقولة الى الاسمية كما نقلوا الى الاسمية الخضراء والسمراء والزرقاء الى اشباهها

وثالثها « الشيعة » فهي مفردة كما هي جمع حسبما توجه معناها ، ولذا توصف بالافراد كما توصفُ بالجمع . ومثل ذلك ما جاءَ في سورة الشعراء : « ان هؤلاء لشرذمة قليلون » فقد وصفها بالجمع لان مدلولها مجموع ويجوز لك ان تقول شرذمة قليلة لان لفظها مفرد مؤنث

ورابعها « كتيبة » شهباء « وفارسية » خضراء « وسمهرية » سمراء فهذه الفاظ كلها وامثالها مفردة كما يجوز لك ان تقول انها مجموعة اذا نظرت الى معناها فهي كقولك شرذمة قليلون اوشرذمة قليلة

وخامسها « اسم الجمع » ولا مشاحة في انهُ يوصف بالافراد كما يوصف بالجمع ومنهُ الآية في سورة المؤمنين : « فتقطّعوا امرهم بينهم زُبُراً كل حزب بما لديهم فرحون » فيجوز لك ان تقول على رأي النحاة وكل حزب بما لديه فرح على التقدير الذي تريده

---

(١) ارسل الينا العلامة الاب انستاس ماري الكرملي ردّاً مسهباً على مقال الاستاذ امين ظاهر خير الله نشرنا منه ما كان خاصاً بموضوع ، كريات بيض وبيضاء وما جرى مجراها

وسادسها «كل فعلاء واردة لمجموع» فانت مخير في ان تنعت صفته بالافراد او بالجمع . ومنهُ ما جاء في ترجمة الاحنف التميمي وهي العبارة التي استشهد بها الاديب، أمين فقد نقلها بهذه الصورة (ص ٢١٢ من المقتطف) : «هذه الحمراء قد كثرت بين أظهر المسلمين ، وكثر عددهم (اي عدد الحمراء) وهي لفظة بصيغة الأفراد ولكنها تعتبر جمعاً في المعنى ومفرداً في اللفظ . ولهذا تقول كثر عددهم وكثر عددها كما تشاء والظاهر ان ابن ظاهر لم يفهم هذه الحقيقة فكتب بعد «عددهم» كلمة (كذا) كأن ذلك غلط وليس هناك زلل

وسابعها «عرب طاربة وعرب عرباء» فانت في الخيار في التذكير والتأنيث كما قلنا في شرذمة «قليلون وقليلة»

فهذه الشواهد لم تثبت لنا شيئاً وكنا نود ان يأتينا بلفظة مجموعة جمعاً صريحاً وصفتها الافراد ، فاذا اتانا بشاهد مثل نساء سمراء ورجال حمراء لقلنا لهُ اصبت ، لكنهُ جاءنا بألفاظ تحتمل الافراد والجمع فلم يفدنا الفائدة التي كنا نتوقعها من مقالته الطويلة العريضة وبطل الاستدلال بشواهدهِ تلك العُرْج

٢ : الرأي الصحيح

لا مشاحة في ان أفْعَلَ ومؤنثها فعلاء اذا جاءَت صفة لموصوف (لا موصوفاً) ودلَّت على لون او عيب او حلية ، فان كلاً من افعل وفعلاء يجمع على فُعْلٍ بضم فسكون ، وقد يجمع فُعْل عَلَى فُعْلان بضم ايضاً . تقول أَحمر وحمراء وحُمْر وحُمران . اسود وسوداء وسُود وسُودان . ابيض وبيضاء وبِيْض وبِيْضان الى آخر مانقل عن فصحائهم . قال المبرّد في كتابه الكامل (ص ٣٣ من طبعة اوربة وفي ١ : ٢٧ من طبعة مطبعة التقدم العلمية بدرب الدليل بمصر سنة ١٣٢٣) : وابرقُ اذا عَنَيْتَ بهِ المكان مضارعة للاسماء لانها تدل على ذات الشيء ، وان كانت في الاصل نعتاً . تقول في جمعها الاباطح والابارق والاداهم والاساود . فان اردت نعتاً محضاً يتبع المنعوت قلتَ : مررت بثياب سُوْد وبخيل دُهْم وكل ما اشبه هذا فهذا مجراهُ . . .» الى آخر ما قال فراجعهُ ترَ في كلامه ما يسدّ افواه المتحذلقين

واعاد مثل هذا القول في ص ٤٣٨ من طبعة اوربة و ٢ : ٥٨ من طبعة مصر وهذا نصه : «وأفْعلُ ، اذا كان نعتاً بنفسهِ فجمعهُ فُعْلٌ نحو أَحمر وحُمْر واسود وسود . واذا كان نعتاً فاجرى مجرى الاسماء فجمعهُ افاعل نحو أساود وأجادل وأداهم اذا اردت القيد لانهُ نَعْت غالب يجري مجرى الاسماء . وان اردت ادهم الذي هو نعت محض قلت : دُهم . . .» الى آخر ماجاء هناك فيحسن بك ان تقف عليهِ لتردَّ عنك هجمات الصائلين في البيداء بعيدين عن العِدَى . ونحن لا نريد ان نزيد على هذا القدر لما في ذلك من الكلام على غير جدوى

٣ : الخلاصة

الخلاصة مما قلنا : انهُ لا يقال ادلة غراء ولا هضاب ملساء ولا شمائل حَسْناء ولا كَريّات بيضاء إذ كلها اغلاط صريحة صارخة بخطإِها الى عنان السماء . والصواب غُرّ وملس وحسان (لان الحسناء هنا ليست بمؤنث الأَحْسَن بل الحَسَن وهذا خارج عن كلامنا) وكُريّات بيض ولا يجوز ابداً غير هذا بغداد الاب انستاس ماري الكرملي

***

أيقال كريات بيضاء

قلت يقال على انهُ نادر جدًّا والمسألة هي اني لقيت يوماً السيد مصطفى جواد في ادارة المقتطف فقلت له انت والاب انستاس تقولان انهُ لا يجوز قولنا بيضاء وحمراء والصواب بيض وحمر قال نعم فانهُ لا يجوز واتفق مجيء السيد عبد الرحيم بن محمود فقال نعم يجوز فقلت للسيد مصطفى ما هي ادلتك على ذلك فقال ان افعل وفعلاء اذا دلاّ على لون او عيب فانهُ لا يقال في جمعها الاَّ فُعل ثم اخذ يورد الآيات القرآنية دلالة على ذلك منها « صُمٌّ بُكْمٌ عُميٌ » الآية ومنها « من الجبال جددٌ بيضٌ وحمرٌ مختلفٌ الوانها وغرابيب سود » الآية . واورد آيات اخرى فقلت ألم يأت في القرآن الكريم ما يثبت خلاف ذلك قال لا فقال السيد عبد الرحيم هذا صحيح وانما جاءَ في كلام العرب قولهم فعلاء نعت للجميع وانما الآن لا يحضرني امثلة على ذلك. ثم انصرف الاثنان وانا مقتنع ان ما ورد في القرآن الكريم هو الصواب دون غيره . اما الآن فبعد الادلة التي اوردها السيد امين ضاهر خيرالله فاني اقول انهُ يجوز قولنا كريات بيضاء وكريات حمراء على انهُ نادر جدًّا والافصح ان يقال بيض وحمر ومعاذ الله ان ازيف ادلة السيد امين وهو اللغوي القدير وقد كان والده رحمهُ الله اماماً في اللغة وهو مشهور بيننا في لبنان . ولما كان الشيء بالشيء يذكر فاني كنت اخذت على اعضاء مجمع اللغة الملكي قولهم صماء وقلت الصواب صمٌّ ونشرت ذلك في المقطم وهو منشور في مجلة المعهد الطبي العربي الجزء ٢ المجلد ١٠ فلما نشرت مقالتي المشار اليها بلغني ان المجمع قرر في ما قرره الموافقة على نقدي فقالوا الغدد الصمّ لا الغدد الصماء كما قالوا قبلاً . وسينشر ذلك في جزء المجلة الذي يصدر في شهر اكتوبر . ولو فرضنا انهُ يجوز قولنا صماء وبيضاء وحمراء فالافصح ان يقال صمٌّ وبيضٌ وحمرٌ فقد قضينا العمر في « هل يجوز او لا يجوز » فالحياة قصيرة جدًّا فالاصلح قضاءها في ما يكون اكثر فائدة لنا . اما الشرط الثاني للسيد امين وهو قوله ان يكون الرد نقيًّا من المطاعن فهو لا يشملني على ما اظن مصر الجديدة امين المعلوف

ارشاد لغوى

للاستاذ عبد الرحيم بن محمود

لفيفٌ ثالث من أمراض وأعراض بوزن فُعال

إلى الاستاذ الباحث سالم خليل رزق في النبك من سورية

﴿ الكُتاف ﴾ — وجع الكتف « Shoulder-Pain »

﴿ اليُداء ﴾ — وجع اليد وقد يَدِيَ الانسان من يده اذا ذهبت « Amputation »

واليُداء أيضاً يُبْس اليد « Ankylose of Hand »

﴿ الكُساح[1] او القُعاد ﴾ — وهو داء يُقْعِد من أصيب به من انسان أو حيوان « Rickets »

﴿ السُّلاق ﴾ — وله ثلاثة معان في اللغة العربية :— (١) بثر يخرج على أصل اللسان ومرادفهُ بالانكليزية « Glossilis » (٢) تقشّر في اصول الاسنان ومرادفه « Gingvitis » (٣) غلظ الأجفان في احمرار وتقرّح ومرادفه « Conjunctivitis »

﴿ الحُلاق ﴾ — وجع الحلْق « Pharyngitis »

﴿ القُلاح ﴾ — سواد الاسنان ومرادفه بالانكليزية « Dental-Denigration »

والقُلاح أيضاً صفرة أو خضرة في الاسنان أو بينها أو أيُّ تلوّن لها ومرادفه « Dental Coloration »

﴿ الهُناع ﴾ — فسَّره اللغويون بأنهُ داء يصيب الانسان في عنقه وفي أصل المادة اللغوية هَنَع الشيء يَهْنَعهُ هَنْعاً عطفه عطفاً وثنى بعضه على بعض فالداء المراد يثني الرقبة ويعطف بعضها على بعض وهو يحدث من تسوّس في عظام فقرات الرقبة كما يرى الطبيب سامي الياس وغيره من الاطباء ومرادفه بالانكليزية « Pott's Disea.. »

﴿ المُلال ﴾ — ورد في الملاغي لثلاثة معان أولها وجع الظهر ومرادفه « Lumbago ». وثانيها عَرَق الحُمَّى ومرادفه « Perspiration ». وثالثها تقلّب المريض وجعاً « Irritation »

﴿ القُداد أو القُضاع ﴾ — في اللغة وجع في البطن وتقطيع فيه وفي المادة اللغوية قَددْتُ الأديمَ اذا شققته طولاً ومما أرويه

وقدّدت الاديمَ لراهشيه وألفى قولها كذباً ومَيْنا

وتقضّع تقطع تمزّق والمرادف لكل من تين اللفظتين المترادفتين « Colic »

هذا وللطبيب سامي الياس شكر جمّ لعنايته باختيار الالفاظ الطبية المطابقة تمام المطابقة للالفاظ العربية

---

(١) الكساح لين في العظام وينشأ عن نقص في الفيتامينات ويعالج بتوصيلها الى الجسم بتجرعها في الماكل او الادوية وبالتعرض للاشعة فوق البنفسجية كما يرى الاطباء



علم الامراض الباطنية

الجزء الاول امراض الجملة العصبية للدكتور حسني سبح استاذ الامراض العصبية والباطنية في المعهد الطبي العربي

هو كتاب آخر من الكتب النفيسة التي يتحفنا بها بين حين وآخر اساتذة المعهد الطبي بدمشق وقد كتبت قبلاً عن كتب اخرى من مؤلفات اساتذة المعهد وهذا احدها وهو لا يقل عن غيره من المؤلفات الاخرى في نفاسته ودقة بحثهِ. فلا عجب اذا جاء مثل غيره في سبكه في قالب عربي متين وفي مصطلحاتهِ العربية فاذا اطلع عليهِ القارىء وجده كتاباً عربيًّا لا عجمة فيهِ لذلك سيكون نقدي له من وجهة المصطلحات لا من وجهة التأليف لانهُ بلا ريب آخر ما وصل اليهِ العلم في أيامنا

اما طبع الكتاب فحسنٌ جدًّا وهو مطبوع في مطبعة الجامعة السورية في دمشق وحروفه جميلة وأظن الطبع يكون أحسن لو أكثر المؤلف من ضبط بعض الفاظهِ بالشكل الكامل مثل الأُسْر ويراد بهِ احتباس البول حتى لا يلتبس بالأَسر مصدر أَسر والأُسري نسبة الى الأُسرة فان اشكالاً قليلة تزيد في محاسن الكتاب ولا تكلف عناءً كثيراً وفيها فائدة كبيرة ولاسيما ان الكتاب مدرسي فوضع الشكل ضروري جدًّا في بعض الاحيان وهو يدل على شدة العناية في طبع الكتاب وابرازه

اما المصطلحات الطبية فحسنة جدًّا لا يفوقها شيء في جودتها فقد ذكرها المؤلف وذكر امامها الاسم الفرنسي بحروف مضبوطة واضحة ثم وضع جدولاً في آخر الكتاب فيهِ نحو الف وخمسمائة كلمة فيكاد يكون معجماً كاملاً ذكر فيهِ الالفاظ الطبية بالعربية والفرنسية . ومن محاسن الكتاب ان المؤلف ابتعد عن الحذلقة التي كثيراً ما يقع المؤلفون فيها فلم يذكر الاَّ كلمة واحدة عربية لما يقابل اللفظ الفرنسي حتى لا يضيع الطالب في كثرة الاسماء فلا يدري أيها يختار فكلمة واحدة تدلُّ على الاعتماد على النفس . فهذا المعجم على صغره افضل كثيراً من معجم كبير لا فائدة منهُ

على انني لا اوافق المؤلف في الفاظ قليلة جدًّا مثل البالغم واظن الصواب اللنفة وأذكر مناقشة جرت بيني وبين الزميل الدكتور حمدي الخياط في هذه الكلمة فاللنفة اعجمية كذلك البالغم ولا ارى وجهاً لتفضيل لفظ أعجمي على آخر أعجمي مثله سوى ان الواحد قديم لكنهُ لا يؤدي المعنى تماماً . كذلك لا اوافقهُ على الغول واظن الالكحول احسن والحكمي واظن الطبيعي احسن وان شئت فقل الطبعي وهذه فيها شيء من الحذلقة . ولا اوافقهُ على الحيوي واظن الاحيائي احسن. ولو نسبنا الى الجمع . ولا اوافقهُ على الداء الافرنجي واظن السفلس او الحَلَق او الحلاق افضل فالحلق واردة في كتب اللغة لداء يشبه السفلس وشائع في السودان لهذا الداء بعينهِ . وهم يقولون

فلان محلّق اي مصاب بالحلق . ولا ادري أسمّي بذلك لانهُ يصيب النـاس في حلوقهم ام لان احد ادواره يشبه الحلق. على ان الكلمة شائعة جدًّا ولا شبهة في انها افضل من الافرنجي لان قولنا الافرنجي فيهِ مساس ببعض الاقوام

فهذه الفاظ قليلة جدًّا أخالفهُ فيها ولعلَّ الصواب في جانبهِ او لعلَّ الالفاظ التي لا أوافقهُ فيها يكون ما ذكرهُ احسن كثيراً . ثم ان المؤلف ذكر في مقدمة الكتاب انهُ تعلَّم بالتركية فتجد الفاظاً تركية التركيب لا تسيغها القواعد العربية على ان المؤلف انتبه لها في آخر الكتاب واصلحها في التصويبات

وعلى كل فهذا الكتاب نفيس جدًّا لا يفوقهُ شيء في جودتهِ . فأهنئ المؤلف الفاضل على ابرازه لاننا في حاجة شديدة الى امثاله من الكتب الطبية التي يعتمد عليها سواء كان ذلك في لغتهِ او في مصطلحاتهِ

مصر الجديدة امين المعلوف

الفن الاسلامي في مصر

للدكتور زكي محمد حسن

كنا الى عهد قريب لا نقرأ عن الفنون الفرعونية او الاسلامية الاَّ ما كتبهُ المؤلفون الاجانب فهم الذين تناولوا الحفريات في مصر منذ أوائل القرن التاسع عشر وعنوا بوصفها في مؤلفاتهم النفيسة كما تخصصت جماعات منهم لدراسة الآثار المصرية في خلال الاعوام المائة الأخيرة فتسابقوا للكشف عن مخلفات ابناء النيل القدماء وتعمقوا في دراستها فكنا اذا اردنا ان نقرأ شيئاً عن الفنون او الآثار لم نجد ضالتنا الاَّ في كتب الاجانب فنستوحي ما فيها لمتعرَّف الى بلادنا

كان ذلك الى عهد قريب جدًّا لما بدأت الجامعة المصرية توفد من نجباء خريجيها من يتخصص في دراسة الفنون المصرية والاسلامية فأثمرت تلك الشجرة المباركة ووجدنا ضالتنا في المؤلفات الحديثة التي أخرجها ابناء الجامعة في الاعوام الاخيرة

نقول ذلك على ذكر ظهور الجزء الاول من الكتاب النفيس « الفن الاسلامي في مصر » الذي ألَّفه الدكتور زكي محمد حسن الأمين العلمي لدار الآثار العربية . وقد رأينا كتابه الاول « الطولونيون » منذ عامين

ولا يسعني في هذه العجالة القصيرة سوى القاء نظرة سريعة على هذا السفر النادر فقد قسَّم المؤلف بحثه الى قسمين . فتناول في القسم الاول نشأة الفن الطولوني في سامرَّا . وانتقاله الى مصر لما تولى احمد بن طولون حكم البلاد المصرية . ووصف لنا بوضوح العمارة الدينية والمدنية والحربية في عهد ذلك الملك المستقل ، وصور لنا ما كانت عليهِ مدينة القطائع التي جعلها عاصمة ومقر ولايتهِ وحلَّل لنا بأسهاب تصميم جامعهِ العظيم وهو الأثر الاسلامي الذي ما زال حافظاً رونقه كما شيده مهندسه العراقي الذي قدم الى مصر في ركاب ابن طولون على ما يرجحهُ المؤلف

وفي القسم الثاني تناول المؤلف الكلام عن الفنون الفرعية التي نشأت في مصر منذ الفتح العربي الى العصر الطولوني فتكلم عن المنسوجات والحفر على الخشب والخزف والتصوير الخ. ثم زين الكتاب بمجموعة نفيسة جداً من الصور النادرة التي جمعها بين تحف دار الآثار العربية والمتاحف الاجنبية في برلين ولندن وباريز كما ابدعت مطبعة دار الكتب في اخراج كتاب يعد مثالاً كاملاً للذوق والاتقان

ويزيد الكتاب قدراً تلك الصفحات الست التي ذكر فيها الدكتور المصادر التي يجب على الدارس الاعتماد عليها اذ اراد التوسع في البحث وكلها مراجع لها قيمتها لدى طلاب الفنون والآثار الاسلامية .

واذا كان هناك ما نؤاخذ عليه المؤلف الفاضل فهو اغفاله للتاريخ الهجري واقتصاره على التاريخ المسيحي وان بحثاً مثل هذا يجب ان يشمل التاريخين . كذلك اقتصاده في الكتابة عن جامع عمرو وقد رأى المؤلف انهُ لم تعد له قيمة كبيرة من الناحية المعمارية الاسلامية للزيادات العديدة التي غيرت معالم الجامع الاول . ولم يذكر المؤلف شيئاً عن مقياس الروضة الذي يعد اقدم أثر اسلامي في هذه البلاد ***

المعلم الجديد

مجلة تصدرها وزارة المعارف العراقية اربع مرات في السنة . العدد الثاني حزيران ١٩٣٥

رئيس تحريرها الدكتور متى عقراوي يعاونه جماعة من السادة والسيدات

من شاء ان يعرف شيئاً عن النهضة العلمية في الدولة العراقية الفتية وشيئاً عن اخلاق العراقيين فما عليهِ الاَّ قراءة هذه المجلة وتصفح ما فيها ليعلم مقدار رقي تلك البلاد فقد قرأتها من اولها الى آخرها فرأيت فيها بياناً موجزاً لوزير المعارف معالي محمد رضا الشبيبي وهو اديب مشهور وعالم كبير من علمائهم وجه فيهِ خطابه الى موظفي المعارف وحثهم على ما يطلب منهم وهو بيان حقه ان يكتب بماء الذهب لما فيهِ من النصائح الرشيدة

ثم مقالة لمدير المعارف العام الدكتور محمد فاضل الجمالي بعنوان « في اهداف التعليم » في العراق وكنت اود ان أُلخصهُ وانما سأقتبس شيئاً منهُ قال: « ان الهدف الرئيسي للتعليم يجب ان يكون خلق امة قوية مرصوصة البنيان منيعة الجانب ذات مزايا شخصية ممتازة وذات استعداد مادي ومعنوي تستطيع ان تجاري امم الارض في مضمار التقدم والحضارة وتستطيع ان تقدم الى البشرية جمعاء ما عندها من مزايا مادية ومعنوية ولاجل ان تتوصل الى هذا الهدف يجب ان تتوافر فيها الشروط التالية »

ثم اخذ يسرد هذه الشروط واولها معرفة النفس وانهُ يجب على الطفل في المدرسة ان يمارس الاخلاق القومية ويتحلى بها وان النظام والاحتياط اساسيان في تقوية الامة ومجاراتها لامم العالم . وقال في الامة العربية الكبرى انها امة ذات نزعة روحية . ثم ذكر صفات العربي ومنها عزة النفس

واباء الضيم والعفة والشجاعة والايثار والكرم والشهامة ، والمقالة كلها على هذه الصورة حث على المبادىء الصحيحة القويمة

ثم مقالة « في فتح طريق الحج البري الجديد » لحسن فهمي بك رئيس شعبة الادارة في مديرية الشرطة العامة . ومقالة اخرى « في طريق الحج البري » بقلم محمد درويش المقدادي مدير الثانوية المركزية وصف فيها هذا الطريق وصفاً مسهباً مستعيناً بما دوَّنهُ الرحالة المستشرق موزل ومستشهداً بالذين كتبوا عنها مثل ابن خرداذبه وابن جبير وابن بطوطه . ويلاحظ في هذه المقالة ان المؤلف لم ينسب شيئاً الى نفسه بل ذكر الاسانيد كلها شأن العلماء المحققين اي انه لم يسرق شيئاً ومعاذ الله ان يفعل فان سرقة الادب داء استفحل امره في الشرق فبعمله هذا كان قدوة لتلاميذه

ثم مقالة « في نظام المعارف في انكلترا وويلز » ترجمة بشير الياس اللوسي المدرس في الثانوية المركزية . ومقالة « في العرب واكتشاف اميركا » وهو بحث لعالم الماني مترجم عن الفرنسية. ومقالة « في اهمية النهضة الصناعية والتربية الصناعية في العراق » لمحيي الدين يوسف مراقب التعليم الثانوي. ومقالة في « الادب الشعبي » للسيدة سارة الجمالي . ومقالة « في الاتجاهات الحديثة » في علم الحساب للدكتور داود القصير استاذ الرياضيات في دار المعلمين ومقالة « في صفات المدرسة الصحية » للدكتور شريف عسيران استاذ الصحة في دار المعلمين الريفية ومقالة « في المدارس الابتدائية الريفية في ايطالية » وهي مقتبسة من مجلة العهد الجديد في البيت والمدرسة ومقالة « في اصل الانسان » لابراهيم شوكت مدرس الجغرافية بدار المعلمين الثانوية المركزية ومقالة مبتكرة « في المعارف العراقية في خمس عشرة سنة » للدكتور متى عقراوي بيَّن فيها سير المعارف في العراق . ومقالة عنوانها « اوقات الفراغ نعمة ونقمة » لفاضل حسين المعلم في المدرسة الخيرية ببغداد ومقالة « في المدرسة واصلاح القرية » لعبد المجيد محمود مدير معارف لواء المنتفك ومقالة « في مكافحة الخرافات بتعليم العلوم » لحكمت عبد المجيد ملاحظ الترجمة والتأليف بوزارة المعارف

ثم يلي ذلك نقد الكتب منها الجغرافية المتوسطة وحياة محمد وعلم الحيوان وعلم الاجتماع ومقدمة التربية وقوانين الالعاب الاولمبية ومجلة المعلمين والمعلمات والشعلة والفتوة والتربية البدنية والكشافة

ونقد هذه الكتب نقد نزيه كما يجب ان يكون النقد بلا تحامل على المؤلفين ولا اطراء كما نجد نقد الكتب في كثير من المجلات. ويلاحظ ان بين هذه المجلات مجلة الفتوة فهي في غير معناها في الازبكية فالفتوة معناها مكارم الاخلاق لا ضرب العصي والتعدي على الناس . هذه هي الفتوَّة في العراق

والخلاصة ان هذه المجلة من انفس المجلات العربية فجميع المقالات التي فيها من الطبقة الاولى فكلها ذات فائدة وحث على الاخلاق الكريمة. فأهنىء وزارة المعارف العراقية باصدارها .

مصر الجديدة امين معلوف

كتاب فرناند ليبريت

اغاني البحيرة

ظهر اخيراً ديوان من الشعر الفرنسي للاستاذين الشاعرين (فيرناند ليبريت) مفتش اللغة الفرنسية بوزارة المعارف والثاني للاستاذ (فيشتر) مدرس اللغة الفرنسية بمعهد الليسيه بالاسكندرية والديوانان لهما نفحة خاصة من الشعر المصري وفيهما طائفة شائقة من الخواطر عن مصر دعانا للحديث عنهما حث المطلعين بالادب الفرنسي من المصريين المثقفين على ترجمة هذه الآثار القيمة التي فيها روح جديد تدخل على الشعر العربي نواحي جديدة مستحبة وانني هنا اعبر تعبيراً بسيطاً عن استحقاق هذه الآثار من وجهة التخليد ولولا العجز لقمت بهذا الواجب الادبي الصميم

يحملها اليّ حفيف الاشجار . وهمس الاصوات الخافتة . بل هذه الاصوات الناعمة التي خمدت. ويحملها اليّ مع ذكريات الطفولة العذبة المؤثرة ومع الحزن الذي يوافق اعيادي . ان هذه الاصوات تكاد تسمعني خرير المياه المتدفقة على طيات الجرانيت في الحدائق العليا لبيوتنا القديمة في هذه الساعة التي يترك فيها النسيم شعاعاً بنفسجيًّا على اجفان العذارى الحارة . وفي هذه اللحظات التي يتصاعد فيها بخور لهُ رائحة البذور الممزوجة بدم الشهداء . شهداء الحرب العالمية الكبرى في ساحات الوغى . ان اغاني البحيرة قد اودعت في نفسي زهيرات الماضي . ومزجت بذاكرتي رائحة اشلاء الجثث البريئة يهب عليها نسيم حبيبتي الجميلة

تسلمت كتاب (فرناند ليبريت) المحتوي على طائفة من القصائد الشعرية عن ثلاث نواحٍ . بعضها عن شباب الشاعر . وبعضها عن ذكرياته في الحرب الكبرى . والبقية الاخيرة تصور عاطفة الشاعر في تأثره بالحياة المصرية وتعبيره عن هذه الحياة باسلوب جذاب وخيال متمرد

ولقد تمكن ليبريت بدقة تصويره ورقة عاطفته ان يجعلنا نحيا ساعات مضت كانت سماء مصر فيها وردية حائلة اللون . لا تستطيع ان تجد لها شبيهاً اليوم الاَّ لون خدود العذارى اللائي لا مسحة على سيماهنَّ من الزينة

تقول وقد اضرَّ بها التنائي	واقلق بالهـا صرفُ الزمان
تسمَّعْ ياظلومُ رجاء نفسي	كفاني ما اعانيه كفاني
أعِدْ لي بهجة العيش المولّي	وايام الهناءة والتداني
فبين يديك كنت تركت امي	واترابي واودعت الاماني
تصورك الخيال وكنت وسنى	فانساني خيالك ما دهاني
شعرت بكفه مسحت جبيني	من الهم الملازم والهوان
لهي ان احلامي تناهت	عساني بالغ املي عساني ؟

حشود الذكريات عليَّ تترى وما لي حين القاها يدانِ

لو قدرنا ان الموسيقى فن امتزاج الاصوات ليخرج منها مقطعات في مكنتها ان تنقلنا الى عالم آخر فيهِ نشوة ولذة يرتاح اليهما العقل وتسمو بنازع الشعور . ولو قدرنا ان المصور هو الذي تنعكس في عينيهِ الاشياء والمعالم والصور بطريقة ذاتية فتخرج برنين مؤثر جذاب . يمكننا ان نؤكد انهُ لم يوجد لليوم في مصر — وقد لا يوجد — مصور ابهراو موسيقار أقدر من هذا الرجل ذي الملامح الحادة وذي الابتسامة الهادئة . الذي يهزنا شعره هزًّا عنيفاً ويحز في القلوب حزًّا . . . وتكاد اغانيه الشعرية تقبل كلها كالقافلة . من صميم البيداء . تحفها التموجات الموسيقية الهادئة

احمد راسم

الفن في مصر

« المصورون والمثالون في مصر الحديثة » — تأليف الاستاذ موريك بران

لا يستطيع احد الاَّ ان يعترف بان مصر قد خطت في سبيل الحضارة والرقي خطوات واسعة شملت جميع نواحي الحياة فيها . ولكن ناحيةً منها لا يعرفها الجمهور معرفة حسنة مع انها ناحية مهدها وادي النيل ونشأتها على ضفافه ونعني بها فن التصوير وفن الحفر

ومن يتتبع حركة التطور الفكري والفني في مصر يمكنهُ ان يدرك المدى الذي بلغتهُ هذه الحركة فيها وتقدم ذوق الجمهور الفني . فقد كونت مصر لنفسها شخصية فنية يعتد بها ونجح المعهد الذي انشىء في القاهرة سنة ١٩٣٠ نجاحاً عظيماً حتى ان هيئة التعليم في مدرسة الفنون الجميلة المكونة من اعلام الفن المشهود لهم بطول الباع سواء في مصر او في ايطاليا او في فرنسا يعربون عن سرورهم بالنتائج التي يفوزون بها . وقد كثرت المعارض الفنية في القاهرة كثرة دلت على ما للمصورين المصريين من مواهب . وان مصر لتعقد عليهم الامل في ان يحيوا تراث اجدادهم وان يبرهنوا للعالم ان ارض الفراعنة لها مستقبل فني لا يقل عظمةً عن عظمة ماضيها الفني المجيد

ان الطبيعة والشمس في وادي النيل لا تكتفيان فقط بالهام الشعراء والكتاب بل تتغلغل وتصل الى اعماق نفس كل فنان فتبعث فيهِ ما يحرك قلمهُ او ريشته فيخرج لنا هذه الآيات الفنية التي تشاهدها في معارض القاهرة او في معارض روما او باريس

ولا بد لنا من ان نعترف بجميل اولئك الذين عضدوا هذه الحركة وعاونوا على احيائها بتشجيعهم لها تشجيعاً ماديًّا ومعنويًّا وعلى رأسهم صاحب الجلالة الملك فؤاد الاول الذي يبذل كل مجهود في سبيل رقي بلاده . كذلك لا يمكننا ان نفي جمعية محبي الفنون حقها من الثناء على ما قامت به من تشجيع للفنانين وإمدادهم بالمال في ثبات ونظام . وان في عناية صاحب الجلالة الملك بافتتاح المعرض

السنوي الذي تقيمه الجمعية كل عام لاعترافاً لهذه الجمعية بأفضالها على الفنون

وقد اخرج لنا المسيو « موريك بران » المدرس بكلية الآداب والسكرتير العام لجمعية محبي الثقافة الفرنسية سفراً نفيساً في هذا الموضوع درس فيه المظاهر العديدة لتقدم الفنون في قطرنا وفي هذا السفر الجميل وعنوانه « المصورون والمثالون في مصر الحديثة » جمع المؤلف ثلاث دراسات ومقدمة بقلم المسيو « اندريه دي لوموي » رئيس تحرير جريدة البورص اجيبسيين كما الحق به اربعة وعشرين صورة لاشهر المصورين في مصر

***

وليست قيمة هذا السفر الذي وضعه المسيو « موريك بران » في استعراض الفنانين وما اخرجوا من آيات فنية وانتقادها انتقاداً صحيحاً بل هي في تحليله لها وبحثه عن مصادر الهام الفنان ووحيه اذ هو يشرح لنا شعور الفنان واحساسه ونظرته الى الفن وليس هذا بأيسر الامور

ولقد اثنى على هذا التحليل في مقدمة الكتاب المسيو « اندريه دي لوموي » فقال : ان المسيو « موريك بران » لم يفصل بين الفنان وما اخرج فهو قبل ان يشرع في انتقاد التحفة الفنية كان يدرس مصدرها ووحيها في شخصية الفنان ، في تكوينه وفي نماذجه او فيما يعجب به . وقد كلل عمله بالنجاح دائماً »

وفي الواقع اننا عند ما نقرأ صفحات هذا الكتاب الجليل نفهم البواعث التي حملت فنانين مثل « كامّيو انوشنتي » او « ناجي » او « محمود سعيد » او « مختار » او « آيمي نمر » او « افاديسيان » او « منصور » او « زكي خليل » او غيرهم على التصوير او الحفر

ودراسة المسيو موريك بران للمصور « نيروني » دراسة وافية تعطينا فكرة واضحة دقيقة عن التحف الفنية التي اخرجها هذا الفنان الذي يتأثر بالطبيعة وبجمالها المختلف تأثراً قويًّا فينقلها الينا في صوره الرائعة

والمسيو « موريك بران » لا يعتبر الفن مجرد نقل عن الطبيعة او تقليد لها وانما هو خلْق وتعبير . فالواقع ان صور الفنان « نيروني » تعبر من عوالم خيالية وبلاد جميلة لا نشاهدها الاَّ في الاحلام

كذلك اثنى المسيو موريك بران على المصور « فرج منصور » ثناء عظيماً فهو يعجب : كيف استطاع هذا الفنان ان يجمع بين التناسب في الخطوط والانسجام في الحجوم وبين العظمة والنبل والبساطة معاً . انهُ يمت الى طبقة الفنانين في عهد الفراعنة وقد تمكن بموهبة غريبة ان يجعل الاشكال الهندسية حيةً بل تخفق حياة »

وعلينا ان نثني على المسيو « موريك بران » وعلى كتابهِ هذا الجليل . فقد استطاع ان يبعث فينا الايمان بابدية مجد مصر الفني .

صبري فهمي

عمر بن ابي ربيعة

عصره وحياته وشعره

بقلم جبرائيل سليمان جبور — الجزء الاول (عصر ابن أبي ربيعة) — ٢١٢ صفحة بحجم المقتطف — طبع بالمطبعة الكاثوليكية ببيروت

اذا ذكر الشعر الغزلي في الادب العربي برز اسم عمر بن ابي ربيعة من خلال القرون البعيدة التي مرّت على وفاتهِ في مقدمة شعراء العربية قاطبة فهو حامل لواء هـذا النوع من الشعر ، وهو مؤسس المدرسة الواقعية في الادب العربي وإن سبقهُ امرؤ القيس والنابغة الذبياني بقليل من الشعر كان بمثابة الاساس الذي أقام عليهِ عمر دعائم مدرسته . ولقد كان عصر هذا الشاعر من العصور الحافلة بالحوادث الهامة في تاريخ الامة العربية . كان عصر انقلاب وثورات وتغيير في نظام الحكم الشوري وتحوله الى حكم ملكي متوارث ، وكان لهذه التغييرات اثرها في وطن الشاعر وفعلها في شاعريته

وقد عالج الاستاذ جبرائيل سليمان جبُّور أحد اساتذة الدائرة العربية في جامعة بيروت الاميركية هذه الشخصية بدراسة تحليلية تقع في ثلاثة اجزاء تبحث في عصره ، وحياته ، وشعره ، وأصدر منها الجزء الاول في عصر عمر بن أبي ربيعة في أسلوب بديع ينم على بصيرة نقّاده ونفّاذة وذهن منظم متمكن من موضوعه دارسٍ له ملمٍّ بأطرافه

عرض المؤلف في هذا الجزء حالة العصر الذي عاش فيهِ هذا الشاعر من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والعلمية والادبية ، وأبان عن مظاهر كل حياة من هذه بتوسُّع وإحاطة ، وأظهر ما لكل منها من الأثر في الجوّ الذي عاش فيهِ عمر

واعطانا المؤلف في الحياة الاقتصادية صورة من أثر المال الذي أغدقه بنو امية على اشراف الحجاز ليصدّوا الشباب منهم عن إحداث الفتن ، وليلهوهم بهِ عن التطلع الى المناصب والاعمال ، وليمهّدوا لهم سبل اللهو والهوى ، فكان أن تغيرت الحياة الاجتماعية تغييراً رفع بالمرأة العربية الى حياة جديدة ، إذ أخذت النساء تلبس القمص الاسكندرانية الرقيقة والثياب القوهية المعصفرة تكاد تشفُّ عن اجسادهنّ — كما يروي الاصبهاني وابن عبد ربه — وجعل لمجالسهنَّ روحاً غريبة يظهر أثرها في شعر عمر كقوله يصف حديثاً بين صاحبته ورفيقة لها :

وأشِفـِّي البرد عنك له كي تَـشُـوقيه اذا نظرا

وقد توسع المؤلف في باب الحياة الاجتماعية فأظهر كل التطورات التي طرأت على الامة العربية ونقلتها الى دور جديد

ثم انتقل الى الحديث عن الحياة الدينية والعلمية فأبان ان التطور الاجتماعي بلهوه وانسه وعبثه وترفه لم يكن يمنع اهل الحجاز عن الالتفات الى الناحية الجدية من حياتهم والنظر في الانقلاب الديني العظيم نهض بجزيرتهم تلك النهضة القوية برسالة النبي (صلعم) فقاموا بتدوين القرآن والحديث

والبحث فيما كان يقضي به رسول الله في بعض الامور ، وما يمارسه في بعض الفروض . وكان لهذه الحركة الدينية اثرها الكبير في عادات القوم واخلاقهم فألانت من طباعهم ، وظهر هذا الاثر في ادبهم فتأثر بكثير من تعابير القرآن ومعانيه وتراكيبه ، وكان اثر هذه كلها ظاهراً في شعر عمر ، في حين لم يكن فيه اثر للحياة العلمية البحتة كالطب والفلسفة والمنطق وما شابه ذلك ، اذ كانت هذه الحركة بعيدة عن الحجاز

وأما عن الحياة الادبية في ذلك العصر فقد اوضح المؤلف الظواهر الاربع التي تبدو للباحث بعد التطورات الجديدة التي طرأت على هذه الامة . وهذه الظواهر كانت هي الصبغة الغالبة على لون تلك الحياة . فالظاهرة الاولى هي شيوع الشعر عن النثر وقوته على البقاء اكثر منه . والظاهرة الثانية هي رواج الادب وخاصة الشعر وشدة الصلة بينه وبين عامة الناس الى درجة لم يبلغ اليها في عصر غير هذا العصر ، فلقد كان بعض الخلفاءِ والأمراءِ والولاة رواة للشعر ، محبّين لأهله ، نقّاداً لهُ ، حكاماً بين قائليه . وكانت الظاهرة الثالثة الخصومة الأدبية التي قويت في هذا العصر فأنتجت أدباً خاصّاً حتى طغت هذه الخصومة فكاد يقضي أصحابها على غيرهم من الشعراء ، وذكر المؤلف انواع هذه الخصومات وأثر الشعراء في الفتن

أما الظاهرة الأخيرة فكانت في إقليمية الأدب ، إذ كان يختلف أدب قطر عن قطر . وقد ضرب المؤلف الأمثلة على ذلك من أدب كل قطر حتى انتقل الى أدب الحجاز حيث كان يختلف هو الآخر باختلاف المدن ايضاً ، فكان في الطائف حيث الطبقة الارستقراطية المرحة العابثة المنزوية عن أعين العمال والرقباء غير ما كان في المدينة مسرح المغنين الجواري حيث فشا المجون . وكان في مكة — مقام عمر — غيره في هاتين المدينتين ، إذ كانت حياة الدعابة والعبث واللهو في مكة مقرونة بشيءٍ من التحفظ والحيطة فلم يقوَ العبث فيها ولم ينتشر المجون ، وكان شعرهم بالرغم من إباحيتهِ يبدو وعليهِ مسحة من العفة ، وهناك تصدر الزعامة عمر بن أبي ربيعة . وكما كانت هذه هي ألوان الشعر في هذه المدن الثلاث كان في بادية الحجاز ذا لون آخر حيث مال الكثير من شعرائهِ الى التقوى والعفة والطهر وعُرفوا بالحب العذريّ كما يبدو في شعرِ جميل وإن تلوّنَ بعض شعرهم بألوان الآخرين للاشتراك معهم في مواسم لهوهم من ناحية ، ولشيءٍ من اللهو يُسّر لهم في موطنهم فبدت صورتهُ في اشعارهم

هذه كلمة سريعة عن هذا الكتاب تدل على الجهد الذي بذلهُ المؤلف والنجاح الذي اصابهُ . وكان بودنا أن يتنبه المؤلف الى الخطأ الذي وقع في عنواني الكتاب — الرئيسي والفرعي — حيث وضع الخطّاط ألِفاً (لابن) وهي بين اسمين ، وحرّك الكلمة نفسها في مكان آخر بالضمّ وهي في موضع الجر في جملة (عصر ابن ربيعة) حتى لا تصدم مثل هذه الاخطاء نظر القارىء في غلاف الكتاب

حسن كامل الصيرفي

خصائص اللغة العربية

تأليف حبيب بك غزالة — صفحاته ٣٢ من القطع الكبير — طبع بالمطبعة العصرية بمصر

رسالة نفيسة وفق حبيب بك غزالة في تصنيفها ووضعها كل التوفيق ، وهي عبارة عن بحث في اللغة العربية الفصحى والعامية ، وما يقابل خصائص الفصحى في غيرها من اللغات الأفرنجية ، وتجلية ما امتازت بهِ هذه اللغة من غزارة المادة واساليب البلاغة والبيان ، واتى بخلاصة وافية لآراء بعض العلماء والائمة في اللغة مثل جلال الدين السيوطي والجواليقي وغيرهما ، وابان ما امتازت بهِ اللغة من الخصائص فشرح المترادفات والجملة الاعتراضية والتصريف وغيره واظهر فضل الحروف الهجائية وخصائصها وما يقابلها في الحروف الأفرنجية

وختم رسالته بفصل ممتع عن اللغات العربية العامية واظهر ان اللغة العربية لم يصبها ما اصاب غيرها من اللغات من التغيير والتحويل ، وما عراها من الشوائب لم يغيّر شيئاً من جوهرها ، وحصر هذه الشوائب في ست نقط وشرحها باسهاب . فيجدر بجماعة المتأدبين وطلبة المدارس الثانوية ان يطلبوا هذه الرسالة التي تضم بين دفتيها فوائد جمة

مطبوعات جديدة

ضاق نطاق باب مكتبة المقتطف عن النظر في معظم الكتب التي وردتنا وفيما يلي بيان بالمطبوعات الحديثة التي سوف ننظر فيها في الشهر القادم وما يليهِ

الزراعة العلمية الحديثة — للامير مصطفى الشهابي
الاسلام الصحيح — لمحمد اسعاف النشاشيبي
تطور النثر العربي — للاستاذ انيس المقدسي
القاهرة الجزء الثاني — للملازم الاول عبد الرحمن زكي
السودان في ثلاثة مجلدات — لعبد الله حسين
المقدس : الجزء الاول — لنقولا الحداد
افلاطون الى ابن سينا : للدكتور جميل صليبا
المفصل : لاحمد عطية الابراشي

اوراق البردي العربية : للاستاذ ادولف جروهمان
النجوم الزاهرة الجزء الخامس للاتابكى
نهاية الأرب السفر الحادي عشر للنويري
الاغاني الجزء السادس والسابع للاصفهاني
وادي النطرون لسمو الامير عمر طوسون
اليزيدية قديماً وحديثاً لاسماعيل بك جول
قصص جغرافية للاطفال — لكامل كيلاني
تاريخ اوربا والمسألة الشرقية لجورج حداد

باب الأخبار العلمية

مؤتمر المستشرقين لسنة ١٩٣٥

عقد مؤتمر المستشرقين هذه السنة في روما من يوم ٢٣ سبتمبر الى ٢٩ منهُ

والمعلوم أن هذا المؤتمر يأتي اليه العلماء المشتغلون بالمشرقيات ليتعارفوا ويتفاوضوا ويحاضروا ، والمشرقيات تعم الصين واليابان والهند وجميع المدنيات الشرقية قديمة وحديثة وكلامنا هنا عما يختص بالاسلام ذلك بانَّا لم نستطع الاَّ مراقبة ما جرى في شأنه

الحق انَّ عدد المشتغلين بالاسلام الذين وفدوا الى المؤتمر لم يكن بالغفير ، ومما لاحظنا انهُ ما من انجليزي اتى من بلاده وان هولنديًّا واحداً جاء الى روما . وقد نسب الناس ذلك الى الخلاف الذي بين انجلترا وايطاليا ثمَّ الى استعداد هذه للحرب . واما مصر فقد مثلها الدكتور طه حسين والاستاذ مصطفى عبد الرازق خير تمثيل

ان عدد الذين حاضروا يبلغ زهاء عشرين وقد وقعت طائفة من المحاضرات موقعاً حسناً نذكر منها محاضرة الاستاذ طـه حسين باللغة الفرنسية في « بعض ملاحظات على كتاب البديع لابن المعتز » جاء فيها باستدراكات لبقة على ذلك الكتاب الذي طبعهُ المستشرق الروسي كراتشكوفسكي . ومحاضرة الاستاذ (الالماني) تيشنر Taeschner في «حظ الصوفية في تأليف جماعات الفتوَّة» ، ومحاضرة الاستاذ (الانجليزي من اورشليم) فيشيل Fischel في « الادارة المالية ايام العباسيين » ، ومحاضرة الاستاذ (الايطالي) جويدي Guidi في « اليزيدية » ، ومحاضرة الاستاذ (الفرنسي) ماسينون Massignon في « العناصر الاسماعيلية في شعر المتنبي » ، ومحاضرة الدكتور بشر فارس باللغة الفرنسية في « مكارم الاخلاق الاسلامية » ، ومحاضرة الاستاذ (الفرنسي) ماسيه Massé في « الشياطين والجن في معتقدات ايران الشعبية » ، ومحاضرة الاستاذ الايطالي نلينو في الطبعة الحديثة لتاريخ المسلمين المستشرق اماري Amari ومحاضرة الاستاذ (الفرنسي) بيريس Pérès في « الحب الرقيق والحب العذري في الاندلس في القرن الحادي عشر »

وختمت المحاضرات بمناقشة كادت تكون حادةً دارت حول توحيد اسلوب رسم الحروف العربية بالحروف اللاتينية . وكان الاستاذ (الألماني) بروكلمان Brockelmann صاحب كتاب تاريخ الآداب العربية قد قدم اقتراحاً بهذا فاجتمع العلماء لبحثه وكانوا يناقشون الاستاذ بروكلمان في التفاصيل فيرد عليهم الرجل ردًّا سديداً مقنعاً تارة بالفرنسية واخرى بالانجليزية واخرى بالألمانية فدلَّ على براعته وقوة حجته

ومما نأخذ على مثل هذه المؤتمرات ان المستشرقين يلقون محاضراتهم بلغاتهم المختلفة اي بالانجليزية والالمانية والفرنسية والايطالية والاسبانية والحق ان المشتغل بالمشرقيات ينبغي

لهُ ان يعرف هذه اللغات . الاَّ ان معرفة لغة اي القدرة على فهمها قراءةً لا تستوجب القدرة على فهمها سماعاً ولا سيما ان المحاضرين يسرعون في الكلام اسراعاً ولربما اتفق لهم أن يخفضوا الصوت أو ان يخفوا مخارج الكلمات . فلِمَ لا تلقى المحاضرات باحدى هاتين اللغتين الشائعتين البيّنتين في آنٍ اي الفرنسية والانجليزية ؟ وهنالك مأخذ آخر . ذلك ان معظم المحاضرين في هذا المؤتمر جاوزوا المدة التي ضُربت وهي عشرون دقيقة، فترتب على هذا خلل في مواعيد المحاضرات الأُخرى . ومما يذكر هنا ان الشرقيين اللذين حاضرا — وقد تقدم اسماهما — لم يجاوزا تلك المدة

وبعد انقضاء المؤتمر بما فيه من محاضرات ومناقشات ونزهات دبّرتها الحكومة الايطالية قرَّ رمن قرَّ ر أن مؤتمر المستشرقين المقبل سيعقد بعد سنتين او ثلاث او اربع في بروكسيل عاصمة البلجيك . وكان اقترح بعضهم مصراً فأعرضت الآذان لاسبابٍ نكره ان نذكرها م

هل حقن الاكسجين ينقذ حياة الغرقى

يؤخذ من مباحث طبيب هندي يدعى الدكتور سنج يقوم بمباحث علمية طبية في جامعة كمبردج احياناً وكلية رانغون الطبيعية احياناً اخرى ان حقن الاكسجين في العروق قد يكون السبيل لانقاذ حياة الغرقى او المصابين بنوع خاص من النزلة الشعبية او غيرها من الحالات التي يصعب فيها التنفس على المريض

فقد تمكن هذا الطبيب من الاحتفاظ بكلب حيًّا مدة ١٦ دقيقة بحقنه بهذه الحقن مع ان الكلب ظلَّ خلال هذه المدة لا يتنفس الاكسجين عن طريق الرئتين . وكان ضغط الاكسجين المحقون في العروق ثلاثة اجواء . ولولا خطأ في اسلوب الحقن لاستمرت التجربة اكثر من ١٦ دقيقة . وقد نشرت مجلة اللانست الطبية هذا النبأ وعلقت عليهِ بمقال افتتاحي . والخطوة التالية هي تطبيق هذه التجربة على الناس

تصحيح خطأ

في الصفحة الثانية من السطر ١٦ من محاضرة الدكتور شوشة بك عبارة : ومقدار الغاز يحسب بالميلغرامات في سنتمتر مكعب . وصحتها المتر المكعب . وفي خريطة افريقيا وتقسيمها السياسي التي صدَّرنا بها العدد اهمل المصور وضع العلم المصري الى جانب العلم البريطاني في السودان فاقتضى التنبيه

العناية بالصحة الشخصية

بقية المنشور على الصفحة ٤٠٨

٩ — ﴿ المآكل . الموائد . والمقاعد ﴾ : زيادة في النظافة ومحافظة على هندام الملبس وقوام الجسم ونشاطة ابتكر المصريون الموائد والمقاعد . كما انهم استعملوا الملاعق . وهذه الادوات مع الاطباق والكوبات تعتبر من اسس الصحة في المآكل والشرب لانها عامل مهم كفيل بمنع انتشار الامراض بين الآكلين . وبعد تناول الشراب اعتاد القوم ان يمسحوا افواههم بالفوطة الكثيرة الشبه بالحرمة الحديثة وان يتقدم الخادم بها قائلاً « شفاء وعافية »

١٠ — ﴿ الرياضة البدنية ﴾ عني بها المصريون القدماء عناية عظيمة . وقد فصلنا الموضوع في محاضرة سبق للمقتطف ان نشرها

١١ — ﴿ المظلات ﴾ كلنا نعرف شدة

حرارة الصيف في مصر وعظم الحاجة الى الوقاية من اخطارها . والى عهد قريب كان المعروف ان المظلات ابتكار حديث لكن الآثار اظهرت لنا انها مصرية قديمة كما يشاهد في الرسوم المرفقة . وهي على نوعين نوع بسيط فطري عبارة عن درع كبيرة يحمله تابع ونوع مستدير مرفوع على قائمة يثبت احياناً في العجلاب لوقاية الراكب من حرارة الشمس . وهذا الاخير كثير الشبه بالشمسية الحديثة . ومقبرة توت عنخ امون تحوي مظلة كبيرة من هذا الشكل كان جلالته يجلس تحتها وهي منصوبة الآن في دار تحف القاهرة

١٢ — ﴿ دورة المياه ﴾ استعمل القوم الماء البارد والدافىء للاستحمام . وفي عهد المملكة الحديثة (١٥٥٥ — ٧١٢ ق . م) كان كل منزل يحوي حجرة حمام وحجرة مرحاض . والاثنتان ملاصقتان لحجرة الزينة او مجاورتان لحجر النوم وارضهما وجدرانهما مكسوة بالبلاط الجيري المصقول . وتحوي حجرة الحمام حوضاً للاستحمام (ارمان ص ٢٠١ كتابه عن مصر) شبيهاً بما هو مستعمل الآن يقف فيه الشخص ويصب عليه الماء من اعلى بواسطة خادم مختبيء وراء حجاب . اما المرحاض فيتكون من مقعد مقعر قليلاً لراحة الجالس مصنوع من الحجر الجيري المصقول مفتوح فتحة مستطيلة كالمراحيض الحديثة . وهذا المقعد مرفوع على جدارين صغيرين وعلى جانبي المقعد مربعان صغيران مملوآن رملاً يرمى به بواسطة مغرفة على المواد البرازية لتغطيتها[1] وحجرة الزينة « التواليت » الملاصقة والحمام والمرحاض كلها مدهونة باللون الابيض الناصع اظهاراً لنظافتهما . وتخصيص امكنة لكل من الحمام والمرحاض وحجرات الزينة برهان كاف على مبلغ رقي القوم وقتئذ وخطوة كبيرة نحو تدبير صحة المنزل

***

اما الصابون فلم يكن مستعملاً عند قدماء المصريين . واقدم ما عثر عليه هو في مدينة بومباي (Pompei) . وروى اليوناني Aretaeus ان اليونان تعلموا صناعة الصابون من الرومان . ولا يبعد ان يكون المصريون استعملوا الدقاق (وهو مسحوق الترمس) لنظافة اجسامهم كما كان مستعملاً الى عهد قريب

١٣ — ﴿ حجرة النوم ﴾ المنازل الراقية تحوي حجرات خاصة للنوم . ولكل فرد منها سرير وورد على الآثار رسم لحجرة نوم تحوي سريراً لكبير وثلاثة اسرة لاطفال . وكل سرير يحوي وسادة و « منشة » ومسند للرأس كما هو واضح بالرسم . كل هذه الاجراءات تكفل الراحة في النوم لكل فرد وتمنع العدوى بين افرد العائلة (ارمان عن مصر)

١٤ — ﴿ الحشرات المنزلية ﴾ اهتم المصريون بابعاد هذه الحشرات عنهم محافظة على صحتهم وعلى مأكولاتهم فاوردوا الوصفات لابادة البراغيث برش ماء النطرون « ايبرس ٧٥٠ — ٨٤٠ » ووصفات لمنع لدغ النحل « ايبرس ٨٤٥ — ٨٤٦ » واخرى لابعاد الفيران « ايبرس ٨٤٧ » كما اهتموا ايضاً بتعطير منازلهم وملابسهم « ايبرس ٨٥٢ »

(١) مجلة العاديات المصرية سنة ١٩٢٣

الجزء الرابع من المجلد السابع والثمانين

٣٩٣ المتفجرات الحربية والبحث العلمي
٣٩٩ الغازات الحربية : للدكتور علي توفيق شوشه بك (مصورة)
٤٠٩ الشاعر والمرأة (قصيدة) : لعلي محمود طه
٤١١ محدب الفضاء : لنقولا الحداد
٤١٨ النشوء والارتقاء (قصيدة) : لعبد الرحمن شكري
٤١٩ غزل المتنبي : لخليل شيبوب
٤٢٨ آراء الباحثين في اصل الشعور الديني : للدكتور عبد الرحمن شهبندر
٤٣٤ العناية بالصحة الشخصية في العهد الفرعوني : للدكتور حسن كمال
٤٤١ تجديد الادب : لحليم متري
٤٤٧ المعادن والتبعات الدولية
٤٥١ تأثير العلم في الفلسفة الحديثة والفكر الحديث : لطه الباقر
٤٥٨ مقام دراسة الشرق في معاهد الولايات المتحدة الاميركية : لادورد جرجي
٤٦٢ الاسطول والبحرية ايام محمد علي : للدكتور علي مظهر
٤٦٧ هي الدنيا (قصيدة) : لرشيد ايوب
٤٦٨ مفردات النبات : لمحمود مصطفى الدمياطي
٤٧٣ سير الزمان * قناة السويس : للملازم الاول عبد الرحمن زكي . طبيعة الحبشة الجغرافية : ملخص فصل للمسيو سكتا. ملخص تاريخي لصلة الحبشة باوروبا . الدستور السوفياتي : للاستاذ وليم بنت منرو
٤٩٧ التربية الاجتماعية والصحية * متى يغتفر الكذب : لشاكر الحنبلي . تحريم السرقة . الاستشارة الطبية الدورية : للدكتور حسن كمال

٥٠٧ المراسلة والمناظرة * لا تقل كريات بيضاء : للاب الكرملي . أيقال كريات بيضاء : للدكتور امين باشا المعلوف . ارشاد لغوي : للاستاذ عبد الرحيم بن محمود
٥٠٧ مكتبة المقتطف * علم الامراض الباطنية . الفن الاسلامي في مصر . المعلم الجديد . كتاب فرنا ندليبزبت . اغاني البحيرة . الفن في مصر . عمر بن ابي ربيعة . خصائص اللغة العربية . مطبوعات جديد
٥٢١ باب الاخبار العلمية * مؤتمر المستشرقين لسنة ١٩٣٥ . هل حقن الاكسجين ينقذ حياة الغرقى

قائمة سلسلة المطبوعات العصرية

التي عنيت بنشرها « ادارة المطبعة العصرية » بشارع الخليج الناصري رقم ٦ بالفجالة بمصر

م

- ٣٥ القاموس العصري انكليزي عربي (طبعة ثانية)
- ٧٠ « « (طبعة ثالثة)
- ٧٠ « « عربي انكليزي (طبعة ثانية)
- ٣٥ « المدرسي عربي انكليزي وبالعكس
- ٣٠ قاموس الجيب عربي انكليزي وبالعكس
- ٢٠ « « عربي انكليزي فقط
- ١٥ « « انكليزي عربي فقط
- ٧٠ « سقراط سبيرو عربي انكليزي (باللفظ)
- ٥٠ « « « انكليزي عربي (باللفظ)
- ١٠٠ « « « « « وبالعكس
- ١٠ التحفة المصرية لطلاب اللغة الانكليزية (مطول)
- ١٢ الهدية السنية لطلاب اللغة الانكليزية (باللفظ)
- ١٠ الف كلمة ألماني (لتعليم الالمانية بسهولة)
- ١٥ في اوقات الفراغ (للدكتور محمد حسين هيكل بك)
- ١٠ عشرة ايام في السودان « « «
- ١٢ مراجعات في الادب والفنون للاستاذ عباس العقاد
- ١٥ روح الاشتراكية (لغوستاف لوبون) وترجمة (الاستاذ محمد عادل زعيتر)
- ١٥ روح السياسة « «
- ١٠ الآراء والمعتقدات « «
- ١٠ اصول الحقوق الدستورية « «
- ٨ الحضارة المصرية (لغوستاف لوبون)
- ١٥ حضارة مصر الحديثة (تأليف كبار رجال مصر)
- ١٠ الحركة الاشتراكية (رمسي مكدونلد)
- ١٥ ماقي السبيل في مذهب النشوء والارتقاء
- ٨ اليوم والغد (الاستاذ سلامه موسى)
- ١٠ مختارات « «
- ٨ نظرية التطور وأصل الانسان « «
- ٢٠ اناتول فرانس في مباذله ، للامير شكيب ارسلان
- ١٥ الدنيا في امريكا (للاستاذ امير بقطر)
- ١٠ المرأة الحديثة وكيف نسوسها (عبدالله حسين)
- ١٠ جريمة سلفستر بونار (اناتول فرانس)
- ٥ المرأة بين الماضي والحاضر
- ٥ مركز المرأة في شريعتي موسى وحمورابي
- ١٥ حصاد الهشيم (للاستاذ ابرهيم عبدالقادر المازني)
- ١٠ قبض الريح (« « « « «)
- ٨ نسمات وزوابع شعر منثور مصور
- ١٠ رسائل غرام جديدة (سليم عبدالواحد)
- ١٠ الغربال في الادب العصري (ميخائيل نعيمة)
- ٥ حكايات الاطفال ، اول (مصور بالالوان)
- ٥ « « ثان « «
- ٥ « « ثالث « «
- ٥ تذكرة الكاتب طبعة منقحة لاسعد خليل داغر
- ٢٥ جمهورية افلاطون (للاستاذ حنا خباز)
- ٦ مراقي النجاح (الارشمندريت بشير)
- ٥ مريم المجدلية (موريس ميترلنك)

م

- ١٠ التربية الاجتماعية (للاستاذ علي فكري
- ٥ خواطر حمار (الاستاذ الجمل)
- ٥ التعليم والصحة للدكتور محمد بك عبد الحميد
- ١٥ الحب والزواج (للاستاذ نقولا حداد)
- ١٥ ذكراً وانثى خلقهم « « «
- ٥٠ علم الاجتماع (جزآن كبيران) « «
- ١٥ اسرار الحياة الزوجية « «
- ٣٠ الامراض التناسلية وعلاجها للدكتور فخري
- ٢٠ المرأة وفلسفة التناسليات « «
- ٢٠ الضعف التناسلي في الذكور والاناث «
- ١٥ الزنبقة الحمراء (للاستاذ احمد الصاوي محمد)
- ١٠ تاييس « « «
- ٥ مكايد الحب في قصور الملوك (اسعد خليل داغر)
- ١٠ القصص العصرية (٨٠ قصة كبيرة مصورة)
- ١٠ مسارح الاذهان (٣٥ قصة كبيرة مصورة)
- ١٢ رواية اهوال الاستبداد ، مصورة
- ١٠ « فاتنة المهدي ، او استعادة السودان
- ٨ « الانتقام العذب (اسعد خليل داغر)
- ٥ « فقر وعفاف (للاستاذ احمد رأفت)
- ١٢ « باريزيت ، مصورة (توفيق عبد الله)
- ١٢ « غرام الراهب او الساحرة المجدورة
- ٧٥ « روكامبول ، ١٧ جزءاً (طانيوس عبده)
- ٢٥ « ام روكامبول ، ٥ اجزاء «
- ٢٠ « باردليان ، ٣ اجزاء «
- ٢٠ « الملكة ايزابو ٤ اجزاء «
- ٢٠ « الاميرة فوستا ، جزآن «
- ٢٠ « عشاق فنيسيا ، جزآن «
- ١٦ « الساحر العظيم ٤ اجزاء «
- ١٦ « كابيتان ، جزآن «
- ١٦ « الوصية الحمراء ، جزآن «
- ١٦ « بائعة الخبز «
- ١٢ « فلمبرج ، جزآن «
- ١٠ « فارس الملك «
- ١٠ « ضحايا الانتقام «
- ٨ « المرأة المفترسة «
- ٥ « المتنكرة الحسناء «
- ٥ « مروضة الاسود «
- ٥ « شهداء الاخلاص «
- ١٦ « دار العجائب جزآن (نقولا رزق الله)
- ١٠ « فرنسوا الاول « «
- ١٠ « الجنون فنون « «
- ٨ « حورية « «
- ٨ « الغلامان الطريدان « «
- ١٢ يسوع ابن الانسان (جبران خليل جبران)
- ٥ النبي (« « «)
- ٥ آلهة الارض (« « «)



أبدع مثال للجمال المصرى القديم

— تمثال الملكة نفرتيتي —



المقتطف
مجلة علمية صناعية زراعية
الجزء الخامس من المجلد السابع والثمانين

١ ديسمبر سنة ١٩٣٥ — ٥ رمضان سنة ١٣٥٤

ذرع الفضاء

والاعلام التي يعتمد عليها في القياس

اذا وقف قائد على قمة اكمة وحدق بنظارتهِ في اشباح متحركة عند السفح، استطاع ان يعلم بوجهٍ عام هل هذه الاشباح فرقة من المشاة او من الفرسان وهل جنودها مردة او اقزام . كذلك ربان السفينة التي ترود شواطىء معينة ، يتعلم بالمرانة ، ان يتبين المنائر المختلفة من شدة ضوئها ، او ما تتصف بهِ خاصة في فترات الاضاءة والظلمة . وعلى منوال القائد والربان نجد علماء الفلك المحدثين ، يحاولون النفوذ الى اسرار الفضاء، بالتحديق في تلك المنائر الكونية العجيبة — نعني النجوم المتغيرة

معظم النجوم في الفضاء تضيء ضوءًا لا تغير في قدره ، لان ما ينتاب النجوم من الاحداث بوجهٍ عام ، يستغرق عصوراً متطاولة قبل ان يبدو اثره في حجمها او كتلتها او ضوئها . ولكن العلماء اكتشفوا في العصور الحديثة ، نجوماً يتغير مقدار ما تطلقهُ من الضوء تغيّراً ظاهراً في فترات منتظمة . فما كادت هذه الظاهرة تكشف وتحقق حتى اضطرب لها الفلكيون ، ثم لما تعلموا كيف يستندون اليها في حل بعض الالغاز الكونية ، رحّبوا باكتشافها ايما ترحيب . ذلك انهم باعتمادهم على خصائص هذه النجوم المتغيرة ، تغلغلوا ايما تغلغل في رحاب الفضاء ، وتمكنوا من ان يعيدوا رسم الخريطة الكونية ، على وجه ادق وأوفى ، مما اتيح لها قبل اكتشافها

فالنجوم المتغيرة ، في عرف الفلكيين المحدثين والمعاصرين ، بمثابة ، المتر والذراع ، تمكنهم من ذرْع الفضاء

يعرف هذا الضرب من النجوم ، باسم « المتغيرات القيفاوية » Cepheid Variables نسبةً الى النجم المعروف باسم « ذلتا قيفاوس » وهو اشد هذه النجوم اشراقاً مما يرى منها بالعين المجردة . ونجمة القطب متغيرة قيفاوية كذلك

هذه النجوم قد تكون حُمْراً او مبياضّة ، او صفراً ، ولكنها على اختلاف الوانها ، تنبض نبضاً منتظماً كأن كلاً منها قلب كبير ينقبض وينبسط . او كأنها شعلة من الغاز ، تمدها حنفية تفتح وتقفل في فترات منتظمة ، فاذا فتحت كبرت الشعلة ، واذا اقفلت ضؤلت الشعلة حتى تكاد تنطفي. اما فترة التغير فتختلف باختلاف النجم ، او باختلاف صنفهِ ففترة النجم المعروف باسم « ذلتا قيفاوس » ، خمسة ايام ونصف يوم ، وهي خاصّة ثابتة من خصائصهِ ، وهو يتميّز بها

ويؤخذ من مباحث الفلكيين ان اشراق النجم الحقيقي متصل بفترة تغيّرهِ . فالنجم المتغير الذي فترة تغيُّرهِ ، ثماني ساعات ، يبلغ اشراقهُ مائة ضعف اشراق الشمس . اما النجم المتغير ، ذو الفترة الطويلة ، فيفوق اشراقهُ اشراق الشمس الوف الاضعاف . وقد يبلغ طول فترة التغيُّر في نجم ما مائة يوم ، فيفوق اشراقهُ اشراق الشمس ٣٠ الف ضعف . فاشراق النجم يزداد بازدياد فترة التغيُّر

فاذا عرفنا طول فترة التغيُّر ، في نجم من النجوم ، عرفنا مقدار اشراقهِ بالقياس الى غيرهِ من المتغيّرات القيفاوية . ثم ان بعض هذه النجوم ، قريب منا يمكن قياس بعدهِ عنا بطريقة اختلاف الزاوية . فاذا اتخذنا نجماً من هذا القبيل اساساً للقياس ، وعرفنا الصلة بين طول فترة التغيُّر ومقدار الاشراق ، استطعنا ، ان نعيّن بطريق غير مباشرة ، بُعد المتغيّرات القيفاوية المختلفة واشراقها بمعرفة فترات تغيُّرها

***

والظاهر ان النجم المتغيّر ، المعروف باسم « ميرا » كان اول نجمٍ متغيّر عرفهُ الانسان ففي سنة ١٥٩٦ كان الفلكيُّ الهولندي داقيد فابريكيوس ، يرصد السماء ، فدهش دهشاً عظيماً ، عند ما رأى في صورة قيطس (الحوت) نجماً ، آخذاً في التضاؤل ، حتى غاب عن بصرهِ . ثم زاد دهشهُ واستفحل ، عندما رأى النجم نفسهُ ، في ليالٍ تاليةٍ وقد اخذ اشراقهُ يزداد حتى صار من اشد النجوم لمعاناً في رقعة الفضاء . والمسلَّم بهِ عند علماءِ الفلك الآن ، ان ميرا نجم متغيّر ، يكون من نجوم القدر الثاني ، اذا بلغ اقصى اشراقهِ ، ويضؤل حتى يصبح من نجوم القدر التاسع ، اذا بلغ ادنى اشراقهِ

وما اشرف القرن التاسع عشر على نهايتهِ ، حتى كان العلماء قد كشفوا عن عشرة نجوم او اثني عشر نجماً متغيراً . اما الآن ، وقد ادرك العلماء ، ما لهذه المتغيرات القيفاوية ، من المكانة في علم الفلك الحديث ، وما لها من الاثر في النفوذ الى بعض اسرار الفضاء ، فقد اصبح البحث عنها ، من اهم فروع الرصد الفلكي ، وقد بلغ عدد ما رصد منها حتى الآن نحو سبعة آلاف نجم ، كشف معظمها في مرصد جامعة هارفرد الاميركية

قد يكون اول سؤال يخطر للقارىء في صدد هذه النجوم ، عن الباعث على تصرفها هذا التصرف العجيب . فاذا كان القارىء يعلّق شأناً عظيماً بالردّ على هذا السؤال فانهُ ولا ريب ، مقضيٌّ عليه بخيبة الامل ، لانَّ العلماءَ ما زالوا مختلفين في ذلك . فالعلاّمة ادنغتن ، يرى ان الباعث على ذلك ، كون النجوم في توازن غير مستقرّ . وشابلي الاميركي يذهب الى ان هذه النجوم قد تكون في حالة اهتزاز ، وان اهتزازها يصحبهُ تغيُّر في حرارتها وحجمها ولونها . اما جينز فيقول ان المتغيرات القيفاوية ، ليست الاَّ نجوماً ، في دور الانشطار ، على مثال ما تنشطر الخلية خليتين . ولكن ليكن تفسير حالتها هذه ما كان ، فان خاصتها الاساسية التي تمكننا من معرفة ابعادها ، بمعرفة اشراقها المستخلصة من قياس فترة تغيُّرها ، ظاهرة من اخطر الظواهر في علم الفلك الحديث

***

ادرك العلماءُ اولاً مكانة المتغيّرات القيفاوية في علم الفلك ، لما لاحظت المس لڤِت Miss Leavitt سنة ١٩١٢ في مرصد هارڤرد ، ان فترة التغيّر في ألمع النجوم المتغيّرة في «غيمة مجلاّن الصغرى» Lesser Magellanicc Cloud اقصر من فترة التغيُّر في النجوم المتغيّرة الضئيلة . ولما كانت جميع النجوم في « غيمة مجلان » على بُعد واحد من الارض ، فالاختلاف في اشراق النجوم ، لا يمكن ان يسند الى الاختلاف في بُعدها عن الراصد ، ولا يمكن ان يفسر الاَّ بالتسليم ، بان بين النجوم اختلافاً حقيقيًّا في اشراقها . فافضى اكتشاف المس لڤِت الى القول بان مدى فترة التغيُّر يختلف باختلاف مقدار الاشراق ، فالنجوم التي فترات تغيُّرها قصيرة ، اقل اشراقاً حقيقيًّا من النجوم التي فترات تغيُّرها طويلة

كان شابلي Shapley حينئذٍ شابًّا في العشرين من عمرهِ ، يشتغل بعد تخرجهِ في مرصد جبل ولسن ، فادرك في الحال قيمة هذا الاكتشاف ومقتضياتهِ . فقال في نفسهِ ، اذا كان لدينا نجمان متغيّران ، س و ص ، في ناحيتين مختلفتين من الفضاءِ ، وثبت من رصدهما ، ان فترتي تغيرهما واحدة فلا بدَّ ان يكون اشراقهما الحقيقي واحداً كذلك . فاذا كان ثمة اي اختلاف بينهما في اشراقهما البادي لعين الراصد ، فسبب ذلك الاختلاف ، انما يكون الاختلاف بينهما في بعدهما عنا

ومع ان العلماءَ كانوا ميّالين ، في البدءِ ، الى السخرية من رأي ، الفلكيّ الناشىء ، تمكن شابلي ، بذكائهِ وصبرهِ ، من تأييد رأيهِ ، فأقنع علماء الفلك ، بان المتغيّرات القيفاوية ، بمثابة أعلامٍ منصوبة على طريق الكون نقيس بها أبعاده

فالمتغيُّرات القيفاوية منثورة في رحاب الفضاءِ ، لا تؤثر ناحيةً منهُ على اخرى . وتبيّنها سهل على من أخذ نفسهُ بأسباب العلم والمرانة ، يعرفها كما يعرف الربّان كل منارة على الساحل الذي يجوبهُ . فاذا رأى الربّان نور منارةٍ ، وعرف المنارة ، رجع الى خريطتهِ ، فيعلم منها قوة ضوئها . كذلك الفلكي ، يسهل عليهِ ، ان يعرف ، مقدار الاشراق في احدى هذه المتغيرات ، من رصده فترة

دورانها . ثم بالقياس الى ابعاد المتغيرات التي قيست أبعادها بطريقة اختلاف الزاوية او غيرها من الطرق الفلكية ، يستطيع ان يعرف بعد المتغيرة القيفاوية الجديدة

وليس لدى الفلكي الآن ، وسيلة أخرى ، توازي هذه الوسيلة ، في تمكينهِ من قياس الابعاد في ارجاءِ الفضاءِ القاصية

***

وما مضى شابلي في بحثهِ حتى تبين لهُ ان هذه النجوم المتغيّرة بعيدة عنا بعداً ساحقاً يجعلها خارج الكون ، كما كان يتصوّرهُ علماءُ الفلك في مطلع القرن العشرين فاقتضت النتائج التي بلغها ان يعاد النظر في تقدير حجم الكون وشكلهِ

فلما أُتقن الاسلوب الجديد في تقدير أبعاد النجوم ، رأى شابلي ان يطبقهُ على معرفة حجم المجرّة . فحوّل عنايتهُ الى العناقيد النجمية ، التي تحتوي على طوائف كبيرة من هذه المتغيرات القيفاوية . ومنها نحو مائة عنقود قائمة جميعاً عند اطراف المجرّة

هذه العناقيد تكون منتشرة لا شكل لها اذا كانت داخل المجرة ، ولكنها ترى مركّزة ، كأنها عناقيد كثيفة غير مستطيلة من العنب اذا كانت خارجها . والواقع انها اذا اخترقت المجرّة في خلال سيرها، مزّقها الجذب كل ممزّق فتبدو منتشرة وليس لها شكل معين . لذلك في وسع الباحث ان يقول ان العناقيد المركّزة ، بمثابة الحدود القصوى للمجرّة

على ان النجوم المتغيرة في هذه العناقيد المركّزة بعيدة جدًّا ، فلما بحث شابلي في الابعاد التي قدرت لها في الماضي على ضوء العلم الحديث ، ظهر انها خطأٌ ومبنية على التخيل في الغالب . فثمة عنقود يعرف في الخرائط النجمية باسمٍ مركب من حروف وارقام هي N. G. C. ٧٠٠٦ وهو يبعد عنا مائتي الف سنة ضوئية ، اي ان الضوء السائر بسرعة ١٨٦ الف ميل في الثانية لا يجتاز المسافة بيننا وبينهُ الاَّ في مائتي الف سنة !

فلما أتم شابلي بحثه في حدود المجرة على الاساس المتقدم ، رسم لنا صورة جديدة لها ، واضعاً كل عنقود من العناقيد النجمية التي تناولها بحثه في المكان الخاص به . واذا المجرة في رسمه هذا قرص من النجوم اشبه ما يكون بحبة من العدس او بساعة الجيب . ونظامنا الشمسي ، ليس في مركز المجرة كما ظن الفلكيون المتقدمون بل يبعد عنهُ نحو ٥٠ الف سنة ضوئية

واذاً فشمسنا ليست قلب المجرة ، بل هناك كتلة نجمية كبيرة في كوكبات الرامي والحواء والعقرب ، هي في الراجح هذا القلب . الاَّ ان مركز المجرة محجوب عن انظار مراقبنا لبعده من ناحية ولان حجاباً كثيفاً قاتماً من المادة يحول بيننا وبينه . فنحن لا نستطيع ان نرى ذلك المحور الذي تدور حوله شمسنا واربعون الف مليون شمس اخرى ، بسرعة ٢٠٠ ميل في الثانية ، ولا تتم دورتها حوله الاَّ في مائتي مليون سنة . وقد يكون المرقب الجديد ، الذي قطر مرآتهِ مائتا بوصة

(اي ضعف قطر المرآة في مرقب مرصد جبل ولسن) عوناً جديداً للعلماء على توسيع نطاق ما يعرفونهُ عن مركز المجرَّة . فالقوى الكونية ، والجاذبة منها بوجهٍ خاص ، تخترق الغيوم المادية السود ، وتفعل في حركات النجوم ، وقد يمكننا هذا المرقب الجديد ، من تبين حقائق جديدة عن هذا المركز ولو بقي محجوباً عن عيوننا

ومع ان الدكتور شابلي يرى ان المضيَّ في البحث مدة اربع سنوات او خمس ، قد يميط اللثام قليلاً عن اسرار مركز الكون ، الاَّ انهُ يتخيَّل من الآن انهُ قد يكون في ذلك المركز شمس جبَّارة ولا كالشموس ، تدور حولها المجرَّة كما يدور النظام الشمسي حول الشمس . ولكن نظرية اينشتين تعيّن حدوداً للاجرام الفلكية لا يمكن ان تتعدَّاها في ضخامتها . فمنكب الجوزاء او يد الجوزاء Betelgeuse اضخم شمس عرفت مقاييسها حتى الآن ، ومادتها تكفي لنشوء ٢٥ مليون شمس من حجم شمسنا منها . فوجود شمس اكبر كثيراً من منكب الجوزاء في مركز الكون، من المستحيلات بحسب نظرية اينشتين . الاَّ ان مجموعة الشموس المركزة في منطقة المركز ، تفعل كأنها شمس واحدة

***

ان المتغيرات القيفاوية التي مهَّدت للعلماء السبيل الى قياس ابعاد المجرَّة ، والنفوذ الى مقر مركزها ، فتحت عيونهم كذلك ، على مدى الخليقة الكونية . ففي السنوات الاخيرة ، رصد العلماء ، بمرقب جبل ولسن ، السدم اللولبية التي خارج مجرتنا ، وقد كانت تحسب ، قبل عقد او عقدين من السنين ، غيوماً منتشرة من الغبار الكوني ، فثبت من رصدها ان فيها نجوماً متغيرة كذلك . فسديم المرأة المسلسلة ظهرت فيها نجوم متغيّرة لاشك فيها . فثبت من رصد هذه المتغيّرات ان السدم مجموعات ضخمة من النجوم التي لا ترى لبعدها ، ثم ظهر من قياس فترات تغيُّرها ، ان السدم تبعد عن اطراف مجرتنا مئات الالوف بل الملايين من سني الضوء . فبالاستناد الى هذا الضرب من القياس تبين ان سديم المرأة المسلسلة يبعد عنا ٨٠٠ الف سنة ضوئية . فلما مضى العلماء في البحث ، ظهر ان المرأة المسلسلة اقرب ما عرف من هذه السدم ، وان السدم الاخرى ابعد منها عنا . نعم انهم لا يستطيعون ان يتبينوا نجوماً متغيرة او غير متغيرة في سائر السدم ولكنهم يعتمدون الآن على وسائل اخرى تختص بشكل السديم وضوئهِ تمكنهم من تقدير ابعادها . والامل هنا ، كالامل هناك ، معقود على المرقب الجديد . فانهُ ولاشك سوف يمكن العلماء من التدقيق في تعيين ابعاد المليوني السديم المعروفة الآن ، علاوة على كشف ملايين من السدم الاخرى ، لم يتح لعين مرقب ان تراها حتى الآن

***

ولعلنا نستطيع حينئذٍ ، ان نكشف الستار قليلاً عن القوى الهائلة المتفاعلة في رقعة هذا الكون العظيم !

معجم الاستاذ فِشر

الدكتور بشر فارس

إنَّ لغتنا هيهات ان تعوزها المعاجم ، ففي طليعة آثار العربية المطبوعة امثال « الجمهرة في اللغة » لابن دُرَيْد ، و « الصحاح » للجوهري و « اساس البلاغة » للزمخشري و « القاموس » للفيروزبادي و « لسان العرب » و « تاج العروس » ، اذا استثنيت المعجمات المرتبة على المعنى نحو « المخصَّص » لابن سِيدَة . وثمَّة ما لا يزال مخطوطاً كجانب من « كتاب العين » للخليل [1] وجزء من « المجمل في اللغة » لابن فارس [2] فضلاً عما عفا أثره مثل « العُباب » للصاغاني (او الصغاني) . وهذه المعاجم النفيسة تثبت الالفاظ والتراكيب الفصيحة ، وربما اتفق لطائفة منها ان تشير الى المصطلح والدخيل والعامي في مِعْرَاض الكلام . غير انها صعبة المتناوَل الاَّ على المتفقه في اللغة البصير بأساليب البحث ، ذلك بأن مواد بعضها مرتبة على مخارج الحروف نحو « الجمهرة في اللغة » او بأن المادة الواحدة مدرجة على غير تنسيق نحو « لسان العرب »

***

وقد فطن اهل اللغة للقرن الماضي الى وعورة ملتمس هاتيك المعاجم فراحوا يصنفون ما هو ادنى منالاً ، فكان « محيط المحيط » للبستاني الكبير و « أقرب الموارد » للشرتوني وغيرها على ما جرى في مطاويها جميعاً من الاوهام والسقطات

وهل اكتملك ان نفراً من المستشرقين نحوا ذلك النحو فسهلوا لابناء جلدتهم مطلب لغتنا ، فكان معجم (لِين) Lane الجزيل فائدة ومعجم (فْرَيْتَج) Freytag وأصحابهم ؟

بيد ان ارتقاء فقه اللغة اخذ بأيدي المشتغلين باللغة الى غير هذا ، ذلك ان الامر آل بهم أن يعدّوا اللغة كياناً يموت ويحيا ويتحوَّل ويبعث ، فأقبلوا ينظرون في نشوء اوضاعها وانقراضها على تعاقب الايام كما ينظر علماء الارض في ارتفاع نواحيها وانخفاضها على كرّ الزمان . فللغة تاريخ كما أنَّ للامة الواحدة تاريخ

---

(١) نشر الاب انستاس الكرملي جزءا من « كتاب العين » عدد صفحاته ١٤٤ . فعسى ان يمضي نيته على أتمام نشره (٢) طبع الجزء الاول من « المجمل في اللغة » في مصر (مطبعة السعادة) سنة ١٩١٤

وبهذا الحكم قد سلّم علماء العربية من عهد بعيد : افلا ترى كيف تكلموا على « نقل » الالفاظ من معنى الى معنى وعلى « ذهاب » تراكيب و« هجران » أخرى ؟

الاَّ ان لغتنا لاتضمُّ بين كنوزها معجماً تاريخيًّا يرد اللفظة الواحدة الى اصلها في اللغات السامية أو يدفعها الى اخواتها فيهنَّ ، ثم ينحدر باللفظة من الجاهلية حتى عهدنا هذا، ممهلاً حيث يتسع المعنى ، مسرعاً حيث يضيق ، وعكّازه في انحداره شواهد مستخرجة من أمَّات التآليف والمراجع العُمَد

أما الفرنجة فما ابطأُوا ان أخرجوا لاقوامهم معجمات تلك صفتها . وحسبي ان ادلَّك على معجم (ليتريه) Littré الفرنسي والمُصنَّف حجة بل بنيان !

ذلك عمل ضخم أقبل عليه المستشرق الالماني الاستاذ (فِشِر) A. Fischer وهو من أعضاء مجمع اللغة العربية الملكي . وقد سبق لي أن حدثتك عن ذلك العالم عند الكلام على مزايا الذهن الالماني[1] ولتجدنَّ في الاقبال على مثل ذلك العمل دليلاً آخر على ما سقته لك هنالك :

***

أخبر الاستاذ (فِشر) عالَمَ الاستشراق بعزمه على تصنيف معجم تاريخي للغة العربية سنة ١٩٠٨ في مؤتمر المستشرقين المنعقد في (كوبنهاجن) ثم سنة ١٩١٢ في مؤتمر المستشرقين المنعقد في (أثينه)

ثم انهُ نشر سنة ١٩١٨ في مجلة « الجمعية الالمانيــة الشرقيــة » Zeitschrift der deutschen Margenlaendischen Gesellschaft (ج ٧٢ ، ص ١٩٩ وما يليها) مقالاً اثبت فيهِ مبلغ معجمهِ في ذلك العهد ورغب الى اصحابهِ من المشتغلين بالمشرقيات ان يمدوه بما تصل اليهِ ايديهم

***

وبعدُ فقد اتفق لي في الشهر الذي خلا ان اشخص الى مدينة لَيْبْتْسِشْ Leipzig حيث يقيم الاستاذ (فِشِر) . فلم يسعني الاَّ ان التقي الرجل واطارحهُ الحديث في معجمه . فاذا بهِ يخبرني انهُ أتمَّه وان الجزازات التي بين يديهِ تبلغ الف الفٍ وخمسمائة الف . ثم سمح لي بالوقوف على جانب مما دوَّنهُ تدويناً فاذا الذي أراه يهزّني : يأتي المصنّف باللفظ العربي ويذكر مفاده بالفرنسية والانجليزية ثم يردفهُ بما يجانسهُ في السريانية والأكدية والعبرية والحميرية وما اليها، ثم يذكر المعاني المختلفة اذا كان اللفظ « مشتركاً » ، ثم يبسط دقائق كل معنى من حيث موقع اللفظ في سياق الكلام . وهيهات أن يرسل القول ارسالاً ، فهو يحتج في كل موطن بنصوص قبولها مبني على الضبط والوثوق . واستناده الى الشعر الجاهلي فالقرآن فالحديث فتآليف المؤرخين الأولين امثال

(١) انظر «المقتطف» اكتوبر ١٩٣٥، ص ٣١٠

الطبري والادباء السابقين كمثل ابن المقفع واشعار المخضرمين والاسلاميين والطبقة الأولى من المولَّدين . فانك ترى أَن ما جمعه لا يعدو القرن الثالث للهجرة

هذا وقد انتفع المصنف بما عمله من قبل اضرابه من علماء اللغة أَمن العرب كانوا أم من الاعاجم . الاَّ انهُ لا يعوّل عليهم من طريق مباشر ، وبيان ذلك أَنهُ ان اصاب عند القوم معنى لم يظفر بهِ في المؤلفات التي استند اليها اشار اليهِ ونسبهُ الى صاحبه

***

بَقِيَ ان هنالك مُشكلتين اذنتُ لنفسي ان انصبهما للاستاذ (فِشِر) . اما الأُولى فتلحق بالاستشهاد ، واما الثانية فترجع الى التدوين نفسه . وقصَّة الأُولى أَن المصنف يستدل بالحديث . ومما كاد يجمع عليهِ الائمة — وفيهم صاحب « الكتاب » والخليل والكسائي — ان اثبات اللغة بكلام النبي موضع نظر لأنّ غالب الاحاديث مرويّ بالمعنى ولأن الاعاجم والمولدين سلّطوا عليها ايديهم حتى أَنّ الحديث الواحد ليأتي على اوجه شتى من الرواية واللفظ . غير ان نفراً من النحويين واهل اللغة — وفيهم ابن خروف وصاحب « الأَلفيّة » جوّزوا ذلك ، ولهم حججهم . ولتجدن القضية مبسوطة في مقدمة « خزانة الأدب » للبغدادي . ثم ان المصنّف يقدّم الشعر الجاهلي على القرآن في الاستشهاد ، فان نظرنا الى التعاقب التاريخي ما وجدنا المصنف الاَّ على حق . ولكنّا اصبحنا نعدّ القرآن الحجة المقدَّمة — جرياً على طريقة الاستاذ الدكتور طه حسين — فنبذنا ما ذهب اليهِ الأقدمون أَن لغة القرآن تصيب شواهدها في الشعر الجاهلي . وأَما المشكلة الثانية فنقل الالفاظ السامية دون العربية والالفاظ الافرنجية الى لغتنا ، وهذا الفن معروف عند علماء الغرب بكلمة Transliteration ، وهو مجهول عندنا . الاَّ ان ابن خلدون عالجه بعض الشيء في « مقدمته » ثم جرى الشيخ ابراهيم اليازجي مجراه في مجلته « الضياء » . والحق اننا ما نزال نعاني نقل الالفاظ الاعجمية الى لغتنا على وجهها الصحيح اي دون ان نعمد الى « النحت »

كيفما كان الحال فانّ تينك المشكلتين لاحقتان بالعَرَض ، ولا عُسْرَ في حلّهما . والتحقيق ان المعجم الذي يعالج الاستاذ (فِشر) تصنيفه في المحل الأَول من النفاسة . ولعلّ اعضاء مجمع اللغة العربية الملكي يفطنون الى قدره فيتعاونون على ابرازه ، وعسى ان يواصلوا العمل فاذا فرغوا من الفصيح انصرفوا الى المُصْطَلَحَ والعامي والدخيل ، والمصنفات في هذه الثلاثة الفنون الاخرى — قديمة كانت او حديثة — متداولة بين الناس (١)

---

(١) سألت الاستاذ (فشر) — وهو العالم باللغات الميتة والحية — قلت : «كيف ترى العربية ؟» قال : «ما اعرف لغة اغنى منها ولا اسلس مقاداً ولا ارق حاشية »

المال عند الاقدمين وعندنا

تضخم الثروات وتوزيعها
في مختلف العصور والامم

لامين الريحاني

المال يعمر الممالك ويخربها ، يعمرها اذا قرن في استخدامه العلمُ وحب الانسانية ، ويخربها اذا انحصر استخدامه في حب الذات والمصالح الخاصة

المال رأس النعم في الحياة الدنيا ، ورأس المحن كلها . هو رأس النعم اذا توزّع توزّعاً عادلاً بموجب شرائع يسنها الانسانيون الصادقون من السياسيين ، وهو رأس المحن اذا تكتّل وتضخم ، وكانت الشرائع تساعد في تضخمه وتكتّله

المال في الحال الاولى كالنهر العديد الفروع ، الكثير الترع والاقنية ، عميم المدد ، عميم الفائدة وهو في الحال الثانية كالسد تتجمع فيه مياه الانهر لتستخدم في احياء ارض محدودة دون سواها

كان المال خير وسيلة للانسان الاول في معاملاته المدنية الاولى ، فصار شر وسيلة اذ اتسع نطاق تلك المدنية ، وتعددت المطامع البشرية . بيد انه في تطوره الحديث ، عائد الى وضعه الاول ، فيطلق اذ ذاك في توزعه ، من القيود الاقتصادية التي تسبب التضخم والتكتّل ، وتقاس قيمته بمنافعه العامة لا الخاصة

المنافع الخاصة ! لقد كان اصحابها يتمتعون ، في المدنيات القديمة وفي مدنيتنا السابقة للحرب العظمى ، بكل اسباب الفلاح ، وبكل حقوق الاحتكار السياسية والاقتصادية . ما كان والحق يقال منافع تذكر غير المنافع الخاصة . وقد كانت في المدنيات الاولى تستعين حتى بالدين ، فتُنزَل الآيات من اجلها ، ويتكهن الكهان لتعزيزها

اما عامة الناس ، السواد ، العاملون المنتجون والمجاهدون ، فحسبهم التقوى ونعمة الآلهة . حسبهم رضى الكهان والاشراف ، اولئك الذين استغلوا الاديان ، واستقلوا بثمار جد الانسان ، واستمتعوا بخيرات الارض في كل مكان ، فكانوا القليل ، وما كانوا كراماً الاّ نادراً ، وكان السواد من الناس يدفعون الخراج ، و «يأكلون» الكرباج ، ويصلّون في الهيكل لرب العرش ورب التاج

اني محدثك بما يمليه العقل لا القلب عليّ ، وبما هو من وضح التاريخ لا من النظريات ، فلا اقول غير ما يوجبهُ الاثنان ، ويبته البرهان . فاستمع لي ، دام حلمك

ما تمتع بخير الارض في الزمان القديم غير الملوك والامراء ، والرؤساء المدنيين والدينيين ، وقليل غيرهم من المقرَّبين . وما عُمِّر في الممالك عمارٌ يدوم طويلاً ويذكَر ، غير ما كان للرؤساء والامراء والملوك ، او ما كان مؤيداً لسلطانهم ، معززاً لنفوذهم ومصالحهم ، ما عُمِّر غير الهياكل والقصور ، والطرقات للقوافل والجنود ، والاقنية والترَع في بعض الاماكن للري ، اول مصادر الثروة في العالم

وما كان المال يتوزّع توزُّعاً واسع النطاق ، فترِقُّ حواشيه في الاقل ويزداد خيرهُ ، بل كان يتجمَّع فيتكتَّل ، فيسوء لذلك مصير الامة والمُلْك . وقد كانت الكتلة الكبرى للملِك طبعاً ، والكتل الاخرى للامراء من البيت المالك ، ثم للكهان والاشراف

اما الباقي من الامة ، اي السواد ، فقد كانوا على الاجمال محرومين حق التملك ، مستعبَدين حقيقةً ان لم يكن اسماً كذلك . ومن كان منهم صاحب عقار ، كان ذلك العقار كوخاً في حي الفقراء ، او بيتاً حقيراً في ظل قصر من القصور

لقد اكثرت من البيان فوجب عليَّ البرهان . مهما كان من تجريح التاريخ ، ومهما قيل في شطط المؤرخين ، فالحقيقة التي ذكرت ظاهرة لا ريب فيها . قلت ظاهرة ، وما كانت كذلك قبل ان شرع الأثريون ينبشون مدنيات الماضي القديم ، فأظهروا تلك الحقيقة ، وأيدوها بالادلة المحسوسة

هي ذي في المعابد والقصور ، وفي قبور اصحاب القصور والمعابد . فقلما يعثر الأثريون على شيء غيرها . هي ذي آثار الملوك والاشراف والكهان . واين آثار السواد من الناس ؟ انهم حتى في قبورهم بائدون ، وليس في حفريات الأثريين ما يجدد لهم ذكراً ، غير ماعون مثلاً من النحاس ، او قطعة من الفخار . وان سألت عن آثار البيوت بيوتهم والقبور ، دلوك على آثار القصور والمعابد

هذي هي مدنية الاقدمين ، مدنية الكهان والاعيان ، مدنية الاقلية الصالحة التي حملت الكرباج باحدى يديها ، والمبخرة بالاخرى ، فأشعلت في المعابد البخور ، وما ابقت للسواد من الناس غير القبور . بل حرمتهم حتى القبور التي تنجو من يد الدهر الهدّام ، فينبشها الأثري في هذا الزمان

تلك القبور الملأى بالجواهر والتحف ورموز الخرافات ان هي الاَّ قبور من حملوا الكرباج و « أكلوا » الخراج . اما قبور من دفعوا الخراج و « أكلوا » الكرباج فَسَلْ عنها الزمان

وسَلْني انا عن عدد من لا قبور لهم ، وعدد اصحاب القبور الحافلة بالكنوز . سلْني اذا شئت عن النسبة ، نسبة الاسياد الى العبيد في قديم الزمان . ولا تعجبنَّ اذا قلت لك ان النسبة بين الفريقين كنسبة الحبة الى القبة

***

واليك من التاريخ بالمثل والبرهان

عند ما اشتد دور الانحطاط الاخير في مصر ، ذلك الدور الذي بدأ في الدولة العشرين (١٢٠٠ — ١٠٩٠ ق . م .) كانت ثروة البلاد كلها بيد عدد من الناس لا يتجاوز اربعة بالمائة من عدد السكان. فافرض ان عدد السكان في عهد الفراعنة الرعمسيين كان خمسة ملايين ، فالذين ملكوا الارض ، واستمتعوا بخيرها ، لا يتجاوزون المائتي الف . هي الطبقة المالكة حقيقةً ومعنىً . وقد كانت مؤلفةً من الملك والاشراف والكهان ، وقليلٍ ممن دونهم من التجار والحكام ورؤساء الجيوش

على ان سيادة الكهان في دور الانحطاط تعاظمت بتعاظم ثروتهم . فقد كان الفراعنة يزيدون أوقاف الهياكل ليؤيد اربابها سلطانهم . بل كانوا يقدمون الاموال للآلهة ، ويقفون عليهم ، سبحانهم وتعالوا ، الاوقاف الطائلة من مصانعٍ ومزارعٍ ومدن ، ليظل الآلهة راضين عنهم ، مؤيدين لعروشهم . وقد بلغت تلك الاوقاف في عهد رعمسيس الرابع خمسة عشر جزءاً من المائة جزء من ثروة مصر والبلدان التابعة لها [1]

وفي بابل ، خلال دور انحطاطها ، كانت النسبة بين اهل المال واهل الفاقة اقل مما كانت في مصر ، اقل قليلاً ، اي ثلاثة بالمائة . فلو قلنا فرضاً ان سكان مملكة بابل ثلاثة ملايين كان المستحوذون على ثروة البلاد تسعين الف غني . وقد كانوا هم المالكين حقيقةً ومعنىً ، باسم الآلهة ، مثل اخوانهم في مصر

اما في بلاد فارس فقد كانت الحالة الاقتصادية اشد وانكر . في بلاد فارس ، حتى في عهد دارا الكبير ، كان عدد القابضين على زمام الثروة في الامة اثنين بالمائة فقط ، اي نحو مائة الف بشرٍ ثري. هذا اذا كان عدد السكان خمسة ملايين ، يوم كانت العجم تحارب الاغريق

وما كانت بلاد الاغريق ، على علو كعبها في التمدن ، تفضل بلادَ فارس في توزُّع ثروتها . بل كانت تلك الثروة منحصرة كذلك في القليل القليل من الناس ، نسبتهم الى السواد نسبة مخجلة . هي مخجلة حقًّا لانها من حقائق الحياة « الراقية » في بلد سقراط وبِرِقليس

(١) في ما يلي بعض الارقام من احصاء في السجل البردي المعروف بسجل (هاري) ذكره الاستاذ برستد Breasted في كتابه تاريخ مصر صفحة ٤٩١ — فالآلهة او الهياكل ، او بالحري وكلاء الهياكل والآلهة ، اي الكهان ، كانوا يملكون في عهد رعمسيس الرابع :

١٠٧٫٠٠٠ رقيق (من كل خمسين نفساً من الاهالي نفس واحدة للهيكل)

٥٥٠٫٠٠٠ رأس من المواشي

٧٥٠٫٠٠٠ فدان من الارض (اي ١٥/١٠٠ من ارض مصر الصالحة للزرع)

٨٨ مركباً من مراكب النيل

١٦٥ مدينة في مصر وسورية (اي خراجها كله للهيا كل)

أضف الى ذلك ما كان يقدم للآلهة من التحف والجواهر والمال ذهباً وفضة . فقد كان الدخل السنوي للاله عمون وحده ٢٦٫٠٠٠ قطعة من الذهب ، ماعدا نصيبه مما تقدم ذكره

اجل ، ان عدد الاغنياء في دور انحطاط اثينة لمدهش ومخجل ، كيف لا ، وهو لم يبلغ الجزء الواحد بالمائة ؟ بل كان نحو نصف جزء الواحد . ومعنى ذلك ، ايها الفاضل ، انهُ لم يكن بين كل الف فقيرٍ غير خمسةٍ من اصحاب الثروة ! فلو فرضنا ان عدد السكان يومئذٍ اربعة ملايين فعدد الذين احتكروا ثروة الامة الاغريقية يكون عشرين الف سيد اغريقي

اما العرب اجدادنا فقد كانوا في قديم الزمان ، وفي الجاهلية ، من الشعوب التي ما عرفت من المال — لا من خيره ولا من شره — شيئاً كثيراً بل كانوا ، الاَّ في اليمن ، وفي قريش من القبائل ، فقراء فقراء . . وقد كانت الثروات اليمانية ، واكثرها صغيرة ، منحصرة في الاذواء وذويهم ، والمقرَّبين منهم

ثم بعد الفتح اخذت تتسرَّب اموال الامم الى بيت المال في المدينة ، فأحسن استخدامها الخليفتان الاول والثاني ، وأساء استخدامها الخليفة الثالث ، فما ابقى لخلفه غير القليل ، بُذل معظمهُ في حربٍ خاسرة

وبعد ذلك أخذت الثروة تتضخم في عهد الامويين ، ثم في عهد العباسيين . ولكننا لا نعلم حق العلم مقدار تكتُّلها — الاَّ في بيت المال طبعاً — ومقدار النسبة بين عددي الاغنياءِ والفقراءِ في سورية والعراق . لقد عظمت ارقام الخراج ، ولا غرو ، فصارت تُعَدّ بالوف الالوف . ولكنها كانت مطلقةً من قيود العدل ، الاَّ في ايدي الخلفاءِ العادلين ، وهم قليل . وكان الباقون يتصرفون في الخراج كيفما شاؤوا وشاءَت اهواؤهم وملذاتهم

لا يجوز ، وانا في هذا الحقل القاحل من عالمنا العربي ، ان امرَّ ساكتاً بحالة اجتماعية جميلة خضَّرت حواشيه ، فأثمر فيها الاحسان ، وشرف الانسان . حدثنا عنها ابن بطوطة . وحسبي الآن ان اشير اليها ، وادلك عليه . هي الاوقاف المتعددة التي شاهدها في دمشق وعدَّد منها ما يدعو للفخر والاعجاب . على انهُ يُستدَل من ذلك ان المال يومئذٍ كان متكتلاً ، ولكن اصحابه كانوا من المحسنين ، فبذلوا ما استطاعوا ، في أوقافهم العديدة ، لتخفيف وطأة الفقر عن السواد من الناس

***

اذا استثنينا هذا المظهر من مظاهر الغناء عند العرب كان في وسعنا ان نقول ان الحالة الاقتصادية المنكرة كانت في مصر اخف وطأة منها في سائر الممالك القديمة . فما السبب في ذلك ؟ لم تكن مدنية المصريين ارقى من مدنية الاغريق . ولكن وادي النيل اكثر خصباً من ارض اليونان . وخصب الارض وثروة الامة يتناسبان ، وقلما يفترقان . فوادي النيل ووادي الرافدين تشابها خصباً في قديم الزمان ، ونسبة الغناء الى الفقر فيهما كادت تكون واحدة

على ان الثروات تكتَّلت في تلك الممالك القديمة كلها ، وخصوصاً في ادوار انحطاطها . بل كان التكتُّل السبب الاول في انحطاطها ، فعُدَّ المتمولون بالمائة وبالالف ، وعُدَّ الفقراء بالملايين .

وقد كانت اكثر الامم تمدناً — مثل الاغريق — اكبر الامم بفقرائها ، واصغرهن — ليس بالغناء — اصغرهن بالاغنياء

لا ازيدك علماً بما كان من احوال الفريقين الاجتماعية والادبية . لا ازيدك علماً بترف الاغنياء وتلف الفقراء ، بالقصور والبساتين ، وا كواخ المساكين ، بالمنكرات العلنية ، والامراض السرية . بالاباحات المحللة المضمخة بالبخور ، المكللة بالزهور ، وبالبؤر الاخلاقية التي يولدها الزحام والظلام . عُد الى التاريخ تزدد تيقناً مما اقول

واني فوق ما قدمت اعطيك البرهان الاكبر من تاريخ الدولة العالمية الكبرى ، دولة الرومان ، وقد دانت لها شعوب الارض شرقاً وغرباً ، وتسربت الى خزائنها برومة اموال العالم فكانت رومة ، في ذلك الزمان ، كما هي لندن اليوم ، قطب السيادات السياسية والاقتصادية والمالية كلها

وماذا كانت نسبة العددين ، عدد الاغنياء وعدد الفقراء ، في تلك الامة الرومانية العظيمة ؟ لقد كانت في مصر اربعة بالمائة ، وفي بابل ثلاثة بالمائة ، وفي ايران اثنين بالمائة ، وفي بلاد الاغريق نصف واحدٍ بالمائة ، فماذا كانت في رومة ؟

ماكان في رومة ، ايها النجيب ، نسبة تذكر بالصورة الحسابية البسيطة . لا ½ ولا ¼ ولا ⅕ بالمائة ولا جزء واحد من الخمس . وذلك لان الشعوب التي كانت تدفع الضرائب للرومان كانت تربي على الخمسين مليون نفس (اذا كنت مخطئاً في هذا العدد فخطأي بالنقص لا بالزيادة) ولأن الرومان الذين ملكوا الارض لم يتجاوزوا في دور انحطاط رومة الالفين عداً

الفان من خمسين مليوناً ! فما هي النسبة ؟ اعمل حسابك في مهل ، ودعني أوكد الالفاظ المخجلة . الفان اثنان من الرومان يستمتعون بثروة العالم في تلك الايام ، وملايين من الشعوب الاوربية والاسيوية فقراء فقراء ، لا يملكون — كما يقال — شروى نقير

بئس الدولة التي يدير شؤونها ، ويستمتع بجميع خيرها ، الفان من سادة الناس
بئس الدولة التي تعظم فتتكتل الثروة فيها ، وتصغر فتستعبد الرجال

***

ان غنـاء اولئك الرومان لشبيه نسبةً بغناء اصحاب الملايين في اميركا . فقد بلغت ثروة احدهم ، هو إزيدوروس ، بحسب وصيته ، ٤١١٦ رقيقاً ، و ٣٦٠٠ رأس من البقر ، و ٢٧٥٠٠٠ رأس من مختلف المواشي ، ما عدا نصف مليون من المال ذهباً . وما كان إزيدوروس باغنى الرومان ، وما ثروته هذه الا ما تبقى عنده بعد خسارة جسيمة

اما ثروات عواهل الرومان فقد كان بعضها يدنو من الثروات الاميركية الكبرى . كثروة الامبراطور طيبيريوس مثلاً التي حسبت عند وفاته باثنين وعشرين مليون ليرة ذهباً

فاين منها ثروات ملوك هذا الزمان وحكامه ؟ لقد تقدمنا من هذا القبيل . فالملوك والسياسيون في زماننا قلما يثرون . انما الاثراء للتجار ، وارباب الصناعات والمهن

ومن هؤلاءِ ، في بلاد مثل انكلترا ، تتألف طبقة الاشراف . فصاحب معمل الصابون مثلاً ، او صاحب طائفة من الجرائد والمجلات ، وقد صار مليونيراً بفضل عصاميته ، يصير نبيلاً بفضل تقليد قديم لتخليد طبقة النبلاء . وكيف تخلَّـد هذه الطبقة وتظل رفيعة الشأن ، عزيزة الجانب ، اذا كانت الحياة لاتتجدد فيها على الدوام ؟ انها لحكمة بليغة في المحافظة والتجدد

وهذه الطبقة الشريفة تملك قسطاً وافراً من ارض انكلترا . كل نبيل غني ، ولا يعكس .وفي انكلترا من اصحاب الملايين ٥٤٣ ثريًّا (احصاء سنة ١٩٢٩) اما اصحاب الثروات الصغيرة التي تتراوح بين العشرة آلاف والمائة الف جنيه ، فيبلغ عددهم ٤،٦٥٠،٠٠٠ اي نحو عدد سكان مصر في عهد الفراعنة الرعمسيين ونحو الثمن من عدد سكان بريطانية العظمى الآن

***

لانكران اذن ان نسبة الفقراء الى الاغنياء قد تغيرت تغيراً حسناً يذكر . ولكنها لا تزال دون الاحسن المنشود . فالهدف الاعلى للشعوب المحرَّرة هو قائم ، على ما ارى ، بين بلشفية روسية المركسية واشتراكية اميركا الدمقراطية . فان في البلادين تجري اليوم تجربات خطيرة مختلفة هي كلها ، في عدلها الانساني المنشود ، اكبر قصداً ، وأبعد مرمى ، مما تقدمها من الاصلاحات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في التاريخ القديم والحديث

وهناك فرق آخر بين غنائنا وغناء الاقدمين . فان مجموع الثروة عندنا ، في امة واحدة من الامم الغنية ، لأَكبر جدًّا مما كان حتى في الدولة الرومانية العظمى . بل ان رجلاً مثل رُتشيلد او ركفلر او هنري فورد ليملك وحده ما يقدر بثمن ثروة رومة في ذلك الزمان

هذا وان التكتل المالي آخذ بالتفكك ، وقد اتسع ، خصوصاً بعد الحرب العظمى ، نطاق انتشاره وقلّ نطاق خيره ، فتعددت الثروات في الدول الكبيرة في الاقل ، وازداد عدد الميسورين . لقد اسلفت البيان عما في انكلترا من اصحاب الملايين وأصحاب الثروات الصغيرة . وان عدد هؤلاء في فرنسا لأَزود ، الاَّ أصحاب الملايين (بالليرات) فلا اظنهم كثيرين . على ان طبقة البورجوازي التي تحكم اليوم البلاد سياسيًّا وماليًّا هي اهم الطبقات هناك ، ان لم تكن اكبرها وأغناها

***

ومما يدل على اليسر المتسع النطاق في هذا الزمان عدد السيارات . فان في فرنسا ١٦٧ر٢٩٤ر١ سيارة(١) اي واحدة لكل ثلاثين من السكان . وهي مثل ذلك في انكلترا ، وأقل من ذلك في المانيا

(١) احصاء سنة ١٩٣٠

اما في اميركا فقد بلغ عدد السيارات من جميع الانواع في سنة ١٩٣٠ ثلاثة وعشرين مليون ومائة وعشرين الف سيارة، اي سيارة واحدة لكل خمسة اشخاص

وعدد اصحاب الملايين غير الكبار ، اي الذين يملكون ما يتراوح بين الخمسة والعشرة ملايين من الدولارات ، يفوق عدد ما في انكلترا . فان في مدينة نيويورك وحدها مائتين منهم . وفي الولايات المتحدة سبع مدن كبرى ، بعضها اكبر من باريس ، وخمس عشرة مدينة كالقاهرة . وفي كل مدينة اغنياؤها ذوو الثروات التي هي فوق المليون ودون الخمسة ملايين دولار ، فضلاً عن اصحاب الثروات الصغيرة ، ويقدَّر عددهم بثلاثة او اربعة ملايين ، بناءً على ضريبة الدخل التي بلغت في سنة ١٩٣٠ نحو بليونين واربعمائة مليون دولار ،وهي بالتدقيق :

من الشركات	١٫٢٦٣٫٤١٤٫٤٦٦
من الافراد	١٫١٤٦٫٨٤٤٫٧٦٤
	٢٫٤١٠٫٢٥٩٫٢٣٠ دولاراً

اي الفين واربعمائة الف الف على طريقة العرب في العدّ

لا نكران اذن ان عدد الاغنياء والميسورين آخذ بالازدياد في العالم . ولكن ذلك لا يعني ان شرور الفقر قد زالت ، او هي مسرعة في الزوال . ذلك لا يعني ان الجور والتعسف والاستئثار ، وفساد الاخلاق والجرائم والامراض ، الناشئة عن تكتُّل الثروات ، وعن الفقر المقابل لها ، قد أمست كلها في خبر كان . بل هناك ضروب من الجور ، في المعاملات المالية الكبرى وفي المشروعات الاقتصادية العظيمة ، لا تستطيع الحكومات ، لا الجمهورية منها ولا الملكية الدستورية ، ان تزيلها الاَّ اذا تغيرت نظمها اصلاً واساساً

ان الفرق اذن بيننا وبين الاقدمين في المسألتين ، موضوع هذا المقال ، اي في التكتُّل المالي وفي نسبة الفقراء الى الاغنياء ، هو ان المال عندنا قد ازداد ازدياداً عجيباً ، وقد تغيرت النسبة تغيُّراً حسناً ظاهراً . فمن ٤/١٠٠ في عهد الفراعنة ،الى ما يتراوح بين ١٥ و٢٠ بالمائة في زماننا ، في الامم التي ذكرت ، وهذا ما يصح ان يدعى ارتقاء . ولكننا لا نرضى بان نقف في الارتقاء عند هذا الحد

لا نقول ان عدد الاغنياء في العالم يجب ان يزداد ويستمر في الازدياد . كلاَّ . انما نقول يجب ان يقل عدد الفقراء في العالم ، ثم يقل ، فيزول الفقر تدريجاً ، وتزول شروره كلها

هي ذي الحالة الاقتصادية الاجتماعية التي ينشدها ذوو الفكر الراقي النزيه ، ذوو الفكر الدولي الانساني . هوذا الهدف الاقصى ! وستدركه في المستقبل الامم المتمدنة جمعاء

الفريكه — لبنان

هاتاه للنفس

لعبد الرحمن شكري

— ١ —

طلب السكينة

يا ليت قلبي غدا خلاءً كعالم كله بحارْ
على انتفاء الحياة منها في خضرم ما له قرارْ
فلا مهود ولا قبور ولا سفين ولا منارْ
ولا حبيب ولا عدو ولا نمو ولا احتضارْ
ولا رخاء ولا شقاء ولا رجاء ولا ادكارْ
أو كان كالنجم في سراه الوادع السائر المُدارْ
أو كان كالليل في هدوء يُخال في صمته حِوارْ

— ٢ —

طلب القوة

يا ليت قلبي على أساه أقوى من الشر والشقاء
وليت نفسي على هواها أقوى من الحب والرجاء
وليت لُبّي على حِجاهُ أجلد من غفلة الغباء
لا يضطنيه عداء عادٍ وليس يغتر بالإخاء
يأخذ صفو الزمان عفواً ولا يُعَنّى من القضاء
وليت صبري على بلاءٍ أشد من أروع البلاء
دواء داء الحياة فينا لو تُسعِدُ النفسَ بالدواء
بالصبر والسعي والمُنى والحِلم والعزم والوفاء

التجارة الاسلامية

وأثرها في الحضارة (١)

قسطنطين زريق
احد اساتذة التاريخ الشرقي في جامعة بيروت الاميركية

لم يعرف تاريخ العلم قوماً كانوا اقل انصافاً لفنهم واشدّ ظلماً لهُ من جماعة المؤرخين ، فكأني بهم قد افرغوا جهدهم في صدّ الناس عنهُ ومنعهم من ارتياد مناهله . كيف لا ، وقد جردوه من كل متعة ورواء ، وامتصوا منهُ ماء الحياة ، ولم يبقوا فيهِ الاَّ هيكلاً عظمياً من اسماء وتواريخ ليس بينها وبين حياتنا الحاضرة علاقة وثيقة او سبب قويّ . فكانت نتيجة الجهود التي سكبوها في تلك المؤلفات الضخمة والكتب الجسيمة انهم ، عوضاً من تحبيب هذا الفن الى الناس وتشويقهم الى اقتطاف ثمراته اليانعة ، جعلوهم ينصرفون عنهُ ويصدفون عن مراتعه وحقوله ولا يرون في درسه كبير لذّة او عظيم غَناء . لكنّ التاريخ يأبى ان يظلّ اسيراً ضمن النطاق الجائر الذي قيّدوه بهِ ، فهو لا يكتسي رواءه ونضارته الاَّ اذا لامس الحياة واتصل بها اتصالاً وثيقاً ، اذ ليس هو ، في جوهره ، سوى تطور الحياة البشرية باختلاف نواحيها وتعدد الوانها ، يستمد روحه من حيـاة الطبقة العامة من الناس وطرق معيشتهم وأحوالهم الاقتصادية والاجتماعية والعقلية : فكم في البيوت الوضيعة والطرقات العامة ما هو اجدر بالحفظ في بطون التواريخ من اسماء الملوك والوقائع والحروب لانهُ اصدق منها تمثيلاً لحياة الامة ولون معيشتها وتطوّر احوالها

فاذا حاولت ان احدثكم في موضوع تاريخي ، فسوف ابتعد — ما استطعت — عن الخلفاء والامراء والحكام ، وسوف أُصم أذنيّ وآذانكم عن سماع صليل السيوف وقرع الطبول ونفخ الابواق، واسعى وإياكم الى ناحية خصبة غنية من الحياة الاسلامية القديمة لم تنل من المؤرخين حقها من الدرس والاهتمام ، مع ما كان لها من الاثر القوي والصدى البعيد في تاريخ الشرق والغرب: اعني بها «التجارة الاسلامية وأثرها في الحضارة» . ليس قصدي ان اعود بكم الى الجذور القديمة التي نبتت منها حركة التجارة الاسلامية ، فاصوّر لكم الجزيرة العربية في الازمنة التي سبقت الاسلام ، واحدّد الطرق التجارية التي كانت تخترقها ، والدول والمدن الزاهرة التي قامت على اساس تجارتها — كمعين وسبأ وحمير وتدمر والبطراء ومكة ، واصف ما كان لهذه الدول والمدن من الشأن في وصل حضارة الهند وثقافته بمدنية بلدان الشرق الادنى والبحر الابيض المتوسط ، فالقول في ذلك — كما تعلمون — واسعٌ مستفيض لا مجال لاستيعابه في هذا المقام ، وكفى تلميحاً اليهِ ان نورد شهادة

(١) محاضرة القيت في كلية المقاصد الخيرية في بيروت

الجغرافي اليوناني استرابون (Strabo) الذي قال : « العرب جميعهم اهل تجارة » ، والقول المتداول عن اهل مكة قبل الاسلام : « من لم يكن تاجراً فليس عندهم بشيءٍ »

دعونا اذن نمر بهذا الدور التحضيري الذي غرست فيهِ بذور التجارة الاسلامية ، ونجوز دور الفتوحات الذي عقبهُ والذي نُشرت بهِ راية الاسلام من حدود الصين الى سواحل الاطلانتيك فوحدت الاقطار الشاسعة تحت حكم واحد وهدمت الحواجز التي كانت تفصل بينها ، ولننتقل رأساً الى قلب العصر العباسي (الى القرنين الثالث والرابع هـ . ، التاسع والعاشر م) حين وصلت المدنية الاسلامية الى اعلى قممها ، ولنراقب تلك الحركة التجارية المفعمة بالقوة والنشاط التي كانت تتغلغل في قلب الامم الاسلامية وجوانبها ، وتربط بينها وبين الامم التي تجاورها وتنقل منها واليها بذور الحضارة والثقافة والمدنية

لو كنت يا اخي تاجراً في ذلك العهد لما سكنت بيروت لانها لم تكن قد اكتسبت بعد مكانة تجارية ، وانما كنت استوطنت بلداً غيرها على الساحل السوري كطرابلس او صور او عكة حيث تجتمع السفن « المنشآت في البحر كالاعلام » ويلتقي تجار المسلمين زملاءهم الغربيين ، ولكان لك في بلدك المستودعات الواسعة لخزن البضائع التي تستوردها من بلدان الشرق وتصدّرها الى الغرب ، فان وظيفتك كانت في ذلك العصر — كما لا تزال الى اليوم — ان تقومَ وسيطاً بين الشرق والغرب وتكون حلقة اتصال لطرق التجارة التي كانت في القرون الوسطى تسير من الشرق الى الغرب فانعكست اليوم ، بعد نهضة اوربا الحديثة ، وغدت تجري من الغرب الى الشرق

واذا اسعفك الدهر واتسعت تجارتك فلا بُدَّ ان تكون بينك وبين التجار الغربيين — واشهرهم سكان المدن الايطالية — اتفاقات ومقاولات تجارية تسعى الى القيام بها وتجني من ورائها الربح العظيم . ولكنك اذا احببت ان تلمس الحركة التجارية في صميمها وتشعر بقوتها وبالحياة التي كانت تدب فيها فلا بُدَّ لك من الاتصال بالطرق التجارية التي كانت تخترق المحيط الهندي وتصل بين الهند والصين من جهة وبين بلدان الشرق الادنى ومن ورائها اوربا من جهة اخرى . فالمحيط الهندي كان في ذلك العهد اعظم ميدان للاعمال والمشروعات التجارية ، وفي مياهه وشواطئه كانت تلتقي مراكب الامم المختلفة وتتبادل بضائعها ومحصولات بلادها . فلا غنى لنا اذن عن ان نلقي نظرة عجلى على الطريق الرئيسية للتجارة الواسعة التي كانت تدور اعمالها في ذلك الميدان الفسيح

كانت قاعدة هذه التجارة ومحط رحالها الموانىء الواقعة على شواطىء الخليج الفارسي كالبصرة والأُبُلَّة وسيراف : منها تخرج السفن الصينية الكبيرة والمراكب العربية السريعة ، بعد ان يكون التجار قد افرغوا بضائعهم التي حملوها من الصين والهند وابتاعوا حاجتهم من اللؤلؤ الذي يُغاص عليهِ في مياه الخليج الفارسي والذي كان ولا يزال اعظم ما تصدّره تلك البلاد . ثم تعبر السفن مضيق هرمز الى خليج عمان فترسو بصُحارِ عمان ومسقط حيث تأخذ مؤونتها من الماء والطعام لسفرة طويلة قد تدوم شهراً او تزيد ، ثم تقلع الى الهند او بالاحرى الى القسم الغربي منهُ — وهو الذي

كان يدعوه العرب « السند » — وترسو في موانئه فينزل اليهِ التجار ويبتاعون تلك المحصولات الثمينة المتنوعة التي اشتهرت بهـا بلاد الهند منذ اقدم الازمنة : وهي البهـارات والعطور والعقاقير والاخشاب والعاج والحجارة الكريمة . وفي السند يقول الرحّالة المقدسي : « هذا اقليم الذهب والتجارات ، والعقاقير والآلات ، والفانيذ والخيرات » والارزاز والموز والاعجوبات ، بهِ رُخص وسعة ونخيل وثمرات ، وعدل وانصاف وسياسات ، وبهِ خصائص وفوائد وبضاعات ، ومنافع ومفاخر ومتاجر وصناعات [١] . ويظل تجارنا يتنقلون بمراكبهم بين موانئه الى ان يصلوا الى ساحله الجنوبي المعروف ببلاد المليبار ثم يدورون حولهُ ويمرون في المضيق الفاصل بين شبه جزيرة الهند وجزيرة سيلان — او كما كان يدعوها العرب « سرنديب » — فترسو المراكب في بعض شواطئها ويشتري التجار من محصولاتها — واعظمها الياقوت والحجارة الكريمة — واذا كانت حركة الرياح غير موافقة وكان بين التجار من تستهويه الرحلة ومشاهدة الآثار نزلوا الى برّها وتسلّقوا جبالها لزيارة « القدم » وهو — على ما يعتقدون — اثر بارز لموطىء قدم ابينا آدم عليه السلام

ومن سرنديب تقلع السفن قاصدة جزر الهند الشرقية (جاوه وسومطرة) — وقد كانت تعرف عند العرب ببلاد الزابج — وهي غنية باللُبان والكافور والعود الهندي والقرنفل ، ومنها تسير رأساً الى الصين فتصل — بعد سفر طويل — الى مدينة خانفو وهي ، بشهادة التاجر سليمان الذي قطع هذه الطريق البحرية مراراً في منتصف القرن التاسع م . « مجتمع تجارات العرب واهل الصين » [٢] . واهل الصين مشهورون منذ اقدم الازمنة بدقة صناعاتهم واتقان فنونهم ، واشهر مصنوعاتهم التي كان التجار المسلمون ينقلونها الى الغرب : الحرير والفخّار . قال التاجر سليمان عن صناعاتهم : « واهل الصين من احذق خلق الله كفّاً بنقش وصناعة وكل عمل لا يقدمهم فيهِ احد من سائر الامم » [٣] وذكر رقة حريرهم فوصفها بالقصة التالية : « وذكر رجل من وجوه التجار ومن لا يشك في خبره انهُ صار الى خصيٍّ كان الملك انفذه الى مدينة خانفو لتخيُّر ما يحتاج اليهِ من الامتعة الواردة من بلاد العرب فرأى على صدره خالاً يشف من تحت ثياب حرير كانت عليه فقدر انهُ قد ضاعف بين ثوبين منها فلما الحّ في النظر قال له الخصي اراك تديم النظر الى صدري فلمَ ذلك فقال له الرجل عجبت من خال يشف من تحت هذه الثياب فضحك الخصي ثم طرح كمّ قميصه الى الرجل وقال له اعدد ما عليّ منها فوجدها خمسة اقبية بعضها فوق بعض والخال يشف من تحتها والذي هذه صفته من الحرير خام غير مقصور والذي يلبسه ملوكهم ارفع من هذا واعجب » [٤]

واذا تقدمنا الى عصر ابن بطوطة (القرن الرابع عشر ، الثامن هـ .) — والراجح عندنا ان

(١) احسن التقاسيم (طبعة دي غويه — ليدن) ص ٤٧٤
(٢) Reinaud, Relation des Voyages dans l'Inde et à la Chine (باريس ١٨٤٠) م ٢ ص ١٣
(٣) ص ٧٥ (٤) ص ٧٤ — ٧٥

ما يذكره هذا الرحالة ينطبق ايضاً على العصر الذي نصوره الآن لاشتداد حركة التجارة فيه — وجدنا ان السفن لا تلبث ان ترسو في ميناء خانفو حتى يصعد اليها عمال الجمرك ويفتقدوا رجالها واموالها : « وعادة اهل الصين اذا اراد جنك من جنوكهم السفر صعد اليه صاحب البحر وكتابه وكتبوا من يسافر فيه من الرماة والخدم والبحرية وحينئذ يباح لهم السفر فاذا عاد الجنك الى الصين صعدوا اليه ايضاً وقابلوا ما كتبوه بأشخاص الناس فان فقدوا احداً ممن قيدوه طلبوا صاحب الجنك به فأما ان يأتي ببرهان على موته او فراره او غير ذلك مما يحدث عليه والاَّ اخذ فيه فاذا فرغوا من ذلك امروا صاحب المركب ان يملي عليهم تفسيراً بجميع ما فيه من السلع قليلها وكثيرها ثم ينزل من فيه ويجلس حفاظ الديوان لمشاهدة ما عندهم فان عثروا على سلعة قد كتمت عنهم عاد الجنك بجميع ما فيه مالاً للمخزن وذلك نوع من الظلم ما رأيتهُ ببلاد من بلاد الكفار ولا المسلمين الاَّ بالصين اللهمَّ الاَّ انهُ كان بالهند ما يقرب منهُ وهو ان من عثر على سلعة له قد غاب على مغرمها اغرم احد عشر مغرماً ثم رفع السلطان ذلك لما رفع المغارم» (١)

ولعلَّ أبلغ شاهد على توثُّق العلاقات التجارية بين الصين والبلدان الاسلامية وجود جالية اسلامية في مدينة خانفو لها من العدد والنفوذ ما حمل امبراطور الصين على منحها استقلالها الديني والقضائي « وذكر سليمان التاجر ان بخانفو وهو مجتمع التجار رجلاً مسلماً يوليهِ صاحب الصين الحكم بين المسلمين الذين يقصدون الى تلك الناحية بتوخي ملك الصين ذلك واذا كان في العيد صلى بالمسلمين وخطب ودعا لسلطان المسلمين وان التجار العراقيين لا ينكرون من ولايتهِ شيئاً في احكامهِ وعمله بالحق وبما في كتاب الله عز وجل واحكام الاسلام » (٢) . ولم تكن تجارة المسلمين لتقف عند حدود خانفو وامثالها من الموانىء الصينية بل كانت تتجاوزها الى داخل البلاد وتتصل بالمدن والمراكز الداخلية الهامة ، كما ان بعض تجار المسلمين وبحارتهم كانوا يخاطرون بمراكبهم التجارية الى البحور الشمالية ؛ وليس من المستبعد ان يكونوا قد وصلوا الى اليابان او شبه جزيرة كوريا

هذه ، هي اهم طريق كانت تمر بها التجارة الاسلامية لانها تصل بين بلدان الشرق الادنى وبين البلاد التي كانت في ذلك العهد منبع البضائع والتحف والمحصولات الزراعية والصناعية وقد كانت هناك طرق بحرية اخرى لم تبلغ شأو هذه ومكانتها : منها الطريق الفرعية التي يصح ان نعدها تكملة للطريق الرئيسية الاولى وهي التي تسير من الخليج الفارسي وتدور حول بلاد العرب فتمر بموانىء عديدة على ساحل الجزيرة الجنوبي واشهرها ظفار وعدن ثم تصعد في البحر الاحمر حتى تصل الى جدة او ثغر عيذاب على الشاطىء المصري . وبهذه الطريق البحرية كان ينقل جانب من بضائع الشرق الى بلاد مصر والشام . ومن الخير ان نتوقف قليلاً في ميناء ظفار لنشاهد ضرباً من الدعاية التجارية التي كان يستخدمها اهل ذلك الزمان لاستجلاب التجار الى مرافئهم . « وهم [اهل

(١) رحلة ابن بطوطة (طبعة Defrémery et Sanguinetti باريس ١٨٧٤–٧٩) م ٤ ص ٢٦٤–٢٦٥ (٣) م ٢ ص ١٤

ظفار] اهل تجارة لا عيش لهم الاّ منها ومن عادتهم انهُ اذا وصل مركب من بلاد الهند او غيرها خرج عبيد السلطان الى الساحل وصعدوا في صنبوق الى المركب ومعهم الكسوة الكاملة لصاحب المركب او وكيله وللربان وهو الرئيس وللكِراني وهو كاتب المركب ويؤتى اليهم بثلاثة افراس فيركبونها وتضرب امامهم الاطبال والابواق من ساحل البحر الى دار السلطان فيسلمون على الوزير وامير جندار وتبعث الضيافة لكل من بالمركب ثلاثاً وبعد الثلاث يأكلون بدار السلطان وهم يفعلون ذلك استجلاباً لاصحاب المراكب » [1] ومن الطرق البحرية الثانوية ايضاً تلك التي كانت قاعدتها مدينة عدن ، تسير منها الى زيلع على شاطىء الحبشة وتمتد الى بلاد سُفاله المشهورة بالذهب والى جزيرة مدغسكر التي كانت تعرف عند العرب بجزيرة الواقواق ، ومنها ايضاً الطرق البحرية التي كانت تخترق البحر الابيض المتوسط والتي ازدهرت في العهد الصليبي خاصة عند ما تقارب الشرق والغرب واتصلت حياتهما السياسية والاقتصادية والاجتماعية اتصالاً قوياً

هذه هي الطرق البحرية للتجارة الاسلامية : على ان الشعوب الاسلامية التي اشتهرت منذ القدم بقوافلها البرية كانت تقطع ايضاً ببضائعها البوادي والجبال وتنقل محصولاتها مسافات شاسعة على ظهور الجمال . فقد كانت هناك طرق برية الى الهند والصين الاّ انها لم تبلغ من خطر الشأن مابلغته الطرق البحرية لما كان يعترض طريق الهند من الجبال الوعرة وطريق الصين من الشعوب التركية غير المتحضرة التي كثيراً ما كانت تغزو القبائل وتقطع السبل . ولعلنا لا نتعدى الحق اذا قررنا ان اهم الطرق البرية هي الطريق الاوروبية الممتدة من آسيا الوسطى الى روسيا وبلاد البلطيق عن طريق بلاد الخزر والتي يتفرّع عنها طريق آخر الى امبراطورية الروم ، والطرق الافريقية التي كانت تخترق النصف الاعلى من تلك القارة من الشرق الى الغرب ومن الشمال الى الجنوب

اما الطريق الاوربية فليس ادل على مداها ومقامها من النقود الاسلامية الوافرة التي عُثر عليها في اماكن عديدة في روسيا وفنلندا وبلاد اسوج ونروج . ولا نخال ان التجار المسلمين انفسهم وصلوا الى تلك البلدان الشمالية التي وجدت فيها نقودهم ، بل نرجح انهم لم يتجاوزوا بلاد البلغار الواقعة في منتصف مجرى نهر الفولغا ، الاّ ان وجود النقود الاسلامية في تلك الاماكن القاصية يدل على مدى ما بلغتهُ التجارة الاسلامية من الاتساع ومن الاثر المادي والثقافي في حياة الشعوب القريبة والبعيدة . وكان اهم ما يبتاعه التجار المسلمون بتلك النقود : العبيد وجلود الحيوانات

اما الطرق الافريقية فاهمها ثلاث : اولاً الطريق الشمالية التي كانت تسير من مصر الى المغرب فالاندلس والتي كانت تنتقل عليها ، عدا البضائع والمصنوعات المادية ، بذور الثقافة والحضارة بين شرقي العالم الاسلامي وغربيه ، وثانياً الطريق الشرقية من مصر الى النوبة فبلاد البجة ، وثالثاً الطريق الغربية من المغرب عبر الصحراء الكبرى الى بلاد النيجر . وكان تجار مصر وشمالي افريقيا

(١) م ٢ ، ص ١٩٨

يقضون الشهور الطوال في هذه الرحلات الخطرة الى اواسط افريقيا حتى يعودوا منها وقد حمّلوا قوافلهم من منتوجاتها الثمينة وهي الذهب والعاج

تلك ايها السادة ، هي اهم الطرق التي كانت تجري بها التجارة الاسلامية في ابان زهوها وازدهارها ولا شك عندي انكم ترجعون الآن بمخيلتكم الى تلك القرون الماضية فتتصورون السفن الاسلامية تمخر عباب بحر الصين والهند ناقلة التحف والمنتوجات الثمينة الى بلادنا ومنها الى بلدان الغرب ، او تراقبون القوافل البرية وهي تجتاز البوادي والسهول من اقصى العالم المتمدن في ذلك العهد الى اقصاه ، ولكننا نخطىء كل الخطأ اذا نحن حسبنا ان التجارة الاسلامية كانت تقتصر على نقل منتوجات الصين والهند وافريقيا الى بلدان الغرب ، اذ انها كانت تتناول ايضاً المصنوعات التي تنتجها البلدان الاسلامية نفسها وكلنا يعلم مبلغ ما وصلته الزراعة والصناعة الاسلامية من الرقي والدقة والاتقان فجزيرة العرب كانت ، على قحطها ، تنتج محصولات ثمينة كالبخور والمرّ واللؤلؤ ، والعراق كان يصدّر التمور والخزف والزجاج ، ومن الشام كانت تحمل المحاصيل الزراعية الوافرة لاسيما الفواكه والثمار ، ومن مصر الثياب والستور الملوّنة المصنوعة من القطن والكتان ، ومن افريقيا الزيت والفستق والزعفران ، ومن خراسان وما وراء النهر الادهان والزيوت العطرية وطراز الوشي وثياب الحرير والشعر ، ومن بلاد الديلم وطبرستان المناديل والاكسية والطيالسة ، ومن خوزستان السكّر والفواكه والديباج ، وقد اشتهرت في هذا الاقليم مدينة تُستر خاصة فكان ديباجها يحمل الى الدنيا ومنهُ تصنع كسوة الكعبة في مكة . [(١)] ويضيق بنا المجال عن تعداد المحاصيل والمصنوعات الغزيرة التي كانت تفيض بها بلاد الاسلام ، وحسبنا بما ذكرنا تلميحاً الى اثر هذه الحياة الصناعية النشيطة في تعزيز التجارة الاسلامية الداخلية والخارجية واتساعها

ولعلّ افضل ما يظهر لنا هذا الاتساع القطعة التالية التي وردت في كتاب « حديقة الورد » — غولستان — لشاعر الفرس الشهير سعدي قال: وكنت اعرف تاجراً لهُ قافلة كبيرة من الجمال وحاشية من المماليك الخدام ، اضافني ذات ليلة في منزله في جزيرة كيش وظلّ طول الليل يتكلم عن تجارته واعماله الى ان قال : يا سعدي ، انني ارغب في القيام بسفرة تجارية اخيرة ، أُتمها واعتزل التجارة ، قلت : « وما هي هذه السفرة » احمل كبريت فارس الى الصين ، واجلب فخار الصين الى بلاد الروم ، فاستبدل بهِ هنالك اقمشة حريرية ، وانقلها من بلاد الروم الى الهند ، واعود بفولاذ الهند الى حلب ، فاحمل زجاج حلب الى اليمن ، وارجع اخيراً بثياب اليمن الى فارس . فاذا وصلت الى وطني بسلام ، اعتزلت التجارة الاجنبية والاسفار البعيدة »[(٢)] . والآن ، بعد هذه الصورة السريعة الخاطفة التي

---

(١) الاصطخري ، مسالك الممالك (طبعة دي غويه — ليدن ، ١٩٢٧) ص ٩٢ — ٩٣ . راجع عن هذه المنتوجات ما يذكره المقدسي عن «التجارات» (٢) بتصرف عن الترجمة المقتبسة في كتاب J. W. Thompson، Economic and Social History of the Middle Ages ص ٣٥٩

رسمناها للتجارة الاسلامية لابدّ ان نتساءل عن أثر هذه الحركة التجارية في حضارة الشرق والغرب وفي ذلك التفاعل القوي بينهما الذي كان محور التمدن في القرون الوسطى

ان أثر التجارة الاسلامية في الحضارة الشرقية والغربية متعدد الوجوه متشعب النواحي ، ولا يمكننا في هذا المقام ان نلمّ الاّ ببعض هذه الوجوه والنواحي البارزة . فنجد اولاً ان الحركة التجارية الاسلامية ، التي بلغت من المدى والاتساع ما وصفنا ، كان لها اثر كبير في تقدم فن الملاحة وفي اكتشاف مجاهل البحر والبر . فاولئك التجار الذين كانوا يجازفون بمراكبهم وقوافلهم في البحور المجهولة والبراري النائية يحتلون المركز الاول بين رحّالي العالم وروّاده ، والعالم مدين لهم بالمعلومات الجغرافية التي جمعوها في رحلاتهم البعيدة ، ولعلّ من ابرز الادلّة على ذلك ما يروى عن الرحّالة البورتغالي Vasco de Gama الذي دار حول رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٨ انهُ لما وصل الى شواطىء افريقيا الشرقية كان الذي دلَّه الى طريق الهند بحّار مسلم يدعى احمد ابن ماجد.

ومما يظهر ايضاً سيطرة المسلمين على البحار ويؤيد فضلهم في تكوين الملاحة الحديثة تلك الكلمات العربية العديدة التي نجدها بين المصطلحات البحرية: ف admiral مأخوذة عن امير البحر ، و Cable عن حبل ، و barge عن بارجة ، و avarie (eng., average) عن العواريات و chaloupe (eng., shallop) و barque عن بركة الى غير ذلك[1] وكما في البحر كذلك في البرّ: فان الغرب ظلّ الى اوائل نهضته الحديثة يعتمد على جغرافيي المسلمين ورحاليهم وتجارهم لمعرفة الاقطار النائية كاواسط آسيا ومجاهل افريقيا الوسطى والشرقية

وللتجارة الاسلامية أثر لا يستهان بهِ في الادب العربي . من منا لم يقرأ رحلات السندباد البحري التي ادمجها الكتبة في قصص « الف ليلة وليلة » ؟ اننا اذا نزعنا عن هذه الاخبار ما حيك حولها من الانسجة الخرافية وجدنا نواتها تتفق تماماً مع اخبار الرحلات التي دوّنها لنا بعض تجار المسلمين ورحاليهم كالتاجر سليمان والحسن ابي زيد والمسعودي. فهذه القصص وامثالها التي تحتل مركزاً هامّاً في الادب العربي قد بنيت على اساس الرحلات البرية والبحرية التي كان يقوم بها التجار المسلمون

وأثر ثالث للتجارة الاسلامية هو في نشر الدين الاسلامي ودعوة شعوب الارض الى اعتناقهِ . فالامم الاسلامية لم تعرف ، حتى اوائل العصر الحديث جمعيات تبشيرية منظمة غايتها نشر الدين الاسلامي وتعميمه ، وانما ظل هذا الواجب ملقى على عاتق كل مسلم اينما كان في الارض يتبع في اتمامهِ قول القرآن الكريم : « أُدعُ الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن» (١٦ ، ١٢٦) . فاذا راجعنا تاريخ انتشار الديانة الاسلامية وجدنا في صفوف العاملين في هذا الحقل رجالاً ونساءً من مختلف طبقات المجتمع من الملك العظيم الى العامل الحقير، وشاهدنا التاجر في مقدمة هؤلاء العاملين يبشر بوحدانية الله العظيم ورسالة النبي الكريم بين الشعوب الوثنية النائية التي ينزل

(١) راجع مقالة Kramers, "Geography" and "Commerce" في كتاب The Legacy of Islam ص ٩٧ و Lamnens, Mots fransais dérivés de l'Arabe حيث اورد المؤلف هذه الكلمات بحسب ترتيبها الابجدي

في بلادها ويؤثر فيها بورعه وتقواه . ومما حبّب التجارة الى المسلمين انها كانت مهنة نبيهم في فتوته وشبابه ، وقد جاء عنهُ في الحديث الشريف : « عليكم بالتجارة فان فيها تسعة اعشار الرزق »

وقد وضع المستشرق الانكليزي الشهير Sir T. W. Arnold مؤلفاً خاصاً في تاريخ نشر الدين الاسلامي The Preaching of Islam فصل بهِ بأوضح اسلوب ما كان للتاجر المسلم من الشأن الكبير في نشر ديانته بين شعوب افريقية الغربية والوسطى والشرقية وامم الهند والجزر الشرقية وآسيا الوسطى حتى حدود سيبيريا

لكن ابرز اثر للتجارة الاسلامية هو فيما نقلته من ثقافة البلدان الاسلامية والهند والصين الى الغرب المسيحي وما كان لذلك من الفضل في تكوين الحضارة الحديثة . والثقافة — كما تعلمون — تتبع دائماً طريق التجارة وتنتقل مع المصنوعات والمنتوجات المادية وقد كان للتجارة في كل قطر وزمن اثر عظيم في نقل بذور الحضارة وشق طريق المدنية من الشعوب الراقية الى التي دونها رقياً وثقافة . وهنا ايضاً يمكننا ان نستدل على ذلك بالكلمات العديدة التي تسرّبت من العربية الى اللغات الاجنبية ، ويطول بنا المقام لو حاولنا ان نعدّد اسماء المنتوجات والمصنوعات المختلفة التي انتقلت الى اللغات الغربية والتي تظهر باجلى بيان الدين المادي والثقافي الذي تدين بهِ شعوب الغرب الحديثة للتجارة الاسلامية التي عرفتها بمصنوعات الشرق وحضارته . وحسبي ان اذكر بعض التعابير التجارية التي تدل ، بانتقالها الى لغات الغرب ، على سيطرة التجارة الاسلامية في القرون الوسطى . tarif من التعريفة ، و risque قد تكون من الرزق و calibre من القالب ، و tare من الطَرحة ، و magasine من المخازن و cheque من الصك و douane من الديوان [١] . وفي الاساطير اليونانية التي خلدتها لنا عبقرية هوميروس آلهة جبارة تجوب السماء بثلاث خطوات . ولقد تجرأت هذه الليلة على ان استعير اجنحة هذه الآلهة واطير بكم فوق ميدان التاريخ الاسلامي الفسيح ، مشيراً الى مجرى واسع غزير كان يروي الحياة الاسلامية ويمتد منها الى البلدان الدانية والنائية فيبعث فيها القوة والنشاط . فاذا كنت قد اسرعت في هذا الطيران ولم اتوقف بكم عند كل منظر من المناظر الخلابة ، فلأن المجال طويل والسفر بعيد ، وحسبي ان اكون لفتُّ انظاركم الى هذه الناحية المجهولة واثرت اهتمامكم فيها

لقد فتح المسلمون العالم فتحاً مزدوجاً : فتحاً سياسيًّا تحت راية الحرب وبظلّ السيف والرمح وفتحاً تجاريًّا اقتصاديًّا على متن قوافل البر وسفن البحر . وقد نشأت حول الفتح الاول ضجة عظيمة استوقفت انظار الناس ، ولكنني ارى في هذا الفتح الثاني — وهو جهاد السلم — من اعمال الجد والشجاعة والاقدام ما قد يفوق جهاد الحرب . وإن الاهة التاريخ التي الهمت المؤرخين منذ اقدم العصور الى الآن لن تلبث ان تهب لتنصف الجميع فاذا بعثت روحها في مؤرخي المستقبل وألهمتهم لكتابة التاريخ الاسلامي فصوروا قافلة المسلمين العظمى التي خرجت من الجزيرة العربية وسادت في البلاد وضعوا بجانب الفاتح الباسل ، والعالم الحكيم ، والاداري الحازم التاجر المقدام الذي كان يرود المجاهل ويجوب الفيافي ، والذي ضرب بسهم كبير في نشر الاسلام وفي احياء العلم والمدنية والسلام

(١) مقالة Kramers ، المذكورة اعلاه ، ص ١٠٥ ، راجع ايضاً كتاب Lammens المشار اليه آنفاً

مطاط من غاز

المطاط الصناعي وابداع الكيمياء التركيبية

لو كان كولمبوس متصفاً ببعد النظر الذي يصفه به مؤرخو سيرته ، لمات عن اعظم ثروة جمعها رجل فردٌ في عصرهِ . لان كولمبوس كان اول من نقل الى اوربا ، عندعودته الثانية من جزائر الهند الغربية ، قصصاً ونوادر عن شجرة غريبة تفرز لبناً عند جرح لحائها . فلم يدرك كولمبوس حينئذ ولا ادرك الرحالون الى العالم الجديد بعده ، عند ما رأوا اولاد الهنود الحمر يلعبون بكرات سود تقفز عند اصطدامها في الارض كأن بها شيطاناً ، ان هذه الكرات مصنوعة من ذلك اللبن ، وان صمغ شجرة الهيڤيا Hevea ، يعدل على الاقل في خطره ، خطر اكتشاف طريق جديدة الى الهند. والواقع ان احداً لم يدرك قيمة هذا الصمغ ، حتى كانت سنة ١٧٧٠ ، اذ رآه پريستلي مكتشف الاكسجين ، في حالته الجامدة ، فاستعمله لمحو آثار قلم الرصاص على صفحة من الورق ، فدعاه «الماحية الهندية» . ولا يزال يعرف في اللغة الانكليزية باسم rubber اي ماحية

***

في الطبيعة ناموس يسيطر على الاحياء ، والجوامد ، تستطيع ان تفرغه في قوالب مختلفة ، فقد تقول ان الانحدار من قمة الاكمة سهل وتوقلها صعب ، او قد تقول ، كما قال سبنسر انهُ انحلال الاجسام المتباينة المتناسقة الى جسم لا تباين فيهِ ولا تناسق . او قد تسميه مع عالِم الطبيعة الحديثة باسم « ناموس الثرموديناميكس الثاني » . ومؤداهُ ان الهدم في الطبيعة والاجتماع سهل ، ولكن التعمير صعب ، يصحّ هذا على الاطفال ولعبهم ، والبلاشفة وحضارتهم ، والكيماوي وموادّهِ . فالحلّ في عرف الكيمياءِ سهلٌ ولكن التركيب صعب ان لم يكن متعذراً في بعض الاحيان

وهذا يفسّر لك عجز الكيماويين عن تركيب المطّاط مع انهم عرفوا كيف يحلّونهُ من نحو ستين سنة . فحلّهُ عمل سهل وليس عليك الاَّ ان تتناول قليلاً من المطّاط الخام وتضعهُ في حوجلة وتحميه على النار . فاذا استطعت ان تراقب ما يتم ، على الرغم من الرائحة القوية الكريهة ، رأيت المطاط ينحل ، وسائلاً شبيهاً بالبنزين يتكوّن فوقهُ . هذا السائل « البنزيني » الشكل يدعى « الايزوپرين » . احفظ هذه الكلمة ولا تنسها

فالمطاط وتركيبه الكيمائي (كربون ٦ ايدروجين ١٦) يتحول بالاحماء الى (٢ كربون ٥ ايدروجين ٨) اي ان جزيئاً من المطاط يتحوَّل الي جزيئين من سائل الايزوپرين. ومن السهل ان تكتب المعادلة الكيمائية في الاتجاه المقابل اي ان جزيئين من الايزوپرين يعدلان جزيئاً من المطَّاط. افلا يستطيع احد العلماء ان يكشف السبيل الى تحويل هذين الجزيئين الى ذاك ؟

ان تحويلهما مستطاع، بل ان احد العلماء الانكليز كان قد حوَّلها اتفاقاً. ففي مايو ١٨٩٢ قرأ الاستاذ تِلدن Tilden رسالة امام جمعية برمنغهام الفلسفية، قال فيها انهُ دهش قبل بضعة اسابيع عندما رأى سائل الايزوپرين المستخرج من مادة التربنتين وقد تغيَّرت حالتهِ فتحوَّل السائل الصافي الشفاف الذي لا لون له الى شراب كثيف تطفو فيهِ قطع كبيرة صفر فلما فحصها وجدها قطعاً من المطاط

فلما حاول الاستاذ تلدن ان يعيد هذا التحويل، عجز عنهُ، ولا تزال مشكلة تحويل الايزوپرين الى مطاط تحويلاً تتوافر فيهِ الشروط الصناعية التجارية، مشكلة من اكبر المشكلات التي يواجهها علم الكيمياء الصناعية

وقد كان هذا العجز مما يبعث على الغيظ. لان امم العالم كانت تنفق نحو ٤٠٠ مليون جنيه كل سنة على المطاط، ولا ريب في ان جانباً كبيراً من هذا المال كان مصيرهُ الى جيب الكيماوي الذي يبدع طريقة لتركيب المطاط وخزائن الشركة التي تطبقها. لذلك كان التنافس بين العلماء، في سبيل السبق الى هذا الهدف، عنيفاً، بل بدا في مظهر زحام دولي بين انكلترا والمانيا اولاً

كان الانكليز قد سبقوا الالمان الى ابتداع طريقة لصنع الاصباغ الكيمائية، ولكن اهمالهم الطريقة وصاحبها، ساعد الالمان على انتزاع التجارة العظيمة التي بنيت عليها من ايديهم. فجمع الاستاذ پركن — محفوزاً بذكرى والدهِ السر وليم مستنبط الصبغ الصناعي الاول وكيف خذلهُ الانكليز — حولهُ في جامعة منشستر، طائفة من علماء الكيمياء للبحث في مشكلة المطاط وصنعهِ بالتركيب الكيمائي

اي فاعل كيمائي، يستطيع ان يقلب ذلك التفاعل فيدمج جزيئين من الايزوپرين منشئاً منهما جزيئاً من المطاط ؟

ففي يوليو سنة ١٩١٠، وضع الدكتور ماتيوز اتفاقاً، مقداراً من الايزوپرين على قطعة من الصوديوم المعدني لتجفيفهِ، وهي طريقة مألوفة في معامل الكيمياء تستعمل لاستلاب آخر قطرات الماءِ من مركب ما. وفي سبتمبر وجد ان الحوجلة المحتوية على الايزوپرين اصبحت تحتوي على كتلة جامدة من المطاط، بدلاً من السائل الطيار الذي لا لون لهُ

ولو ان هذا الاكتشاف تمَّ قبل عشرين سنة، لكان عديم الفائدة، لان الصوديوم كان عنصراً نادراً غالي الثمن حينئذٍ. ولكن ابتداع الطريقة الكهربائية لتحضيرهِ جعلهُ كثيراً رخيص الثمن. فيجب ان لا تقف ندرة الصوديوم حائلاً دون استعمال طريقة ماتيوز في تركيب المطاط من الايزوپرين

الاَّ ان وجه الصعوبة في تحقيق هذا الحلم الاخاذ كان في غلاء ثمن الايزوپرين . اذ لا يكفي في الكيمياء الصناعية ان تثبت ان تفاعلاً ما مستطاع من الناحية العلمية ، بل يجب ان تتوافر فيه الشرائط التي تجعلهُ صالحاً كذلك من الناحية التجارية ، اي يجب ان يكون عملاً يدرُّ ربحاً معتدلاً على القائمين بهِ . فاذا فرضنا جدلاً ان عالماً اكتشف طريقة لتحويل الزئبق الى ذهب ، فطريقتهُ هذه من الناحية الصناعية لا تجدي نفعاً الاَّ اذا كان ما ينفق على تحضير سنتغرام واحد من الذهب اقل من قيمة السنتغرام نفسهِ

كان الايزوپرين يحضَّر من التربنتين . ولكن التربنتين قليل ويقتضي جزَّ حراج الصنوبر . وماذا يكون ربحنا اذا جززنا اشجار الصنوبر بدلاً من بذلنا اشجار المطاط؟ واخيراً استقرَّ الرأي على تحضيرهِ من النشاء . فالنشاء رخيص الثمن ويمكن استخلاصه من البطاطس والذرة وغيرها

ولكن الكيماوي عجز عن استخلاص النشاء من هذه المصادر الاَّ بعد ان استعان بالبكتريولوجي لان تجزئة جزيء النشاء عملٌ يعجز عنهُ الانسان، ولا تستطيعهُ الاَّ بعض الحيوانات الدنيا — الخمائر — . فدعي الى منشستر عالمٌ بيولوجي فرنسي ، يدعى فرنباخ Fernbach ، وعهد اليهِ في هذه الناحية من البحث ، فقضى فيها سنةً ونصف سنة ، انجز في نهايتها طريقةً تمكنهُ من استخلاص مقدار من زيت الفوزيل من مادة نشوية . كان غرض مخمري النشاء قبلاً ان يكون مقدار زيت الفوزيل في النشاء المخمَّر اقل ما يمكن ان يكون لان هذا الزيت خليط من اصناف الكحول الثقيلة الوزن وهي جميعاً اكرهُ رائحة واشدُّ سمّاً من الكحول العادي . ولكن بعد تجارب پركن وصحبهِ تبيّن ، كما يتبين عادة في تاريخ الصناعات العلمية ، ان النفاية ، اصبحت ذات قيمة عظيمة . ولذلك اتجه جهد الاستاذ فرنباخ الى استنباط طريقة يكثر بها مقدار زيت الفوزيل عند تخمير النشاء لكي يصنع منهُ الايزوپرين باستعمال غاز الكلور

وفي خلال عناية الانكليز والاستاذ فرنباخ الفرنسي ، بصنع المطاط على الطريقة المتقدمة كان علماء الالمان معنيين كذلك بالموضوع نفسهِ ، واجتازوا فيهِ خطوة كبيرة نحو تحقيق الغرض . ففي سنة ١٩٠٥ اكتشف الاستاذ كارل هريز Karl Harries في برلين تركيب جزيء المطّاط . فكان اكتشافهُ هذا باعثاً قويّاً على تجديد العناية بالموضوع من ناحيتهِ الصناعية العلمية . وكذلك اتجهت اليهِ عناية مصانع باير المشهورة سنة ١٩٠٩ واستنبط الدكتور فرتز هوفمن Fritz Hoffman اسلوباً لتحويل الايزوپرين الى مطاط باستعمال الحرارة . وفي سنة ١٩١٠ اكتشف الاستاذ هريز طريقة استعمال الصوديوم لتحويل الايزوپرين الى مطاط ، وهي الطريقة التي كان ماتيوز الانكليزي قد اكتشفها في منشستر . ولكنهُ لما ذهب الى ادارة البانتنة لتسجيلهِ وجد ان الانكليزي قد سبقهُ الى ذلك قبل بضعة اسابيع

الاَّ ان المطّاط الصناعي ، لم ينجح في منافسة المطّاط الطبيعي في الثمن ولا في الحلول محلَّهُ عند

منع وارداته عن المانيا خلال الحرب الكبرى ، لما كانت مسألة الثمن لا شأن كبيرلها في نظر الحكومة الالمانية وحاجتها الى مادة حيوية كالمطّاط لا تقاس بالمال . فقد قبضت السلطات الاميركية على ثلاثة بحّارة من الدنمارك يحاولون ان يهربوا المطّاط الخاص باطباء الاسنان الى المانيا فاعترفوا بانهم كانوا يبيعون الرطل منهُ بما قيمتهُ ٧٣ ريالاً ، وكان الالمان يستعملونهُ لاحكام وصل الاجزاء في الكمامات الواقية من الغاز . وهذا مثال واحد يدلُّ على ان مقدار ما صنع من المطّاط الصناعي في المانيا خلال الحرب بطريقة هوفمن او طريقة هريز لم يكن كبيراً

اما الانكليز فانفقوا نحو اربعين الف جنيه على طريقة پركن مدة سنتين ولكنهم لم يبلغوا فيها شأواً بعيداً . الاَّ ان حاجتهم الى المطاط لم تكن ماسة لان مصادر المطاط الطبيعي كانت تحت سيطرتهم

فاذا كان الالمان قد عجزوا في خلال الحرب عن صنع المطاط بطريقة التركيب الكيمائي ،وحاجتهم اليهِ اشدُّ ما تكون ، ومسألة الثمن ليست بذات بال ، فالراجح انهُ لا يحتمل منافسة المطاط الصناعي للمطاط الطبيعي في ابان السلم ، الاَّ اذا اكتشفت طريقة جديدة ، اسهل من الطرق التي تقدم ذكرها

واذن فمشكلة المطاط الصناعي قد حلَّت من الوجهة العلمية ، ولكنها لم تحلَّ من الوجهة الصناعية . . . . . الا . . . !

***

ونقول . . الاَّ . . . لاننا اطلعنا في العدد الاخير من مجلة السينتفك اميركا على مقالٍ لعالم اميركي يدعى الاب نيولند (Nieuwland) فيهِ وصف لطريقة استنبطها لصنع ضرب من المطاط ، يصلح لما لا يصلح له المطاط الطبيعي مع انهُ يفوقهُ ثمناً . وهذا المطّاط الصناعي الجديد يدعى « دوپرن » Duprene

يقول الكاتب ان صناعة «الدوپرن» نشأت من بحث نظري في تفاعلات غاز الاسيتيلين . ذلك انهُ لاحظ سنة ١٩٠٦ ان تفاعلاً كيمائيًّا يحدث عندما يمرُّ غاز الاستيلين في كلوريد Chloride النحاس وكلوريدات الفلزات القلوية . لم يكن التفاعل عنيفاً ، فلم يتولَّد سائل جديد ولا جامد جديد . بل كان هناك رائحة جديدة . فظنَّ ان هناك غازاً جديداً وان هذه الرائحة رائحتهُ

وقضيت السنون الاربع عشرة التالية ، حتى سنة ١٩٢٠، في تجربة التجارب بغية زيادة التفاعل للحصول على الغاز الذي يولد هذه الرائحة، اذا امكن ، ودراسة تركيبه وخواصهِ . وأخيراً وضع كلوريد الامونيا محل كلوريدات الفلزات القلوية ، فلما مرَّ غاز الاسيتيلين في محلول كلوريد النحاس (Cuprous Chloride) وكلوريد الامونيا ، ظهر ان التفاعل اسرع جدًّا مما كان في المحلول القديم واستنفد المحلول مقادير كبيرة من غاز الاسيتلين في خلال التفاعل . وكانت دهشة الاب نيولند وصحبهِ عظيمة عند ما رأوا زيتاً جديداً قد تولَّد علاوة على الغاز ذي الرائحة المعروفة

وفي سنة ١٩٢١ ظهر ان هذا الزيت، مركّب جديد وان جزيئهُ مؤلف من اتحاد ثلاثة جزيئات من الاسيتيلين فدعي دايڤينيل اسيتلين (divinylacetylene) ومن خواصهِ شدة فعلهِ، ومنها ان معالجتهُ بدايكلوريد الكبريت (suphur dichloride) تسفر عن مادة مطاطة تشبه المطاط الطبيعي من بعض الوجوه ولكنها اكثر منها ميوعة مما يحول دون استعمالها

وفي سنة ١٩٢٥ حضر الاب نيولند مؤتمر للكيمياء العضوية في مدينة روتشستر بنيويورك فحدّث اعضاء المؤتمر بحديث هذه التفاعلات الجديدة التي كشفها فاهتم بالموضوع اصحاب شركة «دوبونت ده نمور» (وهي من اكبر شركات المواد المتفجرة والمفرقعة والسلاح في اميركا) فاشتروا امتياز هذا الاكتشاف من الناحية التجارية . ولكن البحث اثبت ان المطاط المصنوع من هذا الزيت لا يصلح لانهُ لا يحتفظ بليونتهِ الا مدة قصيرة ، وكل سعي لتصحيح هذا النقص فيهِ افضى الى الخيبة

الاَّ ان كيماويي الشركة لم يغفلوا في الوقت نفسهِ دراسة ذلك الغاز الذي استُدِلَّ عليهِ اولاً برائحتهِ. فبعد بحث قليل تبيّنوا انهُ في الامكان توليد مقادير كبيرة منهُ وعند تحليله ثبت انهُ مركب من اندماج جزيئين من جزيئات الاسيتلين ودعي (مونوڤينيل اسيتلين)

وقد بلغ علماء هذه الشركة من سيطرتهم على التفاعل الكيمائي الذي يولد الزيت والغاز المذكورين انهم يستطيعون اذا شاؤوا ان يقللوا من توليد الزيت ويزيدوا من توليد الغاز . وهذا من محاسن الصدف او من بدائع الاستنباط ، لان الغاز دون الزيت يصلح لصنع المطاط المعروف باسم دوپرين

واذ كان علماء شركة دو پونت ماضين في دراسة الغاز تبين لهم انهُ يتفاعل بسهولة مع كلوريد الايدروجين اي الحامض الايدروكلوريك ، فيتولد سائل طيار (اسمه كلوروپرين او كلوروبوتادين) وان جزيئات هذا السائل تتحد بعضها ببعض ، فتزداد كثافة السائل ثم يصبح مادة مطاطة ، يمكن تقسيتها بالاحماء فتصبح مطاطاً صناعياً جيداً — وهذا المطاط الجديد هو الدوپرين Duprene

ان نفقة تحضير الدوپرين الآن تجعله اغلى من المطاط الطبيعي . ولكنهُ يصلح لوجوه من الاستعمال لا يصلح لها المطاط الطبيعي فهو شديد المقاومة للغازولين والكيروسين والزيوت والاوزون والهواء والحوامض ، فلا بدّ ان يفتح استعماله سبلاً جديدة في صناعة المطاط . وهذه صناعة يمكن ان تترعرع في ابان السلم ثم تشجع ويوسع نطاقها في ابان الحرب في البلدان التي تخشى انقطاع الوارد من المطاط الطبيعي اليها . وجميع المواد الاساسية التي يحتاج اليها كوك Coke وجير لتوليد الاسيتلين وملح الطعام لتوليد الحامض الايدروكلوريك

فالكيمياء خلقت صناعة جديدة ومهدت لاميركا — ولمن يتبعها — سبيلاً جديداً للاستغناء عن بعض المصادر الطبيعية التي خارج بلادها

الدوامة الكونية

الدليل على ان المجرّة تدور كعجلة كبيرة

لعلّ اثبات دوران المجرّة اقوم دليل على وحدة الكون النجمي . وفكرة دوران المجرة ليست بالفكرة الجديدة . فقد سلّم بناة العوالم في الانظمة الكونية التي ابتدعوها بان الدوران يشمل المجرّات كما يشمل الذرّات . ولكن هذا الرأي النظري ، من حيث تطبيقه على المجرّة لم يفرغ في قالب علمي الاَّ سنة ١٩٢٦ ولم يقم الدليل التام على صحتهِ الاَّ سنة ١٩٣٣ .

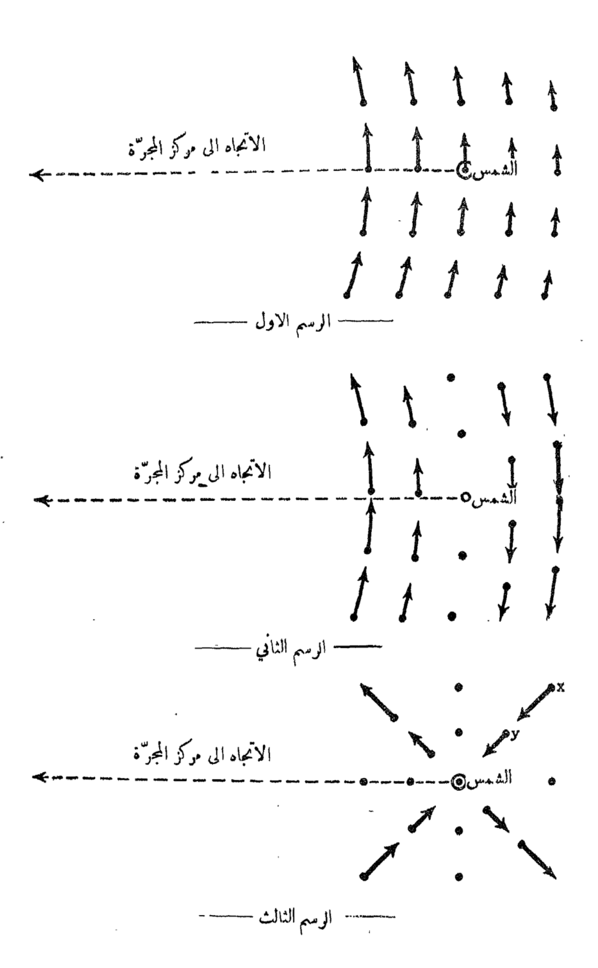
ففي سنة ١٩٢٦ قدم الفلكي السويدي لندبلاد Lindblad رسالة الى اكادمية العلوم السويدية ، بسط فيها نظرية حاول ان يعلّل فيها بعض اوصاف الحركة النجمية ، بفرضهِ انها نتائج لدوران المجرّة . وبعد بضعة اشهر ، وصف اورت Oort — وهو فلكي في مرصد ليدن لا يتجاوز السابعة والعشرين من العمر — وسائل الرصد التي يمكن الاعتماد عليها لامتحان نظرية لندبلاد وشرع في تطبيقها . وفي سنة ١٩٢٧ شرع الفلكي بلاسكت Plaskett — وهو احد علماءِ مرصد فكتوريا بولاية كولومبيا البريطانية بكندا — يطبق وسائل اورت على النجوم السحيقة التي سبق لهُ رصدها في مرصد فكتوريا ثم توسع سنة ١٩٣٣ في تطبيقها على مئات من النجوم الاخرى

فأحدث صورة رسمها العلم لدوران المجرّة ، قائمة على المباحث التي اتمّها هؤلاءِ العلماء الثلاثة ، اي لندبلاد السويدي واورت الهولندي وبلاسكت الكندي !

ولكن . . . ولكن اذا صحّ القول بان المجرّة قاطبة تدور كعجلة ، فكيف يمكن ان يكون فيها تياران من النجوم يسيران في اتجاهين متقابلين ، وهما التياران اللذان اكتشفهما العلاَّمة كابتين Kapteyn سنة ١٩٠٤ ؟ ثم ان سترومبرج Stromberg اكتشف سنة ١٩٢٤ ان النجوم السريعة — اي النجوم التي تزيد سرعتها على ٥٠ ميلاً في الثانية — متجهة جميعاً الى نصفٍ واحدٍ من القبة الفلكية دون الآخر وان حركتها عامودية تقريباً على مركز المجرّة في كوكبة الرامي فكيف يتفق كلّ هذا ودوران المجرّة ؟ وكيف يمكن تفسيرهُ ؟

***

لنفرض ان دوران المجرّة حقيقةٌ واقعة . فكيف يكون دوران النجوم في هذه الحالة ؟ كل ذلك يتوقف على توزيعها في الفضاء . فاذا كانت موزعة في المجرّة توزيعاً متساوياً اي اذا كانت ابعاد بعضها عن بعض متساوية ، فتأثير الجذب الى المركز ، يختلف بالنسبة الى بعدها عن المركز . وفي



الاتجاه الى مركز المجرّة
الشمس
الرسم الاول
الاتجاه الى مركز المجرّة
الشمس
الرسم الثاني
x
y
الاتجاه الى مركز المجرّة
الشمس
الرسم الثالث

هذه الحالة تدور المجرّة كأنها عجلة ، متماسكة الاجزاء اي انها تدور كأنها قطعة واحدة

ولكن النجوم غير موزّعة توزيعاً متساوياً في قبة الفلك ، بل هي اكثف تجمهراً قرب المركز منها عند الاطراف ، فقوة الجذب لا يمكن ان تعتمد على ابعاد النجوم فقط بل على مربَّع الابعاد وفي هذه الحالة تكون النجوم القريبة من المركز اسرع دوراناً من البعيدة عنهُ . فأقربها اليهِ أسرعها . وأبعدها عنهُ أبطؤها . ولنا على ذلك مثال في النظام الشمسي . فعطارد وهو اقرب السيارات الى الشمس سرعتهُ ٢٩ ميلاً في الثانية . وتليه الزهرة وسرعتها ٢١ ميلاً في الثانية . فالارض وسرعتها ١٨ ميلاً في الثانية وهكذا الى بلوطون وسرعتهُ ميلان في الثانية . وهنالك مثال آخر في النظام الشمسي نفسهِ وهو حلقات زحل فالدقائق المنتظمة في هذه الحلقات اسرع دوراناً في الحلقة الداخلية منها في الحلقة الخارجية

والمجرّة مؤلفة من ملايين النجوم ، بل ان عددها اكبر من عدد الدقائق التي تتألف منها حلقات زحل . ففي هذه الحالة ، ألا يكون من المعقول ان يفرض ان النجوم المتجمعة حول المركز ، تدور حولهُ بسرعات مختلفة ، في اتجاهها الى كوكبة الرامي؟ وقد يمكن تبيُّن ذلك في الرسم الاول ، مع ان النسبة في الابعاد والسرعة غير محفوظة لتعذّر ذلك على صفحات مجلة عند التمثيل الكوني

ففيهِ يرى القارىء ان السهام في الخط المتوسط تمثل سرعة الشمس . وهي سرعة متوسطة . فالنجوم التي اقرب من الشمس الى مركز المجرّة اسرع منها ولذلك يرى السهام التي تمثل السرعة اطول من السهام التي تمثل سرعة الشمس . اما النجوم التي تفوق الشمس في بعدها عن مركز المجرّة فاصغر من سهام الشمس للدلالة على ان سرعتها اقل

هذه هي حركة النجوم كما تبدو لمراقب ينظر الى المجرة من نقطة في الكون خارجها . ولكننا نحن على سيار يدور حول شمس ، هي نفسها احدى شموس المجرة . فلا نستطيع ان نرى هذه الحركة البسيطة . وهذا يعني ان جميع النجوم التي اقرب منا الى مركز المجرة اسرع منا دوراناً حوله ، وهي لذلك تفوتنا في مسارها الكوني ، واما النجوم التي ابعد منا عنهُ فأبطأ منا حركةً ، ولذلك تتأخر عنا في مسارها الكوني ، فتبدو كأنها تتحرك في اتجاه مناقض لاتجاه حركتها الحقيقية

ويمكن التمثيل على ذلك بالرسم الثاني

فهذا وهم بصري ، من قبيل الوهم البصري الذي يصيب رجلاً يطل من قطار سريع على قطار آخر بطيء السير ولكنه ماضٍ في اتجاه القطار الاول . فان المطل من نافذة القطار الاول يتوهم ان القطار الثاني يرجع الى الوراء

والواقع ان حركة اي نجم من النجوم هي خليط حركتين — عبور السماء وهي الحركة الحقيقية. وحركة التقدم او التباعد بالقياس الى المراقب على سطح الارض وتعرف بالحركة الشعاعية Radial Velocity ولما كانت النجوم اجساماً بعيدة عنا بعداً عظيماً فحركتها الحقيقية لا يمكن تبينها خلال عشرات

السنين التي رصدت فيها رصداً دقيقاً. واذاً فنحن نعلق املنا على معرفة حركتها التي تبدو فيها احياناً مقتربة منا او مبتعدة عنا

ومما يبعث على الاغتباط ان هذه حركة يمكن قياسها بصرف النظر عن بعد النجم عن الارض . وانما يشترط امكان الحصول على طيف واضح لضوء النجم الذي يراد قياس حركته . فاذا كان النجم مقترباً منا اتجه الحيود في خطوط الطيف الى اللون البنفسجي . واذا كان مبتعداً عنا كان الاتجاه الى اللون الاحمر . وبقياس مقدار الحيود ، تعرف سرعة حركة النجم . وعلى ذلك يبدو لمراقب على الارض ان النجوم طائفتان او تياران ، تيار يتجه الى الارض وتيار يبتعد عنها . ولكن هناك طائفة ثالثة من النجوم يبدو انها واقفة في مكانها لا حراك فيها . وهذا يفسَّر بأنها اما ان تكون نجومها واقعة على الخط الذي يصل بين الشمس وقلب المجرة واما ان تكون نجوماً موقعها عمودي على هذا الخط حيث تقطعهُ الشمس . والرسم الثالث يوضّح هذه الاقوال

***

فبعدما اتمَّ لندبلاد وضع نظريتهُ وضع اورت لها القواعد والعلاقات الرياضية ، وعمد الى امتحان النظرية بالرصد . فالنظرية مثلاً تقتضي ان يكون بعد النجم عنا ٢٠٠ سنة ضوئية ، حتى يحدث دورانهُ تغيُّراً في حركتهِ الشعاعية مقدارهُ كيلو متر في الثانية . ولكن ادوات الرصد لا تستطيع ان تتبين تغيراً يسيراً كهذا . فقرَّر اورت ان يحصر بحثهُ في النجوم التي بعدها الف سنة ضوئية على الاقل ، حتى يكون مقدار التغير في حركتها نحو خمسة كيلو مترات في الثانية . فوجد نحو ٣٠٠ نجم يسهل رصدها من هذا القبيل فرصدها ، فأسفر الرصد عن النتائج التي تقتضيها النظرية ، اي وجد دورانها يتفق ومقتضيات نظرية لندبلاد

هذا اتفاق يستوقف النظر بين الحقيقة المشاهدة والنظرية العلمية . ولكن الحذر العلمي يقتضي دراسة عدد اكبر من النجوم قبل البت في صحة النظرية . ومن حسن الحظ ان العالم الكندي بلاسكت كان قد عني قبل بضع سنوات برصد طائفة من هذه النجوم لاغراض اخرى ، ودوَّن في خلال رصده لها سرعة حركتها الشعاعية . وكان عدد هذه النجوم ٥٥٣ نجماً وقد زادها بلاسكت ومعاونهُ بيرس Pearce الى ٨٤٩ نجماً سنة ١٩٣٣

فعندما نُظر في حركة هذه النجوم من ناحية نظرية لندبلاد ومعادلات اورت ، اتضح ان كلَّ ما تتطلبهُ النظرية محقَّق في ما دوِّن عنها . فجاءت دليلاً قاطعاً على دوران المجرَّة بحسب نظرية لندبلاد . ودوران المجرَّة الآن من اكثر الحقائق الفلكية ثبوتاً

الفيلسوف لوك

وأثره في تطور فن التربية

لحسن كامل

مدرسة القبة الثانوية الاميرية

لوك قبل كل شيء عالم نفساني واستاذ ضليع من فن تحليل اصل الآراء وعناصر العقل. وهو على رأس تلك المدرسة التي تضم تحت علمها كونديـّاك في فرنسا. وهربارت في المانيا وهيوم ومعظم الفلاسفة المحدثين في انكلترا. ولكن المرحلة بين علم النفس وعلم التربية سهلة الاجتياز ولذلك لم يبذل لوك مجهوداً ضخماً ليبرّز في التربية بعد ان استوت له مكانته كفيلسوف كبير

﴿ بعض الآراء في التربية (١٦٩٣) ﴾ — هذا هو عنوان متواضع لكتاب نشره لوك في نهاية حياته واودعه ثمرة تجربته الطويلة. فقد كان طالباً نابغاً في كلية وستمنستر وشعر منذ نعومة اظفاره كما شعر ديكارت في كلية فليش — باشمئزاز من التعليم النموذجي الشكلي البحت. وكان مثلاً يحتذى للطلبة في جامعة اكسفورد. وفي عام ١٦٥٦ فاز بشهادة البكالوريا في الفنون وعين محاضراً في اللغة اليونانية فمدرساً للبلاغة والفلسفة الخلقية

ويرجع الفضل في تكوين اغلب آرائه في التربية الى اقامته في اكسفورد. وقد دأب على تطبيق هذه الآراء وتمحيصها مستعيناً في ذلك بملاحظة الاطفال في أُسر اصدقائهِ عن كثب حتى تمكن بدراسته اياهم وتتبعه تطور امزجتهم ونفوسهم من وضع نظرياته في التربية تلك النظريات المطبوعة بآثار تجربتهِ العملية. فما لا ريب فيهِ ان كتابه « آراء في التربية » هو ثمرة اشتراكه مع اصدقائه في تربية ابنائهم. وقد فاز هذا المؤلَّف بشهرة عالمية. وكان لما عرض فيهِ من نظريات اعمق الأثر فيما كتب روسو وهيلفيتيوس في موضوع التربية. وقد قال عنهُ احد اساتذة علم التربية الفرنسيين في اواخر القرن الثامن عشر « لو اعيد طبع هذا المؤلف الآن لاحرز نجاحاً عظيماً جدًّا »

﴿ تحليل كتاب « آراء في التربية » ﴾ — هذا الكتاب جدير بأن يقرأ من اوله لآخره. فقد درس فيهِ لوك جميع مسائل التربية دراسة عميقة في بعضها وسطحية في البعض الآخر. ولذلك فمن العسير ان يستطيع المرء ان يقوم — في مقال قصير — بتحليل وافٍ لاجزاء هذا السفر الجليل جميعاً. ولكننا سنحاول جهد الطاقة أن نستخلص منهُ اهم مبادئهِ الاساسية وهي: ١ً — مبدأ

---

(١) يعنى الاستاذ حسن كامل بوضع كتاب في تاريخ المذاهب المختلفة في التربية وتطورها، وهذا المقال منتزع من فصل في « فلاسفة القرن السابع عشر واثرهم في تطور فن التربية »

التقشف في التربية الجسدية : ٢ً — مبدأ الفائدة العملية في التربية الفكرية : ٣ً — اما فيما يتعلق بالتربية الخلقية فلوك ينادي بالشرف كمبدأ يعتبره قاعدة حكم الانسان لنفسه بنفسه

﴿ التربية البدنية ﴾ — مَثَلُ التربية الأعلى في نظر لوك هو مبدأ « العقل السليم في الجسم السليم » . وقد كان لوك طبيباً ولذلك فهو اخصائي في مسائل تربية الجسم . ولكن كثيراً من المربين يعتقدون انهُ اساء الى آرائهِ بمبالغته في المطالبة بحرمان الجسد حرماناً متطرفاً . فهو يقول ان نظريته تتلخص في عدد قليل من القواعد سهلة التطبيق وهي : كثير من الهواء . والتمرينات . والنوم . ونظام في الأكل بسيط يجب ان نستبعد منهُ النبيذ والمشروبات القوية . وملابس ليست كثيرة الضيق ولا شديدة التدفئة . واخيراً وبشكل خاص ينبغي ان يتعوَّد الانسان ان يكون رأسه وقدماهُ باردة . وان يغسل قدميهِ كثيراً بالماء البارد وان يعرضهما للرطوبة

ولوك هو اول مربٍّ تكلم في اسهاب وانتظام عن غذاء الطفل وملابسه ونومه . وهو واضع هذا المبدأ الذي اخذه عنهُ روسو وهو : « فلنترك للطبيعة امر تكوين الجسم كما تريد » ولذلك فهو يشير بعدم استعمال الملابس الضيقة وبالحياة في الهواء الطلق والتعرض للشمس . وبأن يلعب الاطفال عراة الرؤوس والاقدام لا يؤثر فيهم الحر ولا البرد

اما فيما يتعلق بالتغذية فلوك يحرم على الاطفال حتى سن الرابعة السكر والنبيذ والتوابل واللحم وهو يبيح لهم التفاح والكمثرى ويمنعهم من اكل الخوخ والبرقوق والعنب . ولا يرى لوك انهُ من المحتم ان نحدد دائماً ساعة معينة لتناول الطعام . وهذا خطأ لا يقره عليهِ احد . ثم انهُ يطالب بأن يكون حذاء الطفل رفيعاً لدرجة تسمح للماء ان ينفذ الى قدميهِ اذا وضعتا فيه ! . . . .

والثابت ان لوك يريد معاملة الاطفال في قسوة كبيرة . وهذا غريب حقًّا لو عرفنا ان لوك نفسه كان رقيق المزاج . ولعل مدام دوسو ڤينييه كانت اكثر منهُ حكمة واقرب منهُ الى الصواب عند ما قالت : « اذا كان ابنك قوي البنية فالتربية الخشنة هي التربية المثلى لهُ . وان كان رقيقاً ففي محاولة جعله قويًّا قتلٌ لهُ »

واساس فكرة لوك انهُ يعتقد ان الجسم يتعوَّد كل شيء . ولإثبات خطأ هذه الفكرة يكفي ان نسرد قصة بطرس الاكبر الذي اعتقد يوماً انهُ ينبغي على جنود البحرية ان يعتادوا شرب الماء الملح واصدر فعلاً امره الى الصبية الذين كانوا لا يزالون في دور التمرين بألاَّ يشربوا الاَّ ماء البحر . فكانت النتيجة ان ماتوا عن آخرهم . ووقفت التجربة عند هذا الحد

وعلى الرغم من ان تعاليم لوك من هذه الجهة لم تجد محبذاً لها غير روسو الاَّ انهُ يجب علينا الاعتراف بأنها في مجموعها اثارت اعجاب كثير من المربين لانها قائمة على فكرة الرجولة في المعاملة والقناعة ولانها تقرب الطفل من الطبيعة بقدر الامكان مستبعدة بذلك كل رخاوة وافتعال للرقة

﴿ التربية الخلقية ﴾ في اعتقاد لوك ان التربية الخلقية تفوق التعليم الحقيقي شأناً وتأثيراً ويقول

في ذلك . ان ما يتمناه الرجل الكامل لابنه الى جانب ما يتركه لهُ من ثروة هو اولاً : الفضيلة. ثانياً : التبصر . ثالثاً : الاخلاق الحسنة. رابعاً : التعليم

والفضيلة والتبصر اي الصفات الخلقية والصفات العلمية هي في رأيه في المكان الاول . « اما التعليم فهو أتفه اجزاء التربية» وهو في كتابه «آراء التربية» يكثر من التكرار والعود الى ما عرض لهُ من مسائل . ولكنهُ اكثر ما يكون الحاحاً في ضرورة تذرُّع الانسان بالفضيلة وتمسكه بأهدابها

وليس من شك في ان لوك — ويشبهه في ذلك هربرت سبنسر — لم يلتفت الى التأثير الخلقي الذي يتركه نور العلم في قلب المرء وارادته . ولكنهُ عارض بفكرتهِ السابقة رأي البعض القائل بوجوب تجميل الذاكرة بالمعلومات وانماء الذكاء قبل كل شيء فلا ريب ان اهم مسائل التربية هي تكوين عادات خلقية طيبة وبذر بذور العواطف النبيلة وانشاء اخلاق فاضلة

﴿ الشرف مبدأ النظام الخلقي ﴾ ماذا اعدَّ لوك من وسائل لتحقيق ما يصبو اليه من تربية خلقية يضعها موضعها اي في المحل الاول ؟ لم يكن مبدؤه المنفعة قبل كل شيء كما نادى بذلك روسو فيما بعد . لانهُ وان كان نفعيًّا (utilitaire) في التعليم والتربية الفكرية كما سيظهر فيما بعد فانه لم يكن كذلك في التربية الخلقية . وكان يعارض معارضة شديدة في مبادىء الارهاب وسلطة المدرّس والآباء القائمة على الخوف من العقاب وعلى الشعور بالرعب الذي يبغضه لوك لما فيه من عبودية . وهو لذلك ينقم على نظام العقاب . ولم يتكلم لوك عن حنان الآباء ومحبتهم لانهُ كان لا يعتقد بامكان الحصول على نتيجة كبيرة من طريق حساسية الطفل (la sensiblité de l'enfant)

ولكنه كان يريد معاملة الطفل منذ نعومة اظفاره معاملة الرجال . ناسياً بذلك ضعف طبيعة الطفل. ولذلك تراه ينادي بتأصيل عاطفة الشرف في نفس الطفل من البدء وحثّهُ على الخوف من الخجل ولعلَّ هذا شعور نبيل اخشى ان يكون فوق مستوى مواهب الطفل . فالشرف وهي كلمة يعتبرها — المفكرون مرادفة لكلمة الواجب — يمكن ان يكون مرشداً لضمير مراهق تمَّ تكوينه او ما يقرب من ذلك . ولكن أليس من غير المعقول من الناحية العملية ، ان يشعر الطفل منذ سنواته الاولى بتقدير او باحتقار من حوله ؟ وقد قال في ذلك احد ناقدي لوك الانكليز : « اذا كان من المستطاع ان نوحي الى الطفل بالاهتمام بسمعته . اذن لاعترفت مع لوك بأن في مقدورنا ان نكوّن الطفل كما نريد وان نعلمه حب الفضيلة باشكالها المتباينة » . ويضيف هذا الناقد الى ذلك قوله « ولكنني اشك في ذلك كل الشك رغم كل تأكيدات لوك »

وقال (كانت) بحق « انه لجهد ضائع ذلك الذي نبذله في التحدث الى الاطفال عن الواجب . فهم يرونهُ شيئاً لو خولف لتبع مخالفته العقاب . لذلك لا يجب ان نحاول اثارة عاطفة الخجل عند الطفل . بل يجب الانتظار حتى يصبح شابًّا لان هذه العاطفة لا يمكن ان تجد لها مجالاً في نفسه الاَّ اذا ثبتت فكرة الشرف فيها » . ولوك يخطىء عند توهمه ان للطفل من النشاط الخلقي ما يسمح

لنا بالاعتقاد بان مجرد الشعور بالشرف يمكن ان يكون رائده . وهو يخطىء ايضاً في اعتماده على قوى الطفل الفكرية التي يراها كافية للتباحث معه ابتداءً من اليوم الذي يتكلم فيه

ولأجل تزويد الطفل بالعادات الطيبة وتهيأته للفضيلة تضع الطبيعة تحت تصرف المربي حساسية الطفل نفسه ومنفعته ونور ذكائه . ولا يمكن الاَّ مع انقضاء الزمن وتقدم السن ان يصبح مبدأ سام كالشعور بالشرف وبالواجب، قانوناً اعلى يسيطر على ارادة الطفل ويلزمهُ بضربٍ خاص من التصرُّف

وخطأ لوك في طريقته في التربية الخلقية يرجع الى انهُ لا يريد الاستعانة بقلب الطفل ومقدرته الكبيرة على الحب . والى اسراعه في معاملة الطفل كمخلوق عاقل وتقوية مبدأ استقلال النفس عنده

ولعلَّ من الصواب ان يقال انهُ ان كان من الخير ان تحترم حرية الرجل وكرامته عند الطفل فلا ينبغي بتاتاً ان ينقلب هذا الاحترام خرافة . وليس من المؤكد ان استبعاد الخوف والضغط هو من شروط تكوين الارادة الثابتة القوية

﴿ استبعاد العقوبات الجسمانية ﴾ — لم يتوسع لوك في شرح نظريته في النظام الخلقي (la discipline morale) . ولكنهُ بقدر نقص تفصيله في شرح الجزء الايجابي من نظريته اسهب في تفصيل ما لا يجب ان نعمله لتحقيق اغراضه . وتعد الفصول التي كتبها لوك عن العقاب الجسماني من أمتع ما كتب . وقد نقل روسو كثيراً منها . وثمة تشابه بين نظرية مونتيني في «الوداعة القاسية» وقاعدة لوك في التربية الخلقية . فكلاهما يقول بان نظام السوط نظام استعباد يجعل من الطفل عبداً . ولم يخرج لوك على آراء عصره الاَّ في نقطة واحدة وهي انهُ اباح استعمال السوط في الاحوال الخطيرة ولاجل كبح جماح الطفل الثائر العنيد . ولا شك ان في هذا الرأي جرأة ممدوحة في وقت كانت فيهِ المعاهد العلمية في انكلترا تعتقد انها ملزمة بأن تذيع على الجمهور وتنشر في اعلانات الصحف ان تحريم العقاب الجسماني يعد بين مزايا التربية فيها

ومن العجيب ان نعرف ان المدرسين احتفظوا على الرغم من كل ذلك بعادتهم القديمة في تأديب التلاميذ بالسوط . والاغرب ان الطلبة انفسهم كانوا متمسكين به كل التمسك . فقد كتب احد الطلبة الانكليز القدماء يقول «في عام ١٨١٨ كان لناظر مدرستنا آراء خاصة جريئة . فاراد استبدال السوط بالغرامة المالية . ولكن الطلبة قاموا في وجه هذا الاصلاح . وذلك لان السوط كان لا يتعارض في نظرنا وكرامة الرجال . ولكن الغرامة اهانة لا يمكن ان تمحى ! . . . وصاح الطلبة فلتسقط الغرامة وليحيا السوط ! وانتصرت ثورة الطلبة وأُعيد نظام السوط . وفرحنا لعودته فرحاً عظيماً . وفي صبيحة اليوم التالي لالغاء الغرامة وجدنا عند دخولنا قاعدة الدرس غابة من الاسواط كبيرة . وقضى المدرسون وقتهم في استعمالها بأمانة تامة»

﴿ التربية الفكرية ﴾ ينتمي لوك الى عائلة المربين النفعيين (pédagogues utilitaires) قليلي العدد في ايامه . فهم لا يريدون تكوين رجال ادب وعلم بل رجالاً عمليين مسلحين للنضال في الحياة

مزودين بالمعارف التي هم في حاجة اليها لتسوية حسابهم وتسيير دفة شؤونهم المالية وارضاء مطالب حرفهم واخيراً للقيام بما عليهم كرجال ومواطنين

﴿ دراسات نفعية ﴾ (Etudes utilitaires) . من اهم ميزات لوك انهُ كافح التعليم الشكلي البحت الذي لايفوز الانسان فيهِ الاَّ بثقافة اسمية . وهو يزدري الدراسات التي تؤدي مباشرة للاستعداد للحياة. ولكنهُ بالغ في نقده ومدح التعليم الواقعي (réaliste) ناسياً بذلك ان الدراسات القديمة ان لم تكن نافعة بمعنى الكلمة الحقيقي وان لم تكن تكفي لسد الحاجات العادية للمعيشة فأن لها فائدة اسمى بمعنى انها تصبح اداة جيدة في التنظيم الفكري اذا استخدمت استخداماً حسناً. ولكن لوك كان يخاطب اناساً متعصبين متحذلقين يعتقدون ان دراسة اللغتين اللاتينية واليونانية هي كل التعليم وغاية الغايات لا وسيلة من وسائل التعليم

ولا يجب ان نفهم ان لوك كان نفعيًّا اعمى يرغب في استبعاد كل دراسة ليس من ورائها نفع محقق . وكل ما هنالك انهُ لا يريد ان يضحي في سبيل هذا النوع الاخير من الدراسة تعليماً اعظم شأناً واكبر نفعاً

﴿ برنامج الدراسة ﴾ . يعتقد لوك انهُ ينبغي ان يتعلم الطفل الرسم منذ المامه بالقراءة والكتابة ولكنهُ يحتقر الفنون التي لم يسمح لهُ بروده الطبيعي بفهم اثرها العميق الوديع في نفس الطفل . وهو يحبّذ الرسم لما لهُ من فائدة عملية وهو لذلك يضعه في مستوى القراءة والكتابة

فاذا ألم الطفل بهذه العناصر وجب ان يمرن بلغة والديهِ على قراءة القصص الصغيرة وعلى الانشاء وكتابة الخطابات العائلية وما الى ذلك

ويتبع ذلك دراسة لغة اجنبية حية . وينصح لوك لمواطنيه بدراسة اللغة الفرنسية فاذا تمكن الطفل منها تعلمَّ اللاتينية. وقد طبق ما يشبه هذا النظام في فرنسا في القرن العشرين واضيفت اليهِ العلوم

***

اما فيما يتعلق باللغة اللاتينية فلوك يريد ان يتعلمها الطفل بواسطة الاستعمال والمحادثة اذا امكن وجود استاذ لتعليمها فاذا كان ذلك مستحيلاً فبالقراءة . وينصح بالاقلال من قواعد النحو والصرف بقدر المستطاع (وهذا من آخر ما وصل اليهِ علماء التربية في تعليم اللغات في أيامنا هذه) والغاء المحفوظات وموضوعات الانشاءِ اللاتينية نظماً كانت او نثراً . ويحبذ التبكير في قراءة نصوص لاتينية سهلة . فهو لا يريد ان يتقن الطفل الكتابة باللغة اللاتينية بل يقول بان الغرض من دراسة هذه اللغة هو امكان فهم المؤلفين الذين كتبوا بها . ولكن المشايعين للقصائد الشعرية والخطب اللاتينية لم يسكتوا على احتجاج لوك على طريقتهم ومضوا يعذبون الطفل بارغامه على الكتابة بلغة لا يجيدها وفي موضوعات يكاد يجهلها . اما اللغة اليونانية فلوك يريد استبعادها تماماً ويقول انهُ يعرف تماماً ما لهذه اللغة من جمال ويعترف انها مصدر التحف الفنية التي تفخر بها علومنا وآدابنا

ولكنهُ يريد ان يقصر دراستها على المطلعين والادباء والعلماء الاخصائيين وينصح بالغائها من التعليم الثانوي الذي يجب ان يكون مدرسة الحياة

فاذا خفف نظام الدراسات القديمة اتسع المجال لدراسات ذات فائدة عملية مثل دراسة الجغرافيا التي يضعها لوك في المكان الاول لان فيها مرانة جيدة للذاكرة والنظر . والحساب لانهُ ذو فائدة كبيرة في جميع اعمال الحياة حتى انهُ لا يكاد يوجد عمل لا يلجيء فيهِ للاعمال الحسابية . وما يسميه هو علم الفلك وهو في الواقع دراسة مبدئية لسير الكواكب . واجزاء الهندسة اللازمة لرجل الاعمال « والتاريخ » وهو « اكثر الدراسات لذة وابعدها اثراً في تثقيف العقل » وعلم الاخلاق والقانون والتشريع العادي كثير الاستعمال والفلسفة الطبيعية اي العلوم الطبيعية واخيراً حرفة يدوية ومسك الدفاتر

﴿ دراسات جذابة ﴾ ولما كان لوك نفعيًّا في اغراضه فهو يود ان نستخدم في التربية الفكرية وسائل جذابة فهو بعد ان وجه نقداً مرًّا الى المربين الذين يبعثرون قوى الطفل في دراسات مجدبة اعلن كراهيته لما يراهُ من شدة التمسك والاخلاص للاساليب التعليمية البحتة تلك الشدة التي ادّت الى وسائل تمجها النفس وطرق مضنية لا يظهر المدرّس بسببها الاّ بمثابة معكر لصفو حياة الطالب

وعلى الرغم من انه يبالغ في آرائه من هذه الناحية فان له كل الحق في المطالبة بتطبيق اساليب جذّابة ولقد ذهب في هذا الصدد الى حدّ القول بأنهُ يريد ألاّ يجد الطالب فارقاً بين الدراسة واي نوع آخر من التسلية . وفي هذا ولا ريب شيء كثير من المبالغة . ولعله اراد ان يقول انهُ ينبغي علينا العمل على تذليل الصعاب الاولى في دراسة العلوم وعلى اغراء الطفل واسره دون الضغط عليه والابتعاد كل البعد عن الظهور بمظهر من يريد ان يلزم الطفل بالدراسة . وهو الامر الذي طالما اوحى الى الاطفال نوعاً من الاشمئزاز . وهو لذلك ينصح بالالعاب التي يمكن استخدامها في التعليم (jeux instructifs) لاجل تعليم الاطفال القراءة والاعمال الاولى ويقول في ذلك « يجب ان يتعلم الطفل القراءة وهو شاعر انهُ يتسلى »

ذلك ان الطفل في رأيه غيور على استقلاله ولسنا نعرف مربياً عرف قبل لوك حاجة الطفل الى النشاط والحرية . وانهما امران طبيعيان فيه . كما لا يعرَف مربياً سبقه الى الالحاح في ضرورة احترام ذوق الطفل الشخصي وتعلقه باستقلاله

وقد قال بعده سلفه الانكليزي هربرت سبنسر « لا يحتفظ العقل الاّ بالمعارف التي توحي اليه السرور والانتعاش . ولا يجد العقل سروراً وانتعاشاً الاّ عندما نثير فيه نشاطاً عاديًّا يتناسب مع قواه الطبيعية . ولا يمكن ان يصح تعليم الاّ في جو من النشاط »

﴿ الاستظهار ﴾ يقول لوك انه لا فائدة من الحفظ عن ظهر قلب . وذلك لان الذاكرة في رأيه ليست قابلة للتقدم وهو يقول ان النفس كفاءة فارغة جامدة وليست مجموعة من النشاط والقوى

الحية التي تفيدها المرانة وهو لا يعتقد ان المواهب على اختلاف انواعها يمكن ان تكبر او تنمو . وذلك لانهُ لا وجود لها بتاتاً في نظره ! . . . ولعلَّ من الخير ان نترك هنا لوك يتكلم عن نظرياته بنفسهِ : اعرف جيداً بوجود مربين يدعون انهُ يجب على الطفل ان يستظهر بعض الدروس لأن في ذلك مرانة لذاكرتهِ وانماء لها . ولـكن هذا الادعاء لا يستند الى ملاحظات صحيحة بل الى مجرد وجود عادة قديمة . ولست اشك في ان قوة الذاكرة ترجع الى طريقة تكوينها لا الى تقدم تكتسبهُ بالمرانة والعادة . والواقع ان العقل لا يستطيع ان يعي الاَّ الاشياء التي يعيرها التفاته . وانه — لاجل ان يحتفظ بها — في حاجة الى التفكير فيها ليطبعها من جديد في ذاكرته . وهذا يجري بنسبة قوة الذاكرة الطبيعية . واذا نحن طبعنا الشمع او القصدير بطابع فان هذا الطابع يظل زمناً اقصر بكثير من طابع آخر على النحاس او الحديد . ولاشك ان التأثير في النفس يدوم زمناً اطول اذا داومنا على تجديده بالتفكير فيهِ ، ولنعلم ان كل عمل من اعمال التفكير في تأثيرٍ ما هو بمثابة تأثير جديد . ولا يجب ان نفكر الاَّ في عدد هذه التأثيرات اذا اردنا ان نعرف الزمن الذي يمكن للعقل ان يحتفظ خلالهُ بهذا التأثير . ونحن اذا دفعنا الطفل الى استظهار بضع صفحات باللغة اللاتينية لا نؤهل ذاكرتهُ لان تعي شيئاً آخر غير هذه الصفحات الاَّ بقدر ما نهيء سلاحاً من القصدير لان يحتفظ بطوابع اخرى غير فكرة نكون قد حفرناها عليهِ ! ! . واذا صح كلام لوك أصبحت التربية باسرها مستحيلة لانها تفرض مبدئيًّا وجود مواهب طبيعية يمكن ان نجعلها بالمرانة خصبة نامية

﴿ وجوب تعلّم حرفة ﴾ واخيراً يريد لوك ان يتعلم تلميذه حرفة . ولـكن الاسباب التي استند اليها في ذلك تختلف عما استند اليهِ روسو من اسباب . فلوك يقصد من وراء تعليم حرفة يدوية للرجل الكامل (the gentleman) ان يهيأ لعقله تسلية وفرصة للراحة من جهة ولجسمه تمرينات نافعة من جهة اخرى . ولـكن روسو كان يود ان يتعلم تلميذه حرفة يدوية ليقي نفسه شر الحاجة اذا ما ثارت ثورة انتزعت منهُ ثروته . بل ان روسو كان متأثراً في رأيه هذا بهواجس اجتماعية يعتبرها البعض مخاوف اشتراكية فالعمل في نظره واجب يتحتم على كل فرد القيام بهِ « غنيًّا كان او فقيراً »

﴿ دور العمل ﴾ ومع ان لوك وجه كل اهتمامه الى الدراسات القديمة وتربية الرجل الـكامل الاَّ انه لم يهمل تماماً مسائل التعليم الابتدائي . فقد كتب للحكومة الانكليزية تقريراً في عام ١٦٩٦ طالب فيهِ بتنظيم دور للعمل (Working schools) لاولاد الفقراء . وذكر في هذا التقرير ان كل طفل يزيد على الثالثة من عمره ويقل عن الرابعة عشرة يجب ان يجد في هذه الملاجيء عملاً وغذاءً

وفكرة لوك في ذلك هي ضرورة مكافحة فساد الاخلاق وذيوع الفاقة في طبقة خاصة من الشعب ومحاولة معالجة الكسل والتشرد وتخفيف رقابة الام المنصرفة الى عملها وتكوين رجال جد وعمال مجدين . وقد حاول بذلك تحقيق اصلاح اجتماعي واسع النطاق . واصبح مربي الرجل الـكامل مهذّبَ الفقراء

وقفة امام (ابي الهول)

لراجي الراعي

يا آلـه الصمت . ويا ملتقى الاسرار . ويا عقدة الالسنة . ويا مثال المتأملين . ايها العظيم الذي اتخذ عظمته من صمته . يا ربيب الرمال ويا رفيق « الاهرام » ويا عجيبة المصريين . . ايها الاسد الرائع المتحفز منذ القدم للوثوب على فريسته التي لم يجدها بعد . . يا مصيبة الثرثارين . . ويا محط رحال الحائرين . . ايها المتجبر العنيد الذي لم يخفض رأسه لاحد في الدنيا التي مرّت كلها من امامه . . . ايها الضاحك الباكي، السعيد البائس ، الحائر المهتدي، الثمل الصاحي، القوي باهرامه، الضعيف برماله، الجريء بصدره، الجبان بلسانه . . . ايها البحر الذي تلاطمت فيه الامواج ولم تنفث زبدها في فمه . . ايها الساحر المسحور ، سحَره غده الذي يزحف اليه فسحر بدوره يومه الذي يطل عليه . . . ايها الناسك الاكبر الذي لم يؤمن بالعالم فأقام في صومعة الرمال وانقطع الى ربه والى نفسه ، زعيم الناسكين تدق لهُ نواقيس الذكرى في اودية التاريخ التي تعاقبت عليه ومن يستطيع ان يحصيها . . . ايها الثمل بالذكريات غمرته بخمورها فلم يقو على العربدة وكيف يعربد الغريق، وصرعته بجمالها وقبحها فجمد كالمجنون وتطأطأت عليه الخلائق . .

ايها البطل الضائع الذي ازدحمت في بطولته مشاهد القرون على مختلف صورها والوانها فضاقت بها ذرعاً ولبثت مكانها لا تبدي حراكاً !

ايها المبرّد بوسادته الحجرية لظى المغرمين ، المخجل برباطة جأشه المذعورين الفارين، المحطم بصخرة حيرته وشكه سفينة المهتدين ، المخرس بفصاحة عينيه زمرة المعربدين ، الهازىء بالعابرات والعابرين ، الضاحك على الاذلاّء الخانعين ، الباكي على الضاحكين الموقظ الراقدين المتفرس في المستيقظين

يا « ابا الهول » الذي هالته نفسه فلم يعرف اين يضعها وكيف يعبر عنها ، ويافتنة «النيل» ويا سمير الفراعنة ويا رب وادي الملوك ، ايها الامين الاكبر الذي يحمل مفاتيح

التاريخ ولم يخن يوماً واجب الامانة ، ايها المُبرم مع المجهول عهداً يحسده عليه المعلوم، ايها الغارق في لجج اللانهاية ولم يبلل ثوبه ، ايها المبسوط في حجره، المنكمش في تصلبه ، أيها الطليق بعينيه السجين بين احاجيه ، ايها الناظر الينا نظرته الغريبة بين صممه وبكمه كأنهُ يفتش في الارض عمن جاءه بالصمم وعقل لسانه ليصعقه ويضمه الى قلب رماله ! !

ايها الرجل العجيب الذي لم يتحرك بعد والكهرباء تشع في فمه وعينيه والطيارة تحلّق فوق رأسه ، ايها الصابر صبراً دهش له ايوب ، ودهشت له الارض التي تحمل موتاها ودهش له البحر الذي يحمل غرقاه والاثير الذي يحمل زفرات البائسين . .

ايها المتمرد الاكبر الذي لو استكشفت اسرار الخليقة كلها لظل وحده بنفسه سرًّا خفيًّا . . ايها الحاكي الذي يردد صدى الانسانية ، ايها العدّاد الاكبر الذي يحصي انوار الخليقة وظلماتها وساعات نعيمها وبؤسها . . .

يا ابا الهول... اتيتك بعد تلك القرون التي توالت على رأسك ، اتيتك متأخراً . . . اتيتك في القرن العشرين وتفرست فيك فخطرت لي النعوت والاسماء التي كسوتك بها ، رأيتك بعيني ولم ادر بأيّ عين رآك اسلافي . . وحرت فيك كما حار الذين تفرسوا فيك من قبلي ورمتني تلك الحيرة بين امواج الخيال فغرقت في اوصافك وتخبطت في اسرارك ...

ما هي حقيقتك ؟ واين هي ؟ . . وهل تجهلني يا سيدي كما اجهلك . . . من انا ؟ .. انظر اليَّ جيداً . . أقويٌّ انا ام ضعيف ؟ اسعيدٌ انا ام بائس . . . انا كاتب يصيح ويعرض في القراطيس رسوم النفس والحياة فهل ازعجك صياحي وهل رأيت رسومي ؟ هل انت شاعرٌ بي ام انت تنظر اليَّ وترى نفسك ؟ ؟

قل لي يا « ابا الهول » ألأمسي انا ام لغدي ، واين هو رقمي في جدول الانسانية . وهل في جبيني السطر الذي تفتّش عنهُ منذ القدم ؟ امصيبٌ انا في عقيدتي ام مخطىءٌ ؟ انا للشاعرية فهل في حجرك من شعري وهل الشعراء في نظرك هم الناس .. وهل في صدرك القاسي فؤادٌ رحيم ؟؟

اتيتك لاسألك عن حقيقتك وحقيقتي فهل من جواب يخرج من فمك فيريحني... اما تاقت نفسك يا صاحبي الى الكلام ولو مرة واحدة... ألم تسأم الصمت ... ولكن لا.. ابق صامتاً فانني اخاف اذا تكلمت . ان لا يقال بعد ذلك : هذا « ابو الهول » . . ان صمتك حديث الناس وقد لا يكون حديثك حديثهم فتكون الكلمة الاولى التي تنطق بها وبالاً عليك ودليلاً على انك لم تكن الاّ حجراً ! ابق صامتاً ، ان قوتك في صمتك، انت ملك يجثم على عرش الصمت فلا تخلع ملكك بيدك . . .

ولعلك فقهت معنى الحياة فرأيت ان الصمت خير ما فيها ، فما الفائدة من الكلام وهل يصلح اللسان ، ذلك الثرثار الضعيف المزعج ليحلّ الاحاجي ويعبر عن اسرار النفس والطبيعة ؟ ! وهل يقوى على الثبات في ساحة النفس الكبيرة الحساسة ساعة يثور بركانها وتتطاير حممها ....

انظر الى الفيلسوف كيف يخرس ساعة يصطدم بالمجهول ويقف امامه صاغراً ! والى الجندي كيف يعقل لسانه ساعة يصطدم بالخطر ويقبل على الموت ! والى الفنان كيف يصمت صمته العميق ساعة يسحره الجمال وتحتلّ الشاعرية الحقيقية اعماق قلبه . . وانظر الى الفقير الذي شرب ثمالات الكؤوس كيف يعجز عن النطق وفي فمه كل دموعه، والى المؤمن الناسك كيف يقطع لسانه ليتّصل بالخالق ، والى النسور والاسود كيف تأوي الى عزلتها وصمتها وتترفّع عن الخلائق . . .

ابق صامتاً يا « ابا الهول » فقد يكون في صدرك كثير من الحسد والضغينة والرياء والضعف والكبرياء والطمع واللؤم وانا لست بحاجة الى نفث سمومها فيكفيني ما ينساب في طريقي من الافاعي ، يكفيني هذا الانسان الذي يوزع لسانه الشقاء في العالم ويكشف عما انطوى عليه صدره من تلك البضاعة النتنة ! . . .

ابق صامتاً فلا ادري ما وراء لسانك ... ان كنت انساناً فزميلك يكفيني ، وان كنت من جماعة « الاولمب» فابق بين آلهتك . . .

ابق صامتاً ، فهذه الانسانية الثرثارة لا تخاف الاّ الصامتين

موقعة نافارين البحرية

٢٧ صفر سنة ١٢٤٣ هـ ٢٠ أكتوبر ١٨٢٧ م

للدكتور علي مظهر

— ١ —

كانت بلاد اليونان جزءاً من بلاد السلطنة التركية العثمانية الى اوائل القرن التاسع عشر ترسل اليها الدولة من يحكمها من ولاة الاتراك . ثم بدت بها بوادر ثورة اهلية والّف أعيانها وشبانها جمعيات ثورية لتنفيذ الخطة التي رسموها من اشعال نيران الثورة في كل اليونان مع الاتصال بدول اوروبا حتى انهم جعلوا مركز هذه الجمعيات في الروسيا والنمسا لتتصل بحكوماتها وتتلقى امداداتها ومعونتها المادية والادبية ولتكون بعيدة عن يد حكام اليونان من الترك . ولقيت هذه الجمعيات من تأييد الدول الاخرى ما ساعدها على اعلان العصيان والثورة في ارجاء البلاد اليونانية . نذكر من ذلك جمعية (هيتريا) الكبيرة التي تألفت سنة ١٨١٥ . وقد انضمّ اليها ذوو المكانة في اليونان من شبان واعيان ورجال الدين ولقيت التعضيد من كثير من امراء اوروبا ووزرائها وسراتها وذوي الرأي منهم . وكان ذلك بالنفوذ وبالاموال حتى ان القيصر الروسي اسكندر الاول كان في مقدمة معضديها ومؤيدي مطالبها وأهمها استقلال بلاد اليونان عن الدولة العثمانية .

نشطت تلك الجمعية وغيرها على العمل سرّاً وسعت الى نشر دعايتها واذاعة اغراضها الثورية وانشاء فروع لها في بلاد اليونان وفي البلقان حتى زاد اعضاؤها على العشرين الفاً من الاعضاء حملة السلاح. ولما هبت ريح الثورة في بلاد المورة في ٢٥ مارس سنة ١٨٢١ كان في مقدمتهم رجل من رجال الدين اليوناني هو القس جرمانوس اسقف (باتراس) بشمال الموره ودعاهم للثورة فلبي اليونانيون الدعوة في البر والبحر . فكانت سفنهم المسلحة تقطع الطريق على السفن العثمانية في بحر الارخبيل وتأسر ما تأسر وتدمر ما يمكنها تدميره وتقتل ركابها وتأسرهم وتنهب ما معهم . واستولى الثوار على أهم مدن المورة حتى انهم احتلوا عاصمتها (تريپولتسا) ونكلوا بالاتراك المقيمين بها تنكيلاً كبيراً . وأعلنوا استقلال الامة اليونانية سنة ١٨٢٢ . ورأت الدولة العثمانية ان تستعين بمصر بعد ان استفحل أمر الثورة والثوار الذين أحيوا عهد القرصنة وأحرقوا كثيراً من السفن التركية وأفسدوا أيما افساد . فأرسل السلطان محمود الى محمد علي وعهد اليه بتجريد الاسطول المصري للقضاء على القرصنة سنة ١٨٢١ ولتأديب الثائرين وانقاذ الاسطول العثماني الذي أضحى كالاسير في مياه البانيا . وأطاع محمد علي امر الخليفة السلطان محمود ولبي نداءه فكتب الى صهره محرم بك محافظ الاسكندرية وامير البحر للاسطول المصري باعداد اسطوله . ونحن ننقل ترجمة الامر التركي المقيد في سجلاّت البحرية القديمة

بتاريخ ٢٤ رمضان سنة ١٢٣٦ وقد نقله اسمعيل سرهنك باشا في كتابهِ حقائق الاخبار (ج ٢ ص ٢٣٨) وهاك نصهُ :

قد علم لكم انهُ أُحيل تأديب وتربية الاروام الثائرين على الدولة العلية على عهدتي . وبما ان السفن الحربية التي جرى استعدادها لغاية الآن قد بلغت اربع عشرة سفينة ولو ان قيادتها عائدة عليَّ (يعني انهُ كان يعتبر نفسه (محمد علي) قائداً أعظم واميراً للبحر الاكبر للاسطول المصري) الاَّ انهُ لكثرة اشغالي قد عينتكم بدلاً عني لقيادتها . فتوكلوا على الله تعالى وأسرعوا بالاقلاع بها للجهة المقصودة. وأدوا الخدمة اللازمة عليكم في هذه المأمورية بحسب ما تقضي عليكم حقوقها المقدسة . وقد تحرر صورة من هذا الامر الى مطوش قبودان الذي تعينت سفينته بمعيتكم . اه .

ونحن ننقل عن سرهنك باشا اسماء قبـاطين السفن التي ذكرها بعد ترجمة النص التركي لتولية محرم بك أمرة الاسطول المصري وهم :

فندقلي احمد قبودان وقوله لي مطوش قبودان واستانه لي نوري قبودان وارنبوط خليل قبودان وكريدلي حسن قبودان وبدروملي السيد علي قبودان وكريدلي اسمعيل قبودان واوره لي مصطفى قبودان المعروف بدشكا كي وچشمه لي مصطفى قبودان وبوزجه أطه لي حسين قبودان واسكندراني علي قبودان ولازلي عمر قبودان وازميرلي قره اوغلي قبودان وبدروملي علي محمد قبودان . اه

وذكر مسيو مانجان في كتابه تاريخ مصر في حكم محمد علي (ج ٢ ص ٢٤٠) ان الاسطول المصري اقلع من الاسكندرية في ١٠ يوليه سنة ١٨٢١ بقيادة الاميرال اسمعيل جبل طارق وانهُ كان مؤلفاً من ١٦ سفينة كاملة السلاح والعتاد وبها ٨٠٠ مقاتل بقيادة طبوز اوغلي

وقد كتب عبد الرحمن بك الرافعي في مؤلفهِ النفيس عصر محمد علي (ص ١٩٩) تعليقاً على ذلك ان بعض المراجع الفرنسية تذكر قائد الاسطول باسم اسمعيل جبل طارق وبعضها باسم اسمعيل الجبل الاخضر مما يجعلنا نشك في هذا اللقب الذي ليس من الاعلام المألوفة في ذلك العصر . فالاسم الموثوق بهِ انهُ الاميرال (امير البحر) اسمعيل بك . ثم عاد عبد الرحمن بك في الصفحة التالية فقال : نقول وهذا لا يمنعنا ان نرجح رواية المسيو مانجان لانهُ عاصر الحوادث التي كتب عنها وروايته تؤيدها المراجع الفرنسية الاخرى . ويجوز ان محمد علي عهد الى امير البحر محرم بك بقيادة الاسطول نيابة عنهُ كما جاء في الامر لكن الذي سافر فعلاً وقاد الاسطول هو اسمعيل بك كما يقول مانجان . ونحن نقول انهُ اقرب الى المعقول ان يكون مطوش قبودان هو الذي تولى القيادة فعلاً بالنيابة عن محرم بك اذا لم تصح قيادة محرم بك للاسطول الذي ابحر لسواحل بلاد اليونان لان محمد علي قد اشار اليهِ في خطابه الذي ارسلهُ الى صهره محرم بك وخصهُ بالذكر في ذلك الامر الصادر منهُ دون سائر القباطين الآخرين

ويذكر مسيو مانجان ان الاسطول المذكور ذهب الى مياه رودس لمطاردة السفن اليونانية .

والتقى بالاسطول التركي في الدردنيل . ثم عاد الى الاسكندرية في مارس سنة ١٨٢٢ ليتأهب لنقل الحملة الى جزيرة كريد

ويذكر الجبرتي في نهاية ما وصلنا من تاريخه وهو آخر ما دوّنه في كتابه من حوادث ذي القعدة سنة ١٢٣٦ (اغسطس سنة ١٨٢١) ما يأتي :—

وفي منتصفه (القعدة) سافر الباشا (محمد علي) الى الاسكندرية لداعي حركة الاروام وعصيانهم وخروجهم عن الذمة ووقوفهم بمراكب كثيرة العدد بالبحر وقطعهم الطريق على المسافرين واستئصالهم بالذبح والقتل ، حتى انهم اخذوا المراكب الخارجة من استامبول وفيها قاضي العسكر المتولي قضاء مصر ومن بها ايضاً من السفار والحجاج فقتلوهم ذبحاً عن آخرهم ومعهم القاضي وحريمه وبناته وجواريه وغير ذلك . وشاع ذلك بالنواحي وانقطعت السبل . فنزل الباشا الى الاسكندرية وشرع في تشهيل مراكب مساعدة للدونانمة (الاسطول) السلطانية . وسيأتي تتمة هذه الحادثة

ومما يؤسف له ان تاريخ الجبرتي ينتهي بحوادث ذي الحجة سنة ١٢٣٦هـ (سبتمبر سنة ١٨٢١م) وشبت الثورة في جزيرة اقريطش (كريد) سنة ١٨٢١ وعهد السلطان محمود الى محمد علي باخماد الثورة ففعل اذ ارسل اسطولاً مصريًّا يحمل خمسة آلاف جندي بقيادة حسن باشا ونزلت القوة في ارض الجزيرة في يونيه سنة ١٨٢٢ واستمرت الحرب بين الطرفين حتى سنة ١٨٢٣ وانقذ العسكر المصري الحاميات التركية التي كان الثوار قد حاصرتها في القلاع . ومات حسن باشا القائد خلال الفتح تخلفهُ حسين بك في القيادة . وظفر المصريون بالثوار وحصروهم في جهة من الساحل . وشتتوهم شذر مذر . واضطر كثير منهم الى الفرار الى الجزر اليونانية وسادت السكينة بكريد وامكن المصريون ان يخمدوا ثورة قبرص هي الاخرى

ولما اشتدت الثورة وطال امدها في موره عهد السلطان الى محمد علي في اخمادها وجعله والياً عليها

ومما يذكر ان محرم بك لما اعدَّ اسطولاً مكوناً من اربع عشرة سفينة حربية وجهزها بما يلزمها من الجنود والقباطين وجعل شاكر افندي السابق الذكر مهندساً لهذا الاسطول كما جاء في سجلاَّت الدونانمة (الاسطول) المصرية انهُ لم يبق بالاسكندرية حينئذٍ غير ثماني سفن حربية فقط للمحافظة بها على السواحل المصرية فاخذ محمد علي يهتم بتجهيز اسطول آخر من السفن الجديدة التي تأتي اليهِ تباعاً من بلاد اوربا . ووصل محرم بك باسطوله الى مياه كريد فوجد من الجهة الشمالية منها سبع عشرة سفينة تجارية رومية (يونانية) تهاجم سفينة تجارية عثمانية . فهجم على الاروام واستولى على ثلاث منها . وولى الباقي الادبار وتخلصت تلك السفينة العثمانية من هلاك محقق . ثم انهُ سار الى بحر الارخبيل بحسب الاوامر الصادرة اليهِ . وبعد ذلك بشهر ارسل محمد علي اسطولاً آخر من ثماني عشرة سفينة بقيادة طبوز اوغلي قبوجي باشي محمد اغا للالتحاق بالاسطول العثماني الذي كان

يقوده البطرونة مختار بك» وامره انهُ متى انضمت كل هذه السفن الى بعضها البعض ومعها اسطول محرم بك تذهب لتخليص الاسطول العثماني المحصور بجهة «رويزه» وكان يقوده القبطان نصوح زاده علي بك . وقد تم ذلك ورفع الحصار عن الاسطول العثماني . واخذ الاسطول المصري باشتراكه مع الاسطول العثماني في مطاردة مراكب الاشقياء من اليونانيين . فأحرقت كثيراً منها (سرهنك باشا ج ٢ ص ٢٣٨).وعادت السفن الحربية المصرية الى الاسكندرية لاصلاح ما تلف منها سنة ١٢٣٨ هـ.
وفي السنة التالية (٦ مارس ١٨٢٤ م) اصدر السلطان الى محمد علي بتعيين ولده ابرهيم باشا والياً على جزيرة كريد وموره وان يعمل ما يراه لحفظ النظام هناك . وارسل امراً بارسال نجدة مصرية لتساعد الجيش العثماني في بلاد اليونان . ويذكر لطفي افندي في تاريخه بأن الدولة العثمانية امرت خسرو باشا امير البحر للاسطول العثماني بمياه اليونان بان يذهب الى الاسكندرية لاصلاح سفنه فيها واخذ ما يلزم من الذخائر الحربية والمؤونة منها ولمساعدة محمد علي باشا على نقل الجيوش المصرية الى بلاد موره . وكان خسرو باشا قد طلب العودة الى استنبول لاصلاح ما تخرب من سفنه الحربية . فلما صدر الامر بالتوجه الى الاسكندرية سافر اليها في ٢٨ الحجة سنة ١٢٣٩ هـ . وقبل وصوله بأيام قليلة حضرت ثلاث سفن حراقات يونانية الى ميناء الاسكندرية ودخلت واحدة منها الميناء حتى وصلت امام طابية صالح وأشعلت نارها لحرق الاسطول المصري الراسي امامها . فأطلقت عليها قوة القلعة المدافع وارسلت المراكب المصرية بعض زوارقها بالمدافع فهجمت عليها وأطفأت نارها فهربت الحراقتان الاخريان بسرعة . وامر محمد علي محرم بك ووكيله بلال أغا بالخروج بخمس سفن حربية لاقتفاء اثر الحراقتين الهاربتين . وخرج بعدهما محمد علي بنفسهِ في قرويت اسمه جناح بحري . وامكن الحراقتان الافلات من المراكب التي تعقبتهما . ثم وصل خسرو باشا العثماني وعلم بما وقع ولم يصادف السفن المصرية فاراد الاقلاع بنفسه للبحث عنها. فمنعهُ موظفو الحكومة المصرية.وأسرعوا لاصلاح سفنه.وتزويد اسطوله بما يلزم من الادوات والذخائر . وارسل خسرو باشا مساعده في أمرة البحر بعشرين سفينة حربية عثمانية ذهب بها حتى سواحل الاناضول . ثم رجع فوجد محمد علي قد عاد الى الاسكندرية وشكر محمد علي لامير البحر خسرو باشا صنعه هذا . وأكرم وفادته وأمر باعطائهِ كل ما يطلبهُ قائلاً : اني بصفة كوني خادماً لوليّ نعمتي صاحب الشوكة السلطان المعظم اعلمك يا اخي الباشا انهُ ليس للدولة العلية فقط ان تطلب ذخائر وزاداً او اشياء اخرى مهمة للاسطول العثماني بل يمكنها ان تطلب جميع ما تريد . فاني مستعد للقيام بهِ بحق الدين والملة . وان ذلك عندي من الامور المعتنى بها . واني لا اتأخر عن بذل نفسي في سبيل تقوية شأنها واعلاء كلمتها ورفع قدرها (من تاريخ لطفي افندي المذكور ونقله سرهنك باشا في تاريخه (ج ٢ ص ٢٣٩)

وابلغ خسرو باشا ذلك للباب العالي (الحكومة العثمانية) رسمياً فورد لهُ كتاب الشكر والثناء على محمد علي باشا لخدمته الجليلة التي ادّاها اولاً وثانياً ولقيامه باصلاح اسطولها وتجهيزه

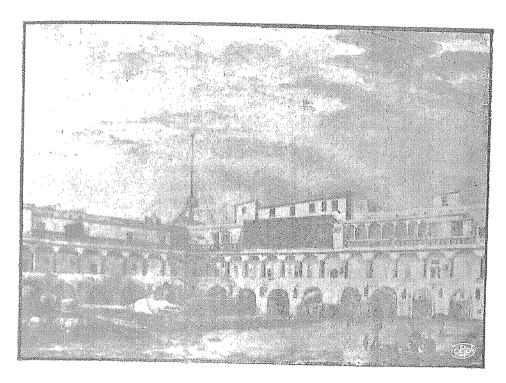
الجيوش لمساعدتها وامره السلطان بتبليغ ذلك لمحمد علي باشا بالنيابة عنهُ

واعد محمد علي جيشه واسطوله الذي كان يستعد لتلبية نداء السلطان . اما الجيش المصري فكان مؤلفاً من ١٧٠٠٠ جندي مشاة وسبعمائة من الخيالة واربع بطاريات مدفعية ومدافع اخرى للقلاع والجبال وكان الجيش بقيادة ابنهُ الاكبر ابراهيم باشا البطل الشهير . اما الاسطول المصري فكان مكوناً من ٩٩ سفينة منها ٦٣ بين حربية ونقالات و ٣٦ تجارية استؤجرت لنقل العدد والذخائر . وكانت بقيادة امير البحر محرم بك على رواية سرهنك باشا (ج ٢ ص ٢٣٩) وبقيادة امير البحر اسمعيل جبل طارق على ما رواه عبد الرحمن بك الرافعي في تاريخه عصر محمد علي (ص ٢٠٢)

اما مسيو دروفتي قنصل فرنسا الذي رأى الاسطول المصري في الاسكندرية وكتب عنهُ بياناً الى وزير الخارجية الفرنسية في رسالته (وثائق موره التي نشرتها الجمعية الجغرافية وثيقة رقم ١٤) فيذكر ان الاسطول كان مكوناً من ٥١ سفينة حربية و ١٤٦ سفينة نقل . قال المسيو دريو ان محمد علي اشترى من اوربا كثيراً من السفن حتى اصبحت عمارته البحرية تشبه الارمادا (وهي التي اعدها فيليب الثاني ملك اسبانيا لمحاربة انجلترا في القرن السادس عشر) . ويستمر مسيو دريو في حديثه عنها في كتابهِ (تاريخ اليونان السياسي ج ١ ص ٢٥٧) فقال : ولم يرَ الشرق حملة تدانيها في ضخامتها منذ حملة بونابرت . فكأن الشرق اراد ان يغزو الغرب جواباً على حملة اوربا عليهِ . وهكذا تتقلب الاطوار في سير التاريخ (نقلاً عن عصر محمد علي للرافعي بك ص ٢٠٣)

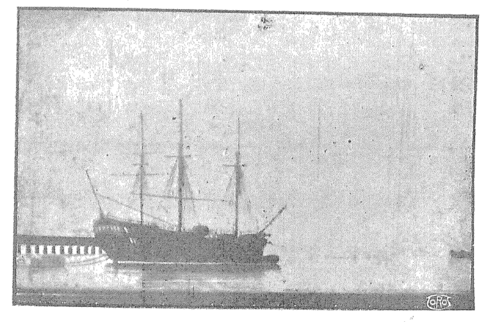
***

وابحر الاسطول العثماني الذي كان بالاسكندرية يوم ٣ ربيع الاول سنة ١٢٣٩ هـ (١٠ يولية سنة ١٨٢٤ م .) . ثم ابحر بعده الاسطول المصري . ومرت هذه الاساطيل على رودس ومنها الى خليج (ماكرى) على شاطىء الاناضول لتلتقي بالاسطول التركي العثماني . وقد عهد الى رجاله بمطاردة مراكب الاروام (اليونان) التي كانت في بحر الارخبيل والقضاء على القرصنة فيهِ واخماد ثورة الجزر . وانزل ابراهيم باشا جنوده في خليج (ماكرى) . واستعد للاقلاع بالاسطول المصري حتى يتقابل بالاسطول التركي. وقد عاد من الدردنيل حتى تقابلا في ميناء (بودروم) على شاطىء الاناضول. وكان ذلك في اواخر اغسطس . ومما لامراءَ فيهِ ان الاسطول المصري كان اتمَّ نظاماً من الاسطول التركي لما لاقاه هذا من مهاجمة الثوار اليونانيين ولاسيا سفن الحراقات التي كانت تقذف بنفسها وسط الاسطول التركي فتحرق منهُ ما تحرق بنارها . ومن ذلك ان الحراقات اليونانية قابلت الاسطول التركي فاحرقت مركب امير البحر وسفينتين اخريين . وتراجع الاسطول التركي جنوباً حتى قابل الاسطول المصري في مياه (بودروم) . وحول اليونان معظم سفنهم التجارية الى سفن مسلحة ولاحاطة مياه البحار ببلادهم وكثرة عدد جزرهم عرفت عنهم المهارة الكبرى في ركوب البحر . ولذا لا تعجب اذا عرفت ان لليونان اليوم بحرية تجارية معدودة بالنسبة الى عددهم وصغر حجم بلادهم



مساكن ضباط الترسانة

رسم سريزي بك



السفينة الحربية ابو قير

رسم سريزي بك

وعلى مقربة من (بودروم) هاجمت السفن اليونانية الاسطولين . وكان قتال بين الفريقين . ففر الاسطول التركي من الميدان وتركه للاسطول المصري يصمد امام الاعداء ويضطرهم للتقهقر والفرار . وكان ذلك في سبتمبر سنة ١٨٢٤

ثم عاد الاسطولان فاتصلا مرة ثانية . وسارا الى مياه جزيرة مدللي ثم تابع الاسطول التركي سيره شمالاً الى الدردنيل . ورجع الاسطول المصري جنوباً . فقابلتهُ مراكب اليونان في مياه جزيرة (ساقز) وكانت معركة شديدة غرق فيها مركبان مصريان في اكتوبر سنة ١٩٢٤ . ثم عاد ابرهيم باشا بالاسطول الى ميناء (بدروم)

***

ورأى ابرهيم باشا ان القضاء على الثورة في الاراضي الرومية في شبه جزيرة (موره) . فأقلع الى ميناء (مرمريس) جنوباً . ثم سار منها الى كريت في ديسمبر سنة ١٨٢٤ . ورسا بسفنه في خليج السودة ليتحين الوقت المناسب للسفر الى سواحل مورة . ولننقل هنا ما ذكره مسيو دوين في كتابه (فرقاطات محمد علي الاولى ص ١٢) الذي أشرنا اليهِ اذ يقول :

مضت خمسة اشهر على مغادرة الاسطول المصري الاسكندرية . خمسة اشهر مضت في جهود شاقة ومتاعب كثيرة ومخاطر كل يوم تتجدد . ولقد ابدى ابرهيم باشا في خلال ذلك من الثبات ورباطة الجأش ما يسترعي النظر ، اذ كان يقود اسطولاً مع سفن النقالات . وهي مهمة ليس من السهل الاضطلاع بها . وكان ابرهيم باشا في قيادته اسطولاً مكوناً من مائتي سفينة تقل نحو عشرين الف رجل من جنود وبحارة يضطلع بمهمة كما فعل بونابرت من قبل مع حفظ النسبة بين الموقفين حينما اجتاز البحر المتوسط في اواخر القرن الماضي (يقصد القرن الثامن عشر) بعمارة مكونة من ٢٨٠ سفينة تقل ٣٨٠٠٠ مقاتل . واذا عرفنا ان مصر لم يكن لها في ذلك الحين اسطول منتظم ولا تقاليد بحرية ولا هيئة من الضباط البحريين الاكفاء ولا العدد الكافي من البحارة المدربين ، وكان على ابراهيم باشا أن يبتكر وينظم بسرعة كل ما يلزم الحملة البحرية من سفن حربية وسفن للنقل ورجال وعتاد وان يروّض نفسه على ركوب البحر والقتال بين امواجه واهواله — اذا تذكرنا كل ذلك فانهُ يحق لنا ان نعجب كيف ان الاسطول الذي حشده محمد علي امكنهُ ان يثبت امام الهجوم الشديد الذي استهدف لهُ واصابهُ من عدوٍّ لهُ حظ كبير من المهارة من دون ان يخسر سوى سفينتين حربيتين وبضع نقالات . ولاشك ان هذه الحقائق تدلنا على مضاء عزيمة ابراهيم باشا وعلو همته وتظهر ما كانت عليهِ نفسه من صفات العظمة ومزايا الرآسة والقيادة . كما ان مواقفه في ميادين القتال ورباطة جأشه في مغالبة المحن تدل على شجاعة كبرى لايسع اي انسان الاَّ ان يبادر بالاعجاب بها . اه

وتنازع زعماء الحكومة الثورية اليونانية فيما بينهم ولم تصرف اعطية بحارة مراكبهم فاضطربوا لذلك . وابوا الاستمرار في القتال وعلم ابراهيم باشا بذلك فانتهز الفرصة واقلع بأسطوله من (خانية) الى ميناء (مودون) في جنوب شبه جزيرة مورة وانزل الجنود الى البر في يناير سنة ١٨٢٥ وقد لاقى الجند التركي ما لاقى من المصاعب لتشديد الثوار عليهم براً وبحراً حتى لم يكن باقياً تحت يد الترك من المواقع سوى مودون التي انزل فيها ابراهيم باشا جنوده وميناء (كورون) التي كان يحاصرها اليونانيون

***

والمواقع البرية التي حدثت بشبه جزيرة مورة مكانها في كتب التاريخ . ونرى ان يكون كلامنا هنا قاصراً على موقعة نافارين البحرية ونرى ان نشير الى استيلاء المصريين على نافارين نفسها في ١٨ مايو سنة ١٨٢٥ ودخولهم المدينة منتصرين اعظم انتصار مما جعل اليأس يدب في صفوف اليونانيين ووطد مركز الجيش المصري لان نافارين ومودون وكورون قواعد حربية هامة يهيمن بواسطتها الجيش على مورة كلها . وقد حدث اثناء حصار المصريين لنافارين ان اسر المصريون سفينتين يونانيتين وافلتت بقية سفنهم الى بحر الارخبيل ، وتمكن امير البحر اليوناني (ميوليس) من الاقتراب من ميناء (مودون) التي كان الاسطول المصري راسياً بها واستطاعت الحراقات اليونانية من اشعال النار في السفن المصرية الراسية خارج الميناء . واشتدت الريح فامتدت النيران الى بقية السفن فتعذر اطفاؤها ولم ينج بحارتها بأنفسهم الاَّ بمشقة فائقة وحرق كثير من السفن لذلك . وامتدت النيران الى المدينة نفسها فالتهمت جزءًا منها وتناولت مخازن البارود فنسفتها وتهدم بنيانها وهدمت الاماكن المجاورة لها . كل ذلك حدث اثناء حصار نافارين فلم يثن ذلك ابرهيم باشا عن عزمه

واستمر على القتال حتى استولى على المدينة ثم استولى بعدئذٍ على ميناء (كلاماتا) بعد استبسال مقاتليها . ثم فتح (اركاديا) الواقعة على البحر غربي مورة . ثم فتح مدينة تريبولتسا Tripolitza عاصمة موره في يونية سنة ١٨٢٥ وكانت موقعاً منيعاً للثوار . ثم قهر جمعاً من الثوار في وادي ارجوس Argo وعلى معاقل الثوار بوادي (لكونيا) ثم احتل باتراس . وبذلك اصبح شبه جزيرة موره في قبضة الجيش المصري ماعدا مدينة (نوبلي) . واستنجد رشيد باشا قائد الجيش التركي بابرهيم باشا وكان الاول محاصراً لمدينة ميسولونجي وقد استعصت عليهِ . فسار اليها بحراً بعد ان وصله الامداد من مصر وحاصرها براً وبحراً . وكانت السفن المصرية بقيادة محرم بك فاحتل الجزر الواقعة في مدخل الميناء وحصنها لمنع ورود المدد بحراً الى ميسولونجي والذي تقدم لمهاجمة الاستحكامات المشيدة على الجزيرة الصغيرة الواقعة امام ميسولونجي هو سر چشمه حسين بك احد

رؤساء البحرية المصرية وبذلك سهل هجوم الجيش على تلك المدينة . ودافع الثوار عنها دفاعاً عنيداً وآثروا الموت على التسليم اخيراً فاشعلوا النيران بما كان عندهم من البارود فانفجر . وقتلوا جميعاً . وكانت خسارة الجيش المصري جسيمة . فقد بلغ عدد قتلاهم في الهجمة الاخيرة نحو الفي قتيل . ولكنهم استولوا على ميسو لونجي في ٢٢ ابريل سنة ١٨٢٦ . ثم فتح الجيش التركي بعدئذٍ اثينا بعد حصار شديد فسلمت في يونية سنة ١٨٢٧

وعاد معظم الاسطول المصري الى مصر لاصلاح ما اصاب سفنه من عطب وجاءت السفن التركية لنفس السبب . وضمَّ محمد علي الى ذلك ما كان قد اوصى عليهِ من سفن حربية جديدة في مرسيليا وليفورن وفينسيا (البندقية) واعدَّ مدداً من الجند مكوناً من عدة آلاف حشدهم في الاسكندرية . فكانت في شهر ابريل سنة ١٨٢٧ قاعدة لحملة كبيرة برية وبحرية واستعدت للاقلاع الى بلاد اليونان للقضاء الاخير على الثوار في جزيرة هيدرا واسبتزيا وميناء نوبلي

واستصرخت جماعات الثورة اليونانية دول اوربا لمناصرة اليونان . وتحرك انصار الثوة من رجال السيف والعلم في روسيا وانجلترا وفرنسا لدعوة الدول للتدخل من ذلك رجال امثال لورد بايرون وفيكتور هوجو وشاتوبريان . وغيرهم . فكانوا يستصرخون الرأي العام في اوربا ويضربون على الوتر الديني الحساس لنجدة اليونان . وقد تطوع لورد بايرون في صفوف الثوار ومات في ميسولونجي سنة ١٨٢٤

وفي ٦ يوليو سنة ١٨٢٧ ابرمت معاهدة لندن بين انجلترا وفرنسا وروسيا للتدخل بين تركيا واليونان على اساس استقلال اليونان الداخلي مع بقاء سيادة تركيا الاسمية عليها . وطلبت الدول وقف القتال بين الفريقين تمهيداً للوساطة بينهما واتفقت الدول فيما بينها على ان يعرض هذا على الباب العالي (حكومة تركيا باستنبول) فاذا لم يقبلها في مدى شهر لجأت تلك الدول الى تنفيذ ما ترى من استقلال اليونان وسلخها عن تركيا بالقوة

واتفقت الدول الثلاث على ارسال اساطيلها الى مياه اليونان لعلم تلك الدول باصرار تركيا على الرفض ولمنع السفن المصرية والعثمانية من الوصول الى شواطىء اليونان وارسال المدد الى الجيش المصري والتركي هناك . فأرسلت انجلترا الى بحر الارخبيل اسطولاً مؤلفاً من ١٢ سفينة حربية بقيادة امير البحر ادوارد كودرنجتون Codrington . ثم ارسلت فرنسا سبع سفن بقيادة امير البحر كونتر اميرال ريني Rigny . ومن بعدها وصل اسطول روسي من بحر البلطيك متأخراً وكان مكوناً من ثماني سفن بقيادة امير البحر كونتر اميرال هيدن Heiden وانضمت الاساطيل الى بعضها البعض بقيادة امير البحر الانجليزي

« في العدد القادم وصف معركة نافارين البحرية »

«حياة عابر»

بيير لوتي

وصفحة من حياته على شواطىء البوسفور

ليوسف البعيني

قبلَ أن ينحدر بيير لوتي ، ذلك الكاتبُ الرقيق والشاعرُ الحسّاس ، إلى ظلمة قبرهِ بأيام ، ويقف شبحُ الفنّ مكبراً فجيعةَ المثل الأعلى بسكوت يراعهِ وتلاشي أنفاسهِ . . انتشر في أندية باريس الأدبيّة كتابٌ اصفرُ اللون تبطّنتْ سطوره وحواشيه بأهواءِ هذا الفنّانِ العجيب وبذكريات لياليهِ الماضية

لقد كان بيير لوتي ضنيناً بهتكِ اسرارهِ واباحة تذكارات غرامهِ . وهكذا لم يودّعِ الحياة دون أن يُطلع هؤلاءَ المتقوّلينَ فيهِ شتّى الأخبار والاكاذيب عن مكنون قلبه ، ذلك القلب الرقيق الموشّح بكلِّ ما في الحياة من نزعات وحبّ وصبابة . . فنشر كتابهُ الأصفرَ اللون وأفعم كلّ كلمة من كلماته بحرارة روحهِ وضباب أحلامه

ولم تكنْ تلك الحرارة سوى عاطفة شجيّة محزنة تغلغلتْ في اعماق القلوب ولم تقوَ على محوها ظلماتُ القبور ونكباتُ الحياة !!

***

كلما تصفّحتُ هذا الكتاب وتكشّفتْ أسرارهُ الراغية بلذّة الهوى ومعانيه المترعة بنشوة الغرام ، تعتريني رعشةٌ روحيةٌ مجهولة فأستغرق في سباتٍ عميق بعيد القرار مستعيداً للفكر احلامَ الماضي المبعثرة في وادي الحياة تبعثر الاوراق الواهية في فصل الخريف

وأروع ما في تلك الصفحات هو ذلك الوصف الساحر الفتّان والوجد الغائر المعصفر بصفرةِ الخيبة واليأس والحنين

فالشمسُ وقد آذنتْ بالرحيل فغابتْ وراءَ حُجُبِ الابدية تاركةً على ثغرِ الافق المتورّد قبلةَ الوداع ، كما تترك العابدة المفتونة لهاثَ صدرها على شفتيْ حبيبها

والمساءُ الصامت الحنون يحتضنُ الطبيعة ويسربلها بسكينة ساجية رائعة . .

والليلُ يمرّ في الحقول والأودية منغّماً على مسامع الاشباح تذكارات الماضي الدفين . .

والنجوم تحدّق بلوعة وحزن وحيرة كأنها مواكبُ المأتم تبكي حولَ نعش الحبيب . .

وجداولُ الحسن والجمال تنسابُ بين الأودية والصخور موقّعةً على اوتار الدجى بلايا روعها المفجوع وصدرها المكلوم

نعم .. الشمس ، والمساء ، والليل والنجوم والجداول ، وكلٌّ ما يلمس الروح بأنامل الشعور والاحساس .. يصفها بيير لوتي في كتابه اللطيف . وأنا عند ما أُصغي الى موسيقى تلك العبارات والسطور التي أبدعتها ريشة الكاتب الفنّان ، يغمرني ضبابٌ سحريٌّ غريب فأبيتُ في مخدعِ العاطفة كما تبيتُ الزهرةُ المقدَّسَة في ظلالِ الهياكلِ القديمة

***

وأسم الكتاب (حياة عابر) فما أَروع هذه اللفظة وما أشجاها ! !

لقد صرفَ الكاتبُ المبدع اوقاتاً عذاباً مُسكرة في ممارع الشرق وتنسّمَ من ربوعه ومروجه نسمةَ حبٍّ مهفهف استقرّت بينَ جوانح روحه . فكانَ كلما تنشّق عبيرها ، وهو في باريس ، تفيضُ على عينيه دمعةً أجيجة محرقة وتغشي في روعٍ يراعهِ اطيافَ الشوقِ والحنين

وإنَّ مَنْ كانَ لهُ ما كانَ للكاتبِ الشعريِّ الملول من صفحات غراميّة ريّقة لا تُمحى آثارُها ولا تتبعثر رسومها على ضفاف البوسفور ، استكثرَ من تذكّرِ الماضي الحبيب الذي مضى ولن يعود . واستزادَ في بكاءِ تلك الليالي التي مرّتْ في ضوءِ القمر راقصةً على رنات المياه عندما يداعبها نَسيمُ الليل بلثماتهِ ودغدغته

ولَستُ أعلم كيفَ كان موقفُ البوسفور عندما عقل الموت ريشة بيير لوتي وعاث بنضرة فؤاده . فهل تألم الخليج الساحر الجميل لموت الصديق المخلص الوفي ، وتململ الماء ملتاعاً ينعى الى الصخور والربى وفاة الكاتب الرسّام الذي أَحبَّهُ حبًّا لا شكيكة فيهِ ؟ من يدري . لقد تسامرا في الماضي كثيراً . وكانت لهما ساعات شفّها الوجد بشكواه ، ومواقف أَضناها الهوى بأنينهِ وبلواه

لم يبقَ كاتب من عشاق الشرق ومحبّيه إلاّ كتب عن البوسفور واصفاً تلك الزهوة العلوية التي تهيمن على الخليج الجبّار . أما بيير لوتي فقد أبدع وأجاد في ما كتب ووصف ، ثم ترك عنهُ تذكارات عذبة ترويها العاطفة ويغذيها الشعور والاحساس

ولذلك تمنّى وهو يختم انفاسه الاخيرة تحت سماء باريس ويُودع حياته في قبضة الردى ، لو مشى أبناء البوسفور جميعهم وراءَ نعشهِ . وأوصى أن يفرشوا في تربة قبرهِ زهرة من تلك الازاهير المتأرجة النابتة على ضفاف الخليج الذي كان يشكوا اليهِ اسرار فؤاده وخبايا خياله .

***

اما الصفحة التي أريد أن استشفها من حياة بيير لوتي على شواطىء البوسفور ولا استطيع لما

يسترقّني من لاعجة وصبابة ، فهي هذه المقاطع الرافلة في حلل وضاءة من الجمال . وحسبك أن تقرأها فتنخضل عينكَ بالدموع وتبعث في الروح ذكرى الامس الدفين

الصيف جميلٌ في كلِ مكان لكنّهُ في تركيا اكثر من جميل . هو حلمٌ مجهول ينبعث من صدر الطبيعة فيغمر النفس بالشوق والحنين . . وفي ليلة من تلك الليالي الصافية البيض خرج لوتي يمرح على شواطئ البوسفور وينعم بمرأى الماء يلونهُ القمر بضوئهِ الفضيِ الخالب . وفيما هو يبثُّ خادمهُ الامين (جميل) شعورَ روحهِ واحساسها لامسته اشباحٌ خفيَّة واحلام لذيذة

وظلَّ يتذوق هذه الكأس المسكرة ويمتع عينه بمنظر الامواج يزينها النور بأكاليل الفضة حتى ايقظه جميل قائلاً ان الاميرة النبيلة « د . . » ترغب في ان يسامرها ويسكب في فمها خمرةَ الحبّ والحياة . . وما هي الاّ برهة حتى اقلعَ العاشقان يداعبان الحياة على ضوء القمر

مرَّ زمنٌ والاثنان يأتيان كلَّ مساء الى تلك الاماكن الشعرية الهادئة ويودعان في الخضمّ اسرار قلبيهما . وفي ذات يوم علمَ والد الاميرة بحبها لذلك الفرنسي الانيق فأنذر ابنته بالرحيل عن البوسفور

وهكذا قضتِ الاقدار العاتية ان يفترق ذانك العاشقان فلا يلتقيان ابداً . وقد آلم هذا الافتراق الكاتب العاطفي ألماً عميقاً وجرحه في صميم قلبه . ثم اشتدَّ عليهِ الغرام فكان يصرف ايامه ولياليه دائماً في تلك الربوع المحتفظة بآثارها والشاهدة على ايامها الماضية

أثرت هذه الحادثة في نفس الخادم جميل فمضى يبحث عن حبيبة سيده الكاتب . وفي ذات يوم عاد حاملاً منها كتاباً جاء فيه ما معناه : ايها الحبيب

لا تغضبْ عليَّ يا « بيير » ولا تنسبْ اليَّ الخيانة . لقد فارقتك مرغمة ، وكان بودي ان ابقى قربك لاقاسمك لذة العيش وخمرة الحياة . . ولكن ما العمل ! بهذا حكمت الاقدار

اني ابكي الآن ايها الحبيب ، وفي دموعي حرارة لاظية تحرق فؤادي وتؤلمه . . اريد ان ابوح لك بغرامي . . وان عاشقة مثلي مولهة تفارق الحياة لاجل حبيبها لتستطيع الاعتراف بغرامها . . لقد احببتك حتى آخر ساعة من حياتي . . ابعث لك بخصلة من شعري لتذكرك بي كلما لج بك التذكار والحنين ! !

ويقص لوتي هذه الرواية بغصة موجعة لا يمحوها الدهر . اما جميل فلم يكن خادماً بسيطاً لا شأن له ، بل كان اديباً ذكيًّا وافر العلم والتهذيب يدعى جميل بك [1] . وقد ركن الى هذه الحيلة ليقف على عبقرية الكاتب الحساس ويستلهم روحه المغمومة بالاسرار والتذكارات

وبقي امر جميل مكتوماً على بيير لوتي حتى اواخر ايامه . واعتقد ان من اطلعه على خبية جميل

---

(١) في مذكرات جبران خليل جبران حديث عن جميل بك . وقد كانا يتبادلان الرسائل . وهذه الرسائل تدل على ان جميل بك هو اديب لبناني متكتم ! (المقتطف : يقول احد اصدقاء جبران ان لا علم له بمذكرات لجبران ولا يظن ان له مذكرات فحبذا الحال لو جلا الكاتب هذا الامر)

بك هو شاعرنا الكبير جبران . وقدعثروا بين اوراق النابغة الفرنسي على كتاب لطيف . اليك بعضه:

«لقد عرفتكَ يا جميل خادماً وفيّـا وصديقاً مخلصاً تركتْ صداقتهُ في حواشي قلبي أثراً شيّقاً . لكنّكَ أسأتَ إليَّ كثيراً بما خلعتَ على شخصيتكَ من غموض واسرار . وعند ما اذكر تلك الاوقات التي كنت آمركَ فيها تتملّكني مرارة قاسية مفعمة بالخجل

امّا الاميرة الحبيبة التي عرفتها على شواطىء البوسفور فقد اذبل موتها ازاهير آمالي واحلامي وتراني الآن ابكيها بلوعة وكآبة . ارجوك يا جميل ان تكتب إليّ وتخبرني هل كان ذلك الخليج يحنّ إليَّ ويذكر ايامي الماضية ! !

انّ المنيَّة ترفرف حولي يا جميل . وعن قريب يجرّدُ الموت أغصانَ احلامي المورقة ويمدّدني في ظلمة الضريح . فهل تبكيني يا جميل وتذكرني بكلمة عذبة رقيقة ؟ من يعلم . . . فالوداع يا صديق الامس . . »

***

فالدمعةُ البليلة التي تسكبها العين في ساعةِ اليأس والحنين . . والقُبلة المريرة الدامية التي يطبعها العاشق على ضريح من يُحبّ . . والسرير الذي يحتفظ بنفحات حبيبة محتها الاقدار من الوجود.. والحسناء الراقصة على انات الرباب في ضوء القمر . . فالزفرة التي تطلقها الروح وقد فجعتْ بأعزّ امانيها . . فالأملُ الخائب والرجاء المتلاشي . . والابتسامة الجافّة على شفتين موردتين ! اتلمسها كلها في كتابات بيير لوتي واقواله

اما اليوم فيرقد هذا الناسك الشعريُّ العجيب رقدتهُ الاخيرة في مقبرة من مقابر باريس . تكتنفهُ الاسرار بعد مماته كما اكتنفتهُ السآمة في حياتهِ . فهل تأسو الطبيعة جراح وحدته

فيكفنهُ المساء بردائه

ويفرحهُ النسيم عند ما يهبُّ في الصباح

وتنعشه الزنابق عند ما يفوح عطرها

وتساهره اطياف الليل بعد ان يعانق الكرى ابناء الحياة

وينبت الله في قلبهِ زهرةَ التعزية قبل مجيءِ الربيع وحلول ليالي الافراح ؟ من يدري . .

ان الشرق المتحفّز الآن لتلمّس المثل الاعلى في القلب والروح ، لفي حاجة عميقة الى أن يقرأ هذا الكاتب ويتفهّم اسراره وحواشيه . وهذه القافلة الادبية السائرة الى الموت بخطى متناسقة خليقٌ بها ان تطلب الحياة في كتب بيير لوتي ورواياته التي وهجها بحبّ الشرف وغذّاها بجماله

البرازيل — يوسف البعيني

الاغراق في الثورات

مقابلات في فلسفة التاريخ والاجتماع

لسليم خياطة

عندما نقول « الثورات » يجب ان لا نقصد الفترة القصيرة التي احتدمت فيها معاركها الفاصلة، بل حقبة النضال الطويلة التي تقدمت تلك المعارك أو الحقبة الطويلة التي عقبتها وقبض فيها الثائرون على الحكم وحققوا افكارهم. كذلك يجب ان لا نحصر انفسنا في تلك الفكرة المبتذلة التي تسيء فهم الثورة ولا ترى فيها الا انهاراً من الدماء المسفوكة وصوراً مروّعة من الهيجان والفوضى وطوفان الكراهيات المدمرة ، بدلاً من ان تتجلى لها فيها الانقلابات الاجتماعية العميقة ، ومشاهد الصرح التاريخي الذي يتدرج عليه الانسان نحو تحقيق خيره وخير ابنائه ، او التعبير عن مطالب جماهير بشرية معذبة قد تتحقق لها تلك المطالب في ثوراتها وقد لا تتحقق ، وقد تتقدم بها نهائيًّا او تتوقف او تتأخر لوقت فحسب . غير اننا ايضاً يجب ان لا تفوتنا ملاحظة خاصّةٍ رافقت معظم الثورات ، وهي خاصّة الاغراق. فان كل الثورات أغرقت في بعض ما قامت ضده . تعدّت حدود النقمة على ما في عدوها من شرور الى الوقوع في شرور تقابلها ، والاصابة بالعمى او التعامي عن ما قد يكون في تلك العدوة من خير ، مبتعدة في الجملة عن هذه الفلسفة اليونانية الرصينة ، العاقلة التي كانت تعبر عنها لفظة « الاعتدال » . اقول كلها — مستثنياً فقط ثورة العمال والفلاحين في بلاد الروس . والآن خذ على هذا الكلام بعض الأمثلة :

تطرفت الحركة المسيحية في كره وثنيات العالم الروماني ورذائلها التَرَفيّة (من تَرَف) حتى مال بها تطرفها الى الناحية المقابلة . ولنسق كشاهد على هذا الادعاء مظهراً واحداً مما انطبعت به تلك الحركة ، هو المظهر المختص بالعلاقة بين الرجل والمرأة . فقد كان حبل الطلاق والانفصال بينهما رخواً جدًّا عند الرومان ، وجاءت المسيحية فانقلبت على هذه الرخاوة انقلاباً « طبويًّا »[1] مغرقاً ، حتى جعلت الطلاق مستحيلاً او شبه مستحيل . كانت العلاقة بين الرجل والمرأة على انحلال عرفي وقانوني في «الأخلاقية» الوثنية[2] ، فصارت على جمود وانحباس ديني مضنٍ في الأخلاق المسيحية.

---

(١) من « طبو » المقابلة لـ Taboo ، وتعني « المقدس » او « المحرم » من الاشياء عند الهمج ، وآثارها عند المتمدنين (٢) يستثنى من هذا علاقة الامة بسيدها والعبد بسيده ، اذ انهما كانا مرتبطين بمولاهما ارتباط عبودية مطلقة ، حتى اذا كانا يستعملان للاستيلاد او الالتذاذ الجنسي ولم يكن بوسعهما ان يمتنعا عملياً عن ذلك بطريق الانفصال لعدم الاعتراف بقدرتهما عليه

كان الشكل الوثني لهذه العلاقة رذيلةً وشرًّا ، بمعنى انها مضرة ، فصارت الى ما يماثل هذا في شكلها الجديد في العهد المسيحي

ان الدفّة التي ساقت سفينة العلاقة الزوجية في الحالين معاً كانت دفة نظام الفردية والملكية الخاصة المطلقة في صورتها القديمة . وإذ قامت كل الثورات الناجحة في الماضي بدوافع مطامع الملكية الفردية [1] واخلاقها وغاياتها ، فقد ارتكبت كلها تطرفاً أهوج ينتج عن اعتبار حرية التنافس والتحارب من اجل استعلاء الفرد على الفرد واستغلاله ، ومن ثمّ طبقة الافراد المستعلين على طبقة المستضعفين واستغلالهم استغلالاً قانونيًّا ومقبولاً وطبيعيًّا . ذلك لان اعتبار هذا الاستبداد حلالاً لشيءٍ دائماً يقترن في النفس بنزعات التطرف والاغراق في امداد الانانية بمطامعها ، في تحقيق هذه المطامع بكل وسيلة . وهذه الانانية الفردية ، الإباحية المطامع ، كانت تجعل الرجل مالكاً المرأة عند الرومان يرميها عندما يحلو له ، الاّ اذا كانت غنية وذات اسرة قوية تشد ازرها فترميه وقتذاك ساعة يحلو لها هي . ثم ان نفس هذه الفردية الاباحية في الملكية المطلقة للقوي او للغني عادت عند المسيحيين فقيدت المرأة بالرجل تقييداً لا انفصام له

خذ مثلاً آخر :

كان تراخي العلاقة بين المرأة والرجل قبل الثورة الفرنسية من مميزات النبلاء الاقطاعيين ، الحائمين حول البلاط كالفراشات الزاهية ، حتى ان شاعرهم «لافونتين» كان يتهكم في اشعاره «اقاصيص واخبار [2]» على «البون بورجوى» (اي البورجوازي الطيب) لتماسك اخلاقه الجنسية . كان هؤلاء النبلاء على هذه الحالة رغم القيود المسيحية التي صارت في بيئتهم الى وجود شكلي . ولكن بعد ان نشبت الثورة الفرنسية الكبرى ، وكانت نتيجتها ان فازت البورجوازية واستقرّت (وهي طبقة من الاقلية استخدمت جماهير الشعب وطبعته بنزعتها الخلقية ، متوسلة به دائماً الى جعل نفسها اقطاعية جديدة مؤسسة على رؤوس الاموال بدل الارض ، افلتت من قيود الزوجية المسيحية التي كانت ترتبطها نوعاً ما قبل الثورة ، وراحت تتخلّق برخاوة النبالة الاقطاعية ، ممعنةً مغرقةً في هذا التخلق ، متخلصة بعنف وسرعة وهوس من قيودها السابقة ، مرخية الحبل لاهوائها وغرائزها ارخاءً كاد يكون جنونيًّا احياناً . كانت كأنما تنتقم بذلك مما كانت تجد في الاقطاعية ، وفي اخلاقها المسيحية الخاصة سابقاً ، من ضغط وكبح جماح فرديتها و «حق» تملكها وتحقيق مطامعها . وهكذا نجد عداوة القائمين بالثورة لسالفيهم قد حدت بهم الى الاغراق في التشبه بهم كما حدت بالمسيحية الاولى الى الاغراق في الابتعاد عمن سلفهم وهكذا ايضاً نجد نزعة الاغراق هذه من مميزات الثورات القديمة الناجحة التي كانت تدعو اليها

---

(١) يقول ماركس وانجلز في بيانهما (عام ١٨٤٨) : « كل الحركات التاريخية السابقة كانت حركات الاقليات ، او لمصلحة الاقليات » . (ص ٢٠ — طبعة « مارتن لورانس » — لندن)

(٢) الخبر لغة في الرواية ، ولذا ترجمنا اسم أشعار "Contes et nouvelles" كما ذكره

مصالح الطبقات الطالبة السيطرة ، وان هذه الثورات تشابهت ضمن نطاق نظام متشابهٍ في صوره المتنقلة ، لما يقوم عليه من اسس ومبادىء اباحة التنافس الفردي والتملك الخاص ، من ارخاء العنان بالتالي للمطامع والشهوات في ميدانٍ حُرٍّ ربُّهُ القوي او الغني

.غير اننا اذ ندرس ثورة العمال والفلاحين ، التي تختلف بصراحة عن جميع الثورات القديمة الناجحة اختلافاً جوهريّـاً من حيث انها لم تقم بدافع من دوافع طلب السلطة على اساس التنافس الفردي ، او دوافع نقمة مظلومين ثائرين متمردين فحسب (كحالة الثورة السبارتاكوسية ضد اسياد روما او حرب الفلاحين في مفتتح عهد الاصلاح اللوثري في المانيا) ، بل اشتملت من اجل محو كل سلطة استبداد وتملك واحتكار فردي او طبقي — نعم ، اذ ندرس هذه الثورة بدقة وحياد علمي نجد ان ذلك الميل الى الاغراق في الهوى الاباحي الفردي لم يكن ليظهر الاَّ بصور عرضية ، وقتية زائلة ، لم تكن الاَّ من بقايا النزعة الخلقية في العهد القديم . وما ذلك الاّ لانها كانت ثورة ترمي الى عقل المطامع الفردية — الاَّ لان هذه المطامع وثوراتها وحركاتها ونظمها هي التي تنساق معها انسياقاً دائماً غير وقتي وغير عارض ، كلُّ المظاهر الهوج والانحرافات المتطرفة والفيضانات الطغيانية المشوهة سواء كانت عقلية او مصلحية او عصبية او فنيةٍ او اخلاقية او حتى — علمية ! هذا الذي «كان» يدّعي البورجوازيون انهم يضعونه على الحياد قبل ان تجيء الفاشستية وتعلن الحقيقة !

***

لقد كان من جملة خواص ثورة العمال والفلاحين في بلاد قياصرة الروس انها لم تعمد الى الهجوم الحربي الايجابي والتعلق بالفتك الدموي . بل بادرتها بهما البورجوازية والاقطاعية الروسية والعالمية المتحدتان . انها لم تتطرف ، كحال الثورات السابقة ، في نبذ كل ما كان في النظام العتيق ، بل عملت على الاحتفاظ بخيره ونبذ شره ، متحذرة من الوقوع في الرذيلة الاجتماعية المضرة بدافع الكراهية او البغض الاعمى . انها لم تنتقم من اعدائها باصطناع نزعتها الخلقية ، كما فعل بورجوازيو الثورة الفرنسية او الابتعاد عنهم الى الطرف الآخر النائي . بل تمسكت بوسطٍ معقول

ولما كنا اخذنا العلاقة بين الرجل والمرأة مثلاً نتكلم عنه في الثورتين المسيحية والفرنسية ، فلنتكلم عنها الآن بصدد هذه الثورة الثالثة . فان العلاقة بينهما لم تتخذ في هذه ، بعد تسلّم العمال والفلاحين السلطة ، لا صفة الانحلال الاقطاعي البورجوازي ولا صفة الارتباط « الطبوي » المسيحي الشديد . فلما قام بعض الشبان المتحمسين ، الذين كانوا لا يزالون متأثرين بشيء من النزعة العقلية في النظام الراحل ، بمظاهرات يدعون فيها الى خلع كل حائل يقوم في سبيل الاجتماع المطلق بين الجنسين ، وراحوا يزينون صدورهم بأشرطةٍ كتبوا عليها عبارات مثل : « ليسقط الحياء » ، هبَّ لينين ورفاقه الى عقل هـذه الموجة الهستيرية والى تنبيه اولئك الشبان الى خطأهم العظيم ، وتبيان الشرور الكامنة في الاغراق في الاهتمام بالاجتماع الجنسي

وان هذا ككل شيء آخر يجب ان يتبع نظاماً مفيداً ، نظيفاً ، جميلاً ، يجمع بين مطالب الثقافة وحاجات الحياة . وحاضر لنين وقتئذٍ محاضرات قوية بديعة في الموضوع ، وحدّث شيخة الثورة ، الرفيقة الالمانية « كلارا زتكين » حديثاً طويلاً جاء فيهِ ما معناه : « اي انسان عاقل لا يأنف من الشرب من كأس شرب منها اناس قبله »

ثم لما ظهرت في تلك الثورة ، من الناحية الاخرى ، دعوة الى نوع من الزهد « الرهبانية » المنحرف تقول بعدم وجوب وجود « الكومفور » (١) في حياة النظام الجديد ، أجاب ستالين على اولئك بالنيابة عن الحزب الشيوعي الدعاة في المؤتمر السابع عشر للحزب المذكور . بتسخيف نظرتهم هذه ، وبإفهامهم ان العمال والفلاحين وعلماءهم ينتجون بالاشتراك اكبر قدر ممكن من المستهلكات ووسائل الراحة ليوجدوا للانسانية سعادة التمتع بما تنتج . وهكذا نرى التعقل الرصين الذي اخذت بهِ ثورة العمال والفلاحين ، التي لا تميل مع مطامع فردٍ او طبقة من الافراد القليلين ، او تنطبع بطابع نظامهم الذي تسود فيهِ العقلية التي تقبل إشباع الشهوات والمطالب الاستبدادية المرخي لها العنان كشيءٍ ، ليس فيهِ إدٌّ عظيم أو كثير ما يقال . بل تميل الى إراحة المجموع الاكبر ، ومن بعده المجموع كله ، وتنظيم علاقاته بعضه ببعض تنظيماً معتدلاً ، فضيلاً ، صحيًّا ، ونظيفاً

***

ومما يحضرني الآن من المقابلات مقابلة خطرت لي بين موقف كلٍّ من ثورة تركيا الوطنية والثورة الشيوعية الاجتماعية من اللغة . فان تركيا ، التي ما زال طابع البورجوازية على ثورتها الناهضة قوي الدمغة ، قد انحرفت في مجال اصلاح لغتها الى ناحيةٍ في تفقيرها . الثورة التركية الوطنية على حقٍّ من الناحية القومية الوطنية في محاولتها قطع كل دابر للتأثير السيء الذي كان لهُ ان يفيض من بقايا الحياة العثمانية ، ومن استطراد العلاقات السابقة مع سائر اجزاء الدولة العثمانية . غير انها ، كما يبدو لي اغرقت في ذلك حيث مالت الى التخلص من الكلمات الفارسية والعربية التركية . فالخيرُ للغة ان يكون الاهتمام في ابداع كلمات جديدة وفي استعارتها من لغات حية ، اكبر مما يكون في إضاعة الوقت في العمل على قتل الكلمات التي تموت من نفسها اذا لم تعد مفيدة أو ملائمة للحياة التركية الجديدة ، وتبقى حية اذا كانت تفيد او تلائم . ان الثورة ابدعت واستعارت ، ولكن كان عليها ان تبدع وتستعير دون ان تتحمس في القتل . ذلك لانهُ كلما كان في اللغة الفاظ حية مستعملة (ولا يكون التعمد في احياء الميت منها مفيداً ، كما تفعل الجماعات اللغوية في الغالب) مهما كان مصدرها ، أثرت اللغة وآلانت من نفارها وأسلست من قيادها وساعدت العلم والادب والفن والثقافة على الارتقاء ،

---

(١) اي التمتع بأسباب الراحة والطمأنينة الجسدية ، التي تهيؤها الوسائل والمخترعات والاتجاهات المتوافرة في الحضارة الصناعية والزراعية العظيمة في العصر الحديث

وسهلت العمل على اصحابهـا . ليس كل ما في الماضي ممـا يحسن بنا او مما نستطيع قذفه في سلة المهملات ، وليس كذلك ، كل ما فيهِ مما يحسن او يستطاع عدم قذفه في هذه السلة المباركة !

***

اللغة وآدابها أثمن ما ننتزعه من الماضي لفائدة الحاضر ورفاهه . وكيفما كانت هذه اللغة ، فانها تبقى تراثاً موهوباً يحسن بنا ان يُترك تحسينه وتجميله من جهة تنقية ما لا يصلح استعماله فيها للتطور الاجتماعي ، الذي يغني عن جهود الدكتاتورية في ذلك ، بل ان قيام النظام الجديد يحتم وقوع هذا التطوُّر

وهذا خيرٌ من ان نعمد الى التقطيع والتشذيب تشذيباً او تقطيعاً اصطناعيًّا يفقر ذلك التراث اكثر مما يغنيه . ثم ان اللغة هي الشيء الذي يجب علينا ان نوسع فيهِ ما نستطيع ، مجال تنازع البقاء وبقاء الأنسب . لندخل الى اللغة كل ما يمكننا من الالفاظ ، حتى ما لا يلزم او ما لا يبدو لازماً ، ثم لنترك المجتمع ونظامه وحاجته تنتقي منها ما يلزمها . وكلما رقّينا المجتمع ورفعناهُ وحررناه ترقت اللغة وتقدّمت وتحررت من تلقاء ذاتها ، لانها أداة المجتمع في ارتقائهِ وتابعٌ يمشي معهُ

وما الضرر في ان يكون لكل معنىً مترادفاتعدة ، واحدة من جذر عربي ، واخرى من اصل فرنسي ، وثالثة من سلالة طورانية ، مثلاً ؟ ان ذلك يعمق تربة اللغة ويسمّدها ، يسهل استعمالها على الشاعر والعالم والكاتب ،اوعلى الشعب بأجمعه ايضاً . اما اللفظة الجافة، غير الصالحة ، فتموت من نفسها . وما اكثر ما في العالم اليوم من اكاديميات ومجامع لغوية قد تكون اقل تماوتاً من جماعاتنا اللغوية ، ولكنها مع ذلك تحاول الوقوف احجار عثرة بحصر الالفاظ في مصدر واحد هو المصدر القديم «العرقي» او العنصري الصبغة (لاتيني، عربي ، ايراني، طوراني ، فرنسي، الماني، انكليزي..) دون تطور اللغات و « تموّلها » من المصدر العامي الذي هو اغزر ينابيعها والخالق الاول لالفاظها ومن مصدر اللغات الاجنبية الذي تستفيد جميع اللغات فيه بعضها من بعض كانما هناك تعاون بينها على التقريب بين البشر ، او تعاون بين البشر على التقريب بينها ؟ لكن هل جمود هذه المجامع واختصاصها في التحجير والاصطناع المتكلس يحول دون تطور تلك اللغات تطورها الطبيعي الاجتماعي ؟ كلاَّ ! وهذا اقرب برهان على ما اقول تجده في اخفاق مجامع لغتنا العربية بوجهٍ عام ، كأن همها نشر الجهل وصد الشعب عن سبيل التعلم ، كأنها موكلة بقطع اقنية الاغتذاء عن لغتنا المحبوبة وفصم علاقتها بالحياة . ان احداً لا يلتفت الى محاولات هذه المجامع التفاتاً جديًّا ، والالفاظ الثقيلة التي تخترعها لا يستعملها سوى نفر من اعضائها ولا يقرأها سواهم . اما في بقية العالم ، فمثل هذه المجامع موضوع للتفكهة عند المفكرين ، وموضوع « مزحي » عند الشعب اذ لا يكاد يدري بوجودها

والآن ، وهذا هو امر اللغة ، نرى ان الثورة التركية الوطنية قد انحرفت ، وهي في سبيل القيام باصلاحاتها العظيمة ، عن جادة الصواب في شأن لغتها بمحاولة احياء الرميم واقصاء الحي . ولقد انحرفت في ذلك باغراق ينتج ضرراً للغة التركية . ولكن ما الباعث على هذا ؟ الباعث هو ان الثورة التركية كانت حتى وقتٍ بورجوازية ، قائمة على اساس فتح السبيل للتملك الشخصي واباحة الميدان لنمو الثروة الفردية ، لنمو التجار وأصحاب الصناعات الناشئة ومن اليهم . ذلك انهُ لما كانت البورجوازية التركية قد وجدت نفسها في حالة حرب مع بورجوازيات اجنبية ضخمة تحاول سلبها ذلك السبيل والميدان ، فقد عمدت الى استخدام كل وسيلة لتأمين مصالحها الخاصة . ومن هذه السبل ، عدا الاصلاحات الانشائية الواسعة ، المفيدة للبلاد عموماً ولها خصوصاً ، كان ذلك « الاصلاح » اللغوي الذي لم يكن في الحقيقة اصلاحاً بل « وسيلة » . وسيلة لاثارة روح الوطنية في الشعب ضدّ الاجنبي الخطر المضر ، المعادي لنهضة الاتراك . والروح الوطنية حقةً وفضيلةً كانت كحالتها في تركيا او الحبشة مثلاً ، او ظالمة ورذيلةً كانت كحالتها في المانيا وايطاليا مثلاً ، هي التي تعتمد عليها كل بورجوازية كأساسٍ وقوة لتحقيق مطالبها او مطامعها

***

وقد يكون (وغالب الامر كذلك) أن مصلحة الطبقات العاملة في تركيا كانت في ان لاتعارض بورجوازيتها في غلوائها طالما انها لا تزال وطنيةً دفاعية مناهضةً للاستعمار ، فتتقي هذه الطبقات بذلك غائلة البورجوازيات الاستعمارية التي ترمي الى التسلط على جميع الاتراك بالسواء . كذلك قد تكون في جانبها فائدة موقتة ، هي نتيجة لحالة سيادة النظام الاستعماري في معظم العالم (وهي سيادة تسير نحو الاندثار بسرعة لخروج الاستعمار عن مصلحة الجمعية عموماً وعدم استطاعته تأمين حق البقاء لها ، الامر الذي يعاكس ارادة الجمعية واعمق غرائزها ومقاصدها) ، فلا تأسف كثيراً لتطرف بورجوازيتها الفتية في قطع كل صلة باقطار اخرى لا تزال محنية الهام لاناس يحكمونها بالحراب واسم الاديان والتمدين

لكن عندما تقوم الطبقات العاملة في تركيا بثورتها الصافية ، الخالصة من كل ضرورة قاهرة تفرضها عليها طبيعة التحارب في النظام الذي لا يزال صاحب الصبغة الظاهرة في اغلب المجتمع — انها عندذاك تُعامِل لغتها بغير ما تُعامَل بهِ اليوم من الاغراق في جزّها . انها عندئذٍ تسير السير المعقول ، المتئد المفيد الذي حُتّم على ثورات الطبقات العاملة ان تمشي على صراطه بطبيعتها الانتاجية ، المناقضة لكل تخريب وغلوٍ في اهواء المصلحية الفردية

هنا نصل الى قمة المقارنة التي قصدناها ، لان هذا الصراط المستقيم عينه هو الذي سبقت الطبقات العاملة الروسية شقيقتها التركية الى السير عليه ، هو الدرب والخط الذي ابانه زعيمها ولسان

حالها ، لنين ، بوضوح ودقة ، في تعاليمه . ذلك ان فريقاً من الناشئة اغرق أيام الثورة الاولى في محاولة تجديد اللغة كما كان اغرق زملاؤهم الآخرون في مسألة علاقات الجنسين . لقد كان هؤلاء الشباب لا يزالون تحت تأثير شيات تتلاشى من عقلية التطوّح البورجوازي ، تلك النزعة العقلية التي تميل الى المغامرة والمغالاة في كل شيء من دون تدقيق الحساب تدقيقاً جامداً سليماً لغير المصالح الفردية والطبقية الضيقة التي تملك قيادتها . لذا كانت هذه الناشئة يومذاك تتحمس في تمردها على القديم حتى حدود نكران كل شيء فيه ، حتى الحد المضر غير المعقول في نكران لغتها ، في الاستسلام الى النقمة العمياء على طائفة كبيرةٍ من الفاظها واساليب تعبيرها وامثالها وقواعدها ، وبالايجاز : من كل هذه الذخيرة اللغوية العريقة ، التي يخلقها تطور عصور طويلة دع عنك اجيالاً متراكمة من الاختبارات والتحسينات وتكوُّن النفسية والعقلية الشعبية ، التي خلقتها وهذبتها جمعية انسانية بأسرها والتي صفّاها تاريخ كامل لشعب كامل في غرباله العظيم

***

فلما رأى لنين هذه الميول الفوضوية ، المؤذية والسابقة لوقتها ، راح يخصص وقتاً ، وهو غارق مع رفاقه في بحر مُصطخبٍ من مهامّ الدولة الجديدة ومشكلاتها لدرس المسألة ودحض حجج ذلك التهور الذي وقع فيه الشباب الفائزون . وانني كثيراً ما اتذكر قول هذا الرجل في كتابه « الدولة والثورة » :

« لكن الحياة تُرينا في كل خطوة من خطواتها ، في حيّز الطبيعة وحيّز المجتمع معاً ، أن آثاراً من الماضي تبقى في الحاضر . لذلك لم يكن ماركس متحكماً لما أدخل شيئاً من « الحقوق البورجوازية» في الشيوعية . بل انه لم يفعل سوى تقرير ما كان محتم الوقوع اقتصاديًّا وسياسيًّا في مجتمع يخرج من رحم الرأسمالية »

***

وهكذا نجد الاغراق منحصراً في الثورات التي تحركها دوافع المطامع الفردية ، مطامع طبقات الأقليات . ومن هذه النتائج العديدة واحدة يجدر عدم المرور بها مرّ الكرام . ان هذه الثورات هي التي خلقت في الدرجة الاولى تلك الفكرة المبتذلة الشوهاء ، التي لا ترى في الثورة إلاّ انهار دماء ، التي تحب ان لا تخلو من الدماء . ذلك لان جميع الثورات الناجحات والسابقات لثورة الطبقات العاملة غالَيْنَ في التقتيل والتدمير

لقد كانت البورجوازية الفرنسية في ثورتها الكبرى كثيراً ما لا تدري لماذا تقتل وكثيراً ما كان منظر المقصلة تحزّ الاعناق يلذها ويشعرها بالطمأنينة . ولم تقف عن استعمالها الا لما رأت بأنها اخذت تتقاذف رؤوس بعضها البعض

ألفاظ الآلات الزراعية

للامير مصطفى الشهابي

هذه جملة من الالفاظ العربية لأهم الآلات الحديثة المستعملة في الفلاحة اعرضها على ارباب الزراعة وعلى اساتذة المدارس الزراعية لعلهم يقتبسون منها ما فيه فائدة لهم ريثما يأتيهم المجمع اللغوي ومجلته بأصلح منها !

﴿ آلات تهيئة التراب ﴾ — أهم الآلات الزراعية المحراث . والمحراث الحديث أي الأوربي يتركب مما يلي : اولاً — أداة أصلية تحمل سائر الأدوات تسمى Age وبالعربية السِلْب والنِيصاب والوَيْج . ثانياً — أداة تشق الأرض عمودياً وهي السكين Coutre. ثالثاً — أداة تفصل كتلة التراب أفقياً وتسمى المِقْطَع Soc . رابعاً — اداة تقلب كتلة التراب المفصولة اسمها المِقْلَب Versoir . خامساً — أداة يرتكز المحراث عليها فتزحف به فهي اذن المِزْحف Sep . ويكون للمزحف عقب يسمى عقب المزحف Talon du sep . سادساً — أداة يعين بها عمق الحرث وعرضهُ وهي الميزان Régulateur سابعاً — اداة يقبض الحرَّاث عليها لتسيير محراثه وهي المِقْوم والمِقْبض والدَسْتَق Mancheron

والمحاريث الحديثة انواع يسهل ايجاد الفاظ عربية لها بترجمة الالفاظ الاعجمية كالمحراث العادي وذي العجلة وذي العجلتين وذي المقطعين وكثير المقاطع Polysoc وذي الصفائح او الأقراص ch. à disques ومحراث الكروم والمحراث المتقلِّب ch. tourne-oreille ومحراث النَقْب او محراث الخَرْق ch. défonceuse ومحراث الجَتْ ch. déboiseuse ومحراث الجداول او محراث الفَلْجان ch. rigoleuse الخ

ومن الأدوات اليدوية للحرث الأداة المعروفة التي تسمى المَرّ Bêche وهو محراث صغار الأكارين والبستانيين . ويكون على اشكال منها العادي والشوكي والمثلث . ومن الأدوات التي تنفذ في الأرض بالضرب المِعول Houe . واستعرنا له ايضاً لفظة المِنكاش لأن الفلاحين في الشام وفي لبنان خاصةً يسمونهُ «المنكوش» . وبعد ان تحرث الأرض تمشط بآلة تسمى المشط Herse . والغاية من التمشيط تسوية سطح التراب وتجزئة الكتل الكبيرة منهُ وقلع بعض النباتات المضرة وغير ذلك . والمشط اشكال منها المشط الزاحف H. trainante والدائر H. rotative ومفتت المدر H. émotteuse والمفصلي H. articulée والمرن H. souple والكنديّ (نسبةً الى كندا) وذو الصفائح H. à disques

ويستعملون في الأرض الصلبة المندمجة بدلاً من المشط آلة تسمى Scarificateur و Cultivateur وهي المِسْلَفة والكاربة والمِسْخَفة تحرث بها الأرض حرثاً سطحياً فتتبعثر ذرات التراب وتسوى ولا تقلب . ويكثر الأوربيون من استعمال المِمْلَسة او المَلاَّسة Rouleau وهي اسطوانة تضغط التراب وتجمع ذراته وتسوي سطحه وتجزيء المدر وتغطي البزور الدقاق وتقتل بعض الحشرات . وهي على أشكال الملمسة الراصّة R. plombeur ومفتِّتة المَدَر R. brise-motte والمخطِّطة R. marqueur والمتاوجة R. ondulé الخ

وبعد ان تزرع الأرض ربما لزم حرث سطحها وتسوية ترابها وتهويته وقتل الأعشاب المضرة وبعثرة ذرات التراب لمنع انطلاق ماء الأرض بخاراً . فالعمل الذي يضمن هذه الغايات يسمى العزق والأداة التي تستعمل فيه هي المِعزق Bineuse . والمعازق اشكال منها اليدوية ومنها التي تجرها الدواب

﴿ الآلات السائرة ﴾ — قلما يبذر الأوربيون البذار نثراً باليد ولا سيما في الأرض المتسعة، بل يبذرونها بواسطة المبذر Semoir وهو يوزّع الحبوب على خطوط منتظمة ويطمرها في اعماق متساوية . ومتى استحصد الزرع يحصدونهُ إما بالمِنجل Faucille واما بالمِقضب او الحاصدة (السيف) Faux واما بالمِحصد وهو آلة الحصاد Moissonneuse . والمحصد الجامع M. javeleuse هو الذي يجمع الحصائد كُدَراً او غُبُوطاً javelles ولا يربطها . اما المِحصد الرابط M. lieuse فهو يربطها . والآلة التي يُحش بها الكلأ في المروج تسمى المِحَشّ Faucheuse . ومتى حصد الزرع يلبث كثير من السنابل مبعثراً على الأرض وهو اللُّقاط واللُّقاط فيجمع بالمِلَمّ Rateau .

وتنقل الحصائد الى البيدر او الجَرين فتدرس بالنورج المعروف أو بالمِدْرس Batteuse يدار بمحرك أو بساحب Tracteur . ومن المعروف ان الساحب او الجارّ (او المِسْحَب او المِجَرّ) يستعمل ايضاً في الحرث وفي اعمال اخرى . ومتى فصل الحب عن القش وجب غربلة الحبوب لتنقى . ويستعملون لهذه الغاية غرابيل مختلفة منها الغربال الهوائي Tarare وغربال الاصطفاء او المصطفية Trieur

ويفصل حب الذرة او القطن بالمِنْزع او المِنْفَض Egréneuse . ولتفريق هذه الآلات بعضها عن بعض تضاف الى النبات الذي تنفض بزوره فيقال مِنزع الذرة ومنزع القطن الخ . والمحالج معروفة

ويستعمل الأوربيون خاصة آلة تسمى مِهْشَماً او مِقْطعاً تضاف الى ما تهشمه مثل مهشم الكلأ Hache-fourrage ومهشم البقل Hache-légume ومهشم القش Hache-paille ومهشم الذرة Hache-maïs وهي كلها تستعمل في تهيئة علف الخيل والأنعام . وكذا الجاروشة او المِجرش او المِرْضَخة او المِرضاخ Concasseur والمِسْحَق Broyeur

﴿ آلات صناعة الألبان ﴾ يفرزون القشدة عن اللبن بآلة تدعى Ecrémeuse وبالعربية المِفْرزة او الفَرّازة وأهم أجزائها الطَسّ Bal وأقماعه . ثم تؤخذ القشدة او الكثأة فتفرز الزبدة عن الخيض بآلة تسمى Baratte أي المِمْخَض والمِمخضة . وبعد ذلك تجرد الزبدة عما يكون عالقاً بها من سكر اللبن والأملاح والجبنين بأداة اسمها المِعجن Malaxeur . ومتى تمّ ذلك توضع الزبدة في القوالب المعروفة وتباع . ويستعملون في المحالب اي دور الحلابة المبرّدات Réfrigérants ومقاييس كثيرة لفحص اللبن مثل مقياس نظافة اللبن Lacto-sédimentateur ومقياس الحموضة Acidimètre ومقياس تخمر اللبن Lacto-fermentateur ومقياس كثافة اللبن Lacto-densimètre ومقياس القشدة Crémomètre ومقياس اللبن Pèse-lait ومقياس السمن Butyromètre . ولعلي اعود الى هذا البحث في مقال ثان فأذكر اسماء الآلات المستعملة في الأسقاء وبعض الصناعات الزراعية وغيرها

مفردات النبات

بين اللغة والاستعمال

لمحمود مصطفى الدمياطي

[اجتمع لي طائفة من اسماء المفردات النباتية وحررت ما يقابلها في بعض اللغات الاجنبية لترتيبها في معجم والآن عنّ لي أن أنشرها تباعاً في مجلة المقتطف الغراء في بيان موجز أذكر فيه المفرد ووصفه وموطنه واستعماله مشيراً الى بعض فوائده في الزراعة أو الصناعة أو التغذية أو الطب عسى أن يكون في ذلك بعض الفائدة — الدمياطي]

— ٦ —

خيار الشَّنْبَر

يطلق على شجر وثمر اما الشجر فتكون الواحدة منهُ كبيرة متوسطة الحجم تكاد تكون ملساء ذات منظر جميل ترتفع من ٢٠ — ٤٠ قدماً وذات اوراق ريشية كبيرة مركبة متبادلة على الاغصان طول الواحدة منها من ٣٠ — ٤٥ سنتيمتراً في كل ورقة من ٤ ازواج الى ٨ من الوريقات المتقابلة البيضية او البيضية المستطيلة الحادة القمة التي يتراوح طولها بين ٥ — ١٢ سنتيمتراً . أزهارها صفر فاقعة جميلة ذكية الرائحة في عناقيد كبيرة معلقة في آباط الاوراق العليا يتراوح طول العنقود بين قدم وقدمين . اما الثمار وهي التي يطلق عليها ايضاً (خِيَار شَنْبَر) فقرون خرنوبية الشكل لا تنفتح ملساء اسطوانية كل قرن منها مجزأ الى حواجز بينها مساكن البذور التي تكون كثيرة ووحيدة (اي منفصلة الواحدة عن الأُخرى) في لب طري لزج اسمر قاتم ذي رائحة ضعيفة وطعم سكري ولون القرن يكون في البدء اخضر ثم يصير الى السمرة فالسواد عند النضج ويكون معلقاً بحامل خاص متجاور مع طائفة من القرون ويتراوح طول القرن بين ٥٠ — ٧٠ سنتيمتراً وثخنه قيراط . ولفظ شنبر معرَّب چنبر بالفارسية وهو (خرنوب الهند)

اسمهُ العلمي (Cathartocarpus fistula, Pers.) (قثارتوقاربوس فستولا) اشتقاقاً من اليونانية Kathairo يسهل و Karpos ثمرة او (Cassia fistula, L.) (قاسيا فستولا) وفصيلته الخيار الشنبرية او السنائية (Caesalpiniaceae) سيزالپينياسية

وبالانجليزية (Drumstick Tree; Pudding Pipe tree; Purging Cassia)

وبالفرنسية (Canéficier; Cassier; C. des pharmaciens; C. purgative)

ويقال إن موطنه بلاد الحبشة وانتقل منها الى الهند والصين ومصر واميركة وجزائر انتيلة والعراق وبلاد العرب التي كان يعرف فيها قبل اكتشاف اميركة . والمستعمل منهُ في الطب الثمار (القرون) لاشتمال لبها على (القثارتين) (Cathrtin) الذي يوجد في انواع السَّنى المختلفة . وهو خليط من العناصر الفعَّالة المسهلة. ويدخل اللب في عجينة الدخان الانجليزي المعروف. وفي الهند يستعمل قلف جذور الاشجار لاطلاق البطن الشديد. اما قلف الجذوع فيستعمل في الدباغة. ويحصل من الشجر على نوع من الصمغ . وخشبه مندمج ثقيل ابيض يضرب الى الحمرة اذا نشر الواحاً وعرض للشمس صار احمر داكناً كخشب البلوط ويكتسب صقلاً جميلاً

الحَنْظَل

ويقال له (العَلْقَم) و(الشَّرْي) بفتح الشين وسكون الراء . نبات عشبي يخرج اغصاناً وورقاً يفترش الارض . ورقته شبيهة بورقة البطيخ خشنة الملمس من وجهيها ذات ثلاثة فصوص او سبعة ريشية . وأزهاره وحيدة الجنس في النبات الواحد (ذكر وانثى) برتقالية اللون تضرب الى الصفرة ناقوسية الشكل توجد فرادى . اما الثمرة وهي التي يطلق العرب على حبها (الهَبِيد) فمستديرة شبيهة بكرة متوسطة في العظم او برتقالة تحوي لبًّا شديد المرارة يضرب به المثل

اسمه العلمي (Citrullus Colocynthis, Schrad.) (سيترولُّوس قولوسنثيس) وفصيلته اليقطينية او القرعية (Cucurbitaceae) (قوقوربيتاسية)

وبالانجليزية (The Wild gourd, Colocynth, Bitter Cucumber or Bitter Apple Plant)

وبالفرنسية (Coloquinte)

ويقال إن موطنه الشرق الاقصى باليابان وانتقل منها الى الهند فبلاد العرب ومنطقة البحر المتوسط والسودان ورأس الرجاء الصالح ويزرع باوربا . والمستعمل منهُ في الطب لب الثمار (Colocynth) يدخل في العقاقير لاطلاق البطن الشديد وكثيراً ما يحصل عليهِ من ازمير وتريستا وفرنسا واسپانيا . وفي رأس الرجاء الصالح يغتذي اهله بالبذور ويستخرجون منها زيتاً للاستصباح واهل السودان يحصلون من الثمار على نوع من القطران المرّ يطلون بهِ اديم القرب الممتلئة بماء الشرب اثناء الرحيل منعاً لتمزيق الابل العطشى لها ويستعملون مسحوق لب الثمار منفرداً او مخلوطاً بالفلفل الاسود لصيانة ثيابهم الصوفية من فتك العُثَّة كما ذكر في كتاب برون وماسي

الخِرْوَع

كدرهم شجيرته في مقدار شجرة التين صغيرة جميلة المنظر سريعة النمو ترتفع من ٥ اقدام الى ٨ معمرة اذا تركت ولكنها تزرع سنويًّا في الغالب للحصول على زيتها المشهور كمسهل في الطب من قديم الزمن . اوراقها كهيئة الكف شبيهة بورق الدلب خضر او حمر للواحدة سبعة فصوص غائرة. أزهارها مجتمعة في عناقيد غليظة قائمة وزهرات التذكير والتأنيث في الشجيرة الواحدة . ثمارها عبارة عن احقاق متوسطة الحجم خشنة شائكة اطرافها مستديرة . والحُقُّ مركب من ثلاثة فصوص كل منها كالاسطوانة في كل فص بذرة واحدة على سطحها بقع وفي احد طرفيها زائدة لحمية. والبذور شبيهة بالقراد او بيض العصافير

اسمه العلمي (Ricinus Communis, L.) (ريسينوس قومونيس) وفصيلته الفربيونية (Euphorbiaceae) (اوفوربياسيه) وبالانجليزية (Castor Oil or Palma Christi Plant) وبالفرنسية (Ricin Commun)

موطنه الاصلي شمال إفريقية الشرقي ويزرع الآن في بلدان كثيرة بالمناطق الاستوائية والمجاورة لها بافريقية وآسيا وفي جنوب اوربا في النادر على انهُ يوجد بريًّا في كثير من الاراضي البور من تلك المناطق . وقد عثروا على بذور منهُ في مقابر قدماء المصريين يرجع عهدها الى ٤٠٠٠ سنة مما يدل على معرفتهم بوجوه نفعه . كما وان قدماء اليونان والرومان استعملوا زيته مسهلاً واستضاءوا بهِ في مصابيحهم كما يستضاء بهِ الآن في الهند بالسكك الحديدية لتفضيله على الزيوت الاخرى لبطء احتراقه وابيضاض ضوئه الشبيه بالضوء الكهربائي ورخص ثمنه وامتناع خطره الى غير ذلك كما جاء في كتاب زراعة المنطقة الحارة تأليف السير ه . ا . نيكولز المطبوع في سنة ١٩٢٩

وينتفع بهِ ايضاً في تزييت الآلات الميكانيكية والساعات ويدخل في صناعة انواع من الصابون واخلاط بعض المراهم والزيوت العطرية . هذا وقد عرف من قديم ايضاً ان اوراق الخروع اذا غليت ووضعت على الثدي ساعدت على ادرار اللبن وانها اذا استعملت بحالتها الطبيعية ساعدت على انحدار الطمث (الحيض) واذا استعمل قلف الجذر كان مسهلاً . وفي بلاد البنغال من الهند تستعمل الاوراق لتغذية دود القز . واهل السودان يصنعون عجينةً من اوراق الخروع يضعونها على رأس المريض بالصداع لشفائه

اللَّبَخ

جمع واحدته (لَبَخَة) وهو شجر كبار يرتفع الى ١٦ أو ١٨ متراً وقلف جذعه املس اسمر اللون قاتم. اوراقه من نوع الورقة الريشية المركبة المضاعفة يكون في كل ورقة من زوجين الى اربعة

من الوريقات الريشية في كل واحدة من هذه من ٥ أزواج الى ٩ من وريقات ليست ريشية غير متساوية الجانبين الواحدة منها بيضية الشكل مستطيلة يتراوح طولها بين ٢٨ — ٣٠ ملّيمتراً مستديرة الطرفين . وأزهاره تضرب الى الصفرة والخضرة مجتمعة في رؤوس رائحتها ذكية ترغبها النحل وهي المعروفة في مصر (بذقن الباشا) وثماره قرون رقيقة تضرب الى الصفرة الفاتحة مستطيلة تبلغ ٣٠ سنتيمتراً طولاً و ٥ عرضاً

واسم الشجرة العلمي (Albizzia Lebbek, Benth.) (أَلْـبِـزْيَـا لِـبّـكْ) وفصيلتها السنطية او المستحية (Mimosaceae) (ميموزاسية)

وبالانجليزية (The Siris—Acacia; Egyptian Acacia; "Woman's Tongue" of W. Indies)

وبالفرنسية (Acacie de Malabar; Bois à feu; Ebénier d'Orient)

ويقال إن اصل هذا اللبخ من بلاد الهند الشرقية وإن كان ذائعاً الآن في جنوب آسيا ووسطها وشمال إفريقية ووسطها واميركة واستراليا . وقد أُدخل الى مصر والسودان واستنبت فيهما كشجر للظل والزينة وكثر انتشاره وخاصة في القاهرة وضواحيها فقد كانت تزين بهِ الشوارع الى ما قبل الحرب العظمى ثم ازيل بسبب فتك آفة بق الهبسكوس الدقيقي وللانتفاع بخشبهِ اذ ذاك وخشبه ابيض يضرب الى الصفرة او السمرة مندمج قابل للصقل يستعمل في النجارة كثيراً وخاصة في صناعة المحاريث ومراكز العجلات المعدة لحمل الاثقال وانتفاعات اخرى . واهل السودان يستعملون قلفـه في الدباغة كما يستعملون بذوره قابضة ويحصلون من اشجاره على صمغ يشبه الصمـغ العربي

أما ما ورد في كتب اللغة والنبات والآثار كتاج العروس للزبيدي وكتاب الافادة والاعتبار للبغدادي ومفردات ابن البيطار وحاصلات بومباي الاقتصادية لبردود وبغية الطالبين لاحمد باشا كمال فيصف نوعاً آخر من اللبخ اختلف في اسمائه وصفاته . ففي التاج ان شجرتهُ عظيمة مثل الدلب ثمارها خضر كالتمر حلو جدًّا لكنهُ كريه ولا ينبت الاَّ بانصنا من صعيد مصر وهذا رأي ابي حنيفة الدينوري وقيل إن شجرته عظيمة مثل الأَثْـأَبة (نوع من التين البري) او اعظم ورقها شبيه بورق الجوز ولها جنى كجنى الخمـاط (التين الجبلي) مرّ اذا أُكل اعطش واذا شرب عليه الماء نفخ البطن حكاه ابو حنيفة المذكور وانشد :

من يشرب الماء ويأكل اللبخ ترم عروق بطنه وينتفخ

قال : وهو من شجر الجبال . قال صاحب اللسان اخبرني العالم به انهُ رأى شجرة بانصنا وذكر انهُ جيد لوجع الاضراس واذا نشر خشبه أَرعف ناشره وينشر الواحاً فيبلغ اللوح منها خمسين ديناراً يجعله اصحاب المراكب في بناء السفن وزعم انه اذا ضم لوحان منهُ ضمًّا شديداً صارا لوحاً واحداً والتحما

وفي المقريزي في كلامه عن مصر : وبها اللبخ وهو ثمر قدر اللوز الاخضر كان من محاسن مصر إلاَّ انهُ انقطع قبل سنة ٧٠٠ هجرية . قال دليل (Delile) إن ابحاث دي ساسي (De Sacy) اوصلتني الى تقرير ان اللبخ الذي اطلق اسمه على جملة اشجار اخرى انما هو الهجليج في بلاد النوبة وبلاد العرب وهو نادر الوجود في مصر وقد اسميه (بالانيتس اجيپتياكا) (Balanites Aegyptiaca, Delile) وانا لا اشك كذلك في مشابهته الى (پرسيا) (Persea) عند القدماء وانها ترجع الى (پرسيكا) (Persica) اي الخوخ في بعض الآراء . وفي بغية الطالبين ان اللبخ يسمى (ميموزوپس شمپري) (Mimusops Schimperi, Hochst.) وهو شجر كثير الوجود قديماً في ارض مصر ولذا وجد في المقابر كثير من اثماره وأوراقه الشبيهة بورق الصفصاف كانت تنضد في اكاليل الموتى . وحقق (كُنْث) (Kunth) ان ثمر النبت المسمى (ميموزوپس إلنجي) (Mimusops Elengi) هو الذي ذكر ضمن الفاكهة المدونة في صحيفة ٤٥٤ من مجموعة بسالكا . وخالفه (أنجر) ذاهباً الى انهُ ثمر المخاط (المخيط) الشهير بمصر (ويؤيد رأي أنجر ما قال بردود في كتابه ان المُخَيِّط اعتبر پرسيا القدماء التي تنسب الى بالانيتس اجيپتياكا ومن المحتمل كثيراً انها المخيط والبرقوق المصري الذي ذكره بليني (Pliny) وكان يصنع من خشبها توابيت الموتى) . وظنَّ شوينفورت ان الشجرة المسماة (ميموزوپس شمپري) التي لا وجود لها الآن الاَّ في بلاد الحبشة هي المعروفة عند قدماء المؤرخين باسم (پرسيا) وهي التي اسهبوا فيها الشرح واطالوا الكلام

ومما تقدم يتخلص ان اللبخ انواع : اولها اللبخ المسمى علميًّا (البزيالبّـك) وهو من الفصيلة السنطية وسبق وصفه وانه ذائع في جنوب آسيا ووسطها وشمال افريقية واستنبت في مصر والسودان . وثانيها ما ورد في كتب اللغة المختلف في اسمائه وصفاته وقيل إنه كان في صعيد مصر قديماً ويسمى الهجليج وسماه دليل (بالانيتس اجيپتياكا) وقيل بمشابهته الى (پرسيا) وهو من الفصيلة السيماروبية (Simarubaceae) . وثالثها ما في بغية الطالبين من ان اللبخ يسمى (ميموزوپس شمپري) من فصيلة (Sapotaceae) (ساپوتية) وعلق عليهِ (كُـونْث) و(شوينفورت) الذي قال إنهُ لا وجود لهُ الآن الاَّ في بلاد الحبشة وانهُ هو (پرسيا) . ورابعها ما ذهب اليهِ (أنجر) مما يشعر بأن لبخ القدماء هو المُخَاط (المخيط) (Cordia Myxa) (كورديا مكسا) بدليل ان الثمر الذي وجد في مقابرهم هو ثمر المخيط والذي كانت تصنع من اخشابهِ توابيت الموتى . فاذا صح انهُ المخيط نسب الى الفصيلة الشنجارية اي فصيلة لسان الثور (Boraginaceae) (بوراجيناسية)

هذا ولا بدَّ من الاشارة الى ما وقع من الاختلاط في التسمية بكلمة لبخ فهي على ما افهم في كتب العرب اسم موضوع للنوع القديم . وقد اطلق اسم اللبخ على (البزيا لبّـك) لا على انهُ اللبخ القديم بل اخذاً من كلمة (لبّـك) الموجودة في الاسم الحديث ومن ذلك حصل الاختلاط والاَّ فهما نوعان من فصيلتين مختلفتين

المتنبي

للشاعر القروي

نبيٌّ ولو ضجّتْ شيوخٌ ورهبانُ   وهل بعد إعجاز ابن كندة برهانُ ؟
وكلّ كلام يرفع النفسَ منزلٌ   وكل مقالٍ يُفسِدُ العقلَ بُهتانُ

***

تحيّيك يا نسر القريض بلابلٌ   يعيب عليها الشدوَ بومٌ وغربانُ !
اذا انت ارقصت النجوم ترنّحت   ازاهيرُ من تغريدهنّ وافنانُ
فيا لك من نسرٍ له زأر ضيغمٍ   زمازمهُ في مسمع الدهر ألحانُ
تخطّى سماء العبقريّين وانجلت   لهُ خلف اكوان الاناسيّ اكوانُ

***

لك الله تطوي شاسع البيد حاقداً   على (الزنج) (١) ما عيت به البيض (حمدان)؟!
تراءى لك الآمال نُضراً دوانياً   ففي الصدر بُركانٌ وفي العين بستانُ
اذا غاض ماء الجَدّ فالزرع مجدبٌ   ولو علّهُ نيلٌ وغذّته اطيانُ . . .
وان شئت امرأً شاءَ ربّك ضدّه   تعجّبت من عصيانه وهو اذعانُ !
وكم رغب الانسان في ما يضرّه   وناح على فقدانهِ وهو وجدانُ
ولولا رجاء الفوز لم ينبُ مضجعٌ   بحُرٍّ ولم يطمح الى المجد فتيانُ
ولو هانت الدنيا على كل طالبٍ   لما شاقنا ربحٌ ولا شقّ خسرانُ
ولو حُزِرَ الممنوع قبل امتناعه   على الجهد لم يستوجب العذل كسلانُ
ولو أعلنَ التدبير من وزّع اللُّهى   على الناس لم يعتِب على الحظ انسانُ
وفي الملأ الأعلى غناءٌ لشاعرٍ   وفي الوهم عن مُرّ الحقائق سلوانُ
رعى الله نجماً اسعدَ الشعرَ نحسُه   فذمّكه من دولة الشعر شكرانُ
رمى بك في الصحراء عن مصر نابياً   وفي النفس عدّ الرمل همٌّ واشجانُ
تلفّتّ ايجاساً ومهرك منصتٌ   ورمحك مشتاقٌ وعضبك يقظانُ
وقُدّت قميص الفجر إلاّ غلالةً   كما شفّ عن معناك للعمه تبيانُ

(١) يعني كافور الاخشيدي سلطان مصر

وفاضت شآبيب اللّجين وفجّرت جداول من ماس الشعاع وغدرانُ
وعبّ عباب التبر في كل ساحلٍ من الافق حتى لا ضفافٌ وشطآنُ
فولّت سراعاً خيفة النوءِ واختفت اساطيل نجمٍ ما عليهنّ ربّانُ
وعامت على المدّ الغيوم كأنها جزائر في بحر الضياءِ وخلجانُ
روائعُ تُنسي ثائر الجد همه واطيب ذكرى للمناكيد نسيانُ ! . .
نفذتَ الى ما خلفهنّ بناظرٍ لإنسانه خلف المحاجر إنسانُ
رأيت به ما لا يرى كل مبصرٍ كأنّ جميع الناس إلاّك عميانُ
كأنك في فُلك على الفجر سابحٌ وفيض شعاع الوحي حولك طوفانُ
أهبتَ بربّات الفنون فرتّلت مزاهر في احضانهنّ وعيدانُ
وفاضت مع الالحان من كل ربةٍ معانٍ من السحر الحلال وأوزانُ
همت فتلقّاها براعٌ مثقّفٌ خبير بتصريف الأماليّ فنّانُ
تُراضُ به شُمْسُ القوافي كأنهُ خزائم في اخطامهنّ وارسانُ
ونزّلتها للناس آيات حكمةٍ جواهرها في مفرق الشعر تيجانُ

***

ألا أي ينبوعٍ سقاك مَعينه فاني الى تلك المناهل ظمآنُ
اصاب «ابن أوسٍ» منه حسوة طائر وبلّت لسان « البحتري » به الجانُ
وأنت مقيمٌ كارعٌ من دنانه يشعشعها بالكوثر العذب رضوانُ
تعاطيك اكوابَ الخلود ملائكٌ اذا لقّن الاشعار غيرك شيطانُ
وتسعى اليك الجنّ تسأل حكمةً فيزجرها زجر الغيور سليمانُ
يمنّ علينا الدهرُ فيك وانهُ على نفسه لو يعلم الدهر منّانُ
بك اشتهر العصر الذي انت فخرهُ وأنت له التاريخ والمجد والشانُ
عيالٌ على ذكراك ذكرى ملوكه واسماؤهم فيه على اسمك ضيفانُ
خلدت فخلّدت الزمان وهكذا تموت وتحيا بالنوابغ ازمانُ

***

ابا الطيّب استعصت على الطب علةٌ ويخشى لها في مهجة الشعر إزمانُ
فأزرى بقدر العبقري شويعرٌ وباء بألقاب الخناذيذ وزّانُ

أكنتَ طرحت البوق في الحي جانباً وقد نام آساد ورُوّع غزلانُ ؟
أحقّاً اهاتيف الحماسة خِفّة وابطالها الغُرُّ الميامين صبيانُ ؟
ألا افتِنا فالنقد ضاعت اصوله وشوّه وجه الرأي حبٌّ وعدوانُ !

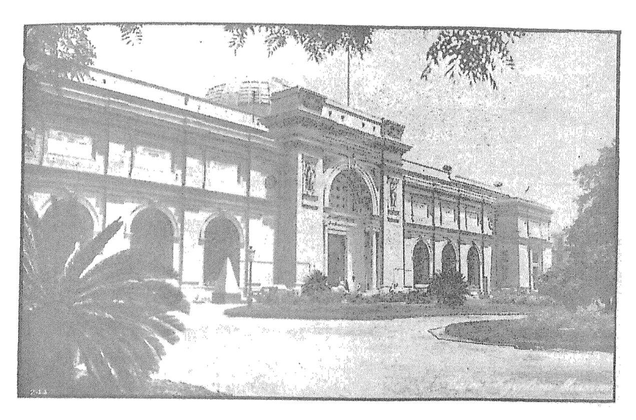
***

«بُنَيَّ ذَرِ التاريخ يُنصفْ رجاله ففي كفّه الميزان ان ضاع ميزانُ
أجدنا فَجُنَّ الحاسدون وليتنا اسأنا ففي بعض الإساءة احسانُ
اغاروا على الفاظنا بمراقمٍ يُقرُّ لها بالطعن . . . بيضٌ ومرّانُ
لَهَوا بانتقاد الثوب عما يضمّه وتُنتخَبُ الحسناء والجسم عريانُ
وداوَوا بتذمام الغبار عيونهم اذا برّزَت في حلبة الشعر فرسانُ
فان تَلقَ منهم ما لقينا فانما هم الناس يا ابني لم يزالوا كما كانوا
بشاعرها فلتفتخر كل امةٍ يهددها بالموت والعار طغيانُ
اذا طويت اعلامها فهو بيرق وان اخمدت انفاسها فهو بركانُ
يهز رفات الغابرين صراخه فتنشقُّ ارماس وتنحلُّ اكفانُ
وتُبعثُ ابطالُ وتُنضى صوارم وتنشرُ اعلامُ وتُنصَفُ اوطانُ
وقفتم على اطلال مجدٍ مُضَيَّعٍ فحظُّكم منهُ شقاء وحرمانُ
وماذا يرجّي الشاعر الحرّ بينكم وما حولهُ الاَّ اماءٌ وعبدانُ
تصرّم عهد العزّ والبأس والندى وبدّل من اخلاق (يعرب) (طورانُ)
فخالت سيوف الدولة البيض اعظُماً ويا ليتهم فيكم « كوافير » سودانُ

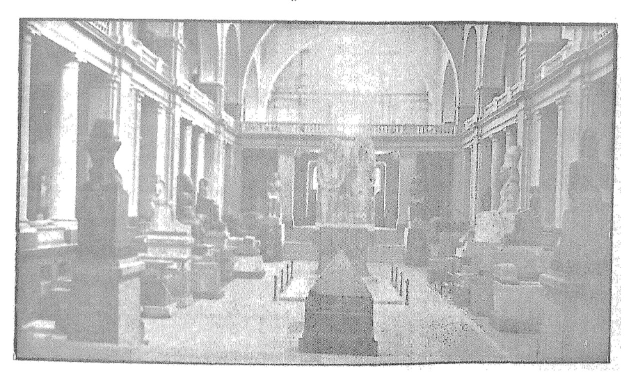
***

ابا الشعر هذا محفلٌ من محافل تهزُّ بها الدنيا بذكرك قحطانُ
صحا الدهر يستسقيك كأساً جديدةً قضى الف عام قبلها وهو سكرانُ
ألا نُهلةٌ أخرى ؟ أما من ثُمالةٍ يهشُّ لها صادٍ ونادٍ وندمانُ ؟
خلا العرش بعد (ابن الحسين[1]) على المدى وعُطل من كسرى البلاغة ايوانُ
تمرُّ البرايا موكباً إثر موكبٍ يقلُّ فحول الشعر والشعر سهرانُ
يفتش فيها عن خليفةِ « احمدٍ » فتمضي الليالي وهو حيران يأسانُ

(١) يعني المتنبي ابن الحسين



دار الآثار المصرية في قصر النيل



الدور الارضي في دار الآثار المصرية

مصلحة الآثار المصرية

ودار الآثار المصرية وتاريخ انشائهما

للدكتور حسن كمال

حدث في ربيع سنة ١٨٥٧ ميلادية ان الامير نابوليون ابن عم الامبراطور نابوليون الثالث امبراطور فرنسا وقتئذٍ وصل الى وطنهِ حديثاً من رحلة بالقطب الشمالي . وكان سموه كثير الحركة قليل القناعة فكان قلقهُ مدعاة لقلق عمهِ واحراجهِ كثيراً . وتاق سموه يوماً ما الى الذهاب في رحلة الى الشرق فقوبلت هذه الرغبة بكل وسائل التشجيع والتسهيل . وكان الارشيدوق ماكسيمليان قد سبقهُ في رحلة الى مصر واحضر معهُ آثاراً نالت اعجاب اهل وطنهِ. فصمّم سمو الامير نابوليون ان يقوم بعمل يفوق عمل الارشيديوق ماكسيمليان. فأرسلت افادة بذلك الى سموّ والي مصر سعيد باشا الذي قرّر ان يقابل بكل وسائل الاكرام

عندئذٍ اشار (ديلسبس) على سمو الوالي ان يبعث في طلب انتداب الاستاذ (ماريت) من فرنسا لمدة ثمانية اشهر فقط وذلك في اكتوبر سنة ١٨٥٧ . فحضر (ماريت) الى مصر فسافر في النيل يبحث في الوادي عن الآثار ويدفن ما يعثر عليهِ بالتالي في محله حتى يجيء الامير نابوليون كي لا يتجشم هذا الاخير مشقة الحفر والتنقيب

بعد ذلك بقليل وصل الى القاهرة الاستاذ (هينريخ بروكش) الالماني . ورغبةً في عدم ضياع الوقت ذهب (ماريت باشا) وقابل الاستاذ (بروكش باشا) في محطة السكة الحديد وطلب منه إعداد نفسه بأسرع ما يمكن كي يشترك معهُ في الحفريات المطلوب القيام بها

وقد افاض علماء الآثار في شرح هذه القصة بعباراتهم المتباينة . نخص بالذكر منهم (ماسپرو) و (دي مرجان) و (دي روجيه) و (بروكش) وذلك في عدة مجلات اثرية ليس هذا مقام شرحها

وبدأت الحفريات في الجيزة وسقارة والعرابة وطيبة (الاقصر) وجزيرة الفيل باسوان وعثر على مقادير كبيرة من الآثار وقتئذٍ . واستمر العمل سائراً بنجاح من كل الوجوه الاَّ وجه واحد وهو مجيء الامير نابوليون الذي اعتذر عن الحضور الى مصر «لاسباب هامة» . وفي ٨ يناير سنة ١٨٥٨ ورد نبأ الى (مريت) من فرنسا بطلب رجوعه اليها وتسلمه اعماله في متحف اللوفر

عندئذٍ صمم (ماريت) ان يؤسس لهُ مستقبلاً بمصر . فارسل الى الامير نابوليون انهُ يمكنه ان يحضر معهُ مجموعة اثرية لسموه اذا تفضل سموّه ومكّنه من تأخير عودته الى فرنسا . فأتى

اليهِ الردّ من سكرتير سموه المدعو (فرّ بيزاني) بأن سموه يكون شديدالامتنان اذا تمكن(ماريت) من احضار « بعض حليّ وتماثيل صغيرة وقطع من الفنون المصرية الجميلة مع بيانات بطريقة العثور عليها » فاخذ (ماريت) ما يعتبره موافقاً لذوق سموّ الامير نابوليون الملقّب وقتئذٍ بلقب (پلون پلون) . ولما وصلت الهدية الثمينة الى الامير المذكور رشّح (ماريت) مأموراً للآثار المصرية وذلك بعد مضي بضعة اشهر

هذه باختصار قصة انشاء مصلحة الآثار المصرية وظهورها فيعالم الوجود. ومن اهم ما عثر عليهِ وقتئذٍ تابوت الملك (كامس) فقد اكتشفه (ماريت) و (بروكش) في ديسمبر سنة ١٨٥٧ في حفرة جهة (دراع ابي النجا) . فلما رآهُ (ماريت) ظنه لا يروق في عين الامير (نابوليون) فأبقاه في مصر حتى حفظ بدار تحف القاهرة . اما جثة الملك فكانت في حالة تحلل تام . حتى انها تفتّت بمجرد فتح التابوت . ووُجِد مع الجثة باطة وتمثالان لاسدين وخانة ملكية ارسلت جميعها ضمن الهدية المقدمة الى الامير (نابوليون) . وهي الآن في دار تحف اللوفر بفرنسا

و (كامس) هذا حكم القطر المصري في القرن السادس عشر قبل الميلاد ولما توفي دفن باهرامه بالساحل الغربي بالاقصر . وقد كافح الهيكسوس كفاح المستميت وبعده اتت الاسرة الثامنة عشرة وحكمت القطر بصولتها وجبروتها ثم تلتها الاسرة التاسعة عشرة بعزها وجاهها . بعد ذلك اخذ القطر في الاضمحلال وبدأت ايدي اللصوص تعبث بمدافن فراعنة مصر الاقدمين قصد اقتناص الحلى والادوات الثمينة التي اعتاد القوم ان يدفنوها مع ملوكهم كما هي الحال مع(توت عنخ امون)

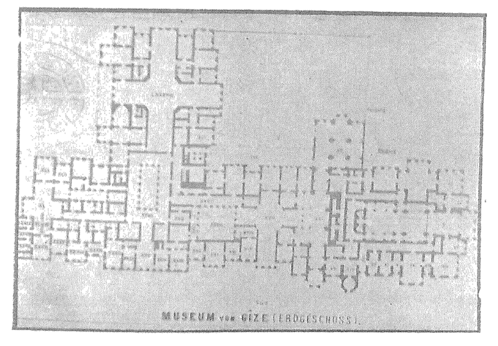
وورد بقرطاس (ابوت) التاريخي ان البوليس المصري القديم فتش قبر الملك (كامس) وقتئذٍ ووجده سليماً . لكن وقع على اثر ذلك ان ازداد اللصوص امعاناً في سرقة المقابر الملكية . نخاف القوم على جثث ملوكهم واخذوا ينقلونها من مقابرهم ذات المعالم الواضحة الى حفر مختبئة مطموسة الدلائل والقرائن . فكان من حظ الملك (كامس) المذكور ان نقل من قبره العظيم الى حفرة صغيرة اسفل (دراع ابي النجا) وهناك بقيت جثته مع تابوتها وبعض ممتلكاتها حتى ديسمبر ١٨٥٧ ميلادية لما اكتشفها (ماريت) و (بروكش) بالطريقة السابق شرحها

دار الآثار المصرية

والآن وقد ألمعنا سابقاً الى تاريخ انشاء مصلحة الآثار المصرية ننتقل بالقارىء الى تاريخ انشاء المتحف المصري فنقول ان (ماريت باشا) بدأ المتحف المصري عام ١٨٥٧ ميلادية (بديكر عن مصر) بحي بولاق . واول دليل وضع لهذا المتحف كتبه ماريت عام ١٨٦٤ تحت عنوان Les principaux monuments du musée de Boulacq . وفي سنة ١٨٨٣ وضع الاستاذ ماسپرو دليلاً ثانياً . وبعد الاحتلال الانكليزي للقطر بمدة يسيرة نقل المتحف من بولاق الى سراي الخديو اسماعيل باشا بالجيزة وبقي هناك حتى ٩ مارس سنة ١٩٠٢ لما بدىء في نقل محتوياته الى المتحف الحالي بقصر النيل



العالم الاثري المصري المغفور له
احمد كمال باشا

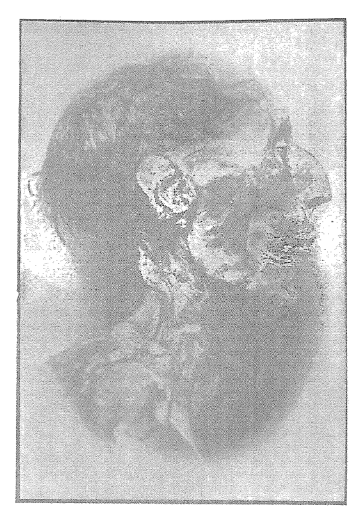


رسم الدور الارضي لدار الآثار المصرية في الجيزة وهي الدار التي تقدمت
دار الآثار المصرية الحديثة في قصر النيل

لوحة تمثل الملك اخناتون يعبد الشمس



رأس مومياء رمسيس الثاني



وتم نقل المتحف في ١٣ يوليه سنة ١٩٠٢ وكان كلما نُقل اثر وضع في المحل المعد له حتى اذا ما استهلَّ شهر اغسطس صار متحف القاهرة الجديد مستعدًّا لدخول المتفرجين . الاَّ ان اصلاح الانصاب والقواعد والحيطان عقب ما اصابها من التخديش الناشىء عن نقل الآثار كان مانعاً لذلك . فلما انتهى هذا الاصلاح فتح المتحف في ١٥ نوفمبر سنة ١٩٠٢ (راجع مقدمة دليل متحف القاهرة سنة ١٩٠٣) واعدت أبهاؤه لمن اراد التفرج عليها

واول مدير (مأمور) لمصلحة الآثار كان بطبيعة الحال (اوجست ماريت) (١٨١٢—١٨٨١) . ثم اتى بعده (جريبو) و (دي مورجان) و (لوريه) و (ماسپرو) و (لاكو) . ويرجع الفضل في اكبر توسعة لتحف هذه الدار الى عهد جاستون ماسپرو الذي توفي عام ١٩١٦ ميلادية . ولعل اهم كنز أثري عثر عليه في الآثار المصرية كلها بما في ذلك الحديث هو الموميات الملكية — او جثث فراعنة مصر — الذين دوخوا العالم واعلوا منزلة مصر حتى بلغت عنان السماء . والى هذا الكنز يرجع الفضل الاكبر في تعرف العالم الحديث بالقديم . لان الروايات الأثرية والقصص التاريخية التي كانت معروفة عند هؤلاء القوم لم تقدر حق قدرها ولم تصبح لها منزلتها العالية الاَّ بعد ما شاهد اهل هذا العصر وجوه حكام تلك الازمنة ولمسوها بأيديهم . فكان هذا الاكتشاف كوميض البرق في الدجى الحالك يكشف عن مئات من المعالم كانت مختبئة تحت جنح الظلام الدامس

والفضل في اكتشاف هذه الموميات الملكية يرجع الى الاستاذين احمد افندي كمال [1] (وقد انعم عليه بالباشوية في اواخر حياته — وتوفي عام ١٩٢٣ م) واميل بروكش فانهما في يوم الاربعاء ٦ يوليو سنة ١٨٧٩ تمكنا بمعرفة محمد احمد عبد الرسول من الوصول الى ذلك الكنز في بئر عميقة بالقرب من الشيخ عبد القرنة بالاقصر . وهذه البئر تنتهي من اسفل بسرداب متعرّج وطويل ينتهي بحجرة واسعة يبلغ طولها حوالي ثمانية امتار تقريباً . واول ما وقع نظر الاستاذين كان على تابوت (نسى خونسو) ثم (سيتي الاول) ثم على كثير من اثاث المنازل وادوات الزينة وتماثيل المقابر على اختلاف انواعها ولكنها كانت بغير نظام . وتحت بصيص الشمعة تمكن العالمان من معرفة توابيت وموميات الملك (امنحوتب الاول) و(تحوتمس الثاني) و(احمس الاول) محرر مصر من الهيكسوس و (سكننرع) شهيد الثورة القومية ضد الهيكسوس و (تحوتمس الثالث) البطل الفاتح و (رمسيس الثاني) الامبراطور العظيم !!! وغيرهم ممن حكموا العالم القديم . واستمرَّ فحص هذا الكنز ساعتين (راجع (Historians History of the World) مجلد ١ ص ١٥٦)

وفي الحال اتيا بحوالي مائتين من الانفار بمعونة سعادة مدير المديرية . وبُدىء في نقل تلك الآثار . وبقي احمد افندي كمال واميل بروكش يتسلمان الآثار قطعة قطعة مدة ثماني واربعين ساعة من دون ادنى راحة حتى نقلا جميع التحف . ثم بدأت مهمّة نقل ذلك الكنز الى السفينة النيلية.

---

(١) المقتطف : والد الدكتور حسن كمال

وفي ١١ يوليو كانت هذه الآثار على شاطئ النيل بالاقصر . وكلنا نعرف مقدار التعب الذي حلَّ بالقائمين بهذا العمل في حرارة شمس يوليو المحرقة بالاقصر . وفي يوم ١٤ يوليو وصلت السفينة النيلية الى الاقصر لشحن مفردات الكنز ثم أقلعت الى بولاق . ومن ثمَّ نقلت محتوياتها الى المتحف المصري وكان في بولاق وقتئذٍ

ومن ظريف ما حدثنا به الوالد انهُ لما توجه الى الاقصر للقيام بهذا العمل اراد مقابلة سعادة مدير قنا . فنزل من السفينة هو والاستاذ اميل بروكش لهذا الغرض . وتعذَّر عليهما الحصول على عربة وكان وقت الظهيرة . فتراءى لهما السير على الاقدام فسارا هذه المسافة الطويلة من النيل الى ديوان المديرية في لهيب شمس يوليو . وحدث في اثناء سيرهما ان الاستاذ (بروكش) اعترته نوبة مغص كاوي شديدة اضطر من جرائها الى الاستراحة هنيهة تحت شجرة . وكان كمال افندي وقتئذٍ يواسيه. قال هذا الاخير ولما ذهب عن (بروكش) الالم تفقد احدنا حذاءه اللامع فوجد طبقته اللامعة قد سالت وخلفت قماشاً اسوداً من شدة الحرارة !! ولما وصلا الى ديوان المديرية لمقابلة سعادة المدير علما ان سعادته في الحمام يطفئ لهيب الحر !! والقصد من سرد هذه الحكاية هنا اظهار بعض ما عاناه الاستاذان من التعب في انجاز ذلك العمل الشاق

ويتلخص السبب في تكديس موميات وأثاث مقابر هؤلاء الملوك بعضها فوق بعض في ذلك المكان المختبئ في ان المملكة المصرية لما ضعفت سلطتها بدأت اللصوص في نهب مقابر الحكام الاقدمين فخاف الكهنة على موميات ملوكهم وتمكنوا من حفر البئر التي تقدم ذكرها حيث واروا موميات حكامهم . فبقيت هذه في حرز امين الى ان تسلَّمها احمد افندي كمال و(اميل بروكش) وأودعاها بدار تحف بولاق . وكلنا نعرف دار التحف المصرية التي في قصر النيل الآن . اما دار التحف المصرية السابقة لها فكانت تعرف باسم دار تحف الجيزة وهي سراي المغفور له اسماعيل باشا الخديوي الاول حوَّلت هذه الدار الى دار تحف ونقلت اليها محتويات دار تحف بولاق . وكانت هذه السراي ذات طابقين ارضي وعلوي . وكل طابق مكوَّن من تسعين صالة تقريباً . ومنهُ يتضح للقارئ ان محتويات المتحف وقتئذٍ كانت كثيرة جدًّا — ولا غرابة فقد كانت حينذاك اغنى مجموعة من نوعها في العالم. وكانت تحفها مقسَّمة تقسيماً علميًّا بحسب العصور من اقدم الازمنة الى العهد القبطي . وقد جاء ذكر هذا المتحف في حديث عيسى بن هشام حيث يجد الباحث العبارة الآتية ضمن عباراته عن المتحف المذكور « ولو انك عرضت اهل مصر على هذه الآثار واحداً واحداً لما استفادوا منها شيئاً ولا افادوك عنها شيئاً ولما وجدوا لها قيمة تذكر سوى النذر اليسير من المقلدين للغربيين ولم تجد بين عشرة الملايين اليوم سوى شخص واحد يفقه « لغة الهيرغليف » اعنى لغة آبائهم واجدادهم كما يزعم الزاعمون مع كثرة الخبيرين بها في الامم الغربية » وهو يعني بذلك المرحوم كمال باشا طبعاً . اما الآن فان تلاميذ الباشا المذكور اخذوا يتبوأُون مكانهم تحت الشمس في علم الآثار وصار لهم منزلة محترمة بين ابناء وطنهم

رسالة "السيرة الفلسفية"

للطبيب الفيلسوف أبو بكر الرازي

لاحمد فؤاد الاهواني

هي رسالة صغيرة الحجم كبيرة الفائدة العلمية ، أخرجها من عالم المخطوطات إلى عالم المطبوعات مستشرق ألماني يشتغل الآن في باريس أستاذاً بمدرسة الدراسات العليا الملحقة بجامعة السوربون ، اسمهُ بول كراوس Paul Kraus . تقابلت وإياه في باريس في صيف هذا العام ، وأطلعني على هذه الرسالة التي نشرها في مجلة اوريانتاليا [1] التي تصدر في روما ، وأردفها بترجمة فرنسية للرسالة ، وتحليل لها ايضاً ، والاستاذ كراوس قد اختصَّ بدراسة الرازي ويعمل بالفعل على إخراج كثير من كتبهِ ، وقد اعجبتني هذه الرسالة الصغيرة عن السيرة الفلسفية التي وضعها الرازي فأحببت ان اقدم ملخصها للقراء لما فيها من نفع . ويترجم له صاحب أخبار الحكماء فيقول:[2]

محمد بن زكريا أبو بكر الرازي طبيب المسلمين غير مدافع ، وأحد المشهورين في علم المنطق والهندسة وغيرها من علوم الفلسفة . وكان في ابتداء أمره يضرب بالعود ثم ترك ذلك وأقبل على تعلم الفلسفة فنال منها كثيراً . وألَّف كتباً كثيرة يأتي ذكرها ان شاء الله تعالى اكثرها في صناعة الطب ، وسائرها في ضروب من المعارف الطبيعية والالهية ، الاَّ انهُ توغل في العلم الالهي وما فُهم غرضهُ الاقصى فاضطرب لذلك رأيه وتقلد آراء سخيفة وانتحل مذاهب خبيثة وذمّ أقواماً لم يفهم عنهم ولا هدى لسبيلهم . ودبر مارستان الري ثم مارستان بغداد زماناً ثم عمي في آخر عمرهِ وتوفي قريباً من سنة عشرين وثلثمائة . هذا قول القاضي صاعد بن الحسن الاندلسي . وذكر ابن شيراز في تاريخه انهُ توفي سنة اربع وستين وثلثمائة . وذكره ابن جلجل الاندلسي في كتابه فقال : ابو بكر الرازي مسلم النحلة اديب طبيب مارستاني ، دبر مارستان الري ثم مارستان بغداد طويلاً ، وكان في ابتداء أمره يضرب بالعود ثم نزع عن ذلك واكبّ على النظر في الطب والفلسفة وبرع فيها براعة المتقدمين ، وألَّف في الطب كتباً كثيرة بديعة ... وعمي في آخر زمانه بماء نزل على عينيهِ فقيل له لو قدحت ؟ ! قال : لا ، قد أبصرت من الدنيا حتى مللت ، فلم يسمح لعينيهِ بالقدح ، وكان في زمن المكتفي ، قلت وفي بعض زمن المقتدر !

« وذكره محمد بن اسحاق بن النديم في كتابهِ فقال : أبو بكر محمد بن زكريا الرازي من اهل الري ، أوحد دهره ، وفريد عصره ، قد جمع المعرفة بعلوم القدماء لاسيما الطب . وكان ينتقل في البلدان ، وبينهُ وبين المنصور بن اسماعيل صداقة ، وله ألف كتاب المنصوري . قال ابو الحسن

---

(١) Revue Orientalia (٢) اخبار العلماء باخبار الحكماء للقفطي طبعة الخانجي في مصر ص ١٧٨

الوراق : قال لي رجل من اهل الري شيخ كبير سألتهُ عن الرازي فقال : كان شيخاً كبير الرأس مسفطه وكان يجلس في مجلسهِ ودونهُ التلاميذ ودونهم تلاميذهم ودونهم تلاميذ آخرون ، وكان يجيء الرجل فيصف ما يجد لاول من يلقاه منهم ، فان كان عنده علم والاَّ تعداه الى غيره ، فان اصابوا والاَّ تكلم الرازي في ذلك . وكان كريماً متفضلاً باراً بالناس ، حسن الرأفة بالفقراء والاعلاَّء ، حتى كان يجري عليهم الجرايات الواسعة ويمرضهم . قال ولم يكن يفارق النسخ إما يبيض وإما يسوّد . وكانت في بصره رطوبة لكثرة أكله الباقلاء ، وفي آخر عمره عمي . . . »

ويقول الاستاذ كراوس في تحقيق هذا المخطوط إن « السيرة الفلسفية » قد ذكرت ضمن الكتب المنسوبة الى الرازي. وقد ذكره « البيروني » في رسالتهِ تحت هذا العنوان « السيرة الفلسفية » وهو العنوان المرقوم في هذا المخطوط الوحيد . اما ابن ابي اصيبعة فيذكر عدة تآليف الأرجح — في نظر الاستاذ كراوس — انها ترجع الى كتاب واحد فمنها كتاب « سيرة الحكماء » ، و« في السيرة الفاضلة » و« سيرة أهل المدينة الفاضلة » ، و« في سيرته » . أما القفطي فيذكر عن ابن النديم ضمن تآليف الرازي « كتاب في السيرة الفاضلة » . وتبدأ الرسالة على هذا النحو

« بسم الله الرحمن الرحيم . قال ابو بكر محمد ابن زكريا الرازي — ألحق الله روحه بالروح والراحة

إن ناساً من أهل النظر والتمييز والتحصيل ، لما رأونا نداخل الناس ونتصرف في وجوه من المعاش عابونا واستنقصونا وزعموا أنا حائدون عن سيرة الفلاسفة ولا سيما عن سيرة إمامنا سقراط المأثور عنهُ أنهُ كان لا يغشى الملوك ويستخف بهم إن هم غشوه ، ولا يأكل لذيذ الطعام ، ولا يلبس فاخر الثياب ، ولا يبني ولا يقتني ولا ينسل ولا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً ولا يشهد لهواً ، بل كان مقتصراً على أكل الحشيش ، والالتفاف في كساء خلق والايواء إلى جب في البرية ، وأنهُ ايضاً لم يكن يستعمل التقية للعوام ولا للسلطان بل يجبههم بما هو الحق عنده بأشرح الالفاظ وأبينها وأما نحن فعلى خلاف ذلك . ثم قالوا في مساوىء هذه السيرة التي سار بها إمامنا سقراط أنها مخالفة لما عليهِ مجرى الطبع ، وقوام الحرث والنسل ، وداعية إلى خراب العالم وبوار الناس وهلاكهم ، وسنجيبهم بما عندنا في ذلك إن شاء الله

فنقول : أما ما أثروهُ عن سقراط وذكروه فقد صدقوا وقد كان ذلك منهُ ، لكنهم جهلوا منهُ أشياء أخر وتركوا ذكرها تعمداً لوجوب موضع الحجة علينا . وذلك أن هذه الامور التي أثروها عن سقراط قد كانت منهُ في ابتداء أمره إلى مدة طويلة من عمره ثم انتقل عن كثير منها حتى انهُ مات عن بنات ، وحارب العدو ، وحضر مجالس اللهو ، وأكل الطيبات إلاَّ من اللحم ، وشرب يسير المسكر ، وذلك معلوم مأثور عند من عني باستقصاء أخبار هذا الرجل . وإنما كان منهُ ما كان في بدأ أمره لشدة محبته بالفلسفة وحبه لها ، وحرصه على صرف زمان الشهوات ، واشتغل باللذات إليها ومؤاتاة طبعه لهُ على ذلك واستخفافه واسترذاله لمن يلاحظ الفلسفة بالعين التي تستحق أن تلاحظ بها ، وآثر ما هو أخس منها عليها . ولا بدَّ في أول الأمور المشوقة المعشوقة من فضل

ميل إليها وإفراط في حبها ولزومها وشنآن المخالفين فيها ، حتى إذا وغل فيها ، وقرّت الأمور به قرارها سقط الافراط فيها ، ورجع إلى الاعتدال كما يقال في المثل « لكل جديد لذة » . فهذه كانت حال سقراط في تلك المدة من عمره ، وصار ما أثروه عنهُ من هذه الامور أشهر وأكثر لأنها أطرف وأعجب وأبعد من أحوال الناس ، والناس مولعون باذاعة الطريف النادر ، والاضراب عن المألوف والمعتاد. فلسنا إذاً بمخالفين للأمر الأحمد من سيرة سقراط ، وإن كنا مقصرين عنهُ في ذلك تقصيراً كثيراً ومقرين بالنقص عن استعمال السيرة العادلة وقمع الهوى ومحبة العلم والحرص عليهِ . فخلافنا اذاً لسقراط ليس في كيفية السيرة بل في كميتها ، ولسنا بمنقصين إن اقررنا بالنقص عنهُ إذ كان ذلك هو الحق ، وكان الاقرار بالحق اكثر شرفاً وفضيلة . فهذا ما نقوله في هذا الموضوع

وأما ما عابوه من السيرة الاولى من سيرتي سقراط فانا نقول : إن المعيب منها بحق أيضاً كميتها لا كيفيتها ، إذ من البين انهُ ليس الانهماك في الشهوات وايثارها الأمر الأفضل الأشرف على ما بيّنا في كتابنا « الطب الروحاني » لكن الأخذ من كل حاجة بمقدار ما لابد منهُ او بمقدار ما لا يجلب ألماً على اللذة المصابة منها . وقد رجع سقراط عن المفرط منها الذي هو المعيب بالحقيقة ، والداعي إلى خراب العالم وبوار الناس ، إذ قد عاد الى ان أنسل وحارب العدو وحضر مجالس اللهو. ومن فعل ذلك فقد خرج عن أن يكون ساعياً في خراب الدنيا وبوار الناس ، وليس يجب أن لا يكون كذلك حتى يكون مغرقاً في الشهوات ونحن وان كنا غير مستحقين لاسم الفلسفة بالاضافة الى سقراط ، فانا مستحقون لاسمها بالاضافة الى الناس غير المتفلسفين.....

« واذ قد بينا ما اردنا بيانه في هذا الموضع فنرجع ونبين ما عندنا ، ونذكر الطاعنين علينا ، ونذكر انا لم نسر بسيرة الى يومنا هذا — بتوفيق الله ومعونته — نستحق ان نخرج بها عن التسمية فيلسوفاً . وذلك ان المستحق لمحو اسم الفلسفة عنه ، مَن قصّر في جزءي الفلسفة جميعاً ، اعني العلم والعمل بجهل ما للفيلسوف ان يعلمه ، او سار بما ليس للفيلسوف ان يسير بهِ . ونحن بحمد الله ومنّهِ وتوفيقه وارشاده فبرآء من ذلك . اما في باب العلم فمن قِبَل انّا لو لم تكن عندنا منه الاّ القوة على تأليف مثل هذا الكتاب لكان ذلك مانعاً عن ان يمحى عنا اسم الفلسفة فضلاً عن مثل كتابنا في البرهان ، وفي العلم الالهي ، وفي الطب الروحاني ... والكتاب الموسوم بالجامع الذي لم يسبقني اليه احد من اهل المملكة ولا احتذى فيه احد بعد احتذائي وحذوي ... فان لم يكن مبلغي من العلم المبلغ الذي استحق ان اسمى فيلسوفاً ، فمن هو ليت شعري ذلك في دهرنا هذا »

خصص الرازي هذه الرسالة في الرد على مهاجيه ومنتقديه ، وعرض للذين يخلعون عنه لقب الفيلسوف ، فرسم الطريق الذي يسلكه صاحب الفلسفة عامة ، وشرح حياة سقراط ليستخرج منها النهج السوي اذ كان سقراط المثل الاعلى الذي يحتذى في الاخلاق . وقد نعود في كلمة اخرى الى المبادىء الاخلاقية التي ذكرها الرازي في هذه الرسالة فهي طريفة حقّاً وجديرة بالبسط والتفكير . ولكني اريد ان اوجه النظر الى الطريقة التي عالج بها هذا الفيلسوف الدفاع عن نفسه ،

فان صفة العلماء التواضع ، ولكن كثيراً من المفكرين خرجوا على هذا التقليد ، فكتبوا تاريخ حياتهم ، ذكروا فيه احوالهم الشخصية ، ورسموا طرائق معاشهم ، ولم يجدوا في مدح انفسهم نقصاً او عيباً ، وكل ادرى بنفسه . ولعل الرازي اذا لم يكن قد سلم من هجمات المعارضين ، ونقدات الناقدين ، فذلك لانهُ هو كان البادىء بمهاجمة علماء زمانهِ والحط من قدرهم ، واذا كانت هذه المؤلفات قد ضاعت اصولها وفقدت متونها ، فان اسماءها تدل عليها ، وقد عددت مؤلفاته حسب ما ورد في « اخبار الحكماء » فكانت مائة وستة وثلاثين كتاباً ، « وبالجملة فقرابة مائتي كتاب ومقالة ورسالة خرجت عني الى وقت عملي هذه المقالة في فنون الفلسفة من العلم الطبيعي والالهي» كما ذكر هو عن نفسهِ في هذه الرسالة . ثم انظر الى كتبهِ مثل «الرد على الناشىء في نقضهِ الطب » . وكتاب « في الاسباب المميلة لقلوب الناس عن افاضل الاطباء الى اخسائهم» و « كتاب الرد على ابي قاسم البلخي في نقضهِ المقالة الثانية في العلم الالهي» و «كتاب الرد على الجاحظ في نقض الطب » و «كتاب مناقضة الجاحظ في كتابه في فضل الكلام » و « كتاب نقض النقض على البلخي في العلم الالهي» و« كتاب في ان بعض الناس ترك الطبيب » و « رسالة لم صار جهال الاطباء والنساء في المدن اكثر من النساء» ....فمن هذه الكتب ما ناقض به اعلاماً من الكتاب الذين سبقوه كالجاحظ ، ومنها ما عارض بها اهل زمانه ومعاصريه . ويخيل الينا ان هذه المعارضة كانت عنيفة بل بالغة في العنف ، يؤيدها ايمانه المتأصل بأنه وحيد عصره في العلم والفلسفة والطب كما ذكر عن نفسه حيث قال « فان لم يكن مبلغي من العلم المبلغ الذي استحق ان اسمى فيلسوفاً فمن هو ليت شعري ذلك في دهرنا هذا»

وقد سرد بعد ذلك طرفاً من سيرتهِ الخاصة ، يعتذر بها عن نفسهِ فقال : « فاني لم أصحب السلطان صحبة حامل السلاح ، ولا متولي أعماله ، بل صحبته صحبة متطبب ومنادم يتصرف بين امرين : أما في وقت مرضه فعلاجه وإصلاح أمر بدنه ، وأما في وقت صحة بدنه فايناسه والمشورة عليه — يعلم الله ذلك مني — بجميع ما رجوت به عائدة صلاح عليه وعلى رعيته ولا ظهر مني على شره في جمع مال وسرف فيه ، ولا على منازعات الناس ومخاصماتهم وظلمهم ، بل المعلوم مني ضد ذلك كله والتجافي عن كثير من حقوقي . وأما حالتي في مطعمي ومشربي ولهوي فقد يعلم من يكثر مشاهدة ذلك مني اني لم أتعد الى طرف الافراط ، وكذلك في سائر احوالي مما يشاهده هذا من ملبس أو مركوب أو خادم أو جارية . فاما محبتي للعلم وحرصي عليه واجتهادي فيه فمعلوم عند من صحبني وشاهد ذلك مني ، اني لم أزل منذ حداثتي ، وإلى وقتي هذا ، مكبًّا عليه حتى أني متى اتفق لي كتاب لم اقرأه ، او رجل لم ألقه لم التفت إلى شغل بتة — ولو كان في ذلك عليَّ عظيم ضرر— دون أن آتي على الكتاب وأعرف ما عند الرجل . وإنهُ بلغ من صبري واجتهادي اني كتبت بمثل خط التعاويذ في علم واحد اكثر من عشرين الف ورقة ، وبقيت في عمل الجامع الكبير خمس عشرة سنة أعمله الليل والنهار حتى ضعف بصري وحدث عليّ فسخ في عضل يدي يمنعاني في وقتي هذا عن القراءة والكتابة ، وأنا على حالي لا أدعهما بمقدار جهدي ، وأستعين دائماً بمن يقرأ ويكتب لي »

سَيرُ الزمان

الدين والنهضة

الاخلاقية الحديثة

للدكتور عبد الرحمن شهبدر

العقوبات الدولية

الادبية والمالية والاقتصادية



الدين والنهضة

الاخلاقية الحديثة

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

﴿ التطور في العقائد والعادات ﴾ : ليس من شأن الاجتماعي اذا ذكر الاديان بصورة مجملة ان يحصر كلامه في الاديان كما نزلت على مؤسسيها لان الشعائر والعقائد والاعمال في الامة على كرّ الزمن قد لا تبقى على صيغتها الاصلية بل ربما ارتقت عن هذه الصيغة او انحطت بحسب العوامل والطوارىء وقلما كانت ثابتة من غير تعديل او تبديل . ويهمنا ان نقرر هنا ان قابلية التطور في العقائد وما يتبعها من العادات المتجلببة بجلباب التقديس قابلية عظمى حتى ان المتتبع ليرى انتقالاً يكاد يكون فجائيًّا من النقيض الى النقيض باسم العقيدة الواحدة نفسها ، وان « البدعة » التي تضطرب لها افئدة المؤمنين في الجيل الواحد قد تصبح قاعدة من قواعد الايمان في الجيل الآخر ولاسيما اذا قدّر لها رجل مبجل يفتي بان لها اصلاً في النصوص القديمة ، وقد لازم التعصب في المجتمع الازياء خصوصاً لباس الرأس واثار في البلدان الشرقية « حروباً » حامية الوطيس لا تزال لها بقية باقية ، وذكر لنا من تقدمنا ان تغيير الاحذية من القديمة الى الحديثة في عاصمة البلدان السورية احدث هياجاً عظيماً كاد ينتهي بفتنةٍ حمراء ، وفي اوائل القرن الحاضر ضمني ورجلاً من كبار الاعيان في بيروت مجلس ذكر المجتمعون فيه حديث الفتوى بلبس القبعة كما نقل لنا عن لسان الشيخ (محمد عبده) يومئذٍ فارتعش واضطرب وامتقع لونه واظهر من النفرة ما يظهره الترك الكماليون اليوم من رؤية الطربوش على رأس السوري او المصري او العراقي !

ولا يقتصر هذا التطور على الشؤون التي اصبحنا نعدها ثانوية لا يؤبه لها بعد مرور الزمن عليها، بل يتناول الشؤون التي نعدها اولية ، ولا ادل على ذلك في موضوع العقيدة الدينية من تولد مذهب (التوحيد) في لب البلدان البروتستنتية وتمتعه بالحرمة اللائقة بهِ مع كل ما احدثهُ من التغيير في العقائد التي اعتبرتها الاجيال السالفة جزءًا لا يتجزأ من التعاليم المسيحية ، ورأينا في اميركا من اتباع هذا المذهب الجديد والمؤمنين بهِ من لا يقلون شأناً عن زملائهم واخوانهم الموحدين السابقين امثال (لونجفلو) و (امرسون) و(هوثورن) و (جفرسون) و(لينكون) من الاموات وغيرهم ممن زينوا اسم الولايات المتحدة واعلوا مقامها ، ويقوم مذهبهم فيما يقوم عليهِ من نقد العقائد المتوارثة المعنعنة على وحدانية الخالق وحدانية منزهة وانكار التثليث، وعلى اخوة البشر وان النجاة تكون بالاعمال لا بمجرد الايمان فقط وان الارتقاء البشري سنة ثابتة الى الابد

ونرى في الشرق تحت اعيننا تبدلاً اساسيًّا في وضع من الاوضاع المقدسة مثّل اخطر الادوار في حياتنا الاجتماعية وهذا الوضع هو الحجاب ، فالذين يتمسكون بهِ يغالون في شأنهِ مغالاة تجعله في

مصاف الاركان الجوهرية التي بني عليها الاسلام وقد لا يقل في نظرهم عن اقدس المقدسات ، واما اهل السفور فلم يخلعوا الحجاب فقط بل يدعون اليهِ علناً بقولهم انهُ مخالف للحياة الاسلامية الاولى مخالفة بدهية ! وكيفما كان الحال فمرور المرأة المسلمة اليوم سافرةً في اهم شارع من شوارع القاهرة وعلى رأسها القبعة لا يستوقف نظر احدٍ، ولو اقدمت على مثل هذا العمل قبل خمسين او ستين سنة مثلاً ما فازت بالسلامة . والذين يقرأون كتاب (تحرير المرأة) في ايامنا هذه لا يشعرون بشيءٍ من الهزة العنيفة التي احدثها يوم ظهوره، ذلك لانهم رأوا باعينهم من الافراط في العرى ما جعلهم يترحمون على اعتدال قاسم بك امين والسفور الذي دعى اليهِ

وفي النازية الالمانية اليوم نزعة اجمعت الكنيسة المحافظة على وسمها بالزندقة والوثنية وغير ذلك من الفاظ الاستنكار، ولكن عالماً خبيراً بالنشوء الاجتماعي قال لي ، من يدري ما عسى ان يكون تاريخها في المستقبل؟ وقد يكتب لها ان تنتشر من المانيا الى سائر العالم المسيحي كما انتشر مذهب (لوثر) في القرون الماضية ، ولكن من المحقق ان الصهيونيين واقفون اليوم في صف المدافعين عن قواعد الايمان الكنسي وهم اشد حرصاً على مقاومة (هتلر) « وبدعه » من رعاة الكنيسة الانجيلية نفسها

﴿ السخافات الباقية من العقائد الخالية ﴾ : من اعجب الظواهر الاجتماعية ان يبلغ البشر هذا المقام الرفيع في الارتقاء العقلي وتبقى بعض العقائد والشعائر الابتدائية السخيفة ملازمة له . واذا كان لها في احد الايام الغابرة ما يجوزها فليس لها في يوم الاستنارة العقلية مسوّغ ما . واعجب من ذلك ان يدأب بعض « المؤمنين » على التمسك بها وممارستها على رغم جميع المناهضات والمقاومات التي يبديها العقلاء الذين هم اقرب الى فهم الدين والاحاطة بروحه ونصوصه . وقد أثر اشد الاثر في استدامتها وتعلق الناس باهدابها ان بعض كبار الاخصائيين من اهل العلوم والفنون العملية الحسية وائمة الصناعات ممن لم يسبق لهم اي اشتراك في شيء من العلوم الاجتماعية والتاريخية والدينية ما برحوا يحفلون بها ويطأطئون رؤوسهم اجلالاً لها وتعظيماً ، فتراهم وهم أئمة مبرزون في فروعهم كالاطفال في هذه العلوم . فلا غرو ان يكون لهم من نبوغهم في المنطقة التي اختصوا بها صوت مسموع لدى العامة في منطقة لما تطأها اقدامهم، ورأي مطاع في شأن لما يكن من شؤونهم ، لان العامة ويا للاسف يظنون ان من اتقن شيئاً فقد اتقن كل شيء ، او من صنع آلةً ميكانيكية حافلة بالحيل الدقيقة مثلاً او اخترع دواءً ناجعاً لمرض عضال حار فيهِ الاطباء فان عمله مستمد من منبع عميق لا طاقة للبشر ان يغترفوا منهُ، فرأيه في السياسة او في الاجتماع او في الدين يجب ان يكون حجة يقارع بها الخصوم . وقد طرأ هذا التحول السريع بتقدم العلوم الحسية وتمتع اصحابها بالمقام الرفيع في المجتمع، وكان هذا المقام عادة وقفاً على المشتغلين بالشؤون العقلية والروحية . وحضرت مرة مجلساً حاول فيهِ احد الذين يستغلّون اسماء الرجال الاخصائيين المشهورين في الفروع التي عانوها ان يبرهن عن سخافة كان يؤمن بها امير الماء (ناسن) — وهي انهُ سيموت في يوم معين حققتهُ الايام — على صحة الهواجس

« الاثيرية » او الروحية التي تخامر النفوس ، وكذلك استغل غيره اسم (باستور) لتأييد بعض الشعائر والعقائد البالية ، وانني افهم كل الفهم ان يكون كلام (نلسن) حجة في القيادة البحرية وكلام (باستور) حجة في الجراثيم ولكنني لا أفهم ابداً كيف يكون كلامهما حجة على صحة الهواجس النفسية والشعائر التقليدية ، ولا قرب الى المعقول ان يستشار (توماس اديسون) في قواعد اللغة العربية ويهتدى برأي (رونتجن) في تاريخ حياة (توت عنخ امون) من ان يستشار (نلسن) او (باستور) في المشاعر الوجدانية والعقائد الدينية . على ان البلية كانت اعظم والطامة أشد وأحكم لما كان المنتسبون الى العلوم المعنوية يدّعون السيطرة على العلوم المادية والتحكم في اصحابها ، فلهم مثلاً ان يحزوا رقبة العالم الفلكي الذي يجرؤ على القول بكروية الارض ودورانها !

على ان الذي سيبقى عثرةً في سبيل الاقناع بما حدثنا واقامة الدليل على ما بينا هو ان العلوم الاجتماعية اجمالاً ليست من الضبط والإحكام في المقام الذي تتمتع بهِ العلوم الطبيعية فيجوز لكل ثرثار ان يدعي تلك الى اجل واما هذه فحجتها قريبة وحبل التدجيل فيها قصير

ثم ان العقبة الكأداء التي لمّا يعرف المجتمع كيف يتغلب عليها ويأمن الالتطام بها هي السلطة القاهرة التي تتمتع بها العادة المستحكمة ولا سيما متى كان لها اتصال بالحرمة والشرف واللياقة والمروءة والإباء وغير ذلك من معاني الاعتزاز والسمو، وقد تصبح مثل هذه العادة — على ما قد يكون فيها من الهمجية والفحش والظلم — مقياساً في الاخلاق وكمالاً في العقيدة . وانني لأضرب على ذلك مثلاً من الاقوام التي تعيش عيشة ابتدائية فان اوضاعها البسيطة الخالية من تعقيد الحضارة قد ترشدنا الى فهم الاوضاع الحاضرة في ارقى الاوساط المدنية . قال الاستاذ (هوبكنس) [1] عن علاقة الدين والعادة بالاخلاق إن قانص رؤوس من جزيرة (بورنيو) قص القصة الآتية التي تدل على تحكم عادات السلف في الخلف وكيف ان الاخلاق انما هي السنة التي درج عليها الآباء والجدود والتي اكتسبوها للفائدة التي استفادتها العشيرة من تطبيقها والسير عليها . قال الصياد : كنت شديد التعلق بمربيتي العجوز ، وقد حان الزمن الذي قال لي والدي فيه : يا ولدي لقد كبرت وباشرت سن الرجولة فهلمّ واقتل قتيلاً » كما هي العادة في تلك الاصقاع لاثبات الرجولة . قال الصياد « وحكم الشرع عندنا ان النساء العجائز اللاتي لم يعدنَ يصلحنَ لشيء ان يذبحنَ . فدلني والدي على مربيتي العجوز وكانت جالسة لوحدها وقال لي ، انني صغير السن فلا استطيع ان اقتل رجلاً ولكن يجب ان اتمرن عليها فأعطاني قوسي وسهامي وقال لي هلمَّ وارمها . اما انا فلم ارد قتلها ولكنه اصر عليَّ وقال لا بدَّ من ذلك فرميتها بسهم ولكن طاش فلم يصبها فأدركت هي الموضوع وأخذت في البكاء وانا اخذت في العويل فاغتاظ والدي وامرني ان امتنع عن عويلي واكفكف دمعي واضبط الهدف وذكر لي انهُ من الشر المعيب ألاَّ اقتلها . حينئذٍ اخذت ارميها رمياً متواصلاً ومع انها اعولت فلم

(1) Origin & Evolution of Religion, P. 246

التفت الى عويلها وما زلت ارميها حتى قتلتها . وكانت عندي في مقام والدتي ولكنني لم ابال . ثم ان والدي قال لي يا ولدي الآن اصبحت رجلاً صالحاً وقد عملت عمل الرجال وقمت بالحق »

﴿ الاخلاق الايجابية ﴾ حدث عند الاجتماعيين المتأخرين تطور في الاتجاه الاخلاقي لا بدّ من الاشارة اليه هنا ، وهذا التطور هو الاهتمام بما يسمى «الاخلاق الايجابية» لا الاكتفاء «بالاخلاق السلبية» — يعني اننا كنا في الماضي نعد الكمال في الرجل ان يمتنع فقط عن اتيان بعض الموبقات كالخمر والميسر والزنا وغير ذلك من المحرمات التي لا يشك احد في فضيلة الابتعاد عنها ، وان يسير في حياته سيرة المسكنة والخضوع «والدروشة» وكم رأينا في الحوانيت الابيات الآتية معلقة على الجدران وهي : —

اذا شئت ان تحيا سعيداً من الاذى وحظك موفور وعرضك صين
لسانك لا تذكر به عورة امرىء فكلك عورات وللناس السن
وعينك ان ابدت اليك معائباً فصنها وقل يا عين للناس اعين
وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى وفارق ولكن بالتي هي احسن

لم تعد مثل هذه الاخلاق — على ما فيها من سحرٍ وانسانية — مقياساً للنشاط الاجتماعي ، فهو يتطلب الجرأة والاقدام والعمل لا الانزواء في الزوايا ولا وضع اليدين على الرأس وترديد كلمة « يا لطيف » . والمسكنة وما يتعلق بها من زهدٍ وانقياد وتمشية للحال تروق الام المستعبدة التي لا ترى سبيلاً الى النجاة الاّ بالخضوع وعقد الآمال بظهور المهدي او عودة المسيح او يوم الحساب واما القاعدة الاجتماعية التي يرجى منها الخير العميم فهي الامر بالمعروف كما هي النهي عن المنكر وتلقين القواعد التي تبنى عليها الاستقامة كما هي النقد الصحيح لتقويم الاعوجاج وبث روح العدالة في الافراد كما هي الضرب على ايدي المعتدين حتى لا يتجرأوا على فساد المجتمع ، فترك الحبل على الغارب في مثل هذه الجرائم التي تجترم اجتثاث لاصلٍ من الاصول الجوهرية في الحياة الاجتماعية والسماح عن المعتدي يكاد يجعل المتسامح شريكاً في ارتكاب الجرم ، بل لا بدّ من مقابلة الظلاّم وجهاً لوجه . وحدث في بعض الحركات الوطنية ان أُرسل احد الزعماء الى السجن فجاء اليه بعض الاطفال يحملون باقة من الازهار اظهاراً لاعجابهم به فقال لهم من وراء قضبان الحديد « آه لو وصلت اليكم لقبلت ايديكم الصغيرة ولأُخبرتكم اني الى الخناجر احوج مني الى الازهار»

ويعالج اساطين النهضة الاخلاقية في اوربا هذا الموضوع معالجةً دقيقةً ، ومن المفيد جدًّا ان يطلع ابناء العالم العربي على طريقتهم وعلى الغرض الذي يتوخونه من ذكر الاخلاق الايجابية في مقابل الاخلاق السلبية ، ومن خيرة الكتّاب في هذا الباب من الاجتماعيين الاستاذ (بايندر) فيجدر بنا ان ننقل لهم خلاصة منه ننهي بها سلسلتنا هذه [١] فقد قال بعنوان « الاخلاق المسيحية القديمة والحديثة » ما مؤداه : ولما كانت النصرانية في الاصل دين المظلومين

(١) Major Social Problems, p 165.

والمحرومين فقد وقفت بالضرورة موقف الخصم تجاه القويّ المتصف بالاقتدار ، وفي الاحوال والظروف الحافلة بالمتاعب والمشاق يكون الاستسلام وترك المقاومة في كثير من المواقف خير سياسة تنتهج ، ذلك لان الثورة محكوم عليها بالاخفاق ، والتفكير فيها خارج عن الموضوع . فلما اصبحت الكنيسة وضعاً في صميم الدولة اهمل اصحابها هذه الناحية من تعاليمها ، بيد ان هذا الطابع الاولي بقي ملازماً لها ولم ينمح اثره ، فكانت تُعدّل وتُوسّع بحيث تنطبق على جميع الناس بشكل تواضع وتذلل يتذلله المرء امام الله للذنوب التي ارتكبها . وربما كان هذا العمل ضرورة من الضرورات الملجئة في عصر ساد فيه العنف والشدة فكان من الواجب التوسل بالوسائل المرعبة لارهاب الاشرار كبيرهم وصغيرهم ، فكانت النتيجة ان الكنيسة اهتمت بالضعف والذل والمسكنة والعجز واعتبرت هذه الصفات السلبية وامثالها مطلوبة في المرء مرغوباً فيها وانها في كثير من الاحوال عنصر جوهري في السيرة المسيحية . قال (باينذر) ومع ما يجوز لهذه الشيم الكمالية من قيمة مقدرة فهي شيم لا تؤدي الى التقدم في الحياة الاّ بطريقة سلبية يعني انها تمنع الاحتكاك الاجتماعي ولكنها لا تؤدي الى تحسين الاحوال والظروف ، مع ان هذا التحسين هو الضالة المنشودة التي ينادي العالم في طلبها ويستغيث للحصول عليها

وتحسين الاحوال كما تعلم يتطلب البداءة والتشبث والهجوم والمخاطرة وغير ذلك من معاني الاقدام لا الاستسلام والخضوع . وقد غرس صدر النصرانية هذا الخلق السلبي في المؤمنين في جميع القرون ، وحيثما ابيح انحراف عن هذه الخطة فالنتيجة كانت هلاكاً كما هو الحال في الفرسان الهيكليين وهم فرقة (الداوية) The Templars في ابّان الحروب الصليبية والمؤسسات الاخرى التي انتظمت انتظامهم فان التقوى اضمحلت عندهم وتغلبت عليهم الصفات العسكرية الهجومية

اما في الاعصر الحاضرة فالنتيجة مختلفة عن ذلك اختلافاً بيناً ، فاذا كان ثمت كثيرون لا يزالون يؤمنون بالدين فهم قد اغفلوا شأن الفضائل السلبية التي كانت تعد جوهرية في الاعصر السالفة ، وربّوا ما عندهم من تشبث وبداءة واقدام وعالجوا مشاكل الحياة واجبروا الطبيعة بقوة ارادتهم على التسليم بالكنوز المدفونة فيها ، فكانت النتيجة من الناحية الاجتماعية شيئاً طريفاً خليقاً باسترعاء الاسماع والانظار

﴿ عواقب الاخلاق الجديدة ﴾ قال (باينذر) : لقد صرف المجددون الهمم لاصلاح الدين بان نفثوا فيه روحاً هجومية وطالبوا الناس بمساهمة نشيطة في الحياة السياسية والصناعية الحاضرة ، وحيثما تمّ شيء من النجاح في هذا الباب حمل المتمسكون بالطريقة الدينية على ما استجد حملة شعواء قائلين انها شرود عن النصرانية الصحيحة ان لم تكن مروقاً وضلالاً ، وكانت الكتب التي تقول بمثل هذه الاصلاحات الجوهرية موضوع اضطهادهم وحرمانهم

وكان من النتائج الاخرى ان انسلّ عدد كبير من الرجال من عضوية الكنيسة ممن لم يطيقوا البقاء على الخمول والتقاعس ، فقد ودّوا ان يعملوا شيئاً خليقاً بنشاطهم ولكنهم اجيبوا ان تصدقوا

وعودوا المرضى ، وقد ترضي مثل هذه الطريقة الرجل الذي تقوم افكاره على الطريقة الجامدة ويعتقد بان الله راضٍ ان ينظم الشؤون على طريقة تحتفظ بالمرضى والفقراء دائماً . اما الرجل الحديث وطريقته في التفكير متحركة لا جامدة وعقيدته الثابتة التحسن المنتظر في الاشياء فيتساءل في نفسه لِمَ يا ترى يوجد بين ظهرانينا هؤلاء المساكين الذينهم في حاجة مستمرة الى مساعدتنا ؟ ومن المحقق عنده ان الخطأ لن يكون من الجانب الالهي ، اذن فهو من الجانب البشري ، من جانب المجتمع او من جانب الفرد ، فلا بد من عمل شيء لاصلاحه يعني يجب ان تلقي على الجاهل دروساً في الصحة والغذاء وان تنبه الجماعة الى التهيؤ والاستعداد اللازم للتفتيش الطبي والنظام الصحي ، اذ لا ضرورة ملجئة تقضي بان يكون ثمة مرضى او فقراء فمتى اقيم نظام في التوزيع عادل فاهل الاسراف وفاقدو الحيلة وقليلو التدبير فقط يكونون وحدهم من الفقراء ، والواجب يقضي بان يلقنوا ضرورة العمل حتى اذا ما رفضوا السعي في مناكب الارض سيقوا الى المعاهد الخاصة حيث يعزلون عن الناس وتعطى لهم الادوية الناجعة

وكذلك من النتائج التي نتجت السعي لاستدرار الاكف من اتباع الكنيسة العاملين والحصول منهم على الهبات العظيمة لكل عمل يخطر بالبال ، ، فالذين يدافعون عن النظريات الدينية العتيقة يزعمون ان الرجل المتنازل عن جزء من ثروته لغاية خيرية هو رجل يعمل لخدمة الانسانية ، ولكنهم لا يدركون ان الهبات السمحة هي سبب عظيم في استمرار الشرور الاجتماعية الحاضرة . وقد يكون المرء حريصاً على التبرع بعشر ثروته على شرط ان ينال اذناً ربانياً يحلل لهُ امتلاك الاعشار التسعة الباقية والتصرف فيها ، فلا عجب والحالة هذه ان يكثر التحدث كتابة وخطابة عن الصلاح في الهبات العظيمة وان يصير كثير من الناس صالحين بهذا المعنى

وما دامت الكنائس متعلقة بالنظرية الدينية العتيقة وهي من الاساس نظرية سلبية فلا امل باتخاذ الاجراآت الاصلاحية الجوهرية . لان هذه الكنائس متى تحولت الى ايجابية هجومية ووعظت عن الظلم الصناعي وما اشبهه من الشرور باهتمام خسرت تأييد الرجال الذينهم هدف سهامها وحملاتها ومعنى ذلك بالقلم العريض خسارة فادحة في الموارد التي تعيش منها واغلاق الكثير من المباني الكنسية . والناس قد تعودوا ان ينظروا الى السلبية انها النصرانية فهم يأنفون هذا الاتجاه الجديد الذي لم يألفوه

﴿الدين ودستور السبب والمسبب﴾ : وربما كان اصعب شيء على المرء تعلمه هو ادراك دستور السبب والمسبب ادراكاً علمياً . فهذا الدستور معترف بهِ عند جميع الناس من الناحية النظرية فقط لا من الناحية العلمية ، وكان من الجائز تطبيقه تطبيقاً شاملاً اعم لولا الموقف الرسمي الذي تقفه العقيدة الدينية بحيث تجد المخرج من ورطته دائماً والحِلَّ من مفعوله الثابت . واغرب منظر في جميع التاريخ مُحيِّر هو الخطط التي اختطها الناس لتجنب مفعول هذا الدستور والابتعاد عن منطقة عمله ، واهم ما يدعو الى الاطمئنان وتوقع التحسن في المستقبل هو ان الناس تعلموا — على اقل

تقدير — ان جزاء الوزر الذي يزره المرء لا يمكن تجنبه ولا تحميله على عاتق الآخرين ممن لم يرتكبوه (ولا تزر وازرة وزر اخرى) ، فدستور تحسين النسل مثلاً انما يعني هذا في دائرة التوالد لا اقل ولا اكثر — يعني ان القذارة الاجتماعية تنتهي بالوراثة الفاسدة حتماً وسريعاً ولا مخرج من هذه الورطة ولا حيل من مفعولها الثابت لا بالاوهام ولا بالخرافات . وكذلك دستور الاجور الناقصة او الرخيصة فهو يجري على هذا النمط — يعني ان محصولها يكون اضعف نوعاً واحط مقداراً من الاجور الوافية ، فالسبب والمسبب متصلان لا يحول بينهما حائل ، وربما كان اهتمام الناس بحوانيت النسيج القذرة التي يقيم بها العمال المرهقون لمرض المتصق بالملابس المصنوعة فيها والخوف من عدواه اضعاف ما تحدثه فيهم تلك المجادلات العتيقة حول اخوة البشر وابوة العزة الالهية

﴿ حاجتنا الى التغيير ﴾ : قال (باينلدر) ويتوقف الاثر الاجتماعي الذي يتركه الدين الرسمي في المستقبل على قبوله دستور السبب والمسبب ، فاذا ما اغفل الدين هذا الدستور طرد العناصر المفكرة من حظيرة الكنيسة وتفرها من الاشتراك في اعمالها ، كما دلت الحوادث في السنين الاخيرة

ومعظم الخلق هم في حاجة الى الدين وذلك لضعفهم ووهنهم ، واحدى غاياته المعروفة ان يزرع في قلوبهم القوة وفي نفوسهم السعادة ولن يتم ذلك بتعليمهم ان يحملوا تبعة ذنوبهم ونقائصهم على اعناق الآخرين . والطريقة المثلى للاعتبار والدرس الحكيم هي ان يتحمل الفرد وزر عمله . وهذا ينطبق على الفرد كما ينطبق على الجماعة . وتكون المحنة المغرية بارتكاب الشر المرة تلو المرة عظيمة فوق طاقة معظم الناس اذا ما قيل لهم ان هنالك طريقة من الطرق لنجاتهم ورفع التبعة عن اعناقهم . وان بعض الناس لا يتعلمون حتى من الاختبار ولا يتعظون حتى من المصيبة فلا شيء يعمل لهم سوى تركهم في مراجل الالم : هذا هو دستور الطبيعة وهو دستور الروح . وما من رجل يختمر فيبلغ في الاخلاق المقام المحمود الا بالسعي وصرف الجهد فعلينا « ان ننشد السلامة بالخوف والرعشة » ويريدنا الله ان نتعاون معه على رفع المجتمع الى مستوى اعلى مما هو فيه ولن يتم ذلك الا اذا عرفنا واجبنا وساهمنا في تحمل التبعة

اما الاصرار على ضعفنا وذلنا ولفت الانظار الى شرنا ووهننا فيجعلنا دون العمل الواجب علينا انجازه واقل اهلية للقيام به ، لاننا نحن في الاكثر كما نحن بما يقال لنا ، والاشادة بقابليتنا للعمل تساعدنا على انماء هذه القابلية فينا لان « من كان عنده فيعطى » واما من كان خلواً فلا حق له وليس هذا دستوراً كيفيًّا بل هو سنة كل ارتقاء . والنظر الصحيح الصائب في الالوهية هي انها عامل يعمل دائماً وابداً بنشاط مستمر لترقيتنا ورفاهيتنا ، ولا نستطيع ان نضع في ميزان التقدير والاعتبار من شأن الجهود التي تصرفها هذه القوة المعنوية من اجلنا الا على قدر ما نتمثله منها بجهودنا ومساعينا وماعدا ذلك فكلام هراء وثرثرة لا طائل تحتها . ولا ندري اننا عيال الله ما لم نقم بالعمل الذي اختصنا به ، والمسألة كلها هي مسألة ممارسة عملية واختبار ذاتي لا مسألة نظر وعقيدة

ويدلنا الاختبار في اعمالنا على دستور السبب والمسبب في جميع نواحي الحياة بل هو حقيقة الحياة نفسها والحقيقة وحدها هي التي تحررنا من رق العبودية . انتهى

﴿ منطقة الدين ﴾ : لا شيء أضرّ بالدين مثل اخراجه عن حدوده والسير بهِ في فياف وقفار قاحلة لم تكن لهُ موطناً ولا لرحاله محطّاً ، وقد يضيع فيها كما تضيع الصرخة في الوادي ، وليس من تمام الاخلاص في شيءٍ اننا اذا أحببنا زيداً من الناس مثلاً ان نقول انهُ مهندس وطبيب ومزارع ومحامٍ ورياضي وفلكي وجيولوجي وجغرافي وكيماوي وغير ذلك من النعوت الفنية وغير الفنية في آن واحد علاوة على ما يتحلى بهِ من سمو الاخلاق ، فلمَ يا ترى نجوّز لانفسنا ان نكون اكثر كرماً وتسامحاً في مسائل الدين ؟ وفي الاسلام نصٌّ صريح لمؤبري النحل ان يؤبروه كما دلهم الاختبار لانهم أعلم بدنياهم ، ولان مثل هذه الفنون العملية ليست من الدين في شيء فلمَ نحاول حشرها وحشر غيرها فيهِ يا ترى ؟

ولم تخلُ اوربا نفسها من الافراط والغلوّ في توسيع منطقة الدين مما حمل كثيراً من الكتّاب الغربيين على التفريط ورد الفعل ، يدلنا على ذلك ان كاتباً اجتماعيًّا معتدلاً كالاستاذ (ديلى) يدرّس كتابه في بعض الجامعات الدينية والمعاهد الاخلاقية يقول في هذا الصدد [1] « ان ما اشتهر بهِ الوضع الديني من البقاء والاستمرار تاريخيًّا على رغم الحوادث يتجلى لنا متى نظرنا بعين الاعتبار الى المصالح المتعددة التي شملها ، فهو باعتبارهِ فلسفةً قد استحدث لنفسهِ نظرية كونية عالمية غرضها بيان وحدة جميع الاشياء في آله واحد او آلهة متعددين هم خلقوا الكائنات وادارو امورها وزرعوا فيها الحياة وارشدوها لبلوغ غاية معينة ، وباعتبارهِ علماً قال انهُ بواسطة الوحي قد حصل على الدساتير الجوهرية التي تسيطر على المعارف ، حتى انهُ طالب الناس في بعض الايام ان يطبقوا العلم على هذا الوحي الذي أتى بهِ ، واستنّ في الاخلاق سنناً ليسيروا عليها قائلاً انهُ بعملهِ هذا انما يعمل بسلطة الهية ، وأبدى حقهُ ايضاً في املاء القواعد العملية في الشؤون الاقتصادية والمنزلية والسياسية والتهذيبية وان لهُ ان يدير الطرائق التي تجري عليها . وبدهي ان مثل هذه الدعاوى العظيمة والسلطات الجسيمة لا تسلم بها العوامل الاخرى في المجتمع دائماً » ، ذلك لان الفلسفة والعلم يدافعان عن حقهما في اذاعة النتائج التي وصلا اليها حتى لو كانت هذه النتائج مناقضة للاصول اللاهوتية ، وكذلك علم الاخلاق الاجتماعي فقد اخذ يطبع الكنيسة بطابعهِ فيما يتناول السيرة الاجتماعية ، ولم تعد الاصول التهذيبية التعليمية ترضى الخضوع للقواعد الايمانية ، ونرى الكنيسة والحكومة تفترقان والقانون المدني يدير الاسرة ، واما الحركة الاقتصادية فهي كثيرة التشعب وشديدة التعقد بحيث لا تستطيع الكنيسة التسلط عليها . فالكنيسة مضطرة في مثل هذه الاحوال الملجئة اما ان تصبح مناقضة للعصر الذي تعيش فيهِ متأخرة عنهُ واما ان تعمل لغاية في النفس أسمى وأرفع بعيدةً عن الصغائر والمطيات المملة ساعية للقيام بالواجب مرةً ثانية باعتبارها هداية مُنزَلةً تهدي المشاعر الكمالية العليا التي تغلي في صدر الانسان »

(1) Sociology, p. 145.

ولما حمل (برنارد شو) على «الكتاب المقدس» حمل على ما يدعيه اصحابه فيه من الدعاوي الطويلة العريضة الفنية وغير الفنية الخارجة عن منطقة الدين كما اسلفنا ولكنه قال وهو محق في قوله[1] «ان هذا الكتاب وان عُدّ بالمقاييس العلمية مهجوراً من سائر النواحي الا انه من ناحية واحدة يحتفظ بقيمته وذلك باعتباره سجلا لنشوء الفكرة الالهية» — فكرة اول سعي سعاه الانسان المتمدن لتعليل مصدر الكائنات والحكمة من وجودها

وفي الحق ان هذه الفكرة هي مركز الثقل في جميع الثقافة التي مرّت عليها العصور وعليها يرتكز الدين في جهاده المتواصل الثابت وهي هي التي جعلت هذا البون الشاسع بين الانسان والحيوان، والفرد بالغاً ما بلغ من العلوم المادية واوسع ما احاط من سننها ودساتيرها لا يكون قد ازدان بالموهبة الانسانية الجوهرية اذا هو لم يتساءل في نفسه من اين اتى والى اين ذاهب ، وسيبقى هذا السؤال عاملاً من اقوى العوامل في الحث على التتبع والتدقيق وكشف المخبآت، وربما رجع اليه الفضل الاكبر من الناحية التاريخية في ايجاد العلوم واستحداث الفنون وتوجيه الانظار الى الحكمة . ويعلو الدين او ينحط بقدر التنزيه الذي تتحلى به تعاليمه . وما دام هذا السؤال موضوع الدين الاساسي فالدين طود ثابت ما زعزعته في الماضي الثورة الفرنسية ولا تزعزعه في الحاضر الثورة الكمالية ، وانما الخطر عليه كل الخطر هو الخروج به عن المنطقة التي خلق ليعمل فيها ، واستثمار النفعيين والجهلاء الاحتكاريين للنفوذ الذي يتمتع به . ثم اذا صدر مثل هذا السؤال عن قلب يلتهب شوقاً الى ادراك كنه الحقيقة والاحاطة بأسرارها فهو يدل على ان نفس صاحبه ليست حيوانية بهيمية بل هي نفس تزدان بالاخلاق والاخلاص ايضاً وهذا ما يجدّ الاجتماعيون ليجعلوه من جوهر الدين ، ونحن لا ننكر ابداً ان اهل التتبع يميلون اليوم الى الفصل بين الاخلاق والدين من الوجهة العلمية ولكن العمليين من الاجتماعيين يستعينون بالدين لتقويم الاخلاق ، ذلك لان الاتصال بينهما اتصال وثيق ، وجميع الاديان الراقية الكبرى طافحة بالحث على مكارم الاخلاق ، والدين الذي لا يجعل الاخلاق الصحيحة غرضاً من اغراضه الجوهرية لا يهم الجمعية البشرية الاحتفاظ به

ودلنا تاريخ الاديان الراقية على ان الالوهية تجلت في النفوس من الناحية العقلية حكمة واستقصاء ، ومن الناحية الفنية جلالاً وجمالاً ، ومن الناحية الروحية طهارةً واخلاقاً، فلا غرو ان يكون لها هذا السلطان الباهر وهذه القوة الساحرة، ولا يزال الاتقياء في كل عصر ومصر يشاطرون الكاهنة (بيثيا) لما قالت في مكهن (دلفي) في بلاد اليونان منذ عشرات القرون «ايها الغريب اذا كنت طاهر النفس فادخل معبد الله القدوس مكتفياً بلمس ماء التطهير ، فالتطهير سهل على الصالحين ولكن البحر المحيط جميعه بأنهاره عاجز عن غسل الادران من الرجل الشرير»

(1) The Adventure of the Black Girl in her Search for God, p. 69.

العقوبات الدولية

الادبية والمالية والاقتصادية

العقوبة اسم يطلقهُ رجال القانون ، على الذرائع التي يتذرَّع بها لقسر الناس والدول على الخضوع للقانون . وقد تفرغ في احد قالبين ، اولهما توقيع الجزاء على من انتهك حرمة القانون ، وثانيهما وسائل غرضها منع انتهاك مرتقب . ولتأثيرها وجهان ، احدهما سلبيٌّ ، ذلك ان معرفة الآثم او المعتدي ، ان النية معقودة على تطبيق العقوبات عليهِ ، وان تطبيقها مستطاع ، تردعهُ عن الاقدام على ما ينوي ، والآخر ايجابيٌّ ،وهو قائم على منع المعتدي من التمادي في اعتدائهِ ، وحرمانه من ثمرات الاعتداء ، وحملهِ على الخضوع للقانون

اما كيف نشأ نظام العقوبات في القانون الدولي ، فبحث فقهيٌّ لا يتسع له نطاق هذا المقال ، فنكتفي بالقول بان انشاء جامعة الامم بعيد الحرب الكبرى ، قام على قاعدتين ، احداهما احترام ما يعرف بالقانون الدولي ، المستمدّ من المعاهدات والاتفاقات الدولية وما قرّرتهُ المؤتمرات المختلفة في هذا الصدد ، والاخرى الاتفاق على فض كل نزاع دولي بالوسائل السلمية ، اما باتفاق الفريقين المختلفين واما بالتحكيم واما بعرض المشكلة على محكمة العدل الدولية

هذه القواعد مطوية في عهد جامعة الامم . ولكن عهد الجامعة لم يكتفِ بتقريرها ، بل نصّ في موادهِ المختلفة على السبل ، التي يجب ان تطرق ، فضاً للنزاع بالوسائل السلمية ومنعاً للحرب . ففض النزاع بالوسائل السلمية منصوص عليهِ في المواد ١١ و١٢ و١٣ و١٤ و١٥ . ووسائل الاحتياط التي يجب ان تتخذ عند التهديد بنشوب حرب منصوص عليها في المادتين ١٠ و١١. وفرض العقوبات على معتدٍ مرتقَبٍ او معتدٍ فعّال منصوص عليها في المواد ١٠ و١١ و١٣ و١٥ و١٦ و١٧ . اما اعادة النظر في المعاهدات القائمة ، التي اصبح تطبيقها متعذّراً او مهدداً للسلام لتغيُّر الاحوال فمنصوص عليها في المادة ١٩ . وهذه المواد متماسكة البنيان ، يشدُّ بعضها بعضاً ، ولا يمكن ان ينظر فيها مفصولة بعضها عن بعض

العقوبات الادبية الدبلوماسية

الرأي العام في مختلف الامم ، وبوجهٍ خاص في البلدان الدمقراطية ، رادع قوي الأثر عن الاعتداء . وليس ادلّ على ذلك من ان الحكومات التي اشتركت في الحرب الكبرى ، حاولت كلٌّ منها ، ان تقنع شعبها بانها خاضت غمار الحرب مكرهةً ، دفعاً لاعتداء واقع عليها . فالنجاح في حرب ما من دون تأييد الرأي العام ، امر متعذّر

والرأي العام الدولي ، قد يعرب عن استنكارهِ لخطة دولة من الدول ، بأساليب مختلفة ، بامتناع

السيّاح عن زيارة تلك البلاد واعلامها ، وباجتناب الناس شراء ما تصنعهُ وتصدرهُ الى الخارج ، او بكتابة المقالات في الصحف ، او بالاحتجاج عن طريق الممثلين الدبلوماسيين

فهذه الوسائل ، مفردة ومجتمعة ، تضعف الثقة في مالية البلاد ، علاوة على ما تتأثر بهِ تجارتها بمقاطعة بضائعها . لانهُ اذا رميت نية دولة ما بالشكّ ، وحامت حول استقامتها في احترام عهودها الظنون ، ضعفت الثقة كذلك بتعهداتها المالية العامة ، فتعجز في الغالب عن فتح الاعتمادات الدولية او عقد القروض الدولية التي لا مندحة عنها في هذا العالم الذي تربطهُ بعضهُ ببعض اسلاك خفية من المال او ما يقوم مقامهُ

الاّ ان حكومة من هذا القبيل تملك سلاحاً في الغالب ، يمكنها من ان تخفف وقع هذه الوسائل الادبية . وهذا السلاح هو السيطرة على الرأي العام في بلادها او توجيههِ في الوجهة التي تبغي ، بكمّ المعارضين وسدّ افواه النقدة . والحكومة العازمة على الاعتداءِ ، والمؤيدة من شعبها اما عن عقيدة واما عن سيطرة ، قد لا تعبأ في الغالب بالرأي العام الدولي الى حدٍّ ما

واذاً فالعقوبات الادبية لاتتعدّى حدًّا معيَّناً في تأثيرها ، اي في مقدرتها على ردع المعتدي عن الاعتداءِ . ولا يخفى ان صلات الامم بعضها ببعض ، تتم في ابان السلم بواسطة الممثلين الدبلوماسيين. ولكن الاحتجاج الدبلوماسي لا يعدو كونهُ كلاماً مفرغاً في قالب الاحتجاج او التحذير او الانذار

فابسط شكل تتخذهُ العقوبات الدبلوماسية هو اعتراض او احتجاج دولة ما على عمل دولة اخرى . ومكانة هذا الاحتجاج ، تختلف باختلاف الدولة المحتجة ، وقوتها ومكانتها في مجامع الامم ومدى اعتماد الاولى على الثانية . فاحتجاج الدول الكبرى اوقع في الغالب من احتجاج الدول الصغيرة ويستفحل وقعهُ اذا كان اعراباً حقيقيًّا عن شعور الامة التي يرفع باسمها

ان قيمة احتجاج من هذا القبيل ، لا تقوم في المقام الاول ، على استنكار الدول الاجنبية لعمل الدول المعتدية ، بل على توجيه نظر الشعوب الى عمل الاعتداءِ المستنكَر والخطر الذي ينطوي عليهِ . ثم هو يُعبِّئ الرأي العام في الدولة المحتجَّة ، بل وفي غيرها ، باخراج المشكلة وحقائقها من مطاوي المفاوضات الدبلوماسية ، الى وضح المناقشات العلنية في الصحف وعلى المنابر . وفي هذه الناحية يكون الاحتجاج معواناً على الحيلولة دون عمل الاعتداءِ قبل ان تنظّم المقاومة الدولية المشتركة لمنعهِ . وغني عن البيان ان قيمة الاحتجاج الدبلوماسي تزداد اذا جاءَ من غير دولة واحدة بالغة تلك الدولة من المكانة والقوة ما بلغت . فاذا سنحت الفرصة لاحتجاج من هذا القبيل ، تبعث الدول المختلفة باحتجاجات متماثلة في معناها ، متقاربة في صيغها . وهذه الطريقة قد تفضل طريقة وضع احتجاج واحدٍ من قبل دولٍ مختلفة ، لما يقتضيه وضع صيغة احتجاج من هذا القبيل من المناقشة الطويلة قبل الاتفاق عليها . الاَّ انهُ متى وضعت صيغة مشتركة لاحتجاج دولي ، يزيد شأنها في نظر الدولة المعتدية ، لدلالتها على اتفاق الدول المحتجّة

ولكن العقوبات الدبلوماسية ، لها اساليب اخرى للاعراب عن استنكار الدول لاعتداء دولة ما عدا الاحتجاج او التحذير شفاهاً او كتابةً . واحد هذه الاساليب ، سحب السفير او الوزير المفوّض من عاصمة الدولة المعتدية . وابقاء العمل الدبلوماسي في تلك العاصمة في يد قائم بأعمال السفارة او المفوضية . فعمل من هذا القبيل ، من شأنهِ ان يؤكد احتجاجاً قدّم كتابة او شفاهاً واهمل . ولكنهُ في الوقت نفسهِ ، يعترض عليهِ ، بانهُ في الازمات الدقيقة ، تحتاج كل دولة ، الى سفير او وزير مجرّب ، للقيام بمفاوضات دقيقة كل الدقة في الغالب

وهذا الاعتراض نفسهُ ينطبق على قطع الصلات الدبلوماسية بسحب السفير او الوزير ورجال السفارة او المفوضية جميعاً من عاصمة الدولة المعتدية . فعندئذٍ يتعين على الصلات بين الدولتين ، ان تستأنف عن طريق ممثل دولة ثالثة ، او عن طريق احد القناصل ، وفي كلتا الحالتين ، لا يتم الاتصال بين الدولتين ، في شؤون حيوية ، على احسن ما يرام

فأساليب العقوبات الدبلوماسية التي تقدم ذكرها ، لا تعدو كونها اعراباً عن استنكار ادبي لعمل الدولة المعتدية . وقد تستعمل الطرق الدبلوماسية ، للاعراب عن تحذير او انذار ، ولكن قيمة التحذير او الانذار يتوقف اولاً واخيراً على استعداد الدولة المحذّرة او المنذرة لتأييد تحذيرها او انذارها بالقوة . وهذه الناحية من العقوبات الدبلوماسية ذات صلة وثيقة بالعقوبات الحربية . وهي خارجة عن موضوعنا الآن

العقوبات المالية

الفرق بين العقوبات المالية والاقتصادية ، فرق دقيق ، ولذلك جاء ذكر العقوبات المالية منفصلاً عن ذكر العقوبات الاقتصادية في المادة السادسة عشرة من عهد الجامعة

تحتاج الحكومات في هذا العصر ، الى نقد اجنبي ، او الى اعتمادات مالية اجنبية ، لشراء ما تحتاج اليه من العروض في الخارج . فالعقوبات المالية لا تؤثر تأثيراً كبيراً الاّ في دولة تعتمد الى مدى بعيد على ما تستورده ، وبوجه خاص من المواد الخام للصناعة ، والمواد اللازمة للحرب كالذخيرة والاسلحة على اختلافها ، او مواد الغذاء . ولعلّ ابلغ مثل على هذا ، حاجة بريطانيا الى استيراد مواد الغذاء ، وحاجة إيطاليا الى المعادن والوقود

فالعقوبات المالية ليست ببعيدة الأثر في ردع الدولة المعتدية اذا اعتمد عليها وحدها ، ولكنها تمتاز في سهولة تطبيقها وسرعته

فالمشكلة التي تتناولها الدول حين تعرض لتطبيق هذا الضرب من العقوبات ، هي الحيلولة دون تمكين الدولة المعتدية من الحصول على المال اللازم لابتياع ما تريده من اسواق العالم

فمن الوسائل التي تعمد اليها الدول حين تحتاج الى مال تنفقه في الاسواق الاجنبية ان تطلب

الى جميع مواطنيها الذين يملكون سندات اجنبية في الخارج ان يضعوا هذه السندات تحت تصرفها فتبيعها او تعقد قروضاً بضمانتها ، وتنفق المال الذي يجمع من هذه الناحية في شراء ما تحتاج اليه. وقد سبق لبريطانيا ان عمدت الى هذه الوسيلة خلال الحرب الكبرى ، لما طلبت الى البريطانيين الذين يملكون سندات اميركية ان يحولوها الى حكومتهم لتمكينها من شراء الاسلحة والذخيرة اللازمة لها ولحلفائها لمواصلة الحرب

فالعقوبات المالية ترمي ، الى منع تحويل من هذا القبيل

ثم انها تحظر عقد قروض مالية للدولة المعتدية

الاَّ ان الاقتراض السري من اصعب ما تتعرض له الدول في فرض العقوبات المالية . فقد تتفق الدولة المعاقبة مع دولة اخرى ، غير مشتركة في العقوبات ، ان تعقد قرضاً باسمها الخاص في سوق بريطانيا المالية ، او في سوق اميركا المالية ، فاذا عقدت هذا القرض استطاعت الدولة المقترضة ان تحوله بغير طريقة واحدة الى الدولة المعاقبة . ولولا النصُّ على تطبيق العقوبات الاقتصادية جنباً الى جنب مع العقوبات المالية ، لتعذر على الدول المتفقة على توقيع العقوبات المالية ، ان تمنع الدولة المعاقبة من الفوز ببعض ما تحتاج اليه من المال على الاقل ، لشراء ما تحتاج اليه

ومما تتعرَّض له العقوبات المالية ، ويجعلها سلاحاً ذا حدَّين ، ان تلغي الدولة المعاقبة ما سبق لها وعقدتهُ من القروض في سوق دولة او اكثر من الدول المشتركة في فرض العقوبة المالية عليها ، كأن تنكر ايطاليا مثلاً ، ما عقدتهُ من القروض في بريطانيا ، انتقاماً من اشتراك بريطانيا في فرض العقوبات المالية عليها ، او انها تتوقف على الاقل عن دفع الفوائد على هذا القرض

ولما كانت الاعتمادات المالية مرتبطة اوثق ارتباط بالصادرات والواردات ، الظاهرة والخفية ، فتطبيق العقوبات المالية ، لا يمكن ان يكون دقيقاً الاَّ اذا صحبهُ تطبيق العقوبات الاقتصادية ، او بالحري قطع الصلات التجارية بين الدولة المعاقبة والدول الاخرى

ومن العقوبات المالية إمداد الدولة المعتدى عليها، بعونٍ مالي . ففي مايو سنة ١٩١٦ وجَّهت حكومة فنلندا نظر جامعة الامم الى ان الدول الصغيرة التي رضيت بنزع سلاحها ، قد تضطرُّ اذا اعتدي عليها ، ان تعمد الى شراء المواد اللازمة للحرب. فيجب ان يوضع نظام يمكن الدول الصغيرة المعتدى عليها ، من الفوز بعون مالي دولي . فنظرت لجان الجامعة المختلفة في الموضوع من جهاتهِ المختلفة ، ووضعت مشروعاً ، عرض للتوقيع ابتداء من اكتوبر سنة ١٩٣٠

فهذا المشروع يسلم بان الدول الصغيرة المعتدى عليها ، او المهدَّدة بالاعتداء عليها ، تحتاج الى مالٍ يمكنها من تنظيم الدفاع عن حياتها . ولذلك يقترح ان لا يكون المدد المالي الذي تصيبهُ من الدول ، قروضاً تعقد لها ، بل ضماناً من هذه الحكومات للقروض التي تعقدها في اسواق العالم المالية الحرَّة . وهذا العمل في نظر واضعي المشروع ضرب من « السلامة الاجماعية » في الميدان المالي

هذا هو الاتفاق الذي طلبت الحبشة بمقتضاه عوناً ماليًّا من جامعة الامم . ولكن المشروع لم يبرم مع ان ثلاثين دولة وقعتهُ ، وسبب ذلك ان تنفيذه مربوط بتنفيذ مشروع لنزع السلاح او تحديده

العقوبات الاقتصادية

العقوبات الاقتصادية وسائل يتوسَّل بها لتضييق نطاق الاتجار مع الدولة المعتدية . وهذه الوسائل تكون في الغالب حظراً تامًّا او جزئيًّا على المواد الآتية :

١ — جميع الواردات من الدولة المعاقبة
٢ — الصادر اليها من مواد الحرب كالاسلحة والذخيرة
٣ — الصادر اليها من المواد الخام اللازمة للصناعات الحربية
٤ — جميع الصادرات الاخرى اليها
٥ — جميع الصادرات والواردات اي المقاطعة الدولية التامة

والعقوبات الاقتصادية يمكن ان تطبَّق على وجهين . فالوجهُ الاول يفرغ في قالب المقاطعة الاقتصادية ، فتمتنع كل دولة عن التوريد الى الدولة المقاطَعة . وهذه المقاطعة لا تصيب النجاح التام الاَّ على شرطين ، ان تشترك فيها جميع الدول التي تورّد الى تلك الدولة ، وان تكون الدولة عاجزة عن اكتفاءِ نفسها بنفسها . فمدى النجاح في تطبيق العقوبات الاقتصادية من هذه الناحية مرهون بعدد الدول المشتركة فيها ، وبمدى ما تحتاج اليهِ الدولة المعاقَبة من الواردات الاجنبية

اما الوجه الثاني فهو ان تعمد الدول المعاقِبة الى ضرب نطاق بحري وبري حول شواطىء الدولة المعاقبة وحدودها منعاً لوصول اي بضاعة اليها . وهذا العمل يعرف بالحصر Blockade الاقتصادي والنجاح في هذا العمل يتوقف من ناحية على موافقة دول الصادر الكبرى والاستمداد لتأييد الحصر بالقوة الحربية والبحرية

فالفرق الاساسي بين المقاطعة الاقتصادية (اي الحظر السابيّ) والحصر الاقتصادي (اي الحظر الفعَّال) هو ان الحظر السلبي يمكن ان تطبقهُ كلُّ دولة على حدة من دون ان تتعرّض لخطر ما الاَّ خطر مقابلة عملها بمثله من قبل الدول المعاقَبة . حالة ان الحظر الفعال لا يمكن ان يتمَّ الاَّ مستنداً الى القوة . ومقاومة الدولة المعاقَبة لهذا الضرب من العقوبة لا بدَّ من ان يفضي الى حرب . ومما يضاف الى هذا ان الدول غير المنتظمة في الجامعة ، قد تعترض على الحصر البحري ، لعرقلتهِ اعمالها التجارية ، وقد يفضي الى مشكلات خطيرة بينها وبين دول الجامعة

حظر الواردات من الدولة المعاقبة

المرتبة الاولى في تطبيق العقوبات الاقتصادية هي حظر دخول الوارد من الدولة المعاقبة الى الدول المشتركة في تطبيق العقوبات عليها . وتنفيذ هذا العمل خالٍ من الصعوبة . فهو من الناحية

الادارية سهل التطبيق ، لا يحتاج الى هيئة حكومية جديدة للقيام به ، بل يكتفى بالاعتماد على مصلحة الجمارك في ذلك . ثم انهُ يفضل على حظر الصادر ، لانهُ اسهل على تعيين مصدر الوارد الى بلاد ما من ان تعين المصير النهائي للصادر منها . ويضاف الى هذا وذلك انهُ لا يحتاج الى اي عمل خاص ، من قبيل الحصر البحري لمنع الصادرات من الوصول الى شواطىء الدولة المعاقبة .

ولا ريب في انهُ اسهل على حكومة ما ان تقنع شعبها بالامتناع عن شراء بضائع معينة ، من ان تقنعهم بالامتناع عن بيع بضائعهم . فحظر الوارد من الدولة المعاقبة الى الدول المعاقبة اسهل من الناحية النفسية من حظر الصادر منها الى الدولة المعاقبة . وهذا الحظر يؤثر في اضعاف موارد الدولة المعاقبة في الاسواق الخارجية ، لانها تعتمد على ثمن ما تبيعه في الخارج ، لشراء ما تحتاج اليه . فتطبيق هذا الحظر جنباً الى جنب مع تطبيق العقوبات المالية من شأنه ان يحد الى مدى بعيد من مقدرتها على شراء ما تحتاج اليه في الخارج ، الاّ اذا كانت تملك مقداراً فائضاً من الذهب تصدره لتوفي به ثمن ما تشتريه

والنجاح في هذا الضرب من العقوبات الاقتصادية يتوقف على عدد الدول المشتركة فيه ومقدار ما كانت تصدره في ابان السلم الى الدولة المعاقبة

حظر تصدير مواد الحرب اليها

من العقوبات الاقتصادية التي تجدر توقيعها على دولة تستعد لحرب ، او تخوض حرباً منتهكة في عملها عهد جامعة الامم وعهدة باريس (كلوج بريان) الامتناع عن تجهيزها بالوسائل التي تمكنها من القيام بالحرب ، اي الاسلحة والذخائر

والنجاح في توقيع هذه العقوبة يتوقف على الجواب عن الاسئلة التالية : — ما مبلغ تقدم الصناعة في الدولة المعتدية وما مقدرتها على صنع السلاح ؟ هل تملك مصادر المواد الخام اللازمة لصناعة الاسلحة ، في بلادها او بلاد خاضعة لها ؟ هل خزنت مقادير من هذه المواد استعداداً للحرب وما مقدار ما خزنته ؟ هل اتفقت اهم الدول التي تصنع الاسلحة على تطبيق هذه العقوبة ؟

ان صناعة الاسلحة ، صناعة واسعة النطاق ولكنها تكاد تكون محصورة في اثنتي عشرة دولة هي بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة الاميركية وتشكوسلوفاكيا والسويد وايطاليا وهولندا والبلجيك والدنمارك واليابان واسبانيا وسويسرا ، وقد بلغ ما صدّرتهُ هذه الدول ٩٨ في المائة من مجموع تجارة السلاح الدولية سنة ١٩٣٢ ولكن ٦٩ في المائة من تجارة السلاح الدولية في تلك السنة خرج من ثلاث دول فقط هي بريطانيا وفرنسا والسويد . فالدول من هذا القبيل فريقان فريق يملك مصادر المواد الحربية ومصانع لصنعها وفريق لا يملك هذه ولا تلك ، او قد يملك المصانع دون مصادر المواد اللازمة لها

لحظر تصدير السلاح والذخيرة الى الفريق الثاني ، يحول دون استمراره في حرب ما اكثر من مدة قصيرة ، اي حتى ينفد ما خزنهُ من الاسلحة والذخيرة قبل نشوبها او بعيدهُ . ذلك ان ما تخزنهُ الامم من الاسلحة والذخائر الحربية في ايام السلم ، قليل لا يذكر ، اذا قيس بما يستنفد منها في ابان الحرب ، فالقنابل ورصاص البنادق والمفرقعات بوجهٍ عام تستهلك بسرعة عظيمة في الحرب . والمدافع تبرى فيجب ان تبدل بغيرها او ان يعاد تبطينها ، والطائرات تبلى اجزاؤها بمعدل مائة في المائة في الشهر خلال الحرب ، وقلّما تخزن دولة ما من الاسلحة والذخائر ما يكفيها اكثر من مدى الفترة الاولى من الحرب ، وهي الفترة التي تستنفد فيها الذخيرة ، وتصبح الاسلحة في حاجة الى التجديد . ولا ريب في ان المخزون من هذه المواد في البلدان التي لا تصنعها اكبر في المتوسط مما تخزنهُ الدول التي تملك المصادر والمصانع معاً . ولكنها مع ذلك لا تلبث ان تشرع في حرب ، وتفرض عليها العقوبات الاقتصادية ومنها حظر توريد الاسلحة والذخائر اليها حتى تدرك عجزها عن مواصلتها

وقد اعترفت لجنة عينتها جامعة الامم للبحث في النزاع القائم بين بوليفيا وبراغوي ، وقد دامت الحرب بينهما ثلاث سنوات (١٩٣٢ — ١٩٣٥) بانهُ لولا وارد الاسلحة الى الدولتين من الخارج لعجزت الدولتان عن مواصلة الحرب . ولا ريب في انهُ لو طبق حظر تصدير السلاح على الدولتين المتحاربتين معاً لانتهت الحرب في سنة ١٩٣٣ . بل لو ان الجامعة تحركت وفقاً لقواعد عهدها وعيّنت المعتدي من الدولتين المتحاربتين وفرضت العقوبات عليهِ وحدهُ ، لما طالت الحرب اكثر من بضعة اشهر

الاَّ ان حظر تصدير السلاح والذخيرة الى بلاد تملك مصادر ومصانع كافية لصنعهما لا يؤثر وحده تأثيراً كبيراً في مقدرتها على مواصلة الحرب . ومع ذلك فقد رأينا بريطانيا وفرنسا ، في خلال الحرب الكبرى تبتاعان السلاح والذخيرة من الولايات المتحدة الاميركية اكفاءً لحاجتهما منهما مع ان صناعة السلاح فيهما اوسع نطاقاً واوفى عدّة منها في غيرها من الدول . فليس ثمة دولة من الدول في وسعها ان تغضي ، وهي مشتبكة في حرب كبيرة ، عن هذا الضرب من العقوبات الاقتصادية

ولا بدَّ في تنفيذ هذا الحظر من جعلهِ تامًّا وعامًّا والاَّ ضيّع الغرض المقصود وفي ذلك لا بدَّ من الاتفاق بين الجامعة والدول المصدّرة للسلاح

والغالب ان لا يكون لتوقيع الحظر على مواد الحرب ، تأثير واسع النطاق في البلاد التي توقعهُ لانهُ ينحصر في خسارة بعض الشركات التي تصدر هذه المواد ، وعند ذلك لها ان تطلب تعويضاً من حكومتها ولكنها اذا كانت تجري على النظام الذي تجري عليهِ الحكومة البريطانية ، وهو وجوب استصدار رخصة من الحكومة لتصدير كل شحنة من الاسلحة والذخيرة ، فليس ثمة سبيل لطلب هذا التعويض لانهُ من حق الحكومة ان ترفض اصدار هذه الرخصة عندما ترى باعثاً على ذلك

ولكن اذا شاءت الدولة المعاقبة ان تثأر لنفسها من تحريم هذا الضرب من الصادر اليها ، كان

لعملها تأثير عام في تجارة البلاد التي وقعت العقوبة عليها. ففي سنة ١٩٣٤ ادعت حكومة بوليڤيا ان الحظر الذي وقعتهُ حكومة انكلترا على تصدير الذخيرة والسلاح اليها ، مناقض للاتفاق الانكليزي البوليڤي المعقود سنة ١٩١١ وانذرت الحكومة البريطانية بفرض ضرائب اضافية على الشركات البريطانية في بوليڤيا ، وكانت هذه الشركات معفاة من هذه الضرائب بمقتضى المعاهدة المذكورة . فكان ردُّ الحكومة البريطانية ان عملها هذا ليس مناقضاً للاتفاق . ولكن الحادثة تدلُّ دلالة واضحة على ما تستطيعهُ دولة معاقَبة في هذه الناحية

فيتضح مما تقدَّم ان حظر تصدير الاسلحة والذخيرة ، عمل لا تعترضهُ صعاب كبيرة من الناحية الادارية ، ولا يؤثر تأثيراً عامًّا كبيراً في تجارة البلاد التي تفرضهُ . وان نجاحه مرهون باتفاق جميع البلدان المشهورة بصناعة الاسلحة والذخيرة على توقيعهِ ، وان فعله في الغالب لا يكون كبيراً الاَّ اذا وقع على بلدان لم ترتق فيها الصناعة ارتقاءً عظيماً ، بل انهُ لا يؤثر الاَّ تأثيراً يسيراً محصور النطاق اذا فرض على بلدان تملك المصانع الوافية . فاذا كان في الامكان تعيين المعتدي وفرض الحظر عليهِ دون المعتدَى عليهِ ، كان تأثيره اسرع ظهوراً منهُ اذا فرض على الفريقين المتحاربين معاً

وعلى كل حال لا يكفي حظر الاسلحة والذخيرة وحده في معاقبة دولة تنوي الاعتداء لانها تكون في هذه الحالة قد اعدَّت عدَّتها بخزن مقادير كبيرة من السلاح والذخيرة قبل شروعها فيهِ

حظر المواد الخام اللازمة للحرب

قلنا ان حظر الاسلحة والذخيرة ، لا يجدي نفعاً ، اذا كانت الدولة المعاقبة تكفي نفسها بنفسها من حيث صناعة الاسلحة في بلادها . ولكن هذه الكفاية لا تقوم على وجود المصانع الوافية في البلاد فقط بل تقوم كذلك على امتلاك البلاد لمصادر تستطيع ان تستمدَّ منها المواد الخام اللازمة لهذه الصناعة. والمواد الخام ليست موزعة توزيعاً متساوياً بين الامم ، او في مناطق الارض المختلفة. فيجدر بنا ان نلقي نظرة على هذه الناحية من الموضوع ، لنعلم ، هل مدُّ الحظر حتى يشمل المواد الخام اللازمة لصناعة الاسلحة والذخيرة الحربية ، من شأنهِ ان يضيق الخناق على المعتدي او لا

واول ما يتجهُ اليهِ النظر في هذا الصدد ، هو ان نعرف المواد التي تحتاج اليها الامم في هذه الصناعة ، وما تحتاج اليهِ الدول المختلفة منها

فرداً على السؤال الاول نقول ان الامم العسكرية ، متجهة في هذا العصر ، الى جعل الآلة الميكانيكية ، اساساً لتنظيم الجيش . فالجيش الحديث لا غنى لهُ عن السيارة والطائرة والمدافع على انواعها ، والدبابات الثقيلة والخفيفة ، وهذا علاوة على اصناف السفن الحربية من البوارج الضخمة الى الغواصات وباذرات الالغام . فالصناعات الاساسية التي تعتمد عليها الامم في الاستعداد للحرب ، هي صناعة المعادن ، والصناعات الكيمائية والكهربائية ، وصناعة استخراج النفط وتكريرهِ واعداد اصنافهِ المختلفة . وفي ما يلي قائمة باهم المواد التي لا غنى لهذه الصناعات المختلفة عنها ، وما تستعمل لهُ

الفحم والكوك — لابدَّ منهما في صناعة الصلب وتوليد الطاقة لاسباب النقل الحديثة . ويستخرج منهما زيوت معيّنة مثل الفينول والتولوين والكريزول وهي مما لا غنى عنهُ في صناعة المتفجرات

النفط — وهو الوقود الذي لا غنى عنهُ للسيارات والدبابات والطائرات والسفن الحربية ويستخرج منهُ كذلك الزيوت لتزييت جميع المحركات على اختلافها

القطن — لصناعة المتفجرات

الصوف — مادة لاغنى عنها لاغراض متعددة ومنوّعة

المطاط — يستعمل لاغراض منوَّعة ، أهمها في الصناعة الكهربائية ، والنقل . ولا يخفى ان الالمان في خلال الحرب الكبرى اضطرّوا ان يجعلوا اطارات العجلات في سيارات النقل من الحديد ، لان الحصر البحري حال دون وصول المطاط الى بلادهم

الغليسرين — لا غنى عنهُ في صناعة الديناميت

السلولوس — لا غنى عنهُ في صناعة اصناف البارود الذي لا دخان لهُ

تبر الحديد والحديد الزهر — لا غنى عنهما في صناعة اية آلة من الآلات او سلاح من الاسلحة

الرصاص — لا بدَّ منه في صناعة الذخيرة الحربية والاحماض والمتفجرات

النحاس والخارصيني والقصدير والكدميوم — يحتاج اليها في صناعة بعض الاسلحة ومدافع الميدان والذخيرة الحربية والمعدات الميكانيكية والكهربائية

النيكل — يستعمل في صناعة بعض اصناف الذخيرة ، والصلب

الالومنيوم — في الطائرات وكل محرِّك او آلة يحتاج الصانع فيها الى خفة الوزن .

الزئبق — كثير الاستعمال في كبَّاسات المتفجرات

البلاتين — يحتاج اليهِ في صناعة الاجهزة الكيمائية وخاصة في صناعة النترات

الانتيمون والمنغنيس والمولبدنوم والتنغستن والكروم وبعض مركباتها — لا بدَّ منها في صنع اصناف الصلب القاسي

ويجري هذا المجرى حجر الفتيلة (الاسبستوس) والغرانيت والميكا والحامض النتريك والكبريت والزرنيخ والبروم والكلور والفصفور . والاربعة الاخيرة لاغنى عنها في صناعة الغازات الحربية

هذا عن المواد الخام التي تحتاج اليها الامم المختلفة في صناعاتها . وليس من السهل معرفة ما تحتاج اليهِ الجيوش منها في المتوسط . ولكن اللجنة الاميركية للعقوبات الاقتصادية تناولت هذا الموضوع بالبحث الدقيق ، فوصلت الى نتيجة تقريبية يصح اتخاذها مقياساً . فقد قالت في تقريرها ان الاعمال الحربية في الميدان تقتضي انفاق ما زنته ثلاثة اطنان من الصلب والسلاح والذخيرة والسكك الحديدية الخفيفة وواقيات الخنادق ، للجندي الواحد في السنة . وان صنعها لا بد ان يكون قد اقتضى معالجة ستة اطنان من الفحم وستة اطنان الى ثمانية اطنان من الحديد . ويلي

ذلك ما يستنفد من النفط ويقدر بطنٍ واحد للجندي الواحد في المتوسط في السنة . وتليه المواد الاخرى وهي اقل مما تقدم . فالجندي ينفق من مائة رطل الى مائتي رطل من كلٍّ من المواد الآتية وهي النترات والكبريت (البيريت احد مركباته) والسمنت والمنغنيس والنحاس والرصاص و ٢٥ رطلاً من كلٍ من المواد الآتية وهي القطن والصوف والمطاط والفلزات اللازمة للذخيرة الحربية اي القصدير والنيكل والانتيمون والالومنيوم والخارصيني (زنك) والزئبق . واذا صحّ تقدير الخبراء فالمستهلك من النفط والوقود السائل والصلب في الحروب المقبلة ينتظر ان يفوق ما كان عليهِ في الحرب العالمية . فالمواد التي تستهلك في الحرب تفوق كثيراً ما يستهلك منها في ابّان السلم ، حتى في الدول التي فيها مصانع كبيرة تصنع الاسلحة والاعتدة الحربية للتصدير . اما الدول التي لا تملك هذه المصانع فيبدو عجزها عن الفوز بمواد الحرب حال تطبيق هذه العقوبة عليها او بعيد تطبيقها

واذا رجع القارىء الى المقال الذي نشرناهُ في مقتطف نوفمبر الماضي بعنوان « المعادن والتبعات الدولية » (ص ٤٤٧) تبيّن ما تحتاج اليهِ الدول المختلفة من المعادن والفلزات اللازمة للصناعات الحربية فلا حاجة بنا الى تكراره هنا

وقد تعمد الدولة المعاقبة الى مصادر جديدة تستمدُّ منها المواد التي تحتاج اليها بعد حظر تصديرها اليها كما فعلت المانيا بنفط رومانيا في الحرب الكبرى . او قد تعمد الى مناجم يتعذر استخراج المعادن منها استخراجاً رابحاً في ابان السلم ، فتستخرجها منها عند الاضطرار اذ يصبح الربح في المقام الثاني . او قد تجمع ما يطرح عادة من مادة معينة فتسبكها وتنقيها وتعيد استعمالها . او قد تحاول ان تستنبط بدلاً صناعيًّا يحلُّ محل المادة الطبيعية كما حاول الالمان ان يحلوا المطاط الصناعي محل المطاط الطبيعي فأخفقوا، وكما حاولوا ان يصنعوا الاسمدة بتثبيت نتروجين الهواء لتحل محل الاسمدة الطبيعية فأصابوا نجاحاً عظيماً . او قد تبتدع وسائل جديدة لاستعمال مادة طبيعية متوافرة او في الوسع الحصول عليها ، بدلاً من اخرى لان الحصول عليها متعذر ، كما استعمل الالمان النيكل المستورد من كندا عن طريق البلدان السكندناوية بدلاً من المولبدنوم والتنغستن في تقسية الصلب

هذه العوامل تخفف من وقع الحظر على الدولة المعاقَبة ، ولكن تأثيرها ، بصرف النظر عن العامل الاول ، يسير جدًّا . يضاف الى هذا ان الاحداث الطبيعية قد تدمر ما تخزنه الدولة المنتوية الاعتداء من مواد الحرب . فالزلزلة التي اصابت اليابان سنة ١٩٢٣ دمرت احواض النفط ولو ان اليابان كانت مشتبكة في حرب حينئذ وتصدير النفط اليها محظور ، لاصيبت قوتها الحربية في اضعف مقاتلها

وكذلك يتبين للقارىء ان الدولة المعتدية تواجه مصاعب عظيمة الشأن في الاستمرار في اعتدائها اذا حظرت الدول بالاتفاق تصدير بعض المواد الخام اللازمة للصناعات الحربية . وحظر التصدير الى الفريق المعتدي يعني في الغالب اباحته الى الفريق المعتدى عليه . وكون هذه المواد الاساسية قليلة ، وخطرها ذريع التأثير ، يجعل الحظر ممكناً من دون ان تضطرب التجارة الدولية اضطراباً يبعث على القلق

المقاطعة الدولية

قد تكفي احدى العقوبات التي تقدَّم ذكرها لردع المعتدي عن الاعتداء ، او لتقصير اجل اعتدائهِ، ولكن تأثيرها قد لايكون تامًّا لذلك قد يعمد الى عقوبات اخرى اعمّ وافعل في تحقيق الغرض المنشود ، وفي مقدمتها « المقاطعة الدولية » بتطبيق جميع فقرات المادة السادسة عشرة من عهد الجامعة في وقت واحد . وتطبيقها هذا يقتضي من اعضاء الجامعة الامور التالية : —

١ — فصم جميع الصلات المالية والتجارية مع الدولة المعتدية

٢ — منع كل معاملة بين رعايا اعضاء الجامعة ورعايا الدولة المعتدية

٣ — منع كل معاملة تجارية ومالية بين رعايا الدولة المعتدية ورعايا الدول الاخرى سواءٌ كانت اعضاءً في الجامعة ام لم تكن

ولا تعلم عقوبة اتمّ فعلاً من هذه العقوبة . فان فعلها لا بدَّ ان يكون سريعاً وتامًّا في ردع الامم التي لم تبلغ مبلغاً عالياً من التقدُّم الصناعي . اما تأثيرها في الامم الصناعية الكبيرة التي لا تتأثر عادة تأثراً كبيراً باحدى العقوبات المتقدمة ، فلا بدَّ ان يكون كبيراً كذلك ، ولكنهُ على كلّ حال يتوقف على مدى اعتمادها على تجارتها الخارجية . واقلُّ الامم اعتماداً على تجارتها الخارجية هي روسيا السوفيتية والولايات المتحدة الاميركية، وتليها بولونيا فاليابان فاسبانيا فايطاليا فالمانيا فتشكوسلوفاكيا ففرنسا فالسويد فالمملكة المتحدة (اي انكلترا واسكتلندا وويلز) فالبلجيك

اما منع توريد المواد الغذائية الى دولة من الدول فعقوبة لا تطبَّق الا عند الحاجة القصوى والمملكة المتحدة بين الدول الكبرى ، اشدُّها تأثراً بهذه العقوبة لانها تستورد ٥٠ في المائة من المواد الغذائية التي تحتاج اليها . ويقتضي فصم عرى المعاملة اقفال الحدود البرية ووقف تبادل رسائل البريد والتلغراف والتلفون والمحادثات اللاسلكية ومنع الطائرات والسفن من النزول في مطارات الدولة المعاقَبة والرسو في مرافئها وسحب جميع الممثلين الدبلوماسيين والقنصليين واعتقال جميع رعايا الدولة المعاقَبة المقيمين في بلاد الدول المعاقِبة او ارجاعهم الى بلادهم

***

وقد تطبق المقاطعة الدولية تطبيقاً سلميًّا ، او تطبيقاً فعّالاً اي حربيًّا . فالتطبيق السلميُّ ممكن اذا اجمعت الدول على الاشتراك في التطبيق . ولكن لما كان الاجماع متعذراً ، ولما كانت بعض الدول الكبرى خارج نطاق الجامعة وقد لا يأنس من نفسهِ ميلاً الى الاشتراك مع دول الجامعة في هذا العمل فقد تقتضي الحالة في نهاية الامر استعمال القوة . وهذا يعني الحصر البحري والبري (Blockade) وهو ينطوي على خطر الاصطدام بالدولة المعاقَبة وبالدول المحايدة لان هذه في الغالب لا تتنازل عن حقوقها في الاتجار الحرّ مع الدولة المعاقَبة



الحرب القادمة

كتبها اوزبرت ستيول سنة ١٩١٥

القارورة اليونانية

لجون كيتس

« نقلها خليل هنداوي »



الحرب القادمة

كتبها اوزبرت ستيول سنة ١٩١٥

كانت الحرب الطويلة قد وضعت اوزارها . وكانت اهوالها قد محيت ذكراها .
واصبح من الإرهاق ان تحدّث الصُّمّ . بل ان حديث الابطال عاد يضجرك

***

اولئك الكيماويون السحرة[١] الذين حوّلوا الدم الى ذهب ، كانوا قد هرموا ولكنهم
عقدوا اجتماعاً وقالوا فيهِ : « لعلَّهُ يجب علينا ان نبني مقابر او نشيد مذابح »
« لذكرى اولئك الاحداث الشجعان الذي تقدموا مختارين ، فاصيبوا بالعمى ، او »
« حرقوا ، او شوّهوا ، ففقدوا كلّ شبهٍ بينهم وبين الاحياء ، او نثروا قطعاً دامية »
« في سبيلنا . ان ذلك عمل جدير بهم وبنا »
« او لعلنا نعلم اولادهم »

***

ولكن اغنى هؤلاءِ السحرة سعل سعالاً لطيفاً وقال : لقد كنت دائماً في الطليعة
— في العمل الخاص — واني لا اتأخر عن احد في محبتي لبلادي . وعندي ان رأيكم ،
رأي حسن ، رأي بديع ، ثم انهُ ليس كبير النفقة

***

ولكن يبدو لي ان القضية التي حاربنا في سبيلها مهدَّدة بالخطر . واي تذكار
اجدر باولئك الساقطين ، من ان يسقط ابناؤهم في سبيل القضية نفسها

***

وخرج الشيوخ الدماث الى الشارع يصيحون في الشبان :
« اتضحّون ، ايها المتقاعسون ، بما مات آباؤكم لكسبهِ ؟
« يجب ان نجعل العالم سالماً للشباب »

***

وذهب الاولاد . . . !

---

(١) اشارة سخرية الى رجال المال والاعمال الذين جمعوا ثروات ضخمة في الحرب

من روائع الشاعر الانجليزي　　　　جون كيتس الخالدة

القارورة اليونانية

في متحف لندن « زهرية يونانية » قديمة خطت عليها كف الناقش صورة سامية من صور الحياة ، صورة عاشقين يهم احدهما بالآخر . لم يترك لهما المصور مجالا للاقتراب ، ولم يعتقهما من هذا الموقف المفجع . وقع عليها ناظر « كيتس » فاستفزت مشاعره فراح يعطينا هذه الفريدة الرائعة من فرائده . وهي مقطوعة ذات الحان خفيفة ، لا ترى هنالك الا الحب ولا تشعر بغير الجمال . تبارك الله وتبارك هذا القلب السقيم الذي يرتاح للالحان الشائعة ويطلب الى الالحان ألا تنقطع . تبارك الله وتباركت هذه الحقيقة التي لفتها برداء الجمال حتى جعل الجمال مظهراً من مظاهرها وجعل الحقيقة مظهراً من مظاهره　　　(المترجم)

ايتها الغادة المحرومة من الراحة !

يا ربيبة السكون الغالية ، وابنة الاعوام المتوانية

يا ابنة الغابات التي تعرف كيف تحدثنا احاديث يكتنفها زهر أريجه اضوع من اشعارنا !

أية خرافة حاكتها اوراق الآلهة او الأموات او كلاهما معاً تنتشر — محفوفة بالسر — من أحنائك ؟

ومن هم هؤلاء الآلهة وهؤلاء الناس وهؤلاء العذارى المستوحشات ؟

هؤلاء المجنونات النافرات

وما هي هذه الوقائع في سبيل الانعتاق والانطلاق ؟

وهذه الصنوج والشبّابات ؟ وما هذا الانجذاب والذهول ؟

***

ان الارانيم التي نسمعها هي جميلة ،

وأجمل منها ارانيم لا نسمعها ،
أَلا اعزفي ايتها الصنوج لا لآذاننا ،
اعزفي وليكن عزفك اشد وقعاً ،
اعزفي للروح ورددي اناشيدك الخرساء .
وانت ايها الفتى الآوي الى فيء الشجر
انت لن تستطيع ان تنجز انشودتك كلها .
وهذه الاشجار لن تستطيع ان تعرى من اوراقها .
وانت ايها العاشق المسرع لن تقدر على ان تُعطي قبلتك ، مهما احسستَ أَنك أَشرفت على الظفر .
ولكن لا تأس ولا تحزن !
انها لن تذوى نضرتها ، ولن تتذوق انت منها كل بهجتك ستظل محبًّا لها حتى النهاية وهي حتى النهاية ستظل جميلة

***

سعيدة انت ايتها الاشجار التي لا تقدرين على التجرد من اوراقك ، ولا تقولين للربيع وداعاً !
وسعيد انت ايها الموسيقي الذي يردد دائماً بلا ملل اغانيَّ جديدة

***

واكثر سعادة ذلك الحب الملتهب الرغبة ، الدائم ظمؤه ،
السرمدي خفوقه ، اللامعة فتوته .

يسمو فوق كل هوى بشري عنيف ،
ويترك قلوبنا محرومة يأساً وسأَماً ،
وجباهنا مضطرمة ، وشفاهنا يابسة .

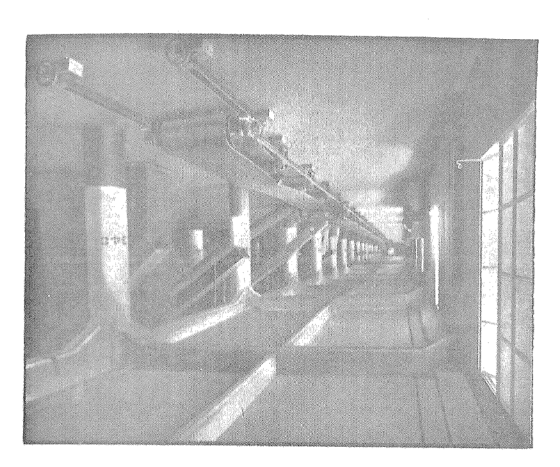
***

من هم هؤلاء الذين قدموا الى مذبح التضحية ؟
والى اي معبد نضر ايها الكاهن السرّي تقود هذه العجلة التي يتصاعد خوارها للسماء ، وقد زينت اعطافها بأكاليل الزهر .
اية مدينة صغيرة مشيدة على ساقية او شاطىء ، او مرفوعة على طود حول معبد التماثيل الهادىء ، قد اقفرت من اهلها هذا الصباح القدسي ؟
انتِ ايتها المدينة الصغيرة ستظل شوارعك صامتة ،
ولا روح تعود من ذلك العالم تنبئنا سبب اقفارك .

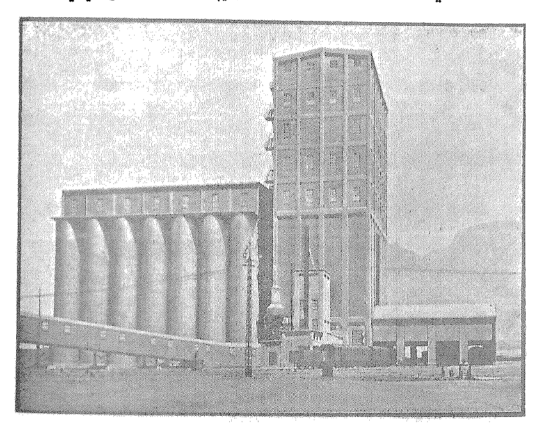
***

ايتها المواطن التي يغشاها اشكال من الناس والعذارى الرخاميات المؤتلفات مع فروع الاشجار والاعشاب الموطوءة !
ايها الشكل الصامت الذي يحير كنهه العقل كما تحير الأَبدية !
ستبقى انت عند ما تبيد الشيخوخة هذا الجيل
ستبقى بين آلام كآلامنا صديقاً للانسان الذي تقول له :
« ان الجمال هو الحقيقة والحقيقة هي الجمال »
هذا كل شيء — هذا كل ما تعلمهُ على الارض
وهذا كل ما يجب ان تعلمهُ عليها»

(ترجمها خليل هنداوي).



مشهد في داخل صومعة الغلال الحديثة وفيها النقالة « الاوتوماتيكية »



صومعة الغلال تتسع لثلاثين الف طن

باب الزراعة والاقتصاد

صوامع الغلال

عنيت مصر اخيراً بمسألة خزن الغلال بعد ان مضت السنون وهذه المسألة مهملة كلَّ الاهمال ومحصول البلاد المصرية يفقد سنوياً ما لايقلّ عن عشرين في المائة — بحسب التقديرات الرسمية — لما يصيبهُ من التلف الناشيء عن تقلّب احوال الجوّ وبعض الآفات الحشرية والطيور والفئران

ومع ان مصر كانت اول امة فكّرت ونظمت مخازن الغلال في عهد يوسف عليهِ السلام ولا تزال آثار اهراآتها في الفيوم ماثلة للعيان ، فانها في العهد الحاضر تأخرت عن غيرها من الدول في العناية بهذا الامر الذي يهمّ الزارع والصانع والتاجر والمستهلك على السواء

كانت مصر اهراء العالم القديم في عهد الرومان للغلال والحبوب . ولكنها فقدت مكانتها في هذا الميدان لانحطاط نوع الغلال نفسها واهمال الوسائل الفنية لتصنيفها وحفظها وعرضها في الاسواق العامة

فالزارع يكتفي بالآلات القديمة في درس محصولهِ وهو لا يكاد ينتهي من عملية الدراسة حتى يبادر الى التخلّص من المحصول لحاجته الى النقود فتهبط الاسعار في اول المحصول عادةً لكثرة المعروض منهُ في السوق . وهو ان فكّر في ابقاءِ المحصول قليلاً في احدى شون البنوك انتظاراً لتحسّن الاسعار تعرّضت غلاله لجميع انواع الآفات . حتى اذا ما حان وقت العرض تبيّن لهُ ان ما قد يكسبهُ من تحسن الاسعار ، يفقدهُ بتلف جانب غير يسير من المحصول المخزون

وقد حدث من عامين في احد البنوك المصرية المعروفة ان الفول الذي كان مخزوناً في شونهِ ، وكانت مقاديره كبيرة جدًّا ، هطلت عليهِ الامطار فنبتت حبوبهُ واضطرّ البنك للتخلص منهُ ان يبيعهُ بابخس الاسعار

***

وقد فطن علماء الغرب المحدثون الى هذه الناحية من الثروة الزراعيـة فصمموا مخازن للغلال والحبوب على انواعها تتوافر فيها جميع الشروط والوسائل لحفظ المحاصيل من التلف ، فيستطيع صاحبها ان يخزنها ما شاء وهو يعلم انهُ لايعرضها في خزنهِ لها لضرر ما وانهُ لايتعرض هو لخسارة ما علاوة على تأثير ذلك في تنظيم العرض والطلب ، وفقاً للاسعار السائدة في الاسواق العالمية

والقاعدة في هذه المخازن الاعتماد على الوسائل الآلية في جميع مراتب العمل . فثمة آلات عملها ان «تشفط» الغلال من المراكب اوعربات السكة الحديد او مركبات النقل ، وتنقلها نقلاً ميكانيكيًّا الى داخل المخزن ، حيث تنقَّى وتنظف وتصنَّف بآلات مختلفة اوتوماتيكية (اي تعمل من تلقاء نفسها) ثم توزن وزنًا ميكانيكيًّا ايضاً بآلات تبرز رقماً وقد دوّن عليها الوزن الصحيح

ويمكن كذلك ان تعالج الغلال بجميع الوسائل العلمية من تبخير وغيره داخل هذه المخازن ، بحيث اذا خزنت لم يبق لاصقاً بها ما قد يولّد آفة تصيبها

***

وقد اصطلح العلماء على تسمية هذه المخازن باسم «سيلو» Silo واصل هذه الكلمة عربيٌّ بحسب اقوال الغربيين ويظهر انها استعملت اولاً في اسبانيا والمغرب الاقصى . فحبَّذا لو عني احد اللغويين بالبحث عن اصل اشتقاقها العربي . وقد اصطلح على تسميتها في القطر المصري بالصوامع لان الفلاّح اعتاد ان يطلق اسم صومعة على المخزن المبني بالطين الذي يحفظ فيهِ غلالهُ . وكان الكاتب جلال حسين اول من اطلق عليها هذا الاسم في مقالات لهُ نشرت في المقطم

وقد عمّ استعمال هذه الصوامع في البلدان الزراعية الكبيرة والصغيرة في العالم اجمع ، ولم يكتفَ في استعمالها بخزن الغلال فيها، بل استعملت ايضاً لخزن البن وبزر القطن وبزر الكتان وغيرها من المحاصيل الزراعية

وكان اقبال الممالك المختلفة عليها دافعاً للبيت الانكليزي الكبير الذي يتولى تعميم هذه الصوامع وهو بيت هنري سيمون المهندسين المعروفين في بلدة ستوكپورت على مقربة من منشستر — وقد زارها كاتب هذه السطور، وهي مشهورة بمصانعها المختلفة لآلات ضرب الارز وطحن الغلال — على انشاء فروع لهُ في استراليا وزيلندا الجديدة والهند وفرنسا والبلجيك وهولندا والبلدان السكنديناوية والارجنتين وشيلي والبرازيل واوروغواي والمكسيك والصين واليابان

***

ومن عهد قريب فكرت وزارة التجارة والصناعة بعد طول البحث والدرس ان تنشئ صوامع تتسع لثمانية وعشرين الف طن من الغلال المختلفة في ساحل اثر النبي بالقاهرة بين مصر القديمة والمعادي حيث تقع شون الغلال المختلفة

ومما لا شكَّ فيهِ ان هذه خطوة مفيدة اذ لا جدال في ان مصر تحتاج الى مخازن اخرى عديدة من هذا القبيل . ففي الريف تحتاج الى مخازن صغيرة مما يسميهِ المهندسون باسم « صوامع الريف » وهي صغيرة تتسع احداها لالف اردب فقط . فالبنوك الزراعية في القطر المصري والدوائر الكبرى في حاجة الى مثل هذه الصوامع للعناية بخزن محاصيلها . ويضاف الى هذا ان البلاد تحتاج الى بناء صوامع من هذا القبيل في الموانىء لحفظ الوارد من الغلال

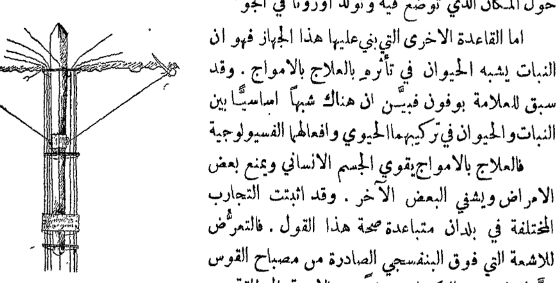
جهاز "الرالیفان"

وتنمية النبات ومكافحة آفاته

يعلم قراء المقتطف ان الاشعة اللاسلكية القصيرة استعملت في تجارب منوعة في اوربا وأميركا لمكافحة بعض الآفات التي تصيب بعض الحبوب عند تخزينها ، وان بعض الباحثين مدّ في الارض اسلاكاً كهربائية وأجرى فيها تياراً كهربائيًّا ، فزاد محصول المزروعات التي تأثرت بها . ومن شاء زيادة الاطلاع فعليه بمراجعة كتابنا فتوحات العلم الحديث (ص ٢٦٣ -٢٦٥)

***

وقد اطلعنا من عهد قريب على تقرير وضعه المسيو جورج رالي Ralli في وصف جهاز استنبطه ودعاه « راليفان » وسجله في محكمة الاستئناف المختلطة في الاسكندرية في اول يونيو من هذه السنة . وهذا الجهاز مبنيٌّ على قاعدة تأثير الامواج الكهربائية القصيرة في النبات والآفات التي تصيبها . ومبدؤها التقاط الاشعة الكونية التي تخترق جو الارض بواسطة رؤوس معدنية دقيقة ثم نقلها بواسطة مكثّفات ومحوّلات فتجتمع بكهربائية الارض وتنشيء حقلاً كهربائيًّا مغنطيسيًّا حول المكان الذي توضع فيه وتولد أوزوناً في الجو.



اما القاعدة الاخرى التي بني عليها هذا الجهاز فهو ان النبات يشبه الحيوان في تأثره بالعلاج بالامواج . وقد سبق للعلامة بوفون فبيّن ان هناك شبهاً اساسيًّا بين النبات والحيوان في تركيبهما الحيوي وافعالها الفسيولوجية

فالعلاج بالامواج يقوي الجسم الانساني ويمنع بعض الامراض ويشفي البعض الآخر . وقد اثبتت التجارب المختلفة في بلدان متباعدة صحة هذا القول . فالتعرّض للاشعة التي فوق البنفسجي الصادرة من مصباح القوس فعّالة في منع الكساح مثلاً . والاشعة المنطلقة من الراديوم فعّالة كذلك في معالجة بعض النوامي السرطانية . والتعرض لاشعة الشمس عامل فعّال في معالجة المصابين بالدرن . والاشعة اللاسلكية القصيرة تستعمل في اميركا الآن ، في نطاق محدود ، لاحداث الحمّى اللازمة لمعالجة شلل الخلق العام

والظاهر من تقرير المسيو رالي ومن تجارب سبق لنا فاطلعنا عليها في مجلات علمية منوّعة ،

ان العلاج بالاشعة يؤثر في النبات تأثيراً من قبيل تأثيره في جسم الانسان . وهو يقول انهُ يقوي بنية النباتات والاشجار المثمرة ويزيد محصولها ضعفين او ثلاثة اضعاف

ولما كانت التيارات الكهربائية تتجه ، وفقاً للنواميس الطبيعية ، الى القطب المغناطيسي الشمالي فيجب ان يوضع هذا الجهاز في الناحية الجنوبية من قطعة الارض المزروعة التي يراد معالجتها بهِ فيمتد المجال الكهربائي المغنطيسي بالجذب من الجنوب الى الشمال ويشمل قطعة الارض كلها

ومن التجارب التي اشار اليها المسيو رالي ان فداناً كان يعطي محصولاً من القمح يقدر بنحو خمسة ارادب الى ستة ارادب فصار يعطي محصولاً يختلف من ١٢ اردبًّا الى ١٥ اردبًّا . وهو يقول ان سنابل القمح لا تزداد عدداً ولكن حجم حبوبها ووزنها يزدادان ضعفين او ثلاثة اضعاف ثم ان حبوب القمح نفسها تكون امنع على الآفات ، واغنى بمادة الغلوتين ، وقشّهُ اكبر واقوى

***

وقد عالج المستنبط في الجانب الثاني من تقريرهِ فائدة هذا الجهاز في مكافحة بعض آفات النبات الطفيلية وابادة الديدان والحشرات

وقاعدة هذه الناحية من فائدة الجهاز ، المباحث التي قام بها دارسونفال وغيره من العلماء وخاصة دايفس الاميركي وقد وصفناها في كتاب فتوحات العلم الحديث . فقد اثبت دايفس ان الطاقة المشعة القصيرة الامواج تخترق حبوب القمح مثلاً وتحدث حرارة عالية مميتة في اجسام الحشرات التي قد تكونت داخل الحبوب فتفتك بها (فتوحات العلم ص ٢٦٤)

وقد وصف المسيو رالي في تقريره تجربة قام بها اذ اخذ طائفة من النباتات (الجرناء — جرانيوم) في تسعة اصص وحقنها بما يحدث فيها نوامي مرضية من قبيل النوامي السرطانية في الانسان . فلما ظهرت هذه النوامي ، أخذ اصيصاً منها واحاطهُ باسلاك على طريقة معينة تكفل تأثر النبات بالامواج التي يولدها الجهاز وبعد ثلاثة اسابيع ذوت النباتات التي في الاصص الثمانية وهي التي لم تعرَّض للاشعة. اما النبتة التي في الاصيص التاسع ، وهي النبتة التي عولجت على المنوال المتقدم ، فبقيت حية ، بل ان النوامي المرضية تساقطت عنها ، بل ان ازهارها جاءَت آية في نضارتها وروائها وجمالها

وقد اشار لاكوسكي في كتابهِ « اسرار الحياة » الى تجارب من هذا القبيل اسفرت عن نتائج تؤيدها نتائج المسيو رالي

فهل تصلح هذه الآلة لمكافحة دودة القطن ؟ هذا ما يراهُ المسيو رالي

والخلاصة ان القواعد العلمية التي بني عليها هذا الجهاز قد ايّدتها مباحث العلماء في اوربا واميركا فيجدر باولي الامران يجربوا تجارب محكمة واسعة النطاق ، ليُعرف مدى فائدته العملية في مكافحة مصائب الزراعة المصرية وزيادة محاصيلها

باب المراسلة والمناظرة

في همزة ابن

سيدي مدير المقتطف الأغر

سلام واحترام وبعد فقد نشرتم في عدد نوفمبر من مقتطفكم الاغر نقداً لكتابي عمر ابن ابي ربيعة بقلم الاستاذ حسن كامل الصيرفي وارجو ان تسمحوا لي في ان اغتنم هذه الفرصة لأشكر للاستاذ الكريم ثناءه عليّ وحسن تقديره لعملي وتحليله الرائع لكتابي غير اني لا اوافق حضرة الاستاذ الكريم في مسألة كتابة همزة ابن فقد ذكر ان القاعدة في حذفها هي ان تقع لفظة ابن بين اسمين ولهذا يرى وجوب حذفها في عنوان كتابي الرئيسي والفرعي بحيث يكتبان هكذا :

«عمر بن ابي ربيعة» و«عصر بن ابي ربيعة» والمعروف في امر رسم همزة ابن غير هذا اذ ليست الاسميّة قبل ابن وبعدها بكافية لاسقاط همزتها حتى ولا العلمية الاّ على شروط خاصة وقد امتنعت هذه الشروط في كلا العنوانين وكنت اودّ ذكرها لولا ان القدماء قد كفوني مؤونة هذا بذكرهم المواضع التي تثبت فيها همزة ابن بقصيدة اوردها الشيخ ناصيف اليازجي في «مجمع البحرين» هذا نصها:

قد أثبتوا أَلِفَ ابنٍ في مواضع من	كلامهم كابنةٍ خذها بتصويرِ
اذا أُضيف لإِضمارٍ رضى ابنك او	لجدّه مثل عمّار ابن منصورِ
او ذي مجازٍ كمقداد ابن الاسود اذ	ابوه بالحقّ عمرٌو غير منكورِ
او امه نحو عيسى ابن البتول سما	اوكان في خبرٍ يحيى ابن مشهورِ
او كان مستفهماً عنه كقولك هل	زيد ابن عمرو ام ابن القاسم الصوري
او كان تثنيةً كالمرتضى وأبو	خديجة ابنا عليٍّ مشرق النورِ
او عكس ذاك بأن قدمت تثنية	كالخالدان ابن يسرٍ وابن ميسورِ
او جاء الابن بغير اسمٍ تقدمه	نحو ابن موسى وزيدٌ وابن مذكورِ
او كان اول سطر او دعا سببٌ	لقطع همزته في نظم منثورِ
كجاءنا خالد إبن الوليد وفي	جمعٍ على ابنين في بعض المناكيرِ
زيدٌ وعمرٌو ويحيي ابنو ابي رجبٍ	جاءوا وقد حفظوا هذا بتذكيرِ
او جاء لفظ ابيه بعده مثلاً	كجعفرٍ ابن ابيه صاحبِ الصورِ

او أخر اسم عن ابن نحو قولك قد جاء ابن زيدٍ عليٌّ خير مشكورِ
او حال بينهما وزن كجاء لنا ردٌّ بن كظِرِبٍ ابن موسى صاحب الطورِ
او كان نصبٌ باعني فيه مضمرةً كمثل اكرمني زيدَ ابنَ مسرورِ
او بعد اما لشكٍّ جاءني حسنٌ إمَّا ابن سعدٍ وامَّا إبن منظورِ
او حال بينهما وصفٌ كاكرمَنا يحيي الكريمُ ابن ميمون بن مجبورِ
او كان من بعد جمع كالعبادة ابن المرتضى وابن عمرٍو وابن معمور
او كان الابن مضافاً لابن او لاخٍ او عمّه كالمعلّى ابن ابن عصفور
أو كان الابن منادًى نحو حدّثنا موسى ابنَ مشكور يعني يا ابنَ مشكور
أو كان بينهما ضبطٌ كقال لنا سحبانُ بالضم ابن المرتضى الدوري (١)

ويجدر بي ان اشير الى ان هنالك شرطين من هذه الشروط يمنعان حذف همزة ابن في العنوان الرئيسي — عمر ابن ابي ربيعة — اولهما في البيت الثاني وهو اضافة العلم الى جدّه وابن ابي ربيعة هو جدّ عمر لا والده والشرط الثاني وارد في البيت التاسع عشر وهو اضافة الابن الى كنية كزيد ابن اخي فلان او كعليّ ابن ابي طالب مع ان ابا طالب والده لا جدّه . اما في العنوان الفرعي وهو عصر ابن ابي ربيعة فيكفي ان تكون كلمة عصر غير علم لتثبت همزة ابن وعليه فنكتب ديوان ابن الفارض وعقد ابن عبدربّه باثبات همزة ابن

وكم كنت اود لو يصطلح علماء اللغة على رسم همزة ابن بالالف أنّى وقعت هذه اللفظة ولابدَّ لي في الختام من شكر حضرة الاستاذ الكريم لتنبيهه ايّاي الى الخطأ الذي ارتكبه الخطاط في تحريك نون ابن — بالعنوان الفرعي — بالضم حيث كان يجب ان تحرّك بالكسر

جامعة بيروت الاميركية كلية الآداب والعلوم جبرائيل جبّور

***

أشكر للاستاذ جبّور تنبيهه إياي الى المواضع التي يجوز فيها اثبات الالف في كلمة (ابن) على اني قد لاحظت ان الاستاذ المؤلف قد اسقط ألفها في كل موضع ذكر فيهِ اسم الشاعر عمر بن أبي ربيعة في متن الكتاب ولكنها اثبتت في العنوان . وأريد ان اذكر للاستاذ ايضاً اني لم انوّه في كلمتي عن هذه الالف في جملة (عصر ابن ابي ربيعة) لأن عصر ليست علماً ، وانما اردت الاشارة هنالك الى رفع (ابن) وهي في موضع الجر حسن كامل الصيرفي

(١) راجع مجمع البحرين للشيخ ناصيف اليازجي طبعة المطبعة الاميركانية ببيروت ١٩١٣ صفحة ٥٣ — ٥٤ على هامش المقامة البغدادية

كتاب الدكتور شهبندر

وردت علينا رسائل كثيرة من قرّاء المقتطف في مختلف الاقطار التي يقرأ فيها يسألوننا عن المقالات النفيسة التي ينشرها الدكتور عبد الرحمن شهبندر في « المشكلات الاجتماعية الكبرى في الشرق الادنى » وهل ينتظر ان تجمع في كتاب على حدة ، فرداً على هذه الرسائل يسرنا ان نقول ان المؤلف الفاضل قد انجز هذه السلسلة النفيسة بمقال « الدين والنهضة الاخلاقية الحديثة » المنشور في هذا العدد ص ٦٠٥ . وادارة المقتطف تستعد الآن لتجليد الكتاب وقد لا يأتي شهر دسمبر على آخره حتى يكون ذلك قد تمّ

تصحيح خطأ

١ — قصيدة النشوء والارتقاء

وردت غلطة في قصيدة (النشوء والارتقاء) من المطبعة اضاعت معنى البيت بان كُتب « وتبكيك » بدل « وتُبْليك » في البيت

(وتُبْليك الحياة كما يفت الجو صوانا)

وبين القراء نجد الاديب حقاً لا بد ان يفهم انها تُبليك فلا يضيع المعنى مع مثله من القراء ولكن الذين يأخذون غلطات المطبعة قضية مقدسة وحقيقة رائعة كثيرون ولا أزال اذكر ان بعض الفلاسفة قد بنى آراء وفلسفة كبيرة على اغلاط مطبعية وردت في طبع آراء باسكال الفرنسي وحدث مثل ذلك في اغلاط مطبعية وردت في طبعة شكسبير الاولى فقد كان الادباء في العصر الذي شاع فيه تقديسه قبل النقد الادبي يرقصون طرباً لمعانٍ لا وجود لها بل هي اغلاط مطبعية كشفت بعد ذلك ولو كنت واثقاً من ان القراء سيجدون مثل هذه الآراء الرائعة التي ليس لها وجود لما همني الامر

عبد الرحمن شكري

٢ — الجامع المختصر

جاءنا من الدكتور بشر فارس من برلين تنبيه الى خطإٍ مطبعي وقع في العبارة الاخيرة من مقاله عن « الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير : الجزء التاسع » الذي عني باخراجه الاستاذ مصطفى جواد . مقتطف اكتوبر ١٩٣٥ ص ٣٧٤ و٣٧٥ . فقد ظهرت العبارة في المقتطف كما يلي : ومن المتعذر ان (تجد تصحيفاً او تحريفاً او اضطراباً او سوء فهمٍ للنص ومخرج الكتاب الى الناس مخرجه ؟) . والحقيقة ان القوسين وعلامة الاستفهام اقحمت على العبارة خطأً ولم ينتبه لها قارىء التجارب فقلب المعنى من الثناء الجم على المخرج ، وهو ما يستفاد من مجمل المقال ، الى التشكيك في قيمة ما فعل وهو ما لم يقصد اليه الكاتب البتة . فاقتضى التنبيه

تخليد ذكرى المتنبي

اجمعت الامة العربية في هذه السنة على تخليد ذكرى شاعر العرب الاكبر ابي الطيب المتنبي ، فاحتفلت محافل الادب بذكره ، في اكثر البلاد العربية ، واصدرت المجلات او أكثرها اعداداً خاصة بالمتنبي عرض فيها الادباء آراءهم فيه وفي شعره



ولما كان اقرب عدد يظهر من المقتطف الى تاريخ وفاة المتنبي في ٢٧ رمضان سنة ٣٥٤ هو عدد يناير الذي يصدر في يوم ٦ شوال سنة ١٣٥٤ فقد رأى المقتطف ان يؤدي الى الامة العربية حقها عليه في احياء الادب ، فندب احد الادباء ان يبذل من ذات نفسه في قراءة المتنبي وتحقيق ما قيل عنه وعن شعره ، ليخرج للامة العربية صورة قريبة من الحق لشاعرها الاكبر

وقد جهد هذا الاديب في تنقية تاريخ الشاعر مما وقع فيه من الروايات الغريبة عن نسبه ونشأته ونبوته ورحلاته في البلاد العربية عند الامراء الذين مدحهم او هجاهم او اقام بينهم ، وكشف في تاريخه عن جهات لم يلتفت اليها الباحثون من المتقدمين او المتأخرين على فضلهم وعنايتهم ، تخرج ما كتبه عنه ، ما يعدّ كتاباً عن الشاعر العظيم يقدمه المقتطف لقراء العربية ، عسى ان يكون سبباً في توجيه دراسة الشاعر وشعره الى ناحية اخرى غير التي درج عليها البحث القديم والحديث

وفي هذا العدد كلمات اخرى لبعض كبار الادباء عن شعر المتنبي ، ومجموعة هامة من قصائده ، ثم مجموعة اخرى من بلاغات المتنبي وحكمه جمعت مرتبة على الترتيب التاريخي لشعره ، تبين عن تدرج منهج الشاعر او اختلافه على مرّ الايام والسنين

مكتبة المقتطف

المختار

الجزء الاول — تأليف الشيخ عبد العزيز البشري — صفحاته ٢٣٨ ثمنه ١٥ قرشا

الشيخ عبد العزيز البشري ، امير من امراءِ البيان العربي الصافي كالبلور، الوهّاج كالذهب الابريز، يأخذك من بيانهِ الجزالة والوضوح . فالرأي يسوقهُ اليك لا يعتوره غموض والعبارة يرسلها قلمهُ كأنها المجاج . يفعل ذلك في الاقطاب الذين يترجم لهم (الباب الثالث من الكتاب) والمبتدعات الجديدة التي يصفها ، وخلجات النفس التي يحسّها (الباب الثاني) ، ونفحات التاريخ العربي والادب العربي (الباب الاول) يقلّبها على وجوهها ثم لا يقبلها في معرض الرأي الاَّ وقد استقامت على اسس راسخة من عقلهِ وحسّهِ وذوقهِ . فالفصول التي يحتوي عليها هذا الكتاب من الآيات الادبية . فهي تمتّ من ناحية الى اعرق الاصول في ادبنا العربي المجيد، ومن ناحية اخرى الى حياة الذهن المصري في هذا العصر الحافل بضروب المعاني المستحدثة والآراء الطريفة . وقد اشار خليل بك مطران في مقدمتهِ النفيسة الى اسلوب الشيخ الكريم فقال :

« ها هنا يمرّ المطالع بقلائد وفرائد من خطب وفصول في الأدب لا يحرج يتيمها ، ولا يحكم صوغها وتنظيمها الاَّ قلم البشري ولسان البشري تحركهما نفس كبيرة الهم بعيدة المرامي، قلقة في مهابّ الاهواء ومثارات المنازع ، فيّاضة بحب مصر ، وايثار العربية الفصحى لها لغة ، تتجنب التحقيقات العلمية ، والتعاريف المنطقية ، وان تبتغي الاَّ اقتناع المتأدبين من طريق الباعث الغريزي فيهم ، ومن طريق اخبارهم بما يجري عند الامم الغربية الراقية من مثل ماعندهم ، بأن البيان يجب أصلاً ان يكون عربيًّا سليماً في اللفظ والاسلوب والاصطلاح ، وأن يتكيَّف مع سلامته ومراعاته لتلك الأصول فينطبع بطابع الفطرة المصرية التي لها ما تتخيره خاصة من تلك اللغة وتلك الأصول . فإذا أحيط البيان بهذا النطاق وصين من تسرب العُجمة اليه ، فلا مانع يمنع من كل ابتكار وتجديد ، على ألاَّ يعدو حدوده ولا يمسّ الخصيصة القومية في جوهرها »

المقدس

تأليف نقولا الحداد — صفحاته ٢٩٢ — ثمنه ١٥ قرشاً

سفر عجيب ، لا هو بالرواية ، ولا هو بالتاريخ ، ولا هو برسالة في الاجتماع والاخلاق ، بل هو مزيج منها جميعاً، فيهِ علم، وفيهِ فلسفة، وفيهِ تحليل اجتماعي واقتصادي لمشكلات المدنية الحاضرة ومزايا المدنية المقبلة وهو الى ذلك مرسل في قالب القصة. تقرأهُ فيذكرك بما طالعتهُ لولز من بدائع الخيال العلمي والاجتماعي ، ولكنهُ ليس ولز . وتنساق مع النضال الاجتماعي فيهِ ، تمجيداً للمبادىء الاشتراكية المثلى، فتتذكر الكتاب الذي ظهر من شهر فقط في اميركا لسنكلير لوِس حائز جائزة نوبل

الادبية ، وقد تصوَّر فيهِ انقلاباً فاشستيًّا في نظام الحكم في اميركا ، ولكن عنوانهُ دليل على رأي المؤلف الخاص اذ جعلهُ « لا يمكن ان يقع هنا »

وهذا الضرب من الكتابة قد يبدو سهلاً لمن لم يتعمق في فهم مقتضياتهِ ، اذ قد يُظَنّ ان سحر الخيال فيهِ قد يغني عن ذهب الحقيقة . والواقع ان معاناة هذا النوع من الكتابة يحتاج في المقام الاول الى المام دقيق باتجاهات العلوم الطبيعية والاجتماعية الحديثة ، ومقدرة على التفلسف فيها — لا يمكن ان تنشأ الاَّ من الفهم الصحيح — لاستنباط ما قد يكون محتملاً ، في المستقبل القريب او البعيد . ثم براعة في سياق هذه الآراء في قالب يستهوي القارىء ، فلا يميل عنهُ كما يميل في الغالب عن كتب العلم والاقتصاد والاجتماع ، بالغة مقدرة اصحابها على البسط ما بلغت

وليس كلُّ هذا بمستغرب من المؤلف ، وله روايات تعدُّ بالعشرات ، ومؤلفات في الاجتماع والاقتصاد ورسائل في العلم ، تدلّ جميعها على ذهن خصب ، وحياة قضاها صاحبها في التحصيل والتأمل ، وهذا الكتاب هو الاول من سلسلة، تندمج فيها جميع هذه العناصر على هذا النحو البديع

الاسلام الصحيح

بحث وتحقيق — الفه الاستاذ محمد اسعاف النشاشيبي — مطبعة العرب بالقدس سنة ١٣٥٤

الاستاذ النشاشيبي من افذاذ العربية ، والمتحققين بعلومها ، والمتثبتين في نقولها ، والمصححين في تأويل كلامها وقد طفق من زمن يجمع لكتابه (الاسلام الصحيح) ، كثيراً من النصوص المنتشرة في الكتب على غير نظام فألَّف بينها وابان عن معانيها ، وردّ مختلفها الى الائتلاف وصحح ما وقع من الخطأ في تأويلها ، واقام النهج على ما يرى من صحيح عقيدته

وكان الذي حفز الاستاذ الى كتابه هذا جهل كثير من الناس بأصول الاسلام وتقصيرهم في دراستهِ وقد روى في اول كتابه انهُ وهو بمصر كان في زيارة صديق ، وعنده جماعة من فضلاء المحامين والمدرسين وافضى بهم القول الى ذكر ما كان بين الامامين (ابن سعود والامام يحيى) ، وذكروا بعد في مجالسهم مذهب الزيدية والوهابية فخلطوا في امرها وزعموهما من الاسماعيلية ثم يقول المؤلف :

«وقد رأينا ان ندفع ملتبساً ، ونزيل اشكالاً ونجلّي حقًّا ، بان نروي قولاً للشوكانيّ في الوهابية، فيهِ انصاف مجتزئين بهِ ، ونملي فصلاً مقتضباً في الزيدية وامامها ، ليعرف ما في نجدٍ واليمن جاهله ، ثم نجيء بأقوال في الامامة الاسلامية متبعيها بحثاً موجزاً عن آل البيت الذين ذكرهم الله في كتابه الكريم»

وقد توسع المؤلف في بحثهِ الاخير عن اهل البيت رضوان الله عليهم ، وجمع نصوصاً كثيرة فيما يتعلق بهم ، وباحكام الشرع لهم فيما يرون، وابان ان الاسلام لم يأت بعصبية قبيلية او عزوة جاهلية بل جاء تسوية بين الناس ، يستوي على سبيله العالم والجاهل والامام والمأموم والشريف والمشروف والكبير والصغير وانما اكرمهم عند الله اتقاهم ولا فضل لعربي على عجميّ الاَّ بالتقوى . ولا شك ان الاستاذ النشاشيبي قد بلغ فيهِ ما اراد من الدقة والتحقيق وحسن العرض

وزارة الزراعة الفنية ومباحثها

كتاب الزراعة السنوي لسنة ١٩٣٣

اطلعت على كتاب الزراعة السنوي لسنة ١٩٣٣ الذي اظهرته وزارة الزراعة منذ اسابيع فاحسنت صنعاً اذ سهلت لمحبي الاطلاع الوقوف على بعض نتائج ابحاث فنييها وتجاربهم المتنوعة والاستفادة منها

وقد افتتح الاستاذ جلال بك فهيم وكيل الوزارة (السابق) — وهو من اخص كبرائنا وزراعنا الذين يعملون بتفوق وهدوء — الكتاب بمقدمة جامعة بعبارة وجيزة لاهم المسائل التي قامت ولا تزال تقوم بها الوزارة لترقية الزراعة ووسائلها يتخلل ذلك اشارات دقيقة وآراء مفيدة منها قوله (صفحة ع)

« وليست هنالك مناطق معينة تغل محصولاً اكثر وفرة من غيرها بدرجة محسوسة . والحقول الجيدة منتشرة في كل مكان وتكاد لا تخلو قرية من وجود حقل او اكثر هي في الواقع حقول نموذجية بلغ فيها الانتاج اقصى ما يمكن التفكير فيه . وكان المنتظر ان يقتدي عامة الزراع بما اتبع فيها وأن يترسموا خطواتها في الخدمة وطرق الزراعة والري والتسميد وما الى ذلك » — الى ان يقول — « ولا تدخر الوزارة جهداً في اذاعة المعلومات الصحيحة رجاء كثرة عدد الزراع الذين يلبون نداءها ويأخذون بنصحها . ولا يخفى ان هنالك من العوامل المضادة ما لا تقوى الوزارة على تخطيه بسهولة . وكلما زادت الثقافة بين الزراع وانتشر التعليم اثمرت النصائح ولا شك عندي في ان مجهود الوزارة في دراسة كثير من المسائل الزراعية قد جاوز مستوى الثقافة العامة الذي بلغه عامة الزراع والى هذا يرجع السبب في عدم الوصول الى الحد الذي نتمناه جميعاً »

لذلك كنت وما زلت أقول انهُ يمكن الاستغناء عن الغيطان النموذجية وتوفير الكلفة والمجهود اللذين تبذلها الوزارة فيها الى ما هو الزم وانفع وانهُ لترقية الزراعة لا بد من تعليم الفلاح — راجع مقتطف يوليو سنة ١٩٣٢ ص ٢٣٣ ما كتبتهُ عن غيطان النماذج وص ٢٣٥ ما كتبته عن حالة الفلاح

ومن الحقائق والفوائد العملية التي اهتدى اليها قسم تربية النباتات وتهم جمهور الفلاحين : —

اولاً — الطريقة المعروفة بطريقة الزراعة الرملية للقطن (ص ٢٠ — ٢٣) غير اني احسب ان هنالك مبالغة في تصوير فوائدها

ثانياً — عدم فائدة تطويش شجيرات القطن — ص ٤٩ — خلافاً لما كان يقوله البعض عن فائدتها للمحصول

ثالثاً — فائدة التبكير بمحاياة القطن باجرائه بعد ثلاثة اسابيع من زرعهِ لا ضعف ذلك واكثر كما كان يتبعه البعض (ص ٥٠) ولكني ارى انهُ يحسن دراسة هذا الموضوع — موضوع وقت المحاياة — من جهة علاقته بتكاثر دودة القطن اذ ربما يكون تأخير المحاياة وعزق القطن مرتين قبلها

وما يقتضيه ذلك من تجفيف الارض وابادة الحشائش مفيداً في تقليل تناسل هذه الدودة ومنع تكاثرها اكثر من فائدة التبكير بها خصوصاً في الارض المحشة (الكثيرة الحشائش) وبالاخص في الجهات البحرية لا سيما اذا زرع القطن زراعة بدرية حيث الجو قليل الحرارة

(رابعاً) فائدة تعقير القطن (ص ٥٢)

واحسب ان ما ورد في ص ٥٠ عن المسافات بين شجيرات القطن (ان يكون التخطيط ١١ خطًّا في كل قصبتين و ٣٠ سم بين الجورة والجورة) خاص بالجهات الجنوبية وما شابهها حيث الارض فائقة الخصوبة لانا نعرف بالاختبار انه في الجهات البحرية حيث الارض اقل خصباً يفضل ان يكون التخطيط ١٢ خطا او اكثر قليلاً بدلاً من ١١

واحسب ايضاً ان بعض ما ذكر عن نتائج الزراعة البكيرة للقطن (ص ٥١) ينطبق على الجهات الجنوبية خاصة اما في البراري فان الزراعة الى ٢٠ مارس تعد زراعة بكيرة

***

اما بحث النظام الجذري في القطن وعلاقته بتفريع شجيراتهِ فمن البحوث الجديدة العظيمة الفائدة التي يجدر بكل زارع مستنير معرفتها وكذلك ما ذكر في بحث مستوى الماء الارضي وان كان بعضهما يحتاج الى زيادة بيان

هذا ما خطر لي وأنا اقرأ بحوث قسم تربية النبات من الكتاب قراءة مستفيد يقدر جهود رجالنا الفنيين حق قدرها

وقد اعود الى باقي اقسام هذا الكتاب النفيس احمد الالفي

« هجاء »

بحث للدكتور بشر فارس — في ملحق دائرة المعارف الاسلامية

في العدد الاخير من ملحق دائرة المعارف الاسلامية بحث نفيس باللغة الفرنسية في « الهجاء » للدكتور بشر فارس . والبحث تاريخي اجتماعي دقيق ، يتناول مقام الهجاء في الشعر العربي ويردُّه الى اصولهِ الاجتماعية مما لهُ صلة بالعرض عند العرب ، وهو موضوع الرسالة النفيسة التي احرز بها الدكتور بشر رتبة الدكتوراه العلمية من السوربون. وقد كتبنا اليهِ راجين ان يتحف المقتطف بترجمة هذا الفصل ، اذا سمحت بذلك دائرة المعارف الاسلامية واتسع لها وقته

وبعد فاننا يسرنا ان يحرز احد شباننا المتفوقين المولعين بالعلوم الشرقية هذا المقام في دوائر الاستشراق الاوربي ، فيعهد اليهِ في كتابة فصول في دائرة المعارف الاسلامية ، ويضاعف سرورنا ان المؤلف من نوابغ الكتّاب الذين يتحفون المقتطف بآثارهم النفيسة

١ — السهام

نظم الياس قنصل — ٨٧ صفحة حجم متوسط — طبع بالمطبعة السورية في عاصمة الارجنتين

« ان من تقيدت بلاده بالسلسلة والغل ليس حرًّا وهو بعض منها ، ومن لم يكن حرًّا فلن تتفتق نفسه عن شعر حر ، فسعينا لاستقلال بلادنا سعيٌ لحرية شعرنا ايضاً » . . . ذلك ما يقوله الشاعر الياس قنصل ناظم هذا الديوان الذي يضم مجموعة من شعره الوطني ، وان هذا الاحساس ليخالج نفس كل شرقي ، والشرق في حاجة الى هذا النوع من الشعر ليوقد فيه الجذوة الخابية وليثير في نفوس ابنائه الإباء والعزة ويشعرهم بما لهم من حقوق وما عليهم من تبعات نحوها . وليس احد أجدر من شعراء العاطفة بالنفخ في بوق الحرية ، ولذا رأينا الشاعر القروي يفلت من جو الهدوء مودعاً قيثاره الحنون الى جوٍ صاخب مصطحباً فيه بوقاً عالي الصوت قوي التأثير ، فأخرج ديوانه الاعاصير . واليوم نرى الياس قنصل يترك قيثارته العذبة وأنغامه الهادئة الشجية ليزأر ويصول ويثير النفوس ، ولهذا أقرأ الآن ديوانه « السهام » معجباً بهذا الروح الذي يجب أن يسود في هذه الايام التي تلوح للشرق بفرص ذهبية قد لا تعوَّض . . .

وفي هذا الديوان مقطوعات بلغت من الاجادة في السبك والروح الشعرية مبلغاً طيباً كقصيدته « آمال تتجدد » التي رثى فيها الملك فيصل ، و« رسالة المهجر الى الوطن » وقصيدتهُ الى سلطان الاطرش وقصيدتهُ « معاذ الله ! » وغيرها من القصائد الاخرى التي يزخر بها هذا الديوان . على اني احسُّ ان روح الشاعر قد فترت حماستها في آخر قصيدة « معاذ الله ! » فانقلب وصَّافاً يرسم دمشق بريشته الاولى ويتشوَّق اليها فتحس الصلة منقطعة بين الابيات الموجودة بالصفحة ٤٥ وبين ما سبقها في هذه القصيدة

فنتمنى ان تكون هذه السهام مصيبة الهدف الذي وجهها اليهِ وان تكون باكورة جهاد ففوز

٢ — ديوان الاسكندرية

أخرجه وكتب مقدمته علي محمد البحراوي — نشرته جماعة نشر الثقافة في ٢٠٨ صفحة من الحجم الصغير — طبع مطبعة المستقبل بالاسكندرية

ليس من ينكر ان في الاسكندرية حركة فكرية طيبة تعمل في سكون وهدوء . وكل من اتيحت له زيارة هذا الثغر الباسم في جلوتهِ الصيفية أدرك أثر هذه الحركة ولمسها باليد غيران العامل القويّ الذي يجلل هذه الحركة بالسكون ويجعلها تتشح بثوب الصمت هو ما اشار اليهِ الاستاذ البحراوي في مقدمتهِ الرائعة وهو عدم توطد الحياة الصحفية في الاسكندرية ، والصحف هي التي تحتضن النهضات الادبية وتتعهدها بالنمو والازدهار ، ولذلك فان حركة النشر تضعف تبعاً لذلك وتأخذ سبيلها الى العزلة

ولقد أدى الاستاذ البحراوي الى الادب العصري أجلّ خدمة بإخراج هذه المجموعة من منظوم شعراء ذلك الثغر على اختلاف مناهجهم ، والكثير منهم ليس بالمجهول ، فلقد ضمت هذه المجموعة شعراء معروفين كالاساتذة خليل شيبوب وعبد الرحمن شكري وعبد اللطيف النشار وابراهيم زكي وعثمان حلمي وغيرهم ، وضمت الى جانب ذلك زهرات غضة من آدابهم

على أن الذي ألاحظه ويلاحظه الكثيرون هو خلوّ الديوان من صور للاسكندرية في أجمل أوقاتها حيث تتجلى آية من الفن جمالاً وفتنةً وسحراً وشعراً حيًّا وثّاباً ، ولعلّ أعباء الحياة ومشاغلها هي التي تشغلهم عن التمتع بهذه الفرصة التي ينتهزها أخوانهم القاهريون ويعودون منها محمَّلين بأبدع وحي وأجمل ذكرى . نتمنى ان يكون حظ الجزء الثاني من هذا الديوان في مرتبة الجزء الأول قوة وإبداعاً حسن كامل الصيرفي

القاهرة

الجزء الثاني — تأليف الملازم الاول — عبد الرحمن زكي صفحاته ٢٠٢ — كثير الصور والرسوم — ثمنه ١٠ قروش

قدمنا الى قراء المقتطف في السنة الماضية الجزء الاول من هذا الكتاب التاريخي الأثري النفيس مغتبطين ان نرى بين ضباطنا الشبان من يُعنى بانفاق فراغه في الاشتغال بالمسائل العقلية بوجه عام وبناحية من تاريخنا القومي بوجه خاص . ولعلّ خير ما نسوقه الى القراء في تعريف الجزء الثاني من هذا الكتاب ، كلمة كتبها العالم بالآثار الاسلامية الدكتور زكي محمد حسن . قال :

ظهر الجزء الاول من هذا الكتاب في العام الماضي فكنت من اشد الناس اغتباطاً به وابتهاجاً بظهوره ولا غرو فقد سد في عالم التأليف العربي فراغاً كبيراً اذ كان من العار ان لا يوجد في اللغة العربية كتاب بل كتب حديثة عن عاصمة الديار المصرية وان نطرق ابواب الاجانب نستهديهم ما نحتاج اليه في دراسة تاريخها وآثارها

ويسرني اليوم ان اقدم الى القراء الجزء الثاني من كتاب القاهرة وأنا حريص الحرص كله على ان افي المؤلف حقه من المدح والثناء ليس فقط لانه احسن القيام بما اخذه على عاتقه فأفلحت محاولته ولم يضع جهده عبثاً بل لأني كنت اخشى ان يقعده عن اتمام هذا الجزء ما يحسه ويشعر به هو وغيره من المؤلفين في مصر من قصور في تشجيعهم وتقدير ما يبذلونه من جهود كبيرة ولا سيما حين ينهضون بعبء الكتابة في موضوعات لم يسبقهم كثيرون الى البحث فيها ولا تنعم دراستها الاّ بيئات خاصة بينما يقابلها سواد الناس بشيء من الوجوم والاستخفاف

وليس هذا الجزء من كتاب القاهرة بأقل طلاوة من الجزء الذي سبقه فمنهاج البحث فيهما واحد والعصر الذي يعرض لنا المؤلف صورته هنا ليس أقل شأناً من العصور التي سبقته بل ان

في هذه الصورة ما يبعث على تفكير أكثر لتعميق حقائقها وتعرف ما وراءها

وفي الواقع ان انحلال دولة المماليك وتفككها بينا كانت الدولة العثمانية تسير بخطى واسعة الى التوطد والنماء جعل مصر فريسة هينة لها وكان استيلاء العثمانيين على وادي النيل وانتزاعهم الخلافة الاسلامية ايذاناً بانتهاء مرحلة العصور الوسطى في مصر وابتداء العصور الحديثة بما فيهامن علاقات سياسية متصلة بالامبراطورية العثمانية والعالم الاوربي

وقد وفّق المؤلف كل التوفيق في شرح الحوادث التاريخية التي مرّت بمدينة القاهرة منذ استولى عليها السلطان سليم حتى أشرق نجم محمد علي باشا الكبير فنجح في وضع الحجر الأساسي لاستقلال مصر الحديث . وجاء خلفاؤه من بعده فعملوا على تدعيم هذا الاستقلال . وعرض المؤلف في هذا الجزء صورة بديعة للقاهرة ولتطور فن العمارة فيها وما أصابه وبقية الفنون من تمضيد أو غيره على يد الذين استولوا على أزمة الحكم في وادي النيل

وربَّ معجب بطريقة المؤلف لم يكن ذلك الاعجاب ليمنعهُ من مناقشته في امور قليلة ليكون كتابه اقرب ما كتب عن القاهرة الى الاتقان والكمال ولكن علينا ان نذكر ان الملازم الاول عبدالرحمن زكي عمل على ان يلائم بين كتابه وبين عقول سواد القراء وأخذ على عاتقه ان يلتزم الايجاز وان يترك التحليل والدقة والاستقصاء الى المفصّل من كتب التاريخ والفنون والآثار . ومهما يكن من شيء فان رجاءه على هذا الكتاب انما هو تمهيد السبيل ليستطيع غيره أن يصل الى حيث لم يصل فعسى أن يحرص القراء على الانتفاع بما كتب وأن يبعث ذلك فيهم روح التزيد من البحث والانعام في دراسة كتب الفنون والآثار

المدرسة المستنصرية

هذه هي الرسالة الأولى من رسائل (نادي المثنى) ببغداد ، وهي تكشفُ عن الهمّة التي يقومُ بها اعضاء النادي في خدمة العربيّة ، وإنقاذ مخلّفات مجدها من الضياع . وقد قدموا هذه الرسالة بعد سعيٍ عند دار الآثار العراقية في المحافظة على هذه المدرسة ، والتفاهم معهم على ترميمها وإصلاحها . وباني هذه المدرسة هو المستنصرُ بالله أمير المؤمنين ولي الأمر سنة ٦٢٣ هو يعدُّه كثير من المؤرخين من أعلى خلفاء بني العباس كعباً في خدمة الدولة ، وإقامة السلطان ، وبذل النصفة بين الناس بالعدل ، وردّ الناس الى شريعتهم من الدين ، وكان هو هازم التتر ورادّهم على أعقابهم حين قصدوا اول مرّة العراق ، ولم تزل التتر في كربٍ منهُ ومن اخيه الخفاجيّ ، ولم يظفروا في مدة ولايته بشيءٍ وتوفي المستنصر بكرة الجمعة ١٠ جمادى الآخرة سنة ٦٤٠ ه ودفن في الدار المثمنة بدار الخلافة على شاطىء دجلة ، ثم نقل بعد الى مدفنٍ كان أعدّه لنفسه . وذهب الخليفة وبقيت مدرسته التي بناها موئلاً للعلم والدين ، ومناراً يهتدي بهِ المسلمون ويأوي اليهِ الأئمة ، وأثراً جميلاً من اروع الآثار الاسلامية ، وأدقها نظاماً ونقوشاً وفي هذه الرسالة صفة هذه المدرسة الجميلة

لباب الآداب

تأليف الامير اسامة بن منقذ — طبع بتحقيق الشيخ احمد محمد شاكر — مكتبة لويس سركيس بالفجالة

هذا الكتاب من تأليف الامير النبيل والفارس المغوار والشاعر الاديب والرحالة الصياد اسامة ابن منقذ (١٠٩٥—١١٨٨ م) الذي نشأ وترعرع في قلعته المنيفة شيزر على العاصي في شمال سورية، وقضى سني حياته الحافلة متنقلاً بين دمشق والقاهرة والموصل وسائر الحواضر الاسلامية، يجاهد ضد الافرنج الصليبيين، ويكافح الاسود الضواري، ويعاشر زنكي ويصطاد مع نور الدين ويصاحب الخليفة الفاطمي ويتعرَّف بزعماء الافرنج وينظم الشعر ويؤلف الكتب. فحياة اسامة تمثل الفروسية العربية على ما ازدهرت في ربوع الشام والتي بلغت قمة ازدهارها في صديقه وظهيره صلاح الدين. فالكتب التي الفها اسامة نافذة تشرف منها على المدنية العربية السورية بحد ذاتها وبالمقابلة مع المدنية الافرنجية

ومن خير الكتب التي صنفها هذا الامير الاديب، كتاب «لباب الآداب». وهو «من اجود كتب الادب واحسنها، فقارئهُ يتنقل فيهِ من روض الى روض، فيجتني ازاهير الحكمة وروائع الادب ويقتبس مكارم الاخلاق. وفيهِ ميزة اخرى جليلة. ذلك ان فيهِ اقوالاً من نثر ونظم لم نجدها في كتاب غيره من الكتب المطبوعة. فقد وجدنا ابياتاً لعامر بن الطفيل لم تذكر في ديوانهِ المطبوع في اوربا مع أن المستشرق الذي طبعهُ جمع فيهِ كل ما وجد لعامر في الكتب الاخرى. ووجدنا ابياتاً لمالك ابن حريم الهمداني لم نجدها في غيره من الكتب وكذلك لابن المعتز ولابي العلاء المعري ولغيرهم» (فاتحة المحقق صفحة ٦)

وكان المرحوم الدكتور صرُّوف يملك النسخة الاصلية من هذا الكتاب الفذّ. وهي نسخة المؤلف الخاصة، اي نسخة أسامة نفسهِ كتبت في حياتهِ ثم أهداها الى ابنهِ مرهف بن أسامة

وقد أهدى الدكتور صرُّوف نسخة فوتوغرافية من هذا الكتاب الى دار الكتب المصرية. وعلى أساسها شرعت مكتبة لويس سركيس في طبعهِ، بعد ان عهدت الى الشيخ احمد محمد شاكر في تحقيق الكلام ووضع الفهارس، ولكنهُ ما كاد ينتهي من طبع ثلث الكتاب حتى دلَّهُ الشيخ محمد عبد الرسول على نسخة اخرى من الكتاب وكانت مذكورة في الفهرس القديم في باب علم التصوُّف. فاستعان بها في التصحيح. ويقول المحقق في هذه النسخة الثانية انها غير جيدة وفيها تحريف كثير ولكنها على كل حال أعانتهُ في غير موقع على التثبت مما غمض عليهِ في ألواح النسخة الصرُّوفية، مستعيناً بشقيقهِ محمود وبالشيخ محمد حامد الفقي

فلباب الآداب كما أخرجهُ الشيخ احمد محمد شاكر، مخدوم بتحقيق قلما يتاح لكتاب قديم، وبفهارس خمسة لابواب الكتاب وأعلامهِ وأماكنهِ وأيام العرب وقوافي الشعر

والحق أنهُ تحفة من تحف الادب العربي الجيد، ولا نخالنا الاَّ مفيدين منهُ الادبين أدب النفس وأدب البيان اذا اكببنا على مطالعتهِ

كتاب الزراعة العملية الحديثة

تأليف الامير مصطفى الشهابي عضو في المجمع العلمي العربي ومدير وزارة الزراعة والتجارة بدمشق ومهندس زراعي (غرينيون) طبعة ثانية في ٥٠٠ صفحة ونيف تحتوي على ١٣٩ شكلا

موضوع الكتاب . يبحث هذا الكتاب الغزير الفائدة في تكون الاتربة الزراعية وتركيبها وخصائصها والاقاليم الزراعية السورية ونبذة في علم حياة النبات والاعمال الزراعية العامة والاسقاء وصرف المياه الزائدة والمصلحات والاسمدة ويصحبها بحث في جولوجية الشام الزراعية والدورة الزراعية وتعاقب الزروع . وهذه الابحاث كلها يطلقون عليها اسم الزراعة العامة . اما الابحاث التي يسمونها الزراعة الخاصة فقد تناول المؤلف منها زراعة اهم النباتات في ديار الشام منها ، اولاً الحبوب على انواعها كالحنطة والشعير والذرة والرز . ثانياً القرنيات كالفاصوليا والبسلّى والعدس والفول . ثالثاً نباتات الكلأ والمروج كالبرسيم والفصفصة (القث او البرسيم الحجازي) . رابعاً النباتات العسقولية (الدرنية) كالبطاطس والبنجر او الشوندر واللفت . خامساً النباتات الصناعية المختلفة كالقطن والقنب والكتان والسمسم والخروع والحناء الخ . سادساً النباتات المختلفة كالتبغ وقصب السكر والكمون والسماق وغيرها . وقد اسهب الامير في كل ما لهُ علاقة ماسة بزراعة الديار الشامية كالحنطة والتبغ والسمسم والقنّب والقطن الذي يزرع على المطر واوجز في النباتات الاخرى . وجميع الابحاث نتيجة دروسه الخاصة مدة عشرين سنة في المخابر او المزارع . ومما لم يسبقه اليهِ احد في الابحاث العلمية تحلية اصناف النباتات ورصد الجويات ١٨ سنة متتابعة وغير ذلك مما يجعل للكتاب قيمة علمية عملية ليست في غيره من الكتب الزراعية في ديار الشام خاصة

لغة الكتاب . اما لغة الكتاب فلا يختلف اثنان في ان الامير هو علاَّمة العربية الاوحد في المصطلحات الزراعية وانهُ فيها نسيج وحده لذلك جاءت هذه الطبعة في لغة ما كتبت الزراعة بأصلح منها منذ صدر الاسلام . ومن المصطلحات التي لفتت نظرنا اسماء الآلات الزراعية والاسماء التي وضعها [1] لنباتات الكلأ المختلفة واسماء بعض اعراض الزروع

منها الضجعان او الفَمَل لما يسمى بالفرنسية Verse وتسمية الترقيداي ميل سوق الحنطة نحو الارض لقلة صلابتها . والبَشَق والرَّصَع لمرض اختناق جذور الحنطة . والشَّقِران لمرض الصدإ وهو بالفرنسية Rocille والسُّواد للمرض المسمى Charbon الخ الخ ومن الامثلة التي تدل على علو لغة الكتاب هذا المثال الصغير عن اصناف الفاصولياء قال (صفحة ٣٠٤)

« الفاصولياء العريضة . — سوقها متسلقة واوراقها كبار غلاظ خشنة وقرونها طوال عراض وبذورها بيض كبار مفلطحات . وهذا الصنف من اكثر الاصناف شيوعاً بدمشق »

ولم يأنف الامير من استعمال كلمة كيميائي نسبة الى كيمياء وقد ذكر لي انهُ راجع في ذلك شرح الشافي للرضي فثبت له اثبات الهمزة في مثل كيميائي بلا ادنى ريب

(١) انظر مقالا في هذا الجزء من المقتطف ص ٥٨٧

ومما اذكره ان استاذنا الدكتور صرّوف رحمهُ الله عند ما أُهديت اليهِ نسخة من طبعة هـذا الكتاب الاولى ذكر في المقتطف ان هذا الكتاب هو كتاب السنة . ولا ريب في انهُ لو اطلع على هذه الطبعة بعد ان سمت لغتها ونقحت ابحاثها وحوت اجود المصطلحات الزراعية لما تردد بان يجعلها «كتاب السنة» في يومنا هذا . فعسى ان يتحفنا الامير بكتب كثيرة من المؤلفات المفيدة

مصر الجديدة امين المعلوف

قصص جغرافية للاطفال

الجزءان الاول والثاني : لفنجستون وستانلي — لكامل كيلاني — نشرته المطبعة العصرية

لم نكد ننتهي من كتابة الكلمة التي نشرت في مقتطف اكتوبر الماضي عن جزئي كتاب القصص العلمية ، حتى انتهى إلينا جزءان آخران من كتاب جديد ، هو كتاب القصص الجغرافية ، إلا أننا لم نر في ذلك مفاجأة تستجلب الدهشة ، فقد ألفنا من المؤلف — كامل كيلاني — خصلتين : السرعة ، والتتابع فيها ، وقد يقاسمه الاولى كثيرون من المؤلفين ، أما الثانية فليس لها الاَّ امثال هذا المؤلف الجادّ ، وهم قليلون

وقد لاحظنا أن كتاب القصص العلمية كان من اخراج مطبعة المعارف ، أما كتاب القصص الجغرافية فأخرجته المطبعة العصرية ، فلعلَّ الاستاذ كاملاً يجد ان داراً واحدة من دور النشر يفوتها لحاقه ، ويتعذر عليها اسعافه ، فوزع مؤلفاته على دور شتى ، لكي تتمكن من مسايرتها له . او يعمل بقول يعقوب « يابني : لا تدخلوا من باب واحد ، وادخلوا من أبواب متفرقة » فهو ملتمس بذلك تعويذ مؤلفاته — حفظها الله — من العين ! . . . .

اشتمل هذان الجزءان من كتاب القصص الجغرافية على ترجمة حياة لفنجستون وستانلي يتخللها مجموعة من الاساطير الطريفة . وطريقة المؤلف في كتابه ان يعقد حواراً بين رجل وأبنائه ينتهي بالموافقة على سماع قصة الكشاف ، فاذا سُمِع فصل منها ، انعقد الحوار مرة ثانية ، ووفق فيهِ على سماع اسطورة ، فإذا انتهت تلك عاد الحوار مرة اخرى ، ثم سُمِع من القصة فصل آخر . وعلى هذا المنوال نُسِجت فصول القصة كلها فجاءت الأساطير بمثابة الوشي والتطريز لهذا النسج الجميل

والحق ان ذلك المساق يضمن للاطفال دوام النشاط والانتباه في القراءة ، ومن البداءة ان نشاط الطفل وانتباهه امر ضروري يتوقف عليهِ استفادته مما بين يديهِ من الكتب . وإن إجادة المكاتب للاطفال لتختلف باختلاف ما في كتابته من التحبيل لذهن الطفل الغضّ الذي تضره الشدة والصرامة ، وملاينة فكره المُدلَّل الذي يمنعهُ العنف ان يتأثر بما يقرأ

والكتاب في شكله فتنة أخَّاذة ، فقد بُذلت في صورهِ الموفورة عناية تشهد ببراعة الذوق ، وقد طبعت فيهِ المحاورات والاساطير بحروف حجمها غير حجم الحروف التي طبعت بها فصول القصة الجغرافية ، فاكتسب الكتاب بذلك رونقاً وطرافة تأخذ العين ، ثم تمعن في اخذها ! ***

يوبيل مجلة العرفان

لا يخفى على احد ما تقدمهُ الصحافة الرصينة للأمة من الفوائد فهي مرآة للروح القومية من شعور عام ومبادىء وأدب وهي مرقاة لليقظة الفكرية والنشاط الأدبي والوطني معاً . وقد اجمعت الشعوب على ان الصحافة هي عنوان رقي الامم . والصحافة ولا سيما الادبية والعلمية تواجه في الشرق عقاباً شتى أدبية ومادية تكاد تقضي عليها لولا جهود منشئيها الجبارة ولولا لذة الثبات في العمل

وفي طليعة صحفنا الأدبية مجلة « العرفان » تتبارى مع أرقى المجلات العربية مادة واسلوباً . فقد ثبتت في طريق كلها اشواك ومتاعب . ومتى عرفنا ان عشرات من الجرائد والمجلات في سورية ولبنان قد توارت في هذا الزحام الشديد اتضح مقدار الجهود الخطيرة التي يبذلها صاحب العرفان الكريم الشيخ احمد عارف الزين لحفظ كيان مجلته في هذا المعترك الادبي وهذا التنازع المستديم . والخدمات الادبية التي ادتها هذه المجلة العزيزة عديدة واسعة النطاق نكتفي ان نحصرها في نقاط ثلاثة :

فهي اولاً (مجلة جبل عامل) هذا الجبل الأشم صاحب التاريخ المجيد في السياسة والأدب والذي يحق له أن يدعى « برناس » لبنان حيث يولد الشعر الفطري مع كل فرد من ابنائه . فطالما افسحت هذه المجلة صدرها لنفحات أدبائه الذين قلما يتسنى لهم ان يتصلوا بصحف أُخرى لنشر ما تجود به قرائحهم . وقد كان لها فضل كبير في انارة الرأي العام وتوسيع نطاق التفكير وبث روح النهضة في منطقة مهملة في كثير من حقوقها . ولا ننسى فضل مطبعتها في نشر مئات من المؤلفات التي لا يتمكن اصحابها من طبعها لولا تساهل صاحب العرفان ومؤازرته الفعالة لهم

ثانياً — هي مجلة (الشيعة الكبرى) في جميع انحاء العالم في العراق كما في سوريا ولبنان وهذه الميزة تكفي لان تحفظ لها الاحترام والمرتبة التي هي اهل لها . فهي أداة تعارف بين الأوساط الشيعية من أُدباء وعلماء على اختلاف بلدانهم . وحسبها فخراً انها اول صحيفة عرفتنا بادباء العراق المجددين امثال الشبيبي والشرقي والجواهري وغيرهم من كبار ادبائهم وقد دعاها ادباء العراق « مجلة العراقيين » فلا عجب إذ رأينا كرام هذه الطائفة العزيزة في مختلف الاقطار مستعدين لتكريم العرفان

ثالثاً هي (مجلة العرب) فإن المجلات العربية محصورة في الغالب في القطر الذي تصدر فيه ماعدا مجلتي « المقتطف » و« الهلال » وهما في نظر المفكرين نواة وحدة الثقافة والآداب في العالم العربي وعلى هذا فإنا نرى ان « العرفان » المنتشرة ايضاً في كل قطر عربي وفي المهجر لها مع « الهلال » و« المقتطف » نصيب وافر في تكوين عناصر هذه الوحدة الأدبية المنشودة . ولا بدع إذاً إذاً رأينا انصار هذه المجلة في جميع الاقطار على أتم الاستعداد للاشتراك في الاحتفال « بيوبيلها الفضي » ومؤازرتها مادياً وأدبياً . وقد ترامى الينا انه فضلاً عن الحفلة الأدبية الكبرى التي ستقام لها في صيدا في الربيع القادم والتي سيشترك فيها أمراء البيان في الأدب العربي سيقام لها ثلاث حفلات في نيويورك والأرجنتين والعراق . وسوف يعين تاريخ موعد الحفلة في هذين الشهرين وستوضع الحفلة تحت رعاية الحكومة المحلية التي تقدر قدر الادب وذويه

« ملخص من بيان لجنة الاحتفال »

باب الأخبار العلمية

العين وطول العمر

مدى الحياة تعينه الوراثة

مباحث عالم الماني

لماذا يتقلص الجلد وينكمش ويضعف البصر ويسقط الشعر وتبطيء الخطى ويخف السمع ويشيخ الجسم بوجه عام ؟

وهل الشيوخة داء ؟

قبل ان يرتقي الطب فيحسب في عداد العلوم كانت هذه الاسئلة تقلق البال وتحمل على التفكير والبحث . فجعل كيماويو العصور المتوسطة همهم البحث عن اكسير الحياة وينبوع الشباب

وقد تضحك الآن من المعتقدات التي كانت تسيطر على عقول الناس حينئذٍ لاننا نظن ان بعض المعارف العلمية قد حررتنا من نيرها ولكننا مع ذلك لا نزال كما كانوا يقلقنا كل ما يتعلق بالهرم والشيخوخة ولا نزال نعنى بالبحث عن اسبابهما ووسائل اتقائهما

هل يضعف الجسم ويسير الى القبر لان الوسط الذي نعيش فيهِ يقوى عليهِ — يقوى بجراثيمه المنوعة واختلاف حرارته وبرده ورطوبتهِ ؟ واذا كنا نفسر الموت بانحطاط الجسم وحؤوله ، فكيف نفسر تعمير اقطاب من امثال غلادستون وبسمارك وكيف نعلل ايضاً وفاة عبقري كموزار فيما يكاد يكون في شرخ الشباب ؟

هذه خواطر تخطر للباحث بعد اطلاعه على مقال للعلامة الالماني الاستاذ فوغت . فقد عمد هذا البحاثة الى تبين اسرار الهرم والشيخوخة والتعمير في التوائم

فبحث ما استطاع عن توائم كل توأمين منها متشابهان تمام التشابه أي انهما اشتقا من بيضة واحدة فتشابه بناء جسميهما في كل تفصيل دقيق حتى ليتعذر في الغالب على والدتهما ان تفرق احدهما عن الآخر . فعثر بعد السهر والسعي على تسعة عشر زوجاً من التوائم التي من هذا القبيل وكانت اعمارها تختلف من ٥٥ الى ٨١

والاستاذ فوغت مدير عيادة العين في جامعة زوريخ . فكان من الطبيعي ان تتجه عنايته الى فحص عيون التوائم لتبين اثر السنين فيها — في بلورتها ومائيتها وقرنيتها وشبكيتها وسائر اجزائها

وكانت النتيجة التي اسفر عنها بحثه من اعجب ما يكون

فقد ثبت لهُ انهُ مهما يكن الاختلاف في نشأة التوأمين وسواء عاشا معاً في وسط واحد او فصل احدهما عن الآخر فعاشا في وسطين مختلفين فان حالة عينيهما كانت واحدة . اي ان

آثار تقدم العمر كانت واحدة في كل من التوائم التي فحصها فالانحطاط النسيجي في القرنية والشبكية والبلورة والمائية كان واحداً في كل زوج من من التوائم التي فحصها

ولكن التشابه لم يقتصر على العين

بل وجد ان شعر الفروة يسقط في كلا التوأمين في وقت واحد او يشيب في بقعة واحدة

بل انهُ وجد تشابهاً عجيباً في تجعد الجلد وانكماشه وغيره من بوادر الهرم

***

ولا يخفى ان علماء الوراثة قد انفقوا وقتاً طويلاً في درس آفات العين وانتقالها بالوراثة او عدمه فاجتمع لديهم من الادلة ما يدلُّ ان العيون يضعف بصرها في الاسر وفقاً لقاعدة معينة . وقد اثبتت مباحث فوغت صحة هذا الرأي

ويخلص الاستاذ فوغت من المباحث التي تقدم معنا ذكر طرف منها الى النتيجة التالية وهي ان الوسط لا اثر كبير له في موضوع التعمير والشيخوخة وعنده ان مدى حياة الانسان معين من قبل الولادة بعوامل وراثية خاصة وان كل عضو من اعضاء الجسم له مدى خاص من الحياة . وهذا يعني ان التعرض للفواعل الطبيعية لا ينجم عنه امراض او عوارض تقصر مدى الحياة . ولكنه يعني انه اذا عني الانسان بمعيشته الصحية عناية معقولة فليس للوسط الذي يعيش فيه تأثير كبير في طول حياته أو قصرها وهذا يتفق من ناحية ما والى حد ما مع رأي الدكتور ستريتر مدير قسم البيولوجيا الحيوانية في معهد كرنيجي . فهو يقول ان المرض ليس نتيجة مباشرة للجراثيم الضارة فاجسامنا لا تستطيع ان تقاوم هذه الجراثيم مقاومة متساوية وانخذال اجسامنا امام حملاتها او فوزها في رد شرورها يتوقف على نشاط الجملة وعلى قوة النسج الحيوية ونشاطها . وقوة النسج تتوقف على تركيبها وهذا يعود بنا الى البيضة التي نشأت منها . فالتعمير او الموت في شرخ الشباب اذا تساوت جميع العوامل الاخرى يتوقف على ما نرثه من والدينا

هل حقن الاكسجين

ينقذ حياة الغرقى

يؤخذ من مباحث طبيب هندي يدعى الدكتور سنج يقوم بمباحث علمية طبية في جامعة كمبردج احياناً وكلية رانغون الطبيعة احياناً اخرى ان حقن الاكسجين في العروق قد يكون السبيل لانقاذ حياة الغرقى أو المصابين بنوع خاص من النزلة الشعبية او غيرها من الحالات التي يصعب فيها التنفس على المريض

فقد تمكن هذا الطبيب من الاحتفاظ بكلب حيًّا مدة ١٦ دقيقة بحقنه بهذه الحقن مع ان الكلب ظل خلال هذه المدة لا يتنفس الاكسجين عن طريق الرئتين . وكان ضغط الاكسجين المحقون في العروق ثلاثة اجواء ، ولولا خطأ في اسلوب الحقن لاستمرت التجربة اكثر من ١٦ دقيقة . وقد نشرت مجلة اللانست الطبية هذا النبأ وعلقت عليه بمقال افتتاحي

والخطوة التالية هي تطبيق هذه التجربة على الناس

جائزتا نوبل

في الطبيعة والكيمياء لسنة ١٩٣٥

حملت الينا الانباء البرقية ان جائزة نوبل في الطبيعة منحت للعالم الانكليزي الاستاذ شدك — وان جائزة نوبل في الكيمياء منحت للعالم الفرنسي الاستاذ جوليو وقرينته مدام ايرين كوري جوليو وهي ابنة الاستاذ كوري وزوجته اللذين اشتهرا باكتشاف البولونيوم والراديوم

والى القارىء طرفاً من المباحث التي قاموا بها جميعاً فاستحقوا الجائزتين عليها

في اوائل سنة ١٩٣٢ أذيع في انكلترا ان الاستاذ شدك كشف دقيقة مادية جديدة اطلق عليها اسم النوترون وهذا الاكتشاف اقوى دليل على عالمية العلم وشيوعيته . ذلك ان طوائف مختلفة من العلماء في بلدان مختلفة مهدوا بمباحثهم الطريق لكشف النوترون على يدي شدك الانكليزي

ففي سنة ١٩٣٠ كان العالمان الالمانيان بوث وبكر يطلقان دقائق الفا على لوحة من معدن البريليوم . فكانت الدقائق المسددة الى تلك اللوحة تصيب نوى ذرات البريليوم فتطلق هذه من تلقاء نفسها اشعة غريبة شديدة النفوذ فظن انها من قبيل اشعة غما التي تخرج من الراديوم وانما تفوقها طاقة وقدرة على نفاذ المواد .

وفي سنة ١٩٣١ قام الاستاذ جوليو وزوجته كريمة مدام كوري بتجارب من هذا القبيل ولكنها اوسع نطاقاً واضبط احصاءً وادق حساباً

واظهر ما ظهر في هذه التجارب ان الاشعة الخارجة من البريليوم — او ما يحل محله من المواد — اشد طاقة عشرة اضعاف من الاشعة الموجهة اليه . ففرض جوليو وزوجته ان هذه الاشعة امواج تقع بين اشعة غما التي تخرج من الراديوم والاشعة الكونية وهي اقصر الاشعة المعروفة امواجاً واقواها نفاذاً

واطلع شدك على هذه التجارب ونتائجها فاعادها ووجد ان فرض ان هذه الاشعة امواج لا يتفق والنتائج الرياضية ولكن اذا فرض انها تيارات من دقائق وزن كل منها واحد (اي كوزن ذرة الايدروجين) ومتعادلة الكهربائية (اي ان كهربائيتها السالبة تعادل كهربائيتها الموجبة) وتسير بعشر سرعة الضوء كفى ذلك لتفسير الحقائق المشاهدة . ودعا الدقيقة التي تتصف بهذه الاوصاف باسم « النوترون » اي الحايد (من محايدته الكهربائية)

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد ان مباحث جوليو وزوجته التي افضت الى اكتشاف النوترون افضت بهما كذلك الى استنباط طرق جديدة لتوليد اشعة اقوى من اشعة الراديوم وهو ما يعرف في علم الطبيعة الحديث باسم الاشعاع الصناعي Artificial Radio—Activity

علاج الانيميا الخبيثة

يفيد في الجدري

في اواخر السنة الماضية منحت مؤسسة نوبل العلمية جائزة نوبل الطبية لثلاثة اطباء اميركيين هم مينو وهوبل ومرفي لاستنباطهم طريقة معالجة الانيميا الخبيثة بالكبد . وقد فصلنا عملهم في المقتطف والكتاب الجديد الذي اهديناه الى المشتركين بعنوان « اساطين العلم الحديث » وقد اطلعنا الآن في «رسالة العلم الاسبوعية»

على ان حقن خلاصة الكبد في العضلات يوقف سير الجدري ويقصر مدة المرض ويمنع حدوث نفط الجدري الذي يترك الوجه مشوهاً في بعض الاحيان بما يتركه من الندوب ويحسن حالة المريض بوجه عام

وقد اكتشف هذه الحقائق الدكتور رغوفندان نير احد اساتذة كلية فيزغاباتام بمقاطعة مدراس في الهند . فقد جرب الدكتور نير بمساعدة الدكتور اديسو برامانيان احد اطباء مصلحة الصحة حقن خلاصة الكبد في ٢٨ مريضاً في خلال وباء حديث من الجدري تفشى في فيزغاباتام. وقد نشرت نتائج التجارب في المجلة الهندية الطبية. ولكن الدكتور نير صرح بالحذر الذي يتصف بهِ العالم ان النتائج لا يجب ان تؤخذ على انها حقيقة راهنة لقلة عدد المرضى الذين اجريت التجربة عليهم . ويفسر قلة عددهم بان الجدري في الهند يحسب مرضاً مقدساً ولذلك يرفض الاهلون العلاج لانهم يظنون العلاج عقيماً . الاَّ ان النتائج التي اسفرت عنها التجارب تحمل على النشاط في موالاة البحث في هذه الناحية. وكانت الحقن تختلف مقداراً باختلاف عمر المريض ونوع الجدري الذي أصيب بهِ

رسالة من داروِن

الى الدكتور فانديك

قبل وفاة العلامة داروِنْ بستة عشر يوماً بعث برسالة الى الدكتور وليم فانديك نجل العلامة المرحوم الدكتور كرنيليوس فانديك احد الاساتذة الاول في جامعة بيروت الاميركية وصاحب المؤلفات العلمية النفسية باللغة العربية والدكتور وليم الآن استاذ شرف لعلم الحيوان في جامعة بيروت

اما رسالة داروِن الى الدكتور وليم فتاريخها ٣ ابريل سنة ١٨٨٢ وهي في صدد بحث في علم الحيوان كان الدكتور وليم قد بعث بهِ الى العلامة داروِن لاطلاعه عليهِ . وملخص الكتاب انهُ بعد اطلاعه على البحث رأى وجوب نشره وقد بعث بهِ الى مجلة المعهد العلمي مفضلاً نشره فيها على نشره في مجلة نايتشر. ولا يخفى ان طائفة من علماء الانكليز عنوا من سنوات بجعل بيت داروِن في دَوْن متحفاً لآثاره ومخلفاته ودعت جميع الذين يملكون شيئاً من هذه الآثار الى اهدائها الى المتحف. فبعث الدكتور فانديك بهذا الكتاب ليضاف الى غيره من رسائل علامة التطور وآثاره

نقل لاسلكي عجيب

لصورة ملكم كمبل

يعلم القراء ان السر ملكم كمبل بلغ من اشهر بسيارته « الطائر الازرق » سرعة متوسطها ٣٠١ ميل في الساعة على مسافة ميل واحد ذهاباً واياباً وكان ذلك في ولاية يوتاه الاميركية التي تبعد نحو الفي ميل عن مدينة نيويورك . وقد نقلت صورته وهو ماض بهذه السرعة باسلوب النقل اللاسلكي الى لندن عن طريق نيويورك ولكن جهازاً خاصًّا في نيويورك تمكن من التقاط الصورة وهي في طريقها الى لندن . فكأن نيويورك ولندن تلقتا هذه الصورة في وقت واحد من مصدر واحد وباشارات لاسلكية واحدة . وكانت الصورتان واضحتين كل الوضوح

الجزء الخامس من المجلد السابع والثمانين

٥٢٥ ذَرْعُ الفضاء
٥٣٠ معجم الاستاذ فِشر : للدكتور بشر فارس
٥٣٣ المال عند الاقدمين وعندنا : لامين الريحاني
٥٤٠ حالتان للنفس (قصيدة) : لعبد الرحمن شكري
٥٤١ التجارة الاسلامية وأثرها في الحضارة : للدكتور قسطنطين زريق
٥٤٩ مطاط من غاز
٥٥٤ الدوّامة الكونية (مصورة)
٥٥٨ الفيلسوف لوك وأثره في تطور فن التربية : لحسن كامل
٥٦٥ وقفة امام « ابي الهول » : لراجي الراعي
٥٦٨ موقعة نافارين البحرية : للدكتور علي مظهر (مصورة)
٥٧٦ بيير لوتي على شواطيء البوسفور : ليوسف البعيني
٥٨٠ الاغراق في الثورات : لسليم خياطه
٥٨٧ ألفاظ الآلات الزراعية : للامير مصطفى الشهابي
٥٨٩ مفردات النبات بين اللغة والاستعمال : لمحمود مصطفى الدمياطي
٥٩٤ المتنبي (قصيدة) : للشاعر القروي
٥٩٧ مصلحة الآثار المصرية ودار الآثار المصرية (مصورة) : للدكتور حسن كمال
٦٠١ رسالة « السيرة الفلسفية » للرازي . لاحمد فؤاد الاهواني
٦٠٥ سير الزمان * الدين والنهضة الاخلاقية الحديثة : للدكتور عبد الرحمن شهبندر . العقوبات الدولية (الادبية والمالية والاقتصادية)
٦٢٥ حديقة المقتطف * الحرب القادمة : لاوزبرت ستولِ . القارورة اليونانية : للشاعر الانجليزي جون كيتس : ترجمها خليل هنداوي

٦٢٩ باب الزراعة والاقتصاد * صوامع الغلال . جهاز الراليفان
٦٣٣ باب المراسلة والمناظرة * في همزة ابن . تصحيح خطأ . الجامع المختصر
٦٣٦ مكتبة المقتطف *
٦٤٨ باب الاخبار العلمية *

